الوحيد

في سلوك أهل التوحيد

العلامة الحافظ المجاهد الإمام
عبد الغفار بن أحمد المشهور بابن نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الأول من الوحيد

الحمد لله الذي أوضح الطريق لسلوك عباده إليه، وفتح بابَ دعوتِه لدخول أوليائه عليه، واختصّهم لحضرته، فمِن مُجالسٍ ومُؤانسٍ وقائمٍ بين يديه، كلُّ ذلك ضربًا للأمثال ليفهموا، ولا يصل الفهم ولا العقل إليه، تعرّف لهم، فبه عرفوه، وَوَصَف لهم ذاته العليَّة، فبالوصف الذي وصفها لهم به وصفوه، وطهّر قلوبهم من الأغيار فما أَنِسوا بغيره ولا أَلَفُوه، وخرق أسماعَ قلوبهم خطابُه فأسكرهم بلذيذ ذلك الخطاب، وتجلَّت لهم صفاتُ جماله فذهلت منهم العقولُ وطاشت منهم الألباب، وأسطلَهم الدَهَشُ فحاروا وعجزوا عن ردِّ الجواب، فلولا ثبّتهم في ذلك المقام وردّهم بعد الصحو والاصطلام فلاطفهم بلطائف ذلك الكلام لصار بناؤهم إلى الإنهدام، واندرست تلك الرسوم والأعلام، ولسارع على وجودهم الاضمحلال والانعدام.

أحمده وهو الحامد لنفسه على الكمال والتمام، وأشكره وبشكره يجب الشكر ويزيد الإنعام.

وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً خالصةً مخلصةً مستمرةً على الدوام، وأشهد أن سيّدنا محمدًا عبدُه ورسوله المبعوث إلى سائر الأنام المفرّق ما بين الحلال والحرام والناسخ بشرعته جميع الشرائع والأحكام، صلّى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أفضل صلاة وأفضل سلام.

أمَّا بعد ...

سبب تأليف الكتاب

فإنَّه سألني وليٌّ كريم وصديق حميم بثغر الإسكندرية في العشر الأوائل من ربيع الأولى سنة ثمان وسبعمائةٍ للهجرة النبوية أنْ أجمع له مجموعةً تشتمل على حكاياتِ مَنْ صحبته، وأخبارَ مَنْ رأيته، وما أخبروني به عن أنفسهم، وما حكوه لي عن غيرهم من الأولياء والصالحين والفقراء والسالكين والعلماء والعارفين وأرباب الأحوال

والواجدين، وسالكي طريق الورع والنزاهة والعبّاد والمتوّجهين وأهل الاطلاع والمكاشَفِين، وما بلغني عن الأقطاب والأبدال والأوتاد والأميين في كل إقليم من البلاد والخليفة والإمام والمستخلف في كل مقام، وما أخبروا به عن أنفسهم، وما حكوه لي عن غيرهم، ومن تعدى هذه الأطوار وفات الليل والنهار، وما حقيقة التصريف والتعرّف والتعريف؟ ليكون إلى جناب الله مشوّقًا وللسالكين مطرقًا وللعارفين مثبّتًا ومحقّقًا.

وخشيت على اندراس هذا الطريق وغيره على أهل التحقيق، وألاّ يزعم الذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا أن ذلك ما كان أو ما وقع في زمان، أو يعتقد أرباب العلوم الكائنة في الكتب أنّ ذلك كان شيئًا ومضى، أو كبرقٍ لاح وطار ومضى، فهو يحدّس بفكره ويقيس ويغيب عن النفيس برؤية الخسيس، فلا يعرف إلا ما يراه من ملبسه من جنسه، ويقيس بيومه على ما مضى من أمسه، ويضرب الأمثال على أنواع المحال، ويعرض عن الحق بما حلا له من الباطل ولا يرجع فيه إلى عاجل ولا آجل فتراه من سُوءِ الظن يحول ويترنَّم ويقول:

أَمَّـــا الْخِيَـــامُ فَإِنَّهَـــا كخِيَـــامِهِمْ   وَأَرَى نِسَـــاءَ الْحَـــيِّ غَيْـــرَ نِسَـــائِهَا

هذا وإن كان صدق فيما قاله القائل فإنها كلمة حق أريد بها باطل.

خرقة السادة الصوفية

هذا وإن كانت الخرقة الشريفة قد كثر من المتشبهة والكذبة عليها والجهالة من العباد، وسرى ذلك في كثير من البلاد، وقام لهم الشيطان إمامًا وتعلق في مراياهم أحلامًا فبعضهم يحض عليه ويتولاه، وبعضهم يدفعه عن تبعيته ولا يرضاه؛ لأنه قد أعرض عن الرّحمن ونسي قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ**﴾ [يس: ٦٠].

وقد جعلوا حظهم في هذه الطريقة ألوان اللباس وألوان الطعام، وقنعوا من الأسرار الإلهية والمنازلات الربانية بالبقبقة والتشدق في الكلام، يتبعهم على ذلك الجُهّال من العوام وأرباب الشهوات وأكلة الحرام؛ لأن النفوس محبوسة عن شهواتها ولذاتها بسيوف

الشرائع الظاهرة بالتقوى، وممنوعة عن شرِّها وحظوظها بما حدّه الله تعالى من الحدود، وترك الهوى بسيوف الخوف حتى يقود إلى التقوى، فإذا وجدتْ مساعدًا لها على خلاصها من حبسها وإطلاقها في الإباحة لملاذّها وأنسها خرقت سياج شرعها، وأفلتت من شباك زيغها، ولم تراع حق ربها، وزعمت أن هؤلاء هم أفضل الخلق أقوالاً وأعمالاً، وأنهم الأقرب إلى الله تعالى فغيّروا أعلام الطريق، واشتبه على العامة معرفة الزنديق من الصديق فعبّرت عن ذلك مطلقًا قلت فيه محققًا كما قيل عمّن تقدم:

وَتَغَيَّـرَتْ صِـفَةُ الْغُـوَيْرُ فَمَـاْ الْغُـوَيْرُ كَمَـا الْغُوَيْرُ وَ لا التُّقَـى ذَاْكَ التُّقَـى

السلوك الصحيح

لكن ليس برؤية المستحيل يستحيل الواجب، ولا بوجود الباطل يكون الحق ذاهبًا، فالشمس لا تتغير بما يسترها من السحاب، ولا يُذهب الأُسد عويلُ الذئاب، فإنّ الأولياء بحمد الله تعالى في زماننا هذا كثير، وأهل الطريق من كل نوع في السلوك إلى الله تعالى جمع كبير لا يعلمهم إلا الذي خلقهم: ﴿**أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ**﴾ [الملك: ١٤].

لا تقف يا وليّ مع الأوهام، ولا بقول من قال بسوء الظن بالطائفة ذاك الكلام، فإن جعل الجميع في سوء الظن واحد، وسوء ظنه في الحقيقة عليه عائد؛ لأنه هو الشاهد لصورته في المرآة والمحبوس في سوره فلا يتعداه، فتراه يميل إلى هواه ويرفض ما سواه، ومن جهل شيئًا عاداه، ولست لذلك أهلاً ولا إلى ما حملني مستقلاً لأنّ الأمر عظيم والخطب جسيم وجناب الله تعالى منيع وشأنه عزيز وحرزه حريز.

كيف واختلاف الطريق بحسب السالكين، والمطلوب بحسب استعداد الطالبين؟ فهم وإن اختلفت طرائقهم فبحسب أنواعهم وأجناسهم، فاختلافهم بحسب نصيبهم من آثار الصفات، ونصيبهم بحسب قسمتهم من الميراث والمطلوب واحد، ولا تقبل الوحدة الناقص ولا الزائد، فكيف لي بإجابتك أيُّها السائل؟

مع حجاب الشواغل وتكدر الخواطر وظلمة الباطن والظاهر؟

فنسأل الله العظيم أن يعينني بعنايته ويخصّني بكرامته ويسعدني بولايته ويجعلني له حبيبًا حتى أكون له مجيبًا فلقد هيجت مني ساكنًا وأثرت عندي كامنًا.

هَيَّجْتَ يَاْ سَعْدُ مِنِّيْ الشَّوْقَ نَحْوَهُمُ وَزِدْتَ نَـاْرَ الأسـى فِيْ بَـاْطِنِيْ عَجَبَـا

فَلَـوْ عَلَـى الْجَفْـنِ مِـنِّيْ زُرْتُ رَبْعَهُـمُ لَمْ أَقْضِ مِنْ حَقِّهِمْ بَعْضَ الَّذِى وَجَبَا

لكِـنْ كَيْـفَ لِمَقْصُوْصِ الْجَنَاحِ بِـالطَّيَرَانِ وَلِمَـنْ عَمَـى بَصَـرُهُ بِرُؤْيَـةِ الأَلْـوَانِ مُتَّبَعَـا@

فقد ثار حزني وطار أمني وتخلى صديقي عني.

كفَـى حُزْنًـا أَلاّ صَـدِيْقَ وَأَنَّـنَي فَرِيْـدٌ بِـلاَ عَـيْشٍ يَسُـرُّ وَلا نُسُـكِ

كَـأَنِّيْ نَضَـارٌ ظَنَّـهُ الـدَّهْرُ بُهْرُجَـاً فَأَلْقَـاهُ فِي نَـارٍ لِـيَخْلُصَ بِالسَّـبْكِ

كَرِهْـتُ حَيَـاتِي وَاسْـتَطَبْتُ مَنِيَّـتِي إِذَا ضَحِكَتْ سِنِّيْ فَقَلْبِي دَمًا يَبْكِي

وإني وإن كنت على أشنع مما وصفت، ويعلم الله تعالى مني فوق ما علمت وعرفت لأنازع نفسي التوبةَ، وأسأل الله تعالى رفعَ الحوبة، وأجنح إلى المتاب، وأرجو منه حسنَ المآب وإرادف الزفرات على زمان فات، وإن لم أكن من ذلك القبيل ولا مستحقًّا لقالٍ فيه ولا قيل، تنازعني الأشواقُ وتغالبني الأتواقُ وأقول كما قيل:

سَـقَى اللهُ رَبْعًـا فِيـهِ سَـلْمَى مُحِلَّـةٌ مِـنَ الـدِّيَمِ مَـاْ يَهْمِـي بِـهِ وَيَبْسُـمُ

وَإِنْ لَمْ أَكُـنْ مِـنْ سَـاكِنِيهِ فَإِنَّـهُ يَحِـلُّ بِـهِ شَـخْصٌ عَلَـيَّ كَـرِيمُ

فقد أوضحت لك بعض ما عندي، وبيَّنت لك نحسي من سعدي، لأوضح لك بذلك أعذارًا وأقدم لك فيه إنذارًا فإن وقع الخطأ فهو مني، فاسئل الله تعالى لي الإقالة، وإن وقع الصواب فهو من فضل الله تعالى فاسئله لي الإنالة، وكيف لا يقع الخطأ والخطأ واقع؟

مَـنْ ذَاْ الَّـذِيْ مَـاْ سَـاءَ قَـطُّ وَمَـنْ لَـهُ الحُسْـنَى فَقَـطْ

وقد استخرت الله تعالى واستعنته وتبت إليه واستغفرته واستعفيته من قلبٍ قاس وجفنٍ جامد وكمدٍ متزايد، فكيف لي بتحقيق الأطماع مع وجود هذه الأوجاع؟

تَقُـولُ نِسَـاءُ الحَيِّ تَطْمَـعُ أَنْ تَـرَي مَحَاسِـنَ لَيْلَـىْ مُـتْ بِـدَاءِ الْمَطَـامِعِ

وَكَيْفَ تَرَىْ لَيْلَىْ بِعَيْنٍ تَرَى بِهَا سِوَاْهَاْ وَمَاْ طَهَّرْتَهَا بِالْمَدَاْمِعِ
وَتَلْتَذُّ مِنْهَا بِالْحَدِيثِ وَقَدْ جَرَى حَدِيْثُ سِوَاْهَاْ فِيْ خُرُوقِ الْمَسَامِعِ

لكن تتوب إلى الله تعالى من ذلك فإنَّ تأخير التوبة من الذنب ذنبٌ ثاني، وقد ورد: «**سيروا إلى الله تعالى عرجاً ومكاسير**[1]»، فلا عذر حينئذ في التأخير.

فَسِرْ زَمَنَاً وَانْهَضْ كَسِيْراً فَحَظُّكَ الْبَطَاْلَةُ مَاْ أَخَّرْتَ عَزْمًا لِصِحَةٍ

وقد ابتدأت بحول الله تعالى وقوّته بعد حمده واستعانته في ذكر ما اعتقده، وما كان عليه مَنْ صحبته وعرفته وسمعته، وعمّن سمعته منه وحكيته من صحة المعتقدات وحسن الاتباع وظهور الكرامات، وما كان عليه السلف والخلف آخذاً عن كتاب الله تعالى وتابعاً لسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم، وإيماناً بالله وبما جاء به سيُّدنا محمد ﷺ من عند الله تعالى.

فنحن نشهد ألاّ إله إلا الله، ونشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلِّه ولو كره المشركون.

ونشهد أنَّ الموت حقٌّ ومنكر ونكير حقٌّ، وكلُّ ما أتى به سيُّدنا محمد ﷺ حقٌّ والأنبياء حقٌّ، وأنَّ الصراط والميزان حقٌّ والجنة حقٌّ والنار حقٌّ وأنَّ الساعة آتيةٌ لا ريب فيها وأنَّ الله يبعث مَنْ في القبور، وكلُّ ما ورد به القرآن من الحساب والعقاب والسيئات والثواب حقٌّ.

وأن الله تعالى خالق كلِّ شيء لا يشبهه شيءٌ ولا يشبه شيئًا ولا حلَّ في شيءٍ ولا كمثله شيءٌ ولا هو مثل شيءٍ، وأنه على كلِّ شيءٍ قدير وهو السميع البصير، نموت ونحيا على ذلك، وهذا كان معتقدهم لا يتكلمون في غير ذلك.

التوبــة

ولنذكر فصلاً مقدماً في التوبة إذ هي أوَّل السلوك إلى الله تعالى، قال الله تعالى ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [النور: ٣١].

وأثنى على التائبين في غير ما موضعٍ من القرآن العزيز فقال: ﴿**التَّائِبُونَ العَابِدُونَ**

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/٤٢٢).

الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وذمَّ مَنْ ترك التوبة فقال: ﴿**وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [الحجرات: ١١].

وورد في الحديث: «**الإسلام يجبُّ ما قبله، والتوبة تجبُّ ما قبلها، والحجُّ يجبُّ ما قبله**[١]»، فليبدأ بالتوبة تطهيراً من الذنوب وتشريفاً للألسنة والقلوب، وتنزيهاً عن الشوائب والعيوب، وتقديماً لذكر المحبِّ والمحبوب؛ إذ التوبة أوَّل كلِّ مقام وآخرُ كلِّ مقام وشاملةٌ لكل مقام ومشاركةٌ في كلِّ مقام على الاستمرار والدوام.

يستوي فيها السائر والواقف والآمن والخائف والسالك والعارف، في نفس التوبة لا في مراتب التوبة؛ إذ توبة كلِّ واحدٍ بحسب حاله، فإنَّ حسنات قومٍ سيئاتُ قومٍ آخرين.

وقد تكون التوبةُ عن التوبة توبةً، وقد يؤاخذ بعضهم باللفتة والخطرة بحسب علوّ مقامه، ويأتي غيره بالعظائم فلا يؤثِّر فيه.

إِذَا مَا سُمِّيَ الأَوَّابُ حَالٌ وَهِمَّةٌ ... إِلَى المَلأِ الأَعْلَى وَأَثْبَتَهُ النَّصُّ

هُنَالِكَ يَخَافُ الْغَيْرُ طَمْسَاً لأَنَّهُ ... صَغِيْرٌ بِهِ مَحْوٌ وَهَفْوَتُهُ نَقْصٌ

ومن ذلك استغفارُ الأنبياء والرُّسل -صلوات الله تعالى عليهم وسلامه- إذ لا يصحُّ عندي أن يكون عن ذنب،لأنَّ الأنبياء والرُّسل -صلوات الله تعالى عليهم وسلامه- حجُّة الله تعالى على عباده، قال الله تعالى: ﴿**لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾ [النساء: ١٦٥].

فكيف يصحُّ النقص في حجّة الله تعالى والحجّة بحسب المحتجِّ بها والرسول على قدر مرسلهُ، كان رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّه ليُغانُ عَلَى قَلْبي فأَسْتَغْفِرُ الله تَعَالى فِي اليَومِ وَالليلةِ سَبْعِينَ مرَّةً**[٢]».

---

(١) رواه أحمد في المسند (٤/٢٠٥)، وذكره ابن كثير (٢/٣٠٩)، والقرطبي (٨/٨٤) بنحوه.
(٢) رواه أحمد في مسنده (٤/٢١١)

وقد يكون الاستغفار أكثر من ذلك وإنما السبعون جاريةٌ في كلام العرب كثير، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ**﴾ [التوبة: ٨٠].

وهذا لا يقتضي الوقوف على السبعين؛ إذ لو استغفر لهم أكثر من السبعين لم تقع المغفرة، وكذلك في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ**﴾ [الحاقة: ٣٢].

فلم يقتصر رسول الله ﷺ على ذكر السبعين إلا لهذا المعنى، وهو يستغفر على الدوام ﷺ.

واختلف العلماء في استغفاره ﷺ فمن قائل كان يرقى مقاماً بعد مقامٍ فيستغفر من الأوَّل، وذلك عندهم مستحسن بخلاف غيره، ولم أجده عندي كذلك؛ إذ لم يكن استغفاره عن أمّته، وكان استغفاره خصيصاً بنفسه، فإنَّ رسول الله ﷺ كان في كلِّ مقامٍ على أكمل الأحوال بالأخذ عن ربه، فلا ينطق عن الهوى

﴿**إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يُوحَى**﴾ [النجم: ٤].

فكان في المقامات بالله تعالى لا بنفسه، وكيف يصحُّ أن يكون مقامٌ ناقصاً إلى ما هو أعلى منه في مثل هذا الحال إذا كان مشاهداً لفيض الإلهية ومحل الربوبية؟ فإن كان ارتقاء الرُّتب المعنوية لا يصحُّ فيه الصعود والهبوط وإنما ذلك بحسب الشخص، ويصحُّ العلوّ والنزول في التابع، فإنَّ المتبوعَ مشرعٌ له ومتنزلٌ من علوّ مرتبته إلى أدنى رتب التابعين، كالقارئ للقرآن الحافظ له المعلم للأطفال فإنه مع حفظه للقرآن يبتدئ مع المبتدئ في القراءة وينزل إلى رتبته.

وقد توضأ رسول الله ﷺ مرّةً مرّةً وقال: «**هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به**»[١]، و«**توضأ مرّتين مرّتين**»[٢] وقال فيهما ما قال من الأجر مرتين، و«**توضأ ثلاثًا ثلاثًا**»[٣]. وقال: هذا وضوئي ووضوء الأنبياء من قبلي.

---

(١) رواه البخاري (٦/٢٥٥١).
(٢) رواه البخاري (١/٧٠).
(٣) رواه البخاري (١/٧٠).

فمن قال: إنَّ رسول الله ﷺ حين توضّأ مرة واحدة وقال: هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به، ثم توضأ مرتين مرتين.

وقال في الثالثة: «**هذا وضوئي ووضوء الأنبياء من قبلي**(١)».

فمن قال في حقه ﷺ أنَّه كان في الثالثة: أكمل منه في الأولى:، وأنَّ الأولى: ناقصة بالنسبة إلى الثالثة: فقد كفر؛ لأنَّه ﷺ إنَّما تنزَّل من الثلاثة إلى الواحدة للتعليم، وقد تنزَّل معلم القرآن إلى مراتب الصبيان للتعليم، فيقرأ أوَّل سورة للقرآن وهو حافظ لجميعه فلا يكون ذلك للنقص بل للكمال، وذلك من أعلى مقامات الكمال ولم يكن فيه نقصٌ بالنّسبة إليه فإنَّه ﷺ كان يتنزَّل للتعليم ويتكلم للتفهيم.

والذي أراه من ذلك أنَّ رسول الله ﷺ كان في كلِّ زمن فرداً مترقياً لقوله تعالى: ﴿**وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً**﴾ [طه: ١١٤]، والحديث: «**لا بُورِكَ لي في صبيحةِ يومٍ لا أزدادُ فيه علماً**(٢)».

فلما ترقَّي إلى مقامٍ شهد فيه من فضل الله تعالى عليه ما يعجز البشر عن القيام بحقِّ الله تعالى فيه وشكرٍ لنِعَمِه عليه لقوله تعالى: ﴿**وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً**﴾ [النساء: ١١٣].

وقوله تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ [الأنعام:٩١].

فكان ﷺ يرى نفسه مقصراً مع كماله، ومن كماله أن يرى نفسه مقصراً عن أداء ما يجب لله عَزَّ وَجَلَّ عليه في ذلك، فيستغفر الله تعالى ذلك الاستغفار في اليوم والليلة ﷺ.

التّوبة في حقِّ العموم

وأما التّوبة في حقِّ العموم فلا تصحُّ إلا بالانخلاع عن جميع الذنوب،كبيرها وصغيرها جليلها وحقيرها أولها وآخرها.

وشروطها الظاهرة وهو الانخلاع عن الذنب أولاً قولاً وفعلاً ظاهرًا وباطنًا، والندم الملازم للقلب ثانياً حتى يحرق نيرانُ الخوف كبدَهم، ويظهر ذلك على جوارحهم من البكاء والنحول والذبول والأسف واللهف وقطع علائق القلب بالمنى، وبالعزم الجازم ألاّ

---

(١) رواه أحمد في المسند (٩٨/٢).

(٢) رواه إسحاق بن راهويه في مسنده (٥٥٣/٢)، والطبراني في الأوسط (٣٦٧/٦).

يعود أبداً حتى يذهل ذلك العزم عقله، ويقطع نياط قلبه الخجلُ مما وقع فيه واطِّلاع الله تعالى عليه، ويجد لذلك ذوقاً ويظهر أثر ذلك عليه، فهذه توبةُ العامة، وأمَّا توبةُ الخاصَّة فهو نوع مما ذكرناه أولاً من الاستغفار المذكور.

التّوبة النصُوح[١]

وأمَّا التوبة النصوح فإنَّها أخصُّ من ذلك، قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً**﴾ [التحريم:٨].

وهي تكفر السيئات وتبدّلها بالحسنات، وهي تغيِّب التائب عن الخواطر التي تحصل في نفس المتردد، فلا يصحُّ مع التردد إلا حظٌّ جواز الوقوع في الذنب في حالة التوبة، والتوبة النصوح تغيِّبه عن ذلك كله.

وأعرف فقيراً وجد ذلك، وذلك أنه حين وقع في الذنب كان كالغائب عمَّا وقع فيه، فأذهله ذلك وطاش عقله وسُلِبَ لُبَّهُ، وفزع إلى الله تعالى فزعةً استخرجت من قلبه الذنب وأنسته الوقوع فيه حتى رجع إلى الله تعالى بالأُنس به، فإنَّ الخوف إذا اشتدَّ استوحش الخائف، كالقدوم على الملك مع الخوف منه.

ولذلك لما دخل الجنيد على السّريِّ -رضي الله عنهما-[٢] فوجد عنده فكر، فقال: ما بالك يا أستاذ؟ فقال: دخل علي شاب آنفًا فقال ما التوبة؟ فقلت: ألاّ

---

(١)قال الشيخ ابن سبعين-قدس سره- التوبة: هي الرجوع لغةً، وهي الندم على المعصية وتركها، والعزم على عدم الرجوع إليها شرعًا، ونقول: التوبة: هي رجوع التائب عن المعصية بأمر آمر يحكمه إلى رجوعه، ويخوفه ويرغبه، ويترك ما هو عليه؛ لأجل ما نهي عنه، ولأجل ما هو ترك له، ويرجع إلى ما أمر به، وهذا القسم ذكره سيدنا ﷺ في: «الرضوانية»، ونقول: التوبة: هي غسل الإشابة الواقعة في المحل الظاهر، ونقول: التوبة: هي انصراف العبد إلى ربه، ورجوعه إليه بالقوى الجسمانية والروحانية منه، ومشيه على القانون الشرعي صحبة العلم والعمل.

ونقول: التوبة: هي خروج العبد من اختياره وصفاته القائمة به، وأخذه اختيار الشرع وتصرفه به، وتوسط أقواله وأفعاله، وجملته بين الأمر والنهي، ونقول: التوبة: هي الخروج عن الهوية العرضية، والأخلاق السيئة، والدخول في الآنية الذاتية، والتجوهر بالأسماء الرحمانية. وانظر: رسائل ابن سبعين (١٧٠)، .

(٢) انظر في ترجمة ومعرفة مناقب وأخبار كلا من سيدنا الجنيد وخاله سيدنا السري، كتابنا: الإمام الجنيد سيد الطائفتين —طبع العلمية بيروت- وكتاب روضة الحبور لابن الأطعاني- ، طبع دارة الكرز —مصر.

تنسى ذنبك، فردَّ علي وقال لي: بل التوبة أن تنسى ذنبك، فقال الجنيد: الصواب ما قال الشاب(١).

فإن ذِكر الجفا مع الصفا جفا، وكلُّ واحد منهما قال الحقَّ غير أنَّهما متفاوتين في درجات التائبين، فإنَّ الذي يكون في رتبة العوام إذا زايله الخوف رجعت نفسه إلى عادتها وارتكبت المحارم، فإذا كان الذنب بين عينيه والخوف ملازم لقلبه وهو يشاهد ما يواعده الله عليه، هربت نفسه من الذنوب.

وليس كذلك من كان له أُنس مع الله تعالى، وترقَّى في درجات الكمال وشهود صفات الجمال، فإنَّه متى اشتدَّ خوفه قطعه عن السير إلى الله تعالى ثم ردَّ المظالم إلى أهلها من مال وعرض ويحاسب نفسه قبل الحساب ويتخلص من غرمائه قبل يوم المآب، فإنَّ ساعة توبته هي ساعة عرضه على الله تعالى، فلا يترك ذرةً إلا ويتخلص منها، قال الله تعالى: ﴿**وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ**﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ولقد كان نجم الدين بن القرطبي والياً ببلاد قوص، فلمَّا تجرَّد وتاب إلى الله تعالى جعل في عنقه سَلبة، وقاد نفسه إلى غرمائه في البلاد والأسواق وتخلَّص من غرمائه وحللوه.

وبلغني أنَّ أحد الصالحين كانت عنده إبرة فمشى إلى بلادٍ بعيدةٍ حتى ردَّها إلى مالكها.. فهذه وأمثالها سيَّان، وليس المراد استقصاء هذا الفصل في التوبة إذ الوقت يضيق بخفايا النفوس الباطنة، وما يجب على كلِّ تائب بحسب حاله ومقامه وطوره وأفقه، وفيما ذكرناه كفاية لمن كان قصده وجه الله تعالى.

الإيمان بالكرامة واجب(٢)

وأمَّا الإيمان بكرامات هذه الطائفة فهو إيمانٌ بالغيب وهو واجب؛ لأنَّ الإيمان بالرُّسل وبما جاءوا به واجب، وقد جاءت الرُّسل بما وراء العقول، وقد أثنى الله تعالى

(١) انظر: كتابنا في الجنيد (ص٨).

(٢) للاستفاضة في مسألة كرامات الأولياء وما يتعلق بها، انظر كتابنا: «جمع المقال في إثبات كرامات الأولياء في الحياة وبعد الانتقال».

على المؤمنين بالغيب فقال تعالى: ﴿**ألم * ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ *الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [البقرة: ١-٥].

فانظر إلى هذا الوصف الذي وصفهم الله تعالى به، والحديث في الشاة التي وجدت مع الذئب فانْتُزِعَتْ منه فقال الذئب: مَنْ لها يوم السَّبُعِ؟ يومَ لا راعي لها غيري، فقالوا: لا إله إلا الله، ذئب يتكلم؟ فقال رسول الله ﷺ: آمنت بذلك وآمن به أبو بكر وعمر، فأخبر عنهما بالإيمان بذلك ولم يكونا حَاضِرَيْن(١).

ووجه الاستشهاد أنَّ رسول الله ﷺ قال آمنت بذلك، وهو أمر مغيبٌ جرى في زمن بني إسرائيل.

وحديث السيدة خديجة -رضي الله عنها- زوج النبي ﷺ وكونها فُضِّلَتْ على غيرها بإيمانها بالغيب، وهو أنَّ رسول الله ﷺ دخل عليها فوجدها تبكي فقال: «لها ما يبكيك»؟ قالت: يا رسول الله، إني افتكرت القاسم فدرّت ثدياي، فبكيت كوني لم أكمل رضاعه، فلو أكملت رضاعه لكان أخفُّ وأهون عليَّ، فقال لها رسول الله ﷺ: «إنَّ له لمرضعات في الجنة»، فقالت له: لو علمت أو تحققت لهان عليَّ -أو كلمة هذا معناها- فقال رسول الله ﷺ: «أتريدين أن أُسْمِعَكِ صوته في الجنة؟» قالت: لا، وآمنت بالله ورسوله(٢).

فانظر إلى هذا الإيمان الصحيح، كيف استوى عندها الغيب والشهادة بالحسِّ بل قدَّمت الإيمان بالغيب على الشهادة بالحسِّ، لا جرم أنَّ الله تعالى سلَّم عليها لقوله ﷺ: يا خديجة هذا جبريل يُقرؤُك عن ربِّك السلام، ويبشِّرك ببيت في الجنة من قصب،

(١) رواه البخاري (٣/٨١٨)، وأحمد (٢/٣٨٢)، وابن حبان في الصحيح (١٤/٤٠٥)، بنحوه.
قلت: وفيه دلالة على أن المنكرين لذلك من أهل الزَّيغ والضلال؛ لعدم إيمانهم بما آمن به ﷺ وأبو بكر وعمر؛ لأن الإنكار مع صحة الحديث إما ردٌّ وإما تكذيبٌ، وناهيك بها زلة في المهالك، والله تعالى هو العاصم من ذلك.

(٢) رواه مسلم (٤/١٨٠٨)، وابن ماجه (١/٤٨٤)، .

لا صخب فيه ولا نصب.

ولأنَّ الشرائع تأتي بما وراء العقول، والوحيُ يأتي بالغيبيّات، وكذلك قِسَمِ الميراث وعدد ركعات الصلوات والطواف بالبيت وتقبيل الحجر الأسود وإخبار النبي ﷺ بالنساء الكاسيات العاريات من ذلك الزمان، وكذلك عمّا وقع في طول مدة الحياة، وما بعد الممات، وما يؤول إليه الحال والاستقرار في النيران والجنان، وما نطق به القرآن العظيم من أنواع المحاسبات والجزاء على الحسنات والسيئات من النعيم واللذات أو الجحيم والعقوبات، وهذا كلُّه غيبٌ يجب الإيمان به والدخول تحت حكمه وامتثال أمره واجتناب نهيه.

وللوليِّ حصته من ميراث رسول الله ﷺ على قدر تبعيّته ونصيبه وقسمته من الأقوال والأفعال والتجليات والأحوال والوجدان والعرفان إذ العلماء ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا يصحُّ ميراثُ الأنبياء من الأموال فإنه ﷺ قال: **«نَحْنُ مَعَاشِرُ الأَنْبِياء لا نُوَرَّثُ، مَا تركْنَاهُ صدقة**[1]**»** فلزم أن يكون الميراث فيما تقدَّم ذكره من أقواله وأفعاله وأحواله ومكاشفاته وتجلياته ووجدانه لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر:٢٨].

فحيث وُجِدت الخشيةُ أُطْلِق هذا الاسم وإلا فلا، ولذلك استحق هذا الاسم أهلُ العلم بالله تعالى لوجود الخشية فيهم، وعدمها من غيرهم ممن يَقْصِدُ التَّقدمَ على الأقران والارتفاعَ في المجالس والتكالبَ على الدنيا وأخذَ الخطام من غير وجهه والمنازعةَ لغيره في المناصب الدنيوية والمخاصمةَ على العلوّ في المجالس وترويجَ الكلام على من يقول الحقَّ في جواب المسألة، خشيةَ أنْ يتقدّم عليه، فهذا كلُّه يزيل الخشيَة، بل العلم ضد ذلك كلِّه، ألا ترى قوله تعالى: ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُواً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [القصص:٨٣].

ونحن نسأل الله العظيم التوبة مِن ذلك، فإنَّا والله لا نُريد الفساد في الأرض ولا نريد الإهانة فيها فإنْ كان ذلك هو العلوَّ فقد خسرنا، ونسأل الله تعالى الإقالة بمنِّه

---

(١) رواه البخاري (١٤٨٠/٤)، ومسلم (١٣٨٠/٣).

وكَرمه، وفيما وصف الله تعالى المؤمنين بالغيب وأخبر عنه نبيُّه ﷺ كفاية لمن كان له قلب.

الجَنين والأسَـد

وقد أخبرني السّيد الشريف عبد العزيز المنوفي- رحمه الله تعالى-(١) قال: كان فقيرٌ -ولم يسمّه- خرج قاصدًا إلى الشام ومعه زوجتُه وهي حامل ومعه حمار عليه حوائجهم فخرج عليهم الأسد فقال لزوجه: إنْ تقدّم أحدُنا أخذه الأسد -أو افترسه أو أكله أو كلمة هذا معناها-، وإنْ قدّمنا الحمار فهو رفيقنا وننقطع عنه، وكان قد جاء قطّاع الطريق من خلفهم ولم يجدوا لهم مُخلّصًا، وإذا بصرخةٍ وقعت فولّى الأسد هاربًا، وولّى قطّاع الطريق هاربين، ثم توجه الفقير، ومات بعد ذلك.

وولدت زوجته ولدًا ذكرًا، وصار فقيرًا، وبقي بعد ثلاثين سنة، فسافر هو ووالدته، فلمّا وصلوا إلى المكان الذي كان الأسد والقطّاع خرجوا على أبيه فيه، وكانت هناك شجرة بَقِي أصلها، فقال لوالدته: تَعْرفي ما اتفق لك ولوالدي هاهنا؟ فقالت: لا، فقال: تذكري فتذكّرتْ، فقالت: كنتُ حاملاً بك وكان معنا حمار، فخرج علينا الأسد والقطاع، وبقينا في شدة وإذا بصرخة عظيمة فولّى الأسد هاربًا والقطاع هاربين، فقال لها: تعرفي مَن الذي صرخ؟ قالت: لا، قال لها: والله أنا الذي صرخت في بطنك.

ومثل ذلك كثير، وإنَّما نذكرها في موضعها إنْ شاء الله تعالى.

أعاجيب الزَّمان

ومِمَّا حُكِي عن شيخ الشيوخ ابن مسكين ببغداد، كان خادمه أخذ سجَّاداتِ الفقراءِ وخرج يوم الجمعة ليفرشها لهم، فنزلَ ليتطهرَ في الشط فطلع بمصر فمشى فوجد رجلاً صبَّاغًا وكان يدري صناعة الصباغة، فاستعمله فيها مدّة وزوّجه بابنتِه وقام معها سبع سنين، وولد منها أولادًا ثم نزل في يوم جمعة ليغتسل في بحر النيل فطلع ببغداد.

---

(١) قال الصفدي: هو عبد العزيز بن عبد الغني بن أبي الأفراح سرور بن أبي الرجاء سلامة بن أبي اليمن بركات بن أبي الحمد داود ويتصل بالحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب الينبعي المجيد الإسكندري المولد . أخبرني العلامة أثير الدين أبو حيان قال : مولده سنة سبع وستمائة. وانظر: الوافي في الوفيات (٢٦٨٧/١).

ووجدَ السجَّادات على المكان الذي تركهم فيه، فأخذها وفرشها لهم وصلُّوا صلاةَ الجمعة فقال له الشيخ: أبطأت في هذه المرة فقال له: يا سيدي جرى لي كذا وكذا، وقصَّ عليه القصة، فقال له الشيخ: هل كنت تفكرت في شيء أو أنكرت شيئًا؟ قال: تفكرت في قوله تعالى: ﴿**فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ [المعارج:٤].

فقال له: يا ولدي، إن الله تعالى يبسط الزمان في حقِّ قوم ويقبضه في حق قومٍ آخرين، وقد أراك الله تعالى ذلك، ثم أرسل الشيخُ إلى مصر وأحضر أولاده إلى بغداد.. فهذا وأمثاله جائزٌ ولا يمتنع على الله تعالى شيء من ذلك كله.

وهذه الحكاية وأمثالها وإنْ كانت غريبَّة في خَرقِ العوائدِ وإدخالِ الواسعَ في الضيّقِ، فلا يمتنع على قدرة الله تعالى وقوعُها، وأمثال أمثالها إلى ما لا نهاية له.

وذلك لأنَّ القدرةَ لا يَمتنع عليها شيء، والشيئيّة والقدرة لا حجر عليهما، ويجب الإيمان بذلك كلِّه، وله مثالٌ ظاهرٌ:

فإنَّك إذا أردتَ أنْ تقرأ القرآن بالحروف والأصوات حرفًا حرفًا، وقرأته على هذه الهيئة عرفْتَ قدرَ الوقت الذي قرأت فيه، فإذا سنحَ لكَ في خاطرِك كان كاللَّمحةِ الواحدةِ بالنسبة إلى ذلك الوقت، حتى حُكِيَ أنَّ شخصًا قرأ سبعين ألفَ ختمةٍ في اليوم الواحدِ، وحكايته مشهورة بالسَنَدِ بمكةَ، شرّفها الله تعالى، وهي عن الثقاة الصالحين، وتركتُ الكلام فيها لما نحن بصدده.

وكذلك إذا أردت أنْ تكتبَ الختمةَ -أعنِي القرآن جميعه- فأدنى ما تقدر عليه أن تكتبها في ستةِ أيامٍ أو سبعةٍ مع السرعةِ، فإنْ نقشْتَ الختمةَ في طابعٍ وطبعتَ به على ورقةٍ واحدةٍ أو غير ذلك مِن القَابِلِ فإنَّها تُرسَمُ في لَمْحِ البَصرِ، فهذا وأمثالُه كثيرٌ.

وضربُ الْمِثالِ في إدخالِ الواسعِ في الضيِّقِ، وكالقدح من الخردل، إذا نثرتَه في الأرضِ يحتاجُ إلى أرضٍ واسعةٍ، فإذا جمعتُه اجتمعَ في القَدحِ.

وكذلك السِنَةُ من المنام، يرى النائمُ فيها مِن البلادِ البعيدةِ والأقطارِ والرِّحابِ الواسعةِ من الفَيافِي والقِفَارِ، حتى أنه يرى كل ما سمعته أذنُه مِن جبل (ق) وغيره مِمَّا لا يقدر على الوصول إليه في مدةِ عُمْرِه، فيبْصر ذلك في اللمحةِ الواحدةِ، وقد يتزوَّج ويتوالد في منامه، ويُقِيمُ الْمُددَ والسنين في اللَّمْحَةِ.

وقد يَرى الله تعالى وأنبياءَه ورسلَه وملائكتَه، وكلَّ ذلك في لَمْحَةِ بصٍر مِن السِنَةِ فِي النَّومِ وهو لا يشكُّ في ذلك.

فافهم ذلك، وإيَّاك والاعتراضَ، فقد وضحَ السبيل ورُفع النصُّ حكمَ التأويلِ، ألا ترى إلى قوله تعالى في قصةِ بلقيس لَمَّا طلب السيد سليمان عليه السلام العرش:

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا المِلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ *قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِراًّ عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِه وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٣٨-٤٠].

فانظرْ إلى قَولِ الأول :«قبل أنْ تقومَ مِن مقامِك»!.

وانظر إلى قَولِ الثاني :«قبل أنْ يرتدَّ إليك طرفُك»!.

هذا والمسافة واحدة إلى ما بين حالتي الشخصين وسرعة الوقت مع بعد المسافة، ومِن كونه هناك ومِن كَونِه صارَ هُنا.

فإنْ قيل: إرتدادُ الطرفِ لا يَقْتَضِي سعةَ الأَزْمنةِ، والعرب تقول: هززت الحسامَ ثُمَّ ابتدأتُ، فلَم تكُن (ثُمَّ) هنا تقتضي قبله، والله تعالى يقول:

﴿**وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ** ﴾ [الأحزاب:٤].

وما كان جائز لله تعالى فعلُه ولا يمتنع عليه أنْ يفعلَه يَجِبُ الإيمان به، ومَنْ لَمْ يُؤْمِن به فهو كافُر.

الـورَعْ

وأمَّا الورعُ فالتوبةُ تستدعيه كما يَسْتَدْعِي الخَوفُ التوبةَ، والخوفُ المعرفةُ تَسْتَدْعِيه، فالأَسدُ لا يخافُه مَنْ لا يَعرفُه، والحديث: «**أنا أعرفكم بالله وأشدكم منه خشية**[1]».

فمَن عرفَ خافَ، ومن خافَ تابَ، ومن تابَ أنابَ، ومن أنابَ توَّرَعَ، ومَن توَّرَعَ تزهدَ، ومَن تزهّدَ توَّكلَ، ومَنْ توّكلَ صبرَ، ومَن صبرَ رَضِيَ، ومَن رَضِيَ شَكر، ومن

(١) ذكره الحسيني في البيان والتعريف (١/٢٩٤)، والعجلوني في كشف الخفاء (١/٢٣١).

شكر رجَا، ومن رَجَا أحبَّ، ومَن أَحبَّ قرُب، ومن قرُب استُهلِك، ومن استُهلِك فَنَي، ومَن فَنِيَ مُحِي، ومن مُحي أُثبْتَ، ومن أُثبِتَ رجَعَ، ومن رَجعَ من عند الله أَخْبَرَ عن الله بالله.

فبه يرى وبه يسمع وبه ينطق وبه يقوم ويقعد، كما ورد في الحديث فيكون محلاً لمواردِ الإرادةِ، وصدور الأفعال في الأمر والنهي قائمًا بالأمر شاهدًا للإرادة ملازمًا للحكمِ ناظرًا للحِكْمِةِ في، أَمرِ الإرادةِ وإرادةِ الأمر، بحسبِ أُفْقِهِ وطَوْرِهِ وقُوّتِهِ واستعدادِهِ ومَا أَعْطَاه من نشأته وخلقه.

﴿**أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾[طه: ٥٠].

ومِمَّا سَمِعْته عمَّن أخبر أنه بجامع بغداد وقد أُغلقت الأبوابُ وإذا بالشيخ على رأْسِه سلُة فأرخى الْمِصْبَاحَ وأخرجَ كراريسَ يقرأُ فيها وإذا بفأر قد قرب من الفتيلة قال له ارجع فرجع وعاد، وربما كرر العَودُ فقال له الشيخ: أوَ بغيرِ إذني يا فاسق وأنا مصدرُ الأُمور، مني تبدو وعليّ تَنْزل، إذنْ فاحرقْ نفسك فدنا فوضع خرْطومَه في السِراجِ فحرقَ نفسه إلى أنْ ذهبتْ نفسُه.

ومِنهم مَنْ كَمُلَ في نفسِهِ ولَمْ يَكْمُل لتَكْمِيلِ غيرِه، ومِنهم مَن سلك على طريقِ نبيٍّ من الأنبياء، وعلى قلب ولي من الأولياء، ويكون ذلك حدَّه ومقامَه لا يتعدّاه، ومنهم الموسوي والعيسوي والسليماني والإبراهيمي، وغير ذلك من سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومنهم مَنْ سلكَ على طريقِ السيد آدم عليه السلام، وأعْرف فقيرًا وجد ذلك، وعلى طريق السيد يحيى بن زكريا، وأعرفُ فقيرًا سلك ذلك وخُوطِب باسم السيد يحيى عليه السلام.

وقيل له: ﴿**يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ**﴾[مريم:١٢].

مقام الكمال

ومنهم **المحمديّ** وهو نهايةُ الطريقِ، وهي درجةُ الكمالِ ومقامُ الفحولِ من الرجالِ لا بَعْدَه مَقامٌ يُطْلَبُ ولا مَحِلٌ يُرْهَبُ، ومِن هذه المقاماتِ تَظْهرُ آثارٌ لا يدركُها إلاّ مَن عرفَ حقيقةَ هذه الطريق، فمِن ذلك ما يَجِدُه بعضُ السالكين على طريقِ الأنْبياء عليهم السلام عند موتهم فيذْكُرون الأنبياء الذين سلكوا على طريقِهم فيذكر بعضهم السيد عيسى عليه السلام، وبعضهم يذكر السيد موسى بن عمران عليه السلام فيزعم مَن

لا عِلم له بهذه الطريقِ أنَّه تنصَّر أو تهوَّد وليس كذلك وإنما هو الطريق الذي سلَك عليه فأقرَّ به عِند خُروج رُوحه وانتهاء عِلْمه فيموت عليه ويبعث على ما مات عليه.

لَكِنَّه وإنْ سَلَك به في طريق ذلك النبيّ فهُو مِن المقامِ المحمدي إذ الطرق كلُّها مجمّعة في طريقِه والمقامات كلُّها في مقامه، والكلامُ كله في كلامه ﷺ ألا تراه ﷺ كيف قال؟: «**أوتيت جوامع الكلم**[1]».

فانظر كيف نسخ الله تعالى بشريعته الشرائع؟ وكلّ الشرائعِ وما أتت به منزه وجُعلَت له الأرض مسجدًا وطهورًا.

وكيف كان السيد آدم عليه السلام أبو البشر مظهرَ الأجسَامِ ويَعْسُوبُ[2] الأشباحِ، وكان هو ﷺ مظهرَ الكونِ ويَعْسُوبُ الأرواحِ وَكَيفَ أَتَى آخر الرسلِ وهُو المقَدَّم في المعِنى والفَضْلِ، وكيف ختم الله تعالى به الرُسَل؟! وأَكْمَلَ به الدينَ ولو بَقِي حاجَةٌ لتكميلِ الدينِ لَمَا خَتَمَ به، ولو بَقِي نوْع مِن الإرشاد والهداية وتيسير الطريق وإقامِة الحُجَّةِ لَمَا كان خاتمًا.

ألا ترى قوله تعالى؟: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقوله: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ [يوسف:١٠٨].

وكيف قال: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً**﴾ [المائدة: ٣]. ولم يرضَ إلاّ ما كان خيرًا.

ولأنّ كلَّ نبيّ كانت رسالتُه على قَدرِ أُمتهِ في الهداية والتبيين، وكيف كان علماء أمته كأنبياء بني إسرائيل؟، وكيف افترَقُوا في المذاهبِ وآثارِ الصفاتِ؟كافتراق الأنبياء المتقدمين في الإرسال فيكون هذا يأمر أمته بأمرٍ، وهذا يأمر أمته بأمرٍ آخرٍ والمرسلُ واحُد، والجميع على الحقِّ، والآخذون عن الله تعالى مِن الأولياء كلِّهم على الحق، وإن وقع الاختلاف بحسب نصيبهم مِن آثار الصفات؛ إذ طريقُ الرجاء غيرُ طريق الخوف.

والكمال الاعتدال في الجَمْعِ بينهما ولنذكر مِن كلِّ مقامٍ نبذَّة يسيرَة، وإشارَة

---

(١) رواه البخاري (١٨٧/٣)، ومسلم (٣٧١/١)، وأحمد في مسنده (٢٥٠/٢).

(٢) اليعسوب ذّكر النحل، والمراد بأنها صدرت عنه كما تصدر سلالة النحل من الذكر.

لطيفَة مِمَّا قدَّمنا ذكرَه ليجدَّ السالكُ السبيلَ إلى سلوكِ طريقِ مَن تَقدَّمَ مِمَّن سَمَّيتُه له مِن فَقْدِ أَزْمَانِنا، وما كانوا عليه.

لأنَّ ذكر مَن تقدَّم من الأولياء والأكابرِ وصفاتِهم، وذِكْرِهِم- نفع الله تعالى بهم- وما سنُّوه وبينُوه، ومواجيدِهم وما كانوا عليه قد يرى السالكُ نفسَه عاجزَة عنه فيكون ذلك سببًا لتأخيرِه عن المسيرِ، فإذا ذكرْنا له أهلَ زمانِهِ لعلَّه يجدُ الحجةَ وإقامةَ الدليلِ على نفسِهِ مِمَّن هو في عصرِهِ وزمانِه، ويتشبَّه إن لم يتَّصف، ويتواجَد إنْ لم يَجِدْ، ويتباكى إن لم يبكِ، ولا يجد لنفسه عذرًا فيمن سبقه.

وكيف ورد الحديث: « **واشوقاه إلى إخواني! قيل يا رسول الله: أليس نحن إخوانُك؟ قال: أنتم أصحابي، إخواني الذين يأتون بعد، أجر العامل منهم بخمسين منكم، وقيل بسبعين، فقالوا: منهم؟ فقال: بل مِنكم فإنَّكم تجدون على الخير أعوانًا ولا يجدون على الخير أعوانًا**(١)»، وبيَّن العلّة.

وفضلُ الصحابةِ على غيرِهم محققٌ معلومٌ، وذِكْرُ الْمُدِّ والنَّصيفِ وأحوال الصحابة، رضي الله تعالى عنهم، وذِكْرُ صفاتِهم وجلالِتِهم وفضلِهم لا يسعه هذا الكتاب، ومقصودُنا التحريضَ والتشويقَ إلى جنابِ الله تعالى، والحديث:

«أمتي كالمطر لا يُدرَى أولُه خيرٌ أم آخرُه (٢)».

وحديثُ المهديِّ أليس هو كائن وصفاتُه مشهورةٌ؟ فما بالُنا عَن النّهوض عاجزون؟ وعن السعادةِ متأخرون؟ ﴿**ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ**﴾[الحج آية: ١١].

وتطلبُ مَع ذلك مراتب الكَمالِ ومَنازِل الأبْطالِ وفُحول الرجالِ، وتَطْمَعُ بالمنازلاتِ والأحوالِ مع سوءِ الأَحْوالِ، ما هذا ظنُّ عاقلٍ.

فَمَنْ رَامَ وَصْلاً يَبْذُلُ الرُّوحَ دُونَه مُطِيعًا لأَنَّ الحبَّ مَسْلَكُهُ وَعْرُ
ويَنْظُرُ أخذَ الرُّوحَ مِنهُ تَصَدُّقًا عَلَيه وإلاّ حظُّه الصدُّ والْهَجْرُ

فاستَيقِظْ يا نائم، واقعدْ يا راقد، وانهضْ يا قاعِد، وسرْ يا واقف، وسارعْ يا

(١) رواه مسلم (٢١٨/١)، وابن حبان (٢٢٤/١٦)، وابن خزيمة (٦/١).
(٢) رواه الشهاب القضاعي في مسنده (٢٧٦/٢).

سائر، وسابقْ يا مسارع، وانظر إلى قول ربِّك ﷻ: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقوله تعالى: ﴿**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ المُقَرَّبُونَ**﴾ [الواقعة:١٠-١١] فإنْ لمَ تَقْدِر على المسابَقةِ فلا تتأخرْ عن المسارعةِ، فإنْ فاتتك القُرْبَةُ لم تَفُتْكَ المغفرةُ والجنة والرحمة.

ولفظُ الحديثِ: «**تعرّضُوا لِنَفَحاتِ الله تعالى وإِنَّ لله تعالى نفحات فتعرّضوا لها**[1]».

ولا تنزلْ بمنزلةِ البهائمِ، يأكلون ولا يعقلون، وينامون ولا يعملون ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ**﴾، ﴿**فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ**﴾ [البقرة:١٨].

فيا ليتَ شِعري ما الذي تعوّضهُ من ذلك؟

ولقد كتبتُ لأحد الإخوانِ ورقَّة فيها:«**أيُّها الأخُ، كلُّ نَفَسٍ فاتَك من الله تعالى فَهو عليك خُسْرانٌ، وإنْ عوِّضْتَ به ألفُ جنةٍ؛ فإنَّ في الله تعالى عِوضًا عن كلِّ شيءٍ، ولَيس في شيءٍ عِوضًا عن الله تعالى**».

وفي هذا الكلامِ غُنية عن غيرِه.. وقد قلت فيه شعرًا:

إذا لم تَكُـنْ تَجْـرِي عَليـكَ الْمَـدَامِعُ   وأُفْـنِي بِهـا عُمـرِي فَعُمـرِي ضَـائِعُ
لَقَـد غَلَّقْـتَ أَبـوابَ كـلِ مُؤمِـلٍ   وانقَطَعَـتْ إلاّ لَـديكَ الْمَطَـامِعُ
وبابُـكَ مَفْتُـوحٌ بِـه كُـلُّ قاصـدٍ   ولَـيس عَليـه دُونَ فَضْـلِكَ مَـانِعُ
وقـدْ ضَـيَّع الـوُدَّاعُ كـلَّ وَدِيعـةٍ   لَـديهم ومَاخَابـتْ لَـديكَ الودائـعُ
وهَـا أَنـا مَطْـرُوحٌ ببابِـك واقِّـف   إلى نَظْـرةٍ مِـني بطيفِـك قـانعُ
غَرِقْـتُ بِبَحـرِ الجُـودِ مَـا لي سـوى   الرضَـا لَـديكَ وَأنْ أَبْقَـى بِعزِّك خاضعُ

معرفةُ الله تعالى

وأمَّا معرفةُ الله تعالى فإنَّها واجبُة على كلِ مَن عَقل عَن الله تعالى مِن إنسٍ وجنٍ

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢٥١/١)، وابن أبي شيبة (١١١/٧)، وأبو نعيم في الحلية (١٦٢/٣).

ومَلَكٍ وشَيطانٍ، وهي مُثْبَتَّة في سائر الحيوان وغير الحيوان، وكلُّ موجودٍ سوى الله تعالى يَعقِلُ وجودَ خالقِه مِن حيثُ وُسْعِهِ وأُفُقِهِ أمٌم أمثالُكم، قال الله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ [الإسراء: ٤٤].

فشملتْ الجمادَ والحيوانَ والإنسان والنبات والتراب والماء.

ومَعرفةُ الله تعالى قائمٌة بوجدانِ القلوب وبداهةِ العقول، ظاهرٌة بالدلائلِ، باطنٌة في الضمائرِ، كامنٌة في السرائرِ، يعتقدُها المؤمنُ ولا يجحدُها الكافر، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾ [الزخرف:٨٧].

لَقَدْ ظَهَر فلا يَخْفَى على أحدٍ … إلاّ عَلى أَكْمَهٍ لا يُبْصِرُ القَمَرَا

وهو واحدٌ في نفسه، وفي كلِ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنَّه الواحدُ؛ إذ الوحدةُ تمنعُ الاشتراكَ فَلا يصحُّ فيها التنويهُ والكثرة، وأنتَ تَجِدُ ذَلك في نفسِك فلا تحتاجُ إلى خارجٍ عنك؛ إذ أنت في نفسِك مسئولٌ على الموجوداتِ بتسخيرِها لك.

قال الله تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ**﴾ [الجاثية: ١٣].

وتعلمَ منها ما لا تَعلمْهُ مِنكَ، ووجودُها لنفعِك، فانظر إلى تسخيرِ الشمسِ والقمرِ، قال الله تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**﴾ [إبراهيم:٣٣].

والنجومُ للاهتداء، والملائكة للاستغفار، والسحاب للإمطار، وانظر إلى ما في الأرضِ من الحيوان وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [النحل:٨].

وقوله تعالى: ﴿**وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ*وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ *وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [النحل: ٥-٧].

وانظر إلى الحيوان من البرِ والبحرِ كيف سخّرها لمأكلِك ومشربِك؟ وذهابِ أنفسِها لصلاحِ نفسِك وإن لم يكن لضرورة، وكيف أباح لك عند الضرورة ما عدا

ذلك مما حظره عليك؟ وكيف جعل لك ما له بمحضِ الكرمِ؟

وإيجادك من العدم، وإن لم يكن من شيء ومِن شيٍء هنا عبارة عن شيءٍ موجودٍ أوجدَك منه، بل قدرةُ الله تعالى أقدرُ من ذلك، بل اسم العدم موجوْد ليتبيَّن به الوجود والعدم، وهو شيء في نفسِه فخلقَك من لا شيء وكذلك جميع الأشياء أوجدها من لا شيء وخلقك على أحسن خلق وفي أحسن تقويم وجعل لك سمعًا وبصرًا وعقلاً وإدراكًا وذوقًا وحواسًّا ولمسًا ومسامًا لقدرك بذلك جميع الكائنات والمعلومات.

ولن يسعَ هذا الكتابُ ذلك ولو أنْ ملءَ الأرضِ أوراقٌ وأقلامٌ لا يُحصون ما لله تعالى مِن النِعمةِ، وما أوجده من العوالم، وفي قوله تعالى: ﴿**وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا**﴾ [إبراهيم: ٣٤] كفاية.

ومقصودنا أنْ تعلم أنَّك -وإن كنت مَلِكًا على الموجودات في تسخيرِها لك وتَعَلُّقُ علمُك بها وعدمُ علمِها بك، واستيلاؤك عليها بالقَهرِ والغَلَبةِ لَمَا مَلّكك الله تعالى- فأنتَ تَعلم عجزَك في نفسِك، وأنَّك أنتَ ما خلقت نفسك، وأن لك موجدًا أوجدَك، إذ تعجز عن أن تشبع في وقتِ الجوعِ، وعن الجوع في وقت الشبعِ، وعن إدخالِ الطعام في جوفِك، وعن إخراج الرويةِ من جوفك، وإذا تعسّرت عليك هلكتَ، وكذلك البولُ أو الفسوةُ:

عِلـــــةُ البـــــولِ والخَـــــرا حـــــيّرا كـــــلَّ مَـــــن يَـــــرى
فهمـــــا آفـــــةُ الـــــوَرَى سُـــــــــهّلا أوتَعسّـــــــــرا

فَمَن كان بهذه المثابةِ يقُل أو يعتَقِد في نفسِه أنَّه خلقَها أو خلقَ غيرِها، فكيف لو آلمه ألمٌ في رأسِهِ؟ أو ضربَ عليه عِرْقٌ في جِسمه؟ أو وَجَعته عينُه أو ضِرْسه؟ كيف يجده عند هذه النوازل الضعيفة بالنسبة إلى خلق الله تعالى لما هو أكبر منها؟ وما تواعده الكفارَ والعصاةَ يومَ القيامة؟ وما يوجد من الآلام التي هي أكبر منها؟.

وهذه حقائُق ذوقية لا تقدر على إنكارِها من نفسِك، فإنَّ حلاوةَ العسل ومرارةَ الصبرِ لا يقوم عليهما دليلٌ؛ لأنَّ ذوقَهما أوضح من دليلِهما.

فلو قهرت شخصًا على أن يعتقدَ أنَّ الصبرَ حلوٌ أو العسل مرٌ لما حصل له الاعتقاد بالقهر، وإن أقرَّ كرهًا فلا يعتقدُه، وإن مات فإن الحقائق لا تُبَدل.

ولو قال أحدٌ ذلك على حكم النادر، فإن ذلك لا يكونُ إلا عن انحرافٍ أو جنونٍ لا عَن صحةٍ في عَقلٍ ولا ذَوقٍ ولا عِلمٍ ولا عَمل مخالفة للطبائع، والحقائق والعقول والأديان والشرائع وما جبل الله تعالى خلقَه عليه واستعبدهم،إنَّ ذلك لا يكون إلا عن فسادٍ في العقلِ والدينِ والمزاج والعلم، بل يستغني عن ذلك كلِّه بزوالِ عقلٍ كما قيل:

إذا اجتمعَ الناسُ على واحِد وخالفَهم في الرِّضا واحدُ

فقَد دلّ إجماعُهم دونَه على عَقْلِه أنَّه فاسدُ

وإذا عَرَفْت أنَّك المملَّك على العالم كلِه، والكون كله في تسخيره لك، وعرفتَ هذا العجزَ العظيمَ مِن نفسِك، فقد تحقّقتَ أنْ لك موجدًا أوجدَك وخالقًا خلقك وأنَّه واجبُ الوجوبِ لذاتِه، يجبُ له الكمالُ الذاتيُّ من كل وجهٍ وبكل وجهٍ ويستحيل عليه النقصُ من كل وجه وبكل شيء، ويجوز له فعلُ ما يشاء ويختار من كل وجِه وبكل وجِه.

وهذه الأوصافُ لا يجهلُها وليُّ الله تعالى، وقد تحقَّقتَ أنَّه خالق كل شيء وأنه على كل شيء قدير بما ظهر لك في نفسِك وكون الأشياء دون رتبتِك، وتحققت أيضًا أنَّه واحٌد إذ يستحيل أن يكون غيرَ واحٍد إذ الثنويةُ والكثرةُ مستحيلات لوجودِ الصمديةِ، إذ الوحدة في نفسها قائمة بنفسها لا بوجود غيرها معها لانتفاء الضد والند والنظير والشبيه والمثيل.

﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾ [الأنبياء:٢٢].

إذ لو كان لَمَا كان والاقتضاء إراداتٌ مختلفات، وذلك محالٌ وتقديرُ المحالِ محالٌ وكذلك الاشتراك واذا كان الجوهرُ في الفرد إذا بسطته في العقولِ إلى حدٍ لا يقبلُ القسمةَ لا يستحيل عليه القسمةَ فكيف بخالقِ الجواهرِ والأعراضِ.

والوحدة قائمٌة بذاتِها لا يصحُّ معها الكثرةُ، منفردةٌ عن الثنويةِ ووجودِ الغيريةِ لا يُفهمُ مع وجودِها وجودُ غيرِها.

وقد وضحَ فيك بالذوقيةِ الحقيقةِ في نفسِك معرفةُ ربِّك وخالقِك بكمال

الصفات واستحالة النّقصِ عليه، والمشاركة له وحقيقة الوحدة وأنَّه خالق كل شيء ومالكُه وموجدُه، فلا شيء يشبهُه ولا يشبهُ شيئًا ولا حلَّ في شيءٍ ولا حلَّ فيه شيءٌ لأنَّ وجودَه سابقُ الوجود والخَلق فلا يصح قَبل وبَعد في حقِّه تعالى ولا القرب والبعد إلا بالنسبة إلينا فالحقائق في أنفسها شواهد لأنفسها والدليل حجاب عليها، وقد قال الله تعالى: ﴿**وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ**﴾ [الذّاريات: ٢١].

ثم ما جاءتْ به الرسلُ عن الله تعالى يجبُ عليك الإيمانُ به، إذ هم حُجَّةُ الله تعالى الواضحةُ القاطعةُ الدامغةُ للمخالفِين لأنَّهم، صلوات الله عليهم وسلامه، أَتَوا بالمعجزات الباهراتِ والآيات البيّناتِ، والإخبارِ عن المغيّباتِ وتحدُّوا بذلك وأتوا بما عجزَ البشرُ أنْ يأْتُوا بمثلِهِ أو ببعضِه، كإحياء الأمواتِ وانشقاق القمرِ وكلام الحجر والشجر وكلام البعيرِ وغير ذلك من الخوارق.

وكلَّما طُلِب منهم من الإعجاز طُلِب الدليلُ مِنْهم على أنَّهم رسلُ الله، وأنه في وقته، وتحدّوا به وكل ما وعدوا به من خيراتِ الآخرة وكل ما تواعدوا به مَنْ خالَفهم من العقابِ ونزولِ العذاب في الدنيا وقع، وما تواعدوا به في الآخرة يقع،كقوم نوح بالغرق وقوم هود بالريح وقوم صالح بالعذاب بعد سوادِ الوجوه وقومٍ بالخسف.

وأنواعُ الهلاكِ والعذابِ في الأمم الخاليةِ لمخالفَتِهم للرسلِ وما وعدوهم به كثيرٌ، مستقصى به أهل السلف عن الخلف والجمُّ الغفير الذي لا يقع الاختلاف فيه

- أعني في نفس العذاب- وصدق الأنبياء عليهم السلام فيما تواعدوهم به وإن وقع في أنواع العذاب، وقد ذكر الله تعالى في كتابِه العزيز ذلك فقال تعالى: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ**﴾ [الإسراء:١٧].

وفي معجزاتِ نبيّنا ﷺ من الغرائبِ والعجائبِ ما لا يُحتاجُ معها إلى دليلٍ، إذ المعجزات كلها في معجزاته ﷺ فإذا استقصيت وجدتها كذلك، فتارَة ظاهرَة وتارَة متضمنَة في الجملةِ وتارَة باطنَة، وأَتى بالقرآن العظيمِ الذي أَعجزَ الخلائقَ كلَّها والفصحاء وهو باقٍ فينا لا يقدر أحُد منذ ظهر رسول الله ﷺ من سبعمائة عام وإلى الآن أن يأتى بسورةٍ من مثلِه، ولو اجتمعت الإنس والجن والخلائق أجمعون لَمَا أَتوا بذلك، ولا يأتون بذلك أبدًا فقد وجبَ الإيمانُ بالجميعِ.

وقد كانوا متفقين على وحدانيةِ الله تعالى وربوبيتِه وعلمِه وقدرتِه وإرادتِه وكلامِهِ وسمعِه وبصرِه وجميعِ صفاتِه، وأنَّه على كلِّ شيءٍ قدير، وأنَّه خالقُ كلِ شيءٍ وإليه المصيرُ.

لم يختلفوا فيما يجبُ لله تعالى ويجوز له ويستحيل عليه، كلٌّ منهم مؤمنٌ بِمَن قبله ومَن بعده مبشّرين ومنذِرين وبشَّروا بنبيّنا محمدٍ ﷺ، وكلٌّ منهم مؤمن بآياته، وما جاء به غيرُه من الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ * لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦].

ونحن نؤمنُ بالله وملائكتِه وكتبِه ورسلِه لا نفرّق بين أحدٍ من رسلِه، ونؤمنُ بإيمان رسولِ الله ﷺ وبما أُنزل إليه من ربّه، وما أُنزل إلى الرسل من ربِّهم، ونؤمنُ بالقدرِ كلِّه خيرِه وشرِّه حلوِه ومرِّه، فلم يختلف الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه في وحدانية الله تعالى وربوبيتِه ومعرفتِه وصفاتِه وما أتوا به من عند ربِّهم، كلمتُهم في ذلك واحدٌة واعتقادُهم واحُد.

عضَّدهم بالعصمة فلا يقع منهم نَقِيصٌة، والإعجاز الذي عجز البشر من الإنس والجن أن يأتوا بمثله، ويستحيل عليهم الكذبُ فيما أتوا به من عند ربِّهم وغيرِه ولا ملك إلا ما أتى من ربه.

وجعلهم من البشرِ لتقومَ الحجةُ على الخلقِ وإنْ اختلفوا في الإرسالِ بالأوامرِ المختلفةِ فذلك دليلُ نفاذ الأمر بالإرادةِ وعلوِّ القدرةِ واستيلاء القهر والإرادة الشاملة.

مخالفةُ المخالفين

وأمَّا مخالفةُ مَن خالفَ من الناسِ فلأسرارٍ خفيةٍ من حقائقِ الألوهيةِ يعجزُ إدراكُ أربابِ العقولِ عن ذلك، وإنَّما يفتح الله تعالى على مَن يشاء من أوليائه بما يشاء في العلمِ من علمِه منها على قدرِ وُسْعِهِ واستعدادِ قلبِه لورودِ ذلك عليه، فإنَّ الله تعالى

يأمرُ الأمرَ ولا يريدُ وقوعَه فلا يقعُ، كأمرِه لأبي جهلٍ وغيرِه من الكفار مِمَّن لم يؤمنْ ويأمرُ بالإرادةِ فيقعُ ولا يقعُ خلافُه ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [النحل: ٤٠].

فتارَةً تكون المعصيةُ لظهورِ كرمِ الله تعالى على عبدِه لورود الحديث: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله تعالى بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم**[١]».

فانظر إلى هذه اللطيفةِ إذ لا يكون الاستغفارُ والتوبةُ إلاّ عن ذنبٍ ولا تكون المغفرةُ إلا للمذنبِ المستغفرِ فأمَّا مَن أحسنَ فلا سبيل عليه لقوله تعالى: ﴿**مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ**﴾ [التوبة:٩١]، فصفاتُ الكرمِ والجودِ والعفوِ والمغفرةِ والإحسانِ والرّضا والرحمةِ وغيرِ ذلك من صفاتِ الأخلاقِ الجميلة للمسيئين، فظهرَ بمعصيةِ العبادِ صفاتُ كرمِ الله تعالى عليهم مِن استغفارِهم.

وهنا يطيبُ عيشُ العارفين لأنَّهم يرون محوَ صفاتِهم إبقاءً لصفاتِ الله تعالى وآثارِها فيهم، فانظر إلى أثرِ رحمةِ الله الحادثِ مع صفاتِ الربِّ القديمةِ، وأنَّى يكونُ لِمَن أصلُه العدمُ وجودٌ مع واجبِ الوجودِ، ولا سيَّما إذا استولى الشهودُ وتجلّضى المعبودُ وارتفعت الرسومُ والحدودُ وتدكدكتْ الجبالُ واستولى الاضمحلالُ.

ولذلك قلتُ:

اللهمَّ امحُ ما منِّي إليك بإثباتِ ما منكَ إليَّ حتى أكونَ في كل شيء بك لا بنفسي، واخترْ لي فإنِّي لا أَملِك خيرَةً لنفسي، ومنهم مَن يسرُّه ظهورُ كرمِ الله تعالى على وجودِه، وإنْ ظهرتْ المعصيةُ منه فيسرُّه ظهورُ كرمِ ربِّه بمعصيةِ نفسِه ونقصِه بظهورِ كمالُه عَزَّ وَجَلَّ.

وقد قال أحدهم: الحمد لله على ظهورِ كرمُك بمعصيتي وكمالُك بنقصي، وكذلك يجبُ عليه الرّضا بقضاءِ الله تعالى ويُسرُّ به ويُسرُّ بظهورِ كرمُه، ولا يُرضِي نفسَه بمخالفةِ ربِّه إذ المعصيةُ مِن صفاتِ نفسِه وكسبِه وإنْ كانت مخلوقة لله تعالى فيه.

---

(١) رواه مسلم(٤/٢١٠٦)، وأحمد في مسنده (١/٢٨٩).

ومنهم مَن يرتفع عنه الاختيارُ؛ لأنَّه يرى اختيارَه مع وجود اختيارِ ربِّه منازعَة فيكون سليبُ الاختيار، وهكذا في جميعِ الأوصافِ فإنَّ خطرَ اختيارٌ أنابَ وتابَ ورجع، ومن هنا تكون المؤاخذة، وينشأ الذنب عن اختيار العبد تارَة وعمَّا يحدِّثُ في نفسه من أمرٍ ينشأُ، يعتقد فعلَه ذنبًا فيُحدِثُ الذنبَ القسوةَ والحجابَ للقلبِ كوقوعه على زوجته على فراشِ غيرِه يعتقد أنَّها غيرُها فيحدث الذنب.

وإن كان مخلوقًا لله تعالى فتثبت إرادتُه واختياراتُه وتفي بجوامع الله تعالى في شهودِ الإرادةِ وشواهدِ الإيرادِ في مقام الاهتياب فلا يقع منه الذنب، ولذلك قلت:

لولا حُظُوظِي فيما قد قضَيتَ بِه ... لكانَ فعلي في العِصيانِ كالقُربِ

إذكنتُ محوًا بلا علمٍ ولاعملِ ... لَمَّا لفِعلِك لم أَحضَرْ ولم أغبِ

شطحًا لِمَا مِنكَ لا منِّي إليك ... فمَا عينُ الحقيقةِ مِن قَصدٍ ومِن طلبِ

أنا الحجابُ الذي قدكان يَحجِبُنِي ... فارفعْ بحقِّك ماكوَّنتَ مِن حُجبِ

وَمثالُ ذلك أنَّك لو كنتَ بحضرةِ ملكٍ من ملوكِ الدنيا، وبين يديه مَن يُحبُّه مِن جمالِ الصورةِ والوصائفِ الْمُستَحسنةِ، هل كنتَ تستطيعُ أن تنظرَ إليهن بعين الشهوة؟ وتلاحظهن في تلك الحضرةِ وتُعرضُ عن الملكِ مع ملاحظتِه لك بالمراقبةِ في حركاتِك وسكناتِك.

فانظر إلى هذا القياسِ فضلاً عن أنْ تفعلَ ما هو أكبر مِن ذلك، فلو أنزلتَ الله من نفسِك منزلةَ هذا الملكِ لَمَا وقع منك معصيةٌ البتة، ولو وافقتَ مرادَ الله تعالى فيك، ما أمرك به ونهاك عنه، كما فعل بالمخصوصين من المرسلين والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والأولياء والصدّيقين، ومِمَّا يُوجب ومِمَّا يُوجب عليك القصاصُ وتحتج لنفسِك بالإرادةِ ولم تعلم ذلك إلاّ بعد وقوعِها منك أنَّك إذا صدرَ منكَ فعلٌ قبيحٌ نسبتَه إلى إرادةِ الله تعالى فيك وما سبق به القلمُ، فإنْ صدر من غيرِك نسبتَه إليه وعاقبتَه عليه، فلو كنت في الثاني :كالأول :في شهود الإرادة من الله تعالى، لا يرى فعلَ غيرِه ولا يشهدُ سواه لَمَا رأيتَ ذلك فاعلاً أصلاً ولا آخذتَه على فعلِه، فكيف تطلبُ أمرًا يحكمُ لك ولا يحكم عليك؟

وهذه لطيفةٌ ومن ورائها أمورٌ لا يمكننا استقصاؤها خشيَّة على مُنكرِها، وإنَّما قصدُنا التشويق، وهذه النُّبذةُ اللطيفة في المعرفةِ كافيَّة إن شاء الله تعالى، وأسرارُ العارفين ومواهبُهم عظيمٌة ليس هذا مكانها.

الخَــوف

وأمَّا الخوف فهو ينشأ عن المعرفةِ وينقسم على قسمين: تارَة مِن شهودِ العظمةِ والإلهيِّةِ، وتارَة من شهودِ السطوةِ والعذابِ فتحرقُ نيرانُ الخوفِ قلبَ الخائف بما يتوّقعه، ولا يكون الخوفُ إلا لِمُتَوقع، فمنهم مَن يشيبُ قبلَ أوانِ شيبه، وأعرف مَن حصلَ له ذلك، ومِنهم مَن يذهلُ عقلُه.

واتفقَ للشيخ أبي العباس الملثم[١] أنَّه كان نائمًا فاستيقظَ فَزِعًا مرعوبًا قد تغيّر لونُه وظهرَ ذلك عليه، فَسُئل عن ذلك فقال: رأيت النارَ فدخلتُها، ورأيتُ ما أعدَّ الله تعالى لأعدائِه فيها مِن أنواعِ العذابِ مِمَّا لا يُطاقُ وصفُه وما وصفه الله تعالى في كتابه العزيز، ورآني مالكٌ خازنُ النار فقال لي: اخرجْ، ما أنت من أهلها.. فمِن صيحتِه وهيبتِه حصل لي ما حصل.

هذا مع كونِه أمنّه فكيف لو خوّفه؟

---

(١) قال الشيخ المناوي: هو أحمد بن محمد الشيخ الصالح أبو العباس الملثم.
كان من أصحاب الكرامات والأحوال والمقامات، ويحكى عنه عجائب وغرائب.
وكان مقيمًا بمدينة قوص، وله بها رباط، وعرف بالملثم لأنه كان دائمًا بلثام، وكان من المشايخ المعمرين.
بالغ قوم حتى قالوا: إنه من قوم يونس عليه السلام.
وقال آخرون: صلّى خلف الشافعي، وأنه رأى القاهرة أخصاصًا قبل بنائها.
وكان يدعو من لم يعرفه ولا رآه قط باسمه واسم أبيه وجده فلا يخطئ.
وذكر له رجل أنه يريد الحج فقال: القافلة التي يريد السفر فيها تؤخذ، والمركب يغرق، وكذلك كان.
ومن أخص الناس بصحبته تلميذه الشيخ عبد الغفار بن نوح، صاحب كتاب «الوحيد في علم التوحيد»، وحكي فيه كثيرًا من كراماته.
وسئل عما ذكر أنه من قوم يونس، و أنه صلى خلف الشافعي فقال: ما أنا من قوم بونس، أنا شريف حسيني، وأما الشافعي فمتى مات؟ ما له كثير. نعم، صليت خلفه. وكان يحج كل سنة وهو مكانه.
وانظر: الوافي في الوفيات (١/٢٧٠٦)، ولسان الميزان (٦/٧٠)، الطالع السعيد (١٣١)، حسن المحاضرة (١/٢٤٠)، جامع الكرامات (١/٣٠٨).

أعاذنا الله تعالى وإيَّاكم من النيران ومن سَخَطِ الرحمن ثم مِن مَلِكٍ غضبانٍ بمنّه وكرمه.

وأخبرنا الشيخ الشريف عبد العزيز بن عبد الغني المنوفي- رحمه الله تعالى- قال: رأيت في النومِ -وذكر شيئًا غابَ عني- فخفتُ مِن الله تعالى، فبُلتُ في النومِ الدمَ، واستيقظتُ مرعوبًا، فوجدت الدمَ قد ملأ سراويلي.

خوفُ المتقدّمين ورحمة الرحمن الرحيمن

وأمّا خوفُ المتقدّمين فهو مذكورٌ في الكُتب، وقصدُنا الآن ذكرَ **أهلِ زمانِنا** ومَن أَفرطَ به الخوفُ أدّاه إلى القنوطِ؛ فإنّ إفراطَ الخوفِ ينشأُ عنه القنوط واليأس وتهرب النفسُ مِن القدومِ على ما تخافه فيكره لقاء الله تعالى فيكره الله تعالى لقاءه، وإنّما يُرَوِّحُ بالرجاء بقوله تعالى: ﴿**لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً**﴾ [الزمر:٥٣].

وقوله تعالى ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ [الأعراف:١٥٦].

وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ**﴾ [الانفطار:٦].

فهذا تنبيٌه على كرمِهِ ﷻ، فيقول: غرّني كرمُك، ولذلك معان كثيرة لقوله تعالى: ﴿**مَا عَلَى المُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ**﴾ [التوبة:٩١].

تكون الرحمة والمغفرة والجود والكرمُ والمِنّةُ والإحسان واللطف والحنانُ، وكذلك جميع تعلقات صفات الجمال للمسيئين.

وإنَّما ورد: «**أنا عند ظنِ عبدي بِي فليَظُنَّ بي ما شاء**[1]».

و«**رَحْمَتِي سَبَقتْ غَضَبِي**[2]» فينتهي به السير إلى الرحمةِ وهي السابقةُ، والخاتمةُ مطويّة في السابقة، ولا يفرط في الرّجاء أيضًا لأنَّه ينشأ عنه قلةُ الأدب، وقلةُ الأدبِ ينشأُ عنها البعدُ، ولذلك قيل لجبريل وإسرافيل: «كونا على ذلك ولا تأمنا مَكْرِي» فيعتدل عن ذلك خوفُ المؤمنِ ورجاؤه إذ في قوله جلَّ مِن قَائلٍ: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ**

(١) رواه أحمد في مسنده (٤٩١/٣) وابن حبان (٤٠١/٢).
(٢) رواه البخاري (٢٧٠٠/٦)، وابن ماجه في سننه (٦٧/١).

العِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧] إشارَةٌ لاعتدالِ خوف المؤمن ورجائه، ومَن كان له أُنسٌ بالله تعالى يتحفَّظ ويتحرَّز من الانبساط في إساءةِ الأدبِ مع الله تعالى فإنَّ كثرةَ البَسطِ والإفراطِ فيه يُؤدي إلى إساءةِ الأدبِ ووجودِ الوحشة والقبضِ وقد قلت:

وأَصْفيتَ لي مِنك الودادَ فحيثُ مَا سَلبْتَ به لُبّي وصرتَ به أُنْسِي
تجافيتَ عَنِّي حيثُ لا لي حيلةٌ ورَمَيتَنِي بالصَّدِّ في الجنِّ والإنسِ

العظمةِ والهَيبة

وأمَّا شهودُ العظمةِ والهيبة فهو مقامُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والعارفين بالله تعالى بحسبِ ميراثِهم مِن نبيِّهم ومِن الصحابةِ والتابعين وأهلِ زمانٍ ممَّن كان لذلك أهلاً فقد كان رسول الله ﷺ إذا هبت الريحُ يتغيَّرُ وجهُه وفي سؤاله لَمَّا حصلَ بالمسلمين ما حصلَ مِن الكفَّار وسؤاله ربَّه وقوله ﷺ: «**إن تهلك هذه العصابة لن تعبد بعدها في الأرض**(١)» بعد تقدم الوعد له بالنصر وقول أبي بكر رضي الله عنه: إن ربَّك منجُز لك ما وعدَك - أو كما قال رضي الله عنه -، وذلك أنَّ أبا بكر رضي الله عنه وقف مع وعدِ الله تعالى له، ورسولُ الله ﷺ نظرَ إلى ما لله تعالى فعلُه فإن المشيئة لا حِجرَ عَليها، وإنَّ الله تعالى يفعل ما يشاء ويختار وفي قوله تعالى: ﴿**فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شيئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً**﴾ [المائدة:١٧] كفايةٌ عمَّا قلناه في هذه الوقائع.

وأمَّا شهود العظمة وتلاشي وجودُ العبد عند ظهورِ وجود الله تعالى له وتجلّي العظمة لا يثبت له شيء ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً**﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فمِن ذلك قال: ليتني كنتُ كذا، وقال أبو بكر رضي الله عنه: ليتني لم أكُ شيئًا، وقال عمر رضي الله عنه: ليت أمُّ عمرَ لم تلدْ عمرَ، وهذا مقامُ الهيبةِ، ولا يكون ذلك إلاّ عن الخوفِ

---

(١) رواه مسلم (١٣٨٣/٣)، وأحمد (١١٧/١).

مِن متوقع.

لأَنَّ الله تعالى قد بشَّره بالمغفرة لِمَا تقدَّم مِن ذنبه وما تأخَّر، وكذلك الصحابة، والشكُّ يستحيل عليه ﷺ، ولأنَّه معصومٌ من ذلك والصحابةُ، رضوان الله تعالى عليهم، قد بشَّرهم رسول الله ﷺ بالجَنةِ فلا يشكُّون في ذلك، وإنَّما مقامُ الهيبة يقتضي رؤيةَ العظمةِ واستصغارَ أنفسَهم ومحقَها حتى يتمنَّوا أن لا وجود لهم، هذا مع البِشارة لهم بالجنة.

وقلت:

باتَـتْ لوعـدِك عَيـني غـيرَ راقـدِة والليـلُ حـيٌّ الـدَّياجِي مَيِّـتُ السَّـحرِ

هذا وقَدْ بـتُّ مِن وصلٍ على ثِقـةٍ فكيـفَ لـو بـتُّ مِـن هَجرٍعلى خَطَـرِ

وأما التوبة فهي تنشأُ عن الخوف وقد تقدَّم نُبذةٌ منها، والورع والاحتراز ينشأان عن التوبةِ، والورعُ عبارُة عن الاحترازِ حتى يتركَ ما لا بأسَ بِه خشيَّة مِمَّا به البأسُ، وتكون الأشياء عنده كالحيَّاتِ والعَقاربِ يَخْشَى أنْ تَلْسَعه، فتراه يخافُ مِن كلِّ شيءٍ ولولا ضرورةُ المطعمِ والمشربِ الذي لا تَقومُ العبادةُ وأداءُ الفرائضِ إلا بِهما لَمَا أكلُوا وما شَرِبُوا.

وقناعتُهم في الدُّنيا بل في كلِ الأشياء معروفٌة، وقدْ كان الصحابة يتركون تسعةَ أعشارِ الحلالِ مخافةً من الوقوعِ في الحَرام، وكانت نساءُ الأنصار يخرجن خلفَ أزواجِهن إلى الأبوابِ ويقلُن لهم: الله الله في أمرِنا فإنَّا نصبرُ على الجوعِ ولا نصبرُ على النارِ .

وأعرفُ فقيرًا كان لا يأكلُ إلا ما يتحقَّق من حِلِّه ويكون مطحونًا وحدَه، وكان لا يجتمعُ بالناسِ، ولا يسألُ، ويسافرُ في البرِّ بغيرِ زادٍ حتى كان يقتاتُ بالصبرِ المملوحِ وما أشبهه، وكان بعضَ الأحيانِ يُفْطِرُ بعدَ العصرِ على فُولةٍ، وكان منهم من يقبضُ على أنفِه مِن شمِّ المِسكِ ويقولُ إنَّما ريحُه، ومنهم من لا يمشي في نورِ سراجِ الظالمِ، ومِنهم مَن لا يشرب مِن الأنْهارِ المحتفرةِ.

وكان فقيهٌ عندنا يتورعُ مِن أشياء كثيرةٍ مباحة، وكان إذا دخل مِن بابٍ وفيه شيء مكتوبٌ من كلامِ الله تعالى تحنَّى، ولا يطلع مجلسًا تحته كتابة من القرآن، وقد كانت جماعةٌ كثيرة يتورّعون في أقوالِهم وأفعالِهم ومأكلِهم ومشربِهم، وورعُ القبَّاري[1]

(١) أبو القاسم بن منصور بن يحيى السكندري القباري. زاهد أخلص في العمل، واجتهد في قطع الأمل، =

بالأسكندريةِ مشهور وبعدَه ابنُ القصَّاص.

وأخبرني عامر بن نسيم -وكان فقيرًا مجرّدًا من أصحاب الشيخ الفارسيِّ، وكان صاحبَنا مدّة ولم يكن له لباسٌ إلاّ سجّادًا في وسطِه وسجادًا على كتفِه وطاقيةٍ على رأسه، وكان قد أسنَّ- قال: كنت مرّة بظاهر مدينةِ إسنا من بلادِ الصعيدِ، فأويتُ إلى مسجِد خرابٍ بابُه مسدوٌد بالشوكِ فأقمتُ أشهرًا- لا أدري قال شهرين أو ستة أشهر- لم يكن قوتِي إلا مِمَّا يُرْمَى على الأكوامِ حثالةَ الحشفِ فإنَّهم يصقلونه وتَخرجُ خاصيتَه فيعملون منها الخلَّ، ويرمون تفلَه على الأكوامِ فكنت آكل منه، وربما أكلتْ الكلابُ مِن جانبٍ وأنا من الجانب الآخر، واسترحتُ بهذه الحالةِ مدّة، فخرجتُ ذاتَ يومٍ من المسجدِ لقضاء حاجةٍ- أو للوضوء أو لا أدري إلا أنه خرج من المسجد- فبصرني شخصٌ أو قال رآني شخص فقال لي:

﴿ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾[مريم: ٥٩].

وأخبرني الشيخ أبو الفتوح الدماميني أنَّه أقامَ عشرَ سنين يأكلُ مِن حبِّ العُنصلِ مِن التربةِ، وسنذكر حديثه في موضعه إنْ شاء الله تعالى.

ورأيت فقيرًا عراقيًا وكانت له أحوالٌ، وكان لا يشربُ مِن هذه الكيزان ويشرب من آنية من الجلد.

وأصنافُ الورعِ كثيرةٌ في الأقوالِ والأفعال حتى كان أحدُهم مِمَّن أعرفه يحسبُ كلماتِه في اليومِ والليلةِ ويتعب عليها، ومنهم مَن كان يمسكُ الكلمةَ بين شفتيه حتى يظهرَ له نورُها أو ظلمتُها مِمَّا لا بأس به من الكلامِ لأنَّ أنواع الورعِ في الفضولِ مِن الكلامِ أعظمُ إذ آفةُ اللسانِ مِن أكبرِ الآفاتِ لحديث: **«وهل يكبُّ الناسِ على وُجوهِهم في النَّار إلاّ حصائدُ ألسنتِهم**[1]**»**.

=

ومال إلى العزلة، واستعد للرحلة، كان كثير الورع والخضوع، غزير الإخبات والخشوع، مبارك الطلعة، مشهور الذكر بين الصوفية والسمعة، يأمر بالمعروف واقتفاء آثاره.وله بستان يقتات منه، ويطعم الناس من ثماره.مات بالإسكندرية سنة اثنين وستين وستمائة، عن خمس وسبعين سنة.وانظر: الشذرات (٥/٣١٢)، طبقات الأولياء (٣١٩)، والكواكب الدرية (٤٧٨) .

(١) رواه ابن ماجه في سننه(٢/١٣١٤)، والبزار في مسنده(٦/٢٧٣).

وأما الغيبة والنميمة فما هما داخلان في الورع بل هما داخلان في المحرمات التي تجبُ التوبةُ منها، فهذا كلُه يندرجُ في التوبةِ إذ لا يصح أنْ يتوبَ مِن بعضٍ ولا يتوب من بعض، ولاأن يكون طائعًا عاصيًا في زمنٍ واحِد.

والورعُ يورّثُ الزهدَ كما أنّ الخشيةَ تورّثُ المراقبةَ.

المراقبَــــة

والمراقبةُ حالُة تختصُّ جميعَ كليةِ العبدِ بين يدى ربِّه ﷻ بجملةِ قلبِه وجوارحِه، فلا يبقى فيه ذرّة إلاّ وهي قائمةٌ شاخصة خاضعة، لا تتحركُ منه الشعرةُ، ولا يطبق الجفنُ على الجفنِ من مراقبتِه لربِّه تعالى، كأنَّ السيفَ مشهورٌ على رأسه، والجبلَ هابطٌ عليه، والسموات والأرض قد اجتمعت عليه وهو بينهما.

وأخبرني الشيخ أبو العباس الملثم، رحمه الله تعالى، أنَّه رأى ذلك، وذلك أن المراقبةَ نتيجةُ الهيبةِ، والهيبةَ نتيجةُ العظمةِ.

فسبحان مَن تفرَّد بالعظمةِ والكبرياءِ و تعالى عَن الأمثالِ والأشباه والنظراء، وتقدَّس عَن النوّابِ والحجّابِ والوزراء، وحيث انتهت العقولُ إلى عظمته وكبريائه فهو أعظم، وأكبر من ذلك، وحيث سرى بك كشفُك واطّلاعك إلى شيء مِن معرفتِه فلستَ هنالك وحدَك.

فمِن المعرفةِ العجزُ عن المعرفة، وأنت عن معرفة العجزِ عاجز، وبينك وبين ذلك حاجز.

والمراقبةُ من المقاماتِ العليّة إذا تحقق الْمُرَاقِبُ بالكمال واستولى عليه سلطان جلالِ الجمالِ يضمحلُّ وجودُه إلى أن يتجلّى عليه جمالُ الجلالِ فيكون بين جمالِ الجلالِ وجلالِ الجمالِ مبهوتًا لا يَطْرَفُ طرفةَ عينٍ:

كــأنّ رقيبًــا مِنــكَ يَرعَــى جَــوارِحِي   وآخــرَ يَرْعَــى خَــاطِرِي ولِسَــانِي

فَمَا خَطَرَتْ فِي باطنِ القلبِ خطرةٌ   لِغَــيرِكَ إلاَّ قُلْــتُ قَــدْ سَمِعَــانِي

وأَخبرني ابن العربي في كتابِه: «مدينةِ العارفين» أنَّه رأى فيها مَلَكًا واقفًا بين يدى الله تعالى مُطْرِقًا إلى الأرضِ طرفُه على موضعِ قَدَمِه لا يتحركُ منه شعرة، وهو هكذا

على الدوام، يتعلَّم العارفون منه المراقبةَ.

والمراقبةُ تقتضي الملاحظةَ للحركاتِ والسكناتِ والكلماتِ وعددِ الأنفاسِ حتى أنيِّ أعرف من كان يعدُّ كلماتِه التي يتكلم بها.

وبلغني عمَّن كان يعدُّ أنفاسَه، وبلغني عن الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد القُشيري- رحمه الله تعالى- قال: ما تكلمتُ كلمًة قط إلاّ وعلمتُ أنِّ أُعرضُ على الله تعالى وأقولُها بين يديه، وهي أدنى أحوالِ المراقِبين.

الزهـــد

والورعُ يستدعي الزهدَ لأنَّه إذا اشتبهت عليه الأمورُ تركَها، فهو عبارُة عن التركِ، زهده. إذا تركه وقلاه، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «**ازهد في الدنيا يُحبُّك الله، وازهدْ فيما في أيدي الناسِ يُحبُّك الناس**[1]».

وهنا دقيقٌة وذلك أنّ الدنيا لَمَّا كانت مبغوضٌة لله تعالى فإنَّه وردَ أنَّ الله تعالى مُذ خلقَ الدُّنيا ما نظر إليها، ولَمَّا تكلمتْ قال لها: اسكتي يا لا شيء.

فلمَّا أبغضَ هذا الزاهدُ ما أبغضَ اللهُ تعالى أحبَّه الله تعالى، ولَمَّا تركَ للناس ما أحبوه أحبَّه الناس، فانظر ذلك وفيه راحةُ القلبِ والبدنِ مِن أَمرِ التكليفِ؛ فإنّ الرزق الْمُقدر مضموٌن له كما ورد: «**يا داود، أمَّا زهدُك في الدُّنيا فقد استعجلت لنفسِك الراحةَ، وأمَّا انقطاعُك إلىَّ فقد تعزَّزتَ بي، فهل واليتَ لِي وليًّا أو عاديتَ فيّ عدوًا؟**[2]».

وهذه رتبةُ الحبِ في الله تعالى، والبغضِ في الله تعالى مِن وراء الزّهدِ.

والزهدُ فيه أقوالٌ منها قطعُ علائقِ الدُّنيا بالكليةِ ورفضُها من النفسِ والقلبِ فإنَّ تركَها لِمَا ينالُه في الآخرةِ فيكون قد تعوّض باقٍ عن فانٍ، وهذا ليس بزهِد، والزهدُ أنْ يتركَها لله تعالى كما قيل:

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه (١٣٧٣/٢)، والشهاب في مسنده (٣٧٣/١)، وانظر تخريجنا له مطولاً في كتاب «الدرر واللمع في بيان الصدق في الزهد والورع» لسيدنا القطب الشعراني، طبع دارة الكرز.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٨٤/١٠)، والطبراني في الأوسط (٣٤٥/٢)، والخطيب البغدادي في التاريخ (٢٠٢/٣)، وابن قدامة في المتحابين في الله (ص٣٤).

وحقِّــك لا نظــرتُ إلى سِــواكَا بعـــينٍ مـــرّةً حـــتى أراكَـــا
أراكَ مُعَـــذِّبِي بفُتُـــورِ لحـــظٍّ وبالخَـــدِّ الْمُـــورَّدِ مِـــن جَنَاكَـــا

وقيل: الزهدُ تركُ ما سوى الله تعالى، وهذه حقيقةُ الزهدِ على أنَّه وإنْ تحقَّق أنَّه ليس شيء يتركه فما ترك إلا ما ليس له، كما قيل:

لأُخلِصَـــنّ عَـــذاري فِي مَحبَّـــتِكم بِحَـولِكم لا بِحَـولِي لا ولا حِيَلِـي
وأَتــرُكَ الكــونَ حَــتى لا أَرَاهُ ولا أَرَى اللُّحوظِ لِتركِ التركِ مِن قِبَلِي
الخَلــقُ خلقُكُــمُ والأمــرُ أَمْــرُكُمُ فـأيُّ شـيٍء أَنـا لا كنتُ مِن طَلَلِ
الحـقُّ قلـتُ ومـا فِي الـدَّارِ غـيرُكُمُ أَعـوذُ بـاللهِ مِـن عِلمِـي ومِـن عمـلِ
مَـا للحِجـابِ مكـانٌ فِي وُجُـودِكُمُ إلاّ بِسـرِّ حـروفِ انظـرْ إلى الجَبـلِ
أَنْــتُم دَلَلْــتُم عَلَــيكُم مِــنْكُمُ بِكُــمُ دَيمومـةٌ عـبَّرتْ عَـن غَـامضِ الأَزلِ

فهذا وإنْ كان شَهِدَ التركَ فإنَّه لم يشهدْ إلاّ بحولِ اللهِ تعالى وقوتِه، وقدْ قلتُ:

أأزهـــدُ ومَـــا لِي في العَـــوالِمِ ذرةٌ ولا الكونُ مِن شَأنِي ولا حَاصلٌ عِنْدِي
ومـــا أَنَـــا إلاّ عبـــدُ رقٍّ لِمَالِكِـــهِ فَمِنْ غَيرِ إذنٍ لا أُعِيدُ ولا أُبْدِي

وأمَّا الزاهدون فهم على قدرِ هممِهم وعلوّ شأنِهم ومطلوبِهم ومقاصدِهم ونياتِهم وسلوكِ المبتدئ والمتوسطِ والمنتهي في الزهدِ.

وقد رأينا مَن تجرَّد وانْخلعَ مِمَّا كان عليه من مالٍ وجاهٍ، فمِنْ الولاةِ الشيخُ نجم الدين القرطبي -وقد تقدَّم ذِكرُه- حتى انخلع من ولايتِه وطافَ الأسواقَ والبلدان والسَّلبةُ في عنقِه حتى تخلَّص من غُرمائه، ورأيتُه يجلسُ على كومٍ وعليه دَلْق أو هدمُة مجردًا، وكان رجلاً مباركًا- رحمه الله تعالى- ولم أكرر ذكره إلا كان في الأول لتخليصِه من المظالِمِ وذكرتُه الآنَ للزهد والتجريد.

ومنهم ابنُ اليمامِ تجرَّد عن الولايةِ وتزهَّد، وجاء منه شيخ وبنى زاوية ونزلَ عندي وله أصحابٌ بسمهود من بلاد الصعيد.

وتجرُّد الشيخُ عامر بن نسيم عن ميراثِ أبيه، وكان جملًة كثيرة، وقد ذكرتُه ومدةَ معرفتِنا به لم يكن عليه شيء غيرُ سجّادةٍ مرقعة في وسَطِه، وسجادة على كتفِه وطاقيةٍ على رأسِه، ينام حيث حلَّ إمَّا مسجد أو على حائطٍ أو كيف ما كان، وكانت له حالات نذكرها في موضع تسميتهم إن شاء الله تعالى.

وأخبرني الرّضي بن الأصمع قال: طلعتُ إلى جبلِ لبنان فوجدتُ فقيرًا فقال لي: رأيتُ البارحةَ في المنامِ قائلاً يقول:

لِلَّـهِ دَرُّكَ يَـا بَـنِي طَلْحَـةَ مَاجِـدًا   تَـرَكَ الْـوِزَارَةَ عَامِـدًا فَتَسَـلْطَنَا

لاَ تَعْجَبُـوا مِـنْ زَاهِـدٍ فِي زُهْـدِهِ   فِي دِرْهَـمٍ لَمَّـا أَصَـابَ الْمَعْـدَنَا

قال: فأصبحت فجئت إلى الشيخ لأجد السلطان الملك الأشرف على بابه، وهو يطلب الإذن عليه، فبقيت حتى خرج السلطان.

فدخلت عليه فعرّفته بما قال الفقير فقال: إن صدقت رؤياه فأنا أموت إلى أحد عشر يومًا، وكان كذلك.

وكان ابن طلحة وزيرًا وتزهد وانقطع إلى الله تعالى وترك الوزارة، وأخبرني الشيخ عبد العزيز- رحمه الله تعالى- عن فقيرٍ قال: أخذ الشيخ عبد الله المارداني بيدى وأدخلني في فندق وقال لأحد التجار من أصحابه: ائتنا بشيء نأكل وثمانين درهمًا فأحضر الجميع فأخذهم الشيخ وخرج، فلمّا بعدنا قال لي: خذ هؤلاء فقلت له: ما أفعل فإنّي تعرّيت وعورتي مستورة ولا سبيل إلى أخذ شيء حتى أحتاج إليه فقال لي: خذ هذا فهو كفن زوجتك ونحن نصلي عليها الصبح فكان كذلك، فانظر إلى هذا الزهد.

التجريـــد

والتجريد يدخل في الزهد والتجريد عبارة عن تجرّد الظاهر والباطن من المألوفات والمعلومات والعادات وخلع الثياب وقطع الأسباب ورفع الحجاب حتى يخلع النعلين ويرفض الكونين ويرفع حكمَ الكيف والأين، وقد ورد **«تحفّوا أحيانًا واخشوشنوا[1]»**

(١) رواه ابن حبان (٢٨٦/١٢)، والبيهقي في الكبرى (١٤/١٠) بنحوه.

والواجب على الرجلِ سترُ عورته وهو ما بين سرته وركبته.

ومن تجرّد ظاهره ولم يتجرّد باطنه فذلك من التدليس، وأوصاف التلبيس وحبائل اللعين إبليس، وذلك من علامات النفاق وسوء الأخلاق؛ فإنّ من أظهر خلاف ما أبطن فهو منافق، فيعمل على تجريد باطنه من غير ربِّه تعالى.

طهارة القلب والنفس

وليبدأ بتطهير نفسه وقلبه؛ فإنّ الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب ولا صورة، فكيف تتنزل الأسرار الإلهية والتجليات الربانية على ثبوت قلب مشحون بصورة الشهوات النفسانية؟ وكلابِ الصفات المعنوية ونجسِ القاذورات الدنيوية، قد رقد فيه أنواعُ أمثالِ صفاتِ الشياطين والصورةُ الجامعةُ لصورةِ المارقين، ونبح فيه الكلبُ الذي ينبح عنه كلابُ الغاوين، واستحوذ عليه الشيطان، وأنساه ذكر الرحمن فنسأل الله تعالى الأمان والنجاة من العدو والشيطان، ويطهّر قلوبَنا من هذه الصفات حتى يبدَّل سيئاتنا بحسنات إنه أكرم الأكرمين.

وأعرف فقيرًا قام به خاطرُ التجريدِ وربَّما كان في وقت الظهيرة حين استواء الشمس وحدّتها فقصد التجريدَ والخروج عن عادته -إذ كانت نفسه محبوسة بذلك، وهي حالةُ العُسر على المبتدئين، لا سيما من المتفقهة؛ لأنَّهم يرون تعظيمهم بالصورة الظاهرة في ملبسهم؛ لأنَّ فطامَ العادة أصعبُ من فطام الرضاعة، والعوائدُ فُطّامٌ على طرق التوبة يقطعون الطريق على كل سالك، ما لم يعان بالتأييد- فنازعته نفسه في ذلك نزاعَ فقيه وقالت له: ألست تعلم أنَّ عبادة الله تعالى في السرِّ أسلمُ للعابد من آفات الرياء والشهرة بالصلاح؟ قال: نعم، فقالت لا تغيِّر زيَّك ولا تخلع ثيابك، واعبد أنت ربَّك كيف شئت، فقال لها: يبقى عليك شيءٌ، وهو ألاّ يكون لك حظٌّ في ملبسٍ ولا مأكلٍ ولا مشربٍ، ويستوي عندك الجوع والشبع والعري واللباس بعد ستر العورة الشرعية، ولأن التزام التجريد يوجب لك الدوام بالشرط.

فقالت: قد استوى عندي ذلك كلُّه من اللباسِ والعري ولو كانت خيشٌة أو حِلٌة مع ملازمِة الباطن للعمل، ويستفيدُ الصدقُ والستر ويتخلص من شبكة الرياء

ورؤية الناس، فقال لها: إن كانت دعواك صادقةً فدعيني أُجرّب ذلك؛ فإنَّ الامتحان يُظْهِرُ عيبَ الدعي.

ثم وضع يده ليخلع ويتجرّد فجاءها الموت عند تغير زيّها وأن يراها الناس على صورة التجريد، وإذا هو يسمع صوتًا عليًّا يقول: يا من خرب بيت عقله لتدع لى عرضك معي، و الذي أحبه يسمو على الأكوان تخلّع عند ذلك واستمر على ذلك على حاله.

التوكّـــل

وأمّا التوكّل فهو نتيجةُ الزهد؛ فإنَّ كل من ترك ما سوى الله تعالى انقطع إلى الله تعالى وآوى إليه واعتصم به وتوكل عليه وفوَّض أمرَه إليه واعتمدَ في جميع أحواله عليه، وهو كالطفلِ الرضيع الذي لا يعرفُ غيرَ أمِّه في طعامه وشرابه وسكوته ومنامه، لا يفرح إلا بها ولا يحزن إلا عليها ولا يعرف شيئًا سواها. ويدخل في التوكل التفويض وهما شيٌء واحُد، قال الله تعالى: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾ [إبراهيم:١٢].

وقال الله تعالى: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِين**﴾ [المائدة:٢].

وقال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِين**﴾ [آل عمران:١٥٩].

وقال عزّ من قائل: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق:٣].

وورد في الحديث: «**لو أنكم تتوكلون على الله تعالى حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا**[1]».

وقوله تعالى في كفالة زكريا مريم عليها السلام فقال عزّ من قائل: ﴿**وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [آل عمران: ٣٧].

الرفيـــق

وأعرف فقيرًا كان إذا توجّه إلى جهةٍ لا يحمل معه شيئًا، ولا يسلك مظآنَّ الناس، ولا يسأل أحدًا شيئًا، ولا يأكل إلا شيئًا مخصوصًا مما يصح عنده حلّه، فاتفق أنه قصد يومًا أنه يتوجه إلى مكان في البر يتوجه فيه، فسأله فقير أن يكون رفيقه -وكان

(١) رواه الترمذي (٥٤٣/٤)، وابن ماجه (١٣٩٤/٢)، وأحمد (٣٠/١)، وابن حبان (٥٠٩/٢).

حاله لا يقتضي ذلك- فقال له: أنت على حال وأنا على حال غيره، ولا أقدر على صحبتك فقال: لا بد من ذلك، اجعلني إبريقًا لا يتكلم ولا حكم له.

قال: فتوجّهنا، حتى إذا كان وقت العشاء الآخرة بظاهر دمامين، فبينما الفقير يتوضّأ وإذا إنسان مسكَه وحلف بالطلاق من زوجته لا بد أن يسير معه إلى منزله، فسار حتى أتوا منزلِ الرجل، فأخرج مائدة وعليها مأكول من خبز وغيره، فجعل ذلك الفقير الذي سأله الصحبة يلحظه ملاحظةَ المنكر عليه، فإنه يعرف أنه لا يأكل الأشياء مخصوصًا، ويعلم منه الوقوف مع الشرع، فهو يرى أنه لو أكل حلَّ عقده وإن لم يأكل آذى صاحب الطعام، فبينما الرجل يعدل المائدة وقبل أن يقول الصلاة وإذا فقير قد دخل وعلى رأسه لوح خبز وقال: والله يا سيدي، لقد جهدت اليوم على الحلال حتى صحّ لي أجّرت نفسي حصّادًا في ساقية فلان-وذكر رجلاً مشهورًا بالخير- قال: وأخذت أجرتي وطحنتها لنفسي بيدي وعجنت وحملت العجين على رأسي إلى الفرن ولم أستعمل فيه غيري، وها أنا خارج، وأنا أسأل الله تعالى أن أجدك لتأكل من كسب يدي ووضع رغيفًا بين يديه فأكل.

فلمَّا أصبح وسافر هو وذلك الفقير اعترضهما رجل بدوي ومسكه وقال: والله ما أفارقك، أنا رأيت البارحة منامًا، ثم سار به وبرفيقه إلى البرية، فإذا بيتا شَعرٍ فيهما امرأتان، فخرجت إحداهما ودخلت عند الأخرى، ودخلنا البيت الذي خرجت منه، فإذا بقرة مربوطة في غرارة قمح بين البيتين، وقعد البدوي يحدثنا حديث الطريق إلى الله تعالى فأسكرنا حديثه، وقال: أنا من بني عامر..

فبينما هو يحدثنا إذ فرغ ما عملوه، فأحضروا قصعة فيها كالمقطعة التي تعمل من الدقيق واللبن وعليها السمن، فأكلنا واكتفينا.

قال: ونهض الفقير قائمًا فقال له الذي صحبه وكان اسمه إبراهيم: يا سيدي، إلى أين؟ فلم يكلمه، فقال له: هذا مكان خلوة ورجل صالح وزاد حلال، فإلى أين تمضي؟ فلم يكلمه وسار، فاحتاج تبعه. وذلك فيه عذر للفقير؛ لأنَّ الإقامة في مكان فيه معلوم يفسد عليه حالة توكّلِه.

وكان إبراهيم حين خرج مع الفقير حمل مما أكلاه شيئًا في جرابه، فقال له الفقير:

لا تصحبني. قال له: ولم؟ قال: لأني متوكل على الله تعالى وأنت استصحبت الزاد معك وكأنك تريد أن تسكن النفس إلى العادة والزاد فترجع من الله تعالى إلى الرغيف.

قال له إبراهيم: والله لو رأيتك ميتًا من الجوع ما أطعمتك شيئًا من هذا فلا تخشَ من ذلك.

فلمّا سارا من عند الأعرابي حصل لهما عطش شديد فنزلا من الحاجر إلى المراعي التي كانت الرعيان فيها ترعى أغنامهم ليجدا شيئًا من الحسيان التي كانوا يشربون منها، فوجدا حسيًا طلع الماء على غير العادة فشربا وتوضأا، وملأ إبراهيم إبريقًا من ذلك الماء - ولم يكن من عادة الفقير أن يفعل ذلك- فاستشعر الفقير أن إبراهيم قصد أن يطلع أصحابه على ذلك، وأن ذلك كرامة.

فسكت الفقير إلى أن وصلا المسجد الذي بالبر، فوقف الفقير يكنسه ويصلحه وإبراهيم يستعجله للسفر وورود البلد الذي فيها أصحابه، وكلَّمه في تركِ إصلاح المسجد بكلامٍ مؤلمٍ فلم يرجع الفقير إلى قوله، ثم إن إبراهيم خرج وترك الإبريق في المسجد فأخذ الفقير الإبريق وتوضأ بما فيه من الماء ورشّ بقيته في المسجد وصلّى ركعتين تحية المسجد وجلس في القبلة، فلما جاء إلى الإبريق ووجده فارغًا، فوَجَدَ من ذلك وجْدًا عظيمًا، وصدر منه من الكلام المؤلم المفحش أمرٌ عظيم فلم يكلمه الفقير كلمة واحدة.

فلما تعب من سبه وشتمه قال له: أشتهي أن توصلّني إلى البلد؛ فإني لا أعرف الطريق - وكان الفقير يعرف الطريق - فسار به إلى البلد وأحضر لهما زادًا، وأخرج إبراهيم ما في جرابه فإذا هو قد تغير ودوّد فلعله قال: انظر إلى إلهك الذي ظلْت عليه عاكفًا..

وقد قلت:

حَاشَى جَنَابُكُمُ الْعَزِيزُ مِنَ الَّذِي ... يَعْتَاضُ عَنكُمْ بِالمحَالِ الْبَاطِلِ
أَمْ كَيْفَ يصلحُ أن يُقَاسَ لِوَاجِبٍ ... بِالاسْتِحَالَةِ فِي قِيَاسِ الْعَاقِلِ
بَل لاَّ قِيَاسٌ وَلاَ مِثَالٌ فِي الْهَوَى ... إلاَّ لِمَثَلٍ مُوَضِّحٍ لِلجَّاهِلِ

وَجَنَــــابُكُمْ هَـــذَا الرَّفِيـــعُ مُنَـــزَّهٌ عَـنْ كُـلِّ ذَلِـكَ أَوْ وُضُـوحِ دَلاَئِـلِ

الأَكتَــع

وأخبرني الشيخ مجير أنه مرّ به البغدادي -وكانت له أحوال- فقال: صحبت سيدي الشيخ علي- صاحب فم الديل بالعراق- وجرت له أمور ليس هذا مكانها، نذكرها في موضعها، وإنما حكى لي قال: رأيت فقيرًا مقطوع اليد اليمنى، فقصدت أن أسأله فهبته فسألته الصحبة، فقال: صحبة اختيار؟ فقلت: نعم.

فسار في البريّة، وتبعته على غير طريق وبغير زاد ولا ماء، فبقي أربعين يومًا، فلمّا كان كمال الأربعين يومًا نزل على البصرة، وعبرنا على دار الولاية، فوجدنا شابًا قد قطعت يده اليمنى وهي في يد المشاعلي يريد رميها في الطاجن ليقليها.

فتقدم الفقير المقطوع اليد إلى الكف المقطوعة وأخذها من المشاعلي ووضعها على ساعد الشاب ومسح يده على وجه نفسه فعادت يده كما كانت بقدرة الله تعالى. فحصل للناس بهتٌة وولّى والناس سكوت، فصاح الشاب الذي كانت يده قطعت: يا سيدي، سألتك بالله تعالى إلا ما رجعت، فرجع فقال له: ماذا قلت حين وضعت يدك على وجهك؟

قال:ما لك حاجة أو مالك في ذلك حاجة.

فأعاد عليه القسم، قال: قلت بسم الله الرحمن الرحيم. قال: فقط؟ فحين قال ذلك انحلّت يده وسقطت وولى وخرج من البلد.

وكان قد خطر لي في نفسي حين رد الكف؛ أمقطوع الكف يوصل الأكف؟! فلما خرج من البلد سمّاني باسمي ولم يكلمني إلا ذلك اليوم، فقال لي: يا فلان، أنت صحبتني لتعلم سبب قطع كفي ما هو؟ قلت: نعم، قال: وجدت لك الآن سؤالاً آخر، أمقطوع الكف يوصل الأكف؟ فقلت: نعم. قال لي: أما سبب قطع كفي فكنت عاهدت الله تعالى ألاّ أمد يدي إلى شيء من الدنيا حتى ألقاه، وطربني ما رأيت من السياحة، فبينما أنا ذات يوم في السياحة وقد أنسيت العهد لطول المدة، وإذا أنا أنظر تفاح من المباح أو كمثرى، فوضعتها في يدي، وإذا بالخيل قد غارت علي وقبضوا

علي، وأحضروني إلى دار الولاية وقالوا: هذا اللص.

فقال قائل منهم: شاوروا على قطع يده. فقالوا: هذا ما يحتاج إلى مشاورة لتكرار الفعل، وكان قد ألقي علي شبه لص تكررت منه السرقة، فقطعوا يدي فزيّقت فقلت:

إلهي، عبدك وابن عبدك تفعل ما تشاء وتحكم ما تريد فما السبب؟

وأنا أسمع قائلا يقول: يا عبد السوء، مددت يدك لنقض عهدنا فقطعناها، فلو مددت الأخرى لقطعناها.

فتبتُ إلى الله تعالى وسجدت لله تعالى على الأرض وقلت: الحمد لله الذي كانت المعصية باليد الواحدة ولم تكن بالاثنتين، وكانت العقوبة في البدن ولم تكن في القلب، وكانت بالعتاب ولم تكن بالحجاب وكانت في الدنيا ولم تكن في الآخرة.

فلمّا نظر إليّ الوالي والجماعة رموا نفوسهم على الأرض وقالوا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله ما هو هذا السارق، وجعلوا يستعطفونني، وأنا أقول: جعلكم الله تعالى في حل.

فهذا كان سبب قطع كفي، وأما كوني مقطوع أُوصل الأكف، فاعلم أن الله تعالى قضى على هذا الشاب بقطع يده، فلما رأيته شفعت فيه فألجأه القدر، إلى أن سأل فقلت له التسمية، فلم تقع عنده ببال، فنفذ القضاء وقبلت الشفاعة.

وقد قلت:

طَعْمُ الْعَذَابِ عَلَى وِصَالِكَ يَعْذُبُ ... وَالْمَوْتُ أَحْلَى فِي الْوِصَالِ وَأَطْيَبُ

إنْ كَانَ قَدْ قُطِعَتْ يَدِي فِي حُبِّكُمْ ... فَلِنَقْضِ عَهْدٍ أَوْ لأَنِّيَ أَكْذِبُ

فَالْعَفْوُ مِنكُمْ لِلْمُسِيءِ سَجِيَّةٌ ... وَلأَجْلِ عَفْوِكُمُ أَنَابَ الْمُذْنِبُ

وَلَقَدْ مَنَنْتُمْ لِي بَقِيَّةَ مُهْجَتِي ... فَبِحَقِّكُمْ يَا سَادتي لاَ تَغْضَبُ

وأخبرني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- وعني به عن الشيخ أبي الفتح

الواسطي -رحمه الله تعالى-(١) وكان شيخه- قال: كنت آوي إلى مسجد، وكان والدي عمَّره وأحسن عمارته ونضارته، وفرش فيه بسطًا، فكان يوصيني ألاّ يلحقه شيء، فكنت أكون جالسًا، وإذا بشخص فقير موَلٍ يدخل المسجد ورجلاه مملوءتان طينًا، فيمشي على البسط ويلوثها، ويقعد في القبلة في دخوله ولا يتكلم، فأقوم وأمسحها، ثم يقوم بعد ذلك يخرج ويلوثها في دخوله وخروجه، وهو لا يتكلم وأنا لا أكلمه.

فلما كان في أحد الأيام سمعته يقول: إن لم تطعمني شواءً حارًا بعسل نحل بكيت، وخرج فتبعته، فبينما هو يمشي، وإذا شخصان قد مسكاه، وإذا بواحد منهم على رأسه حويجة عليها شواءٌ حارٌ وعسل نحل، فجعلا يقطعان من الشواء ويجعلاه في العسل ويدخلاه في فمه، وهو يأكل إلى أن اكتفى، فأشار إليهم برأسه أو بلحيته بالإمساك فتركاه ومشيا، فتبعته إلى أن خرج إلى ظاهر البلد فالتفت إلي وقال: ما بالك يا أبا الفتح؟ فقلت: ما هذا الدلال على الله حتى تقول إن لم تطعمني كذا وكذا بكيت؟ فقال لي: يا أبا الفتح، أنا بكيت على الله تعالى بالدموع حتى نفدت، ثم بكيت الدماء حتى نفذت، فوعدني ألاّ أبكي أبدًا بعدها، فلو أقسمت عليه بزوال السموات والأرض إلا بكيت لفعل.

وقد قلت:

أَبَدًا عَلَيْكَ عَلَى الدَّوَامِ تَوَكُّلِي ... يَا مَقْصَدِي يَا مَلْجَئِي يَا مَأْمَلِي

---

(١) هو شيخ سيدي الغوث أبي الحسن الشاذلي –قدس سره- قال ﷺ: لما دخلت العراق اجتمعت بالشيخ الصالح أبي الفتح الواسطي، فما رأيت بالعراق مثله، وكان مطلبي القطب. كما في تعطير الأنفاس.

وقال المناوي: ولما قدم الشاذلي الإسكندرية، وكان بها أبو الفتح الواسطى، فوقف بظاهرها واستأذنه فقال: طاقية لا تسع رأسين، فمات أبو الفتح في تلك الليل؛ وذلك لأن من دخل بلدًا على فقير بغير إذنه- فمهما كان أحدهما أعلى- سلبه أو قتله، ولذلك ندبوا الاستئذان. كما في الكواكب الدرية (٣٤٣/٢).

مَـا لِي سِـوَاكَ وَإِنْ عَجَـزْتُ بِحِيلَـةٍ أَغْنَيْتَـــنِي عَـــنْ حِيلَـــتِي وَتَخَيُّلِـــي
فَأَنَـا الَّـذِي إِنْ صَـحَّ أَنِّي عَبْـدُكُمْ لاَ مَثَـلَ لِي لاَ مَثَـلَ لِي لاَ مَثَـلَ لِي

والمتوكلون على الله تعالى في صفاتهم متفاوتون، فمنهم من يرى توكله علّة في توكله إذا كان يستدعي بتوكله منه الرزق، فهو علة إذ الحق مستحق أن يلجأ إليه ويتوكل عليه من غير إطعام ولا إرزاق، فالتفويض أولى؛ إذ هو من حقائق المتوكلين وطرائق العارفين، ألا ترى إلى قوله تعالى عمَّن آمن من آل فرعون: ﴿**وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾ [غافر:٤٤].

وقوله تعالى: ﴿**أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ**﴾ [الملك:١٤].

وقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق:٣].

فإذا كان الله تعالى حسبه وهو العالم بمصلحته من نفسه فلا حاجة إلى استدعائه في توكله شيئًا، فإن استدعاءه علّة في توكله، أو تهمة بخالقه، أعوذ بالله تعالى من ذلك.

سلب الاختيار و التسليم

والتسليم وسلب الاختيار من حقائق المتوكلين، وصفات المتوجهين؛ لأن التوكل يستدعي التفويض، والتفويض يستدعي التسليم، والتسليم يستدعي سلب الاختيار.

وسلب الاختيار حالة يستوي فيها القرب والبعد، والحياة والموت، والجنة والنار، والسعادة والشقاوة، والعلم والجهل، والخير والشر، والإعراض والإقبال، والمنع والعطاء، والعز والذل.

ترتفع فيه الأغيار ويتساوى فيه الليل والنهار والدنيا والآخرة والعاجلة والآجلة، لا تتناقض عليه حالة بحالة غيرها ولا له مطلوب يرجوه ولا مرهوب يخشاه، قد ترك اختياره لاختياره وعمله لعلمه وإرادته لإرادته، قد سلب اختياره وظهرت أعذاره.

وهو كما قلت:

لم يَبْـــقَ لِي فِيمَـــا أُرِيـــدُ إِرَادَةٌ كَـــلاَّ وَلاَ لِي فِي الْعَـوَالِمِ مَطْمَـعُ
سُـلِبَ اخْتِيَـارِي فِي هَـوَاكَ فَحَيْثُمَـا دَفَعَـتْ بِـهِ أَيْـدِي اخْتِيَـارِكَ أَدْفَـعُ
فَأَنَـا الْمُرِيـدُ لِمَـا تُرِيـدُ حَقِيقَـةً لاَ أَنْثَـــنِي لاَ أَرْتَجِـــي لاَ أَجْـــزَعُ

وَأَنَا الْمُحِبُّ لِمَا تُحِبُّ وإن تَشَأ طَمَعًا فَإِنِّي فِي وِصَالِكَ طَامِعُ
هَــذَا وَإِنْ قَنَّعْتَنِي بِخَيَالِكُم فَأَنَا الَّذِي بِخَيَالِكُمْ أَتَقَنَّعُ

ولقد رأيت من لا يختار إلا ما اختاره الله تعالى له، ولا يحب إلا ما يحبه الله تعالى، حتى في المؤلمات.

وما ذكر عن أحد العارفين أنه قال: لو وضعت النار على عيني الواحدة ما سألته أن ينقلها إلى الأخرى.

وليس للمفوِّض حالة اختيار مع المفوَّض إليه، ولا اعتراض فيما يفعله عليه؛ لأن اعتراضه ينقص تفويضه، وهو علّة مفسدة للتفويض، كما أن توكله إذا لم يكن لأجل ما وصل إليه منه علّة في توكله مفسدة له.

وأعرف فقيرًا إذا وقع له أمر رجع بالتفويض إلى الله تعالى فيه، ولا يقع شيء إلاَّ ويكشف عاقبته إلى الخيرة فيه مع كونه مؤلما عند وقوعه، ووجد ذلك غير مرة، قال الله تعالى: ﴿**وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شيئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ**﴾ [البقرة:٢١٦].

وقال تعالى: ﴿**فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شيئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً**﴾ [النساء: ١٩]، وهذا كان في ذلك.

وقد قلت:

أَتَيْتُ وَطَرْفِي فِي الْعَوَالِمِ يَرْكُضُ وَأَبْسُطُ كَفِّي تَارَةً ثُمَّ أَقْبِضُ
وَلاَ لِي فِي كَوْنِ الْوُجُودِ الْتِفَاتَةٌ وَلاَ عِوَضٌ عَنكُمُ بِهِ أَتَعَوَّضُ
وَلاَ لِي قُرْبٌ لاَ وَلاَ بُعْدٌ فِي الْهَوَى وَلاَ لِي إِقْبَالٌ وَلاَ أَنَا مُعْرِضُ
فَفَوَّضْ لأَمْرِي أَن يُفَوِّضَ أَمْرَهُ إِلَيْكَ فَإِنِّي إِنْ تَشَأ مُفَوِّضُ

وأما التسليم فهو حالة الخليل عليه السلام وولده إسماعيل- صلى الله عليهما وسلم - في أمر الرؤيا وقوله:

﴿**قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي المَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَ وَتَلَّهُ للجبين**﴾ [الصافات:١٠٢،١٠٣]

وهذه هي حقيقة الاستسلام والتسليم لله تعالى فيما هو له من غير تروٍ ولا تثبط ولا سؤال ولا اعتراض ولا اختيار في هذا الموطن العظيم، وهو ذبح الوالد لولده بيده، ورضا الولد بالذبح لنفسه، وهذا موطن يتحقق فيه الاختيار وتظهر فيه حقائق الخلّة، وتقوم به الحجة على كل ملّة، وإن كان المرئي المذبوح- وهو الكبش- مستعدًّا في صورة إسماعيل لموقع الاختيار، فقد عزم الخليل عليه السلام على ذبح ولده إسماعيل، وكان المراد العزم على الذبح لا وقوع الذبح،وحصل الذبح للكبش لقوله تعالى: ﴿**قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا**﴾ [الصافات: ١٠٥]، ولم يقل المرئي، وثبت المقام للخليل ولولده إسماعيل فما أسعدهم لا جرم، أتاه النداء بالتصديق، وعجل له بالفداء على التحقيق، وقيل له: ﴿**إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾[الصافات: ١٠٥] وكان ذلك هو البلاء المبين.

ولم يكن ذلك لأحدٍ قبل إبراهيم عليه السلام، وقد أقيما في درجة الإحسان؛ لأنه محل العبادة على الشهود ودرجة الإسلام، كما تقدم عن نبيك سيدنا محمد ﷺ في سؤال السيد جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان والإحسان فقال في الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**[١] ».

وقد قيل في ذلك:

أَرَاكَ بِعَيْنِ الْقَلْبِ فِي مُضْمَرِ الْحَشَا ... وَلَيْسَ عَلَى عَيْنِ الْفُؤَادِ رَقِيبُ

خَيَالُكَ فِي عَيْنِي وَذِكْرُكَ فِي فَمِي ... وَحُبُّكَ فِي قَلْبِي فَكيفَ تَغِيبُ

وقد تقدم للسيد إبراهيم عليه السلام -فيما نقله الأخيار- حديث كثرة غنمه.

وأنه كان له خمسة آلاف كلب مطوقة بالذهب لحراسة الغنم، فسمع اثنين يقولان: لا إله إلا الله فأهاج بلبابه ذكر الحبيب حين ذكراه، فقال لهما: أعيدا عليّ هذا الصوت، فقالا: بنصف غنمك يا إبراهيم، فقال لهما: ولكما النصف، فأعاداه، فقال لهما أعيداه ثانيًا فقالا: بنصف غنمك الآخر، فقال لهما: ولكما النصف، فأعاداه، فقال لهما: أعيدا عليّ ثالثًا وخذاني لكما عبدًا أخدمكما، فرجعا عن حالهما وقالا له:

(١) رواه البخاري (١/٢٧)، ومسلم (١/٣٧).

حقت لمثلك الخلّة يا إبراهيم.

وقد قلت:

أَعِدْ ذِكْرَ مَنْ أَهْوَاهُ يَا سَابِقَ الظَّعْنِ وَخُذْ مَا عِنْدِي وَخُذْ مُهْجَتِي مِنِّي

وَشَنِّفْ بِعَوْدِ الذِّكْرِ يَا سَعْدُ مَسْـ مَعِي لِتَشْهَدَهُ عَيْنِي وَتَسْمَعَهُ أُذْنِي

وَخُذْنِي بَعْدَ الْمَالِ عَبْدًا لِخِدْمَةٍ وإن كُنْتَ لاَ تَرْضَى فَنَفْسِي بِهِ تَرْضَى

ولما ألقي إبراهيم في نار النمرود التقاه سيدنا جبريل عليه السلام وهو هابط إلى النار فقال له: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا. قال: فاسأل ربك. قال: هو أعلم بي. **فانظر** إلى هذه الأمانة على الأسرار الإلهية كيف سترها عن جبريل عليه السلام مع كونه رسول الله وأمينه على شرائعه والواسطة بينه وبين أنبيائه ورسله -عليهم الصلاة والسلام- فلم يسمح له بذلك، ورد العلم إلى الله تعالى فيه؛ لأن قلبه خزانة الملك، والأسرار وديعة الله تعالى في قلبه، ووقوع ذلك الاختيار في مثل ذلك الموطن يتحقق به من هو أهل لها، والملِك أعلم بما أودع في خزائنه وليس له أن يبديه بلسانه ولا يُظهر السؤال للملِك ولا يعترض عليه في فعله في ملكه وهو أعلم لقوله تعالى:

﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ [الأنعام:١٢٤].

وقد قال تعالى: ﴿**وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى**﴾ [النجم:٣٧].

وقد قلت:

وَلَقَدْ جَعَلْتُ السِّرَّ فِيكَ مُكَتَّمًا عَنْ سِرِّ سِرِّي وَعَن قَوْلِي وَعَن مُلْكِي

وَأَخْفَيْتُهُ عَنْهُ وَفِيهِ عَنِ الْخَفَا حتَّى أُخْفِيَ وَخَفِيَ عَنْ دَارَةِ الْفُلْكِ

وَأَصُونُهُ مِنِّي وَعَنِّي غِيرَةً مِنِّي عَلَيْهِ وَإِنِّي رُمِيتُ بِمُهْلِكِ

إِنِّي رَضِيتُ عَذَابَ جِسْمِي نِعْمَةً مِنْهُ عَلَيَّ وَسِتْرُهُ لاَ يُهْتَكُ

وقد جاد إبراهيم عليه السلام بالملك أولاً، ثم جاد بالولد ثانيًا، ثم جاد بالرُّوح ثالثًا قال الله تعالى: ﴿**قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾ [الأنبياء:٦٩].

أما قول الخليل عليه السلام: (بل فعله كبيرهم هذا) بعد أن ﴿**فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ**

كَبِيراً لَّهُمْ لعلَّهُم إلَيهِ يَرْجِعُون﴾ [الأنبياء:٥٨].

فلا يخفى ما في ذلك من التهكّم والاستهزاء بهم وقيام الحجة عليهم، وذلك كثير في القرآن في غير هذا الموضع.

في قوله تعالى: ﴿**لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ**﴾ [الأنبياء: ١٣].

غيبةً عن الكلام، فإن ذلك كان للاستهزاء بهم بعد خراب منازلهم، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ**﴾ [الأنفال:٣٠]، فإن ذلك عائدٌ على وصفهم الذي عاد عليهم بقوله: ﴿**سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾ [الأنعام: ١٣٩]. وقد قلت:

أعُوذُ بِرَبِّي مِن صِفَاتِي فَإِنَّهَا ... تُولِي لِسَعْدِي فِي الْقِيَامَةِ أوْ نَحْسِي

فإن كانَ خيراً كانَ وَصْفِي مُنْعِمِي ... وَإن كَانَ شَرًّا صَارَ وَصْفِي إلى نَحْسِي

وَأسْأَلُهُ تَبْدِيلَ وَصْفِي بوَصْفِهِ ... وَعَفْوًا بِهِ إطْلاَقُ نَفْسِيَ مِنْ حَبْسِي

ورد أن إبراهيم يقول في القيامة، وينسب إلى ذاته الشريفة ما ينسبه عند سؤاله الشفاعة، فلأن المقام يعطي الذل لله تعالى، وأن ينسب لنفسه ما هو في ظاهر الأمر والعادة عند أهل الظاهر، فلأن صفات الأنبياء عليهم السلام ظاهرة وباطنة، وكان كذلك ﷺ، وكذلك قوله تعالى: ﴿**فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ**﴾ [الصافات:٨٨، ٨٩].

وقوله: ﴿**هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ**﴾ [الأنعام:٧٨].

وهو محمول على استيلاء المحبة على قلبه حتى رأى الله تعالى في الأشياء، ورأى الأشياء بالله تعالى، فما قال هذا ربي إلا عن الله تعالى، والكوكب حجاب لرؤية الرائين، فإن الخلة درجة خاصة في المحبة؛ ولأجل ذلك لما غلبت المحبة على زليخا، كانت تسمي الماء يوسف والخبز يوسف، فإن صورة يوسف ظهرت في مرآة قلبها فسترت الأشياء وأسماءها فسمّت كل شيء يوسف، ومقام الخليل في حبه لله تعالى أجلُّ من مقامها في حبها ليوسف، وإلا كيف يصح من الخليل عليه السلام الجهل برؤيته

تعالى والتحيز له؟! والله تعالى يقول: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ**﴾ [الأنبياء: ٥١].

وإنما الحب متى غلب أحرق من القلب كل شيء سوى المحبوب، فلا ترى إلا المحبوب.

كما قيل:

إِذَا شِئْتِ أَنْ تَرْضِي وَأَرْضَى وَتَمْلُكِي زِمَامِي مَا عِشْنَا مَعًا وَقِيَادِيَا

أَلاَ فَانْظُرِي الدُّنْيَا بِعَيْنِي وَاسْمَعِي بِأُذُنِي فِيهَا وَانْطِقِي بِلِسَانِيَا

فهذا شهود من الله تعالى في الأشياء، وحيث غلب الحب واستولى على القلب استيلاءً كليًّا مَحى منه كل شيء سوى محبوبه، فلا يشهد إلا المحبوب فيه، يجد ذلك أرباب الوجدان في هذا الشأن ولذلك يجدون فيما يجده المجنون في المخلوقين، كما جرى لقيس بن الملوح وجميل بثينة وغيرهما من المحبين استدلالاً، وإن لم يكن ثم مناسبة لأرباب المواجيد وأهل محبة الله تعالى؛ إذ لمحبة الله تعالى محققة لعبده، والمحبة من العبد محققة لربه لقوله تعالى:

﴿**يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ**﴾ [المائدة: ٥٤].

والشهود مختلف، وقد ورد في الحديث:

«**عرضت علي الجنة والنار في عرض هذا الحائط**[(١)]».

وإن كان الحائط بالنسبة إلى الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض في صغر الحجم وقلة الطول والعرض كالخردلة بالنسبة إلى الأرض الفلاة، وإنما يفهم من ذلك ضرب الأمثال.

ولما كان مخلوقًا كالأمثال فافهم الإشارة ولا تقف مع العبارة، وأوضح من ذلك أنك تشهد في المرآة الصقيلة صورة نفسك وثيابك بحيث لا يخفى عليك من نفسك المقابلة للمرآة، فلو قدّرت أنك قابلت المرآة بألوان كثيرة ومواضع مختلفة لرأيتها في مرآتك، بل لو قدرت مرآة مقابلة للسموات والأرض لأبصرت في المرآة ذلك كله،

---

(١) رواه البخاري (١/٢٠٠).

فمرآة القلوب المصقولة بأنوار الإيمان كيف تحجب عنها الجنة في عرض الحائط بمن كان يرى بنور الله تعالى؟ بل من رأى وسمع بالله لا يُحجب عنه شيء من ذلك.

فافهم ما تحت ذلك من رؤية الملائكة والأنبياء في المنام، ورؤية البارئ ﷻ في الدار الآخرة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وقد تضيق الألفاظ عن بعض أنوار الكشوف؛ إذ تنظر في اللمحة الواحدة من الفرش إلى العرش وما هو وراء ذلك، وما لا تصل إليه الأفهام والعلوم، وكذلك مثال في النائم الذي تأخذه السِّنة يرى الأرض بأسرها ويرى البلاد البعيدة التي وصل سمعه إليها كجبل قاف وغيره، ويجوز أن يرى الأنبياء عليهم السلام ويرى الله تعالى في السِّنة.

وذلك أنه لما ركدت حواسه الشاغلة عن ذلك، وارتفع القلم عنه بالنوم الذي يرفع عنه ما يجب عليه سرت الرُّوح التي لا يحجبها الجدران ولا يبعد عليها البلدان، ولا يستوي في حقه البعد والقرب، فإن البعد والقرب صفات الأجسام، والمساحة في التقدير من أوصاف المحسوسات، فلا يصل إلى بغداد وغيرها من البلاد أو جبل قاف أو ما ذكرت من سعة الأرض إلا في السنين الكثيرة، وقد يفنى عمره وهو لا يصل إلى ذلك، فكيف بالوجدان الحقيقي والنظر بالنور الإلهي؟ بل كيف من أبصر بالله وسمع بالله كما ورد «**فبي يرى ويسمع**[(١)]».

الخُلّـــة

والخلّة من المقامات العلية من المحبة، وقد يكون ذلك تعليمًا، وقد يكون توبيخًا واستهزاءً وإقامةً لحجة الله تعالى على من يعتقد أن النجم والشمس والقمر ربه، وكذلك الأصنام والحجارة، بل قال: ﴿**بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا**﴾ [الأنبياء:٦٣].

وقد يكون الاستفهام مع التوبيخ «**أهذا ربي؟**» إذ تقول لمن تستصغره عن رتبة نفسك: أهذا مثلي؟ ومثل ذلك، وقد قيل ما لا يصلح للمقابلة والمماثلة..

(١) رواه الحكيم في نوادر الأصول (٣٨٢/١)، وأصله في البخاري «كنت سمعه وبصره».

وَلَــــوْ أَنِّي بُلِيــــتُ بِهَــــاشِمِيٍّ   خَوَّلْتُــهُ بَــنِي عَبْــدِ المــدَانِي
لهَــانَ عَلَــيَّ مَــا أَلْقَــى وَلَكِــنْ   تَعَــالُوا فَــانْظُرُوا بِمَــنِ ابْــتَلاَنِي

ثم يظهر بطلان الاعتقاد ممن يعتقد ذلك في أفوله ويقول **«لا أحب الآفلين»** إلى استيفاء تلك المظاهر، فقال: ﴿ **لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ**﴾ [الأنعام:٧٧].

فلا تعتقد أن خليل الله تعالى عليه السلام جهل ما يجب لله تعالى ويجوز له ويستحيل عليه وفهمته أنت مع قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ**﴾ [الأنبياء: ٥١]. مع وجود العصمة وكونه حجة الله على عباده.

الصبــــر

وأمَّا الصبر فإن التوكل يقتضيه، كما أن الصدق تقتضيه التقوى؛ إذ كل متوكل صابر على ما يرد من الله تعالى، والصبر من المقامات العلية وهو يدخل في كل مقام، ولذلك يؤتى أجره مرتين، وقد قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وقال تعالى: ﴿**وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ**﴾ [البقرة:١٧٧]

فانظر كيف مدحهم بهذا الوصف وحث على الصبر في قوله تعالى: ﴿**وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ**﴾ [النحل: ١٢٦].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر: ١٠].

وكيف قال لنبيه ﷺ: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ**﴾ [النحل:١٢٧].

بيد أن البشر لا يستطيع الصبر على هذه المكاره إلا بالله تعالى وبقوته وبتأييده وعنايته، والأحاديث في الصبر وعلو درجته كثيرة مشهورة.

فأما الواجدون للصبر في البأساء والضراء وحين البأس فمنهم سيدنا أيوب عليه السلام وقصته مشهورة، ولقد صبر حتى عجز عنه الصبر، والذي ذكره أصحاب التواريخ من أحوال يضيق عنه هذا الكتاب وينبو السماع منه ويتغير له الطباع؛ إذ كانت شفته العليا غطت وجهه، والسفلى على صدره، والدود له وجب في جسمه، وهو مع ذلك لا يتحرك منه شعرة إلا بالرضا.

ولقد ذكروا أن دودة خرجت من مكانها فتألم بخلو موضعها من نعمة الله تعالى بالبلاء عليه؛ لأن الله تعالى ينعم بالبلاء ويبتلي بالنعماء فقيل أنه قال:

﴿**مَسَّنِيَ الضُّرُّ**﴾ [الأنبياء:٨٣] لذلك، وقيل غير ذلك.

ولما أخرجوه من البلد خشيةً أن يصيبهم بلاؤه، وأظهروا له أن ذلك من غضب الله تعالى عليه، وحملته زوجته إلى ظاهر البلد، وذكر أنه دخل عليه أصدقاء ثلاثة خرجوا إلى زيارته فقال أحدهما للآخر: لقد ابتلي أيوب ببلاء عظيم، فقال الآخر: لقد صبر أيوب صبرًا عظيمًا، فقال الثالث: لو كان له عند الله تعالى حظ ما ابتلاه بهذا البلاء.. وهم يظنون أنه لا يسمعهم فقال: ﴿**مَسَّنِيَ الضُّرُّ**﴾.

وعلى الجملة لم يكن أيوب عليه السلام متبرمًا ولا شاكيًا ولا جزعًا ولا مختارًا غير الحالة التي هو فيها.

وقد تكلمت الطّائفة في الصبر بحسب مواجيدهم، وكل ذكر ما يجده أو ما وجده فمن قائل: قال الحلاج إنه يقطع يدك ورجلك وأنت تضحك فقال الراوي: والله لقد رأيته بعد ثلاث وقد قطعت يده ورجله وهو يضحك، ومن قائل أن الصبر يجرّع غصصًا ومرارات أدناها الموت، ومن قائل: إن الله تعالى إذا أراد أن يعذب البلاء أنزله على فقير؛ لأن البلاء إنما يعذب من يتألم به أو يتعذب به، أما إذا كان يتلذذ به فما يعذب إلا البلاء لأنه يعمل في غير معمل.

وأعرف فقيرًا مع كونه شابًا قطع الجذام أصابع يديه ورجليه وأعمى بصره، وكنت بمكان وهو فيه، فكرهت أن أراه خشيةً من الألم عليه، فسمع بحضوري -وكان عندي قوّال- فخرج وطاب وتواجد كثيرًا وطرح نفسه على الأرض، وقام وعانقني وقال: والله يا سيدي إني طيب منشرح الصدر فلا تتألم، ثم بعد ذلك مات رحمه الله تعالى فقيرًا.

وكان قد اجتمع بنا وهو متوجه إلى الحجاز، فلما وردنا مصر لم أره فقيل لي أنه حصل له مانع، فسرت إليه فوجدته والجذام قطع أصابع يديه وأقدامه وهو من حسن صورته على زيادة مما أعهده، لم يظهر عليه أثر الألم ولا شيء منه.

ورأيت شيخًا من المشايخ كان إذا أوذي أو بلغه ما يؤلمه يفعل ما يفعله للذي يغص باللقمة ولا يتكلم كلمة واحدة، وربما أحسن إلى من آذاه، والصابرون في الله ولله

كثيرون.. وقد قلت:

تَجَرَّعَ كَأْسَ الصَّبْرِ مُرًّا فَمُذْ رَأَى ... جَمَالَكُمْ صَارَتْ مَرَارَتُهُ شَهْدَا
وَقَدْ رَكِبَ الأَهْوَالَ شَوْقًا إلى اللُّقَا ... إِذْ انْشَقَّ الرَّيْدُونُ وَالْبَانَ وَالرَّنْدَا
وَأَنْسَاهُ مَا قَدْ نَالَ مِنْ أَلَمِ السَّرَى ... إِذَا جَدَّدَتْ أَجْفَانُهُ بِالسَّرَى عَهْدَا

الصبر عن الله تعالى

وأمّا **الصبر عن الله تعالى** فهو ما لا يطاق يعجز فيه الصبر، فكيف بالصابر؟ والتصبر يذهل فيه العقول والضمائر وتخاطر في أنفسها فيه الخواطر وتغيب عن سرها فيه السرائر وقد قلت:

وَلَمَّا رَأَيْتُ الصَّبْرَ قَدْ عِيلَ صَبْرُهُ ... وَلَمْ أَسْتَطِعْ عَنكُم سَلْوًا وَلاَ صَبْرَا
بَكَيْتُ عَلَى قَلْبِي بُكَاءَ مُوَدِّعٍ ... وقُلْتُ لَهُ أبْدَيْتَ عَلَى مَوَدَّتِكَ الْعُذْرَا
وَأَظْهَرْتَ لِي مَا كَانَ مِنّي مُكَتَّمَا ... فَنَادَيْتُ فِي الأَطْلاَلِ عِنْدَ الحِمَا جَهْرَا
ألاَ فَارْحَمُوا مَنْ كَانَ لاَ يَعْرِفُ الجَفَا ... وإلاَّ فَقَتْلِي فِي مَحَبَّتِكُم أَحْرَا
فَقَدْ بِتُّ لاَ أَدْرِي الضَّلاَلَةَ وَالْهُدَى ... وَلَمْ أَسْتَطِعْ طَعْمَ الْحَلاَوَةَ وَالمرَّا
وَقَدْ كُنْتُ لاَ أَخْشَى مِنَ الْهَجْرِ سَاعَةً ... فَأَصْبَحْتُ لاَ أَرْجُو وِصَالُكُمْ شَهَرَا

وقد قلت:

وَيَجْمُلُ عِندي الصَّبرُ فِي كُلِّ شِدَّةٍ ... وَعِنْدِي رَأَيْتُ الصَّبْرُ لاَ يُجْمَلُ

لما انقطع الوحى عن رسول الله ﷺ في ابتداء أمره كاد يتردّى من شواهق الجبال مع قوته ﷺ وجلالته ومعرفته بربه تعالى، هذا مع كونه سيد ولد آدم من الأوّلين والآخرين، والمعصوم والمغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، لم يقدر على حمل ذلك حتى آنسه بقوله تعالى: ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**﴾ [الضحى: ٣].

فكيف لغيره إذا قطعه بعد وصله وأوحشه بعد أنسه وأبعده بعد قربه، لا طاقة لأحد بذلك، نسألك العفو يا رب كل شيء.

وقد قلت:

ولما بدَا الهِجرانُ يومًا وليلةً ... وأصبحتُ في يومي كئيبٌ على أمسِي

فكـدتُّ أُردي الـنفسَ في مهلـكِ الـرَّدَا وطَـابَ لهَـا مـن بعـد بعـدِكُم رَمسـي
فأبــدلتموا هجــرانَكم بوِصــالِكُم وبــدّلتموا تلــكَ القطيعــةَ بــالأُنسِ

فـإن مـن اعتـاد الوصـال كيـف يطيـق الهجـر؟! ومـن اعتـاد الأنـس كيـف يطيـق الوحشـة؟! ومـن اعتـاد القـرب كيـف يطيـق البعـد؟! ومـن اعتـاد الإقبـال كيـف يطيـق الإعراض؟! كما قيل:

عــوّدوني بالوصَــالِ والوصــل عــذبُ ورمَــوني بالصّــدود والصــدُّ صــعبُ
زعمــوا حــين أعرضُــوا أن ذَنــبي فــرطُ حــبي لهُــم ومــا ذاكَ ذنــبُ
لا وحَــقِّ الخضــوعِ عنــد التلاقــي مــا جــزاءُ مــن يحــبُّ ألاّ يحــبُّ

كـان السّـري جالسًـا وزوجتـه عنـده، فـدخل عليـه الشـبلي، وهـو ينشـد هـذه الأبيات، فأرادت زوجته أن تقوم فقال لها: ليس هو بحاضر، فلمّا بكى قال: تنحّي، فقد حضر، وكان الشبلي -رحمه الله-[(١)] بالمحل المشهور.

وقد قلت:

ولاطَفــني بــالأنسِ حــتى ألفتَــهُ وصَـار لقلـبي موضِـعُ السـمعِ والبصـر
فأوحشــني لمــا رمــتْ بي حيلــتي يُعـبّر عَـنّي فِي الهَـوَى السّـنُّ العـبر
فـإنْ أنـتَ لم تسـمح بعـودي إلى الرّضـا فـلا عَـين لي مـن بعـد ذاك ولا أثـر

فآلام الصبر عن الله تعالى وشدته أكبر من أن يوصف وأعظم من أن يعرف إلا لواجدها، أعاذنا الله تعالى من وجدانها.

وأشد من ذلك أن يكون إعراضًا أو صدًا أو إبعادًا أو قطيعةً أو هجرًا أو حجابًا

---

(١) قيل اسمه: جعفر بن يونس، وقيل: جعفر بن دلف. أصله من الشبلية قرية، ومولده بسامراء، وكان أبوه من كبار حجاب الخلافة، وكان خاله أمير الأمراء بالإسكندرية، وولي هو حجابة أبي أحمد الموفق، ثم لما عزل أبو أحمد من ولاية حضر الشبلي مجلس بعض الصالحين، فتاب، ثم صحب الجنيد وغيره، وصار من شأنه ما صار، وكان فقيهًا عارفًا بمذهب مالك، وكَتَب الحديث عن طائفة، وقال الشعر، وله ألفاظ وحكم، وحال وتمكن، وكان يحصل له استغراق وسُكْر.

مات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة عن سبع وثمانين سنة ودفن بمقبرة الخيزران.

وانظر: سير أعلام النبلاء (١٥/٣٦٧)، وتاريخ بغداد (١٤/٣٨٩)، والرسالة القشيرية (ص٤٣)، وكتابنا الإمام الجنيد (ص٨٠).

أو أشدّ من ذلك، أن يكون عن غضبٍ أو سخطٍ أو مقتٍ، فتلك أكبر المصائب.

أعاذنا الله تعالى وإياكم من ذلك كله، وجعل في حجابنا عين الرضا منه وعنه، ونعوذ بالله تعالى وبرضاه من سخطه وبمعافاته من عقوبته ونعوذ به منه.

وقد قلت:

وأصغيتَ لي منكَ الودادَ فحَيثمَا ملكتَ به قلبي وصرتَ به أنسِ
تجانبتَ عنّي حيثُ لا لي حِيلةً ورمَيتني بالصدّ في الجنِّ والإنسِ

والصبر متفاوت الدرجات، وهذه الحالة اشتد فيها المحاق والهلال، ولا يجد السالك لذوقها مساغًا، وهي أشد عليهم من شرب الحميم.

وقد قلت:

سقيت لوشك البين كأسًا من المر وجرعتُها صبرًا أمرَّ من الصَّبرِ
فكانت كشربٍ للحميمِ مقطّعًا لأمعاءِ قلبِ الصبِّ في حالةِ السُّكرِ
فما النارُ إلا دونَ صبري عنكمُ وقام عذولي فيكم باسطًا عذري
عسى رحمةً منكمْ لعلَّ تعطفًا فقد خانني صَبري وقد حِرتُ في أمري
لعلكم تودوا لعبدِ عبيدِكم عسى تجبروا في الحبِّ يا سادتي كسري

الصبرُ مع اللهِ تعالى

وأمّا **الصبرُ مع اللهِ تعالى** فهو فوق هذه الأحوال، تستوي فيه الأحوال وتقف مع الشهود، وفيه تأنيس للصابر لكونه يشهد وجود الحق معه فيستعين على صبره بشهوده ويقوى على آلامه بوجوده لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة: ١٥٣].

وفي هذا الموطن يُقال:

ويُستعذَبُ التعذيبُ فيكُم لأنَّكم تروا أنّي لأجلِكم أتَعذبُ

وقيل:

صبرتُ لأمرِ اللهِ في كلّ شدةٍ　　وعزّيتُ نفسي بالرّضا وبالصبرِ

وتفهم قوله تعالى: ﴿**أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [الأنفال:١٢].

وقوله: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [الحديد: ٤].

وقد قلت:

عَلى مثلِ بُعدِك لا أصبرُ　　ومَنْ ذا بحبِّك لا يعذرُ

رميتَ فؤادي بنارِ الجفا　　فها هي في مهجتي تُسْعِرُ

فداوتْ بوصلِك هجرانَه　　فأنتَ بهِ في الهوى أخبرُ

وإذا كان الله تعالى معهم كيف يجدون ما وجد من حُجب عنه وأُبعد منه، وقيل له اصبر عنه فهذا يقول:

وكيف أخافُ الخوفَ في كلِّ مهلكٍ　　إذا كُنتُموا في كلِّ معضلةٍ معي

الصبر بالله تعالى

وأمّا **الصبر بالله تعالى** فصاحبه قوي بالله تعالى عليه ومستروح فيه، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ**﴾ [النحل: ١٢٧].

وصاحب هذه الحالة يستحلي المرارة ويستعذب العذاب ويلذُّ له فيه العقابُ.

وقد قيل:

أُحبُّك لا أخذًا للثّوابِ　　ولكنّي أحبُّك للعقابِ

وكلُّ مآربي قد قلت منها　　سوى ملذوذِ وجدي في العذابِ

ولقد رأيت صاحباً لي ضُرب بالسياط غير مرةٍ وهو مظلوم في ذلك وهو لا يتكلم، ويترك المرسِّمين عليه وقوفاً، ويجلس ويتحدث في السّير إلى الله تعالى والسلوك في الطريق إليه من غير تغيّرٍ ولا اضطرابٍ، وسأذكر عنه صفات في الرضا أو في موضع المروءة إن شاء الله تعالى.

إذا كنتم في حالةِ الضربِ مشهدي　　فَكيفَ يمسُّ الضربُ قلبي ولا جلدِ

فكُلُّ أذى إن كان في الناسِ ظاهرًا　　فها هو في ذَوقي ألذُّ مِنَ الشهدِ

وكُلُّ الذي تَرضَوه أرضَاهُ في الهَوى　　وأُتبِعهُ بالشكرِ مني وبالحمدِ

وإنّما أعرضت عن تسميته وتسمية إخوان أعرفهم وصحبتهم وأعرف أحوالهم خشية على من لا يعرف منهم ما عرفت ولا يصفهم بالذي وصفت، فقد يقع منه ما وقع من غيره من الإنكار أو الاعتراض، فذلك شأنهم في المتقدمين والمتأخرين.

وإنما لأهل كل زمان ما يخبر عن محاسنهم إلى من سيأتي بعدهم وأهل زمانه نفسه ما يخبرهم عنهم إلا من يلحق بهم وكان خاليًا من الأغيار والحظوظ، فخشيت أن أكون سُلَّمًا لهم إلى النار في الوقيعة في أهل الله تعالى، وغيرة على هذه الطريق، فأنا تارةً أذكر أسماءهم وتارةً أسكتُ عنها في مواضع بحسب المذكورين، وإلا فَهم كذلك.

وأخبرني عدل من أكابر العدول عن زين الدين عيسى الأرمنتي - وكان فقيرًا وكان صاحبًا لي، وكنت أعرفُ منه أحوالاً جليلة في أمر الرضا والصبر على القضاء، وكان أكثر الناس لا يعلمون ذلك- قال تقي الدين عبد الملك العدل: حصل علينا طلبةُ السلطان، وقُدِّرَ على كلِّ واحد باسمه إحضار شيء، وإن لم يحضر ذلك الشيء ضُرِب، حتى أنَّه ضرب في ذلك اليوم أكابر البلد ولا حاجة لتسميتهم، ولم يحصل لي القدر المطلوب مني فحصل عندي دهشة لكوني أُضرب وهو شيء لا أعرفه قط ولا طاقته نفسي، وكذلك نفوس الفقهاء وأرباب الرئاسات لا يتحملون مثل هذه الأمور، وهو من الفقهاء.

فبينما أنا كذلك وإذا أنا بزين الدين عيسى بن مظفر[١] حضر فقال لي: ما لك هكذا؟ فقلت له: أما تنظر ما نزل بي؟ طولبت بكذا وكذا، وقد قرَّروا على من لم يحضر شيئًا ضرب، وقد ضربوا فلانًا وفلانًا - الأكابر الذي ينتمي إليهم هو - فسكتَ وخرجَ، فأورد ما كان قُرِّرَ عليه فقالوا: قد أورد زينُ الدين عيسى فقال لهم: هذا عن تقي الدين عبد الملك[٢]، وأنا فما قَدِرْتُ على شيء، فضُرب ضرباً شديداً، فتألمتُ لذلك ألماً شديدًا، فقال لي لا تتألَمْ، فإنِّي أرى أن الله تعالى قدَّر عليّ ذلك وأنا راض، فمالك أنت بذلك عادة.

وقد قلت:

---

(١) انظر: الوافي في الوفيات (٢٢١٩/١).

(٢) هو الأرمنتي، وانظر: الوافي للصفدي (٣٠٩٤/١).

الصادقُ المحبُّ لا يخشى مِنَ العارِ والعارُ في الحبِّ أنْ يخلو مِنَ العار
لا سترَ في الحبِّ إلا وهو مُنهتكٌ والسّترُ فيه بأنْ يضحى به عَار
علامةُ الحبِّ لا تخفى على أحَدٍ يغُصُّ بالماءِ أو يلتذُّ بالنار
في القربِ والبعدِ لا ينفكُ ذا حزن قَد حازَ عدلاً عليه دمعُه جاري
إن كنتَ تهوى الهوى فاسلُك مَسالكَه ما بين سهلٍ وأتعابٍ وأوْعاري

والصبر بالله تعالى من المقامات العليّة لكونه من مقامات رسول الله ﷺ، ففيه الأنس من الوحشة والقرب من البعد، وهو يستدعِي الرضا.

الرضا

و**الرضا** من المقامات العلية لقوله تعالى: ﴿**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾ [المجادلة:٢٢].

وهو من صفات رسول الله ﷺ، فقد كان يرضى بكل ما يرد من عند الله تعالى على كلِّ حال ومع كل حال، وكل رضا حصل للأولياء بما يرد من القضاء فإنما هو بحسب ميراثهم من نبيهم ﷺ، والرضا يستوي عنده العذاب والعذوبة والحلاوة والمرارة والنقمة والنعمة، ويستوي عنده الحالات ويرتفع عنه المغايرات لرضاه بما يرد من القضاء، ويعلم أنه مقدَّر وقوعه، وأن الله تعالى قدّره وأراده، فلا يختار إلا ما يختار الله تعالى، ولا يرضى إلا ما يرضاه، فيقف مع ما يرِد من غير زيادة ولا نقصان، مع إمساك الأوامر والوقوف عندها، فإن العبد يقف عند الأوامر ولا اعتراض له على مالكه.

وقد يدخل سلبُ الاختيار في الرضا، وهو من أعلى درجات الرضا.

حكايات في الرضا

وقد تعرفت بفقير يسمى عامر بن نسيم- رحمه الله تعالى- أخبرني الشيخ عبد العزيز بن عبد الغني المنوفي -قدّس الله تعالى روحيهما- قال: كنا مجتمعين أو مسافرين، وكان لعامر أخ يسمى عطاء الله، وكان عطاء الله رجلاً صالحاً، وكان يخدم الفقراء فقال لنا ذات يوم: يا فقراء، أشتهي أن تؤاخوا بيني وبين أخي عامر فقلنا له: هو أخوك، فقال: أريد أخوّة الفقراء فآخينا بينهما.

ثم بعد ذلك تكلم عطاء الله مع فقير من الفقراء، فرفس ذلك الفقير عطاءَ الله

فمات، فبقينا مبهوتين لا ينطق منا أحدٌ إلا بعد ساعة، وعامر رفع رأسه وقال: يا فقراء، مالكم جلوس؟ قوموا جهِّزوا عطاء الله.. فما قال عامر كلمةً غيرَها، فجهزناه ودفناه.

فانظر إلى هذا الرضا في مثل هذه الواقعة.

واتفق يوماً أنّ زين الدين عيسى بن مظفر عبر علينا وقد طُلِبَ من جهة السلطان ومن جهة ديوان أمير من الأمراء، فضربوه هؤلاء، فبينما هو كذلك إذ أخبروه بوفاة زوجته أو شيء من ذلك فراح لينظر ذلك فردُّوه، فبينما هو كذلك إذ أخبروه بوفاة ولده فراح يجهِّزه، فبينما هو كذلك إذ قيل له: اخرج إلى الساقية، فقد غارت البئر بالبقر، قال: فخرجتُ فوجدتُ البئر قد غارت، والبقرة وقعت في البئر، فتبسَّمت أو ضحكت وقلت: إيش لي في هذا وهذا؟ كلّه ملكك، تفعل به ما تشاء.

وربما قيل لي أن تلك الواقعة كانت خامس واقعة وقعت له في ذلك إلى الظهر، رحمه الله تعالى.

وحكى لي القاضي ابن السكري خطيب القاهرة عن الشيخ أمين الدين النحوي المحلي قال: كان جامع مصر قد احترق، فشقَّ ذلك على ولي الأمر، فأمر أن يجمع الناس في الجامع ويُغلق عليهم، وتُكتَبُ أوراقٌ بما يُفعَلُ بكل واحد منهم، فجمعوا الناس وكتبوا أوراقاً بأنواع العقوبات من الشنق والضرب والحبسِ وغيرِ ذلك، فاتفق أنه وقع في ورقة شخص يُشْنَقُ، وفي ورقة شخص يضرب فنظر صاحب الورقة التي فيها الشنق إلى ورقته وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، لو لم يكن لي بنات أخشى عليهن الضياع، فقال الشخص الجالس إلى جانبه أنا غريب ولا لي أحدٌ أخشى عليه، وقد وقع في ورقتي الضرب، فخذها وأعطني ورقتك، فاعتمد ما في ورقة الآخر وآثره على نفسه.

وأمَّا الرضا في حال المتقدمين، فقد ذكره غيرنا، فقصدنا الآن ذكر ما رأيناه من أهل زماننا مع كوننا لم نسافر.

وحكايات أخرى

وأما رضاهم بالرزق والقناعة فأمر يكاد لا ينحصر، فكان الفقيه محمد بن

سدوس قدس الله تعالى روحه له عيال كثير وزوجات، وكان مع ذلك من القلّةِ والفقر على حالة عظيمة، ولا يشغله ذلك عن ذكر الله تعالى وكان مستديمَ الاشتغال وله من الأحوال الجليلة التي ذكرها لي كثيرٌ، نذكرها إن شاء الله في موضعها، وكان عبد الرازق القارئ مع كثرة العيال وعدم المكسب لا يشغله ذلك.

وكان الكمال عبد الغفار -قدّس الله تعالى روحه- مدةَ عرفناه كان على هيئة العدولِ من الثيابِ واللباس كالعمامة بالعدية والأكمام الكبار، وكان قُوته نصفُ رغيفٍ، وتارًة خمسة فلوس وتارًة ثلاثة فلوس، وكان له دكان موقوفة أجرتها عليه كذلك.

وكان إن احتاج إلى ثوبٍ في كل سنةٍ يكونُ أوانَ الأجرةِ و ما تكفيه لسترتِه، وبقي على ذلك إلى أنْ ماتَ رحمه الله تعالى، وكان إذا قدَّمنا له شيئًا يأكلُه يعجز عن أكله، وربما مرض.

وأخبرني الشيخ عبد العزيز بن عبد الغني المنوفي رحمه الله تعالى عن فقير قال: رأيت إنساناً جالساً على دكان بزاز، وعليه ثياب مثمنة ومغفار، فوقع في نفسي أنه من الأولياء، فسكتُّ حتى قام، فجئت للبزاز فقلت له: يا أخي، هذا الرجل من أين؟ فقال: ما أعلم إلا أنه يقول: إنني كنت جنديًا وما صلُحت لخدمة الملك، فقام فمشيت خلفه إلى أن نزل دجلة ونزل الماء بعد أن خلع ثيابه وفي وسطه بلين صوف، فجعل يصطاد به الأوراق التي يرميها البقالون حين يغسلون البقل، فحصَّل منها شيئًا جعله من داخل ثيابه، ومشى، وتبعته من حيث لا يعلم، حتى دخل إلى خربة فأخرج تلك الأوراق البقل وكفَّاً من ملح فوضعها، وجعل يأكل إلى أن فرغ فقال: الحمد لله، ثم خرج. فجئت إليه وقلت له: ياسيدي، سألتك بالله إلا ما جئت معي إلى منزلي، وثقلت عليه فمشى معي، وأجلسته ورحت أتيت بفوطة مملوءة من الشي والحلوى والمأكول الطيب، فقلت: يا سيدي، سألتك بالله تعالى إلا ما أكلت من هذا فهو حلال، فقال لي: ما لي بهذا عادة. فألححت عليه وكنت قدمت إليه ثلاثمائة دينار - أو قال مالاً - فأبى أن يأخذه وقال: ما لي به من حاجة.

قال: فأكل لما أكثرت الإقسام عليه فأصبح مريضًا فقلت له: يا سيدي، ما بالك؟ ألا أتيتك بطبيب؟ فقال: يا أخي، لي اليوم خمسون سنةً على هذه الحالة التي

رأيتها ما علم بي أحدٌ ولا تغيرت عليَّ حالتي.

وربما مات رحمه الله تعالى، ولا أتحقق مات لثالث يوم أم لا.

وأخبرني الشيخ عبد الله الدلاصي بمكة شرفها الله تعالى - وهو هناك يقرأ القرآن العظيم - قال لي: أقمتُ بمكة شرفها الله تعالى ثلاثين سنةً، وكان معي فقيران كنا أكلُنا بعدَ كلِّ ثلاثة أيام بخمسة أفلسة مرق قمحية، وأقام معي الفقيران عشرين سنةً وكمَّلت الثلاثين سنةً، وكنت أطوف كلَّ يوم، يعنون أسبوعاً بستين حزب قرآن إلى الظهر، وكنت أروح في كلِّ جمعة إلى زيارة النبي ﷺ ماشيًا.

فانظر إلى هذه الأحوال الشريفة في زمانك وعصرك، فلا ترضى لنفسك بالهوان بسبب الرزق والعيال، فهؤلاء فيهم أرباب عيال مع هذه الأحوال بما قسم الله تعالى لهم وقوفَهم مع القضاء والقدر.

وقد قلت:

رضاؤُك لِي بالقضاء لِي رضا	وعينُ اختيارِك لِي مطلبُ
فَما بعدت فيكم شقةٌ	وكلُّ بعيدٍ بكم يقربُ
فذاتُ الجحيمِ بكم جنةٌ	ونفسُ العذابِ بكم يعذبُ
فكلُّ حديثٍ بكم طيبُ	وكلُّ سماعٍ بكم مُطربُ
فإنْ شِئتمُوا سادتي تُنْعِمُوا	وإنْ شِئْتِمْ سادتي عَذِّبُوا
تَساوى جَميعًا متى شِئتمْ	إذا كنتُ في الحبِّ لا أُحجَبُ
إذا شِئتِمُوا بما شِئتِمُوا	وما كنتُ شيئًا فمَنْ يغضبُ

الشُّكر

وأمَّا الشكر فالرضا يستدعيه، والشكر من منازل الأكابر وهو من صفات النبي ﷺ، وهو يستدعي المزيد، وقد أمر الله تعالى بالشكر فقال تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ**﴾ [البقرة:١٥٢].

وقال تعالى: ﴿**أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ المَصِيرُ**﴾ [لقمان:١٤].

وفي الحديث: **«أفلا أكون عبداً شكوراً[١]»**، والشكر يجب على النعمة، وكل نفس أو لفظة أو حالة حياة أو حركة أو لقمة أو سُكنى أو زوجة أو مطعم أو لباس أو فراش أو خادم أو ذرة أو أكبر أو أصغر، كل ذلك نعمة من الله تعالى على عباده ولا في نعمة الله قليل؛ لأنَّ عدَّ النِّعمة الواحدة لا تحصى، فكيف بنعم متوالية مترادفة مستمرة؟ وكيف بإيجادك من العدم؟ وخلقك في أحسن خلق وأحسن تقويم، ثم أعطاك العقل الذي هو أكمل المخلوقات، ثم الحواس من السمع والبصر والذوق والشم واللمس، ثم المعالي، ثم الجوانح الباطنة والجوارح الظاهرة، ثم جعلك مسلماً، ثم رزقك رزقاً حسناً، ثم علمَّك ما لم تكن تعلم، هذا مع عصيانك وقلة شكرك ووجود غفلتك عن ربِّك وخالقك، فأيُّ نعمة أذكرها وأيُّ نعمة أشكرها؟

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فيجب الشكر في كل خطرة ولفتةٍ، وزمن فرد ولمحة طرف، وهاجس نفس ونظرة عين، ولمحة بارق وجناح خافق، وجرعة ماء أو لذة شهوة أو دفع نقمة أو سقم أو ألم أهلك للشكر، فيجب الشكر له عليك بتأهيلِك لشكره، فإنك لا تصل إلى ذلك إلا به، فشكرك على نعمة يستدعي الشكر فلا يتناهى.

ولو سجدت على الجمر في كل نعمة ما أديت حقَّها ولا وفَّيت بعهدها، فليس لك إلا الجهد ولا لك على حد علمك وعملك، فافعل جهدك وقم في جدك ولا تغفل عن واجب حق الله تعالى عليك، فإنَّ نهاية العلم بمعرفته ونهايته توالي الشكر واستدامته مع الأنفاس والحركات والسكنات والخطرات والإرادات، باطنًا وظاهرًا على الاستمرار والدوام.

وفي كل نفس وزمن فرد تتجدد عليك النعم وتتوارد عليك الألطاف، بزيادات يعجز عنها الإدراك وتقف العقول عن معرفتها، والسماوات والأرض عن حصرها أو حصر أو معرفة جزء منها.

---

(١) رواه البخاري (١/٣٨٠)، ومسلم (٤/٢١٢٧).

وشكر هذه النعمة كلها من الله تعالى يوجب الشكر عليها، فكيف بالشكر إلا بالعجز عنه، فله الحمد أولاً وآخرًا والشكر والثناء بما هو أهله وما علمه بما يستحقه لدلائله ودلالته، و في قوله ﷺ:

«لا أُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك[١]**»** كفاية عن كثرة الكلام فيه.

وقول الصديق رضي الله عنه: **«العجز عن درك الإدراك إدراكُ**[٢]**»** وذلك إدراكُ العجز، ونحن نعجز عن إدراك العجز عن الشكر والثناء والحمد، فكيف بالاستحقاق؟[٣]

ولا يشكر الله تعالى حقَّ شكره ويحمده حقَّ حمده ويثني عليه حقَّ ثنائه غيرُه؛ إذ المعرفة به حقيقة المعرفة، وما يستحقه حقيقة الاستحقاق مستحيل من غيره ولا يعلمه سواه، وقد قلت:

شَكرتُ وما شُكري ببالغِ قَدْرَكم ... ولا همَّتي تَعْلُو لذاكَ ولا قَدرِي

ومالشكرُ إلانعمةٌ مستحقةٌ ... عليَّ بشكرٍ ليسَ يبلُغُه شُكري

فحيثُ انتهى شُكري فعَجْزِي مقدمٌ ... ولا عذرَ في عجزٍ يقومُ به عُذري

---

(١) رواه مسلم (١/٣٥٢).

(٢) هو أثر مشهور عند السادة الصوفية عن سيدنا الصديق –رضي الله عن سيدنا- ودلَّ على أن ثَمَّة أمر يُعجز عن إدراكه، وإن التوحيد هي الوحدة الحقيقية التي لا يُزاد عليها شيء لا من حيث الظهور، ولا من حيث البطون؛ لأنه تعالى من حيث إطلاقه المنزه عن الإطلاق، والتقييد، والتشبيه والتنزيه غير الظهور والبطون، وأفراد العالم كلها، مع أنه ليس بخارج منها، ولا داخل، ولا مُتصل، ولا منفصل ظاهرًا وباطنًا؛ إذ لا يجوز أن يكون معه شيء زائد؛ لأن ذاته غنية عن العالمين.

(٣) قال سيدي أبو المواهب الشاذلي: حقيقة: حضور العبد حضور العجز عن محاضرته في حظيرة مشاهدته، ومطالعته هو نهاية من اعترف وذاق الشراب واغترف.

والعجزُ عن دركِ الإدراكِ شمسٌ **ضحى** ... جرت بها فوق جو الشكِ أفلاكُ

دقيقة: العجز سلب، والإدراك وجود، فكيف جعل الصديق ذلك غاية المقصود؟!

نعم تفهمه إذا أدركت حقيقة الفنا، وتتحقق به إذا تجلَّت به لك الحسنى بأسمائها الحسنى.

فرُحمَــاك يــا ربِّي بمــا أنــتَ أهلُــهُ فقد حارَ فيما قد أتيتَ به أَمري

وقد يكون بين الشكر والحمد والثناء فُرقان بحسب كل واحد، وإن كان المشكور والمحمود والمثني عليه واحد، فإن الشكر في العرف قد يكون على استدامة النعم والعطاء، والحمد قد يكون على النِّعم والبلاء وما نزل من القضاء، فيقع الفُرقان ما بين التعارف والعرفان.

الحمدُ على البلَاء

والحامدون على النِّعم كثير، والحامدون على البلاء قليل، وقد تقدم ذكر من حصل له البلاءِ رحمه الله تعالى، وبلغني أنَّ فقيراً أتى ابن أبي المنا بقنا فسأله شيئًا فأعطاه دينارًا فقال الحمد لله، فأعطاه آخر فقال الحمد لله، فأعطاه آخر فكلَّما حمَدَ الله تعالى أعطاه دينارًا حتى وصل تسعةَ عشر دينارًا فدَعَا له، فأمسك عنه وقال له: لو حمدت الله تعالى لم أبقِ معي شيئًا حتى أعطيه لك.

الثَّنَــاء

والثناء قد يكون على جميل الصفات في نفسها وإن لم يلزم منها، فلذلك وقع الفرقان، فإنك تثني على الكريم من الناس وإن لم تعرفه ولا وصلَ إليك كرمُه، وتثني على جميل الصورة -كجمال السيد يوسف عليه السلام وغيرِه من ذوي مكارم الأخلاق وإن كانوا في غير زمانك- فقد نجد في ذلك فرقًا ما بينه وبين الوصف الآخر وقد قيل:

وإنِّي امــرؤٌ حبيــتُكم لمكــارمٍ سَمعتُ بِها والأُذنُ كالعينِ تعشقُ

والأوصاف الجميلة محمودة محبوبة بالضرورة من غير معرفة دليل؛ إذ الخصائص الإلهية والأدوات الوجدانية تشهد لأنفسها والدليل لها يحجبها، فإنَّك إذا أردت أن تعرف جذب المغناطيس الجديد وأردت أن تقيم الدليل عليه لتوضحه فقد زدته حجابا، وهو أوضح من دليله، وكذلك حلاوة العسل ومرارة الصبر، فشُكْرُ اللهِ تعالى والثناءُ عليه والحمدُ له لا ينتهي العبد فيه إلا إلى العجز والحيرة وهو حده من المعرفة بتلك الأوصاف.

وقد قلت:

تحــيَّرتُ لا علــمٌ عليــكَ يَــدُلني ولا عمــلٌ يجــدي ولا نيــةٌ تَكفــي

ولا الصـدقُ والإخـلاصُ مـنِّي بنـافعٍ ... ولا قابـلُ عـذري لـديك ولا صَـرْفِي

ولا وصـفَ لي أرجـو بِـه نيـلَ قربـةٍ ... تـبرأتُ مِـن نفسـي إليـكَ ومِـن وَصْـفِي

إذا لَم تكُـن أنـتَ الـدليل فـلا هـدى ... وإنْ أنتَ لَم تشفِ مِنَ الدَّاءِ مَنْ يشفِي

فَيَـا دعـوةَ المضـطرِّ قـد آن وقتُهـا ... ويَـا بـادي الألطـافِ جُـدْ لِي بـاللُّطفِ

الذِّكـر من لوازم الشكر

والذكر من لوازمه الشكر؛ إذ الشاكر ذاكر، فنفس شكره نفس ذكره للمشكور، وإن كان بينهما فُرقان، فقد تذكر المحبة فيه؛ إذ المحبة تستدعيه، ومن أحب شيئًا أكثر من ذكره، ولسنا في هذه العجالة نستدعي إيضاح الفرقان بين كل صفات الله تعالى لمكان ما ذكرناه والتزمناه.

وأمَّا الذكر فقد قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

وقال تعالى: ﴿**وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ**﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال: **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ**﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقد تكلموا في الذكر بحسب وجداهم ومعارفهم.

ومنهم من يكون ذكره يستدعي الموجودات فيسمع ذكر الموجودات، وقد كان السيد داود عليه السلام يسبح معه الجبال والطير، قال تعالى: ﴿**يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ**﴾ [سبأ: ١٠].

ومنهم من يجد ذلك في نغمة طائر وتسبيح الرياح والأطيار ونسيم الأسحار وقد قلت:

بـالله قُصِّـي لنـا يـا نسـمةَ السَّـحرِ ... حـديثَ سَعْدِى وقُصِّـي أطيـبَ الخـبرِ

فقـد طربـت لـذكراك أحبتَنـا ... لمـاّ تكـررَ في سمعِـي وفي بصـرِي

وقـد سـكرتُ فـلا أدْري لأيّتهـا رمَـاني السكرُ مِـن وَصـلٍ أم خطـرِي

مـا كنـتُ قبلَ سمـاعِ الـذكرِ غـيرُ فَـتى أُمْسي وأُصْبحُ مِن خَوفِي على حَذرِ

حَتى سَمعـتُ فأفنـاني مَـا سَمِعت فـلا أُخـبرُ اليـومَ عـن عَيـني وعَـن أَثـرِ

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ

وأخبرني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- قال: دخلنا على عتبة الشيخة، وكان الفقراء يَرِدُون عليها وكانت عندها سبحة، فإذا ورَد الفقراء قالت لهم سبِّحوا بينما يتهيأ لكم الغداء، فجعلنا نسبح في السبحة ومعنا فقير، فجعل يمسك حبة في السبحة فيبطئ دوران السبحة بسبب ذلك، فكلموه في ذلك حين فرغ التسبيح فقال للشيخة: أشتهي أن تعطيني هذه الحبَّة، فقالت: ولم اخترت هذه الحبة على غيرها؟ -أو قالت: حتى تخبرني – فقال: لأني أسبح في هذه السبحة جميعها ولم يسبح معي منها غير هذه الحبة فقالت: تعرف من أين هذه الحبة؟ قال: لا.. قالت: هذه من سبحة سيدي القرشي، والله لا أعطيكها أبداً. قال: فإن لم تعطها لي وإلا أخذتها بقلبي.

قال: فأخذتْها ووضعتْها في الصندوق وقفلتْ عليها. قال: فزيّق الفقير، وأدخل يده في كمه -وكانت له سبحة صغيرة- فأخرجها والحبة منظومة فيها فقالت: أخذتَها؟ قال: نعم، قالت: كيف يحلُّ لك أن تأخذ ما ليس لك؟ قال: أنا ما أخذتها بيدي، فإنَّ الشرع إنما خطر على أن أمدَّ لها جارحةً وما مددتُ لها جارحةً، وقد تصرف فيها مالكُها قالت: فهاتها حتى أملِّكها لك فتكون من الوجهين. فدفعها لها حتى ملَّكته إياها.

وأخبرني الشيخ عبد العزيز المنوفي-رحمه الله تعالى- أنه رأى بالجيزة غنمًا، وأنَّ عنزًا منها رفع رأسه وقال: لا إله إلا الله.

أيضًا قال: بينما أنا أمشي إذ رأيت كلبًا عضَّ كلبًا فالتفتَ إليه الكلبُ المعضوضُ وقالَ له اتقِ الله تعالى.

وقد سبح الحصى في كفِّ رسول الله ﷺ، والمعجزة هنا تسبيح الحصى بلسان الآدميين وإلا فالحصى لم يزل مسبحًا لله تعالى.

قال تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُورا**﴾ [الإسراء: ٤٤].

وإذا كان كلُّ شيء من الجمادات والنبات والحيوان والإنس والجان والملك والشيطان والنار والماء والتراب والهواء والصامت والناطق من جميع الخلائق يسبحون الله تعالى، فما تخلفُّك أيُّها الإنسان عن ذكر الذي خلقك لمعرفته؟ وقدَّمك على خلقه، قال الله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦]، قيل ليعرفون: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾ [لقمان: ٢٠].

ولا تقدر أن تحصي نعمة واحدة من ذلك ليلاً ولا نهارًا ولا سرًّا ولا جهارًا مع تيسير الذكر عليك، وهو مفتاح قلبك ونور تبصير عجائب ربِّك، وينفِّرَ الشيطان ويقرب منك الرحمن ويخلع عليك خلع الرضوان، وينور بصيرتك لتجليات العرفان فلِمَ تسمح لنفسك بالفترة؟ وتسبقك الملائكة الكرام عليها وهم لكم يستغفرون، وقد قال تعالى عنهم: ﴿**يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٠].

وأنت تعلم أن كل نفس فات، من الله تعالى لا يعود، وهو حسرةٌ لا يقضى ولا عوض عن ذلك النفس في شيء من الدنيا والآخرة، لأن في الله تعالى عوضًا عن كل شيء، وليس في شيء عوض عن الله تعالى.

مقامات الذِّكر

والذّاكرون لله تعالى بحسب تواجيدهم بالذكر، فتارة يكون الذكر بالجوارح وتارة يكون باللسان، وتارةً يكون بالقلب وتارةً يكون بالإسرار وتارةً يكون بالإعلان، والجامع للجميع ذاكر كامل مع الصدق والإخلاص.

وقد يكون الذكر يمتد من القلب فينتشر في الجوارح والأعضاء واللسان فيذكر الله تعالى كل عضو بحسب حاله، وهذا ذكر القلب، ولا ثبوت للشيطان مع هذا الذكر، ولا وصول له إلى صاحبه البتة وهو أفضل في حق صاحبه من ذكر اللسان، وليس ذلك لكل سالك.

وتارةً يكون الذكر باللسان والتكرار والملازمة بالموالاة بالذكر لتكون الكلمة

للكلمة كالواحدة لا يقع بينهما تخلل ذهني، يأخذ منه الشيطان نصيبه، فإنه في مثل هذا الموطن بالمرصاد، لعلمه بضعف السّالك عن سلوك هذه الأودية لبعده عن عادته، لا سيما إذا كان قريب عهد بالسلوك وفراق العوائد ما لم يجد على ذلك مساعداً ودليلاً وقائداً، وهو بحسب ما يلائمه في سلوكه من الذكر إن قال: لا إله إلا الله أو قال: سبحان الله أو قال: الحمد لله أو قال: الله الله.

والأصل في ذلك جمع القلب بكليته على الله تعالى ورفع الشواغل عن القلب والاضطرار إليه فهذا هو الذكر وهذه هى الصلاة وهذا هو الدعاء، وقد قيل:

ذكرْتُكمـوا لا أنَّ قلـبي نَسِـيكُموا   وأَيسـرُ مـا فِي الـذِّكرِ ذكـرُ لسـاني

أحوال الذاكرين العارفين

وأمَّا الخلوات القلبية، فبحسب السالكين، وما يراه السالك بالمعنى، والخلوات الحسية مشهورة معروفة وهو أن يكون طول القامة في الطول وقدر الجلسة في العرض ولا تكون فيها كوّة أصلاً؛ لأن الخشية من الكوة استراق البصر النور فتقع التفرقة بالمبصرات والظلمة فيها جمعية.

والقصد الجمعية بالقلب وألاّ يكون في شيء خارج عنه وتوالي الذكر كما قدمناه من غير تخلل لا إله إلا الله ولا إله إلا الله، وكذلك ما بين قوله الله الله وهذا أسرع فتحًا للقلب وقربًا من الربِّ ﷻ، وهو أن يذكر بلسانه ويوالي الذكر إلى أن يشارك القلبُ اللسان ويخرق نورُ القلب السموات والشيطان فحينئذ يقوى نور القلب ويستولي ذكره فيضعف ذكر اللسان عند ذلك وتمتلئ الجوارح والجوانح بالنور ويتطهر القلب من الأغيار، وينقطع الوسواس، ولا يسكن بساحته الخناس، ويصير محلا للواردات، ومرآة صقيلة للتجليات والمعارف الإلهيات.

ومنهم من يكون سلوكه على غير هذا المنهاج، فإنَّ طرقهم إلى الله تعالى بحسب عدد نفوسهم وأنفاسهم، وتعرفات الله تعالى إليهم غير محصورة ولا معقولة ولا معلومة، ومنهم من يكون ذكره آية من كتاب الله تعالى كآية الكرسي، ومنهم من يكون خلوته قل هو الله أحد.

وأخبرني ابن العربي[١] أنه أدخل مريدًا له بيته بقل هو الله أحد فرفع في ليلته، وذكر عن نفسه أنه فتح له بها في ربع ليلة.

وكل ذلك بحسب مواجيدهم وطبائع قلوبهم والجمعية بكلية القلب.

وعدم التفرقة في الذكر هي المطلوبة في السلوك وفي الصلاة فإن حضور القلب هو المطلوب في الصلاة، ومتى صلى بغير حضور قلب فليس هذه عند هذه الطائفة صلاة.

وأخبرني الشيخ محمد الموصلي -رحمه الله تعالى- عن دادا عمر عن قضيب البان[٢]، وكان قد صحبه وجرت له معه أمور يضيق الوقت عنها، قال الشيخ محمد:

---

(١) هو سيدنا حضرة الشيخ الأكبر، والمسك الأزفر، والكبريت الأحمر، قُدِّس سرُّه الأطهر، العارف الكبير، محيي الدين بن عربي، ويقال ابن العربي: محمد بن على بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي.

قال الشيخ الشعراوي عنه في كتاب «نسب الخرقة»: كان مجموع الفضائل، مطبوع الكرم والمائل، قد فض له فضلة ختام كل فن، وبلّ له وبله رياض ما شرد من العلوم وعن، ونظمه عقود العقول، وفصوص الفصول.

وحسبك بقول زروق وغيره من الفحول ذاكرين بعض فضله: هو أعرف بكل فن من أهله، وإذا أطلق الشيخ الأكبر، في عرف القوم، فهو المراد... فهو من تغني شهرته عن معرفته.

(٢) هو أبو عبد الله الحسين بن عيسى بن يحيى بن عبد الله الحسني. ذو الأحوال الباهرة والكرامات الظاهرة المتكاثرة، كان عظيم الشأن ورحلة السالكين المعروفين بالعرفان. سئل عنه الشيخ عبد القادر الكيلاني رضي الله عنه فقال: هو ولي مقرب، ذو حال مع الله تعالى وقد صدق عنده، فقيل له: ما نراه يصلي فقال: إنه يصلي من حيث لا ترونه، وإني أراه إذا يصلي بالموصل أو بغيرها من آفاق الأرض يسجد عند باب الكعبة.

وقال الشيخ خليل المالكي رضي الله عنه صاحب «المختصر المشهور»: الولي إذا تحقق في ولايته تمكن من التصور في روحانيته، ويعطي من القدرة التصوير في صور عديدة، وليس ذلك بمحال؛ لأن المتعدد هو الصورة الروحانية.

وقال- وقد اشتهر ذلك عند العارفين-: لما حكى عن قضيب البان رضي الله عنه لما أنكر عليه أحد الفقهاء الصلاة في جماعة ثم اجتمع ذلك الفقيه به فصلى بحضرته ثمان ركعات في أربع صور ثم قال له: أي صورة لم تصلِّ معكم فقبل يد الشيخ وتاب.

=

قلت لدادا عمر أخبرني عن الشيخ قضيب البان بشيء. قال: اخترنا مرة بالجامع وقت صلاة المغرب، فسألته أن يصلي مع الناس وقلت له: يا سيدي، الناس يقولون إنك ما تصلي.. فسألته، فدخل الجامع، فلما أحرم الإمام وأحرم الناس صاح الشيخ بالإمام وقال له: سودت الصلاة، فوقع بالجامع ضجة وتركوا الصلاة وقالوا: لا تصلي ولا تدع الناس يصلون؟ ولحق الامام شيء فلما أفاق قال للناس: بالله اسمعوا كلامي، فقالوا له: قل، فقال: خرجت من بيتي الصبح وأوصتني زوجتي على حِملِ فحم فأُنسيت ذلك إلى أن أحرمت الساعة بالصلاة فذكرته في الصلاة فها أنا أدور عليه الموصل كلها وأنا في الصلاة، فمثلي ما يصلي بمثل هذا.

وإنما ذكرنا هذه الحكاية استشهادًا بأنَّ حضور القلب هو الذكر وهو الصلاة وهو الدعاء، وما عدا ذلك فليس بذكر ولا صلاة.

وقد قلت:

إذا كنتَ فِي قَلبِي وسَمعِي ونَاظِرِي ... وفِي لِسانِي وفِي فَهمِي وفِي فِكرِي

ولَيس لِي شعرةٌ كلا ولا بشرٍ ... إلا وأنتَ منِيِّ مكان النورِ مِن بَصري

فمَا ذكرتُك عَن بُعدٍ ولا حجبٍ ... إلا لأَقضِيَ به الأوطارَ عن عُمري

أقول: القلبُ الغافل متعرضٌ للعقوبة، ولقد ورد في الحديث: «**أنا جليس من ذكرني**[1]»، ولا يخفى أنّ مَن جلس في مَجلس المِلك بقِلّة الأدبِ والالتفاتِ يمينًا وشمالاً، ونظرَ إلى مَملكتِه بعينِ الشَّهوةِ وجواريه بعينِ الفسق، ماذا يستحق؟ هذه حالةُ الذاكر الغافل المشغول قلبُه بشهوات نفسه، وأحوالِ مجازاته ومقاصده بحسب حاله.

وسواء في الذكر الحقيقي إذا كان المقصود هو الله تعالى أن يذكره أو يذكر أنبياءه أو رسلَه أو أولياءه أو مَن انتسب إليه أو من تقرب إليه بوجه من الوجوه أو بسبب من

=

مات بالموصل قريبًا من سنة سبعين وخمسمائة. وقبره بها ظاهر يزار.

وانظر: الكواكب الدرية (٤٣٨)، والانتصار للكردي (ص٥٤١)، كلاهما .

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠٨/١)، وابن أبي عاصم في الزهد (ص٦٨).

الأسباب أو بقول أو فعل، بنحو قراءةٍ أو ذكرٍ أو شعرٍ أو غناءٍ أو محاضرةٍ أو حكاية، فذلك بقدر شوقك وحبك.

ويكون قربُك مِن ربِّك في مجالسته بحسب ضرب المثل، والله تعالى متعالٍ عن المجالسة المعقولة وإنَّما ذلك ضرب مثال، فافهم القرب والبعد في نفسك، فإنَّ الله تعالى يطلق القرب والبعد لضرب الأمثال بما يفهموه: ﴿**وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ**﴾ [إبراهيم: ٢٥].

والحقُّ تعالى متعالٍ عن القرب والبعد والمسافة والتقدير فإنّ هذه من صفات الأجسام، والقرب والبعد من صفات العبد، فبُعد العبد من الله تعالى لوجود الحجاب والقفل والران على قلبه، وقربُه من الله تعالى يرفع تلك الحجب عنه، والله تعالى منزه عن القرب والبعد والملاء والخلاء، موجود بذاته واجب الوجود ليس له مثل ولا هو مثل شيء، تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

فالذكرُ بحسب المواجيد، والمواجيد بحسب تَعرُّف الله تعالى إلى عبيده بحسب قوة كل واحد واستعداده، وبحسب نصيبه من ربه تعالى وإرثه من نبيه وطريقه ومسايرته على قلب الولِّي الذي سار على قلبه.

وأعرف من يجد قلبه في نغمة طائرٍ وتحريك عودٍ وسماع صوتٍ وإنشاد شعرٍ، وقد قلت:

أراكُم بعينِ السَّمعِ فِي كلِّ ناطقٍ ... ولا ناطقٌ إلا بكم في مسامِعي

ولا ذكرٌ إلا عن لسانٍ ذاكرٍ ... ولا فيضٌ إلا عن مسيلِ مدامعِي

ولا شوقٌ إلا واشتياقِي يشوقُه ... ولا نارٌ إلا في الحَشا من أضالِعي

فإن طمعتْ رُوحي بوصلِي إليكُم ... فلاَ غَروَ لما أن طمعتْ بالمطامعِي

وما لي شفيعٌ فيكم بسواكُم ... ومَنْ لِي إلَيكم غيرُكم بشافعِي

وأعرفُ مَن فُتح له بحكايةٍ حُكِيت، وأعرف شخصًا من الفقراء الصالحين الواجدين حصلت عنده وقفةٌ فاستوحش وامتنع من سلوكه فحدثني في ذلك فقلت له: اسمع مني. فقال: أي والله. فقلت له: ارم كلَّك على الله تعالى فليس يحملةٌ عنك غيره

وألقِ نفسك عليه بالكلية ففُتح له في تلك الكلمة وقامَ ورقصَ

وظهر عليه السرور، ولما قيل للسيد الجنيد عند موته: يا أستاذ قل: لا اله الا فأنشد:

إنَّ بيتًا أنتَ سَاكنُه غيرُ محتاجٍ إلى السُّرجِ

ومريضًا أنت عائدُه قَد أَتاه اللهُ بالفرجِ

وجهُك المأمولُ حجتُنا يومَ يأتي الناسُ بالحججِ

ولقد رأيت الشيخ **أبا الطاهر إسماعيل**- رحمه الله تعالى- عند وفاته ولسانه لا يفتر عن الذكر ولا يسمعه أحد، وقال في ذلك الوقت: أين أصحابي؟ والله لا رضيت لهم إلا بالفراديس العُلا.

ثم ذكر شيخه أبا يحيى وقال: يا أبا يحيى، أنا صاحبك في الدنيا والآخرة، فعلمت أن الشيخ قد حضر، فقمت وتجهّزت للسفر معه إلى جبانة قنا، فما وصلت البيتَ إلا وخادمُه قد لَحِق بِي، وقال: قضي الشيخُ، فحملناه بعد أنّ صلَّينا عليه، وسافرْنا به إلى جبانةِ قنا، ودفن هناك رحمه الله تعالى.

وقد كان برباط ابن شعبان[١] فقيران أحدهما اسمه يحيى والآخر مخلص، فلمّا استحضر يحيى قال له مخلص: يا سيدي يحيى، اذكر الله تعالى فقال له: يا ولدي، وإيش نحن هنا نعمل؟

ولقد رأيته بعد موته في المنام فقلت له: يا سيدي أبا الطاهر، أوحشتنا وقعدت في هذه القبور فقال: والله لو جئت عندنا لكان خيرًا.

ولما دنت وفاة الشيخ أبي العباس كان لا يكاد يجلس في مكان وكنت أقول له: يا سيدي، اجلس.. فيقول: يا مبارك، عليَّ أورادُ الأولياء، وعليَّ كذا وكذا، وقد قرب موتي وقد بقي أربعون سنةً - أو شيئًا هذا معناه - ولما توفي بالأقصرين لم أكن حاضرًا، وبلغني أنه توفي ساجدًا لله تعالى.

---

(١) ذكره الشيخ المناوي في طبقاته الكبرى عند كلامه على الشيخ ابن شافع القنائي (٢٠٣/٢).

ولما دنت وفاة الشيخ ناصر الدين المعروف بابن شعبان وهو شيخه قال: أخرجوني إلى بيتي. فقالوا له: أنت في بيتك. قال: لا. وخرج على دهليز المكان ومسك صهره - وكان حاكمًا - وقال له: دع هؤلاء يخرجونى إلى بيتي. فأصبح توفي إلى رحمة الله تعالى.

وكان مواظبًا على صلاة الصبح في الجامع لا أعلم أنه انقطع إلا لمرض يعجزه عن القيام حتى مات رحمه الله تعالى، وكان يقول إنه ما يفتح له إلا عند الممات، ويعزي ذلك القول إلى فقير قاله له

وكان له ولد يسمى على مرض ليلة فأصبح متألمًا لدرس فاته من الحديث فقلت له: يا ولدي، إذا استرحت نعيده عليك، قال لي: أنا أموت اليوم، وحلف على ذلك فمات بعد العشاء أو بعد المغرب، وكان قبل أن يبلغ الحلم.

ولما دنت وفاة الشيخ يعيش -رحمه الله تعالى- قال: الليلة عرسي، فأصبح توفي رحمه الله تعالى.

ولما دنت وفاة الشيخ جلال الدين سمع قائلاً يقول:

تَعالوا نُجدد عهدَ الوصال فكلٌّ يكلُّ على كلِّ حال

أنواع الذكر

والذكر تارةً يكون بالقلب وتارةً يكون باللسان وتارةً بالجوارح كلها، وتارةً يستولي الذكر على الذاكر فيشهد المذكور فيغيِّبه عن الذكر.

هذا هو الذكر الحقيقي، حقيقة الفناء في المحبة فهي من أعلى الدرجات، وغاية المقامات، يُبدي العجائب ويُظهر الغرائب لأن الشكر يستدعي الذكر، والذكر يستدعي المحبة ومَنْ أحبَّ شيئًا أكثر مِن ذكره.

والمحبة وصف لا يوصف، وأمر لا يُعرف، تحار فيها الأفكار ويصغر فيها الكبار ويكبر فيها الصغار، يشيب فيها الولدان ويذل فيها الشجعان، لا تدرك حقيقتها بعبارة ولا يفهم نعتها بإشارة، ارتُكِبت فيها الأخطار والأهوال وتختلف فيها الصفات والأحوال وتتعارض فيها الأقوال والأعمال.

فالناس في عمر الدنيا فيها يتكلمون، وأرباب العقول يحدسون ويحبُّون، ينطق بوصفها كل خطيب وشاعر، وسلبت معانيها الأوائل والأواخر، وكلّ ما ذكروه من الأشواقِ والأتواقِ والإحراق واللهف والأسفِ والشغف والحزن والأنين والوجدِ والغرق والاصطلامِ والفناء والمحو والهباء والسكر والصحو والبقاء والنحول والذبول والأرق والقلقِ والملق والسهر والسهاد والوحدة والانفراد والعزلة والانقياد والبهتة والدهشةِ والحيرة والغيبة والسكون والحركة والسلم والحرب والضمة واللمة والشفاء والسقامِ والغمة والأوهام والبلاء والصبا والبكاء والخضوع والخشوع والدموع والنيرانِ والأشجان والبوح والنوح والكتمان والسر والإعلان والموت والفوت والحيَاة والنشور والتعب والفوق والتحت والعقاب والشهود والخمود والعهود والإطراح والسجن والسراح والعتق والرق والجمع والفرق، وما لا يحصر في كلام، ولا تحدُّه الأفكار والأوهامُ.

فكلُّ ذلك صفات المحبة، وفعلها بالمحب بحسب استطاعته وقوته واستعداده، وهي أعظم مما ذكروا وألطف مما وصفوا، يدق معناها عن المعنى ووصفها عن الصفاء ولطفها عن لطائف العقول والهوى كما قيل:

أ لمَّ بنا وصفٌ يجلُّ عن الوَصف أدقُّ من المعنى وأخفَى مِن اللطفِ
تمازجت الأرواحُ وهي لَطائفٌ إذا هو روحُ الروحِ والرَّوحُ كالطرفِ

واسم المحبة مأخوذ من حبة القلب، وهي سويداؤه، وقيل من الحباب الذي يطفو على الكأس، وقيل غير ذلك.

وقيل: المحبة نار تحرق من القلب ما سوى المحبوب، وعندي أن ذلك تجلي صفات المحبوب إلى صفات المحب بالاستيلاء حتى يفنيها ويمحقها ويمحو أثرها وعينها، فيبقى بصفات محبوبه وتغيب عنه صفاتُ نفسه، فيسمي باسمه كلَّ شيء وينظره في كل شيء ولا يجد معه شيئًا كما قيل:

إذا شئتِ أنْ تَرضي وأَرضى وتَمْلكي زِمامي ما عشْنا معًا وقِيَاديا
ألا فانْظُري الدنيا بعيني واسمعِي بأُذُنِي فيها وانطقِي بلِسانيا

سرُّ المحبّة

وإن كان ذلك فهي إشارات للمعنى واستعارات عن المعنى، وإنما نحن نضرب الأمثال على تقارب الحقائق والأحوال، فإنَّ تجليات الجمال بما يقابل القلوب بالصقال عند استعداد القلوب لرؤية المحبوب، فحيث تتجلى صورة الجمال على قلب المحب مع هذا الاستعداد يستوفيه ويستولي عليه ويلهيه ويغيبه عن نفسه ويذهله عن رسمه كما قيل:

وما هي إلا أنْ بَدَت لِي فَجأةً فأَبْهتُ لا عُرفٌ لدىَّ ولا نكرُ

وأصل هذه الأبيات:

وإنّي لَتَعْروني لذِكراكِ فَتْرةٌ كَما انْتَفَضَ العُصفورُ بَلّلهُ القَطْر
أمَا والذي أَبْكى وأَضْحك والذي أماتَ وأحيا والذي أمرُه الأمرُ
لقد تركْتِيني أحسُدُ الوحشَ أنْ أَرى ألِفَين منها لا يروعهما الذعُر
عجبتُ لِسعي الدهرِ بَيني وبينها فلمَّا انْقَضى ما بيننا سكنَ الدهرُ
وما هِي إلا أنْ بدت لي فَجأةً فأَبُهتُ لا عُرفٌ لدىَّ ولا نُكرُ
فيا حبَّها زِدْنِي جَوىً كلَّ ليلةٍ ويا سلوةَ الأيَّامِ موعدُك الحشرُ(١)

وإنما هي من الأسرار الإلهية التي لا تدركها العقول، ولا تخالطها الأوهام والالتباس ولا تخرج في صورة المثال، ولا تنحصر بقيلٍ ولا قال، ولا تُشهد حقيقتها بالعيان ولا يقوم عليها الدليل والبرهان؛ إذ هي الشاهدة لنفسها والظاهرة بآثارها على من اتصف بها.

والحقائق في أنفسها شواهد لأنفسها والدليل لها حجاب عليها، ألا ترى أنَّ الله تعالى شهد لنفسه بالألوهية والوحدانية؛ إذ لا يشهد لذاته العلية بحقيقة معرفته سواه فقال تعالى: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**﴾ [آل عمران:١٨].

وكرّر الشهادة، وذكر أولو العلم؛ إذ الشهادة بالعلم غير الشهادة بالذوق، فمن

(١) الأبيات من الطويل، وهي لأبي صخر الهذلي في ديوانه البيت الأول مطلعها، وفي الحماسة البصرية للبصري ص (٨٢٤)، وتم تصحيح ما صحف منه في الأصل.

شهدوا علوا بما عَلِموا وإن لم يعلموا حقيقة ذاته العلية ذوقًا ووجدانًا، وذلك يقتضي الإحاطة بها وذلك مُحالٌ، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

وإنّما يعلمون على قدر ما وسعوه وعلموه، ألا ترى المغناطيس يجذب الحديد جذبًا ظاهرًا معقولا معلومًا لِمَن رآه بالحسِّ من غير ارتياب؟ فلو سألتَ عن حقيقة جذبِه والجاذبِ له ما هو لَما قدرت على تحقيق ما طُلب منك، إلا أن تكون خاصية من الخواص وسر من الأسرار لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى، ولا تقدر على إقامة الدليل.

وكذلك إذا سئلت عن ذوقك لحلاوة العسل ومرارة الصبر، وطلب منك حقيقة ذلك وماهيته لا تقدر على إقامة الدليل في نفس طعم الذوقية؛ إذ هي أوضح من دليلها، وكذلك إقامة الدليل على وجود النهار هو واضح من دليله، فكيف بحقيقة وجدان ذلك فيك وقيامه منك فغايتك بعد قدحك فكرتك وقدح بصيرتك أن ترده إلى الله تعالى خالقه وموجده، فليس لك من علمه إلا ما علمت، ولا من وسعه إلا ما وسعت ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فالمحبة سر من أسرار الله تعالى.. وقد قلت:

سرى السرُّ في سِرّي إلى السرِّ مِن سري ... فغبتُ فلاَ أَدْرِي بأَنّي لا أَدري
وأصبحتُ ذا سكرٍ عَنِ السكرِ فِي الْهوى ... بخمرٍ بلا سُكرٍ وسكرٍ بِلا خمرِ
وعربدتُ فِي الكونين شرقًا ومغربًا ... وقد صرتُ في سكرٍ يجلُّ عن السكرِ
فلا غَرْو إنْ عربدتُ تِيهًا على الوَرى ... ولَمْ ألتفتْ يومًا لزيدٍ ولا عَمْرو
فعُذري لعِذري في المحبةِ ظاهرٌ ... وتركُ اعتذارِي فيك أَوْلى مِنَ العُذر

محبّة الله

والمحبةُ سرٌّ من أسرار الله تعالى يختصُّ بها من يشاء من عباده، وأمَّا محبة الله تعالى لعبده فجائزة، ومحبة العبد له كذلك مع عدم المناسبة ونفي الملائمة والمماثلة من كلِّ وجهٍ، وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿ **يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ [المائدة: ٥٤].

وفي ذلك أقوال من محبته عز وجل لهم ومحبتهم له بحسب حال كلِّ مَن قال.

فمن قائل: محبة الله تعالى لعبده إحسانه إليه، ورحمته له وفضله عليه، ومن قائل: محبة الله له تقريبه له بأوصاف الطاعات وحفظه عن المعاصي والسيئات وإكرامه بأنواع الكرامات.

وكلٌّ من الأقوال له فيه احتمال بحسب ما وجد في مقصده وما قصد، وذلك لأنه ورد:

«ما تقرب إليَّ المتقربون بمثل أداء ما افترضته عليهم، ولا يزال العبد يتقربُ إليّ بالنوافل حتى أحبُّه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمعُ به وبصره الذي يبصرُ به[1]».

وورد: **«ما تقرَّب إليَّ بشبرٍ إلا تقرَّبتُ له ذراعًا و ما تقرَّب إليَّ ذراعًا إلا تقرَّبتُ منه باعًا وما أتاني يمشي إلا أتيتُه هرولةً[2]».**

فانظر إلى ضرب هذه الأمثال مما يفعله من المثال ﴿**وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ**﴾ لأنّ لهم مثال، ﴿**فَلاَ تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ**﴾ لأنه ليس له مثال.

فمحبته لهم جذبتهم إليه، ولا تُعْقَلُ حقيقتها، كما قيل:

قُلْ لذى المعْرِض عنَّا ... إنَّ إعراضَك مِنَّا
لو أردْناك لأَضحى ... كلُّ ما فِيك يُرِدْنا

كلام في المحبّة

والذي أراهُ أنَّ المحبة أثرٌ إراديٌّ وتخصيصٌ إلهيٌّ واختيارٌ ربانيٌّ، وذلك في القِدم قبل إبراءِ النسم وخلق اللوح والقلم، ألا ترى إلى ما ورد: **«كنت كنزًا مخفيًّا لا أُعْرَفُ فأَحْبَبْتُ أن أُعْرَفَ فخلقت خلقًا فتعرَّفتُ لهم فبي عَرفوني[3]».**

فكان أصل إيجادهم بالحب واختصاصهم للقرب، فجذبهم حبُّه لهم للمحبة فيه وتعرُّفه لهم بالمعرفة به، ألا ترى إلى قوله تعالى للسيّد موسى عليه السلام: ﴿**وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى**﴾ [طه: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿**وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي**﴾ [طه: ٤١].

---

(١) رواه البخاري (٥/٢٣٨٤)، وابن حبان (٢/٥٨).
(٢) رواه البخاري (٦/٢٦٩٤)، ومسلم (٤/٢٠٦١).
(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/١٧٣).

وفي ذلك اعتبار لك وفتحَ بابَ الفهمِ عنه بنوع من ضرب المثال، فإنك إذا اخترت لك شيئًا من الأشياء دون غيره، أو عبدًا من عبيدك دون سائرهم، وأردته وخصصته لذاتك واصطنعته لنفسك فقد ظهر حبُّك له، فكيف إذا صنعت صنعة وحسنتها وجعلتها في أحسن صورة وأكمل خلقة وهيئة وجعلتها على أحسن ما توصف من محسوس، كالصنائع المحسوسة أو صورة معنوية كالمعاني اللطيفة المبتكرة والأشعار الرقيقة المحكمة، وجعلت ذلك لنفسك ولم تسمح به لغيرك، فكيف ترى اعتبار بها ومحبتك لها؟.

فكذلك ما هو ملكك ولم تكن صنعته، كفرسك إذا اخترتها لنفسك بعد كمال صفاتها وحسن هيئتها كيف ترى عجبك بها؟ وكذلك زوجتك أو جاريتك التي أحببتها، وشغفت بها كيف تصطنعها لنفسك، وتختارها لذاتك؟ وليس هذا وإن كان ضربًا للمثال، فالله تعالى لا يُوصف بما وصفت نفسك، ولا يُعرف بما عرفت به معناك وحسك، فإن رحمة الله ليست كرحمتك، إذ رحمتك لغيرك رفعًا للرقة المؤلمة لقلبك حين رحمته وشفقت عليه فما رحمت إلا نفسك، ورحمة الله تعالى ليست كذلك، وهكذا في جميع الأوصاف، تعالى الله عن ذلك، فإنَّ رحمته لا عن رقة ولا ألم، بل رحمته قائمة بذاته، وصفة من أوصافه يرحم بها كلَّ شيء ولا يبالي كما ورد: «**هؤلاء في الجَنَّةِ ولا أُبَالي وهؤلاء في النَّارِ ولا أُبالي**[١]».

وكذلك غضبه، يهلك به كلَّ شيء ولا يبالي، فالذرة من رحمة الله تعالى- على ضرب المثال إذ لا يوصف بالجزء والبعض والكل، وإنما ذلك للتفهيم- إذا نزلت ذرة من رحمة الله وسعت كل شيء خلقه و في حديث أمِّ الفرخ: «**لله تعالى أرحَمُ بعبادِهِ من أُمِّ الفَرْخِ بأَفْراخِها**[٢]»، فهذا نوع من المحبة على زعم من اعتقد أن محبة الله تعالى لعبد يرجو رحمته، وكذلك الإحسان لأن المحب يحسن إلى من أحبه، وكذلك الفضل والعطاء منه ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [الزمر: ٥٣].

(١) رواه وأحمد في مسنده (١٨٦/٤)، وابن حبان (٥٠/٢).
(٢) رواه أبو داود في سننه (١٨٢/٣).

وما ذكرناه من أنّ أصل إيجادهم للمحبة والمعرفة بالتخصيص الإرادي والسرِّ الإلهي والاصطناعِ الربَّاني فإنَّ المحبة لا يصحُّ معها العذاب ولا يضرُّ معها الذنبُ لقوله تعالى: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ**﴾ [المائدة: ١٨] لأن المحب لا يعذب المحبوب، والاختصاص الإرادي والتخصيص الإلهي والاصطناع الذاتي ينافي التعذيب، ويوجب التنعيم والتقريب حتى يلحق به كل من انتسب إليه وفيه حتى ورد:

«**وجبتْ محبتي للمتحابين فيَّ والمتزاورين فيَّ**[(١)]»، فانظر إلى هذه النعمة التي لا يقابلها مقابل.

وقد قلت:

لا شيء كنتُ أنت كوَّنْتَني ... فظهرْتُ عنك ومنك لا أنِّي أنا
فَقْري إليك حقيقةٌ وتحققٌ ... وعَن العوالِمِ كلِّها أنا فِي غِنا
أَعْطِيتَني كلَّ الفخارِ بنسْبَتي ... عبدًا فصرتُ أَنا وإلا مَن أَنا
إنْ كانَ لِي فيما أردتَ محبةٌ ... فلِيَ المنا ولِيَ الغِنا ولِيَ الهَنَا
لم أستطعْ قولاً وفِيك مَحبتي ... والحبُّ ما منعَ الكلامَ الألْسُنا
ما كنتُ أُذْكَرُ فِي العَوالِمِ كلِّها ... اسمًا ولا نعتًا ولا بعضَ الكُنا
حتى نُسبِتُ إليكَ صرْتُ مكرَّمًا ... بينَ الأَنامِ ونِلتُ غَاياتِ المنا

محبةُ العبد لربه

وأمَّا محبةُ العبد ربَّه ـ تعالى بنفسه ـ جاذبة له القرب إذ لا يستطيع العبد أن يكون محبًّا لربه لعدم المناسبة ووجود المباينة، وإنما سرُّ جذبه إليه ورده منه عليه وهو في ضرب المثال كجذب المغناطيس الحديد لا يعقل معناه مع تحقيق رؤياه، فالعبد ما أحبَّ اللهَ تعالى إلا بهِ أو بحبِّ الله تعالى كما قيل:

---

(١) رواه أحمد (٥/٢٢٩)، ومالك في الموطأ (٢/٩٥٣)، وعبد بن حميد في مسنده (١/٧٢).

أعارتْـــه طرفًـــا رآهـــا بـــه ... فكـــان البصـــيرُ لهـــا طرفهـــا

وقد قلت:

ســرُّ ســرِّى قبـلَ خلـقِ اللـوحِ والقلـمِ ... محجـبٌ بحجـابِ العقـلِ والكلـمِ

سَــرَى إلى سُــدى الأقمــارِ فَانبعثــتْ ... بنــورِه تجَلِّــي الأنــوارِ في الظُلُــمِ

ولاحَ منــه لمعــنى الحُســنِ مُظْهــرَة ... ستــرًا مــن وراء الســجنِ والخــيمِ

فأشـعلتْ نـارَ شـوقِي في القلـوبِ كمَـا ... سـرت بـين فـروع الضـال والسـلم[١]

وأبدلتْــه مكــانَ الــبرءِ بالسُّــقم ... فهيَّجــتْ كـلَّ صـبٍّ فِي صـبابتِه

بكــلِّ عضــوٍ بهــا ســقم تخَلَّلــه ... فـنحنُ مـن أجلِهـا جلـدٌ على عظـم

يَــبْرِي العظــامَ بأَسْــيافِ الغَــرامِ كمــا ... يَسْـري بهـا في نُشـورِ البعـثِ والـرَّقم

وسرُّ سار من وراء سائر العلوم والأفهام، يُستَرُ تارَة بالإحسان وتارَة بالإنعام وتارَة بالامتنان، وتارةً بالإكرام وتارةً في وصف الجمال، وتارةً في نظم الكمال وتارة في صفات الكمال، وتارة في مطوَّرات الأنام وتارةً في تمايل الأشجار، وتارةً في نغمات الأطيار وتارةً في النبات و الأزهار، وتارةً في نسيم الأسحار، وكلَّما لاح وصف الجمال في طور من الأطوار هاج المحب وثار وباح بما عنده من الأسرار، وركب الأهوال والأخطار ومنع النوم والقرار وتلذذ بالتهتك والإشهار، وطاح عنه ما كان من الكتمان والاستتار وصاح بالافتضاح بعد الاعتذار، إنَّ تركَ العار في الحب عارٌ.

وقد قلت:

ارضَ لِي يــا صــاحبي كــلَّ عــارٍ ... وابــكِ عَــنِّي بالــدموعِ الغــزارِ

لاحَ لِي بــارقُ الحــيِّ وهنــا ... لمَ أَطِـق بَعْـدَ مـا لاحَ لِي اصـطبار

فأنــا النــائحُ الحــزينُ بشــجوٍ ... كلَّمــا لاحَ بــارقٌ في الــديارِ

لا تَلُمــني عَلــى احــتراقٍ بقَلــبي ... أحـرقَ الحـبُّ مُهجـتي وهـو نـار

---

(١) الضال: هو السدر البرى واحده ضالة. والسلم: هو شجر السنط، واحده سلمة.

سترَ الحبُّ بارقَ الحي عني بحجَابٍ أستارُهُ مِن نهارِ
وأتى طائرُ الأراكِ سَحيرا ناحَ عنِّي بسَاحتي ثم طار

درجات المحبّة

والمحبون لله تعالى متفاوتون في درجات المحبة بحسب وجدانهم ووسعهم واستعدادهم وطرائقهم ومعارفهم بحسب تعرُّف الله تعالى إليهم على قدر خلقهم وما أعطاهم في شأنهم ﴿**أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾ [طه: ٥٠].

ومنهم من تعرَّف له من محبته بالإحسان.

ومنهم من تعرَّف له باللطائف والكتمان.

ومنهم من تعرَّف له في محبته بالمقاطعة والحرمان.

ومنهم من تعرَّف له في محبته بالحور والولدان.

ومنهم من تعرَّف له في محبته بالشواهد والبرهان.

ومنهم من تعرَّف له في محبته بالكشوف والأعيان.

ومنهم من تعرَّف له في محبته بالحجاب والرَّان.

ومنهم من تعرَّف له في محبته بالجلال في الجمال.

ومنهم من تعرَّف له في محبته بجمال الجلال.

ومنهم من تعرَّف له في محبته بأوصاف الكمال.

ولنقتصر على هذا؛ إذ البحر عميق، والسابح فيه غريق، وكل واحد من هؤلاء الأوصاف وإن لم يجد من الماء إلا السراب، ولم يسمع من الخطاب إلا طنين الذباب بالنسبة إلى علو المقام، واستحقاق الرتبة العرية عن الأوهام، فكلٌّ يعتقد أنَّه لم يصل أحد إلى ما وصل إليه وإن ثقل المجيد ما حمل عليه كما قيل:

وكلٌّ يدَّعِي شغفًا بليلى وليلى لا تقرُّ لهم بِذاكا
إذا انهلَّتْ دمُوعٌ في خدودٍ تبيَّن مَن بكا مِمن تَباكا

من علامات المحبة

وأمَّا الأشواقُ والأتواق والحرق والقلق واللهب والتعب والأسف واللهف والرسيس، والحزن والكمد والكآبة والأرق والسهاد والبكاء والعويل، والتلف والشغف والسقام والغرام، والنحول والذبول والرعشة والدهشة والحيرة والبهتة، والفناء والاصطلام والمحو والانعدام، والهباء والصحو بعد المحو، فكلُّ ذلك وإن لم يستوفه من صفات ظاهر القلب وباطن الجسم، وإن ظهرت عليه آثاره، والقلب والكبد والفؤاد، والشفاف والصميم والسر والضمير وسر السر وقلب القلب، فكلُّها حقائق معنوية لا يعبر عنها إلا بالاصطلاح، ولا سبيل إلى ذوقها إلا بالوجدان، وكلُّها من علامات المحبة لا حقيقة نفس المحبة.

وقد توجد بعض هذه الصفات في المتحابين من الآدميين، كقيس بن الملوح وعروة بن حزام[١].

ومن كان على مثل حالهم قد بلغوا إلى ذهاب العقول وموت النفوس، ولا تحققوا بالمحبة ولا موت المحبوب، ولا عرفوا إلا ما عرفوه من وصفهم ووجدانهم به.

ولسنا نبسط القول في صفات المحبة والمحب؛ لأنه يستدعي أوقاتًا واسعًة وآذانًا واعيًة وقلوبًا حاضرًة وبواطنًا بالله تعالى عامرًة، وإنما قصدُنا التشويق ونبذة يسيرة من كل مقام، وإن كنا لم نستوف المقامات إلا بالإيماء والإشارات إذ كل مَقام فيه كل مُقام ويشاركه كل مقام بحسب من ينسب إليه؛ إذ المطلوب من الجميع واحد.

وهذه الأوصاف التي ذكرت من المحبة هي نوع واحد من أجزاء أوصاف المحبة، فلا يقدر على رفعه إذ كل سالك يجد ذلك وإن لم يجده سالكٌ فما سلك، لأنه في الوصف يستدعيه فإنَّ العطش يستدعي الرى، والعلم يستدعي المعلوم، والناظر يستدعي المنظور، وهذه العلامات تستدعيها المحبة بوصفها.

وقد قلت:

عويلٌ ولكن ليس يحرَّني عن البعدِ وشوقٌ على شوقٍ ووجدٌ على وجدِ

---

(١) انظر: الأغاني (٣/٧٤)، (٢٤/ ١٢٣).

وبالقلبِ مالوا بالجبالِ لصُدِّعَتْ وبالنَّجمِ لم يطلعْ بنحسٍ ولا سعدِ
وبي مِن هوى: نعم غرامٌ لو أنَّه بصلدٍ لعيل الصبرُ بالحجرِ الصلدِ
وأصبحتُ من داءِ الفراقِ كأنَّني حليفُ الضنا والبينِ من ساعةِ المهد
رماني الهوى بالصدِّ والبينِ والقِلى كأنَّ النَّوى شيءٌ خُلِقتُ لَه وحْدي
ولوعةُ بينٍ جاوزَ الوصفُ حدَّها فلم تنْتهي بالصبِّ يومًا إلى حَدِّي

مقام الإحسَان

وأمَّا تعرُّفُ الله بالإحسان لمحبة العبد له، فما يخفى في العرف أن من أحسن إلى شخص كائنًا مَن كان أحبَّه ذلك الشخص، والإحسان يتفاوت وتتفاوت المحبة بحسبه، فكلّما زاد الإحسان زادت المحبة.

فكيف بإحسان الله تعالى إلى من أوجده من العدم، وأسبغ عليه سوابغ النعم، وخلقه في أحسن تقويم، وكرمه بأعظم تكريم، وسخر له ما في السموات وما في الأرض، وحتى ذهاب أرواح الحيوان لأجله، مع مطعمه ومشربه ومنكحه وملاذه وشهوات نفسه في كل نسمة أو سمة أو تنفس نفس نعمة لا تحصى؟

ولا يخفى أن من كان لا شيء فأصبح فوجد نفسه وقد كان نائمًا في العدم فأصبح وجد دارًا وديارًا وفرشًا وزوجات وغلمان وأثاثًا وآلات وكلَّ نوع من الأرزاق والفواكه والمطاعم والمشارب والملابس والأذواق، والمحسوسات والمعنويات.

وكان لا يدرك شيئًا من ذلك ولا يعلم ما هنالك فوجد له عينًا يبصر بها جميعَ الألوان والمساكن والجنان وملكوتَ السموات والأرض، وأذنًا يسمع بها الأصوات واختلاف اللغات وإدراك القبيح من الحسن وسائر المسموعات من الأصوات الطيبات والنغمات اللذيذات، وكلام رب العزة والقرآن وغير ذلك.

ووجد له لسانًا يتكلم به عمَّا في نفسه من العلوم وما يهجس في النفوس من الخواطر والنيات وما يحدث من الحاجات، ويجاوب به غيره عمَّا يتكلم به معه فيه وسر اللسان كثير.

وكذلك وجد له ذوقًا يستطعم به الحلاوة من المرارة، والملوحة من العذوبة، ويفرق

ما بين مطعوم الأطعمة، ويتلذذ بكلٍّ منها على حسب طعمه، وكذلك وجد له مشامًا يدرك الأرياح الطيبة من الخبيثة على اختلاف أنواعها وأجناسها من الرياحين والشمومات كلها، والمسك والعنبر والنّدّ والعود والقرنفل وكل مشموم يفرق به بين المطبوخ من الأطعمة بالمشام، وكذلك في سائر هذه الحاسية.

وكذلك حاسية اللمس يدرك فيها جميع الملموسات من الخشونة والنعومة والحرارة والبرودة، ويرى به في جميع معانيها المخلوقة لها، وجعل له يدًا يبطش بها وينتفع بها في مأكله ومشربه ومدخله ومخرجه، ويدفع بها عدوَّه وكتابة ما يحتاج من ذلك، ويدًا أخرى لقضاء حاجته، وللمس ما يختار أن يلمس بيمينه، وكذلك جعل له رجلين يسعى بهما في مهماته وحركاته وسكناته إلى انتهاء النفع بهما، وجعل له بطنًا يجمع له فيها من الغرائب والعجائب ما قدَّمنا ذكره من أحوال القلب والأسرار الإلهية، وما لا يسع هذه العجالة شرحه وستر ما فيه عن الناس وجعله أمينًا عليه ووكَّل به من يحفظه له، وفيه ما لا يحتاج ذكره، وكذلك جعل البطن الذي هو محل الطعام والشراب ورمي الفضول وأخذ الطيب، وجعل لذلك مدخلاً للطعام ومصرفًا للتفل وستره عن أعين الناظرين وغيرَ ذلك، وجعل في النفس أمورًا وخواطر وسترها عن الخاص والعام، فلو اطَّلع أبوك وأمك على ما في نفسك لمقتوك، وهو مع هذا كلِّه يستره عليك مع عصيانك ومخالفتك له.

وفي بعض ذلك كفاية، فلو انتبهت من نوم عدمك إلى يقظة وجودك وجدت هذه الخيرات كلَّها وهذه المعاني كلّها لك، وعلمت من نفسك أنَّك عاجز عن بعض ذلك وتحققت وقيل لك: لم تحيرت في أمرك؟ وسألت عن من فعل لك ذلك؟ فقيل لك: فعله لك عظيمٌ قادرٌ قاهرٌ غنيٌّ عالمٌ حيٌ باقٍ مريدٌ فعَّالٌ متصفٌ بأوصاف الكمال ويستحيل عليه النقصان، لا يقدر أحدٌ أن يصل إليه إلا به، ولا يعرفه الا بتعرفه، مالكُ كلِّ شيء وخالقُ كلِّ شيء، وهو على كل شيء قدير وهو السميع البصير، خلقك وأعطاك هذا كلَّه وجعله ملكك، وإذا شكرته زادك وهو يحبك، وإذا أحببته زادك، وإذا تقربت إليه تقرب إليك أكثر مما تقربت إليه.

فأنت لا شك تحبه بكل قلبك وتشتهي أن تراه وتستحث نفسك على رؤيته ولو

أن نفسك تهلك عليه، لا سيما إذا عرفت أنك إذا قُتِلت فيه أعادك أحسن إعادة وأبقاك أحسن بقاء وأحياك أحسن إحياء.

فبهذا تجد المحبة له بطبعك ولا تقدر على ترك حبِّه أبدًا؛ إذ أنت تجد من نفسك إذا أهدى لك شخص هدية مرّةً بعد مرةٍ من غير تقدم إحسان، كيف تجد في قلبك من محبته؟ والاعتناء بأمره والقيام بحقه وخدمته في غيبته وحضوره- فكيف إذا لاطفك بكلامه ومكاتباته وأحسن إلى أصحابك وغلمانك؟ فانظر ما بين الحالتين، وشتان ما بين الوصفين مع كونك تعلم أنه ما فعل ذلك إلا بمراد الله تعالى وتقديره، وتشتهي أن تكافئه وتقابله على فعله، فأين الشأن من الشأن؟ و﴿**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ**﴾؟ فهذا نوع من تعرف الله تعالى على عبده بمحبته له بالإحسان.

ويليه التعرُّف الثاني: بالمحبة بما وعده به في الدار الآخرة من الحور الحسان والغرف في الجنان، وما وراء ذلك، فهذه العوالم الأخروية التي يعجز عنها اللسان ويقف دونها الجنان، وذلك معروف في القرآن، وقد قام عليه الدليل والبرهان فلا حاجة فيه على بيان.

جمَال الجلاَل وجلاَل الجمَال

ولنذكر الثاني: الجامع في حق الإنسان في حقوق الله تعالى لمحبته في معاني الجمال وصفات الكمال، وكذلك جمال الجلال وجلال الجمال، وذلك محبوب بالضرورة في كل صورة حسِّية أو معنويةٍ ظاهرةٍ أو باطنةٍ، مشهودةٍ أو مسموعةٍ.

وقد يهلك خلق كثير في المحبة والعشق بسماع المحاسن في ذلك، لأن صورة الحسِّ في السماع تظهر في لطافة التخيُّل والتفكر على أحسن ما يتخيل ويتفكر في المسموع عنه، فيحبه وحيث تقع رؤية التفكر بعد حاسية السماع ويتجلى في مرآة التخيل قويت المحبة واشتدَّ الشغف، وكان تجلي الصورة في المرآة ألطفُ من شهودها فيقع التهتك من قبل رؤيةِ عين الحسن، وحصل ذلك لجمع كثير، و أعرف شخصًا من الفقهاء المفتيين حصل له ذلك غير مرةٍ وأحبَّ مرةً صورةً مصورةً في حجر.

وقد قلت:

وأحببـتُكم مِـن قبـل رؤيـةِ نـاظِري سماعًـــا وأُذني مثـــلُ عيـــني تَعْشـــقُ

يخيّلكم فكري فأَشتاقُ وَصلَكم ويَشْهدُكم سمعي فأَبكِي وأَطرقُ
فطرْفِي مطروفٌ ودمْعِيَ ساكب وجسْمِي محروقٌ وقَلِبي مخفقُ
وما جُعِلَتْ نارُ الأسى في جَوانِحي على بُعدِكم إلا لأنّي أُحرقُ

وأمَّا إذا كانت صورة الحسن ظاهرة في الحس كصورة السيد يوسف عليه السلام فقد وقع في ذلك ما لا ينحصر، لأنَّه قيل أنَّه مات في يومٍ واحدٍ من شهود رؤية الصدّيق أربعون ألفًا، وقيل أنَّه لمَّا دخل على مصر أقام الناس أربعين يومًا مبهوتين بالنظر إليه لا يأكلون ولا يشربون، فانظر إلى هذه الحالة التي قامت بهم والمعنى الذي اصطلَمهم والسرَّ الذي أخذهم كما قيل:

معني به يَسْبي العقولَ سوى الذي يدعي الجمال ولستُ أرى ما هو

وهذا فيما شهدوه من حسن صورة السيد يوسف عليه السلام، وكيف لو شهدوا صورة الحسن التي حسنُ الصورةِ لها كالحجابِ عليها، كستارة الشمس بالسحاب، فما ظنُّك بتجلِّي ربِّ الأرباب بكمال صفات الجمال من وراء العقول، والحجاب لمرأى القلوب والألباب من غير شك ولا ارتياب، هل يثبت لهذا التجلي الإنسانُ؟ أو يبقى مع وجوده ليلٌ أو نهارٌ؟ ألا ترى قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً**﴾ [الأعراف: ١٤٣]؟ هذا ولو كُشِفَ حجابُ العزةِ لأحرقتْ سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، والانتهاء هنا حدٌّ للموجودات لا حدٌّ لرؤية البارئ عز وجل وتنزّه وتقدّس وتعالى.

صفَات المعاني وصُورة الحس

ولنرجع إلى محبة صفات الكمال من غير رؤية لحقائق الذات ولا تحديد لمعاني الصفات، وإن جازت الرؤية في هذه الدار لكن مع عدم الأغيار، والاستقراء موجود في محبة صفات الكمال لسماع الآذان ورؤية العقول والأذهان.

فإنك إذا سمعت بكمال مكارم الأخلاق في أيِّ شخصٍ كان أحببته، وإن لم تره كما ذكرنا أولاً في المحبة بالسماع بحسن الصورة، وهذه صورة الحس؛ لأن الكمال الذاتي محبوب، فإذا سمعت بكريم مطلق الكرم لا تخصيص في كرمه ولا يضجر من الطلب ولا

يردَّ الطالبَ، ولا يسأم العطاء ولا يملّ السؤالَ، وهذا على الاستمرار والدوام، وكذلك العالم في كمال علمه واطلاعه وكشفه، وكذلك في مكارم أخلاقه وحسن صفاته، والوفاء بكل صفة مطلوبة منه، ألستَ تحبُّه؟ فانظر إلى صورة نبيك محمد ﷺ وقولِ ربِّك ﷻ: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم: ٤].

وانظر إلى محبتك له واعتقادك فيه، وكذلك حين قصَّ عليك قصصَ الأنبياء -صلوات الله عليهم وسلامه- وكذلك صفة الملائكة السادة وصفة السيد جبريل عليه السلام، فانظر كيف تجدُ قلبَك في المحبة والتعظيم؟ لأنَّ صفات المعاني أجمل من صفات الحس، فكيف بمن جمع بين الحس والمعنى؟ وقد قلت:

يا جامعَ الحسنِ في خَلقٍ وفي خُلقٍ	يا كاملَ الوصفِ في الأَخلاقِ والشيّمِ
يا مالكَ الحسنِ بالخُلقِ الجميلِ ويا	معنى الكمالِ الذي في الجودِ والكرمِ
يا خاتمَ الرسلِ يا كنزَ العصاةِ ويا	خَيرَ البريةِ من عُربٍ ومن عجمِ
جذبتَ بالحبِّ مغناطيسَ القلوبِ إلى	سرِّ الجمالِ الذي لم تُبده نِعَم
وقمتَ في الرُّسلِ عالٍ فوقَ رتبتِهم	في أمةٍ أصبحتْ تعلو على الأممِ
شُقَّتْ عليك قلوبٌ في محبتِها	وقلدت في الوَغى أجيادُها بدمِ
قد نلتَ فوقَ الذي ما قالَهُ أحدٌ	مِنَ الأنامِ بما قَد خُطَّ بالقلمِ
وَلِي إليكَ احتياجٌ إنْ مننتَ بِه	عندَ الإلهِ فقُلْ ما شئتَ مِن أَلمِ
فهُوَ العليمُ بما في القلبِ مِن أَلمٍ	وهو الحكيمُ الذي يُشفِي من السِّقمِ
صلَّى عليكَ إلهُ الخلقِ قاطِبة	قبلَ الصلاةِ وقبلَ الخلقِ في القِدمِ

أحوال صفات الجَمال وصفات الكمَال

وإذا عرفت صفات الجمال من صفات الكمال، وأنَّ صفات الكمال محبوبة إذ الرضاع للطفل محبوب حتى ينفطم وتقوى عنده شهوة الأكل؛ فلا يرجع إلى ثدي أمه أبدًا، فإذا بلغ الحلم واشتدت شهوة النكاح عنده ترك لأجلها شهوة الأكل وعَمِل

عليها أكثر مما عداها، وتُرْتَكبُ الأهوالُ في تحصيلها، حتى إذا ظهرت له صورة العقل والكمال، طلبت نفسه العلوَّ والرئاسةَ، وحينئذٍ يترك لهما شهوة النكاح وكلَّ ما كان دونها وطلب صفات الكمال، وشغف بها الشغف الكليَّ وأحبَّ كلَّ من اتصف بها من نبي أو وليٍّ أو صديق حتى استُكْمِلَت في رسول الله ﷺ، فأحببته هذا الحب الذي هو حقيقة إيمانك وحّبك لربِّك ﷻ.

وإذاكان هذا حبك لصفات الكمال المخلوقة في نبيك، فما ظنُّك بصفات خالقك ﷻ ومالكك وموجدك من العدم المحض؟! واجب الوجود والكرم وكمال صفاته وعلو ذاته العلية القديمة الأزلية، وخالق كل شيء، ومالك كل شيء، موجد الموجودات من العدم، وباعث الأموات والرّمم، فمحبتك له تعالى وتقديسه بحسب ما تعرَّف إليك به من محبته بأوصاف كماله وجماله وجلاله وعلو شأنه وعنايته، واستحقاقه للكمال من وجه وبكل وجه، واستحالة النقص عليه من كل وجه وبكل وجه، وهي صفة قديمة باقية قائمة بذاته.

فلو ظهر لك منها لمحة بارقٍ أو خيال طارق، لردَّك إلى الفناء بالإلحاق واستولى على وجودك الذهابُ والمحاقُ، ولصارت ذاتك بعد الوجود إلى العدم لاستيلاء صفات القدم؛ لأنه لا مقابلة لصفات الحادث بصفات القديم، ولا ملائمة له في الحديث ولا القديم، فكيف اذا تجلَّي الذاتُ؟ ورفعَ حجابَ العزةِ عن الوجه الكريم، ونورِ السبحات إذاً لأحرق الكون بالكلية ولانعدمت الأولية والأخروية.

أخبرني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- أن فقيرًا حصل له حضور فلم يملك أن يبول ومسك ذَكَرَه، ومات لقوة الحضور والشهود، فلم يجد في الكون مكانا يبول فيه فمات.

وقد هلك جمع كثير من قوة الحضور والشهود، وإن كان هذا الشهود من حيث أنفسهم وظهور الحق لا قوة للبشرية على تجلِّيه فإنه يفنيه ولا يبقيه ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً**﴾ [الأعراف: ١٤٣] فلولا ما منَّ به من الألطاف من حجاب الرحمةِ على هذه الأوصاف لذهلت العقول وطاشت الألباب ولشغلهم ما أدهشهم عن الطعام والشراب، ولانقطع النسل من عدم النكاح وانفصل العقل عن

محلِّه وطاح، وتخرَّبت هذه الدار واندرست العوالم والآثار وبطلت المعايش والمكاسب، وذهب إلى البراري كلٌّ ذاهب ولكانوا كالوحش في القفار ولغابوا عن معرفة الليل والنهار، فلمَّا حجبهم بالعقول والعلوم، وأبقى عليهم الأطلال والرسوم، وثبت فيهم الشرائع والأحكام، وفرق ما بين الحلال والحرام، وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين، فبلغوا الرسالة وأدُّوا الأمانة وقاموا بما أمرهم وحذروا مما حذرهم، وأوضحوا السبل وأقاموا الدليل ونصحوا الأمة ورفعوا الغمة، وأظهروا الحكم وبينوا النعمة من النقمة، فاستجابت لهم أرباب العقول وحكموا عليهم بالمعقول والمنقول، وبيَّنوا الضلال من الهدى والبصر من العمى، وظهر الخليل والكليم، والتعديل والتقويم، وقامت الصفات المحمدية بالكمال وختمت بعد كمال الدين بالإرسال.

وبقي من بقي ممن لاح له بارقةٌ من صفات الجمال ولمحةٌ من آثار صفات الرحمة أو الجلال، لا يعقله عاقل ولا يحجبه حاجب، غير ما لمح من ذلك الجمال قد سُلبوا العبارة ورفعوا الإشارة فلم تحكم عليهم الشرائع بحال، ولا رتبت على أقوالهم وأفعالهم فعال، تلاحظهم العيون ويرميهم أهل العقول بالجنون، قد ذهلوا عن الأوامر وغابوا عن الصغائر والكبائر، فمنهم من تراه في جنونه عاقلاً وهو في عقله مجنون، ومنهم من تراه فاتنًا وهو في فتنته مفتون.

وقد قلت:

مجانينٌ في البيداء صَرعى مِنَ الهوى ... وليسَ لهم إلا الوصالُ طبيبُ

يخبرُهم عنهم فَلا يُخبرونَهم ... ويذكرُ فيهم عشقَهم فيغيبُوا

ويذكرُ أيامًا بالحِمى قد مضتْ لهم ... فتحيي بهم أشواقُهم فيطيبُوا

هُم القومُ لا يدرُون أين توَّجهُوا ... وليسَ لهم إلا الحبيبُ حبيبُ

وأعرف فقيرًا بأُسوان يُسمَّى الحلواني كان عليه ثوبٌ أزرقٌ صاف، وكان يصيح بهذا ويقول:

لأَلْبِسنَّ عليكم أزرقًا صافي ... وأقولُ في حبِّكم وا قلةَ إنصافي

وكان يؤثِّر في القلوب، ويوجد البكاء من قوة حاله، وكان يدور ويقول هذا الكلام، وكان له صاحب كنت أجلس أنا وإياه أكثر الليل على ناحية البحر ونذكر حديثه، وكان كالمولَّه، ولقد طاح مرّةً بنفسه من مئذنة الصيرفي إلى الأرض، وتحته الجبل، وهي من المآذن الشواهق، فلم يصبه شيء فسئل عن ذلك، فقال:

قدَّرتُ يدي في يدِ حبيبي وطِحْتُ فلم يضرَّني

وقد قلتُ:

قد غبتُ عن العذلِ وأعطيتُكم كُلِّي وطاحَ مني بكم يا سادَتي عقْلِي
إن كنتُ لأرتَجِي في الحبِّ بكم وصْلي قتَلْي بكم طيبٌ لا حبٌّ بلا قتلي

ورأيت فيها مولهًا آخرَ وكان عجيب الأحوال لا تنضبط أحواله.

ولقد رأيت بمكة -شرفها الله تعالى- شخصًا مكشوف الرأس مخيط الأكمام لا يخرج يده لأحد ولا يأخذ شيئًا - وكان من العبَّاسيين من بيت الخلافة - وكان يضع رأسه على حجر في المطاف في وقت الظهيرة أيام الصيف، وكنا لا نستطيع الطّواف من شدة الحر وحرارة الشمس وحدِّتِها، وهو على تلك الحال، ولا يكلم أحدًا غير أنِّي حصل لي ضعفٌ وأشرفت فيه على الموت، فطلع إلي وأنشدني بيتًا من الشِّعر - وأظنُّه كان فيه بشارة بتأخير الأجل - وقيل لي: إنه لم يتكلم منذ كان بمكة شرفها الله تعالى سوى تلك الساعة بذلك الشعر.

وكنت أعرف فقيرًا جلس يتكلم في شيء من المحبة، فسمع صريرَ السقف وتمايُلَ الحيطان.

وقد قلت:

طربتْ لحسنِ حديثِك الألحَانُ وتمايلتْ طربًا له الحيطانُ
وترنَّمَ السقفُ المخيمُ فوقَها وبَدَا له عمَّا به الكتمانُ
شوقًا إليك وإنها لجَوامد فعَلامة حَالة الوَاله الحَيران
فقلوبُ أهلِ العشقِ فيك طروبةٌ تسري لك الأرواحُ والأبدانُ

لا تســـتفيقُ مـــن الغـــرامِ محبَّـــةً فالكـــلُّ مـــن كـــلٍّ بـــه ســـكرانُ

ولقـد كنـا ليلـةً بمسـجد القرابـة بظـاهر قـوص - وكنـا ثلاثـة أو أربعـة - وجـرى الحديث في الطريق إلى الله تعالى أو في محبة الله تعالى، وكان بالقبة قنديل معلق وكانت تحته أرض مجصَّصة، فسقط القنديل على الجصِّ و [استقر[1]]على كعبه لم ينثلم منه ذرةٌ وبقِيَ يَقُد علينا.

وكان بأُسوان شخص اسمه- محمد القميّني- وكانت له أحوال عجيبة، وكان لا يصلي ولا يصوم، وضربه الحاكم وحبسه، وكان قد وقع في كلام أيضًا، أفتى بعض الفقهاء بكُفرِهِ، وكنتُ تحدثت مع الحاكم في تركه لما تحقّقت أنه غير مخاطب، وسألت عنه من يعرفه بحضرة الحاكم،كفخر الدين بن الكمال رحمه الله تعالى فقال: رأيته ذات يوم وقد خرج من الحمام بما عليه من الهدمة أو غيرها مبلولة، وقعد على التراب وجعل يأكل التمر والحصى لا يفرق بينهما، ورأيته وقد عض على أنملته والدم سائل على لحيته وخرَّ حتى اتصلَ بالأرض، وهو لا يعقل على ذلك.

وأخبرني الشيخ يوسف بن العابد - وكان جارًا له - قال: إنه كان بمكانٍ بجواري يُسمى دار الحدقة على حالةٍ واحدةٍ ليلاً ونهارًا، لا يستظل من الشمس في النهار ولا من البرد في الليل، فقلتُ للحاكم: ما هذه حالة من يحكم عليه بما يحكم على أهل العقول؟ فقال: إنَّه فى بعض الأوقات يقرأ القرآن ويلعب الشطرنج، ومن كان بهذه المثابة كيف لا يعقل ما يجب عليه؟ قلتُ: إنَّ كل ما كان محفوظًا في الذهن قبل استتار العقل يبقى مرسومًا في مرآة ذهنه بعد استتار العقل، فتراه يفعله عادةً لا عن عقلٍ.

وكانوا يخبرون عنه عجائب من الكشف، ولهم فيه اعتقاد كبير، وبها توفي وقبره يزار هناك، وكان شيخه كما ذُكر بدمشق في قمين الحمام على هذه الحالة، وقد قلت:

نســـيتُ في الحُـــبِّ روحـــي وقـــد غـــابَ عـــنيِّ صِـــلاتِي

وكـــان في الحـــبِّ مـــوتِي فصـــار فيـــه حيـــاتِي

قتلـــي عليـــه مبـــاحٌ فعجِّلـــوا بوفـــاتِي

(١) في المخطوط جلس.

لا شـــيء أطيـــبُ عنـــدي مـــن شـــربَتي وســـقاتِي
وســـكرِتي طـــولَ عُمـــري فيهـــا الحيـــاةُ لـــذاتِي

ولقد رأيت آخرَ على قريب حاله، ورأيت مولَّها كان بمدينة قوص يلعب في التراب بالنوى والحصى، ويقول:

مـــن أتبـــعَ الـــنفسَ هواهـــا لا يـــدخلُ الجنـــةَ ولا يراهـــا

يكرر ذلك دائمًا، فانظر إلى هذه الإشارة أخذها من قول الله تعالى: **﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى* فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى﴾** [النازعات: ٤٠، ٤١].

فتدبُّر الخطاب يقتضي أنَّه إن لم ينهها عن هواها وأتبعها مناها لا يدخل الجنة و لا يراها.

وأمَّا الزينُ الوَلِهُ الذي كان بمدينة قوص أيضًا، وإن لم أكن اجتمعت به لحالات مختلفات، وكان أصحابنا يجتمعون به يمشي بادي العورة، وربما مشى في طلب شيء من الخبز برجله ويطعم الكلاب ما يعطوه، وكان يخبرهم بالعجائب، وكان يأوي إلى قبر، وعرَّفهم بموته في قبرٍ معروف فوجدوه ميتًا فيه.

ورأيتُ شخصًا آخرَ وكان من أهل قوم وكان يتكلم كلامًا كثير الغرائب من الكلام والمواعظ مختلف العبارات والأحوال، وليس في ذلك خروج عن الشرع، وكان يصلي، وتوجه إلى الحجاز الشريف ورمى بنفسه من المركب ومات، وقيل أنه قال: يا بحر الله، خذ عبد الله.. وقلت:

بقـاءُ نفسـي في يـومِ النـوى عجـبٌ لأنَّ مـوتِي مـن بعـضِ الـذي يجـبُ
ومـا بقيـتُ ونفْسـي لسـتُ أملكُهـا ولـيس لي في حيـاتِي بعـدَهم إربُ
ومـدَّعي الحـبَّ قبـلَ المـوتِ مـنهم دعـواه إن لم يمـت في حبِّـه كـذبُ

ورأيت شخصًا يُسمَّى شافعٌ بالأقصرين مُولهًّا كان يطعم الكلاب، ويأوي المقابر.

ورأيت شخصًا آخرَ ببلاد الأشمونين كانت له حالة عجيبة تستولي عليه، لا

سيما إذا جرى الحديث في هذه الطريقة الشريفة، يصيح صيحةً عظيمةً ويغيب غيبةً عظيمة، وكان يجتمع بي كثيرًا ثم يغيب، وكانت أحواله عجيبة تعجبني، ودخل بعد ذلك في الأسباب للعيال بالشهادات وغيرها، فلم ينضبط حاله لاستيلاء الأحوال عليه، وكان يحكي لي الغرائب والعجائب من أحواله، وله قصيدة عجيبة كقصيدة السيد عمر بن الفارض رحمه الله تعالى التي هي نظم السلوك وعلى وزنها، وهو ابن الصابوني رحمه الله تعالى.

من آثار محبة الله

وأعرف شخصًا كان نصرانيًا وأسلم -رحمه الله تعالى- يُسمى إسحاق، وتوجَّه إلى الله تعالى، وأسلم أولادُه وزوجتُه، وكان له أحوال وبكاء وسهر لا يكاد يفتر ساعةً واحدةً فقيل له في ذلك؟ فقال: كنت أعشق امرأةً، وكنت لا أنام، وأتسلق الحيطان فكيف بحبي لله تعالى؟ وبنى زاويةً وأقام بها ودفن بها رحمه الله تعالى.

وأخبرني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- قال: كان مروان شيخ الشيخ مسلَّم البدوي نصرانيًا، وكان يبيع الملح والحناء، وكنا ننبسط عليه، وكان بمدينة منوف، فأسلم وتوجه إلى الله تعالى، وكان منه ما كان وصار شيخًا، ومن بعض مريديه الشيخ مسلَّم.

وأخبرني الشيخ إبراهيم الواسطي -أو الموصلي- وكنا بالأقصرين، قال: دخلت على الشيخ أبي الغيث[1] باليمن فرأيته أدمًا أحمرَ العينين فقلت في نفسي إنك عبدٌ

(١) أبو الغيث بن جميل، بحر الحقائق، موضع الدقائق، الملقب شمس الشموس اليمني، عارف تأرّج الكون بعرفه، وصوفي ظهرت الأسرار على لسان كشفه، منزله محط الرحال، وملجأ أرباب القال والحال، ينثر على الناس جواهره الفاخرة، ويزجرهم بمواعظه الباهرة.

وكان من قطاع الطريق، فخرج لذلك مع أصحابه، فقالوا: اصعد هذه الشجرة، انظر من يمر في الطريق، فسمع قائلاً يقول:

يا صاحب العين، عليك العين

فوقع ذلك من قلبه، فنزل منكسر القلب، صفيًّا خاضعًا، وطرح ثيابه وسلاحه، وهام على وجهه حتى وصل إلى الشيخ على بن أفلح بزبيد، فأقام عنده مدة طويله حتى ظهرت عليه الكرامات، وتوالت منه =

وَحِش، فحين خطر لي ذلك رفع رأسه إلى وقال لي: عبد وحش يا إبراهيم وأنت من أصحابي؟

قال: فلم أملك رجلي، ووقعت على الأرض وقبلت قدميه وبكيت. فقال: اسكن. فلما سكنت قال لي: أتعرف سبب توبتي؟ قلت: لا قال: يا إبراهيم، أنا كنت مقدم خمسمائة سيف ودرقة في قطع الطريق، وكانت فيَّ خصلة ما كنت آخذ رَكْبًا فيه امرأة خشيةَ أن تنتهك، قال: فبينما أنا نائم وإذا قد جاء ركب فقال بعضهم لبعض خذوا هذا الركب، فقالوا: حتى يستيقظ المقدم، فقال بعضهم: إن استيقظ ما يدعكم تأخذونه لأن فيه امرأة، وأنتم محتاجون، فخذوه، فأخذوا الركب وكان في الركب امرأة فأخذوها، وراودها واحد عن نفسها فامتنعت، فقتلها وزنى بها ميتة. قال: فسمعت صيحةً عظيمةً فانتبهت واستيقظت، فوجدت الأرض قد أخذت الرجل الزاني على نصفه فما وصلت إليه إلا وقد خسفت به الأرض، قال: فوضعت سيفي ودرقتي هناك فهذا سبب توبتي.

قال إبراهيم: وأقمت عند الشيخ أبي الغيث أيامًا، أو أحدَ عشرَ يومًا، فرأيت منه أنه طلب ذات يومٍ إلى السلطان الملك المنصور، فدخل عليه شخص وبيده غلٌّ فقال له: عليك سمعًا وطاعةً لمولانا السلطان، فقال الشيخ: نعم فتشوش الفقراء فقال الشيخ: لا يجيء معي إلا إبراهيم، قال: وكان عند الشيخ تقدير خمسة آلاف فقير، فركب الشيخ دابة وخرجتُ معه إلى الخيام -وكان السلطان بالخيام- فدخلنا على السلطان ووجدنا عنده رجلاً فقيهًا وأظنُّه الذي وَشى بالشيخ والله تعالى أعلم هل كان ذلك أم لا وجلس فقال له لسلطان: يا شيخ، علمني الكيمياء. فقال الشيخ: وإيش تكون الكيمياء؟ وكان الشيخُ رجلاً بدويًا لا يعرف هذه الأشياء، فقال له: بتستهبل عليَّ؟ إن لم تعلمني الكيمياء شنقتك، فجعل الشيخ يده على خده وجعل يقول: كيمياء ما أعرف كيمياء ما أعرف. فطلعت سحابةٌ من البحر فاسوَّد الجوُّ وظهر ريحٌ عاصف فقلع خيام السلطان ورمى بها على الخيل، فمات له ستة رءوس خيل، ووقع الضجيج

=

خوارق العادات.نشر المحاسن (٧٢،٢٩٨،٣٧٠)، روض الرياحين (٥٥)، جامع الكرامات (٢٨٣/١).

في العسكر، وخشينا أن تكون القيامة قد قامت، فوضع السلطان رأسه تحت ذيل الشيخ وقال: يا سيدي، إن كنت ما ترحمني فارحم المسلمين، قال: فجعل الشيخ يسكن والريح يسكن إلى أن رجع الحال على ما كان عليه وتاب السلطان، وكان السلطان حينئذ الملك المنصور عمر بن سلطان رسول اليمن -رحمه الله تعالى-.

قال إبراهيم: ورأيت من الشيخ أبي الغيث -رحمه الله تعالى- أنه دخل على أصحابه فوجدهم قد عملوا أسرَّة في الأخصاص التي هم بها، لأَّن في الأرض حيوان شديد القرص يسمى القعموس، شبيه بقرص الحيوان الذي بالحرم الشريف، فأمر الشيخ بحرق تلك الأسرة والأخصاص وقال: صحبتموني على الراحة في دار التعب. وبقوا ثلاثة أيام حتى شفع فيهم بعض أصحابه أن تكون أخصاصًا بلا أسرَّة.

وقال: قال لي الشيخ أبو الغيث -رحمه الله تعالى-: يا إبراهيم، وعدني ربِّي ﷻ أن كل من قطعت عليه الطريق يكون من أصحابي ولم يبق عليَّ إلا تاجرًا أخذت له عشرة آلاف درهم، قال إبراهيم: فبينما نحن جلوس والخادم قد دخل على الشيخ وقال: يا سيّدي، رجل تاجر يطلب الإذن عليك فأذن له قال: فدخل الرجل، فقام الشيخ وقال: لا اله إلا الله، هذا والله الذي قطعت عليه الطريق وأخذت له عشرة آلاف درهم، ثم قال: يا أخي، أخذت لك عشرة آلاف درهم في الوقت الفلاني في المكان الفلاني، فقال: يا سيدي، قد أبرأت ذمتك منها وهذا جميع مالي قد خرجت عنه لله تعالى، قال: وتاب وحلق رأسه وبقي من جملة الفقراء.

فانظر رحمك الله إلى هذا التخصيص الإراديِّ والأثر الرحمانيِّ والمحبة الإلهيِّة التي ما ضرت معها الذنوب، وقادَ إلى السعادة الجمَّ الغفير فسعد وسعد به من رآه بحسن الاعتقاد حتى من قطع الطريق عليه، وكان قطع الطريق إشارة إلى انقطاعهم عن الدنيا ورجوعهم إلى الله تعالى.

أحوال أهل المحبة الإلهية

والمحبون لله تعالى متفاوتون في درجات المحبة بحسب استعدادهم وجذبهم إلى الله تعالى: فمنهم المخطوف، والمجذوب، والسكران، والواله، والتائه، والواقف، والصاحي، والغارق، والذاهب، والراجع، والصامت، والناطق، والبائح، والكاتم، والسابح، والنائح،

والصائح.

فمنهم المأخُوذ

حكى لي الشيخ عبد العزيز رحمه الله تعالى أن الشيخ عسكر النصيبيني أقام أحدَ عشرَ سنةً مأخوذًا حتى نبت القصب بين أصابع رجليه ثم رجع بعد ذهابه، وصحى من سكرته، وعقل من بعد توهانه، ولبس الثياب الرقيقة، وقيل له في ذلك فقال: رجعت من الله إلى رسوله ﷺ، وهذا كلام يدل على أنه رجع من الأحوال وغلبتها إلى المعارف وشواهدها، ومن غيبته في الله تعالى عن الأشياء إلى شهوده الأشياء بالله تعالى، ومن رفع الوسائط لغلبة استيلاء الأخذة بجميعه الحضورِ والشهودِ إلى رؤية الوسائط بالله تعالى ومن الله تعالى وسماع كلام الله تعالى على لسان رسول الله ﷺ بقوله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ [الحشر:٧].

وهي درجة الكمال وحال العارفين.

وأنشدني الشيخ عبد العزيز رحمه الله تعالى للشيخ عسكر النصيبيني -رحمه الله تعالى-:

قد كان يُسكِرِني مزاجُ شرابِه ... واليومَ يصحِّيني لذيذُ صرفِه

ويغيبُ رُشْدِي عندَ أوَّلِ نظرةٍ ... واليومَ أستحليه ثم أرفه

ومنهم المبهوت

وأخبرني الشيخ الحموي عن والده قال: قال لي: إنِّي رأيت محمود السوراني الرومي وقف ثلاث سنين مبهوتًا والنحلُ يدخل في فمه ويخرج، وهو لا يعلم فانظر إلى هذا الاصطلام المتوالي والأخذةِ المطبقةِ، وقد قلت:

سلبُوا عقلي مِنّي ... أخذُوا قلبي عَنّي

لستُ أدرِي كيفَ أَدري ... كيفَ عقلِي كيفَ جنِّي

غيَّبَني فيه حضوري ... وسُروري فيه حُزني

فَفُنُونِي فِي جفُونِي ... وجُنُونِي فيه فَنِّي

ومنهم الشاخص إلى السماء

وحكى لي الشيخ أبو العباس الملثم -رحمه الله تعالى- قال: رأيت شخصًا واقفًا وقد سفي السافي على نصفه وهو شاخصٌ ببصره إلى السماء وفاه مفتوح ويداه مبسوطتان، فصعدت إليه ومسكت يده فوجدتها رطبة، وسألت عنه فقيل لي: له كذا كذا سنة منذ وقف هذه الوقفة. رضي الله عنه ورضي عنا به.

وقد قلت:

شربتُ بكأسِ الحبِّ خمرًا بلا خمرِ فبي سكرةٌ منه تجلُّ عن السكرِ
فغيَّبني عنِّي فلا أنا حاضرٌ ولا أنا أدْرِي أنَّني فيه لا أَدْري
فسيَّان عِندي اليومُ والدهرُ كلُّه وسيَّان ماضي العمرِ أو باقِي العمر
فإنْ كنتَ ذا جهلٍ بما صنعَ الهوى فها خَبَرِي يُنبْيِك عَن كُنهِهِ خبري

ومنهم الغائب

ومنهم من كان يحضر في وقت ويغيب في وقت آخر كالشيخ أبي الطاهر، كان بعض الأوقات يُؤْخَذُ ثلاثةَ أيامٍ كما بلغني لكن كان أكثر أوقاته محفوظة عليه مما يجب من العبادات والأوراد وغير ذلك، وكان ذلك في وقت.

ومنهم من كان يخلي جسده ويصيرُ كالفخارة التي لا روح فيها، كما أخبرني عيسى بن مظفر -رحمه الله تعالى- عن الشيخ شمس الدين الأصفهاني -وكان عالِمًا عاملاً ومدرسًا، وكان حاكمًا بقُوص، وكان له صحبة بالشيخ وليِّ الدين علي الكردي(١)- قال زين الدين عيسى: أخبرني الشيخ شمس الدين عن السهْرَوردِي الشهيرِ قال: كان يخلي جسده ثلاثةَ أيامٍ ثم يرجع إلى حاله الذي كان عليه.

ومنهم من تحفظ عليه عبادته

ومنهم من يحفظ عليه وقته حين أداء الفرائض الواجبات كما أخبرني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عن فقير أنه كان يؤخذ إلى أن يؤذن المؤذن فيحضر فإذا صلى الصلاة أخذ إلى الصلاة الأخرى، هكذا كان حاله.

---

(١) هو صاحب الوصية التي أجاب عنها وشرحها الشيخ الأكبر، وهي شرح روحانية الشيخ على الكردي-تحت قيد الطبع بدار الكتب العلمية- مع رسائل أخرى، .

وحكى لي عن ابن أخت الشيخ حسين النَّجار السعرتي، قالَ: سألتُه بجامع مصر عن الشيخ حسين، هل أخرج يده من الكفن بعد موته وصفق؟ فإنه كان يشهر عنه ذلك لأنه كان في طول ليله ونهاره مشغولاً بآلاتِ الطربِ من الدفوف والشبابات إلى حين أوقات الصلوات فيصلِّي ويعود إلى حاله، قال: هو خالي وشيخي، وأمَّا إخراج يده فلم يقع، لكني أذكر لك الذي وقع وما كان عليه.

كان الشيخ حسين -رحمه الله تعالى- يقول لأصحابه الفقراء: يا فقراء، أنتم مريدو حسين ولاّ مريدو أنفسكم؟ فيقولون: يا سيدي، مريدو حسين فيقول: من صلى منكم غير الفرض أنا بريء منه في الدنيا والآخرة، ومن صام منكم غير رمضان أنا بريء منه في الدنيا والآخرة، والعبوا، وكان مستغرقًا في حاله إلى أوقات الصلوات فإنه كان يحضر فيها، وكان لا تفارقه الشبابة والدفوف من بعد ما يصلي إلى وقت الصلاة الأخرى، لا ليلاً ولا نهارًا.

وكان أكابر البلاد ينكرون عليه من ذلك، وكانت قوة حاله تمنعهم من الإيذاء له، وكانوا لو أَعطوا الفتوحَ للنَّصارى ما أعطوه له لأنَّهم رأوا شيئًا لم يكن عليه الفقراء ولا عَرَفُوه، فكان الناس يكونون في شهر رمضان في قراءة القرآن وصلاة التراويح، وهو على تلك الحال، فلما كان يومٌ من الأيام قال الشيخ: اطلبوا النقيب فحضر فقال: أحضروا الفقراء فحضروا قال لنا: أنتم مريدو حسين أم مريدو أنفسكم؟ فقلْنا: مريدو حسين قال: فأنا اليومَ الفلانِي أموتُ، وكلَّ مَن قال خلف نعشي: لا إله إلا الله أو قال شيء من ذلك أنا بريء منه إلا كما كنا في الدنيا نكون في الآخرة.

قال: فلما كان اليوم الذي ذكر أنه يموت فيه أصبح بوجهه إلى القبلة ومات، فبقينا متحيرين أو متفكرين كيف نعمل فيما قاله لنا؟ فجهَّزناه وكفَّناه، ووضعناه في النعش، فوقع الخلاف بين الفقراء: فمنهم من يقول نخرجه على عادة الناس لأنا إنْ أخرجناه كما قال خشينا على أنفسنا من الناس؛ لأنَّه كان له حال يمنعهم منه ونحن نخشى منهم، وقال آخرون: هذا شيخنا وما خالفناه قط فنخالفه ساعة وفاته، أهذا ما نفعله؟ فاتفق الحال على ألاّ يفعلوا ما قاله، ولا يفعلوا عادة الناس ويحملوه وهم سكوت، قال: فلما اتفقنا وقصدنا حمله فلم نقدر على حمله فوضعنا أيدينا في النعش

فلم يرتفع، فجمعنا الفقراء على حمل النعش فلم يستطيعوا حمله فشاع ذلك في المدينة فكلٌّ من كان يسيء الظن قال: ما قبله الله تعالى، ولما ظهرت هذه الآية العظيمة خرج السلطان وقاضي القضاة وجمع السلطانُ الناسَ وجعلوا المحاجن في سواعد النعش على أن يحملوه فلم يستطيعوا حمله ولم يتحرك من الأرض.

قال: فبقينا نعيب بعضنا بعضًا وقلنا لو فعلتم ما قاله الشيخ ووصَّاكم به لم يقع هذا الذي وقع، وكنّا قد استرحنا من هذا فسمعَنا الحاكم فقال: يا فقراء، هذه الطائفة لها أسرار مع الله تعالى فأشتهي تخبروني ما هذه القضية؟ قلنا له: القضية كيت وكيت وقصصنا عليه القصة، وما وصى به الشيخ فعرَّف القاضي السلطانَ، فأرسلَ السلطانُ وأحضر الملاهي، فعندما غنُّوا وضع أربعة أيديهم في النعش فحملوه فحلف السلطان أنه ما يركب ويمشي حافيًا.

قال: وحملناه فلم يمكن أحد يصل إليه من كثرة الناس والنساء والبنات وصُلِيَ عليه وامتلأتْ تلك الساحات من الجبال والتلال وغيرها، أو كلام هذا معناه.

فلمَّا صلَّينا عليه أردنا حمله فلم نقدر نحمله فقال السلطان: يا فقراء، بقي معكم وصية أخرى؟ قلنا: لا قال: فبينما نحن كذلك وإذا بفقيرٍ أقبل من البرية فتقدم وصلَّى على الشيخ فسألوه عن الشيخ هل عنده علم به؟ فقال: نعم، هو شيخي، وقال لي إنه يموت هذا اليوم، وأنه ينتظرني حتى أحضر وأصلي عليه، وأنا جئت من اليمن، وقال إن نعشه لا يحمل حتى يقرأ عليه هذه الأبيات، وأخرج رقعة من مرقعته مكتوب فيها:

يــــاويْلتي مِــــنْ قلِـــبيَ القَاسِــــي ... ومــــا جَـــري منْـــه علـــى رَأسِـــي

الفقـــرُ موجـــودٌ لِمَــــن يشْـــترِي ... وإنَّمـــــا الآفـــــةُ إِفْلاسِـــــي

إنْ تُنْكِـــــــروا دَنِّي وشِـــــــبابَتِي ... وهـــزَّ عَطْفِـــي بـــينَ جُلاسِـــي

لا غَـــرو أنْ أَفتُـــوا علـــى علمِهـــم ... لأنَهُــــم مــــا شـــربُوا كاســـــي

قال فلمَّا غنَّى المغني هذه الأبيات، وضع أربعة أيديهم في النعش فحملوه ودفن [بقبر ظاهر يُزار] سره قدس الله تعالى روحه ونوَّر ضريحه.

بيان الوجه الشرعي لمن توجه على ظاهره إنكار

فانظر إلى هذا الاستغراق الدائم، والحضور مع الله تعالى الملازم، وهذه اللذة التي استغرقته طول عمره، وهذه الأخذة التي سلبته صفات نفسه ورؤية غيره، وهذا الحفظ الذي حفظ به أوقات الواجبات من الصلوات والصيام، وفي قوله لأصحابه: «كل من صلى منكم غير الفرض أو صام غير رمضان أنا بريء منه» ففيه إشارة، وعنها أجوبة، منها حديث الأعرابي الذي سأل النبي ﷺ عما افترض الله تعالى عليه من الصلوات الخمس والزكاة وصوم رمضان والحج؟ كما ورد في الحديث المشهور:

«قال: يا رسول الله هل عليَّ غيرُها؟ قال: **لا إلا أن تطوع فأدبر الأعرابي يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه**، فقال رسول الله ﷺ: **أفلح إن صدق**[1]».

فهذا وجه الاستدلال، وفيه اطّلاع الشيخ على أصحابه وأحواله وجمعية قلوبهم على التفرقة في الأعمال، وفيه ما تقرَّب إلى المتقربون بمثل ما افترضته عليهم، وجمعية القلوب على الله تعالى هي المطلوبة في الصلاة وفي غيرها فإذا فاتتهم الجمعية فلا فائدة بكثرة النوافل، مع تفرقة القلوب عن الله تعالى والاشتغال بشواغل الأوهام من دواعي النفوس وما يحدث فيها من الأهوية المختلفة الحاجبة عن جناب الله تعالى، فهذا وأمثاله من شأن الشيخ المربي المطلع على قلوب أصحابه ومعرفته بدوائها وسقامها.

وأمَّا قولُه: «كل من قال خلف نعشي: لا إله إلا الله، فأنا بريء منه».

يريد -قدس الله روحه- ألا يتكلموا بهذه الكلمة إلا حقيقة، لا سيما في تلك الحالة التي تذهل، فإن من فارق مثل هذا الرجل العظيم الشأن يذهل عقله ويضطرب ولا يحقق ما يقول لشغل خاطره بما نزل به، وفي ذلك إشارة لما وقع في وفاة النبي ﷺ، وكون السيد عمر رضي الله عنه ذهل وقال: من قال: إن رسول الله ﷺ مات علوته بسيفي هذا،

---

(١) رواه البخاري (١/٢٥)، ومسلم (١/٤٠).

وأقعد السيد عليّ كرم الله وجهه مع شهامته وشجاعته وهمَّ أن يقوم فلم يستطع.

وليس مرادنا إلا أنه قد يكون عَلِمَ منهم أن قولهم لا إله إلا الله لا يكون بالمحل الذي يرضاه لهم ولا يرضاه لنفسه؛ إذ هو في الصدق مع الله تعالى في مدة حياته وبعد وفاته، ومن ذلك قول أبي يزيد لمريده في الحكاية المشهورة لأنه كان له مريد من المتفقهة وكان يرى أصحاب الشيخ يفتح عليهم فقال له: يا سيدي، ألست من أصحابك؟ قال: بلى قال: أولست أقوم بالوظائف التي يقومون بها؟ قال: بلى قال: فلم لا يفتح عليّ كالفتح عليهم؟ قال: قلب محجوب قال: فبماذا؟ قال: بنفسك فقال: فهل لهذا من دواء؟ قال: نعم قال: فداوني قال له: انزع هذه العمامة وهذه الثياب واحلق رأسك ولحيتك وحف قدميك وخذ مخلاة مملوءة جوزًا، ومَن صفعك من هذه الصبيان أعطه من الجوز شيئًا فقال: سبحان الله تقول لمثلي هذا؟ قال: لا تقل سبحان الله فإنك إنَّما استعظمْت نفسك فسجنتها.

والذي قاله الشيخ ﵁ متوجه؛ لأنه لم يقل سبحان الله إلا للتعجب من الشيخ، لم يقصد تنزيه الله تعالى ولا تسبيحه، كذلك صاحب العلاوة، وإذا قال: صلُّوا على محمَّد فليس قصده إلا أن يُفسح له الطريق، وكذلك السماسرة إذا صلُّوا على النبي ﷺ أو سبحوا فإنما ذكره لتحسين السلعة.

إختلاف معاني «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ» بحسب حال القائل

وفي قول العبد «لا إله إلا الله» بعد الإسلام كلام كثير في تحقيقها كلّما ردَّدها إذ كل من قال: «لا إله إلا الله» لابد له من معنى غير المعنى الأول.

وليس ذلك لمن قال «لا إله إلا الله» في أول الإسلام إذ ذاك نفي لما سواه فيما يتوهم فيه الألوهية من الأصنام، وغيرها من سائر المعبودات من دون الله تعالى.

أمَّا مَن كان مسلمًا وآباءه وأجداده فكيف يكون ذلك في حقه؟ لا سيما لمن عقل أن نفي النفي محال، وإثبات الثابت محال، فإن نفيهم لما سوى الله تعالى من الألوهية فلم يكن سواه حتى نفوه، وإثباتهم لألوهية الله تعالى فإنها لم تزل فما نفي في الحقيقة ولا أثبت وإنما ذلك نفي توهموه، وإثبات لما جهلوه وعموا عنه.

وأمَّا تردد الذكر فإنه أن يكون مرةً بعدَ مرةٍ إلا بمعنى غيرَ المعنى الأول :- وأدنى

درجات الذاكر أنه كلما قال لا إله إلا الله لا يكون في نفسه شيء غيره إلا ونفاه من قلبه ويلتفت إليه في حالة ذكره فقد أنزله منزلة الإله من نفسه لقوله تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾ [الفرقان:٤٣].

وقوله تعالى: ﴿**لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ**﴾ [الإسراء:٢٢]، وقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ**﴾ [يس:٦٠].

والحديث الوارد: «**تعس عبد الدنيا وتعس عبد الدينار**[١]».

وإن كان الدينار والدرهم لا يعبدان بحالة سجود ولا ركوع، وإنما ذلك بالتفات القلب إليهما فلا يصح منه لا إله إلا الله إلا بنفي ما يجده في نفسه وقلبه مما سوى الله تعالى.

ومن ذلك قول الشيخ عبد الرحيم - قدس الله تعالى سره - قلت مرة: لا إله إلا الله ثم لم تعد لي، وكان في تيه بني إسرائيل عبد أسود كلَّما قال: لا إله إلا الله ابيضَّ من رأسه إلى قدمه ويعني الكلام.

وبتحقق العبد بقول لا إله إلا الله بحر عميق ليس هذا موضعه، فإنها حالة من أحوال القلب لا يعبّر عنها اللسان ولا يقوم بها جنان[٢].

وأمَّا الشهادة باللفظ فلا تكفي إلا للخروج من الكفر إلى الإسلام، ولذلك ورد في الحديث: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقِّها وحسابهم على الله تعالى**[٣]».

والحديث أيضًا في الذي قال لا إله إلا الله: «**هلا شققت عن قلبه** [٤]».

وليس هذا موضع الكلام في تحقيقها، وإن كانت خلاصة الخلاصة من

---

(١) رواه البخاري (١/١٠٥٧).

(٢) أفرد كثير من أهل العلم تصانيف في موضوع الكلمة المشرفة، كلمة الإخلاص منهم:
الشريف الجرجاني ٧٤٠ هـ، والبدر الزركشي ٧٤٥ هـ، وعبد الله الهبطي ٩٦٣ هـ، وابن مسعود اليوسي ١١٠٢ هـ، وإدريس بن أحمد الشريف الحسني الوزاني ١٢٧٥ هـ، والشيخ ميارة، ومحمد قطب من المعاصرين.

(٣) رواه البخاري (٢/٥٠٧)، ومسلم (١/٥٣).

(٤) رواه مسلم (١/٩٦)، وأحمد (٥/٢٠٧).

التوجهات، وهي مفتاح حقائق القلوب، وترقِّي السالكين إلى عوالم الغيوب، وإنما أردنا أن نُشير إلى ما أشار به الشيخ لأصحابه خشيةً من أن يعترض معترضٌ أو ينكر منكرٌ من غيرِ علم، وقد قلت:

ألا أيَّها اللاحِي على الحبِّ والهَوى ثكلتْكَ مَن لاحَ يلوحُ على الحبِّ

أَتلْحَى ولا تلحَى على التاركِ الهَوى وتركُ الهوى عِندي عظيمٌ من الذنبِ

وتُنْكرُ أحوالَ المحبين جهرةً ولا في الهَوى عيبٌ ولا فيه مِن عيبِ

كأنَّك لم تسمعْ بما صنعَ الهَوى ولم تدرِ ما بُعدَ الديارِ من القربِ

ومما حكاه لي الفقيه جمال الدين محمد بن سدوس نفع الله تعالى به قال: كنت أدخل على الشيخ أبي يحيى رضي الله عنه فأجده كالْمَلكِ والناسُ بين يديه لا ينطقون كأنَّ الطير على رءوسهم ويكون عندي سؤال في نفسي فيتكلم الشيخ أبو يحيى قدس الله تعالى روحه ويقول: جرى لأحد أصحابي كذا وكذا أو فعل كذا وكذا فأجد الجواب من غير أن يعلم أحد.

وجئت شيخي يومًا فوجدته مشغولاً مع العيال فقال خادمي: تروح إلى الشيخ الحسن لعل نجد حاجتنا عنده قال: فمضينا على الشيخ الحسن -قدس الله تعالى روحه- فما وجدت الحال التي أعهدها من الشيخ أبي يحيى، ولا النظام الذي أعرفه من الفقراء الذين عنده ولا أحوالهم في آدابهم معه، وذكر ذكرًا خفيًا وقدَّمني للصلاة فخرجت من عنده وأنا في ألمٍ منه - أو قال كلمة شذّت عني- قال: فحلفت ألاّ أفتح لخادمي ثلاثةَ أيام لكونه ضيَّع عليَّ ذلك النهار.

قال: فنمت تلك الليلة فرأيت في المنام كأنّ مَلَكاً نزل إلى قنا، ومعه جنّة ونار، وقائل يقول: من لم يدخل الجنة أدخلته النار فقلت والجنة لمن؟ قال: للحسن ابن عبد الرحيم، قال: ففكرت في نفسي أو قلت في نفسي: أنا أسأت به الظن كيف أعمل؟ ثم قلت: إنَّ الفقراء إذا أذنب أحد واستغفر قبلوه، فأنا أروحُ وأستغفر.

قال فتوجهت إليه، فوجدته على منبر والناس دونه فدنوت منه، ولم أخبره بما جرى مني في حقه، بل سألته الجنةَ؟ فأعطاني مفاتيحها وقال لي: هي لك إن شئت أن

تدخل أو لا تدخل.

ثم استيقظت من منامي فما بقي يمكنني إلا الرَّواح إليه.

فرحت إليه، وضربت الباب ففتح لي الشيخ، فكشفت رأسي ووقفت في الاستغفار فقال لي: ما بالك يا محمد؟ قلت يا سيّدي، أنا أستغفرُ الله تعالى فقال: يا ولدي العقوبة على قدر الذنب، فقد لا يقتضي ذنبُك كشفَ رأسِك، فقلت: يا سيّدي، اتفق لي أمس عندك كذا وكذا حين كنت عندك، ووقع عندي إساءة الظن، فرأيت البارحة كذا وكذا، وقصصت عليه الرؤيا فقال: يا محمد، هي لك إن شئت أن تدخل أو لا تدخل، كما قيل لي في المنام.

فبينما نحن كذلك وإذا بالباب يُطرق، فقمت لأفتح فمنعني الشيخ -رحمه الله تعالى-.

وهذا المنع عندي فيه من الشيخ للمريد تأديبان: أحدهما ألاّ يُتعدى على منزله بغير إذنه، والثاني :ألاّ يستخدم ضيفَه.

قال: فقام الشيخ وفتح الباب، فدخل رجلٌ أعجميٌّ، فجال بعينه الواحدة، فرأيت الشيخ سلَّم عليه سلامًا كثيرًا ما سلَّمه على غيره، والتفت إليَّ وقال: سلِّم على الشيخ فسلَّمتُ عليه، وقلت: يا سيّدي ومن هذا الشيخ؟ فقال لي: هذا الشيخ محمد السائح.

قال: فبينما نحن نتكلم إذ دخل أحد أصحاب الشيخ فقال: الأمير عند الشيخ أبي يحيى والقاضي أو شيئًا من ذلك، وذكرَ شيئًا فقال له الشيخ الحسن: اقفلوا الباب؛ فما وقتنا يسعُ أحدًا.

ثم قال: خلُّوه مفتوحًا؛ سوءُ اعتقادِ أهل «قنا» فينا ما يدع أحدًا يجيءُ إلينا، فقال له الشيخ محمد: وأيُّ شيءٍ يعتقدوه؟ أو أي شيء معتقدهم؟ فقال يعتقدون أنِّي أفسد أولاد الناس وحرمهم وأضرب الزغل، فقال الشيخ محمد: أبشر أبشر أبشر، فقال: بماذا؟

فقال الشيخ محمد السائح: سمعت - أو كنت في السياحة - وسمعت براهب في صومعته يجمع له الناس في كل سنة من جميع الأماكن في وقت مخصوص فيطَّلعَ عليهم

من صومعته ويشير إليهم فيرجعون مسرورين بالمغفرة.

قال: فسافرتُ إلى أن وصلت ذلك المكان في ذلك الوقت المخصوص، فرأيتَ الناسَ كأنَّهم حُشِروا للحشر، وإذا بالرّاهب قد طلع وأشار إليهم فرجعوا مسرورين فلمَّا لم يبقَ أحدٌ ناديتُ: يا راهبُ، فاطَّلع عليَّ فقلت له: واللهِ لا فارقت هنا أو تُطلعني إلى عندك فانظر في أمرك قال: فلمَّا عَلِمَ مني الجدَّ نزل وقلعَ حجرًا وأدخلني في موضعه وردَّه إلى مكانه وأطلعني الصومعة.

قال: فوجدتُه على دين السيِّد إبراهيم عليه السلام، وبين يديه الصحفُ، ولم تبلغْه الدعوة فقلت له: ما اسمك؟ فقال لي اسمي «أفرسم».

فقلت: منذ كم سنةٍ وأنت هنا؟ قال: منذ خمسين سنة.

فقلت له: إنَّ هذه الشريعة نسخت بشريعة نبيِّنا محمّد ﷺ فقال: بماذا جاء؟ فقلت: بالقرآن فقال: اقرأْ عليَّ شيئًا، فقرأت عليه فقال: هُوَ هُوَ، أشهد ألاّ إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسولُ الله.

ثم سميَّته عليًا، ثم سألني عن السُّنة؛ فجلست عنده أحدَ عشرَ يومًا فما بقي يحتاج إلى شيء لأنه كان عالِمًا في نفسه.

قال: ثم نزلتُ من عنده وسافرت إلى بلد يضيق الوقت عن ذكرها وطولها وعرضها قال: فبينما أنا أمشي وإذا أنا بشيخ يمشي وخلفه خمسمائة فقير وكأنَّ الطير على رءوسهم، وبين يديه شاب جميل الصورة قال: فمشيت معهم إلى أنْ وصلوا إلى المسجد الجامع فدخلوا وتقدم الشيخ فصلى بهم، ووقفوا خلفه ولم أجد لي مكانًا أصلي فيه في الصف، ففسح لي شخص وأدخلني في الصف على سجادته، فلما سلَّم نظرت إليه لأجده عليًا الهنديَّ -أي الراهب الذي كنت عنده- فقلت له: شيخ علي؟ قال: نعم. فقلت له: وما الذي جاء بك إلى هنا؟ فقال لي: لَمَّا فارقتني وجدت عندي شوقًا إلى إخواني الفقراء، فنزلت وطفت البلاد فوجدت هذا الشيخ، وطريقه عجيبة فامضِ معنا ننظر هذه الطريق، فقلت له: وما هذا الشاب؟ فقال: هذا خادمه، وعنده خادم أحسن صورة منه اسمه عمر.

قال: فمشيت معهم إلى أن وصلوا إلى دار عجيبةٍ تصلح للملوك، فطرق الباب ففتح عمر، ودخلنا إلى إيوان جلس الفقراء جميعهم في الإيوان، وربما لم يكمل ودخل

الشيخ إلى خلوة له، قال: وفي القاعة فسقية كبيرة والفاكهة كثيرة فمدَّ عمر أطباقَ مشمشٍ قبلَ أن يمدَّ الطعامَ، فرأيت شيئًا ما رأيته قط، فمددت يدي وأخذت حبَّةً من المشمش متعجبًا لها، فلاحت مِنِّي التفاتة، فنظرت إلى عمر الخادم فأخذ من قلبي، وأكل الفقراء وفرغوا وعندي غيبة أو بهتة، وإذا بعلي الهندي الراهب وضعَ يدَه عليَّ لأجد الناس قد فرغوا من الأكل، وإذا بالشيخ يقول: أحضروا الفقير الوارد عليكم.

قال: فأخذوا بيدي كما يؤخذ من يوقفوه بين يدي الملوك، فلما أوقفونِي بين يديه قال لي: يا محمد قلت: نعم قال: أعجبك المشمشُ وأعجبك الشابُّ؟ فقلتُ: يا سيدي، أنتم جواسيس القلوب فقال الشيخ: خذوا هذا الطبق المشمش والشاب وهذا الفقير وأدخلوهم هذه الخلوة -وأشار إلى خلوة- واقفلوا عليهم وهاتوا المفتاح، قال: فأدخلونِي والشاب والطبق الخلوة وأقفلوا علينا الباب، فعندما جلست وإذا بالمشمش قد صار حيّات وأحدقوا بي، وإذا الشاب قد انقلب خنزيرًا وظهرت أنيابه وتقدم إليَّ.

قال: ولحقني من الخوف والألم والبكاء ما لا أقدر على وصفه، وبقيت أستغيث فلا أُغَاث، والفقراء الجميع قد كشفوا رءوسهم وهم يبكون ولا يتجاسرون عليه بالشفاعة لعلمهم به.

قال: ولم أزل على ذلك الحال حتى طرحَ عليَّ الهنديُّ نفسه على باب خلوة الشيخ وقال: يا سيِّدي، سألتُك بالله إلا ما عفوت عنه؛ فإنَّه كان سببَ دخولي في الإسلام، وفي هذه الطريقة الشريفة، قال: أخرجوه فأخرجوني وأوقفوني بين يديه قال لي: محمد، كيف كان حالك مع معاشيقك؟ فسكتُّ ولم أستطع جوابًا، ثم قلت لعليٍّ الهنديِّ: أشتهي أن تأخذَ لي دستورًا بالسفر قال لي: وأين تجد مثل هذا الرجل وهذه التربية؟ فقلت: لا طاقة لي بطريقه.

فأخذ لي دستورًا، وسافرتُ من عنده، ودخلت في مدينة يقصر الوقت عن ذكر سعتها وما فيها، غير أنِّي رأيت فيها أقوامًا مُبْتَلِين في الطرقات فقلت: يا أخي هذه البلد بلد المبْتَلِين؟ قال: لا وإنَّما هنا شيخٌ يركب يومَ الجمعةِ أيُّ مَنْ وضعَ يدَه عليه برئَ من بَلائه، فترى الناس يجيئون من البلاد ويجلسون في الطرقات التي يركب فيها إلى الجامع، فقلت: على مثل هذا أنا أطوف.

قال: فبينما أنا كذلك وإذا بشيخٍ على بغلةٍ وهيبة، وإذا الناس قد أطبقوا عليه، وقد هممت بالوصول إليه، وإذا شخص يقول لي: هذا الرجل رجلٌ صالحٌ ، ولكن احذرْ شيخَه؛ فإنَّه شيخ زنديق.

قال: فوقع في قلبي محبةُ الزنديق حين سمَّاه لي، فتركت الشيخ ومشيت أبحث عن بيت الزنديق فلم يخبرني أحد عنه لسوء معتقدهم فيه قال: وسألت الطوائف من الفقهاء والفقراء والعوام، فرأيتهم في سوء معتقدهم، وإذا هم يسخرون بي، ويقول بعضهم لبعض: يا فلان، تقرَّب إلى الله بإيصاله إليه، حتى أنني أقمت ستة أشهر وليس لي حاجة إلا أن أصل إليه، ومن سوء معتقدِهم فيه لم يوصلوني إليه فلمَّا ضاقَ بي الأمرُ نزلتُ السوقَ و فتحت كمي فرمى لى الناس كواغدَ فيها قراضةُ الذهبِ - وعادتُهم يتصدقون بذلك- فحصل لي شيءٌ جيدٌ فوجدتَ صبيانًا يلعبون، فرميتُ بتلك الكواغدِ في حِجْرِ واحدٍ منهم.

فقالَ لي: يا عم، ما تريدُ منِّي؟ فقلتُ: تُريني بيتَ الزنديق قال: من بعيدٍ قلت: من بعيدٍ.

قال: فمشي أمامي حتى أوقفني، وأشار إلى باب عليه نصفُ دِثْرَاية، وقد سفي السَّافي عليها مِن عَدمِ الدُّخولِ والخروجِ، قال: فوقفت على الباب وقوفَ المتأدب وسألت الله تعالى، وإذا الباب قد فُتح، فدخلت، لأجدَ شيخًا على نخلة وقد ملأ الوجود نورًا، فقال: محمدٌ، لك ستةُ أشهرٍ تطلبُ الزنديقَ ما تصلُ إليه؟ قلت: يا سيدي الله أعلم وأنت أعلم -أو كلمة قالها غابت عني- فقال: نعم، قصدك صحيح يا محمد، قد سألتُ الله تعالى فيك وقد أعطاك جميعَ ما تطلب، اخرج باسم الله.

قلت: يا سيّدي، سألتك بالله اسمع مني كلمتين -أو قال: كلمات- فقال: قل وأوجز، فقال:يا سيّدي، هذا مريدك على هذه الصورة، وأنت على هذه الصورة، قال: يا محمد، وقت كنا نلعب كنا كذا، قلت: يا سيدي، سألتك بالله تعالى ما سبب سوء معتقد الناس فيك ونفارهم منك؟ قال: يا محمد، هل أحببتَ شيئًا قطّ؟ قلت: نعم قال: فهل تشتهي أحداً يصل إلى محبوبِك؟ قلت: لا، قال: الأمر كذلك، اخرجْ، فتشبثتُ بالباب قال: فقام وأخرجني وقفل الباب.

قال: فخرجت وسافرت مدةً وسحت، وإذا أنا أسمع أن شيخًا ظهر وله أتباع

فسافرت فإذا هو عليٌّ الهندي الراهب فقلت: شيخ علي، ما هذا؟ قال: هو من جهة الزنديق، أقمت في طلبه ستة أشهر حتى وصلت إليه، وقد أعطاني الله تعالى زائدًا عليك درجة، ولو لم أقف لك لما وصلت إليَّ، لكن يا محمد قال الشيخ [يعني الزنديق]: إنَّ الله تعالى أعطاك ما تريد فدورانك على أيِّ شيء؟.

حكى هذه الحكاية الشيخ محمد بن سدوس نفع الله تعالى ببركاته، وكان عدلاً ورجلاً صالحًا وكانت له أعمالٌ وأحوالٌ نذكرها إن شاء الله تعالى في موضعها، فهذه نبذة يسيرة من بعض أحوال المحبين والسالكين الذين رأيناهم، وبعض أوصاف المحبة فيمن شاهدناه وسمعنا به، من أهل زماننا في بلادنا وإن لم نستقصِ ذلك ولا بحثنا عنه، وقد صنَّف الناس كتبًا في ذلك يضيق الوقت عن ذكرها(١).

ولو كان الناس كُتَّابًا والبحرُ مدادًا والشجرُ أقلامًا وأقاموا عمر الدنيا لما استطاعوا أن يكتبوا بعض أوصاف محبة الله تعالى وآثارها في المخصوصين والمحبين، وإنَّما ذكرنا هذه النبذة اللطيفة في أهل زماننا تشويقًا للطالبين، حتى يغبطوا أهل زمانِهم فيما هم فيه، ولا يعتقدون أنَّ ذلك كان في الزمان الماضي، ولم يكن في هذا الزمان فاقتصرنا على ذلك، ولله الحمد والمنة.

وصف الفقير

ولنذكر نبذة يسيرة في وصف الفقير كما وصفه الله تعالى في كتابه، واصطلاح الطائفة في تسمية وصفه، وبعض ما جرى لهم من أهل زماننا؛ إذ الفقر اسم جامعٌ لجميعِ الصفاتِ المحمودة، ونافٍ لجميع الصفات المذمومة، يدخل فيه جميع المقامات والأحوال، وينحصرُ في تسمية الأقوال والأعمال، ولا ينحصر في حال من الأحوال، ولا يعرَّف بقيل ولا قال(٢).

---

(١) قلت: من ذلك الرسالة القشيرية، وطبقات السلمي، والطبقات للشيخ الشعراني، والكواكب الدرية للمناوي، والانتصار للموصلي، وروضة الحبور لابن الأطعاني، وجامع الكرامات للنبهاني، وغير ذلك كثير لا يحصى.

(٢) انظر: الرسالة الفقيرية للشيخ ابن سبعين -قدس الله سره- في الكلام على معنى الفقر، ضمن رسائله، رقم (١)، .

فنبدأ بما قال الله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً**﴾ [النساء:١٢٢].

قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ**﴾ [فاطر:١٥].

وهذا وصف يعُمُّ جميعَ الموجودات بالافتقار إلى موجدها وخالقها ومخرجها من العدم إلى الوجود، فكلُّ شيء مفتقر إليه كما قال الله تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص: ٨٨].

ووقع الخطاب لمن يعقل؛ إذ من لا يعقل لا يتوجه إليه الخطابُ، وإن كان قوله تعالى: (يا أيها الناس) للتخصيص، فالجنُّ والإنسُ والملائكةُ يعقلون ويُكلَّفون ولذلك قال الله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال تعالى عن الملائكة: ﴿**لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم آية: ٦].

الافتقار إلى الله تعالى

وأمَّا الافتقار إلى الله تعالى فهو يعُمُّ كلَّ موجود سوى الله تعالى، وكل ما وُجد من العدم كان مفتقرًا إلى الله تعالى في إيجاده فأوجده من العدم، وإن كان قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨].

فوقع الخطاب لمن لا يعقل، فقد يكون وحى وإلهام وما جبلهم عليه حين خلقهم وتعرُّفه إليهم سبقهم لمعرفته.

وقوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ [الإسراء:٤٤]، وسبَّح الحصى في كفِّ رسول الله ﷺ والمعجزة في تسبيحه بكلام الآدميين، فإن الحصى لم يزل مسبحًا في نفسه، ومعرفة كلِّ شيء بربِّه من جامد وناطق ويافع ونابت وحيوان وإنسان وملك وشيطان، أمم أمثالكم لا يجهله إلا من أَعْمى اللهُ تعالى قلبَه، وجعل الغشاوة على بصره وبصيرته.

وأمّا قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي**﴾ [المائدة:١١١].

فهذا وحى على ألسنة الرُّسل -عليهم الصلاة والسلام- وحقيقة الافتقار في

الموجودات وافتقارها إلى موجدها من عدمها إلى وجودها وفي حال وجودها وما يئول إليه أمرها ظاهر، أظهرُ من الظهور نجده بالذوق الذي هو أظهر الدليل، والدليل عليه حجاب عليه، كذوق الحلاوة والمرارة، فلا حاجة إلى استقصائه، وكذلك وصف فقراء الاحتياج، وعدم المال، وعدم الاكتساب في الصدقات عليهم فقد ذكرهم في إعطاء الصدقات؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]. وذكر أصنافَ الاستحقاق للصدقات.

الفقير عند القوم رضي الله عنهم

وأمَّا **الفقير المخصوص المطلوبُ**، وما اصطلحت عليه الطائفة في تسميتهم (الفقير) وأوصافه، فقد قال الله تعالى: ﴿**لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً**﴾ [البقرة: ٢٧٣].

فقد وصفهم الله تعالى بصفات ظاهرة لا تخفى عليهم في أنفسهم، ولا تخفى على الناس فيهم، فمن كان موصوفًا بما وصفه الله تعالى به فهو من الفقراء وإلا فلا، وذكَرَهم ووصفَهم لإحصارهم في سبيله وعدم الاستطاعة، فصار إحصارهم في سبيل الله عائد على مجاهدتهم لأنفسهم من مخالفتهم لهواها، فإنه لا بدَّ للسالك إلى الله تعالى من ترك الهوى والحظوظ النفسانية، وخلع العادات وترك المألوفات، من كلِّ نوع مألوف من مأكل ومشرب وملبس ونكاح ومصاحب ومؤانس وغير ذلك، فلا بدّ خلو باطنه من كل موجود سوى الله تعالى، حتى يصلُح لتلقِّي الواردات ويصير محلا للأسرار الإلهيّة والتجليات الربانية.

وكذلك نفرته عن كل شيء، والتوحش عن كل شيء، حتى يجد الأنس بربه تعالى؛ فإنه من أنس بالله تعالى استوحش مما سواه، ومن أنس بشيء سوى الله تعالى وجد الوحشة من الله تعالى، وبحسب ما تترك من نفسك لله تعالى وعلى قدر ما تحرق في نفسك من العوائد لله تعالى، يخرق الله لك العوائد في ملكه وملكوته فافهم ذلك.

فإحصارهم في سبيل الله تعالى بحسب المبايعة بالأنفس والأموال لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ**﴾[التوبة: ١١١].

وهذا وجه من وجوه الكرم الإلهيّ الذي ليس له مقابل ولا مجازات عليه إذ إيجادهم من العدم بمحضِ الكرم لا لحاجة فيهم، ولا إليهم، ثم تكميلهم ونشأتهم في أحسن خلقة وأحسن تقويم من سائر الموجودات والحيوانات الحسيات والمعنويات، ثم تخصيصهم بالإيمان، ثم نسب أنفسهم لهم بالملائكة، وإلى نفسه بالشراء منهم، كل ذلك ليزيدَهم بكرمه كرمًا على الكرم بأنَّ لهم الجنة، وهم في نفس الأمر مِلْكه، والجنة ملكه، وله أن يعدمهم بعد الإيجاد، وله أن يقبلهم من غير مجازات بجنة، ولا منع من نار.

فانظر إلى هذا التلطُّف في إيصال الخير إلى العبد، وحثه عليه وتعليم سلوك الطريق إليه بنوع الملاطفة في معنى المجاهدة، وقوله تعالى: ﴿**يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ**﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وهذا فيه إشارة الزهد وترك ما في أيدي الناس حتى يعتقدوا فيهم الغنى والعفة، والتعفف نوع من الزهد، ومنه عفَّ عن الشيء إذا تركه وتعفف نوع منه، وقيل في ذلك:

ويَا نفس صبرًا إنَّما شرفُ الفَتى إذا عَفَّ عن لذَّاتِهِ وهو قادرُ

وفيه أيضا إشارة إلى كتم الأحوال وسترها عن الناس حتى يعتقدون فيهم الغنى مع الفقر والحاجة ولا يطلعون على أحوالهم في الحقيقة، وقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾ [البقرة:٢٧٣].

هذا تخصيص للنبي ﷺ لأن معرفته من الله تعالى بما يُريه من مشاهدات الكشوف ومطالعات الملكوت، وما ينفث في رَوعِه من رُوح القدس.

والسيما معنى قائم أو صفة قائمة بالمؤمن في وجهه أو في صفته أو حركاته أو سكناته، فهو معروف بتلك الصفة المعنوية، تظهر عليه للشاهد لها أظهر من شهود حسه، كذلك المجرم لقوله تعالى: ﴿**يُعْرَفُ المُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ**﴾ [الرحمن: ٤١].

وهذه صورة الانعكاس.. نسأل الله تعالى العافية بمَنِّه وكرمه.

الوارث

وللوارث من النبي ﷺ من معرفته السيما نصيب بحسب القسمة في الميراث، والاستعداد لفك الحجر عنه، وقوله تعالى: ﴿**لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً**﴾ [البقرة: ٢٧٣] يحتمل وجوه في السؤال بحسب الاعتبار والأحوال والحاجة والاضطرار:

فمنها: أنهم لا يلحفون في السؤال ولا يخجلون ولا يسألون إلا عند الحاجة الماسة، ويُجملون في الطلب ولا يسألون إلا للضرورة، وعند الضرورة تقع الإباحةُ في القَدْرِ الذي يسدُّ الخِلة تلك الساعة، لدفع المضرة المؤدية إلى الموت، وترك الواجب من حقوق الله تعالى.

و**الثاني**: لا يسألون الناس شيئًا لا قليلاً ولا كثيرًا، فإنْ جاءهم شيء أخذوا منه قدر ضرورتهم تلك الساعة، وهذه حالة من أحوال المتوكلين، والأولى: من أحوال السالكين.

و**الثالث**: يشهدون ما قُدِّر لهم من الرزق والعطاء على أيدي العباد، وتنقله من خازن إلى خازن ومن خزانةٍ إلى خزانة، والأيادي عندهم ظروف وخزائنٌ لمجاري الإرادة ولسوق العطاء وأداء الأمانة، وهؤلاء يأخذون ما هو لهم من تحقيق وبصيرة، وسواء عندهم طلبوا ما لهم أو جاءهم من غير طلب فما أخذوا إلا مِنَ الله تعالى، ولا طلبوا إلا من الله تعالى، فهؤلاء هم الذين لم يسألوا الناس شيئًا من مال الناس إلحافًا أو إلحاحًا، أو خجل المسئول بأن سأله بين أقرانه وأصحابه أو عند من يستحيي منه، فهذا ليس ممن ذكرناه أولاً ولا ثانيًا ولا ثالثًا؛ فإن هؤلاء يضربون الناس بأسواط الحياء، ويؤذونَهم بأنواع من الأذى حتى يستخرجون منهم أموالَهم من غير طيبةِ أنفسهم، وقد ورد: «**لا يحلّ مالُ امرئ مسلمٍ إلا عن طيبِ نَفْسٍ منه**[١]»، وهم يدخلون في الحديث:

«**لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله تعالى وليس في وجهه مزعة لحم**[٢]»، وهو أشدُّ على أرباب النفوس الرئيسة وذوي الهيئات، والأكابر وولاة الأمور من الظَّلمة؛ إذ الظالم لا يتجرأ على كلِّ أحدٍ إلا على من استضعفه.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٥/٧٢).

(٢) رواه مسلم (٢/٧٢٠)، وأحمد في مسنده (٢/١٥).

ومن الناس مَنْ يدفعُ الظالمَ عن نفسه، لا سيما إن كان أميز منه عند ولاة الأمور، ولا يقدر يدفع هؤلاء الذين يتشبهون بذي الصلاح، وهم أظلم من الظلمة؛ إذ يُخجلونه ويُجبرونه ويَخشى على عرضه من كلامهم عليه عند غيره من الأكابر، بل إن ولاة الأمور مظلومون معهم، لأنَّهم يجابهونَهم بالكلام وبالتخجيل، ويخشون من قبح الأُحدوث، وأن يقال ما أعطى الملك الفقيرَ شيئًا، أو ما أعطاه إلا شيئًا قليلا، وكذلك الأمير وكلُّ من له رتبة، ولسنا نتكلم في هذا الباب ولا هو من قصدنا، إلا لوقوع الكلام وتبيين المباح في السؤال من الحرام، ليعلم السائل ما يطلب والمسئول ما يعطي.

ووصف الفقراء أيضا ثانيًا ومن كان من قبلهم ومن جاء من بعدهم فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ المهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:٨-١٠].

فلينظر الفقير صفته في كتاب الله ﷻ في اسم الفقراء ووصفهم، وفيمن تقدمهم ومَنْ تأخر عنهم، فقد وصفهم له، وليعرض أخلاقه على القرآن بوصف الصدق كما وصفه الله تعالى فيه، فمِن هنا يَعلم نفسَه من أيِّ الأوصاف التي وصف الله تعالى هل هو متصف بذلك أم لا؟ فإن كان عَريًّا من ذلك فليعمل على الاتصاف ولا يدَّعي ما ليس له، ولا يحب أن يحمدَ بما لا يفعل فقد ذم الله تعالى من كان بهذا الوصف وتواعده بالعذاب الأليم.

ولا يدخل أيضًا في وصف الظَّلمة بالكذب على الله تعالى لقوله تعالى: **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾** [الأنعام: ٩٣].

فإنه لا يكون أظلم منه، وليفقه معنى قوله تعالى: **﴿لِلْفُقَرَاءِ المُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً﴾** [الحشر: ٨].

خـروج السادة الصوفية عن الدنيا لربهم

فأمَّا الخروج من الأموال الظاهرة والأموال المملوكة التي بأيديهم فهذا معلوم، وأعرفُ مَنْ فارق أهلَه ووطنَه ولم يعدْ إليهم إلى الموت، وهم جماعة لا أحصيهم.

فمنهم أبو الطاهر إسماعيل بن عبد المحسن المرائغي، خرج وهو شاب كما أخبرني، واجتمعَ بالشيخ يحيى فما رجع إلى أهلِهِ، ومات بمدينةِ قوص، ودفن بجبانة قنا.

ومنهم عامر بن نسيم، خرج من بلدِهِ أسيوط، ودفن بقنا.

ومنهم الشيخ أبو العباس الملثم، خرج عن ملكيةِ أبيه ببلاد المشرقِ ولم يعد.

ومنهم الشيخ محمد العجمي، خرجَ من وطنِهِ فما رجعَ ولا عادَ إليه، ومات بمصر.

ومنهم الشيخ يعيش، خرج من وطنه وما رجع إليه، ومات بقوص.

ومنهم الشيخ أبو الفتح الواسطي، خرجَ من وطنه وما رجع إليه، ومات بالإسكندرية.

ومنهم جمعٌ كبيرٌ لا يُحصى عددُهم، مثل الشيخ أبو عبد الله المرسي، خرج من وطنه وما رجعَ إليه، ومات بقوص.

ومنهم الشيخ أبو عبد الله المرسي الشاذُلِي، خرج من وطنهِ ولم يَعد إليه، ومات بالإسكندرية.

ومنهم الشيخُ عبد الحق إمام الْمَرقَي الذي قرأنا عليه القرآنَ.

ومنهم أبو عبد الله المغربي، ومات بقوص.

ومنهم الشيخ أبو عبد الله البرحي، والشيخ الفارسي، وغيرهم من أكابر المشايخ خرجوا ولم يعودوا.

ومنهم الشيخ محمد بن المرابعي، خرج من بلدِهِ ومالِهِ وماتَ بجبل الصالحيةِ، وكانت له كراماتٌ ومكاشفاتٌ وأحوالٌ جليلةٌ.

ومنها ما ذَكرَ لي تاجُ الدين الكاتب أنَّه قال: للصّاحبِ زين الدين أَحْضِرْ ألف دينار وإلا تغرم سبعين ألف دينارٍ، فأحضرَ خمسمائة دينارٍ ولم يوافقْ نفسَه على تكملة الباقي فغَرمَ سبعين ألف دينارٍ.

وحَكى لي روايةً أخرى أنه قال: تصدَّقْ بسبعين ألف درهم وإلا تغرم سبعين

ألف دينار، فلم توافق نفسُه على ذلك، فدفعَ البعضَ فغرم ذلك.

ومنهم جماعةٌ أحياءٌ الآنَ، خرجوا من ديارهم وأموالهم، وما نعلم هل يُقدَّر لهم الرجوعُ إلى بلادهم أم لا، وإنما ذكرنا من رأيناه ومات.

وأمَّا مَن أخبَر عنهم المشايخُ ولم نرهم فما نحصيهم، وأمَّا من أخبرَنا عنهم المشايخُ كالشيخة التي وردت إلى ثغر الإسكندرية، امرأةٍ شيخةٍ كان عمرُها ثمانين سنةً، وكانت كأنَّها الشمسُ الضاحية من الحسن، وكانت بنتًا بكرًا، وخطبها الشيخ تاج الدين بن الرَّمَّاح فلم تفعل.

قال الشيخ: فسألتها عن سبب خروجها، قالت: كان أبي مَلِكًا، فخرجنا إلى بستان للفرجة، فوقفتُ تحت شجرةٍ، فسمعتُ كلَّ ورقة فيها تسبّحُ الله تعالى بلغةٍ غيرَ لغةِ الورقةِ الأُخرى، فمن ثمَّ ما رجعتُ إلى مُلْكِ أبي إلى الساعة، فقلت لها: لم لا تتزوجي؟ فقالتْ: إِّني حججتُ البيتَ، وسألتُ الله تعالى ألا يجعلني لِمَن لا يستحقني، فكفاني مؤنة ذلك، فقلت لها: كيف رأيت مشايخ الغرب؟ فقالت خضت بحر معرفةِ الجميعِ فما وصلوا بي إلى الرُّكَبِ.

فقلت: بماذا؟ فقالتْ: إنيِّ أَدْخلُ على الشيخ فيراني بمَحِلِ امرأةٍ ويَرى نفسَه بمحلِ رجلٍ -والمعاني ما فيها ذكورية ولا أنوثية فمن ثمَّ يسقط- فقلت لها: كيف أنا عندك؟ فقالت: مِن جملة القش، فقلت لها: هذا الشيخ تاج الدين بن الرَّمَّاح رجلٌ عظيمُ القدر، وذكرت لها من صفاته ما ذكرت، فقالت لي: صدقت، لكن إذا كان بزازًا تُطلبُ عنده خرقةُ طرحٍ، وما يوجد عنده ذلك الطرح الذي قصدتُه عنده يلزم من هذا ألاّ يكون بزازًا، قلت: لا، قالت: فإنّ حاجتي ما وجدتُّها عنده.

وإنَّما ذكرْنا ذلك لأجل خروجها من بلدها.

ومن الأعجام جماعةٌ خرجوا ولم يعودوا إلى بلادهم، ومنهم الشيخ محمود الأصفهاني، كان رجلاً صالحًا خرج عن أهلِهِ ومن بلدِهِ ولم يعدْ، ومات بالبحر المالِح بناحية عيذاب، وهو متوجه إلى الحجاز.

ومنهم الشيخ أبو بكر، وهو الآن حيٌّ بقوص، وجمْعٌ لا أحصيهم ممن خرج من ديارِهِ وأهلِه ومالِه.

ومنهم الشيخ عبد الله الجبلي -قدس الله تعالى روحه ونوَّر ضريحَه- سألت ولده الشيخ جمال الدين يوسف -وكان من العلماء الصالحين- عن تسمية والده الشيخ عبد الله الجَبَليِّ لِمَ سُمِّي الجَبَليّ وهو رجل مغربي؟ فقال: سألت أبي عن ذلك فقال لي: يا ولدي، كنتُ لَمَّا قصدتُ التوجهَ إلى بيت الله تعالى الحرام، وكان لي أختٌ جميلةٌ مفرطةٌ في الجمالِ فقصدتْ التوجه معي، فخشيتُ عليها من نوائبِ الزمان؛ فإن بلادنا بعيدةٌ من هذه البلاد، فتركت السفر وتكرر ذلك، فكلَّما طلبتُ السفرَ تطلبُ مني السفرَ معي، فلمَّا طالَ ذلك خرجتُ خُفْيةً منها فلحِقَتني على ثلاثة أيام، فسافرت، بها إلى أن وصلت إلى بلاد الأشمونين، وكان بها شيخٌ مغربيٌّ يُسمَّى: أبو الحجاج، فتركتَها عند زوجتِهِ في بيت الشيخ، وصعدتُ الجبلَ، فكنت أقيم به مدةً وأنزلُ أبصر الأختَ وأعود، فتحدث معي الشيخُ في زواجها، فقلت له: يا سيِّدي، أمرها إلى نفسها، قال: فتحدث معها لي، فتحدثت معها فقالت: يا أخي، أنا ما تركت أهلي ومالي إلا طلبًا لله سبحانه وتعالى، وإذا تزوجتُ تجبُ عليَّ حقوقُ الزوجية للشيخ ومطاوعته فتفوتني مقاصدي ومطالبي ولا أقدر على ذلك للشيخ، فقال الشيخ: أنا أكون عونًا لها على مقاصدها وطلبها وأحجّ بها، وتحدّثت معها، وكان قصدي أن تكون عند الشيخ، فإنَّني سلكت على يدِهِ وانتفعت به، وأحببت لأختي تزويجَها للشيخ، فتزوجتْ، وسكنت النفس من جهتها وبقيت أطلع إلى الجبل فأقيم فيه.

فبينما نحن كذلك إذ قيل: الشيخ أبو الفتح الواسطي وصل، قال: فتقدمت إلى الشيخ وقلت: يا سيِّدي، هذا الشيخ أبو الفتح الواسطي قد وصل، ولا بدَّ لي من الاجتماع به، فقال لي: يا ولدي، ما أمنعك، رُح إليه؛ فإن وجدت عنده زيادةً عمّا عندي فلك أن تطلب مصلحتك، وإن كان ما عنده إلا ما عندي فإني أحقُّ بك لأنِّي ربيتك. فقلت له: ولك ذلك.

قال: فتوجهت إلى الشيخ أبي الفتح، فوجدته قد نزل بخيام، وبين يديه الأمراء والأكابر والعلماء والفقراء، وهو في مرتبةِ مَلِكٍ لا يصلُ مثلي إليه، فبقيت كذلك ثلاثةَ أيامٍ، والناس على تلك الحال ولا وصول لي إليه، فبقيت أقول في نفسي ما أقول من كثرة هذه الخلائق ومقاصدها، وبتُّ على أنني أصبح أسافر لكوني لم أجد إلى الشيخ

سبيلاً.

فلمَّا كان الليل نمت، فأبصرت في المنام شيخي والشيخ أبا الفتح، وشيخًا آخرَ كان مشهورًا بمصر، حضروا وأُحْضِرَ لهم ثلاثةُ رءوسِ خيلٍ، فركبوا وتسابقوا في الهواء فبعد ساعةٍ وإذا بالشيخ المشهور قد انقطع ثم بعد ساعة، وإذا بشيخي قد انقطع وسار الشيخ أبو الفتح الواسطي إلى أن غاب عن العيون.

فأصبحت وإذا بخادم الشيخ يمشي بين الناس حتى وضع يدَه على يدي، وقالَ لي: قم كلِّم الشيخ أبا الفتح الواسطي، فقمت فأَدْخِلت على الشيخ فحين دخلتُ عليه قال لي: أهلاً بعبد الله الجبلي، فأطلقَ عليَّ هذا الاسمَ لأنيَّ كنت آوي الجبل، وأخبرني الشيخُ بجميع ما اتفق لي في بلادي، وإلى حين وصولي حتى الذي رأيته البارحةَ في منامي وأخبرني به، وقال لي عن كلِّ ما كان في نفسي وعن حديث كثرة الناس فقال: كلٌّ منهم ينال مقصوده، ومنهم من له مقصود أكثر من مقصودك، وأخذ عليَّ العهد، فهو كان سبب تسميتي عبد الله الجْبَلِي.

ولا يُحصى مَن رأينا ممن خرجَ من ديارِهِ ومالِهِ ولم يعدْ إليها.

وممَّن خرج عن دياره وماله الشيخُ محمد العجميُّ ثم الموصليُّ، ذكر لي الشيخ محمد المذكور أنّه كان له بالموصلِ معملُ قماشٍ وتحت يدِه صناعٌ، وكان يدخل الموصل مولَّهٌ من أصحابِ قضيبِ البان، فكان إذا تبعه أحدٌ يصدر منه صوت أو يتولَّ ويخليه ويروح ويتركه التابعُ، فمشيت دفعةً خلفَه، وبقيت أخشى أن يفعل بي كما يفعل مع غيري، فمشيت خلفه حتى خرج من الموصل ووصل إلى ضريح قضيب البان، فخرج إليه دادا عمر والتقاه فأكرمه ثم قال لي: رح، ثم أخذنِي النومُ فرأيت الشيخ قضيب البان في المنام وفي يده قارورةٌ، يُبان باطنُها من ظاهرها، فقال لي، يبقى قلبك هكذا، تبان فيه الدنيا والآخرة.

قال: فاستيقظت فأخذتني حالةٌ أقمت منها سبعة أيام لا أرفع رأسي، فقلت لأولادي أوصلوا للناس الذي لهم وخرجت، وأقام بجامع مصر خمسين سنة، ومات رحمه الله، ولم يعد إلى بلاده وأهله، وله حكاية مع دادا عمر نذكرها في موضعها إن شاء الله تعالى.

وأمَّا **المتقدمون** فقد دوَّنتُ دواوين، وكتبت في ذلك منها ما ذكره الشيخ أبو القاسم من هوازن القشيري في رسالته، والشيخ الإمام أبو طالب المكي في قُوته، والغزالي في إحيائه، وغيرُهم.

وأخبارُ السالكين والمتوجهين والأولياء والصالحين والمتجردين والمنقطعين والزاهدين والعارفين كثير، فلا نرضى بالهوينا ولا نتوقف عن المسير؛ ففضل الله تعالى عميمٌ مستمرٌ مزيدٌ لا ينقطع أبدًا.

خروج السادة الصوفية عن عادات نفوسهم وطبائعها

ومنهم مَنْ لا خرج عن دياره-يعني البلاد التي ولد فيها- وحصل له ما حصل للأولياء، وهم جمع كثير لا يُحصون، لكنه خرج من ديار عاداتِهِ ومواطن لذاتِهِ ومقرِّ شهواتِهِ، وخرق العوائدَ في نفسه وخرج عن الميلِ إلى ماله فلم يمل إليه بقلبه، وسواءٌ وجد المالَ بيده أو لم يَجِدْهُ بيده، ونفى العوائد عن نفسه في مأكله ومشربه وملبسه، وأحوالُ باطنه كأحوالِ ظاهرِهِ في ترك عوائده، كالشيخ أبي موسى التمار -رحمه الله تعالى-، كان لا يأكل الخبزَ ولا يشرب الماءَ إلى أنْ لقي ربَّه تعالى، وكانت له أحوالٌ ومواجيد وكشوف.

وأخبرني القاضي شرف الدين محمد بن مسلم قاضي عيذاب - وكان له من الصفاتِ وحسنِ المعتقد بهذه الطائفة، وكرم النفس وصحبة الصالحين- أخبرني أنَّه سأل الشيخ أبا موسى التمَّار ألاّ يكون قاضيًا فقال: قال لي الشيخ أبو موسى: سمعت قائلاً يقول: إن لم يرضَ بالحالة التي هو عليها وإلا جعلناه رقَّاصًا في بيت الوالي.

وأخبرني القاضي شرف الدين المذكور-رحمه الله تعالى- عن نفسه أنه أقام أربعين سنة يسمع الأذان من السماء قبل سماعه في الأرض، يسمعه كهيئة التأذين بجامع مصر، ومات حاكمًا رضي الله عنه.

ومتى كان القلب خاليًا عن الشواغل والعوائد والشهوات النفسانيِّة، والميل والالتفات إلى غير الله تعالى، فلا يضرُّه ما كان في اليد صورةٌ ظاهرةٌ، وقد يكون الظاهر خاليًا من ذلك، والباطن مشغولاً به فلا ينفع خلوُّ الظاهر.

وممن ترك العادة وهو الآن موجود، الشيخ أحمد الناعِمِي، لم يأكلْ خبزًا ولم

يشرب ماءً، وأخبرني في العشر الأول :من ربيع الأول :سنةَ ثمانٍ وسبعمائةٍ أنَّه ما أكل الحلاوة في طول عمره لكون النشا فيها، وكان قد حصل له شيء في نظره من الأبخرة، فذكر أنّ الأطباء قالوا له: اتركْ اللبن فقلت له: إن كان مالك عقد مع الله تعالى في ترك الخبز والماء فاستعملهما واترك اللبن، وإن كان لك عقد فلا تستعملهما، فزعم أنّ له عقد مع الله تعالى وله أحوال سنية ورياضة، وأعرفه من أوَّل نشأته، نفع الله تعالى به.

ومنهم من أقام الأيَّام والأشهر لا يأكل ولا يشرب البتة، كالشيخ أبي العباس الملثم-،رحمه الله تعالى- أقام سبعين يومًا، أخبرني الشيخ أبو العباس الملثم، -رحمه الله تعالى-، عن نفسِه أنَّه أقام بطودٍ من بلاد الصعيد سبعين يومًا لا يأكل فيها ولا يشرب، وكان إذا مَرِض يداوي نفسه بالجوع فلا يأكل ولا يشرب فيبرأ.

وكان يقول: يتبدل اللحمُ بغير اللحم والدم بغير الدمِ، ولعل ذلك من تبديل العوائد وتغيُّرِ المزاج، وكان يجوع مدة أيام ويأكل الأكلة، وربما كانت الأكلة أكثر من أكل الواحد منا.

ومنهم مَنْ كان يأكل غيرَ الخبز، كالشيخ أبو عمر بن أبي الفتح الدماميني، أخبرني عن نفسه أنه يأكل حبَّ العنصل التي في البرية، وأقام عشرَ سنين يصلي الصبحَ بوضوء العشاء.

وأخبرني الشيخ الناعِمِي أيضًا أنه أقام في خلوات، كل خلوة أربعين يومًا يفطرُ على زبيبة، وكان يطوف كلَّ يومٍ ستين أسبوعًا بستين حزب قرآن إلى الظهر، **ومنهم** الشيخ عبد الله الدلاصي، أخبرني عن نفسه أنه أقام ثلاثين سنةً ومعه فقيران أقاما معه عشرين سنة منها، وكمَّل هو ثلاثين سنة، كان قوتُهم بعد كل ثلاثة أيامٍ بخمسة فلوسٍ قمحية، وهو ﷺ ممن ترك العوائد وجاهد نفسه في ترك العادة.

فمن أعرفه لا تنحصر عوائدهم حتى في خواطرهم إذا خطرت وتركوها، **ومنهم** من كان يأكل بالليل ولا يأكل بالنهار وينام بالنهار ولا ينام الليل، **ومنهم** من كان يأكل ولا يشرب الماء، وقد قيل أنَّ الماء من الشهوات الوهمية، وإذا أكل الإنسان اكتفتْ المعدةُ بفضول المأكولات وما فيها من الرطوبات، وجرَّبتُ ذلك في أوقات الصيف وأقمت ثلاثة أيام آكل المملوحات وما يستدعي العطش وغير ذلك ولم أشرب

ماء وقطعت عن نفسي خبره، فوجدته كما ذكر في الوهم.

ومنهم مَنْ يشرب ولا يأكل، وقد ذُكِرَ أنَّ أبا العباس المزني أقام بمكة - شرَّفها الله تعالى - ستَّ سنين لم يدخلْ جوفه سوى ماء زمزم، وربا عليه الشحمُ واللحم، ولم يَحُلْ بينه وبين السماء والأرض حائلٌ.

والسالكون متفاوتون في خلو ديار العادات من كلِّ نوعٍ وجنس، وليس مقصودنا الآن الاستقصاء، وقوله تعالى: ﴿**يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ [الحشر:٨].

ينافي طلبَ الفضل من المال والجاه والمعاوضة؛ لأنَّهم خرجوا عن الدِّيار والأموال ابتغاءَ الفضل من الله تعالى والرضوان، فالفضل والرضوان يبتغونه من الله تعالى بحسب منازلهم عنده، وبالعطاء السابق منه في نشأتِهم وخلقِهم. ﴿**أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾ [طه:٥٠].

ومنهم من يبتغي القرب والشهود والرضا والرضوان.

ومنهم من يبتغي المحبة للاجتباء والاختصاص والاصطفاء، و بوضوء عشاء الآخرة من يبتغي الموهبة الإرادية والرتبة العلية في محل الصدِّيقيّة.

ومنهم من يبتغي القيامَ بالصفةِ الأَمْريةِ وبالخلافة القَيّوميّةِ والانتصارة المحمدية.

ومنهم من يبتغي رفعَ المراتب الحسيّة والمعنويّة.

ومنهم من يبتغى الاختياراتِ من العِلميّة والعَمليّة، فيكونَ مع الله تعالى، على ما يُرادُ منه في كلِّ الأشياء بحقائق الرِّضا والقيامِ بصفة الوفاء.

وشرح ما في الآية على حقائق فضل الله تعالى ورضوانه، لا تَسعُهُ العبارةُ، ولا تفي به الإشارةُ، وإنما ذلك بحسب كلِّ سالكٍ، ووصفَهم بأنَّهم ينصرون الله ورسولَه أولئك هم الصادقون، والله تعالى هو الناصر لهم، وأطلق ذلك عليهم مجازًا لنصرتِهم للحقِّ عند غلبةِ الباطل،وأجراه على أيديهم وألسنتهم، ونصرته لرسول الله ﷺ لذلك باتِّباعِهم له، وطلبِهم الناسَ، ودعوتَهم لتبعيته قولاً وفعلاً، ومعاداةَ مَنْ عاداهُ، وموالاةَ مَنْ والاهُ، والذبُّ عَنْ دينه بالسيف والمال والنفس والأقوال والأفعال، فنصرةُ الله تعالى هي نصرةُ دينه ونصرةُ رسوله ﷺ.

إيثار السادة الصوفية كل مسلم على أنفسهم

ووصفَ الله الذين تبوَّءُوا الدار والإيمان فقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: ٩].

وقد رأينا مَنْ آثرَ على نفسهِ مِمَّن لا أُسَمِّيه ومن أُسَمِّيه، وأخبرني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى-، أنَّه كان في عطشة الأخيضر وبلغت الشربة من الماء مائةَ دينارٍ، ومات البائعُ والمشتري وكان معه فقير اسمه حسن، وكنت أعرفه، قال الشيخ: فلقد رأيت امرأةً جاءتْ وفتحتْ سفطَ ذهبٍ لَها وسكبتْ الذَّهبَ، وقالتْ: يا مسلمين، مَ ْن يسقِني يأخذْ هذا فقيل لها -أو قلتُ لها- وأين الماءُ؟ فمشتْ إلى أن رمت روحها في البئر فماتت، وكان البئرُ قد امتلأ أمواتًا، ولا فيه شيء من الماء، وكانت الجمال والناس في الطريق أمواتًا، فيمشي الرجل فيعثر بالميت فيقع فيموت في مكانه، وبقي الخلاف عندي، هل بقي من كلِّ مائةٍ واحد أو من كل ألف واحد؟

قال الشيخ: فكنت أمشي على جانب في الطريق ومعي حسن، فجاءني إنسانٌ على ناقةٍ أو نجيب وأخرج لي شربةً من ماء فسقيتُها، ولم أشربْ منها شيئًا، فبقي يقبلني ويبكي ويقول: يا موتك بالعطش، قال: وفُتِح لي بشربةٍ أخرى فسقيتُها لحسن ولم أشرب منها شيئًا، وبقيت إلى أن لطف الله بي.

فانظر رحمك الله تعالى على هذا الإيثار مع شدة الاضطرار.

وقد قلت:

كـرامٌ سـختْ بـالموتِ نفوسُـهم ... لكـلِّ رفيـقٍ في الطريـقِ وصـاحبِ

إذا ذَكَـرُوا الإيثـارَ قـامُوا بحقِّـه ... فحدِّثْ بِهم ما شئتَ من عجائبِ

فمَنْ ذايبذل النفسَ يُؤْثِر غيرَهم ... إذا عـزَّ بـذلُ الـنفسِ عنـد المصائبِ

قال الشيخ -رحمه الله تعالى-: ولقد رأيت فقيرًا في ذلك الوقت على قرنة جبلٍ وهو ينشِد:

لم أدرِ ما غربةُ الأوطانِ وهو مَعِي   وخـاطري حيـثُ كنَّـا غـيرُ منـزعج

فالـدارُ داري وحـيِّي حاضـرٌ ومـتى   بَـدَا فمنعـرجُ الجرعـاءِ منعـرج[١]

والأبيات مشهورة للسيِّد ابن الفارض. ولقد جاءت العرب بالماء، فرغبوا في أخذ المال، وتَرَكُوا الناسَ وكانوا يعطونَهم المائةَ دينارٍ فما فوقها حتى يسقوهم، وكانت الأموال ملقاةً في البرّية ما لها مَنْ يأخذها، ولقد قلت: لِحسن مع كونه كان كثير السؤال يا حسن لِمَ لا تأخذ لك من هذا المال؟ فقال: وأنا حيٌّ حتى آخذ شيئًا؟ ونفرتْ نفسه، فقلت له: يا حسن الفقير ينفر من الدنيا في حال صحته وأمله كما تنفر أنت في حال تحققك بالموت.

وممَّن رأيناهم من المؤْثِرين على أنفسهم جماعةً لكنهم متفاوتون في الإيثار على أنفسهم، والمؤثرون بالأنفس قليل.

وممَّن رأيناهم الشيخ مجد الدين بن دقيق العيد القشيري، -رحمه الله تعالى-، كان يصومُ الدهر ويتلوَ القرآن، رأيتُه وعليه عرقشين خام بلا أكمام يبلُّه بالماء ويلبسه، وكلَّما نشف بلَّه وكان في الصيف، والمأثور عنه أنه كان أكثرُ أوقاته يُؤثرُ بعشائه، وله أوصاف جليلة نذكرها إن شاء الله في موضعها.

ومنهم الشيخ عبد الرحيم بن الشيخ مفرج الدماميني[٢] -رحمه الله تعالى- عاهدني وأُشْهدُ الله تعالى عليه في التصرفِ فيما يملكه في الدنيا وفيما له من الحسنات في الآخرة.

ومنهم امرأة كانت تؤثر بعشائها مع الحاجة، وتؤثر في مرضها بما تأتي به لضرورة المرض، ولقد رأيتها مرة وقد قيل لها أنَّ فقيرًا له زوجة وما على رأسها شيءٌ، وهي تطلب شيئًا لرأسها فرأيتها بادرتْ وخلعتْ القناعَ الذي على رأسها وبقيت مكشوفة الرأس، فقال لها: أحد أولادها -وكان فقيهًا- هذا ما يجوز فبكتْ وتغيرت، وكانت حالة غالبة عليها فقلتُ له: دعْها فوضعتْ شيئًا على رأسها، رحمها الله تعالى.

ومنهم زين الدين عيسى بن المظفر الأرمني، وحكايته مشهورة أنَّه وجد شخصًا

---

(١) البيتان من البسيط، وهما لابن الفارض في «الكشكول» لبهاء الدين العاملي ص (١٣١٠).

(٢) لوالده الشيخ مفرج حكاية مشهورة أنه أحضر عنده فراخ مشوية، فقال لها: طيري. فطارت انظر: الطبقات الصغرى للمناوي (٤/٦٠٣).

مطلوبًا بشيء إن لم يدفعه ضُرِب، وكان هو مطلوبًا كذلك بشيء إ ن لم يقم به تلك الساعة ضُرب، والحكاية مشهورةٌ وقد تقدَّم ذكر صاحبها.

وأعرف شابًا طلب منه فقير دينارًا ليمتحنه بذلك، فحمل إليه جميع ما يمْلِكُه -وكانت جملة كثيرة- فلم يأخذ الفقير منها شيئًا.

وأعرف رجلاً جليلَ القدرِ قال لشخص فقير: أُشْهِدُ الله تعالى أني ملَّكتُك جميعَ ما أملكُه، وهو صاحب تاج الدين -رحمه الله تعالى-.

وكنَّا مدةً بثغر أسوان، وقد حضر الأمير فخر الدين بن المكبر وسلَّم علينا، فلمَّا قام أخبرني الخطيب شمس الدين خطيب أسوان عن فخر الدين المذكور أنه أقام هو وعيالُه ثلاثةَ أيامٍ لم يطعموا شيئًا، وكان الغلاء وما كان يدِّخر شيئًا، فلمَّا كان بعد ذلك أتاه رجل من خولته بويبةِ قمحٍ وقادوسين عنبٍ وخروفٍ، فلمَّا دخلوا البيت إذا بجماعة من الفقراء جاءوا إليه، وطلبوا شيئًا يأكلونه ولحمًا -ولم أحققْ المطلوبَ- فدفعَ لهم ويبةَ القمحِ والخروفَ فقالوا: نُريدُ منك شيئًا حلوًا، فأعطاهم القادوسين العنب.

وأخبرني عنه أنه كان معه بمصر، وكان الأمير على وسطه ذهبٌ للنفقة، فأصبح يطلبُ شيئًا يقترضه فقلت له: وما أصاب الذهب الذي كان معك؟ قال لي: إن شخصًا وضعَ يدَه على وَسطِي واعتقدَ أنِّي نائمٌ وأنا أنظره فخشيت أن أُخجلَه، فسكتُّ حتى أخذَ الكيس وهو يعرفه ممن هو معه.فانظر يا أخي على هذا الحال.

وأخبرني الشيخ عامر بن نسيم قال: كنتُ في خدمة الشيخ جمال الدين الأسيوطي ونحن بأخميم وكان الشتاء، وإذا بشخص جالسٍ مع الفقيه يتحدث معه، ثم قام فلما خرج قال لي الشيخ: يا عامر، فقلت: لبيك قال: خذ هذه الجبةَ -وخلع جبّتَه، ولم يكن له شيء غيرها- قال: رُحْ إلى المكان الفلاني وأَعطِها لهذا الشخص الذي رأيتَه عندي، فأخذتُها ورحت أعطيتها له، وبقي الشيخُ في البرد، فلمَّا كان بعد ذلك وإذا أحد أصحاب الشيخ حضر والجبة معه فقال: يا سيِّدي، وجدت هذه الجبة وهي على قياسك فشريتها بثمانين درهمًا. قال: فأخذها الشيخ ولبسها، فلمَّا خرج الرجل خلعها الشيخ من عليه وطواها وقال لي: يا عامر، قلت: لبيك، قال: ارجعْ وادفعْها له، فما باعها إلا عن حاجةٍ. وبقي الشيخُ جمال الدين بالبرد.

ورأيت الشيخ سراج الدين ابن قاضي عيذاب -وكانت له أحوال جليلة نذكرها إن شاء الله تعالى في موضعها- وأخبرتني الحاجة أمُّ نجم الدين بن مطروح وكانت زارته، وكانت زوجة الشيخ سراج الدين، قالت: حصل لنا غلاء بمكة شرّفها الله تعالى، وأكل الناس الجلودَ، وكنا ثمانيةَ عشر نفرًا، فكنَّا نعمل ما مقداره نصف قدح نحسوه، فبينما نحن كذلك، إذ جاءنا أربعة عشر قطعةَ دقيقٍ وجاء خلفَها أهلُ مكة شرّفها الله، فاقتطعت منها أربعة قطعٍ وقلت له: أنت تريد قتلَنا بالجوع، وفرَّق العشر قطع على أهل مكة، فلمَّا كان الليل قام من مقامه مرعوبًا، وربَّما قالت: يبكي فقلت له: ما بالك؟ فقال رأيت الساعةَ أو رأيت في منامي السيدةَ فاطمةَ الزهراءَ بنتَ رسولِ الله ﷺ وهي تقولُ يا سراجُ، تأكل البَرَّ وأولادي جياع؟ فقامَ وفرَّق الأربعة قطع على الأشراف، وبقينا بلا شيءٍ ونحن ثمانية عشر نفسًا وما كنَّا نقدر على القيام من الجوع، وكنَّا إذا حصلَ لنا تقديرُ نصف قدح نعمَلُهُ حسوةً نَحسُوهُ .

وأخبرني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عن فقيرٍ، قال: قصدت السفر إلى الشام، فوجدت فقيرًا عليه هدمة، فسألته الرفقة في الطريق فقال لي: ما نوافق إلا أن يكون أحدُنا أميرًا والآخرُ مأمورًا؛ لأنَّه السُّنةُ. فقلت له: أنت الأمير عليَّ، وكنت قبل ذلك أنبسط عليه، فلما قال هذا الكلام وقع مني موقعًا، فلمَّا قلت له: أنت الأميرُ عليَّ قال: من شَرْطِ الأمير ألا يُخالَفُ قلت: نعم، قال: فالله تعالى شاهدُنا ثم سافرنا، فوجدنا في الطريق سيلاً وقد ملأ الوادي ووحلَ الطريقَ فقال لي: اخلع نعليك فأخذهما في يده فقلت له: ما هذا؟ فقال: ألستَ قد أشهدت الله تعالى أنِّي أمير عليك وألاّ تخالفني؟ قلت: نعم، قال: فاركبْ على ظهري، فركبت على ظهره وعبر بيَ الوادي، وأخذ الإبريق وغسل رجلي وألبسني نعلي وسافرنا، وإذا بالمطر قد نزل مثل أفواه القرب، وإذا هو قد أشار بإصبعيه إلى جبل هناك فانبسط علينا، وحال بيننا وبين المطر حتى فرغ المطر أشار إلى الجبل فرجع مكانه، فلما رأيته فعل ذلك خفت منه لأنَّني كنت أنبسط عليه، قال: وجاء الليل، فجئنا إلى قبةِ مسجد فدخلنا، وليس عليها باب فقال: اجلس في القبلة فجلست، وخلع هدمته غطَّانِي بِها وبقي عريانًا ما عليه ما يستر العورة، وسدَّ الباب بجسمه فوقف إلى الصبح، فلما كان الصبح أتاني بالإبريق فتوضأت

وصلَّينا وقد صار جسمه مثل الباذنجانة من البرد.

فانظر يا أخي إلى هذا الإيثار بالنفس في وقت الضرورة والبرد.

قال: ثم سافرنا حتى وردنا على امرأةٍ في الطريق فقلت لها: أيُّ شيء عندك نأكلُ؟ وكانت شيخة وكانت تُجْلس الفقراء فقالت: يا فقير، وَرَدَ عليَّ سبعون فقيرًا، وليس عندي إلا مدينُ دقيق وما أعرف إيش أصنع فقال لها ذلك الفقير: تُنيبيني اليوم في خدمة الفقراء، قالت له: نعم؟

قال: فأخذ الدقيق وعجن وقرَّص وجعلنا نحمل ونعجن ونقرِّص حتى أكل الفقراء وشبعوا، وبقي الدقيق وربما قال: والعجين والخبز. وسافرْنا إلى دمشق وأقمْنا، قال لي: أتسافر معي؟ فامتنعت وخفت على نفسي أن يصدر مني شيء مع مثل هذا الرجل لا يعجبه، ثم سافرت وحدي، فلمَّا وردتُ على المرأة قالت لي: أين صاحبُك؟ قلت لها: تركتُه أو كلمة هذا معناها، فقالت: والله يا فقير نحن في بركة ذلك اليوم حتى إلى هذه الساعة.

والمؤثِرون بالمال والثيابِ كثيرٌ، ورأيت من آثر بثوبه وبلغني عن الشيخ سراج الدين بن قاضي عيذاب، المقدَّم ذكرُه، أنَّه كان في موضع الطهارة أعني المرحاض فخلع ثوبه ورمى به، يعني آثر به، وبقي عُريانًا حتى أتوه بشيء لبسه.

ومن رأيته في هذا المعنى كثير، وقد غاب عني أسماؤهم لطول المدة وعدم استحضارهم، ومن غير الطائفة جماعة أعرفهم، وجماعة سمعت عنهم كمن كان في زمن الخلفاء العباسيين.

كالوزراء البرامكة يحيى بن خالد وجعفر ولده والفضل وغيرهم، والحكايات كثيرةٌ يطول ذكرُها.

ومنها ما اتفق لَمَّا قتل مروان بن محمد الأموي، واستتر كاتبه ابن عبد الحميد عند صديقه ابن المقفع فوُشِيَ بهما إلى عند السفاح فهجمت رسلُهُ عليهما فقال لهم ابن المقفع: ما تطلبون؟ قالوا: نطلب ابن عبد الحميد قال لهم: ابن المقفع أنا ابن عبد الحميد فقال ابن عبد الحميد: لا والله، بل هو أنا فقال ابن المقفع: لا والله، بل هو أنا.. فلما طال قال ابن عبد الحميد: أخرجونا للناس يعرفونا فأخرجوهما فعُرِفَ ابنُ

عبد الحميد فقُتِلَ، وقد قلت:

إن المــروءةَ وصــفٌ لــيس يَسْــلكُه لاَ كــريمٌ عريــقُ الأصــلِ والحســبِ
منــزهُ العــرضِ عــن ذمٍّ وعــن دَنــسٍ مُكمَّلُ الوصفِ من فضلٍ ومن أدبِ

هذه رحمك الله تعالى، أوصافُ أهل زمانِك ومَنْ تقدَّمهم، وأوصافُ الفقراء في الإيثار والمروءات، وأوصافُ المتحشمين من غير الفقراء، وأرباب الرئاسات من العرب والحضر وغيرهم.

وقد علمتَ أوصافَ نبيِّك ﷺ وما أثنى الله تعالى عليه في كتابه، وأوصافَ أصحابه رضي الله تعالى عنهم فاسلكْ الاقتداء بما شئت فإنها كلُّها أوصافٌ تُرضي الله تعالى ورسولَه ﷺ، وقد أثنى الله تعالى على من اتصف بها ولا يرضى بأوصاف الحَمقى والبُخلاء والأخسَّاء، ومن رضي لنفسه بالقاذورات الدنيوية مع فنائها وعدم بقائها، وقبحِ الأُحدوثةِ في الدنيا والعذابِ في الآخرة، خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

فنسألُ الله تعالى التوفيقَ لكل عملٍ يرضاه ويقرّب منه، ويحبه ويحب فاعله، ونعوذ بالله تعالى من كل عمل لا يرضاه ويبعد منه،ويبغضه ويبغض فاعله، إنه أكرم الأكرمين.

وقد قلت:

أعــوذُ بــربِّي مــن صــفاتي الــتي بِهــا أُذَمُّ وفِي يـــومِ القيامـــة تُخْجِـــلُ
وأَرجــو بفضــلِ الله مــدحًا بوصْــفه بأوصـــافه والفَضـــلُ يـــأْبَى التجمـــلُ

وذَكَرَ الذين جاءوا من بعدهم وقولهم: ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الحشر: ١٠].

الأمر بحسن الظن والنظر في صفات الأولياء

فانظر يا أخي، وفقك الله تعالى، إلى هذه الأوصاف التي ذكرها الله تعالى في الفقراء ومن تقدمهم، ومن جاء بعدهم فلا تَحِدْ عن طريقهم، واطلبْ واتصفْ، وسارعْ

وأنصفْ وسابقْ، ولا تتوانَ ولا تُهملْ أمر نفسك، ولا تنظر إلى من تشبَّه بالزِّى والكلام دون الاتصاف بالأعمال، ولا تقلْ كانوا أولئك، فقد ذكرت لك أهل زمانك ومن رأيناهم واجتمعنا بهم وعاشرناهم.

ولقد كانوا وهم الآن مِمَّن نعرفهم، ولا يرَون نفوسهم في رتبة الأدنى من الناس، بل لا يرون أنفسهم شيئًا.

ولا يغرَّنَّك ما تعلمه من نفسك من علة حظها ودسائسها في جميع أحوالها، فتعتقد أنَّهم إذا غضبوا كغضبك وإذا رضوا كرضاك، فتقيس أحوالهم على أحوالك وأحوال نفسك، فتقع في الإنكار عليهم ولا يعظموا في نفسك، فإنَّ هذا دأبُ المحجوبين والمبعودين عن الله تعالى، فإنَّهم وإن كانوا يغضبون ويتألمون ويرضون، فإنَّ غضبَهم ورضاهم لله تعالى، وتألمهم مِمَّا يؤلم البشرية لا يخرجهم عن ولايتهم،ولا يمنعهم استحقاقهم ولا يحجبهم عن ربِّهم ﷻ،فإنَّ ذلك جُبِلَ في الطباع، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ [الحجر: ٩٧- ٩٩].

وكان ضيق صدر رسول الله ﷺ لمخالفتهم لأمر الله تعالى وجحودهم لكتاب الله تعالى وما أتى به عن الله تعالى وتكذيبه، وهو حجة الله تعالى، ولذلك لم يغضب لنفسه، وإنما كان يغضب لله تعالى ولا يقوم لغضبه شيء.

فأحسِنْ الظنَّ بأولياء الله تعالى فهم ورثةُ رسول الله ﷺ والآخذون عن الله تعالى وإلا فالسَّلامُ أولى بك من العطب.

وأعرف أصحابًا صحبناهم من أربعين سنة وما فوق ذلك، وما دون ذلك فمنهم من درج بالوفاة، لرحمة الله تعالى، وقضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدَّلُوا تبديلاً فيما عاهدوا الله تعالى، وفيما صَحِبُوا به الإخوان، ولم يكن بينهم غلٌ ولا حسدٌ ولا تميُّزٌ على بعضهم ولا مقاطعة، وسنذكرهم في مواضع أسمائهم وصفاتهم وكراماتهم وموداتهم وصبرهم واحتمالهم، وقضاء حوائج الناس عندهم، واتخاذهم الراحة لهم وحملهم الأذى عنهم مدةَ عمرِهم، وعدم مؤاخذتهم لهم.

هذا مِمَّا رأيتُه ومِمَّن سمعتُه كذلك.

وعلى الجملة للفقراء أوصافٌ وأخلاقٌ، وأعمالٌ وأقوالٌ، ومواجيدٌ وأحوالٌ، وإعلانٌ وإسرارٌ، وإبطانٌ وإظهارٌ، وكشوفٌ وإستارٌ. وهو جُماعٌ لجميعِ الفضائل في الأواخر والأوائل، اسمٌ متصفٌ بما في القرآن، متخلّقٌ بما فيه من الأسرار والبيان، فليعرض كل فقير نفسه على القرآن، ففي ذلك بيانُ صفة الشجاع من الجبان.

ولننظر إلى قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم: ٤].

ومثَّلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خُلِق النبي ﷺ فقالت: «**كان خلقه القرآن**[١]».

إتباع السادة الصوفية للقرآن والسنة ودعوتهم إلى ذلك

ولأنَّ القرآن العظيم أعظمُ المعجزات، وأكبر الكرامات، وقد اختلفت حالات رسول الله ﷺ في الاتصاف بالكرامات، والفضائل المتواليات والعبادات والطاعات وامتثال الأوامر في جميع الحالات، كلُّ ذلك للبيان والتعليم والسلوك على الصراط المستقيم؛ فلذلك قال الله تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقال الله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ [الحشر:٧].

وقال الله تعالى: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ**﴾ [الفتح:١٠].

فانظر يا أخي رحمك الله تعالى إلى هذه السبيل وهذا الطريق، واسلكْ على هذا المنهاج وهذا التحقيق، وقمْ بما تستحقه من الإيمان، والتصديق بما ترغم به أنف الزنديق، وترضي به الصديق، فإنَّه مَن وجدَ في نفسه شكًا أو وهمًا أو ترددًا في أقواله ﷺ وأفعاله وقضاياه وأحكامه، فقد خلع ربْقَ الإيمان، وكشفَ قناعَ الكفرانَ، قال الله تعالى:

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٦/٩١).

﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٥ - ٤٧].

بقدرِ تبعيَّتِك لنبيِّك سيِّدنا محمد ﷺ،ودخولك تحت حكمه وتخلّقك بخُلُقِهِ،واتصافك بوصفه،يكون فقرُك فازددْ من ذلك أو انقُصْ، وأكمَلُ أحوالَ الفقير أنْ تكون على ما كان عليه رسول الله ﷺ إلى حين وفاته، فافهم ذلك فهذا هو الفقير حقيقة والله تعالى أعلم.

وأمَّا اصطلاح الطائفة الشريفة في الفقر والاتصاف به، فلهم بذلك كلامٌ كثير، وأقوال بحسب وجدانهم واتصافهم واستعدادهم، فمِنْ قائلٍ: الفقرُ الاتصافُ بكلِّ وصفٍ محمود، والانخلاعُ عن كل وصف مذموم.

ومِنْ قائل: الفقرُ وصفٌ يفوقُ الأوصافَ والحدودَ، ويتجلَّى من وراء العقول والعهود، فلا يصفُهُ واصفٌ، ولا يعرفه عارف، ولا يخاف فيه آمن، ولا يأمن فيه خائف، وكلُّ الأقوال بحسب الوجدان والأحوال والقابلية والاستعداد لتلقِّي الواردات لما يرد به المراد.

والذي وصفوه وتكلَّموا فيه،وحققوه أنَّ الفقر خلوُّ الكفِّ من المالِ وخلوُّ القلبِ من الآمالِ، وهذا أحسن ما قالوه، إلا أنَّ خلوَّ القلبُ من الآمال لا يحتاج إلى خلوِّ الكفِّ من المالِ، فقد كان لبعض الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه الأموال في أيديهم، ولم تكن في قلوبهم كأيُّوب النبيِّ السيد ﷺ والسيِّد سليمان بن داود عليه الصلاة والسلام وعلى أبيه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، والسيِّد النبيُّ الأميُّ عليه أفضل الصلاة والسلام، وكان الملك للسيِّد سليمان والخلافة للسيد داود عليهما السلام، فافهم معنى ذلك.

ولا تقفْ مع حظِّك؛ فهو الذي حَجَبَ مَنْ أُقِيمَ في رُتبةٍ مِنَ الرُّتب عن وصوله

لما كانوا عليه، والآمال بحسب المؤمل لها، وهي ما شغلك عن الله تعالى من أهلٍ أو مالٍ أو ولدٍ أو دنيا أو آخرةٍ أو رتبةٍ من الرتب الدنيوية أو الأخروية يومًا أو لحظةً أو ساعةً من الساعاتِ أو خطرةً من الخطرات، أو زمنَ فردٍ فذلك مشئوم عليك كما ورد: ما شغلك عن الله تعالى من مال وولد فهو عليك مشئوم، وفي قوله تعالى: ﴿**لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ**﴾ [الإسراء: ٢٢] كفاية لمن كان له قلب أو ألقى السَّمع وهو شهيد، وحقيقة الأمل وجود الحياة، وطلب البقاء في هذه الدار، فبقدر طول الأمل وقصره، تفْضُلُ درجاتُ الفقر، فالفقير حقيقةً مَنْ لا أمل له.

وقد ورد في قصر أمل رسول الله ﷺ ومَحْوِ الأملَ من قلبِهِ في تسويغ اللقمة وشربة الشربة، وما ذكره لأصحابه فيه كفاية، فحياة الفقير دنياه وأمله عدم فقره، وعدم أمله وجود فقره، ولنقتصر على هذه النبذة اليسيرة من اسم الفقير وصفة الفقر، ولنذكر أسماءَ من وعدنا به ممَّن عرفناه وصحبناه ومَن سمعنا عنه، وصفاتهم وكراماتهم وأحوالهم وتصرفاتهم، من السالكين والعارفين وأولي الأمر والأخلاف والأعين والأبدال، بحسب ما سمعناه ورأيناه بعون الله تعالى وقوته وتأييده وإرادته.

باب في ذكر أسمائهم وكراماتهم وصفاتهم مما رأيته منهم

١- الشيخ أبو العباس الملثم

الشيخ أبو العباس أحمد الملثم المشرقي، كان أبوه ملكًا بالمشرق وهو أولُ مَن صحبته من هذه الطائفة من قبل البلوغ وبعده، إلى حين وفاته، -رحمه الله تعالى-، وكان كبيرَ الشأن، له أحوال جليلة وأعمال مستديمة، وخوارق عظيمة ومكاشفات عجيبة وهمم عالية وكرامات متوالية، وإخبارات صادقة وآيات واضحة.

وعجائبه كثيرة وإنَّما نختصر منها على ما يشوق ويلذ في المسامع، ويحضُّ على سلوك الطريق المتبوع والتابع، كان يلبس الشَّعرَ على جسده وإن وجد شيئًا لبسه فوقه، أيَّ شيء كان عباءةً أو فرجيةً أو غيرَ ذلك، وكان يتلثَّم وكان ربعًا قامةً لينَ الجسم إلى القصر أميل من الطول، وربما غيَّر عمامته تارةً خضراء وتارةً غير ذلك وتارةً صوفًا وتارةً شاشًا، بحسب ما يجده من غير كلفةٍ، وكان يخاطبني على الخاطر فمهما خطر لي

حدثني عليه من غير سؤال، وجرى لي معه هذا وقوعًا عديدةً غيرَ محصورة لكثرتها، فمنها أنَّه إذا كان غائبًا، وخطر لي طلبُه أو اشتقتُ إليه يحضر في ساعته من غير أن تعرف الجهة التي كان فيها، هذا غير مرة.

وكان الناس مختلفين في عصره اختلافًا كثيرًا، فمنهم من يقول من قوم السيِّد يُونُس عليه السلام، ومنهم مَنْ يقول رأى الإمامَ السيِّد الشافعيَّ رضي الله عنه وصلَّى خلفه، ومنهم من يقول رأى القاهرة وهي أخصاصًا ومنهم من يقول غير ذلك.

وكان رجل من أهل الصلاح سألني أن أسأله عن ذلك فلمَّا كان بعد ذلك جاءني غلامُ العمِّ فقال لي: الشيخ أبو العباس في البيت يطلبُك، فقمت إليه وكنت قد غسلت ثوبي ولا ثوب لي غيرُه فاشتملتُ بشيءٍ عليَّ، وجئتُ إليه وسلَّمتُ عليه وجلست وهو متوجهٌ إلى القبلةِ، فسألته عمَّا جرى بمكة،شرَّفها الله تعالى،وكان ذلك بعد الحجِّ، وكنت أعتقد أنَّه يروح إلى مكة في الوقت اليسير، لأنَّه كان يغيب قبل الحجِّ بيومين أو ثلاثة أو أكثر أو لأقل من ذلك، ثم يحضر بعد العيد بيسير يومين أو ثلاثة أو أقل أو أكثر، بحسب ما يتفق فيخبرنا عمَّا جرى بمكة والحجاز في تلك السنة، ويصل الحجَّاج فيخبرون بالذي أخبر به، فيكون الأمر كما أخبر به، فأخبرني عمَّا اتفق تلك السنة ثم تفكرت فيما سألني به ذلك الرجل الصالح أن أسأل الشيخ عنه، أهو من قوم أصحاب السيد يونس عليه السلام أم لا؟ وهل صلَّى خلف السيد الإمام الشافعي رضي الله عنه؟ ورأى القاهرة أخصاصًا أو لا؟

فحين خطر لي هذا الخاطر التفتَ إليَّ وقال: يا فتى ما بينهم قاضٍ، ولا والٍ، ولا بينهم فقير، ولا على بينهم أبواب، ولا تُعْرَفُ المرأةُ بينهم إلا إذا قيل الصلاة على الجنازة وهي امرأة.

فقلت: يا سيّدي أمَّا عدمُ القاضي والوالي فلعدم التخاصم، وأمَّا كونُهم ما بينهم فقير فما معناه؟ فقال لي: يا مبارك، يجعلون قوتَهم أو زرعَهم جرنًا واحدًا، ويتساوون فيه ويعينون بعضهم بعضًا، على عبادة الله تعالى، وأنا رجلٌ شريفٌ حسنيٌّ.

ثم قال: وأمَّا السيِّد الإمامُ الشافعيُّ فمالَه كثيٌر من حين مات صلَّيتُ أنا خلفَهُ، وكان جامعُ مصرَ سوقَ الدوابِّ، وكانت القاهرة أخصاصًا فلمَّا قال ذلك، أردتُ أن

أحقق عليه الشهادة فقلت له: يا سيدي، أرأيت الإمام الشافعي المطلبي محمد بن إدريس صاحب المذهب؟ فلمَّا قلت له ذلك غمغم عليَّ وجعل يقول: يا فتى، في النوم ويضحك. وكان ذلك اليوم يوم الجمعة واشتغلنا في الحديث، وحديثه كان يلذّ السامع، حتى لا يكاد أحد يقدر على مفارقته، فبينما نحن نتحدث، وإذا بغلام قام وتوضأ وقصد الخروج فقال له الشيخ أبو العباس: إلى أين يا مبارك؟ فقال: يا سيِّدي أصلي الجمعةَ فقال له الشيخ: وحياتي صلَّيت، فخرج الغلام ووجد الناس راجعين من الجامع، وفاتتني صلاة الجمعة ذلك اليوم بهذه الحالة.

مناقشة للشيخ في الإخبار بالمغيبات

وكنت قد قلت له يومًا آخر: أنت تقول فلان يموت اليومَ الفلاني وهذه المركب تغرق، والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ما يقولون، ولا يُظْهِرُون إلا ما أُمِرُوا به من إظهار المعجزات، وإقامة الحجة على العباد، وما أُمروا به من الدعوة إلى الله تعالى، هذا مع كمالِهم وقوةِ أنوارِهم، وقوةِ شهودِهم وما يُوحَى إليهم من ربِّهم تعالى، ونوُرُ الأولياءِ إنَّما هو رشحُ الرشحِ من نور النبوة بالميراثِ فلِمَ تقولُ أنت هذه الأقوال؟

فاستلقى على ظهره وجعل يضحك ويقول: وحياتي وحياتك يا فتى ما هو باختياري يا فتى ما هو باختياري.

ثم قال أنا وجدت في السياحة ستة أنفس، ومعهم لباسُ سابعهم فقالوا لِي إنَّ سابعَنا مات وألبسوني ثيابه.

فلعلَّ ذلك إشارة إلى أنَّه رأسُ السبعةِ، ولعلَّ قوله وحياتي صلَّيت من صفات البدلية، فإنَّهم يكونون في مكان، وشيخهم في مكان آخر وقديكون ذلك لصورة الكشف الصوري الذي يرتفع به الجدار ويبقى الاستطراقُ فيُصلِّي حيث كان ولا تحجبه الجدران.

ومن كراماته

واطلاعه على الخواطر كنَّا ذات يوم جلوسًا على باب مسجد بظاهر الأقصرين وكنت آوي إلى ذلك المسجد، ومعنا الشيخُ شمس الدين بن الصابوني،وهو صاحبٌ لي وكان ذلك صبيحة السابع عشر من شهر رمضان وكنّا نظنُ أنَّ تلك الليلة الماضية

كانت ليلة القدر، فسألناه عن ليلة القدر هل كانت البارحة أم لا؟ فقال: نعم رأيتها البارحة وسجد كلُّ شيء لله تعالى، وسجد النخلُ وربطت حجرًا في رأس نخلةٍ وأصبحت وجدت النخلةَ قائمةً والحجرَ في رأسها.. فبينما هو يحدثنا، وإذا بحمارٍ اجتاز بنا وشَحَصَ وصَوّتَ، فضَحِك الشيخُ وربما استلقى على ظهره، وقال: تعرفوا إيش هذا الحمار يقول؟ فقال له أحدنا: ضرط، فقال: هوَّ يقولُ:

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ [الحاقة: ٤٩].

فقال شمس الدين: يا سيّدي، أنا قلت في نفسي ما يسجد هذا السجود إلا الإنسان، فغضب الشيخ وانزعج عليه، وقام فمشيت معه، وبقيت أسأله الرضا عنه؛ فإنه صاحب لي من المكتب.

وكان الشيخ قدّس الله تعالى روحه، سريعَ الغضب سريعَ الرضا، وخشيت على صاحبي أن يكون ذلك غضبًا بالقلب فيكون فيه الهلاك، ولعلَّ الشيخ إنَّما كره منه الإنكارَ على ما لله تعالى فعله، لا يستحيل عليه أن يفعله والقدرة صالحة لما يريده الله تعالى فلذلك رضي عنه لما تاب.

كان الشيخ -رحمه الله تعالى- يكره السماعَ وربَّما صرّح بما يحدث فيه مما لا يجوز ولا يناسب حالَ أهل الطريقِ، فلعلَّ كراهيته إنَّما كانت لعدم ما يصلح في السماع من عدم الأهلية، وكان ينهاني عنه وكنت أجد به راحةً إذا كنت وحدي.

ومن كراماته وكشفه ما أخبرني به عفَّان بن ذئب الأقصري، وكان ثقةً وكان واقفًا مع الظاهر وهو رجل أميُّ غير فقيه، غير أنَّه لما عمل وهو صدوق ورأيته متألمًا من الشيخ أبي العباس فسألته فأخبرني أنَّه كان استأجر مركبًا كبيرًا هو وجماعة من أهل بلده، بجملة دنانير، وحملوا فيها فخارًا ليحملوه من الأقصرين إلى مصر، وكانت عادةُ الشيخ أن يقول هذه المركب تغرق أو تسلم، قال: فما كان أبو العباس في البلد فقال استرحنا منه، لا يقول تغرقوا ولا تسلموا.

قال: فسافرنا إلى أن وصلنا إلى مدينة قوص، فبينما أنا أمشي في السوق وإذا رئيس المركب قال لي: يا فلان أو ياناخودا، أشتهي أن تأخذوا فخَّاركم، وقد أوصلتكم إلى مدينة قوص وأنتم في حلٍّ من الأجرة إلى قوص فقلت له وما سبب ذلك؟ فقال

إنَّ الشيخ أبو العباس قال لي: إن المركب تغرق فغضبت وقلت لو وجدته أغرقته.

قال: فخرجت إلى دار الولاية واشتكيت الرئيس ورسمتُ عليه بالسفر، فلمَّا أصبحنا والرئيس يقلفط في المركب وإذا بالشيخ أبي العباس قد أقبل ووضع يده على أعلى خفقة الكيزان، وقال: يا رئيس، قلفطْ فوق هنا فقال: يا سيدي، إذا طلع الماء إلى هنا رحنا البهموت، قال: نعم، نقول لكم الحقَّ [سوف] تغرق ثم تغرق ثم تغرق قال: فسافرنا فلمَّا وصلنا أَمَّ نخلة غرقت المركب فلم يطلع لنا شيء.

وممَّا جرى لي معه -رضي الله عنه- أنَّني كنت عزمت على الحجاز، وحصل عندي قلق عظيم فبينما أنا أمشي في الليل في زقاق مظلم، وإذا أنا أحسُّ بيد على صدري، فزال ما كنت أجده من القلق فنظرت فوجدته الشيخ أبا العباس -رحمه الله تعالى- فقال لي: يا مبارك، القافلة التي أردتَ الرَّواحَ تُؤخذُ والمركبُ الذي تسافر إلى الحجاز تغرق، فكان كذلك.

ومن كراماته أنني كنت أمشي معه بالليل وحملت إبريقه، وإذا شخصان أحدهما يُسمى يوسف بن المجنونة والآخر يسمى مُفْرِحُ بن عبد الخالق فلما نظر إليهما الشيخ حوَّل وجهه عنهما، وانزعج عليهما، فبكيا وقبَّلا قدميه فلمَّا توّجها عنا قلت له: يا سيدي ما بالهما؟ فقال: يا مبارك ما قالوا خيرًا، فلمَّا كان بعد ذلك وجدت يوسف أحد الشخصين وكان يحب الفقراء فقلت له: ما قصتك؟ فقال: تكلّمنا عليه بسبب تأخرك عن السفر.

ثم أخبرني يوسف المذكور أنه جرت له مع الشيخ أبي العباس وقائع من جملتها قال: اشتريت حمارا بعشرة دنانير أجلب عليه اللبن، فقلت: يا سيدي، ادعُ لي في أمر هذا الحمار فإنِّي أحبه، فقال: هو حمار، وتبكي عليه الحمير، فكررت عليه القول وهو يقول هو حمار وتبكي عليه الحمير، فلم يلبث الحمار إلا ثلاثة أيام ومات.

أحواله

وكانت له أحوال عجيبة مع تمسّكه بالشرع وتلاوة القرآن وقيامه الليل في ركعتين الأخيرة منهما لطيفة، ولا يكاد يخلو من العبادة إن كان ماشيًا وحدَه فهو يتلو القرآن وإن كان الناس معه أو حوله فهو يدعو لهم ولآبائهم وأجدادهم، ويسمي الآباء والأجداد بأسمائهم وإن كانوا من بلاد متفرقة أو بعيدة، كالعجم والعراق والسند وغيرها

أو قريبة، فيقول -رحمه الله تعالى-: جدك فلانًا أو والدك فلانًا كان لي محبًّا، هكذا يقول ويتعجب الناس من ذلك.

وإن كان في الليل فهو يصلِّي، ولا كان يأوي إلى البلدان في الليل، وكنت أخرج معه إلى ظاهر البلد، فيتركني ويتوجه لا أعرف إلى أين يتوجه.

وكان يدخل بيت أصحابه ومحبيه بلا إذن لمحبتهم له وسرورهم بذلك.

وكان يجتمع عليه النساء والرجال والشيوخ والأطفال ويسألونه الدعاء.

ومن عجائبه وكراماته أنّ الشيخ أبا الحجاج يوسف بن إدريس خادم الشيخ أبي الحسن بن الصباغ وأحد أصحابه -رضي الله تعالى عنهم -وليس هذا الشيخ أبو الحجاج المشهور بالأقصري؛ فإنّ الشيخ أبا الحجاج الأقصري هو يوسف بن عبد الرحيم(١)، وهذا يوسف بن إدريس، وهما أقصريان- قال الشيخ يوسف بن إدريس للشيخ أبي العباس كما أخبرني علم الدين نوح بن الشيخ يوسف بن إدريس أنَّ والده يوسف المذكور قال للشيخ أبي العباس: يا سيدي، أنت تدخل بيوت الناس وتجتمع عليك النساء وأعراض الفقراء كما تعلم، فقال له: الشيخ أبو العباس: يا فتى، اشتغلْ بنفسك، بقي من عمرك سبعةُ أيامٍ من الآن فلمَّا أمسى المساء وجاء الليل بات الشيخ يوسف متألمِا قال ولده: فقلت له: يا سيدي ما بالك؟ فقال: يا ولدي أنا أَهْرَقْتُ الماء، وإذا بحصاةٍ وقعتْ في ركبتي حصل لي منها ألمٌ، وأصبح الشيخ يوسف ضعيفًا

(١) المشهور بالأحوال والكرامات، والخوارق والعجائب، كانت طريقته في التصوف غريبة، يأتي فيها بكل عجيبة، حتى قال أحدهم: ما رأيت له في ذلك نظيرًا، ولا توهمت أن غيره من أهل الطريق يكون على ما يأتي به قديرًا، كان متجردًا دائمًا، قال زروق: ولي القطبانية.

أخذ عن الشيخ عبد الرزاق الإسكندري، تلميذ أبي مدين، وعن الشيخ حبيب العجمي، والشيخ عبد الرحيم.

وعنه أخذ البرهانان: القادري والكبير، والشيخ مفرج، والبدر الدمشقي.

والعليان: الأنوي وابن عليان، والشمس السفطي.

قال في الطالع: زعم أصحابه أنه عُرج به ليلة النصف للسماء، وتلقى من ربه الأسماء، وجعلوا له معراجًا، ودعوا الناس لسماعه أفواجًا، وصار في الصعيد كل سنة كالعيد.

وانظر: طبقات الشعراني (١/١٥٧)، الطالع السعيد (٧٢٢)، والكواكب (٤٧٧).

واستمرَّ ضعفُه وأحضروا له الأدوية والشراب فلمَّا كان اليومُ السادسُ اجتاز الشيخ أبو العباس بالقاضي شرف الدين بن مسلم قاضي عيذاب -رحمه الله تعالى-، ووالدي- وكانا من المحبين للشيخ يوسف، وللشيخ أبي العباس- فقالا للشيخ أبي العباس: يا سيدي أصبح الشيخ يوسف طيبًا فقال: يا مباركين، غدًا يموت.. فلمَّا أصبح الشيخ يومَ السابع وجد رقعة في مصلاه فيها مكتوب لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم أحسن الله تعالى عزاك في نفسك.

ومات الشيخ يوسف -رحمه الله تعالى- في ذلك اليوم. فجعل النساء من بناته وأهله يتكلمن في الشيخ أبي العباس بما لا يليق ويقلن: هو دعا على أبينا، ومن عادة نساء الريف يجعلن ستارة في الطريق عند بيت الميت: ويُحَجِّزْنَ من هنا ومن هنا لينفسح لهن الشارع، ويصرخن على ميتهن في الشارع من خارج البيت.

فلمَّا كان في وقت المغرب أرادوا الدخول إلى بيتهم فوجدوا في البيت جملاً كبيرًا عظيمًا، قد ملأ القاعة التي لهم فغلَّقوا البابَ عليهم فكسر غلق الباب وخرج وطلع في الدّرج إلى السطح -أعني سطوح البيت- فهجج النسوة، وهربن من البيت، ولا رجع أحد يقدر يذكره بسوء.

وأدخلني علم الدين نوح ولد الشيخ يوسف إلى البيت، وأراني المِغْلَقَ مكسورًا وقال لي: هذا الغلق الذي كسره الجمل.

ومن كرامات الشيخ أبي العباس رضي الله عنه ما أخبرني به الفقيه سراج الدين عمر ابن الشيخ نجم الدين أحمد بن ناشيء قال: أخبرني الشيخ أبو العباس أنه دخل على أحد الملوك فوجده مريضًا فقال له: أنت تموت بعد سبعة أيام فقال له الملك: أنا أحبسك، فإن عشت قطعتك قطعًا كلَّ قطعةٍ وزن ربع وإن أنا متُّ فأنت تأخذ الملك بعدي.

قال: فمات الملك بعد سبعة أيامٍ وقعدتُ في الملك بعده سبعَ سنين قال: ثم قلت لزوجتي: أنا أريد أن أتزهّد وأتركُ الدنيا، فسألتني ألاّ أفعل، فخالفتها وخرجت وتركت المُلك وما أدري ما جرى بعدي.

ومن كراماته وكشفه وقوة إيمانه ويقينه ما حكاه لي أبو السرور بن أبي العيد الدمقري قبلَ إسلامِه، وكان ساقيًا لأمير العربان معين الدين بن شاذي، وكان أبو السرور كثيرَ الخلاعة والانبساطِ والحكاياتِ، وكان يجتمع مع الأكابر والأمراء كالأمير

عز الدين الأفرم وغيره وأكابر البلاد من مدينة قوص، وكان كثيرا يحضر عندي في أيام التجريد وأنا ظاهر البلد، وتنحصر منه الفقراء أصحابُنا لكونه نصرانيًّا.

فلمَّا كان يومٌ من الأيام، وأنا جالس وحدي وإذا بأبي السرور دخل عليَّ وقال لي: ما تقول في سبعين صنجة؟ قلت: وما سبعون صنجة؟ قال لي: اليوم سبعين سنة ما تركت شيئًا إلا عملتُه، وأنا أشهد ألاّ إله إلا الله وأشهد أنَّ محمَّدًا رسولُ الله، فأسلم وحسن إسلامُه.

وكان أخبرني قبل إسلامه فقال: هل تعلم ما جرى لي مع صاحبك الشيخ أبي العباس؟ قلت: لا، قال: كان عند الأمير معين الدين بن شاذي مغنية قد جاءت من عند صاحب الموصل، وكان الأمير معين الدين يحبها حبًا شديدًا بحيث أنَّها تأمر بمهما أمرت في البلاد فقال له الشيخ: أخرج هذه المغنية من عندك.

وكان الأمير يقبل من الشيخ ويحبّه فقال له الأمير: يا سيِّدي، ما أقدرُ على إخراجها كأنَّك تقول لي: أخرج روحك؛ فقال له: يا مبارك فتزوج بها، فقال له: يا سيدي، أنا أمير العرب كلِّها وأمير العرب ما أكون زوج مغنية، فقال له الشيخ: يا مبارك تفعل شيئًا تحلّ به وهو أنْ تُحضرَ عاقدًا وشاهدين وتقول لهما: لا تظهرا ذلك. وتتزوج بها خفيةً. فأجابه الأمير إلى ذلك.

فلمَّا سمعتْه لم يطبْ لها ذلك، وكنت أقف بين يديها لقضاء الحوائج التي يحتاجها الأمير، فنظرتْ إلى الجوارى والخُدَّام فخرجوا وبقيت واقفًا فقالت لي: يا أبا السرور، قلت: لبيك قالت: أنا رائحة أكذب على الشيخ أبي العباس وأقول للأمير أنَّه راودني عن نفسي، ووالله ما لم تقل أنك وجدته يراودني عن نفسي وإلا تصبح مشنوقًا فقلت لها: السمعُ والطاعةُ، قال فبينما هي تحدثني، والأمير قد دخل وكان من عادتها إذا جاء الأمير تلقته بالدفوف والشبابات، حتى يجلس فدخل الأمير وعليه آلات الحرب فتنحت إلى ناحيةٍ وأسبلتْ عليها مقنعةً فوقف الأمير على رأسها وكلَّمها فلم تتكلم فقال لي الأمير: ما قصتُها فقلت: لا أعلم فجعل يكلمها إلى أن تكلمت وقالت: أنا صنت نفسي عن الملوك وجئت إليك وأنت كذا وكذا، وجعلت تحرّضه وتقول: بيتك مثل اصطبل البقر يدخل شيخُك يراودني عن نفسي وذكرتْ الشيخ أبا العباس والتفتت إليَّ

وقالت: ما هو كذا وكذا يا أبا السرور؟ فقلت: نعم فخرج الأمير من باب السرِّ وخرجتُ أنا هاربًا خائفًا أن يُقتل الشيخ بحضوري وينسب المسلمون إليَّ ذلك قال: فبينما أنا مسرع وإذا بالشيخ أبي العباس في وجهي رائحًا إلى دار الأمير، فلمَّا نظرني نظر إليَّ وقال: أنا راودتها عن نفسها؟ تقول نعم يا مبارك؟ قال: فلم أقدر أقف على ركبتي ووقعت الأرض، وقبَّلت أقدامه وقلت يا سيّدي، مثل ما عرفت هذا عرفت ما كان قبله فقال: نعم، مكره يا مبارك مكره، ثم مشى الشيخ رائحًا إلى دار الأمير فتبعته من حيث لا يعلم، إلى أن دخل الدار فقامت المغنية وقبَّلت الأرض بين يديه فقال لها: أين الأميرُ يا مباركة؟ فقالت: جاء وخرج. وقال: وأخذ الشيخ المدورة وضعها تحت رأسه واضطجع ووقفت تروِّح عليه بالمروحة وأنا واقف خلف الباب أو من حيث لا يرياني، قال: فنام ساعةً ورفع رأسه وقال: ما جاء الأمير؟ فقالت: لا فقام الشيخ وخرج فلمَّا خرج وإذا بالأمير قد خرج عليها مشهور السيف ووقف على رأسها وقال: والله إن لم تخبريني بقصتك مع الشيخ أبي العباس وإلا ضربت عنقك، فقالت: كذبت عليك، فقال لها: ويلُك أردتِ أن تفسدي عليَّ دنياى وآخرتي، قالت: ما فعلت هذا إلا لأجلك حتى تبقى لذتُك فإنك إذا ما كنت أنا في حاصلك تبقى النفس حريصة على تحصيل اللذة، وخائفة من فواتها فإذا تزوجتني وصرت في حاصلك ذهبت لذتك وحصَّلك الملل، فسكت.

هذا حديث أبي السرور وإنَّما ذكرنا ذلك عنه قبل إسلامه، وإن كانت رواية الذي لا تقبل لكن في روايته كرامةً للشيخ أبي العباس لعدم التهمة وشهادة العدو في الدين بكرامة أهل الدين.

شـــهدتْ لَهَـــا بالحســـنِ ضـــرَّاتُها والفضلُ ما شهدتْ به الأعداءُ

فانظرْ، وفقك الله تعالى، إلى قوة هذا الكشف والإطلاع على أوَّل الحالِ وآخرِه وما يئولُ إليه، وقوة اليقين في الكشف وتحقيقِه حتى مشى إلى الموضع الذي فيه الموت واضطجع ونام.

وعجائبه وغرائبه كثيرة جدًا وإنَّما نحن نقتصر.

ثم إن عزَّ الدين أخو الأمير معين الدين بن شاذي جاء في غيبة أخيه، وضرب

رقبة المغنية المذكورة ورماها البحر، ولقد رأيت أنا الأمير معين الدين وهو ماسك أخاه عزَّ الدين، وهو خارج به إلى البحر يغرقه بسببها، والعربان خلفه إلى أن شفعوا فيه فتركه.

وعجائب الشيخ أبي العباس كثيرة وأمَّا كشفُه واطلاعُه وإخباراته فما تحصرها الكتب ونحن نذكر منها نبذة يسيرة، مع طول المدة وحدوث الشواغل عن الاستحضار، ولقد أخبرني الشيخ علم الدين بن نوح بن الشيخ يوسف بن إدريس عن الشيخ أبي العباس أنَّه قال: لي نظرتين، أنظر ما كذا وما كذا، ويشير إلى المشرق والمغرب.

ومن عجائبه أنَّ قاضي عيذاب شرف الدين محمد بن مسلم والشيخ بهاء الدين ابن سيد الكل القفطي، وجماعة عند الشيخ بهاء الدين في منزله بمدينة قوص وأنا مترددٌ هل كنتُ حاضرًا أم لا؟ لطول المدة، والحكاية بين الجماعة مشهورة فذكر قاضي عيذاب كراماتِ الشيخ أبي العباس فقال الشيخ بهاء الدين: دعنا من هذا الكلام أو كلام هذا معناه فقال له قاضي عيذاب: ما أشر عليك فإنَّك صاحبي، فقال الشيخ بهاء الدين: إنْ كان رجلاً صالحًا يجيءُ إلينا الساعةَ فلم نشعرْ إلا وقائلٌ يقولُ: نعم، قالوا: نعم فدخل الشيخ أبو العباس فقال: سلام عليكم فحصل للجماعة وجمة عن ردِّ السلام وهيبةٌ فقال: بحياتي شتموني كثيرًا جعلكم الله تعالى في حلٍّ وخرج.

فربما قال الشيخ بهاء الدين: هذه مصادر، وهذه الحكاية تحتاج إلى بيان حسبة على من لا يعلم أحوال أهل هذا الشأن، حتى لا يعتقد أنَّ الصالحين يختارون أن يُعرفوا أو يعرف الناس أنَّهم صالحون أو يريدوا المنزلةَ بذلك في صدور الناس، وليس كذلك، فإنَّ ذلك لو وقع حصل الحجاب، وامتنع الكشف، وكان الحظ يرفع حكم العمة ويُبدل النعمة بالنقمة ويقع الخسران، ويستولي الحرمان، نعوذ بالله تعالى من هذه الحال.

تفاوت القوم في الأحوال

وإنَّما القوم متفاوتون في الأحوال، فتارةً تَظهرُ تلك الكراماتُ من غير اعتمادٍ ولا اختيارٍ ولا سابقِ علمٍ لهم، وتارةً تكون عن كشفٍ واطلاع وعلم محقق، لكن عن أمرٍ أمروا به أو أُذن لهم فيه، والإذن تارةً يطلعون على المراد فيه والحكم فيه، وما يئول إليه إمّا في دفع مضرة أو إيجاد راحة أو إقامة حجة لله تعالى على كائن من كان، أو جذب

طالب إلى الله تعالى من ذلك الوجه، أو رفع بلاء يقع بذلك الجميع، لوقوعهم في الولي وإنكارهم عليه أو تبيينًا لمن يقصد سلوكَ الطريق إلى الله تعالى، أو تشويقًا لمن لا يعرف ذلك أو تربيةً لمريدٍ.

فإنّ الشيخَ للمريد كالطبيبِ للمريضِ، فلا بد من معرفة مرضه ومعرفة دوائه، فهو يطّلع على وسوسة نفسه، وهواجس خواطره ويأمره وينهاه بحسب ذلك الاطلاع، فيبقى المريد يلاحظ خطوات نفسه خشية من اطّلاع الشيخ عليه، فيكون ذلك سببًا لوصوله، وتارةً يؤمرون بذلك فيقفون عند ما أمروا به من غير زيادة ولا نقصان.

وقد تقدم أني سألت الشيخ أبا العباس مرةً عن قوله هذا المركب تغرق، وهذا الرجل يموت بعد كذا كذا يوم، فإنه وقع ذلك مرات وكان كما قال: فسألته عن هذه الأحوال فضحك واضطجع وجعل يقول وحياتي وحياتك ما هو باختياري.

ومن عجائبه ما أخبرني به أخي نجم الدين على، أنه كان متوجها إلى طود فوجد الشيخ أبا العباس ماشيًا في الطريق قال فعرضت عليه الركوب فامتنع قال: فتقدمت وسقت سوقًا مسرعًا حتى دخلت من باب البلد لأجد الشيخ أبا العباس قد دخل قدامي البلد فتعجبت من ذلك.

ومن اطلاعه وتصرفه: طلع ليلة بالأقصرين إلى عند ضياء الدين على بن الصابوني فقال له: يا ضياء هات لي دينارين قال يا سيدي: ما في دوايتي إلا دينار قال الشيخ: ما آخذ إلا أربعة فقال: الضياء ارجع بنا إلى الأول :خذ دينارين قال: ما آخذ إلا ستة قال الضياء: ما عندي سوى دينارين قال: ما آخذ إلا عشرة وإلا تغرم مائة، ثم نزل الشيخ وتركه ولم يعطه شيئًا فلما كان السَّحر، وإذا حرّاقة أقبلت في البحر فوصل فيها الأمير علاء الدين الخازندار [(١)] كان واليًا بقوص وطلب الضياء وأخاه الكمال فنزلا إليه فقال: يا قضاة، أنا جئتكم قاصدًا فإن الحملَ عاجزٌ، وطلب قرضًا فطلع الضياء وأحضر مائة دينار، وكذلك الكمال أخوه فلمّا كان بعد أيام دخل الضياء للشيخ أبي العباس فقال له: يا سيدي إيش هذا؟ قال له: قلت لك يا مبارك ما فعلت.

وهذا يدل على التصريف في رفع البلاء، وإيجاد العطاء المتلازم وعلى الكشف

---

(١) انظر: عجائب الآثار للجبرتي (٣/٣٢٧).

الصحيح من دائرة المحو والإثبات.

ومما أخبر به ضياء الدين بن الصابوني - وكان عدلاً موثوقًا به من أكابر بلده ومباشرها، وهم بيت مشهور بالأقصرين- قال: دخل عليَّ الشيخ أبو العباس في بيت والدي وكان البيت ما فيه أحدٌ إلا يُدخلوه لحاجتهم إليه، ويقفلوه قال: فخرجت وتركت الشيخ أبا العباس في البيت وقفلت عليه الباب حتى أعود إليه فأُنسيته ولم أفتكره إلا بعد ثلاثةِ أيامٍ فقمت وجئت عَجلاً وفتحت البابَ لأجد الشيخ واقفًا خلف الباب، والختمة تحت إبطه، وهكذا كان، تكون الختمة معه لا تفارقه، فلم يقل لي لم فعلت كذا؟

ومن عجائبه ما أخبرني به الشيخ عمر البلنياي وكان رجلاً صالحًا قال: سألت الأمير عز الدين الأفرم عن سبب محبته للشيخ أبي العباس واعتقاده فيه، فقال لي: كنت واليًا بمدينة قوص فجلست للحكومة إلى الظهر، وقمت وكان الصيف وحصل عندي الجوع فدخلت إلى بيتي وخلعت ثيابي وجعلت في وسطي فوطة من قوة الحر وبقيت عريانًا.

قال: فرأيت جاريةً لي عليها ثوب شِرِب، وهي بلا سراويل، وهي مكشوفة الرأس.

قال: فوضعت يدي علي عنقها وغلبتني شهوتي فقالت: يا سيِّدي، حتى تأكل وقدمت لي المائدة فجلست على الشبرية وأنا آكل بيدي الواحدة ويدي الأخرى على عنقها وعلينا أبواب عليهم الجوارى والخُدَّام والمماليك.

فلم نشعر إلا وشخص دخل علينا من باب القاعة عليه لباس شعر، فصعقت الجارية ووقعت تضطرب فرميت قبائي عليها، فدخل الشيخ أبو العباس ووضع يده عليها وجعل يقول: يا مباركة هوَّ أبو العباس، قال: وقد غلب عليَّ الغضب ولم أقدر أقول كلمة واحدة. قال: فجلس على الشبرية، وجعل يأكل إلى أن فرغ أو شبع وأخرج من كمه أو لباسه قُصصًا كثيرةً فقال: يا مبارك، اكتب على هذه كذا وعلى هذه كذا، فكتبت على الجميع ولا قدرت أن أقول له كلمةً.

قال: وخرج فلما خرج جرَّدت سيفي وهممت بقتل الجوارى والخُدّام والمماليك

الـذين علـى الأبـواب، فلمـا دنـوتُ إلى الجـوارى قـاموا في وجهـي قومـةً واحـدةً، وقـالوا مالك؟ أنت ما كلَّمته؟ قال: فوجدت الذي قالوه حقًا، وإنَّني مع شهامتي وأنا شاب ووالي ما قدرت أنطق بكلمة واحدة، فكيف هؤلاء؟ وقالوا: والله دخل وخرج وما قدرنا على كلمةٍ في الدخول والخروج، فهذا سبب معتقدي فيه.

وهذه الحكاية فيها بيانٌ لأنواع التصرُّف والولاية الباطنة، التي يحكم بها على ولاة الأمر الظاهر، فيعجزوا عن مخالفته، والقوة الملكية والسطوة الإلهيّة، في دخوله وخروجه لا يجترئُ أحدٌ أنْ يخاطبه ولا يكلمه، فضلاً عن أن يرده، وأمَّا ما أكله فلا اعتراض على أهـل الكشـوف والاطـلاع فيمـا يـأكلوه ويأخـذوه فـإنَّهم لا يـأكلون إلا مـا يعلمـون ويشهدون بخلافنا وما يأخذون إلا ما هو لهم لأنَّ لله تعالى حقوقًا في الأموال يأخذونها ويستخرجونها بإذن من الله تعالى إذا منعوها مستحقَّها، هذا إذا لم يكن هذا الأمير ممن هو بمنزلة الصديقِ الذي ورد في القرآن في أكلُ ماله ﴿**أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً**﴾ [النور: ٦١].

وإمَّـا أن يكـون المـأكول في نفـس الأمـر لغير الأمـر ويكـون صـاحبه مِمَّن يحب أن يأكـل الشـيخ ويشـرب، ووجـوه الاحتمـالات كثيرة، وأمَّـا أصـحاب الكشـف والاطـلاع أخبر وأعلم بما يفعلونه ولا اعتراض عليهم.

ولقد أخبرنا الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عن سلمان المجنون قال: كان له مريدٌ وكان فقيهًا فدخلا بستانًا، فصعد سلمان على شجرة فستق، وجعل يأكل والفقيه يقول: يا سيدي أصاحبها أذن لك؟ فيقول: هذا ما يرد على أن أذن لك أن تأكل، قال: فبينما نحن كذلك وإذا بصاحب البستان قد حضر فقال: يا فقير مَنْ أذن لك أن تأكل من هذه الشجرة؟ فقال: أَذِنَ لي مالكُها فقال: أنا مالكُها، فقال: أذن لي مَنْ هو أملك لها منك، أَذِن لي الله تعالى.

قال: فصفَّق صاحبُ البستان وخرَّ مغشيًا عليه فلمَّا أفاق قال: أشهدُ ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأنَّ هذا وليٌّ لله تعالى، فقيل له في ذلك فقال: لَمَّا شريتُ هذا البستان، وقفتُ هذه الشجرة لله تعالى وأبحتها، ولم أطلع أحدًا على ذلك إلا الله تعالى.

فانظر إلى هذا الإطلاع وتحقيق هذا الشهود، وهذا العلم الذي لا يدخله الحدس ولا التخمين ولا الشك ولا الارتياب، ولا يُحتاجُ فيه إلى إذن مَنْ له اليد الظاهرة بالملك، إذا وُجِد الإذنُ من مالك الملك، والإذن من الله تعالى لا يقع إلا حقيقة بالمطابقة مع الحكم الظاهر، وإن لم يظهر ذلك في الحكم للناس لكنه مطابق في نفس الأمر، لأنَّ أحكامه وحكمته على وجوه الكمال من كل وجه، وإلا من أين للناس بما وقَّفه ذلك بينه وبين ربه ﷻ؟

وأمَّا كون الشيخ أبي العباس دخل على الأمير عز الدين من غير إذن، فهو يحتمل وجوهًا:

منها أن يكون أصحاب القصص مظلومين، وهم في شدةٍ لا تحتمل التأخير ولا يقدرون على الوصول إلى الأمير، لا سيما في ذلك الوقت، وتأخير المنكر مع القدرة على إزالته لا يجوز، ومن قَدِر على إغاثة مظلومٍ ولم يغثه، كان هو ظالمًا، فيجب حينئذ ردع الظالم عن الْمَظْلَمَةِ لمن قدر على ذلك، وما لا يُتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب، فلزم دخوله ولا يقدر أن يدخل على غير تلك الحالة، إذ هو لو استأذن ما بلَّغوا الإذن وما أذنوا له فهذا وجه.

والوجه الآخر: لو كان لك مال في بيت وقد غُلِّق دونه بابٌ لجاز لك فتحه، وأخذُ مالك من غير إذن صاحب البيت، وكذلك إذا خشيت على إنسان التلفَ وهو في بيت جاز لك فتح ذلك البيت وهذا وجه، .

والوجه الثالث: يحتمل أن يكون سرعة دخوله على تلك الحالة ليمنع الأمير من الإقدام على ما لا يجوز الإقدام عليه، من أكل وغيره من طريق الكشف والاطلاع.

أو يكون ذلك سببًا لجذبه إلى الله تعالى، ويكون مأذونٌ له في ذلك، فإنَّ الأمير وجد بذلك السبب خيرًا كثيرًا، وعمل بعد ذلك مدارسَ، وأنشأ مساجدَ وأوقف أوقافًا، والله تعالى أعلمُ أيّ الوجوه المجوِّزة له كانت وإنَّما قصدنا رفع الإنكار على أولياء الله تعالى.

ومن اطِّلاعه وكشفه ما أخبرني به الفقيه سراج الدين عمر بن ناشئ، عن والده الشيخ نجم الدين، عن نور الدين بن الجناح الحاجب بقوص، أنَّ الأمير علاء الدين

الخازندار قال لي: يا نور الدين، تروح إلى قبلي، وأيَّ مركب وجدته أرسلته إلى أسوان لمصالِحِهم.

قال: فجئت فوجدت مركبًا مَرْسيةً، تُريدُ الانحدار فقلت: للرئيس أقيم العدة واقلع إلى أسوان، قال: ففعل، فبينما هم كذلك وإذا بالشيخ أبي العباس قام من الحلفاء، فقال له: الرئيس أنت قاعد إلى الآن؟ اطلعْ.

فقلت: للرئيس أخبرني عن هذه القضية، فقال لي الرئيس: جاء هذا الرجل، يعني الشيخ أبا العباس، في أول النهار وقال لي: يا رئيس احملني إلى أسوان، فقلت له: كيف أحملك إلى أسوان ونحن منحدرون؟ قال: فألح عليَّ ثم قعدَ في تلك الحلفاء إلى الساعة.

ومن اطّلاعه ما أخبرتني به الحاجة خديجة المعروفة بأم مجد، وكانت من الصالحات- رحمها الله تعالى-.

قالت: كان الفقيه عطاء الله جارًا لي وكان الشيخ أبو العباس يزورنا كلَّ وقتٍ وربما قالت: ونتحدث معه من وراء الستارة والله تعالى أعلم، وكان يكون عندنا نساء تزورنا فقال الفقيه عطاء الله: يا حاجّة، هذا الشيخ أبو العباس الملثَّم يأتي إليكم وعندكم نساء الناس، وربَّما يتكلم الناس، أوهذا شيء معناه.

فحصل عندي من ذلك شيءٌ، فتحريت وقت حضور الشيخ فقلت للجارية: ردِّي البابَ أو اقفلي الباب.

قالت: فاجتاز الشيخ، ولم يدخل لنا، وانقطع عنا مدةً، وتألَّمنا لانقطاعِهِ وما قدرنا على ذلك، فقلت للجارية: اطلبي الشيخ فطلبناه، فلمَّا جاء قلت: يا سيدي ما هذا الانقطاع؟ قال: يا مباركة، أما قلتي للجارية تقفل الباب حتى لا أجيء؟ فحصل لنا من ذلك ما حصل وأحببناه.

وأخبرتني امرأةٌ صالحةٌ ثقةٌ أنَّ بعلها قال لها: اعملي لنا طعامًا نطعمُ الشيخ أبا العباس قالت: وكنت حاملاً فتضجَّرت من ذلك، وتكلمت على الشيخ، فلمَّا كان الليل رأيت في المنام بئرًا وفيها نارٌ، وقد جرّوني ليرموني فيها بسبب كلامي في الشيخ أبي العباس.

وحكايات الشيخ أبي العباس كثيرةٌ لو استقصيتها لَمَا وسعتها الكتبُ، فإنا في مدةِ اجتماعِنا به ما كنّا نتوهم موته عن قرب، ولا تصدّينا لضبط كلامه، وهذا الذي ذكرته وأنا واحد، فكيف بكل من جرى معه حديث؟ وأخبار وحكايات مدة عمره.

وكان طبعه -رحمه الله تعالى- المروءةَ والفتوةَ والكرمَ والصدقةَ في السرِّ، أخبرني شخصٌ عن شخصٍ أنَّه حدَّثه أنَّ الشيخ أبا العباس أودع عنده حصيرتين مملوءتين قمحًا فجاء الغلاء، ولم يكن عندنا شيءٌ فجاءنا الشيخ، وقال: يا مبارك، اقترضْ القمحَ إلى الحصادِ فاقترضناه فكان قوتنا إلى أوان الحصاد ورددناه، فلمَّا جاء الشتاء جاء الغلاء ولم يكن عندنا شيء فجاءنا الشيخ، وقال: يا مبارك اقترضْ القمح إلى الحصاد فاقترضناه فكان هذا دأبه.

وأخبرني آخر بدوي أنَّ الغلاء جاء، ولم يكن عندنا شيءٌ فجاء الشيخ أبو العباس ومعه نعجة، فقال لي: ترعى هذه النعجة، فقلت: نعم، فكان يعطيني أربعَ ويبات قمحًا في الشهر، حتى فرغ الغلاء.

فانظر، رحمك الله، إلى هذا التلطف في الصدقة، النعجة كلُّها تساوي نصف ويبة قمح في ذلك الغلاء وإنما عمل ذلك صورة، وكذلك في قمح الحصيرتين، هذا مع أنَّني لم أعرف للشيخ،-رحمه الله تعالى-، درهمًا ولا دينارًا ولا قمحًا ولا مكانًا ويقول لي: أنَّ له كتبَ علم.

ومن كراماته رضي الله عنه أنَّني كنت أنا وإيَّاه وشخصٌ من أصحابه من العوام في بيت صغير، وكان الليل وكان الشيخ يحبُّ السمكَ وكان معه سمكٌ، فأخذه الشيخ ورماه في البرمة ولا رأيته عمل فيه شيئًا، ولا أعلم هل صبَّ عليه ماءً أم لا فلا أعلم أنَّا أكلنا أطيبَ منه.

وكان الشيخ أبو العباس- رحمه الله- حَسِن العشرةِ طيّب المحاضرة والمفاكهة مبسوطًا غير مقبوضٍ، كثيرَ الوداد لأصحابه، كثيرَ النصيحة، كنَّا إذا كنَّا بمكانٍ وقمنا منه نقول هذه الدنيا.

وكان كثيرًا ما يُنشد:

لا فخــرَ إلا فخــرُ أهــلِ التُّقــى غـــدًا إذا ضـــمَّهم المحشـــرُ[١]

ودخل علينا مرةً والشيخ عبد العزيز عندنا، فجعل يتمايل كالراقص ويقول:

حيَّـــــاكُم اللهُ وأَحيـــــاكُم علــى كــلِّ حــالٍ لا عَــدمنَاكُمُوا

وأخبرني الشيخ أبو العباس -رحمه الله تعالى- أنَّ المشايخ دعوه، وذكرهم، وذكر من جملتهم:

الشيخَ عبدَ الرحيم المدفونَ بقنا -رحمه الله تعالى-[٢] قال: فجئت إليهم فقال أحدهم للشيخ: يا سيِّدي أما نسأله؟ قال: لا تسألوه، قال: لابدَّ ما نسأله فقال لي: يا شيخ أبا العباس، علامة المحبة النحولُ والذبولُ -وذكر أوصافًا كثيرةً من ذلك- وقال: وأنت طيّب الجسم أحمر الوجه فما هذه علامة المحبين، فقلت له: يا فتى أنت ذكرت صفاتَ المبعودين و ما ذكرتَ صفاتَ المقرّبين، فقال له الشيخ: أما قلت لكم لا تسألوه.

ولنقتصر الآن على ما يحقق رتبته، ويُشوِّق إلى طريقته فلا سبيل إلى حصر المواهب الإلهية والأسرار الربانية، وقد قلت:

صفاتٌ سَمَتْ فوقَ الصفاتِ فعدُّها لمِنْ قد أرادَ العدَّ يسمُو على العدِّ

فما هو إلا الوهبُ لا شيءَ غيرُه ولا سببَ يأتي بقربٍ ولا بعدِ

فكنْ عبدَ رقٍّ لا تكنْ غيرَ طائعٍ ذليلاً فإنَّ الذُّلَّ مِن شيمةِ العبدِ

---

(١) البيت من السريع، وهو لأبي العتاهية كما في الكامل للمبرد (٦٦٦).

(٢) الشريف الحسيب النسيب البستي الأصل القنائي، صاحب الكرامات والخوارق، قدم من المغرب فأقام بمكة سبع سنين، ثم رحل إلى الصعيد فقطن قنا حتى مات.

أخذ عن الشيخ أبي يعزى ﷺ وعنه أبو الحسن الصباغ ﷺ فظهر سره فيه حتى نطق بالمعارف ملء فيه، وكان لصاحب الترجمة القبول التام بين الخاص والعام، وهو أحد من جمع الله له بين الحقيقة والشريعة، وأتاه مفتاحًا من علم السر المصون، وكنز من معرفة الحكمة والكتاب والمكنون، وكان إذا سمع المؤذن يتشهد يقول: شهدنا بما شهدنا وويل لمن كذب على الله.

انظر: الطالع السعيد (٢٩٧)، طبقات الشعراني (١/١٥٦)، الكواكب (٤٢٦).

٢- الشيخ عبد العزيز الحسني المنوفي

ومنهم الشيخ عبد العزيز بن عبد الغني الحسني من أهل منوف -رحمه الله تعالى- وكان من أصحاب الشيخ أبي الفتح الواسطيِّ، -رحمه الله تعالى-، وكان كبيرَ الشأنِ طلقَ اللسانِ في المعارفِ والحقائقِ، وله أحوالٌ شريفةٌ ومكاشفاتٌ وتصريفٌ وعلومٌ وتحقيقٌ وطريقةٌ صحيحةٌ، واقفًا مع الشرعِ وله تصنيف في المعارف يسمى: «النظمُ الكاشف للفهم عن المعارف».

صحبته وخدمته، وحصل بيني وبينه إخاءٌ على الشرط المشروع، قدس الله تعالى روحه، وكان مما حدثني به أنَّه كان ابنُ السادسة عشر، ولم يكن له بهذه الطريقة إلمامٌ، قال: فخرجت لأجهز أختًا لي بعدَ وفاةِ والدي فسمعت بورود الشيخ أبي الفتح إلى محلّة أبي عبد الرحمن-أو محلة المرحوم لا أدري أيُّهما قال- فجئت إليه لأجد الشيخ يتكلم على الناس، والناس بين يديه وهم خلق كثير من العلماء والأمراء وغيرِ ذلك، والشيخ يقول: لا تأمنن النفوس؛ فإنِّي كنت بالروم، وكانت في جوارنا امرأةٌ إذا خرجتُ تقوم لي، وإذا دخلتُ تقوم لي، قال: فخرجنا من تلك الناحية أو تلك الحارة إلى مكان آخر، وكانت نفسي تطلب الاجتياز بتلك الناحية لأجل تلك المرأة، قال: فبينما أنا ذاتَ يومٍ قد جاءت، وقد قربت مني، وإذا أنا أرى سيِّدي أحمد قد خرج من الحائط وسيفه مشهور، ويقول لي: هكذا أخذتَ علينا العهدَ يا أبا الفتح؟ قال: فصعقت أو وقعت أو قال كلمة هذا معناها، وولَّت المرأة هاربةً.

قال الشيخ عبد العزيز: وكنت واقفًا فقلت: سيِّدي، قبل أن يكون سيفُ سيِّدِك أحمد مشهورًا سيفُ ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**﴾ [النور: ٣٠] أما كان مشهورًا؟ فقال: من هذا المتكلم؟ فقالوا له: يا سيدي، شابٌّ شريفٌّ، فأحضرني الشيخ إلى بين يديه وألبسني طاقيةً، فكنت أفتخرُ بإلباس الشيخ لي الطاقية وطلبَه لي.

وأمَّا ما رأيته من التصريف منه فكنت يومًا راكبًا أنا والشيخُ على دابةٍ واحدةٍ، ونحن متوجهان إلى الأقصرين، وكانت معنا أفراخُ حمامٍ مشويةٌ بغير خبزٍ، فنزلنا في الطريق بمكانٍ يُسمَّى مسجدُ الأميرِ، والمسجد يومئذٍ بلا سقفٍ إلا حصيراتٍ وشِعَبًا، وفيه حصيرٌ مقطّع مفروشٌ، وهناك شيخٌ يسقي الماء من بئرٍ هناك لطيفةٍ.

فأخذ الشيخ شيئًا من الماء في إناء، ودخلنا المسجد، فأكلنا تلك الفراخ، فكان حصل لي من الريب شيء فقال الشيخ: معك ليمونة؟ قلت: لا فوضعَ يده على تلك

الحصير وأخرج ليمونةً صفراء قَسمَها نصفين، واستعملَ نصفَها واستعملتُ أنا النصف الآخر. فقلت له: يا سيدي من أين لنا هنا ليمون؟ فقال: هذا الوجود كلُّه ملآنٌ ليمونًا، وأشار بإصبعِهِ إلى الوجود.

وهذه الحكاية لا شكَّ فيها ولا ريبَ ولا فرقَ في التصريف بين القليل والكثير.

بيان أن الخضيرية رتبة

ومنها أنَّ الشيخ عبد العزيز كان متوجهًا إلى الأقصرين ومعه جماعةٌ من أصحابه، كالشيخ ناصر الدين والسديد الكيزاني وشمس الدين بن الصابوني -وأنا متردد هل كنت معهم أو لا- فنزلتْ الدابة إلى الترعة والشيخ كان كبيرَ السن فخشينا أن ترميه، وإذا بشخصٍ قد خرج من الترعة وأمسك الشيخَ لئلا يقع حتى طلع وغاب، فلم نره، فسألنا الشيخ عنه فقال: هو الخضرُ.

وكان الشيخ عبد العزيز يقول: إنَّ الخضرية رتبةٌ، وإنَّ من خضر السيد موسى عليه السلام إلى الآن أربعةَ عشرَ خضرًا، وكان يقول عن خضر هذا الزمان: إنه الزُّبيدي.

حكايات عن الشيخ المنوفي

ومنها أنِّي كنت ذاتَ يومٍ وهو على بساطٍ وفيه ألوانٌ مختلفةٌ فقال لي: هذا البساطُ فيه ألوانٌ مختلفةٌ، قلت: نعم، قال: فأنت تنظره بنظرةٍ واحدةٍ أو بنظرات مختلفة؟ قلت: بنظرةٍ واحدةٍ قال: فإنَّ الوجود فيه سبعون ألفَ جنس، في كلِّ جنسٍ سبعون ألفَ نوع، ينظره الفقيرُ بنظرةٍ واحدة.. وأنشدَ لنفسه:

أَنالُ من المحبوبِ مِن فَرْدِ نَظْرةٍ ... جميعَ إرادَتِي وكلّ مقاصِدِي

كما نالَ أنقيسُ الحكيمُ بلعقةٍ ... من المِرْوَدِ الأشياف ما ليس جَاحِدي

ولعلَّ الشيخ رضي الله عنه إنَّما ذكرَ السبعين ألفَ جنس لأنَّها جاريةٌ في كلام العرب في حدِّ الكثرة كما جاء به القرآن العظيم في قوله تعالى: ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ**﴾ [التوبة: ٨٠].

وقوله تعالى: ﴿**فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ**﴾ [الحاقة: ٣٢]، وغير ذلك وإلا ففي الوجود ما خلق الله تعالى مما لا يعلمه إلا الله تعالى، ولا تقف على حد ولا حصر إلا لخالقه: ﴿**أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ**﴾ [الملك: ١٤].

وذكر الشيخ في حكاية أنقيس الحكيم فقال: كان أنقيس الحكيم قد بال يومًا في موضعٍ والشمس على ذلك الموضع، فقام فعمي بصره، فعالج نفسه بما يعلم من العلاج فلم يبرأ، فسمع بحكيمٍ في بلادِ الهند فسافر إليه ودخل عليه، وقال: جئتُك من بلادٍ بعيدةٍ -وأنكر نفسَه- قال: فنظر إليه وقال: أنت بُلتَ في الأرض وعليها الشمس، وكان هناك حيةٌ ميتةٌ فصعدتْ الأبخرة في عينيك وأعمت بصرك، ثم قال لغلام: هات الأشياف الفلاني فأَكْحله فأبصرَ في ساعته قال: فسأله أنقيس عن تلك الأشياف فلم يخبره وقال: لعلَّك حكيمٌ، فأنكر ذلك.

وتوجه أنقيس إلى بلاده وقتل حيَّةً ورماها في أرض مشمسة، ثم بال عليها بعد أيام فعمي، ثم صبغ لونه حتى يخفى عليه وسافر إلى الحكيم ثانيًا، وأخذ معه الغلام ووصَّاه أنَّ الحكيم إذا أكحله بالْمِرْوَدِ أن يلقي المرود على لسانه.

قال: فلما دخل عليه، وسأله أن ينظر في أمره، فقال: لعلك الذي جاءنا في العام، أو في تلك السنة، فإنَّ الذي كان به هو الذي بك، فصعدَ البخارُ إلى عينيه فأعماه، ولعلك هو فأنكر ذلك، وربما حلف فقال: لعلك حكيم، فأنكر ذلك، فقال لغلامه: هات الأشيافَ الفلاني، فأحضره، فلما أراد أن يكحله ضرب غلام أنقيس المرود فألقاه على لسان أنقيس فلحسه فقال له: ألم أقل لك أنك حكيم؟ قال: بلى، قال: فما الذي عرفت من هذا الأشياف؟ قال: عرفت منه تسعةً وتسعين عقارًا -أو قال حاجة- وترددت في حاجة واحدة، قال: هي مرارةُ ابن آدم، فمن تكون أنت؟ قال: أنقيس.

قال: فنزل الحكيم على مرتبته وجلس بين يدي أنقيس، وقال: أنا مريدُ مريدِك، ثم توجه أنقيس الحكيم إلى بلاده، وعمل الأشياف، وأكحل نفسَهُ فأبصر.

فانظر يا أخي، وفقك الله تعالى، إلى هذا الطب، وهذا القصد في طلبه في معرفة شيء من الأشياء المخلوقة، وقد رضي لنفسه بالعمى، مع بُعدِ المشقةِ العظيمةِ والسفرِ الطويل البعيدِ، وذهاب الأموال في طول السفر، وتغيير اللون حتى يعلم دواءه، ويحصل له العلم به، فكيف بك في معرفة خالق الموجودات التي فيها سعادتك الأبدية، وسعادة كلِّ شيء؟ وفي جهلِها شقاوتُك وشقاوة كل شيء.

ومِمَّا أخبرني به الشيخُ عبد العزيز عن نفسه ﷺ قال: كنتُ إذا وقع لي أمر أروح على الشيخ أبي زيد الميموني، فتوجهت مرةً إلى زيارته بالميمون، وكنت أقرأ في سورة من القرآن فنسيت آية، وإذا بطائرٍ أبيضَ يُسمى الواق، فطار من جانب خليج إلى جانبه الآخر وردد عليَّ الآية، فلمَّا جئت إلى الشيخ أبي يزيد الميموني، قال: ما رأيتَ في طريقِك يا ابن أمِّ الهم؟ قلت له: كنت أقرأ سورةً مِنَ القرآن فنسيتُ آيةً فرددها عليَّ أبو قردان، يعني الواق، فقال لي الشيخ: فما الذي خطر لك قلت: إمّا أن يكون جنيًا تشكّل أو ملكًا تمثّل، فقال لي: ما هو جنيٌّ ولا ملكٌ قلت: فما هو؟ قال: هي الآية تشكلت وردت وجودها عليك، فلمَّا كان الليل قلت في نفسي: الشيخ أبو زيد يقول الآية تشكلت وردت وجودها عليك، والقرآن كلام الله تعالى، وكلام الله قديم، فكيف يتشكل؟ فسمعت قائلا يقول: لا تسئ الأدب على الشيخ أبي يزيد، التي تشكَّلت تلاوتُك لا المتلوُّ.

فانظرْ يا أخي إلى هذا الجواب من القائل الذي فصل الخطاب بين القديم والحادث؛ إذ المتلو هو القرآن، والقرآن كلام الله تعالى القديم القائم بذاته العلية، وتلاوة العبد بحروفٍ وأصواتٍ ولَهاتٍ ومخارج حادثة لا تكون قديمة.

ومِمَّا أخبرني به الشيخ عبد العزيز عن نفسه، أنَّه كان يمشي وهو يسمع قِمْرِيًّا يكلِّمُ قِمْريةً أو قنبرًا يكلِّم قنبرة.

قال: فقلت في نفسي: الله تعالى أخبر عن السيد سليمان عليه السلام فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [النمل: ١٦]، وقد علمتُ منطق الطير قال: فحين خطر لي ذلك التفتت القمرية أو القنبرة إليَّ وقالت: لا تسئ الأدب على السيد سليمان عليه السلام وردَّتْ علي ذلك، ثم طارت وترجمتْ على عادة الطير ثم رجعت وقالت لي: عرفت إيش قلت؟ قلت: لا قالت: فسليمان عليه السلام كان يعرف ذلك، وأنت لو لم أكلمك بلسانك ما عرفت كلامي.

والمعنى في ذلك أن السيد سليمان عليه السلام كان يعرف لغات الطير ومنطقه من حيث الطير، والشيخ لو لم يسمعها تتكلم بلسان الآدميين ما عرف.

قال: فاستغفرت الله تعالى ومضيت.

ومِمَّا حكاه لي أيضًا أنَّه مر يومًا بالجيزة بغنمٍ فرفع جَدي منهم رأسه وقال: لا إله

إلا الله.

وأخبرني ﷺ أنه رأى كلبًا عقر كلبًا فالتفتَ الكلبُ المعضوضُ إلى الكلب الذي عضَّه وقال له: اتق الله تعالى.

ومِمَّا حكاه لي أيضًا، -رحمه الله تعالى-، أنَّه كان على كوم الدب يرقع ثوبَه، وإذا شابٌّ طويلٌ طلع على الكوم وقال: لا إله إلا الله يونس رسول الله، لي خمسمائة سنةً ما جئت هاهنا، ثم التفتُّ فلم أره.

ومِمَّا أخبر عن نفسه أنَّه رأى حول الكعبة أناسًا يطوفون بها منهم رءوسٌ بلا أبدان وأبدانٌ بلا رءوس، ومنهم امرأةٌ تطوف على نجيبٍ لها فقال لها: قفي حتى أنظرك للشهادة، ورأيت هؤلاءِ الذين يطوفون بالكعبة متفرقين في البلاد.

ومِمَّا حكاه أنَّه كان مع جماعة من الفقراء يعملون سمكًا، وتبعهم واحد من الفقراء مغربيٌّ صعلوكٌ شمَّ رائحة السمك فلم يطعموه، فعقدت مع الله تعالى ألاّ آكل من ذلك السمك شيئًا، ثم سافرت، وكانت الختمة والتنبيه لا يفارقاني، فوقع المطر، فحنيت ظهري على الختمة والتنبيه، وكان في الطريق شوكٌ كثيرٌ، فاشتهت نفسي ثريدةً كانت والدتي تعملُها لي طيبة بالدجاج -وغيره في ذلك الوقت- وذلك الرجل فما وصلت القرية التي أطلبها إلا بعد ليل فدخلت المسجد وصليت فيه ورقدت، وإذا بشخصٍ دخل علي وهو يمشي في دائرة نور مثل هالة القمر، فجاء إلى عندي وقال لي: اقعد فقعدت، فقدَّم إلي زبيدية كانت على يده وقال: كلْ فإذا تلك الثريدةُ التي كانت الوالدة تعملُها فأكلتُ طعامًا طيبًا ما أكلت ألذَّ منه، ثمَّ قال لي: أمسكْ، وقدم إلى طعامًا آخرًا فكلَّما أكلت لقمة، أجد من اللذة ما لا عليه مزيدٌ، فقال لي: هذا سمك، وبقيت رائحته على يدي.

ومِمَّا حكاه لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى-، عن فقير وجد فقيرًا في الطريقِ قال: فانبسطَ عليه قال: وكنَّا في البرية، فقال لي: تسمع إيش القطب يقول للعين؟ قلت: لا، قال: هوَّ يقول له: إنَّ الملك الكامل يريد أن يضرب حلقة على الوحش، وقد أطلقنا له من البقر كذا، ومن الغزلان كذا، ومن كبش البر كذا، وعدَّد أشياءً من الصيد، فقال له: هو طمَّاعٌ، فقال له: إن زاد على هذا أرميه من على فرسه.

قال: فبينما هو يحدثني وإذا بحسِّ الخيلِ قد أقبلتْ وضربوا حلقة على الوحش ودخل السلطان في وسط الحلقة فقال لي: عدَّ عليه قال فعددت عليه حتى بلغ العدد الذي قاله، فوالله ما أخطأ شيئًا مما أطلق له ولا زاد عليه شيئًا.

ثم ولّى السلطان راجعًا، فاعترضَ له كبش جبل، فأخذ الدبوس وأراد أن يضربه، وإذا هو وقع من على فرسه، فقلت له: يا سيدي ما هذا؟ فقال والله لو قتله قتله به.

فهذه الحكايةُ وأمثالها من تصريفِ القطبِ بالأمرِ وأخذ العينَ عنه وقد ذكر في قصيدته العيسويةِ ذلك كلَّه، وسنذكرُها إن شاء الله تعالى بعد ذكر حكايات المشايخ المربِّين.

ومنها ما حكاه لي عن شيخٍ يسمى نجم الدين، قال: سمعت بشيخ ظهر في بلاد العجم فسافرت إليه فلمَّا دخلت عليه وجدته شابًا سنُّهُ تقدير ثلاثين سنة عليه ثوبٌ أزرقٌ وطاقية من ثوبه فقلت له: يا سيدي جئتك مريدًا فقال لي: وهل يوجد في هذا الوقت مريد؟ فقلت له: يا سيدي أنا مريد، فقال لي: دخلت على يد أحد خلوة؟ قلت: نعم، قال: على يد مَنْ؟ قلت: يد الشيخ شهاب الدين السّهرَوَرْدِي وعلى يد الشيخ برهان الدين الموصلي، فقال لي: فأنا أريد أكون لك مريدًا، فقلت: يا سيدي ما جئت إلا مريدًا فقال: ولا بد؟ فقلت: نعم، قال: فامحُ لوحَك، قال: فجلستُ وعملت على خلوِّ باطني من كل شيء كنت وجدته في سلوكي وجئت إليه خاليًا.

قال: الآن فإنَّ اللوح المكتوب ما يكتب فيه شيءٌ ثم أخذ بيدي وأدخلني خلوة، ولقَّنني ذكرًا، وشرط عليَّ ألا أنام بالليل وأن أكون على وضوء.

قال: فورد عليَّ ما لا اعتقدت أن أحدًا يناله من البشر فبينما أنا كذلك، والشيخ قد دخل وأخبرني بكل ما ورد عليَّ وقال لي: يا نجم الدين، الوارد الفلاني لا تقف معه والوارد الفلاني كذا والوارد الفلاني كذا، وجعل يفصّل لِي ما بين الواردات الإلهية، والوهمية، والشيطانية، حتى لم يبقَ فيَّ ذرةٌ ولا خطرة إلا واطلع عليها، فحصل لي منه خوف، وجعلَ يتعاهدني في كلِّ ثلاثة أيام ثم يدخل فيخبرني بكلِّ ما اتفق لي.

فاتفق أنَّني ذاتَ يومٍ غفلت فوقعت يدي على ذكري فحصل لي من ذلك أمر عظيم وخفت خوفًا شديدًا، وبقيت أسأل الله تعالى ألا يطلعه على ذلك، وبقيت في

شدة، فبينما أنا كذلك إذ الشيخ قد دخل عليَّ فأخبرني بكل شيء جرى إلا ذلك -أعني وضع يدي- وبشَّ في وجهي وقال لي: قرُب فتحُك، قال: ثم خرج عنِّي فجاء الفتح من الله تعالى، وحصل لي ما لا أستطيع ذكره وكادت روحي تُقبض، فقال للخادم: أخرجه، فما بقي يحمل شيئًا لئلا تخرج روحه.

قال: فأخرجني من الخلوة، وجاءت المشايخ من البلاد إلى الشيخ -وتلك عادتهم إذا خرج الفقير من الخلوة، يحضرون للتبرك لأنه ورد من الله تعالى- وعمل الشيخ الولائم العظيمة، وذبح الذبائح، وكان عرسًا عظيمًا، ثم دفع إليَّ الشيخ مفتاحَ بيتٍ لأسكن فيه، قال: فلمّا كان الليل حصل عندي شهوةُ النكاح حتى منعتني المنام فتألمت لذلك، وقلت: هذا مكر، وأنا في زمان الشبيبة واللعب ما خطر لي هذا، أبعد هذه الأحوال يكون ذلك؟! قال: فأصبحت أتيت الشيخ وسلمت عليه فالتفتَ إليَّ وقال لي: نجم الدين تحب شيئًا مليحًا -يعني كيف كنت البارحة- قال: قلت يا سيدي بحال نحس، جرى لي كذا وكذا وما أظن هذا إلا مكر بي، قال: لا يا نجم الدين، الحقُّ تعالى لما كمَّل باطنَك بالحقيقةِ أراد أن يكمّل ظاهرك بالشريعة.

قال: فبينما نحن كذلك وإذا بامرأة قد جاءت على بغلة فنزلت وجلست بين يدي الشيخ وتكلمت معه بالعجمية وأشارت إلى خادم لها فراح ساعةً وأتى ومعه امرأة وغلام على رأسه طبق، وغلام آخر على رأسه طبق، فقال الشيخ للمرأة: اكشفي وجهك، فكشفت وجهها فقالت: هذه مملوكة لي. فرأيت شيئًا من الحسن ما رأيت مثله، فقال لي: يا نجم الدين، هذه المرأة أختك في الخرقة، وهذه الجارية ملكها، وقد وكَّلتني في تمليكِك إيَّاها؛ فإنَّك ما تعرف بلسانها، وهذا طبق فيه دراهم ودنانير، وهذا طبق آخر فيه قماش، وهذا غلام لخدمتكما، حتى لا يتكلف الفقير، وقد ملكتك هذه الجارية فقلت: يا سيدي، هي حرة لوجه الله تعالى. قال: فلم أذهبت ماليتها؟ فقلت: يا سيدي، أتزوجها، وما اعتقدت أحدًا يُعطي مثلَها لأحد قال: فطلب الشيخ الحاكم والشهود وعقد لي عليها فقالت ستُّها: يا سيدي، أنا ربيتها مثل ابنتي، فأنا آخذها أصلح من شأنها. فأخذَتْها وأصلحتْ من شأنها وأحضروها إليَّ وتركوني وإيّاها.

قال: فبتُّ ولم أجد عندي ذرة مما كنت أجد أولاً، فلمَّا أصبحت حضرت عند

الشيخ فقال لي: كيف كنت البارحة مع عروسك؟ فقلت: يا سيدي، في أنحس الأحوال، ما وجدت ذرّة مما كنت أجده قال: فظهر الغضب عليه، وقال لي: يا نجم الدين، ما استحييت من الله تعالى، تقعد في الخلوة وتضع يدك على ذكرك، ثم تسأل الله تعالى ألاّ يطلعني على ذلك. والله لو خفيت على منك شعرة ما أدخلتك خلوة.

قال: فكشفت رأسي أو قال: فاستغفرت الله تعالى، ووقفت في الاستغفار فقال لي: اجلسْ فجلست فقلت: يا سيدي، أما قلت لي حين وقع ذلك مني حتى كنت أتوب منه ولا تصحبني ظلمة الذنب؟ فقال: يا نجم الدين، القلب مثل الدود إذا كرَّ انكمش، لو قلت لك قبل أن يفتح عليك ما فتح عليك.

فانظر رحمك الله إلى هذه المعرفة بالتربية وهذا الاطلاع على الخطرات وتسليك طريقته هذه بالجمعية عليها، لأن ذلك شرط ولذلك قال له: امحُ لوحَك لأنَّ الكتابة على الكتابة تطمس الكتابتين جميعًا، فإنَّ التفرقة في هذا وفي هذا مفسدة لكليهما فلذلك قال له: امحُ لوحَك.

وإخباره له بجميع ما يقع وتفصيله لكل وارد يردُ عليه لأن ذلك شأن الشيخ المربي، ولقد ذكرنا نبذة من أحوال الشيخوخة في بعض حكايات جرت لبعض الإخوان، ولنذكر منها نبذة.

الشيخ المربي

نقول: الشيخُ عبارةٌ عمَّنْ عُلِّمَ مِنَ الله تعالى علمًا لَدُنِّيًّا كاشفًا للحقائقِ والدقائقِ والرقائق، فارقًا بالسبق في العوالم والمعالم العلويّات و السفليات والجزئيات والكليات بين الحقِّ والحقيقة والوهم والخيال وما وجب وما جاز وما استحال.

وما بين إلقاء الملك والشيطان والهمة والملة والحب في الشروع والإلهام والخطرات والنَّزعات والتّرقي إلى أعلى عليين، والهبوط إلى أسفل سافلين.

وتلبُّسه في الصور وتطوُّره في الرتب وقيامه بوصف الكون، واتصافه بكلِّ لون.

ومعرفته بأمراض القلوب ودوائها، وسقام النفوس وشفائها، وتطهير النجاسات النفسانية وما يدخل من الظلمات على العوالم الروحانية من الظلمة في الأنوار، والأنوار في الظلمة.

وما يصحب القلوبَ والأسرارَ من الريون والحجاب، وكيف يكون الحجاب كشفًا والكشف حجابًا، والعذاب نعيمًا والنعيم عذابًا، وكيف يكون الزهد في الرغبة والرغبة في الزهد، والعطاء في المنع والمنع في العطاء.

ومراتب الرجال وحقائق الأحوال ومواطن الفحول وحقيقة إحاطة الرسول والتوصُّل بالمريد إلى كل مأمول، وسلوك طريق الأنبياء وكشف حقائق قلوب الأولياء من اللوح المحفوظ، وأخذ المريدين من الذرِّ قبل ورودهم وهبوطهم إلى أصلاب الآباء وبطون الأمهات، والعلم بما لكلِّ واحدٍ منهم من النَّصيب والنظرِ في حقائقهم من البعيد والقريب، والاطّلاع على الحقائق من الأسرار وما بطن من الحكم في الإظهار والتطوُّر في الأطوار والتمكن في كل تكوين، والتكوين في كل تمكين.

وشهود العوالم في وجوده، وغيبته في الله بالله عن شهوده، وشهوده بمشهوده وإعطائه كلَّ مريد على قدر وسعه، وحقُّه بحسب ما أعطيه أوَّل نشأته وخلقه، وهي أربعُ مراتب في الاحتمال بحسب الاختصار، وأولُها رتبةُ النَّفس والعلم بوسوسة نفس المريد حيث كان، وكيف كان، فلا يخطر في نفس المريد خاطر من وسوسة وغيرها إلا وسمعها الشيخ بأذن قلبه، ولا ينظر نظرة إلا وقد سبقه الشيخ إليها بعين بصيرته قبل رؤيته، فهو يأمره بما ينفعه ويوصله، ويمنعه مما يضره ويقطعه ويسلك به على طريق النبي ﷺ الذي يلائم طريقه طريقه، وعلى قلب الوليِّ الذي يناسب قلبُه قلبَه، هكذا في كلِّ حركة وسكون وهو محفوظ بنظره ومشهود بعينه، كنظر الناظر في المرآة المصورة إلى أن يترقَّى به من شوائب النفوس ويطهِّر نفسَه من الوسوسة وعند ذلك يُرْفعُ المريدُ الحدث عن كل حظ يتعلق بدنياه فلا يبقى له فيها حظ.

رفعُ أحداثِ كلِّ مريدٍ سلبُها   عن حظوظِها الدنيويةِ
وجلاءُ قلبِها بغيرِ مراءٍ   عدمُ الالتفاتِ على الأُخْرويةِ

وحينئذ يترقى بالمريد إلى عالم الملكوت من الملك، وينقطع عنه عوالم الحس ورجس النفس، وهو عالم القلب، وفيه من الغرائب والعجائب ما لا تسعه هذه العجالة، وطهارة القلب ألاّ يلتفتَ إلى شيء في الآخرة البتة لأنَّ مطلوبه هو الله تعالى،

وجلاء قلبه بغير مراء عدم الالتفات إلى الأخروية.

ثم يترقى بالمريد إلى عالم المروحن والانخلاع، وهنالك تخلعُ الجسوم كخلع الثياب وتكافحُ تلذيذ الخطاب، وهو محلُّ الأشواق، وانزعاج الأتواق، والترقي إلى الأسرار، وهو طور المحبة والسروح في ميدان المعرفة، وليس هذا موضع الكلام فيه.

ثم يدخل في عالم الأسرار، وهو عالم عجيب أعجب من العجب، وأطرب من الطرب وأوصل من الطلب، يخفى فيه عن الخفاء، تظهر له فيه حقائق الستار وكشف الاستمرار، ويغيب في سرِّه عن سرِّه وهناك حقائق التجليات ورفع الكليات والجزئيات ومحقُ الأين وفقدُ العين، والمحو عن المحو، والصحو في السكر، والسكر في الصحو، وشهود الحق بالحق وفناء الخلق بالحق،وهناك تعلم الراجع لمن رجع،وتفهم سر معنى قوله فبي يرى وبي يسمع، وثمَّ معنى لا سبيل لإفشائه في الأوراق ولا لإلقائه إلا لأهله عند التلاق، كما قيل:

قد كان ما كان مِمَّا لست أَذْكرُهُ   فظُنَّ خيرًا ولا تسألْ عن الخبرِ

وفي ذلك ووراءه ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وإنَّما العطايا بالله تعالى بحسب التعرُّف به، والتخصيص بخلاصة أوليائه، فمنه ما لا ينطق به لسان ولا يعبر عنه ترجمان ولا يحمله جنان ولا سبيل لإفشائه لطالب ولا تعرفه لغائب ولا آيب.

ومستخْبِري عن سرِّ ليلى رددتُّه   على ما منها بغير يقينِ

يقولُون حدِّثْنا فأنتَ أمينُها   وما أَنا إنْ حدثتُهُم بأمينِ

هذا بعد قطع الشيخ المقدَّم ذِكرُهُ جميعَ الطرقات والعوالم، وحَفَظَ ظاهرَهُ من الجوارح والجوانح بحفظ الحدود، والاقتفاء بحسن الإتباع والوقوف مع الحدود، فهو واقفٌ مع قوله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ [الحشر:٧].

فهو يسلك بالمريد على هذا المنهاج، ويعالجه بما تقدم من العلاج، ولكلِّ سالك إلى الله تعالى طريق بحسب قوته، واستعداده ليتعرَّف الله تعالى إليه، فمنهم الموسوي

والعيسوي والإبراهيمي، وغير ذلك، كالسليماني من طريق الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-.

فكلُّ سالك طريقَ نبيٍّ من الأنبياء فهو على منهاج ذلك النبي، لكن من سلوكه من الطريق المحمدي، ومنهم من يكمّل طريقه في سلوكه فيكون محمديًا، وهي درجة الكمال ومقام الفحول من الرجال.

ومنهم من لا يصل إلى ذلك المقام، وإنَّما يُكشَف له طريقه بحسب قوته واستعداده، ومنهم من لا يكشف له ذلك إلا عند الممات فيسمِّي النبيَّ الذي سلك طريقه كموسى أو عيسى، أو غيرهما من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فيزعم مَن لا علم له بهذه الطريق، أنه تنصَّر أو تهوَّد وليس إلا كشف الطريق الذي سلك عليه، والمطلب الذي عاد إليه.

وهذه نبذةٌ يسيرة من أوصاف الشيخوخة التي أشرنا إليها، وهي كقطرة من بحرٍ بالنسبة إلى الشيخ المربي المطالب لمريده بخطرات نفسه، وما يحدث فيها من الوسوسة.

المريــد السالك

وأمَّا المريد فلا يصحُّ أن يكون مريدًا إلا بصحة المناسبة والقابلية، وهي أربع صفات:

- لصدق في محبة شيخه.
- امتثال أمره.
- ترك الاعتراض عليه.
- سلب الاختيار معه.

فإذا صحَّ ذلك منه فقد صحت القابلية، ونفذ فيه العلاجُ، ونجعَ فيه الدواءُ وهو كالحراق بالنسبة إلى الرماد.

ومن زعم أنه ظهر في الوجود أكمل من رسول الله ﷺ ولا أفضل حالاً ولا مقالاً، أو وجدانًا أو عرفانًا، أو داعيًا إلى الله تعالى أو موصلاً إليه، أو كاشفًا للحقائق أو عالِمًا بالدقائق أو الرقائق، في علوم الخلائق من كمال الدارين فقد كذب بل كفر، وقد قيل له ﷺ : ﴿**إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾ [القصص: ٥٦].

وقال ﷺ لعمه أبي طالب: **«قُلْها لي يا عم أشهد لك بين يدي الله تعالى[١]»** أعني كلمة الشهادة، فأبى؛ لأنه لم يكن له قابلية الاستعداد، فإنَّ القابلية شرط في وجود القبول.

وقد نُقل عن ابن علوان[٢] مريدُ السيد الجنيد -رضي الله تعالى عنهما- أنَّه قال: كنت واقفًا في الصلاة فخامرتني شهوةٌ وربَّما قال: فانتقض وضوئي فاسودَّ لذلك وجهي وجلدي، فدخلت الحمام فدلكته فازداد سوادًا فدخلت بيتي وغلَّقتُ الباب فأتاني رسول السيد الجنيد فأشخصني إلى بغداد، فلما وقفت بين يديه قال لي: يا ابن علوان، تقف بين يدي الله تعالى في الصلاة وتخامرك الشهوة؟ والله لولا أني دعوت الله لك وتبت عنك للقيت الله تعالى بذلك السواد[٣].

وكان ابن علوان إذ ذاك بالبصرة والسيد الجنيد ببغداد.

فانظر يا أخي إلى هذه المطالبة لما اطّلع عليه وسمِع وسوسةَ نفسه كيف سيَّر طلبَه؟ وطالبه في الصورة الظاهرة المحسوسة، كما كانت الشهوة أيضًا باطنةً ثم أُظْهِرَ أثرُها عليه، وكما أنَّ العلم بِها كان باطنًا، فأظهره لظهور أثر الشهوة بالمقابل للكشف والقول باللفظ خشيةَ ألا ينقطع عن طريقه، ويُحجب عن سعادته.

ولذلك لا تصحُّ التربية من الشيخ بعد موته ويصحُّ الانتفاع بعد موته وانبعاث همته.

والتربيةُ تحتاج إلى التعليم، بالقول والفعل والأمر والنهي ظاهرًا وباطنًا معقولاً ومحسوسًا في كلِّ حركة وسكون وخطرة من الخطرات، ولفتة من اللفتات في جميع الأزمنة والساعات، وكل ذلك من الميت لا يقعُ وإن وقع بعضُه، والتربية في نفسها في حياته، انتقل إلى غيرها بموته، وانتقل غيرُه إليها بحياتِهِ وحكمُ هذه الدار في تطوّرها غيرُ حكم البرزخِ في تطوُّرِهِ وحكم الدار الآخرة في عوالمها غير أحكام هذه الدار في عوالمها

---

(١) رواه البخاري (١/٤٥٧)، ومسلم (١/٥٥).

(٢) روى عن الإمام الجنيد عدة أخبار، وانظر: كتابنا الإمام الجنيد سيد الطائفتين (ص١٤٢، ١٦٥، ١٧٠، ٢٢٦).

(٣) انظر: الإحياء (٤/٥٤)، والقوت (١/٣٧٨).

وإن كانت الأعمال هاهنا لها مجازاة هناك، لقوله تعالى: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ**﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

حقيقة الاقتداء بالنبي ﷺ

وإن كانت التربية لا تصح من الميت فكيف يصحُّ الاقتداء به؟ بل لا يصح الاقتداء حقيقةً بغير رسول الله ﷺ إذ الاقتداء في نفسه لا يصح إلا بالعزم الجازم، والعقد الملازم بحقيقة الصدق والتصديق، بما هو عليه من الحقِّ والدخولِ تحت الحكم منه وترك الاعتراض عليه وسلبه الاختيار معه وامتثال أمره واجتناب نهيه، مع الرضا والتسليم قولاً وفعلاً، علانيةً وسرًا، فإن حصلت عنده شدةٌ أو تردُّد أو جُوّز على من يقتدي به مع تجويزه ذلك عليه، لأنه لا يعلم حقيقة ما يتبعه عليه أحق هو أم باطل خطأ هو أم صواب وهذا عين الشك الذي يُخشى منه سوء الخاتمة؛ إذ يموت المرء على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه، فلا يصحُّ حينئذ إلا برسول الله ﷺ إذ هو المعصوم من النقائص كلِّها ومن الخطأ والباطل والكبائر والصغائر فهو على صراطٍ مستقيمٍ وهدى قويم، قال الله تعالى ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ [يوسف:١٠٨].

وقال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٣١].

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ**﴾ [الفتح: ١٠].

والمبايعةُ فينا موجودة، وسبيله وصراطه وشرعه وكتاب الله تعالى وكلامه وتبيانه وتحليله وتحريمه ومنهاجه، لم يترك شيئًا إلا وبيَّنه، قال الله تعالى ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ [الأنعام:٣٨].

وفي ذلك كفاية وبقوله تعالى: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [محمد: ٢٤].

ولست محتاجًا إلى رؤية صورته الحسية ﷺ إذ الصورة في المرآة ظاهرة بالحس لمن كان بصره ثاقبًا ومرآته جليَّة من الصدأ والشوائب، فصفات رسول الله ﷺ أحسن من ظهور الصورة في المرآة الصقيلة، فإنَّ المكارم المسموع بها، ومحاسن الصفات من الجمال

والكمال وجميع الفضائل محبوبة بالسماع، وما يتصوره العقل فيها، وليست البيعة في نفسها قاصرة على الزمن الذي كان فيه رسول الله ﷺ بل هي مستمرة في كلِّ تابع له ومبايع على شرطه، وقد بايع رسول الله ﷺ عن السيد عثمان رضي الله عنه بكفِّه لكفِّه وقالَ ﷺ : «**هذه عن عثمان**[1]» في غيبته لصحة هذه المعاني.

فالمعتقدات لا تحتاج إلى رؤية الأشخاص، لأنَّا نعتقد وجود الحقِّ، تبارك وتعالى، ونؤمن به ونقر له بالوحدانية والخلق والاختراع، وأنَّه خالقنا ومالكنا ولم نره، وكذلك نعتقد إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام، ونؤمن بما جاءوا به من عنده، وما شاهدنا صِوَرَهم ولا رأينا أشخاصَهم.

وهذا الاعتقاد هو حقيقة السعادة الدنيوية والأخروية، والشك فيه حقيقة الشقاوة الدنيوية والأخروية، فليس الاعتقاد يلزم من رؤية الْمُعتقَد فيه، والمعتقدات من أوصاف القلوب وسرائر الغيوب، كامنة في الضمائر سارية في السرائر، وكذلك كانت معرفة الله تعالى مبينة في الجماد والحيوان والنبات، قال الله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ [الإسراء: ٤٤].

وإن لم يكن ذلك بإدراكاتٍ محسوسةٍ من سماع ورؤية، فقد سبق سماع القلب وعين البصر، إلى سماع الآذان المحسوسة والبصر المحسوس.

وقد قلت:

رأيتُكم بالقلبِ من قَبلِ أن أَرى ... فأحببتُكم من قبلِ سَمعِي وناظِري

فأُذنِي إن تَسمَع وعَيناى إن تَرى ... فلم يُدرِكَا إلا بقَلِبي وخاطِري

وإن قلت: قد صحَّ أن الاقتداء لا يصحُّ مع الشك والتردد وجواز الخطأ، وليس معصوم من ذلك كلِّه حقيقةً إلا رسولُ الله ﷺ فلا يصح الاقتداء إلا به ﷺ فكيف صورة اقتدائنا بعلمائنا ومشايخنا؟ وما سلك مَنْ سَلَك من الطرقِ والسُّبلِ على أيدي المشايخِ والأولياء، وما نقله العلماء؟

فأقول وبالله أستعين: إن ذلك ليس بقادحٍ في سلوكِنا على طريق مشايخنا من

(١) ذكره الحافظ في الإصابة (٤/٤٥٧)، وابن حزم في المحلي (١٠/١٣٦).

الأولياء وأهل الكشف و علمائنا فيما عَلِمُوه ونقلوه وفهموه وأتوا به، وما عَلِمُوه من أحوال القلوب، وسرائر النفوس وما أطلعهم الله تعالى عليه من ذلك، إنَّما هو أخذٌ عن رسول الله ﷺ واقتداء به، وسلوك طريقه، ودخول تحت حكمه، واتباع لشرعه وسنته، فمن ذلك ما هو ظاهر بالنقل الصحيح الذي تناوله السلف عن السلف والخلف عن الخلف متصلاً برسول الله ﷺ، وما هو باطن ظاهر في الأدب من أحوال رسول الله ﷺ، فإذًا لا يكون الاتباع حقيقةً لغير رسول الله ﷺ.

فإن وقع ما يخالف رسول الله ﷺ، وطريقه وسبيله فلا يصحُّ الاقتداء ويكون المقتدي عاصيًا مع علمه بالتحريم.

فإن اعتقد أن مخالفته رسول الله ﷺ جائزة، واتباعه لغيره صوابٌ فقد كفر نعوذ بالله تعالى من ذلك.

ومِمَّا حكاه الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عن شيخٍ من مشايخ الغرب الْمُربِّين أنَّه حضر إليه الوزير وقال له: يا سيدي، أشتهي أن أكون من أصحابك قال له: ما تكون من أصحابي وأنت وزيرٌ قال: فنزلَ وانخلع عن الوزارة وجاء إليه.

وقال له: ما تكون من أصحابي ولك مال فنزل وخرج عن جميع ما يملكه وطلع إليه وعليه عرقشين وطاقية.

فقال له: أنت تحب زوجتك، فطلَّقَها ثلاثًا فقال له الشيخ: ما لك على يدي نصيب.

قال: فخرج مِن عنده وتوجَّه إلى مكة شرَّفها الله تعالى، ماشيًا فوجد الشيخ أبا عبد الرحمن المغربي، فأقبل عليه الشيخ واعتنقه، وقال له: ما هذا؟ فقال له: الشيخ فلان -وسمَّاه- أخرجني عن دنياي ولم يوصلني إلى آخرتي، فقال له الشيخ أبو عبد الرحمن: أتقبل مني؟ قال له: نعم، قال: ارجع إلى شيخك؛ فما لك نصيب إلا على يده.

قال: فرجع الوزير إلى شيخه، فعندما دخل عليه فُتح عليه في وقته، فقال الوزير: يا سيدي، أنت قلت ما لك على يدي نصيب وما وجدت نصيبي إلا على يديك؟ فقال له الشيخ يا ولدي، والله لقد قطعتُ كلَّ حجاب بينك وبين الله تعالى، حتى لم يبق حجاب يحجبك عن الله تعالى إلا محبتك لي، فقلت لك: ما لك على يدي

نصيب حتى ارتفع الحجاب بينك وبين الله تعالى، وتركتك مع الله تعالى ففتح عليك.

فانظر رحمك الله، إلى هذه النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، لا جرم كانوا أمناء على أسرار الله تعالى وقلوبهم خزائن الحق، فلا يؤدُّون الأمانة إلا لأهلها كما أُمروا، ولا يعطوا من كان تحت حجرهم شيئًا مع السفه وعدم الرشد، وقول الشيخ -رحمه الله تعالى-: مالك على يدي نصيب صحيح -أي في تلك الحالة- حتى آيسه من غير الله تعالى، وكان قصد الشيخ جمعية قلبه على الله تعالى فلجج به في بحار التوحيد لَمَّا عَلِم قوة سيره وعزمه وصدق طلبه وعلو همته، خلا بينه وبين ربه تعالى.

فلمَّا ارتفع حجاب الغيرية عن العين، وانخلع وصف السفه، وظهرت صفات الرُّشد أعطاه ماله الذي تحت يده؛ إذ لا يحلُّ منع الرشيد ماله مع صحة رشده وحسن تصرفه، وأدَّى الأمانة إلى أهلها إذ كانوا أحق بها وأهلها.

وللشيخ عبد العزيز في هذا المعنى هذه الأبيات:

أقامَ على كنزِ الحقيقةِ إذ دثرى ... جدارَ الوَفا حفظًا ولم تتخذْ أجرًا
وعبَّر عن علمِ اليقينِ ولم ينهَ ... عن العينِ في الأولى ولا الحقِّ في الأُخرى
أمينٌ على الأسرارِ في كلِّ موطنٍ ... بصيٌر يرى بالله أن يجعل السرّا
ولكنَّه يُلقي إلى كلِّ مدعٍ ... يناظرُه في الفرقِ مسألةً تُقْرا
إذا صارَ ظلُّ المرءِ نعلاً لرجلِه ... فقد نُشِرَتْ بالعُذرِ آياتُه نَشْرَا
وإنْ فقدَ الشَّفْعَ المضرَّ فإنَّه ... بِرفعِ السّوى للاسْتِواء يجدُ الوتْرا
ويسْمعُ من كلِّ الجهاتِ مناديًا ... يناديه يا أهلَ الوفا ادخلوا مِصْرَا
فكمْ طالب قَدْ عاقَه عن طلابِه ... حمامُ هوى نفسٍ تُحمّلُه وِزرا
وَكَم مِن محبٍّ نالَ وصلَ حبيبِه ... على أنَّه بِالحكمِ سار وما أَسْرَا
تُزَفُّ له فِيها العقائلُ منْحَة ... تُرْجِى أو يأوي ويُودِّعُها حَذِرا
فإن جاه كفِفٌ وآنَسَ رُشدَهُ ... وشاهدَ سرَّ النَّسلِ أنكحَه عُذرا
ولولا طفافُ الكيل لم يجلَّ عارفَه ... على غير أهلٍ من مَعَارِفِه بَكْرَا

ومَنْ لَم يكن في الفُلك بالحكمِ راكبًا فــذاك غريــقُ الــيمِّ لم يصــل الــبرَّا

وهذه الأبيات قد يكون فيها تقديم وتأخير، وليس القصد إلا فهم معاني التربية.

ولما حصل للوزير ما حصل من الفتح، وتمكَّن في المعرفة جاء السلطان إلى الشيخ وسأله رجوعَ الوزير على الوزارة فأمره الشيخ بالرجوع إلى الوزارة؛ لأن الحكيم بالمعرفة والكشف مع موافقة الشرع، متعين ويجب عليه إذا لم يكن في ذلك الوقت في تلك البلاد من يقوم بهذه الوظيفة غيره، ودليل قول السيد يوسف عليه السلام:

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] فافهم ذلك!.

وحكى الشيخ عبد العزيز، -رحمه الله تعالى-، عن الشيخ أبي الغيث أنّ شيخه الشيخ علي بن أفلح، أمره بخدمة نسائه وكان نساء الشيخ أربعًا، أو دون ذلك وعادة المشايخ،- رضي الله تعالى عنهم- لا يجعلون في أمر نسائهم وقضاء حوائجهم إلا من هو أهل لذلك، ويكون قد انتهى في سلوكه، لأنّ رضا الجميع غير ممكن، وإنْ أمكن فهو عسير، لا سيما الضرائر، مع نقصان عقول النساء من حيث الجملة، فلا يحمل ذلك إلا مَن كان له قلب وسعة باطن، وهي من علامات التربية، كما أنّ الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه عليهم رعوا الغنم، إشارةً إلى سياسة الخلق.

فكان الشيخ أبو الغيث كلّما فرغ من خدمة النسوة بعد مقاساته لما يقاسيه، يجد فقيرًا يعطيه رغيفًا وعليه قطعة حلاوة كلّ ليلة بعد العصر.

فاتفق أنّ الشيخ أبا الغيث حضر إلى عند الشيخ على شيخه بعد فراغه من خدمة النساء وأخذه الرغيف والحلاوة من الفقير، قال له الشيخ على: ما هذا يا أبا الغيث، فقال له: يا سيدي، كل ليلة أفرغ من الخدمة أجد فقيرًا يعطيني رغيفا وعليه حلاوة، فقال له الشيخ: لا ترجع تأخذ منه شيئًا، أتعرف من هو يا أبا الغيث؟ فقال: لا، قال: هو الخضر عليه السلام، إن كان شيخك رُحْ إليه، وإن كنت أنا شيخك، فلا تأخذ منه شيئًا.

فلمّا كان في الليلة الآتية بعد فراغي من خدمة النساء، وجدت الفقير فأعطاني الرغيف والحلاوة، فلم آخذ منه شيئًا فقال لي: تفلح بامتثال أمر شيخك يا أبا الغيث،

تفلح بامتثال أمر شيخك يا أبا الغيث، مرتين، ثم بعد ذلك اجتمعت بالخضر مرارًا.

فانظر يا أخي، رحمك الله تعالى، إلى هذه التربية وهذه المعرفة بأمراض القلوب ودوائها، وهذه النصيحة الخفية في مثل هذه المواطن المستورة عن العقول والخفية عن إدراك السالكين، وذلك أنّ الشيخ علي -رحمه الله تعالى- خشي على الشيخ أبي الغيث من تفرقة قلبه، فيعسر فتحه؛ لأنّه يبقى غير مجموع في جهة واحدة فيأخذ عنها، فأمره الشيخ بجمعية قلبه على جهة واحدة فيأخذ بها، وقال له: هو الخضر، فإن كان شيخك رُحْ إليه، وإن كنت انا شيخك فلا تأخذ منه شيئًا، وكذلك أظهر له السيد الخضر نصح شيخه له وقال له: تفلح بامتثال أمر شيخك يا أبا الغيث وكرر ذلك عليه؛ لأنّ القلب ليس له إلا وجهة واحدة متى توجه إليها حجب عن غيرها، فمتى التفت إلى هذه الجهة وهذه الجهة فاتت هذه وهذه. ولَمّا حصل للشيخ أبي الغيث الفتح وجد السيد الخضر بعد ذلك.

فهذه وأمثالها من الحكايات في التربية، فلينظر السالك كيف يسلك؟ والمسلّك كيف يسلّك؟ وليعرف كلُّ واحد حدَّه ﴿**قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ**﴾ [البقرة: ٦١].

مما يحكى عنه

ومِمَّا حكاه من الإشارات اللطيفة واللطائف العجيبة في هذا المعنى، أنّ إنسانًا جمع أهله وماله وقصد الحجاز على طريق الجادة، فنزل يمشي فتقدم على القافلة من غير دليل ورقد على جانب من الطريق فنام ينتظر عبور القافلة عليه، فأيقظته الشمس بحرارتها وقد جازت القافلة وهو نائم لا يدري.

فقام من نومه وصار يجري يمينًا وشمالاً لا يدري كيف الطريق، وضل عن الطريق فمشى ثلاثةَ أيامٍ لم يطعم ولم يشرب، فاشتد عليه العطش وعجز عن المشي فبرك وجعل يمشي حبوا، وقد رأى ظلاً تحت جبل فقال: لعلّي أصلُ إلى ذلك الظل فأموت هناك، والنفس حريصة على الحياة.

فبينما هو على ذلك وقد يئس من نفسه وإذا هو يرى دخانًا في البرية، فجعل يحبو طمعًا في الحياة، فدنا منه، فرأى بيتًا في وسط البرية، فدنا منه، وإذا بشيخ قد خرج

من البيت وقال له: قف عندك، ودخل إلى البيت فأخلاه من الماء، خَشيةً عليه أن يجد الماء فيشربه على ذلك العطش، من قبل أن يلين مصارينه وأحشاءه، فيهلك، ثم قال له: ادخل، فدنا ودخل البيت فأخذ ذلك الشيخ قليلاً من الماء ومذقه باللبن، وجعل يطرّي لسانه بخرقة بذلك الماء واللبن إلى أن تطرَّى لسانه، فجعل يطري حلقه فنزل إلى الأمعاء شيء يسير بعد شيء يسير حتى لانت أمعاؤه، فسقاه من الماء واللبن والسكر، وسلق له فروجا فعاش ورجعت له روحه.

ثم قال الأعرابي لزوجته: توصِّي به واخدميه، وسافر وتركه عند زوجته في تلك البادية، فلم يحضر إلا الليلة التي يصعد فيها الناس إلى جبل عرفات.

فلمّا حضر الشيخ حضر معه خمسة وعشرون ولدًا له فرسانًا، وعمل لهم الغداء، فطلب الشيخ ذلك الشيخ فحضر، فقال له: كُلْ فتفكّر ذلك المسكين أنّ هذه الليلة هي ليلة عرفة، وأنّه فاته الحج، وأنّ ماله وأولاده فارقهم ولا يعلم ما اتفق لهم، فبكى، فقال له: ما يبكيك؟ لعلّ قد فرَّطوا في حقك في غيبتي.

قال: لا، قال: فأنت قليل العقل، إن أكلت وإلا ضربت عنقك فقال: يا سيدي، جرى لي كذا وكذا، وقص عليه القصة من أولها إلى آخرها، وكونه فارق الركب، وتقدم ونام ولم يكن معه دليل، حتى استيقظ من حرارة الشمس، وأن الليلة عرفة، وفاته الحج وفراق أهله وماله.

فقال له: ألم أقل لك إنّك قليل العقل وإنك مستحق القتل لأنك تقدمت على الركب من غير دليل ولا معرفة طريق، ثم لم يكفك ذلك حتى رقدت ونمت، فمثلك يستحق القتل.

قال: فبكى واشتد بكاؤه، فقال له الشيخ: كلْ وأبشّرك بشارةً، أوصلك الليلة إلى أهلك، وتقف على جبل عرفة، قال: فأكل، فلمّا فرغ صاح الشيخ: يا فلانة، فخرجت شابةٌ كأنّها الشمس الضاحية عليها من أنواع الجواهر والحلي، وعليها معارق الديباج، والحرير الأصفر والأحمر، قد شدت وسطها ببعض ذؤابات شعرها، فقال لها: خذي هذا الرجل وأوصليه إلى أهله في ثلاث ساعات من النهار، والتفت إلى الرجل وأعطاه خاتمًا أو فصًا، وقال: لا تعطهِ لها حتى توصلك إلى أهلك.

فقالت للرجل: ضع قدمك موضع أرفع قدمي ولا تلتفت يمينًا ولا شمالاً، واحفظ

خواطر نفسك.

ثم رفعت قدمها ووضع قدمه مكان قدمها فغابا، فعندما رأى نفسه في البرية وإياها، نازعته نفسه، وقال تتملّى بهذه في هذه البرية، وإذا وصلنا إلى الجبل نتوب، فعندما خطر له هذا الخاطر وقفتْ وقالتْ ألم أقل لك؟ استغفر الله تعالى، فاستغفر الله تعالى، وخاف.

ثم رجع الخاطر عاوده وقال: لعلّها أيضًا تشتهي ذلك، فحين خطر له ذلك وقفتْ وقالت له: ويلك، إنّ الحدَّ الذي حدَّه أبي ثلاثُ ساعاتٍ، وأنت تضيّعها بهذه الخواطر الفاسدة، فاستغفر الله تعالى.

فاستغفر الله تعالى، ثم مشيت فخطر له الخاطر الفاسد فيها، وإذا بغزال في البر فأشارت إليه فجاء إليها، فبصقت عليه فتقطّع أو تهرَّى وصار عظامًا، ثم قالت: والله العظيم، متى رجع هذا الخاطر يخطر لك لأفعلن بك مثلما فعلت مع هذا الغزال.

قال: فزال عنه ذلك الخاطر بالكلية، فبينما هو كذلك وإذا بخيامه وأهله وماله وولده، فقالت له: هذه خيامك وجمالك وأهلك ومالك، هات الوداعة التي أودعك أبي.

واعلم أنك قليل العقل كما قال لك أبي، مستحق القتل لأن أبي نجاك من الموت، وخلاك عند أهله وأكرمك فما راعيت حقَّ الله تعالى، ولا حقَّه في ابنته، الوجه الآخر أنك تعلم أنه كان بين يديه خمسة وعشرون ذكرًا فرسانًا، فترك الجميع وأمرني أن آخذك وأوصلك إلى أهلك، وهو رجل عربي، فلو كان يعلم أنّ لك عليَّ طريقًا، ما ترك أولاده الرجال وأرسلني معك، ثم بعد ذلك لم تقف مع ذلك حتى قلت في نفسك أتمتع بها، ونروح إلى الجبل ونتوب، واطّلعتُ على ما وسوست به نفسك ووقفت، وقلت لك: بعد الشرط الأول :فما وقفت مع ذلك، حتى قلت في نفسك إنّها أيضًا تشتهي ذلك، ونسبتني إلى نسبة نفسك، وأخبرتك بما في نفسك، ولم يردعك ذلك حتى نظرت إلى الظبي وما أصابه، وما رجعت إلا رجوع العبد اللئيم، فاستغفر الله تعالى، وأخذت الخاتم أو الفص.

والكلام والألفاظ لا تنحصر في التقديم والتأخير، فنستغفر الله تعالى من ذلك

كله.

والقصد المعنى المفهوم من ذلك، فهذه الحكاية وأمثالها فيها تبيين معاني سلوك الطريق، والعجائب والغرائب والحكايات والأمثال جند من أجناد الله تعالى، وسراياه إلى قلوب أوليائه وأحبائه والعارفين والسالكين إليه، وهي تجذب القلوب إلى الله تعالى كجذب المغناطيس الحديد، وجنود الله تعالى وسراياه وأسراره مُثْبَتَةٌ من المعاني والألفاظ من القرآن والأحاديث والحكايات والأشعار والمواعظ وغير ذلك، ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ**﴾ [المدثر: ٣٢].

طريق التربية

وطريق التربية بحسب كل شخص وقوته واستعداده ونصيبه من ربه سبحانه وتعالى وميراثه من نبيه ﷺ في سلوكه، وملائمته لقلب ولي في سلوكه، ولا يدخل تحت الحصر؛ إذ كل واحد قد يتعرَّف الله تعالى له تعرفًا خاصًا وإن كانت الشريعة عامةً والتعرُّفات الإلهيّة خاصة؛ لأن الله تعالى لا تنحصر تعرفاته ولا صفاته.

أهل الباطن وأهل الظاهر

وأولياء الله تعالى كثير جدًا، والصالحون كثير، وأهل هذا الشأن من أولي الأمر عدد مخصوص، وأشخاص مخصوصون اختصهم الله تعالى لما يريد وصرفهم فيما يريد، وآمنهم على ما يريد، وأطلعهم على ما يشاء من حكمته في ملكه وملكوته، وجعلهم لهذه المملكة الظاهرة كالرُّوح للجسد، فلا يتحرك الجسد إلا بروحه فلو خرجت الروح عنه تعطل وفسد وبقي جمادة لا حراك فيها، وجيفة يعافها من يراها ويرفضها من كان يألفها، فالملوك والحكام وأرباب السيوف والأقلام وغيرهم من سائر الأنام، يتصرفون في الظاهر كتصرف الجسد عن الروح، وأرباب الأمر من الغوث والقطب والأقطاب والأعين والأوتاد والأبدال لهم التصريف الباطن عن شهود الحكمة، وتخصيص الإرادة، وقيام الحكم، فأمر الله تعالى بالإرادة جارٍ لا مرد له، ولا حجر عليه، وإرادة الله تعالى بالأمر إذا لم يرد الوقوع لا يقع، فإنه أراد أن يأمر، ولا أراد أن يفعل، فهم من هذا

الموطن مشيرون وله مشاهدون وعند أوامره واقفون، وهم وإن جاز عليهم الخطأ ﴿ **لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦].

وفي وقائع الوجود لمن استقصاه ممن له الاطلاع على سائر الأقطاب لا يدخل تحت القياس، ولا يدركها العقل والحواس، فمنها أنَّ الخليفة والإمام في الظاهر في كلِّ زمان إذا بويع له ولم يكن شروط لذلك مدَّ صاحب الوقت يده للمبايعة حتى تنعقد البيعة بالصحة ويبقى ظاهر الحكم بقوة الشوكة، وهذا وأمثاله يعرفه أهل هذه الطريقة.

وأخبرني الشيخ عبد القوي العراقي -رحمه الله تعالى- وكان من أصحاب الأحوال والمواجيد، وسنذكره إن شاء الله تعالى في تسمية مَن عرفناه وإنما ذكرناه هنا لأنه بلّغني عن القطب رسالةً في سنة ثلاث وتسعين وستمائة ونحن بمكة شرفها الله تعالى، وأخبرني بزوال دولة زالت في تلك السنة، وكان القطب إذ ذاك بقرية تسمى منين من قرى دمشق، وكان اسمه: أبو الرجال، وفي تلك السنة توفي -رحمه الله تعالى-.

وقد ذكر الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- في قصيدته المسماة:

بـ« العيسوية» صفاتهم، وذكر أهل كل زمان من أولي الأمر، وذكر في كل إقليم منهم خمسة، وذكر أسماء البلاد التي هم فيها من كل إقليم، وفرق بين أولي الأمر وغيرهم، قال:

يا سائلَ الغيرِ عن سرِّي وإعلاني ... وعن حقيقةِ ما فِي طَيِّ جثْمَانِي

تَبْغِي إحاطةَ أمرٍ جَلَّ يعزبُ عن ... مَن لا لَه قدمٌ في تُربِ مَيْدانِي

مِن أينَ يعْرفُنِي غيري وقدْ أخذتْ ... بائي عَلى ألفي ميثاقَها الثانِي

وأوقفتْ واو وهمِي خاحيًا لِي مُذ ... تَظاهرتْ منّي معْنَاي لغيلانِي

أُعْطِيتُ ميراثَ أسرارِ الوجودِ فَمنْ ... هذَا أُعبِّرُ عن صوتى البانِي

ما فِيَّ باقٍ بإبقاء الإلَه لَه ... وإنَّما أنَا في عَين البَقَاء فانِي

انظرْ لتبصرَ ما فِي الكونِ مِن حكمٍ ... بعَينِ قلبٍ سَليمٍ لا بإنسانِي

أما تَرى فُلكَ أسراري مُسيَّرةً ... فِي مَوجِ يَمِّي إلِى جُودي وعرفانِي

مشـحونةً مـن تفاصِـيلٍ ومـن جمـلٍ وألسـنٍ وأعاجيـبٍ وألـوانِي
لـو يسْـتَوي قـوةُ جلـبٍ مـا حملـتُ مـن كـلّ صـنفٍ ومربـوعٍ وصـنوانِي
وكنـتُ أُبـرزُ علمًـا يُسـتدلُّ بـه حنيفًـا دينًـا علـي قـسٍّ وعـبرانِي
علمًـا أتَـى في كتـابِ اللهِ شَـاهدُه عـن المسيح وعـن موسـى بـن عمـرانِ
لكنـني سـاكتٌ علمًـا ومعرفـة مـن هـولِ مـا يترائـى لي ويغشـانِي
حفظًا لِمَنْ لم يكن أهلاً فيضعفُ عَن مـا يُجْتَلـي مِـن إشـاراتٍ وتبيـانِ

فـإنْ نطقـتُ ففـي قـولِي خفيـتُ وإنْ صـمتُ كـان وَجـدي عَـينَ عنـوانِ
فمِـنْ ظُهـورِي لإخفـاءٍ مُحقِّقـهُ وَمـن بُطُـونِي لإعـلاني وأعيـانِ
بسـطٌ وقـبضٌ لـه فـرقٌ يـدلُّ علـى أنْ قـد تقبَّـل جمـعُ الجمـعِ قربـانِ
إن كنتَ تطلبُ حلَّ المشكلاتِ فَمَا فِي الخلـقِ مِـن شـافعٍ يـا صـاحِ أو دانِ
إلاّوبينهمـا كرسـيُّ معرفـةٍ لا يسـتقُّر عَليـه كـلُّ إنسـانِ
مَـن لم تكـنْ بقيـودِ الشـرعِ دعوتُـه منوطـة وبـآدابٍ وإحسـانِ
فـذاك في غفلـةٍ مِمَّـا يُـرادُ بِـه ولم يَـزلْ فيَّ أناكيـدٍ وخسـرانِ
لا يسـتجيبُ لـه قلـبُ المحـقِّ ولـو أَتَـى بكـلِّ دليـلٍ أو ببرهـانِ
ومـن يقـم جـدارِ الأمـرِ ممتـثلاً يُعطَـي إذا اسـتخرجَ الكنـزَ اليتيمـانِ
فـالنفسُ والعقـلُ في وسـعٍ وفي سِـعةٍ والـرُّوحُ والسـرُّ في رَوحٍ وريحـانِ
ومـدعٍ في رجـالِ الغيـبِ معرفـةً فقلـتُ: كـم بـين ظمـآنٍ وريـانِ
يعـني أولي الأمـرِ مـنْهم أو عُمُـومَهم فـإنَّهم عنـدَ أهـلِ الحـقِّ صـنفانِ
أَمـا تَـراني مـن شَـوقِي لـرُؤيتِهم ومـن تَبـاريحِ مـا أَلْقَـى وأشـجانِ
أجـوبُ شـرقًا وغَربًـا في تتـبُّعهم مفارقًـا لأصـحابِي وأوطـانِ

لعــلَّ عينًــا تَــرانِي مِــن عُيــونِهم بعَــينِ مــا أتمنَّــاه وترعــانِ
في كــلِّ إقلــيمٍ مــنهم خمســةٌ وكــذا قــالَ المخــبرُ عــن كشــفٍ وفرقــانِ
العــينُ والوتــدان الخادمــان لَــه والقطــبُ والبــدلُ المخفَّــي ذو الشــانِ
فقال: أيـن هـم مـن مِصر؟ قلت لـه: خُــذ مــا أقــول بتصــديق وإيمــانِ
اطلــبهم بــبلاد البَهنســا وفي أرضِ الصــعيدِ بــإخميمٍ وأســوانِ
وفي رشــيدٍ ودميــاطِ الــذي امتــزجَ بهمــا كمَــا جَــاءَ في التَّفْسـيرِ بحــرانِ
وقــالَ عــدلٌ مــن الإخــوانِ يخــبرُ عــن علــمٍ وعــينِ يقــينٍ غــيرَ ظنَّــانِ
بــأنَّ في بلــدِ اللاهــون امــرأةً طَيــارةً وهــي سُــعدى بنــتُ عجــلانِ
أمَّــا الشــامُ فبالأقصــى وبعضُــهم بعســقَلانِ وفي الجــولا وبيســانِ
وفي العــريشِ وفي حيــثُ الجِمــالُ وفي عَجلونَ مـنهم وفي بُصرى وحسبانِ
وبــالعراقِ فــأرضُ النيــلِ مجمعُهــم وبوكْســايا ومِــن شَــرقيِّ زريــرانِ
والسيبُ والوقـفُ فيـه الصـالحون ومَـا قَــويَ بِهــا بــدلٌ إلا بقَوســانِ
وأرضُ فــارسَ مــأوى الأوليــاءِ ولــكــنّ المشــارُ إلــيهمُ في خُراســانِ
والــرَّيُ فيــه رجــالٌ يُعرفــون وفي لا ســايا ومِــيرُ وفي الــدَّهنا وعســفانِ
وإنْ أناخــتْ بــك الأقــدارُ في يمــنٍ ففِــي زبيــدٍ وفي الكــدريِّ وملحــانِ
وبــالتهيمِ وتــاديرون ومــا رُؤيَ بِهــا القطــبُ إلا في كمــرانِ
والغــربُ في غايــةِ التكــرور قطــبُهم وفي جزائــرَ مرغنَّــا ووهــرانِ
وقـدْ روى مَـن لـه كَشـفُ التَّصـورِ عـن أكــابرَ القــومِ في الخضــرا وحيَّــانِ
بــأنهم قــد رأوا في أســفي علــى زمــانِ صــالح أبــدالاً مــن الجــانِ
هــمُ المــرادُ وهــم سـؤْلي وهــم أَملِــي وفي الحقيقــةِ هــم أهلــي وإخــوانِ
ومــن يقــولُ بــأنَّ الــذوقَ ســيمتُه يــأتي بمثــلِ الــذي أبــدى بــه الجــانِ

مــا كــلُّ لــدنٍ رُدَيّــنِيِّ الطعــانِ ولا ... كــلُّ الفــوارسِ مــن أقيــالِ غسَّــانِ

ومــن يكــونُ بــه هــذا الزكــامُ فمــا ... يستنشِــقُ الــريحَ مــن مسـكٍ وقطـرانِ

وهكــذا كــلُّ قــرمٍ لا يقــودُ لــه ... لم يفقــه القــولَ مــن عَجــمٍ وعُربــانِ

ثم الصــلاةُ علــى المختــارِ مــن مضــرٍ ... وأكــرمِ الخلــقِ مــن معــدِ بــن عــدنانِ

محمــدٌ بــنُ عبــد الله أفضــلُ مَــنْ ... غَــزَا وجاهــدَ في رحــلٍ وركبــانِ

مــا ناحــتْ الأُرقُ في أَوكارِهــا سَــحَرًا ... وأهــدتْ الــريحُ نشــرَ الرَّنــدِ والبــانِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وعلى سائر الأنبياء والمرسلين والملائكة وسلم تسليمًا كثيرًا، ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله أجمعين.

وللشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- قصيدةٌ نظمٍ في السلوك والمعارف ومواجيده وأحواله، مما يدل على عظم شأنه، وإنَّما هذه القصيدة فيما ذكره من أولي الأمر، من الأقطاب والأعين والأوتاد السبعة في اليم، وذكر البدل المخفي ذي الشأن.

وفي حكاياته عن من اجتمع به من أهل هذه الطريقة العجائب والغرائب.

فمنها ما حكاه عن شيخ المشايخ أنَّه سأله عن شيخه فقال له: شيخي سكسوك فقلت وما سكسوك؟ فقال: أبو جعران، فقلت: وكيف ذلك؟

قال لي: كنت ليلةً أطالع وأنسخ والسراج على منارة ملساء، والحيوان تحت النور فجاءِ أبو جعران وجعل يدور بالمنارة، ويصعد فيقع، ثم يدور ويصعد فيقع هكذا مرارًا فتفكرت فيه، ولم يزل يطلع ويقع إلى أن طلع الفجر، وقد حصُل فوق عند السراج فتفكرت في نفسي: إن هذا حيوان لا يعقل وله مطلوب ما يردّه عنه الطرد أول مرةٍ ولا ثاني مرة، ولا كونه وقع مرةً بعد أخرى، إلى عدد كثير دون ألف مرة فكان ذلك سبب طلبي، وحصل لي ما حصل.

ومنها ما حكاه أيضا عن شيخ من المشايخ يُسمَّى محمد، قال: سألته عن شيخه، فقال: شيخي عشقَ أمي، فقلت: وكيف ذلك؟

قال: كان أبي مروازًا -يعني أميرًا كبيرًا- من مراوزة السلطان، وكانت والدتي امرأة جميلة، وكان شيخي يعلمني القرآن، وكان الشيخ يدخل عند والدتي، ونساء العرب ما

يكادون يستترون، فوقع في نفسه منها شيء، وعرفت ذلك وبقيت أقصد راحة الشيخ، وكان رجلاً صالحًا، وبقيتُ أشتهي وفاةَ والدي حتى أزوجها له، فحصل للشيخ مرض وأظنه من ذلك، فقلت لوالدتي: اطلبي من الأمير أن يجيء بالشيخ إلى الدار فتخدميه فيحصل لك الجنة.

فكلّمت الأمير فأحضر الشيخ من المسجد، وجعلت تسلق له الفروج بنفسها وبقيت أُسمِعه كلامَها وأقول لها: تخدميه كل ذلك ليجد راحته، فلما حصل للشيخ العافية ودخل الحمّام، قلت لوالدتي: روِّحي عليه وتركتها عنده وقلت في نفسي: يا ترى إيش يعمل الشيخ؟ وأنا في مكان أراه فاستيقظ الشيخ وخرج فتبعته، فقال لي: يا محمد عرفت جميع ما فعلت، وأنت يجيء منك شيخ من المشايخ لكن يا محمد مثالك مثال من نقّى قفة قمح من الطين والقصل والتراب، فلما فرغ أخذ كنَّ زبل رماه عليها، فقلت يا سيدي: وكيف ذلك؟ فقال: يا ولدي، تقول في نفسك يا ترى إيش يعمل الشيخ؟ والله يا ولدي، الفقراء ما يعملون شيئًا. ثم طلبته فلم أره بعد ذلك.

ومِمَّا حكاه أيضا عن فقير كان سبب سلوكه وطلبه ووصلته، قال: كان عندنا أوزة معلقة، فجعل القط يرقبها ببصره لا يفتر عنها من أول الليل إلى الصبح وهو مجموع ناظره إليها، فتفكرت في ذلك القط وملاحظته وسهره طول ليله فكان سبب سلوكي.

ومِمَّا حكاه لي عن الشيخ تاج الدين السريسي، -رحمه الله تعالى-، أنَّه كان يعمل للفقراء كل سنة عسلة تسمى عسلة تاج الدين، فكان يشتري قناطير صابون وتجتمع الفقراء من الأماكن والبلاد إليه، ويذبح الذبائح ويعمل الولائم.

فاتفق أنَّه عمل للفقراء سماعًا، فقام فقير وتواجَد وأطال، فقال الشيخ: اقعدوا وبقي الفقير على حاله، ثم بعد ذلك لما قعدوا ما بقي على حاله، والشك مني في ذلك، فحصل للشيخ تاج الدين بعد ذلك طيبة فأراد القيام، فقال ذلك الفقير: اقعد، فأُقعد الشيخ إلى أن مات ولم يوجَد ذلك الفقير بعد ذلك.

وأخبرني الشيخ عبد العزيز ﷺ أنه كان يأتي إلى هذا الشيخ تاج الدين، فيطعمه قمحية، وتكون عنده الأطعمة كثيرة فما يقدم لي إلا قمحية كل وقت، فقلت له: أنا ما أريد قمحية، فقال لي: والله ما أطعمتك القمحية إلا لأن الخضر عليه السلام قال لأم عبد

القادر يعني زوجته: كوني اطبخي القمحية للفقراء.

والشيخ تاج الدين هذا المذكور كبير الشأن عظيم القدر وله قصيدة في السلوك منها:

ولـو قلـتُ طـافي النـارَ والنـارُ جمـرةٌ لهـا لهـبٌ تَرمـي الشـرارةَ كالقصـرِ
لَمَـا كـان لمحُ الـبرقِ أسرعَ أن يُـرى بأسـرعِ مـنِّي في امتثـالٍ للأمـرِ

ومع ذلك أثّر فيه حالُ ذلك الفقير، ولا يدلُّ ذلك على أنَّ الفقير كان أكمل منه، فإن لله تعالى التصريف في الكل كما يشاء ويختار، ولأن النملة والبعوضة والحية والعقرب أقل قدرًا عند الله تعالى من رتبة الإنسان من حيث هو إنسان مؤمن فكيف بمن له ولاية؟

وقد أثَّر ذلك في جمعٍ كثيرٍ، وأرباب الأحوال مجموعون على الله تعالى بكلياتهم غائبون عن أنفسهم، فإذا أَجري على ألسنتهم شيء وقع وأثَّر لأنَّه من الله تعالى بوجهة التخصيص فلا يُرد ولذلك يخشى من صحبة أرباب الأحوال.

ولهذه الحكاية نظائر، منها ما حكاه أبو طالب المكي في قوته -رحمه الله تعالى- أنّ الحجاج بن يوسف لما طلب الحسن البصري[١] -رحمه الله تعالى- دخل الحسن عند

(١) هو ابن يسار بفتح الياء، وكسرها، الأنصاري مولاهم مولى زيد بن ثابت. ويقال: مولى جابر بن عبد الله، ويقال: مولى أبي اليسر ويقال: مولى جميل بن قُطبة، وأمه اسمها خيرة مولاة أم سلمة أم المؤمنين زوج النبي ﷺ وربما غابت أمه في حاجة فتعطيه أم سلمة رضي الله عنها ثديها تعلله به فيدر عليه فيشربه إلى أن تجيء أمه، فيرون أن تلك الحكم، والفصاحة من بركة ذلك.

وقال أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن البصري، والحجاج بن يوسف الثقفي قيل له: فأيهما كان أفصح؟ قال: الحسن.

سمع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وخلائق من الصحابة، وخلائق من كبار التابعين، وروى عنه خلائق من التابعين وغيرهم.

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: سألت هشام بن حسان كم أدرك الحسن من أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: مائة وثلاثين، قلت: وابن سيرين؟ قال: ثلاثين.

=

حبيب العجمي، فقال له حبيب: اقعد ورائي، فقال: ويلك، وما يغني عني وراؤك؟ فقال: اقعد حتى تبصر فقعد، ودخل رسل الحجاج فقالوا: أين الحسن؟ فقال لهم حبيب: انظروا هل تبصرون شيئًا؟ فنظروا فلم يروا شيئًا وخرجوا فقال له الحسن: كيف فعلت؟ فقال: إنك كنت عند الله تعالى فما أبصروك، ولو كنت عندي لرأوك فقال له الحسن: رأيتك همست بشفتيك شيئًا فقال: قلت: اللهم اجعله عندك حتى لا يروه.

فانظر يا أخي إلى هذه الحكاية. قال أبو طالب والحسن فوق الحبيب بكثير، وهو أستاذ حبيب وشيخه، ولا يخفى محلُّ الحسن البصري -رحمه الله تعالى- وعظم شأنه.

للصالحين رُتب ومَنَازل

ولن تخفى رتبة السادة الصحابة -رضي الله تعالى- عنهم بالنسبة إلى التابعين لهم، ولن تخفى رتبة السادة التابعين بالنسبة إلى من تبعهم، وكذلك جريان الحال في المشايخ وأتباعهم والتابع والمتبوع، ولست أقول بتفضيل بين أنبياء الله تعالى صلى الله تعالى عليهم وسلم إلا من فضّله الله تعالى في كتابه العزيز على لسان نبيه، كما فضَّل

=

وعن محمد ابن سعد قال: كان الحسن جامعاً عالماً رفيعاً فقيهاً ثقة مأموناً عابداً ناسكاً كثير العلم فصيحاً جميلاً وسيماً.

وقدم مكة فأجلسوه على سرير واجتمع الناس إليه فيهم طاووس، وعطاء، ومجاهد، وعمرو بن شعيب فحدثهم، فقالوا أو قال بعضهم: لم نر مثل هذا قط.

وقال أبو بردة: لم أر من لم يصحب النبي ﷺ أَشْبه بأصحابه من الحسن.

وعن مطر الوراق قال: كان الحسن كأنما كان في الآخرة فهو يخبر عن ما رأى وعاين، وكان الحسن من أجمل أهل البصرة حتى سقط عن دابته فحدث بأنفه ما حدث.

مات سنة عشر ومائة. وانظر: طبقات ابن سعد (١٥٦/٧)، وطبقات خليفة (١٧٢٦)، والزهد لأحمد (٢٥٨)، والتاريخ الكبير (٢٨٩/٢) والمعارف (٤٤٠)، والمعرفة والتاريخ (٣٢/٢)، (٢٣٨/٣) وأخبار القضاة لوكيع (٣/٢)، والجرح والتعديل (٤٠/١/١)، والحلية (١٣١/٢)، وكتابنا الحسن البصري سيد التابعين (أتمه الله).

نبينا محمدًا ﷺ على غيره.

وكذلك لا أقول بتفضيل بين الأولياء إلا ما ورد به الشرع المطهر، وقد يكون من المريدين من تعلو رتبته رتبة شيخه كما حكى الشيخ أبو الربيع عن القرشي- رضي الله تعالى عنهما- أنَّه قال: صحبت ستمائة شيخ، اقتديت منهم بأربعة، وكان شيخي أبو الربيع منهم، ووزنت معه فرجحت عليه.

وهذه الحكاية إن صحت عن القرشي رضي الله عنه فهي عمّا اطّلع عليه، وليس لنا ذلك، على أن ذلك يجري كثيرًا ويكون في المريدين من يتقدم على شيخه، ومن المتأخرين من يتقدم على المتقدمين، وذلك لله تعالى يفعل في ملكه ما يشاء، ويحكم في خلقه ما يريد.

وحفظ رتب الأولياء بعد الأنبياء الصحابة، والأدب مع الله تعالى في كل ما ينسب إليه واجب، ولكلٍّ وجهة إلى الله تعالىو سرٌّ حاضر مع الله تعالى، وتعرف إذ الحق يتوجه إلى عبده بحسب ما يتوجه العبد إليه في صلاته وصيامه وعبادته وتقربه بكل قربة، ومحبته لشيخه هي محبته لربه تعالى، فمهما عظمت منزلة شيخه بباطنه كانت حالته عند الله تعالى كذلك، ومهما نقصت رتبة شيخه عنده نقص عند الله تعالى بقدر ذلك.

ولتفهم من ذلك أنك مهما أنزلت الحق من قلبك من التعظيم والإيثار له على نفسك والمحبة بكلية قلبك فتلك منزلتك، وإن كان خلاف ذلك فهي منزلتك عنده، والله تعالى من وراء ذلك كله وإنما أنت تشهد منزلتك، وفي قوله تعالى: ﴿**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾ [المائدة:١١٩].

وقوله تعالى: ﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ [المائدة:٥٤] كفاية من الاستقصاء بالأدلة العقلية والقياسية التي لا اثر لها في وجدان القلوب.

حكايات في التربية

وحكى الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عن الشيخ برهان الدين الموصلي[(١)]

(١) له ذكر في الوافي بالوفيات (١/٢٨٥، ١٢٢٠).

أنه نزل الخانقاه بالقاهرة، وكان له شأن كبير وأحوال جليلة، وله تربية وأتباع، ومن أتباعه أبو بكر الكردي ولي الدين، قال: كان الشيخ برهان الدين يتكلم في مناقب شيخه أبي سعيد بن أبي الخير[١]، وكان في المجلس فقير كبير القدر يسمى جمال الدين عينساه، فقام الشيخ برهان الدين المذكور وضربه على رأسه بالمحجم ثلاثَ ضرباتٍ، فحصل للفقراء من ذلك ألم؛ لأن هذا الفقير له هجرة وخلوات وربما قيل أحدَ عشرَ خُلوة، وكان ابن شيخ الشيوخ حاضرًا فقال له: يا سيدي، ما هذا؟ وما سبب هذا؟ فإن الفقراء يقولون: لأي سبب ضُرب الشيخ جمال الدين عينساه؟ فقال الشيخ برهان الدين: لأنه مريدي، فقيل للشيخ جمال الدين عينساه أنت مريد الشيخ؟ فقال: نعم، ودخلتُ على يده ثلاث خلوات.

فحين اعترف أنه مريده قام وضربه ثانيًا، فبقي عند الفقراء من ذلك شيء، وليس لأحد أن يعترض على الشيخ في مريده، فقال الشيخ للفقراء: يا فقراء، كأنكم تقولون: ما سبب ضرب جمال الدين عينساه؟ أو تشتبهوا تعملوا ذلك، فقالوا: نعم فقال الشيخ: والله ما ضربته لأني شيخه وهو مريدي، ولا خطر لي ذلك، ثم قال: يا جمال الدين، الفقير أمين الله تعالى على نفسه، أنت لما كنت أنا أتكلم في مناقب الشيخ أبي سعيد بن أبي الخير، أما قلت أنت في نفسك إنك ارتقيت مقامًا ما وصل

---

(١) قال المناوي: الزاهد المتقي الولي ذو الكرامات الباهرة والآيات الظاهرة، كان يستحضر من بحار التصوف والزاخرة كل فائدة مهمة، ومن كواكبه السيارة كل نير يجلو حنادس الظلمة.

أخذ عن زاهر السرخسي وغيره، وعن ناصر الأنصاري وغيره، وكان صحيح الاعتقاد حسن الطريقة، أحواله تبهر العقول، اهتدى به فرق من الناس.

وكان مقدم شيوخ الصوفية، وأهل المعرفة في وقته، سني الحال عجيب الشأن أوحد الزمان، لم ير في طريقته مثله مجاهدة وإقبالاً على الأعمال وتجردًا عن الأسباب، وإيثارًا للخلوة واشتهارًا بالإصابة في الفراسة وظهور الكرامات والعجائب.

قال السبكي: ومع صحة عقيدته وسن طريقته لم يسلم من كلام ابن حزم والذهبي، ولم يظهر لنا منه إلا صحة الاعتقاد، لكنه أشعري صوفي، فمن ثم نال منه الرجلان وباءا بإثمه. وانظر: الكواكب الدرية (٣٩٩).

إليه الشيخ أبو سعيد؟ قال: نعم، قال: الشيخ والله لقد رأيته أخرج رأسه من هذه الحائط، وقال: انظر مريدك، كيف يسيء علي الأدب؟ قال: فقام جمع كبير وجددوا العهد على يد الشيخ برهان الدين.

وقال: والشيخ أبو سعيد له سنين كثيرة ميت، وكان في الفقراء فقير من أصحاب الشيخ برهان الدين، فقال: يا سيدي أشتهي أن أكون في صحبتك، فقال له: مالك في ذلك مصلحة، فقال: يا سيدي، ما يكون لي في صحبتك مصلحة؟ قال: نعم، قال: يا سيدي، فكيف ذلك؟ فقال له الشيخ: تنظر منى ما تعتقد أنت أنه مخالف للشرع، أسقط أنا من عينك، وتسقط أنت من عين الله تعالى.

فانظر يا أخي إلى هذا التحقيق من الشيخ والنصيحة للطالب والمعرفة بتوجيهات القلوب، ولأن المريد جعل الشيخ وجهته إلى ربه تعالى، فاعتقاده في شيخه ومحبته فيه إنَّما هي محبة لله تعالى مع تنزيه البارئ تعالى عن صفات العباد، وإنما نحن نذكر صفات الجزاء كما ورد:

«يا عبدي استطعمتك فلم تطعمني، استسقيتك فلم تسقني،مرضت فلم تعدني[١]».

وكلُّ ذلك متأوَّل لمن يطعمه لأجله ويسقيه لأجله ويزوره في مرضه لأجله، فكأن الله تعالى هو المجازي لذلك والمقابل عليه، وأضاف كل ما عمله لأجله إلى ذاته العلية، وخاطب عبده بما يعقله من العادة في أمثاله وأبناء جنسه حتى لا يجهل ذلك الوصف في نفسه وفي غيره، والمريد في شيخه كذلك بوجه أخص وطريق أكمل لوقوع العقد اللازم والعهد الملازم والاختصاص الإلهي والطلب لله تعالى مع الإخلاص من غير شائبة، فخشي على الطالب أن يقع في ذلك، بل عرف ذلك معه بالإطلاع والكشف، فإنه تقدم ما يدل على كشف الشيخ حال مريد قبل وروده إلى صلب أبيه وبطن أمه.

وأما ضربه لجمال الدين عينساه فلذلك نظائر في الشرع؛ فالطبيب له أن يقطع بعض الأعضاء لسلامة الجسد والروح، بأن يكون مثلاً في الأصبع أَكَلَةٌ فإن تركها أكلت الكفَّ وإن كانت في الكفِّ إن تركها أكلت الذراع، ومتى لم يقطعها أفسدت

(١) رواه مسلم (٤/١٩٩٠).

ذلك العضو جميعه، وكذلك إذا كانت في الذراع ولم يقطعه أفسدت جميع الجسد ومات.

الشيخ للمريد كالطبيب

والشيخ بالنسبة إلى المريد كالطبيب بالنسبة إلى المريض، وهو أعرف من الطبيب في حاله جميعه، والكِبْرَ من الأمراض القلبيةِ وهو أشدُّ الأمراض لأنه يحجب عن السعادة وعن الجنة، وهو منازعة الألوهية في أوصافها والدعوى بالكذب على الولاية شديدة، لقوله تعالى: **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾**[الأنعام:٩٣].

وأورد الإمام الغزالي أن من الذنوب ما عقابه سوء الخاتمة، وهو ادّعاء الولاية مع عدمها، فكون الشيخ ﷺ ضربه تلك الضربات ليستخرج من نفسه ما ادّعاه وما له، وكونه زعم أنه وصل إلى ما وصل إليه ذلك الوليُّ الكبير فيه نوع من الكبر والتعاظم الذي هو أصل الفساد وأصل العناد.. أعاذنا الله تعالى وإياكم منه. آمين.

وحكى الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عن الشيخ عبد الله المارداني أنه دخل على أبي شعرة، وكان من أمراء الملك الكامل، من الأمراء الكبار وكان يحب الطائفة، وكان مريدًا للشيخ عبد الله، فلمّا دخل الشيخ عبد الله على الأمير وجده قد لبس خلعة أتت إليه من السلطان، وجعل على رأسه الكمّة التي كانوايتقلّدها في ذلك الزمان الأمراء الأكابر، وبين يديه مائة مملوك له، فمشي الشيخ وصفعه صفعةً أطارت تلك الكمة من على رأسه، فجرى المماليك يأخذونها، فقال الشيخ ما يأخذها إلا هو، فقام الأمير وأخذها ووضعها على رأسه، وكانت زوجته من فوق واقفةً تنظر إلى ذلك، وكانت بنت البانياسي وكان الأمير يحبها فعزَّ ذلك عليها، فغضب الشيخ وخرج وانقطع عنهم، فما أطاق الأميرُ غضب الشيخ فدخلوا على الشيخ حتى يرضى عن الأمير، فقال: ما أفعل؟ أو يشد على ظهره أكافًا ونركبه، وزوجته واقفةٌ تنظر وترضى لذلك فوافق الأمير وزوجته على ذلك، وركب الشيخ على ظهر الأمير في داره.

وهذه الحكاية من العجائب في هذا الباب، فانظر إلى هذه النصيحة من الشيخ، وهذا الدواءِ الذي داواه به لمقابلة المرض الرديء؛ لأن الكبر من أردى الأمراض للقلب؛

لأن الشيخ لا يجوزله أن يغشه إذ هو قد استنصحه وسلم نفسه إليه، وهو مسئول عنه، وراضٍ بجميع ما يفعله في نفسه وماله، وعقد مع الله تعالى عقدًا في ذلك، وعاهد الله تعالى عليه، ولو وجد الشيخ لهذه العلة دواء غير ذلك لداواه به، وقد يداوي غيره بغير هذا الدواء في هذه العلة بنفسها لاختلاف الأمزجة والطبائع.

كما جرى للفقيه الذي سأل أبا يزيد(١) لما لا يفتح الله له؟ فأمره بحلق لحيته ورأسه، وتحفية قدميه، ومشيه بين الناس الذين يعظمونه، ومن صفعه من الصبيان يعطيه شيئًا من الجوز الذي يحمله معه.

وقد تقدمت الحكاية في ذلك وفي أمر الشيخ أبي يزيد مريدَه بحلق لحيته أوجهٌ لمن يعترض على الشيخ في كونه أمرَ بما يخالف السنة، وقد اعترض معترض فذكر الفقيه شيئًا إنما كان قصده العزم على الفعل لا وقوع الفعل، فإن السيد إبراهيم الخليل عليه السلام أمر بذبح ولده، وكان المراد العزم على الذبح لا وقوع الذبح، والجواب عندي، فمِن ذلك أن الطبيب يجوز له النظر إلى فرج المرأة للتداوي، وقطع بعض الأعضاء لسلامة الجميع في أمراض الجسم، فأمراض القلب لأشدُّ من ذلك، لا سيما مرض الكِبْر الذي هو أشد الأمراض الذي يحجب سعادة الآخرة، وحلق اللحية أخف الأدوية؛ إذ هي تعود في زمن قريب.

فافهم ذلك وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومِمَّا حُكِي عن بعض الحجَّامين أنَّه كان يحجم الملكَ وكان له مريد قد تبعه فجعل ينوب عنه فيما يحتاج إليه الملك من الفصد والحجامة وغيره، فعظمت نفس المريد، وزعم أنه ما بقي يحتاج إلى معلمه، وربما زعم أنه ترقى عنه وعلم ما لا يعلم.

فاتفق أن الملك احتاج إلى الفصد، فدخل هذا المريد، فأفصد الملك، فانكسرت الريشة في عرق يده، فلم يكن للمريد حيلة ولا معرفة بذلك وخشي الهلاك من السلطان، فجاء إلى عند معلمه وقد حصل له من ذلك ما حصل، فقال له المعلم:

---

(١) انظر في معرفة مناقب وأخبار الشيخ: أبو يزيد البسطامي، «روضة الحبور في مناقب الجنيد البغدادي وأبي يزيد طيفور» لابن الأطعاني، وهو من أوسع وأفضل الكتب في نوعه، طبع دارة الكرز ، تقديم فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور سيدي جودة المهدي حفظه الله.

ألست قد استقللت بنفسك ورأيك، وزعمت أنك غير محتاج إلي؟ فقال له: يا سيدي، ما هذا وقته؟ أدركني وإلا هلكت.

فمضى معه إلى عند الملك والملك على تلك الحالة، فصفع المعلم الملك صفعةً عظيمةً فاشتد الغضب وانتفخت العروق فخرجت الريشة بسرعة؛ لأن نفوس الملوك ما تحتمل مثل ذلك، فلمّا جرى ذلك جعل المعلم في عنقه سلسلةً، وقاد نفسه للملك ليقتله على جرأته، وقال: إنه لم يكن لهذه العلة دواء إلا ما فعلت، واخترت ذهاب حياتي بسلامة الملك، فأخلع عليه وتركه.

ثم إنَّ المريد رجع إلى ما كان عليه، واعتقد أنه ما بقي معرفة للمعلم زائدة على ذلك إلا وقد تعلمها، فاتفق أنه فصد المشاعلي فانكسرت الريشة في يده، فصفعه المريد صفعةً عظيمةً فلم يؤثّر فيه شيء ، فقال له المشاعلي: ما هذا وقت البسط، أبصر أيَّ شيء يخرج هذه الريشة من يدي؛ وذلك لأن نفس المشاعلي ما هي كنفس الملك، وإن كانت العلّة واحدة فالأمزجة مختلفة؛ لأن المشاعلي يفعل بنفسه طول النهار مثل ذلك ويستحليه ويجعله صناعته، والموت عند الملك دون ذلك، ثم إن المريد أتى إلى عند معلمه الحجام وسأله عن ذلك وقال: أدركني، فقال له: فما أنت استغنيت عني؟ فقال: ما هذا وقته، فجاء معه إلى بيت المشاعلي، فأمرهم بخلو البيت، وألاّ يكون فيه أحد، واتخذ ومريده ركنًا في منزل المشاعلي، ووسوس مريده وسوسةً يسمعها المشاعلي، قال له: ما بقي لنا في هذه حيلة، إلاّ أن نقتله ونخفيه عن الملك؛ لئلاّ يحصل لنا من ذلك ما يحصل، فسمعهما المشاعليُّ يقولان ذلك، فخاف على نفسه وجزع، وتيقن منهما ذلك، فانتفخت العروق من الخوف فخرجت الريشة للوقت.

فانظر يا أخي، وفقك الله تعالى، إلى هذه الإشارات في الرتبية.

وحكى لي الشيخ المجير مهنا البغدادي أنه كان في خدمة الشيخ على الرفاعي يقُمُّ الزبلَ، واتفق أنه حصل للمحير مهنا المذكور مرض الإسهال، وكان يحب العنب، والعنب مما يزيد في الإسهال، فقال الفقراء للشيخ فقال لهم: قولوا له لا تأكل العنب، فقالوا له فلم يمتنع من أكله، وازداد المرض، وجعلوا يقولون له فلم يسمع، فقالوا للشيخ أنه لم يسمع، قال: فطلبني الشيخ إلى عنده فحضرت، والتزم الشيخ أني لا آكل عنبًا ثم

قال لي: لا تأكل العنب، قال: فما قدرت بعد ذلك أذوق عنبة أصلاً، فبرأت من ذلك المرض.

فانظر يا أخي إلى هذا التعليم بكل نوع يناسب الحال والوقت والشخص، فهم يعلمون الناس تارًة بالأقوال وتارًة بالأفعال وتارًة بالإيلام وتارًة بالأحكام وتارًة بالإيماء الإفهام وتارًة بصريح الكلام وتارًة بالرؤيا والمنام وتارًة في البرء والسقام، وحيث اطّلع الشيخ على العلة وعرفها وعرف دواءها أتبعها بالدواء سواء كان من مر النفس أو حلوها ولا يخون الله تعالى فيما ائتمنه عليه، فإن رأى في المريد عجزًا عن أمثال ذلك الذي يقصده له أوقفه عن شرب ذلك الدواء واستعمل له ثانيًا ولاطفه وإذا لاطفه في كل أحواله فقد مكر به لأنه لم يصلح عنده فإياك ثم إياك من مكر الشيوخ بما يطيِّب النفوس ويجرِّع كاسات الألم والمرارات، فإنَّ العزّ في الذلِّ مستور والذلُّ في عزِّ الدنيا محجوب، وبالله التوفيق، ولقد أحسن من قال :

لا تسقِني ماءَ الحياةِ بذلّة   بل اسقِني بالعزِّ ماءَ الحنظلِ

وأخبرني الشيخ جمال الدين بن الشيخ أبي العباس المرسي عن مريد الشيخ وهو الشيخ نجم الدين الأصبهاني، وهو رجل كبير مشهور أنه كان يرى الشيخ في منامه ويربِّيه، ويراه في عالم الغيب كذلك ويربِّيه ويأمره وينهاه، وأنه سافر من بلاد العجم إلى ديار مصر وبقي يتبصَّرُ في المشايخ حتى يرى الشيخ الذي كان يأتيه في المنام، فلمَّا وصل ديار مصر دخل على الشيخ أبي العباس المرسي فأسرَّ له بجميع ما كان يجري له معه في المنام وفي عالم الغيب وهو الآن موجود، وهو جليل القدر وهو بمكة، شرفها الله تعالى.

ولا اعتراض في ذلك؛ إذ كان الوحي للسادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أعظم، وقد كان يوحى إليهم في المنام كالسيد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ورؤية السيد يوسف الصديق عليه السلام، وقد كان يوحى إلى بعض السادة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في المنام.

ومنهم من يربُّوه بالتخصيص والاهتمام، كما حكي عن الشيخ أبي الحسن الوفائي، -رحمه الله تعالى-، قال: جئت إلى زيارة الشيخ أحمد الجباس فوجدت عنده

الشيخ أبا العباس الطنجي، فهبته، فلمَّا قام يتوضأ قدّمت له نعله فقال لي: يا علي، ستعلم حين يقدم لك نعلك وأنت لا ترضى.

قال: ثم أخذت الإداوة ومشيت معه لأصب عليه الماء -أو كلمة هذا معناها- فقال لي: يا علي، الله يعلم أنني رجل من طنجا، خرجت إلى الحج إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر النبي ﷺ فأُخِذْتُ أخذةً عرفْتُ فيها الله تعالى، فأقمت ثمانين يومًا لا آكل ولا أشرب، فوردت على سيدي أحمد الرفاعي في الوقت الذي يجتمع الناس إليه فيه، فوجدت عنده ستة عشر ألف فقيرٍ وقد مد لهم خبز الأرز وقصب العراق فقلت في نفسي: هذا الطعام ما يوافق الْمَعِيِّ التي لي؛ لأن لي ثمانين يومًا ما أكلت ولا شربت، وإذا الشيخ قد رفع رأسه، وقال: يا أم منصور، خذي بيد الطنجي وأطعميه العصيدة التي عملتيها له؛ فإن له ثمانين يومًا ما أكل ولا شرب.

قال: وإذا امرأة أخذت بيدي وأدخلتني إلى بيت أو حانوت أو كما قال، فأخرجت لي عصيدةً وعليها سمنٌ وعسلٌ، فأكلت إلى أن اكتفيت، ثم قمت وجلست عند الشيخ، فقلت في نفسي: إن كان هذا الشيخ يربي هؤلاء الجميع فهذا إمام عظيم متبع، وإن كان ما غير الكثرة فملوك بني الأصفر عندهم أكثر من ذلك، فرفع رأسه، وقال لي: يا احمد، يا أحمد، ما أنا شيخك، شيخك عبد الرحيم بقنا، رُحْ إليه، قال: وألبسني الشيخ طاقيةً، وكان عليَّ جلابية أخلعتها على الشيخ فجعل ينبسط بها بين أصحابه.

معرفة رسول الله ﷺ

قال: وسافرت إلى أن وصلت إلى قنا، فسألت أو دخلت على الشيخ عبد الرحيم لأجد شيخًا أعمى مكبًا على بُرشٍ، قال: ففُتح على بالكلام حتى لو كانت سبعَ محابر ما كتبوا ما أقول، فقلت في نفسي: الشيخ أحمد يقول لي: هذا شيخك، فما أراني إلا شيخَه، قال: فرفع الشيخ رأسه أو قال كلمني فلم أجد شيئًا أقوله، فقال: قد نَبُلَ الكلام من قوس القِيَمِ، فقلت: هو ذلك يا سيدي، فقال: عرفت رسول الله ﷺ؟ فقلت: لا، فقال رُحْ إلى بيت المقدس حتى تعرف رسول الله ﷺ وتعال.

قال: فرحت إلى بيت المقدس، فحين وضعت رجلي وإذا بالسماء والأرض

والعرش والكرسي مملوءة برسول الله ﷺ فقلت: أرجع إلى شيخي ولا حاجة لي ببيت المقدس، قال فرجعت إلى الشيخ، فقال لي: عرفت رسول الله؟ قلت: نعم، فقال: الآن كَمُلت طريقك، وقال: تروَّح يا ولدي، لم يكن الأقطاب أقطابا والأوتاد أوتادا والأولياء أولياء إلا بمعرفة رسول الله ﷺ .

وذكر الشيخ صفي الدين -رحمه الله تعالى- هذه الحكاية في كتابه، وذكرها الشيخ مسعود بن أبي المنصور في رسالته، وذكر مَن صحبه من المشايخ من أصحاب الشيخ أبي الفتح الواسطي، وذكر عنهم الغرائب والعجائب.

وذكر صحبته للشيخ عبد السلام القليبي[١] أحد أصحاب الشيخ أبي الفتح الواسطي، وأنه سكن في القاهرة في مكان غير معروف والخادم دخل له وقال: الشيخ عبد السلام على الباب، قال: فأذن له فدخل، فقال له الشيخ صفي الدين: كيف عرفت هذا المكان؟ فقال له: عندك نار؟ قال: فأحضرت حِمل حطب وجلفًا وأشعلناه في القاعة، ودخل الشيخ عبد السلام ووقف في النار إلى أن طفيت قال فاعتنقته فوجدته مثل الثلج.

السَّادة الأكابر

وذكر عن أصحاب الشيخ أبي الفتح كرامات، وحكى لي الشيخ عبد العزيز: إنَّا كنا نجلس بين يدي الشيخ أبي الفتح الواسطي وهو يتكلم وبين يديه من الأكابر جمع كثير -ربما ذكر لي سبعين رجلاً - يرد عليهم أحوال يتكلمون بكلام ويقول الشيخ: هذا الكلام له خمسة آلاف سنة ما تكلم به ثم ينشد:

غرستُ غُروسًا رُمْتُ أَجنِي ثمارَها فلاَ ذَنبَ لي أنْ حُفظَتْ ثمراتها

---

(١) هو الشيخ عبد السلام القليبي، صوفي شرفه شامخ، وعارف طوده راسخ، معدود من الأعيان، متميز على الأقران، أخذ عن العارف الرفاعي وغيره.

ومن كراماته أنه كان يعبر من بحر أبيار على حجر إذا فقد المعدية. وكان ينزل بثيابه تحت الماء، فيمشي في قعر البحر إلى البر الآخر فلا تبتل ثيابه.

ومن كلامه: من لم يقرأ كتب الشريعة والخلاف العالي من المذاهب، لا يُقتدي به في الطريق.

انظر: المنهل الصافي (٧/٢٦٢)، والكواكب (٥٢٥)، وكرامات الأولياء (٢/٦٩).

وجئــتم سَــعايا للمعــاني طوالعًــا ذروهــا لتِســعَى للمَعــالي ســعاتُها

فكان يقول عن أولئك الأكابر: أنهم حنظلوا.

ومنهم: الشيخ عبد الله البلتاجي(١) والشيخ عبد السلام القليبي، والشيخ عبد الله الجبلي، والشيخ عبد الله بن حماد، والشيخ حسن الطندباي(٢)، والشيخ ضرغام(٣)، وساداتٌ لا أحصي عددَهم؛ لأنَّ دائرته واسعة، والذي صحبوه لا يُحْصون في كل مكان.

فسبحان مَن مَنَّ عليهم بهذا العطاء لأجله، كان أخذه عن ذلك الإمام الجامع سيدي أحمد بن الرفاعي(٤) الذي تقصر الألسن عن وصف ما أعطاه الله تعالى وما كان

---

(١) هو تلميذ سيدنا الرفاعي، أصله عجمي، ثم انتقل إلى بلدة بلتاج، فاستوطنها.
كان إمامًا في العلوم النقلية والكشفية، صاحب تصرف كبير، ونفس طاهرة، وهمة علية، وكان من ابتداء أمره عن الدنيا بمعزل، وإذا ضربت له سرادقها، لا يعرج عليها ولا ينزل.
وله كرامات منها أن الشيخ يوسف العجمي زاره، فضاعت حمارته، فقال له: حمارتي وإلا والله ما أزورك بعد اليوم، فطلع من القبر، وأتاه بها من البرية، وقال: إذا زرتنا قيّد حمارتك.
ومن كلامه: لا يبلغ الرجل رتبة الكلام حتى يعلم جميع شرائع الأنبياء، ثم يستخرجها من القرآن.
وقال: كل فقير له فراش للنوم، فهو والبهائم سواء.
وقال: من أكل من طعام الناس، اسودّ قلبه، ولا يفي عمله بجلائه، فالصادق الجازم من أكل من عمل يده. وانظر: طبقات الأولياء (٤٨٦)، طبقات السبكي (٨/٢١٣)، طبقات الشعراني (١/٢٠٢)، الكواكب (٥١٦).
(٢) هكذا في الأصل: وفي غير هذا الموضع: طنبدي.
(٣) له ذكر في الكواكب الدرية (٢/٢٥٣).
(٤) هو الشيخ الزاهد الكبير، أحد الأولياء المشاهير أبو العباس الرفاعي المغربي، شريف يمني، روض شرفه، وهما على العالم غيث سلفه، كان سيدًا جليلاً، صوفيًا عظيمًا نبيلاً، قدم أبوه إلى العراق، وسكن بأم عبيدة، بأرض البطائح وولد بها صاحب الترجمة سنة خمسمائة، ونشأ بها وتفقه على مذهب الشافعي ﷺ وكتب كتابه التنبيه ثم تصوف فجاهد نفسه حتى قهرها، وأعرض عما في أيدي الخليفة وأقبل على اشتغاله بالحقيقة.
وقد قال: التصوف الأخذ بالحقائق واليأس عما في أيدي الخلائق.
=

عليه من الأخلاق والصفات.

فمن ذلك ما ذكره أحمد بن عبد الرحمن بن يعقوب بن كرار في كتابه عن الثقاة، ومنهم ما رواه الشيخ صالح عمر الفارقي- -رحمه الله تعالى-- قال: كنت أنا ويعقوب بن كرار، قال: كنَّا ذات يوم جالسين بين يدي سيدي أحمد، فجرى حديث الأمم، فقلت: أي سيدي، ذكر بعض المفسرين أن الأممَ كلَّها ثمانون ألفَ أمةٍ فقال: أي ولدي صدقت، ذلك مبلغهم من العلم، أي ولدي، إنما هي ثمانمائة ألف أمة تأكل وتشرب وتروث وتنكح، لا يكون الرجل رجلاً حتى يعرفهم ويعرف كلامَهم وصفاتهم وقيامهم وأسماءهم وأرزاقهم.

وقال: أي يعقوب وأزيدك، ولا تستقر نطفة في فرج أنثى إلا ينظر ذلك الرجل إليها، قال له الشيخ يعقوب: أي شيخنا، هذا رب آخر، قال له سيدي أحمد قدس الله تعالى روحه: تأدَّب واستغفر الله تعالى العظيم فيما قلت، قال: أي سيدي، ألا كيف هذا الأمر العظيم؟ فقال: أي يعقوب، إنّ الله تعالى إذا أحب عبدًا صرفه في جميع ملكِه وأطلعه على علوم الغيب، فقال يعقوب: نريد لهذا دليلاً، فقال له سيدي أحمد: اعلم أي يعقوب أن الدليل قوله ﷺ عن ربه تعالى:

«**أنا جليس من ذكرني ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به**[1]» فإذا كان الله تعالى مع العبد كما يريد، صار صفةً من صفات الحق تعالى، ثم قال: أي يعقوب سبق لهم قوله تعالى: ﴿**يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ**﴾ [المائدة: ٥٤].

=

ومهر واشتهر وانتهت إليه الرياسة في علوم القوم وكشف شكل منازلاتهم، تخرج به خلق كثير وأحسنوا فيه الاعتقاد.

قال ابن خلكان وغيره: وهم الطائفة الرفاعية، ويقال لهم: الأحمدية والبطائحية، ولهم أحوال عجيبة في أكل الحيّات حيّة، والنزول إلى تنانير وهي تضرم نارًا، والدخول إلى الأفرنة ونيام أحدهم في جانب الفرن والخباز يخبز في الجانب الآخر، ويوقد لهم النار والعظيمة، ويقام السماع فيرقصون عليها بألحان فتنطفئ، ويركبون الأسود.

(١) سبق تخريجه.

فانظر رحمك الله تعالى إلى هذا العلم وهذا الكشف وهذه الإحاطة التي يستحيل أن يصل إليها أحد إلا بالله تعالى فيرى به ويسمع، كما أورد الدليل في ذلك، وأمثاله تحار العقول، هذا مع كونه قد ظهر بصفة الذل الذي ما رأى أحد قط أذل منه.

ومما رواه يعقوب بن كرار، وكان من كبار أصحابه، وكان صَحِبَ سيدي الشيخ منصور -قدس الله تعالى روحه ونوّر ضريحه-[١] وكان يراعي أوقات الصلاة والأذان سنينًا كثيرة، ما فاتته يومًا واحدًا تكبيرة الإحرام مع الجماعة أو في جماعة قال: كان أحد الأيام وقت الظهر وأنا قائم في المئذنة إذ نادى سيدي أحمد: أي يعقوب، فقلت: لبيك، فقال لي: انزل من أجل الله تعالى.

قال: فنزلت، وهو جالس في محرابه، وفوق يده ذرة أقلّ من البعوضة، لا يُعرف لها عضو، وهي خفية.

فقال لي: أي يعقوب، انظر إلى هذه البعوضة وضعف جلدها وخلقها وهوانها، فتأملتها، فقلت: أي سيدي ما أراد الله تعالى من هذه حتى خلقها؟ وإيش الحكمة في خلقها؟ فقال: أي يعقوب، تأدَّب، إن الله تعالى أراد بخلقها قوة الصنعة، وهي حكمة

---

(١) هو الشيخ منصور البطائحي، صوفي نير الوجه حسن الأخلاق، ذو سيرة سارت فعطرت بأريجها أرجاء الآفاق.

قال الشيخ الرفاعي: كان من أكابر الأولياء، وأرباب الأحوال. أخذ عن خلق، وانتفع به كثيرون.

ومن كلامه: من عرف الدنيا زهد فيها، ومن عرف الله آثر رضاه على هواه، ومن لم يعرف نفسه فهو في أعظم غرور. وقال صاحب الانتصار: كان مقامه الشَّريف مدثورًا فرأته امرأة في المنام يأمرها باستخراج قبره الشَّريف وتكرَّرَت الرؤيا، فحدَّثت المرأة أباها فحفر المكان، فظهر فيه قبر عليه صندوق وفيه مكتوب اسمه فوضع فوقه قبَّة، وبنى له مشهدًا ومسجدًا، وأرادوا أن يحفروا له بئرًا فرأته في المنام، فأخبرها بمحل بئره القديمة، فحفروا فظهرت لهم البئر، وبقي محلّه الشَّريف مزارًا يقصده الكبار والصِّغار، يتبرّكون به ويرون بركاته، وقد جرّب إلا من زاره وتوسَّل إلى الله به في قضاء حاجته تُقضى سريعًا ﷺ ونفعنا ببركاته آمين، هذا والله أعلم. وانظر في ترجمته: طبقات الشعراني (١/١٣٤)، والمعزى للتادلي (٣٩٣)، وبهجة الأسرار (ص٢٦٥)، وقلائد الجواهر (ص٣٦٣)، والانتصار للأولياء الأخيار (ص٥٦٥)، والكواكب (٥٧٤)، خمستهم .

بالغة.

أي يعقوب، إن قال لك قائل إن الله تعالى خلق مخلوقًا أضعف جلدًا من هذه وأذلُّ منها. سوى حُميدة. فلا تصدق، يعني نفسه رضي الله عنه.

وفي قوله صار صفة من صفات الحق لعله أراد بخُلُق العبد كما أورد أبو طالب **«تخلّقوا بأخلاق الله تعالى**[1]**»** أي الاتصاف، أي بخلق العبد واتصف لأن الحق تعالى هو الكريم الحق حقيقةً، والعبد مندوب إلى الكرم، وكذلك الحلم والعفة والصفح والعطاء وترك المؤاخذة.

أمَّا كونه يسمع بالله تعالى ويبصر بالله تعالى لعلّه أراد بذلك استيلاء صفات الحق على صفات العبد حتى يمحى آثارَها؛ فإنَّ الحادث لا بقاء له مع القديم، فإذا استوى الحق على عبده ذهب ما من العبد وبقي ما من الله تعالى، فيبقى كالفخارة في ابتداء اليسارة لا حراك له من حيث نفسه، وإنما حراكه بما يحركه ولا اختيار ولا إرادة ولا علم ولا عمل:

﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً**﴾ [الأعراف:١٤٣].

فالعبد في هذه الحالة سطحًا لموارد الإرادات ولقاءً لمواقع الأقدار، فما رأى بنفسه ولا أبصر بنفسه ولا علم بنفسه ولا عمل بنفسه، وإنما هو بربه تبارك وتعالى.

وإن كان كل عبد في نفس الأمر كذلك كمثل هذا العبد؛ لأن هذا في محل التخصيص، ليس له من حيث نفسه إرادةً وعملاً وعلمًا وسمعًا وبصرًا، وإن كان يعلم أن ذلك من الله تعالى، لكنه علم كعلمه بوجود بغداد وما عداها من البلاد، وأخبار الناس وغيرها التي لا تقوم في نفسه مقام الوجدان ولا الذوق، كالعلم بمرارة الصبر من غير ذوقٍ فليس الذائق للصبر، كالمتكلم به، من حيث علمه بالسماعِ ولا الذائق لحلاوة

---

(١) ذكره المناوي في التعاريف (١/٥٦٤)، وسيدي علي وفا في مفتاح السور (ص١٤٩)، وفي المسامع قائلاً: وجود إمام هداك هو ربك وإلهك وسيدك ومولاك، فالقائل: «تخلَّقوا بأخلاق ربكم»، يريد تخلَّقوا بأخلاق وجودي، ولما كان من أخلاقه أن تغلب رحمته غضبه، وأن يفرح بتوبة من تاب إليه، ويشكر على القيام بما علمه وبيَّنه، ومكَّن منه، وعلى التودُّد إليه ببعض ما مَنَّ به، ونحو هذا وصف الله بذلك لعباده؛ ليتخلقوا فيتحققوا بوداده.

العسل كالعالم به من حيث السماعِ أو الرؤيةِ، ولا العالم بالنار أو المسمِّي لها كالذي تحرقه النار، وهو في أَلَمِها.

فلو كان ذلك كذلك لكان كل من قال النار أو سمّاها احترق فمه، أو مَن قال: السكرُ استغنى عن شربه وكذلك الماء والطعام، وكان الجائع يقول ما يختار من الطعام فيشبع ويستغني به، بل يجدون في أنفسهم أنَّ لهم أفعالاً وأعمالاً وأقوالاً وأحوالاً، وينسبون ذلك لأنفسهم ويطلبون الجزاء على ذلك من ربهم!

ومن المخلوقين إذا أجري على أيديهم نفعَهم، وكذلك إذا فعلوا شيئًا وإذا صدر من غيرهم في حقهم كلام مؤلم أو أذى نسبوا ذلك الفعل لمن صدر منه، وعاقبوه عليه، وفعلوا به أكثر مِن فعله.

وإن علموا أنَّ الله تعالى هو الذي قدَّره وأراده وأجراه على يده فلا يقوم ذلك في نفوسهم مقام الذوق والوجدان، ولا يرجعون إلى ذلك، وإن كانوا يجعلونه حجةً لأنفسهم، إذا بدا منهم نقيصة أو معصية نسبوها إلى الله تعالى بالإرادة والتقدير، وخرجوا عن الوصف الذي طلبوه من غيرهم بالمؤاخذة فينسبون لله تعالى ما يبدو من أنفسهم من النقائص، ويجعلون ذلك حجة لهم، وينسبون إلى غيرهم ما يجريه الله تعالى على أيديهم ويؤاخذونهم، وهذا غاية الظلم، ولذلك قامت صفة العدل ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا**﴾ [الشورى: ٤٠].

لو كانوا كالمخصوصين الذين يرون بالله تعالى، ويسمعون بالله تعالى، ويغيبون عن صفات نفوسهم بشهود الفعال فيهم لم يجرِ على جوارحهم ما يخالف الحق، ولكانوا كما وردَ: «**به يسمعون، وبه يبصرون، وبه يعلمون**(١)» فسبحان من خصَّص أولياءه بمحبته واختارهم لحضرته، ومعرفته وآتاهم من فضله ما لا تصل إليه العلوم والفهوم ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَتُحْصُوهَا**﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ولقد أخبرني فقير عن فقير سأل سيدي أحمد -قدس الله تعالى روحه- وكان مريدًا له، فقال: يا سيدي أنت القطب، فقال له: نزّه شيخك عن القطبية، فقال له: يا

(١) تقدم تخريجه بنحوه.

سيدي أنت الغوث، فقال له: نزّه شيخك عن الغوثية.

وهذا دليل على أنه تعدى المقامات والأطوار وفات الليل والنهار، ولا القطبية ولا الغوثية مقام معلوم، ومن كان مع الله تعالى وبالله تعالى، فلا يُعلم له مقام، وإن كان له في كل مقام مقام، هذا مع ذلِّه وما وصفَ به نفسه وما ظهر به وما كان يُؤْذَي فلا يجازِي إلا بالإحسان ويظهر الذل والمسكنة.

ومما حكاه أو رواه الشيخ سعيد وكان من أصحاب سيدي أحمد -رضي الله تعالى عنهما- وكان صاحب قدم ومجاهدة عظيمة، قال: أخبرني سيدي أحمد -قدس الله تعالى روحه- في ليلة من الليالي بعد العشاء الآخرة، وسار قدامي ومشيت خلفه، حتى وصلنا إلى بستان بدوره، فلما وصلنا إلى ذلك الموضع- وكان مكان عال به شيء يتصل به- فقال لي: أي ولدي، قف هنا حتى أرجع إليك، قال: فوقفت، ثم مضى سيدي أحمد يسبغ الوضوء، وبقي زمانًا كبيرًا، وعجزت عن انتظاره، فتقدمت لأكشف خبره فلم أجده، وإنَّما وجدت ثيابه ملقاة على وجه الأرض بلا جسد، ووجدت هناك ماء قليل ملقى على وجه الأرض..

قال: فانتُزِع باطني وطار لُبي وارتعدت فرائصي، ورجعت إلى موضعي وأنا مرعوب من ذلك، فبقيت ساعةً زمانيةً متفكرًا في حاله، وإذا به قد أقبل، فلما وصل عندي سبقتني العَبرةُ وبكيتُ، وقلت له: أي سيدي، فُزِعتُ عليك لأجل عاقتك، فرحت أبصرك فلم أجدك، ووجدت ثيابك ملقاةً على الأرض ولا جسد فيها ولا حولها أحد، ووجدت عندها قليلَ ماءٍ يضيءُ.

فقال لي لما سمع كلامي: أي ولدي، صدقت، فقلت له: أي سيدي، أقسمتُ عليك بالعزيز سبحانه وتعالى، و سيدي محمد المصطفى ﷺ وبالشيخ قدس الله تعالى روحه، إلا ما أخبرتني أين كنت؟ وأي شيء ذلك الماء الذي أبصرته؟

فقال لي: أي ولدي، وما الذي أحوجك إلى هذا؟ أي ولدي سعيد، اكتم عني حتى أخبرك، فقلت: نعم، فقال: أنا ذلك الماء الذي رأيته، أي ولدي، نظر إليَّ العزيز سبحانه نظرةً بعين القهر فذبت وصرت كما رأيتني كذوبان الرصاص، ثم بعد ذلك نظر إليّ بعين الرحمة واللطف فصيّرني بكرمه بشرًا سويًا، أي سعيد، وحق العزيز سبحانه

وتعالى لولا نظر إليّ بعين الرحمة لما رجعت إليكم أبدًا.

وقد صنّف الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن يعقوب كتابًا في صفات سيدي الشيخ أحمد- قدس الله تعالى روحه- فيه العجائب والغرائب، وصفاته كثيرة، وإنَّما اقتصرنا وقصرنا عن الكلام فيه؛ لأنَّ المقصود مَنْ هو الآن موجود، أو مَنْ هو في زماننا مِمَّن رأيناه ومات، أو مَنْ هو حي، أو مَنْ بلغنا عمَّنْ كان قبله لئلاَّ تتعدى المسافة، وإن كان الراوي لنا عن الشيخ أبي الفتح الشيخ عبد العزيز، والشيخ أبو الفتح، مريد سيدي أحمد رضي الله عنه فليس الوقت ببعيد.

ومما رواه أحد الفقراء أنه كان في مجلس سيدي أبي محمد بن عبد البصري -قدس الله تعالى روحه ونوّر ضريحه-[١] وسمع الشيخ يقول: إنّ لله تعالى خمسمائة ألف اسم، قال: فأسرَّها الفقير في نفسه إلى أن وصل إلى سيدي أحمد، فحدثه بما سمع من الشيخ أبي محمد، فقال: أي ولدي، صدق الشيخ أبو محمد بن عبد البصري، ذلك مبلغه من العلم، أي ولدي، إنّ للحقِّ سبحانه وتعالى، بعدد جميع ما خلق من الأمم كلها، هل تعلم كم هي؟

ونبات الأرض وأشجارها وورقها وثمارها وأزهارها، له بعدد كل شيء منها، حتى القميص إذا تمزّق صار لكل خيط لسان يسبّح الله تعالى، حتى الطيور تسبّح الله تعالى على اختلاف اللغات والأصوات على عدد أجناسها وأصواتها، فهل تعلم أي ولدي كم هي؟

ثم إنّ الطير الواحد من الأجناس يسبّح الله تعالى بلسانٍ واحدٍ، فإذا مات وفارق ريشُه جسدَه صار من كل ريشة لسان يسبّح الله تعالى، فهل تعلم كم هي؟

حتى الملائكة لكل منهم لسان أو عشرون أو مائة لسان أو ألف لسان يسبح الله تعالى بها باختلاف اللغات فهل تعلم كم هي؟

---

(١) كان من أعيان العراق والعلماء العارفين والأجلاء المقربين صاحب الكرامات الظاهرة والأحوال الباهرة، تخرج بصحبته جماعة من أهل الأحوال وقالوا بإرادته، وكان العلماء والمشايخ يعظمونه ويبجلونه ويحترمونه ويرجعون إلى قوله، صحب الشيخ عبد القادر.. وانظر: قلائد الجواهر للتاذفي (ص٣٣٨)، وخلاصة المفاخر لليافعي (ص٩٧)، .

فقال له الفقير: أي سيدي نريد لذلك دليلاً فقال: أي ولدي، الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً**﴾ [الإسراء: ٤٤].

وحكى الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عن فقير كان صَحِبَ الشيخ حسن الطندباي، والشيخ من أصحاب سيدي أبي الفتح الواسطي، قال: كان الشتاء وكنت صحبةَ الشيخ، فدخلنا في مكان أو مخزن وقفل علينا وكان الشيخ عليه ثوب واحدٌ والبرد شديد، والشيخ جالس مستندًا إلى حائط أو ركن وكان عليّ ثوبان جديدان، عملتهما لي أمي، وكان أحدهما أجدُّ من الآخر، فقلت في نفسي أدفع للشيخ الثوب الواحد، فلم أسمح إلا بالذي هو دون الجديد.

فخلعته إلى أن وصل إلى رأسي فلم تسمح نفسي به، فرجعت أدخلته في عنقي ولبسته ورقدت.

فلما كان الصبح قمت فلم أجده -يعني الثوب- والباب مقفول والشيخ جالس على حالته قال: فقمت واستغفرت الله تعالى، فقال الشيخ: ما بالك؟ فقلت: يا سيدي، أنا أستغفر الله تعالى، فمسك أذني وفركها وقال: لا ترجع تنوي نيةً وترجع عنها فقلت: يا سيدي أين الثوب؟ فقال: أعدمه الله تعالى.

ومما حكاه الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- قال: أخبرني عمرو المجنون وكان من أصحاب الشيخ أبي الفتح،قال: كنت واقفًا أسكب الماء على الشيخ عبد الله البلتاجي وهو يتوضأ، وإذا بشخص طائر في الهواء، فقلت له: ما أقل أدبكْ! تطير على رأس البلتاجي؟ قال الشيخ: ما بالك يا عمرو؟ فقلت: شخص قليل العقل طائر في الهواء، فرفع رأسه ونظر إليه.

فلمّا كان بعد أيام، قال لي الشيخ: يا عمرو قلت: لبيك قال: رُحْ إلى المحلة فإنّ الطنبعا واليها، وذلك الشخص الذي رأيته طائرًا في الهواء قد صار رقّاصًا بين يديه، قال عمرو: فرحت إلى المحلّة لأجده واقفًا مشدودَ الوسط والعصا بيده فقلت له: إيش هذا وإيش ذلك؟ فقال لي: سَمَعُكُم يا فقراء، قلت له: لا والله، بل أسأت أدبَك على أولياء الله تعالى.

من مناقب الشيخ عبد العزيز المنوفي

وذكرُ مناقب الشيخ لا يكاد ينحصر وإنما أذكر منها ما يحضرني مما سمعته أو رأيته، وقد ذكر الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور -رحمه الله تعالى- عنهم في اجتماعه بهم العجائب والغرائب، وذكر الشيخ عبد العزيز في طول صحبته لسيدي الشيخ أبي الفتح وبعد وفاته عنهم الغرائب والعجائب، وذكر عن غيرهم فإنّه أسنَّ وعمَّر، -رحمه الله تعالى-.

الشيخ محمد المكشوف

ومِمَّا ذكره عن الشيخ محمد المِكشوف ذكر أنّه كان مبسوطًا كثير الخلاعة ومع ذلك كان له باطنٌ عجيبٌ وأحوال خارقة، أخبر عنه الشيخ عبد العزيز أنَّ فقيرًا أخذ عكاز الشيخ محمد المكشوف فبحث به من نخلة من نخلة وسخًا، فقال له: الشيخ محمد أنت تسيء عليّ الأدب، ما أظنك إلا تعمى.

قال الشيخ عبد العزيز: فعمي ذلك الفقير، ولقد رأيته مرةً مع العميان الذين يطلبون لله تعالى فليس، فقلت للشيخ محمد: إيش هذا؟ -أو كلمة هذا معناها من حيث فعله مع ذلك الفقير- فقال: إيش لي في هذا؟ فليت ذلك الفقير عمي وبقي عليه فقره، بل انسلخ من ذلك وبقي من جملة المكذبين.

فنسأل الله تعالى العافية وحسن السابقة والخاتمة والأدب مع أوليائه وكل من ينسب إليه بمحمد وآله وصحبه ﷺ.

وحكى لي الشيخ عبد العزيز عن الشيخ محمد المكشوف أيضًا قال: كانت لي حاجة ونحن على ساحل البحر نتوضأ لصلاة الجمعة، وكانت في ذلك البرّ

-وربما قال: كنا بالمحلة؛ فإنّه كان يذكره في المحلة- فقلت للشيخ محمد عنها، على أنه إذا صلى الجمعة أو بعد ذلك قال: فأنا أكلمه، والتفت لأجده من ذلك الجانب وصار البحر بيني وبينه!

فبينما أنا أصلي الجمعة وإذا أنا أنظره إلى جانبي وأخرج إلي الحاجة من كمّه! هذا

مع كونه كان له بسطٌ عجيبٌ، لا يعتقد مَن يراه أو يشهد ذلك منه أنه من هذا القبيل أصلاً.

ومِمَّا حكاه لي الشيخ عبد العزيز قال ورد كاشف إلى المحلة، وحصل للناس من ذلك شدة عظيمة، فقال الشيخ محمد: تعطوني شيئًا -وربما ذكر عشرةَ دنانير أو شيئًا غاب عني- وأنا أخلّي لكم هذا الكاشف يروح، فقالوا: نعم.

فدخل الشيخ محمد المكشوف إلى مجلس الكاشف وعنده الوالي -وربما قال: الحاكم والناظر وغير ذلك- والمجلس حفل، فمشى الشيخ محمد المكشوف إلى أن وصل إلى الكاشف وصفعه صفعةً عظيمةً وربما أطار عمامته، فقالوا: امسكوه، افعلوا به، ووقعت ضجة فقال الكاشف: والله ما يكلم هذا أحد، هذه القضية معمولة.. ورمى خيامه وسافر من ساعته.

فانظر إلى هذه الأحوال الغريبة هذا، مع كونه كان يبدو منه من البسط الذي لا يزال الكلام فيه، وإنَّما مقاصدنا في التشويق إلى سلوك هذا الطريق والأدب مع أهلها وحسن الظن بهم والخوف ممَّا يظهر عنهم في الظاهر من بسط أو غيره، وتعتقد أنت أنَّه مثل حالك في بسطك، فقد يكون ذلك تسترًا عن حاله أو تجريًا لظاهره.

فمن بسطه ما ذكره الشيخ عبد العزيز أنّ والده تزوج امرأةً غير أمه، وكان يراعي حق والده فيما يجوز له فعله، وكانت والدته تغار كعادة النساء، فيبقى الشيخ محمد المكشوف يعمل على راحة والده في محبته لزوجته، فيما يعطيها ويريد تمشية الحال، فاطّلعت والدته على ذلك فعزَّ عليها، فجعل الشيخ محمد يسليها بأنواع من البسط، حتى قال شيئًا لوالدته -ونحن نكنّي عنه- بأن قال لها: تعالي نقيس العضو بالعضو، وأيهما كان أكبر تُعطى صاحبته على قدره، فاستحيت أمه وما رجعت تتكلم في ذلك.

ومما حكاه الشيخ عبد العزيز عن الشيخ محمد المكشوف أيضًا من البسط أنّه كان زرع زرعًا، وكان لقاضي البلد بغلةٌ يُطلقها تنزل ترعى زرع الشيخ محمد فيطردها، وتعود كلّ وقت، وعجز عن منعها، فاجتمع بالقاضي وقال له عن أمر البغلة وقال له: احفظها، وإلا فإني إذا رأيت زوجتك تروح إلى الحمام، أحملها وأمسكها وأدخلها بيتي ويقول الناس ما يقولوا.

فقال له القاضي: لا تفعل، وأقسم عليه، وما رجعت البغلة تصل إلى زرعه بعد

ذلك.

فانظر يا أخي -رحمك الله تعالى- إلى هذه الحالة الظاهرة وتلك الحالات الباطنة، فلزوم الأدب مع هؤلاء القوم في جميع حركاتهم وسكناتهم وبسطهم وقبضهم ويقظتهم ومنامهم وموتهم وحياتهم وسماعهم ورقصهم وبعدهم وقربهم وسفرهم وحضورهم وغيبتهم وشهودهم من أعظم الواجبات؛ إذ ذلك هو الأدب مع الله تعالى، لأن أدبك مع النبي والولي هو حقيقة أدبك مع الله تعالى، مع شهود من يُفعل الأدب منه.

وأدبُك مع الله تعالى من غير رؤية نبيه أو وليه أو من ينسب إليه أدب عَبْر، يرفعُ الوسائطَ والحجب القلبية بالكلية، وذلك لا يستمر على الدوام إلا للأفراد والخواص، بقوة الحضور والمراقبة في الشهود.

ومتى يكون العبد على ذلك في كلّ أحواله؟ فلو غفل في ذلك المقام عن ملاحظة الأدب سقط، بل لو انفرد بذلك الحال ولم يشهد الأدب بما شرعه الله تعالى في أنبيائه ورسله ومن اختصّه من خلقه لكان ذلك نقصًا بالنسبة إلى كمال الشهود للأدب في الحالين، فالآن الكمال في شهود الأدب ظاهر وباطن، وأن يكون ذلك وصفًا لازمًا وذوقًا وجدانيًا فيه حتى يكون قوله وفعله واحدًا، وقد سبق القول لتحقّقه بالأصل، وقد سبق الفعلُ القولَ لكونه ترجمانًا عنه ودليلاً عليه، وقد يكونان قولاً وفعلاً في وقت وفي حال واحدٍ.. فافهم ذلك.

أوصاف المتصوفة

فمن اتصاف هذه الطائفة في أقوالهم وأفعالهم وسماعهم وكلامهم وأخلاقهم ما حكاه الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- قال: كنّا في سماعٍ، فغنّي البيتَ المشهور:

وكان هذا قابلاً في محبَّتكِم سعيًا على الرأسِ لا سعيًا على القدمِ

قال: فصاح فقير وانقلب، وجعل رأسه عوضًا عن قدميه، وجعل يدق بها الأرض، ويرقص ورجلاه في الهواء عوضًا عن رأسه..

وقد قلت:

أسْـعَى بجفْـنِي وعَيـنِي في محبَّـتِكم واجعـلُ الـرأسَ مـنِّي موضـعَ القـدمِ
ولسْتُ أُنصفُ فيما قد أتيتُ به لأنَّـني بكـم الموجـودُ مـن عـدمِ
إنِّي أشـحُّ علـى عيـني بـرؤيتِكم والشحُّ عندي بكُم من أعظمِ الكرمِ

فانظر يا أخي رحمك الله تعالى، إلى هذه الحالة وهذا الاتّصاف.

ومن ذلك ما حدثني به الصاحب فخر الدين بن الخليلي، والأمير نجم الدين بن الواسطي، عن الشيخ عمر بن عبد الحميد قال: كنّا في –بلبيس- في سماع، وكان الشيخ عمر جالسًا إلى جانبي، فقرأ قارئ قول الله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ**﴾ [آل عمران:١٨٥].

وقام السُّمَّاعُ والشيخ جالس، فحركناه فوجدناه قد مات.

وحكى لي هذه أيضًا الشيخ عبد العزيز، وزاد عليه أنه قام وتوضأ وجلس فمات، وأنهم حفروا له في أماكن كثيرة فينطبق القبر ولا يثبت، حتى حفروا له في مكان بستان كان للصاحب بهاء الدين فثبت القبر، فسيروا إلى الصاحب يستشيرونه في ذلك، فأخرج الصاحب خط الشيخ أنه يدفن عنده.

وكان سبب ذلك ما حكاه لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- لأنَّ الشيخ عمر كان يمشي في حوائج المسلمين كثيرًا، وأنَّه حضر إلى الصاحب في حاجةٍ فقال له الصاحب: ما أقدر أقضيها لك حتى أشاور السلطان، فقال: إن عاهدتني على أنك تدفن عندي قضيتها ولا أشاور، فعاهده وأعطاه خطه بذلك.

وكان الصاحب له قصد جميل ومحبة للفقراء ودفن في تربته جماعة من الصالحين، وإنَّما ذكرنا هذه الحكاية للاتصاف بسماع القول فحين سمع قوله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ** ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقع الاتّصاف له بذلك.

ومن مات في السماع كما حكى لي فقير بمدينة قوص يسمّى أحمد السراج الإسكندرانيّ وقد قلت:

بقـاءُ نفْسـي في يـومِ النَّـوى عجـبٌ لأنَّ مـوتي مـن بعـضِ الـذي يجِـبُ
ومـا بقيـتُ ونفسـي لَسـتُ أملِكُهـا ولـيس لِي في حيـاتِي بعـدَهم إربُ

ومـدَّعي الحـبِّ قبـلَ المـوتِ مـتهمٌ دعـــواه إن لم يمـــتْ في حبِّـــه كـــذبُ

وأعرف جماعة ممن تقدم من الفقراء ماتوا في السماع والمواعظ يطول ذكرهم، وإنما قصدنا أهل زماننا.

والاتصاف بالأقوال والأفعال من عوالم البرازخ والدار الأخروية، وكلُّ ما هو خرق عادة هنا هو هناك عادة، والذي يقوي الدليل للولاية، ومَن تخرق العادة على يده، لأنَّ خرق العادة من أحوال أهل الجنة، لأنها عادتهم في مآكلهم ومشاربهم ومناكحم وشهواتهم، حتى أنّ الشخص منهم يخطر له الخطرة في الشهوات، فحين تخطر له يجدها عنده من غير كلفة.

وكذلك سمعهم وبصرهم؛ إذ يشهد كل واحد منهم جميع المستحسنات على اختلاف أنواعها وأجناسها بحسب ما أعطاه الله تعالى من الرتبة في تلك الدار، والتذاذه بشهوده لتلك المستحسنات بتلك النظرة، ويعقبها النظرة الثانية: الاستحقاقة بزيادة على النظرة الأولى:، والأولى: باقية في الاستحسان واللذة والنظرة الأولى: باقية، وترد النظرة الثالثة: بزيادة على الثانية:، ولذة النظرة الثانية: والاستحسان باقٍ، هكذا إلى ما لا نهاية له.

وكذلك الشمُّ كلَّما نشق رائحةً وردت عليه رائحةٌ أطيب منها، فالأولى: باقية والثانية: واردة، والثانية: باقية والثالثة: واردة، وهكذا إلى ما لا نهاية له.

وكذلك لذّة السّماع في طيب النغمات والألحان وحسن الأصوات، كلّما تنعم بسماع تلك النغمات والأصوات ورد عليه ما هو أطيب منها والأولى: باقية إلى ما لا نهاية له.

وكذلك لذة النكاح، كلّما تنعم بلذة من المنكوحات المستحسنات على أطيب اللذات، ورد عليه ما هو أطيب من الأولى: والأولى: باقية إلى ما لا نهاية له.

وكذلك في جميع الحواس الباطنة والظاهرة، مثل الجوارح والجوانح الحسيّات والمعنويّات الكليات والجزئيات إلى ما لا نهاية له.

وهكذا حال أهل الجنان نعَّمنا الله تعالى وإيَّاكم في دار كرامته ومحل رضوانه وأمانه في مقعد صدقه وجنات عدنه وعوالمه الباقية كيف شاء إنه أكرم الأكرمين.

وبالعكس منه أحوال أهل النيران، أعاذنا الله تعالى وإيَّاكم من عذابه في كل الأحوال ومع كل الأحوال وعلى كل الأحوال، فإنَّه متى تألَّم من عذابٍ ورد عليه ما هو أشدُّ منه، والأول :باقٍ على ما تقدم من ذلك المثال الأول.

فأحوال أهل الدارين أحوالُ اتّصاف، فحيث تسمع أو ترى أو تشم تجد ذلك، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿**سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ**﴾ [الأنعام:١٣٩].

محبة الصّحابة

ومما رأيته في الرؤيا أنَّني كنت أعرف شخصًا-وكان رجلاً عالمِا وعاملاً ومتواضعًا- ومات، فرأيته بعد موته في المنام، فقلت له: ما فعل الله تعالى بك؟ فسكت، فألححت عليه في السؤال وقلت له: لا بد وأن تخبرني فقال: لقيت منه وحائش. فحين قال ذلك اسودَّ من فَرْقِهِ إلى قَدمِهِ، واتّصف بصفة قوله، وقام زبانيٌّ وقف مقابلَه، فحصل عندي من ذلك شيء!.

وقلت: أليس دين الإسلام حقٌّ ونحن على الحق؟.

فقال: نعم فقلت له: فما صيَّرك أو أصابك حتى جرى لك ذلك؟ فسكت، فقلت للزبانيِّ: ازجرْهُ حتى يخبرني بحقيقة حاله، -وكان زبانيًا قصيرًا، فإنَّ فيهم قصارًا وطوالاً بحسب صفات الأعمال- فنظر إليه الزبانيُّ نظرةً فتعذَّبَ بنظرة الزبانيِّ إليه، وعاد لسان حاله أفصح من لسان مقاله، ففهمت منه ما فهمت.

فقلت له: لعلك إنما أتيت بخلاف السنة في المعتقدات، وورد عليَّ عوالمُ المعتقدات، ولم أفهم منه غير التقديم في خلاف السّنة في الصحابة، وكان من بلد ينسب إليها الرفض، ولا فهمت غير التقديم.

فحين وجدت ذلك منه انتُزعت الرحمة عليه من قلبي، وصار عوضها اللذة بعذابه، كما يلتذ قاتل الحية والعقرب بقتلها، فقلت لذلك الزبانيّ: خذه ورُح به إلى مالك وقل له: يعذبه؛ فإن بيني وبينه صحبة. فأخذه ومضى به إلى جهنم، وأنا أنظر إليه.

وإنَّما ذكرنا هذه الحكاية عن عوالم البرزخ لمعرفة الاتّصاف وأنّه من عوالم تلك العالم التي لا يقع فيه الارتياب لقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ**

غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

وفيها فائدة وهي اتّباع السُّنةَ في محبةِ أصحابِ رسول الله ﷺ وتقديم من قدَّمه رسول الله ﷺ وألاّ يرى في أحد منهم نقصًا، أعاذنا الله تعالى وإيّاكم من عذابه.

وأخذ يحكي لي الشيخ محب الدين أحمد الطبري -رحمه الله تعالى- شيخ الحرمين الشريفين ومفتي البلد الحرام قال: كنا عند أبي نمى صاحب مكة، وعنده ابن أبي حسنة شيخ اليزيديين، فقال لي الشريف: يا شيخ محب الدين قلت: لبيك قال: بأي طريق قدمتم أبا بكر على عليّ مع غزارة علمه وقرابته من رسول الله ﷺ؟ قلت له: يا مولاي السيد، ما لنا في هذا شيء عن جدك رسول الله ﷺ قال: «**اقفلوا وأغلقوا عنّي كلَّ خوخة في المسجد إلا خوخة أبي بكر**[١]».

وقال ﷺ: «**مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس**[٢]».

وقرأت هذا الحديث أنا وهذا الشيخ -يعني ابن أبي حسنة- على شيخ واحد، وقبض رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ فقال الصحابة: مَن رضيه رسول الله ﷺ لديننا رضيناه لدنيانا.

قال: إيهٍ، فعمر؟ قلت: وما لنا في الآخر شيء؛ فإنَّ أبا بكر عند وفاته اختاره للمسلمين.

قال: إيهٍ، فعثمان؟ قلت: وما لنا في الآخر شيء؛ فإنَّ عمر رضي الله عنه جعلها شورى في الستة من أصحاب رسول الله ﷺ الذين مات عنهم راضٍ ﷺ فقدَّم عثمان.

قال: إيهٍ، فمعاوية؟ فقال ابن أبي حسنة: كأبي بكر يا شيخ محب الدين، تقول مجتهد أي والله مجتهد وما ترضى أن أقول مجتهد، قال الشريف: إيهٍ، ومجتهد، فإذا وقع القتال تقاتل مع مَن؟ قلت: مع عليّ فقال: جزاك الله خيرًا.

فانظر لهذا الكلام من هذا الرجل العالم الذي لا يخرج عن التبعية من غير ميل ولا حيف ولا اختيار من نفسه فنحن نحبُّ الله تعالى ونحبُّ رسول الله ﷺ ونحبُّ الصحابة بحبِّ رسول الله ﷺ ولا نفرق بين أحد منهم ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من المحبِّين لهم والتابعين لسبيلهم والمهتدين بهداهم والتابعين لسنن نبيه ﷺ ونعوذ بالله تعالى من الزيغ

(١) رواه البخاري (١/١٧٨)، ومسلم (٤/١٨٥٤).
(٢) رواه البخاري (١/٢٤٠)، ومسلم (١/٣١٣).

والابتداء إنّه أكرم الأكرمين.

وأخبرني الشيخ محب الدين الطبري -رحمه الله تعالى- عن شمس الدين صواب المكي قال: كان شيخُ الخدام بمدينة رسول الله ﷺ رجلاً صالحًا قال: كان لي عند الأمير صاحب المدينة من يطلعني على أمسّ حاجتي إليه أوما أحتاج إليه، فلمّا كان ذات يوم وهو قد أتى، فأخبرني أن أناسًا جاءوا وأعطوا الأمير دنانير على أن يمكّنهم من إخراج أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، من حجرة رسول الله ﷺ قال: فتألمت لذلك تألْمًّا شديدًا قال: فبينما أنا كذلك، وإذا الأمير أرسل طلبني، فمضيت إليه فقال لي: يا صواب فقلت: لبيك قال لي: تجيء إليك الليلة أقوام بعد العشاء الآخرة إلى الحرم، فمكّنهم مما يريدونه فقلت: السمع والطاعة، وخرجت من عنده، وجئت إلى الحرم، وقعدت أبكي طول نهاري لا تجف لي دمعة من خلف الحجرة الشريفة إلى الليل.

فلمَّا كان الليل وغلِّقت الأبواب إلا وقد جاء القوم فطرقوا الباب ففتحت لهم، فدخلوا وأنا أعدُّهم واحدًا واحدًا، أربعين نفسًا، ومعهم المساحي والمكاتل وآلة الحفر والشموع، قال: فوالله ما وصلوا الروضة الشريفة إلا والأرض خسفت بهم وابتلعتهم عن آخرهم، فلمَّا أصبحنا وطلع النهار طلبني الأمير وقال: ما فعل ضيوفك؟ وما فعل القوم؟ فقلت له: إن الأرض خسفت بهم عن آخرهم وقم فانظر، هل ترى لهم أثرًا؟ فقال: هذا موضع الحديث، وإن ظهر كان برأسك، فأمسكت عن ذلك.. ولعله إنما ذكر ذلك بعد موت الأمير.

ومما نقله الشيخ محبُّ الدين عن الشيخ عمر بن الراغب وعن إبراهيم السئولي عن الشيخ عمر بن الراغب قال: كنت بالمدينة -أو قال: كان فقير بالمدينة- فجاءني فقراء الشيعة أيامَ الموسم، وقد خرجوا إلى قُبة العباس، فقال لي الفقراء: نشْتَهي أن تطلب لنا شيئًا لأجل أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما، وألزموني بذلك، قال: فخرجت -أو قال: خرج الفقير، وتارَة يقول: خرج الفقير وتارَة فخرجت- فجئت القبة وهم مجتمعون وقلت: قد ورد فقراء، وهم يطلبون شيئًا لأجل أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما.

فقام منهم شيخ فقال: اجلس، فجلست حتى فرغوا فقال لي: قم فقمت ومشيت معه إلى أن أتى إلى علوّ، فأطلعني ذلك العلوَّ وأغلق الباب.

وإذا عبدان أسودان فمسكاني وضرباني ضربًا شديدًا وقطعا لساني، فقال لي: ادعُ أبا بكر وعمر يخلصانك، وحملوني وطرحوني على الطريق، وقد توهموا موتي.

قال: وجاء السَّحر، فوجدت فيّ رمقًا، فقمت ودخلت على رسول الله ﷺ وشكوت له حالي، قال: فأخذتني سِنَةٌ، فرأيت رسول الله ﷺ -فربَّما قال: أُتِيَ بطشت- فغسل وجهي، ووضع رسول الله ﷺ لساني في فمي، فاستيقظت ووجدت لساني قد عاد إليَّ ولم يبقَ فيّ ألم.

فكان يروي تارَة عن نفسه فيقول: قال الفقير وتارةً غير ذلك، فلما كان في السنة الآتية جاء الفقراء الذين جاءوا تلك السنة، وأثقلوا على الفقير حتى قام وخرج معهم إلى قُبّة العباس، فقال: هؤلاء الفقراء يسألون شيئًا لأجل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقام شاب فقال: اجلس، فجلس الفقير إلى أن قضوا وظيفتهم، ثم قام وتبعه الفقير حتى وصل العلوَّ بعينه. قال: فأخذتني منه هيبةٌ وخفت ثم طلعت، فلمَّا قعدت أمر بحويجة طعام فأحضرها وقال: كُل، فبقيت آكل وهو يلتفت إليَّ وقال: أتاني في العام الماضي شخص كهيئتك وأظنك هو فقلت له: أنا هو، فقال لي: أخبرني كيف كان؟ - أو قال كلام يقتضي ذلك- فعرَّفته وقلت له: فما فعل أبوك؟ فقال: الله يعلم أنه طلع مع أمنا وقعد على فراشها، وإذا هو قد صرخ صرخةً عظيمةً وتحول خنزيرًا من ساعته، فأشعنا أنه مات وذبحنا كبشًا وكفَّناه ودفنَّاه وتبنا إلى الله تعالى من مذهبهم، ونحن على مذهبكم، وهذه والدتي، أشتهي أن تسمع كلامها.

فقلت: أعفني من ذلك، فقال: لابد أن تسمع الحكاية منها من وراء الستارة.

قال: فأحضرها فأخبرت كما أخبر، وأخرج أباه من خزانة وفي رقبته سلسلة وهو في صورة خنزير وهو يبكي.

فانظر يا أخي إلى هذه الحكاية ما أثرها والتي قبلها.

حكايات أخرى

وذكر أيضًا حكايات أخرى سكتُّ عنها لبعد عهدها، وإنما ذلك ما أخبر به الشيخ محبُّ الدين عمَّن رآه وأخبر عنه.

ومن العجائب كيف خصَّ الله تعالى من مسخه بصفة الخنازير والقردة؟

وبلغني أنَّ الله تعالى مسخ أقوامًا حجارة، وكذلك أموالهم وثمراتهم، وأخبرني مَن رأى بعض ذلك وربما ذلك معنى طمس الأموال.

وقد حكى لي الشيخ عمر البغدادي -رحمه الله تعالى- عن الشيخ سراج الدين ابن قاضي عيذاب قال: دخلت عليه وعنده فقير وربما كان عندهما شيء يأكلانه فقال لي: تعالَ كل مع هذا الفقير وهذا الرجل الصالح، فأكلت معه، فلمّا قام قال لي: هذا الذي قُطِعَ لسانُه وردَّه عليه رسول الله ﷺ.

وغاب عني هل حكى الحكاية بطولها كما حكاها الشيخ محب الدين أو لا؟

وحكى الشيخ محب الدين -رحمه الله تعالى- عن مؤذنٍ بمكةَ قال: كان لي على رجل من أهل السواد دَين، فجئت إليه أتقاضاه، فذكر عنده أبو بكر وعمر، رضي الله تعالى عنهما، فشتَمهما شتمًا قبيحًا، فرجعت مغتمًا.

فلمَّا كان الليل نمت فرأيت رسول الله ﷺ فقال: كنت عند فلان وجرى منه كيت وكيت قلت: نعم قال: اذهب فادعُه قال: فذهبت فدعَوته فقال: أضجعه فضجعته، ثم ناولني رسول الله ﷺ شفرةً وقال: اذبحه فذبحته. فاستيقظت والدم يجري على كفي.

فلمّا أصبحت قلت لأغدون لأبصر ما صُنع به، فلما صرتُ بالقرب من داره وإذا بالصراخ عليه فقلت ما هذا؟ قالوا فلان أتاه الذَّبَحَةُ البارحة فذبحوه، فلم ندرِ مَن ذبحه.

فأتيت ولده فقلت: أنا والله ذبحت أباكم بإذن رسول الله ﷺ -وربما قال: ذكرت لهم القصة- فأخذوا عليَّ العهود والمواثيق ألاّ أسمّي أباهم لأحدٍ، فلم أستطع أن أسمّيَه.

وحكى حكايات غيرها مسندة بما هو أكثر من ذلك يطول شرحها، وإنما نحن نقتصر على أهل زماننا.

وحكى لي الشريف شرف الدين محمد الكلثمي عن عمّه فخر الشرف أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام والسيد أبا بكر والسيد عمر، وبين يديه شخص يسمى ابن منير فقال رسول الله ﷺ: ما جزاء من يقع في هذين الشيخين؟ فقال السيد علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يُجَزُّ عنقه قال: فجزَّ عنقه ثم قال لي: خذه، فمسكت أذنه وأخذت رأسه.

فاستيقظت فوجدت الرأس معي، فجعلتها تحت طشت، وجئت لولده فقلت له:

تعرف أباك؟ فقال: نعم، فأطلعته، فنظر الرأس فقال لي: أبي جاء خفيةً وأنت قتلته فقلت له: أنا رأيت كذا وكذا -وكان أبوه ببغداد- فقال: تروح معي إلى بغداد ونكشف ما القضية؟

فسافرت معه من مصر إلى بغداد، فسأل عن والده فقيل له: والدك قتله غلامه، وقد ضُرب ضربًا شديدًا ولم يقر، فقال لهم: أي وقت قتل؟ فقيل له: في الليلة الفلانية. فكان في الليلة التي رأى الشريف فيها الرؤيا، وكانوا إذ ذاك بمصر المحروسة.

أكمل أحوال المحبة والإخاء

وحكى لي الشيخ عبد العزيز بما رواه أنَّ أعرابيًا أتى السيد عليَّ بن أبي طالب ﵁ فقال له: أظَلَمَك أحدٌ يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا، فلما ولَّى الإعرابيُّ قال: ردّوه فردّوه فقال: تعني أبا بكر وعمر؟ فقال: نعم قال: أعرَّفتهما؟ فقال: لا فقال: أنا لو عرَّفتَهما ضربتُ عنقك ثم قال: اعلم أنّ الله تعالى قال في كتابه العزيز: ﴿**وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ**﴾ [هود:١١٣].

وقد ركن رسول الله ﷺ إلى السيد أبي بكر ﵁ وتزوَّج بابنته، ولو كان ظالِمًا لما ركن إليه رسول الله ﷺ وركن رسول الله ﷺ إلى السيد عمر ﵁ وتزوّج بابنته، ولو كان ظالِمًا لما ركن إليه رسول الله ﷺ وركن رسول الله ﷺ إلى السيد عثمان بن عفان وزوّجه بابنته، ولو كان ظالِمًا لما ركن إليه رسول الله ﷺ وركن رسول الله ﷺ إليَّ وزوّجني بابنته، ولو كنتُ ظالِمًا لما ركن إليّ رسول الله ﷺ.

فقد كانوا -رضوان الله تعالى عليهم- على أكملِ الأحوالِ في التودد والمحبة والإخاء فيما بينهم، والتعاون على البر والتقوى، واجتماعهم على نبيهم ﷺ يدًا واحدةً وكلمةً واحدةً.

فما بال المبتدعة والكذبة وعصبة الشيطان وأهل الأهواء المضلّة والفضوليّة، والدخول بين أصحاب النبي ﷺ في تقديم ولا تأخير ولا تسوية ولا تفضيل؟ ومن أين لهم ذلك؟ حتى أوبقوا أنفسهم في المهالك.

أعاذنا الله تعالى وإياكم من المخالفة للسنة المحمدية.

ولقد كانوا -رضي الله تعالى عنهم- إخوانًا وأخدانًا في ذات الله تعالى، وقد آخى

رسول الله ﷺ بينهم وترك عليًا لنفسه(١).

وقصة سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف مشهورة، وكونه عرض عليه نصف ماله وإحدى زوجاته أن يطلقها له فيتزوجها(٢).

وقد ذكر الله تعالى الإخاء في كتابه العزيز فقال: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ [الحجرات:١٠] هذا مع شقاق الأنساب.

وقال تعالى: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٠١] فرفع حكم أنساب الآباء والأمهات وبقي نسب الإيمان، وورد: «**اليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي**(٣)» ولذلك يفلح من يثقل ميزانَه إيمانُه ويخسر من خفت ميزانه وفرق أيضًا سبحانه بين الآباء والأبناء لعدم الإيمان فقال الله تعالى في حق ولد نوح ﵇: ﴿**قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**﴾ [هود:٤٦].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُداًّ**﴾ [مريم:٩٦]. والجعل من الله تعالى لا يرتفع.

وقد قلت:

قومٌ على ألفةِ الإيمانِ قد جُبِلُوا ... فكلُّهم لهم أهلٌ وأحبابُ

لا يرْغَبُون بمال عن محبتِهم ... كلا ولا مُلكٍ بينهم وأسبابُ

قد بايعُوا خيرَ خلقِ اللهِ كلِّهم ... وتابعُوه فهم في الحقِّ أصحابُ

وهم نجومُ هدى للسائرين بها ... وهم إلى اللهِ للقصَّادِ أبوابُ

---

(١) وروى ما يدل على ذلك الحاكم في المستدرك (٣/١٥)، «عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: لما ورد رسول الله ﷺ المدينة آخى بين أصحابه فجاء علي رضي الله عنه تدمع عيناه، فقال: يا رسول الله آخيت بين أصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد فقال رسول الله ﷺ يا علي: أنت أخي في الدنيا والآخرة».

(٢) رواه البخاري (٢/٧٢٢).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/٥٠٣).

ولقد سمعت من هذه اللطيفة الشريفة في المؤاخاة في الله تعالى ورأيت من بعض ذلك عجائب، فكيف بأصحاب رسول الله ﷺ؟

وفي قوله تعالى: ﴿**إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ**﴾ [الحجر: ٤٧] كفاية.

وإن كان ذلك في الدار الآخرة فمنشأه من هذه الدار؛ فهي دار الأعمال، والآخرة دار الجزاء، ولأن الإخاء كان في علم الله تعالى وفي خلق الأرواح قبل الأجسام، وكونها كان فيها متقابلٌ ومتدابرٌ والتعارف الذي ورد في «**الأرواح أجناد الله مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**[1]».

وهذه الحكاية موجودة بالاستقراء ذوقًا.

أحوال المحَبَّةِ

فإن المحبة تنشأ عن ثلاثة أحوال:

- فمنها ما هو **كسبيٌّ بسببٍ**، كالإحسان والمؤانسة والملاطفة للشخص، والذبُّ عنه والقيام بوظائفه وحاجاته واتّباع مقاصده، وفعل ما يرضيه، فتنشأ من ذلك محبةٌ له، فإذا زال ذلك زالت تلك المحبة بزوال سببها، ومن أحبَّك لشيء قلاك عند انقضائه.

- و**محبة إلقائية** قال الله تعالى: ﴿**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي**﴾ [طه: ٣٩].

وهذه لا يعقل سببُها؛ لأنَّها إلقاء من الله تعالى كما أخبر تعالى عن السيد موسى عليه السلام ﴿**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي**﴾[طه: ٣٩].

وأنت تجد ذلك ذوقًا، فإنَّك ترى شخصًا ولم يتقدم لك منه إحسان ولا رأيته قبل ذلك فتجد نفسك تحبُّه وتميل إليه، حتى أنك تتآلف به وتفشي إليه سرَّك الذي تصونه عن أمك وأبيك، وحتى يبقى منك بمنزلةِ الروح من الجسدِ فهذه محبةٌ إلقائية، وبالعكس منه، ترى شخصًا ما أساء إليك قطُّ ولا أبصرته غير تلك الساعة فتنفر عنه وتبغضه حتى لا تقدر أن تستقر بالمكان الذي هو فيه، وهذا مستقر موجود كثير.

فالمحبة الإلقائية من الله تعالى لا يتقدَّمها سبب؛ لأنَّها ليست محتاجة إلى

---

(١) رواه البخاري (١٢١٣/٣)، ومسلم (٢٠٣١/٤)، وأحمد في مسنده (٥٣٩/٢)

الأسباب، والإقبال الذي تجده عند رؤية من لا أحسن إليك ولم تره إلا تلك الساعة والمحبة القائمة بك له والائتلاف به، فمن النِّسب المعنوية والأنْسَاب الوجدانية كما قال الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى-:

بَيــني وبينَــك في الحقيقــةِ نســبةٌ ... فيهــا هنــا أرواحُنــا تتــآلفُ

والســرُّ في هــذا التــآلفِ أنَّهــا ... كانــت بســينِ سمُوِّهــا تتعــرَّف

وقد قال الشيخ السيد عمر بن الفارض رضي الله عنه(١):

(١) هو العارف بالله تعالى سلطان العاشقين سيدي عمر بن أبي علي بن مرشد بن علي، الحموي الأصل، المصري المولد والدار والوفاة، ولد سنة ستٍّ وخمسين أو ستين وخمسمائة، نشأ تحت كنف أبيه، في عفافٍ وصيانةٍ وعبادةٍ وديانةٍ، بل زهدٍ وقناعةٍ وورعٍ، فلمَّا شبَّ وترعرع اشتغل بفقه الشافعية، وأخذ الحديث عن الحافظ ابن عساكر وعن الحافظ المنذري وغيره، ثم حُبِبَ إليه الخلاء، وسلوك طريق القوم، فتزهَّد وتجرَّد، وصار يأوي إلى الجبل الثاني :من المقطم، والمساجد المهجورة مرة، ثم يعود إلى والده، فيقيم عنده مرة، فيشتاق للتجرد فيعود إلى الجبل، وهكذا حتى ألف الوحش وألفه الوحش، فكان لا يفرُّ منه، ومع ذلك لم يُفتح عليه بشيءٍ، حتى أخبره شيخه الشيخ أبو الحسن على البقال أنه إنما يفتح عليه في مكة شرَّفها الله، فخرج فورًا في غير أشهر الحج، ولم تزل الكعبة أمامه حتى دخلها، وانقطع بوادٍ بينه وبين مكة عشر ليالٍ، ففُتح عليه فصار يذهب من ذلك الوادي إلى مكة، فيصلِّي بها الخمس ويعود إلى محله من يومه، وأنشأ غالب نظمه حالتئذٍ، وأقام على ذلك نحو خمسة عشر عامًا، ثم رجع إلى مصر، فأقام بقاعة الخطابة بالجامع الأزهر، وعكف عليه الأئمة، وقُصِدَ من العام والخاصِّ، حتى أن الملك الكامل كان ينزل لزيارته، وسأله أن يعمل له ضريحًا عند قبره، بالقبة التى بناها على ضريح الإمام الشافعي، فأبى، وكان رضي الله عنه جميلا نبيلا حسن الهيئة والملبس، فصيح العبارة، حسن الصحبة والعشرة، وذكر أنه رأى المصطفى صلى الله عليه وسلم في نومه، فقال: (إلى من تُنسب؟). فقال: يا رسول الله إلى بني سعد، قبيلة حليمة. فقال له صلى الله عليه وسلم: (بل نسبك متصلٌ بي). وكان له أحوالٌ كريمةٌ وكراماتٌ عظيمةٌ، ومن أجلِّها ديوانه الذي اعترف بحسنه الموافق والمخالف، سيَّما القصيدة التائية المسماة بـ(نظم السلوك).

وقد افترى على الشيخ رضي الله عنه وهناك من يدعى بالبقاعي، الذى ظهر أنه يعمل بعمل أهل الجنة، ولكن غلبت عليه شقوته، وسبق عليه الكتاب، فصار من أهل العذاب، المنسوب إليه التفسير المشهور، المسمَّى بنظم الدرر، والحق أنه ليس له، كما هو معلوم عند أهل العلم، فألف رسالةً، وإن شئت قلت ضلالةً في تكفير الشيخ، فقيَّد الله لهذا البقاعي الشيخ العالم الكامل أبو عبد الله محمد بن جمعه الحصكفي رضي الله عنه (توفي سنة ٨٩٥هـ) من جعله سيفًا لدينه، يذبُّ عنه سفاهة ذوى الأحلام، فألَّف =

نسبي أقربُ في شرعِ الهوى بيننا مِنْ أبويّ من نسبِ[١]

وقلت:

نسبي فِيكُمْ عَريقٌ مَا لَهُ قَبلَ آبائي وأجدادِي نسبُ

عدمٌ كنتُ فوجداني بِكم ليسَ مِن أمٍّ أنا مِنه وأبِ

عرفتْ رُوحي الأرواحَ بكم فهي في الحبِّ لذي المعنى نسبُ

فافْتِراقِي واجتماعِي في الهوى غيرَ ما بُعدٍ ولا قربٍ عجبُ

نسبةُ العبدِ لعبدِ عبدِكم قبلَ مَا كانَا وقدْ كانَا سببُ

فإنّ تعارف الأرواح هاهنا من تعارف الأرواح هناك، والتباين والتنافر من التباين والتنافرهناك.

- **محبة** ثالثة: وهي **ضرورية**، وسرُّها غامضٌ؛ إذ جذب المغناطيس للحديد لا يعقل معنًا، الميل إلى الصفات الجميلة وصورة الحسن لا تدرك حقيقته، فالجمال محبوب بالضرورة في أيِّ صورةٍ لاحَ وزهرٍ فاح، وطائرٍ ناحَ، أو صبٍّ باح، أو عاشقٍ صاح، أو محبوب طاح، أو مُوَلَّهٍ راحَ، أو سائحٍ ساح.

يظهر ذلك في حروف الكتابة وترسّل القرآن، وآيات القرآن، ونغمات الألحان،

=

هذا الشيخ الجليل الصالح كتابًا في الرد على ذاك الشقي أسمَّاه ((**ترياق الأفاعي في الرد على الخارجي البقاعي**))، وهو كتابٌ حافلٌ في الرد على ذاك الغافل، وإن شاء الله سينشر هذا الكتاب قريبًا، وكذلك أيضا الشيخ السيوطي فألف مقامةً أسماها ((**قمع المعارض في نصرة ابن الفارض**))، وقد دافع عن الشيخ وغيره من أكابر أئمة الأولياء الكثير من العلماء، وقد وقفنا على الكثير من تلك الكتب، والتى لا يزال أكثرها مخطوطٌ، والتي لو نشرت لما كان لهذا الجهل والتجرأ على أولياء الله وجودٌ، ولعلمنا حقيقة أن تلك العلوم والمعارف التي أظهرها القوم هي غاية هذا الدين الخاتم، وأنها مقصود الشرع الشريف، ولَعَلِمَ من أنكرها أو من لم يعرفها أنه ما عرف عن الدين وعن رسول الله ﷺ إلا اسمه، لا غير.

وانظر: وفيات الأعيان (٣/٤٥٤)، والشذرات (٥/١٤٩)، والكواكب الدرية (٥٤٤).

(١) البيت في ديوان سيدي ابن الفارض – قدس سره - (٩٤).

ومعاني الأشعار، وطلوع الأقمار، وتمايل الأشجار، وجريان الأنهار، ونسيم الأسحار، والدفوف واليراع في الأبصار والأسماع، والأجناس والأنواع، في المعقول والمحسوس، والمأكول والملبوس، والحركات والسكنات، والمحيا والممات.

يقوم ذلك بوجدان القلوب ،وتنشأ عنه أوصاف المحب والمحبوب، ويقوم وراء سائر الأسرار والغيوب.

فإن ظهر حسنُ صورةٍ في مثال أو رسم في صقال مرآة الخيال، شهر سيف الغرام وصال، وقطع المحبُّ الحبائل والعقال، وارتكب لذلك الشدائد والأهوال، وتردى من شواهق الجبال.

وكلُّ ذلك حجاب وستار على صورة الحسن والجمال، ومن وراء صفات معاني الجمال وحقائق الكمال والجلال، فكيف لو بدا له من صورة الحسن بارق؟ أو ألمَّ به من ذلك طارق؟ أو بدا من صفة الجمال مثالٌ؟ لأسرع إلى وجوده الاضمحلالُ وانعدمت تلك الرسوم والأطلال، فسبحان الملك المتعال، الذي يضرب للناس الأمثال ولا تُضرب له الأمثال.

لأنَّ الأمثال إنَّما تُضرب لمن له مثال، ومن لا له مثالٌ فهو يضربُ الأمثالَ ولا تضرب له الأمثال.

والإخوان الذين هم على سرر متقابلين، وإن لم يصح التقابل بصورة الأجسام في هذه الدار، والمفهوم من التقابل في الدار الآخرة، فالتقابل صحيح في معناه هاهنا؛ فإن الشوائب والحجب المانعة من التقابل في مرآة نفوس الإخوان متى زالت وقع التقابل في حقائق النفوس، وله مثال، وهو أنَّك إذا صقلت المرآة المحسوسة، وقابلت بها وجهك تجد عينك اليمين بعينها اليمين، وعينك الشمال بعينها الشمال، وكل عضو منك مقابلٌ للعضو المماثل له المرئي في المرآة.

هذا شيء لا تقدر على إنكاره فيك ورؤيتك له، فإذا قابلت الجسم للجسم بغير مرآة اختلفت الأعضاء، فتكون العين اليمين مقابلة للعين الشمال، والعين الشمال مقابلة للعين اليمين، وكل عضو يخالف العضو المقابل له.

وفي الدار الآخرة يصحُّ التقابل في المعنى والصورة المحسوسة،كرؤيتك صورتك في

المرآة، وهذه هي حقيقةُ التقابلات.

الغطاء يُكْشف في الدار الآخرة كشفًا كليًا ويكون الحكمُ الغالبُ لصورة المعاني والأرواح،فكما أنَّك ظاهر هنا بجسمك وباطن بروحك فهناك ظاهر بروحك وباطن بجسمك، وكما أنَّ الرُّوح والجسم هنا يشتركان في الأعمال والأقوال، فهناك كذلك يشتركان في النعيم أو الجحيم، وإنَّما كشف الغطاء في دار الحياة والبقاء يُعطي ظهور المعنى، فتكون القوة في الظهور لِما كان خفيًا حتى يصير حسًّا جليًّا، ويظهر الباطن ويبطن الظاهر، ويستويان في الحال، ويجتمع الماضي والاستقبال، وتعتدل البواطن والظواهر، وتجتمع الأوائل والأواخر، وترتفع الأغيار، وتظهر حياة الأطوار، ويضمحُّل الليل والنهار.

حَالُ الإخوَان

ولَمَّا كان للأولياء نصيبُ تحققٍ من تلك الدار ظهرت عليهم آثارها في هذه الدار، قال الله تعالى: ﴿**لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾ [يونس: ٦٤].

فمن ذلك ما يظهر على أيديهم وألسنتهم من الكرامات، وما يبدو لأبصارهم وأسماعهم من المخاطبات، وكلُّ ذلك وإن كان هنا خرقًا للعوائد فهو من تلك الدار عادة لهم في جميع أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم، فمن ذلك حال الإخوان.

حكى لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى-، أنّه كان حاضرًا مع الفقراء، وكان بينهم فقيران متآخيان في الله تعالى، أحدهما راحَ يغسلُ ثياب الفقراء وبقي الآخر حاضرًا.

فلمّا حضر الغداء جعل الفقراء يأكلون ويلقمون الفقير، فقال لهم: أمسكوا عني، فما بقي أخي يحتمل لقمةً واحدةً.

قال: فبينما نحن كذلك إذ دخل أخوه ومعه ثياب الفقراء، فالتفتَ إلى أخيه وقال له: لو أكلت لقمةً واحدةً قتلتني.. فانظر إلى هذا الحال.

وذُكر عنهما مرةً أخرى أنَّ أحدهما كان غائبًا والآخر حاضرًا، فشكا الحاضر ألَمًا في جنبه فقال: أبصروا أخى، فراحوا فوجدوه نائمًا وطوبة تحت جنبه.

والحكايات في هذا الباب كثيرة.

وأعجب من هذا أن الشيخ عبد العزيز ذكر أن فقيرًا جاء إلى جماعة فقراء مجتمعين في بيت وهم عشرة أنفس، فنزل عندهم، فبقوا أيامًا لم يفتح لهم بشيء، ثم أتاهم شيء فقسَموه نصفين، أعطوا للفقير النصف وأخذ العشرةُ النصفَ، قال الفقير: فقمت ووقفت في الاستغفار. فقالوا: ما بك؟ ومالك؟ فقلت: لأني دخلت عليكم ولست أهلاً للدخول عليكم. فقالوا: ولم ذلك؟ قال: لأنكم جعلتم لي نصفَ ما جاء لكم ولكم النصف، فلو كنت عندكم أهلاً أو فقيرًا من جملتكم أعطيتموني نصيبًا واحدًا بحسب القسمة، فقالوا: يا فقير، ليس كما زعمت، إنما نحن العشرة واحدٌ وأنت واحدٌ فقلت: وكيف ذلك؟ فقالوا: ادعُ لنا فاصدًا، فأحضروا الفاصد، فربط أذرع الجميع، ومدوا أيديهم وفصدوا واحدًا منهم فخرج الدم من أذرع الجميع.

فانظر رحمك الله تعالى إلى صدق هذه الأحوال مع الله تعالى، كيف ظهر أثرُها في الصورة الظاهرة؟

وأمَّا ما يتعاطونه فيما بينهم من المواساة فيما في أيديهم ومن يؤثر منهم على نفسه فكثير.

أخبرني الشيخ عبد العزيز أنَّ شيخًا من المشايخ كان له مريدان، أحدهما فقير والآخر غني، وكان أحدهما إذا طبخ في بيته شيئًا لا يأكل الآخر حتى يأتيه من بيت أخيه مما طبخوه، فاتفق أنَّ صغار الفقير جاعوا ليلةً، ولم يكن عندهم شيء، فعلّقوا القدر وجعلوا فيها الماء ليشغلوا الصغار حتى يناموا، فرأى الغنيُّ الدخان في بيت الفقير، فقعدوا ينتظرون الطعام حتى يأتيهم، فلم يأتهم شيء، فباتوا بلا عشاء، فلمَّا أصبح أخوه الغني أتى عند الشيخ وطالب أخاه الفقير وقال له: بتنا البارحةَ بلا عشاء ونحن ننتظر الطعام يأتي من بيتك فلم يأتنا شيء فقال له الشيخ: لم فعلت ذلك؟ فسكت الفقير، فألزمه الشيخ أن يقول السبب، فذكر السبب، فحلف أخوه الغنيُّ بالطلاق أن يقاسمه في جميع ما يملكه من كلِّ نوعٍ حتى قسَمَ النعلين.. هكذا كانت أحوالهم.

وقد رأيت جماعة، وذكرتُ بعضهم كالشيخ عبد الرحيم بن الشيخ مُفَرّج وغيره مِمَّن صحبته.

ولقد رأيت الشيخ جمال الدين ابن الشيخ مفرج[١]، وكنا بطريق الحجاز الشريف في طريق الشام، وكان الشيخ جمال الدين -رحمه الله تعالى- في سنِّ الثمانين أو دونها، وكان له رفيق عامي، فرأيت الشيخ يمشي ويركب رفيقه العامي، وكنت أتألَّم لذلك، وكان يخدمه ويملأ الماء ويقوم بوظائف السفر، فقلت له في ذلك فقال: هو ضعيف، وكان يحتمل مع ذلك الإساءة، ويلاطفه ولا يُؤْلِمه.

الشيخ ولي الدين الكردي

الشيخ ولي الدين بن الكردي، كان عظيم الشأن جليل الأحوال، جاء إلى مدينة قوص ونزل بمسجد بيرموق، واجتمع عليه جماعة أكابر من العلماء وغيرهم، منهم الشيخ شمس الدين العجمي الأصفهاني، وكان يومئذٍ قاضيًا بقوص.

ومنهم الإمام تقي الدين بن دقيق العيد قاضي القضاة بمصر والقاهرة، رحمهم الله تعالى.

ومنهم جلال الدين الدشنائي وكان من العلماء الصالحين.

ومنهم ناصر الدين بن عبد القوي الأُسواني صاحب الشيخ تاج الدين بن شعبان.

وفتح الدين بن الفقيه نصر وحصل لفتح الدين منه نصيبٌ كبيٌر أو فُتِح له على يديه، والشيخ كمال الدين بن عبد الظاهر وبدءُ طريقه كان على يده، والشيخ مفرج، وجماعة كثيرة انتفعوا به.

وكان ذِكرُهُ لا إله إلا الله يمدُّها، ثم الله الله يجهرُ بذلك، وهكذا كانوا يفعل الذين صحبوه، وسمعت القاضي شمس الدين يذكر بهذا الذكر والشيخ كمال الدين ابن عبد الظاهر.

وكان له كرامات وأحوال تشهدُ بما ذُكِرَ، منها أنَّه جاء إلى الباب وهو مقفول فدخل من شقوق الباب الذي ما يدخل منه إلا النملة اللطيفة، ثم جاء وقت الخروج ففتحوا له فخرج.

---

(١) يقصد الشيخ مفرج الدماميني.

وصَحِبَه أيضًا الشيخ مجد الدين بن الفقيه نصر، وحكى لي الشيخ ناصر الدين، -رحمه الله تعالى- عن فتح الدين بن الفقيه نصر أحوالاً جليلًة نالها على يد الشيخ ولي رضي الله عنه.

وقد كان فتح الدين معه شيء من الدنيا ولم يمنعه ذلك عن ما وصل إليه، وإنَّما يُخشى من الدنيا إذا كانت في القلب، أمَّا إذا كانت في اليد ولم تكن في القلب فلم يضر ذلك.

ومما أخبرني به ناصر الدين -رحمه الله تعالى- أنَّ فتح الدين قيل له: ما تريد؟ أو مما تخاف؟ فقال: ذنوبي فقيل: قد غفرناها لك وإنها مُحِيت.

وذكر لي عنه أمورًا عظيمًة لم تحضرني في هذا الوقت لبعد الزمان، وكان للشيخ وليّ أحوالٌ جليلةٌ؛ ولذلك صحبته العلماء.

الشيخ باد الكردي

ظهر من الأكراد جماعة منهم الشيخ باد الكردي كان جليل القدر مع أنَّه أميٌّ ولأنَّ سلامة الصدور وسخاوة النفوس، وعدم الحظوظ علامة صحيحة لمسارعة العطاء والفتح.

ذكر الشيخ عبد العزيز أنَّ باد الكردي نزل عند أمير من الأمراء الأكراد، فلمَّا أصبح وركب خرجت زوجةُ ذلك الأمير ومسكت مِقْوَدَ الدابة وقالت للشيخ: يا سيدي، أنا زوجة هذا الأمير الذي كنتَ عنده، وله زوجة غيري ولها منه أولادٌ وهي تعايرني وتقول لي كالْمُكرية: إذا مات لا تنالي إلا صداقك، وأنا أولاده مني أرثه وجميعَ ماله فقال لها: وما تريدين؟ قالت: أريد ولدًا فقال لها: هاتي حقَّه قال: فخلعت أو نزعت من يدها سِوارًا فقال لها: ما تحبلي بهذا إلا بنتًا فقالت: يا سيدي، وأنت تبيعُ الغلمان؟! قال: نعم فنزعت السِوارَ الثاني :فأعطاها الشيخ للخادم أو قال: أعطِهما للخادم، وكشف بادٌ رأسَه ووضع كوفيّته على إكاف دابته ورفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم يا ربّ، عبدك باد كردي ما يعرف شيئًا، يا ربّ اعطِ هذه المرأة ولدًا ذكرًا يكون في يده إصبعًا زائدةً، قال: فمرَّت المرأة وحملت، ولَمَّا تكامل الحمل ولدت ولدًا ذكرًا في يده ستةُ أصابعَ كما ذكر باد، فكان الناس يأتون من البلاد ليتبركوا بذلك الإصبع

لأجل دعوة باد.

الشيخ علي الكردي [١]

ومن الأكراد الشيخ علي الكردي صاحب الشيخ أبي الغيث، أخبرني الشيخ عبد العزيز عنه أنه دخل إلى عواجة، قرية من قرى اليمن، فنزل عند الفقراء من أصحاب شيخه، فأحضروا له لبنًا وخبزَ ذرة، فقال الشيخ علي لخادمه: أطعمه للكلاب، فقال الفقراء: يا شيخ علي، تُطعم طعامَنا للكلاب؟ ما هذا بالفقير؟ فقال لهم: أنا ما ذممت طعامكم، وأنتم أتيتموني به لأتصرَّف فيه فأطعمته خلقًا من خلق الله تعالى محتاجين إليه.

وكان هذا الشيخ على مدى الأيام يأكل الطيبات ويشم الروائح الطيبة ويلبس الناعم، وكان له حال جليل، والحقائق لا يُنظر فيها إلى التقشف ولا إلى التناعم، ولكن ينظر إلى المحل عند الله تعالى والاختصاص، فلم يزدد بذلك القول إلاّ أنَّهم كلّموه وآلموه فقال لهم: أنا هذا، ما هو طعامي، أنا رجل مدلل على ربي، فقالوا له: ما هكذا كانت الفقراء؟ وكلموه على عادة من لا يعرف هذا المقام، فغضب وقال: يا عواجة احترقي، فطلعت النار وأحرقت البلد، وما نجا الناس إلا بالخروج منها.

وقيل أنَّه خرج فجأةً فقيرٌ بدويٌّ من أصحاب شيخِه، فعزم عليه وأتى له بشيءٍ يوافقه وجلس يغني له فقال: هذه عادتي مع الله تعالى، ثم قال له:

أنا وصلت إلى قلبي يدٌ وما يصل إلى قلبي إلا يد الشيخ أبي الغيث، لعل الفقراء راحوا إليه، أقوم ألحق رِمَّتي، فقام وجاء إلى الشيخ فوجد الفقراء عند الشيخ فقال له الشيخ: هكذا تصريفك؟ وتحرق بلاد الفقراء؟ فاستغفر الله تعالى، ووقف في الاستغفار، فقام الفقراء وقالوا: يا سيدي، نحن نريد أن يكون باطنه طيبًا علينا.

---

(١) قال الشيخ المناوي: هو إمام رقته وزمانه، فريد عصره لا يوصل إلى مكانه، ذا رتبة جل قدرها، ومنزلة سار بالرفعة ذكرها، كان ظاهر الوله يتحكم في أهل دمشق وله عندهم صولة.

وله كرامات كثيرة ووقائع بينهم شهيرة.

وانظر: مرآة الزمان (٨/٦٣٨)، وروض الرياحين (٤٨٠)، والكواكب (٤٣٣).

ثم إنّ الشيخ علي جاء إلى زبيد وبنى بها زاوية على عادتهم يعملوها أخصاصًا أو غردًا، فجاء والى البلد، فوجد الشيخ غائبًا، فقلع الزاوية ونصبها في مكان آخر، فجاء الشيخ علي فلم يجد الزاوية، فحصل عنده غضب، وتوجه إلى دار الولاية فلم يجد الوالي، فقعد ينتظره. فحضر الوالي وهو راكبٌ فقال: كأنَّ الشيخ عليَّ مغضبٌ؟ قال: نعم، قال: إنّ الزاوية ضيّقت الطريق، والسلطان راكب يضيق الطريق عليه، أو كلام هذا معناه، فقال الشيخ علي: أنتم فيكم جرأة، وتعتقدون أنَّ البلاد لكم، فقال له الوالي: البلاد للسلطان، فقال له الشيخ علي: البلاد للفقراء فقال: اشهدوا عليه أنَّه قال: البلاد للفقراء وما هي للسلطان وأنا أكتب للسلطان بذلك، فقال الشيخ علي: وما أخلّيك تكتب، فمسكوا له الرِّكاب لينزل، فقال الشيخ علي: يا فرسَ ربِّي خذيه ورُوحي فأخذته الفرس وراحتْ، وبقي الناس متفكّرين ولم يعلموا أين توجهت به.

وكتبوا إلى السلطان بذلك، فأرسل إلى واحد من آخر البلد فولاّه، ولم يتكلّم وكان الشيخ أبو الغيث في ذلك الوقت يعيش، فقال الشيخ أبو الغيث بعد ثلاثة للفقراء: يا فقراء، كأني بكم تقولون أين راحت الفرس؟ قالوا: نعم فقال: وعزةِ ربِّي ﷻ حين قال هذا الفقير: يا فرسَ ربِّي خذيه ورُوحي ما وقفت به إلا خلف جبل قاف بين قوم لا يعلمون أنَّ الله تعالى خلق آدم ولا إبليس. ثم قال الشيخ أبو الغيث للشيخ علي: يا شيخ علي، أنت لك عند الله تعالى جاه قال: فإن كنت مريدَ نفسِك فقد عرَّفتَكَ أنَّ جاهك عند الله عظيم وإن كنت مريدي فاقعدْ عندي حتى تموت، فأنت قليل الشفقة على خلق الله تعالى، فقال له: أنا مريدك، وقعد عنده حتى مات، ودفن تحت رجليه، رضي الله تعالى عنهما أجمعين.

الشيخ أبو العباس المرسي[١]

---

(١) هو الإمام العارف بالله تعالى الكبير، والسيد الكامل البحر المنير العزيز، قطب الرجاء شمس الضحى، مُوزن الطريقة، نور أهل الحقيقة، صاحب الدوائر الكبرى والخلافة العظمى القطب الغوث الفرد الجامع سيدي: أبو العباس المرسي روَّح الله روحه، وأوقر في حظائر القدس فتوحه، كان هو الخليفة من بعد موت الشيخ أبي الحسن. وانظر: «تعطير الأنفاس في مناقب سيدي أبي الحسن والمرسي أبي العباس» لأبي الصلاح الوفائي ().

=

ومنهم الشيخ أبو العباس المرسي صاحب الشيخ أبي الحسن الشاذلي كبير الشأن عجيب الأحوال والمعرفة، جاء إلى مدينة قوص وأقام بالمدرسة الغربية التي على ساحل مدينة قوص، وكانت رباطًا قبل ذلك، واجتمع عليه جمع كثير وحصل للفقراء به نفع كبير، وسلك على يده جماعة من الفقراء المغاربة وغيرهم، -رحمه الله تعالى-.

واجتمعتُ به في بيت الشيخ ناصر الدين بمدينة قوص دفعةً واحدةً وجدت بها خيرًا كثيرًا، وذلك أنَّ الشيخ جلال الدين -رحمه الله تعالى- قال لي: ادخلْ معي عند الشيخ أبي العباس، قلت له: ما كل وقت يُدخل على الفقراء فيه فألزمني أو حلف على في الدخول معه، فدخلت لأجد الشيخ جالسًا القرفصاء وعليه الحال وعيناه حمراوتان وأسنانه تطقطق ولحيته تلعب على صدره، فلم أسلِّم ولم أتكلّم، لأنَّه لا يليق بذلك الوقت في أحوال القوم، وتباعدت وجلست عنه بعيدًا، فمشى الشيخ جلال الدين -رحمه الله تعالى- إلى القرب منه، وجلس بعدما سلَّم فقال الشيخ -رحمه الله تعالى-: بالله الذي لا إله إلا هو ما يكرهوا من الفقراء إلا خصلتين:

الأولى: يكفّرون الحلاج.

والثانية: يحكمون بموت السيد الخضر عليه السلام إيش تقول أنت؟ يقول للشيخ جلال الدين.

فقال له الشيخ جلال الدين: يا سيدي، الناس مختلفون في موت الخضر عليه السلام فمنهم من يقول بموته ويستدل عليه بقوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥].

ومنهم من يقول بحياته، ويستدل بأنه عزَّى في رسول الله ﷺ فقال الشيخ: رأيت ابن أبي شامة[١] - إمّا قال في المنام أو في اليقظة - فصافحني وقال لي: هكذا

=

وقد أفرد البرهان الأبناسي لترجمته كتابًا حافلا سماه «تلخيص الكوكب المنير في مناقب الشيخ أبي العباس البصير».

(١) لعله الشيخ: أبو بكر بن أبي شامة الجعبري المقرئ المؤذن، كان مستحضرا للخلاف في القراءات أدرك الكمال الضرير وشاهده وقرأ بمصر في حياته القراءات على الشيخ عبد الهادي خطيب المقياس وغيره. وقرأ عليه بالروايات بهاء الدين محمد بن علي والجمال يوسف بن المبيض والفخر إسماعيل بن الشيخ ابراهيم الصوفي وله شعر حسن وفيه دين وتواضع.

=

صافحت الخضر ﷺ وقال لي: هكذا صافحت النبي ﷺ.

وقال: من دعاء السيد الخضر ﷺ: اللهم ارحم أمة سيدنا محمد، اللهم اغفر لأمة سيدنا محمد، اللهم أصلح أمة سيدنا محمد، اللهم اءْجُر أمة سيدنا محمد ﷺ. ومَنْ قالهن كان مِنَ الأبدال.

قال: فاستيقظت وأتيت إلى الشيخ أبي الحسن - أو قال أتيت الشيخ- فوجدته يقرأ بين يديه هذا الدعاء المذكور.

فلمّا كان بعد ذلك كنت بالسوق، فرأيت ثلاثةً، فخطر لي أن أحدهم الخضر ﷺ فأتيت الشيخ فرفع رأسه وقال: أحمد قلت: لبيك قال: رأيت الثلاثة؟ قلت: نعم فقال: الذي خطر لك هو.

قال: ثم بعد ذلك كنت أرفع ذرَّ فأسي وإذا بالخضر ﷺ قد دخل على وعرّفني بنفسه واكتسبت منه معرفة أرواح المؤمنين بالغيب، ووالله لو جاء مائة فقيه ما رجعت إليهم، فقال الشيخ جلال الدين: يا سيدي، أنت قلت لي: إنَّك رأيت روحي في أرواح المؤمنين فقال الشيخ: نعم والله الذي لا إله إلا هو، رأيت روحك في أرواح المؤمنين، فالتفت الشيخ جلال الدين إلي ليشهدني على الشيخ بذلك، -وكان الشيخ في كلامه يلتفت إلىّ ويلاحظني بعينه ولقد وجدت لذلك أثرًا- ثم قال الشيخ: إيش تقول في الحلاج؟ فقال: يا سيدي، كنت أحبّه وأعظّمه حتى سمعت أنه قال: على دين الصليب يكون موتي، فحصل لي شيء - أو كلمة لا أتحققها الآن- فقال الشيخ: وإيش في هذا؟ ومالدين إلا الوقت والحين، قال تعالى: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ [الفاتحة: ٤].

وهو إشارة إلى أنه يموت مصلوبًا، وكذلك كان.

وأنشد الشيخ قصيدةً على لسان بعض العارفين حفظت بعضًا فمنها:

تَعــــالُوا نـــــدخلُ الْخانــــا ونَقْــــضِ فيــــه أَوطــــارِي

=

وكان يحضر الوظائف وله حلقة مصدرة بجامع دمشق توفي سنة ثلاث عشرة وسبعمائة وهو في عشر الثمانين. وانظر: معرفة القراء الكبار (٢ /٧٢٧).

قلت: وهو غير الشيخ أبي شامة المعروف.

ونَكســـرُ مِنـــبرَ الجـــامعِ ونَعْمـــلُ منـــه مِزمَـــارِي
ونَنتِـــفُ لحيـــةَ القَاضِـــي ونَعمَـــلُ منـــه أَوتَـــارِي

وجعل يعبر عن ذلك بحروف لطيفة من كون الجامع تجمُّع القلب، ولعله غير ذلك، والمنبر منبر الشيطان، والقاضي إبليس، وغير ذلك من العبارات ﵁ وحفظت مجلسه من أوّله إلى آخره، لأنّ الوقت قد كان وقت حال ووجدان، فهو يعبر عن نفسه بنفسه فلا ينسى.

وأخبرني والدي -رحمه الله تعالى- قال: كنا نودّعُ الشيخ أبا الحسن الشاذُليّ، رحمه الله تعالى، حين توجَّه إلى الحجاز فقال لنا عن الشيخ أبي العباس أنَّه من الأبدال.

وحكى لي فقير فقال: دخلت يومًا عند الشيخ أبي العباس المرسي حين كان بقوص، وقد أحضر الفقيه نجم الدين بن ناشئ دراهمَ للفقراء لأنَّه كان يصرف ذلك من تحت يده، فلمّا وزن الدراهم جعل الشيخ ينظر الميزان ويقول: يَنقص ثُمنًا -أوكما قال- فوجدتُ في نفسي من كون الشيخ يخطر له مثل هذا ويقول: ثُمن، وحصل ما حصل في نفسي، وغاب عني ما قاله.

قال: فلمَّا خطر لي هذا الخاطر رفع الشيخ أبو العباس رأسه إلي وقال: أيظن الظَّانُّ أن الفقير تشح نفسه بالثُمن؟ أو يذكر الثُمن ولا يعلم أنّ الفقيَر ترك الدنيا والآخرة لله تعالى - أو كلام هذا معناه- ولا ينظر في خلاص ذمة الذي يبقى عنده الثُمن، ولا أنَّه يُسألُ عنه يومَ القيامة.

قال: فاستغفرت الله تعالى مما خطر لي.

وحكى لي الفقيه عميد الدين الدماميني أنّه كان حصل له تخبيط في المعتقد، فلمَّا وردَ الشيخ أبو العباس إلى دمامين في بيت الشيخ عبد الرحيم حضرت عنده وفي باطني محبةٌ له، قال — يعني الشيخ- إني رأيتُ الشيطانَ ذبَحَك وأنا أحييتك.. فلم أجد بعد ذلك شيئًا من ذلك.

وكنت قد عرّفت الشيخ ما حصل لي فقال لي: أفي الله شك؟ ثم أصبح وأخبرني أنه رآني ورأى نفسه في بحر في قياسة قال: ورأيت الشيطان ذبَحَك وأنا أحييتك، ولقد دفع لي والدي يومًا درهمًا لأشتري به حاجةً فشريتها فنقصت خروبة، فقال لي: لم

تركت له ذلك؟ فقلت له: هذا أمر خسيس، لم ترضَ نفسي بالكلام فيه، فقال: يا ولدي، لم أقل لك لأجل ذلك إلاّ لأنه يبقى في ذمّته، ويجب عليك أن تبيّن له أو تردّه عن ظلمه.

ورأيت من والدي مرة أخرى أنه جاء إليه جماعة وهم من أعيان بلدهم، فحاسبهم على شيء كان عندهم له أو لمن نظره عليهم، فرأيته حققَ عليهم الحسابَ وراجعهم فيه، وربما صاح عليهم في نصفٍ وثُمنٍ ورقًا كانوا تركوه من الحساب.

فلمَّا فرغ من الحساب وآن وقت الغداء أرسل اشترى لهم بعشرين درهمًا نقرة أكلوه، فلمَّا خرجوا قلت له: يا سيدي، ما هذا؟ تنزعج عليهم على نصفٍ وثمنٍ ورقًا تركوه، وتطعمهم بعشرين درهمًا نقرة؟ فقال: يا ولدي، أمّا طعامي لهم فهو خلقي، وأما طلبي لهم بصحة الحساب فهو حقّي وفيه غبن للعقول، ولا يجوز لي أن أغشهمُ وأتركهم على ظلمهم، بل أبيّن لهم وأردّهم إلى الحق.

فلا تعتقد يا ولدي أن الفقير إذا تحدث في شيء من ذلك أنَّ ذلك تعظيمًا للدنيا عنده.. حاشاهم والله من ذلك.

وقد حكى لي الشيخ عبد العزيز أنّه كان مرّةً بمكان وقد نُثِرَ على الناس دنانيرٌ فوقع في حجر فقير جملة كثيرة من تلك الدنانير، فرأيته وقد نفضها من ثوبه ورماها بنفرةٍ قال: فلمَّا فرغَ جئت إليه فقلت له: لم فعلت هذا؟ فقال: لذّتي في رميها أحبُّ إليَّ من الدّنيا وما فيها.

وقد يحتاج أحدُهم إلى الفلس وهو يقدر على ملك الأرض، وحكاية الحلاج لما دخل عليه ابن خفيف وقال: كيف تجدك؟ قال: بنعم الله تعالى ظاهرة وباطنة فقال: أسألك عن ثلاثٍ قال: فقل فقلت: الصبر ما هو؟ فنظر إلى الأغلال والقيود فتفككت، ونظر إلى الحائط فانفلق، وإذا نحن على الدجلة فقال: الصبر هذا.

فقلت له: فما الفقر؟ فنظر إلى حجارة هناك فصارت ذهبًا وفضةً وقال لي: الفقر هذا، وإنّي لأحتال على الفلس للزيت.

فقلت له: فما الفتوةُ؟ فقال: إلى الغد. فقُتل في ذلك النهار.. فلمَّا كان الليل رأيت في المنام وكأنّ القيامة قد قامت ومنادٍ ينادي: أين الحسين بن منصور الحلاج؟

فأوقف بين يديّ الله تبارك وتعالى فقيل له: مَن أحبَّك أدخلتُه الجنة، ومن أبغضك أدخلته النار، فقال: يا رب، بل اغفر للجميع، ثم التفت إليّ وقال لي: هكذا الفتوة.

وحكى لي الشيخ عبد العزيز رحمه الله تعالى أنَّ فقيرًا حكى له أنّ الغلاء كان بمكة -شرفها الله تعالى- وكان الشيخ عبد الله المارداني بها، فلمّا فرق شيئًا من الصدقة قال لي الشيخ عبد الله: خذْ لنا منه فعجبت لذلك، على أنّ الشيخ عبد الله كان له تصريف عظيم في الباطن والظاهر كيف شاء، وكان ابن شعرة والبانياسي والدولة الكاملية يتصرف فيها فقلت له. فقال: لا تعجب لذلك؛ فإنَّ الشيخ عبد الله لما لم يقدر على مواساتهم ساواهم.

فانظر يا أخي رحمك الله تعالى إلى هذه الحكاية، فلا تعتقد أنّ طلبهم عن عجز، ولا تحريرهم عن شحٍّ رضي الله تعالى عنهم.

وحكي عن أحد الصالحين قال:كنت أطوف بمكة، شرفها الله تعالى، وإذا بإنسان عليه خُلقان وهو يطوف ويقول: جائع كما ترى، عار كما ترى، فما ترى فيما ترى، يا من يَرى ولا يُرى.

قال: وكان عندي دراهم ورثتها فقلت: والله لا أجد لدراهمي موضعًا مثل هذا، فمشيت وأخذتها وجئتُ بها إليه، ووضعتها بين يديه، وقلت له: يا سيدي، هذه الدراهم حلال ميراث، فسألته بالله العظيم أن يأخذها. قال: فأخذ منها خمسة دراهم وقال: هذه أربعة دراهم أشتري بها مئزرين أحدهما في وسطي والآخر على كتفي وهذا درهم أقتات به العشاء ولا حاجة لي في سائرها.

قال: فأخذتها ومضيت، فبينما أنا ليلةً من الليالي في الطواف فوجدته، فأخذ بيدي وطاف سبعة أشواط كل ذلك في جواهر ويواقيت -وربما قال لآلئ- وقال لي: كل ذلك قد أُعطيناه وتركناه تصرفًا، ولأنَّه أخفَّ علينا في الآخرة.

والمشهور عن الشيخ أبي العباس بقوص مما سمعته حين مسك الركنُ والي قوص أحدَ فقرائه بالأصطول، فجاء الشيخ ودخل على الوالي وكانت به الحُمَّى، فقال له: ما عرفتم الصالحين؟ أو ما تعرفونهم؟ أطلق الفقراء وتروح الحمى، فأطلق الفقيرَ وارتفعت الحمى.

وكان الشيخ -نفعنا الله تعالى به ورضي عنه- حادًا، وكانت حدّته تحجبُ الناس عنه، وكانت أحواله حادةً.

وأخبرني الشيخ ناصر الدين وكان قد صحبه زمانًا وكان يزوره في بيته قال: جئنا إلى دمامين، ونزل الشيخ المركب وربما أبطأت عن السفر، فقام الشيخ وأخذ الخُرج على كتفه وحلف بالطلاق ما يجلس حتى يسافر، ولما وردنا ظاهر أسوان أخذنا دوابًا وكان في النهار ومعه زوجته، فقال لي يا ناصر الدين، اركب وركّب الصغيرة أمامك.

قال الشيخ ناصر الدين: ثم ركب الشيخ وزوجته فقلت له: يا سيدي، كيف ندخل أُسوان في النهار على هذه الصورة؟ -أو كلام هذا معناه- فقال لي: يا ناصر الدين، إذا دخلنا هكذا هل يؤذينا أحد؟ أو يدّعي علينا عند القاضي؟ فقلت له: لا، إلا قبيحٌ. قال: وليس علينا منه قبح.

فانظر يا أخي رحمك الله تعالى إلى هذه الأحوال التي ليس فيها شائبة من شوائب العادة، ولا تنظر إلى أحوال الناس، هذا مع كونه كان عالمًا عارفًا بالظاهر والباطن رحمه الله تعالى.

وكراماته وأحواله وما يحكونه أصحابه ومن كان معه مشهورة، وبلغني عنه أنه قال: ما فُتح عليّ إلا وأنا تخمان، وما كان يتوقف في حالته على عادة.

وأخبرني شمس الدين بن الفقيه القاهري رحمه الله تعالى، وكان من المحبّين له المنتمين إليه قال: حصل عندنا عاقة أو أمر من جهة الشجاعي، وكان شمس الدين تاجرًا -وربما عوّق مراكبَهم- قال :فجئت إلى الشيخ أبي العباس، فقلت له: يا سيدي، أشتهي أن تكتب لي ورقةً إلى الشجاعي فقال لي: ما أكتب إليه شيئًا، فتألمت، فقال الشيخ: ها، وجلس وتوجه إلى القبلة، وأشار أنه يقضي الحاجة من الله تعالى.

قال: فنحن في الصبح، والشجاعي قد جاء إلى خدمة الشيخ وأطلق جميعَ المراكب، وربما قال: من غير أن يقول له الشيخ.

وأحوال الشيخ أبي العباس لا تكاد تحصى، نفع الله تعالى به.

الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور [١]

ومنهم الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور رحمه الله تعالى، كان كبير الشأن، صحب الشيخ أبا العباس الجزار[٢] واجتمعَ بجماعةٍ كثيرةٍ من الأكابر والأولياء، وأحواله جليلة وهمته عالية ومعارفه سنيّة، وله تصانيف في المعرفة.

وانخلع عن رئاساتٍ كثيرةٍ وعن وزارة أبيه.

والذين صحبهم لا يكادون ينحصرون، وقد ذكرهم في رسالته، منهم الشيخ عتيق صاحب قضيب البان والشيخ أبي العباس المرسي وأصحاب الشيخ أبي الفتح مثل عبد السلام القليبي وغيره من أصحاب الشيخ أبي الحسن بن الصباغ، وكان في زمن الشيخ أبي الحسن بن الصباغ وتأخّر إلى زماننا ،وأدرك الشيخ مفرج والشيخ أبا الحجاج والشيخ أبا يحيى.

ولما وصل إلى مدينة قوص قاصدًا الحجاز الشريف -وأنا قليل الاجتماع بالناس في ذلك الوقت، وأنا وحدي ولي عذر عن الخروج- فلم أشعر إلا وقائل يقول:

نعم، قلت: نعم، وقد حضر الشيخ صفي الدين، وقد جئت حتى لا أكلفك.

وكنت بعد ذلك أتردد إلى الشيخ إلى حين سفره، وجاء ولده إبراهيم بعد ذلك، وكان رجلاً مباركًا رحمه الله تعالى، وكان قدوة في أبناء جنسه، وانتفعت بالشيخ في حال حياته وبعد وفاته وكان للفقراء به عزة بعزِّ هذه الطريق، ويصول على أبناء الدنيا وله أتباع وأصحاب بمصر المحروسة، ومنهم من يحدث عن رسول الله ﷺ، وكان حجابه هيبته وسطوته، فإذا خالطته وجدته ألطف من النسيم. ولم يقع الاجتماع به إلا المدة التي كان بها في مدينة قوص، وسافر إلى الحجاز ولم يقم بعد عوده من الحجاز كثيرًا

---

(١) عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي، صفي الدين بن أبي المنصور: عالم بغداد في عصره. مولده ٦٥٨ هـ، ووفاته ٧٣٩ هـ. كان يضرب به المثل في معرفة الفرائض .

له " معجم " في رجال الحديث، و " مراصد الاطلاع في الأمكنة والبقاع، اختصر به معجم البلدان لياقوت، و" تحقيق الأمل في علمي الأصول والجدل " و" اللامع المغيث في علم المواريث " و" شرح المحرر " لمجد الدين ابن تيمية في الفقه، والرسالة في التصوف.

(٢) له ذكر في تعطير الأنفاس (ص١٣٨) .

حتى توفي إلى رحمة الله تعالى.

الشيخ أبو عبد الله بن النُّعمان[١]

ومنهم الشيخ أبو عبد الله بن النُّعمان، كان كبير الشأن عالمًا بالحديث ظاهرًا بأوصافِ الروضةِ وأحوالِ الطريقِ، له جذبٌ للقلوب حسن الهيئة.

رأيته بمدينة قوص، وكنت مشغولاً عن الاجتماع به لكثرةِ الجمع عليه، وكنت نافرًا من الناس.

وكان جليلاً رحمه الله تعالى، وله قصائد وأتباع وأصحاب، وبيته كبير.

صَحِبَ الشيخ أبا الحسن بن قفل، و حكى لي القاضي زين الدين البوشي أن شخصًا كان يصحب الشيخ أبا عبد الله بن النعمان، وكان لذلك الرجل ولد جميل الصورة، وكان شخص يميل إليه، فجاء ذلك الرجل يسلِّم على الشيخ أبي عبد الله، فنثر يده منه بسبب صبابة ولده، فراح والد الشاب يضرب ولده ضربًا عظيمًا، وسجنه عنده أيامًا، ثم خرج الشاب فوجد الشخص الذي يميل إليه فقال: أين كنت؟ قال: جرى كذا وكذا -وذكر حديث الشيخ أبي عبد الله وما جرى عليه من الضرب وأراه الضرب- فجعل ذلك الشخص يتكلم في عرض الشيخ أبي عبد الله بكلام قبيح، وكان له عند الصاحب صورة.

فلمَّا كان ذات يوم، والشيخ أبو عبد الله خارج من باب الجامع هو وذلك الشخص وجد الشيخ فقال له كل قبيح ونسبه إلى الفاحشة وقال: أنتم تفعلون سرًا ونحن نجهر وقال له: يا شيخ نحس فقال: صدقت إن لم أعفُ عنك، وكان بين يدي الشيخ أصحابه، فقام رجل من أصحاب الشيخ ليضربه فقال الشيخ: إن وقعت عليه ضربةٌ خرجت من البلد.

فبلغ الصاحب بهاء الدين الحكاية فأمر بضرب ذلك الرجل الذي أساء على الشيخ، فسمع الشيخ، فأرسل أحد أولاده إلى الصاحب بهاء الدين وقال: إن وقعت عليه ضربةٌ خرجت من البلد، ثم إن ذلك الرجل مرض بعد واحدٍ وعشرين يومًا فراح

(١) له ذكر في الوافي في الوفيات للصفدي (١/ ٦٦٠).

إليه الشيخ فزاره ثم توفي اليوم الثاني :والعشرين.

رحمه الله تعالى.

الشيخ أبو القاسم المرائغي[١]

ومنهم الشيخ أبو القاسم المرائغي -ويعرف بالمراغي- كان عظيم القدر مستديم المعاملة، أحواله شريفة ومنازلاته جليلة، والحكايات عنه خارقة والاعتقادات فيه محققة.

صحب الشيخ أبا الحسن بن الصباغ، وأقام بعده في القرافة الكبيرة إلى أن توفي إلى رحمة الله تعالى، ولم أجتمع به في مدة حياته حتى توفي فرأيته في المنام وهو يستخرج الحُمَّى من الصاحب بهاء الدين، وكان الصاحب حسن الاعتقاد فيه.

آخاني الشيخ أبو القاسم في المنام وقال لي: هذه أخوة لم تدركها الدنيا فتدنسها، وله أولاد مباركون أخيار، منهم الشيخ علي نفع الله تعالى ببركاته، كبير الشأن كثير الأعمال محفوظ الأوقات، قائم بالشرع في التبعية لوالده؛ إذ كان الشيخ أبو الحسن وأصحابه رضي الله تعالى عنهم محفوظي الأوقات، متمسكين بالشريعة المحمدية المطهرة، وولده أبو العباس أحمد، كان عمَّالا مجتهدًا محبًا لأولياء الله تعالى، وله بالجعبري صحبة بعد والده، رحمه الله تعالى. والشيخ عمر أيضًا.

وأخبرني الشيخ عمر عن والده الشيخ أبي القاسم المراغي رحمه الله تعالى عن الشيخ أبي الحسن أن الشيخ أبا الحسن كان جالسًا عند مجرى الماء، وإذا هو يكتب بعود، وإذا هو قد عظم حتى صار كالشيء العظيم أو كالبيت العظيم، ثم تصاغر وتضائل حتى صار كالفرخ، ثم عاد إلى حالته.

وكان الشيخ أبو الحسن جليل القدر عظيم الشأن سكن إسنا وأقام برِبَاطِه بعد ما كان بمدينة قوص وربَّى جماعةَ أكابر -وكان وقته وقتَ فتح- وكان فريدًا في زمانه يشار إليه بالقطبية، والذي لم ير من أقواله وأفعاله يُدَلُّ على عظم شأنه.

قيل أنّه كان يخرج على أصحابه ويقول: هل تعلمون مَنْ إذا أراد الله تعالى أن يحدث في العالم شيئًا أعلمه به قبل إحداثه؟ فيقولون: لا فيقول: ابكوا على قلوب

---

(١) انظر: الوافي في الوفيات (١/١٢٢٠)، والكواكب (٢/٢٤٢).

محجوبة عن الله تعالى، وقيل أنّ الناس كانوا يمشون حوله، يرقبون أن يعطس منهم عاطس فيقول: الحمد لله فيقول له الشيخ: يرحمك الله فيستبشرون بذلك.

وكانت حالته حالة الأغنياء، يمد السِّماط الذي لا يمدُّ مثلَه إلا الملوك، ويعجز عنه الأمراء، ولا يعلم أحد من أين ذلك؟ وكان له أصحاب أكابر أدخلهم الخلوة مثل الشيخ علم الدين المنفلوطي(١)، والشيخ أبو بكر بن شافع -المكنى أبا يحيى- وأبو الحجاج المغاوري، والشريف أبو المعالي، ورفاعة، والحجازي، ويوسف بن إدريس، والشيخ مجد الدين بن دقيق العيد، وشرف الدين إسماعيل بن الصابوني.

ومن أصحاب الشيخ أبي يحيى جمعٌ كثيرٌ، وأخبرني الشيخ عبد العزيز أنَّه اجتمع بالشيخ أبي الحسن بن الصبَّاغ وأنشده شيئًا من نظمه. قلت له: فكم كان سنّك ذلك الوقت؟ قال: ثلاثين سنةَ، وتأخر الشيخ عبد العزيز إلى هذا الزمان.

وحدثونا أن جماعة أكابر بقوص كالنجيب بن هبة وكمال الدين وغيرهما، كانوا عند الأمير المكرم في الليل، وجرى حديث الشيخ أبي الحسن ومن أين ينفق؟ وهل هو يُخَصُّ بالسِّماط؟ وهل الذي يعمله لوجوه الناس من الأمراء والأكابر؟ وهل هذا معناه أم لا؟ فقال: قوموا نركب نروح إليه على غفلةٍ، فركبوا في الليل، وكان الشيخ عند فراغه من الحزب بعد عشاء الآخرة ،قال لمتولي الطبخ: اعمل من الشي كذا، ومن الحلوى كذا. وراح الشيخ إلى منزله، وأصبح صلَّى الصبح والأمير المكرم والأكابر وَصَلُوا وصَلُّوا الصبحَ خلفه، فعندما سلَّموا مَدُّوا السِّماط وفيه من الأطعمة الخاصة ما لا يقدرون عليه مع الكثرة، وكانوا متمولين كالملوك والأمير المكرم، فتعجبوا لذلك عجبًا كثيرًا. ثم قال أحدهم -ولعله النجيب بن هبة- يا سيدي، أيُّ شيء خلّيتم لأبناء الدنيا؟ فقال

---

(١) هو إسماعيل بن إبراهيم بن جعفر الشيخ علم الدين المنفلوطي ثم القنائي كان من الفقهاء الصالحين المعروفين بالمكاشفات والكرامات من أصحاب الشيخ أبي الحسن ابن الصباغ مالكي المذهب كان يغيب أوقاتاً كثيرة وربما استمرت غيبته اليومين والثلاثة وتنحل عمامته وتنسحب خلفه.

وصنف كتاباً وذكر فيه من كلام شيخه أبي الحسن ومن كلام شيخ شيخه عبد الرحيم ومن أحوالهم نبذة وغير ذلك وفيه أحاديث واستدلالات دلت على فهمٍ وعلم وفيه مسائل فقهية ومقالات صوفية .

وتوفي بقنا في سنة اثنتين وخمسين وستمائة. وانظر: الوافي (١١٩٩/١).

الشيخ: التعب والنصب.

فهذه وأمثالها من أحوال الأكابر، لا يُنْكَر عليهم لأنَّ بواطنهم خالية عن ذلك وإذا خلا القلب من الآمال فلا يضر أن تكون اليد فيها المال، فقد كان السيد يوسف الصديق ﷺ متصرفًا في خزائن الأرض، وقد كان السيد سليمان ﷺ أُوتي ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وكان السيد أيوب ﷺ له المال.

وكان من الصحابة من له المال، كالسيد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، والسيد عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، والسيد العباس رضي الله عنه عم النبي ﷺ ، والسيد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وحكي عن الشيخ سعيد بن أبي الخير أن [حدوة] خيلِه كانت ذهبًا، ولعله إِنَّما فعل ذلك احتقارًا للدنيا، فإن مقاصد القوم مستورة تحت سرائرهم عند الله تعالى.

وكان الشيخ أبو الحسن بن الصباغ تصريفه عجيبٌ، وحكى لي الشيخ عبد العزيز أن فقيرًا أتى إلى قنا عليه ثوب أزرق وطاقية، وكان يخبر الناس بما يأكلون في بيوتهم وما يدخرون وما يتحدث به الرجل مع زوجته في فراشه، ويقول لمن يجتاز أتيتني بالدينار الفلاني من الكيس الفلاني الذي في صندوقك، ويذكر له عدد الذهب أو وزنه، فيخرق عقول العوام وتحشَّر عليه الناس، فقيل للشيخ أبي الحسن عنه- وربما سكت- ثم قيل له عنه فقال: ادعُوه، فدعَوه، فحضر، فأجلسه قريبا منه، وسكت الشيخ ساعة ثم رفع رأسه إليه وقال: إيش تقول في السلطان؟ أتحت يده أمراء أم لا؟ قال: نعم قال: فالأمراء تحت أيديهم أجناد أم لا؟ قال: نعم قال الشيخ: فإذا قال السلطان لجندي من أجناد أمير: اضربْ رقبة أستاذِك، يقدر يخالف السلطان؟ قال :لا، قال الشيخ: والله الذي لا إله إلا هو، متى رجعت تتصرف في بلاد المسلمين بهذا الجني لآمرنَّه أن يضرب رقبتَك.

قال: فقام الفقير وجلس بين يدي الشيخ أبي الحسن وتاب إلى الله تعالى وأخذ عليه العهد.

فانظر يا أخي إلى هذا الكشف وهذا التصريف في الجن والإنس والدنيا والآخرة، فإن الكرامات وخرق العادات من عالم الآخرة.

وأخبرني الشيخ عبد العزيز عن فقير من أصحابه قال: سألت ذلك الفقير الذي

تاب بين يدي الشيخ أبي الحسن بعد وفاة الشيخ أبي الحسن أن يخبرنا بشيء أو يفرحنا بشيء، فقال: والله الذي لا إله إلا هو من وقت تبت بين يدي الشيخ أبي الحسن ما رجعت أجتمع بذلك الجني، وأخبرني عنه بعض الجن أنه مات.

وكان الشيخ أبو الحسن من أهل قوص، وحدثونا عنه أنَّه كان صبَّاغًا، وكان يعمل كل يوم بأربعين درهمًا ورقًا، وكان يقتات منها بفلس خيار ويتصدق بالبقية، إلى أن كان من أمره ما كان.

وله بقوص خانقاة، وهي أول رباط بني بمدينة قوص، بناه زهير أحد أصحابه.

وحدثوه عن الشيخ أبي الحسن أنه قال: ما لأحدٍ عليَّ منة إلا لله تعالى ورسوله ﷺ خرجت أتطهر للجمعة فأُخذْت أخذةً فحصل لي ما حصل، أو قال كلمة هذا معناها.

الشيخ عبد الرحيم الحسيني[(١)]

وحكى أيضًا أنه صَحِبَ الشيخ عبد الرحيم الحسيني صاحب الشيخ أبي النجا المدفون بفوة، وتزوج بابنة الشيخ عبد الرحيم، وكان الشيخ عبد الرحيم اسمه أسد، وإنَّما غلبت عليه الرحمة فسمى نفسه عبد الرحيم.

وحكي عن الشيخ عبد الرحيم أنه قال: أنا أتعجب، كيف لا يُفتح على البنات في خدورها؟

وذكر عن أحد العارفين أنه قال: لو كنت حاضرًا عند وفاة الشيخ عبد الرحيم ما خليتهم يدفنوه إلا كانوا يصبرونه ويتركوه، أي من نظر إليه نطق بالحكمة.

وكان الشيخ عبد الرحيم جليل القدر يُعجز عن وصفه، ولم نترك الكلام في مناقبه إلا لِمَا التزمناه من أنَّا لا نذكر إلا من رأيناه أو سمعنا عنه مِمَّن رآه، مع أن الشيخ

(١) له ذكر في الوافي للصفدي (٣٠٩٥/١).

أبا العباس الملثم رآه وأخبر عنه، والشيخ أبو الحسن قد أخبرنا مَن رآه.

ولسنا نستقصي أحواله وأقواله فإنها مشهورة وله كلام، لأن جميع ما نذكره دُون جميعِ قدرِه، فإذا أمسكنا عن مناقب الرجل الكبير فهو من العجز، وخَرُسَ عن الشيخ أبي الحسن أكابرٌ، كالشيخ علم الدين المنفلوطي، أخبرني الشيخ مكين الدين -وكان رجلاً صالحًا عدلاً- قال: كنت جالسًا والشيخ علم الدين وصدر الدين المنفلوطي، فقال الشيخ علم الدين للقاضي صدر الدين عن أمر فلم يفعله، فقال له الشيخ علم الدين: تخالف القطب؟ فقال له: يا سيدي، وأنت القطب؟ فقال الشيخ علم الدين: والله الذي لا إله إلا هو أنا القطبُ الذي هو غوثُ الوجود بأسره.

وكانت له أحوال جليلة ومنازلات شريفة، ومماحدثونا به أنه كان يمشي وتنحل عمامته وتنسحب خلفه، وكان ينشد:

لَيس الصحيحَ إذا مشى كالمقعدِ   لا تَجْر ذِكري في الهَوى مَع ذِكركم

وأحضر لي خادمه، الشيخ مخلوف بن حريرة، أوراقًا بخط الشيخ وجدت عند رأسه بعد وفاته، وفيها ما لا تسعه العبارة من المخاطبات والمنازلات، حتى إنني حصل عندي شيء من كون البشر تميل إلى مثل هذا الأمر العظيم فلم تمضِ مدةٌ حتى وقع لي ببركته ما تحققت به صحةُ ما وجده وسمعه ورآه رضي الله عنه.

الشيخ أبو يحيى ابن شافع(١)

ومن أصحابه الشيخ أبو يحي بن أبي بكر بن شافع.

كان عظيم الشأن، وكان بين أصحابه كالملك بين أجناده.

وكان بدء أمره كما حدثني الشيخ ناصر الدين محمد بن عبد القوي الأسواني المعروف بابن شعبان، لكونه كان مريده عن خادم الشيخ أبي الحسن بن الدقاق، قال: خرجت مع الشيخ من بلده إلى البهنسا أو دهروط -أو كما قال- قال: فمشينا ليلاً،

---

(١) أبو يحي بن شافع القنائي، صوفي صنعته المعارف، وطافت به العوارف.

كان بحانوت يتسبب فيه، فرآه الشيخ أبو الحسن الصباغ فقال: هذا يصلح للسلطنة، ويتزوج بنت الخليفة، فقام للوقت، وترك حانوته وتبعه، فأقام بخدمته مدة، وتسلك بالشيخ، وتزوج ببنت الخليفة، وظهرت له كرامات وخوارق باهرات. انظر: الطالع السعيد (٧٤٣)، وطبقات الأولياء (٤٨٣).

وإذا نحن بجبانةِ قنا، فلمَّا طلع الفجر إذا بالشيخ قد جاء وتقدم وصلّى بنا، ولم يتكلم ولم نتكلم، ثم رجع إلى قنا فقلت للشيخ: سألتك يا سيدي بالله تعالى من هذا الرجل؟ قال لي: هذا الشيخ أبو الحسن الصباغ فقلت له: يا سيدي، من هو الشيخ فيكما؟ وأقسمت عليه فقال: الذي صلى إمامًا، قم بنا إلى زيارته قال: فقمنا ومشى الشيخ في السوق، وإذا شاب أمرد جميل الصورة، فوقف الشيخ مقابل دكانه ينظر إليه، فحصل في نفسي من وقوف الشيخ ونظره إلى ذلك الشاب شيء، فالتفت الشيخ إلي -وربما قال مسك أذني- وقال لي: هذا الشاب يجيء منه سلطان ويتزوج بنت الخليفة، فكان ذلك الشاب هو الشيخ أبو يحيى بن شافع، انخلع عن معاشه وقام من مكانه وصحب الشيخ أبا الحسن وتزوج بابنته، وكان منه ما كان.

ولقد حدثونا أن الشيخ أبا الحسن كان يأخذ الشيخ أبا يحيى في ليالي الشتاء ويخوض به الماء في بركة هناك تسمى الملاح من قوة الوارد وحرارته.

وأنه كان له طبقة في طريق الجبانة أراني إيَّاها قال: كان يُسمع منها كدوي الرعد من الوارد الذي يرد عليه.

ولما أدخله الشيخ أبو الحسن الخلوة أتاه بلوزة بعد عشرين أو أربعة وعشرين يومًا فامتنع من أكلها وقال: والله مَا أكلت ولا شربت إلا حتى أصل إلى ما وصل إليه الرجال، هم رجال ونحن رجال، فلمَّا رأى الشيخ أبو الحسن قوته وعزمه تركه ولجج به في بحار التحقيق وتولى الله تعالى أمرَه وكان منه ما كان.

وحدثونا أنه لما تُوفي الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه اجتمع جماعة كالشيخ ضياء الدين ابن القرطبي وغيره من أكابر، بالشيخ زين الدين ولدِ الشيخ أبي الحسن، وقالوا له: تجلس لنا مكان الشيخ، فبكى الشيخ زين الدين وقال: أكذب على الله تعالى؟ ثم جاء إلى الشيخ أبي يحيى وتابَعه ودخل على يده الخلوة.

وحدثونا أن الشيخ أبا يحيى لما خرج الشيخ زين الدين من الخلوة قال له: قد أوصلتك إلى ما أوصلني إليه أبوك.

وكان للشيخ أبي يحيى أصحاب ملاح أكابر، فُتح لهم على يده، وكان مظهرَ الغنى يمُدُّ السِّماط كالملوك كجاري عادة شيخه.

أخبرني الشيخ أبو الطاهر إسماعيل بن عبد المحسن المرائغي أحد أصحاب الشيخ أبي يحيى أنه كان يزن لكل فقير بعد العشاء رطل حلاوة، وأنَّهم كانوا يأكلون حشو القطائف المقلي ويتركون قشوره، وكانت أحوالهم على هذه الصورة رضي الله عنهم.

ومنهم الشيخ أبو الطاهر إسماعيل المذكور، صَحِبته سنينًا كثيرة إلى أن توفي إلى رحمة الله تعالى، كان عامر البطن غير مكترث بالظاهر، يلبس ثوبًا عليه ومئزرًا على كتفه كيف كان، وزربول في رجله كهيئة الفلاحين، وكان يخبرنا بالعجائب والغرائب وله مخاطبات.

ولقد كنت يومًا جالسًا أنا وإيّاه عند قبر ميت لنا، فخطر في نفسي أنني وقعت في محظور، وقام الشيخ، فقدّمت له نعله، فالتفت إلى وقال: سمعت قائلاً يقول: ﴿**فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ**﴾ [ص:٢٥] .

فانظر يا أخي إلى هذا الكشف والإخبار، وأخبرني مرة أنه دخل من موضع يفصدني الفاصد قال: وصلت إلى قلبك لأجده قلبًا صغيرًا نورانيًا، فقيل لي: ما تريد؟ فقلت: أريد أعرف ما فيه فقيل لي: لا سبيل إلى ذلك، ولكن انظر ما على جنبيه قال: فنظرت فوجدت مكتوبًا عليه:

﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾، [الأنعام:١٦٢، ١٦٣].

وأخبرني الشيخ أبو الطاهر أنَّه كان بينه وبين الشيخ أبي يحيى تاج الدين بن شعبان صحبة في الطريق إلى الله تعالى، وكان شيخهما الشيخ أبو يحيى، وكان إذا ورد على أحدهما شيء ورد على الآخر، قال: فاتفق ليلةً أنَّ الشيخ بعد قراءة الحزب راح إلى بيته، وكان ينهانا عن الاجتماع، فورد عليَّ علمُ المآرب التي في عصا السيد موسى عليه السلام لقوله تعالى: ﴿**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى**﴾ [طه:١٧، ١٨].

فأُلقي عليَّ علمُ المآرب فضقت عنه، وحصل للشيخ تاج الدين ذلك وضاق عنه، وجعل كلٌّ منّا يطلب صاحبه حتى يُلقي ما عنده إليه، فاجتمعنا في زاويتي - كما قال أو زاويته- قال: فلم نشعر إلا والشيخ أبو يحيى ثالثنا، فبقي كل واحد منا

يشتهي أن تنشق الأرض ويدخل فيها خوفًا من الشيخ.

وكان الشيخ أبو الطاهر يخبر باجتماعه بملك الموت عليه السلام ورؤيته، ويخبر عن نفسه عجائب، ونحن نقتصر على التعريف بمكانته.

وحدثني الشيخ ناصر الدين بن عبد القوي عن الشيخ أبي الطاهر أنَّه قال: والله الذي لا إله إلا هو، لقد وضعت قدمي على الصخرة التي تحت الحوت، وكلَّمتني النملة التي كلَّمت السيد سليمان عليه السلام ورُفعتُ على الذي رُفعَ عليه السيد سليمان عليه السلام.

وكان الشيخ أبو الطاهر يقول: إذا امتلأ القلب بالنور، دكَّ كلَّ حجاب بين العبد وبين الله تعالى.

ومن أصحاب الشيخ أبي الحسن الشيخ **رفاعة**[1]، حكى الشيخ أبو الطاهر أن الشيخ أبا الحسن رضي الله عنه تحدث مع والي قوص أن يعزل والي قنا، فامتنع من عزله، وكان رفاعة حاضرًا، فقال رفاعة: يا سيدي، أقول؟ فقال له الشيخ أبو الحسن: لا، ثم خرج الشيخ، وربما كان الشيخ توجه إلى الوالي بذلك السبب، قال: فلمّا اجتمع الفقراء بعد خروج الشيخ قالوا لرفاعة: ما كنت تريد تقول قال: إنَّ الوالي لَمَّا ردَّ على الشيخ عُزِل في ساعته فأرَّخوا ذلك الوقت، وجاء المتولي مكانه والمرسوم في ذلك التاريخ.

وهذا يدل على تصريف القطبية؛ لأن القطب هو الذي يولي ويعزل حقيقة، وصورة من يولي ويعزل ظاهرًا فهو عنه وإن لم يفعل ذلك.

وأخبرني الشيخ أبو الطاهر عن رفاعة أنَّه أتاهم ذات يوم طعام أمير أو والي فقال الشيخ أبو الحسن- أو أبو يحيى الله تعالى أعلم، والذي هو عندي الغالب الشيخ أبو الحسن- قال: من أراد أن يأكل يأكل، ومن أراد ألاّ يأكل لا يأكل، فامتنعَ الفقراءُ

(١) هو الشيخ رفاعة بن أحمد بن رفاعة القنائي الجذامي.

من أصحاب الشيخ أبي الحسن الصباغ. كان مشهورًا بالصلاح، ولزوم طرق النجاح، ذكر مع أرباب المقامات، نقلت عنه غرائب وكرامات... مات في القرن السابع، ودفن بالأعمال القوصية.

هكذا في الكواكب (٥٠٧)، ونقل هذه الحكاية المذكرة عن المصنف.

الجميع إلا رفاعةُ، فإنَّه بقي يأكل ويقول: والله ما آكل إلا بورًا، وهذا يدل على الكشف الصحيح والمعرفة بما له من الرزق، وتخليص الحلال من الحرام والشبهة.

كما حكي عن الشيخ عبد العزيز القرشي رضي الله تعالى عنه، قال: ورد على القرشيِّ فقير، فعجن الشيخ فطيرة، وقرّصها وخبزها، وجعل يفتُّ في قصعةٍ، فكانت تطير لقمة عن يمينه ولقمة عن شماله ولقمة تقع في القصعة، قال: فقال لي: خذ هذا الذي على الشمال أطعمه الكلاب، وأعطاني الذي على اليمين وقال: أطعمه للفقراء- وربما أصلح الذي في القصعة- وقال: كل، وأكل وأكلت فقلت: يا سيدي، سألتك بالله، ما هذا الذي كان على الشمال والذي على اليمين والذي أكلناه؟ فقال: أما الذي على الشمال فهو الحرام، وأما الذي على اليمين فهو الشبهة، وأما الذي في القصعة فهو الحلال خلَّصه الله تعالى لي من الشبهة والحرام.

فانظر يا أخي رحمك الله تعالى إلى هذا الاختصاص الإلهي، وهذه القدرة الإلهية التي ميزت له الحلال من الشبهة والحرام بعد اختلاط الدقيق وعجنه واحدًا وخبزه، فهذه وأمثالها من التخصيص الإلهي، فمثل هؤلاء لا يعترض عليهم فيما يفعلونه من أكل ولا شرب ولا عمل من الأعمال.

الشيخ أبو الحسن المغاوري

ومنهم الشيخ أبو الحسن أبو الحجاج المغاوري.

وله الغرائب والعجائب رضي الله عنه أنَّه كان يأخذ إبريقه وعكازه ويخرج إلى البرية على غير طريق بلا ماء ولا زاد يقيم الشهرين أو الأشهر ويعودون.

هذا شأنه وقد حكي عنه -ولعل الحاكي الشيخ أبو الطاهر، فإنَّه كان يحكي عنه- قال: خرجت مرةً فوجدت اثنين ونحن سائحون في البريَّةِ فطار علينا طير فخطف أحد الشخصين، فلمَّا كان ثاني يوم حام علينا وخطف الفقير الآخر، فلمَّا كان ثالث يوم حام فتقصّعت عليه، فحين خطفني أمسكت برجليه، فطار بي في الهواء، إلى أن صعد بي إلى جبل عال فحطّني وقد تعب؛ فإني كنت أطوّح وأنا ماسك برجليه، ثم طار فقعد عني بعيدًا، فقمت وأخذت حجرًا ورميته فطار، فمشيت فوجدت أصحابي أمواتًا قد أكل أعينَهم ونزَّلهم، ومشيت فأجد من الأموات من سائر الأصناف ما لا ينحصر

على ذلك الجبل، لم يأكل منهم إلا أعينَهم.

فبقيت ثلاثة أيامٍ وأنا أطوفُ على طريق أنزلُ منها فلم أجد طريقًا أصل،اً فرأيت قرنة خارجة في الجبل، فأخذت عمائم الأموات وربطت بعضها في بعض وربطتها في قرنة الجبل ورميت بها، على أنني أنزل بها كالسلبة، فخيل لي من بُعد الجبل أنَّها وصلت إلى الأرض، فمسكت بالعمائم وتدليت فيها إلى ثلثي المكان فبقيت معلقًا في الهواء لا أقدر على الصعود ولا على الهبوط، وبقيت كذلك حتى تعبت يداى وتحلّت عني، فسيّبت نفسي وتوكلت على الله تعالى، فوقعت على شجرة فقامت بي وقعدت ورَمت بي على الأرض، وقد دخل الشوك والغصون في جلدي ولحمي، فبينما أنا كذلك وإذا بأسدٍ قد أتاني وجعل يلحسُ بلسانه مواضع الشوك والأغصان حتى استخرج من جلدي ولحمي الشوك، ثم جلس أمامي وحرك ذنبه وأشار إليَّ أن أتبعه فتبعته وهو يمشي أمامي، حتى نزل، فرأيت قريةً من قرى الشام.

قال: كنت في السياحة فأقمت مدةً -ربما قال شهرين- قال: فعطشت حتى سقطت جوارحي، وإذا أنا بشخص راكبٍ على ناقة أو جمل فنزل ورماني إلى الأرض وأخرج سكينًا وقال: والله لأذبحنَّك وأُريحُ نفسي منك قال: وأنا أضحك، وإذا بشخص من ورائه يقول: لا تفعل، ثم أخرج شَربةً وسقاني.

وحكى لي والدي -رحمه الله تعالى- عن الشيخ أبي الحجاج المغاوري المذكور أنَّه كان مرةً بمغاور، فالتقى هو وفارس من الفرنج -أو خرج عليه فارس من الفرنج- فتلاقيا وتقابضا على الخيل حتى وقعا على الأرض، وأنَّ المغاوري صرعه وجلس على صدره وعرض عليه الإسلام فأَبَى.

قال: فأخرجت مُديةً ووضعتُها على عنقه وقلت: بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله فلمَّا قلت هذا الكلام قال: امسك يدك، أنا أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله، فقلت له: فما الذي منعك حين عرضت عليك الإسلام أولاً؟ فقال: اعلم الأصل أنَّني من أكابر الملك، أعني من الأمراء الكبار، وكانت لي ابنة عم فتزوجتها وكنت أحبها، فدخلت يومًا لأجد إلى جانبها شخصًا فقلت: من أنت؟ فقال لي: من

أنت؟ فقلت: زوجتي فقال لي: زوجتي، وأنا سبقتك إليها من وقت ولدتها أمُّها، ووضعت يدي فأخذتها حين وضعتْها أمُّها. قال: فنظرت إليه فوجدته على غير الهيئة التي نحن عليها، وكذلك عيناه ورجلاه، فعرفت أنَّه جِنِّي ولا لي حيلة فيه، فقال لي: لا تخف منّي، فإنَّني ما أقدر أترك هذه وأنا أنظر إلى هذه، فاختر لنفسك: إمَّا أن تكون عندها في الليل وأكون أنا في النهار، أو تكون أنت بالنهار وأكون أنا بالليل ولا يصيبك مني شيء، فقلت له: أمَّا بالنهار فأنا أكون بين يدى الملك فتكون أنت بالنهار، وأكون أنا بالليل، قال فكنت أجيء بعضَ الأوقات في النهار، وأجده، فربما أخبرني بأمور وقعت في البلاد فأُخبر الملك بها فتقع كما أخبرن،ي فحصل لي عنده بذلك صورة.

قال: فلمَّا كان أحد الأيام قال لي: نحن نريد نسترق السمع في السماء، تشتهي تتفرج؟ فقلت: نعم قال: البس عليك ثيابًا كثيرة فإن الجو بارد، وعصّب عينيك فإنّ ثلاثة جمال يعبرون عليك اركبْ الأول، قال: ففعلت ذلك قال: فجاءتني الجمال، وتقدّم إليّ جمل فركبته وطار بي في الهواء، حتى قطعنا مسافةً ولم يبقَ حسٌّ، حتى سمعت رَجْلَ الملائكةِ بالتسبيح والتقديس، فنحيت طرف العصابة فرأيت الكواكب مثل الجبال، ورأيت الملائكة تمشي في طرق السماوات، وهم يسبحون الله تعالى بأنواع التسبيحات والأذكار، فلم أستطع أن أسكت، فقلت: لا إله إلا الله.

فما إن قلتها، إذا مَلَك نظر إلى العفريت وبيده شهاب، فقال: بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ورماه بذلك الشهاب فصادف جانبه، فراغ العفريت من تحتي، وطحت في الهواء.

فلم أشعر بنفسي إلا بحرارةِ الشمس، وأنا على تل رملٍ وعليّ ثياب كثيرة لا أستطيع المشي بهم، ولم أجدني أصابني شيء، فقمت لأجد إنسان، فسألت عن بلدي فقال لي: وأين بلدك؟ بينك وبينها كذا وكذا -وربما قال سنة – قال: فبعت من ثيابي وسافرت إلى أن وصلت بلدي وقد شبت.

فطلعت إلى بلدي، وجئت إلى منزلي ليلاً، فقرعت الباب، فكلمني الجواري فقالوا: من أنت؟ فقلت: أنا فلان قالوا: ذاك قد مات، وأجدهم قد عملوا مأتم السنة،

ثم إنهم رأوني فقالوا: كان سيدنا شاب وأنت شيخ، فقلت: خلوا ستكم تكلمني فجاءت عند الباب، فعرّفتها من ليلةِ دخلت بها إلى حين غيبتي عنها فعرفتني، ودخلت بيتي فأقمت مع أهلي أربعة أشهر، ولم أرَ ذلك الجنيّ، فبينما نحن يومًا جلوسٌ وإذا هو قد شقّ الحائط وخرج وإذا نصفه محروق، وعينه عليها خرقة، وهو يئن، فعندما رأيته قلت: بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فحين قلتها احترق جميعه وطلع دخانٌ.

فلمّا سمعتَك تقول هذه الكلمات علمتُ أنَّكم على الحقِّ؛ فإنني سمعتها في السماء، فأسلمت.

الشيخ المغاوري وملك الروم

ومِمَّا ذُكِر عن المغاوري أنَّه قال: قيل لي إنَّ ملك الروم أخوك، أو في مقامك، أو عديلك في الجنة- أو كلام هذا معناه- قال: فسافرت إلى أن وصلت إلى البلد التي هو فيها، وكانت له كنيسة يدخلها في كل سنة مرّةً، فجئت إلى تلك الكنيسة على زيِّ الرُّهْبان، وأقمت في الكنيسة إلى أوان حضوره، فرأيت الذي بها في همة -وكان فيها جمع كثير من الرهبان والقساوسة وغيرهم- فلمَّا رأيتهم قلت لهم: ما بالكم؟ قالوا: الملك يريد أن يجيء إلى الكنيسة قال: فتسترت أو حجبني الله تعالى عنهم وغلقت الكنيسة، ولم يبق فيها أحد، وجاء الملك ففتحوا له الكنيسةَ فدخلها وحدَه وغلَّق الباب عليه، فلمّا دخل خلع ما عليه من الثياب وإذا تحت ثيابه لباس شعر ثم توضأ وصلّى إلى قبلة المسلمين ودعا الله تعالى، وقال: يا ربِّ وعدتني بأخي يوسف، قال: فخرجت إليه فسلّم عليَّ وسلمت عليه، وقال لي: يا أخي، لي عشرون سنةً وأنا أنتظرك، ووعدني الله تعالى برؤيتك فقلت له: فما هذه الحالة التي أنت عليها؟ فقال: هكذا أُمرت وهذه الحالة أسلم من الرياء، وأكثر جهادًا في أعداء الله تعالى، واقعد مكانك حتى تبصُر.

قال: فخرج عليهم الملك بعد لبس ثيابه، واجتمع عليه القساوسة والرُّهبان والنَّصارى فقال لهم: متى كانت عادتكم تدنّسوا بيت الرب بروائح المسلمين أو بإدخال المسلمين بيت الرب؟ فقالوا: لم نفعل ذلك، قال لهم إنِّي أشم رائحة المسلمين في بيت الرب، فحلفوا على ذلك فلم يقنع حتى حلفوا له بالأيمان التي توجب القتل في شرعهم، فلمَّا استوثق ذلك قال لعلمائهم: إيش تقولون فيمن حلف بهذه الأيمان وحنث؟ قالوا:

السيف فقال: يا أبا الحجاج يا يوسف، اخرج قال: فخرجت فقال لي: إيش أنت؟ فقلت: مسلم، أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، فقال: السيف، فضرب رقاب الجميع -وكانوا جمعًا كثيرًا- ثم قال: أمَّا هذا فله حق لخدمة بيت الربّ.

فأخلع عليّ وحملني معه إلى داره، فكنت أخرج متخفيًا، فمن وجدته وظفرت بقتله قتلته، وبقيت على هذا مدةً كثيرةً ففطنوا إليّ، فبينما أنا ذاتَ يومٍ راكبٌ وإذا قد أحاط بي خمسمائة فارس وبقيت في وسطهم، وكانت هناك صخرة أو حجر كنت أحسن الظن به، قال: فجعلني الله في أعينهم حجرًا حتى كانوا يضعون أعقاب الرماح على رأسي ويقولون: كان مكان هذا الحجر.

الشيخ تاج الدين بن شعبان(١)

ومن أصحاب الشيخ أبي يحيى الشيخ تاج الدين بن شعبان بن إبراهيم بن محمد، كان كبير الشأن، وهو شيخ الشيخ ناصر الدين بن عبد القوي، وكانت له أحوال شريفة ومواجيد وأخبار عزيزة.

أخبرني الشيخ أبو الطاهر إسماعيل أنَّ الشيخ ضياء الدين بن القرطبي دخل إليه ذاتَ يومٍ، فقال الشيخ تاج الدين للشيخ ضياء الدين بن القرطبي: اغتسل وأعد صلاتك، فإنك كنت واقفًا في الصلاة وفلانة تمثلت بين عينيك -وسمَّى جاريةً كان ضياء الدين يحبُّها- فنزلت الشهوة إلى قلبِك وقام ذَكرُك وأمنيت وبطلت صلاتك، فحصل للشيخ ضياء الدين منه حزن شديد لما كشف بذلك.

وحكي أنَّ ضياء الدين دخل على الشيخ تاج الدين وقال له: يا سيدي قد طلبوا رُبَّانَ الجِلبة التي لي وراحوا به إلى قوص وتتلف الجلبة وقماش فيها ويحصل الضرر، فقال له الشيخ تاج الدين: الساعة يأتي السيد جبريل عليه السلام وأوصيه عليك -أو قال: أوصي عليك السيد جبريل- فخرج، وجاء وهو مشوش فقال له: قد جاءني السيد جبريل عليه السلام وأوصيته عليك -أو قال: أوصيت عليك السيد جبريل عليه السلام- قال: فبينما نحن كذلك وإذا بالرُّبان قد أقبل، فقيل له ما بالك؟ فقال: ما أعلم إلا أن الوالي حين نظر إلى قال: أخرجوه عني فأخرجوني وشيَّعوني، حتى جئت ولم يتعرض إليَّ أحد وكانوا

---

(١) له ذكر في الكواكب (٢/٢٠٣).

قصدوا أَخْذه لمراكبهم أو لغير ذلك.

وأُخبرت أن ناصر الدين بن عبد القوي- رحمه الله تعالى- عن الشيخ تاج الدين ابن شعبان ﷺ قال: قلت: يا سيدي أنت تحتد كثيرًا، قال: وكان في الشيخ حدة فقال لي: يا ناصر الدين، هذه الحدة.. أو قال: اعذرني، فهذه ما اكتسبتها إلا من كثرة صحبتي للسيد جبريل عليه السلام.

وقول الشيخ «قال لي جبريل عليه السلام، وقلت لجبريل» غير مستحيل ولا ممتنع، وإنما يعسر ذلك على من لا عرفه، ولا ألف قلبه عالم الملكوت؛ إذ قلوب الأولياء لها أنس بعالم الملكوت، ومخاطبات الملائكة، وملائمتهم أكثر من ملائمة غيرهم من الناس؛ لأنَّ أرواحهم وأرواح الملائكة مجتمعة في عالم الملكوت وأسرارهم سارية فيما وراء ذلك، وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ**﴾ [فصلت: ٣٠].

وفي قوله تعالى: ﴿**لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾ [يونس: ٦٤].

ففي هاتين الآيتين وغيرهما من الآي إشارة وكفاية مع عدم استحالة ذلك، ووجود جوازه، ولا يكون ذلك معارضًا في ختم النبوة.

وقول النبي ﷺ لا نبي بعدي، فليس هذا بنبوة ولا إرسال ولا وحي، وقد ورد «**إن الملائكة لتخفض أجنحتها لطالب العلم**[1]» فكيف بمن يطلب الله تعالى؟ وقد يكون ذلك في أخذةٍ أو غيبةٍ أو سِنَةٍ، فلا يحتاج إلى تأويل ذلك بالكلية؛ إذ ذاك جائز.

وأخبرني الشيخ تاج الدين كما أخبرني الشيخ ناصر الدين قال: كان الشيخ تاج الدين حين كنا نبني الرباط الذي هو الآن مدفون فيه بظاهر مدينة قوص، كان يبني طول النهار، فإذا جاع أخذ من قرظ هناك شيئًا فلفّه فأكله وشرب من ماء جدول الساقية.

الشيخ بهاء الدين الإخميمي[2]

ومن أصحاب الشيخ أبي يحيى الشيخ بهاء الدين الإخميمي- رحمه الله تعالى-

(١) رواه الترمذي (٥/٥٤٥)، وأحمد في مسنده (٤/٢٤٠).

(٢) نسبة لقرية إخميم، شرق النهر بمحافظة سوهاج، مصر.

كان جليل القدر، كبير الهمة، كثير الكرم، وله أحوال جليلة.

كنت يومًا عند بيت الشيخ ناصر الدين والشيخ بهاء الدين قد ورد، فأخذت فروته على كتفي، فأخبرني أن خادم الشيخ أبي يزيد كان يحمل فروته على كتفه -وكان رجلاً صالحًا- فجرى الحديث في مسائلة منكر ونكير في القبر، فقال ذلك الفقير -وكان مغربيا-: والله إنْ سألاني لأقولن لهما، فقالوا له: ومَن يعلم ذلك فقال: اقعدوا على قبري حتى تسمعوا.

فلمَّا مات المغربي، جلسوا على قبره فسمعوا المسائلة وسمعوه يقول: أتسألونني؟ وقد حملت فروة أبي يزيد على عنقي؟ وربما قال: مضوا وتركوه.

وقلت له: ياسيدي، توحشنا، وكان قد أنس فقال: ما أوحشك إلى ست سنين، وإنَّ ملك الموت أخبرني أنَّ عمري أربعةٌ وثمانون سنًة، ولي اليوم ثمانية وسبعون سنةً، وربما قال: إنَّ بيني وبينه صحبة ﷺ.

والكلام في حديث الشيخ بهاء الدين مع ملك الموت كالكلام في حديث السيد جبريل عليه السلام مع الشيخ تاج الدين، وكذلك أبو الطاهر، كان يخبر عن ملك الموت عليه السلام، وربما ذكر أنه جاء ليأخذ أحدَ أولادِه فمسكه عنه، ولعلَّ أجلّه ما كان جاء وهو الصحيح، وإنما ظهور ذلك كان كرامًة لأبي الطاهر.

وكذلك حكي عن الشيخ القرشي رضي الله عنه أنه دخل على بعض أصحابه وهو في الموت أو قيل له أنَّه مات فقال: فلان، قم فقام، فقيل له في ذلك فقال: ثم إلا ملك الموت، قلنا له رُح طرقاتك راح طرقاته.

وحكي عن الشيخ مفرج -رحمه الله تعالى- أنَّه قد ركب حمارًا وتوجه إلى مدينة قوص، وربما نزل يصلِّي أو يقضي حاجتَه، فوقع الحمار ومات، فقالوا له: يا سيدي، مات الحمار؟ فقال: لا، ما مات، وأخذ برسنه وقال له ما تقولُه الناسُ للحَميرِ عندما يسوقونها، فقام الحمارُ، وركبه الشيخ إلى أن وصل إلى مدينة قوص، فوقع الحمار ميتًا بإذن الله تعالى.

وكل ذلك جائز في إظهار إكرام الله تعالى لأوليائه، وهو من وراء ستائر العقول، ومن دائرة المحو والإثبات، ﴿ **فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**﴾

[الأعراف:٣٤].

وللملائكة حديث مشهور في تكليم الأولياء، كثير لا ينحصر، نقله الصالحون عن الصالحين من الأولياء، وعن أنفسهم مما لا يقع التهمة في قوله وفعله.

وإذا كنا نقبل شهادة العدول الذين عدلهم الحاكم، وتثبت بهم الأحكام الشرعية، فكيف بمن هم عدول عند الله تعالى؟ وأظهر الله تعالى كراماتهم وأماناتهم؟ وشهدت القلوب والبصائر لهم بذلك مع شهادة الحس؟

فهذا لا شك فيه ولا ريب إلا لِمَنْ كان في قلبه مرض وله في عداوة أولياء الله تعالى غرض، فنعوذ بالله تعالى منه ثم نعوذ بالله تعالى منه.

الشيخ سراج الدين بن قاضي عيذاب

ومن أصحاب الشيخ أبي يحيى الشيخ سراج الدين بن قاضي عيذاب، وقد كان صحب الشيخ علم الدين أولاً ثم صحب الشيخ أبا يحيى ثانيًا.

وكانت له أحوال جليلة، ولقد رأيته ليلةً في السَّماع وهم يصبون عليه الماء بالأزيار، وربما كانت الشتاء، وهو يطلب الماء من شدة ما يجد.

وكان قد جمع بين العلم والتصوف، أقام بمكة شرفها الله تعالى سنينًا كثيرة وفارق أهله ومات باليمن.

وكان مستديم الذكر، ويطوّل به بين الأحزاب، وكان يرقد ولا يكاد ينام، وكنّا حوله وغلمانه يكبّسونه، فإذا نعس أحد ذكّره. وكان مَن صَحِبه من الفقراء مباركًا، وكان له غلمان يتسببون ويتوجهون إلى الحرم الشريف، وكانوا على خير؛ يقرءون القرآن ويحضرون الأحزاب. وكان له غلام اسمه موفق، وكان خطيبًا، وأعتق الجميع.

وأخبرني سعيد أن الشيخ سراج الدين ليلةَ وفاته جعل يمشي في السطح ويقول: مَن أحبَّ لقاء الله أحبّ الله تعالى لقاءه، فلمَّا أصبح قال لي: قف على الباب، وقال لزوجته: ائتيني بقدح الشراب، فوقفت أنا على الباب، وراحت زوجته لتحضر الشراب، وأنا أسمعها تصيح، فدخلت لأجد الشيخ تحول للقبلة وتسجى ببردته، وانتقل إلى الله تعالى.. وكان قصده إخراجي وإخراج زوجته في ساعة عبوره إلى الله تعالى.

وقد تقدمت حكايته في خلعه ثوبه للصدقة في المرحاض.

الشيخ أبو عبد اللّه الأسواني[1]

ومن أصحاب الشيخ أبي يحيى أبو عبد الله الأسواني، كان مستديم الحال، مستغرقًا في الرحمة لا يشهد العذاب.

وكان قد أقام بإخميم وله زاوية هناك، ولَمَّا ذهبت إلى إخميم وهو بها، حضر الحاكم والشهود ومتولي البلد -وكان الشيخ في زاويته- فقالوا لي: هذا الشيخ أبو عبد الله يقول: ما ثم نار ولا يدخل أحد نارًا؛ فإنَّ النار أُطفئها بقدمي هذه، وما هذا معناه. فقلت لهم: أفيكم مَن أحبَّ حتى غلب الحبُّ على قلبه وغيَّبه

عن غير محبوبه؟ فإنْ لم تجدوا ذلك، أليس فيكم من يغلب عليه الغضب؟ وشغل الخاطر حتى يقصد مكانًا فيتعداه، ولا يعقل عنه؟ فقالوا: نعم فقلت: هذا الشيخ رجلٌ غلبت الرَّحمة على قلبه فغيَّبته عن العذاب، والعذاب موجود، ولكنه لا يشهده. قالوا: ورسول الله ﷺ قد أخبر بذلك؟ قلت لهم: رسول الله ﷺ كامل في نفسه، مكمِّل لغيره، داعٍ إلى الله تعالى، ورسول الله لجميع خلقه، فهو بشير ونذير، يخبر عن الجنة وما فيها من النعيم، وعن النار وما فيها من العذاب الأليم، ويدعو الناس إلى الله تعالى على الصراط المستقيم. وهذا رجل غلب عليه حال فغيّبه عن كلِّ شيء غير ما شهده من رحمة ربه تعالى، ولو ظهر من رحمة الله تعالى عُشر حُبِّه لغيّب ألف ألف مثل أبي عبد الله، فنحن نؤمن بحاله ولا نعترض عليه، لأنَّه ما جحد العذاب، ولا خالف الرسول ﷺ، وكان يحب رسول الله ﷺ، ويخبر أنه يراه في كل ساعةٍ حتى لا تكاد تمر ساعةٌ إلا ويخبر عنه.

---

(١) هومحمد بن يحيى بن أبي بكر بن محمد بن علي بن إدريس صفي الدين أبو عبد الله الأسواني نزيل إخميم كان مشهوراً بالصلاح يعتقد الناس بركته وينقلون عنه مكاشفات وكرامات كتب عنه الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد وأبو بكر بن عبد الباقي الخطيب وأبو عبد الله بن النعمان والشيخ قطب الدين بن القسطلاني والكمال ابن البرهان.

وكان من أصحاب الشيخ أبي يحيى ابن شافع .. وانظر: الوافي للصفدي (١/٦٦٦).

الشيخ محمد بن المخلص الإخميمي

ومِن أصحاب الشيخ أبي يحيى الشيخ محمد بن المخلص الإخميمي، وهو من المرابع، وكان رجلاً مباركًا، وهو الذي جرى له مع الصاحب زين الدين ما جرى، وقد تقدم ذكره.

ومن أصحاب الشيخ أبي يحيى أيوب العراقي والشيخ أبو العباس القنائي والشيخ داود الحذيم وجمع كثير لا يكادون ينحصرون من الكثرة، وكان داود ﷺ يختم القرآن كلَّ ليلةٍ، وكان ولده الشيخ نور الدين مباركًا.

الشيخ مجد الدين بن دقيق العيد(١)

ومن أصحاب الشيخ أبي الحسن الشيخ مجد الدين علي بن وهب القشيري، المدرس بالمدرسة النجيبية بمدينة قوص، ويُعرف بابن دقيق العيد، ينشر العلم ببلاد الصعيد، وكان مستديم الأعمال، صائم النهار، كثير تلاوة القرآن، مؤثرًا على نفسه،

(١) هو على بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة مجد الدين القشيري.

المنفلوطي، ثم القوصي، المعروف بابن دقيق العيد، والد الشيخ تقي الدين الآتي. والعالم العامل، الإمام الكامل، كان ممن جمع بين العلم والعبادة، والورع والزهادة، مع بذل الإحسان، وائتلاف الخاص والعام.

ولد بمنفلوط في رمضان سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، وبها نشأ، وحفظ القرآن، وسمع الحديث والأصول عن الحافظ بن المفضل المقدسي، وبه تفقه في مذهب مالك.

وعن البهاء ابن بنت الحميري، وبه تفقه في مذهب الشافعي.

وحدّث عن أبي أروح الأنصاري، وأخذ عنه الأكابر كالتقي والسراج والتاج والبهاء القطي والجلال الدشناوي والمحب الطبري والضياء الحسيني والنجيب ابن مفلح والقاضي شمس الدين ابن قدس والسراج الأرمنتي والنجم بن ناشيء والحافظ بن سليم والدمياطي والبدر بن جماعة وأحمد بن عبيد. وطلبه لقُوص ابنُ هبة لما بنى مدرسته بإشارة ابن الصباغ، فاستوطنها، فعمّت بركته، وانتشرت حفدته، وأقام شعار مذهب السنة من الأقطار، لالتماس دعائه حتى من الأمصار، وناب في الحكم بمنفلوط وأسيوط وغيرها.

وكان كثير التقشف، والتقلل من الدنيا، كثير التلاوة، حتى أنه ليقرأ في اليوم ختمتين، مع ما هو عليه من صيام.

مرّ يوم عيد بطيلسان شديد البياض، فقيل كأنه دقيق العيد، فجرى عليه.

توفي في ثالث عشر محرم سنة سبع وستين وستمائة. دفن بظاهر قوص، وقبره مشهور يقصد بالزيارة.

وانظر: الكواكب الدرية للمناوي (٥٤٠).

كثير الرحمة لعباد الله تعالى، يسعى للمسلم ولغير المسلم ويمشي في الشفاعة، ولا يمتنع عن أحد في ذلك، ولا يجعل لنفسه عذرًا في المشي إلى دور الولاةِ وغيرِهم مِمَّن له حاجة لمسلم أو لمن يستقضيه، وكان لا يفتر من تلاوة القرآن.

وأخبرني والده الشيخ تاج الدين أنه كان معه في يوم توفي الشيخ مفرج -قدس الله تعالى روحه- وأنَّ الشيخ مجد الدين تلا في ذلك اليوم إلى العصر ثلاثَ ختماتٍ.

وقد تقدم حديثه في الكلبة التي وجدت ميتة وأولادها صغار فقعد عندها، وقد أحضر قفةَ دقيق من بيته، وحملهم إلى بيته معه، وأطلق لهم اللبن بكرةً وعشيةً حتى كبروا، وكذلك كلب أعمى أدخله عند سريره وجعل يكفله.

وامتنع ولده الشيخ تقي الدين من دخوله بيت والده مدَّةً كبيرة، وحكايته في مرضه -وكان الشيخ علم الدين المنفلوطي عنده، كما حكى الزاهد عمر بن النضير وغيره- وكان الشيخ قد أشرف على أن يحضِّروا له في قنا، فقال للشيخ علم الدين رُدّوهم؛ فإنِّي سمعت قائلاً يقول لي: يا راقد، فديناك بزين الكمال - وكانت زين الكمال جارية عندهم صحيحة من غير مرض- فربَّما ماتت ثالث يومٍ وعوفي الشيخ مجد الدين رضي الله عنه.

وانتفع على يده جمع كثير -ووالدي من جملتهم- وظهر من أصحابه مثل ولده الشيخ الإمام تقي الدين، قد ولي القضاء بالديار المصرية، وكان له قدم في العلم والدين والحديث، وكانت القلوب تسكن إلى فتواه، وأخبرني أنَّه وجد من هذه الطريقِ شيئًا -يعني طريق الفقراء.

وأَخبرني ولده الخطيب محيي الدين -وكان رجلاً صالحًا- عن والده الشيخ تقي أن سريره ارتفع به.

وذهبت يومًا على الشيخ تقي الدين في المدرسة بالقاهرة أعزّيه في أخيه الشيخ سراج الدين رحمه الله تعالى، وكان يوم عيد الأضحى، لأجده يأكلُ كسرة ويشوي جبنة على النار يأدم بها، فقال: أنا أدعو على الكمال بن البرهان فقلت له: قدَّمت له خدمة فقال لي: ما أنا مثلكم يا فقراء، من آذاني دعوت عليه، والله لقد دعتْ عليه أعظمي، ثم سافرت، فجاءنا خبرٌ بموت الكمال بن البرهان على قدر المسافة.. وكان مجاب الدعوة رضي الله عنه.

الشيخ بهاء الدين القفطي(١)

ومن أصحاب الشيخ مجد الدين الشيخ بهاء الدين القفطي كان رجلاً صالحًا عالِمًا، اشتغل بالعلوم وكان مُفتِيًا، وهو في ذلك الوقت قيّمًا بالمدرسة، وجاء منه رجلٌ كبير ولقد رأيته مرّةً على يده شقفة فيها نار، أخذها من الفرن وهو رائح به إلى منزله رحمه الله تعالى.

وأقام مدَّة حاكمًا ومدرسًا بمدينة إسنا.

وأصحاب الشيخ مجد الدين كثير لا ينحصرون: فقهاء ومفتون وعدول، وكان كثير النفع لأصحابه ولعباد الله تعالى.

وأخبرني القاضي جمال الدين بن السقا أنَّ شخصًا أتى الشيخ مجد الدين وسأله أن يقترض له شيئًا يزرع به، ويعيده عند الحصاد، فقال الشيخ لشرف الدين الدشنائي: يا شرف الدين، أعطه تلك الوداعة -وكان الشيخ يتصرف في الوداعة على مذهب الإمام مالك ﵁ فأعطاه، فلمَّا كان أوان الحصاد لم يحضر ذلك الشخص شيئًا، وجاء أصحاب الوداعة يطلبونها، فركب الشيخ إلى إسنا عند أولاد السديد، ومعه شيء من مصاغ عياله فرهنه، وأحضر لأصحاب الوداعة الذي لهم، ثم جاء ذلك الشخص بعد ذلك يطلب شيئًا آخر، وقال: إنه لم يطلع له في هذه السنة شيء، وطلب شيئًا إلى السنة القابلة، فقال الشيخ شرف الدين: يا سيدي، ما كفى ما جرى، وكيف ركبت أنت ورهنت مصاغ أهلك؟ حتى وفّيت أرباب الوداعة ولم يحضر هذا شيئًا ما أعطيه شيئًا، فقال الشيخ مجد الدين: سبحان الله العظيم، لو كانت الحاجة لك كنت تقول كذا؟ وربّما أعطاه فأخذه وراح.

وحكاياته كثيرة جدًا.

وكان كثير الشفقةِ على خلق الله تعالى حتى كان يقول: اللهمّ ارحم عبادك وإلاّ انزع هذه الرحمة من قلبي، ويبكي رحمه الله تعالى.

ولما توفِّيَ وقصدوا دفنَه في قنا فلم يمكنوهم أهل البلد من إخراجه، وغلَّقوا عليه المدرسةَ، وكان في البلد ضجة عظيمة، ودُفن ظاهر قوص، رحمه الله تعالى.

---

(١) له ذكر في الكواكب، عند ترجمة مجد الدين ابن دقيق العيد (٥٤٠)، (٦٤٢).

الشيخ الجنيد بن مقلد رضي الله عنه

وأصحاب الشيخ أبي الحسن كثير ومنهم أناس في الغرب، وإنّما نحن نقتصر على ذكر من رأيناهم وسمعنا من رآهم فقط، ومنهم الجنيد بن مقلد السمهودي، كان قد صحب الشيخ أبا العباس الضرير، ثم صحب السيد أبا الفتح الواسطي، وكانت له أحوال جليلة وله أصحاب كثير وزاوية بسمهود، ونزل في بيتنا بالأقصرين عند والدي رحمه الله تعالى.

أخبرني مريده وصهره الشيخ مخلوف، أنّ الشيخ لما أدخله الخلوة، ولعله الشيخ أبو العباس الضرير أخبره عمَّا يحدث له في الخلوة من قراءة القط والخروف، ويحذره منهم، ويعرّفه كيف يعمل إذا خرجوا عليه، وأوصاه أن يذكر ولا يخاف، قال: فدخلت الخلوة وأنا أقرأ يس وإذا بقط قد جاء وقعد قدامي وقرأ معي يس من أولها إلى آخرها، وبقيت في شدّةٍ منه، فلمّا كان ثاني يوم أنا أقرأ وأذكر وإذا بخروف قد دخل عليَّ ووضع فمه على فمي وقرأ يس من أولها إلى آخرها، فلماكان ثالث يوم فتحت باب الخلوة على أنني إن جاء شيء خرجت، فإذا بثعبان عظيم قد نزل من على باب الخلوة وجعل يتكعكل حتى ملأ الخلوة عليّ وأنا أذكر الله تعالى حتى ذهب.

فانظر إلى هذه الأحوال العجيبة الغريبة.

وحكى الشيخ مخلوف المذكور صهر الشيخ الجنيد قال: دخلنا على أحمد بن سليمان رحمه الله تعالى حين وصل من العراق فرأيت في عينه حمرةً أو ماءًُ في عينه الواحدة، فقلت له: يا سيدي، ما هذا؟ فقال: إني كنت مُولَّهًا، فاجتزت بالعدوسية، وقد رمَوا في قِدر لهم أردب دشيش ورأس بقر، والنيران تقد وهم يطبخون، فجئت إلى القدر فجعلت أمدُّ يدي وآكل منها، فقالوا: أنت تَتَولَّه علينا، وحملوني ورمَوني في القدر، وجعلوا يدوسوني بتلك الدكاسيب التي يضربون بها الهريسة حتى نزلوا بي إلى قاع القدر، فدخلت قمحة في عيني أو قال: فلحقني هذا من ذلك اليوم.

وأخبرني الشيخ جمال الدين بن الشيخ عبد الله الجبلي - وكان كبير القدر عالما- قال: حضر الشيخ أحمد بن سليمان، وكان في زمن شجرة الدرّ، عملوا لهم نار تحت القلعة وامتحنوهم، فدخل الشيخ والفقراء ولم يتأثر أحد منهم بذلك، وربّما قال لي -أو

قاله غيره- : إن النار في ذلك اليوم بَطُل فعلها، فكانوا يجعلونها في أيديهم فلا تعمل شيئًا.

الشيخ أبو عبد الله المرسي رضي الله عنه

ومنهم مِمَّن رأيناه الشيخ أبو عبد الله المرسي، كنت غائبًا عن الأقصر وكانت الإقامة بها، فلما حضرت قال لي أخي كمال الدين: يا أخي، ورد علينا فقير وقال: (إنه رأى النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله ﷺ، الذي قيل عنك صحيح؟ فقال: وما الذي قيل عني؟ قال: **«من أكل مع مغفور له غفر له»**(١)، فقال: **نعم**، فقلت: ومن المغفور له حتى آكل معه؟ فقال ﷺ : المجد الإخميمي). قال: فرحت إليه فعرَّفته فبكى وأكلت معه.

قلت: فلم لا ألتمُّ معه بهذه النية؟ وقمت وبقي فقير، فمشيت من الأقصر إلى مدينة قوص ماشيًا، وجئت إلى الشيخ فوجدته في مسجد بيرموق، وعنده جماعة ما اشتهيت الاجتماع به وهم عنده وأنا عاري إلا من شيء ملتحف به وطاقية على رأسي، فقعدت بعيدًا والشيخ رضي الله عنه مد سماطًا لأولئك الجماعة، وأخذ زبدية -وأظنها حلاوة- فإنه كان يعمل الحلاوة كما اتفق بالعسل القصب أو بغيره، فأخذ الشيخ الزبدية وجاء إلى أن قعد أمامي ووضع الزبدية بين يدي وقال لي: أما أنا فآكل معك.

فأكلت أنا والفقير وبقي بيني وبينه صحبة إلى أن مات رحمه الله تعالى، وانتفعت به كثيرًا.

وكان طريقه الخوف، وأخبرني الشيخ أبو عبد الله أنه كان في حلقة القرشي -وما علمت أي قرشي هو- فقال لي: يا موسى، إذا وقف الريح يحط القلوع.

ودخلت يومًا على الشيخ أبي عبد الله المرسي فوجدته قد ظهر عليه حَبٌّ كثير فقلت له: ما هذا؟ فقال لي: من الخوف من الموت، فقلت له: الصالحون يخافون من الموت؟ فقال لي: يا فقيه، الرجل الصالح عندنا يسمى رجل جيّد، والله يا فقيه، أقدم على شيء لا أعرفه، والله إن أمور الدنيا أكثرها ما أعرفها.

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١٣٩١/٢).

ودخل عليه سراج الدين بن الصابوني وشمس الدين، فقال لهم: اقعدوا ليطعمهم فقالوا: نروح ونجيء فقال: ما تحدوني فكان كذلك، فإنه توفي إلى رحمة الله تعالى.

وقال: ما رأيت قَط ميتًا إلا سألته، حتى وجدت أمي، فقلت لها: أنا ولدك، ما تفضحيني فقالت: ما علينا أضر من التسويف.

الشيخ عمر البلقياني رضي الله عنه

ومنهم عمر البلقياني كان عندنا بالأقصرين أكثر عمره، وكان لا يكاد سنَة يفوته الحج فيها من البحر على طريق عيذاب، فربما حج ستًا وثلاثين أو أربعين حجة، فقلت له في ذلك فقال لي: إنا كنا حججنا مرّةً، فلمّا وصلنا إلى الريف، وجئنا إلى ساحل إدفو، وركبنا في المعدية غرق المركب في التعدية، فرأيت قبابًا نزلت من السماء- ذكر من صفتها ما ذكر- وصارت كلُّ قبة مقابلة رأس كل واحد من الذين غرقوا، وكان كل من غرق نزلت القبة عليه في الماء وغابت معه في الماء، وبقيت أنا أعوم والقبة على رأسي مقابلة رأسي، فلمّا طلعت ولم أغرق صعدت القبة إلى السماء ودخلت في السماء وغلقت السماء عليها، فأنا أطالب غرقة ما حصلت لي.

وإن كان الشيخ عمر قال ذلك فما طلب في الحقيقة إلا القبة التي رآها رحمه الله تعالى، وكان مبسوطًا خفيف الروح والكلفة، وكان معه كرسان وإبره وعكازه.

وأخبرني أنّه سافر الحجاز الشريف- ربما قال أوّل سفرته- في ستة عشر يومًا من بلده بلغيا. قال: كنت واقفًا على الساحل وحراقة عابرة فقلت لهم: تحملوا فقيرا لله تعالى؟ فقالوا: نعم. فحملوني، ووصلنا إلى قوص في سادس يوم، ولم يبقَ أحد ممن كان يقصد الحج بقوص، فطلعت إلى السوق، فأخذت معي قليلَ كعكٍ ولبن، فدققت الكعك وعجنته باللبن، وأخذت معي ماء وركبت البر وحدي وأنا لا أعرف طريقًا، فبقيت أسافر النهار، وإذا جاء الليل صعدت إلى بعض الجبال أويت إليها. قال: فوصلت إلى عيذاب في العاشر فوجدت جلبة لبعض الخدام واقفة، وهي تريد أن تسافر، ولم يبق للوقفة إلا يوم أو يومان فقلت للخادم: يا أخي، أتعرف الخادم الفلاني؟ أو كما قال، فقال لي: وما تريد؟ فقال: تحملني إلى الحجاز فقال: اطلع فطلعت، فسافرت في ساعتها، فبقينا تلك الليلة فأصبحنا جدة، فسافرت وما دخلت عيذاب ولا

جدة، فوصلت إلى الجبل ولحقت الحج في ستة عشر يومًا من بلدي- رحمه الله تعالى-.

الشيخ الشريف محمد السيسي رضي الله عنه

ومنهم الشيخ محمد السيسي، رحمه الله تعالى، شريف من أصحاب سيدي شهاب الدين السُهرَوَرْدي كان رجلاً صالحًا لا يعجبه إلا الجَلدُ والصدق، واقفًا مع الشرع، عمّالاً مجتهدًا، وكان في سوق الفقراء بالقاهرة ومعه مائتا درهم قراضًا، إن حصّل له فيها شيئًا أكل ما يخصه هو وعائلته، وإلا باتوا بلا عشاء، وكان صاحب الشيخ عبد العزيز والجمال ابن عيشة.

وكان رحمه الله تعالى إذا جاء إلى مصر من القاهرة يجيء إلى عندي بجامع مصر، وكنا نروح الحمّام وعليه دلق، فيقلبه يجعل ظهارته على جسمه وبطانته ظاهرًا، ثم إذا كان دخول الحمام يقلبه ثانيًا على تلك الصورة، وربما قلبه ثلاث مرات، ولا يلحق يغسله ولا عنده ما يغيره رضي الله عنه.

وصحبته مدة كثيرة، وكانوا مصطحبين هو والشيخ عبد العزيز والجمّال بن عيشة، وكنت بمصر تلك المدة ولم اجتمع بالجمّال ابن عيشة.

حكاية عن الجمال ابن عيشة رضي الله عنه

وحكى لي الشيخ عبد العزيز، رحمه الله تعالى، أنّ الفارس أقطاي جاءته خلعة أو شُقة من الروم، -وهي جامات جامات- وطلبوا منه يفصّلها قبًا ولا يقطع منها جامة، فلم يجدوا في مصر والقاهرة من يعرف يفصّلها ولا يقطع منها جامة، فقالوا للأمير: لم نجد أحدًا يعرف يعمل ذلك، فقال: فتشوا فقالوا: لم يبق إلا فقير يسمى الجمّال ابن عيشة، فطلبوه فحضر وفصّل القبا ولم يقطع منه جامة- أي ما قصّها- فقال: نطلبه غدًا قال: سهرت تلك الليلة عليه أخيط، فنعست فسقطت الفتيلة فأحرقت جامة من القبا، فصاحت الزوجة والأولاد، وصرخوا وخافوا عليّ من الشنق، فإن هذا ما رضي أحد أن يفصله ويقص منه جامة، فكيف وقد احترقت؟ ولا توجد في القاهرة ولا غيرها مثل تلك الشقة قال: فلما رأيتهم على تلك الحالة صفقت ورقصت وقلت: فكرت في رفا يرفيها لي أحسن مما كانت، وسكنت خواطرهم، وطويت القبا، وحطيته تحت رأسي وتوكلت على الله تعالى ورقدت.

فلمّا كان الصبح وأنا أسمع حس الخيل والشوشة، فقلت: إيش الخبر؟ فقالوا: أماثل الفارس أقطاي قال: فأخذت القبا ملفوفًا، وجئت إلى الخزانة فقلت لهم: هذا كان عندي، فأخذوه ورموه في الخزانة ورِحت طريقي.

من لطائف الفرج وعناية الحق بأوليائه

وهذه الحكاية لها نظائر، وهي من لطائف الفرج بعد الشدة، ومنها أنّني كنت ليلة في بيت صغير وحدي، فجاءني أخي مجد الدين عبد الحميد -وكان رجلاً صالحًا فقيهًا مجتهدًا، لا يُقدّم على آخرته شيئًا، متقيًا لله تعالى- فقال لي: إنّ عندي تشويشًا قلت له: من أي شيء؟ قال: إن زوجتي حامل، وقد قرُب أوان وضعها، وقد بقي لها شهران وهي يتيمة، ورُبِّيَت في نعمة، فإن تركتها ولم أعمل لها عادتها أو دونها انكسر قلبها، وإن أخذت على ذمتي شيئًا أخاف أن أموت وذمّتي مشغولة ولا عندي شيء.

فقلت له: يا أخي، تقدر تُخلي باطنك من هذه القضية وتردها إلى الله تعالى يفعل بها ما يشاء؟ قال: ما قدرت، فقلت له: اجتهد في ذلك، واطرد الخواطر عن قلبك كما تطرد العقرب عن جسمك فزيّق ساعةً طويلًة وقال: كأنني قد قاربت، ثم بقينا كذلك زمانًا حتى زيق طويلاً ورفع رأسه فقال لي: ما كأني إلا حصل لي ذلك.

فبينما هو يحدثني والباب يطرق، وإذا بامرأة هي عندنا في البيت فقالت: قد ولدت الصغيرة في هذه الساعة ولدًا ذكرًا فقلت له: كيف أبصرت تدبير الله تعالى؟ وما جاء إلا برفقته، ولا عليك فيه عتب، فقال: بقي شيء آخر يطلبون السابع، فقلت: يدبّر الله تعالى أيضًا، قد عرَفتَ من يدبر القضية، فلمَّا أصبحنا مات الطفل.

ونظير ذلك: ما حكاه لي والدي رحمه الله تعالى، أنّ شخصًا من مياسير بغداد، -وكان بزّازًا تاجرًا- اشترى جارية، فأحبها وشغف بها وشغلته عن معاشه وتجارته حتى عاد يبيع من أملاكه وينفق حتى نفدت الأموال والأملاك والغلمان، وانتهى الحال إلى أن عاد يبيع الأبواب التي في دار سكنه، ولم يبقَ إلا الباب الذي على الطريق، ويهدم من سقفها ويبيع، وانتهى الحال إلى أن بقي هو والجارية ثلاثة أيام لم يطعموا، وكانت حاملاً فضربها الطلقُ وهم في الظُّلمة والجوع فقالت له: يا سيدي، لك الأصحاب، وفضلك عليهم كثير، فلعلك تخرج إلى أحد من أصحابك يأتينا بسراج وشيء نقتات

به، فإنني إن وضعت هذا الطفل في الظلمة أموت وهو يموت- أو كما قالت- قال: فخرج، ولم يجد له وجهًا يقف على باب أحد، وهجَّ على رأسه إلى أنْ وصل إلى بلاد العجم، وأقام بها عشرين سنة، وحصل له بها مال، فخرج طالبًا إلى بغداد، فأخذه القُطَّاع في الطريق، فبينما هو يمشي عطشانًا، وإذا بأمير من أولياء الخليفة رآه وعليه آثار النعمة، فسقاه، وأمر بحمله، وقال له: إذا وصلت إلى بغداد استقصِ علي؛ فإنّي من أولياء الخليفة، وأراد نفعه.

قال: وصار إلى بغداد، فبينما الأمير سائر وهو يرى ذلك الشيخ على بغلة وعليه ثياب المحتشمين وخلفه المماليك والغلمان فسأله عن حاله، وما هذا الحال، فأخبره بصورة الحال الأول، وأنه لما ورد قال: رحت إلى داري لأنظر كيف صار الحال فيها، فوجدت عليها ستورًا وخدّامًا ومماليك، فسألت عن الدار ومن فيها، فقيل ابن داية الخليفة فاستخبرت عن أبيه، فقالوا: ابن فلان البزَّاز التاجر فسمُّوا اسمي، فلمَّا تحققت ذلك مرّةً بعد مرةٍ، فتوسّمت بمن يدل، وسألت شخصًا أن يدخلني فأدخلني، فوجدتُ شابًا جميلاً على مرتبته، وهو يتحدث في خاص الخليفة فقال: يا شيخ، إيش حاجتك؟ فقلت له: حاجتي ما تقال إلا لك وحدك، فنظر إلى من عنده، فخرجوا فقال: قل حاجتك فقلت له: أنت ولدي، فتغيَّر وجهه وقام ورفع الستارة ودخل، وإذا بجاريتي خرجت وبكت وتعلقت بي، واشتد بكاؤها وولدها، وقالت: يا سيدي، احك لي وإلا أحكي لك، فقلت لها: احكي لي.

فقالت: إنك لما خرجت وتركتني في الظُّلمة، وأنا في تلك الضرورة ولا عندي شيء وضعت هذا الطفل وهو مضطرب ولا قدرت أحمله، قالت: فرفعت طرفي إلى السماء، ولجأت إلى الله تعالى، فما أشعر إلا والمشاعيل والفوانيس والخدام قد هجموا علي، وكان في ذلك الوقت قد وُلد المأمون فلم يرضع ثدي أحد، فطلبوا له المراضع في بغداد كلها، وطلبوا أولاد الدروب حتى أحضروا المراضع فلم يرضع ثدي أحد، وكانوا قد سمعوا حسًّا، فدخلوا وحملوني إلى الدار التي للخلافة وهذا الطفل معي، فحين وضعوا المأمون في حجري وضعت ثديي في فمه رضعها، وكان في دار الخلافة من الفرح

والسرور، وخُلع عليّ ما ملأ مكاني وأحضروا إليّ الجواري والخدّام والفرش، وجعلوا لي مكانًا وحُمِل إليّ كل ما أحتاج إليه، فربيت ابنك مع المأمون في الرِّضاع والشراب والمكتب وركوب الخيل والرمي، إلى أن ولي الخلافة ولاه الخاص الذي له.

قال: ثم إنَّ ولده قال له: يا أبت، استغفر الله تعالى لي، وأدخل والده الحمام وألبسه وركبه، وقال: يا أبت، ما يمكنني أن أخفي هذه الحكاية عن أمير المؤمنين، فأخذني وأدخلني على أمير المؤمنين وحدّثه الحديث من أوّله إلى آخره، فعجب من ذلك وجعلني في مكان ابني وأشغل ولدي في غيره.

فسبحان من لا يضيع أحدًا من فضله وكرمه وإحسانه، فله الحمد والشكر على فضله وكرمه وامتنانه.

وحُكِيَ: عن أحد الملوك أنّه حاصر مَلِكًا، فأرسل الملك إليه يقول له: اصبر عليّ ثلاثة أيام أُخلي لك القلعة ولا تسفك دماء المسلمين فيما بيننا، فصبر ثلاثة أيام، فلمّا انقضت، أرسل إليه يقول له: قد انقضت الأيام فأرسل إليه يقول: اصبر عليّ الليلةَ، فقالوا لمملوكه: أستاذك ينتظر العشا ويات، إيش يريد يكون في هذه الليلة؟ فراح الرسول وأخبره الخبر.

قال: وكان لهذا الملك الذي حاصر القلعة مملوكان صغيران سلحدارية يرقدان عنده في الخيمة، وكان من عادته إذا قال لأحد «ما يبالي» يقتله، فاتفق أنه قال لأحد المملوكين: ما يبالي لأمر فعله أو لغير ذلك، فجاء المملوك إلى حشداشه وعانقه وبكى فقال له: مالك؟ فقال له: الساعة أفارقك؛ فإنّ الملك قال لي: ما يبالي وهو يقتلني فقال له حشداشه: ما تفارقني ولا أفارقك، بل يروح هو، فاتفقا على قتله فخلياه حتى نام وقتلاه وطلبا طريقًا إلى الملك المحاصر، فأدخلوهما عليه فقالا له: قم وانزل قد قتلنا الملك، فقام ونزل واستولى على الخيام والعسكر.

فانظر يا أخي رحمك الله تعالى إلى هذه اللطائف في الفرج، والحكايات في هذا الباب كثير، لكن قصدنا الأقرب فالأقرب، فإذا وقعت قصةٌ ولها نظائر فلربمَّا أضفت إليها ما كان مثلها.

وحَكى الشيخ عبد العزيز: أنّ أحد المشايخ تكلم كلمة أنكروها عليه، فكتب القاضي محضرًا وأثبته، وجعله في صندوقٍ على أن يشاوروا السلطان في قتل الشيخ.

فاشتدّ هذا الأمر على أصحابه ومريديه، فدخلوا عليه وقالوا له: أنت قاعد ساكت وقد كتبوا عليك محضرًا وهم يريدون يقتلونك؟ قال: ما قلنا شيئًا علينا فيه شيء ولا كذا ولا يؤاخذونا- أو كلام هذا معناه - فجعلوا على رءوسهم التراب وصاحوا واشتد بكاؤهم، فقال لهم الشيخ: أنتم تخافون من أي شيء؟ فقالوا: من المحضر فقال: هذا المحضر؟ وأطلع المحضر من تحت سجادته، فخرجوا من عنده وهم يقولون إيش يبالي الشيخ؟ أخذ المحضر من الغيب.

فسمع القاضي، ففتح الصندوق فلم يجد المحضر، فقام ولبس ثيابه وجاء إلى الشيخ وقال له: يا سيدي، أنت أخذت هذا المحضر من الغيب؟ فقال: نعم قال: فأرني إياه، فأعطاه له فقال له القاضي: يا سيدي، هذا الكلام الذي في المحضر، أنت قلته؟ قال: الذي قلتموه أنا ما قلته. فقال: يا سيدي، أشتهي أن أكونَ من أصحابك فقال له: والله يا قاضي، ما أخذت المحضر خوفًا على نفسي من القتل، ولأن أموت مظلومًا خيرٌ لي، وإنما خفت عليك أو أشفقت عليك لئلا تعترض على فقير صاحب حال فيُسلب الإيمان من قلبك كما سلبت أنا هذا المحضر من صندوقك.

الشيخ أبو الحسن بن العطار رضي الله عنه

وحكى الشيخ عبد العزيز عن الشيخ أبي الحسن بن العطار، وكان يسمى الحَرْمَلُ لكثرة فنونه في العلوم- والحرمل طائر في الغرب متلوّن بألوان كثيرة-

وكان كبير الشأن، مبسوط المعرفة، أحواله جليلة، وكلامه ونظمه يدلان على علوّ شأنه.

قال: كان الشيخ أبو الحسن جالسًا على دكان الخياط، وإذا بمخالط اجتاز بالشيخ، فقال له الشيخ: إيش بك يا مخالط؟ فسكت فقال: قل لي ولا تستح مني، فإني كنت مخالطًا مثلك، وكشف الشيخ عن ذراعيه ليريه آثار ذلك -والمخالط عبارة عن المحارف- فقال له المخالط: والله يا سيدي عندي معيشيق في البيت ولا عندي شيء، فقال الشيخ للخياط: عندك شيء تعطيه؟ فقال: يا سيدي، في البيت. فقال

له: إيش عندك؟ فقال: خمسة دراهم، فأعطاه الشيخ للمخالط وقال له: خذ بدرهم لحم ودرهم فاكهة ودرهم حلاوة، ثم التفت الشيخ إلى الخياط، وقال: يا خياط، ألك حاجة عند الله تعالى أقضيها لك؟

فقال له: يا سيدي، أكون معك في الجنة.

فقال له: ولك ذلك حاصل، أبصر إيش لك حاجة عند الله تعالى الساعة أقضيها لك؟ فسكت، فقال له: لا تستح فقال: يا سيدي، والله ما لي حاجة إلا امرأة رأيتها، فأعطيتها مائة دينار على أن تتزوجني، فقالت: هذه المائة دينار ما أكلمك بها كلمة، ومالي حاجة غيرها قال: فزيّق الشيخ ورفع رأسه وإذا بالمرأة جازت عليه وزلقت -أي وقعت- وأخذها القولنج.

فأحضرها قدام الشيخ فقالت له: يا سيدي، ضع يدك علي- أو كما قالت- قال: تتزوجي بالخياط، فربما قالت: ماهذا وقته؟ فوضع يده عليها فزال القولنج بإذن الله تعالى، وقال لخادمه: ودّيها إلى البيت، فوقفت فقال لها: مالك؟ فقالت: يا سيدي، ما أنت قلت إنك تزوجني بالخياط؟ فقال: حتى نستقصي منه إن كان يرضى، فأرسل خلفه وقال له: تتزوج بهذه المرأة؟ فقال: لا فقالت: والله يا سيدي لقد أعطاني مائة دينار على أن أكلمه كلمة فما فعلت قال: صدقت، ولكني الساعة ما عندي شيء، فقالت: يا سيدي، هو أعطاني مائة دينار ما فعلت، وهذه خمسمائة دينار من عندي ويتزوجني، فقال الشيخ: اطلبوا الحاكم والشهود، فحضروا وزوّجها الشيخ للخياط، وقال له: يا خياط، هذه خمسمائة دينار كل درهم بمائة دينار والمرأة بلاش.

فانظر يا أخى، رحمك الله، إلى هذا التصريف ما أعجبه.

الشيخ فايد القروصي رضي الله عنه

وممن رأيتهم فايد القروصي ثم الزرنيخي بدوى من الفلاحين، طويل أسمر مشتمل بشملة، بيده عصا وجراب، متجرد مغطى العين الواحدة مطموسة، يخط بالنوى ويخبر الإنسان عن أحواله الماضية والمستقبلة، ويخبر بالعجائب والغرائب لا يكاد يخطئ فيما يقوله إلا نادرًا، فإنّ الناس كانوا يكثرون عليه.

وأمّا إذا جاع أو صام فلا يكاد يخفى عليه شيء مما يخطر في النفس.

أقام عندنا سنين كثيرة، وكان يصوم رمضان في مسجد البدمود في بعض السنين، ولا يكاد يفارقنا، وكان يموّه بالخط، وإذا أُعطيَ شيئًا أخذه، وكان يقول لي: إنّ رزقه كل يوم درهمان ورقًا، فإذا زاد شيء من هذا اليوم نقص من غيره في الأيام الآتية.

وكان بدء إرادته علي ما أخبرني به أنه يحصد في زرع، فحصل له عطش شديد، وكان في شهر رمضان قال: فرأيت البحر - بحر النيل - فلم أجد أحدًا إلا جواميس، فنزلت بحر النيل فشربت وطلعت، فلمّا كان الليل رأيت في النوم كأن القيامة قد قامت، والطلب علي لصٍّ فحصل عندي خوف، فجئت إلى صغار المكاتب، فقعدت عندهم فجاء الزَّبانية فأخذوني، وقالوا: أنت اللصُّ فقلت: والله ما سرقت شيئًا، فقالوا: سرقت الصومَ في شهر رمضان، فأوقفوني بين يدى الله تعالى فأنكرت ذلك فقالوا: عليك البيِّنة، الماء الذي شربت منه، والجواميس التي كانت حاضرة قال: وجاءت الجواميس والماء، وبقيت في الماء علي الحالة التي كنت عليها وقت شربت، وشهد الماء والجاموس فقلت: يا رب، أتوب فاستيقظت وعدّيت إلى بر الغرب، وبقيت سائحًا في البر أصلي وأذكر الله تعالى، واحتفرت لي في الجبل حفيرًا كالثعلب.

وكنت إذا غلب عليّ الجوع أو جعت أوكما قال بعد ثلاث آكل من حشيش الأرض، وإذا عطشت نزلت إلى البحر فأشرب بكفّي، فبقيت علي ذلك مدة، فجئت يومًا لأشرب، وإذا بسمكة وذنبها أحمر ضربت بذنبها وقالت لي: والله لولا أمر ما لأخبرتك بما جرى في البحار، قال: فخفت، وقلت في نفسي: السمكة لا تتكلم، إلا أنني زال عقلي، دعيني أكضُّ في العبادة حتى أموت قبل زوال عقلي.

ومعنى أكضُّ: أجد، وإنما هذه صورة عبادته.

قال: فبقيت كذلك وإذا عصا - أو قال عصاي أو جرابي - كلّمتني وقالت: إنَّ بساحل البحر مركبًا رزقك منها رغيف بين أربعين رغيفًا، وعلامته كذا وكذا، فنزلت إلى البحر، فوجدت المركب، فقلت لصاحب المركب: أعطني الرغيف الذي صفته كذا وكذا، فقال: رُحْ يا شيخ كلب، وقام إليّ بالعصا وأنا واقف، ثم أخرج مركبه ليسافر، فانكسرت رحل المركب، فكلموه الرُّكاب فلم يفعل، وربما قال لهم: ما تقدروا تسافروا حتى تعطوني الرغيف، قال: فخرجوا ليسافروا، فانشق القلع من أوله إلى آخره، فأخذ

الرئيس الأربعين رغيفًا وأتى لي بها، فعرفت الرغيف بالعلامة التي وُصفت لي، قال فايد: وبقيت كذلك مجتهدًا في العبادة.

وإذا ملكان نزلا من السماء وبهما في ميزان كل واحد منهما كفة، فأضجعاني ووقف أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي: شمَّ رجليه فشمَّهما قال: طيبتان، ما مشتا في معصية الله تعالى، فقال: شمَّ ساقيه فشمَّهما وقال: طيّبتان، قال: شم فخذيه، قال: فشمّهما فقال: طيّبتان قال: فشُمَّ فرجه فشمّه وقال: طيّب، قال: فشمَّ بطنه فشمَّه وقال: طيّب قال: شمّ فمه قال: طيّب كذلك، قال: شمّ أنفه فشمّه وقال: طيّب قال: شمّ عينيه فشمّهما وقال: إنّه ينظر إلى ما لا يجوز له مما لا يحلّ له قال: نرفع القمع الذي في يده وقال: والله لولا دخولك تحت ذيل النبي ﷺ لأضربنّك ضربةً تخرق الأرض السابعة، قال: ثم شقًّا بطني فأخرجا قلبي وغسّلاه وردّاه إلى بطني، قال: وخلّصا جمجمة رأسي وكتبا عليها رزقي، وأجلى علي جبيني، وقال: اكتب كذا وكذا سنة وعشرة مركعة وردها علي حالها وتركاني وصعدا إلى السماء ودخلا فيها.

وبقيت متعوجًا، وخشيت أن يأكلني الذئب، فإذا بطائر ضرب بجناحه على بطني فصار كما كان، قال: وبقيت على حالي، ورأيت شيخًا بين يديه قناني ما علمت ما فيها، فلمّا نَعِسَ أخذت قنية فشربتها، ففتح عينيه وقال لي: شربت القنية؟ قلت: نعم فقال: حصل لك حبّتان من العلم، وكان له كشف كبير.

قال فايد: فبينما أنا ذات يوم أسيح أو أمشي، وإذا أنا بامرأة جميلة وعليها أثواب- كأنّه قال حُمر أو صُفر أو كما قال أو قال غير ذلك- فعانقتني وقالت: أنا زوجتك ورقَدت معي، فخرجت من تحتي حية، فقمت فقال لي الجبل: إليك عنى يا عاصٍ، وقال لي الشجر: إليك عنى يا عاصٍ، وهربتُ وبقيتُ أجري، وأيَّ شيء قرُبْت منه يقول إليك عنى يا عاصٍ حتى دخلت الزرع فصار الزرع ينفسح عنى يمينًا وشمالاً ويقول إليك عنى يا عاصٍ، وبقيت أجري وأتوب وأبكي- وربما قال شهرين أو أربعة- حتى ردّ الله تعالى عليَّ حالي، وتاب علي.

وكانت له أحوال، وكان قد صحب أيضًا شخصًا من الجان المتعبدين، وكان

يأتيني مِن عنده بمسائل يسأل عنها في أمور دينية في الوضوء والصلاة مما يحتاج إليه في العبادة، كما يسأل الفقير المبتدئ.

وكان فايد أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، وكان قد جُذب جذبة فحصل له ما حصل، ولقد كنَّا ليلةً في ساقية ابن شقير بائتين، وقد جاءني فايد بالليل، فقال لي إنّه قام لقضاء الحاجة، فلمّا أراد أن يستبرئ قال: أخذت روثة من روث البقر، وإذا مَلَكٌ بيده دبوس أو كهيئة الدبوس، فأومأ إليّ أنْ أرميها فرميتها، وأخذت عظمة فأومأ إلى أنْ أرميها فرميتها قال: فأخذت طينًة من الإبليز فقال: بمثل هذا.

فانظر يا أخي، رحمك الله تعالى، إلى هذه العناية وهذا التعليم الإلهيّ من غير معلم ولا مسلِّك من البشر ولا مسلِّك علي طريق السالكين؛ لأنَّه مجذوب ومختار لذلك قال الله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**﴾ [البقرة:٢٨٢].

وكان فايد يخبر الناس بآجالهم وأرزاقهم وما يتّفق لهم، ويظهر أنّ ذلك من خط النوى، وكانت النوى مربوطة معه في شَمْلَتِهِ حيث كان.

إبراهيم بن إسكندر

ولقدكنت أعرف شخصًا يُسمّى إبراهيم بن إسكندر، وكنَّا بالأُقصر، فمرَّ بزاوية ظاهر الأقصر وفيها الشيخ شمس الدين بن الصابوني، وكنتُ أكره الكلام في أيام شهر رمضان، فقلت له: يا إبراهيم، لا تتكلّم واجلس في زاويتك، فدخل زاويته وجلس فيها، وكان أميًّا وفى باطنه سلامة، فقلت له: إمّا أن تذكر الله تعالى أو تقرأ القرآن، فبينما أنا ذات يوم وإبراهيم قد خرج وعليه آثار الوارد، وقال لي: يا سيدي، ما أعرف إيش أصابني؟ وما أعرف تغيّرًا عن الغيبة التي غابها والحالة التي وردت عليه قال: (رأيت رسول الله ﷺ وقرأت عليه سورة كذا وكذا، وأرانا المكان مكتوبًا في لوح معه قال: ومعه السيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فنظر إليّ السيد عمر، فخفت منه ودخلت زاوية).

وبينما نحن ذات يوم، وهو خرج وقلنا له: لا تتكلمْ قال: يا سيدي، ما أعرف إيش أصابني؟ قال: رأيت نورًا وقال لي: ياعبدي، كلَّ حسنة من حسناتك أمحو بها خمسين سيئًة.

ثم بقي علي هذه الصورة أيامًا يسيرة حتى غبطنا فخطر له الزواج، فقلت له: لا تفعل، فقال: لا بد -وكنت خشيت عليه من تفرُّق خاطره، واشتغاله بما يجب عليه من

أمر الزوجية والكلفة، وابتداءِ الحال لا يحمل ذلك، ويقع الحجاب وتنعكس الأحوال- فلمّا رأيته ألحّ في ذلك زوّجناه فما هو إلاّ أنْ حصل له اجتماع بالزوجة، فورمت محاشمُه -أعني الأُنثيين- والإحليل ورمًا شديدًا فنزل إلى البحر ليزيل منه ما تزلع كالمطّاهرين.

فبينما هو يفعل ما يفعل المطّاهر، وإذا بحدأة قد نزلت وأنشبت مخالبها في محاشمه فمزّقت منها ما مزّقت وقطّعت ما قطعت، فلا تسأل عن حاله وما لقي، ولقد رأيته بعد مدة وبيده صغير -وهو ولده- وهو يعمل في الطواحين، يغربل القمح بالأجرة، ولم يبقَ عنده من تلك الأحوال شيءٌ، وحُجبت عنه؛ لأن القلب ماله إلا وجهة واحدة، فمتى توجّه إليها حجب عن غيرها.

الشيخ صالح الحبشي رضي الله عنه

ومِمَّن رأيته الشيخ صالح الحبشي، وكان بنى مكانًا بظاهر دمامين، وكان يشهر عنه أنَّه بات وأصبح يقرأ القرآن، وكان أميًّا قبل ذلك.

الشيخ نجم الدين الكُبّري رضي الله عنه(١)

وحكى الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عن الشيخ نجم الدين الكُبَّري: أنّه كان أميًّا وكان عظيم الشأن، وكان مجاب الدعوة، وكان له كرامات وآيات وعجائب.

وكان الشيخ الأوحد - أوحد الدين الكرماني - ذلك الوقت يتكلم علي المنبر والخليفة جالس، وكان الخليفة مريد الأوحد، وكان يشتغل عليه، وكان كل من يروح إلى عند النجم الكبري ما يرجع إلى الأوحد، فحصل عند الشيخ أوحد الدين من ذلك

---

(١) هو الشيخ أحمد بن عمر بن محمد. الإمام أحد الأعلام، الزاهد الكبير الشأن، قطب أهل الإسلام، برهان الطريقة، ناشر ألوية الحقيقة نجم الدين الكبرى، كالعظمى أبو الجناب - بفتح الجيم وشد النون- الصوفي شيخ خوارزم.

كان إمامًا فقيهًا، محدثًا مفسرًا، صوفيًا زاهدًا عابدًا مسلكًا، شاع نبأ علمه، واهتدى العلماء وأهل التصوف بضياء نجمه، طاف البلاد، وسمع بها الحديث من السلفي وغيره، ثم استوطن خوارزم، وصار شيخ تلك الناحية، عظيم الجاه، وافر الحرمة، ولا يخاف في الله لومة لائم.

وقال ابن نقطة: هو شافعي المذهب، إمام في السنة، أخذ الحديث عن جمع انتهى.

انظر: طبقات السبكي (٢٥/٨)، ومرآة الجنان (٤٠/٤)، والشذرات (٧٩/٥)، والكواكب (٤٨١).

شيء، حتى عاد يتكلم علي المنبر بكلام يوهم بذلك مثل أن يقول: الجهل ينقاد إلى الجهل.

فاتُّفق أنّ الشيخ أوحد الدين تكلم يومًا علي المنبر، وقال للنقيب: مَن له سؤال فليسأل، فجاء إنسان بمسألة، فقال الشيخ أوحد الدين: يا صاحب السؤال - أو قال أنا أعرف- في هذه المسألة مائةَ وجه، بل مائتي وجهٍ، بل ثلاثمائةَ وجهٍ، فقام فقير من أصحاب الشيخ نجم الدين الكُبَّري وقال: يا سيدي أوحد الدين، قلتَ إنَّك تعرف في هذه المسألة ثلاثمائةَ وجهٍ، صدقتَ؛ فإنَّ الله تعالى فتقَ لسانَك بالعلوم، لكن تقدر تُقيم الدليل علي مسألةٍ واحدةٍ بوجهٍ واحدٍ؟ فقال له: وما مسألتك؟ فقال له: تقدر تقيم الدليل علي أنَّك مسلمًا؟

فلم يحمل الشيخ منه هذا الكلام، فقال له: ما الشأن فيك -أو كلام هذا معناه- ولكن شيخك الكذا وكذا، وذكر كلامًا، وسمّي الشيخ نجم الدين الكُبَّري.

فعندما ذكر الشيخ النجم رجمه الناس، وطلعت مماليك الخليفة حتى أخذوه وأدخلوه بيت الخطابة وشهروا السيوف حتى منعوا العوام منه، وراح العوام إلى بيت الشيخ أوحد الدين في المكان الذي هو فيه، وقال له: يا سيدي، والله لقد عزَّ عليَّ الذي جرى، فقال له الشيخ: وعزَّ عليك؟ ليس والله لو فعلت به كذا وكذا -وقال كلامًا لا أتحقّقه من الأذى للشيخ النجم الكبري- فقال له الخليفة: يا سيدي، هذا الرجل لا يخلو إمّا أنْ يكون وليًّا لله تعالى أو لا، فإنْ كان وليًّا لله تعالى فكيف يحلّ لك أن تتلف عليّ آخرتي؟ وإنْ كان غيرَ وليّ فكيف يحلّ لك أن تُجرّئ العوام على خلعي من الخلافة وشق عصا المسلمين؟- أو كلام هذا معناه- وأنا فما أقدر أن أقتل كل مَن في بغداد، فقال له الشيخ الأوحد: وأنا أسافر، فقال له الخليفة: هذا إليك أو كما قال.

ثم إنَّ الخليفة زوّده زوادة عظيمة، وسافر إلى بلاده وأقام بها سنة، فكان كأحدِ الناس، لم يجد الخليفَة مريدَه، ولا أحدًا يعظّمه فتفكّر في نفسه وسبب خروجه من بغداد، فوجد ذلك من حظ نفسه، فقال لنفسه: هذا مِنْكِ، كونُك حُرِمْتِي مِن هذا الرجل الصالح العظيم القدر، من كون الناس يروحون إليه.

فقام واستغفر الله تعالى وسافر مستخفيًا من بلده إلى أنْ وصل إلى بغداد، فسمع به الخليفة فخرج للقائه، وجاء الشيخ الأوحد للشيخ النجم الكبري ووقف في الاستغفار ثلاثةَ أيامٍ، والشيخُ يخرج في حاجته ويراه ولا يقول له شيئًا، فلمَّا كان بعد ثلاثةِ أيامٍ، أمر الخادمُ بإدخاله عليه، فلمّا دخل قام إليه واعتنقه وجلسا، فقال له الشيخ أوحد الدين: يا سيدي، أنا قد جئت معترفًا، وقد عرفت من نفسي ما عرفت، فكيف تركتني ثلاثة أيام؟ أما رعيت حقَّ العلم؟ فقال له الشيخ النجم: ما تركتك ثلاثة أيام إلا لجهلِك بمعبودي، فقال له الأوحد: تقول إنَّني جهلت معبودَك وقد صنفت في معرفة الله تعالى تسعًة وتسعين كتابًا؟! فقال له الشيخ نجم الدين الكُبَّري: لو عرفتَ ما صنفت فيه! فقال: فقام الشيخ الأوحد وأعجبه ذلك، وربما اعتنق الشيخ الكُبّري، وربما لبس عنه.

وعطاء الله تعالى ومواهبه لا تتوقف على شرط في الأمية ولا في غير ذلك، بل هي الإرادة الإلهية يختصُّ برحمته من يشاء.

ومن شعر الشيخ نجم الدين الكُبَّري:

قــد سَمِعْنــا أنينَــه مِــن قريــبٍ فاقصِـدوا الحسَّ حيثُ كـان الأنِـيْنُ

مــا تــراه العيــونُ إلاّ ظنونًــا هــو أخْفَـى مِـنْ أنْ تَـراهُ العيـونُ

لم نَعْــنِ أنَّــه خليــدٌ ولكــن طلبتْــهُ فلــمْ تَجِــده المنــونُ

فَهْـوَ حـيٌّ لم تَحْـوِه طـرفُ حـيٍّ وهــو مَيْــتٌ في جِسْــمِه مَــدْفُونُ

ومِمَّا حُكِي عن الشيخ نجم الدين الكُبَّري ﷺ أنَّه كان له مريدٌ يسمى مجد الدين وكان- أي مريده- جاء إلى الشيخ النجم ليحيله على مجد الدين يربيه ويدخله الخلوة، وكان للسلطان بنت، فسمعت بصفات الشيخ نجم الدين وأحواله فحصل لها اعتقاد عظيم، فلبست الصوف وتوجهت إلى الله تعالى.

وهذا يدل على أنَّ الشيخ النجم كان ذلك الوقت ببلاد العجم، وكان زوج بنت السلطان محمد يحبها، وكان يكره أنْ تكون على هذه الحالة، فشكا ذلك إلى السلطان محمد، وصار كلَّما سأله السلطان عن حاله، يقول: خرب بيتي وخرب إقطاعي، فيقول

السلطان لزوجته أن تكلم بنتها، ويقول: هذا الرجل نحن نستحي منه وهو نائب العسكر، فتقول له: يا خوند، إيش أقول لبنيتي؟ أقول لها: لا تصلِي؟

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْداً إِذَا صَلَّى﴾ [العلق:٩، ١٠].

فتقول: هذا الشيخ في زاويته، وهذه المرأة في بيتها، إيش كان الشيخ؟

وكان لزوجها مقاصد غير مقاصدها مما جرت عادتهم، فاتفق أنّ زوجها صار يشكو حاله للسلطان، ويجعل اللوم على الشيخ مجد الدين، ويقصد قتله، فأُطلعت زوجته على ذلك، فسيَّرت قالت للشيخ مجد الدين: يا سيدي، لا تخرج بالليل، فقال الشيخ: رأيت رأسي قطعت من خمسة أيام.

واتفق أنَّ زوجها جلس مع السلطان على حاله، فقال له: تمنَّ فقال: يا خوند، طلبتُ منك فقيرًا ما أطلقته لي، فقال له: أفتصل للفقير؟- أو كلمة تقتضي ذلك- فخرج، فوجد الشيخ مجد الدين راكبًا في الليل، فضرب عنقه، ودَفن رأسه في الثلج أو دفنه في الثلج.

وجاءت بغلة الشيخ مجد الدين إلى الزاوية، فدخلت الزاوية، وما عليها أحد، فقال الشيخ النجم: قُتِل الشيخ مجد الدين، فلما أصبح السلطان وجد البلد قد صَخَمها الناس بسبب قتل الشيخ مجد الدين، فقال السلطان: إيش قضية البلد أخذها عدو أو طرقها عدو؟ فقالوا: لا فقال: ما بالهم صخموا البيوت؟ قالوا لأجل قَتْل الشيخ مجد الدين، فقال ومن قتله؟ قالوا: أنت أمرتَ بقتله، فقال: مَنْ قال؟ قالوا: صهرك قال: فأخذ السلطان صهره في الجنزير، وجاء إلى الشيخ النجم فلم يَفتح له، فعاود المجيء ثلاثةَ أيامٍ فلم يَفتح له فقال: يا سيدي، إنَّ الله تعالى لم يغلقْ باب التوبةِ، وأنا ما جنيت.

ففَتح له، فأدخل صهرَه على تلك الصورة، وقال له: يا سيدي، والله ما أمرت بقتل الشيخ مجد الدين وهذا الغريم، وقد قال الله تعالى النفس بالنفس، فقال الشيخ: إنَّ نفس عدو الله تعالى لا تكون بنفسِ وليِّ الله تعالى، وأنا فمَا أقتلُ هذا، فقال: يا سيدي، فاطلبني أنا من الله تعالى، فوالله ما أمرت ولا قتلت ولا لي في ذلك مدخل- أو كلام هذا معناه- فقال الشيخ: رُحْ وأتني بعد ثلاثةِ أيام.

فجاء السلطان بعد الثلاثة أيام فقال للشيخ: إيش كان من أمري؟ فقال له

الشيخ: والله لقد دخلت على الله تعالى من أسمائه الحسنى بتسعة وتسعين اسمًا، فكل باب دخلت منه يحول مجد الدين بيني وبين الله تعالى ولا يدعْني أصلُ إليه، فقال له: يا سيدي، فكيف الحيلة؟ فقال: والله ما بقي حيلة؛ فإنَّ الله تعالى قد غضب لوليّه، وإنَّه يأتي عدو من هذه الجهة -وأشار بيده إلى الشرق- يكون فيه ذهابُ ملكِك، ويروح رأسي في الوسط، وتُؤخذُ البلاد، ويروح رأس ولدك جلال الدين.

قال: فلم يلبثوا أيامًا حتى غارت التتر على البلاد، وكان أوَّل خروجهم، وسبب تسلّطهم فيها لَمَّا قرُب مَلِكُ التتار من المدينة التي بها الشيخ النجم، سيّر إلى الشيخ وقال له: كم أصحابك؟ حتى تسير قرمانًا فقال: أصحابي كثير وقصد الشيخ أن يسلّم الناس فجاءت الرسلُ وراحت وعادت، وفيما بين المجيء والرواح ساح الفكر وقُتل الشيخ النجم ولم يُعرف.

فانظر رحمك الله إلى هذه الحكاية.

روايات في كرامات الأولياء

وحكى لي الشيخ عبد العزيز- رحمه الله تعالى- قال: كان فقيرٌ دخلَ على فقراء في مكان فبقوا ثلاثة أيام لم يطعموا، فقال: تخلّوني نَسأل لكم شيئًا، فقالوا: إنَّ بالبلد رجلاً يكره الفقراء فقال: درْوِزُوه -أو خلِّي مَن يُريني مكانه لأُدَرْوزَه- فراح معه فقيرٌ أراه له فوجد رجلاً جليلاً، والوالي عنده والأكابر، وهو يبتاع فرسًا بخمسمائةِ دينارٍ، وأخلع على الذي شراها منه، وهم يكتبون عهدتها فقال له: سلام عليكم فقالوا: وعليكم السلام فقال: الفقراء يدروزوك في هذا الفرس، يذبحوها ويأكلونها فقال: إن ماتت يأكلوها فقال له: الفقير أهم كلاب؟ قال: نعم، قال: وما تخاف من الفقراء ينطحوك بقرونهم؟ فقال: الفقراء لهم قرون؟ قال: نعم، وإن شئت أريتك فقال له: أَرِني فقال: فيك أو في الفرس؟ فقال: في الفرس، فأشار بأصبعه إليها فارتفعت في الهواء وسقطت ميِّتة، وقال: إن شئتم خسفت به وبداره الأرض، فوقع على رجلين، فقاده بأُذِنِه إلى الفقراء، وتجرَّد ورجع إلى الله تعالى.

فإيَّاك ثم إيَّاك والاعتراض على أولياء الله تعالى.

وقد حُكي أيضًا: عن عبد الرحمن شَمْلة أنّه عزم عليه أحد الأمراء ببغداد، وجمع أصحابه والأكابر يتبركون بالشيخ عبد الرحمن شملة، فلمَّا قدم السّماط جاء فقيران من المسافرين فقال أحدهما لصاحبه: هذا عبد الرحمن شملة، ذُكِر أنَّه ما غضب قط، إيش

تقول فيمن يغضبه؟ فتراهنا على ذلك، فدخل ذلك الفقير إلى السّماط، وجعل يأخذ منه على صورة النَهِم بين الأكابر، وعليه زيُّ الفقراء، فعندما رآه الشيخ عبد الرحمن شملة كذلك غضب ثم رفع رأسه إليه، وقال له: يا فقير، إمّا كونك تظهر الاحتياج والتَّنهم بين أبناء الدنيا وتظهر الفقر بهذه الصورة حتى أغضب فأنا أغضب لمثل هذا - ألاّ يظهر الفقراء بصورة النّقص- وإنَّما كان الشأن أنْ تغضبني في نفسي- أو كلام هذا معناه- فجلس الفقير في الوسط، وامتنع الناس من الأكل، وزيّق الشيخ عبد الرحمن شملة، ثم رفعَ رأسَه وقال: ارفعوا صاحبكم؛ فإنَّه أراد أن يُدخلَ علينا الغضب فرجع إليه

وقال: إنَّه يحلُّ الشيطان محلَّ الرحمن- أو كلام هذا معناه- فحملوه وحرّكوه فوجدوه قد مات؛ فحلف ذلك الأمير ألاّ يجمع بين الفقراء وغيرِهم في مجلس واحد أبدًا.

أمر الله ورسوله ﷺ في الشريعة المطهرة بموالاة أولياء الله وأن الاعتراض عليهم هو تشبه باليهود والنصارى

فإيَّاك يا أخي والتعرض على شيء من ذلك؛ فقد ورد عن الله تعالى:

«**من آذى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة**(١)»، والأذية تقع بحسب العادة في إساءة الأدب بقولٍ أو فعلٍ أو قلة الإكرام والتعظيم، لا سيما إن رأيت الملوك والأمراء بصورة التعظيم والفقراء بغير ذلك في مجلس واحد، ولم تقم بحقوقهم، فإنّه حقُّ الله تعالى.

وفى نَصّ التنزيل: ﴿**أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ**﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

وقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الغَالِبُونَ**﴾ [المائدة:٥٦].

وقد ذكر الله تعالى أولياءه في غير ما موضع من القرآن العظيم، وذكر أولياء أوليائه فقال تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ**

(١) رواه البخاري (٥/٢٣٨٤) بلفظ :«من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب»، ورواه البيهقي في سننه (١٠/٢١٩)، والشهاب القضاعي في مسنده (٢/٣٢٦) نحوه.

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾[التوبة: ٧١].

وذكر تعالى أولياء الشيطان فقال تعالى: **﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾** [التوبة:٦٧].

ولم يكن هذا نسيانًا، فإنّ الله تعالى لا ينسى، تنزَّه الله وتعالى عن ذلك، **﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى ﴾** [طه: ٥٢].

وإنّما ذلك لمقابلة الأوصاف، قال الله تعالى:

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٩].

ولم يراقبوا الله تعالى فيما أمرهم به ونهاهم عنه، وأهملوا هذا الأمر ورجعوا إلى شهواتهم وكفرانهم وما هم عليه جازاهم الله تعالى بعدم المبالاة بهم فيما يعذبون به من العذاب والخزي والنكال والهوان في الدنيا والآخرة، والذي حصل لهم في الدنيا من القتل والأذى والعذاب، كالغرق لقوم السيد نوح عليه السلام وعذاب قوم السيد هود عليه السلام وقوم السيد صالح وقوم السيد لوط عليهما السلام ولعذاب الآخرة أشقُّ ولعذاب الآخرة أخزى، فجعلهم مع ذلك العذاب كالْمُهمل ينسى لهم وكل ذلك بعلمه وإرادته وقدرته، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء سبحانه وتعالى.

وقد ورد عن الله تعالى: **«اشتد غضبي على من ظلم مَن ليس له ناصرٌ غيري[١]»**.

وورد أيضا: **«اتقوا دعوة المظلوم فإنَّه ليس بينها وبين الله تعالى حجابٌ[٢]»**.

وقال تعالى: **﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءِ﴾** [النمل: ٦٢].

فهذا المظلوم مجاب، أيُّ مظلوم كان، والمضطرُ مجابٌ، أيُّ مضطر كان، فما ظنُّك بوليِّ الله تعالى إذا كان مظلومًا ومضطرًا؟ أو ما ظنُّك به إذا كان يتكلم بالله تعالى ويرى بالله تعالى ويسمع بالله تعالى ويقول ويفعل بالله تعالى؟ وما ظنُّك إذا كان محبوبًا لله؟

---

(١) رواه الشهاب القضاعي في مسنده (٢/٣٢٤).

(٢) رواه البخاري (٢/٥٤٤)، ومسلم (١/٥٠).

وورد: «**ولا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أُحبُه فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به**[1]»، وذكر الحديث إلى آخره في جوارحه، فافهم ما في ذلك، فإنَّ الله سبحانه وتعالى هو الفعَّالُ، وإن جرى الفعل على يد عبد من عبيده، كأخذ ملك الموت الأرواحَ والله تعالى الْمُتَوفِّي لها، قال الله تعالى: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا**﴾ [الزمر:٤٢].

وقال تعالى: ﴿**قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ المَوْتِ الَّذِي وَكِّلَ بِكُمْ**﴾ [السجدة:١١].

فالله تعالى هو الْمُتَوفِّي وملك الموت يقبض بإذن الله تعالى وإرادته وقدرته وقوته وملك الموت آلةٌ في ذلك، كما تقول ضرب السلطان رقبةَ فلان وما ضربها إلا أعوانُه لكن بإذن السلطان، وضرب السلطان فلانًا بالمقارع وما ضربه إلا الْمُقدِم لكن بإذن الوالي.

والوالي والسلطان بإرادة الله تعالى وبقدرته؛ إذ وجودهم وحركاتهم وسكناتهم من الله تعالى، فكيف يعسرُ عليك فهمُ ما يقوله الوليُّ؟ وما يجريه الله تعالى على لسانه من سعادةِ قومٍ وشقاوةِ آخرين، ومن هلاك شخص، وحياةِ آخر، ومن موت من يريد الله تعالى موتَه على يدِه أو لسانِه؛ إذْ يكون به يقول ويفعل ويسمع ويرى، أو مايَشهدُه بالكشف والإطلاع فيخبر عنه، فإنْ كنتَ ممن يفهم عن أولياء الله تعالى فافهم ما يلقي إليك، والتعرّض في هذا المقام عليك ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٢٦، ٢٧].

فانظر، رحمك الله تعالى، كيف أمَره بهذا القول لأنَّ في الأسباب الموصّلة إلى الملك وزوال الملك عادةً مع وجود الأسباب، والأمر بالتحريض على القتال في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ المُؤْمِنِينَ عَلَى القِتَالِ**﴾ [الأنفال:٦٥].

وكيف جعل قوة المؤمن بعشرة أولاً؟ وذلك لسرٍّ غامضٍ؛ إذ قوة اليقين غالبةٌ لمائة

---

(١) سبق تخريجه.

ألف، وتحته سِرِّيَّةٌ لا يمكن كشفها إلا لأهلها، ثم خفَّف من العشرة إلى اثنين، وأوجبه وتواعده بالعقوبة عن التولّي عن ذلك، هذا مع قوله تعالى:

﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**﴾ [الأنفال:١٧].

فإن كنت ممن تحققت له السعادة بالولاية فقد أسعدك الله تعالى بمحبته، وأسعد بك كل من تبعك وأحبك؛ إذ محبة الله تعالى محبة نبيه ﷺ، ومحبة نبيه محبة وليه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ [آل عمران:٣١]، والأولياء هم الأتباع لرسول الله ﷺ، وهم أحبَّاء الله تعالى، وهم ورثةُ أنبيائه، صلوات الله تعالى عليهم وسلامه.

وإنْ لم تكن منهم فكن من المحبِّين لهم فقد ورد:

«**همُ القوم لا يَشقى جليسُهم**[١]».

وقد ورد: «**أنا جليس من ذكرني**[٢]»، فهم جلساء الله تعالى وأنت جليسهم وهم الذاكرون الله تعالى، والله تعالى يذكرهم وأنت تذكره معهم، وقد قال تعالى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ [البقرة:١٥٢].

وإيَّاك أن تكون مِمَّن يعترض أو يؤذيهم أو يشوِّش عليهم بقول أو فعل أو تردَّ على كلامهم بعقلك أو فهمك؛ فإنَّ العقول والفهوم لا تصلُ إلى مقاصدِهم وأسرارِهم عند ربِّهم وما هم فيه، وسواء في ذلك بسطهم أو قبضهم.

وإيَّاك أنْ تقول كما قالت اليهود والنَّصارى؛ فإنَّهم ادَّعَوا محبة الله تعالى لهم، والحقيقة تمنعهم من ذلك، وذلك أنَّك تفعل ما يخالف، والخلاف حقيقة البعد والحجاب، والحجاب حقيقة الموت والعذاب، فكيف يكون المحبوب مُعَذَّبًا مع مَنْ يحبُّه؟ قال الله تعالى: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ**﴾ [المائدة:١٨]، لأنَّ المحبَّ لا يعذب المحبوبَّ.

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في المذكر والتذكير (ص٥٦)، وابن حبان (٣/١٣٩)، وأبو نعيم (٨/١١٧).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١/١٠٨)، والبيهقي في الشعب (١/٤٥١).

وإيَّاك أنْ تقول: أين الوليُّ حتى أعامله بهذه المعاملة التي أشرت إليها، فإنِّي أرى أقوامًا متّصفين بخلاف ما قلتَ في الأقوال والأفعال؟

فاعلم -وفقني الله وإيَّاك- أنَّ الناس ثلاثُ طبقاتٍ: عامةٍ، وخاصةٍ، وخاصةِ الخاصةِ.

والوليُّ في الطبقة الأولى:، حتى لا يكاد يُعرف إلا بنور البصيرة إذا لم يغلب عليه حال فيظهره، وهو في الطبقة الأولى:، وفى الطبقة الثانية: مستَتِرٌ، وفي الطبقة الثالثة: مُتحقِّق.

فالطبقة **الأولى**: -وهى العامة- وهم أهل الاكتساب والصناعات والمعايش والتجارات والسوق، وغير ذلك مِمَّن يشتغل بالحِرَف وغيره.

و**الثانية**: هم أهل العلمِ والورعِ والدين من المتفقهةِ والقرَّاء وغير ذلك.

و**الثالثة**: هم أهل التجريد والزهد وترك الدنيا والرئاسات.

فأوصافهم لا تنحصرمن الخشية والتواضع وإعطاء الحق من نفسه، وترك حقه لغيره، واتحاد الراحة للخلق، وحمل الأذى عنهم، وترك الأذى بالجملة، والعلم بالإطلاع والكشف، وإخفاء صفاتهم إلا ما يُظهرُه الله تعالى على جوارحهم من غير اعتماد منهم، مع الوقوف مع حدود الله تعالى وأمره ونهيه لا يتعدونه، فهذه الطبقة الولاية محقَّقةٌ في جملتهم، وهى متوَّهمة في كل واحد منهم إلا مَن ظهرت عليه آثارُها، فتعلّم ذلك، وإلا فهي خفية كما قدّمناه.

والثانية: متوَّهمةٌ فيهم، وحيث توَّهمتَ أنَّ هذا وليُّ الله تعالى وجب إكرامه بكل وجه، كما أنَّك إذا رأيت من يلبس لبس الجند وتوهمت أنه قريب من السلطان تكرمه، وحيث علمت أنك إذا شوَّشت على من علمت أو توهمت أنه يقرب من السلطان فقد أوبقت نفسك، وخشيتَ الهلاك، فاحذر من التشويش على مَن انتسب إلى الله تعالى بوجهٍ ما، وإيَّاك أنْ تشربَ السُمَّ للتجربة هل يقتلك أو لا؟ فهذا والله أسرع إلى الهلاك من السُمِّ في الدنيا والآخرة.

وقد علمتَ مِن نفسك أنَّه إذا شوَّش أحد على غلامك أو مَن انتسب إليك، فإنَّ كنتَ متصفًا بأخذ الحق بغير زيادة ولا نقصان وإن كان الأمر لك والتصريف فيما يفعله ولا وزر عليك في دنياك ولا في آخرتك؛ فعلتَ به ما تريده وتختاره بحسب قوَّتك واستطاعتك، فافهم هذه الإشارات فهي بلسان حالها أفصح من لسان مقالها، ولا

تقِسْ الطائفة على ما تعلم من نفسك، وانظر إلى إكرام مجنون بني عامر كلبًا رآه في حى ليلى كما قيل:

رأى المجنــونُ في الصــحراءِ كلبًــا فجــرَّ عليــه مِــن نُعمــاه ذيــلا

فلامُـــــوه عليـــــه ثمَّ قـــــالوا مَنحـتَ الكلـبَ مِـن نُعمَـاك نَـيلا

فقـــالَ: دَعـــوهُ فـــإنَّ عَيـــني رأتْـــهُ ليلًـــة في حَـــى لـــيلا

وقد حكى لي خطيب مصر ابن القسّطلاّني: أنَّ الشيخ عبد العزيز، حكى عن الشيخ عبد الرحيم المدفون بقنا، أنَّه رأى كلبًا فقام له إجلالاً، فقيل له في ذلك فقال: رأيت في عنقه خيطًا أزرقًا لكونه من زىّ الفقراء، وإنْ كان ذلك ضربًا للأمثال.

وإيَّاك أنْ تستغني بعلمك وصلاحك وعبادتك وعملك وإيثارك وكرمك إن كنتَ كذلك، أو بجاهك وملكك إن كنتَ كذلك، أوتدانيك وقربك وصحابتك وإخوتك إن كنت كذلك.

بيان أفضلية الفقير الصّابر على الغني الشاكر

وليس بخافٍ ما اتفق بين الإمام الجنيد ﵁ وابن عطاء، وقد كان الجنيد سيدُ هذه الطائفة وابن عطاء[(١)] من الأكابر في الطريق.

وقد جرى بينهما الخلافُ في الفقير الصابر والغني الشاكر، فذهب السيد الجنيد إلى أنَّ الفقير الصابر أفضلُ، وعلَّله وبيَّن العلة وهو الذي أراه.

وذهب ابنُ عطاء إلى أنَّ الغني الشاكر أفضلُ، واستدلَّ بأنَّ الغني صفته من صفات الله تعالى، وهذا مشتقٌ فقال له الجنيد: إنَّ غِنى الله تعالى بذاتِه، وهذا الغِنى يمتد

---

(١) هو سيدي ابن عطاء الزاهد العابد المتأله أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمي البغدادي، من ظراف مشايخ الصوفية وعلمائهم له لسان في فهم القرآن يختص به، وأسند الحديث.صحب إبراهيم المارستاني والجنيد بن محمد ومن فوقهما من المشايخ.

وكان أبو سعيد الخراز يعظم شأنه. وقال حسين بن خاقان: كان ينام في اليوم والليلة ساعتين.

قال أبو سعيد الخراز: التصوف خلق، وليس إنابة، وما رأيت من أهله إلا الجنيد، وابن عطاء، مات سنة تسع وثلاثمائة أو إحدى عشرة وثلاثمائة، في ذي القعدة.

انظر: طبقات الصوفية (٢)، (ص٢٦٥)، وحلية الأولياء (٣٠٢/١٠)، والطبقات الشعرانية (١١١/١)، وشرح الأنفاس الروحانية للديلمي (تحت قيد الطبع).

إليه يد السارق والغاصب فلا يشتق هذا منه.

والذي علَّله الجنيد رضي الله عنه أو معناه أنَّ ليس مَن آلم نفسه كمن أراح نفسه -وهو الذي أراه، وإنْ كنت في الحقيقة لا أرى بالتفضيل لكن بالتمييز- فلمَّا ردَّ على الجنيد قوله دعا عليه فقال: اللهم أَذْهِبْ مالَه وعقلَه وأمت ولدَه، فذهب ماله ومات ولده وبقى أربعين سنةً مجنونًا يقول: أصابتني دعوة الجنيد.

فانظر يا أخي رحمك الله تعالى، إلى هذه الحكاية مع عِظم شأن الجنيد، وإنَّه ما كان مِمَّن يخرج إلا أنَّ الحال اقتضى ذلك، ويقوي ذلك أنَّ الجنيد كان الحق معه لإجابة الدعوة.

روايات في الكرامات

وحكى لي الشيخ عبد العزيز الشريف رضي الله عنه أنَّه صحب فقيرًا وكان ذلك الفقير يرقَى إلى حالة يجري الله تعالى على لسانه ما يريد وقوعه.

قال الشيخ: فمشيت معه يومًا وإذا شخص ربَّما قال: يسرق من النخلة شيئًا من ثمرتها فقال: قع فوقع فمات من ساعته.

وأنَّه كان ليلَة أراد أن يدنو من زوجته، فقالت له عن أولاده الصغار يستيقظون فقال: أماتهم الله تعالى -وكانوا سبعَة- فأصبحنا صلَّينا على السبعة.

وذكر من ذلك شيئًا غاب عني، قال: فقلت له في ذلك فقال ما هو باختياري أو مالي في هذا شيء، فقلت له: أماتك الله تعالى أو أراح الله تعالى منك، ولو لم يمت من قريب كان قد أهلك خلقًا كثيرًا.

فانظر رحمك الله تعالى إلى هذه الحكاية، حيث كان محلاً لمجاري الأقدار.

وحكى لي الشيخ يعيش بن الشيخ محمود رحمه الله تعالى قال: لما خرج ابن الدامعاني من بغداد لجباية الخراج والأموال وكان صاحب ديوان الخليفة حصل للناس منه خوف شديد، فجاءوا إلى سيدي إبراهيم الأعزب، وكان قد جلس في الرِّواق -ولعله ابن بنته- وكان عظيم الشأن رضي الله عنه فجاءوا إليه من جميع الجهات من البطائح وغيرها وهم فلاحون ومماليك وفقراء، وشكوا إليه ابن الدامعاني وجَورَه فقال لهم: ما يصل إليكم، وصاروا كلّما قرُب جاءوا إلى الشيخ فيقول لهم: ما يصل إليكم، إلى أن صار بقريةٍ قريبةٍ جدًا فجاءوا إليه وصاحوا وقالوا: وصل فقال: يا أرنبة، اكسري رقبته.

فبينما هم جلوس -أو بينما نحن جلوس- وقد ورد ساعي بكتاب إلى الشيخ وقال: يا سيدي ابن الدامعاني راكب على فحل وهو جائي، وأرنبة خرجت من تحت شجرةٍ، جفل الفحل منها فرماه انكسرت رقبته.

وكان الشيخ إبراهيم الأعزب عظيم الشأن جليل القدر لا تكاد أحواله تنحصر، ورأيت من أصحابه الشيخ زكري الحِيني وكان مقيمًا بأسوان ووصل إلى قوص وكان يصحبه المسافرون والمجرَّدون، وكان يحملهم وكان مفتوحًا عليه وكان أميًّا وأحواله شريفة، وله أولاد، رحمه الله تعالى.

سيدي إبراهيم الأعزب رضي الله عنه[1]

وأخبرني الشيخ عبد العزيز عن سيدي إبراهيم الأعزب -رحمهما الله تعالى- قال: أخبرني فقير قال: دخلت العراق، فوجدت خلقًا لا يكادون ينحصرون، الكلُّ يقول: يا سيدي إبراهيم، فقلت في نفسي: هذا يعرِف عدد هؤلاء فضلاً عن أنْ يربِّيهم قال: فلمَّا دخلت على الشيخ وجدتُ عليه ثوبًا أزرق وطاقية من ثوبه، وهو جالس في الرِّواق فقال لي: ماهم الكل على ما رأيتهم قلت: نعم قال: قلوب الكل في يدي قال: ثم قام ووقف على باب الرِّواق، وجمع كفَّه في الهواء وإذا هم يصيحون ويخرجون من الرحال ويجيئون من كل مكان، ويقولون: لبيك يا سيدي إبراهيم، لبيك يا سيدي إبراهيم حتى صاروا بين يديه -ولو رمى القمح ما وصل إلى الأرض- ثم بسط أصابعه أو بسط كفَّه فراح كل واحد منهم إلى جهته التي جاء منها حتى لم يبقَ بين يديه أحد.

فانظر يا أخي، رحمك الله تعالى، إلى هذا التصريف الأول :والثانى، وهذا الرجل

---

(١) هو من أعيان مشايخ البطائح، وأعلام العارفين، وصدور المحقيقين، صاحب الكرامات الظاهرةو والأحوال الفاخرة، والمعارف الزاهرة، وهو أحد من أظهره الله إلى الوجود، وصرفه في الكون، وخرق له العادات، وأظهر على يديه الخارقات، وأنطقه بالمغيبات، وأجرى على لسانه الحكم، ومكنه من أحوال النهايات، وملكه أسرار الولاية، ونصبه قدوة وحجة.

خلف أباه الشيخ أبا الحسن عليًّا بعد وفاته بالمشيخة برواقي أم عبيدة، وكان أجل أهل بيته يومئذٍ، وكان قيما بحل المشكلات الواردة مؤيدًا في كشف مخيفات الأحوال. وانظر: قلادة الجواهر للصيادي (ص٤٤٩)، وبهجة الأسرار ومعدن الأنوار للشطنوفي (ص٤٠٦) .

وما أعطيه من العطاء.

﴿**ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ**﴾ [الحديد: ٢١].

وصفات الشيخ إبراهيم كثيرة ولسنا بصددها الآن، لكن نحن نتكلم فيمن أُجري على لسانه قضاء الله تعالى كالشيخ مفرج- رحمه الله تعالى.

الشيخ مفرج الدماميني رضي الله عنه

وحُكي أن ظالِمًا قصد الوصول إلى دمامين أو إلى بلاد مدينة قوص، فجاء أهل دمامين وشكوا إلى الشيخ مفرج فقال لهم: ما يصل إليكم وجعلوا يقولون: جاء من العقبة إلى أن قالوا: جاء إلى المعدية فقال لهم: ما يصل إليكم، فلمّا وصل المعدية وقَدِمُوا إليه ليعدّي فيها ما فعل ينزل مِن على فرسه وهمز الحصان ليطلع المركب فطاح به الحصان من الجانب الآخر فغرق، ولا أحقق هل غرق هو وحصانه جملَة أو لا، والأغلب أن الحصان أيضًا غرق معه.

وهذا يدلُّ على الكشف الصحيح والتصريف.

ويعضِّض ذلك ما حكاه لي الشيخ ناصر الدين بن عبد القوي -رحمه الله تعالى- عن شخصٍ من أحبَّائه قال: كنت مع الشيخ مفرج، وكان قد خلع ثوبه، ففلَّيته وفتشت جيبه، وكان له جيب على كتفه، ولم يكن فيه شيء، ولبِسه الشيخ.

فبينما نحن نمشى إذا بفقير قد طلب منه شيئًا، فأخرج له من جيبه قيراطًا أسودًا، وكان ذلك الوقت يتعامل الناس في الصعيد بالوِرق فقلت: يا سيدي، أنا فتَّشت ثوبك ولم يكن فيه شيء فقال: يا فلان -أو يا مبارك- أوَّل ما يضع الفقير قدمه في الإرادةِ يُعطَى ثلاثُ خصال: يمشي على الماء، ويطير في الهواء، وينفق من الغيب.

وحُكي عنه أنَّهم كانوا قيدوه في الأخذة التي أُخذ فيها، فزعموا أنّه مجنون حتى أتوا إليه يومًا بطاجن فيه فراخ مطبوخة فقال لهم: طيروا فطاروا فأطلقوه.

وحدثونا عنه أنّه لما جاءه ابن قاضي دارا يزوره، فأخذ الشيخ في مئزره تقدير قدح حمُّص مقلي، فجعل يعطي أصحابه كل واحدٍ قبضة، وكانوا كثيرًا، فتعجب ابن

قاضي دارا، فلمّا خرج طلب مماليكه وأصحابه وقال: كلُّ مَن أخذ شيئًا فليحضره، فاحضروه فاكتاله، فجاء إمّا ثلاثةَ أمدادٍ وقدحًا وإمّا ستةَ أمدادٍ.

وكان الشيخ مفرّج مجذوبًا، وكان كبير الشأن وقد كتب حكايات الشيخ صفيّ الدين في رسالته، حين صحبه في مصر.

وحدَّثني الفقيه -نجم الدين بن حفَّاظ- وكان عدلاً وكان يجمع القراءةَ بالسبعِ ويجيزُ بذلك ويسمع عليه، قال عن الشيخ أبي يحيى قال: خرج بنا الشيخ أبو الحسن ابن الصبَّاغ- ربما قال ماشيًا- إلى أنْ وصلْنا إلى أبنود مساءً ثم أصبحنا دخلنا إلى قوص، وبتنا ثم أصبحنا جئنا إلى دمامين فأدخلنا على الشيخ مفرج قبل أنْ يعرف فقال الشيخ أبو الحسن: هذا المجذوب، هذا المخطوب، هذا المدلل على ربه، هذا مفرّج، وظهر الشيخ مفرج رضي الله عنه وعن جميع الأولياءِ والصالحين والسالكين طريقهم، وجعلنا منهم ومن محبِّيهم ولا أخرجنا عنهم لا في دنيا ولا آخرة بمحمدٍ وآله.

وأخبرني قال: كان عندنا وكنَّا مجتمعين بزاوية الشيخ عمر قال: دخلت على الشيخ سلمان السَّبْتِي وكانت له أحوال عجيبة، تركنا ذكرها خشية على مَن لا يعرفها فينكرها قال: دخل عليه فقير فتكلَّم معه فقال له الفقير: ما هذا بالفقيري فأشار سلمان بيده وقال: هذا بالفقيري، فوقع ذلك الفقير واضطرب ومات من ساعته.

ومن مروءة الشيخ مفرّج -قدس الله روحه- ما حكاه كمال الدين بن إبراهيم ابن الصابوني -وكان من العدول وأكابر الأقصرين- رحمه الله تعالى- أنَّ الملك الصالح لما طلب عز الدين بن الفقيه نصر، وكان قد احتاط على بني الفقيه نصر وأموالهم، وطُلِبُوا واستُخِفّوا، فسافر الشيخ مفرج إلى مصر.

وكان عز الدين بن الفقيه نصر يصحب الشيخ مفرج ويعتقده، فسافر الشيخ مفرّج إلى مصر بسببه، واجتمع بالسلطان الملك الصالح، وكان الشيخ مفرّج، رحمه الله تعالى، غير متصنعٍ في كلامه ولا في حركاته ولا في شيءٍ من أفعاله، رحمه الله تعالى، فقال للملك الصالح: أنت السلطان؟ فقال: كذا يقولون يا سيدي فقال: مالك مع عز الدين بن الفقيه نصر؟ فقال: يا سيدي، المطلوب منه لبيت المال مائةٌ وعشرون ألفَ دينارٍ، ولكن ما مع وجودك محاققة، قال الشيخ: مالك عنده شيء؟ فقال له السلطان:

يا سيدي، مالي عنده شيء؟ قال: فخلّيهم ينادوا. فأمر السلطان الوزير أن يخرج ويُنادي بالإفراج عنهم جميعًا لأجل الشيخ مفرّج، رحمه الله تعالى.

وكان يمشي في حوائج المعلمين ويكثر الشفاعات ويسعى بنفسه.

وأخبرني شرف الدين أبو طالب بن النابلسي[(١)] حين وصل إلى قوص كاشفًا قال: جئت المرةَ الأولى مع والدي، واحتطنا على العماد بن الصيفي، وطلب منه مالاً، فجاء الشيخ مفرّج وشفع فيه، فترك له ألفَ دينارٍ.

وبلغني أنّ الشيخ مفرّج -رحمه الله تعالى- كان يرى أن يهدي لمن يشفع عنده شيئًا قبل الشفاعة ويتلو قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً**﴾ [المجادلة:١٢].

ولعله كان يرى باستمرار الحكم فيها، فإنّه ذُكر أن ذلك كان مذهب الإمام السيد علي، كرم الله تعالى وجهه، وكلُّ ذلك كان من حسن مقصدِه وتلطّفه في قضاء حوائج المسلمين حتى لا تتوقف حاجة.

وقد يُكاشف الوليُّ بأنَّ الحاجة لا تُقضى ويشفع للحديث الوارد:

«**اشفعوا تؤجروا** [(٢)]» ولنصِّ التنزيل في قوله تعالى: ﴿**مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا**﴾ [النساء:٨٥].

ولم يُشترَط في الآية الكريمة ولا في الحديث الشريف قبول الشفاعة، ولأنَّ في ذلك إطابةَ قلبِ المشفوع فيه وإبلاغ النفس عذرَها، لأنَّ في التوقُّف عن الشفاعة إيلام قلب المشفوعِ فيه مع القدرةِ الظاهرةِ على الشفاعة. وقد يقع من يقع في الشافع إذا لم يشفع، فيحميه من وقوعه في الغيبة أولاً.

والوجه الآخر أنَّ الشَّفاعة قد تكون من دائرة المحو والإثبات فيما كوشف به، فلله أن يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء في كل زمنٍ فردٍ.

وحُكي أنّ أحد الصالحين توجه إلى زيارة شقيق البَلخِي[(٣)]، فلمّا وصل إليه وبات

---

(١) له ذكر في الوافي للصفدي (١/١٨٢٦).

(٢) رواه البخاري (٢/٥٢٠)، وأحمد في مسنده (٤/٤٠٠).

(٣) هو الزاهد العابد، العلي الشان، العجيب البرهان، من أكابر السادة وأعاظم مشايخ الطريق القادة.
=

عنده رأى في الرؤيا لوحًا فيه أسماء السعداء وأسماء الأشقياء، ورأى اسم شقيق فيه، فاستيقظ مرعوبًا متألِّمًا، فنزل إلى الشيخ، فوجده على اجتهاده وتوجّهه فقال الشيخ: مالك؟ رأيت اللوح؟ فقال: نعم قال: وهل نحن إلاعبيد يفعل بنا ما يشاء؟

ثم قام الشيخ إلى عبادته وتوجّهه ولم يتغير ولم يضطرب لذلك.

فلمّا كان ثاني ليلة رأى الرجل اللوح الذي رآه، ورأى اسم الشيخ شقيق من السعداء، فاستيقظ فرحًا مسرورًا، فنزل إلى الشيخ فوجده على اجتهاده فنظر له الشيخ وقال له: محي وأُثبت؟ قال: نعم.

وللشيخ شقيق من الشرف والآيات والكرامات كثير، وإنّما ذكرنا هذا الاستدلال لأنّا لا نخرج فيما قصدناه عمّن رأيناه وسمعنا من رآه ورأى من رآه بحسب أهل الزمان.

وحُكي أنّ الشيخ شقيق ورد عليه جماعة من الفقهاء قال: فبينما هم عنده، وإذا بواحد من قطّاع الطريق دخل عليه ومعه جمل محمّل دقيقًا، فقال: يا سيدي نحن اليوم قد خرجنا فوجدنا قافلة وأخذناها، وخرجنا عن هذا الجمل لك أو جعلناه نصيبك- أو كلامًا هذا معناه- فقال الشيخ للخادم: افتح الدقيق، ففتحه فوجد فيه سكر، فقال: اعمل الخبز والحلاوة واذبح الجمل واطبخ الطعام -أو كما قال- ففعل، فلمّا فرغ ومدَّ السّماط وقالوا: الصلاة، تقدّم الشيخ وأكل، وأكل الفقراء، وبقي الفقهاء لا يأكلون؛ لأنّهم قوم مستمسكون بالظاهر، ولا يعرفون غيره.

=

كان يقول بطرح المكاسب والمطالب، والتوجه في الأسباب والمذاهب، قدّم للمعاد، وتنعّم للوداد، وثقّ بكفالة الكفيل فتوكل، واجتهد فيما ألزمه فتحمّل وحصّل.

وقد قيل: التصوف الركون والسكون ونحول الأعضاء والغضون، والتخلي عن القرى والحصون.

كان من أجل مشايخ خراسان، له كلام حسن في التوكل فاق به الأقران، طالما خاض في المجاهدة الغمرات، واصطلى في الرياضة حرّ الجمرات، حتى قامت الأدلة على فضله، وأجلب إلى النفس والشيطان بخَيْلِه ورجله.

وانظر: حلية الأولياء (٥٨/٨)، وصفة الصفوة (١٥٩/٤)، وشذرات الذهب (٤٣١/١)، وطبقات الشعراني (٧٦/١)، وسير أعلام النبلاء (٣١٣/٩)، والكواكب (١١٣).

فأكلوا، فلمّا كان بعد ساعة، إذا بإنسان من التجار المأخوذين قد جاء إلى الشيخ ومعه كتاب من عند أحد أصحابه بأنه أرسل الحمل الدقيق والسكر صحبة ذلك التاجر، والتاجر متألم، وقال، يا سيدي، لم يؤلمني ما راح لي، إلا الجمل الذي أُرسل إليك وما عليه، فقال له الشيخ: أمّا الجمل وصل إلينا، والدقيق والسكر، أتعرف الجمل؟ فنظر إلى رأسه فعرفها، وعرف الأحمال والعلامة.

وقد تكون الشفاعة لتأكيد الحجة على المشفوع عنده، وقد يكون يشفع من وراء هذه الأطوار؛ إذ لله تعالى أن يفعل ما يشاء كما يشاء فلا تقف مع كشفه، لأن الحكم لا يحكم على حاكمه.

وفى إخبار الله تعالى بأنه استثنى فيه من الأشقياء والسعداء، وفي القرآن كفاية، ومن مكاشفات الشيخ مفرّج ما حدثونا به أنه كان في السَّماع فربّما قال لهم: أمسكوا؛ فإنَّ أخي الشيخ أبا الحجاج توفِّي الساعةَ، وركب من دمامين إلى الأقصرين حتى صلّى على الشيخ أبي الحجاج - قدس الله تعالى روحهما -.

وكان الشيخ أبو الحجاج جليل المقدار كبير الشأن ولم أجتمع به؛ إمّا أن يكون الشيخ توفي قبل أن أكون موجودًا أو كنت صغيرًا فى ذلك الوقت. ولوالدي معاصرة به، ولأصحابنا الجميع معاصرة به واجتماع لأنهم في بلدٍ واحدٍ، وكان الشيخ -كما حدّثونا- مُجرّدًا، وأنّه كان تجرّد وتوجّه، وصحب الشيخ عبد الرزّاق[1] صاحب الشيخ أبي مدين[2]، وهو مدفون بالإسكندرية - أعني عبد الرزاق - وكان للشيخ أصحاب كثير

---

(١) له ذكر في الكواكب (٢/١٩٥)، .

(٢) هو غوث الأغواث، ويلقبه الأكابر بشيخ الشيوخ الأستاذ الأعظم العارف الأفخم، عظيم الأكبار، رأس الصوفية في وقته، ورئيسهم المشهور، علم نعته زاهر، زاهد مراقب مشاهد، يُقصد ويزار من جميع الأقطار، وببنان العرفان إليه يشار، يوصل ويقطع ويخفض ويرفع.

ولد ببجاية ونشأ بها واشتهر حتى ملأ الآفاق وصار إمام الصديقين في وقته بلا شقاق، وأخذ عنه الكبراء كالعارف ابن عربي رضي الله عنه وقال: كان سلطان الوارثين. ومكث في بيته سنة لا يخرج، فاجتمع الناس ببابه يسألونه أن يتكلم عليهم وألزموه، فخرج، ففرت منه عصافير على سدرة بداره فرجع وقال: لو صلحت للحديث عليكم ما فرّ مني الطير ولا الوحش، فرجع فمكث سنة، فأتوه فخرج فلم تفر منه، فتكلم عليهم، وترك الطير تضرب بأجنحتها وتصفق حتى مات منها كثير، ومات رجل ممن حضر.

=

انتفعوا على يده عرفت منهم جماعة، وهو مشهور بالعلم وله كلام، وزاويته وضريحه بالأقصرين، وكان له ابن عم يُسمَّى الشيخ جبريل، وكان جليل القدر عظيم الشأن.

أخبرني عنه قاضي عيذاب شرف الدين محمد بن مسلم، قال: قلت له: يا سيدي، لم لا تخبرنا كما يخبرنا الشيخ أبو الحجاج؟ قال لي: يا ولدي، شيخي قال لي: ابقَ تيسًا إلى أن تموت.

وأخبرني أيضًا أنّ رجلاً صالحًا كان يقول: تكروری مسكَنِي ومشى بي- ربما قال ليلا- حتى أوقفني على باب الشيخ جبريل وقال لي: ما رأيت علم الولاية إلا على هذا الباب أو رأيت علم الولاية على هذا الباب.

وكان الشيخ عبد الغفار بن بنت الشيخ أبي الحجاج يخدمه.

وكان يخبرني بالعجائب والغرائب، وكان الشيخ أبو الحجاج يَسمع السُّمَّاع، وكذلك الشيخ أبو يحيى.

أخبرني الشيخ أبو الطاهر إسماعيل أنّ الشيخ أبا الحجاج كان عندهم في السَّماع وأنّه كان يصيح: يا حبيب يا حبيب، وكذلك رأيت بعض أصحابه في السَّماع كأبي زكريا بن القاضي إسماعيل اليمنى يحيى، وكان يخدم الشيخ أبا الحجَّاج وكنا نثق بقوله، وتسكن نفسي لِمَا أسمعه منه عن الشيخ، وكان والدي يسمع قوله في الشهادة، وكان لا يكاد يفارقنا مدةَ حياتِه وسافر معي من مكة، شرفها الله تعالى، إلى مصر ومات بعد ذلك.

=

وكان الشيخ أميًا، وعلوم الأمي تأتي خالية من الإشكال.

وقال العارف ابن عربي ﷺ: كان حال وقته التجريد، وعدم الادخار.

اتفق له أنه نسى في جيبه دينارًا، وكان كثيرًا ما ينقطع في جبل الكواكب، وكانت هناك غزالة تأتيه فتدر عليه لبنها فيكون ذلك قوته، فلما جاء إلى الجبل جاءت الغزالة على عادتها وهو محتاج إلى الطعام فجاء ليشرب من لبنها فنفرت عنه وما زالت تنطحه بقرونها، وكلما مد يده إليها نفرت منه، ففكر في سبب ذلك فتذكر الدينار، فأخرجه من جيبه ورماه، فجاءته الغزالة وأنست به ودرت عليه.. وانظر: أنس الفقير وعز الحقير لابن قنفذ، والكواكب (٤١٧).

قال أبو زكريا: كان الشيخ يجلس في بيتي يستريح، وقال: كنت أجيء إلى الشيخ في بعض الأوقات فأجده يتحدث وما عنده أحد، فربّما سألته فيقول: إنّ بعض الجن المؤمنين كانوا عنده.

وشهرة الشيخ أبي الحجاج غير محتاجة إلى تكثّر، واعتقاد الناس فيه بعد وفاته كثير.

وأخبرني والدي -رحمه الله تعالى- قال: اجتمع عندي الشيخ أبو الحجّاج، والشيخ مفرّج، والشيخ مجد الدين المدرّس؛ وقدكانوا جاءوني في حاجة وعملت لهم شيئًا فأكلوا و غسلوا أيديهم، فرأيت الفقراء وهم يشربون غسل أيدي المشايخ، رضي الله تعالى عنهم.

ولقد أعجبني ذلك منهم؛ لأن صفة معتقداتهم تعود إليهم، فبها يقيلون إلى مطلوبهم، وكذلك سوء الظن يرجع على صاحبه حتى لا يخطئه شيء منهم سي ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٩].

وأخبرني جعفر بن داود عن أبيه أنه صحب الشيخ أبا الحجاج الأقصري وأقام عنده مدة بالأقصرين، فلمّا جاء إلى مدينة قوص اجتمع بأصحابٍ كانوا له فتغلّبوا عليه، وأطعموه الحشيشة المشهورة، وكانوا على موضعِ ماءٍ، وفيه شجرة- إمّا نزعة أو عترة – قال: فأخذني شيء رماني في ذلك الماء، وتعلقت ثيابي بالشجرة وكدت أن أموت، فرأيت الشيخ أبا الحجَّاج فقال: هات يدك، فأخذ بيدى وأطلعني، فلمّا رحت إليه مسك أذني وفركها وقال لي: لا ترجع تأكل الحشيش.

ومِمَّن رأيته من أصحابه وعرفته وكان ملازمًا لي ولوالدي ولأصحابنا الشيخ أبي زكريا يحي بن القاضي إسماعيل اليمني. ومن عرفناه عبد الرزاق الفاوي، وكان صاحبنا، وكان كثير الاشتغال بالذكر مع كثرة العيال لا يمنعه ذلك من الاشتغال، وكان أبو زكريا قليل السؤال، بخلاف أصحاب الشيخ، وربما كان له سبب.

وحكى الظهير موسى بن الصبّاغ أنّ الشيخ عبد الله السُومي أحد أصحاب الشيخ أبي الحجاج قال: كان عندنا قطٌّ نسميه مرزوق، فوقعت هجمة في الحاجر، فقال لي القط: يا سيدي، ما بال الناس؟ قلت: هم يقولون أنَّ القومَ جاءوا الحاجر

فقال: هى بطالة الساعة كما جئت من الحاجر ولا فيه شيء فقلت لزوجتى :توصّي بهذا القط فقالت: ولم توصيني عليه؟ وألحت إلى أنْ عرّفتها فقلت لها: هذا قطٌّ من الجان فاحتدت نفسها وقالت :لا قعدتُ في بيتٍ فيه جنيٌّ أبدًا، إمّا أنا وإمَّا هو، وكنت أحبُّها، فقلت له: يا مرزوق، هذه المرأة ما تقعد في البيت وأنت فيه قال: فدار في البيت، وعاد يرقص ويقول: هُوَّ هُوَّ كالفقراء، وحطَّ رأسه وخرج فما رأيناه بعد ذلك.

ومَن رأيناه من أصحاب الشيخ، الشيخ علي اللبَّان الفاوي، وكان مشتغلاً خفيف الروح، وكان يحبُّنا ونحبُّه رحمه الله تعالى.

وحدَّثني الشيخ ظهير الدين موسى بن الصبَّاغ عن الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد القشيري رحمه الله تعالى قال: أخبرني أبو عمران المالقي -وكان من أصحاب الشيخ مجد الدين بن دقيق العيد مِمَّن تفقه عليه- قال: قدمنا الأقصرين مع الشيخ مجد الدين لزيارة الشيخ أبي الحجاج الأقصري، فدخلناها ليلاً، فقال الشيخ مجد الدين: ما ينبغي أنْ ندخل على الفقراء هذا الوقت.

فنزل عند أحد أولاد الصابوني بالأقصرين، فلمّا كان بعد العشاء الآخرة، واذا بالباب يطرق، فقال قائل: من هذا؟ فقال: يوسف، فخرجنا فوجدناه الشيخ أبا الحجاج، فدخلنا على الشيخ مجد الدين فقال الشيخ أبو الحجاج، رأيت رسول الله ﷺ الساعةَ فقال لي: أبو الحسن المنفلوطي قد جاء إلى زيارتك، قم سلّم عليه قال: فكنّا نراها عظيمة من الشيخين.

وحدّثني أيضًا الشيخ ظهير الدين عن الشيخ تقي الدين إجازة، قال: سمعت الشيخ عبد العزيز المهدويّ(١) يقول: قصد شيخنا أبو الحجاج زيارةَ الشيخ عبد الرحيم

---

(١) هو سيدي عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي، أخذ عن الشيخ أبي مدين.
كان ذا اتصاف جميل، وعلم جليل، وحال فضيل، يقرأ القرآن مع كونه أميًا.
وأثنى عليه الأئمة، وأخذ عنه الأكابر، كان يلبس مرقعة زنتها تسعون رطلاً، ويؤدب نفسه بالمجاهدة، حتى إذا أنس منها الفتور دخل البحر بمرقعته، ولا يزال يصلي حتى تجف عقوبة له.
وكان إذا دخل الخلوة، واصل أربعين يومًا.
=

بقنا، فاجتمع في طريقة تلك بأبى العباس المرسى- رضي الله تعالى عنهما- في حكاية طويلة فقال له الشيخ أبو الحجاج: أوصنِي فقال:

عليك بتقوى الله تعالى في السرِّ والخلا، وليكن عملك واحد في الخلوة والملا، ما فاتك من الدنيا فلا تبكِ عليه، وما فاتك من العمل فنُح عليه.

إيَّاك أن تأمن سفيهًا ولا جاهلاً، واحذر المداهنة والْمِرَا ينجلي منك الْمِرْآ، واكتم سرَّك واخفِ أثرَك تبلغ من الله تعالى أملك، فقال له الشيخ: ادعُ لي فقال: اللهم يا من أخفاني عن أعين الخلائق، أسألُك أن تظهر له الحقائق، وتيسّر له الطريق، يا من إذا دعي أجاب، يا من أظهر الجميل وظهر عن الخفاء لسالك، أنْ تخفيه كما أخفيتنى، وأنْ تيسّر له الطريق كما وصّلتني، وأن تسقيه بكأس المحبة كما سقيتني.

وحكي لي أيضًا عن الشيخ تقي الدين المذكور، وقال :سمعت شيخنا أبا الحجاج يقول :قيل لي أن مَن جاء من أهل الطريق للطلب فدُلّه علينا، وأمّا الوصول فمنّا، فمَنْ رأيناه صادقًا محقّقًا أدنِيناه ووصّلناه إلينا ،ومَن رأيناه غافلاً طردناه وأبعدناه؛ فإنّه لا يصلُ إلى المحبوبِ مَن هو بغيره محجوب.

وحدّثني أيضًا عن الشيخ جلال الدين الدشنائي قال: سمعت الشيخ أبا العباس الطائفي يقول: دخلت على الشيخ أبي الحجاج الأقصري، فرأيت له عينين من فوق الحاجبين.

وحدثني أيضًا عن القاضي وليّ الدين الدشنائي أخو الشيخ جلال الدين المذكور قال: دخلت على الشيخ أبي الحجَّاج وهو ببشلا وفي قرية بغرب قموله وعنده جماعة من الفقراء، وهم يتكلمون في الفتوة، فقال لهم الشيخ أبو الحجاج: وأيُّ شيءٍ حصل لكم من الفتوة؟ وأنا كنت وأخي أبي الحسن بن الصبّاغ سالكين إلى الله تعالى، فكان إذا شاهد مقامه يعلو علا مقامي فيدعو الله تعالى أن يعلو مقامي على مقامه، ثم

=

ومن كراماته أن إمام المهدية بلغه مواصلته ، فقال: إن مات لم أصلّ عليه؛ لأنه قاتل نفسه. فبلغه فقال: هو الذي يموت، وأنا أصلي عليه، فكان كما قال.

مات سنة واحد وسبعين وستمائة، ودفن بمرسا عبدوه. وانظر: الكواكب (٥٢٩).

أشاهد أنا مقامي يعلو على مقامه فأدعو الله تعالى أن يعلو مقامه على مقامي، فكنا ككفتي ميزان يرجح عليّ تارَةً وتارَةً أرجح عليه.

وحدّثني أيضًا عن الفقيه نجم الدين قال: دخلت على الشيخ أبي الحجاج، وهو بقوص، فرأيت عنده جماعة من الفقراء وهو يتكلم عليهم فسمعته يقول: كنت في بدايتي مرة فقلت: لا إله إلا الله، فقالت لي نفسي: من ربُّك؟ فقلت: ربِّي الله فقالت لي: لا، ما لَكَ ربٌّ إلاّ أنا، حقيقة الربوبية امتثال العبودية وأنا أقول لك: أطعمني تطعمني؛ ثم نِم؛ تنَم؛ قُم تقُم؛ امشِ تمشيِ؛ اسمعْ تسمعُ؛ ابطشْ تبطشُ؛ فأنت تمتثلُ أوامري كلَّها فإذًا أنا ربُّك وأنت عبدي.

قال: فبقيت متفكرًا في ذلك، فظهرت لي عيْن من الشريعةِ فقالت لي: جادلْها قلت: بِمَاذا؟ قالتْ: بكتاب الله تعالى، قلتُ: فما أقولُ لها؟ قالتْ: إذا قالتْ لك نِم فقُل: ﴿**كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ** ﴾ [الذاريات:١٧].

وإذا قالت كُلْ فقل: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا**﴾ [الأعراف:٣١].

وإذا قالت لك امش فقُل: ﴿ **وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً**﴾ [الإسراء:٣٧].

وإذا قالت لك ابطشْ فقُل: ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط**﴾[الإسراء:٢٩].

وذكر أشياء من هذا الجنسِ فقال: فقلت لتلك الحقيقة: إذا فعلتُ ذلك فما لي؟ قالت: أخلع عليك خُلَعِ الْمُتّقين، وأُتوّجك بتاج العارفين، وأُمَنطِقُك بِمَنْطَقَة الصدّيقين، وأُقَلِّدُك بقلائدِ الْمُحَقِّقِين، وأُجلسُك على كرسي العارفين، وأنادي عليك

في سوقِ الْمُحبِّين: ﴿**التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ الْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ**﴾ [التوبة:١١٢].

وحدّثني القاضي تاج الدين بن السُّكري، نفع الله تعالى ببركته سلفه الكريم عن علي المؤذن بالسيد الإمام الشافعي بالقرافة الصغرى.

قال: حضر عندنا في هذا الجامع -يعنى جامع القرافة المجاور لقبة الشيخ الإمام الشافعي- إنسان يقال له الشيخ حسين البعلبكي، أقام بالمقصورة البحرية أيامًا، ثم

حصل له ضعف فدخلت عليه ليلة، وحوله جماعة من أصحابنا الفقراء، وكان بعد العشاء الآخرة، فحصل لي مغص في فؤادي، منعني الاستقرار، بحيث أنّه لم يشعر به أحد من الحاضرين، فقال الشيخ حسين: هذا المغص إذا حصل للإنسان ينبغي أن يستعمل له الشمار والأينسون، فقلت في نفسي: وأين في هذا الوقت ما ذكره الشيخ وقد قفل السوق، ولا عندي شيء، وأنا إذ ذاك مجرّد؟

فلم يكمُل الخاطر عندي حتى قال الشيخ لخادمه: أعطني الجراب الذي لي، فأحضر له جرابًا صغيرًا فأخرج له صرةً فيها شمار وأينسون وقال لي: استعمل هذا، فاستعملته، فحصل لي البرء في تلك الساعة، ثم حضرنا عنده بعد تلك الليلة وقد اشتدَّ به الضعف، فقال لجماعة الحاضرين: أنا أموت في هذه الليلة، فإذا أنا مت فلا تكفنوني إلا بأوّل كفنٍ يحضر إليكم، وادفنوني تحت شباك الإمام الشافعي، ثم قال: ائتوني بالجراب، فأُتِيَ بجرابه، فأخرج منه رقًّا مكتوبًا وقال لخادمة: إذا أنا مت وتوجهتم إلى البلاد فأعطوا هذا المكتوب لولدي، فهو نسبتي للشرف وأخشى أن ينقطع نسبه، فقال لي خادمه: والله لي أخدمه أربعين سنة وما علمت أنّه شريف، ثم قال: سبب إرادتي دفني تحت شباك الإمام الشافعي أنّ لي حاجة بالاجتماع بأقوامٍ من الأبدال يأتوا إلى هذا الشباك، فأردتُ أن أجتمع بهم عنده وقد حضر الأجل، فأحبُّ أن أكون في المكان الذي قصدت الاجتماع بهم فيه.

ثم قال: قوموا اخرجوا عني، فخرجنا من المقصورة وقعدنا عند المنبر بالجامع، فلم يكن إلا قريب نصف الليل أو بعده، وإذا بالخادم يصيح، فدخلنا وجدنا الشيخ قد قضي، فحصل لنا ما حصل وغطيناه وخرجنا عنه، وجلسنا إلى أنْ صلّينا الصبح فلم نشعر إلا وباب الجامع قد فتح بعد صلاة الصبح، فدخل خادم ومملوك فسألا عن الشيخ حسين فقلنا لهم: قد توفي البارحة، وها هو الآن لم يدفن فقالا: لا إله إلا الله، نحن الساعةَ في صلاة الصبح في القلعة، ونحن نسمع إنسانًا يقول: الصلاة على الشيخ البعلبكي بجامع القرافة، وكان النداء قبل فتح باب القلعة وقد أحضرنا كفنًا ومؤنَةَ الجهاز من دار السلطان من جهة أم الملك السعيد -وكانت الحكاية في الدولة الظاهرية- ثم حضر في أثناء النهار جماعة من أعيان الناس والتجار بأكفانٍ متعددةٍ فلم

يقبل الخادم منهم شيئًا غير الجهاز الأول :كما وصّاه الشيخ، ثم حضر الصاحب تاج الدين واختار أن يأخذه في التربة التي لهم -وكذلك جماعة من أعيان مصر- واحتجّوا أنّ المكان الذي وصّى عليه الشيخ مشغول بالأموات، فقال الخادم: والله لي أصحب الشيخ أربعين سنًة ما رأيته ذكر شيئًا إلا جاء عقباه خيرًا كثيرًا.

ثم توجّهنا وحضّرنا له تحت الشباك، فأقام الحفار يحفر من طلوع الشمس إلى قرب العصر من صلابة الأرض، إذ هي بكر لم يكن بها مدفن أصلاً، ثم تطاول الحال بعد أن دفناه مدةَ أشهر، وسافر أصحابه إلى بلدهم وأُنسيت القضية التي ذكرها الشيخ بالأصالة، فلم أشعر يومًا وأنا جالس على باب قبة الإمام الشافعي، وإذا بجماعة فقراء لباسهم أبيض وجِمالهم بيض وفيهم إنسان شيخٌ أبلجٌ بعذبةٍ لطيفةٍ على صدره، فدخلوا القبةَ للزيارةِ فدخلت في أثرهم، فوجدت الشيخ واقفًا وظهره إلى الشباك والجماعة حوله وهو يدعو، ثم بعد ساعةٍ، جلس على الشبّاك، وأشار للجماعة بالجلوس، فجلسوا تحت الشباك من داخل القبة، وجلست معهم، ثم بعد ساعة التفت الشيخ إلى الشباك الذي دفن تحته الشيخ حسين فقال: رحمك الله تعالى يا حسين وأشار بإصبعه إليه، وقال: أتيتَ لتجتمع بنا فأدركك الأجل، فخطر لي ما قاله الشيخ حسين أنّهم من الأبدال، ثم قال إنهم يدخلون من الشباك، فقلت في نفسي: هؤلاء دخلوا من الباب، فقد لا يكون هؤلاء، فقال الشيخ في الحال: نحن نخرج إلى زيارة الإمام الشافعي بالليل، فيفتح لنا باب زاويته، ثم نأتِي إلى باب القرافة فيفتح لنا، ثم نأتي إلى هذا الشباك، وأشار بيده هكذا فَرُفِع الشباك، فواللهِ لقد سمعت الشباك يقعقع قعقعًة خطر لي أنه كُسر وقال: تُفتح لنا طاقة، ثم وضع يده على الأرض فسكن الشباك، فغبت عن حسّي تقديرَ ساعةٍ من النهار، ثم أَفقت فلم أجد لهم أثرًا.

الشيخ جبريل بن مدين (١)

(١) هو جبريل بن عبد الرحمن الأقصري. شيخ مشهور بالكرامات، معروف بالمكاشفات.

صحب الشيخ عبد الرحيم القنائي، وظهرت عليه بركته.وزار أحدهم قبره، فوجد عنده أوساخًا فقال: ما هذا يا سيدي؟ ما ينبغي أن يكون ذلك عند قبرك. ثم عاد لزيارته فوجد المكان في غاية النظافة.

وكان الشيخ أبو الحجاج الأقصري يكثر. مات سنة خمس وتسعين وستمائة، وقيل: وسبعمائة الطالع =

وممَّن كان بالأقصرين الشيخ جبريل بن مدين بن غزي، صَحِبَ الشيخ الإمام العارف عبد الرحيم المقيم بقنا، وضريحه بالجبانة، قدس الله تعالى أرواحهم.

كان الشيخ جبريل جليل القدر، منقطع إلى الله تعالى، مُؤثِرًا للخمول وترك المخالطة للناس، وهو ابن عم الشيخ أبي الحجاج الأقصري، وهما أقصريان، وكان أسبق من الشيخ، وتوفي قبله- قيل بخمسة عشر سنَة- وكان بدء أمرهما أنَّهما كانا مشارفين بالأقصرين في خدمة السلطان، فأدركتهما العناية الربّانيّة فصارا إلى ما صارا إليه.

حدّثني الشيخ ظهير الدين موسى بن الحسن بن الصباغ القوصي عن الشيخ عبد الغفار بن محمد ابن بنت الشيخ أبي الحجاج الأقصري قال: سمعت الشيخ جبريل يقول: لَمّا صحبت الشيخ عبد الرحيم -قدس الله تعالى روحه- عاهدنِي على ثلاثٍ: ألاّ آتي مكانًا يشار إليّ فيه، ولا أكون إمامًا، وأكون في الفقراء كالتيس بين الغنم- هذا كلام الشيخ- رضي الله تعالى عنهما.

ولعلّه إنّما أرادَ يَضربُ المثل للتيس بين الغنم إلا أن يكون بين الفقراء كذلك؛ فإن التيس لا ينطق بلسان الآدميين، ولا يعقل عن أحوالهم من الخير والشر والزيادة والنقصان، غافلاً عمّا الناس فيه، مشتغلاً بما هو عليه، وإلا فالتيس بين الغنم له صورة، فليس المراد ذلك لمفهوم الكلام المتقدم.

وحكى لي أيضًا قال: تقاصر النيل في بعض السنين إلى أن خُشي فواته في تلك السنة، وحصل في النفوس القحط، فأخبرني الشيخ عبد الغفار بن محمد الأقصري المذكور قال: بينما أنا ذاتَ ليلةٍ نائمًا في بيتي، فلم أشعر نصف الليل إلا والباب يطرق فقلت: من هذا؟ فقال: جبريل قال: فنزلت وفتحت الباب فرأيت الشيخ جبريل فقال: امش بنا إلى ساحل البحر إلى تحت جميزة كانت هناك قال: فخلع ثيابه وأعطانيها ونزل في الماء وأبعد إلى أنْ غطّاه الماء، وأبطأ عليّ كثيرًا حتى خشيت عليه الموت. قال: ثم طلع والماء يتبعه في أقدامه وهو بين يديه نور، وهو يسرع في المشي والماء يتبعه إلى أن غشي الأرض، فلبس ثيابه وسرت معه إلى بيته فقلت له: يا سيدي، بالله عليك، ما

=

السعيد (١٧٧)، الكواكب (٤٩٥)، والطبقات الصغرى للمناوي (٤/٢٤٤).

هذه الحكاية؟ فقال: والله يا ولدي كنت في بيتي فسمعت قائلا يقول لي: يا جبريل، قم فاخرج إلى البحر وانغمس فيه، واقسم على الله تعالى بهذا الاسم يطلع النيل.

فقمت وفعلت ما أُمرت به. فقلت له: يا سيدي، بالله عليك، أفدني هذا الاسم فقال: والله يا ولدي حين رفعت رأسي من الماء لم أعرف منه شيئًا.

وحكي عنه أيضًا قال: كنت أخدم الشيخ جبريل ابتداء منّي من غير مشورة الشيخ أبي الحجاج، وكنت عند الشيخ أبي الحجاج في زاويته، فكلّما طلبني يقولون له: هو عند الشيخ جبريل قال: فحصل في نفسه من ذلك شيء قال: فبقيت في تلك المدة تغيب صورته عني ولم أشهد في قيامي وقعودي إلا الشيخ مفرّج -قدس الله تعالى روحه- فقلت في نفسى: لعلّ نسبتى من الشيخ مفرّج.

فخرجت من الأقصرين، وجئت إلى دمامين، فرأيت الشيخ مفرج واقفًا وهو يحفر في بئر الساقية، فبقيت واقفًا طويلاً إلى آخر النهار فقال لي: يا صبي، تعالَ إلى هنا، مَن تكون؟ فقلت: أنا ابن بنت الشيخ أبي الحجاج فقال: ما حاجتك؟ قلت: والله يا سيدي لي مدُّة كلّما قمت وقعدت أراك ولا أرى الشيخ أبا الحجاج فقلت لعلّ نسبتي من عندك. قال: فبكى الشيخ مفرّج وقال: والله يا ولدي ليس الأمر كذلك، ولكن جدك متغير عليك، فصار يَظهر لك في صورتي.

قال: فخرجت من عنده، وجئت إلى قوص وإلى سوق الغرابليين، وهناك مسجد معلّق، فطلعت إليه فوجدت فقيرًا أرمنيًّا راقدًا في المسجد وتحت رأسه لبنة قال: فابتدرني وقال: يا عبد الغفار، أنا طلبتك من الله تعالى، ارجع إلى الأقصر وادخل على جدِّك فإنه يطيب عليك قال: فرجعت إلى الأقصرين، فدخلت على الشيخ في بيته وكشفت رأسي، ووقفت في الاستغفار.

فبينما أنا واقف وإذا بالشيخ جبريل قد دخل بنا وعليه درواسه وإسباطة يتوكأ عليها كالعكاز، فجلس إلى جانب الشيخ وقال له: يا ابن عمى، عندك المريدون كثير والأتباع والفقراء، وهذا بيني وبينك، تنحصر منه في خدمته لي حتى تهججه فيروح إلى دمامين وإلى قوص؟ فقال الشيخ أبو الحجاج: لا والله، يا فقراء، أقبلوا عليه، ثم قال لي: يا عبد الغفار، من اليوم التزم خدمة الشيخ جبريل، ولا يخدمه إلا أنت.

قال: فكنت أخدمه، وكان قبل وفاته بأربعة أشهر، وكان الحرُّ شديدًا فقال لي: اطلع إلى سطح البيت- يعني بيت الشيخ جبريل- وانصب لي خُصًّا من الجريد، وخذ فصًّا من هذه الحجارة اعمله لي وسادةً، ثم طلع الشيخ إلى ذلك الخُصِّ وجعل يقاسي حرَّ النهار وحرَّ الليل، وكنت أملأ له الماء من البحر في عديلة عنده، وكنت أتعانا الرياضة والوصال، وربما كنت أواصل أربعة أيام، وأحمل العديلة من البحر إلى أن أجيء بها إلى البيت، فأصعد في الدرج فتسقط قواي، فأرى العديلة ترتفع عن كتفي بقدر شبرين، وتطلع بطلوعي إلى أن أصل إليه فأضعها بين يديه.

وحدثني عنه أيضًا أنَّه قال: كنا نكون عند شيخنا أبي الحجاج فيقول -ونحن جلوس عنده غير مرةٍ- قيل لي: في هذه الساعة، بيت فلان فيه من المنكر كذا، ومن النسوان كذا، وهم مجتمعون على غير حالة جيدة، يا فقراء، قوموا لهم قال: فيخرج الفقراء، فيطرقون عليهم الباب، فلا يفتحون لهم، فيتسوروا الحيطان ويكسروا الأبواب، فيهرب أصحاب البيت، فيكسروا ما يجدوه من الخمور وغيرها. فكان هذا دأبه دائمًا.

وكان الشيخ جبريل يتجمع من هذا ويقول: لم يكلفنا الله ﷻ أن نتسور عليهم، ولا نفتح عليهم الأبواب، قال: فحصل شيء بين الشيخين، وبقى ذلك مدة قال: فبينما أنا ذات ليلةٍ ألبّس الشيخ أبا الحجاج بعد العشاء الآخرة إذ قال لي: يا عبد الغفار، كنت أنا وابن عمى جبريل في هذه الساعة تحت ساق العرش، فتعانقنا وتطايينا وتحاللنا. قال: فوالله لم يتم كلامه إلا والشيخ جبريل قد جاء، ونحن نسمع طلوعه من الدَّرج إلى أن اجتمع بالشيخ قام إليه وتعانقا وتطايبا فقال الشيخ جبريل: والله يا ابن عمى، الساعة كنا هكذا تحت ساق العرش تعانقنا وتطايينا وتحاللنا.

وحدّثني أيضًا قال: سمعت الشيخ جبريل يقول: اجتمع أصحاب الشيخ عبد الرحيم، وقالوا له: نحن نجد في أنفسنا من جبريل من ثلاثةِ أمور، أوّلها أنّه إذا جاء إلى قِنا يجتمع بأحد أصحاب الشيخ عبد الرحيم قبل اجتماعه بالشيخ ولا يحضر معنا السّماع ولا يحضر الميعاد.

قال لهم الشيخ: أمّا اجتماعه بفلان قبلي؛ فهو أخوه في الله تعالى، وقد قال الله تعالى: ﴿**إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ**﴾ [الحجر: ٤٧].

وأمّا امتناعه من الميعاد؛ فإنّه يخشى أن يسمع شيئًا من أخبار القوم ولا يعمل به فيكون حُجة عليه.

وأمّا امتناعه من حضور السّماع فاطلبوا لنا جبريل. قال: فحضرت، فقال الشيخ عبد الرحيم: اطلبوا لنا قوّالاً يقول شيئًا، فحضر قوّالٌ، فأخذ القصب وضرب على فخذه وأخذ يقول، فلمّا شرع يقول غُمي عليه وسقط إلى الأرض فلم يفقْ إلاّ بعد فراغِه، فقال الشيخ: من كان عندي يحضر السّماع على هذه الصورة وإلا فلا يحضر.

الراوي عن الشيخ جبريل، عبد الغفار بن محمد بن بنت أبي الحجاج.

ولم يُعلم للشيخ جبريل أتباعٌ بالأقصرين، فإن يكن بغيرها فالله تعالى أعلم بذلك، أو يكون له أتباع رجال من الغيب أو مِن الجان أو غير ذلك، فذلك موجود في هذه الطريق.

وقد يكون الرجل كاملاً في نفسه مُكمّل لغيره ولا يؤذن له في ذلك، وكان للشيخ أبي الحجاج أصحاب كثير وأكثرهم من غير الأقصرين.

ومِمَّن رأيته منهم البهاء مسعود خادمه أيضًا الفرجوطى والبرهان، وكان يمشى ومعه رقاية.

الشيخ فرج البوقي

ومِمَّن كان يعتقد الشيخ أبا الحجاج الشيخ فرج البوقي، وما رأى الشيخ، وكان رجلاً صالحًا عمّالاً، وكان فيه تجريد وإيثار وباطن سا لم، وكان يخالطنا كثيرًا، وكان مولى لابن عبد الظاهر النفيس وعُتق.

الشيخ علي الأفواهي

ومنهم الشيخ علي الأفواهي، ولم أجتمع به، ولا يقدح عدم الاجتماع في المحبة والاعتقاد، وقد تقدم أنّا نحب الله تعالى ونحب رسوله ﷺ ونتبعه ونعتقده، وما رأينا الله تعالى ولا رسوله ﷺ، ولأنّ صورةَ المعتقدات إذا ظهرت لا تحتاج إلى صورة الأشخاص، وصورة الأشخاص إذا ظهرت تحتاج إلى صورة المعتقدات، فإذا حصل الجمع بينهما فذاك كمال حقيقي، وأصحاب الشيخ أبي الحجاج ومعتقدوه كثير، لا سيما في الكورة البحرية.

الشيخ يعيش بن محمود الشامي

وممَّن رأيناه وأقام عندنا سنينًا كثيرةً وزوَّجه والدي الشيخ يعيش بن محمود الشامي، من أصحاب الشيخ أبي الحسن بن الرفاعي بن بنت سيدي أحمد، وكان فقيهَ البيت، جمع بين التصوف والعلم، أخبرني الشيخ يعيش عن الشيخ أبي الحسن قال: كنت أكبس رجلى الشيخ وهو راقدٌ على باريةٍ، وإذا بمُولّه قد دخل وهو معانق مرساة حديد كما خرجت من الكير وهي نار وهو يحملها على صدره ويرقص بها، فنظره الشيخ وقال: ارمها، فرماها، فوقعت على البارية فقال: يا سيدي، قتلني فقال: فعل الله بك.. -كلمة قالها وانزعج عليه- ثم قال لي: يعيش قلت: لبيك قال: ارمها قال يعيش: فخفت أنْ أمسكها وهي نارٌ فقال لي: أما أذنت لك؟ أو أما أمرتك؟ فقال: والله، لقد حملتها مثل العصاة، فرميتها في القاعة، وكان هناك قشٌّ أُرز فوقد وطلعت النيران.

الشيخ أبو الحسن بن الرفاعي (أبوشباك) (١)

وحكى الشيخ عبد العزيز أنَّ الشيخ أبا الحسن كان يحضر مجلسه الفقهاء والفقراء، وكان ذات يوم جالسًا، وإذا بحيةٍ قد وقعت من السقف، فقام الشيخ والفقهاء إلى مجلس آخر وبقي فقير جالس لم يتحرك، فلعلَّ الشيخ قال: اقتلوها فقتلوها، ثم عاد إلى المجلس، فقال الشيخ للفقير: ألا قمت مع أصحابك؟ فقال: يا سيدي، ما هذه إلاّ دويدة، فقال له الشيخ: تضيف إلى الهذيان الكذب؟ يسميها الله تعالى حَيّة وتسميها دويدة؟ لو عرفْتَ الله تعالى لخفتَ مِمَّا خوّف اللهُ تعالى منه.

وحدّثنا الشيخ عبد العزيز أنَّ صدر الدين أبا القاسم ولد الشيخ أبي الحسن بن الرفاعي وصل إلى مصر في دولة العز، و كانِ له صٍورة كٍبيرة خَدَمَه الناس والأكابر.

عائشةَ الرفاعيةّ

وكان بالقاهرة فقيرة تسمى: عائشة الرفاعية، وهى مريدةُ والدِه، وكانت امرأةً

---

(١) ولد سنة ستمائة وثمانية وثلاثين، وماتت والدته بعد ولادته، وبقي في بيت أخواله آل الملك الأفضل، إلى أن بلغ حدّ الرجال، وكان أبوه من أكابر الأولياء، وزهد وتصوف وعظم أمره، وأعرض عن الدنيا بالكلية، وقبره بمصر بالقرب من القلعة ظاهر يزار، يتبرك به. وانظر: قلادة الجواهر للصيادي (ص٤٦١).

صالحة، و كانت شجرة الدر تعتقدها وكذلك بيوت الأمراء، فجاءت إلى الشيخ صدر الدين وخدمته، وخدمه لأجلِها بيوتُ الأمراء، فعزمت عليه امرأة الصيرفي- أمير مشهور- فراح إلى عندها وأكل طعامها.

فامتنعت وقالت: ما أحضر إليه، فعزم السلطان الملك الْمُعز وعمل له سُماطًا، فامتنع من الرَّواح، فأرسل إليه السلطان يقول له: يا شيخ، نحن قصدنا إكرامك، و النبي ﷺ يقول: من دعي فليُجب. فقال: إذا كانت لي امرأة تقضي عليّ في بلدك، فإيش حاجتي أجيء إليك؟

فأرسل السلطان الطوائية الخدام فقال: قولوا لها تروح إلى شيخِها، فقالت لهم: سلّموا على السلطان وقولوا له: الملوك ملوك والفقراء فقراء، وهذا ما هو شيخي، شيخي أبوه، و أنا فما أروح إليه لأنه فعل ما لا ينبغي، والمحبةُ ما هي بالقهر، المحبة بالاعتقاد.

فراح الخدّام بلَّغوا السلطان، فعزَّ عليه ذلك لكونها خالفتْ أمره، و أراد أن يشوّش عليها فقامتْ شجرةُ الدر ومنعته من ذلك وقالت: والله ما بيننا وبين هذه المرأة معاملة، تنفصل هذه وابن شيخها وأنت لا تدخل بينهم فيروح ملكك، قال: فتخرج من بلدي؛ ما تقيم عندي امرأةٌ تخالف أمري.

فراحوا إليها فقالت: السمع والطاعة فأَكْرَتْ الجمالَ وخرجت وخرج أخوها يودِّعها وهي مسافرة إلى الشام، فبكى أخوها فقالت له: لا تبك، هو أخرجني من القاهرة و أنا أخرجه من الدنيا كلِّها.

فكان يوم دخولها دمشق يوم قتِل الملك الْمُعز.

بيان صدقها مع الله

فانظر يا أخي رحمك الله تعالى إلى صدق هذه المرأة مع الله تعالى، ولم تراعِ غير الله تعالى، لا ملك و لا شيخ؛ لأن المتابعة على الصدق والنصيحة والمتابعة لرسول الله ﷺ، فلمَّا رأته قد أحلَّ بشرطٍ هو عندها نقصٌ، وإن لم يكن يتحقق الحرام في ذلك الطعام، لم توافق على صحبته مع المخاطرة لمخالفة السلطان؛ لأنَّها ترى مخالفتها له طاعةً لله تعالى؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، واختارت الخروج من الوطن على تلك الصورة، و مفارقة الأهل ومشقة الطريق، وعلمتْ ما يئول إليه الحال.

فيا ليت لنا مثلها؛ فلقد أحسن المتنبِّي في قوله:

ولــو كــان النِّســاءُ كَمــا ذكرْنــا لفُضِّــلَتِ النِّســاءُ علــى الرجــالِ

وحكي الشيخ يعيش بن محمود قال: جئت أنا والقليبُ البحَّاري وشخص آخر إلى زيارة الشيخ علي الحريري(١) بعد الصبح، فوقفنا على الباب بأدبٍ، وإذا بالخادم قد خرج وقال: يدخل يعيش و القليب ويروح هذا العلق يستحمَّ؛ فإنَّه جنب قال: فدخلنا عليه وقد خفنا، أو وقعت ركبُنا -أو كلام هذا معناه- فوجدنا الشيخ متكئًا ثم قال الشيخ عن الشاب: إنَّه واقفٌ على الباب مستغفرًا، خلُّوه يدخل، فدخل، فجئتُ إلى الشيخ وقلت: يا سيدي، خرج شيء يقال له القادوس، ما دستورك؟ فقال: قل يا يعيش، فقلت شعرًا:

الملــيحُ قلــبي عليــقٌ يُحقّــقُ لا يَمَــرُّ، مَــن يبْصــرُه يعشــقُ

مســكينٌ عبــدُ القــادوسِ كُسِــر

صَـار شـفافًا مـن بعـد مـا قـد هُجِـر

أنْ يَجــد لــه بالوصــالِ مُجْــبِر

ويعــودُ قَوِّمُــوا الــذي طُلِّــقُ ويعــودُ غُصْــنُ السّــرورِ مُــورِقُ

قَــد يلَــي القــادوسَ بهــم طويــلُ

---

(١) هو الشيخ علي الحسن بن منصور البُسري -وبضم الموحدة وسكون المهملة- أبو محمد الحريري، شيخ الطائفة الحريرية بدمشق. كان معروفًا بالزهد والفضيلة، موصوفًا بسلوك الطرقة الجميلة.

ولد سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة، ومات أبوه وهو صغير، فعلمه عمه نسج الحرير، فلزمه دين فحُبس، فصلى بأهل السجن الصبح، وذكروا حتى تعالى النهار، وبقى كل من يجيء إليه شيء من أهله يرفعه حتى فرغوا من الذكر، جمع جميع ما حضر، ومد سماطًا، فأكلوا كلهم معًا، ولا زال يفعل ذلك كل يوم، ثم أمرهم بقضاء دينه ففعلوا، فأُطلق، فسعى في خلاص أولئك من السجن، فأُطلقوا، فصاروا أتباعه، واخترع لهم ذكرًا واظبوه، وأقام شعار السماع، فاجتمع الناس عليه.

وقد نقل عنه ابن إسرائيل كرامات كثيرة، ومكاشفات غزيرة.

مات سنة خمس وأربعين وستمائة. وانظر: الكواكب (٥٣٣).

تميـــــل الـــــرأسُ ودمـــــع أســـــيلُ

بــــالقرصِ قــــد رُبِــــط والسَّـــجِيلِ

وجَمِيعُــــــه بالْجِبــــــالِ مُوثَــــــقُ والفِكْــــــرةُ في النَّهــــــار تغــــــرقُ

مـا تَـراه نـازلاً علـى قِمتِـه

وحبلنـا يشـوِّشُ في رقبتِـه

قدْ عَجَزَ و تناقَصَتْ همتُه

لـــــه رفيــــقٌ بقليــــــلٍ يســــبقُ لــــه ســــنين يجــرِي و مَــا يَلحــقُ

قال: فقام الشيخ علي ودار وجعل يقول لي: سنين أجري وما ألحق، وحصل لنا ليلَة لم يحصل مثلَها، وخلع علينا الشيخ فروة، وبقينا عنده ثلاثةَ أيامٍ، فلمَّا أردنا الخروج قال لولده: يامسبب، قل لوالدتك الصرّة التي جاءت لنا البارحةَ، فجاءت لنا صرّةٌ فيها ثلاثمائة درهم.

وكان الشيخ علي الحريري جليل القدر عامر البطن، لا يكترث بظاهره وكراماته والحكايات عنه كثيرة.

ومِمَّا حُكي لي عنه أنَّه جاء يومَ الجمعة قبل الصلاة على أنّه يصلّي الجمعة فرجع ولم يصل وقال: ما يريدونا نُصلّي ما نُصلّي، فلمَّا وصل إلى منزله قال: إنّما يكون الفقير جالسًا فيُدعي فيُجيب، ثم مات قبل الصلاة- رحمه الله تعالى.

وكان الأمير ناصر الدين قد صحبه وكان يحكي عنه أمورًا جليلَة.

وحُكي عن الشيخ أبي الحسن علي ابن أخت سيدي أحمد، أنَّه قال: جئت مرة لأجد سيدي أحمد يتحدَّث في زاويته -أو قال في خلوته -مع شخص، فتحدثا طويلاً، ثم خرج ذلك الشخص من كُوّةٍ في الحائط، ومرَّ في الهواء كالبرق الخاطف، فدخلت على الشيخ، وقلت: يا سيدي فمَن الرجل؟ فقال: أو رأيته؟ قلت: نعم فقال: هو الرجل الذي يحفظ الله تعالى به قُطرَ البحر المحيط، وهو أحدُ الأربعة الخواص، إلاّ أنَّه هُجر منذ ثلاث ليال، وهو لا يعلم.

فقلت: يا سيدي، وما سبب هجرانه؟ فقال: إنَّه بجزيرة في البحر المحيط، فأُمطرت منذ ثلاث ليال حتى سالت أوديتها، فخطر في نفسه، لو كان هذا الماء في العمران، ثم استغفر الله تعالى فهُجر بسبب اعتراضه؛ فقلت: يا سيدي، أو ما أعلمته؟ فقال: لا، استحييتُ منه.

فقال الشيخ أبو الحسن: لو أذنت لي لأعلمنه، قال: أو تفعل؟ قلت: نعم، قال: زيّق،؛ فرمقت، ثم رفعت رأسي فإذا صوتٌ: يا عليّ، ارفعْ رأسَك؛ فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بالجزيرة.

فقُمتُ ومشيتُ فوجدتُ الرجلَ فحدّثتُه، فقال: ناشدتك الله تعالى إلاَّ فعلت ما أقول لك؟ قلت: نعم، قال: ضعْ خرقتي في عُنقي، واسحبْني على وجهي، ونادِ عليَّ: هذا جزاء من يعترض على الله تعالى.

فوضعت الخرقة في عنقه، وهممت بسحبهِ، وإذا قائل يقول: يا عليّ، دعه، فقد ضجت ملائكة السماء باكيةً عليه وسائلةً فيه.

قال: ثم أغمي علي، فرفعت رأسي لأجدني بزاوية الشيخ، ووالله ما علمت كيف ذهبت ولا كيف أتيت.

حكى لي هذه الحكاية الشيخ رشيد الدين أبو عبد الله كما نقلها.

حبيب العجمي(١)

ومِمَّن رأيته الشيخ حبيب العجمي صهر الشيخ علم الدين المنفلوطي، ترك زوجته

(١) من ساكني البصرة صاحب كرامات، مجاب الدعوة، وكان سبب إقباله على الآجلة واشتغاله عن العاجلة أنه حضر مجلس الحسن البصري فوقعت موعظته في قلبه فخرج عما كان يتصرف فيه ثقة بالله تعالى، مكتفياً بضمانه سبحانه وتعالى، واشترى نفسه من الله تعالى بأربعين ألف دينار في أربع دفعات تصدق بعشرة آلاف في أول النهار، فقال: يا رب قد اشتريت نفسي منك بهذا.

وقال الخطيب عن المعتمر بن سليمان عن أبيه: قال: ما رأيت أحداً قط أعبد من الحسن البصري، وما رأيت أحداً أورع من ابن سيرين، ولا أزهد من مالك بن دينار، ولا أخشع من محمد بن واسع، ولا أصدق يقيناً من حبيب العجمي. وانظر: الحلية (٦/١٤٩، ١٥٥)، اللمع للطوسي (٣٢)، كشف المحجوب (٨٨، ٨٩) وميزان الاعتدال (١/٢١٢)، والتهذيب (٢/١٨٩)، وروضة الحبور لابن الأطعاني ().

حاملاً وبنته طفلة -كما حكى الشيخ أبو الطاهر- وغاب عني، فكبرت ابنته وتزوجت وولدت أولادًا، فحضر بعد ذلك، ونفعهم نفعًا كبيرًا.

وكان رجلاً صالحًا خفيفَ الروحِ، مبسوطًا يقول بالسّماع، وسمع عندنا مراتٍ وكان يقوم ويدور، وكان حاله يعجبني- رحمه الله تعالى.

ورأيت فقيرًا عجميًّا، وكان يخرج ظاهر مدينة قوص ويجلس في ساقية ويضع تحت يده خده، وكنت أعتقده وأهابَ أن أكلّمه، ولَمَّا كان يومٌ من الأيامِ وهو وحده، سألته الدعاء، فانتهرني نهرةً آلمت قلبي، وقال: مَن أنا حتى أدعو لك؟ ولعلّ الخوف كان غالبًا عليه، فحصل لي بذلك حالةٌ، ولم أشعر بنفسي إلاّ وأنا معانقٌ لورية من النخل وأقول:

إلهي، أنت تعلمُ ما طلبي إلا أنت، ولو شئتَ لأوصلتني إليك.

وأنا أبكي وشوك النخلة في جسمي ولا علم لي، وأنا كذلك إلى وقت، فأجد بردًا بين كتفي وانشراحًا في باطني، فمِن ذلك الوقت ما سألني أحد أنْ أدعوَ له إلاّ دعوتُ له، وكان ببركات ذلك الفقير.

الشيخ عبد الرازق بن حسام[1]

ومِمَّن كان لي صاحبٌ من أرباب المروءة والفتوة، الشيخ عبد الرازق بن حسام، كان يتيمًا بقفط، وأصله من البهنسا، وكان قاضيًا وترك الحكم وتصوف، وكان صوّامًا قوّامًا، أقام عندي أربعةَ أشهر، ما رأيته وضع جنبه الأرض، وكان يتورع وله طاحون وحدها، وكان يطعم وتوفي بالدَّمّام، وكانت مروءته تقع بينه وبين الناس - رحمه الله تعالى- وما كان منذ عرفته ما يكاد يومٌ ينقضي إلاّ ويحضر من قفط يجتمع بي ذلك النهار إلى آخره، لا سيّما في رمضان ولا يخصُّ نفسَه بما يأكله حتى يُحضِر منه نصيبًا - رحمه الله تعالى- وإن لم يحضر، حضر رسوله.

ومن مروءته أنَّ شخصًا غريبًا جاء إلى قفط يطلب عتبة يبنيها في داره، فطلب الشيخ شمس الدين عبد الرازق له عتبة فلم يجدها، فسيّر خلف البنَّاء وقلع عتبة داره — أعني: دار نفسه- وجعل مكانَها خشبة، وسيّر العتبة إلى ذلك الرجل الذي طلبها

---

(1) هو عبد الرزاق بن حسام بن رزق الله بن حاتم شمس الدين زريق البهنسي. كان مقيماً بقفط وقيل: من البلينا ونشأ بقفط وتولى الحكم بها وتركه تزهداً وتصوف. وكان صواماً قواماً. وانظر: الوافي بالوفيات (٢٦٥١/١)، ونقل الصفدي ترجمة الشيخ زريق عن المصنف في الوحيد.

بساحل البحر.

وكان له من هذه الحكايات لا سيما في الشدائد والمعضلات، ومَن يقصده في أمرٍ من الأمور أو عليه طلب من السلطانِ وهو خائف يفعل في ذلك الأفاعيل-رحمه الله تعالى.

وأخبرني الشيخ شمس الدين عبد الرازق أن الشريف الأحمر جاءه، ومعه بدوي فقال لي: أشتهي أن تقرضنا دينارين أو تقرض هذا دينارين وتركب معنا لله تعالى أو كما قال، فدفعت لهما دينارين وركبت معهما، فسقنا في الحاجر ساعة، فقلت للشريف: ما تقول لي أنت أين يطلب بنا؟

فقال: هذا البدوي كان أودع أناسًا من العرب سَخلة في الحجاز من أحدَ عشرَ سنة، وهو يطلب وديعته، فقلت له: ضيَّعت عليَّ دينارين، وأتعبتنا؛ فقال لي: هذا الدينار الواحد معي والأخر اشترى به هذا الحمار، فإن وجدنا شيئًا وإلاّ رددنا لك رحلك.

فسرنا حتى جئنا إلى أبيات أعراب هناك، فجلسنا بعيد، وتقدم الأعرابي ونادى: يا فلان فكلّمه إنسان، وقال: من تكون؟ أو من تريد؟ فقال له: الله تعالى يعلمُ أنِّي كنت أودعتُ لكم بوادي الصفراء في الحجاز في السنة الفلانية سَخلة.

قال: فجاء الرجل الذي كلّمه ونحَّى القرمزية عن رأسه، ونظر إلى شجةٍ في رأسه وقال: واللهِ أنت إيَّاه، وأبو فلان مات، وأنا أخوه، اقعد حتى تروّح إبلنا.

قال: فقعدنا حتى روّحت عليهم إبلهم، فعزل منهم تسعةَ نوقٍ، وقال: الله تعالى يعلم أنَّ السخلة ولدت أولادًا، وولد أولادُها فبعناها واشترينا هاتيك الناقة، فولدت وتوالدت، فالذي كان منها ذكرٌ بعنا الذكرَ وأبقينا الإناث وأخرجنا عنك الزكاة، وأخرج صرّة ورِق مربوطة بخيطٍ، وقال: هذا من ثمن الذكورِ ففتحناها ووجدنا فيها مالاً- إمّا قال: تسعةَ عشرَ دينارًا ذهبًا أو قال: اثنين وثلاثين دينارًا- غاب عني أيُّهما لطول المدة.

فقال الأعرابيُّ: أمَّا هذا الذهبُ فخذوه لكم ولا حاجة لي به، ولكفاني النياق. قلنا له: والله ما نأخذ إلاّ الدينارين فأخذنا الدينارين ورجعنا.

ومِمَّا حكى الشيخ عبد العزيز في الفتوَّةُ أنّ البهاء الشيرازي حدّثه قال: احتجت، فكتبت ورقة على الشيخ عبد الله الماردانِي إلى أبي شعرة -وكان أبو شعرة أميرًا كبيرًا من أمراء الكامل، وكان مريدًا للشيخ عبد الله- وكتب في الورقة أنّ هذا الفقير يقصد الحجاز فيزوده أو شيء من ذلك.

قال: فجئت فوجدت الأمير راكبًا، فقعدت حتى جاء ونزل من الركوب، فناولته الورقة، فلمَّا قرأ اسم الشيخ عبد الله قَبلها قال: اجلس فجلست، وأحضر شيئًا للأكل فأكلنا، وقال لأستاذ داره: إيش معك؟ فقال: معي عشرة دنانير، فقال: ادفعها له، فدفعها لي، وقال: أعطه عشرةَ أرادب قمحًا وجملاً يركبه ومائتي ذراعٍ من القُطن للسفر، وأخذَ رقعةً يكتب الجواب للشيخ، ويعتذر من كونه لم يجد إلا ذلك عن الذهب، فبينما هو يكتب، وخادم قد دخل، وقال: سيدي الشيخ عبد الله قد جاء، فلحقني من الخجلِ ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فدخل الشيخ، فوجد الأمير له، وقبَّل يدَه وقال: والله يا سيدي إذ بي أنْ أكتب الجواب، فأخذ الشيخ الورقةَ منه ونظر إليها وفهم المقصود، ومسك الشيخ لحيةَ نفسهِ وقال: واللهِ والك يا أبا شعرة ما بقيت لحية عبد الله تساوي عندك شيئًا، كثرت عليكم، الماء إذا قعد في الزير عطن.

فقال: يا سيدي قتلتني، لا تقل هذا الكلام- أو كلام هذا معناه- فقال: ولك أرسل إليك فقيرًا، وأقول لك: إنّه مسافر الحجاز، تقابله بعشرةِ دنانير؟ ما أخسَّ همتك فقال: يا سيدي، والله أنا ما أُمسك فضة إلا هذا أستاذ الدار، وأنا أدخل عند الجوارى.

فدخل الأمير إلى عند جواريه، وقال لهن: أيًّا مَن كان معها شيء تعطيني حتى أعطيها أكثر، رابونِي، فخرج وكفُّه -أو كفَّيه- مملوءة ذهبًا وفضة، فدفعها، فأخذتُها ورحت على أنني لا آخذ الجمل ولا القمح ولا الثياب.

فبينما أنا أمشي وإذا بحسٍّ مِن خلفي وقائل يقول: يا بهاء، قف، فوقفت لأجد الشيخ عبد الله خلفي، فقلت: يا سيدي، كذبتُ عليك فقال: لا، ارجع خذ الجمل والقمح والثياب، فرجعت وأخذت الجميع.

ومِمَّا حُكي عنه من الكرمِ أيضًا قال: أخبرني فقير قال: ولدت زوجتي، ولم يكن

عندنا شيء، وكنت بمصر، فرحت إلى الشيخ عبد الله بالقاهرة فأخبرتُه بذلك، فجعل يدَه في جَيبه وأخرج صرّة، وكان الليل قد أقبل، فدفع إليّ الصرَّة وقال: لا تبات إلا عند زوجتك، وقال لخادمه: رُح معه حتى يفتحوا له الباب.

قال: فخرجت من القاهرة، وفتحت الصرّة لأجد فيها مائةَ دينارٍ ذهبًا، فقلت في نفسي: الشيخ غلط؛ أراد أن يعطيني فضّة فوقع في يده ذهب، فبتُّ ظاهر البلد، فلما أصبحت أتيت إلى الشيخ؛ فقال لي: رُحتَ إلى بيتك؟ قلت: لا، قال: لِمَ؟! قلت: يا سيدي، هذه الصّرة ذهب، لعلّ سيدي غَلِط، أراد أن يعطيني فضّة فغلط فيها؛ فقال: والله يا ولدي ما معي غيرها بيت الأمير - أو كما قال-نَذَرُونِي أنْ جاءهم ولد، فهي لك، فأخذتُها.

وكان عبد الله كبير الشأن، وكان أبو شعرة يحبُّه محبةً عظيمة، وكان قد رأى منه أمورًا عظيمة، من جملتها أنّ الشيخ عبد الله جاء يومًا إلى عند أبي شعرة، فوجد عنده ابن الأزرق؛ فقال: إيش يعمل هذا؟ فقال: يا سيدي، عندنا جارية اعتراها شيء من الجان، فقال الشيخ: خلِّي هذا يخرج؟ فلمَّا خرج دخل الشيخ عبد الله، وقال: يا ابن أخي، ما أنا ابن الأزرق، أنا عبد الله المارداني(١) والله متى رجعت لتعترض هذه الجارية قتلتُ قبيلتَك من الجنِّ كلِّها. قال: فسترت الجارية وجهها في ساعتها وزال عنها ما تجده، ولم يرجع يعترض لها شيء.

فانظر يا أخي -رحمك الله تعالى- في هذا التصريف في الجن والإنس، وهؤلاء هم الملوك حقيقة؛ لأنَّ ولايتهم عامَّة من الله تعالى، وتصريفهم صار أمرهم نافذ على الجن والإنس والطيور والوحش وعلى جميع الموجودات والملوك وغير الملوك، يولّون ويعزلون ويقولون ويفعلون.

كما حكى صاحبي القاضي زين الدين البوشي، وكان قاضي كورة بوش عن والده عن الفقيه عن الفقير عبد الرحمن النويري، أنه جاء إلى زيارة الشيخ عوض البوشي ببوش، وأقام عنده أيامًا، وخطر لهما زيارة الفقيه عبد المهيمن بدلاص، وكان شروني

---

(١) له ذكر في خلاصة المفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر لليافعي، ضمن الرواة الذين روى عنهم (ص١٣٥) .

والي البهنا وبوش، يبغض الفقيه عوض البوشي لشقاوته.

فخرجا في جمع من أصحابهما وفيهم الفقيه عبد الحق نائب الحكم، فوجدوا صيرفيًّا نصرانيًّا قد جبى الجوالي والزكاة في علبة كبيرة وهو راكب والمشايخ مشاة، وفيهم نائب الحكم، وهو راكب.

فشقَّ بين المشايخ الفقيه عبد الرحمن والشيخ عوض ومن معه، فصفع نائبُ الحكم الصيرفي، وقال: تشق بين المشايخ؟ فاغتاظ الصيرفي ونثر الدراهم والدنانير من العلبة في الغيط، ومضى إلى شروين ببوش مكشوف الرأس صارخًا، وقال: إنَّ الفقيه عوض وأصحابه ضربوني ونثروا مال السلطان في الغيط.

فاغتاظ شروين[١]، وأمر رسولين بإحضار الفقيه عبد الرحمن والشيخ عوض من دلاص إلى بوش، وأمرهما بإحضارهما مسحوبين بلحاهما على وجهيهما، فتوجه الرسولان إلى مسجد الفقيه عبد الرحمن بدلاص فطردهما الفقراء، فرجعا إليه وقالا له: طردونا وسلِمْنا من الضرب، فأمر ولده أن يركب ويركب معه جمع كبير ويتوجهوا إلى المشايخ، ويُحضورهم مسحوبين بلحاهم على وجوههم، فلمّا انتهى إلى باب المسجد ونظر إلى الفقيه عبد الرحمن والفقيه عوض البوشي والفقيه عبد المهيمن بينهما فتقدّم إليهما، وأشار برأس فرسه راجعًا إلى أبيه متغيّر اللون، فلمَّا حضر قال له: وأين مطلوبي؟ فقال له: رأيت سبعًا خرج من المسجد وفتح فاه، فأراد أن يلتقمني، فقام الفقيه عبد الرحمن والشيخ عوض ومسكاه عني.

فأنكر عليه وقال: هؤلاء سحرة ومبتدعون، شدّوا لي حتى أركب.

ثم ركب على أنه يجيء إليهم ومعه الأمراء والأجناد وأمراء العربان، فلم يخرج من المكان إلا بمقدار قصبتين، وإذا بساعٍ قد جاءه ومعه ورقة بخط الملك العادل يأمره فيها بسرعة الحضور، فتنكّد لذلك وتوجّه نحو مصر وهو راكب، وأميران يلحقاه بقماشة، ودخل إلى مصر خائفًا وَجِلاً، فاجتمع بالسلطان فأكرمه وأخلع عليه وزاده ولايةً أخرى، فكتب لولده يبشره بذلك ويأمره بأن يتحفظ بالفقيه عوض والفقيه عبد الرحمن إلى حين يحضر، ويفعل بهما ما خطر له من السوء، وأمر المقدّمين أن يفصّلوا مقارعًا

---

(١) انظر: الوافي في الوفيات للصفدي (١/٢٢٩٠).

جددًا لذلك، وأمر ساعيًا يقال له: نصران أن يسرع في التوجه إلى ولده بالكتاب.

فجاء الساعي إلى الفقيه عوض وأخبره بذلك، فقال للفقيه عوض: يخلي الفقيه عبد الرحمن يتوجه إلى بلده، وتستخفي أنت، فقد اتفق كيت وكيت -وقصَّ عليه صورة الخبر- فقال له: ادفع إلى ولده كتابه، فحلف الساعي أنَّه ما يوصله له تلك الليلة.

ودخل الفقيه عوض وعرَّف الفقيه عبد الرحمن الصورة، فأطرقا برأسيهما والفقراء منقبضون زمانًا، فرفع الفقيه عبد الرحمن رأسه وقال: يا إبراهيم-وكان ذلك كنية الفقيه عوض؛ لأن له ولد اسمه إبراهيم- اعزل شروين، فلم يُرضِ الفقيه عوض ذلك، ورجعا إلى حالهما.

وإذا بغراب يصيح ثلاثَ دُفعاتٍ: غاق غاق، فقال الفقيه عوض: يا فقيه عبد الرحمن، أتدري ما قال الغراب؟- فما أدري أسكت أم قال لا- فقال: هوّ يقول: إن كان الفقيه عبد الرحمن قد عزل شروين من الولاية فقد عزلناه من الدنيا.

فلم يمضِ زمان إلاّ وبطاقة وقعت أن شروين قد خرج من مصر متوجهًا إلى بوش، فلمَّا خرج من باب القنطرةِ تقنطرَت به الفرس فمات.

وهؤلاء الثلاثة من الأكابر المشهورين لهم من الكرامات وخرق العادات، والحكايات عنهم كثيرة جدًّا، وإنما اقتصرنا من ذلك لما التزمناه.

قوص.. بلد الأكابر

ومات بمدينة قوص **المؤدِّبُ إبراهيم** -من الأكابر أيضًا- عظيم الشأن وله كرامات وحكايات كثيرة تركنا الكلام فيها.

أخبرني والدي عنه أنَّه دخل دار الولاية في واقعةٍ من الوقائع؛ فقال للوالي -أو الأمير في ذلك الوقت-: أَدعو الساعةَ على الأصل يروح الفرع.

وكان بها أيضًا الفقيه ابن ناشيء من الصالحين، اشتغل بالقرآن العظيم ولم أجتمع به ولا بالمؤدِّبِ إبراهيم.

وكان الفقيه نجم الدين بن ناشيء مستديم العبادة يحبُّ الطائفةَ متصوفًا مع العلم والفقه الظاهر، مبسوطًا، وله في رسول الله ﷺ مدائح كثيرة، وكان يقرأ الميعاد بعد صلاة الصبح بالجامع بقوص ويطيل الدعاء- رحمه الله تعالى.

ومِمَّن عرفناه الشيخ **عبد العزيز بن المكين القناوي** من أصحاب أبي يحيى، عمَّالاً كثيرَ العبادة منشرحًا مبسوطًا محبًّا إلى الناس.

ومنهم الشيخ **كمال الدين بن عبد الظاهر الإخميمي**، صَحِبَ الشيخ على الكردي حين كان بقوص، وتجرّد وهو في بدء إرادته، وصَحِبَ بعده الشيخ إبراهيم بن معصاد وأقام بإخميم وبها مات- رحمه الله تعالى- وكان على حالتِه لا يعيى ولا يفتر إلى أن لقي الله تعالى، طريقتُهُ لطيفة نظيفة، ظاهرة بالنِّعم والغنى.

ومنهم **أبو عمرو قاضي طنجة** ترك القضاء ببلده وتجرد وأقام عندنا مدة حين كان متوجهًا إلى الحجاز الشريف، ومعه أصحاب مباركون، وسافر وأقام بمكة سنين وعاد وحده، ثم رجع إلى مكة- شرّفها الله تعالى.

ومنهم **قاضي همدان** تجرّد وسافر من بلاده، وأخبرني أنّه كان ماشيًا، ونزل عندنا وتوجه إلى الحجاز، وكان مع ذلك مسنًا، أخبرني أنّه كان جنديًا حين أُخِذَتْ بغداد، وكان سنّه خمسةً وعشرين سنة، فسألته عن عاران: هل كان مسلمًا؟ فأخبر أنّه تولّى عنه القضاء بهمدان، وهدم الكنائس في بلاده، وأنه كان مسلمًا، قلت له: فلِمَ تزوَّج بزوجةِ أبيه؟ قال: إنَّ والده كان كافرًا، ولم يكن له كتاب، فزوَّجه ابن النضير الناظر على مدرسة بغداد على مذهب الإمام الشافعي ﵁ واستكتبه إلى البلاد.

وأخبرني الشيخ عماد الدين بن السُّكري أنَّه رأى هذا النضير الذي أفتى عاران بزواج زوجة أبيه، وقد ترهّل وتغيرت أحواله.

وأخبرني أيضًا ابن مدرس همدان كان اتفق معه على الخروج، وأنّهم أخذوهم في الطريق.

ومِمَّن رأيته أيضًا بمكة -شرفها الله تعالى- **الشيخ عبد القوي القرافي**، كانت له أحوال عجيبة، وكان مجردًا مقيمًا بأحد الرُّبط بمكة- شرفها الله تعالى، وكان إذا جرى حديث الطريق يغيب ويصيح القوم، وأخبرني أنَّه كان يومًا جالسًا بالحرم، فنظر إلى الحجر الأسود وقد خرج من مكانه ومشى وله يدان ورجلان ووجه، وأنَّه جاء إلى عنده -فربما لم يطق ذلك -فرجع الحجر إلى مكانه وعاد إلى حالته الأولى، وأخبرني أيضًا أنّه كان يطوف ليلةً بالكعبة، فسمع صوتًا من جوف الكعبةِ يقول: يا عبد القوي -وكان

رفاعيًا- رحمه الله تعالى.

الشيخ محبُّ الدين الطبري رضي الله عنه (١)

ومنهم الشيخ محبُّ الدين الطبري -رحمه الله تعالى، كان عالِمًا متصرفًا محبًا للطائفة مؤمنًا بكراماتِهم، عمَّالاً ليلاً ونهارًا، يطوف في وقت الظهيرة وفي حدَّة الشمس، ونحن نعجز عن ذلك، مع كبر سنِّه، وكونه ولد بمكة- شرفها الله تعالى، وربِّي بها، فتراه تحت الأستار باكيًا كأنَّه ما رأى الكعبةَ إلاّ تلك الساعة.

أخبرني أنّ له خمسةً وسبعين حجّة.

ولقد كنت يومًا أطوفُ أنا وهو يكلمني، وإذا شخصٌ عليه زيُّ الفقراء قال: يا شيخ، لا تتكلم في الطّواف، وأنكر عليه، وربما قال له: ما يحلُّ لك، فرأيته لم يزد على أن قال: غفر الله تعالى لك.

وبلغني أن شخصًا رآه يبكي تحت أستار الكعبة؛ فقال: يا شيخ، تبكي على أيِّ شيء؟ أنت شيخ السلطان وشيخ الحرم، وابنك قاضي مكة، وأنت الآخر خطيب، فأيُّ شيء تريد من الله تعالى يعطيك؟ فقال: يغفر لي يا ولدي، يغفر لي.

وكان كثير الأعمال، كثير الاحتمال في التعليم لكثرة الجهّال الذين يأتون من جبال اليمن، واختلاف مذاهبهم، وتعليمهم بالقول والفعل والهيئة، ويدوسون بنعالهم وأرجلهم ما يجلس عليه إن كان على شيء، وربما مسكوا لحيته.

وكان رضي الله عنه في التواضع وسكون النفس في الملبس وغيره على ما كان عليه السلف، وربما رأيت عليه ثوبًا وطاقيّة على رأسِه، ويشدُّ فوطة فوق ثوبه حين يطوف.

وكنّا بمكان مقابل للحرم الشريف، وله دَرَج، فكان الشيخ يصعد ذلك الدَّرج، فسقط فشُج رأسه، فتألمت لذلك، وقلت له: يا سيدي، نحن نأتي كل يوم إلى الحرم، وسيدي يتفضل فلا يفعل فنحن نأتي؛ فقال: إن كان عزَّ عليك، فقلنا: نعم؛ فإنه ما

---

(١) هو المحب الطبري الإمام المحدث الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر المكي الشافعي، مصنف الأحكام الكبري، وشيخ الشافعية، ومحدث الحجاز، ولد سنة خمس عشرة وستمائة وسمع من ابن المقير وابن الجميزي وشعيب الزعفراني، وكان إمامًا زاهدًا صالحًا كبير الشأن. مات في جمادى الآخرة سنة أربع وتسعين وستمائة. وانظر: تذكرة الحفاظ للذهبي (ص٥١٤).

كان في يوم يمرُّ حتى يأتينا فيه، فقال: والله ما أتيت بعد إلا حافيًا؛ فكان يأتي حافيًا.

فانظر رحمك الله تعالى، إلى هذا التواضع من هذا الرجل العظيم الإمام مع واحدٍ مثلي لا علم له ولا عمل وإنما نظر -لكوني على زيِّ القوم- رحمه الله تعالى.

وسمعنا عليه مختصر سيرة النبي ﷺ تصنيفه في المسجد الحرام تجاه الكعبة العظيمة، وكان -رحمه الله تعالى، رقيق القلب لطيف الروح، وله نظم رقيق.

وكان ولده القاضي جمال الدين من العلماء الصالحين، ولم يقع اجتماعي به، وولد ولده قاضي مكة نجم الدين من العلماء المعتقدين في الطائفة، كثير النفع لخلق الله تعالى كثير التواضع، وبلغني أنَّه يحمل النعش على كتفه مع جملة الناس.

وله أخٌ مبارك يُسمى زين الدين، أقام عندنا مدّة بمدينة قوص، وهو على خير كثير.

الشيخ عبد الله الدلاصي رضي الله عنه [(١)]

ومنهم الشيخ عبد الله الدلاصي بمكة- شرفها الله تعالى- خرج من بلاده وأقام بمكة- شرفها الله تعالى، وقد ذكرنا بعض أحواله، وأخبرني أنَّه لم يصحّ له إلاّ صلاةٌ واحدة، أو قال: ما صليت إلا صلاةً واحدةً في عمري؛ وذلك أنِّي كنت بمكة -شرفها الله تعالى- بالمسجد الحرام صلاةَ الصبحِ، فلمَّا أحرمَ الإمام وأحرمت أُخذت أخذةً فرأيت رسول الله ﷺ يُصلي إمامًا، وخلفه العشرة فصليت معهم -وكان ذلك في سنة ثلاث وسبعين وستمائة- فقرأ رسول الله ﷺ في الركعة الأولى: سورة المدثر، وفي الثانية:

---

(١) هو الشيخ عبد الله بن عبد الحق بن عبد الأحد المخزومي المصري الدلاصي.

ولد سنة ثلاثين وستمائة، وتوفي سنة إحدى وعشرين وسبعمائة، وتلا لنافع على أبي محمد بن لب سنة خمسٍ وثلاثين ثم تلا بعده كتب علي بن فارس وسمع القصيدة من قارئ مصحف الذهب.

وأقرأ دهراً بمكة وتلا عليه بالروايات عبد الله بن خليل والمجير مقرئ الثغر وأحمد بن الرضا الطبري والوادي آشي وخلق. وكان صاحب حال وتألهٍ وأورادٍ أحيا الليل سنوات وتفقه لمالك ثم الشافعي ومناقبه غزيرة.

وانظر: الوافي (٤٢٠٦/١)، ومعرفة القراء (٦٦٥/٢)، وتاريخ الإسلام (٤٦٥٩/١).

عمَّ يتساءلون، فلمَّا سلَّم دعا بهذا الدعاء وهو:

اللهم اجعلنا هداة مهتدين، غير ضالين ولا مضلّين، لا طمعًا في بِرِّك ولا رَغْبَةً فيما عندك؛ لأن لك المنّة علينا بإيجادنا قبل أن لم نكن، فلك الحمد على ذلك، لا إله إلاّ أنت.

فلمَّا فرغ رسول الله ﷺ من الدعاء سلَّم الإمام، فعقلت تسليمه فسلّمت.

وحكى لي الشيخ عبد الله عن زوجته ابنة أمين الدين بن الشيخ قطب الدين القسطلاَّنيِّ قال: قلت لها يومًا: انظري إلى ما بدا من ماموسان – يعني: طاقيتين لا يرون الناس النساء منها- فقالت له: يا شيخ عبد الله، كيف يحلُّ لك تقول لي هذا؟ آية الحجاب اختصّت بالرجال دون النساء؟ كما يحرم عليه أن ينظرني يحرم على أن أنظره.

انظر رحمك الله تعالى هذه المرأة، ووقوفها مع قوله تعالى: ﴿**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ**﴾ [النور: ٣١].

وكان والدها الشيخ أمين الدين من المحدثين المباركين نفع الله تعالى بهم وبأسلافهم أجمعين.

قطب الدين القسطلاَّنِيِّ رضي الله عنه

ومنهم الشيخ قطب الدين القسطلاَّنِيِّ جمع بين التصوف والعلم ومكارم الأخلاق والنفع لعباد الله تعالى أقام بمكة- شرّفها الله تعالى- سنين كثيرة وهبط إلى القاهرة وأقام بها مدرسًا.

وكان يلبس الخرقة الشيخ شهاب الدين السهرَوَرْدِي، ورأيته وما خالطته، وصفاته مشهورة- رحمه الله تعالى.

الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه (١)

(١) قال ابن بادس: هو أحد المشهورين من أكابر المشايخ العارفين، والأولياء المذكورين، والأفعال الخارقة، والأحوال الصادقة، والأنفاس المحققة، ومات الإمام القرشي عام سبعين في السادس والعشرين من ذي الحجة وخمسمائة.

وقال المناوي: عارف جلل سمت أعلامه، وصوفي نبيل حسنت تربيته وطابت أوقاته وأيامه، وأصله من =

وحكى لي الشيخ عبد العزيز- رحمه الله تعالى- أنَّ الشيخ القرشي ﷺ اشترط على أصحابه ألاَّ يطبخ أحد في بيته إلا لونًا واحدًا، حتى لا يتميز أحد عن أحد، فاتفق أنَّ أحدَ أصحابه قال لزوجته: أيُّ شيء تشتهون؟ أو أيُّ شيء تطبخون؟ قالت له: شاور ابنتك؛ فقال لابنته: أيُّ شيء تشتهين؟ فقالت له: ما تقدر على شهوتي؛ فقال لها: لو يكون ألف دينار لا بد وأنْ تقولي فقالت: تزوّجني بالقرشي، قال: فخرج وجاء إلى الشيخ ووقف على رأسه؛ فقال له الشيخ: قل، فاستحى؛ فقال له: أيُّ شيء قلت؟ -أو ما بالك، أو كلمة هذا معناها- فأخبره بما جرى وما قالت له ابنته، وكان الشيخ ﷺ أعمى جَذِمًا، مشاهدةُ حالَه ما ترضى به النساء.

فقال: سيدي أخبر، قال الشيخ: اطلبوا الحاكم، فطلبوا الحاكم وعقد عليها وأصلحوا شأنها وأحضروها إلى عند الشيخ، فلمّا خرجت النسوة، دخل الشيخ المرحاض وخرج، وهو شابٌّ جميلُ الصورة -وربَّما قال: أمرد- بثيابٍ حسنةٍ وروائحٍ طيبةٍ، فسترت وجهها؛ فقال لها: لا تستري، فقالت له: من أنت؟ فقال لها: أنا بعلُك، أنا القرشي. فقالت: يا سيدي، أنت القرشي؟ فربما حَلف، فقال: والله الذي لا إله إلا هو أنا القرشي. فقالت له: يا سيدي، ما هذا الحال؟ فقال: أبقى معك على هذه الحالة، ومع الناس على تلك الحالة. فقالت: يا سيدي، فما المطلوب منك؟ قال: تلك الحالة أو أكون على ذلك الحال. فقالت: وأنا أيضًا أطلب تلك الحالة.

قال: فكان الشيخ يضع شيئًا تحت أقدامه -أو أصابع أقدامه- ينزل فيه الصديد والأذى، فكانت زوجته إذا خرج من الحمّام، تشرب ذلك الصديد عوضًا عن الشراب، فلمَّا قُبض الشيخ ﷺ كانت حرمتها بين أصحابه كحرمته، وكان الناس يعظمونها.

وبلغني أن الشيخ مجد الدين بن دقيق العيد كان يأتي ويسمع عليها، فلمَّا كان ليلة من الليالي أصبحت قالت: للفقراء أصحاب الشيخ القرشي -رحمه الله تعالى- أنَّها

=

بلاد الأندلس من الجزيرة الخضراء ثم تحول إلى مصر فقطنها ثم إلى بيت المقدس، وكان من أعيان مشايخ المغرب ومصر، ولقي نحو ستمائة شيخ، وجد واجتهد، وأخذ عنه كثيرون منهم البوني.

وانظر: الكواكب الدرية (٤٤٣) .

رأت القرشي في المنام، وقال لها: تتزوجي بالشيخ أبي العباس القسّطلاني، فإنّه يأتي منك برجلٍ عالمٍ.

فامتثل الشيخ أبو العباس أمر الشيخ في المنام، وتزوّج بها، فولدت قطبَ الدين.

وكان الشيخ أبو العباس من المخصوصين بالقرشي ومن الأكابر، وله غرائب وعجائب.

وحكايات القرشي كثيرة وجلالته عظيمة وآياته خارقة، ولسنا نذكرها لشهرتها.

فانظر، رحمك الله تعالى، إلى هذه الحكاية وما تضمنته من الأسرار وحسن الاعتقاد من هذه المرأة، وما ظهر من إخبار القرشي في المنام ونتيجته وظهور ذلك، وامتثال الشيخ أبي العباس ما أمره به في منامه كأمره في يقظته إذ حال الأكابر في المنام واليقظة سواء.

الشيخ الدّهروطي رضي الله عنه

ومِمَّن رأيته واجتمعت به الشيخ عبد المؤمن الدهروطي، جمع بين العلم والعمل والورع والتصوف، جاء إلى الأقصرين وزار ضريح الشيخ أبي الحجاج -وكنا بالأقصرين- ونزّلناه عند صهر لنا في داره، وكان معه جماعة من أصحابه فقهاء، وكان قد حضر معه أكابر وعلماء ومشايخ، كالشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، والشيخ ناصر الدين بن عبد القوي صاحب ابن شعبان، والشيخ أبو الطاهر، وعز الدين الحمامي، وابن الشيخ مفرج عبد الرحيم، وجماعة كثيرة.

وكان فيه اطّراح في نفسه وتَجَلِي رضي الله عنه.

ومن كرامات الشيخ عبد المؤمن ما حدثني به القاضي زين الدين البوشى، عن الشيخ عبد الغفار البهنسي -وكان عدلاً ومدرّسًا ورجلاً مباركًا ومات بقوص- قال: بينما أنا ليلةً عند الشيخ عبد المؤمن بدهروط ففرغ الزيت من السراج، فقال بعض الجماعة: خلوا أحدًا منكم يطلب الزيت، فوجدوا الدروب مغلقة، وكانوا يشتهون الحديث مع الشيخ، فقال لخادمه عبد الرحمن درويش بن أبي الفرج: خذ هذا الإبريق واسكب في السّراج، فقام وصبَّ الإبريق في السراج فوقد إلى الصبح.

قال زين الدين: واجتمعت بالشيخ عبد المؤمن بعد ذلك وقلت له: أخبرني الفقيه

عبد الغفار بكذا وكذا، قال: نعم، وجرى من هذا كثير، وإنما سألت الله تعالى الستر، وحديثه بمصر مشهور.

الشيخ يوسُف بن سلَمان ﷺ

وحكى لي الشيخ عبد العزيز عن الشيخ عبد العظيم خال الشيخ عبد المؤمن قال: خدمت الشيخ يوسف بن سلمان مدّة، وكان من خواص أصحاب القرشي ﷺ وكان القرشي يقول: واسطة عُقْدِنا يوسف بن سلمان.

قال: دخل الشيخ يوسف يومًا السقاية يتوضّأ، وفرشنا مئزرًا له ليصلِّي عليه، وإذا بشيخٍ قد أقبل وتحت إبطه كارة ففتحها، وأخرج منها سجادة كلآلئ وجواهر وهي تضيء، فنحّى مئزر الشيخ وفرش السجادة وجلس ناحية ولم يتكلم، فخرج الشيخ ونظر إلى السجادة ونحّاها وفرش مئزرَه وصلّى عليه، فقام ذلك الشيخ وطوى السجادة وجعلها في الكارة أو البقجة وجعلها تحت إبطه، ولم يتكلم الشيخ ولا تكلم يوسف أيضًا.

فلمَّا فرغ الشيخ يوسف من صلاته قلت له: يا سيدي، سألتك بالله تعالى ما هذا الشيخ؟ وما هذه السجادة؟ فقال: يا عبد العظيم، ما أنت من أصحابي لكن لك علي حق خدمتك، ووالله متى تكلمت بهذا وأنا حي أعرضت عنك يومَ القيامة، ثم قال: أمَّا هذا الشيخ فهو السيد الخضر، وأمَّا هذه السجادة فهي رتبةُ المشيخة، وقد أَذن لي بالجلوس، وأنا عنده صلحت وأنا عند نفسي ما صلحت.

فلم يتكلم الشيخ عبد العظيم بذلك حتى توفي الشيخ يوسف بن سلمان.

فانظر يا أخي رحمك الله تعالى إلى قول الشيخ يوسف: أذن لي بالجلوس، ولم يقل أمرني؛ إذ لو أمره لما وسعه إلا الامتثال؛ لأنَّه لا يفعل شيئًا عن أمره.

وقد أخبر الله تعالى في قصة السيد موسى ﷺ فقال: ﴿**وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي**﴾ [الكهف: ٨٢].

والإذن للتخيير، فإن الله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا البَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا

اللّـهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة:٩، ١٠].

ففي أوّل الآية الأمر بالسعي إلى الصلاة، وهو واجب، وقد كان من المتقدمين من إذا سمع النداء إلى الصلوات، كل من كان في صنعة أو معاش أو تجارة تركها حتى تفرغ الصلاة، ولقد كانت الأسواق تخلو في أوقات الصلوات ولا يبقى فيها إلا الصبيان أو مَن لا تكليف عليه أو من لا دخل في الإسلام كالنّصارى وغيرهم، وكان الحداد منهم إذا رفع المطرقة فسمع الأذان رماها إلى ورائه ولم يضرب بها، والنّجار كذلك، والخياط والخراز، إذا غرز غرزَّة أو طعن طعنة لا يستكملها، وقد قال الله تعالى: **﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾** [النور: ٣٧، ٣٨].

وأمَّا الانتشار في الأرض فلا يفهم منه إلا التخيير والإذن في الانصراف، فلو جلس أحدهم في المسجد إلى العصر لكان مأجورًا على ذلك، لا سيما إنْ كان ينتظر الصلاة أو نوى الاعتكاف. ففهم الشيخ يوسف بن سلمان، الإذن في الجلوس، ولم يأمره وإنما خيّره فلم يختر.

وممَّن كان بمكة حين كنّا بها ابن مطرق وجماعة من الصالحين -قدس الله تعالى أرواحهم- وكان بها الشيخ **محمود الأصفهاني** وكان هو وأخوه مجتمعين على الشيخ نجم الدين الأصفهاني، نفع الله تعالى ببركاته وطريقته مشهورة.

ومنهم أبو الغيث بن جميل- رحمه الله تعالى- من الفقهاء الصالحين المفتين بفهمهم في الظاهر، متمسك بالشريعة، أخبرني عن والده قال: كنت جالسًا مع الشيخ أبي الغيث أتحدث معه، وإذا بالأشراف قد جاءوا ونزلوا عن خيولهم، وقبلوا رجليه ويديه؛ فقلت في نفسي: يا رب، هؤلاء أشراف وسلالة نبيِّك، وهذا مولى أو عبد، فلمَّا خطر لي ذلك منهم، أعرض الشيخ أبو الغيث بوجهه عنّي وجعل يقول: نعم، عبدٌ أنعمنا عليه.

عُمَر الهوري رضي الله عنه

ومنهم الشيخ عمر الهوري، خرج من هور وجاور مكةَ- شرفها الله تعالى- وكان في مدتِه على صورة الْمُحرِمِ مشتملاً بشيءٍ عليه مكشوفَ الرأس ولعلّه حافي القدم،

وكان يحفر بمكة الآبار، ويُعين الفقراء ويؤثرهم بما يحصل له من الفتوح، وكان أكثر اشتغالِه حفرَ الآبار وإصلاحها وإصلاح الصهاريج، ويحصل عنده الليمون المالح لأجل من يطلبه ويهديه.

وكانت أحواله شريفة، وله أخٌ بهور يُسمَّى الشيخ إبراهيم بن عثمان، كثير النفع للفقراء وغيرهم، وكان كما بلغني في ذلك الغلاء له أردبٌّ كلَّ يومٍ يخرجُه للفقراء، وكان قد جمع عنده المشايخ بعيالهم، ودُفن عنده الشيخ نجم الدين بن الشيخ عبد الله الجَبَلي -ورحنا إلى هور حين وفاته- ثم دُفن عنده بعد ذلك الشيخ كمال الدين بن الشيخ عبد الله، وكان رجلاً جليلَ القدر- رحمهم اللهُ تعالى.

الشيخ المُرجاني رضي الله عنه (١)

ومنهم مَن ورد إلى مدينة قوص قاصدًا الحجاز الشريف، كالشيخ أبي محمد المرجاني، كان كبير الشأن جليل المقدار شريف الأحوال، يظهر حاله في كلامه فتنجذب القلوب إليه.

حسن الأخلاق مبسوط الذات حافظ النظام، متمسّك بالشَّريعةِ، بها نصيبه من آثار صفة الجمال، فلذلك جُذبت إليه القلوب.

وسافر من مدينة قوص إلى الحجاز الشريف على طريق القصير، وكنت بمدينة قوص ولم يقع الاجتماع به، والمرة الأخرى كنت غائبًا عن البلد، ووقع به الاجتماع في غير هذه الدار.

وشهرته بمصر مشهورة، وأحواله معروفة ورجع إلى الغرب ومات هناك - رحمه الله تعالى.

أخبرني الشيخ الإمام الخطيب عماد الدين بن السكري قال: كنت معه في طريق الحجاز الشريف ونحن بصحراء عيذاب بمنزلة من منازل الصحراء، فعمل لنا ميعادًا بمَدِّ

(١) هو عبد الله بن محمد أبو محمد المرجاني الواعظ المذكر الزاهد القرشي التونسي. كان مفتياً عالماً مفسراً مذكراً حلو العبارة كبير القدر له شهرةٌ في الآفاق. قدم الإسكندرية وذكر بها وبالديار المصرية وكان بارعاً في مذهب مالك عارفاً بالحديث له قدمٌ في التصوف والعبادة والزهد ولم يصنف شيئاً ولا كان أحدٌ يقدر يعيد ما يقوله لكثرة ما يقول على الآية ولربما فسر في الآية الواحدة على لسان القوم ثلاثة أشهرٍ . خلف كتباً كثيرةً . توفي -رحمه الله تعالى- بتونس سنة تسعٍ وتسعين وستمائة. وانظر: الوافي في الوفيات (١/ ٢٥٠٠).

صلاة الصبح، فأتى فيه بالغرائب؛ فقلت له: يا سيدي هذا ميعاد لم يُر مثله، قال: أنا أسمع كما تسمعون، وهذا يدل على عظم شأنه، وأنه لِمَا يرد عليه من الله تعالى سطحًا لِمَا يلقى فيه، ولوحًا لِمَا يكتب فيه، ومحلاً لمواردِ الإرادة. وهو ما قدَّمناه.

الشيخ ابن أبي جمرة رضي الله عنه (١)

ومنهم مَن كان بالقاهرةِ كالشيخ محمد بن أبي جمرة كبيرِ الشأن، مقبوضِ الظاهر، معمورِ الباطن، غلبت عليه آثار صفة الجلال، كان معظمًا لشعائر الدين قائمًا بحق الشرع والمشرع، واتفق له ما اتفق في المجلس الذي عُقد لقيامه بحقِّ رسول الله ﷺ وأقام ببيته لا يخرج إلا لصلاةِ الجمعةِ، وظهر أثر ذلك فيمن شوّش عليه، وكان يذكر رؤيتَه لرسول الله ﷺ كثيرًا ؛ولذلك أتيته ولم أجتمع به وشهرته تغني عن ذلك، ومات بالقاهرة المحروسة ودُفن بها- رحمه الله تعالى-(٢).

الشيخ الكناسي رضي الله عنه

ومنهم مَن كان بمدينة قوص كالشيخ عبد الله الكناسي، أقام بها سنين كثيرة برباط ابن الفقيه نصر، وكان عمَّالاً مواظبًا على العمل لا يفتر عنه لا يترك صلاة الصبح بالجامع إلاّ عند الضرورة.

ولقد رأيته عند قراءته في الصلاة، إذا قرأ آية مخوّفة بكى بكاءً ظاهرًا، وإذا قرأ آية منجية ظهر السرور عليه، وأسنّ وكبر وهو على ذلك إلى أن مات- رحمه الله تعالى.

وذُكر مَن رأيناه وسمعنا عنه لا أستطيع حصره في هذا الوقت المسرع لطول المدة، وإنَّما ذلك على قدر ما حضرني في هذا الوقت مع حجاب الشواغل.

الشيخ شمس الدين بن الصابوني

ولقد كنّا مرّة بمسجد ظاهر الأقصرين، والشيخ شمس الدين بن الصابوني وجماعة من الفقراء المسافرين قد أقبلوا، وما كان وقتنا يسع أحدًا من جهة الاجتماع بالناس

---

(١) هو الإمام الحافظ المحقق المتحقق المكاشف: عبد الله بن سعيد الأزدي الأندلسي، له كتابه المبارك النفيس «بهجة النفوس وغايتها بمعرفة ما لها وما عليها».

(٢) قلت: وضريحه الشريف، بجوار خلوة سيدتنا نفيسة -عليها السلام- والشيخ ابن سيد الناس، وسيدي ابن عطاء الله.. بجبل المقطم.

خاصة؛ لأنَّ ابتداء السلوك يحتاج السالك فيه إلى الوحدة؛ لأنَّ الاجتماع يشوّش عليه، فكَرِه شمس الدين أن يجيئوا إلينا، فلمّا وصلوا إلى باب المسجد وقف فقير منهم أسود اللون على باب المسجد كالمانع لمن يدخل، فمَن جاء منعه، وتعرّض في الباب، فقال له شمس الدين: ادخل فقال: أنا أسود، وقلبي أسود، وأنت ما اشتريتنا ندخل إليكم، وراح ولم يدخل.

وكنت مرّة أخرى بجامع قوص أنا وشمس الدين، وقد دخل فقيران فوقفا في الصفِّ الذي قُدامنا وعليهما زيُّ المسافرين، وعلى الفقير الواحد شيء من لباسهم قصير جدًّا، فقلت لشمس الدين خفية: هذا إن ركع ظهرت عورته ولا تصحُّ صلاته، ولا يجوز لنا السكوت إنْ لَم نعلمه.

فحين قلت ذلك أدخل يديه في قلنسوةٍ، وأرخى سِترة إلى أنْ غطتْ ساقيه.

ورأيت مرّة فقيرًا من جنس المسافرين مكشوفَ الرأس، وكنت إذ ذاك منقطع في مكان بمدينة قوص، فدخل عليَّ، وهو ينشد شعرًا(١):

دَواؤُك فِيكَ وما تَشعُر ... ودَاؤُك مِنكَ وتستَخبِرُ

أَتَزعُمُ أنَّك جرمٌ صغيرٌ ... وفِيك انطوى العالم الأكبرُ

وجلس يتحدث إلى أنْ طلع الفجر، لم يمنعه من الحديث إلا تخلل أوقات الصلوات، وغاب عني فلم أجده بعد ذلك.

وكنت مرّة راقدًا في مسجد الأقصرين بالليل، ودخل عليَّ فقيران، فقلت: مَن هذا؟ فقال أحدهما: فقير وكأنَّهما على زيِّ المسافرين، أمَّا أحدهما فرقد ونام، وأمَّا الثاني: فورد عليه كلام عظيم أزالَ عني النومَ إلى أنْ طلع الفجر فلم أره.

ورأيتُ مرة الفقراء مجتمعين -أعني: الفقراء المسافرين- بمسجد الأفرم ظاهر مدينة قوص، وكنت شابًّا، وقصدت برؤيتهم التبرك بهم، وكان أحد الأصحاب قد أخبرني عنهم أنَّهم مجتمعون ليلةَ السابعِ والعشرين، يعملون فيه علي الحريري رضي الله عنه.

فقلت: لعلّ فيهم وليّ الله تعالى، فرحت، ورأيتهم يدورون في سماعهم حول ما

(١) البيتان في ديوان سيدنا علي -كرم الله وجهه- من قصيدة البيت الأول مطلعها.

عملوه من فاكهة وجلاسات موقودة، ورأيت فيهم فقيرًا حصل لي من رؤيته خير، ورأيت خيرًا تلك الليلة.

ورأيت منهم مرّة جماعة بدير أسوان، وكان عندي بعض أفكار لِمَا يصدر منهم عمَّا لا يخفى من مخالفةٍ، أحوالٍ لا أرضاها لأهل طريق الله تعالى، فرأيت تلك الليلةِ واحدًا في المنام منهم، وأشار بإشارة فهمت منها الخيرة، وكان فيهم شباب وليس عليهم ثياب إلا ما يستر العورة وطواقي خفاف على رءوسهم.

فقمت بالليل لأجدهم متوجهين، وكان الشتاء والبرد، وهم في أوقات الصلوات متحفظون، يحفظون أوقاتها، وفيما بعد ذلك يزمرون ويرقصون، وكان فيهم خادم الشيخ علي الحريري، الذي كان يغني له، وأنشد وغنَّى في ذلك الوقت عقيب الإشارة والرؤية:

أأظمأُ وأنت العذبُ في كلِّ موردٍ ... وأُظْلَمُ في الدنيا وأنت نَصِيرُ

وعارٌ على حامِي الحِما وهُومنجدٌ ... إذا ضَلَّ في البَيدا عِقالُ بعيرُ

ورأيت مرّة في المنام -وكان عندي من حركات المسافرين شيء- وهم يقولون قريبا منا، فرأيتُهم مجتمعين على عادتِهم من سماعهم وأحوالهم، وشخصًا منهم نظر إليَّ، وقال لي: الرحمة تسعُنا -أو الرحمة تشملنا- فما رجعت بعد ذلك أظهر لهم إلا الوداد وأَنِسُوا بِي، وقد كان قبل ذلك عندي نفرة من بعضهم لأمور لا تخفى، وعَلِمُوا أنَّني ما قصدي لهم إلا ما هو خير، والغيرة على هذه الطريقة الشريفة.

فإياك أن تقف مع الأوهام، وكثرة ما يلقيه العوام من الكلام، وأن تقيس الصالح على الطالح، والخسيس على النفيس، أو ترجع إلى من له غرض أو كان في قلبه مرض؛ فقد كان الأنبياء -صلوات الله عليهم وسلامه- من الله تعالى بالمحلِّ الأعلى، وجاءوا بالبينات والهدى، وأظهروا الآيات والمعجزات، وتحدَّوا بها، وأتوا بما طُلب منهم في وقته، وبعد ذلك كذّبوهم وحاربوهم وقاتلوهم، وذاك مستقر من السيد آدم عليه السلام وإلى الآن، ويكفي في ذلك قوله تعالى: ﴿**لا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِين إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾ [هود:١١٩].

وفي بيان كثرة الضلال قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١١٦].

وفي الآية الأخرى :﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شيئًا *

فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ العِلْمِ﴾ [النجم: ٢٨-٣٠].

فالأولياء كثير في كل زمان وكل أوان، لا يعرفهم إلاّ مَن كان له نسبةً منهم، يعرفه الناجب من جنسه، وقد قال أحد العارفين: لا يفهم عنك إلا مَن أشرق فيه ما أشرق فيك، لا سيما في زمن الفترات، وظهور الظلمات، وحجاب القلوب، وكثرة الذنوب؛ فإن كان فيما تقدم من الزمان وما عبر عن الدهور والأعوام، وما مضى في ظهور الأنبياء - عليهم السلام- تكون الفترة ما بين النبي والنبي الذي يأتي بعده تكون فترة يقع فيها ما يقع من الهرج والمرج وعبادة الأوثان حتى يأتي النبي الآخر بما يأمره الله تعالى به، ويستأنف دعوةً ثانية إلى الله تعالى.

دعوة الولاية

ودعوةُ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ظاهرة، ولَمَّا كان العلماء ورثة الأنبياء- عليهم السلام- وعلماء هذه الأمة كأنبياء بني إسرائيل كما ورد، ودعوة الولاية باطنة-إذ الولاية سرٌّ من أسرار الله تعالى يودعه الله تعالى مَن شاء من عباده، ونور يقذفه في قلوب أوليائه- والفترة في قلوب السالكين موجودة، وهي باطنة وإن لم يكن بين الوليّ الداعي إلى الله تعالى أو القطب أو الغوث أو الإمام أو الخليفة أو الوارث وبين من يأتي بعده مدة حسيّة معقولة؛ إذ بوفاة هذا قام غيره في رتبته، ونظام الأمر في الباطن مستمرٌ على حالتِه، كما أنَّ أحكام الشريعة باقية بعد غيبة شخص رسول الله ﷺ.

وإن كان مَن تقدمه من الأنبياء -عليهم السلام- كانت شرائعهم باقية في أمتهم إلى أن يأتي نبي آخر على تلك الشريعة، كالتوراة، أتى عليها أنبياء كثيرة؛ إذ شريعة نبينا محمد ﷺ ناسخة للشرائع، فما وافق منها مَن تقدّم من الأنبياء -عليهم السلام- أقروا لا نسخ.

وكما أن النبي ﷺ دعوته ظاهرة لعموم الخلائق فاكتفى من الناس بالظاهر في الأقوال والأعمال؛ فقال: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله؛ فإذا**

قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله تعالى»(١).

وقوله ﷺ لأسامة بن زيد -رضي الله تعالى عنهما: **«أفلا شققت عن قلبه»**(٢) حين قال: إنّما قالها من السلاح.

واكتفى من السؤال حين قال لها: **«أين الله تعالى؟ قالت: في السماء، فقال له: أعتقها؛ فإنها مؤمنة»**(٣).

فلا يكتفي الداعي إلى الله تعالى في الباطن إلاّ بتجديد التوحيد والصدق والإخلاص في الأعمال، ونفي ما سوى الله تعالى من الباطن، وجمعية القلب بكليته على الله تعالى.

ولا يرجع إلى الأعمال الظاهرة، ويكفي في ذلك ما نصّه الله تعالى في القرآن الكريم في قصة السيد موسى والسيد الخضر -عليهما السلام.

و**إيّاك** أن تتوهم أنّ ذلك نقصٌ في دعوة الرسول الظاهرة للعموم؛ إذا كان العمل على حقائق القلوب في الدار الآخرة عند انكشاف الغطاء، ومحل الجزاء بين يدي عالم السر وأخفى، وإنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا.

فاعلم أن هذه الدعوة الخاصة مندرجة في دعوته العامة، وهذه الأسرار مطوية في أعماله الظاهرة، وما حصل لهذا الوليّ الداعي إلى الله تعالى بالقلوب والضمائر، واستجلبت له الحقائق والسرائر؛ فهي من ميراثه من نبيه ﷺ، وهو الداعي في الحقيقة إلى الله تعالى في البواطن والظواهر والأوائل والأواخر.

ألا ترى إلى ما ورد عنه ﷺ: **«آدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة»**(٤) وكيف كان الحوض والساعة مخصوصة به ﷺ، فلا يتقدمه أحد في الشفاعة.

فمهما أتى من الشفاعة؛ فهي مندرجة في شفاعته، وقوله ﷺ: **«أوتيت جوامع**

---

(١) رواه البخاري (١/١٧)، ومسلم (١/٥٣).
(٢) رواه مسلم (١/٩٦).
(٣) رواه مسلم (١/٣٨١).
(٤) رواه الترمذي (٥/٣٠٨)، وأحمد (١/٢٨١).

الكلم»[١] فكانت الحكمة في المعاني والألفاظ مندرجة في كلامه ﷺ، وكيف ختم به الرسالةَ فلا نبي بعده؛ لأنَّه الخاتم، فخُتِمَت به الدوائرُ واجتمعت في دائرتِه الأوائلُ والأواخرُ، والبواطن والظواهر، واستجابت لدعوته الظاهرة الأقوال والأعمال، ولدعوته الباطنة القلوب والأسرار.

وعرفنا الآن ذكر فترات القلوب في الطالبين، ومقابلة الفترات بين مَن تقدّم مِن الأنبياء والمرسلين، كما بين النبي اللاحق فترةٌ يقع فيها ما وقع حتى يأتي النبي الآخر، فكذلك هذا الزمان، ما بين الوليّ الداعي إلى الله تعالى المربّي، الظاهرة آثارُ دعوته الباطنة في العوالم، إلى ما بين مَن يظهر بعده فترةٌ في القلوب، وحجاب عن الأسرار عن مطالعة الغيوب، يجد ذلك في نفسه مَن له ذوقٌ من هذه الطريق، ويعرفه من نفسه. وتحت ذلك أسرار، ووراؤه حقائق وأنوار.

فالطبقة التي كان فيها السادة الأولياء المشايخ المذكورون في رسالة عبد الكريم ابن هوازن، كالسيد السرّي والسيد الجنيد والسيد سليمان الداراني -رضي الله عنهم- وأمثالهم وأتباعهم، ومن كان فيها من الأكابر والعارفين وأرباب الأحوال والمكاشفين والطلبة للطريق والسالكين؛ ومع هذا بعدهم فترة حتى ظهر غيرهم، والطبقة التي كان فيها من السادة الأكابر كالسيد ابن الرفاعي والسيد الكيلاني والسيد القرشي والسيد أبي مدين والسيد أبي يعزى والسيد أبي النجا وأمثالهم؛ فقد كان بعدها فترة، والطبقة التي أتت بعدهم من السادة ، كالشيخ أبي الحسن بن الصبّاغ والشيخ أبي الغيث والشيخ الواسطيّ أبي الفتح والشيخ أبي الحجّاج الأقصري والشيخ أبي يحيى القناوي والشيخ مفرّج الدماميني وأتباعهم من السادة والأكابر مِمَّن ذكرناهم في هذا الكتاب مِمَّن عرفناه وسمعنا به، ومنهم مَن لا نعرفه ولا سمعنا به وهو معروف لغيرنا ومنطوٍ في علم الله تعالى، والفترة بعدهم موجزة حتى يظهر من يظهره الله تعالى ويقيم الدعوة إليه، مع استمرار حالات الأولياء فيما أقيموا فيه في الباطن وقوام العالم بهم.

فلو خلا الوجود مِن الغوثِ والأقطابِ والأوتادِ والأعيانِ والأبدالِ وأولي الأمر[٢]؛

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **فائدة جليلة:** قال الشيخ عبد الحليم الرومي: قال الأستاذ سيدي شمس الدين الحنفي -يعني الشيخ =

=
الحنفي الكبير قدس سره- حينما سئل عن القطب؟. فقال: الأقطاب كثيرٌ فإن كل من أمَّ قومًا فهو قطبهم.وأما القطب الغَوث الفرد الجامع فهو واحد.

وتفسير ذلك أن النقباء: هم ثلاثمائة وهم الذين استخرجوا خبايا النفوس، ولهم عشرة أعمال منها أربعة ظاهرة، وستة باطنة.

فأما الظاهرة: فكثرة العبادة والتحقق بالزهد والتجرد عن الإرادة وقوة المجاهدة.

وأما الباطنة: فهي التوبة والإنابة والمحاسبة والتفكر والاعتصام والرياضة، فهؤلاء الثلاثمائة لهم إمام منهم يأخذون عنه ويقتدون به فهو قطبهم.

ثم النجباء أربعون، وقيل: سبعون. أقول: في هذا دلالة على أن القطب لا يعلم عدد النجباء بيقين لقوله.

وقيل: سبعون. وهو إذ ذاك هو القطب الغوث الفرد إلا أن يحمل أن سؤال الشيخ له بعد توليته القطبانية فليتأمل.

قال: وهم مشغولون بحمل أثقال الخلق، فلا يتصرفون إلا في حق الغير، ولهم ثمانية أعمال: أربعة باطنة، وأربعة ظاهرة.

فأما الظاهرة: فالفتوة، والقوة، والتواضع والأدب، وكثرة العبادة.

وأما الباطنة: فالصبر، والرضا، والشكر، والحياء. وهو أهل مكارم الأخلاق.

وأما الأبدال: فهم سبعة رجال، وهم أهل فضل وكمال واستقامة واعتدال قد تخلصوا من الوهم والخيال.

ولهم أربعة أعمال ظاهرة، وأربعة أعمال باطنة.

فأما الأربعة الظاهرة: فهي الصمت والسهر والجوع والعزلة.

ولكل واحد من هذه الأربعة ظاهر وباطن.

فأما الصمت فظاهره ترك الكلام بغير ذكر الله تعالى، وأما باطنه فصمت الضمير عن جميع التفاصيل والأغيار.

وأما السهر: فظاهره عدم النوم، وباطنه عدم الغفلة.

وأما الجوع فعلى قسمين: جوع الأبرار بكمال السلوك، وجوع المقربين لموائد الأُنس.

وأما العزلة: فظاهرها ترك مخالطة الناس، وباطنها ترك الأنس بهم.

وللأبدال أربعة أعمال باطنة: وهي التجرد والتفريد والجمع والتوحيد، ومن خواص الأبدال أن من سافر منهم من موضعه، وترك جسدًا على صورته فذلك هو البدل لا غير.

والبدل على قلب إبراهيم عليه السلام فهؤلاء الأبدال لهم إمام مقدم عليهم يأخذون عنه ويقتدون به، وهو قطبهم لأنه مقدمهم. ويؤيد هذا القول ما أخرجه الطبراني في «معجمه» من قوله ﷺ:

«لا يزال من أمتي أربعون على قلب إبراهيم الخليل». قال صاحب «مجمع الأحباب»: هو نصٌ على ثبوت الولاية إلى يوم القيامة.

وقيل: الأبدال أربعون، والسبعة هم الأخيار، وكل منهم لهم إمام منهم هو قطبهم.
=

لخرب الوجود دفعةً واحدة، فإذا أراد الله تعالى أنْ يخرب هذا الوجود ويعيد النشأة الأخرى قبضهم إليه، حتى أن الوقت الذي تقوم فيه القيامة لا يكون في الأرض من يقول: لا إله إلا الله.

ولما كانت الفترات ما بين الأنبياء يُعبدُ فيها الأصنام وتُرفضُ فيها الشرائع وتُرتكب فيها المحارم، ويستحلُّون الدماء، ويحكمون بالهوى، ويتولاّهم الشيطان، ويُعرضون عن الرحمن، ويزعمون أنّهم قاموا في عبادتهم بالوفاء، وأنّهم ما عبدوهم إلا ليقربوهم إلى الله زلفى؛ ففي هذه الفترة التي بين الأولياء -المقابلة للفترات التي بين الأنبياء عليهم السلام- أيظنُّ أقوام من سوء المعتقدات ما هو أقبح ممّا أظهره عبَّاد الأصنام من العبادات؟!

فإنَّهم، وإنْ كانوا كفارًا وعبَّاد الأوثان؛ فإنّهم ما نفوا الإله، بل قالوا عن الأصنام: ما نعبدها إلا ليقربونا إلى الله تعالى، أمّا هؤلاء فقد استحكم في قلوبهم الفساد

=

أقول: وهذا أيضًا فيه دلالة على أن القطب لا يعلم عدد الأبدال بيقين من عدد غيرهم من الأخيار كما تراه، إلا أن يكون ذلك قبل تولية الشيخ القطبانية، فلم يطلع على ذلك.

ثم الأوتاد هم عبارة عن أربعة رجال منازلهم منازل الأربعة أركان من العالم شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالاً، مقام كل واحد مقام تلك الجهة.ولهم ثمانية أعمال: أربعة ظاهرة، وأربعة باطنة.

فالظاهرة: كثرة الصيام، وقيام الليل والناس نيام، وكثرة الإيثار، والاستغفار بالأسحار.

وأما الباطنة: فالتوكل، والتفويض، والثقة، والتسليم. ولهم واحد منهم هو قطبهم.

وأما الإمامان فهما شخصان أحدهما: عن يمين القطب، والآخر: عن شماله، فالذي عن يمينه: ينظر في الملكوت وهو أعلى من صاحبه، والذي عن شماله: ينظر في الملك، وصاحب اليمين هو الذي يخلف القطب.ولهما أربعة أعمال ظاهرة وأربعة باطنة.

فأما الظاهرة: فالزهد والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأما الباطنة: فالصدق والإخلاص والحياء والمراقبة.

والغوث: عبارة عن رجل عظيم، وسيد كريم، يحتاج إليه الناس عند الاضطرار في تبيين ما خفي من العلوم المبهمة من الأسرار، ويطلب منه الدعاء لأنه مستجاب الدعاء «لو أقسم على الله لأبر قسمه» مثل أُويس القرني في زمان رسول الله ﷺ.

قال: ولا يكون القطب قطبًا حتى تجتمع فيه هذه الصفات التي اجتمعت في هؤلاء الأولياء. انظر: رياض السادات (ص١٨٣) .

والضلال، واستولى على طبائعهم الخيال والمحال، وعكسوا الأحوال في الأقوال والأفعال؛ فحكموا على المستحيل بالواجب، وعلى الواجب بما استحال، وألحقوا الموجود بالعدم والحادث بالقدم، ورأوا أن كلَّ واحدٍ منهم هو الإله، وأن عين هذا الوجود الحادث هو عين الله تعالى من الجماد والنبات والعقارب والحيات والأرض والسموات من حيوان وإنسان وملك وشيطان.

ولولا تنزيه اللسان عن سوء ما يعتقدونه وقبح ما يضمرونه وما يوحونه إلى أوليائهم لأبديته في ذلك، وإن كان القول والأمان والطباع منافرًا، وخشيت أن يخسف الله تعالى بنا عند الكلام به، وإن كان حاكي الكفرَ ليس بكافرٍ؛ إذ يجعلون أنَّ عين كلِّ شيءٍ موجود هو عين الحق، وأنَّ الخالق هو نفس الخلق، فيدخل في ذلك الخسيس والنفيس، والمرءوس والرئيس، والملائكة والأباليس؛ وهذا كلامٌ لا يرضاه لعقله أهلُ الجنون كما قيل [(١)]:

جُنونُك مجنُونٌ ولست بواجدٍ طبيبًا يداوي مِن جنونِ جنونِ

على أنَّ إبليس لو ظهر، وخوطب بهذا المعتقد، لَمَا رَضِيَ أنْ يَعزي ذلك إلى نفسه، وإن كان يلقي إليهم ليُوبقَهم في العذاب، كما أخبر الله تعالى عنه في قوله تعالى: ﴿**كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَمِينَ * كَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِين**﴾ [الحشر: ١٦، ١٧].

وفي قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا تَرَاءَتِ الفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ**﴾ [الأنفال: ٤٨].

وهؤلاء أخس الطوائف، وهم الزنادقة الذين لا يرون لا بحساب ولا بعقاب، ولا جنة ولا نار، ولا دنيا ولا آخرة، ولا حلال ولا حرام، ولا لهم دين يرجعون إليه، ولا معتقد يجمعون عليه، وإبليس في نفسه ليس له إلا التخييل والتزيين والجدال والقياس، وهو أوَّل من ضرب القياس، فلا يعزي لنفسه ذلك؛ لأنَّه لو زين ذلك لمِن له أدنى مَسْكَةُ مِن عقلٍ، ليُقَرِّعَنَّه، وإنَّما هو يزيّن بما يناسب كلَّ عقلٍ بحسبِ ضعفِه وقوتِه

(١) البيت قائله الإمام الشافعي في ديوانه من قصيدة البيت مطلعها.

وفسادِ خيالِه أو صحته، فيأخذ نصيبَه مِن كلِ واحِد بحسب ذلك التخييل والتسويف والتزيين.

ومثل هؤلاء ليس هم من الطوائف الذين يُحتاجُ معهم إلى كلام؛ لأنَّهم خالفوا الْمَعقُولات والمنقولات، والمعاني والأديان والشرائع، والحقائق والعلوم والعبادات، ولا أعلم أنَّ هذا القول قال به أحد من طوائف الكفار -فضلا عن طوائف المؤمنين- فإنَّ الأنبياء -صلوات الله تعالى وسلامه عليهم- جاءوا عن الله تعالى بما أمرهم به من الشرائع والأحكام، فبلَّغوا الرسالةَ وأدَّوا الأمانة، وأظهروا المعجزات الباهرات والآيات البينات، وتحدَّوا بها، فلم يكن في الشرائع ولا في الأديان ولا في المعقول، ولا في النقول ولا في الأذواق ولا في المكاشفات ولا في طائفةٍ من الطوائفِ مَنْ اعتقدَ هذا.

فإنَّ النَّصارى منهم طائفة اعتقدت أنَّ المسيح هو الله، وقال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ**﴾ [المائدة:١٧].

وطائفة من اليهود اعتقدت أنَّ عُزَيرًا ابن الله، فكُفِّروا لاعتقادهم فيمن أظهر إحياء الأموات وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك.

وهؤلاء يعتقدون في كلِّ شيء من الخسيس وغير الخسيس أنّه عين الله تعالى، ومَرَقُوا عن الدين بل عن كل دين، واتّبعوا غير سبيل المؤمنين، قال الله تعالى في كتابه المبين: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى، وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً**﴾ [النساء:١١٥].

فأمَّا الشرائع فهي مسطورة في كتابه العزيز، وأمّا أرباب الأذواق والمكاشفات وذوي المعارف والمخاطبات وذوي المعارف والبصائر والكرامات وخرق العادات فسلوكهم معروف، لم يكن أحدٌ منهم يعتقد خلاف ما جاءت به الشرائع، ولا يصحُّ اعتقاد مَن اعتقد خلافَ ذلك، ولا تظهر عنه كرامة ولا خرق عادة عن حقيقة؛ إذ الساحر والسيمياوي إذا خرقوا العادة كان ذلك مِمّا خيَّلوه، ويعتقدون بطلانه.

وأمَّا أرباب طريق الله تعالى، هم والسالكون إليه والعارفون به، فمواجيدهم وأذواقهم وشهودهم ومكاشفاتهم وتجلياتهم وأسرارهم وحقائقهم وأنوارهم يعرفونّها فيما بينهم؛ إذ الحقائق شاهدة لأنفسها، فالدليل لها حجاب عليها، كذائق العسل والصَّبر

لا يقوم عليهما الدليل؛ لأنَّهما أوضح من دليلهما، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ**﴾ [آل عمران: ١٨].

وذلك لأنَّ معرفته حقيقة على ما هو عليه لا يعرفها غيره، فشهد لنفسه تبارك وتعالى، وشهادتُنا له إيمان وتصديق وإيقان بحسب ضعفنا عن معرفته، فإذا انتهتْ بنا المعرفة به إلى الغاية من عقولنا وشهودنا، وغايات أهل الكشف والتحقيق فينا ومنا هو العجز عن معرفته، ونحن في ذلك العجز عاجزون عن معرفة العجز، فكيف بالاستحقاق؟ فأهل السلوك إذا صفت سرائرُهم وخلت من الشواغل بواطنُهم وظواهرهم، وتوجهت هممهم إلى الله تعالى، واجتمعوا بجمعية قلوبِهم على الله تعالى، وتجلَّت عليهم الحقائق في صقالِ تلك المرآة، واستولى سلطان التجليات، وظهرت الصفات الإلهيّات تدكدكت الجبال، واستولى على وجود أهل الشهود والاضمحلال، وصار وجودهم إلى العدم، وتحكّمت صفاتُ القدم.

فإذا أحياهم بعد مماتِهم وأبقاهم بعد فنائهم، عرفوا نفوسهم المخلوقة من العدم، وأقرّوا لربِهم بالربوبية والقدم، وكان معرفتهم نفوسهم بربهم، لا بنفوسهم، وشهادتهم بما أشهدهم فرجعوا منه إليه، واستدلُّوا به عليه، وقاموا بحق العبودية بحسب قوَّتِهم فيما أعطاهم ذلك التجلِّي من وصف الربوبية، فصاروا به يسمَعُون وبه يتصرّفون، وبه يتكلمون، ودعوا الناس إلى الله تعالى على ألسنة الرسل، وحققوا حينئذ كرامة الأنبياء على ربِّهم، ودخلوا تحت أحكام الرسل على الشهود والعيان، وخُرقت لهم العوائد في كلِّ أوان ومع كل زمان، وتحقّقوا بحقائق الخوف والأمان، ولم يكن من هذه الطوائف وأهل المعارف أحد ينكر قِدَمَ الخالق ولا حدوثَ الخلْق، وأنَّ ما سوى الله تعالى باطل، وأن الله تعالى هو الحقُّ كما ورد: « **أصدق بيت قاله العرب قول لبيد:**

ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[١].

فيا ليت شعري ما بال هؤلاء الضُّلاَّل -وهم أقلُّ من الضُّلاَّل وأجهلُ من

(١) رواه البخاري (١٣٩٥/٤)، ومسلم (١٧٦٨/٤).

الجُهَّـال- وتكـذيب الأنبيـاء والمرسلين والملائكـة والمقـربين والأوليـاء والصـالحين وجميـع طوائف المؤمنين وغير المؤمنين؟ بغير حجة، ولا برهان ولا عقول ولا أديان ولا قياس ولا إجماع ولا طائع ولا مطاع، إلا أنواعًا من فساد الخيال، وضروبًا من مُحال المحال يستفزون بها من استضعفوه، وخيَّلوا إليه حتى أَلِفُوه مِمَّن فقدَ عقلَه وعَدِمَ لُبَّه من حمقاء العوام وذوي البلاهـة مـن الأنـام، حـتى يستحلُّون الحـرام، ويـأكلون مـا عنـدهم مـن الحطـام، ويطلقونَهم في الأوهام، وينخلِعون عن الشرائع والأحكام.

ولـو طولـب أحدُهم ببعض دليـلٍ وبرهـانٍ على أيِّ دينٍ كـان مـن سـائر الأديـان، لعجز عن الجواب، وتلجلج في الخطاب، وتكلَّم بالخطأ لا بالصواب، وأنكر ما يدّعيه، وحاد عمَّا يضمره ويخفيه، وحلف أنَّه ما اعتقد ذلك ولا سلك هذه المسالك، فكيف لـو قيـل لـه: مـا واجـب الوجـود؟ ومـا حقيقـة صفات المعبـود؟ ومـا يستحقه الإلـه؟ ومـا يستحيل عليه من النقص والمحال؟ وما يجوز في العوالم من الأفعال؟

إذ الإلـهُ مـن حيـث هـو إلـهٌ مسـتحقٌّ لجميـعِ صـفاتِ الكمـالِ، منعـوتٌ بجميـع أوصافِ الجمالِ والجلالِ، يستحيل عليه وفي حقِّه النقائصُ والمحالُ، ويجوز له فعلُ ما يشاء ويختار، من جميع الوجوه والأحوال، لا إله إلا هو الكبير المتعال، والنِحَلُ والْمِلَلُ وذوو الأمراضِ والعلل، من سائر الأمم، لا تختلف في كمال صفات الإله من حيث هو إلـه، ولا في اسـتحالة الـنقص عليـه، ولا في تفـرّد إرادتـه فيمـا أراد، فيقـال فلِمَ جعلتمـوه حجـارةً وجمادًا ونباتًا وحيوانًا ومائعًا وجامدًا ورطبًا ويابسًا وترابًا وهواءً؟ وغيرَ ذلك مِمَّا ينسبون من النقائص؟ ويحلفون عليها من الكمال مع وجود العجز فيها بشهود الحس ومـا يظهـر فيهـا مـن الآثـار؟ وكيـف يتصـرفون فيهـا بـالقهر والإعـدام بالأكـل والشـرب؟ وقضاء الحاجات والمعايش وغير ذلك؟ وكيف يقتلون العقارب والحيات؟ ويركبون الخيل والبغـال والحمير مـن الحيوانـات؟ ويحملـون علـى الأنْعـام؟ ويـذبحون مـن الأبقـار والأطيـار والأغنـام؟ وكيـف يبولـون ويتغوّطـون ويبصـقون ويتمخّطـون وينـامون ويمرضـون ويموتـون؟ ومَنْ الذي يتألم من الأمراض؟ ومن الذي ينال من أعدائه وأحبابه الأغراض؟

وإذا قُطعـت يـدُ السـارق، وجُلِـدَ الـزانِي، وقُتـل المقتـول وفقئـت عـين معيـان، أو كُسِرتْ منه الأسنان ووجعته الضروس والآذان، فمَنْ هـو المتألم لهـم بهذه الآلام؟ ومَنْ

هو المتصفُ بهذه الأوجاع والأمراض والأسقام؟ إذ يجعلون كل شيء موجود هو عين الإله المعبود، من الخسيس وغير الخسيس مِمّا لا يُستَطَاع ذكرُه من القاذورات وغير القاذورات، وما يتحكم به الفساد من كل نوع وجنس ومأكول وملبوس ومشموم ونبات وحيوان وجماد، وكيف يصنعون بمَن مات؟ من سالف الأيام وتعادم الدهور والأعوام، واضمحلال تلك الرسوم وزوال تلك العلوم؛ فإنْ كان مَنْ مات هو الإله؛ فمَنْ يدبِّر هذا الوجود؟ وإنْ كان الباقون آلهَة، فيكون ميتًا حيًا أو أمواتًا أحياء، ويكون ناقصًا كاملاً وجودًا عدمًا قائمًا قاعدًا، وهذا لا يُقال.

إنَّكم مِمَّن يُحتاجُ إلى الكلامِ في أمره؛ لأنَّكم أجهلُ من الجهلِ، وأضلَّ من الضلالِ، وأنتم في ذلك في مرتبة الأقلِّ؛ إنْ أنتم إلا كالأنعام بل أنتم أضلُّ، فتعالى الله عمّا يقولُ الظالمون والجاحدون علوًا كبيرًا: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً**﴾ [الإسراء:٤٤].

ولولا خشية أن يعمَّ الفسادُ، ما تكلَّمنا في معنى هؤلاء الضُّلاَّل؛ لأنَّهم أقلُّ مِن ذلك، وليس لهم إلا الهلاك والصلب أو يُنفوا من الأرض.

رتبة الولاية

ولنرجع إلى ذكر مَن أقامه الله تعالى في رتبة الولاية مِن أُولي الأمر وغيرهم، وأولو الأمر معروفون عند أهل الطريق، والأولياء والصالحون لا يعلم عددَهم وأحوالَهم إلا الله تعالى.

وأمَّا طبقاتُهم ورُتَبُهم له- وإن عُلم أو عُرف -من أحكام الظاهر والعادة أنَّ التابعَ ليس كالمتبوع، والعالِمَ ليس كالجاهل، وصاحب الحال ليس هو كالعارف، والآمن ليس هو كالخائف، فالأدبُ مع الله تعالى فيمَن أقامَه في رُتْبَةٍ مِن الرُّتَبِ واجب، وحقائقهم عند الله تعالى وتفاضلهم لا علم لنا به: ﴿**هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ**﴾ [آل عمران:١٦٣].

ولأنَّ الله تعالى فعل ما يشاء، والأفضليةُ الظاهرةُ لا يلزم منها الأفضليةُ الباطنة، فما لنا من حيث أنفسنا إلا المحبةُ للجميع، والوقوفُ عند ما أمر الله تعالى فيهم، وأتباعهم ومحبيهم وإن كان نصٌّ من القرآن، أو حديثٌ من النبيِّ الرسولِ في تخصيصِ

واحِد، وقفنا عنده ولا نريد ننقص ولا نقدم ولا نؤخر؛ لأنَّ الأفضلية عند الله تعالى، قال تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات:١٣]، وورد عن النبي ﷺ أنه قال: «**التقوى هاهنا، وأشار إلى قلبه**»(١) وهي إشارة إلى القلب من حيث الجملة والقلب لا علم لنا بما فيه لا يعلمه إلاّ الله تعالى، الذي عِلمُه من وراء علوم الملائكة والأنبياء والمرسلين- عليهم الصلاة والسلام- فكيف بمن سواهم؟

وقول النبي ﷺ: «**هلا شققت عن قلبه**»(٢) كافٍ، فيلزم الأدب مع أولياء الله تعالى كلُّ مَن اعْتُقِد أنَّه عبد الله وإلاّ فالخسار واقعٌ في الدنيا، فوالله منذ عقلت وإلى الآن ما رأيت أحدًا شوّش على فقراءٍ أو أساء الظنَّ بهم فأفلح، ولا رأيت أحدًا أحسنَ إليهم أو صحبهم أو أحسن الظن بهم فخاب.

وقد حُكي عن القرشي ﷺ أنَّه قال: استحقار الفقراء سببٌ لكلِّ رذيلةٍ، وقد كان أبو محمد السرجاني يقول: من غصَّ من عارفٍ بالله تعالى أو وليٍّ ضُرِبَ في قَلْبِه، ولا يموت حتى يفسد معتقدُه.

---

(١) رواه مسلم (١٩٨٦)، وأحمد (٢٧٧/٢).

(٢) سبق تخريجه.

حكايات في سوء العاقبة

١- المرض المجهول

وأعرف أشخاصًا مِمَّن حصل منهم بعض إساءة لبعض الفقراء، منهم واليًا كان بالأعمالِ، وكانت له صورة كبيرة وأموالٌ جمَّة، وحوزة، وأصحاب، وإخوةٌ عدّة، وهم بقدر ستة أو سبعة، وكانوا في نعْمةٍ ظاهرةٍ وجاهٍ واسعٍ، إذا جَلَسُوا في مَجْلسٍ زيَّنوه زينةً دنيَوية، وإذا ركبوا لهم غلبة، ومع ذلك كانت فيه صدقة ومعروفٌ كثير، ولم يكن لغيره من الولاةِ، فبدت منه كلمة في حقِّ فقيرٍ، ولم يكن بالأمر الكبير إلا أنَّ الفقير تألَّم منه، فسمع الفقير في تلك الليلة قائلاً يقول: ﴿**فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا**﴾ [النمل:٥٢].

ويقول:﴿**فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الوَارِثِينَ**﴾ [القصص:٥٨].

فحصل لذلك الأمير مرض في بطنِه، فعُولج بكلِّ علاج فلم يفد فيه علاج، وبقي أشهرًا في تعذيبٍ شديدٍ، ولقد رأيته وبعض أصحابِه يدوسُ جوفَه، ويجعل رجله في جوفه، ويجمعه بفوطةٍ من شدّةِ ما يجدُه، وبعض الأوقات يربطون فؤاده ربطًا شديدًا ويعصره مَن له قوةٌ من أصحابِه وهو يصيح لذلك مدّة، واسترخت يداه وربما عولج بشرب شيء من المنكر.

وأخبرني بعض الحكماء المعالجين له أنَّه لا براء له، وأنَّه ربَّما رأى في المنام أنّه شوَّش على فقيرٍ.

٢- ضريح الشيخ عبد اللّه

وأعرف فقيرًا شوَّش عليه أمير كبير في الدولة، فجاء إلى الفقير رجلٌ من العدول، وقال له: أنت فلان؟ قال: نعم، قال: رأيت البارحة في المنام رجلاً من كبار الصالحين مدفونًا بإخميم اسمه الشيخ عبد الله، وضريحه مهدوم، وسجّاده مرمي، فقلت: مَن فعل هذا؟ فكلّمني الشيخ من داخل الضريح، وقال: أنا فعلت هذا بنفسي، والله لا فرشت

السجادة، ولا [بنى ....] [(١)] أو تُقضي حاجة فلان —وسمَّاك- فقلت: ومَن هو؟ فعرّفني بك فبقيت قاعدًا، وإذا بشخصٍ قد أقبل وعليه ثياب خضر، وسراويل خضر، فقال: مَن فعل هذا بهذا الضريح؟ فقلت: الشيخ، قال: إنه لا يبنى ولا يجعل السجادة عليه أو تقضي حاجة فلان، فقال: قد قضيت حاجته وقُطِعتْ رأس غريمه، فتوجه ذلك الأمير حين توجه العسكر فقتل في وقعة عازان هو وجميع أصحابه إلا القليل.

٣- الغارقون

وأعرف أيضًا شخصًا كان من الولاة، أطلق لسانه في فقيرٍ أعرفه، فكلّمته في ذلك فلم يرجع، فلمّا جُهِّزَت الشوان إلى بلاد الروم، انقلب به الشيني فأُغرق وكان مقدّمًا على ذلك الشيني.

وأعدادهم لا ينحصرون، وسأذكر جماعةً أعرفهم.

٤- فتوة الشيخ أبي العباس الدمنهوري ﵁

أخبرني الشيخ شمس الدين بن الفقيه -وكان موثوقًا به محبًّا للفقراء، أقام بمدينة قوص وصحب جماعة من المشايخ كالشيخ أبي العباس المرسي والشيخ أبي الطاهر والشيخ أبي العباس الدمنهوري وله معهم صحبة وحكايات- أخبرني أنَّ امرأةً جميلة مِن القاهرة لها صورة وجمال باهرٌ، شكت إليه —أعني: الدمنهوري- أحدَ المقدِّمين الذين كانوا بين يدي علم الدين الشجاعي، وأنَّه يراودها عن نفسها، وأنَّ زوجَها طلّقها له خشيةً أن يؤذيه بسببها، وأنه لا يقصدها إلا في الحرام.

فسار الشيخ خلف ذلك المقدّم، وتحدّث معه في زواجها فامتنع وأَبَى إلا ذلك، وربّما أسمع الشيخ كلامًا مؤلِمًا، فقال لها الشيخ- وكان رحمه الله يخاطب الناس بسيدي-: تتزوجيني؟ فقالت: يا سيدي، ومَن لي بهذا؟

فتزوّج الشيخُ بها، فحصل مِن ذلك المقدّم ومِن أصحابِه المقدِّمين مِن الإساءة في حق الشيخ ما لا يليق سماعه، ونسبوه إلى ما في نفوسهم، وجعلوا يتكلمون عليه في القلعة وعند الأمراء، فبلغ ذلك الشيخ؛ فقال: دعوهم، فقد نفذ السهمُ -أو كلمة في

(١) ما بين [ ] كلمة (بنى الجملون)، ولعلها لفظ دارج قديم يقصد به -غالبًا- هيكل الضريح.

هذا المعنى في نفوذ السهم- قال: فوالله لقد رأيتهم وقد صادرهم الشجاعي وضربَهم واحدًا بعد واحد، حتى ماتوا تحت العقوبة، وصاروا في أيّامٍ يسيرةٍ فى مقبرة -وربما قال في جمعة- فلمّا ماتوا طلَّق الشيخ تلك المرأة، وطلب زوجها، وقال له: خذ زوجتك، فإنَّني لم أتزوجها إلا لأحفظِها لك من هؤلاء الظلمةِ وأرحتك من شرِّهم- أو كلام هذا معناه- وربما كان الشيخ قد أشار عليه أولاً بطلاقها خشيةً عليه من ذلك المقدِّم.

فانظر يا أخي، رحمك الله تعالى، إلى هذه الفتوة من هذا الشيخ، كيف عرَّض نفسه لإساءة هؤلاء لخلاصِ هذه المرأة منهم وخلاص بعلِها وهذا مع نفوذه فيهم.

٥- الشيخ والأمير

وحدّثني الشيخ عبد العزيز- رحمه الله تعالى- أنّ امرأةً جاءت إلى أحد المشايخ في الشام، وطلبت منه شفاعةً إلى بعض المقطعين له عليها خَرَاج، وأنَّه أخذ لها مُهرًا، فأرسل إليه خادمه يشفع في ذلك؛ فقال له ذلك الأمير: الشيخ يقعد في زاويته، فإنّه ما يعرف حديث الترك وما تحتاجه الأجناد -أو كلام هذا معناه- ولم يعطِها شيئًا، فرجع الخادم وحكى للشيخ الصورة؛ فقال له: وما يعطها؟ قال: لا، فقال: وأنا الآخر، ما أخليه يبول.

ثم إن ذلك الأمير تغذى وشرب، وحصل له الاحتياج إلى الإراقة فلم يقدر على ذلك، فأكل البطيخ فازداد ولم يقدر على البول، فطلب الأطباء وعملوا له ما يصلح لذلك فلم يقدر على البول، وانتفخ بطنه وأشرف على الهلاك، وكان شخص قد علم بمقالة الشيخ؛ فقال للأمير: ما تبعت للشيخ؛ الشيخ قال: ما يبول أو يعطي المرأة مُهرَها، فقال: احملوني إليه، فحملوه في عباءٍة -وربّما كان قال الشيخ: تحملوه في عباءة أو كلام هذا معناه، أو هو في واقعة غيرها؛ فالله تعالى أعلم أي ذلك كان، غيرَ أنَّهم حملوه في عباءٍة- وأحضروه بين يدي الشيخ، وسأله الشيخ أن يطلق لها مهرها فقال: أطلقته قال: ويطلق خراج الفدان، قال: أطلقته، وترك لها الفدان -وربما قال: له الشيخ: قم بُل أو قم فبُل- فقام وبال ما تقديره ملاء مطر.

٦- الوالي وابنة الصيّاد

وحكى لي رجلٌ مباركٌ محبٌ للطائفة أنَّ شخصًا سمَّاكًا كان يصطاد السمك

ويبيعه، وكان من الصالحين، وله ابنةٌ مباركةٌ، وكان يقتات هو وابنته مما يصطاده.

فاتفق أنَّه اصطاد حوتًا فطلبه منه الوالي فامتنع مِن بيعه للوالي للورع، فضربه الوالي وسجنه واغتصب منه الحوت، فجاء إلى ابنته وليس معه شيء، فقالت له ابنته: أين الذي اصطدت؟ فقال: أخذه الوالي وضربني وسجنني، فرفعت طرفها إلى السماء، وقالت: يا رب، أين كانت قدرتك عند عجز أبي؟

وبكى الحاكي عن ذلك، وكان يحكي الحكاية وهو يبكي، ثم إنَّ الوالي شوى ذلك الحوت ومدَّ يده ليأكل منه، فضربته شوكةٌ من الحوت فورمت يده وذراعه وبقي كالطبلِ العظيم، وورم كلُّه وجاءه الهلاك؛ فقال: احملوني إلى ذلك الفقير، فحملوه ووضعوه عند بابه وسألوه فيه، فقال الفقير: والله لم أدعُ عليه، ولكن لي ابنة دعت عليه.

فدخل على ابنته وسألها في العفو عنه والدعاء له، فقالت: لعلّه ما يتوب، فقيل: قد تاب، وربما أبصرَته فأشفقت عليه، فدعت له فعوفي.

وأعرف حاكمًا شوّش على فقيرٍ، فرآه ذلك الفقير في المنام وقد دوَّروه في مدار البقر، وخُسف به في الزبل ورآه رجل صالح وقد علَّقوه بشعرة في الهواء، وقيل له: هذا غريم فلان وسمّوا ذلك الفقير وعُزل ذلك القاضي وحصلت له إهانة ومات بعد ذلك.

وأعرف جماعة من أكابر بلد شوَّشوا على فقير لغرض في نفوسهم، وقصتهم طويلة، وكان فيهم رجل جليل القدر، فرأى الفقير في المنام السيد جبريل عليه السلام وقد نزل من السماء وبيده نار وهو يرميهم بها، فأصبح ذلك اليوم واحترق لذلك الرجل الكبير جملة من الجواميس، ورآهم الفقير الذي شوَّشوا عليه، الجميع، وقد جُعِل عليهم كساءٌ أسودٌ وغطّوهم به، فوالله ما دارت السنةُ إلاّ والجميع تحت الأرض، وكانوا جمعًا كثيرًا.

وأعرف شخصًا من الفقهاء، وكان خطيبًا صعد المنبر وقرأ كتابًا ونكت فيه على فقير، وقرأ آيَة يفهم منها أذى لذلك الفقير، وأراد الانتصار للقاضي على ذلك الفقير، فنزل من المنبر وحصل له مرض وخلط وعطبت رجله ومات في الطريق ولا رجع يطلع منبرًا بعدها إلى أن مات.

وأعرف شخصًا كان واليًا شوّش على فقيرٍ، أو فعل فعلاً تشوَّشَ الفقير منه، فرآه

الفقير في المنام وقد رمُوه مِن على فرسِه، وجعلوا رأسَه إلى الأرض، فما أفلح بعدها، وعُزل ومات في سفر على حالةٍ عجيبةٍ.

ولا أقدر أحصي مَن عرفتُه غيرَ مَن سمعتُه، فمنهم مَن أُوذي وعلم بذلك، ومنهم مَن حصل له الأذى وهو لا يعلم، ومنهم مَن تغلُب عليه نفسه، ولا يجعل ما أصابه بسبب أذى لذلك الفقير، وهو يعلم من نفسه أنَّ أحدًا لو أساء على غُلامٍ غُلامِه أو صفعَه أو أهانَه فإنَّه لا يصبرُ على ذلك، ويعمل على أذاه بكل طريقٍ، فكيف به إذا آذى مملوكَ أميرٍ؟ أو مملوكَ سلطان؟ وغضب السلطانُ أو الأميرُ، هل يستطيع يقاوم السلطان ويحاربه ويقاتله؟

فانظر إلى هذا المثال، فأين الملك من مالك الملك؟ الذي يؤتي الملك من يشاء ويعزَّ من يشاء ويذل من يشاء، وأين السلطان الذي ملكه بيد غيره؟ إلى سلطان الدنيا والأخرى؟ وأين محاربة الله تعالى إلى محاربة ملوك الدنيا؟ بل لو كان جنيًّا لا تُبْصره لعجزتَ عن محاربته، فكيف بمَلك من الملائكة؟

فانظر إلى مَن خسف الله تعالى بهم الأرض، وإلى قوم لوط وما فُعل بهم، وانظر إلى قوم نوح كيف أغرقهم إلى آخرهم؟

وانظر إلى قوم صالح كيف أهلكهم؟ وانظر إلى ملوك الدنيا كنمرود بن كنعان وفرعون ذي الأوتاد وملوك البلاد وما فعل بهم.

وانظر إلى قارون مع السيد موسى عليه السلام، وانظر إلى هامان وغيرهم من الجبابرة، كيف أهلكهم الله تعالى؟ ﴿**إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ**﴾ [البروج:١٢].

فكيف تستطيع محاربة ربِّك تعالى بعد أن قال لك على لسان نبيّك محمد ﷺ: «**من آذى لي وليا؛ فقد بارزني بالمحاربة**»(١) فإمّا أن تكون مؤمنًا بالقرآن الكريم ومصدقًا بالرسول العظيم فيكفيك الكلام، وإمَّا أنْ تكون غير مؤمن ولا مصدق بما جاءت به الرسل؛ فقد خسرت الدنيا والآخرة.

فإنَّ عدم إيمانِك بما ورد عن الله تعالى على لسان رسوله ﷺ لا ينجيك من

(١) سبق تخريجه.

الهلاك، فقد تحقّقت ما جرى على الأمم السالفة من مخالفتهم لأنبيائهم وجحودهم ما أتوا به عن ربهم سبحانه وتعالى، وهذا لا يخالف فيه من له عقل؛ إذ هو مشهود بالعيان الآن، فيمن يقع بِهم الأذى بإيذائهم لأولياء الله تعالى، أو مَن انتسب إلى الله تعالى مِن هذه الطائفة.

وأمَّا هلاك الأمم الماضية فهذا أمر لا يقدر على إنكاره، لأنَّ الخلَف ينقلون عن السلف، والجمُّ الغفير عن الجمِّ الغفير، وآثارهم مشهودة، تشهد سوء أحوالهم، وآثار الأنبياء والأولياء مشهودة، تشهد لحسن أحوالهم.

وانظر، هل ترى من أسلافهم أحدًا؟ أو تعرف منهم أحدًا؟ **﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾** [الحاقة:٨].

فمن ذا الذي له طاقة بغضب الله تعالى أو عقابه أو بطشه أو محاربته؟

والمحاربة هاهنا ضرب من المثل، كمحاربتك من لا تستطيع محاربته، فإنَّ العصفور المقطوع المنقاد المنكسر الأرجل المقصوص الجناح إذا قاتلته، كمحاربة البازي الكاسر والشواهين؟ فقد أنزلتَ نفسَك منزلة الاستهزاء والأضحوكةِ، فكيف بمقاتلته لجميع البزاة والشواهين والكواسر من الطيور والعقبان والغربان؟ -وهذا في نوع من أنواع الطير- فكيف بك في محاربة الله تعالى، وأنت أضعف من العصفور على هذا المثال بالنسبة إلى بعض الملائكة؟

بل إلى أدنى مَلك من ملائكة الله تعالى، بل لا مقابلة بينك وبينه ولا مقايسة بوجه من الوجوه؛ إذ الملائكة لهم الشدّة والسطوة في نسف الجبال وخسف الأرض وهلاك الأمم.

وانظر إلى قوله تعالى في قصة قوم السيد لوط عليه السلام ومدينتهم سدوم، وهي سبع مدائن: **﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾** [الحجر:٧٤].

وورد أنَّ السيد جبريل عليه السلام حملَها على خافقةٍ من جناحه بعد أن اقتلعها من الأرض السفلى، وصعد بها إلى عنان السماء حتى سمعت الملائكة صياح الديكة وعواء الكلاب؛ فقالوا: مَن هؤلاء المغضوب عليهم؟ ثم قلبها.

وهي الآن أرضٌ سَبِخَةٌ يقاسى السالك فيها شدَّة، وذلك الماء لا يشرب منه طير

ولا بهيم ولا ينبت حوله شجرة ولا زرع، وجاء وقت الصلاة فكرهت الوضوء منه، فلطف الله تعالى بي فوجدت قليلاً من الماء فتوضأتُ وشربتُ منه، وكنت قد تشوَّشت وكرهت أنْ أتوضأ من مكانِ قوم غَضِبَ الله تعالى عليهم.

فانظر إلى حالك في مقاومة مَلِك من الْمُلوك، بل الْمَلَكُ أعظم مِن أنْ يُتَوهم أن يقابلَ بالإنسِ والجنِ وجميعِ من في الأرض، وقد علمت منزلةَ النمرود بن كنعان من الشدَّة والحروبِ، وقد أهلكه الله تعالى بأضعف الجند من الناموسِ، وكَسَرَ عَسْكَرَه وأَهْلَكَهُ بناموسةٍ، وهرب ودخل إلى بيته وأرخى الستور، وجاءت ناموسة فدخلت في أنفه وصعدت إلى دماغه، وتربَّت فيه وأكلت من مخّه، حتى كان أعظم الناس عنده منزلة مَن يضربه في رأسِه بما أعدَّه لذلك مِن مطرقةٍ أو مرزبَّةٍ، لاعتقاده أنَّ ذلك يخفّف عنه، حتى ضُرِب مرّةً وانفلقَ رأسُه وخرجتْ الناموسة قدر الفَرْخِ، ومات على تلك الحال.

وهو نوع من أنواع جند الله تعالى، ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ**﴾ [المدثر: ٣١].

وأنت أضعف مِنْ أنْ تكونَ مِن أحدِ غلمانِ النمرودِ؛ فمَنْ ذا له طاقة بعذاب الله تعالى وتسليط جند من جنده؟ منها ما فعله الله تعالى بقوم عاد بالريح، وبقيت امرأة منهم؛ فقيل لها: ما أشدُّ ما رأيتِ مِن عذاب الله تعالى؟ فقالت: كلُّ عذاب الله تعالى شديد، لكن سلام الله تعالى على ليلةٍ ليس فيها ريح، فلقد رأيت العيرَ بأحمالِها طائرةً بين السماء والأرض.

وإذا استقصيت الأخبار وجدت ما ليس له حد، وتفرغُ الدُّنيا ولا تستوفي ذلك، فمَن كان لا قدرة له على مقاومةِ أضعفِ أضعفِ جندِ الله تعالى مِن أيِّ جنسٍ أو نوعٍ كان، بل لا نسبة بينه وبين ذلك، فكيف بمحاربة الله تعالى؟ وأنت في نفسِك عدم مع وجود الحقِّ؛ إذ خلقك مِنْ لا شيء، ويُميتُك ويحييك ويبعثُك بعد أن كنت عدمًا، فأوجدك على هذه الصورة التي أنت عليها، ثم يميتك كما أمات مَن قبلك ثم تصير رفاتًا، ثم يعيدُك شخصًا سويًا ويبعثك ويحاسبُك على أقوالِك وأفعالِك.

وعلى ذلك؛ فانظر أين أنت فيما عرَّضت نفسك له؟ فالزم الأدب، وقف عند

أوامر الله تعالى ونواهيه، وما جاءت به الرسل، وتأدَّب مع أنبياء الله تعالى ورسله، وإيَّاك ثم إيَّاك والوقيعة في أولياء الله تعالى، والأذى لهم، فوالله لا أحصي مَن عرفتُه مِمَّن بسببهم.

وقد ذكرت ما حضر لي مع كثرة الشواغل، وأمَّا ما سمعت فكثير، وأمَّا ما تقدّم في كتب المتقدمين، كأبي طالب المكي، وأبي القاسم القشيري، والإمام الغزالي، وغيرهم مِمَّن تقرَّب إلى الله تعالى بتصنيف الكتب في كرامات الأولياء وذكرِ مناقبهم، وحذَّر من التعرُّض إلى مثل ما حذَّرنا منه، وذكر ما أصاب من تعرض إليهم.

وقد حكى لي الشيخ عبد العزيز عن خادم الشيخ أبي العباس الحوَّال شيخ الشيخ صفي بن أبي المنصور قال: كنت أمشي مع الشيخ حتى يخرج بعد المغرب أو في الليل، حين كان الغلاء بمصر، ذلك الغلاء الكبير.

فكان الشيخ يأخذ معه إبريقًا من الماء وكِسراتٍ، فمَنْ وَجَدَ فيه رمقًا أن يطعمَه أطعمَه، ومَن وجده لا يقدر على الأكل سقاه، والناس مطروحون في الطرقات والأسواق أمواتًا وغير أموات، فقال لي: انظر، هل ترى في هؤلاء فقيرًا؟ فإنَّ الله تعالى لا يبتلي الفقراء بذلك، فقلت له: يا سيدي، رأيت فلانًا، وذكرت له شخصًا، فقال لي: أمَا تعلم أنَّه كان يقع في الفقراء، والله يتولّى السرائر.

وقد حكى لي الشيخ عبد العزيز عن امرأةٍ مِن أصحابِ الشيخِ الفخر الفارسي رضي الله عنه وكانت جميلة، وكانت برذعية، وربَّما كانت تُسمى البراذعية، وزوجها يسمى البراذعي، وكان يُجمع عندها الفقراء وتعمل السَّماع وهي بينهم، وتجمع عندها الجموع، وربَّما جرَّست مرّةً، فوجدت الفقراء في الطريق فقالت لهم: روحوا إلى البيت حتى أدور هذه الدورة وأعود إليكم، وربما كانت تدع من يكبّسها، وأمورًا لا تُوافقُ الظاهرَ، فاتفق أنَّه قُفل عليها الباب وعندها جماعة، وراحوا إلى الوالي، وكان الوالي ابن الشعار، فخرجت إلى الباب وصاحت في القفل فتقطعت المسامير، وخرجت هي وزوجها إلى الشيخ الفخر الفارسي فسبَّهما الشيخ وشتمهما، فقالت له: يا سيدي، ما هذا وقته، ابن الشعار قد فعل وترك، فطلب الشيخ ابن الشعار فحضر إليه، فزَجَرَه، وقال: أنت تتعرض إلى الفقراء؟ -أو قال: هذه المرأة الصالحة أو كما قال- إذا جاءِ ولدي خليته

شنقك.

وكان السلطان الملك الكامل يتولّى محبة الشيخ الفخر، فبكى الوالي وكشف رأسه ودخل على الشيخ، فقال له: رُحْ فأرضِها وزوجِها، فراح ووقف على بابِها أو زاويتهما وهو مكشوف الرأس حتى رضيا عنه، وحمل لها جملةً من الغَنمِ وغير ذلك، ليعمل الشكران.

فانظر يا أخي، رحمك الله تعالى، إلى تعظيم الشيخ لنسبة الفقراء، وإنْ كان لا يرضيه تلك الحالة وأنكر عليهما.

وحكى لي الخطيب جمال الدين- نفع الله تعالى به المسلمين- خطيب مصر الآن ابن القسطلاني، عن الشيخ عبد العزيز، عن الشيخ عبد الرحيم المدفون بقنا أنّه دخل عليه كلب فوقف له إجلالاً؛ فقيل له في ذلك، فقال لهم: رأيت في حلقه خيطًا أزرق.

فانظر- رحمك الله تعالى- إلى هذا السيد الكبير وإلى هذا النظر السديد، حيث لحظ إكرامَ الكلب لِما يلبس به من خيط من زيّ القوم مع وجود صفات نجاساتٍ يُعْتَقَدُها فيما يولِغ فيه من الآنيةِ وغسلُها سبعَ مراتٍ إحداهُا بالترابِ، وكَون الملائكةِ لا تدخلُ بيتًا هو فيها.

وهذه إشارة عظيمة من هذا الإمام العارف، والذي سلك على طريق الله تعالى أكابر، فكيف إذا كان إنسانًا؟ فكيف بفقيرٍ؟ فكيف بسالكٍ متصفٍ بالزِّي؟ فكيف بولي أو عين أو وتد أو بدلٍ أو غوث أو عارفٍ أو قطب أو خليفة؟

وقد تكرّرت هذه الحكاية لمصلحةٍ في الموضعين، وتعظيمٍ لأولياء الله تعالى، ومن يرى بالله تعالى ويسمع بالله تعالى ويتكلم بالله تعالى.

وأعرف مِمَّن كان يحبُّ هذه الطائفة ويحسن الظن بمن تزيى بزيِّ أهلِها أو سلك في طريقٍ من طرقِها، منهم شمس الدين شيخ الخانقاة بالقاهرة المحروسة، كان فيه محبةٌ وحسنُ ظنٍ، مع علمِه في التفسيرِ وعلومِ الشرائعِ والحقائقِ -رحمه الله تعالى.

ولقد رأيت منه في حسن الظن بالطائفة العجائب والغرائب، وكان يمشي إلى مَن يسمع عنه أنه فقير، وربما عُوتب في ذلك عمَّن لا يستحق المشي إليه؛ فقال: أليس هم

من الطريق؟ أو في ابتداء الطريق.

وممَّن كان يحب الفقراء من الأكابر في هذا الزمان الصاحب تاج الدين، ولم يكن مثله في الدنيا لِمَا رأيتُ منه مدةَ معرفتِنا به من سنين متقدمةٍ إلى حين وفاته، يغضب لغضبهم ويرضى لرضاهم، ويحمل الأثقال لأجلهم، ولا يقدر أحد يصدّه عن ذلك، ولا يسمع فيهم لومةَ لائم، ولَها بذله وإيثاره.

فمنه ما هو ظاهر معروف للناس، ومنه من لا يعلم إلا الله تعالى لإخفائه ذلك، ولما تُوفي -رحمه الله تعالى- ظهر من ذلك شيء كثير مِمَّن كان يرقب لهم في كل سنةٍ شيئًا مخصوصًا، منهم من له مائة مثقالٍ في السنة، ومنهم مَن له دون ذلك، ومنهم مَن أعطاه أكثر من ذلك.

وأمَّا ما أعطاه في وقت واحدٍ كما أخبرني صدر الدين بن الشيخ تاج الدين عن عمِّه تقي الدين بن دقيق العيد، أنَّه أرسل إليه خُرجًا فيه آلاف الدراهم -غاب عني كم، هي غير أنها فوق العشرة آلاف- وأخبرني الشيخ شهاب الدين بن الشيخ أبي الحسن الشاذُلي أنَّه يرسل إليه مائة مثقال في كل سنة.

ولقد ذُكر عن جماعةٍ بعد موتِه أنّ لهم رواتب عليه، ووجدوا عليه دَينًا بسبب ذلك، وأخبرني الشيخ عز الدين بن مسكين[١]، والذي رأيته بحضوري أنَّه ملّك فقيرًا جميع ما يملكه، وأَشهَد الله تعالى عليه بذلك ما خلا الموطوءات، وقال الفقير: ما لي عذر عند الله تعالى إلاّ أنك أمرتني وأنا أفعل في أمورٍ، قال له: افعلها، مع كونه متصرفًا في الوزارة.

ولقد حُكي أنَّ الشيخ أبا القاسم المرائغي قال له: إيش الدليل على محبتك للفقراء؟ قال: لأَنِّي إمامٌ في أَخْراجِ القِبلةِ، وإذا قلت لي: هي كذا- أعني: خلاف ما تعلمه- رجعت وتركت علمي.

وأوصافه في محبة الفقراء لا تكاد تنحصر وخدمته بنفسه لهم، ولقد حكى تاج الدين بن الدشنائي -وكان عدلاً بمصر- أنَّه رأى النبي ﷺ في المنام فجئت عن يمينه؛

(١) هو الحارث بن مسكين بن محمد بن يوسف الأموي المصري المالكي المتوفى سنة ٢٥٠ هـ، قال السيوطي في حسن المحاضرة: له تصانيف. انظر: هداية العارفين (١٤١/١).

فقلت: يا رسول الله، أنا من أهل الجنة؟ فحول وجهه أو أعرض -أو كما قال- فجئت مقابل وجهه، وقلت: يا رسول الله، أنا من أهل الجنة؟ فقال لي: ذلك من أهل الجنة وأشار بيده، فوجدت الصاحب تاج الدين واقفًا إلى عمودٍ في الجامع بمصر.

فانظر -رحمك الله تعالى- إلى هذه السعادة.

وهكذا أخبروا جدهم الصاحب بهاء الدين في خدمته للفقراء ومحبته لهم، ولم أجتمع به، غير أنهم كانوا يحكون عنه الغرائب والعجائب.

وإنّ ممَّا حكي عنه أن إنسانًا رأى بغلتَه بعين الكيمان في طريق القاهرة من مصر، وجدها؛ فخشي عليه قال: فمشيت لأجد الصاحب نزل مِن على بغلته وهو يجري خلف فقيرٍ، والفقير لا يرضى أن يقف له ولا يكلمه، وخشي الغلام على الصاحب فجرى خلفه، وكذلك يحكي غيرهم أن الصاحب زين الدين -رحمه الله تعالى- مع عِلمِه الظاهر محبٌّ لهذه الطائفة، قائمًا بحقوقها، معظمًا لها، لا جرم بقي بينهم محفوظًا مدةَ حياتِه، ولهم في الآخرة ما هو أعظم من ذلك.

الشيخ الرضا بن أبي المُنى

ومِمَّن كان محبًّا للفقراء ومؤثرهم الإيثار العظيم بالصعيد، الرضا بن أبي المنى بقنا، ولم أجتمع به.

أخبرني الشيخ أبي الطاهر إسماعيل بن عبد المحسن -رحمه الله تعالى- أنَّ القاضي الرضا بن أبي المنى رأى مرّةً فقيرًا على دُكَّان بياعٍ، فقام بنفسه ومشى إلى دكان البياع؛ فقال للفقير: إيش طلبت مِن البيَّاع؟ فقال: بفلس قطن، قال: ولم لا طلبته مني؟ فقال له: يا سيدي، هذا أمر خسيس؛ فقال له: أنا لا فلس ولا ألف ولا تأخذ من أحدٍ غيري شيئًا.

وإذا كان رمضان طلب الجزارين، وقال لهم: لا تذبحوا في البلد شيئًا إلا مِن غَنمي؛ لأنَّهم حلال، ثم يكتب للربط، كلّ رُباط بما يحتاجه، وللفقراء المتزوجين والأصحاب بما يحتاجونه، ولا يأكل أحد في البلد لحمًا إلاّ مِن عنده.

ولما كان أوان بيع الثمرات في السواقي، ولا سبيل إلى أنْ يطلق البيع حتى يحمل لكلِّ رُباطٍ حملتين من العنبِ والفاكهةِ كالتينِ والرُّطبِ، مِنْ كُلِّ شيء حملتين، فإذا فعل

ذلك خرج المشترون فاشتروا، ثم يكتب لكل رباط نجمته أرادب ثمرًا، ولكل فقير متزوج ثلاث وليات- أظنه قال: لكل رُباط من العسل خمسين مطرًا ومن التند والسكر ما لا أحقق ما قاله لي- وفي كل ليلة جمعة سكرًا يعملونه حلاوة، وإنّ بيت الشيخ أبي يحيى طلبوا مَحْلِيًّا حالا؛ فقال الطبَّاخ: إنَّ الوضعة لبتت، فقال الرضا: احملوها جميعها إلى بيت الشيخ، فحملوا الوضعة جميعها.

وذكروا عنه من ذلك عجائب لم تحضرني الآن، وجاء فقير؛ فقال: شيءٌ لله تعالى فأعطاه دينارًا، فقال السائل: بحمد الله فأعطاه دينارًا آخر، فقال: الحمد لله فأعطاه دينارًا آخر، فكرَّر السائل الحمد لله وكرَّر له العطاء إلى تسعة عشر مرّة، فقال له: غفر الله تعالى لك، فقال: والله لو حمدت الله تعالى لم أُبقِ معي دينارًا ولا درهمًا، لكنك دعوت لي.

فانظر يا أخي رحمك الله تعالى إلى هذا التحقيق، كونه رأى أنَّ الحمد لله، وأنَّه يقوم بذلك لأجلِ حمده لله تعالى، فلمَّا دعا له رأى أن ذلك نوع من المجازاة فترك العطاء.

وهكذا من يعطي لله تعالى، والمحبون كثير يطول ذكرهم، وإنما ذكرنا المشهور، حتى إنّ هذا الرضا المذكور مدفون بجانب قبر الشيخ عبد الرحيم بقنا في بطن قبره، وكان مرّة قد توجه شخص ليرافع القاضي الرضا، فتحدث الأصحاب في شيء يعطى له حتى وصلوا إلى تسعمائة دينار فلم يقبل، فحلف القاضي الرضا ما يُعطى له شيئًا، وأخذ تلك الدنانير والألف دينار وجعلها في صرر وفرّقها على الفقراء والمحتاجين، وسافر المرافع فغرق في الطريق فمات.

فما خاب مَن أحبهم في الدنيا ولا في الآخرة، حتى لو أحبَّهم كافر يحصل له الخير والإسلام.

ولقد حكى لى الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- أنَّ يهوديًّا كان ببغداد، وكان يحب الفقراء، ويجلِّهم ويكرمهم ويعظِّمهم، فأتوا إلى الشيخ أحمد الدبَّاس يقولون له عن ذلك اليهودي ومحبته للفقراء مرّةً بعد مرةٍ، فقال الشيخ أحمد الدباس: اطلبوه فطلبوه، فحضر؛ فقال: هؤلاء الفقراء شكروا منك، وإنَّك تخدمهم وتعطيهم وتكرمهم وتقوم في

حوائجهم -أو كلام هذا معناه- فقال له: يا سيدي، أنا أحبهم؛ فقال: إن كنت تحبهم فاسلك طريقهم -أو تكون على دينِهم ، الله تعالى أعلم كيف قال- فقال: يا سيدي، ما رأيت شيئًا، فقال لخادمه -أو لأحد أصحابه-: خذ عمامته من على رأسه، فأخذها، وكان في عنق الشيخ منديل، وهو قاعد يوقد تحت الدست؛ فأخذ الشيخ العمامة جعلها في المنديل وربط عليها ورماها في النار إلى ساعة، ثم أخرجَها فخرج منديل الشيخ صحيحًا لم يصبه من النار شيء، ففتحه فوجد العمامة التي في وسط المنديل قد صارت رمادًا، فأسلم اليهودي.

فانظر يا أخي، رحمك الله تعالى، إلى هذه المعاني اللطيفة؛ فهؤلاء القوم مَن أحبَّهم أحبَّه الله تعالى، ومَن أبغضهم أبغضه الله تعالى، وفي هذا الكلام كفاية لمن آمن بالله تعالى واليوم الآخر، ومن لم يؤمن فيكفيه عدم إيمانه.

وأخبرني الشيخ أبو القاسم الأدناوي أنَّه كان اشتغل بقراءة القرآن حتى احترق بأنواره وعَدِمَ الأكلَ والشربَ وهام على وجهه، وتجرد عن ماله وتصرف تصريفًا غير المعتاد من تكسير الآنية ودفع الأغنام وغير ذلك، حتى حَبسوه وقيَّدوه وزعموا أنّه مجنون، وظهرت له كشوفٌ عجيبة، وسُلِك به طريق عجيب، وظهرت له علوم البرابي، واطّلع على الكنوز.

وتنزّلت روحانية الحاكم برأس من تُفتح له الكنوز قال: وتنزلت عليَّ روحانية الكواكب، ووقفت روحانية المريخ بين يدي، فإذا جاء أحد يزورني تقدمتْ إليَّ، وقالت: هذا فلان حضر، وفي نفسه كذا وكذا فما تأمر به؟

ولقد حضر شخص من أكابر بلدٍ -وسمّاه لي، ولا أرى أن أسمّيه- فقالت تلك الروحانية: هذا فلان حضر، وفي نفسه كذا وكذا، أتريد أن أضرب عنقه؟

قلت: لا، قالت: فأرمي عليه النخلة؟ قلت: لا؛ بل احلق لحيته، فخرج ذلك الرجل، ولحقته في لحيته حكة شديدة؛ فاستدعى الحلاق وحلق لحية نفسه.

وقد أخبرني أنه اطّلع من هذا الكشف على علم الحساب، وقال: إذا أريت الفدان القصب أعلم كم يجيء من رطل عسل وكم رطل قند فلا يختل عن ذلك شيء.

وكان يخبر بالعجائب والغرائب ممّا عاين في هذا السلوك، وكان بدؤه قراءة القرآن،

واستدامته ليلاً ونهارًا حتى استولت عليه أنوار القرآن وغيبته عن العادات، وهام وامتنع عن الشراب والطعام.

والذي ذكره من كثرة القراءة شيئًا لم أحضره من الآلاف، ختمات يختمها في اليوم والليلة، أو في الساعة - الله تعالى أعلم كيف قال- وانكشفت له حقائق العلوم، وسُلك به طريق عجيب في علم الأفلاك وروحانيات الكواكب، ولله تعالى أن يتعرّف إلى عَبدِهِ بما يشاء كيف يشاء.

الشيخ عتيق والدعاء

ومِمَّن أحسن الظنَّ بالفقراء التاجر العجمي، وقد حكي الشيخ عبد العزيز- رحمه الله تعالى- أنَّ الشيخ عتيق رأى جارية -ربما قال بمصر- نودي عليها؛فبلغت خمسمائة دينار، ووقفت، فقال الشيخ عتيق لذلك الرجل العجمي: يا خواجا، تبيعها لي بالدعاء، وكان العجمي غير مستعرب، فقال لأصحابه المستعربين: ما يقول هذا؟ درويش إيش يكون الدعاء؟ فقال له بلسانهم: درويش قريب من الله تعالى يسمع منه، فقال العجمي: يا خواجا، بعتك، خذ الجارية، فأخذها الشيخ عتيق وراح.

فلمَّا أنْ سافر العجمي خرج القُطَّاع عليه في الطريق، فكشف رأسه، وقال: يا ذاك الفقير، هات ثمن الجارية، قال: فخرج أقوام ملثمون طردوا القطّاع وعملوا بهم ما عملوا مِمَّا لا أتحققه، وهرب القطّاع، وبقي في مقدم القافلة فارس، وفي وسطها فارس، وفي مؤخرتها فارس يحرسون القافلة، قال: وكان فقير في القافلة في مؤخرِها قال: قلت لذلك الفارس: أنتُم مِن أيِّ العرب الذي مَنَّ الله تعالى علينا بكم؟ فقال: يا فقير، ما نحن عرب، الخضر قال لنا: إنَّ وليًّا لله تعالى اشترى جاريةً بدعوة مجابةٍ، وقد أمركم الله تعالى بحفظه وحفظ ماله -أو كلام هذا معناه- كما ذكره الشيخ عبد العزيز عن ذلك الفقير الذي كان بالقافلة وأخبره بذلك.

وهذه الحكاية في أخذ الشيخ ﷺ الجارية، وإن لم يكن بيعًا فلعلها في صورة الهبة أو الهدية بالمجازاة.

وقد زوّج رسول الله ﷺ أحد الصحابة على ما معه من القرآن، وفي ذلك تأنيس لهذه الواقعة، أو لعلّه عن ذلك، فالله تعالى أعلم بأي الوجوه أخذ الجارية، فإن الشيخ

عتيق كان من الأكابر رضي الله عنه وكان قد صحب قضيب البان وصحب الشيخ عتيق الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور وأخبرني عنه شيئًا لم يحضرني الآن، وصحب الشيخ عتيق أبا النجا سالم.

ومِمَّا حُكِي عن الشيخ عتيق بالرواية المتقدمة أنَّه نزل عند قاضي دمشق، وكان السلطان الملك العادل قد طَلَبَ منه أربعةً وعشرين ألفَ دينارٍ وزيادة عن ذلك والله تعالى أعلم، فقال القاضي للشيخ عتيق: أشتهي تشفع لي عند السلطان؛ فقال له الشيخ: أشفع لك عند سلطاني أم عند سلطانك؟ فقال القاضي: يا سيدي، أشتهي أن تمشي إلى السلطان وتشفع لي -وكان السلطان قد أخذ منه أربعة آلاف دينارٍ وبقِي الطلب عليه بالباقي- فقام الشيخ عتيق، ومشى إلى السلطان الملك العادل، وتحدَّث معه في أمر القاضي، فجعل السلطان يحسن الكلام ولم يقض له حاجة.

فرجع الشيخ وتوجّه إلى الله تعالى، وكان السلطان قد نام فاستيقظ فزعًا مرعوبًا، وأمر بفتح القلعة، وأن تحمل الأربعة آلاف دينارٍ للقاضي، ويترك له ما طلب منه، وذلك أنَّه رأى في المنام إن لم يفعل وإلا هلك -بصيغة غائبة عني- فقال الشيخ عتيق: قلنا لكم نشفع عند سلطاننا قلتم إلا سلطانكم.

الفقير والمملوك

وحكى الشيخ عبد العزيز أنَّ فقيرًا حكى له أنَّه رأى مملوكًا جميلاً ينادى عليه لعله بمدينة «سرت»(١) فبلغ خمسمائة دينار، قال: فخطر لي أنْ أشتريه وأصونه من الفسّاق، وأعلّمه القرآن وأَعتقه، ولم يكن معي إلا ثلاثمائة دينار ورثتها، فقلت للتاجر: يا خواجا، تبيعني هذا المملوك؟ فقال: وإيش تعمل بهذا؟ هذا ما يشتريه إلا ملك أو أمير- أو كلام هذا معناه – فقلت: تبيعني؟ فقال: هات ثمنه، قلت له: ما معي إلا ثلاثمائة دينار؛ فقال: هذا قد دفع فيه خمسمائة دينار.

(١) مدينة ليبية معروفة.

وجعل التجار وغيرهم مِمَّن حضر يسخرون بي ويتهموني لِمَا يعلمونه فيمن يقصد المماليك للمقاصد الفاسدة، ومع ذلك الخاطر يقوى عندي ويتزايد، ولا معي شيء إلا ذلك القدر، وكلما كلمه التاجر أخذ من الناس من الألم ما لا أعبر عنه قال: فلمّا اشتد الحال جئت إلى قبر الشيخ حسين النَّجار السعرتي، فاستجرت به، وقلت: يا سيدي، أنت تعلم قصدي في شراء هذا المملوك وأشتهي إعانتك -أو كما قال- ثم طلعت البلد، فوجدت التاجر والمملوك خلفه، فقلت: يا ناخودا -أو يا خواجا- تبيعني هذا المملوك؟ فمسك يدي وأدخلني إلى زقاق، وقال لي: يا فقير، سألتك بالله تعالى، إيش قصدك في شراء هذا المملوك؟ قلت له: وما لك ولهذا؟ أنا أشتريه- أو كلام هذا معناه- فأقسم علي ثانيًا؛ فقلت له: والله قصدي أن أصونه وأُعلّمه القرآن وأعتقه، فقال لي: هو حر لوجه الله تعالى، خذه وعَلّمه القرآن وصنْه، قال: فأخذته وعلّمته القرآن وكبر وجاء منه فقير.

ومِمَّا حكاه أنَّ فقيرًا ورد على مدينة سرت فوجد الأبواب قد غُلّقت، قال: فجئت إلى ضريح الشيخ حسين لأجده مقفولاً، فقلت: يا سيدي، أنت تعلم أن السباع كثيرة، وما لي مكان آوي إليه. قال: فوالله لقد ارتفعت الأرض بي حتى وصلت إلى سطح الضريح، فوضعت رجلي على السطح فأخذتني هيبة، فبقيت واقفًا حتى طلع الفجر وجاء الإمام وفتح الباب فخرجت.

والشيخ حسين هذا هو الذي ذكرناه آنفا في كونه لم يقدروا يحملوا نعشه حتى غنَّوا عليه.

ومِمَّا حكاه لي أيضًا عن الشيخ زين الدين الفقيه- رحمه الله تعالى- أنَّه اشترى جاريةً بخمسمائة دينار حتى يفتح الله تعالى لي بثمنها، وقال لصاحبها: إذا أردت السفر جئ إلينا، فلمَّا تجهز التاجر للسفر جاءه، وقال: قد تجهّزت؛ فقال له: تصبر ثلاثة أيام وخلّي قماشك يخرج.

فلمّا فرغت الأيام ولم يأت الشيخ فتوح -التاجر- أخذ عكازه، وقال: أطلع إلى القلعة إلى السلطان الملك الكامل، وأطلب منه ثمن هذه الجارية؛ فإنَّني واعدت هذا الرجل أولاً وثانيًا.

فطلع الشيخ إلى القلعة، ودخل على السلطان، وجلس يتحدّث معه، وإذا بخادم قد دخل وعلى رأسه صندوق لطيف وبيده مفتاح، ففتح السلطان الصندوق وأخرج أوراقًا والتفت إلى الشيخ، وقال: يا سيدي، لنا عندك خمسمائة دينار؛ فقال له: ومن أين لكم عندي خمسمائة دينار؟ فقال له: والله يا سيدي في ذمتك لبيت المال خمسمائة دينار، فقال له: يا رجل، أنا طلعت اليوم أطلب منك خمسمائة دينار لتاجر اشتريت منه جارية وميعادي معه اليوم، ولم يحصّل لي شيء، فجئت إليك أزورك في ذلك، فقال: يا سيدي التاجر، قد مات وهو حشرجي وهذه تركته، ووضع يده في الصندوق وأخرج صَرّةً فيها خمسمائة دينار، وقال للشيخ: خذ هذه، اكسو بها الجارية.

فانظر يا أخي - رحمك الله تعالى - إلى هذه الحكاية ما أعجبَها، وهذه من اللطائف.

وحُكي عن أحد المشايخ أنه دخل عليه فقير؛ فقال له: يا سيدي أنا أشتهي القطائف -أو كان فقير يشتهي القطائف- ولم يكن مع الشيخ شيء يشتري به، فخلع جبة وقال للخادم: بع هذه واشتري بها قطائف. فباعها واشترى بها قطائف، فأكل الفقراء، فلمَّا فرغوا دخل شخص من أصحاب الشيخ والجبة، قال: يا سيدي، وجدت هذه تُباع، وهي قياسك، فأخذها الشيخ ولبسها، وقال: لله لطائف أحلى من القطائف.

ومنهم مِمَّن عندنا الآن بمدينة قوص بالرُباط المستجَد بظاهرِها محفوظ البدوي مستديم الاشتغال من شبيبته، وهو مجتمع بي من ذلك الزمان إلى أن بُني هذا المكان، وقال: قد كبر الأولاد وقاموا بنفوسهم، وما بقي له في الوجود حاجة وهو على حالة شريفة، وهو أمّي، وله عندنا سنين عديدة.

وأخبرني ولدي والفقراء بالرُباط وإسحاق الحموي الخادم وغيره، أنهم كانوا جلوسًا، وزريق رأى فعل محفوظ ارتفع في الهواء، واعتدل للمشي بين يدي محفوظ؛ فصاح صيحةً، وقام فقيل له: مات أخوك، فجاء ولده بعد خروجه، قال: مات أخوه الساعة.

ومِمَّا حكاه الشيخ عبد العزيز حكايةَ الشيخ محمد «الماضي لا يعاد» أنَّه كان إذا فعل أحد فعلاً أو بدا منه شيء يقول الشيخ محمد: يا فقراء، الماضي لا يعاد فغلب

عليه هذا الاسم فصار الفقراء يسمونه «الماضي لا يعاد»، فلمّا توفي الشيخ محمد رآه فقير في المنام فقال له: يا شيخ محمد، ما فعل الله تعالى بك؟ فقال: أوقفني بين يديه، وقال: يا محمد، غفرت لك، رُحْ الجنة، الماضي لا يعاد، ﴿**سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُم**﴾ [الأنعام:١٣٩].

وقد قلت:

عَفَا كَرَمًا قَبْلَ الحسَابِ إِلَهُنا وجَادَ بإنعامِ الجنانِ مع الصَّفْحِ

وجِئْتُ بأَثْقالِ الذنوبِ مدفرا فأَعْفَى عَن الْمَاضِي وأَجْزَلَ في الربحِ

اللهم لا تُخْجِلْنا عند الوقوفِ بين يديك وروَّحنا بأرواح السرِّ قبل القِدَمِ عليك؛ فإنَّك تَعْرفُ سوءَ أفعالِنا فنخاف من الخجل مع شدة الوجل.

قالُوا غدًا نَدْنُو ديارَ الحبيبِ وينزل الركبَ بمعناهُمُ

فقلتُ في ذنبي فمَا حِيلَتي بأيِّ وجهٍ أتلقاهُمُ

فَقِيل إنَّ العَفْو مِن شَأنِهم لا سيما عَمّن تَرجاهُمُ

جَزَاءُ الإِحْسَانِ

وحكى لي زين الدين عيسى بن مظفر الأرمنتِّي -رحمه الله تعالى- أنَّه توجّه إلى قرية «دنفيق»، وكان في أيام النيل، وفي الطريق ترعة، فوجد امرأةً نَصرانيَّة قد غرق ابنها في الترعة، وهي تصرخ عليه، قال: فنزلت الترعة، وأطلعت الصغير وهو حي وعاش، ثم إني توجهت إلى القرية أو إلى ساقية له هناك، ثم رجعت آخر النهار إلى مدينة قوص.

قال: فلما وصلت قريب المبرز - وهي ترعة هناك قريبة من البلد- وإذا بإنسان يبشرني بسلامة ولدي، فقلت له: وما الذي أصابه؟ قال: غرق في الترعة وأطلعه نصرانيٌّ قبل أن يموت.

فانظر يا أخي -رحمك الله تعالى- إلى هذه الحكاية في المقابلة في اليوم الواحد، والمجازاة محققة وبُعد الزمان وقُربه إنّما هو بالنسبة إلينا وتأخير ذلك إلى قيام الساعة إنّما

هو جملة الخفاء ظاهرًا وباطنًا، وقد يظهر هنا منه قضايا منها ما هو للتنبيه ومنها ما هو لإقامة الحجة، وحيث تقرُب الآخرةِ يظهر بعض أحكامِها في هذه الدار؛ فافهم ذلك.

وحكي عن أحد الوزراء أنَّه كان إذا عاقب أحدًا، وسأل أن يرحمه؛ فيقول له: الرحمة خور في الطباع، فلمّا غضب عليه الملك صار يسأل الرحمة، فقال له: الرحمة خور في الطباع.

كما تدين تدان

وحكي عن أحد الوزراء أنَّه كان فرك أذن إنسان، فلمَّا غضب عليه الملك أخبروا الوزير أن الملك أمر بقتله ثم قطع يده وغير ذلك، فقال الوزير: ما يقول ذلك؛ فقيل له: إن الملك قد أمر بفرك أذنك، فقال: نعم، فلمّا فرك أذنه، قيل له: من أين لك العلم بذلك؟ فقال: إنني حين وزرت لم يصدر مني شيء مما قلتم أن الملك أمر أن يفعل بي، غير أنني فركت أذن شخص، فلمَّا قلتم أنه أمر بفرك أذنك علمت أنني فعلت ذلك، وأنَّه لا بد منه.

فهذه وأمثالها من الوقائع والحكايات في ذلك كثير لا تكاد تحضر لمن استقصاها ويكفي المؤمن ما ذكره الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿**إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الطور:١٦].

وقوله تعالى: ﴿**سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ**﴾ [الأنعام:١٣٩].

وقوله تعالى: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ**﴾ [الزلزلة:٧، ٨].

والآيات في المجازاة والمقابلة بالوصف في كتاب الله تعالى كثيرة، كالنفس بالنفس، والأعضاء المقابلة من العين والسن والأذن والمقاصَّة في الجراح كاف.

ومن اقتصَّ منه في هذه الدار فذاك رحمةً في حقه؛ لأنَّه أخفُّ من القصاص في الآخرة؛ إذ يقابله من صفة العدل المماطلة بوفاء الحق وعدم التخلص من الغريم، ومخالفة الله تعالى فيما قدم عليه وتأخير التوبة منه، ولم يبذل القصاص من نفسه، ويدعو إليه كما فعل رسول الله ﷺ.

بين العفو والقصاص

فلا بد من المقاصصة في العرض والمال أو مسافحة الغريم ثم التوبة من ذلك؛ لأنَّه في تعدّيه مخالفًا لله تعالى، وفي كل حقٍّ من حقوق الآدمي حقٌّ لله تعالى، وحقُّ الله تعالى أوجب أن يُقضى، فلا تمهل بأولى ما ذكرناه، فإنْ فعل في غيرك من خير أو شر هو فعلك في نفسك فزد في ذلك أو انقص.

ولقد كتبت إلى أحد الأصحاب، وقلت في ذلك: أيُّها الأخُ الموجود في المثل كالمرآة، والناظر فيه يرى صورة نفسه بحسب حسنها وقبحها، فإن كان جاهلاً خاطب غيرَه بصفةِ نفسه، والعارف مَن عرَّفها، ونعوذُ بالله من قولٍ بلا عملٍ، ومن علمٍ بلا عملٍ، ومن عملٍ بلا نيةٍ، ومن نيةٍ بلا إخلاصٍ، ومن إخلاصٍ بلا قصدٍ، ومن قصدٍ قُصِدَ به غيرَ الله تعالى، والسلام.

يا نوق ما بَعد الغُوير مَعْرَسُ ... جِدِّي فصبحُك قَد بَدا يتنفسُ
واستَصْبِحِي غرمًا يبلغُك المنى ... ليظَلَّ يغبطُك الجوارِ الكنَّسُ
سِيرِي على ثقةٍ بنَيلِ المرْتَجَى ... مِن عزّةٍ وسعادةٍ لا تُحْبَسُ
لا تَسْأَمِي طولَ الْمَسِيرِ إليهُم ... فَلِمِثْلِ عزَّهم تُذَلُّ الأَنْفُسُ
ولَقَدْ أقُولُ لحاسدٍ أَكْمَدْتُه ... فإذا خَطَرت ببالِه يتنفسُ
بُشرَى إلى عَقَاربِ مَرْسِيَّةٍ ... فأَرُدُّها وأديمُ عَرَضِي أَمْلَسُ
يا مُبْغِضِي ومُؤَدِّبِي يصغُوا له ... فإلامُ قلبِك بالرَّدى مُتَدَنِسُ
أنا أنت فالعَيْبُ الذي تَرْمِي به ... عَرْضِي مَتَى تُفَكِره يَعْكِسُ
مرآةُ قلبِك كيف تقبلُ صورَتِي ... والنَفْسُ فيها دائمًا يتنفسُ
لَو كُنْتَ تُدْمِنُ بالعُلومِ صقالَهَا ... لَتَنَورَتْ والعلمُ نِعْمَ المدرسُ

وهذه القصيدة طويلة، وإنما عرضنا منها ما نحن بسبيله؛ إذ الناظر في المرآة إنَّما يرى صورة نفسه، فلو جعل إصبعه في عين الصورة المرئية في المرآة فما ترى ذلك إلا وضعه في عين نفسه، وكذلك كل فعل يفعل بها، وهي له ضرب مثالٍ؛ فإذا كان في الآخرة صار ذلك حسًّا.

وقولنا في الآخرة لعموم الجزاء، والجزاء في هذه الدار يقع كثيرًا، وإذا وقع القصاص بالرضا مع التوبة ارتفع حكمه، وكذلك إذا أخذه متولّي ذلك وتاب المقتصّ منه؛ فإن الله تعالى أعدل من أن يقتصّ مرتين أو يبدل الحكم، وإن لله تعالى فعل ما يشاء كما يشاء؛ فإنّ الحكم لا يحكم على حاكمه، والعلم لا يحكم على عالمه، والمخلوق لا يحكم على خالقه، ولا حَجر على مشيئة الله تعالى وقدرته، فيلزم العبد الأدب مع الله تعالى، ويقف عندما أمره به ونهاه عنه، ولا يعترض على خالقه فيما له فعله.

العبودية من أوصاف الكمال

كما قال القرشي ﷺ: الزم الأدب وَحِدَّك من العبودية، ولا تتعرض لشيء؛ فإنْ أرادك له أوصلك.

وهذا الكلام مليح جليل؛ لأنّ العبودية من أوصاف الكمال- أعني: عبودية الإخلاص- وتخليص القلب بكليته من الميل إلى ما سوى الله تعالى، وتحرّزه من غير الله تعالى؛ لأنّ ميله إلى غير ربِّه تعالى والتفاته إليه عبودية لمن التفتَ إليه، ومَن لم يكن حرًّا مِمَّا سوى الله تعالى لا يطلق عليه حقيقةُ العبودية لله تعالى؛ لأنّ المكاتب مَن ما بقي عليه درهم، ولذلك قال الجنيد -رحمه الله تعالى-:

أَتَمَنَّى على الزَّمانِ مُحالا ... أَنْ تَرَى مُقْلَتِي طَلْعَةَ حُرٍ

فإنْ وقفتَ مع عبوديةِ العموم، وعبيدِ العدد لقوله تعالى: ﴿**إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَداًّ**﴾ [مريم:٩٣، ٩٤].

فهذه عبودية المِلك؛ إذ كلُّ مخلوق مِلكٌ لله تعالى، ويدخل في ذلك الجماد والنبات والحيوان والإنسان والحشرات والكلاب والخنازير وطوائف الكفار والمبتدعين، إذ الكل عبيد الله تعالى ومِلكٌ له، وإنَّما غرضنا عبيد التخصيص، فقد أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بذكرهم؛ فقال تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ عِبَادَنَا**﴾[ص: ٤٥].

وأضافهم إلى نفسه إضافة تخصيصٍ وتكريمٍ، وقوله تعالى عن أيوب عليه السلام: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ [ص: ٤٤].

وقوله تعالى عن نبينا ﷺ: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ [الإسراء: ١].

وأضافه إلى نفسه سبحانه إضافةَ التكريم والتخصيص وأفرده بذلك، وقول النبي ﷺ: «**نعم العبد صهيب**»، وبيَّن الوصف، وقال: «**لو لم يخف الله لم يعصه**»[١].

فانظر يا أخي -رحمك الله تعالى- أين التخصيص لهؤلاء العبيد الذين ذكرهم ووصفهم وأثنى عليهم؟ وإلى غيرهم مِمَّن قال في حقهم أنَّهم عبيد الشيطان في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ**﴾ [يس: ٦٠]، وإن لم تكن عبودية سجود ولا تألُّه، وقوله - عليه الصلاة والسلام-: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة**»[٢].

وإن لم يكن أحد يعبد الدينار والدرهم عبادةَ تألُّهٍ ولا سجد له، وأنه لما كان القلب ليس له إلا وجهة واحدة إذا توجّه إليها حجب عن غيرها، ولا يصحّ أن نُوجّهه لغير خالقه ومُوجده في عبادته وسجوده وركوعه وصلاته وصيامه وصدقته وحاجاته ومقاصده، فإذا مال بقلبه، والتفت إلى ما يزيّنه الشيطان ويلقيه إليه من مخالفة ربّه تعالى في شهواته ومقاصده، وأعرض عمَّا أمر الله تعالى به، واتّبع خطوات الشيطان، فقد أَنْزل الشيطان منزلة الإله المعبود، وكذلك في هواه لقوله تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾ [الفرقان: ٤٣].

وقوله ﷻ: ﴿**لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ**﴾ [الإسراء: ٢٢].

وكذلك الميل بالقلب إلى الدنيا والدرهم والخميصة، فحين ميلك إلى غير الله تعالى حين إعراضك عن الله تعالى؛ فقد أنزلتَ الدّنيا منزلةَ الإلهِ المعبودِ من نفسك، وإن لم تكن عبادة سجود ولا ركوع.

وكذلك في صلواتك وتوجّهك إلى ربّك إذا كنت في الصلاة، فالتفتَّ بقلبك إلى اشتغالِك وأحوالِك ومقاصدِك فقد أعرضتَ عن الله تعالى، وأعرض الله تعالى عنك، ولا سيّما الصَّلاة؛ لأنّك أنزلت ما اشتغلت به في صلاتك منزلةَ الإله الْمُتوجَّه إليه، والله

---

(١) كشف الخفاء (٢/٤٢٤).

(٢) رواه البخاري (٣/١٠٥٧).

تعالى يتوجّه إلى عبده بحيث توجَّه عبده إليه بالوجه الأكمل، ولذلك ورد: **«ما تقرّب إليّ شبرًا إلاّ تقربتُ له ذراعًا، ولا تقرّب إليّ ذراعًا إلا تقربتُ له باعًا، وما أتاني يمشي إلا أتيتُه هرولة[1]».** بطريق ضرب الأمثال.

فضل صلاة الجماعة

ولذلك كانت صلاة الجماعة تفضل على صلاةِ الفذِّ بخمسٍ وعشرين درجة، والدّرجات لا يَتناهى ثوابُها، وفي كونها خمسٌ وعشرون بحصر العدد لا للتحديد، فإنَّ الفضل لا يتناهى، وإنَّما لَمَّا كانت الصلاة خماسيةٌ، والخمس في الخمس خمسٌ وعشرون، والحق تعالى يعطي كل متوجِّهٍ إليه بحسب ما يعطي الجميع في الفضل، فإن الكرم الإلهيّ له التعظيم، وصلاة الفذِّ ليست كذلك؛ لأن صلاته ترتبط بغيره، وقد يكون يدخله الوسواس، وكل هؤلاء لا بد فيهم من صلّى حقيقة، فإذا أعرض العبد عن الله تعالى في توجّهه في صلاته أو جميع مقاصده إلى غيره أعرض الله تعالى عنه بالوجه الأنقص، ونسبه لعبوديةٍ ما توجَّه إليها، ولذلك ورد أنه لا يكتب له من صلاته إلا ربعها أو خمسها، وذلك بحسب ما يحضره بقلبه؛ فإن صلاة الغفلة غير محسوبة له، ولذلك قال السيد قضيب البان للإمام الذي صلى به: سوّدتَ الصلاة؛ لأنّه تفكّر في الصلاة في حِمل فحم واستعمل الفكرة في ذلك، فاشتغل قلبه من الصلاة بحملِ الفحم.

وأنا أعرف فقيرًا قام يصلي صلاةً وحده بالفاتحة، لا يقدر أن يزيد على ذلك، خشيةً أن يلتفتَ القلب عن الله تعالى في الصلاة، ولأن جمعية القلب على الله تعالى في الصلاة وغيرها حالة عزيزة، فلا تطول له المدة المستطيلة في قراءة الإمام وغيره فقصد ذلك لأجل جمعية توجه القلب على الله تعالى.

كما قيل:

مَـــا لِي إلى غـــيرِك التفـــاتٌ ... إذا تَرامَـــــت بِي الجِهـــــاتُ

وأينَمَـــا كنْـــتَ يـــا حَبيـــبي ... فلِـــي إلى وجهِـــك التفـــاتٌ

(١) رواه البخاري (٦/٢٦٩٤)، ومسلم (٤/٢٠٦١).

العبودية للّه.. حرِّية ممّا سواه

والعبودية لله تعالى من أخصِّ المراتب، ذكرها الله تعالى في أخصِّ العبيد في كتابه العزيز حيث ذكر السيد أيوب والسيد داود وغيرهما -عليهم السلام- وأمر النبي بذكر عباده، وذكر نبينا محمد ﷺ بعبوديته، وأضافه إلى نفسه سبحانه وتعالى، فإذًا لا تصحُّ العبودية لله تعالى من حيث العبد في هذا الموطن إلاّ بالحرية مِمَّا سوى الله تعالى، فإذا تحرّر العبد مِمَّا سوى الله تعالى أطلق عليه عبد الله، وإلاّ فلا وكان من جملة الْمِلك، لا من جملة عبيد التخصيص.

والعبودية والحرية متلازمان، والحر لا سبيل للشيطان عليه؛ لأنّه عبد الله تعالى وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾ [الإسراء: ٦٥].

وقال تعالى مخبرًا عن إبليس: ﴿**إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ [ص: ٨٣].

ولذلك قال النبي ﷺ للسيد عمر رضي الله عنه: **«ما سلكت فجًّا إلا سلك الشيطان فجًّا غيره»**(١) وكما أنّ الإنسان إذا قرُب من النار تحرقه؛ فكذلك الشيطان إذا قرب من الحُر يحرق به، وقد قيل شعر:

لا تَـدْعُني إلاّ بِيَـا عَبْـدَها ... فإنَّـه أَشْـرَفُ أَسْمَـاي

إذَا دَعَـانِي يَـا عَبْـدَ الْهَـوى ... لَبَّيْتُـه بـأَلْفِ مَـولاي

وحُكي أن رجلاً صالحًا وجد إبليس واقفًا على زاوية، فقال له: ما يوقفك هاهنا؟ فقال: هنا رجل عابد حسن العبادة، فأردت أن أفسد عليه عبادته، فمنعني رجل نائم بجانبه، كلّما تنفّس أحرقني نَفَسُه.

أو كما قال: فتسوّرت المكان، ووجدت رجلاً حسن العبادة واقفًا ورجلاً نائمًا، فملّستُ على النائم، فقال لي: ما تريد؟ فقلت له: أشتهي أن تخبرني بما عبدتَ الله تعالى به فقال: عبدته بما افترضه عليّ، ثم تركني ونام، ولم يحصل لي المقصود، فملَّستُ عليه حتى استيقظ؛ فقال لي: ما بالُك؟ فقلت: يا سيدي، رأيت الشيطان لا يدخل هذا المكان لأجلك فقال: أو ما علمت السبب؟ قلت: لا، قال: تركت الدنيا لأهلها.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/٣٥٦).

ثم إنّه رُؤِيَ إبليسُ وهو يحيد عن القرافة، فقيل له: ما بالك؟ فقال: الفخر الفارسي في القرافة.

ولا يصحُّ أن يكون حرًّا حتى لا يميل بقلبه إلى شيء في الدنيا والآخرة، ولا يملكه شيء بالميل إليه دنيا ولا آخرة غير الله تعالى.

أمّا في الدنيا: فلا يميل إلى مالٍ ولا جاهٍ ولا بقاءٍ ساعةٍ ولا لحظةٍ ولا زمنٍ فردٍ، وهذا هو المطلوبُ.

وأمّا الآخرة: فلا يميل إلى رتبة ولا محل ولا جنة ولا منزلة غير الله تعالى فقط؛ لأنّ المكاتب هو من بقي عليه درهم، ومن وصل إلى مقام العبودية فقد كمُلت طريقته، وساد على الناس بعبوديته لربه ﷻ، بل مَن نشق نسيمَ النّسبة إلى الله تعالى تاه.

النسبة إلى الله

وحُكي عن عتبة الغلام أنه نظر إلى الحجاج بن يوسف والجلاوزة[1] مطرقون بين يديه، فقال عتبة لخادمه: أطرق بين يديّ، وجعل يهمس في مشيته، فلمّا وصل قيل له: يا أستاذ، ما هذا؟ فقال: يا ولدي، لَمّا رأيت الحجاجَ على هذه الصورة وهو منسوب إلى الدنيا، ونظرت إلى نِسبي إلى الله تعالى ففعلت ذلك.

وقد قلت شعرًا:

مُـذْ صـحَّ عنـدي أنَّـني عَبـدٌ لَكُـم ... صـغرَ الوجـودُ بأَسْـرِهِ فِي هِمّـتي

ونَعَـمْ أَتِيـهُ عَلـى الوجُـودِ تَعَـزّزًا ... لِمَّا نُسِبتُ لَكم وصحّت نِسْب

ومِمَّن رأيته وحدثني، الشيخ محمد العجمي، قال: صحبت الشيخ كمال الدين الشيرازي، وكان قد أسنّ وبلغ مائةً وستين سنة، قال: وكنا في صحبته أربعمائةَ فقير قال: قال لي الشيخ كمال الدين: صحبت زين الهندي أو قال: رأيت خواجا زين الهندي، وقال لي: أنه حضر حفر الخندق مع النبي ﷺ، وأنّ الشيخ كمال الدين فتح بلادًا كثيرةً في الهند، ورجعوا إلى الإسلام، وقال: جئنا مرّة نزلنا ظاهر مدينة، فخرج الوزير إلينا، وقال: إن هذا الملك كافر، وهو يريد أن يمتحنكم قال: فجلسنا دائرة

(١) لفظ أعجمي يعني به رجاله أو أفراد حاشيته، والله أعلم.

واحدة، وأخذ السلطان الفِيَلة، فسقاهم الخمور وأطلقهم علينا -وكانوا أربعمائة فيل- فوقف كل فيل على رأس فقير وأرخى زلومته على رأسه، ونحن سكوت لا نتكلم من بكرةٍ إلى العصر، والشيخ كمال الدين صاح، وذكر الله تعالى وذكر رسوله ﷺ فولّت الفيلة هاربة، وربّما قال: وأسلم الملك.

وأخبر أن فقيرًا انقطع عن الشيخ في بلد من بلاد الهند ثم لَحِقنا على الطريق بعد أيام؛ فقال له الشيخ: ما الذي أبطأ بك؟ فأخرج قطبانًا من ذهبٍ، ورمى بها بين يدي الشيخ، وكان قد صنعها فأخذ الشيخ رحمه الله تعالى، قليلَ ترابٍ جعلَه في يدِه، وبصق عليه، ولتّه وعجنه وفتله- كالنّدف[1] أو أكبر أو كما قال- وأعطاها لي وقال لي: أطبق يدك عليها ورُح إلى فلان الجوهري، وقل له: كم قيمة هذه؟ فأخذتها ورحتُ إلى ذلك الرجل قُرب المغرب، فأدخلني بيته، فقلت له: سيدي يقول: كم قيمة هذه؟ وفتحت يدي فأضاء البيت منها، وإذا هي جوهرة؛ فقال لي: سلّم على الشيخ، وقل له: إن كان يقترض عليها مالاً -وقال شيئًا كثيرًا- فأنا أدفعه، وأما قيمتها فما أعرف أقوّمها، فأخذتُها ورجعت إلى الشيخ وحكيت له ما قاله الجوهري، قال: فأخذها الشيخ وفركها فصارت ترابًا ونفخها في الهواء -رحمه الله تعالى.

ولعلّه إنّما أراد بذلك تحقير الدنيا وتحقير ما فعله ذلك الفقير الذي اعتقد أنّ ما أقعده إلا ذلك الذي أظهره وأنه شيء عظيم.

وحكى لي الشيخ العالم عماد الدين بن السّكري المدرس بالمدرسة بمنازل العز والخطيب بالقاهرة المحروسة في الرابع من جماد الأول :سنة ثمانٍ وسبعمائة عن الشيخ إسماعيل الفارقي، أنه حدثه عن خواجا زين الدين الهندي عن النبي ﷺ أنَّه قال: **«خذ من القوت ما كفى، ومن العيش ما صفى، ومن الإخوان ما وفى، واترك الغدر والجفاء، فالناقد بصير».**

وبإشارة عنه أيضًا عن النبي ﷺ أنّه قال: **«قُسّمت الأقاليم فجُعلت لي الغرب ولسليمان فارس ولصهيب الروم ولبلال الحبشة ولك يا زين الهند»** وقد أجازوا

---

(١) الندف، قطعة من القطن أو الصوف.. والله أعلم.

برواية ذلك مع ما له من غيره.

وذكر عن إسماعيل الفارقي المذكور عن خواجا زين الدين أنه أسلم على يد رسول الله ﷺ، وذكر عن إسماعيل الذي روى عنه أيضًا أنه مقيم بوريز، وأنه حضر إلى توريز بمالٍ أنفقه على فكاكِ الأسرى، وبنى مسجدًا تحته عين ماء مُسْبِلة(١)، والمسجد على يمين الداخل من باب القلعة وله بيت مقابله يأوي إليه، وذكر أن له خمسين سنة مقيم بتوريز، ولم يدخل بيت أحد من أهلها، ولا دخل القلعة وهو على بابها، وحضر رجلان عنده وعرضا عليه مالاً جزيلاً فأبى قَبولَه، وقال: إنِّي رحت إلى بلاد الهند مرّةً ثانية فوجدت الشيخ قد مات- رحمه الله تعالى- وبني عليه مشهد، وهو يُزار.

وعماد الدين هذا الراوي، جَدُّه قاضي القضاة، وهو عماد الدين بن السكري من أصحاب الشيخ القرشي، كان كبير الشأن وله حكايات جليلة وكان السيد الخضر عليه السلام يجتمع به مع كونه قاضيًا.

وحكى الشيخ عبد العزيز رضي الله عنه أنّ قاضي القضاة عمادالدين بن السّكري كان جالسًا عند الشيخ القرشي رضي الله عنه، وقد جاءوا إلى الشيخ بقصبٍ، والقصبُ في قشره وعراجينه، على عادته حين يحضرونه، فقال الشيخ لعماد الدين: خذ من هذا لأهلك واحمل من هذا- أو كما قال- قال:

فلمّا قام عماد الدين وخرج، حمل على كتفه من ذلك القصب وركب على بغلته والشهود أمامه، فقالوا له في أن يحملوا عنه فقال:أخالف لفظ القرشيّ؟ وكان للشيخ القرشيّ أصحابٌ ملاحٌ أكابرٌ أصلاً، يُحكى عنهم الغرائب والعجائب.

وحكى لي الشيخ عبد العزيز رحمه الله تعالى أنّ أصحاب القرشيّ رضي الله تعالى عنهم قالوا مرّة: يا سيدي، لم لا تحدّثنا بشيء من الحقائق؟ فقال لهم: كم أنتم أو كم أصحابي؟ فقالوا: ستمائة فقال: أخلصوا منهم، ثم قال: استخلصوا منهم عشرين، ثم قال: استخلصوا منهم أربعة، ثم قال: من الأربعة ابن القسطلاني -ولعله قال :أبو

---

(١) مسبلة أي: مرسلة.

الطاهر وعماد الدين بن السكري، وأظنه قال: ابن الصابوني، وترددتُ في اسم الرابع، ولعله القرطبي أبو عبد الله-فقال الشيخ:

لو تكلمت بكلمةٍ مِن الحقيقة أو بشيء من الحقيقة؛ أوّل من كان يفتي بقتلي هؤلاء الأربعة.

فانظر يا أخي- رحمك الله تعالى- إلى هذه العلوم الغامضة عن العقول، المودعة في السرائر والقلوب، المصونة في خزائن قلوب الأولياء، المصون لهم عن أكابر العلماء، مثل هؤلاء السادة مع ولايتهم وكشوفهم ومشاهداتهم وكراماتهم وما حُكي عنهم مِمَّا يطول ذكره كأبي الطاهر كان كبير القدر.

ومنهم الخطيب جمال الدين بن القسّطلاّنيّ خطيب مصر، عن والده أنَّه حكى له أنّ الفقيه أبا الطاهر كان يلقي الدرس، وشخص من الطلبة قد رأى في منامه كأنه مع زوجته يجامعها وكاد أن يُنْزِلَ، فضرب الفقيه أبو الطاهر الأرض بالمروحة، فأيقظه وقال له: سالم؟ فقال: سالم.

ولكل واحدٍ من هؤلاء خوارق وكرامات، وقول الشيخ: «أوّل مَن كان يُفتي بقتلي هؤلاء الأربعة» يحتمل معان:

منها أن يكون قد أطلعه الله تعالى على حقيقة علم الجبروت، وسر القدر الذي لا يجوز إظهارُه، وإفشاؤُه كفر، فيفتون بما يعلمون مِمّا تعبّدوا به ظاهرًا، ويجب عليهم ذلك، ولا يقفون على ما طولع به من ذلك العلم، ولذلك قال: يفتوا بقتلي، ولم يقل يقتلون.

الوجه الآخر أنّ الأسرار الإلهية المودعة في قلوب العارفين بالله تعالى هي أمانة الله تعالى عندهم، وهي العقد والعهد، وهم مطالبون بالوفاء بالعهود والعقود وأداء الأمانة إلى أهلها، وحضّ على ذلك القرآن العظيم مع علمه ﷻ أنَّهم لها حافظون؛ لأنّ الله تعالى أعلم حيث يضع سرَّه كما قال الله تعالى: ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فلو قُطّعوا إربًا إربًا لَمَا أظهروا سرَّه ولا خانوا عهدَه.

وعنه إلى قصة السيد إبراهيم عليه السلام حين ألقاه المنجنيق في نار النمرود، واعترضه

السيد جبريل ﷺ وقال له: ألك حاجة؟ قال: أمّا إليك فل.ا

قال: فاسأل ربَّك. قال: هو أعلم بي.

فانظر إلى صيانة سرِّه عن السيد جبريل ﷺ مع كونه أمين الله تعالى على الشرائع، والواسطة بينه وبين الرّسل. وكيف صان السرَّ عن سؤاله، وردَّ علم ذلك إلى الله تعالى في مثل هذه الواقعة وهو هابطٌ إلى النّار.

لا جرم قال الله تعالى: ﴿**وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى**﴾ [النجم:٣٧].

ومدحه بهذه الْمُدحة العظيمة مع علمه به ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ [الأنعام:١٢٤].

فلو قدر أن يفشي شيئًا من تلك الأسرار التي أودعها الله تعالى قلوب أوليائه لوقع القتل؛ للغيرة على الأسرار، وإباحة الكتمان، ويكون ذلك في قدر الله تعالى ملازمًا لذلك في قدر الله تعالى لِمَا تحت ذلك من الأسرار، ولِمَا لله تعالى فيه من الحكمة التي هي من وراء سائر العقول.

قتلى الحقيقة

وقد قتل جماعةٌ من الأكابر بما تكلموا به وعجز الناس عن فهمه فكفّروهم وقتلوهم، ومنهم مَن لم يُقتل؛ لأنّ كلامه ما اقتضى إفشاء سرَّ الله تعالى فحُبس وأطلق، ولا أكاد أحصيهم.

فمَن قُتل بغير قاتلٍ معلومٍ ولا شهودٍ، حَكى لي الشريف الكلثمي أنّه كان هو وفقيران قد أخذوا العمرة وراجعين إلى مكة، شرّفها الله تعالى، وأحد الفقراء بينهما - وربما قال: كان أعجميًّا- فتكلّم بكلامٍ فقُلعت رأسُه من بين كتفيه وبقي جثةً بلا رأس، قال: فتركناه وأسرعنا خشيةً أن يُنسب إلينا أمرُه.

فانظر رحمك الله تعالى إلى هذه الحكاية الغريبة، والشريف الكلثمي موثوقٌ به، وهو موجود، وهو من الأخيار الفقراء، نفع الله تعالى به.

وللشيخ عبد العزيز بن عبد الغني الشريف أبيات من قصيدة له في هذا المعنى منها قوله:

وإنَّ نَفْحَتَــــه نَفْحَــــةٌ أَحَديــــةٌ   فمَــا أَرْوَحَ الأَسْــرار فِيهــا ومَــا أَهْنَــا

هُنَـاك تَحُـطُّ الْعِيسُ عَنْهـا رِحَالَهَـا وَيُلْقِى عَصَاه راشدًا إذْ وَصَل الْمَعْنا
وَتَطْلُعُ شمسُ العِزِّ مِنْ مَشْرِقِ الوَفَا يُبَشّـرُنا أَنَّـا غَـدونَا وَمَـا رُحْنَـا
غَـدَونا بِمَعْنَي السرِّ فلمَّا كَسَتْ سـرائرَنا مَـا لا يُسَـمَّى ولا كنَّـا
كَتَمْنَـا ولَـو بُحْنَـا أُبِيحَـتْ دماؤُنـا وسَـالَتْ عَلى حـدِّ الصَّـوارِمِ لَـو بُحْنَـا
ولَكِـنَّ أَلْطَـافَ الإلـهِ خَفيـةٌ تَـدُلُّ بِنَـا سُـبُلُ الْهَـوى حَيثمَـا كُنَّـا
عَلَى أنَّ أَحْكَـامَ الشَّـريعةِ أَسْكَتَتْ لَنـا أَلْسُـنًا يَبْـدوا الجِـدَادُ إذا فَهِمْنَـا

القتيل الأول: ابن برجان(١)

... وإنْ كان لم يثبت عليه ما يوجب القتل في الحكم الظاهر، فقد رأيتُ تواريخَ مقتلِه في غير ما موضعٍ، وفي تاريخ ابن خلكان كان، ولم يثبت شيء مما يوجب قتله، وقتل ابن برجان بالمغرب.

القتيل الثاني: ابن قسي(٢)

---

(١) هو سيدي عبد السلام بن عبد الرحمن اللخمي الإفريقي (ابن برجان) ثم الإشبيلي الصوفي المشهور بين الأعيان بابن برجان، تورّع وتزهّد وتنسّك وتعبّد وتقمّص بالصوف، وترك لبس الشفوف، وسلك طريق النجاة، وقص جناح ذوي الجناح.

قال ابن الأبار: كان عارفًا بالقرآن والحديث والكلام والتحقيق والتصوف، وبه اشتهر مع الزهد والورع والاجتهاد في العبادة.

قلت: و شرح الأسماء، والتفسير (أتم الله لنا تحقيقهما).

انظر: وفيات الأعيان (٢٣٦/٤)، الشذرات (١١٣/٤)، الكواكب (٤٢٥).

(٢) بفتح القاف وخفة السين المغربي، صاحب «خلع النعلين»، عارف أشرق نور كماله، وأرق غصن جماله، كان مقيمًا بألمرية ثم ارتحل إلى شلب فقطنها وابتني بإحدى قراها مسجدًا، وانتشر صيته وكثر أتباعه وحاسدوه وقالوا: هو فلسفي التصوف، وأراد الثورة على ملك المغرب عبد المؤمن فظفر به وسجنه ثم أطلقه، وقد تفرقت الناس في شأنه شيعًا -كما وقع للعارف ابن عربي رضي الله عنه ونحوه- والمذهب واحد والطريقة واحدة. ومن مشاهير كتبه كتاب «خلع النعلين» شرحه العارف ابن عربي رضي الله عنه فأتى بالعجائب بين أسرار الكتاب ما لم يكن للناظرين فيه حساب. وانظر: الكواكب (٤٠٨).

وابن قُسيّ، وإن كان لم يثبُت مَا يُوجِب القتل في الحكم الظاهر.
وقد وقُتل غيرهم.

الأسرار الإلهيـة

والأسرارُ الإلهيةُ، وسرُّ القَدر لا استطاعة لقلوب المحققين بإفشائها، فإن وقع ذلك عن حضورٍ أو غيبةٍ أو حالٍ حصل القتل؛ لأن الغيرة تقتضي ذلك، وسأضرب لك مثلاً:

وهو أنَّه إذا ركب السلطان في الموكب وحوله العساكر والجيوش وهو ظاهر للناس، فلو قلت: هذا السلطان، هل كان عليك في هذا القول شيء؟ فهذا لا يؤاخذك أحد به، فلو رَكِب خفيةً وظهر بصورةٍ لا يعتادها الملوك، ومشى في الأسواق، وظهر في صورة تاجرٍ وقلت أنت: هذا السلطان. فهل كان السلطان يتركك؟ وربّما قتلك؛ فإن الملوك في الدنيا عادتهم يقتلون على مثل ذلك.

فإذا كان هذا إفشاءُ سرٍّ ملوك الدنيا، فكيف بإفشاء أسرار الإلهية؟ والحِكَم الربّانية والمملكة المالكية الخالقية القادرية وملك الملوك ورب الأرباب رب العالمين ومالك يوم الدين ومهلك الأولين والآخرين.

وقد ورد عن الإمام السيد على -كرم الله تعالى وجهه ورضي عنه- أنّه قال: إنّ بين جنبيّ علمٌ لا أحدَ له حملُه، وعنه أيضًا أنَّه قال: علّمَنِي رسولُ الله ﷺ علمًا لو أفشيتُه لَخُضِّبَتْ هذه من هذه. وأشار إلى لحيته وعنقه.

ورُوي عن السيد علي رضي الله عنه أنه قال:

يـا رُبَّ جَـوهَر علـمٍ لَـو أبُـوحُ بِـه ... لَقِيـلَ لي أَنـت مِمَّـن يعبـدُ الوَثنـا
ولاسْـتَحَلَّ رجـالٌ مُسْـلِمُون دَمِـي ... يَـرَونَ أَقْـبَحَ مَـا يَأْتُونَـه حَسَـنا[1]

وحديث السيد أبي هريرة رضي الله عنه ومعنى الحديث -أخذتُ عن رسول الله ﷺ جرابين من علمٍ قال: أحدهما أَثْبَتُهُ فيكم والآخر لو ثَبَّتُهُ لقُطِعَ مِنِّي هذا البُلعُوم والآخر به العلم، وقوله لو ثبته فيكم لقطع مني هذا البلعوم، كما أن خرق العادة ينكرها مَن لا

---

(١) البيتان من البسيط، وهما ينسبان للحلاج في ديوانه من قصيدة مطلعها:
إِنّي لأَكتُم مِن عِلمي جَواهِرَهُ ... كي لا يَرى العِلمُ ذي جَهلٍ فَيَفتَتِنا

رآها ولو سَمِع بها ولا له إيمانً قوي ولا تصديق لِمَن أتى بها، كما فعل الكفار حين أتاهم الأنبياء، وكونهم خمدوا على عاداتهم من عبادة الأوثان، فكذلك إذا ظهر ما لا يدركه العقل، ولا تصل إليه الفهوم والعلوم، ولا يقابل بقياس ولا يدخل في عوائد الناس، يُنكِرونه ويكفروا به ويُكَفِّرون قائلَه وهم بتكفيره يكفرون فيما يتعلق بالخلق ولا يجوز إفشاؤه ألا ترى إلى قوله ﷺ: «**بعثت لأخاطب الناس على قدر عقولهم**[١]».

وأما ما يتعلق بالأدب مع الخالق ﷻ فحيث كان المطلوب الظهور لظهر، وحيث كان المطلوب الستر أخف، وحيث وقعت المخالفة وسوء الأدب كان السيفُ:

مَنْ بَاحَ بالسرِّ كانَ القتلُ سِيمَتُه   بين الرّجالِ ولا يُؤخَذُ لَه ثَأرا

وأَخبر أصحاب الشيخ القرشي عن أبي عبد الله القرطبي، كذلك حكى القاضي كمال الدين عن الشيخ ضياء الدين- والده- عن والده الشيخ أبي عبد الله القرطبي رضي الله عنه أنّه كان معه بمدينة النبي ﷺ سبعون فقيرًا، فحصل لهم فاقة، فقال الشيخ: أَروح أزور بكم النبي ﷺ، فدخل الضريح الشريف على تلك الحال، فحصلت له سِنَةٌ مِن النّوم، فرأى رسول الله ﷺ، فدفع له دينارين، فَفَتح عينيه فوجدهما في كفِّه، فأخذهما وقام وجاء إلى بيته، فوجد الدقيق والعسل والسمن ولم يعلم مِن أين هو؟

قال لي كمال الدين: كان الديناران مع والدي عند وفاتِه فأعطاهما لي وقال: يا ولدي هذان الديناران اللذان أعطاهما النبي ﷺ لجدك، ولم يأخذ أحد منهما شيئًا إلا العامري، أخذ مني وزن خَرُّوبة وجعلها في فص خاتمه، فلمَّا اجتاز الفارسي أقطاي في حرَّاقة والعامري في الخيام، فدخل الفارسي أقطاي البرَّ وجرَّد سيفه وجاء إلى العامري ليقتله، وقال له: يا كذا يا كذا، أنت تدفع المال للملك المعز ولا تعطيني؟ - وإنه كان على حاله- قال: فرفع العامري فص الخاتم في وجهه، فأرخى رأسه وغمد سيفه وراح.

قال القاضي كمال الدين: فأخذت الدينارين وهما في حِرز، وتركتهما في الصندوق.

وكان كلَّما وقعت لنا واقعة، أجعل ذلك الحِرز على ذراعي وأدخل إلى مدينة

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (١٥٥/٤)، والديلمي (٣٩٨/١).

قوص وأخرج طيبًا ولا يقع لنا تشويشٌ.

فلمّا كان ذات يوم، وأنا قرُبت فقط، فوجدت الكمال بن البرهان وشهاب الدين بن النجيب والتقي بن الأصفوني، فحلفوا على أن أبات معهم في فقط، فبتنا جميعا، وأصبحت فلم أجد الحِرز، فمِن ذلك اليوم حصل لنا التشويش والأكدار والضرر- أو كما قال.

فهذه الحكاية تدل على جلالة الشيخ وعظم شأنه، ووصلته برسول الله ﷺ وصحة ميراثه منه.

فالأنبياء -صلوات الله تعالى عليهم وسلامه- يستوي في حقهم اليقظة والمنام، ويوحى إليهم في منامهم، ويحكمون بالوحي في المنام كما يحكمون في اليقظة.

قال الخليل إبراهيم لولده عليهما السلام: ﴿**يَا بُنَي، إِنِّي أَرَى فِي المَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ**﴾ [الصافات:١٠٢].

فمنهم عليهم السلام، مَن كان يُوحى إليه في منامِه، وإذا انتفت الأغيار من باطن الفقير، وطهُرت نفسه وقلبه وسره وصار في محل الاستواء والاستقامة، كان الوجود في قَلبِه كرؤية الناظرِ للصورة في المرآة من غير زيادة ولا نقصان، ويستوي عند ذلك اليقظة والمنام، وذلك نصيبه من ميراث نبيه ﷺ.

عَصَيتُ هواي فِي زمانِ غَرَامِي   وقَيّدتُ نَفْسِي عَن طلاَّبِ مُرَامِي
فصارَ مَعِينِي فِي الحقِيقةِ شَاهِدِي   فَسيَّانَ عِنْدِي يَقَظَتِي ومَنَامِي

وللقرشيّ -رضي الله تعالى عنه وعنهم- كرامات كثيرة، اقتصرنا منها على حكايات يسيرة للتنبيه على محلِّهم وخشيةَ التطويلِ في الكتاب، ولقدكانوا فيما بينهم إخوانًا على الحقيقة.

ولقد حكي الخطيب جمال الدين بن القسطلاني خطيب مصر، عن والده أنَّ الشيخ مجد الدين الإخميمي، والفقيه عيسى القليوبي توجّها إلى قليوب، فسأل الفقيه عيسى القليوبي الشيخ مجد الدين: هل معك شيء أرسله إلى أولادي؟ قال: ما معي شيءٌ، فمدَّ الفقيه عيسى يده إلى العمامة التي على رأس الشيخ المجد - وكان يتعمم بفوطة على رأسه- فأخذها، وأمر مَن نادى عليها، وبِيعت، وأخذ ثمنها أرسله إلى

أولاده بمصر، ودخلا إلى قليوب هو والشيخ المجد وعلى رأس الشيخ المجد طاقية، وصعدا إلى سطح الجامع، وصلّيا المغرب وقعدا.

وإذا بشخص من القزّازين[١]، أتى الشيخ المجد بفوطتين، فقال: يا سيدي، هؤلاء كنت عملتهما لك، فاعتمَّ الشيخ المجد بالواحدة وجعل الأخرى تحت ركبتيه فقال له الفقيه عيسى: لو بعتُ عمامتي ما جاءني غيرُها، وأمَّا أنت، أخذت لك فوطة جاءك اثنان، لا رحم الله من يرحمك.

فانظر يا أخي رحمك الله تعالى إلى هذه الصحبة، ما ألَذَّها وأحسنَها، وانظر قوله: لا رحم الله من يرحمك، فقد يكون ذلك على طريق الدعاء له والتحابب والتهكم لتصغير المحبوب، كقولك لولدك: يا ولدي ويا حبيبي، ومن ذلك قول امريء القيس:

بذيالك الوادي أهيم ولم أقل ... بذيالك الوادي وذياك من زهد

ولكن إذا ما حب شيء تولعت ... به أحرف التصغير من شدة الوجد[٢]

وقوله: لا رحم الله من يرحمك، دعاءٌ له؛ إذ هو في الحقيقةِ رَحِمَ الله مَن يَرحمك وقد يكون نظر إلى الفاعل الأول، وإمداد العطاء من الله تعالى، فتستحيل الشفقة والرحمة على الله تعالى، بل هو الراحم للعباد، الذي لا يَمَلُّ العطاء ولا ينفد ما عنده، فمَن نظرَ هذا النظر وتحقق العطاء من المعطي، والرزقَ مِن الرازقِ، وغاب عن الوسائط في العطاء والرزق بقوة الحضور مع الله تعالى، فتكون الأيادي ظروفًا وخزائنًا لمجاري الأقدار عنده، إنْ رآها فلا يشفق ولا يرحم من يأخذ من الله تعالى على يده، لأنه ليس له في ذلك تعلُّقًا إلا جريان ذلك على يده، فتارَة يجريه الله تعالى على يده بالرِّضا، وتارَة يُجريه على يدِه بغيرِ رضا ولا اختيار، وليست هذه مِن المسائل التي يُكتَفى فيها بظاهر الحال؛ إذ هي من أحوال القلوبِ فإنَّ الحديثَ: «**لا يحل مال امريء مسلم إلا عن طيب نفس منه**[٣]» وطِيبُ النفس لا يُعلم، ويجوز إذا عُلِم مِن حال صاحبه أو صديقه

(١) اسم حرفة على الأرجح.
(٢) انظر: درة الغواص للحريري ص (١٢).
(٣) رواه أحمد في مسنده (٧٢/٥).

طِيبَ القلب بذلك، لقوله تعالى: ﴿**أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً**﴾ [النور: ٦١].

والآية الكريمة ظاهرها في الأكل خاصة، وقد يقاس به على غيره، وقد تُحقَّق طيبة قلبه بمقدمات جرت له في ذلك، وأحوال تقتضي ذلك، وهذا ما لم تكن الأخوّة المتحققة التي بين الطائفة الشريفة التي أشرنا إليها في هذا الكتاب آنفا.

فقد جرى لفَتْحِ الموصِلِيّ وغيرِهِ مِن الْمُتَقَدّمين مَا جَرى، وقد جرى لغير الفقراء من كرماءِ العرب ما جرى.

من كرماء العرب

١- مَن الأكرم؟

كما حُكي أنَّ ثلاثةً تكلَّموا في كرماءِ العرب فقال أحدهم: عُرابةٌ أكرمُ.

وقال الثاني: عبد الله بن جعفر الصادق.

وقال الأخير: قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري، فقال: أحدهم كلُّ واحدٍ يمضي إلى صاحبِه.

فأمَّا صاحبُ عبد الله بن جعفر فأتاه وهو يريد أن يضع رجلَه في الرِّكابِ، فسألَه أو قال: سائل مُنْقَطَعٌ به، فردَّ جعفرُ رجلَه عن الرِّكاب، وأعطاه الناقة وما عليها.

وأمَّا صاحبُ قيس فأتاه، فطرق الباب، فكلَّمتْهُ جاريتُه وقالت: ما تريد؟ قال: أريدُ سيدَك قالت: هو نائمٌ قال: نبِّهيه فقالت له: وما حاجتُك؟ قال: أريد منه ألفَ دينارٍ فقالت: حاجتُك أهونُ مِن أن أوقظَ سيدي، ودخلت فأعطته ألفَ دينارٍ، فلمَّا استيقظَ أعتقَ الجاريةَ وأعطاها ألفَ دينارٍ.

وأمَّا صاحبُ عُرابةَ فطلبَهُ، فوجده في السوقِ -وهو أعمى- متوكئًا على عبدين، فسأله فقال: خُذْ هذين العبدين فقال: ما كنتُ بالذي أقطعُ رِجْلَك فقال: إن أخذتهما وإلاّ فهما حُرّان، فواللهِ لا أَمْلِكُ غيرهما، فحكموا لعُرابةَ بالكرمِ لأنَّه تكرَّم بجميعِ ما يملكه.

هذه بعض أوصاف الطائفة الشريفة، فمِنَ الناس مَنْ يسره أن يأخذ صاحبُه مالَه ويتصرف فيه، فألذُّ ما أكله إخوانك، وأحسنُ لباسِك ما رأيته على أصحابك، وأبقى

مالُك ما أنفقته لله تعالى وفي سبيله وفي مصالح المؤمنين والمسلمين.

ذُكِرَ عَنِ السيد الإمام علي، كرّم الله تعالى وجهه، أنَّه قال: لقمةٌ تجتمع عليها يدُ الإخوان أحبُّ إليَّ من أن أنزلَ إلى سوقِكم فأعتقَ العبيدِ وأتصدقَ بالدنانير.

ومِنَ الناسِ مَن يعجبه العطاء والكرم، وأعرف فقيرًا يتلذذُّ بالعطاء أكثرَ مِن الأخذ، ولا يقدر أن يأكل مع الناس إلا لضرورة، وهذا طَرَفٌ مِن فقراء زمانِنا ومَن آثر على نفسِه في حالةِ العطش والموت وطباع العرب في المكارم مشهورة.

قال المتنبِّي(١):

وإِذَا سَكِرْتُ وَهَبْتُ ما مَلَكَتْ يَدي ... مِن غَيرِ إشفاقٍ ولا إملاقِ

وإِذَا صَحَوتُ وعَاوَدَتْنِي هِمَّتِي ... فَرَجِعْتُ نَدْمَانًا لِتَرْكِ الْبَاقِي

٢- أخت الكريم الطائي

وكانت أخت حاتم الطائي كريمة، ولا تُبقي شيئًا، فحجرَ عليها أهلُها حتى أضرَّ ذلك بِها، واعتقدوا أنَّ ذلك نافعًا لها، فلمَّا وصلت إلى ضرورة شاقة، سَيّروا لها صرمةً من الإبل، فدخلت عليها عجوز فشكتْ إليها حالَها فأعطتها صرمةَ الإبلِ، فلاموها على ذلك، فأنشدت شعرًا:

لَعَمْرِي لقَد وَعَظَنِي الدهرُ عِظةً ... فيَا ليَتَ ألاّ أَمْنَعَ الدهرَ جَائِعًا

فقُولُوا لِهَذا الأيّميّ اعتقْ ... وإنْ أنْتَ لم تستطعْ فعُضَّ الأصَابعَا

فهلْ مَا تَرَونَ اليومَ إلاّ طبيعَة ... وَكَيفَ بِتَرْكِي يا ابنَ أمَّ الطَّبَائعَا

٣- اللئيم والوزير الكريم

وحَكى لي والدي أو ابن اللمطي أو كلاهما- رحمهما الله تعالى- فيما حكياه عن إسحاق النديم قال: دخلت على الرشيد- أميرِ المؤمنين- فأعطاني شخصًا وقال لي: خذ من هذا ألف ألف درهمٍ إلى العصر أو إلى قبل العصر أو ائتني برأسه بلا

---

(١) غير موجود في ديوانه.

معاودة، قال: فعلمت أنَّه ما قصد إلا قتلَه؛ فإنّ الرجل ليس له شيء، فأخذته وجئت إلى بيته، وقلت: إيش تعمل؟ قال: دعني أدخل أودّع أهلي وآخذ كفني وأخرج قال: فدخل، فإذا بالبكاء والصراخ، فلحقتني شفقةٌ عليه، فخرج، فأخذته وأتيت عند الوزير يحيى بن خالد البرمكي، فدخلتُ على الوزير وقلت له: يا سيدي ألف ألف درهمٍ أو نفسٌ مؤمنٌة تقتل؟ قال: فأطرق ساعة ورفع رأسه وقال لخادمه: افتح هذا الصندوق وأَخرج ما فيه، فإذا فيه مائةُ ألف درهمٍ قال: ثم أطرق ساعة وقال له: رُحْ إلى جعفر وقل له: ضياعًا كنتَ قلتَ لي، اشتريتها لك- قال للصدقة أو قال غير ذلك- وقد حصَّلْتُ: احملْ المالَ قال: فراح وأتى بمائتي ألف درهمٍ فقال له: رُحْ إلى أبي الفضل وقل له: كنتَ قلتَ لِي اشترِ لي أوقافًا أو قلتَ أملاكًا وقد حصَّلْتُ: احملْ المالَ قال: فراح وأتى بمائتي ألف درهمٍ ثم أطرقَ ساعة، ورفع رأسه وقال لي: اطلع إلى ابنتي فاطمة وقل لَها: العِقد الذي وهبه لك أميرُ المؤمنين، أرسليه، فأتى بعِقِد كعظم الذراع فقال له: يا إسحاق، هذه خمسمائة ألفَ درهٍم، وهذا العِقدُ شراه عليَّ أميرُ المؤمنين بسبعمائة وخمسين ألفًا فهذه ألف ألف درهمٍ ومائتي وخمسين ألفًا، احمل المالَ وأطلِقَ الرجلَ.

قالَ فحملْتُ المالَ وخَرجتُ، فلمَّا وصلتُ عتبةَ الدَّارِ أو باب الدار أنشد الرجل:

فمَــا بَقِيتمــا عَلَــيَّ تَرَكْتُمَــانِي　　　وَلَكِــنْ خِفْتُمَــا صَــرْدَ النِّبــالِ

وقال: والله لا أعلم على الأرض -أو كما قال- أكرمَ مِمَّن خرجنا مِن عنده ولا أَلأمَ منك.

ثم دخلتُ على أميرِ المؤمنين بالمالِ فقال لي: يا إسحاق، مِن أين لك هذا؟ فقلتُ: مِن وزيرِك يا أمير المؤمنين فقال: صدقت، ليس لهذه الواقعة غيرُه.

ثم إني أردتُ أنْ أقول له عمَّا قاله الرجلُ فخشيت أن يقتله، ثم إن أمير المؤمنين قال: احمل المال إلى بيت المال، وأمَّا العِقد فردَّه إليه؛ فإنَّا كنَّا وهبناه لفاطمة. قال: فأخذتُ العِقد، ورجعتُ إلى الوزير فقلت: هذا العقد قدْ ردَّه أمير المؤمنين وعَرِفَه فقال: والله ما أردت هذا، فقلت له: أمير المؤمنين لا يُراجع، على أن الوزير غرسها في صِباخٍ لا يَنْبُت. فقال: ولِمِ ذلك؟ قلت له: إنَّ الرجل عندما أنشد:

فمَــا نقيــا علــيّ تركتمــاني　　　ولَكِــن خِفتُمَــا صَــرْدَ النِّبــالِ

فقال: الله الله هذا رجلٌ مَعتوه ، وأَعْرِفُ إيش قال. فلا تؤاخذْه، وجعل يَعْتَذِر

عنه.

ولو بسطنا القول في حكايات أرباب المكارم، ومكارمِ الأخلاقِ مِنَ المتقدمين والمتأخرين لطال الحال، وإنَّما قصدُنا أهل زماننا، ونستدلُّ بمَن تقدَّم على من تأخر، وقد ذكرنا نبذةً يسيرة.

رأيتُ من أصحاب الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه فقيرًا بمسجد السدرة بمدينة قوص، وكانت له صورة، وجئت إلى زيارته، ورأيته يدقُّ حوائجًا فإذا دقَّ الحويج يقطر من زنده ماءٌ فقلت له: يا سيدي ما هذا؟ فقال لي: كنت سائحًا في البرِّ فلَحِقَني الجوعُ فوقَ سبعةَ أيامٍ والعطشُ، فأقبلت على وادٍ فيه ماءٌ وخضرٌة فشربتُ وتوضّأتُ، وطلعت لأجد ثعبانًا -أو قال حية عظيمة- مطوَّقَة على نفسها فخطر لي أنّ الثعبان القريب من الماء ما فيه سمٌّ أو سمُّه قليل، وأنا جوعان، أو مضطر فجعلت دلقِي وكان مائةُ رطلٍ فرميته عليه وجلست فوقه فكان يحملني أنا والدلق إلى علوِّ القامةِ- أو كما قال- وأنا بيدي أحفظ جوانب الدلق خشيةَ أن يُخْرِجَ رأسَه فيمسكُ أيَّ مكانٍ يقطعُه- أو كما قال- فبينما أنا كذلك، وإذا برأسه قد خرجت فقبضت على رقبته بيديّ الإثنين وخنقتُه حتى دَلَعَ لسانُه وخرجت عيناه، فأخذتُ الموسَ بيدي الواحدةِ وذبحتُه ووثبتُ بعيدًا عنه، فبَقِيَ ساعة، وماتَ فجئتُ وجمعتُ حطبًا وأوقدتُ نارًا ورَميتُ عليه الحطبَ حتى إذا استوى جئتُ وأكلتُ منه حتى اكتفيت فهذا الماء الذي يقْطُرُ مِنْ يَدي مِن ذلك الوقتِ، وكان مغربيًا أمَّا أكلُه الثعبانَ عِندَ الضرورةِ فجائزٌ والقَدْرُ الذي يجوزُ مِن القَدرِ معلومٌ، وقَدْ تَكُون الزيادةُ عن القَدْرِ المعلومِ جائزٌ في مذهب الإمام مالك رضي الله عنه لكونه يأخذ بقوله تعالى: ﴿**قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ**﴾ [الأنعام:١٤٥].

ورأيتُ مِن أصحابِه جنديًّا وكان فقيرًا يعجبني، ولم أره في هذه الأيام، حكى لي الشيخ عبد العزيز، رحمه الله تعالى، أنَّ فقيرين دخلا على شيخ من المشايخ فلقَّم أحدَهما تسعَ لقمٍ حلاوَة، ولقَّم الآخرَ سبعةً، فقال الفقير: اكتفيتُ ولم يلتَقِم مثل صاحبه ثم خرجا من عند الشيخ وسافرا، فضلاّ الطريق فبقي الذي التقم السبعةَ لُقم سبعةَ أيامٍ ما عطش ولا جاع، فلمَّا فرغت السبعةُ أيامٍ تخلّل ولم أدر هل مات أم لا؟ وأمَّا الذي لقَّمه الشيخُ تسعةَ لقمٍ فبَقِيَ تسعةَ أيَّامٍ ما جاع ولا عَطِشَ حتى وَصَلَ إلى مقْصدِه.

* * *

نساء صالحات

ورأيت من النساء الصالحات بمدينة قوص الست سلاّمة وكانت تلبسُ الأزرقَ وتسأَلُ في العلوم وتشارك في ذلك، وكان لها اجتماعٌ بأكابرِ العلماء وكانت لها حالة جليلة، والمشهور عنها مواصلةُ الأربعين، وكذلك الفعَّالية، رحمهم الله تعالى.

وكذلك مَشْرَف الفقيرة.

وخديجة وفتّوحة، وكانتا بالأقصرين، وكان لخديجة أحوال جليلة، وكانت تخبرني بأمورٍ عظيمةٍ مِمَّا تطَّلِع عليه، من رؤيةٍ وتنزُّل الملائكةِ، وانشقاقِ السماء، وكذلك في صلاتها، حيث كان يشوّش عليها بعضٌ من الشياطين في الصلاة، قالت: يأتيني بعضَ الأوقات أقوامٌ بطراطير على رءوسهم، يرقُصون وأنا أصلي يشوّشون عليَّ؛ لأنَّهم يرقصون بيني وبين القِبلة، فتأتيهم شهبٌ من نور، قالت: فيهربون أو يحترقون.

وصابرة، كانت ظاهرة بالأقصرين وما رأيتها، أخبرني عنها سراج الدين حسّان أحد عدول الأقصرين، وكان رجلاً مباركًا محقّقا في شهادته، وأخبر عنها بعجائب، رحمهما الله تعالى.

والْمُراكشيّة، كانت جليلة القدر، ولها كلام مليح، وكتب عنها، وكانت تتكلم، ورأيت رسالة القشيري بخطها بإخميم، ولم أجتمع بها، وكان ولدُها يتكلم ويُعْزِي إليها ما يتكلّم به غيرَ أنَّه قِيل لي أنَّه يدّعي المهديةَ فما اجتمعت به كذلك.

المهدّي المزعُوم

وحدَّثني الشيخُ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- أنَّه وردَ في زمان الْمَلكِ الكامل فقيرٌ جميلُ الصورة، وله علوم ظاهرة وعلوم باطنة، شريفٌ يُسَمّى محمد بن عبد الله، وكان يجلس من بعد العصر إلى الصبح ما يتكلّم، وكانت له أحوالٌ جليلة قال بنفسه أنّه المهديُّ، وصنَّف كتابًا وأشار إلى نفسه، فحصلَ الكتابُ عند السلطان الملك الكامل، فجاء، وكان السلطان دخل عند الحريم فجلس على مرتبة السلطان، فبَعدَ ساعةٍ والسلطان قد خرج متخففًا متوكئًا على سيفِه وبيده الكتابُ، فلم يقُم للسلطان، فقال له السلطان: شيخ، هذا الكتاب كتابك أو تصنيفك؟ فقال: وما هو؟ فقرأه عليه

فقال: نعم فقال: فأنت تقول أنت المهدي، والحديث الذي ورد:

«**أنه يخرج بين الصفا والمروة**»، وأين الصفا والمروة هنا؟ إنها الطوب والحجارة، هي صفا ومروة العلماء والفقراء. قال: إن الحديث يقول: «**يخرج من بين هذين الخشبتين رجل هو المهدي**[1]» وأنا ذلك الرجل.

فلم يكلّمه السلطان الملك الكامل، ولا شوّش عليه، وإنَّما قال لفخر الدين عثمان: جهزوه إلى الإسكندرية يجهزوه إلى المغرب، فجهّزوه وسفّروه إلى المغرب.

قال الشيخ عبد العزيز: فاستخبرت عنه فقال لي فقير: رأيت رأسه معلقةً على مراكش.

مدّعو المهديّة

والكلام في أمر المهدي ودعوى المهدية كثير، وقد يكون ذلك الدّاعي مهديًّا في نفسِه، فيقولُ من حُمْقِه ما يجدُه في نفسه، لا أنَّه المهدي المشار إليه الآتي؛ فإن له معاد قبل خروجه.

المقبُورُون و ابن برموت

وقد كان ابن برموت لَمَّا ادّعى ذلك اهتدى على يده خلق كثير مِمَّن كان لا يعرف الله تعالى، ولا يعبده، واحتال على إسلامهم بحيل كثيرة ووسائل عديدة. وحدّثنا به أنَّهم سألوه إظهارَ آيةٍ يُسلِموا بِها، فأعطى جماعةً مِمَّن يثِقُ بِهم مِن أَصْحابِه مالاً جزيلاً، على أنَّه يحفر لهم قبورًا ويسقّفها عليهم، ويكلّموه منها إذا سألهم، ويخرجهم بعد ذلك، ففعل ذلك -وربّما قيل كانوا سبعة أو غير ذلك فالله أعلم- فلمَّا سألوه قال لهم: إني أسأل أهل القبور عن الإسلام، ويخبروكم أنَّه الحقَّ، فخرج بهم إلى تلك المقابر وناداهم فأجابوه، فأقرّوا وأسلموا، وترك القبورَ على حالِهم، خشيةً أن يخرجُوا فيظهر ذلك فيرتدُّوا عن الإسلامِ.

ولعلَّه رأى ذلك للمصلحة الأكبر، ولعلَّ المقبورين كانوا على دين غير دين الإسلام، لكن قد أقرّوا وأسلموا وهم في القبور، فالله تعالى أعلم أيُّ ذلك كان.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٥٩٦/٤).

وذكروا عنه أنهم كانوا لا يعلمون القراءة، فسمّى كل واحد منهم بآية من الفاتحة، فسمّى واحدًا «الحمد» وآخر «لله» والآخر «رب»، والآخر «العالمين» إلى آخر الفاتحة، فلمَّا عَلِمُوا أسماء بعضهم بعضًا أمرهم بالصلاة بالفاتحة، وصلّوا بها.

ولا يعلم اسمَ المهديّ كثيرٌ من الغربِ، وذُكر أنَّهم إنَّما قتلوا ابن قسي وابن برجان من أجله، وخشيةً على الْمُلك.

ولقد رأيت كتابًا من ابن قسي إلى بعض أصحابه يقول فيه: إنهم خطبوا لنا على مائةٍ وسبعةِ منابرَ، أو مائة وأربعةِ منابرَ، فالله تعالى أعلم أكان ذلك من عنده أو هو خطّه أم لا.

وكان علمه وجلالته وعظم شأنه مشهورًا، وهو صاحب كتاب «خلع النعلين» وبقي جماعة من الغرب إلى هذه البلاد يعرفهم، ويعرف أسماءهم، ولا حاجة لذكرهم، وفيهم أكابر وأولياء ولا عار عليهم في ذلك، فإنَّ المصادرة موجودة، ولا بد لكل ولي من أعداء في الله تعالى.

فقد حُكي لنا أنّ أبا يزيد البُسطامي السيد نُفِي مِن بَلَدِه سبعَ مراتٍ مع جلالته وعظم شأنه وكراماته.

وحكي لنا أن السبكي السيد رضي الله عنه كانوا يزلقونه بالحجارة ويقعد في الطريق، ولا يجد مَن يخلّصه مِن الصبيان.

ومثل ذلك كثير، وإنَّما تركناه لِمَا نحن بصددِه، وذكرنا هذه النبذةَ اليسيرةَ تحذيرًا للسالِكِ ألاّ يقف في طريقه مِن شيء من ذلك، ويطلُب الله لذاته العلية؛ فإنّ القطّاعَ في الطريقِ كثيرٌ.

ومن المقامات المحقّقة والأحوال السنيّة الكشوف والمخاطبات وعلوّ الدرجات والتصريف في الكَونِ، وقد حُكِي عن الشيخ أبي يزيد عن الراوي للحكاية قال: جئت للشيخ أبي يزيد لأجده قاعدًا تقرفصًا من أول الليل إلى آخره، وأنا في ناحيةٍ أنظرُ إليه، وإذا هو يقول: إلهي، إنّ قومًا سألوك المشى على الماء والطيران في الهواء وأنا أعوذ بك من ذلك، وسألوك كذا وكذا وأنا أعوذ بك من ذلك، وذكر عشرين مقامًا -أو قال أكثر من ذلك- ويقول: وأنا أعوذ بك من ذلك، ثم التفتَ فرآني فقال: من كم أنت

هنا؟ فقلت: مِنْ كذا وكذا، ولم أحقق ما قاله بعد ذلك.

غير أنَّه حُكِي عنه في غير هذه الحكاية أنَّه قيل له: ما تريد؟ فقال: أريد ألاّ أريد. ولم يكن قوله: «أريد ألاّ أريد» إرادة؛ لأنّا لا نعلمُ صيغةً نعلم بها ترك الإرادة إلا ذلك، ولو قيل في كل شيء كما يُقال أنَّ نفي الإرادة إرادة لتسلسل القولُ ولا يُفهم المعنى وإنَّما هو عين سلب الإرادة.

وقد حُكِي عن الشيخ عبد الرحيم ﷺ أنه قال: أُعْطِيتُ كُن فأَبِيتُها.

وقوله: «أبيتها» لا تقتضي ردًّا على الله تعالى فيما أعطاه، ولا إساءة أدبٍ، هم أعلم بالله وأعرف بالأدب مع الله تعالى، لكنَّ هذا مِن بابِ الإذنِ في التصريف، فله أنْ يتصرف وله ألاّ يتصرف، والدليل عليه قوله تعالى للسيد سليمان عليه السلام: ﴿**هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [ص:٣٩].

فجعل العطاء هنا للتصريف.

سيدي أحمد بن كرار

وقد حُكِي عن سيدي أحمد مِن كتاب أحمد بن عبد الرحمن بن كرار عن الشيخ عمر بن جنديّه -وكان من كبار أصحاب الشيخ أحمد، وملازمه في سفره وحضره، وكان له بيتٌ في الرُباط إلى أنْ مات- قال: كنَّا بين يدى سيدي أحمد جماعة من الخَواصِ، فتذاكرنا من أحوال الرّجال والبداية والنهاية ما شاء الله تعالى، فالتفتَ إليَّ سيدي أحمد وقالَ: أى عمر، دبّرها سيدي الشيخ منصور- قدّس الله تعالى روحه- عليّ -ويرْوي سبع سنين وسبعة أشهر- وسلَّم السيفَ إلى مَن بعده إلى رجلٍ صفحٍ عفوٍّ، ثم سألته فقلت: لا شَكّ نهايةُ سيدي منصور بدايةُ هذا الرجل فقال: أي عُمر، الأمر كما تقول.

فاعلم أيُّها العاقل أنَّ العبد إذا تمكَّن من الأحوالِ بَلَغَ محلَ القُربِ مِن الله سبحانه وتعالى، وصارت همته خارقة السبع سماوات، وصارت الأرضين كالخلخال برجله، وصار- كما قال سيدي أحمد- له صِفاتَ الحقِّ جلَّ جلالُه، لا يعجزُه شيء، وإنَّما الحق يرضى لرضاه ويسخط لسخطه، والدليل عليه ما ورد عن النبي ﷺ أنَّه قال:

«**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالي**(١)»، ورد عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: حاكيًا عن ربِّه تبارك وتعالي يقول: «يا بني آدم، أطيعوني أطعكم، واختاروني أختركم، وارضوا عني أرضَ عنكم، وأحبّوني أُحبكم، وراقبوني أراقبكم، وأجعلكم تقولون للشيء كن فيكون، يا بني آدم، من حصلتُ له حصل له كل شيء، ومن فُتُّه فاتَه كلُّ شيء» هذا ما ذكره صاحب الرواية عن سيدي أحمد أنه صار صفةً من صفات الحق، لعلّه أراد التخلّق والاتّصاف، لا أنّه عين صفات الله تعالى، وإنَّما هو بصفاتِ اللهِ تعالى كقوله« **فبي يري وبي يسمع وبي ينطق**(٢)» وما أشبه ذلك.

ومن كراماته التي منحه الله ﷻ بها ما رواه يعقوب بن كرار أنّه قال: كان سيدي أحمد- قدس الله تعالى روحه- إذا صعد الكرسيّ لا يقوم قائمًا، وإنَّما كان يتحدث قاعدًا، وكان يسمع حديثه البعيدُ مثل القريب، حتى أهل القرى التي حول «أمّ عبيدة» مثل فرجوان والقماسية، حتى المنارة كان أهلها يجلسون على سطوحهم يسمعون صوته، وجميع ما يتحدث به، لا يفوتهم منه شيء إلا كانوا يسمعون كما يسمع القريب من مجلسه، حتى كان في مجلسه الأصمّ والأطرش الّذان لا يسمعان شيئًا، يفتح الله تعالى سمعهم لكلامه، حتى الشيخ عبد العظيم بن الهيتة، والشيخ علي بن هاشم وأخيه، كانوا إذا صعد سيدي أحمد الكرسي يتحدث، أو كان بين يدي أصحابه قاعدًا يتحدث، يبسطُ أحدُهم حجرَه، فإذا فرغ ضمَّ حجرَه إلى صدره وقصّوا الحديث على أصحابهم على جليته.

فانظر يا أخي، رحمك الله تعالى، إلى هذا العطاء العظيم، وإلى هذه المنحة اقتداءً وأسوةً بأبينا السيد إبراهيم ﵇ الخليل، حيث أمره الله تعالى بالنداء لَمَّا بَنى البيتَ فقال تعالى: ﴿**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ**﴾ [الحج:٢٧].

فقال: إلهي وسيدي، مِن أين لي صوتٌ يسمعه الناس؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا إبراهيم، عليك النداء وعلينا البلاغ. قال: فنادى السيد إبراهيم ﵇ فسَمِعَ صوتَه

(١) رواه الترمذي (٥/٢٩٨).
(٢) تقدم تخريجه.

البعيدُ مثل القريب، وبلَّغ الله تعالى ما شاء من خلقه، والبلاغ من الله تعالى، وإلا فمِن أين لهذه البشرية الضعيفة على هذا؟ وذلك حين عظُمَت منزلةُ الحقِّ عنده عظَّم الله تعالى منزلتَه وأعلى ذكره ومرتبته، والحق تعالى ينزل العبد من حيث ينزله العبد من نفسه.

ومِن مآثرِه ما رواه عنه سيدي إبراهيم الأعزب قال: سألني أحد الفقراء عن حالةٍ مِن أحوالِ القطب، فلمَّا وصلت إلى سيدي أحمد سألته عن ذلك فقال لي: يا إبراهيم، ما أقبحَ الكذبُ، أي إبراهيم، أوّل ما تبدو العناية بالعبد إذا أراد الله تعالى أنْ يؤهّله إلى هذه المنزلةِ وإلى هذا الأمر وإلى هذه الأحوال، يكلّفه أمرَ نفسِه أولاً، فإذا ما رآها وأدبَّها واستقامت معه، كلَّفه أهلَه، فإنْ أحسنَ إليهم وداراهم[1]، كلَّفه جمعةً مِن الأرضِ، فإن هو داراهم وأحسن سيرتَه مع الله تعالى كُلِّف ما بين السماء والأرض، فإنَّ بينهما خلقًا كثيرًا لا يعلمهم إلا الله تعالى ومن سبقت له العناية من خلقه، ثم لا يزال يرتفع من سماءٍ إلى سماءٍ حتى يصل إلى مَحل القُرب، ثم ترتفع منزلتُه ويسير صفةً من صفاتِ الحقِّ سبحانه وتعالى.

ثم قال: أي إبراهيم، ومازال يهدى من وطن إلى وطن حتى يستقر له في الصدق أوطانٌ، فإذا صَلَحَ لهذا الأمر صار لله تعالى غيثًا في أرضِه، فبه يُنزل الغيثُ، وبه يرتفعُ البلاء، ويطلعه الله ﷻ على خلقه، لا تنبت شجرة ولا تخضر ورقه إلا بنظره.

فانظر أيُّها العاقل إلى هذا العلم الجسيم والسرِّ العظيم والاطلاع على هذه الأمور، وذلك حيث ترك الرياء والإسراف بلغ إلى هذه المرتبة، وهذا المقام وهذا الكشف، وسألتُ بعضَ العارِفِين عن علمِ الباطنِ أيُّ شيءٍ هو؟ قال: شيء من أسرار الله تعالى يقذفه في قلوب أوليائه، ولم يطلع على ذلك السرِّ ملك ولا بشر ثم قال: ﴿**يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ**﴾ [البقرة:١٠٥].

وعنه -قدس الله تعالى روحه- أنَّه سُئل ذاتَ يومٍ عن شيءٍ من قدرةِ الله تعالى ومخلوقاتِه فقال: إنَّ لله تعالى في السماء بحرًا مِن رَملٍ يجري جريان الرياح العاصفةِ له منذ

(١) داراهم أي: لاينهم. مختار الصحاح (٨٤/١).

خلق الله تعالى السموات والأرض إلى يوم القيامة، لا يدرى من أين؟ وإلى أين؟ للحق سبحانه وتعالى بعددِ كلِّ ذرةٍ منه دنيا مثل دنياكم هذه وما من ساعةٍ تمضي من ليلٍ أو نهارٍ إلا ولله تعالى فيها قيامةٌ تقومُ على قومٍ، وميزانٌ ينصب، وصراطٌ يُمَدُّ وقوم يدخلون الجنة وقوم يدخلون النار، وهي غيرُ الجنّة والنّار التي تُوعدون.

وهذه أمور لا يقدر علي سماعها إلا من ثبت إيمانه، ويَعرف قدرة الله تعالى الذي لا يعزب عنه شيء؛ لأن هذه الأمور أمرٌ ربَّانِيٌّ حقيقي؛ لأنَّه بحر عميق قد غرق في ساحله خلق، وهلكت به أمم كثيرة، وذهب به إيمان جماعة من العالم، وقد قال أحدهم: لم يحصل منه أهل السماوات والأرض إلا على الصفات والأسماء.

فانظر إلى هذه المنحة العظيمة والعطاء الجزيل، زاده الله تعالى مِنْ فَضلِه وكَرمه، رضوان الله تعالى عليه.

وما رواه أحد أصحابِه قال: انحدرتُ إلى البصرة لزيارة سيدي أبي محمد بن عبد لما كان سيدي أحمد يوصي بزيارته، فلمَّا دخلتُ إليه ودخلت مسجدَه فوجدته جالسًا على كرسيِّه فردّ عليَّ السلام، ثم إنِّي جلستُ والشيخ يتحدث، فعَرَّضَ بذكر الصالحين وفضلِهم ولم يذكر سيدي أحمد، قال الفقير: فأخذتني الغيرةُ، فقمت إليه وقلت له: يا سيدي، أراك تذكر جميع الصالحين ولم تذكر سيدي أحمد فقال لي الشيخ: أي فقير، أيُّ الأحمدين؟ فقلت: أي سيدي، كانت المسألة واحدةً صارت اثنتين، أخبرني مَن هم الأحمدان؟ فقال لي: أحمد الأرزق بن سيدي منصور وأحمد بن أبي الحسن.

فأمَّا أحمد الأرزق فإنَّ النبي ﷺ يصافحه في اليوم والليلة خمسَ مراتٍ، وأمَّا أحمد بن أبي الحسن فإنَّ فضلَه وظلَّه علي داري هذه كما يُري على هذه رمَّانةِ الكُرسي، ثم قال: أي فقير، إن قال لك قائل: وصلَ أحدٌ إلى مقام أحمد بن أبي الحسن، فكذّبْه ولا تصدّقْه؛ فمَا أحدٌ عَرَفَ طريقَه التي سلكها.

ثم إنَّ الشيخ قال لأصحابه: هذه جهةٌ، وأشار بيده إلى الشرق، وهذه جهة، وأشار بيده إلى الغرب حتى أشار إلى أربع جهات الدنيا ثم قال: كم في كل جهة من هذه الجهات طريق؟ فقالوا: كثير، قال لهم: تُعرف الجهةُ ولا تُعرف الطُّرق، ثم قال: أي

فقير، إذا رجعت إلى سيدي أحمد فاقرئه عني السلام وقل له: يدعو لي.

قال الفقير: فلمَّا رجعتُ إلى «أمِّ عبيدة» دخلت على سيدي أحمد وسلمت عليه وقلت له: إنّ سيدي أبا محمد بن عبد يُسلِّم عليك، فقال: سلَّم الله تعالى عليه، ثم قال: أي ولدي، مَن أنا حتى أصلح أن يسلم علي مثل هذا الرجل المحتشم؟ أي ولدي، إن قدّر الله تعالى لك أن تنحدر إليه تسلّم لي عليه وتقولُ له: سوّانةُ يسلّم عليك ويسألك الدعاء، فلمَّا قَدَّرَ الله انحدرتُ إلى البصرة فدخلتُ على الشيخِ أبي محمد بن عَبْد، وبلَّغتُ السَّلام عن سيدي أحمد والذي قاله.

وكان الشيخ قاعدًا في المجلس، فلمَّا سَمِع كلامي قام واقفًا علي قَدَميه ولَطَمَ على رأسه، ونادى بأعلى صوته: ويلاه مَن هذا الرجل؟ أي فقراء، هل تدرون ما معني هذه الكلمة «سوّانة»؟ فقالوا: لا والله فقال: سوّانة يمشي على الطين لا يُري له أثرٌ، و يمشي بين القميصِ والجسدِ لا يُرى ولا يُحسُّ بها ، سوّانة مرحومةٌ بين سائرِ الخلقِ، سوّانة لا يُغلَقُ دونَها حجابٌ.

أي: فقراء، لو علمتم ما سوّانة ما طاب لكم عيش، ثم قال: أي فقراء، ما سلك أحد طريق هذا الرجل.

فانظروا يا إخواني إلى هذا الذُلِّ العظيمِ، وهذه الخصالِ المحمودةِ عند الله تعالى وعند الخلق، فهل فينا نحن أيُّها الإخوان شيء من جلالته؟ وندّعي أنّنا من أصحابه! فمن لم يعمل بعمل شيخه، ويتبع منهاجه فكيف يطمع أن يكن صحبه أو بالقرب منه؟ هيهات، هذا أمل بعيد، نروي أقوالهم ونترك أفعالهم، وقد صرنا نتعلّق بالنسبةِ قولاً لا فعلاً.

فإنَّ المحبَّ إذا كان صادقًا في محبته وافقَ محبوبِه في أفعالِه، فعساه أن يُكتبَ من أصحابه، فكيف نحب نحن شيخنا، ونطمع بالقرب منه ولا نسلك طريقه؟ هذا أمر بعيد.

وقد كان -قدّس الله تعالى روحه- يقول لولده صالح: أي ولدي، حدِّف لكانونك حطبًا، إنْ لم تعمل بعملي فلستُ لك أبًا و لا أنت لي ولدًا.

من نصائحه لأهله

وقد كان يقول لزوجته أمِّ صالح: أي بنت الشيخ، إن سَرَّك لحاقُك بي؛ فأقلّي الطعامَ واهجري المنام.

حتى كان -قدس الله تعالى روحه- يوقظها بالليل ويقول لها: قومي إلى وردِك؛ فإنَّ العبدَ إذا سلك طريقَ القومِ كان قريبًا.

فلا تقلْ يا أخي إنَّ الدنيا تعوقُنا؛ فإنَّ الله تعالى تكفَّل لك بالرزق، فقال تعالى عَزَّ مِن قائلٍ: ﴿ **نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ**﴾ [الإسراء:٣١].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾ [الذاريات:٥٨].

وقال تعالى: ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ [الزخرف:٣٢] فإذا كان هو الرازق وهو الذي يقسّم فلِمَ تتعب نفسك؟ ولا تجتهد وتسلك الطريق الذي كان شيخك سالكه؟

وذُكر عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: «**الصاحب قدر المصحوب**[١]».

وعن سيدي أحمد، قدس الله تعالى روحه، أنَّه كان يقول: من لقي مفلحًا ولم يفلح متى يفلح؟

والحديث عن رسول الله ﷺ: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**[٢]».

فبيَّن الدليل وأوضح السبيل ﷺ.

حُكي لي عن الشيخ أبي المنذر المهميدرحي[٣] -قدس الله تعالى روحه- أنَّه سُئل عن فضل سيدي أحمد قال: لا أقدر أشرحه و لا أقدر أشرح لكم حاله، فألحَّ عليه أصحابه وأقسموا عليه بالعزيز سبحانه وتعالى، فقال لهم: أختصر لكم شيئًا مِن فضله، ثم قال لهم: ما أقول لكم في رجل ما اعترف لنفسه قدرًا أبدًا؟ و لا خطر له غيرُ ربِّه ﷻ؟ ولا رضي نفسه يومًا واحدًا أن تكون مُنَعَّمة برائحة من روائح الدنيا؟ وله عند الله تعالى من القدر والمنزلةِ ما لا يُحدُّ.

ثم قال: هذا الرجل سلك طريقًا لم يسلكْها أحد، وكلّما ازداد قدرُه عند الله

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٨٢/٥).

(٢) رواه البخاري (٢٣٣١/٥).

(٣) هكذا في المخطوط (ق/٣٥٥).

تعالى ازداد ذُلاًّ ومسكنةً وانكسارًا لله تعالى وللمخلوقين، وهذا طريق فضل، ثم قال لأصحابه: ومع هذا كلّه لم يرَ روحَه شيئًا!

وأيضًا ما كان معروفًا بالصَّلاح، حدَّثني خطيب الصليبية قال: كنت أنا والشيخ حسين ذاتَ يومٍ في المسجد لعمارةٍ فقال لي: أي عثمان، ثلاثُ رجالٍ مِن رجال الغَيبِ يدخلون علينا في هذه الساعةِ وهم جياع، وقد خطر في سرِّهم: تُرى أحدٌ بالعراق يدري علينا؟ وقد طلبوا خبزًا و لبنًا، ثم قال عثمان: منك اللبن ومني الخبز. فما استتمَّ الكلامَ إلاّ وقد دخلوا المسجد ولم يسلّموا قال: فقمت إليهم وسألتهم من أين وإلى أين؟

قال: وقمت وقفت على باب المسجد وقلت: سلامٌ عليكم.

قال: فرفع أحدهم رأسه وقال: عليكم السلام، السلام من السلام.

قال: ثم رجعت إلى الشيخ حسين وقلت له: ما لهؤلاء القوم إلا أنت.

فقام الشيخ حسين إليهم، وسلّم عليهم فردُّوا عليه السلامَ كما قالوا لي في الأولى:، فقال لهم الشيخ حسين: من أين وإلى أين؟ فقالوا له: أي شيء على الناس؟ فقال لهم: أنتم أحوجتمونا نسألكم، قلتم: تُري بالعراق مَن يدري علينا؟ ثم قال لكل واحد اسمه ومن أين هو، ثم أحضر لهم الخبز واللبن فقالوا: هذا الذي طلبناه، صدقت فيما قلت، ثم أكلوا الطعام، فقال لهم الشيخ حسين: أخبرونا ما شاهدتم في طريقكم هذه؟

فقالوا له: بينما نحن سائرون في طريقنا هذه إذ شممنا رائحة المسك، فما زلنا نتقصى آثارَه حتى أتينا إلى جبلٍ عليه عين ماء تجري، وهناك رجلٌ سطيحٌ، فسلَّمنا عليه فردَّ علينا السلامَ، ثم قال لنا: إلى أين؟ قلنا: إلى زيارة الصالحين في بلد العراق، فقل لنا: مَن نزوره منها؟ فقال لنا: في البطيحة أحمد بن الرّفاعي، وفي البَصرةِ أبي محمد بن عبد فقلنا له: أي سيدي، فأيُّ الرجلين أكبر؟ فقال: أحمد بن الرفاعي. فقلنا له: صف لنا شيئًا من أحواله، فقال لنا: كان عندي على هذا الجبل وهو قطبُ الأقطابِ، ثم انتقل إلى قطب السّماوات ثم صارت السماوات السبع في رجله كالخلخال، وقد سلك بدنُه طريقًا لم يسلكها غيره، ثم قال لنا: اعلموا أنَّ هذا الرجل صار لكلِ جارحةٍ منه

سرٌّ يختصُّ به فقلنا: صفْ لنا ذلك وبيِّنه، فقال: صار القلبُ للتجلّي، والعينُ للمشاهدة، والإذنُ للسمع، واليدُ للبطش، والرجلان للسعي، والرُّوح والنفس للتّذللِ والوقوفِ بباب العجزِ.

وقد كان يدعو -قدس الله تعالى روحه- ويقول: اللهم اجعلنا من الذين فرشوا على بابِك لفرطِ ذلِّهم نواعمَ الخدودِ، ونكسّوا رءوسَهم مِن الخجل وجباهَهم للسجودِ، فبلّغتهم بذلك غايةَ الْمُرامِ والْمَقصودِ. وصلّى الله على سيدي محمد وعلي آل محمد.

ثم إنّه قدس الله روحه، استوى عنده الخير والشر والضرُّ والنفع والعطاء والمنع فصار الجميع عنده من الله تعالى، ثم إنَّه كان ينشدُ بلسانِ حالِه:

وبَقِيتُ لا شيئًا أشاهدُه   إلاّ ظننتُ بأنَّه حُسبِي

وكان سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ يقول: ما رأيت شيئًا قط إلا رأيت الله تعالى فيه.

وعنه- قدّس الله تعالى روحه- ما حدّثنا به الإمامُ تاج الدين بن بهرووددي(١) عن أبيه ﷺ عن أخيه الشيخ مكي قال: شاهدت سيدي أحمد ليالي كثيرة، فحفظت منه أربعين خصلة من خصال رسول الله ﷺ، على قدر علمي في الأحوال الظاهرة، فكيف بالأحوال الباطنة؟.

وعنه: قدس الله تعالى روحه، ما حدَّثنا به خطيب السّعدية -وكان من كبار أصحاب سيدي أحمد، وكان مِمَّن شَهِد له أنَّه مِن أصحابِ اليمين-ِ قال: كنت بين يدي سيدي أحمد، والغيث يقع فقال: لكل قطرة تقع من السماء إلى الأرض مَلك مُوكَّلٌ بها، ينزل من السماء لا يعود إلى يوم القيامة.

ثم قال: انظروا، هل ترون قطرة تختلط بأخرى؟

ثم انصرفت عنه، ثم بعد ذلك لما حضرت عند الشيخ البادنيني في بلد [...] (٢) خبرته بذلك فقال: ليس هذا بصحيح، فعظُم ذلك عليّ، كيف ردَّ على سيدي أحمد؟

---

(١) هكذا في المخطوط (ق/٣٥٦).

(٢) غير واضحة في المخطوط (ق/٣٥٦).

فلمّا كان في بعض الأوقات اجتمع سيدي والشيخ البادنيني في بعض بلد الخاقاني وأنا بين يديه، والحديث يحوكُ في صدري، وكلَّما هممت أن أتكلم نظر إليّ سيدي أحمد فأمسكت، فلمّا مرّت ساعةٍ أو أكثر هممت بالقول ولم أعقد السكوت، فالتفت إليّ سيدي أحمد وقال: رسول الله ﷺ كذا وكذا، وذكر الغيث ونزول الملائكة معه ولم يصعدوا أبدًا، ثم قال بالأمر وأنا أتبعه بالقول، ولم أسمع منه شيئًا غير هذه الكلمة، ثم قال: هُوَ ذي في بطن قائمة العرش.

أو قال: هو تحت قائمة العرش ملك عظيم الخلقة، خلق الله تعالى له جندًا من الملائكة يسيرون لسيره ويقفون لوقوفه، وهم تحت أمره ونهيه، بعدد كل قطرة تنزل من السماء إلى الأرض إلى يوم القيامة، فلا يعلم عددهم إلا الله تعالى.

ثم قال سيدي تمام الكلام: وكم لله تعالى مثل ذلك.

قال: فلما سمع الشيخ الباديلي الكلام سكت، ولم يتكلم بشيء أبدًا.

فهل يري هذه الأمنحة من الله تعالى علمٌ لا ينقطع أبدًا وبحر تُحيَّر فيه الأفكار؟ والدليل على قول سيدي أحمد -قدس الله تعالى روحه- ما كتب السيد عُمر رضي الله عنه إلى أميرِ الأجنادِ: احفظوا ما تسمعوا من المطيعين لله تعالى؛ فإنَّه تتَجَلَّى لهم أمورٌ صادقُة.

وكان إذا تحدّث بحديثٍ غريبٍ يقول: اسمعوا ما أقول لكم، ما على المستمعين من درك، إنما الدرك على القائل.

﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨].

ومِمَّا حُكي عن سيدي أحمد -قدس الله تعالى روحه- في الشفقةِ على خلق الله تعالى أمور عظيمة، وجدناها في الكتب المرويّة عن محمد بن عبد الرحيم بن يعقوب، وإنَّما نقتصر منها على اليسير.

فمنها ما رواه الشيخ مقدامُ حلقةِ المقربين بالجداويه رحمه الله تعالى قال: كنت أنا وخادمه ماهان مع سيدي أحمد، قدس الله تعالى روحه، في يومٍ شديدِ البردِ وقت الصبح، وقد أسبغ الوضوء، ويده ممدودةٌ لا يحركها ولا يقوم من مقامه، وطال وقوفُنا، فلمّا مِلْنا إليه، وإذا على يده بعوضة -وهي البقَّة- وقد قبضت على يدهِ، وقد احمرّ مكانها، تعرّفنا أن قعوده لأجل ذلك فأشرنا إليها، فطارت فعظم ذلك عليه، وحرّد

علينا ثم قال: ما أحلُّ لكم تمنعوها مِن رزقٍ قسمَه الله تعالى لها؟ ثم قال: لا آخذكم الله تعالى، لا تعودوا إلى مثل هذه.

وعنه، قدس الله تعالى روحه، ما رواه الشيخ أحمد بن قِرّي قال: خرجت ذات يوم مع سيدي أحمد إلى بعض البساتين أسبغُ الوضوء، فتأخرت عنه وتقدّم هو، وكان الوقت كثيرَ الحر وأنا أنتظره، فعجلتُ فتقدّمتُ إليه، وإذا به قد قعدت على ثوبه جرادة، وهو قائم في الشمس لا يتحرك فعرفت ذلك، فتقدمت إليه وطردتها عنه، فبكى وقال لي: ما أحلُّ لك أنْ تطردَها وقد استظلت بنا؟ لقد تركت ذلك.

وعنه -قدس الله تعالى روحه- أنَّه كان في أحد الأيام نائمًا، وكان يومُ جُمعه، فاستيقظ فوجد هرّةً نائمةً على كمِّه، فنادى زوجته فقال لها: ائتني بالمقص فناولته المقصَّ فقصَّ كمَّه، ثم خرج إلى الصلاة فقالت له زوجته: ما أحوجُك إلى هذا؟ فقال: أي بنت الشيخ، حتى لا نزعجها.

فلمّا صلّى ورجع وجد الهرّة قد قامت، فأخذ كمَّه وإبرة فخيّطه، ثم قال لها: أي بنت الشيخ، ما كان إلا خيرة ما تعبنا وحصل الثواب.

وكان إذا رأى فقيرًا يقتلُ قملةً أو برغوثًا فيقول له: لا آخذك الله تعالى، شفيت غيظَك بقتلِها؟

ومن حكاياته ومروءته ﵁ أنَّه وجد كلبًا أجربًا، فحمل له الدهن ويُطليه ويحكُّ الجرب منه بخرقة، ويحمل إليه الطعام ويتردد إليه، فيراه الكلب فيهرب فيقول: أي مبارك، قف خذ طعامك حتى أداويك، فلمّا رآه قد طاب حمل إليه ماء وغسله.

فانظر يا أخي إلى شفقته على غير بني آدم، وذلك حيث كلف الأمر وتقلده.

وأمَّا الشفقةُ على بني آدم كان، قدس الله تعالى روحه، يمشي إلى الوَجِعِين -وهم الْمَجْزُومِين- والزُّمْنى يغسل ثيابَهم ويفلّي رءوسَهم ولِحاهُم، ويحمل إليهم الطعامَ، ويأكل معهم ويجالسَهم ويسألهم الدعاء، وكان يقول: هؤلاء القوم الزيارة لهم والشفقة عليهم واجبة.

وكذلك كان حاله مع الأعمى والمريض والأعرج.

ومن شفقته -قدّس الله تعالى روحه- أنَّ رجالاً من الصَّابئةِ جاءوا من أسكار -

وكان الوقتُ مسعّرًا كثيرُ البرد- فدخلوا الرباط وجلسوا مع الفقراء وناموا بينهم بحيث لا يعرفهم أحد، فجاء سيدي أحمد إليهم وهم نيام، فأيقظهم فقالوا: يا سيدي، نحن بعض الفقراء فقال: صدقتم، ولكن أظنُّكم جائعين فقالوا له: نعم، فأخذهم ورجع بهم إلى دار الفقراء وجاءهم بطحين وحطب وطاسة وقال لهم: هاكم الماء واعجنوا كما تختارون واخبزوا، وجاءهم بسمكةٍ فشووها وأكلوا فقالوا له: أي سيدي، أيُّ شيءٍ أغراك على هذا، ونحن قومٌ صابئةٌ؟

فقال لهم ﷺ: ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً** ﴾ [الإنسان:٩].

فقاموا جميعهم وأسلموا علي يديه.

فانظر إلى صدق حالِه، حيث عُلم منه صدقُ السرِّ فهداهم الله تعالى على يده، وكان مع ذلك أبُ الأيتام والمساكين، وكان هينًا لينًا، لا يحرد لنفسه إلا لله تعالى.

وخرج مرّةً إلى حلقةِ الفقراء فوجد فيها شبابًا يلعبون، فلمَّا أبصروه هربوا منه وخلُّوا ثيابهم، فجلس عندها يحفظها لهم، ثم ناداهم وقال لهم: حاللوني مِمَّا روّعتكم، ارجعوا إلى ما كنتم عليه.

ومرّةً أخرى وكان خابز الدّرب، فوجد صغارًا يتخاصمون فخلّصهم ثم قال لأحدهم: أنت ابن من؟ قال: وإيش كان فضولك؟ فقال له: صدقت أي ولدي، جزاك الله تعالى الخير كما أدبتني.

ثم إنّه كان يبتديء مَن لَقِيَه مِن بني آدم بالسلام، ومن الأغنام حتى الكلاب. وكان إذا رأى خنزيرًا يقول له :أنعم صباحك أي مبارك.

وكان يعود المرضى، حتى إنّه كان يسمع بمريض في قرية من القرى ولو كان على بعدٍ يمشي يعوده بعد يوم أو يومين.

وكان يخرج إلى الطريق ينتظر قدوم العميان فيأخذ بأيديهم ويقودهم ويحسن إليهم و يسألهم الدعاء.

وكان إذا رأى أمرًا خيرًا عزم عليه، وإذا رأى شيخًا كبيرًا يُكْرمه ويحسن إليه، ويُخْلِعه ثيابَه ويغسلها، ويوصي الفقراء عليه بالشفقة وعلى أمثاله.

وكان يقول: قال ﷺ: **«من أكرم ذا شيبة سخَّر الله تعالى له من يكرمه عند مشيبه[١]»**.

ثم كان يخرج إلى المعبر بالليل ويقف بها ينتظر مَن أمسى، وكان يتردد إلى أبواب المساكين ويتعرّض لحوائجهم، فكان يقوم سَحَرًا، ويأخذ قربةَ السّقايةِ للرّواق، ويملأُ لِمَن لا يكون فيه جهد ولا جَلد.

وكان إذا قَدم من السفر وقرب من «أم عبيدة» يشدُّ وسطَه، ويخرج حَبلاً مُدَّخرًا معه، ويجمع معه حطبًا، ثم يحمله على رأسه.

فإذا فعل ذلك فعل الفقراء كلهم مثله، فإذا دخل البلد فرَّق الحطبَ على الأرامل والمساكين والزُّمنى والمرضى والعميان و المشايخ على قدر أحوالهم، حتى كان في «أم عبيدة» صغار المساكين يقولون: نحن لنا من يحتطب لنا.

وكان يقول: الشفقة على الإخوان مِمَّا تُقَرّب العبدَ مِن اللهِ تعالى.

وكان يري إنفاق المال من أكبر القربات إلى الله تعالى، وكان يأمر الفقراء بذلك.

وكان يقول: قال رسول الله ﷺ: **«الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله[٢]»**.

وحُكي عنه- قدّس الله تعالى روحه- أنَّه كان ذات يومٍ في المجلس وكان قد ربَّى طفلاً يتيمًا ما له أبٌ و لا أمٌّ، فجاء الطفل وقال له: أي سيدي، أريد كعابًا ألعب بها، فقال له: أي ولدي، كلُّ شيء إنْ أردتَ تمرًا أو خبزًا أوقصبًا، أمَّا الكعاب فمن أين لي؟

فبكى الطفل فقال: أي فقراء، مَن يشتريني بخمسِ كعاب؟ فقام رجلٌ -يقال له أبو بكر الحطّابي- فراح إلى منزله وأتاه بخمس كعاب، فأعطاه إياها، فأخذها الشيخ منه أرسلها إلى ذلك الطفل.

ثم قال أبو بكر: أي سيدي، أنت شرائي بهذه الكعاب؟ فقال: نعم، ثم إنَّ الشيخ خيط له كيسًا وجعل الكعابَ فيها، فصار الصغير يلعب بها، ثم يجيء بها إلى

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٥٧٥/٣).
(٢) رواه ابن عدي في الكامل (١٥٣/٧).

الشيخ يحبسها له، واقتدى في ذلك بحديث رُوي عن النبي ﷺ:

وهو «أنّ أبا بكر دخل على النبي ﷺ فوجده نائمًا والحسنُ والحسين على ظهره، وهو يقول لَهما أنا جَمَلُكما فقالا لأبي بكر: تشتري منا جملَنا فقال لهما: بكم تبيعوني هو؟ فقالا: بكم تشتريه؟ فقال: معي أربع جوزات فقالا له: قد بعناك. فأعطى كلَّ واحٍد منهما جوزتين ونزلا عن ظهر رسول الله ﷺ فنزلَ السيد جبريل عليه السلام وقال له: يا حبيب الله يا محمد، الحقُّ تعالى يقرؤك السلام ويقول لك هذه المسألة: كنت تتفكر في بيع يوسف عليه السلام بسبعةِ دراهم فتَعْجَب من ذلك، فأنت بعت نفسك لأبي بكر بأربع جوزات».

وكان لا يجازي بالسيئة السيئة قط، وإذا سئل أن يدعو على ظالم فيدعو له بالرحمة والصلاح ويقول له :اللهم أصلحهم، واغفر لهم، واعفُ عنهم، ووفّقهم لِمَا تُحِبُّ.

وعنه- قدس الله تعالى روحه- ما حدَّثنا به الشيخ حسن النقيب والشيخ محبوب والشيخ يعقوب بن كرار وجماعة من الفقراء قالوا :كنَّا مع سيدي في طريق الهمامية، وكنَّا في السفر، وإذا بجماعة قد أقبلوا، فلمَّا قَرُبوا عرفنا أنَّهم أصحابُ السادة لَمَّا نادى والشيخ معهم، فلما رآهم سيدي نزل عن المطية وكشف رأسه وقبَّل الأرض وقال لنا: أي سادة، بحياتكم احملوا القولَ ساعة، ولو رأيتموه يضربُني أو يشتمُني، فلمَّا نزل إليه وقبَّل يده التقاه بكل قبيح وشتم وقال له: أي أعور الدجال، أي مستحل المحارم، أي مبدّل القرآن، أي ملحد حتى قال له :أي كلب.. ومع هذا كله وسيدي يقبُّل يده ويقول له: أي سيدي، بفضلك ارض عني وحلمك يسعني وأنا عبدك.

فلمَّا طال ذلك بينهم نزلَ الشيخُ عن المطية ونادى بأعلى صوته: واإسلاماه! واخليفتاه! وادِيناه!

أيُّ عمل أعملُ معك أكثرَ مِنْ هذا؟ ما بقي لي فيك حيلة عملت معك، هذا كله حتى تأخذك العزة وتتحرك ولو شعرة من جسدك أنزع بها الإيمان من قلبك ما وجدت لي. أيُّ شيءٍ تريد؟ جميعُ أبوابِ المشايخِ تقفلُها بهذا الذُلِّ والمسكنةِ ،والدولة تَبْقَى لك وترثها ذريتك إلى يوم القيامة؟

فقال له: أي سيدي، كلُّ هذا من بَركتِك، ثم إنَّ سيدي ودّعه وانصرفنا وقد هلكنا من الغيظ، فقلنا له :أي سيدي، ما أحوجك إلى هذا؟

فقال: أي أولادي -أو أي سادة- وحياتكم ما كان إلا خيرًا، لو بقي هذا كله عنده ضرَّه، وأثمنا نحن بطريقِه، فأرحناه مِمَّا كان في صدره لأجلنا.

وعنه- قدس الله تعالى روحه- لَمَّا حُمِل إليه كتابُ البستي فأخذ ثيابه سيدي إبراهيم الأعزب- قدس الله تعالى روحه- لَمَّا حمل إليه كتاب الشيخ فقال: أي إبراهيم، اقرأه عليَّ، فقرأه عليه، فإذا مكتوب: أي أعور الدجال، أي مبتدع، أي من جمع بين الرجال والنساء، حتى ذكر الكلب ابن الكلب -وكان فيه أشياء كثيرة- وكان سيدي قاعدًا وحدَه في الغرفة مستقبلَ القبلةِ، فقالت له زوجته رابعة: أي ولدي، إن كان عمره ما حرَّد فهذا اليوم يحرِّد.

قال: فلمّا فرغت منه أخذه هو وقرأه وقال: صدق، جزاه الله تعالى الخير عنّا فقالت له زوجته :أي سيدي هذا قوله وأنت تقول جزاه الله تعالى الخير؟!

فقال لها: أي مباركة، ارجعي، لا ينفع الناس إلا كلامُهم بالخير إذا كان العطاء من الله تعالى.. ثم أنشد :

فَلَسْــتُ أُبَــالي مَــنْ رَمَــانِي بريبـِـة إذا كنــتُ عنْــد الله غَــير مُريــبِ

أي إبراهيم، اكتب الجواب إليه: مِن هذا اللاشيء حُميدة إلى سيدي الشيخ البستي، أمّا قولك الذي ذكرته فإنَّه خلقني لِمَا يشاء: وأسكنَ فيّ مَا يشاء: بل أريد من صدقتِك أنْ تَدعو لِي: ولا تُخْلِيني مِن فضلِك، وحلمِك يسعني.

ثم قال لي: أي إبراهيم، اكتب فقلت له: ما أكتب؟ فقال اكتب:

ألا قُــلْ لِمَــن بــاتَ لي حَاســدًا أتَــدْرِي عَلــى مَــن أَســأتَ الأدَب

أَسَــأَتَ ظُنونَــك فِي خَــالِقِي كَأنّـك لَم تَرضـى لي مَـا وَهَـب

فكَـــانَ جَـــزَاؤَك أنْ زادَني وسَــدّ عليــك طَريــق الطَلــب

ثم أنفذ الكتاب إليه قال: فلمّا قرأه بكى وقال: صدقت والله، هذا الذي أحوجني إلى هذا.

ثم إن السبتي كان صاحب بصيرة، فلمّا قرأ الكتاب عميت بصيرته فخرج على وجهه هاربًا من هذه البلاد، لا يُدرى أين مات؟

فبلغنا عنه أنَّه لَمَّا قرأ الكتاب قال للشيخ أبي الشجاع: خذ على العهد حتى لا يفوتني شيء من هذا الرجل؛ فهذا هو آخر القوم لا شك فيه.

قال على لسان [...]:

ذَلَلْنا لَكُمْ حَقًّا فَصِرْنَا أَعِزةً ... ولا عَجب أنْ يُوجدَ العِزُّ في الذُل

وصِرْتُ لَكُمْ عَبْدًا فصرتُ مُحَرّرًا ... ولا ذُلّ فِي عَبدٍ لِعَبدِكُم مثْل

ومَنْ كانَ عبدَ العَبدِ عبدٌ لعَبدِكم ... فَقَد فاخَرَ السَّاداتِ فِي البَعدِ والقَبل

ومآثر الرجل عظيمة، وذُلّه الذي سلكه قصُر عنه الفحول، ولو استقصيناه لضاقت به الكتب، وإنما قصدنا من هذه النبذة التي ذكرتها التشويق، فلعل الله تعالى يهدي إلى طريقه من يشاء.

وكنت قصدت أن أقتصر على بعض الحكايات، إما حكايتين أو ثلاث أو أقل من ذلك فقط، لا سيما في ذُلّه، فرأيت في المنام في معنى ذلك ما عظّم به عندي ذكر الذُل واستعماله؛ فإن الله تعالى عند المنكسرة قلوبهم من أجلِه.

فنسأله الله أن يجعله كذلك.

كذلك أيضًا ما روته الثقاة، كما ذكر صاحب الكتاب، أن سيدي أحمد دخل إلى الرواق، وكان قد تخاصم رجلان من المنقطعين في الرباط قبل دخول سيدي أحمد، فلمّا دخل سكتا عن ذلك حتى لا يبصرهم الشيخ.

ثم إنهم ناموا وصلى سيدي ورده، وكان له عادة يخرج بوقت كثير من السّحر إلى الوضوء، فيتوضّأ ثم يرجع يقعد بين يدي الله تعالى يذكر إلى الصلاة، فعرض لفقير منهما حاجة فخرج، فظنّ ذلك الفقير الذي خاصمه صاحبه أن سيدي أحمد هو غريمه، فقام من مقامه وأتى إلى سيدي أحمد ورفعه ألقاه على ظهره، ثم إنه جلس على ظهره، ثم إنه جلس على صدره، وجعل يلكم فكّه ويلطم رأسه ويدوس في أحشائه، وسيدي لا ينطق ولا يقول له شيئًا، ولما أراد الانصراف فدخل ذلك الفقير، فقام

صاحبه من على صدر الشيخ.

فقام سيدي وقعد وهو مرضوض، فقال الفقير الذي دخل: أنعم الله تعالى صباحك يا سيدي، فردَّ عليه الصباح، فعرف الرجل أن الذي كان قبله سيدي أحمد، فخرَّ مغشيًا عليه غائبًا عن نفسه.

فقام سيدي أحمد وقعد عند رأس الفقير وجعل يغمره ويتلطف به ويقول له: أي مبارك، ما كان إلا خيرًا كسبنا الأجر والثواب، فجزاك الله تعالى عني الخير، ولم يزل يتلطف به حتى سكّن روعَته، فلمّا أفاق مِن غَشيته قال: أي سيدي، خذ هذا العهد أنّي لن أعود إلى مثل هذا الأمر، فأخذ عليه العهد، ثم سأله العبور قبله فكان ذلك.

وعنه -قدس الله تعالى روحه- ما حدثنا به رجل من الثقاة أنه كان في السجنية رجل من أنساب الشيخ عبيد الله، وكان كلما أراد المجيء إلى أم عبيدة يقول له احمل لي رسالة إلى شيخك وقل له: أي ملحد، أي باطني، ثم يقول كل كلام قبيح، فيجيء ذلك الفقير ويخبر سيدي أحمد فيقول له: هذه الدريهمات أي ولدي احملها إليه وسلم عليه وطال ذلك.

وصار كلما أتى الفقير إليه ينفذ له معه دريهمات.

فلمّا كان في أحد الأوقات أتى ذلك الرجل إلى سيدي أحمد قدس الله تعالى روحه، وحدثه أن هذا كلما أنفذت إليه الدراهم ازداد بالقبيح فقال: يا سيدي، جزاه الله تعالى الخير.

فلمّا كان من الغد وأراد الفقير أن يمشي أعطاه سيدي دريهمات أكثر مما كان يبعثه أولاً، وأعطاه شُقة وقال له: أي ولدي، سلم عليه وقل يعذرني.

فلما وصل ذلك الفقير إليه وأعطاه ما بعثه سيدي أحمد قدس الله تعالى روحه بكى بكاءً شديدًا وقال: قد حرت بفعل هذا الشيخ، ثم قال للفقير: إذا أردت أن تروح إلى أم عبيدة فأعلمني. قال: فلما أردت الزيارة أعلمته، فجاء معي، فلمّا خرجنا من البلد كشف رأسه وأخذ مئزره وتركه في حلّته، ثم قال: علي بالله أن تفعل ذلك ففعلت.

فلمّا قرّبنا من أمِّ عبيدة وإذا بسيدي أحمد قدس الله تعالى رُوحه قد خرج وتلقّانا، فلمّا وصل إلينا ووجده على تلك الحالة قال له: ما الذي أحوجك إلى هذا؟ فقال: فعلي فقال له سيدي: أي ولدي، ما كان إلا الخير فقال له: خذ عليّ العهد، فأخذه

وتوَّبه وعاد يجيء إلى أم عبيدة مدةَ حياته.

آدابه في القراءة بين يدي الله تعالى.

روي جماعةٌ من الثقاة مما حدثنا به الشيخ مقدام شيخ القراء بالجداد قال: سيدي أحمد يقول: كأنما سيف القهر دائمًا يجدب في وجهي كل يوم خمس مرات ﴿ **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾[النساء: ١].

وكان يدخل إلينا الحلقة ويقعد ويقرأ على أستاذي عبد الرحمن بحسن الأدب ولا يلتفت يمينًا ولا شمالاً.

ثم يقوم مِن بين يديه ويقعد يقرأ على الصغير حتى لو أن الصغير يحفظ سورة أو سورتين فيجلس بين يديه ويضع يديه على ركبتيه، ويتأدّب له ولا يلتفت يمينًا ولا شمالاً ثم يقول: من استهان بكلام الله تبارك وتعالى: ﴿**وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ**﴾ [الحج:١٨].

وكان إذا مرّ بقارئ لا يجاوزه، ولو بقي يومًا وليلة حتى يسكت القارئ، ويقول: من أجوز عليه وهو يتلو كلام الله تعالى؟

وكان يقول: هذا الخلق سمعوا أن لهم ربًّا وما عرفوه، ولو عرفوه ما هنأ لهم عيش، وكذلك الأكثر منهم يسمعون أنَّ لهم شيخًا وما عرفوه.

وعلى ذلك أن السيد يوسف الصديق عليه السلام ما تعرّف عليه غير السيد يعقوب وغير زليخا.

وسيدنا محمد ﷺ ما تعرّف عليه غير السيدة خديجة والسيد أبي بكر -رضي الله تعالى عنهما- وكان يقول ﷺ«**أنا أعرفكم بالله وأشدكم له خوفًا**[1]» وكان يقول قال الله تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** ﴾ [الأنعام: ٩١].

يقول قال رسول الله ﷺ« **حملة القرآن هم أهل الله وخاصته**[2]».

وكان قدس الله روحه لا يقرأ القرآن إلا وهو على طهارة وكمال الوضوء، وهو مستقبل القبلة، وكان لونه يتغير مع كل آية أو حرف، وكنا نراه لا يعتز مَن حوله، وكان

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢٣١/١).

(٢) رواه أحمد في مسنده (١٢٧/٣).

إذا قرأ يمدّ ويحرك ويشدد و إذا قرأ:

﴿**وَقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ** ﴾[المائدة: ٦٤].

يميل كما يميل الشجر في ريح عاصف لا يقدر على قراءتها.

ويقول على قراءتها: ﴿**غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا**﴾[المائدة: ٦٤].

وكان إذا بلغه عن أحد من الناس أنه قد نسي شيئًا من القرآن يرتعد كما ترتعد العسفة في النخل يوم الريح ويقول له: من قال لك تتعرض للسُّم؟

ولا يزال يهدده حتى يعود يقرأ ويحفظ.

وكان يأمر الفقراء بقراءة **سورة الحشر** في ليلة الجمعة، وكان يقول: مَن قرأها صلّت عليه الملائكة.

ويأمر الفقراء بقراءة عمّ يتساءلون وسورة الطلاق ويعظّم شأنهما.

وكان يأمر الفقراء كلَّ ليلةٍ بقراءة ألهاكم التكاثر.

ويقول: القرآن محبة الله تعالى، فإذا كنت تحب الله تعالى فأنت تحب كلامه وإلا فلا.

مَـــنْ ادّعــى دَعْــوى بِــلا شــاهدٍ   لا بُــــدّ أنْ تبطُــــل دَعــــوَاه

ولسنا نستقصي أحواله في القراءة، ولا في الأذكار ولا في الأوراد، وإنما كان ﷺ في كل أحواله كمال.

صفاء الصدور

وعنه حكاية في صفاء الصدور ونفي الكدر والغل والخبث منها، ولذلك دليل ما حُكي عن الإمام علي، كرّم الله تعالى وجهه، قال: احصد السرَّ من صدرِ أخيك تَحْصدَه مِن صدرِك، وهذه الحالة جربناها كذلك وإن وقع خلاف ذلك فيكون في النادر الذي لا يحكم به.

وما حُكي عن سيدي أحمد الفقيه الخطيب خطيب «أُونيه» قال: كنت أنا وسيدي أحمد في أم عبيدة، فخرج للوضوء فخرجت معه ولم يكن معنا ثالث إلا الله تعالى، فلما وصلنا إلى أحد البساتين قلت له: أي سيدي، إن الطير ينفر من بني آدم ويستوحش منهم ويأنس إلى الوحوش والأنعام فقال له: أي خطيب جمال الدين، أمّا

علمت لماذا ينفر من بني آدم؟

فقلت: لا فقال: لأجل خبث صدورهم ووجود الغدر فيهم.

فقلت له: أي سيدي متى يأنس الطير؟ قال: إذا صفا الصدر.

فقلت: أي سيدي، فقد صفا الصدر -وكنت أعني بذلك عن نفسي-

فقال: لو كان قد صفا الصدر أنس الطير فقلت له: ما أنس الطير؟

فقال: بعد ما صفا الصدر، ثم راجعتُ القول عليه ثالثًا ويقول لي مثل ذلك فقلت له: أي سيدي، وما علامة صفائه؟

فقال: حتى لا يبقى فيه من الخبث شيء لا لعدوك ولا لصديقك ولا لأحد من خلق الله تعالى، ولا يبقى عندك من الخلق واسطة في الضرِّ والنفع إلا الله تعالى.

ويكون الخلق كلُّهم عندك بمنزلِةٍ واحدٍة، حتى لو أنك في طريق وأتى سهم من خلفك ويعبر من صدرك، فلا تطّلع لِمَن رماك، ولا يخطر لك إلا الله تعالى، فعند ذلك يكون صدرك قد صفى، وأنس الطير.

ثم إن سيدي أحمد فتح كمّه وهناك شجرة وعليها فاختة[١] فطارت ودخلت في كمّه.

ثم حدثني ساعة والفاختة قد باضت في كُمّ سيدي أحمد، ثم ناولني البيضة وتركتها في كُمّي، ثم ضممتُ كُمّي، وهو يجول في كمي يطلب الخروج، فقال لي: افتح كُمّك، ففتحت كُمّي فطارت. فقال لي: لو صفا صدرك ما نفرت منك.

ثم قال لي: اصعد إلى هذه الشجرة واعمل لها عشًّا واترك البيضة فيه حتى لا يطالبنا الله تعالى فيها، ففعلت ذلك، فرجَعَتْ وقَعَدَتْ على البيضة، ثم قال: أي جمال الدين، إذا صفى الصدر انسرَّ به كلُّ شيء، حتى الوحش في الآجام.

وحكى فقير قال: كنت في البرّيّة -أو قال: في السياحة- فكانت الغزلان تأنس بي، وكان فيهم ظبي صغير ربما قال يقعد في حجري، فخطر لي يومًا أنّني آخذه وأحمله إلى بعض أولاد أصحابي، فحين خطر لي هذا الخاطر، قام وجرى وراح، فلما رأيته فعل

---

(١) اسم طائر، كما في التاج (١/١٣٧).

ذلك استغفرت الله تعالى ومحوت ذلك الخاطر عني، فعاد وأنس بي على عادته وصفا قلبه عليّ.

فالصفاء حالة تستوي فيها الأحوال، وتستقيم على استقامة الاعتدال، وتظهر فيها الحقائق، ويُرفع المحال ويزول لها حكم الأضداد، وترتع الأغنام مع الذباب، والغزلان مع الآساد.

[.....] [(١)] في معنى الحاء والميم ﴿**إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[هود:٥٦].

وليس هذا موضع إفشاء هذه الأسرار، ولا ظهور النهار في الليل ولا الليل في النهار، لما التزمناه.

وفاة الشيخ أحمد بن كرار

ولنذكر وفاة سيدي أحمد قدس الله تعالى روحه، مِمَّا حكاه الشيخ يعقوب بن كرَّار أنَّه لما مرض سيدي أحمد المرض الذي توفي فيه، قلت له: أي سيدي تجلي بالعروس في هذه المرة؟ فقال: نعم فقلت له: أين هذا القول من ذاك؟

فقال: أي يعقوب، جرت أمور اشتريناها بالأرواح شفقةً على الخلق فيه

قال: فقلت: وما ذاك؟ فقال: أي يعقوب، أَقبلَ على الخلقِ بلاُء عظيم فسألت الله تعالى دفعه عنهم ثم شريته منه بما بقي مِن عمري.

قال: وحكت لي سيدتي رابعة -رحمة الله تعالى عليها- قالت: استيقظت ليلةً من منامي فلم أجد سيدي عندي، وكانت تلك الليلة قبلَ مرضِه بليالٍ وهي ليلةٌ باردة، فصعدتُ إلى السطحِ، فوجدته قائمًا على رأسه وهو يمرّغ خدَّه وشيبته في الأرض ويبكي، ويقول: العفو العفو.

قالت: فتقدّمت إليه وقلت له: أي سيدي، أي شيء جرى؟ قال: أي مباركة، قد أقبل على الخلق بلاء عظيم لا يُحتمل معهم، وهذا الخلق خلق ضعيف لا طاقة لهم على ذلك، لكن قومي واسألي ربك وتضرعي إليه أن يجعلني سقف البلاء عليهم، وأنْ ينفُذ أمرُه فيّ دونهم، ولم يزل على ذلك ليله أجمع، ثم إنَّه بعد ذلك بأيامٍ مرض مرض

---

(١) كلمة غير واضحة ص:٣٦٥.

الموت.

واجتمع إليه أهل البيت وداروا حوله فقالوا له: سيدي، على أي شيء توصنا؟ فقال لهم: أي أولاد عثمان، مَن عمل خيرًا قدم، فعلم قصده فقال: أي علي، من لم ينتفع بأفعالي لم ينتفع بأقوالي، أي علي، وما هذا والفقراء؟ فإنّ العزيز سبحانه لَمّا بلّغني هذا الأمر عجزت عنه، فسلّمت إليه الحال وقَبِلَه منّي، وجعلنِي نائبًا ولا أَعْرِفُه منه إلاّ كما سلّمته إليه.

ثم قال: أي سادة، أي أولاد عثمان، عقدت لكم بيعةً مع العزيز سبحانه، لا تنحلُّ أبدًا مهما أنتم قيام بخدمةِ الفقراء.

ثم قال: أولاد عثمان، قد جعلكم الله تعالى قناطر للفقراء يعبرون عليكم وأنتم طريقهم، فانظروا كيف تكونون معهم؟ مِمَّن يسبقون مثل عبد الرحيم وسيدي إبراهيم وسيدي عبد السلام وجميع السلف، ثم قال لهم: أي أولاد عثمان، أنتم يعتقد الناس أنّ فيكم الخير، فكونوا كما يظنون، ثم قال: إن كنا مثل ما يظنون فينا فقد سعدوا وما شقينا، وإن لم نكن كما يظنون فقد سعدوا وشقينا.

قال الشيخ يعقوب: وكان مرض الشيخ بالخروج، فكان يخرج منه في كل يومٍ ما شاء الله تعالى، وبقي في المرض شهرًا، فقال له الشيخ سعيد: أي سيدي، من أين لك هذا كله؟ ولك عشرون يومًا ما تأكلُ ولا تشربُ، وفي كلِّ يوم تخرج ثلاثين مرة أو أكثر فقال لي: أي سعيد هذا اللحم يندفع ويخرج، وعدني العزيز سبحانه أنه ما يعيدني إليه وعلي شيء من لحم الدنيا، والآن فقد بقي المخ، يخرج اليومَ ونعود إليه غدًا إنْ شاء الله تعالى.

قال: فخرج منه شيء أبيض مرتين أو ثلاث وانقطع، وكان مع ذلك كلِّه لا يقول آهٍ، ثم إنّه درج إلى رحمة الله كما ذكروا، يوم الخميس وقت الظهر ثاني عشر جمادى الأول :سنة سبعين وخمسمائة وكان يومًا مشهودًا، ثم إنَّه ساعةَ عبورِهِ قال: أشهد ألاّ إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ.

وكانت آخر كلمة قالها، ثم قضى نحبه ولَحِق بربّه تعالى، وغسّله تقي الدين- فقيه بحر دويلي- وحمله خادمه إلى الرّواق وصلى عليه جماعة المسلمين، ودُفِن في قَبر الشيخ

يحي النجار، عمّت بركته.

وهذا ما اقتصرنا عليه مما ذكره الراوي في كتابه، ونعوذ بالله تعالى من الزيادة والنقصان، ونسأله العفو والرحمة والغفران.

الشهيد سيف الدين علي بن عثمان

والإمام العالم العارف السعيد الموفق الشهيد سيف الدين علي بن عثمان خِتْن الشيخ وابن أخيه فأقام بعده سنين كثيرة، ولم يزل مُكْرِمًا أصحاب الشيخ -قدس الله تعالى روحَه- ويعرف فضلهم وكان حاله عجيبًا.

يحكى عنه الشيخ مقدام شيخ القراء [...] أنه رحمه الله تعالى قال: خرجنا معه للسفر ونحن خلق كثير، فرأيته وقد ألقى نفسه إلى الأرض، وجعل يمرّغ خدَّه وشيبَته على الترابِ ويقول: يا رب، لا تفضحني بين هؤلاء الخلق، آية من كتاب الله تعالى ولا خبر عن رسول الله ﷺ، ولم يزل كذلك زمانًا، ثمَّ إنَّه قام واتجه إلى السفر، فرأيت منه عجبًا، حتى أنَّه كان إذا ألقى يده في يد التلميذ يصير له بصيرة ويكشف، وينظر، ولا يقدر أحدٌ يقابله أبدًا ومع هذا كله كان كثير التواضع إلى الله تعالى، ثم إنّه قال للفقراء: لو جرى على أحد منكم سبب من أمر السلطان أو ضيعته من أمر الدنيا فيطالبني بذلك، لأنه كان متمكنًا والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

فانظر إلى هذه الطريقة وهذا السلوك وهؤلاء السادة -نفع الله تعالى بهم ورضي عنهم وسلك بنا سبيلهم- ولا أخرجنا عنهم إنه أكرم الأكرمين.

وقد قلت شعرًا:

نجومُ هُدَى يَهْدِي بِها كُلّ سالِكٍ ... وشهب لأرجاس الشياطين قضى

قَضَى منهم بالحْالِ والفِعل ناطقٌ ... وناطِقُهم إنْ قَالَ فَهو مُصَدَقُ

فَهُمْ فِي اقْترَافِ القَولِ والفِعل واحُد ... ومَا مِنهُم إلاّ إمامٌ محققُ

فَمَنْ سَارَ سَيرَ الْمُصْطَفَى وسبيلَه ... بِه يَهْتَدِي فِي نُورِهِ ثُمَّ يلحِقُ

فَسِيرُوا بنا نقفوا سَبَيلَ طريقِه ... فإنْ أنْتُمُوا واقفْتُمونِي نُوفَّقُ

حكى السيد الشريف شرف الدين محمد الكلثمي قال: رأيت الإمام السيد عليًّا ﷺ في المنام فقلت له: يا أمير المؤمنين، ما حقيقة الفقر؟ فقال: قَد سأَلَنِي عن ذلك عبد العزيز قلت: وصفه عبد العزيز -قال الذي عرف بالمنوفي- ثم قال بعد ذلك: الشريف قلت له: فما قلتَ يا أمير المؤمنين؟ قال: قطع الأمل ثلاث مرات.

قال: فلمَّا استيقظتُ جئت إلى الشيخ عبد العزيز وقلت له: رأيت السيد الإمام على بن أبي طالب ﷺ قط؟ قال لي: نعم قلت: فما سألته؟ فقال: يا بطيطيل جئتَ تقول لي منامَك إذا خرج هؤلاء من عندي، فقال: وكان عنده أناس أجناد، فلما خرجوا من عنده جئت إليه فقال لي: أنت تقدر على قطع الأمل؟ ولا أنا هذا مما لا تقدر عليه- رحمه الله تعالى.

وكنّا ذكرنا ذلك في معنى الفقر وحقيقته، وإن لم نكن ممن قطع الأمل والفقير حقيقته لا أمل له، ودنيا الفقير حياته، فمهما طلب البقاء أو الحياة يومًا أو ساعةً أو لحظَةً أو نفسًا مِن الأَنْفَاسِ أو زمنًا مِن الأزمان، فقره بحسب طول أمله وقصره، والمكاتَب قِن ما بقي عليه درهم، ومحو الأمل هو الفقر، ولا فرق في وجود المال و عدمه إذا تحقق ذلك في القلب، والأولى: في مثل زماننا أن يكون خليَّ القلب من الآمالِ، والكفِّ من المال، لأنَّ الدعاوى كثيرة ودسائس النفوس غامضة.

وعلى الجُملة كيف كان حال رسول الله ﷺ ظاهرًا وباطنًا؟ فهو أكمل الأحوال، ومن كان على منهاجه وتبعيته فهو أكمل الرجال.

وحدثني الشيخ يعيش بن محمود قال: كنت يومًا بجامع دمشق، والشيخ عبد الرحمن شملة متكئ وأنا أغمر رجليه، والملك الأشرف قد جاء إلى زيارته وهو متكئ على حالته، وأنا أغمره فجلس السلطان الملك الأشرف على ركبته وقبَّل يده وقدَّم إليه ألف دينار وقال له: يا سيدي هذه اصرفها في حوائجك -أو كما قال- فقال وحياة أبيك ما لي بها حاجة فقال: يا سيدي أطعمها للفقراء قال له: وحياة أبيك ما عندي فقراء قال: يا سيدي فرّقها على فقراء الجامع فقال له: يا ولدي ادفع لهم بيدك حتى يبقى لك الثواب فقام السلطان ولم يأخذ منه شيئًا فلما قام قال لي: يعيش قلت: لبيك قال: هذا الطواشي من أين؟ قلت له هذا السلطان الملك الأشرف قال: بجاه أبيك؟ قلت: نعم.

فلمّا كان بعض أيام حضر السلطان إلى زيارة الشيخ عبد الرحمن، وقال يا سيدي لي عندك حاجة تقضيها لي قال: وما حاجتك؟ قال له: يا سيدي أبني لك رباطًا فقال: فقام الشيخ عبد الرحمن وأخذ بيد السلطان ومشى به في جامع دمشق

ودار به جميعه وقال له: تقدر تعمل لي زاوية مثل هذا قال يا سيدي مال الشام عشر سنين ما يكفي مثل هذا، فقال: هذه زاوية معمولة بلا تعب.

فانظر إلى هذا الفراغ لأنه لم يبق في الدنيا موطن ولا أمل.

وقيل الفقير من لا يطأ زوجته بعد الحمل لأنه لم يكن يطأها إلا لأجل النسل واتباع السنة لذلك وما بعد ذلك فإنّه لأجل الشهوة، وهذا يفترق بحسب النية في الباطن إن كان يقصد به رضا أهلِه وحسن المعاشرةِ المطلوبة منه والتحصين له أم لا.

وقيل: الفقير من لا يسأل الله تعالى حاجةً في الدنيا ولا في الآخرةِ، وهذا يفترق بحسب النية أيضًا؛ لأنه إذا سأله للتعبّد لقوله تعالى: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [غافر: ٦٠]، ولمصالح المسلمين الذين يبقون بها على دين الله تعالى، أو رفع السخط عنهم، مهما كان لاحقًا بأفعال رسول الله ﷺ كان أتم وأكمل وذلك لأن شأن الفقير سلب الاختيار مع الله تعالى، وعدم الاعتراض عليه في فعله وهو العالم الحكيم الفعال لما يريد فليس لسؤاله فائدة عنده، لأنه يدبر ملكه كيف يشاء وهو يرى سؤاله من حظوظ نفسه، وكيف ما كان صورة ويظهر فيها تعظيم خالقه وتصغير نفسه فعلها.

والفقير لا حظ له من حيث الجملة في دنيا ولا آخرة وحكي عن الشيخ الظهير بن كَساء أنّه لَمّا دخل بغداد أرسل إليه الخليفة ألف دينار ففرّقها بعصا المروحة ولم يمسَّها بيده، ولا ترك منها درهمًا واحدًا لنفسِه فقيل للخليفة ذلك فأراد أن يحمل إليه شيئًا آخر فقالوا له: لا فائدة فيه فإنه يفعل به كذلك، ولَمَّا وصل إلى مدينةِ قُوص لم يقع الاجتماع به.

وكان ينزل المدرسة النجيبية عند الشيخ مجد الدين وكان علمًا، فاتفق كما حكي لي أنه حلق رأسه وقعد يتوضأ على الفَسْقية وهو مكشوف الرأس، فجاء فقيران من المسافرين فقال أحدهما للآخر: هذا الظهير بن كساء إيش حسبك فيمن يضحك ويعصر نفسه؟! فتراهنا على ذلك فدخل أحدهما وصفعه فقام الفقهاء ليقتلوه فقام إليهم فربما قبّل يده، وقال: هذا الرجل خطر في نفسي خاطر سوء فأدّبني، وجعل يتبرّك.

وحدثنا عنه أنه كان كلّفوه القضاة لفقهه ودينه فركب والشهود أمامه وهو في محل فوجد في السوق إنسانًا يرقّص الدُّب وهو يقول: يا دَكس دَكس إنك ولد نَحس، فنزل مِن على البغلةِ وقال: هذه رقْصَتِي وجعل يَرْقُصْ فِي السوق وخلع ثياب الحكم فتركوه.

وكان أخوه نصير بن كساء جليل القدر ولم يكن مشهورًا كشهرة الظهير وكان من أصحاب الشيخ أبي الغيث، حدثني الشيخ عبد العزيز، رحمه الله تعالى قال: رأيت نصير بن كساء عند المدرسة الكاملية أو الصالحية واقفًا والفقهاء يبحثون في نجاسَةِ الماء وطهارته، فقلت له: ما يوقفك ها هنا؟ فقال: هؤلاء الفقهاء في تَعبٍ عظيمٍ فقلت له: هكذا ليبينوا للناس فقال لي: والله يا شيخ عبد العزيز ما أعلم أنا طهارة الماء ولا نجاسته إلا من الماء يقول لي: أنا طاهر فتوضأ مني أو يقول: أنا نجسٌ لا تتوضأ مني وهذا معناه:

قـــومٌ لهـــم عِنـــدَ الإلـــهِ مكانُـــة فَلـيْسَ لَهُـم مِـن دُونـه حِجَـابُ
فما حُجِبَتْ عَنِ الظِهورِ قلوبُهم ولا غُلِّقَتْ مِن دُونِهم أبوابُ

* * *

خاتمة الجزء الأول من الوحيد في سلوك أهل التوحيد

تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة عبد الغفار بن أحمد بن عبد المجيد بن محمد الأنْصاريّ الشافعيّ، رحمه الله تعالى، ونفعنا بعلومه بحمد الله تعالى دعوته وحسن توفيقه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ورضي الله تعالى عن ساداتنا أصحاب أصحاب رسول الله أجمعين وحسبنا الله ونعم الوكيل وكان الفراغ من كتابة هذا الجزء يوم الأحد المبارك خامس عشر من شهر صفر سنة ٧٠٨ من هجرة خاتم المرسلين ﷺ.

١

١

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الثاني من الوحيد

للشيخ الإمام العامل العلامة سيدي عبد الغفار بن نوح القوصي، تغمده الله تعالى برحمته وأدخله فسيح جنته، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.
وقف هذا وتصدق به ابتغاء وجه الله تعالى وطلباً لمرضاته الأمير أحمد أغا باش جاويش تفكجيان، وجعل مقره في خزانة جامع شيخون وتحت يد إمامه، تقبل الله منه، ذلك بتاريخ سنة ١١٩٣هـ.

قال رحمه الله:

وحدثني السيد الشريف شرف الدين محمد الكلثمي الحسني قال:

كنت قاعدًا على زريبةٍ بين رباط الصاحب فخر الدين رحمه الله، أنا وعبد الله في يوم الجمعة، ونحن نأكل شيئًا في القرافة الكبرى ليلة أيام النيل، فرأيت شخصًا حائيًا في البحر، وهو على وجه الماء متعلقًا عنه تقدير ذراع، وهو منبطح، فلما جاء إلينا وجلس عندنا وجدناه أبا عبد الله بن الشاطبي، الذي كان مقيمًا بالمسجد المعلق بالإسكافيين بمصر.

وحدثني أيضًا أنه كان هو وأبو عبد الله الشاطبي المذكور والوجيه الإخميمي رحمه الله -وكان رجلاً صالحًا- قال الشريف:

وكنا ببيت المقدس عند الصخرة، فتذاكرنا قصائد المنجم بن إسرائيل، فاشتقنا إليه، فقال الشيخ الوجيه: قوموا بنا إليه.

فقمنا بعدما صلينا العصر فأصبحنا بدمشق -ولا عرفت كيف كانت الطريق- فقال الشيخ أبو عبد الله للشيخ الوجيه: هكذا يا شيخ، تستعدنا بغير اختيارنا؟ فقال يا شيخ، أسفنا، فلتسامح.

وحدثني الشريف المذكور أيضاً أنه كان هو والخطيب تقي الدين القسطلاني يقرءون على الفقيه عبد الحميد المشهور بمصر، وقد أتى إليه الشيخ المجد الإخميمي، فشكا الفقيه عبد الحميد الشيخ أبو العلم يس للشيخ المجد، وقال له: يا مجد الدين، أهكذا يفعل معي أبو العلم يس؟ يخرجني على أن يسقيني فقاعًا؟ فخرجت معه

إلى السوق فما أعجبه الفقاع، فلم أدر إلا و أنا على دكان فقاع بالجيزة، أهكذا يفعل الناس بالناس؟ وجعل يعاتبه على ذلك.

وحدّثني الشريف أيضاً أنه رأى الشيخ وقد أخذه حال فوق سطح الجامع بمصر، فقام وبقي يطوف في الهواء على رءوس شرائف الجامع، وربما كان بمحضر من الناس.

وذكر أن شخصًا من أصحاب الشيخ أبو العلم ياسين بعد موته أراد أن يطير مثله من سطح الجامع، فوقع فكُسر، فعالج نفسه زمانًا ومات.

وحكى هذه الحكايات الثلاث -والرابعة التي قبلها- عن الشريف عبد الرحمن في تاريخ الحادي عشر من جمادى الأول سنة ثمان وسبعمائة، فانظر رحمك الله إلى أهل زمانك، وأحسن ظنك بربك ﷻ وأقدم بكليتك، ولا تخش معه ذنبًا، فإن الله تعالى: ﴿**يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً**﴾ [الزمر:٥٣] و﴿**وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّه**﴾ [آل عمران:١٣٥].

إســاءة الظّــن

وإياك وإساءة الظن؛ فإنها تغلب الأعيان، وتصيّر الخير شرًّا، كما أن حُسن الظن يغير الشر خيًرا، وكذلك النية، فمن يقع على زوجته في فراش غيره على نية أنها غيرها فيلحقه الإثم بمقصده، وبالعكس منه، لو وجد على فراش زوجته غيرها فوقع عليها معتقدًا أنها زوجته لم يأثم.

وحكى ابن قَسي في كتابه(١) أن عابِدَين، قُيّض لأحدهما ملك في مدرجة عمله، فكان يدلُّه ويهديه ويكلمه، وما يعبأ بهذا، فأساء الظن بربه، وجعل يقول: إليك عنى، فإنك شيطان غوي، تريد أن تضلني.

وقُيّض للآخر شيطان في مدرجة عمله، فحسن الظن بربه، وجعل يقول: من أين لي أن جُعل لي ربٌّ مثل هذا؟ فأنزل الله تعالى مكان الملك شيطان، ومكان الشيطان ملكًا، وكان ذلك ثمرة حسن الظن.

---

(١) هو «خلع النعلين»، وقد شرحه الشيخة الأكبر.

وإن سليمان عليه السلام صنع له الجن صنعة، جنة من قوارير فيها من جميع العجائب لتفتنه بها الفتنة الكبرى، فسبق إلى قلبه حسن الظن بربه وخرّ لله ساجدًا، فأنبتها الله له جنة يراها دون غيره.

وحدّثني الشيخ أبو عبد الله المالقي البلخي قال: سافرنا من المغرب جماعة، وكان معنا شخص سيء الظن، فقال إنه يعرف الطريق، وتقدّم لدلالة الطريق، فضللنا سبعة أيام، لم نأكل فيها ولم نشرب، قال: فقمت ومشيت، فوجدت مقتاتًا من الحنظل، فأكلت منه، فوجدته فَقوسًا حلوًا، قال: فقمت ومشيت، فناديت الفقراء فجاءوا وأكلوا فقوسًا حُلوًا، وحملوا معهم شيئًا من ذلك، فجاء ذلك الرجل السيء الظن فأخذ واحدة وأكلها فوجدها مُرّة، فقال للفقراء: ما هذا إلا حنظل، فصار كله حنظلاً، ولا رجع أحد يأكل منه شيئًا.

فإياك وسوء الظن على أي وجه كان بسيطًا أو جدًا.

فقد حكى لي الشيخ عبد العزيز - رحمه الله تعالى - أن فقيرًا كان يُسمَّى القَرافي اشتغل بصنعة الخيال وعمل خيّالاً، فجرى بينه وبين فقير كلام، فقال له ذلك الفقير: أنت منكر الله بك؟ فقد ردّك من الفقير إلى الخيّال، فتألم من ذلك، فعمل لذلك الفقير بابًا من الخيال، فأخذ يقصّ عليه أنه صوّره، وجعله قاعدًا على دُكَّان عَطَّار، وجُوال[١] من بندق وآخر من حنّاء قدّام العطار، ثم جاء الفيل السوق، فلف زلومه على ذلك الفقير وحمله وضرب به الأرض فقتله، ثم جاء الفقراء وحملوه وغسّلوه ودفنوه، وصارت هذه بابه قبالهم.

وتشوش الفقير، واشتكاه إلى الصاحب بهاء الدين -رحمه الله تعالى- فسيّر خلفه، ومنعه من ذلك، فلما كان يوم من أيام سوق مصر، والفقير جالس على دُكان عطار، وقدّامه جُوال حناء وجُوال بندق، والفيل قد أقبل، ولفّ الفيل بزلومه، وحمله وضرب به الأرض فقتله، وجاء الفقراء وحملوه وغسلوه ودفنوه، كما صوره في الخيال ظهر في الحين.

(١) مثل: الشوال، بالعامية.

فإياك يا أخي والاعتراض على[1] هذه الطائفة بوجه من الوجوه بسيطًا أو جدًا، ولتحتال لهم في التأويل عند ظهور ما لا يوافق العلم كيف قدرت، فإن عجزت فقل: نبهك الله عليه، ﴿**وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف:٧٦].

ولقد كان الشيخ سراج الدين بن دقيق العيد أخو الشيخ تقي الدين -رحمهما الله تعالى- رجلاً فاضلاً عالما، وكان له صاحب، فقلت له يومًا من الأيام: ما أجد في الأرض من يعلم ما حلل الله تعالى علي ولا ما حرم، فقال لي: كيف هذا؟ فقلت: أنت تعلم أن الحلال والحرام من حيث الجملة لا من حيث التخصيص في كل شخص، فإن الله تعالى أباح محظورات عند ضرورات، والضرورة التي تبيح لي ذلك المحظور ما يعلمها غيري، فيقع الإنكار منك من حيث علم ذلك لجملة التحليل والتحريم، لا من حيث التخصيص ولا من حيث إباحة الشرع عند الضرورة، فقال: أُشهد الله أنى لا أنكر على مسلم بعد اليوم.

ولقد أدبني الله تعالى على لسان طفل، وذلك أنّا كنا مسافرين فأرسينا على قرية منشأة أخميم- وكان قرب المغرب - فطلعت لأتوضأ وهناك زرع، وقد استوى فيه الفريك، فقال أصحاب الزرع: نحن نريد أن نذهب لبيوتنا، ونشتهي ألاّ تدعوا أحدًا يشوش علينا في زرعنا - أو كلام هذا معناه - فهم اختشوا من أصحاب المركب، وراحوا إلى بيوتهم.

فلمّا طلعت أتمشّى وأتوضّأ، وجدت طفلاً -ربما يكون عمره أربع سنين أو خمس أو دون ذلك أو أكثر منه- وهو يقطع في الفريك، ويجعله في مقطف معه، فقلت له: أتأخذ زرع الناس؟ فالتفت إلي وقال لي: من أنبأك أن هذا غير ملكي؟ فلما قال لي هذا انتبهت، وحصلت لي حالة، فتبت إلى الله تعالى، وكانت تلك الحالة سبب توبتي من الإنكار والاعتراض، وذلك أن الذي قاله الصبي كلام صحيح، وهو أنه لا يجب الإنكار إلا بعد تحقيق المنكَر، فكأنه يقول: إذا لم يصح عندك أنه غير ملكي فكيف أنكرت عليّ من غير علم ولا يقين؟ فهذه إساءة الظن، وإساءة الظن بالمسلم حرام،

(١) في الأصل: (إلى).

فرجع الإنكار على في إنكاري عليه، فتبت إلى الله تعالى، واستغفرت من ذلك.

وفي حسن الظن وترك الاعتراض من الخير العاجل والآجل ما لا نهاية له، وقد قيل:

أَحْسِـــنِ الظَّـــنَّ تَسْـــتَرِيحُ خَـــابَ مَـــنْ ظَنُّـــهُ قَبِـــيحُ

وكان الشيخ أبو العباس- رحمه الله تعالى -يقول: لولا حسن ظني ما حييت.

وأخبرني أجل الإخوان ممن أثق بهم من فقير قال: وردتُ على فقير من الخضرية -وهم يرون بصحبة النساء ومؤاخاتهن، وهو شيء لا نرى به ولا نسيء الظن بالمسلمين، فكيف بمن سلك طريقًا إلى الله تعالى؟ قال:

فلما نزلتُ على ذلك الفقير وصّى زوجته بإكرامي، وخرج وتركني عندها، وجاء الليل، وربما قال: فرشت لي ورقدت، وربما قال: غمرت رجلي ورقدَت تحت رجلي، فحصل عندي ما يحس من شهوة النفس، فربما قال: رميت يدي عليها -أو كما قال- فرفعتها رفعًا لطيفًا من غير انزعاج، فلمتُ نفسي لذلك، ثم غلبت عليَّ نفسي أو كما قال، فوضعت رجلي على رجلها أو على ساقها، فرفعَت رجلي رفعًا لطيفًا عنها، وقامت وراحت إلى ناحية أخرى، فأخذيت نفسي.

وأصبح الصبح، وجاءت بالوضوء، وإذا بالفقير زوجها قد حضر، والتفت إليها وقال لها: مالك؟ وضع الفقير يده فرفعتها، ووضع رجله فرفعتها، وقمت ورحت إلى ناحية أخرى.

فحصل لي من الخَجَل ما لا أستطيع أن أُبديه، وربما كان سبب توبته ورجوعه إلى الله تعالى رجوعًا كليًّا.

وحكى الشيخ عبد العزيز- رحمه الله تعالى- أن شيخًا من المشايخ كان له مريد يمشى معه إلى أن جاء إلى جهة من جهات الخواطي، فقال له: قف، ودخل، -وربما قال فعل وخرج-، فقال له: ما رأيت؟ قال: رأيت عبدًا تجري عليه أحكام الإرادة، فأمدّه الشيخ بباطنه حتى وصل إلى حالة جليلة لا ينبغي أن يستخدمه فيها، فقال لي: ما بقي يحل لي أن أستخدمك، وكان يخدمه قبلاً.

وهذه الحكاية وإن كانت تحتمل التأويل في دخوله وخروجه، فقد يكون القصد في اختبار المريد إن كان يتغير إذا ظهر أن الشيخ عنده قد ارتكب محظورًا أم لا، وعلى

الجملة إن وقع ذلك، فلم يكن مبطلاً للولاية لأنه غير معصوم، والعصمة شرط في النبوة لا شرط في الولاية.

ولما سُئل الجنيد: أيزنى العارف؟ فقال: ﴿**وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورا**﴾ [الأحزاب:٣٨] [١].

والحديث: «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقومٍ آخرين، يذنبون ثم يستغفرونه فيغفر لهم**[٢]».

وروي: «**المؤمن كالهرّة، تدفع الخبث ثم تتطهر**»[٣] وقد تكون البقية التي قدرت عليه تحجبه عمّا يُفعل إليه من علو مقامه، وهو شهدها، وهو يتولى الوقوع فيها حتى يرفعها الله تعالى بقضائه فينتزع إلى الله تعالى ويلجأ إليه فيكون ذلك سببًا لوصوله إلى مطلوبه، فربّ قطيعةٍ جلبت وصالاً، وكم ذا في الزوايا من خبايا.

الشيخ أبو العباس العزفي[٤]

كما حكى عن الشيخ أبي العباس العزفي رضي الله عنه كان عظيم الشأن بالمغرب، وكان كثير السياحات، وله أحوال عظيمة وكرامات، أقام اثني عشر سنة لم يحل بينه وبين السماء والأرض حائل، وهو ممن اجتمع به الشيخ صفى الدين بن أبي المنصور.

وكان الشيخ أبو العباس أقام بمكة- شرفها الله تعالى- ست سنين، لم يأكل ولم يشرب سوى ماء زمزم، وربا عليه الشحم و اللحم، وكان له وصلة بالنبي ﷺ، إذا سلم على النبي ﷺ ردَّ عليه السلام، ويجاوبه إذا تحدث معه، وكان مدة سياحته مستغرقًا إلى

---

(١) ونسب هذا القول أيضًا لأبي يزيد البسطامي-قدس سره- كما في السيوف الحداد لسيدي مصطفى البكرى (ص٧٥) .

(٢) رواه مسلم (٢١٠٦/٤).

(٣) لم أقف عليه.

(٤) العزفي نسبة إلى جد له يعرف بابن أبي عزفة، من بني لخم ، من سلالة النعمان: أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد العزفي، ثم اللخمي، فقيه مالكي أندلسي. لزم التدريس بجامع سبتة طول حياته- قدّس الله تعالى روحه، ونوّر ضريحه- صنف في كرامات الشيخ الصالح سيدي أبي يعزى، وما نُسب إليه من الفضل الذي لا شك في مثله إلى مثله يعزى، وهو «دعامة اليقين»، له نظم حسن، وتآليف منها (برنامج) برواياته.

أن رأى أمير المؤمنين يعقوب مرأى، ووجد في نفسه أحوالاً من أحوال المريدين.

وكان سببها أنه قتل أخاه غيرةً على الملك، فندم ندمًا أورثه توبةً أثرت فيه آثارًا حسنة، فشكا ذلك إلى مريدة كانت تدخل قصره، فقالت له: هذه أحوال المريدين.فقال لها: فكيف أعمل بنفسي؟ أخبريني بدواء. فقالت له: الشيخ أبو مدين سيد هذه الطائفة في هذا الزمان.

فبعث إلى الشيخ أبو مدين، فطلبه طلبًا حثيثًا، فأجاب الشيخ أبو مدين على رسله وقال: فليطع الله، وأنا لن أصل إليه، فأنا سأموت بتلمسان - وكان الشيخ حين ذلك ببجاية - فلما وصل لتلمسان قال لرسل يعقوب: سلموا على صاحبكم وقولوا له: شفاؤك على يد أبي العباس العزفي، وفقهك على يديه.

ومات الشيخ أبو مدين بتلمسان، ومضت الرسل إلى يعقوب، وأخبروه بما قال الشيخ، فطلب أبا العباس طلبًا حثيثًا، وسيّر إليه إلى سائر الجهات إلى أن ظفروا به، فأخبروه بما عليه من الطلب، ووجد إذنًا من الحق بالاجتماع به، فمشى إلى أن اجتمع به، ففرح يعقوب بالظفر بوجوده، فأوّل ما عمل له من الطعام دجاجتين، إحداهما مذبوحة والأخرى مخنوقة، وسأله أن يتناول الأكل ليؤاكله، فنظر الشيخ إلى الدجاجتين وأمر الخادم برفع المخنوقة وقال: ما هذه دجاجة؟ هذه جيفة. وأكل من الأخرى، فسلّم يعقوب نفسه إليه، وأنزل نفسه منزلة خادم، وفُتح له على يديه، ونزل الملك-وما أدراك ما ملك المغرب في زمن يعقوب!- واجتمع مع الشيخ، وثبتت قدم يعقوب في الولاية ببركة الشيخ أبو العباس وإشارة السيد أبي مدين.

وبما جرى ليعقوب بإشارة الشيخ أبي العباس أن الناس كانوا محتاجين إلى المطر، فركب على بغلة، وركب يعقوب على فرس، وخرجا إلى ظاهر مراكش ونزلا برباطه، فقال الشيخ أبو العباس العزفي ليعقوب: صلّ واستسقِ للمسلمين، فقال:

يا سيدي، أنت أحق بذلك وأولى، فقال له: بهذا أمرت، فصلى يعقوب ودعا، فنزل المطر على المسلمين.

التوكُّــل

ولهذا الشيخ أبي العباس من الغرائب والعجائب كثير، منها ما حكاه الشيخ

الإمام العالم أبو محمد صالح شيخ وكالة بالمغرب، قال:

كنت مع الشيخ أبي العباس العزفي في السياحة، فغيبت عنه وهو نائم، ثم جئت إليه لأجد حيّةً عظيمة قد طوقت على حلقه، ورأسها قبالة وجهه وهي تقأقئ كما تقأقئ الدجاجة، ففتح العباس عينه فرآها، ثم نام إلى أن سمعت غطيطه، فسمعت مخاطبةً من السماء: يا أحمد، لقد عجبت ملائكة السماء من توكلك، ثم تحللت وانصرفت.

وهذه الحكاية من باب التوكل، وإنما ذكرناها هاهنا لإثبات جلالة الشيخ أبي العباس في المقامات.

حُسن الظن

والكلام في حُسن الظن أولاً يُنافى كل من اتصف في وصف الطريق؛ لأن الخصائص الوضعية لا يسوءها النقائص الكسبية، وما قصّه الله تعالى في كتابه العزيز من حديث إخوة يوسف -عليهم السلام- لم يخرجهم عن كونهم أنبياء، ولا حجبهم عمّا كان لهم في سابق العلم من التخصيص الإلهي، ولسنا نذكره لك ضربًا للمثل بالأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه لجلالتهم في صدورنا وتعظيم شأنهم عندنا، وما خصّهم الله تعالى به دوننا، وتالله في ذلك من الحكم الإلهية والأسرار الربانية، وسواء كان ذلك قبل النبوة أو بعدها، فإنهم صلوات الله عليهم وسلامه على أشرف الأحوال وأكملها في كل حال وعلى كل حال ومع كل حال، وإنما ذلك تنبيهًا على الدليل على إكرام الأولياء؛ إذ لهم حصة ميراثهم من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، ولأن حسن الظن بهم واجب وإساءة الظن حرام في كل مسلم، وما لم يتحقق المنكر لا يجب إنكاره، ومن أنكر على مسلم من غير تحقق فقد أساء الظن به، وإساءة الظن حرام، وأما ما يظهر على ظواهرهم من الامتحان والابتلاء والاختبار فذلك لجلالتهم ونصيبهم من ميراثهم من النبوة، ففي كتاب الله تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى**﴾ [الحجرات:٣].

وقال تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ**﴾ [محمد :٣١].

وفى الحديث: «**نحن معاشر الأنبياء أشد بلاء والأمثل فالأمثل**[1]».

بلاء النبيين

فلذلك كان لهم نصيبٌ من البلاء على قدر علو رتبهم عند الله تعالى، ولأن الله تعالى ما شكر عبدًا من عبيده إلا بعد الابتلاء، والصبر على البلاء والشكر على النعمة، فمن ذلك قصة أيوب عليه السلام وقوله تعالى: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾ [ص:٤٤].

وقوله تعالى عن غيره من الأنبياء: ﴿**إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً**﴾ [الإسراء:٣]، وهو نوح عليه السلام.

وفى نص القرآن الابتلاء لكثير من الأنبياء عليهم السلام كقصة داود عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ**﴾ [ص:٣٤]، وهذا سار في كثير من الأنبياء، فمن ابتلى بالقتل ومن ابتلى بالنشر ومن ابتلى بحرب الكفار، وذلك كثير، ويكفيك قوله تعالى: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ *وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ**﴾ [آل عمران:١٤٦، ١٤٧].

وما أنالهم على ذلك، وللأولياء من ذلك حصتهم، وفى نبينا محمد ﷺ تحمل الابتلاء كما تحمل الدين لله ووضع الرضا بالبلاء كما رضي لهم الإسلام.

وقوله ﷺ: «**ما أُوذي نبيٌّ كما أُوذيت**[2]»، وإن كان غيره قد نُشر، وقتل غيره وابتلى بأنواع من البلاء لم يظهر ذاته العلية إلا ما ظهر عليه من أذى قومه وتكذيبه وشج جبينه وكسر رباعيته ونفض الكرش على رأسه، وغير ذلك.

فعن ذلك أجوبة نرجو أن يكون الصّواب فيها إن شاء الله تعالى.

---

(١) ذكره الحجة الغزالي في إحياء علوم الدين (٤/ ٢٨٧)، وقال العراقي: رواه أحمد وأبو يعلي والحاكم وصححه على شرط مسلم بنحوه مع اختلاف.

(٢) رواه الترمذي (٤/٦٥٤)، والنسائي في الكبرى (٥/٣٦١)، وابن ماجه (١/٥٤)، وأحمد في مسنده (٣/١٢٠)، بنحوه.

فمن ذلك أن كل نبي أرسله الله تعالى إلى أمة من الأمم حصل له من البلاء في أمته على قدر علو رتبته عند ربه، ورسوله محمد ﷺ أرسل إلى الكافة من الناس، فكلُّ بلاءٍ كان متفرقًا في الأمم اجتمع له وابتلى به حسب منزلته عند ربه تعالى وعلو شأنه، ولأنه خاتم النبيين ولا نبي بعده، فلا بلاء لنبي غيره.

الوجه الآخر أن الله تعالى قصّ عليه من أنباء الرسل ما يثبت به فؤاده.

وكان ﷺ كلما سمع ما جرى لنبي من أنبياء الله تعالى من الإيذاء والبلاء يتصف به، ويجد ما يجده ذلك النبي من الألم والأذى ومن الغيرة على الدين، وتكذيبهم أنبياء الله ورسله، وما يقوم به من المشقة والرحمة لأتباعهم المؤمنين وما حصل لهم.

ولأن الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه إخوته في النبوة والإرسال، وقد كان ﷺ إذا سمع بمصرع أحد من أصحابه يبكى، ويُخبِر عمّن جرح في السرايا والغزوات ممن قتل، ويبكى وهم في بلاد العدو وهو في المدينة ﷺ.

وقال: **«أخذ فلان الرَّاية فأُصيب، وأخذها جعفر فأُصيب»**، وكان يبكى عند ذلك، وقال: **«أخذها خالد بن الوليد ففتح الله تعالى عليه[1]»**.

فكيف بالأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه وهم عنده بمحل الأخوة والمحبة والقرب من الله تعالى بالمحل الذي هو أعلم به من غيره ﷺ؟ وقرب الزمان وبعده في محل الكشف والإطلاع لا حكم له؛ لأن النظر بنور الله تعالى سابق له فيتصف بصفات ذلك النبي وما أصابه، وقد يكون ألمه أكثر مما أصاب غيره بحسب علو مقامه وإيلامه لتكذيب رسل الله وقتلهم، وحرصه على الإيمان والإسلام لأنهم حالفوا الله تعالى.

المحبّة على قدر المحبوب

وكما أنك إذا شاهدت ولدك وقد قطع بالسيف وذبح بحضرتك تجد من الألم الكثير، وكذلك إذا مرض أو قلعت عينه أو وجعه ضرسه وأنت تحبه بكل قلبك كيف تجد قلبك عند أنينه وألمه؟ فقد قيل عن بعض المحبين أنه كان له جارية، وكان يحبها، فقعد يحرك لها الشراب، فأنَّت فحصل له من الألم لأنينها ما غيبه من التحريك للشراب بالمغرفة، وكان يحرك الشراب بيده حتى وقعت أصابعه وهو لا يدرى، فالمحبة في الله تعالى

(١) رواه البخاري (٤٢٠/١)، وأحمد في مسنده (١١٣/٣).

أعظم وأكبر؛ إذ المحبة على قدر المحبوب.

والأنبياء متحابّون في الله تعالى وهم نوابه وشهود النبي ﷺ لما وقعوا فيه من البلاء محقق؛ إذ كل ما قصّه الله تعالى عليه هو مشاهد له في حال قصصه ذائق له، فلذلك يتصف به، فما أوذي نبي كما أوذي ﷺ.

والأولياء حصتهم من ميراث نبيهم صلوات الله عليه وسلامه.

وقد سطر في الكتب عن الأولياء المتقدمين وما حصل لهم من الأذى والبلاء والقتل ما لا يسعه هذا الكتاب حتى أن أحد الصالحين قال: اشتهت نفسي رمّانة، فجئت فوجدت إنسان قطعه الجذام، والزنابير تلذعه، وهو مع ذلك يتضرع، قال: فأدركتني الشفقة عليه فقلت: يا رب، مجذوم والزنابير تلذعه، وهو مع ذلك يتضرع، قال: ففتح عينيه وقال: من هذا الفضولي الذي يدخل بيني وبين ربى ﷻ؟ والله لو قطعني إربًا إربًا ما ازددت إلا حبًّا، ثم قال لي: أكل الزنابير أو لذع الزنابير خير من شهوات الرمّان؟

فانظر يا أخي إلى هذا الرضا، ولسنا نذكر المتقدمين؛ فقد صُنف فيهم كتب، وإنما قصدنا أهل زماننا، فقد جرى لزين الدين عيسى بن مظفر الأرمنتي بقوص في يوم واحد أنه قال: خمس بلايا عظيمة في يوم واحد. وهو راضٍ منشرح، ورأيته وهو مصطحبًا لي لم يتغير لواحدة منها، منها أنهم ضربوه بالمقارع، ومنها موت ولده، وغوران بئر ساقيته ببقرها، ولم أتحقق الباقي، وكل ذلك ربما كان إلى وقت الظهر، وقد تقدم ذكره.

الشيخ يعيش بن محمود

وحدثني الشيخ يعيش بن محمود- رحمه الله تعالى- قال: خرجت أطلب قرية من قُرى الشام، وكان عشية، واعتقدتُ أن أصل إليها قبل الليل، فغابت الشمس وجاء الليل وأوقدوا سراجًا في القرية، فبقيت أنظر إلى السراج، وكان هناك رجالٌ يحفرون حول البلد أجبابًا يخزنون فيها الغلة، فسقطت في جبّ من تلك الجباب ولا عندي علم، فلحقتني قرنة في رأسي ففتحَت رأسي، وسقطت في أسفل ذلك الجب، ووضعت يدي في حيطانه من الألم، وبقيت إلى السَّحر في ذلك المكان، والدم يجرى على لحيتي.

قال: فبينما أنا كذلك، والفلاحون قد خرجوا من تلك القرية، وهم ينادون

بعضهم بعضًا، ونادى أحدهم: يا عمَّار، يا فلان، فردّ الآخر تراني أقضى حاجتي وأجيء.. قال: فجاء وقعد على الجب الذي أنا فيه، وقضى حاجته، فنزل ذلك على لحيتي ووجهي، ماؤه وخراؤه، فقلت إيش هذا؟ فمع قولي: «إيش هذا»؟ إذا بالرجل قد تروّع واسترخى فسقط عندي، وبقى متخوّفًا، وزعم أنني من الجنّ، فكلمته ولاطفته حتى سكن، وبقى أصحابه ينادونه وهو يجيبهم بصوت خفي حتى استدلوا عليه بسماع صوته، فجاءوا على رأس ذلك الجب، فقال لهم: أنا وقعت، فراحوا وأتوا بقفة وحبل، فقلت له: دعني أطلع في الأول لئلا يتركوني ويذهبون، فقعدت في القفة وجعل يقول لهم: ترفّقوا حتى وصلت إليهم، فقالوا ما هذا؟ فقال لهم: احتفظوا به؛ فإنه قطع معلاقي في بطني، فمسكوني وكتفوني وأطلقوا صاحبهم، ومدوا له خشبة كالنعش، وحملوه عليها وحملوني مكتفًا معه في دار الولاية، والدم على لحيتي مخلوط بالعذرة، والدم أحمر والعذرة صفراء والدلق أزرق وأنا مكتوف، فلما رآني الوالي قال: ما قضيتك يا فقير؟ فلما حكيت له الحكاية، لم يتمالك أن استلقى على ظهره ضاحكًا، والتفت إلى أولئك الفلاحين وقال لهم: ضمان هذا الفقير علي، وها هو عندي.

خذوا صاحبكم وروحوا داووه، فإن أفاق فقد لطف الله تعالى، وإن أصابه شيء فهذا الفقير عندي.

فأدخلني الحمام، وغسلوني وألبسوني شيئًا، وعمل لي دجاجة، وبقيت عنده شهرين، فلما كان بعد الشهرين حضروا وقالوا: قد تعافى صاحبنا، فقال لهم: هذا الفقير قد شوشتم عليه وحبستموه هذا الزمان، وربما له عيال، فراحوا وحصّلوا لي قطنًا وزبيبًا باعوه بمائتي درهم، وأعطاني الوالي مائتي درهم وسافرت.

الشيخ تاج الدين بن الرماح

وحكى الشيخ علم الدين بن هريسة عن شيخه -الشيخ تاج الدين بن الرماح رحمه الله تعالى- قال: دخلت ليلة إلى بلد، فآويت إلى فندق، فطلبت حانوتًا آوي إليه، وسألت عن الثمن، فقيل لي: بخمسة دراهم، فدخلت الحانوت، فبينما أنا جالس وإذا بإنسان دخل علي وعلى كتفه خرج، فقلت من هذا؟ فقال: إنسان، فقلت: هذا المكان استأجرته بخمسة دراهم، فقال: إن قعدت وإلا أعطيتني عشرة دراهم وإلاّ

أخرجتك، قال: فسكتُّ، وجلس، ثم رمى عليّ عباءة وقال: خذ هذه؛ فأنت بردان.

فلما كان السَّحر قام وحمل خرجه ليخرج، والتفت إلي وقال: قم واخرج من هاهنا، فإني رجل لص، وقد صار لك عليّ حق، وأخشى أن يتبعوا أثرى فيجدونك.

فقمت وخرجت وطلعت إلى مركب فرقدتُ ونمت، وإذا برئيس المركب يقول لشخص في خن المركب: يا ناخودا، ماذا ضاع منك؟ فقال له: ضاع لي كذا وكذا، وضاعت لي عباءة مثل هذه، ثم نثرها وقال: والله عباءتي، فمسكوني وكتفوني ولكموني، وفعلوا بي فعالاً مُرّة، وطلعوا بي مكتفًا في سلبة، فبينما هم ذاهبون إلى دار الولاية وإذا بتصفيق من داخل بيت، فقال للرسل: دعوه يدخل إلى هذا البيت، عسى يعطونه شيئًا، قال: فأطالوا لي السلبة حتى دخلت البيت، فوجدت ذلك اللص الذي بات عندي، فقال لي: لا تتشوش، فإني لما علمت أنهم مسكوا بك وقفت ولا فرّطت في شيء، فإن ذهبت إلى الوالي فعرِّفه وخذ لي منه أمانًا، قال: فلما وصلت إلى دار الوالي وأبصرني، قام ونزل من على مسطبته، وقال: هذا ابن الرماح، أطلقوه.

قال: فأطلقوني، وقال لذلك التاجر: ما قضيتك؟ فذكر له أن هذه العباءة راحت في قماش كان راح لي، فقال له الوالي: قماشك عندي، تعالى لي بعد ثلاثة أيام، ثم قعد بين يدي وقال لي: يا سيدي، ما سبب هذه القضية؟ فحكيت له القضية، فسيّر أمانًا إلى اللص، فحضر ووقف وأحضر القماش، فقام إليه وعانقه، وخلع عليه.

وحكى لي عنه أيضًا قال: أَويت إلى غارٍ في جبلٍ في الليل، وإذا بسبع قد دخل، وكان فقير جالس، فجعل السبع يلحس بلسانه رداء الفقير، فقلت له: أي شيء هو يعمل؟ فقال: يلعب، وإذا بالأسد إنما هو يلحس الرداء حتى يبان له اللحم، ثم أن السبع أكل الفقير وخرج وبرك على باب الغار، وطلع الفجر واحتجت إلى الوضوء وبقيت في شدة فقلت: وأين ذهب الفقير؟ فقمت، ورفست السبع برجلي فتدحرج نازلاً في الجبل وولّى هاربًا، ونزلت إلى الوادي، وإذا بالسيل قد أخذني فغرقت فيه، فمسكتني شجرة من ثيابي وأنا تحت الماء، وإذا بأناس يخوضون، فوجدوني فأطلعوني وعصروا بطني، فخرج من أنفى مرزابان طين ودم.

الشيخ أبو عبد الله القرشي(١)

(١) قال ابن بادس: هو أحد المشهورين من أكابر المشايخ العارفين، والأولياء المذكورين، والأفعال الخارقة، =

وحكى لي الشيخ عبد العزيز - رحمه الله تعالى - عن الشيخ أبي على النفطي أن مريدًا دخل عليه وهو في طبقة على البحر بمصر المحروسة، فقال له الشيخ: من أين؟ فقال من سدرة المنتهى، فبينما هو يحدثه والشيخ يعاتبه على ذلك القول والشيخ أبو عبد الله القرشي دخل عليهما - وكان في بدء أمره وبشبيبته - فقال الشيخ أبو عبد الله النفطي للشيخ أبي عبد الله القرشي: من أين أتيت يا شيخ أبو عبد الله؟ فقال له: يا سيدي، نزلت من الحجاز وجئت من الصعيد بقرية تسمى ساقية قلته، فطلبت مركبًا أنزل فيها فما حملني أحد.

كان تاجر يحمّل قمحًا فحمَّلني، فكنت أقعد بعيدًا عند الحبال ومعي قارورة أو قَحْف[١] أجعل فيه الماء والقراقيش حتى تبتل وأمرسها وأشربها، فإني لا أقدر على أكلها من الأذى الذي بي، قال: فأخذوا النوابتة القحف وكسروه، وقالوا لي: أنت تشرب المزر، فلا تركب معنا -وربما قال: رمَوني- فحلّفهم التاجر فحملوني، وقال لي: يا فقير، أنا أحملك، وأريد أن أوصيك بغَلّتي، فلما وصلنا إلى مصر اكتالوا الغلّة فنقصت، فقال لي: أنت سرقت الغلة مع النوابتة، فحملوني إلى دار الولاية، فعراني الوالي ونظر إلى جسمي، وقال: ما في هذا شيء يضرب.

فأرسلني إلى القاضي، فحلّفني، وها أنا قد جئت، فقال له الشيخ أبو على: لو جردت سيف فقرك فماذا كنت تعمل؟ قال: فجلس على قرافصه ودارت عينه في رأسه وقال: لو جردت سيف فقرى عملت كذا، ورفع كفه في الهواء، فأخذ الشيخ أبو علي رأس مريده وأخرجها من الطاق، فرأى المراكب كلَّها قد تعلقت في الهواء ولم يبق على

=

والأحوال الصادقة، والأنفاس المحققة، ومات الإمام القرشي عام سبعين في السادس والعشرين من ذي الحجة وخمسمائة.

وقال المناوي: عارف جلل سمت أعلامه، وصوفي نبيل حسنت تربيته وطابت أوقاته وأيامه، وأصله من بلاد الأندلس من الجزيرة الخضراء ثم تحول إلى مصر فقطنها ثم إلى بيت المقدس، وكان من أعيان مشايخ المغرب ومصر، ولقي نحو ستمائة شيخ، وجد واجتهد، وأخذ عنه كثيرون منهم البوني.

وانظر: الكواكب الدرية (٤٤٣) .

(١) هو القدح من الجلد.

ظهر البحر منها مركب إلا معلقة في الهواء، فقال الشيخ أبو على: والله ما بقى من قعر الإسكندرية إلى أسوان من مركب إلا وقد تعلقت في الهواء، فلو قال القرشي هكذا وقلب كفَّه لقلبها جميعًا، وأغرقها جميعًا، وأنت تقول لي أتيت من سدرة المنتهى، وهو يُعاتبه على ذلك؟!

دراهم القدرة

ومما حكى عن القرشي ﵁ قال: قصدت الحجاز، فسألني رجل من التجار أن أكون عديله في التجارة، فأبيت ذلك، فحلف على ذلك فقلت له: يا أخي، أنا رجل فقير وأنت غني، وأنا المبتلى وأنت المعافى، فكيف نجتمع؟ -أو ما أجتمع معك، أو كلام هذا معناه- وربما كان قد عرف الشيخ أو صحبه فحلف عليّ وصرّفني في جميع ماله.

فلما أخرجنا البركة سأل فقير بصلة فأعطيتها له، فعزّ عليه ذلك، فلما رحلنا من البركة كان لي فروة أوطي بها على المحارة فنثرها وألقى بها، فلما وصلنا ثالث مرحلة رفسني برجله ورماني وقال: روعنا إلى حيث شاء الله تعالى، فارتفعت الأرض إلى المحارة وقالت لي: اركب علي، فأنا أوطأ لك من ظهر الجَمل.

قال: فمشيت ساعة حتى ورمت رجلاي من ذلك الأذى، ورقدت تحت شجر أم غيلان[١]، فنمت ساعة ثم استيقظت، فرفعت رأسي لأجد الشمس قريبة الغروب، فقمت ومشيت وغابت الشمس، وإذا أنا بسوق وسرج موقودة، فاستقصيت على ذلك السوق فقالوا لي: هذا هذا المسعى وهذا الصفا والمروى، فاجتمع عليّ الناس وقالوا: من أين أتيت؟ قلت لهم: من القافلة -ولم يكن الشيخ على علم- فاجتمع عليّ الناس، وأخذني إلى بيته، وتراءي فيه حتى وصلت القافلة.

فلمّا حججنا ورجعنا طالبني الجمال بالأجرة في الطريق، ولم يكن معي شيء، فقلت له: ليس معي شيء، فقال: أنتم بلبغارية تكذبون ومعكم الحندوس، وصرخ علي، فسمعت خشخشة في جيبي فوضعت يدي فوجدت في جيبي دراهمًا قدر دراهمه، فأخرجتها وأعطيتها له فقال: الساعة كنت تحلف أنّ ما معك شيء، وكذبت، فقد

---

(١) اسم لشجرة، من أشجار الصمغ.

أخرجت الدراهم، ثم أخذ الدراهم ووزنها ونقدها وأتى منها بدرهمين-أو قال ثلاث - وسمّاهم وقال: هذه زائفة -أي نحاس- هات عوضها، فقلت له: ما بقى شيء. فصاح وجمع الناس وقال: من ساعة حلفت أنك ما معك شيء، ثم أخرجت الدراهم، والساعة تحلف أن ما معك شيء؟ وبقى الناس يتكلمون.

فرفعت طرفي إلى السماء وقلت: إلهى، أنت تعلم أن ما في دراهم القدرة شيء زائف، وإنما أردت أن يترقوا بي، والإختبارات من أحوال الأكابر.

سيدي أحمد بن الرفاعي

وحكى عن سيِّدي أحمد بن الرفاعي أنه كان مرة على الشط يتوضأ في الليل، وكان مركب يمر، فأخذوا سيدي أحمد ووضعوا في عنقه أغلال، واستعملوه في جر المركب إلى الصبح، فلما طلع الفجر عرفه الناس فأطلقوه، فلما وصل إلى مكانه جرّ الرئيس الكلك وهو باك فقال له: يا سيدي، غرق الكلك وكل من فيه، فدعا له فسلم.

وحكي عن الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور- رحمه الله تعالى- أنه مرة وجد مركبًا مسافرًا فقال لهم: تحملوا فقيرًا فحملوه وأخذ يعرفهم بنفسه، قالوا له: تقذف معنا، فقذف الشيخ صفي الدين رضي الله عنه معهم فقال: هذه المركب لمن؟ قالوا له: هذه المركب نحن نحميها بزاوية الشيخ صفى الدين بن أبى المنصور وبقى الشيخ يقذف معهم حتى وصلوا مصر، قدّس الله تعالى روحه.

وحكى عن القرشي -رحمه الله تعالى -أنه ركب في مركب يريد الحجاز في الباحة، فعطش خادمه أو فقير معه فطلب له الماء فلم يسقى، فأعطى الشيخ شملته لمن يسقيه فلم يسقوه فقال له: املأ الركوة من البحر واشرب. فملأها من البحر أمامهم وشرب، فوجده حلوًا، ثم أراد الشرب بعد ذلك فوجده مالحًا، فقال الشيخ القرشي رضي الله عنه: أبت البشرية أن تتوجه إلى الله إلا عند الضرائر، ولما قال له الخادم: وجدته مالحاً قال: لما كانت الضرورة له وجدته حلوًا.

وأخبرني قاضى عبدان شرف الدين أنه كان عنده من الماء الذي فضل من الركوة، وأنه كان يكحل به الأعمى فيبرأ بإذن الله تعالى.

الابتـــــلاء

والابتلاء لا يكون إلا في الفحول من الرجال؛ لأنهم أخذوا نصيبهم من ميراث نبيهم ﷺ وقد قال: «**ما أُوذي نبي كما أوذيت**[١]»، وكلما كان الابتلاء أكثر كان الرجل أكبر، وأما ما يجدوه من الأسقام والآلام والإساءة عليهم ومنعهم من الدنيا فذلك كثير، ومن لم تحبكه الفاقة فليس بفقير، فإن الذهب إذا لم يختبر بالنار لا يتحقق له عيار.

فقد حكى لي عن الشيخ عبد الرحيم -قدّس الله تعالى روحه- أنه لما وصل إلى قنا، فبينما هو يمشى تحت النخل وإذا بحارس النخل يصيح عليه، ثم جاء إليه وقال له: أنت أكلتَ البلح -أو لقطتَ من البلح- فقال له: ما أكلتُ لك شيئًا -أو ما لقطتُ لك شيئًا- فقال: فأدخل إصبعه في فم الشيخ وبقى يديره في أحناكه ليخرج البلح إن كان أكله أم لا، فقال الشيخ: هذه البلد يصح فيها التوكل.. أو كما قال.

وكل ذلك من الاختبار في أحوال الأكابر، ولأن الله تعالى يحمى عبده المؤمن من الدنيا كما يحمى أحدكم مريضه من الطعام والشراب الذي لا يوافقه.

وورد في الحديث ذلك أو معناه، والأكابر لهم الحماية والاختبار حتى أنهم إذا تاقت نفوسهم إلى شيء من الدنيا عوقبوا عليه في ساعته ولا يتأخر ذلك عنه كما حكى عن الشيخ على الحريري -قدس الله روحه- أنه لما اعتقلوه واتفق ما اتفق فلما أرسل لهم السلطان جاءوا فقال لهم: شدّوا لنا نخرج، فإنا قد عرفنا السبب، كانت نفسي قد تاقت إلى ذلك فرسم بخروجه من ساعته.

حكاية عن سيدي إبراهيم بن أدهم[٢]

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) قال الموصلي: أصله من بلخ، ترك الإمارة وانتقل إلى الشام، إلى أن مات سنة إحدى وستين ومائة.

قال إبراهيم بن شماس: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: كان أدهم رجلاً صالحًا، فوُلد إبراهيم بمكة فرفعه في خرقةٍ، وجعل يتتبَّع به أولئك العبَّاد والزهَّاد، ويقول: ادعوا الله له، فنرى أنه قد استجيب لبعضهم =

وكما حكى أن إبراهيم بن أدهم ﷺ اشتهت نفسه بيضًا، وكانت ليلة مظلمة قال: فدخلت مسجدًا فأخرجني القيم وقال: ما تبيت هنا، فلما امتنعت جرني وسحبني على الطين فافتكرت أنى كنت عملت للجواري الوحل من المسك وكنت أجرهم عليه فقلت: هذا بذاك، ثم إني أخذت فضربت خمسين خشبة ثم أخذني شخص ودّانى إلى البيت، فأخرج لي البيض فقلت لنفسي: كلى بعد خمسين خشبة.

وهكذا جرى للنسائي وغيره ممن ذكرناه في زماننا ممن قطعت يده.

وأما من لم تحبكه الفاقة وبقى في الإكرام فلا يتحقق فقره قبل ذلك وقد قلت:

بقَى نفسي في يوم النوى عجبٌ لأنَّ موتي من بعضِ الذي يجبُ

وما بقيتُ ورُوحي لستُ أملِكُها وليس لي في حياتي بعدهم اربُ

=

فيه.

وقال ابن أبي روَّاد: رحم الله إبراهيم بن أدهم، لقد رأيته إذا ركب حضر بين يديه نحو من عشرين شاكرية، ولكنه رحمه الله طلب بحبوبة الجنة.

وصحب رجلاً فلما أراد أن يفارقه قال له الرجل: إن كنت رأيت فِيَّ عيبًا فنبهني عليه، فقال له إبراهيم: إني لم أرَ فيك يا أخي عيبًا؛ لأني كنت ألحظك بعين الود، فاستحسنت كلما رأيته منك فاسأل غيري.

وأخرج أبو العباس الفسوي في كتاب «الطبقات» بالإسناد عن بقية ﷺ قال: كنا مع إبراهيم بن أدهم في البحر فلعبت بهم الريح، وهاجت بهم الأمواج، واضطربت السفينة، وبكى الناس فقلنا لإبراهيم: يا أبا إسحاق، ما ترى ما الناس فيه؟ قال: فرفع الرأس وقد أشرف الناس على الهلاك فقال: يا حي حين لا حي، ويا حي قبل كل حيٍّ، ويا حي بعد كل حيٍّ، يا حي يا قيوم، يا محسن يا مجمل، قد أريتنا قدرتك فأرنا عفوك، قال: فهدأت السفينة من ساعته.

وأخرج أيضًا فيه: قال إبراهيم بن أدهم: مَنْ أراد الراحة فليخرج الخلق من قلبه حتى يستريح.

قال أهل التاريخ: كان إبراهيم بن أدهم من أهل بلخ، خرج إلى مكة، وصحب بها سفيان الثوري والفضيل بن عياض، ودخل الشام وكان فيها يأكل من كسب يده، ومات بالشام.

انظر: حلية الأولياء (٣٦٧/٧)، وطبقات الشعراني (٨١/١)، والرسالة القشيرية (٩)، والانتصار للأولياء الأخيار (ص٤١٧) ، وطبقات الصوفية (٢٧).

ومدَّعي الحبِّ قبلَ الموتِ متهَمٌ   دعواه إن لم يمت في حبِّهم كذِبُ

* * *

ابن الشيخ، وزوجته، وخادمه

ولذلك قيل أن ابن الشيخ وزوجته وخادمه لا يفلحون، ولم يكن عدم فلاحهم إلا أنهم لا يكونون كآبائهم إلا في حكم النادر، فقد يكون الواحد خيرٌ من أبيه، وإنما لما كان الغالب على أولاد المشايخ إكرام الناس لهم، ويخرج المريد يقبل يد ابن الشيخ، ويحملوه من صغره على أكتافهم ويطيعونه فتكبر نفسه ويرضع الرئاسة و شهواتها من الصغر، وتتوالى تلك الأحوال المظلمة للقلوب حتى يتمكن من قلبه حمله فلا تؤثر فيه المواعظ ولا يسمع من غيره ويتجرأ على الأكابر، وتبقى الشيوخية لهم كالميراث والدعوى بالباطل، فإن لطف بهم وإلا هلكوا، والملطوف بهم لا يفلحون بالنسبة إلى آبائهم الأولياء، وغير الملطوف بهم لا يفلحون دنيا ولا آخرة أعاذنا الله تعالى من ذلك وذرياتنا إنه أكرم الأكرمين.

وأما **الزوجة** فإنها تراه كما ترى النسوة أزواجهن معاينة بذلك من طريق أنها تعتقد أنه يحتاج إليها بطريق الشهوة كسائر النساء، فتطالبه بما يطالب غيرها، فغالب النساء كذلك إلا من بصرها الله تعالى ونبهها وحفظها.

وأما **الخادم** فلتكرار رؤيته للشيخ واطلاعه على أحواله فيرى منه من الأفعال التي يعتقد فيها أنه كغيره في المأكل والمشرب والعادة، وقد يرى شيئًا يعجز عن فهمه ويكون عنده نقصًا، فلهذه الأشياء لا يفلح فلاح غيره من المريدين الذين غلبت على قلوبهم عظمة صفات الشيخ وكمالها، فيكون منزلتهم عند الله تعالى بحسب منزلة شيخهم في قلوبهم فيفلحون ويرتقون إلى أعلى المراتب، ولذلك لا ينبغي للشيخ المربي أن يظهر للمريدين في صورة تنقيص له خشية أن يقع منهم تنقيصًا له فينتقصون عند الله تعالى، ويعود ذلك على صفاتهم حتى أنه لا يأكل معهم ولا يشرب معهم ولا يكثر الجلوس لهم إلا في الأوقات المعلومة، ولا يطلعهم إلا على ما يستطيعونه من علوم الحقيقة، وفي صفات الشيخ وظهوره وآدابه مما يتعلم به المريد ويتصف به ما لا يسعه هذا الكتاب.

و**الولد** إذا سلك سلوك المريد مع أبيه أو غيره أفلح لفلاح المريدين، وكذلك الخادم والزوجة؛ إذ لو وصلوا إلى درجات الأولياء والكمال وبقى لهم في قلوب الطائفة محل الإكرام لأجل السيف؛ لأن ذلك حقيقة النسب وصحته؛ لأن في قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً**﴾ [الكهف:٨٢] تنبيهًا على صلاحهما إذ لو كانا غير صالحين لنفاهما عن أبيهما كما نفى ابن نوح عليه السلام عن أبيه.

وفي قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ**﴾ [المؤمنون:١٠١] كفاية.

وجمع شتات المؤمنين وإن كانوا متفرقين في الأنساب الجثمانية وإلا بالحسية بقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ [الحجرات:١٠].

وفي منع توارث المؤمنين الكفار، فإن احتج محتج بفعل الخضر عليه السلام في الغلامين اليتيمين، فجوابه في قتل الغلام خشية أن يرهق أبويه طغيانًا وكفرًا، فلا يعتقدن من كان له قرابة من أولياء الله تعالى أنه ينال من الله تعالى حظًا أو من أوليائه مع عدم صلاحه ومخالفته لطريقهم وإساءة أدبه عليهم في ذلك كله من ولد أو زوجة أو قريب أو خادم.

فأما الولد فقد تقدم ذكره في قصة ولد نوح عليه السلام وقوله تعالى:

﴿**إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ**﴾ [هود:٤٥، ٤٦]، وذلك أن العلم المختص بالألوهية لا مشاركة لغير الله تعالى فيه ولا يجوز السؤال في ذلك لنهيه فيه لنوح عليه السلام ولقوله تعالى: ﴿**لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٣] فهذا في حق الولد في الأنبياء -عليهم السلام-.

وأما الزوجة فقد قال الله تعالى: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شيئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**﴾ [التحريم:١٠]، ولم تكن خيانتهما في الفراش؛ لأن الله تعالى لا يبتلى نساء الأنبياء صلوات الله عليهم بذلك؛ لأن ذلك يلحق العار في العرف، والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه حجج الله تعالى على

عباده ورسله إلى خلقه فهم مصانون عن الشوائب ومبرءون من النقائص ومعصومون من الكبائر والصغائر.

وإنما كانت خيانة امرأة نوح عليه السلام أنها كانت تقول: هو مجنون وتعتقد ذلك، وخيانة امرأة لوط كانت قول الفسّاق على أضيافه، وكل ذلك مخالف لما أتوا به، فلم ينفعاهما مع ذلك وهما من الأنبياء، ولم يضر امرأة فرعون كفره؛ إذ كانت مؤمنة بالله ورسوله ألا ترى إلى قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿**وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ**﴾ [النمل:١٢] لأن اللون المخالف اللون في العرف قد يكون من أذى كالبرص أو حرق النار أو غير ذلك، فلذلك خرجت يده بيضاء من غير سوء من هذه الشوائب، فكانت معجزة له عليه السلام وكانت يده تضيء كما تضيء الشمس.

وفى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً**﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقصة الحجر وستره لثوبه مشهورة وقوله: ثوبي يا حجر، وكل ذلك براءة له من الشوائب والنقائص المعهودة عندهم حتى يقطع حجج المعاندين ويدمغ الحق أباطيل المبطلين.

وقد كان قارون قرابة لموسى عليه السلام كما ذكر في التواريخ فلم يرحمه حين نزل به الهلاك والخسف لمكان الغيرة لله والحب في الله تعالى والبغض في الله تعالى وموافقة الحق تعالى في مراده فيه.

وقد قتل أحد الصحابة أباه وأحدهم قرابته في سبيل الله تعالى لمخالفتهم أمره وتكذيبهم رسوله ﷺ- وإذا كان ذلك في الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه فما ظنك بمن دونهم؟

فمن اعتقد أنه ينال حظًا من الله تعالى بقرابته من أوليائه مع عدم صلاحه ومخالفته لطريقة أو إساءة الأدب عليه أو على غيره من الأولياء فقد **كذب في زعمه**، وكما أن الإرسال أو الرسالة واحدة فالمرسل واحد وإن اختلفت الأوامر والنواهي فيما أتى به الرسل، فيجب الإيمان بالجميع، فلو أن إنسانًا آمن بجميع الأنبياء والمرسلين وكفر بواحد منهم لا يفيده ذلك الإيمان؛ لأنها في نفسها واحدة لا تتبعض، كما أن التوحيد لا يقبل الاشتراك، والرسل صلوات الله تعالى عليهم وسلامه يصدقون بعضهم

بعضًا لم يختلف في ذلك اثنان.

قال الله تعالى: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ [البقرة: ٢٨٥].

أنبياء كُثر ورسالة واحدة

فكل نبي مؤمن بكل نبي، فمن كذّب واحدًا من الأنبياء فقد كذّب الجميع؛ لأن الأنبياء كلهم مؤمنون به ومصدّقون له، وكذلك كل ولى مؤمن بكل ولى، فلو جحد منهم واحدًا لكان جاحدًا للجميع، ومن آذى منهم واحدًا، فقد آذى الجميع وبارز الله تعالى بالمحاربة، وفى أخذ الله تعالى الميثاق بالإيمان بنبيه ونصرته وقوله تعالى: ﴿**قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ**﴾ [آل عمران: ٨١].

والإيمان مرتبط بذلك، وكذلك لو أن إنسانًا أحسن الظن بجماعة الأولياء وآذى وليًّا منهم لا يتبعه ذلك مع وجود أذى ذلك الولي وإن جازاه الله تعالى عن حسن ظنه إذا كان خاليًا من الشوائب، وأنّى تخلو من الشوائب! إذ لو كان ذلك حقيقة لما أساء الظن بواحد منهم ولما آذاه؛ إذ الولاية في نفسها واحدة وإن اختلفت طرقها بحسب السالكين والطالبين فهي متلازمة، فلذلك تجد الأولياء مؤمنين ببعضهم بعضًا مصدقين ببعضهم بعضًا لم يختلف في ذلك اثنان وإن اختلفت طرقهم بحسب آثار الصفات، فإن الخائف ليس كالراجي إلا إذا تشابها في رتبة الكمال لا في رتبة السلوك

صفات الجمال وصفات الجلال

كذلك فالمشاهد لصفات الجمال ليس كالمشاهد لصفات الجلال، ومتى يجتمعا في رتبة الكمال الجامعة للطرقات والأحوال وكل مؤمن بصاحبه لا تفرق بينهم، ولأن الطرق مختلفة والمنهل واحد وهى مستديرة، والكل طالبون والمطلوب واحد،والكل محبون والمحبوب واحد، فمن زاغ منهم أو آذى وليًا لله تعالى، فقد خرج من هذه الدائرة وبارز الله تعالى بالمحاربة لورود الحديث عن الله تعالى: «**من آذى لي وليا فقد بارزني**

بالمحاربة[١]» فانظر[٢]، هل تطيق محاربة آحاد الأجناد الذين هم شكلك ومثلك؟ فكيف بمن هو شكلك ومثلك لكنه أقوى منك بكثرة الجيوش و الأتباع؟ فكيف بملك من ملوك الدنيا؟ بل كيف بمحاربة جنى من الجان؛ إذ يأخذك من حيث لا تراه ولا تبصره ويصرعك ويجعلك مثلة بين الناس؟! بل كيف بملك من الملائكة الغلاظ الشداد المعدّون لغضب الله تعالى؟ فإن ملائكة العذاب ﴿**غِلاظٌ شِدادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم:٦] ولا تعتقدنَّ أن غلظهم وشدتهم بما رأيته في الآدميين من الغلظ والشدة، فقد يملأ الواحد منهم ما بين السماء والأرض، ولو رأيته لأذهلتك رؤيته عن مأكلك ومشربك، ولزال عقلك من مكانه بلا بطش ولا شدة، فكيف لو أُمِرَ بك؟

فقد تحققت ما ورد في كتاب الله تعالى من إهلاك القرون الماضية بالصيحة والخسف والريح، وقد اقتلع جبريل عليه السلام مدائن قوم لوط وحملها على خافقة من جناحه إلى أن وصل بها عنان السماء، وسمعوا صياح الديكة وعواء الكلاب، وقلَبَها، وهى الآن موضعها بركة ماء لا يشرب منها طير ولا وحش ولا إنسان ولا ينبت فيها شيء من

---

(١) رواه البخاري (٥/٢٣٨٤)، وأبو يعلي في مسنده (٥٢٠/١٢)، وأبو نعيم في الحلية (١/٥).

(٢) وهو يشير إلى التحذير من إيذاء أولياء الله تعالى ومعنى الإيذاء أن الإعلام والحرب والمحاربة، وهذا من التهديد بالغاية؛ لأن من حارب الله تعالى أهلكه إهلاكًا وهو من المجاز البليغ؛ إذ لا يتصور محاربة الله تعالى ولفظ: «وليًّا» نكرة يعم الحي والميت -نعوذ بالله من ذلك- فلم يضمنه عن عينه إلى أن صار المداح في الأسواق إذا قالوا: «شئ لله يا بدوي أو يا شافعي» يسبونهم العوام ويؤذونهم وينسبوا بهم إلى الكفر بما قالوا إلى أن رفع إلي سؤال ضمنه ماذا يقول علماء الدين، ووارثون المرسلين من أيدهم الله تعالى بالمعجزات، وأكرم أوليائه بالكرامات في حالة الحياة، وبعد الممات هل كراماتهم باقية بعد الممات أم قاصرة على الحياة؟، ومن في القبور من الأولياء ليس لهم شيء من الكرامات، فإن قلتم ببقائها بعد ذلك، فما الحجة في ذلك من كتاب الله أم من عند رسول الله؟ أما حالة الحياة فلا شك فيها على القبور، ومن فيها وهل القبور من الدار الدنيا الظاهرة أم هي من الدار الآخرة أفيدوا الجواب فضلاً منكم للطلاب، وإظهار لنا الدليل من السنة أو الكتاب انتهى.

وانظر: رياض السادات في إثبات الكرامات للقاضي عبد الحليم الرومي (ص٧٩) .

النبات، ومررت بها وما توضأت منها.

وأخبرني الصاحب تاج الدين -رحمه الله تعالى- أنه يطلع فيها شيء بعض الأوقات أو في بعض السنين وأنه ينفع لحكمة الله تعالى.

وحكي لنا أنهم يسمعون كل وقت وجبة بالليل تقع في تلك بركة الماء ساعة بعد ساعة، فقيل أنه من مات على عمل قوم لوط حملته الملائكة فترميه فيها، فهل أنت من قبيل محاربة زباني من زبانية الملائكة أو عون من أعوانهم أو جُند من أجناد الله تعالى، وقد علمت أنك لا تقاوم برغوثًا لو سلّط عليك ولا قملة ولا ناموسة؟ وقد تحققت جبروت نمرود بن كنعان وكيف أهلكه الله تعالى بالناموسة، وهى من أضعف الجند!

جُنـــد اللـه لا يحصون

ولله تعالى من الجند المختلفة الأنواع و الأجناس من سائر الأصناف فى القوة والشدة مع ضعف الأجسام وقوتها ما لا ينحصر بالعدد ولا يبلغه أحد إلا الذي خلقهم، ﴿**أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ**﴾ [الملك: ١٤] هذا من المحسوسة المشهودة.

وأما أجناده المعنوية فلا تدخل تحت العبارة، ولا يشهد صورتها إلا المتحققون وسَالكو طريق الله تعالى بحسب ما أعطاهم من ذلك.

فالأمراض والأسقام جند لله تعالى، فانظر هل تطيق منها شيئًا إذا نزل بك وأنت لا تراه ولا تعرف دواءه؟ فهل يقدر أحد يدفع عنك منه شيئًا إذا لم يرد الله تعالى شفائك منه؟ من قُولنج[١] يعتريك أو وجع عينك أو ضرسك أو ضرب عرق من عروقك؟ هذا مع ضعف هذه الأسقام، فأما الأوجاع الشديدة التي لا تحمّل عند ورودها عنك إلا الموت في وقتها فلا تدخل تحت العبارة، ومنها ما يطول العذاب.

ولقد رأيت من يتمنى الموت ويسأل الله تعالى أن يموت حماية من الألم فلا يقدر على ذلك فما لا أحصى ذلك، فكيف إذا قابلك ملك الموت بأعوانه؟ وهم على صورة عملك متصورون؟ وفى قبائح أفعالك متشكلون؟ وقد افترقوا على الأعضاء والعروق، وجذبوها بشدة الجذب الذي لا يعقل إلا باللفظ، ولا يعرفه إلا من وجده -

---

(١) وهو ما يعرف عند العامة حديثًا بالقولون، نسأل الله العافية.

أعاذنا الله تعالى وإياكم منه - واستخرجوا الرُّوح مع شدة الغضب لمحاربتك لربهم تعالى، وتولاها ملائكة آخرون، ووقع النداء بما سبق في اللوح المحفوظ عند الله تعالى، وتولى كل منهم جانحة من جوانحك كما تولت الملائكة التي قبلها كل منهم جارحة من جوارحك، ثم رفعوها إما إلى الصعود أو إلى الهبوط، فإن كانت الشهادة موجودة لك عند الخاتمة فالمنة لله تعالى؛ إذ مدة العذاب في الموحدين تنقضي بحسب أعمالهم، وقد يردونك إلى السماء فإذا أسلمك أهلك ونزلت القبر وتلقاك القتانان على صورة عملك ومحاربتك لربك تعالى، فانظر ماذا تقابل؟ وكيف تقابل؟ ومن له طاقة برؤيتهما على هذه الصورة؟ ثم هنا يقال لك ولقد قطعني هيبة هذا المصرع، وأذهلني في الكلام فيه من رؤية من سمينا وما يقال لهم عند السؤال، فنسأل الله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفى الآخرة بمنه وكرمه، إنه أكرم الأكرمين.

ولتعلم أن التنين الذي له سبعة رءوس إنما هو مقابل لصفاتك السبعة؛ إذ الحواس الخمس والبطن والفرج سبعة، وهى مقابل لأبواب جهنم السبعة؛ إذ هي موارد للأعمال الخبيثة والأعمال الصالحة، فلذلك كانت سبعة مقابلة للأبواب السبعة من جهنم المجازاة.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿**لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ**﴾ [الحجر: ٤٤][١].

---

(١) **فائدة جليلة:** قال الشيخ حسن العدوي الحمزاوي: وقد قيل في معنى هذه الآية: لكل بابٍ منهم جزء مقسوم: أي من الكفار والمنافقين والشياطين، بين الباب والباب خمسة آلاف عام.

فالباب الأول: يُسمَّى جهنم؛ لأنه ينجهم في وجوه الرجال والنساء فتُأكل لحومهم، وهو أهون عذابًا من غيره، والباب الثاني: لظى.

والباب الثالث: سقر.

والباب الرابع: الحطمة.

والباب الخامس: الجحيم، وإنما سُمِّي الجحيم لأنه عظيم الجمر، الجمرة الواحدة أعظم من الدنيا.

=

والحديث الوارد في شهر رمضان أنه «**تغلق فيه أبواب النار، وتصفد فيه الشياطين**[١]»، وهذا إنما هو لصيانة الناس عن المعاصي في شهر رمضان، فإذا انقضى شهر رمضان رجعوا إلى ما كانوا عليه، وفتحت أبواب النيران التي مفاتيحها صفات الآدميين السبعة[٢] والجنة كذلك.

=

والباب السادس: السعير، وسُمِّي السعير لأنه يسعر لم يطفأ منذ خلقه الله، فيه ثلاثمائة قصر، في كل قصرٍ ثلاثمائة بيت، في كل بيتٍ ثلاثمائة لون من العذاب، وفيه الحيات والعقارب والقيود والسلاسل والأغلال والأنكال، وفيه جب الحزن ليس في النار أشد منه، إذا فُتح حزن أهل النار حزنًا شديدًا.

والباب السابع: يُقال له الهاوية، من وقع فيه لم يخرج أبدًا، وفيه بئر الهباب، إذا فُتح يخرج منه نار تستعيذ منه النار، فيه صعود المذكور في القرآن، وهو جبلٌ من نارٍ، تُوضع وجوه أعداء الله عليه، مغلولة أيديهم إلى أعناقهم، مجموعة أعناقهم إلى أقدامهم، والزبانية واقفون على رؤوسهم، بأيديهم مقامع من حديدٍ، إذا ضُرب أحدهم بالمقمعة ضربة يسمع ضربها الثقلان، وأبواب النار حديد، وغشاؤها الظلمة، أرضها نحاس ورصاص وزجاج، النار من فوقهم، والنار من تحتهم، لهم من فوقهم ظلل من النار، ومن تحتهم ظلل قد مُزجت بغضبٍ، وقد ورد في جبالها وأوديتها وزقومها وحميمها وعذابها أخبار كثيرة، نسأل الله العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة انتهى تحفة الإخوان. وانظر: مشارق الأنوار (١٩٦) .

(١) رواه أحمد في مسنده (٣١٢/٤)، والترمذي (٦٦/٣)، وابن ماجه (٥٢٦/١).

(٢) الباب الأول: باب الكبر: وقد أبى إبليس واستكبر، وسنّ الشرك فكان أول مشركين وأول من يدخل النار، ورئيس أهل السجن، فإن جهنم سجن الله في الآخرة، فاحذر من مشاركة إبليس في الكبر وكن مع أهل الحق في التواضع.

الباب الثاني: باب الحسد، وهو صفة ثانية لإبليس وأهلها، كافر في الحقيقة لأن الحسد مكابرة الحق ومعاندته في علمه وحكمته، والله يفعل ما يشاء ويصنع ما يشاء، وكيفما شاء، فاعرف جدًا.

الباب الثالث: باب الغضب: وهو صفة إبليسية أيضًا لأنه لم يرضى بقضاء الله الذي هو الخلافة، فغضب على ربه في ذلك، وخرج عن باب الرحمة مغضوبًا ملعونًا، فكل فاسد رديفه وتابعه حين رفع الكتاب، وذلك في يوم القيامة.

الباب الرابع: باب الحقد: وهو إرادة الانتقام، وهو صفة إبليسية أيضًا، حيث لما طرد عن باب الرحمة نصَّب نفسه الإغواء بني آدم، إرادة الانتقام لكن الله عزيز ذو انتقام، ينتقم لأولياء من أعدائه في الدنيا والآخرة.

=

فإن قلت: فإن للجنة ثمانية أبواب فالأبواب السبعة للجزاء، والباب الثامن للفضل من الله تعالى(١).

=

الباب الخامس: باب العجب: وهو رؤية العمل والاحتجاب عن التوفيق كما رأى إبليس عمله الذي وقع منه في المدة المتطاولة، وجعله من أسباب حيرته، ولم يعرف أن الكمال إنما هو في الفناء أو رؤية التأثير من الله، وهو التوحيد الحقيقي، جعلنا الله وإياكم من أهل التوفيق.

الباب السادس: باب حب المال: لأن الإنسان به يميل عن الحق فهو من أقوى الحجب الكونية، وأعظم حجب المال التعبد له، ولذا قال تعالى حكاية ﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾ [إبراهيم:٣٥] قال بعض أهل العرفان: أي الحجرين: الغفلة والذهب.

الباب السابع: باب حب الجاه: وهو أن يكون وجيهًا بين الناس يلتفت إليه ويسمع قوله، ويطاع له من كل الجهات والوجوه، سواء كان من أرباب الأموال - وهو أكثر - أو لا ، كما كان شأن أبو طالب في مكة، وكان من فقراء قريش ولابد من الفناء عن هذا الحب، كما لابد من بذله، فإن المراد من التحقق بالاسم الظاهر العمل بمقتضاه.

(١) **الباب الأول:** باب القلب: إنما كان أول الأبواب لأنه محل الإيمان والاعتقاد الذين هما أول الأمر في باب الدين، فإذا تحقق القلب بالدين فقد فتح باب الجنة الأول ودخله مع الداخلين، ومآله ربض الجنة، لأن علو الصورة إنما هو بكثرة الأعمال وهي مفقودة الآن.

الباب الثاني: باب السمع: لأن القلب إذا تهيأ للإيمان والاعتقاد انتفع بسماع أهل الوحي والتبليغ، ولم يكن ممن ذمهم الله تعالى بأن لهم آذانًا يسمعون بها، فإنهم صمٌ في الحقيقة.

الباب الثالث: باب البصر: لأن البصر من أسباب الرؤية والشهود، وهي محاضرة القلب، ولا يتحقق ذلك إلا بعد سماع الإذن والخطاب الغيبي، لأنه طريق المعاينة، وقد لزم الله من لا يبصر بعد النظر كما قال الله تعالى: ﴿**وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ**﴾ [الأعراف: ١٩٨].

الباب الرابع: باب حفظ اللسان، لأن اللسان محل الكلام، وهو آخر الصفات السبع، التي هي الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام، كما النشأة الإنسانية هي آخر المراتب والأطوار الكونية؛ فعليك بحفظ اللسان تكن حقًا إنسان.

الباب الخامس: باب حفظ البطن لأنه بعد اللسان في الترتيب الوجودي وهو محل الشهوات الطبيعية التي لابد من إصلاحها من مرتبة الشريعة.

الباب السادس: باب حفظ الفرج لأنه مرتب على حفظ البطن ولذا كان أهل الرياضة مصونًا عن آفات الفرج بخلاف غيرهم من أهل الأكل حرامًا أو حلالاً.

=

ولسنا نُوسع الكلام في هذا الباب خشية على نفار النفوس من الموت وما بعده، فإن عوالمه لا تنحصر والمعاني تتشكل، ولا يمتنع ذلك على الله تعالى، فقد ورد في الحديث الصحيح أنه: «**يُؤتى بالموت به في صورة كبش، ويذبح بين الجنة والنار، ويقال يا أهل الجنة: خلود ولا موت، ويا أهل النار، خلود ولا موت**[١]» والموت معنى من المعاني، ولا يقدر يخرج عن لفظ الحديث إلا بما يدل على غير اللفظ من حديث صحيح، أو أنه من كتاب الله ﷻ.

الطائـر الأبيـض[٢]

وورد أن العبد إذا قال: لا اله إلا الله خرج من فِيه طائر أبيض يرفرف تحت العرش، فيقال له: اسكن، فيقول: وعزتك لا أسكن حتى تغفر لقائلها.

وأخبرني فقير عمَّن كان به سعلة، فسأل الله تعالى أن يريه تلك السعلة، قال: فكنت أراها مثل الجرادة تأتى وتغوص في كتفي، وأنا أنظر إليها حتى تنتهي إلى الرئة فأسعل عند ذلك، فإذا خرجت أنظر إليها حتى تخرج وتطير، فسكن عنى السعال.

وأخبرني الشيخ عبد العزيز- رحمه الله تعالى - عن فقير قال: لما كان الغلاء

=

الباب السابع: باب حفظ اليدين: لأنها في الأزل تتجاوز عن حد البطن وأكثر الكذب بهما ولذا قال تعالى فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ [الشورى:٣٠]وهم كالجناحين للطائر فلابد من الطير بهما إلى المقامات الجنانية.

الباب الثامن: باب حفظ الرجلين لأنهما تابعان لليدين، وبهما يكون السعي من محل إلى محل كالسعي من البيت إلى المسجد وإلى مجلس العلم ونحو ذلك.

وقد قال تعالى: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى**﴾ [النجم:٣٩].

وقال تعالى: ﴿**لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم**﴾ [المائدة:٦٦] فإنهم إشارتان إلى الفيض بواسطة وبغير واسطة، هذا والله أعلم.

(١) رواه النسائي في الكبرى (٣٩٣/٦)، والطبراني في المعجم الكبير (٣٦١/١٢)، وأبو الشيخ في العظمة (٩٤٣/٣).

(٢) وردت عدة آثار في شأن وجود ما يعرف بالطائر الأبيض، منها ما رواه الإمام أحمد في فضائل الصحابة (١٨٨٧) ، عن غيلان بن عمرو بن سويد قال: إنه لما مات ابن عباس أدرجناه في أكفانه، فجاء طائر أبيض فدخل في أكفان..

فكنت لا أشبع، فسألت الله تعالى فرأيت في معدتي شيئًا كالسرطان، كلما نزلت لقمة فتح فمه والتقمها وأنا أنظر إليه.

وأخبرني فقير أنه كان يرى النوم عندما يأتيه كأنه سحاب أو دخان، فعندما يصل إليه يغشاه ينام.

الرحمـــة

وأعرف فقيرًا شهد الرحمة تنزل على قوم يذكرون الله تعالى، وهى كبياض القطن منتشرة، وهى في اللطافة ألطف منه وكأنها شملت الذاكرين، وكان شخص منهم ابتدأ الذكر فربما له حظ أن يبتدئ الذكر فلم يغشه منها شيء فتاب عن ذلك.

فالمعاني تتشكل كثيرًا، وقد ذكرنا من هذا طرفًا.

عذاب القبر

وأما عذاب القبر فقد سمع جماعة من أصحابنا ذلك، وقد ذكرت في هذا الكتاب أنني كنت بمسجد في الليل وتحته مقبرة فسمعت صيحة من قبر أعرفه كاد قلبي يبرز من شدة روعته، لا يطيق سماعها إلا من أقدره الله على سماعها.

وقد جرى بنا شجون الكلام من وقائع الاختبار إلى الدخول في هذه المواطن والديار، ومن الاختبار والألطاف لمن تحين له من لطائف الاختبار في شيء من لطيف لتعلم لطف الله تعالى به، ولا تقف مع غير الله.

وحدثني الشيخ يعيش بن محمود- رحمه الله تعالى- قال: خرجت من مكة - شرّفها الله تعالى- ومعي كارة فيها ثوبيات لزوجتي وبناتي، فكنت أحملها بين كتفي وأمشى في النهار، فإذا جاء الليل جعلتها تحت رأسي ورقدت عليها، فبينما أنا ذات ليلة نائمًا وإذا بإنسان قد خطفها من تحت رأسي وجرى، فقمت لأجرى خلفه فوجدت رجلي فيها خية بحبل طويل وقد ربطت في وتد، ودق بعيدًا من غير علم منى بذلك، فوقعت على وجهي، فأخذت الخية [1] والوتد ومشيت، فلما كان بعد ذلك رأيت شخصًا تحت رأسه كارة ظننت أو علمت أنها ورقى، فجعلت الخية في رجله ودقيت الوتد وخطفتها من تحت رأسه، فقام وجرى فوقع، فوجدتها كما خطر لي، فأخذتها وسافرنا إلى الليلة التي نصبح ندخل البلد التي عيالي فيها، فرقدت ونمت وجاء

(١) هي نوع من الأربطة.

ذلك الرجل وخطفها، فدخلت البلد بلا شيء معي لأولادي ولا لزوجتي وتألمت لذلك، قال: فلما دخلت على زوجتي وأولادي وقعدت ساعة وإذا بإنسان طرق الباب فكلموه فقال: الوديعة التي أودعتها لكم، فقامت زوجتي أخرجت الكارة التي كانت لي وخطفها من تحت رأسي، فأخذتها منها وفتحتها وأخرجت لزوجتي ثوبها ولأولادي كل واحدة ثوبها وألبستهم ثيابهم، وكان الحبل معي والوتد والخية فأعطيتها لزوجتي وقلت: أعطيها له فأعطتها له.

فانظر هذه الملاطفة اليسيرة في التناقض حتى لا يفرج بغير الله تعالى ولا يقف مع غيره ولا يرجو غيره ولا يخاف سواه.

وأعرف فقيرًا اتفق له مرة أنه دخل مرة مسجدًا في البَرِّ مهجورًا، فوقع في نفسه خشية من الثعبان، فحين حصل ذلك في نفسه سقط عليه ثعبان من سقف المسجد في حجره فرماه عنه، ثم لما خرج من المسجد وأتى إلى منزله وضع يده تحت بساط أو على بساط، وكان موضعًا نظيفًا، فإذا ثعبان قد شبّك بين أصابعه، وفهم من ذلك الإشارة بألا يخاف غير الله تعالى، وأن المواضع المؤنسة والموحشة حيث شاء الله تعالى بوقوع ما يشاء لا ينفعه الخوف ولا يدفع عنه شيئًا، وكل ذلك من الملاطفة في السلوك.

وأعرف فقيرًا كان إذا بدا منه شيء من الأحوال الناقصة في القول أو الفعل يؤلمه شيء من الآلام حتى يعثر في بعض الأوقات، ويحصل له في إصبعه ألم أو رجله أو في عضو منه وكل ذلك ملاطفات.

وأعرف فقيرًا كلما خطر له خاطر غير مستقيم يجرى من أنفه الدم أو يخرج من حلقه، وكل ذلك ملاطفات في السلوك إلى الله تعالى، والأقوياء يسلك بهم غير ذلك.
وقد قلت:

ولاطفتني بالأُنس حتَّى وصلتْني	وعرَّفتني كيف التواصُل والهجرَا
فلا عذرَ لي ان لم أمتْ فيك عاشقًا	ومن لم يمت عشقًا فما بلغَ القَدرَا
ولا عذرَ لي ما لم أمتْ فيك مغرمًا	ومن لم يمت شوقًا فما بلغَ القدرَا
ولا عذرَ لي إن مت في نيل وصلِكم	ومن أين لي أنى أرى أنّ لي قدرَا

مـن لم يكـن شـيئًا ولا كـانَ ذكـرُه فأضحى بكم يعلو على غَيرِه فخرَا

مـن كـان عبـدًا مـن عبيـدِ عبيـدِكم ومن فقدَ بلغَ العَليا واستعبدَ الحرَّا

الأقويـاء في السلوك

وأما الأقوياء في السلوك فيتحملون الطامات ويخوضون بحار الظلمات، ويوكلون المهالك وتضيق بهم المسالك، وهم في ذلك متزايدون، وفى النفحات النيّرات متواردون، لا يردهم عن طلبهم حداد السيوف، ولا توارد الحتوف، فلا يرجون جنانًا، ولا يحرقون بنيران، وهم طبقات على عدد الأنفاس، وبحسب سلوك الطرقات، فمنهم من يشتاق للبلاء والعذاب، ومنهم من يفر من الدار من النعيم مع الثواب، لأن خالص حبه لا يشوبه نعيم ولا ثواب وحقيقة مقصده لا لخوف حساب ولا عقاب، ومنهم من يظهر بعكس أحواله ويبدى خلاف نيته في مقاله ليدفع بذلك التهمة عن حاله، ويكون بين الناس على صورة تبعد في العادة عن الصلاح(١).

كما حكى عن الذي تعرض لثوب في الحمام وأخرج بعضه حتى مسكوه فسمي لص الحمام، فسكن في تلك البلاد وارتعد قلبه من التهمة بالصلاح فأبدلها بالفساد، وله في ذلك عذر إذا لم يجد صلاح قلبه إلا بذلك لتمكنه في سلوكه وقوته في طريقه، ومنهم من يسلك المهنة في الأعمال والتسبب بأسباب معايش الأرذال، كحكاية الذي رقص الديك في الأسواق، وقد ذكرناها.

مقام الذي لا يَرى ولا يُرى

ومنهم من كان في مقام الواقف، وسمعت الشيخ عبد العزيز يذكر هذا المقام وهو الذي لا يَرى ولا يُرى، وهو مقام جليل عظيم.

وعلى الجملة فلا يعلمهم إلا الذي خلقهم.

ومنهم من انطوى فيمن علم الله تعالى خبره ومخبره فمن أين للناس علمه؟ كما حكى عن **الخضر** عليه السلام أنه رأى شاباً في الجامع -ولعله جامع الشونيزية(٢)- مقنع الرأس، وعبد الرازق يتكلم على الناس، فجاء الخضر إلى ذلك الشاب وقال له: ألا تجلس في حلقة عبد الرازق؟ فقال: وما أصنع بعبد الرازق؟ فقال: تسمع كلامه وتنتفع

---

(١) قلت: وهذا حال الملامتية المكرمين.

(٢) الشونيزية: بالضم ثم السكون ثم نون مكسورة وياء مثناة من تحت ساكنة وزاي وآخره ياء النسبة، اسم قرية في بغداد، بالجانب الغربي.

به فقال الشاب: فأنا أسمع كلام الله تعالى كل يوم إحدى عشر مرة، فلا حاجة لي بكلام عبد الرازق، فقال له الخضر: إن كان ما تقول حقًا فمن أنا؟ فقال: أنت الخضر، ثم طلبته فلم أره.

فهذا الخضر مع كونه نقيب الأولياء والذي تقدم لرتبة الشيخوخية من تقدم بمن يستحق ذلك خفي عليه أمر هذا الشاب وذلك في الاختبار في حق الخضر عليه السلام ليرد علمهم إلى الله تعالى مع اطلاعه كما ورد في قصة موسى عليه السلام، وسؤال بنى إسرائيل هل في الأرض أعلم منك؟ فقال: لا، فعتب الله تعالى عليه كونه لم يرد العلم إليه، فأوحى الله تعالى إليه: بل عبد من عبيدي أعلم منك. وقصته مشهورة مع الخضر عليه السلام بنص القرآن الكريم.

فهذا وأمثاله من اختبار الأكابر لجلالتهم عند الله تعالى، وكذلك قصة إبراهيم الخليل في ذبح ولده والابتلاء بجهاد الكفار وغير ذلك، وأما البلاء والاختبار العام للعموم بالإنذار والتخويف فقد جاء على لسان الرسول ﷺ ما فيه الكفاية عن من تقدم ومن تأخر، وفى كتاب الله تعالى من ذلك ما لا يحتاج إلى إعادة.

ظهور الآيات في كل زمان

وفى كل زمان تظهر الآيات كما كانت تظهر فيما تقدم في الأمم عند الفترات، ولما تقابلت الفترات فيما بين الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وكان في هذا الزمان فترات ما بين الأولياء، ووقع في كل زمان آيات عامة وخاصة ببلاد دون بلاد، بحسب كثرة الفساد وظهور العناد وارتكاب المحارم ولفوات النعم، فتظهر آثار صفة الغضب، فإن عجلوا بالإقرار والتوبة والاستغفار وحققوا الاعتذار ارتفع، وإلا وقع كما أجرى الله العادة في أن العذاب إذا أظل أمة من الأمم الكافرة لا يرفعه إلا الإسلام، فإن أبوا، فكما جرى في الأمم الماضية.

قوم يونس عليه السلام

وكذلك جرى ليونس عليه السلام كما وردت الأخبار والروايات لما خرج عن قومه بعد إظلال العذاب، ثم آمنوا فرفع عنهم العذاب فقال الله تعالى: ﴿**إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا**﴾ [يونس: ٩٨] والقصة مشهورة.

عام الزلزلـــة

وقد وقع في زماننا هذا من العذاب وقائع كبارًا عمّت أكثر البلاد، منها أن سيف التتار ملكوا أكثر بلاد الإسلام من العجم إلى العراق والشام ثم من بلاد الهند ولم يبق إلا ديار مصر حرسها الله تعالى، ثم وقع بديار مصر أثر غضب.

أعرف فقيرًا، أعرفه قبل وروده، وقد كان يخشى أن يكون سيفًا فرُحموا بكونه كان غلاءً وموتًا، وهو الغلاء الذي وقع بمصر وبلادها حتى أكل الناس الكلاب وأكل الكلاب الناس وجرى ما لا يخفى- وهي حالة مشهورة- ووقعت الزلزلة التي لم يقع مثلها في ديار مصر منذ خلقت الدنيا، وإن كان قد وقع في غيرها من بلاد الروم وغيرها في التواريخ، وقلع الحمل أيضًا بأرض الشام.

وسافر مسجد بأشجاره ونزل بمكان آخر وذلك ثابت عند الحكام ونسخته عندي.

وكل هذه آيات بينات، والناس عنها غافلون وعن مواردها لاهون، كأنهم صم بكم عمى فهم لا يرجعون.

وأما الآيات الخاصة بكل إنسان في نفسه فذلك من أحوال المخصوصين السالكين.

وأما القضايا الخاصة بجماعة بلد أو قرية أو مدينة فلا يشهدها إلا من استبصر وتفقد ذلك ونحن والله نخشى الهلاك من نزول البلاء وعمومه فقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً**﴾ [الأنفال:٢٥].

وقول عائشة- رضي الله عنها- للنبي ﷺ «**أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث**[1]» ولقد كان ببغداد وبلاد العجم من الأولياء والصالحين ما لا يحصرهم العدد، وقد شملهم القتل ولا حولَ ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

دعـــــاء

اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، ولا

---

(١) رواه البخاري (٣/١٢٢١)، ومسلم (٤/٢٢٠٧).

نحصى ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

إلهنا، بك نعوذ واليك نلجأ ونلوذ، وعليك نتوكل في الشدائد، يا غياث من لا غياث له، ويا ذخر من لا ذخر له، ويا كنز من لا كنز له، يا الله يا الله يا الله، أكفنا سوء العذاب والعقاب، واجزل لنا خير الثواب مع حسن المآب، إنك الكريم الوهاب، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

ولقد خشينا الهلاك والدمار.

إلهنا، لا تعذبنا بذنوبنا ولا بما فعل السفهاء منا، ولا تعاقبنا بما عاقبت به من خالفك من غيرنا ولا من أنفسنا، فقد أمرتنا فخالفنا، ونهيتنا فارتكبنا، ولا عذر في ذلك لنا، لك المعذرة عنّا، اللهم تب علينا توبة من أحببته وأناب إليك، وقبلته فالتجأ إليك، وكنت له عونًا في كل حالة، فتوكل في كل الأحوال عليك فإنك أكرم الأكرمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

ولتعلم يا أخي أن الله تعالى قد قال في كتابه العزيز: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ داود وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ [المائدة:٧٨،٧٩]، والحديث: «**لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليعمنَّكم الله بعذاب من عنده ثم تدعون فلا يستجاب لكم**[١]».

واقعة تاريخية
تحكي سبب ضعف المسلمين

وقد عمَّت المنكرات واشتدت البليّات، لا سيما في ظهور كلمة النصرانية على الإسلام، ومن أبطن الكفر وأظهر الإسلام ووجدوا لهم على ذلك أعوانًا، ولم ينكر عليهم في ذلك اثنان حتى رفعوا الرايات والصلبان وطيف بذلك في مدينة قوص في عُرس بعض النصارى بالطبول والزمور وبأيديهم الأطباق وقناني الخمور.

وضرب إمام الجامع وشق طيلسانه، واجتمع المسلمون بقوص ثم بالميدان وكتب على النصارى مكاتيب بما يجب في الشريعة المطهرة وما حده أمير المؤمنين عمر بن

(١) رواه أبوداود (٤/١٢٤)، والترمذي (٤/٤٦٨).

الخطاب وكانت فد جرت واقعة في الدولة المنصورية، أيام الباشا لاجين- رحمه الله تعالى- وعقيب هذه الواقعة زالت الدولة وقتل السلطان ونائبه منكوتمر وكان فقير رأى رؤيا كأن شجرة وقلعها، فزالت الدولة عقيب الرؤيا.

ولما كان في هذه الأيام زادوا استطالة واستكبارًا، وقام لهم في نصرتهم أعوانًا وأنصارًا، وقبل ذلك بأيام خربوا مسجدا في أماكنهم وبين كنائسهم ومساكنهم، ولم يُؤاخذوا بذلك ولا كلموا، حتى إذا قيل أن النصارى يفتحون الكنائس، وأن نصرانيًّا أتى ومعه من يشد منه في ذلك، وعبروا والمسلمون في الأسواق، وقيل أنهم قد فتحوا كنيسة بالطبول والزمور والأبواق، وضرب جماعة من المسلمين لكونهم تشوشوا لذلك، فحصل عند العوام من الغيرة على الدين ما كان، من ذلك ما سمع أن شخصًا قام غير معروف، فنادى بالجامع بقوص بعد صلاة الصبح ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ *وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ**﴾ [محمد:٧،٨].

يا مسلمين، الجهاد في سبيل الله، الصلاة في هدم الكنائس.

فخرج الناس على وجوههم، وكان صبيحة يوم الأحد وهو سوق البلد، يجتمع إليه أهل البلاد والغيطان من كل ناحية ومكان، فساحوا على الكنائس وهدموا العامر منها والدارس إلى ساعتين من النهار- ولم يكن ذلك في قدرة الإنسان ولكنه أمر سماوي وسر إرادي أخمد الله تعالى به كلمة الكفار وعبدة الصليب في الأمصار.

وكل ذلك وفقراء الرباط المستجد بساحل البحر بمدينة قوص عن ذلك غافلون، ووقع ذلك وهم لا يعلمون، إلى أن حضر من أخبرهم بذلك وهم مجتمعون بعد قراءة أحزابهم وعندهم جماعة مجتمعين، ثم حضر ناظر البلاد ونائب الولاية وأخبر بتحقيق ذلك، فسأل سائل من الفاعل لذلك والقارئ بالجامع؟ فلم يعرفوه وعن الذين هدموا فلم يميزوه من كثرة الناس فسُرَّ بذلك من أثبت الله تعالى الإيمان في قلبه، وغضب له من كان من جنس الشيطان وحزبه وجعل حزب الله تعالى وأهل الإيمان يستدلون على سرورهم بزوالها بالدلائل والبرهان.

فمن قائل منهم أن البلاد فتحت عنوة وهو الصحيح من مذهب الشافعي رضي الله عنه ومذهب الإمام مالك رضي الله عنه وما فتح عنوة فكنائسها وبيعها وأملاكها كلها بأسرِها

ودرهمها ملك لبيت مال المسلمين، وعليه فتوى الشيخ الإمام نجم الدين ابن الرفعة.

وحكى الشيخ نجم الدين في كتابه المعروف بـ«النفائس» عن الشيخ الإمام قاضى القضاة تقي الدين القشيرى- رحمه الله تعالى- أنه حكى عن مدونة مالك ﷺ أن البلاد فتحت عنوة ووافقه عليه جماعة من العلماء.

ومن قائل: إن أماكن يكفر بالله تعالى فيها ويكذب رسول الله ﷺ فيها ليلاً ونهارًا وعشيًا وإبكارًا كيف يجوز إتيانها؟ مع ذلك ولا يزول هذا الكفر إلا بزوالها ومذهب الإمام أبي حنيفة ﷺ أنها لا تكون كنائس إلا مساكنًا.

ومن قائل: إن النصارى لا عقد لهم؛ لأن العقد في آبائهم وأجدادهم الماضين لا يلزم أن يكون لهم عقدًا، فيلزمهم تجديد العقد، ولا يجوز إدخال الكنائس والبيع لهم في العقد. وهذا قول في مذهب الإمام الشافعي ﷺ.

ومن قائل: إن الشروط التي اشترطها عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قد خالفوها أو خالفوا أكثرها، وفى عقده فإن خالفوا شيئًا منها فيما شرطوه فلا ذمّة لهم، وقد حل للمسلمين منهم ما يحل من أهل المعاندة والشقاق، وهم للشروط مخالفون وبالمعاندة مجاهرون وعلى المسلمين يتطاولون، وذلك مشهور من أقوالهم وأفعالهم وزيهم ولباسهم ومساكنهم وجميع أحوالهم الظاهرة وما أبطنوه أكثر مما أظهروه؛ لأنهم يخالطون الأمراء والأجناد وملاك البلاد فيقوون بذلك على الغدر والأذى فيتمكنون من أذى المسلمين في كل باد وواد، ويظهرون لولاة الأمر النصح في أجنادهم وما يحسبونه بهم من التحصيل ويرتبوا لهم من الأباطيل ويأكلون أموالهم وهم في صحبتهم لهم غاشون، وفيما أظهروه لهم من الحق مبطلون، حتى استولوا على أذى المسلمين في أنفسهم وجزعهم وأموالهم ويدسون بذلك إلى بلاد العدو ويبشرونهم بذلك ويطلعونهم على عورات المسلمين من جميع الطرق والمسالك، فإن شرط لهم مشروط أو عقد مربوط، وهذه قضايا أوضح في دليلها من النهار الذي لا يحتاج إلى دليل ولا برهان، وأظهر من الشمس للعيون والأبصار.

فأما من كان للنصارى مواليًا وفى نصرتهم متفانيًا فهو يميل إلى أضعف الأقوال، ويرفض الحق بالتأويل، ويركن إلى المحال، فتراه يقوى الأقوال الضعيفة ويرجح الآراء

السخيفة ويقول: إن البلاد فتحت صلحًا وكانت بها كنائس وأقروا عليها ولم يملكوها ولا جعلوا أيديهم عليها.

وهذا الكلام مردود على قائله، ومقيم للحجة على سائله.

وإن قيل أن ذلك قد وقع ثم انتقض ولا حجة له فيه ولا عذر له فيما يقيم به الدليل ويلقيه، ولو كانت البلاد فتحت صلحًا لكان ما بأيدي الملوك الإسلامية من البلاد والقلاع والحصون والأجناد من الأملاك ملكًا للنصارى، ولم يكن عليهم إلا الجزية كما كان في غيرها من البلاد التي وقع الصلح عليها في زمن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، والفتح إنما كان في زمن عمر رضي الله عنه، فكيف يفعل عمر رضي الله عنه ذلك؟ ويجعل البلاد للقائمين وجعل منها مدفنًا للمسلمين ويكون ذلك للنصارى؟

وإن قيل أنه أقرهم على الكنائس دون غيرها من البلاد والأملاك والدنانير أو الدراهم، وإما أن تكون فتحت عنوة -وهو الصحيح - فلا يجوز إقرارهم عليها وهى ملك للقائمين، ولو أقرهم على ذلك لما جاز لهم، وللزمه الأجرة في إبقائها ويجب زوالها، وإن كان ذلك برضا من المسلمين فهذا وجه بعيد أن يكون المسلمون مع شدتهم في الدين وقدمهم من عصر نبيهم ﷺ يجمعون على إبقاء منازل يكفر بالله تعالى فيها ويكذب نبيهم ﷺ بها بكرة وعشيًا، وإنما حربهم على إقامة الدين المتين، وأن تكون كلمة الله تعالى هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، والإسلام به يعلو فلا يُعلى عليه فتكونون قاهرين مقهورين وهذا غير مستقيم.

وإما أن تكون على دعواهم فتحت صلحًا، وإنهم أقروا الكنائس، وإنها قديمة، وإن الإمام أقرها، والمسلمين رضوا بذلك يلزمهم حينئذ البينة، وأن يثبتوا ما ادعوه؛ لأن البينة على المدعى واليمين على من أنكر، هذا مع ظهور بطلانه من الوجوه الصحيحة، ومن المستحيل أن تقوم البينة بذلك، ومن شهد بذلك فهو فاسق مجاهر بشهادة الزور.

فإن من علم من الناس أن عمره خمسون أو ستون سنة فيشهد شهادة من ألف سنة أو خمسمائة سنة فلا يحتاج في مجاهرة هذا بالكذب والبهتان إلى دليل ولا برهان، ويجب تأديبه وإسقاطه، ولا يحل قبول شهادته، وأما ما هو معروف من العوائد وتحقيق الشواهد.. أنّا نرى بنيان الملوك المتقنة بالحجارة والجص وغيره قد يفترق في المدة القريبة

وفى كل وقت يصلحون فيها، كالقلاع والحصون المتقنة وغيرها من الأملاك، وتنهدم فيما دون المائة سنة وقوتها، وأما أملاك الناس الذين هم العامة الذين لا يقدرون على ما يقدر عليه الملوك فما تمسك في هذه المدة، بل تنهدم وتضمحل، فإن جدَّدوها وإلا آلت إلى الخراب، فكيف بالكنائس وهى من الطوب اللبن والطين؟ فكيف تكون من ألف سنة ما تغيرت ولا تبدلت ولا انهدمت على الجملة؟

فقد صنَّف الفقيه نجم الدين مفتى المسلمين ابن الرفعة في ذلك مصنفًا يسمى بـ «النفائس في الأدلة على هدم الكنائس»، وصنف غيره[١] ووافق على ذلك من علماء المسلمين بمصر والشام بلا حاجة إلى تكثير الكلام، وقد كان القضاة والحكام في ذلك الوقت إذ توالد في الحكم وتوقف واحد منهم، ولو حكم بالهدم في ذلك الوقت لاستراح المسلمون، ولكن المشيئة لله سبحانه و تعالى في امتحان قلوب المؤمنين للتقوى ﴿**حَتَّى يَمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾ [آل عمران:١٧٩].

اتفـاق القضـــاة على غلق الكنائس

ووقع اتفاق القضاة الجميع بمصر والقاهرة المحروستين على غلق الكنائس، وكان ذلك في أول الدولة الناصرية والعزمة الركنية والسيفية والأمراء المنصورية، أعانهم الله تعالى على نصر الدين القويم وسلوك الصراط المستقيم، وأصلحهم للرعية وللإسلام، ونصر بهم جيوش المسلمين وعصابة الموحدين.

ثم لما تطاول الأمر في غلق الكنائس وأيس المسلمين من إبقائها مع خرابها وسدها، وتمّم من تمّمَ من النصارى والمساعدين لهم على مقاصدهم الخبيثة، وجرى بقوص ما جرى من هدم الكنائس لما قصد من قصد من النصارى فتحها، كما تقدم الكلام فيه.

وكتبت محاضر شرعية بما اتفق في الجامع بمدينة قوص، وسيرت إلى الأبواب، فحضر النصراني إلى قوص، ووالي الناحية، ومسك الوالي جماعة فقام المسلمون وخرجوا إلى الساحل بالبحر بأعلام الخطابة ومصاحف القرآن العظيم والرجال والنساء

(١) مثل الشيخ الدمنهوري في «الحجة الباهرة في وجوب هدم كنائس مصر والقاهرة»، والسبكي في فتاويه، والطوفي في الانتصارات الإسلامية، والقرافي في أدلة الوحدانية.

والصبيان، وكان يومًا عظيمًا وخطبًا جسيمًا، فراحوا إلى ساحل البحر يعلمون من كان النصراني عنده فوقع بعض المصاحف.

وراحوا إلى دار الولاية من ظاهر الميدان ومعهم من شنع لهم فرجمهم الغلمان كما أخبر من حضر من العدول وغيرهم من الأجناد، فرجم العوام الغلمان، فخرجت مماليك الوالي وضربوهم، ورميت المصاحف على الأرض والأعلام، وكسرت أقفالها وضرب حاملها، وجرجرت العدول على أسوأ الأحوال، ولم يجدوا لهم ناصرًا.

وجاء بعضهم إلى الرباط بساحل البحر وهم يستغيثون ويبكون وإلى الله تعالى يتضرعون على أنهم تخلوا عن البلاد لما رأوا من سوء المقام على هذا الفساد، فكلمهم من كان في الرباط وسكن روعهم وبعضهم مضروب، وبعضهم مجروح والمصاحف ملقاة مكسرة، ولم يُصلِّ بالجامع الظهر ذلك اليوم، وكانت الناس في شدة، وقال لهم: هذا الأمر فيه أجرٌ كبير على الصبر على الأذى إذ كنتم رجوتم خلاص من لا ذنب له تشفعون.

الامتحَـــان في سبيل اللّه

وقد لقي الصحابة -رضوان الله عليهم- في الله تعالى أكثر من ذلك حتى سكتوا ورجعوا إلى بيوتهم، ثم بعد ذلك عمل على المسلمين من أبطن من أبطن ما أبطن، وخُوّف الحاكم والوالي وأجمعوا في الباطن خلاف الظاهر، وقام من له غرض وفى قلبه مرض وكتبوا بخلاف ذلك، ولبسوا على الدولة المنصورية الناصرية والأمراء المنصورية بأنواع من الحيل وبرهات من الكذب، حتى طلع الأمير وأوهم الناس أن السلطان يقصد قتل الجميع، ونزل على البلد وقصد أن يشهد أحد على من كان السبب في ذلك أو من قرأ في الجامع تلك الآية، خرج الناس فلم يجدوا أحدًا يشهد بذلك إلا الصورة التي عملت أولاً.

فعند ذلك عمد الوالي إلى شخص كان رقَّاصًا بدار الولاية، وامرأته تبيع الحشيش، فعاد يسمى لهم من يقصدونه، وعمد إلى شخص مسلم في عريف الدَّباغين يسمى لهم من يقصدونه، ووقع في الناس البلاء واشتد الامتحان ومسك من مسك، وأطلق من أطلق، وهرب الناس بالحريم إلى البلدان، وكان ذلك أقسى عليهم من فتح

الكفار بلاد الإسلام، وهجم الرقّاصون والأعوان، واستولى على المسلمين حزب الشيطان، وارتفع منار الصلبان، وأهين الفقراء وحزب الرحمن، واشتد غضب الله تعالى على من أهان دين الإسلام ورفع منار الصلبان.

ورؤى رسول الله ﷺ في المنام قبل ورود هذا الأمر، وهو واقفٌ متأهب لما ينزل من العدو على المسلمين والألم ظاهر عليه- رآه رجل مشهور بالصلاح ولم أحقق ما قصد في الرؤيا- وأقام هذا الأمر سبعة عشر يومًا والناس في أشد الأحوال من الخوف وهجاج العيال والأطفال، وهجم البيوت على الحريم وشتاتهم في البلدان وفى كل مكان، وداخلهم من الخوف والروع ما لا يوصف، وكل من مُسك ما يدرى ما يُفعل به، ولا ما يئول حاله إليه لما ألقى في قلوبهم من ذلك.

حتى إذا التمسوا من التمسوه وأطلقوا من أطلقوه وفعلوا في أذى المسلمين ما تخيروه، وحققوا ما يفعلوه، وفعلوا ما قصدوه، نصبوا سبع عشر خشبة للصلب، وخصصوا جماعة الفقراء دون غيرهم، ولم يكونوا ممن هدم كنائسهم -ومنهم من لا حضر أصلاً- وأحضروا من كان عليه جناية القطع وقطعوهم بحضرة الفقراء، وقدموا الفقراء للشنق قبل الضرب، ثم ضربوا كل فقير أربعمائة وسبعون -وذلك ما ذكره لي الفقراء المضروبون- وجرسوهم على الحمير بحضرة من النصارى على ما ذكر الناس، وهم إلى الله تعالى مبتهلون وإليه راغبون، ومن هذه النازلة العظيمة وجلون، ومن نزول عذاب الله تعالى خائفون.

وكان ذلك من بعد الصبح إلى أن ارتفع النهار، وكل ذلك ولم يثبت على واحد منهم أنه هدم شيئًا من الكنائس ولا قرأ الآية بالجامع، حتى أنهم ضربوا شخصًا من أهل القرآن مشهور بالصلاح من الفقراء ليقرءانه الذي قرأ، ولم يكن قصدهم إلا أهل الدين ومن عرف أنه من الصالحين وإعلاء كلمة الكفر على المسلمين، حتى أن الذين هربوا من البحارة والحرافيش والعامة الذين هدموا الكنائس حاضرين، ولم يطلبوا منهم أحدًا.

وكان الحاكم قد قال قبل ذلك: من أخذ شيئًا من الخشب أو آلة الكنائس فليحضره، فأحضر جماعة كثيرة ما أخذوه وكتبوا أسماءهم ولم يطلبوا إلا الفقراء ليفعل الله

تعالى ما يشاء.

طلب صاحب الرِّباط

وعند استكمالهم هذه المصيبة العظمى والبلية الكبرى طلبوا صاحب الرباط المستجد على ساحل البحر وقالوا: إن السلطان طلبك، فخرج من وقته بعياله، وسافروا سفرًا عنيفًا حتى أنه لم يدعهم يأخذون الخبز من الفرن ولا وجدوا كوزًا يشربون فيه ولا زبدية إلى منفلوط، هذا مع كونه لم يخرج من مكانه إلا لصلاة الجمعة، ولم يكن أحد من أصحابه حاضر معهم، وكل الناس من أهل الناحية بذلك عالمون وله محققون، وجماعة كانوا عنده يوم الواقعة بذلك يشهدون، وإنما كان القصد من هذا الأمر مفهوم، ونصره من قصد نصرته النصارى معلوم<

وقد قلت:

قل للذين نصَرُوا الصلبان ويحكمُوا ... خسرتُموا صفقةَ الدنيا مع الدين

عاديتم الله في أحبابِه سفهًا ... وفى موالاةٍ إخوانِ الشياطين

إن لم يكن لكم السلطانُ يَردعُكم ... ولم تخافوه في وقتٍ ولا حين

لا تعجلون فإن اللهَ خالقُنا ... سلطانُه فوق سلطانِ السلاطين

فلما وصل إلى القلعة المحروسة، وكان السلطان عزّ نصره والأمراء نصرهم الله تعالى في الصيد، وكان أعداء الدين ومن أقام نفسه لنصرة دين الصليب قد احتالوا كل الحيل والمكائد، وعملوا في هلاكه وذهاب نفسه ذخائر وأموالاً، ونسوا نصرة الله تبارك وتعالى، وكل ذلك ولا ناصر ينصره ولا معين يعينه.

وقد كان أقوام يقصدون إهانة من هو في زى المسلمين والمؤمنين وعصابة الموحدين، والناس مع ذلك عن نصرة دينهم غافلون، وعمّا وقع من هذا الأمر العظيم لاهون، كأنهم لا يسمعون ولا يعقلون، ولم يظهر لإنكار ذلك واحد، ولا قام به قائم، ولا قعد له قاعد، وبقى الأمر على ذلك مستديم، ﴿**ويحسَبُونه هَيّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ**﴾ [النور: ١٥].

ولما أدخلوه البرج في أول طلوعه وجد لذلك انشراحًا في صدره ونورًا في قلبه،

وقد كان محتاجًا إلى ذلك، وأن يسلك الله تعالى به في الجهاد في سبيله هذه المسالك، ثم أخرج إلى المسجد وهو بحمد الله تعالى قوي الجنان متزايد الإيمان، قد أخذ نصيبًا من الابتلاء، ومن ميراثه من البلاء.

وقوله ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء أشد بلاءً والأمثل فالأمثل**[1]».

فلما وصل السلطان -خلّد الله تعالى ملكه- والأمراء قابلوه بالإكرام والإحسان، وأحسن كل منهم بما هو اللائق به مع ما أن أوحى إليهم من الكذب والبهتان وما زينوه لهم مما رتبه المزين لهم الشيطان.

وكان طائفة أهل الزّنار بأعوانهم وأوليائهم الكفار قد شرعوا في فتح الكنائس في البلاد، وأظهروا للملّة الإسلامية والدولة الناصريّة العناد، واستولى بذلك في الأرض الفساد، فجمع الأمراء والسلطان القضاة والحكام على ما يسوغ في أمر الشرع الشريف، وأن يُجمعوا كلهم على ذلك بالتحقيق، وحسن الوضع والسلطان والأمراء بحمد الله تعالى في غاية ما أن يكون، وإلى ما شرعه الله تعالى ورسوله ﷺ متبعون.

ثم اتفق رأيهم على أن يقفلوا بأمر السلطان والأمراء جميع الكنائس في البلاد، وسافروا إلى كل ناحية وباد، ولم يبق إلا كنيسة واحدة بمصر المحروسة، ولو اتفقوا على هدمها لهدموها بأجمعها، وعلى قتل النصارى لقتلوهم، ولكن لله تعالى في ذلك تدبير، وأن يكون ذلك في زيادة الشقاء لهم في التأخير، وأن يسعد بعداوتهم والجهاد فيهم من أسعده الله تبارك وتعالى في العدم، ويشقى بشقاوتهم وموالاتهم من كان من الأشقياء في سائر الأمم.

الشهادة الباطلة بقدم بناء الكنائس

وقد كان أقوام قد شهدوا قبل ذلك بأيام بأن كنائس اليهود بالقاهرة المعزية قديمة البناء، وأنها بأيديهم وأيدي آبائهم من قديم الزمان، ولم يعترض عليهم في ذلك قضاة ولا حكام، ورسموا شهادتهم بذلك، وسلكوا في ذلك أقبح المسالك.

ورأيت الأمراء حرسهم الله تعالى من ذلك سالمين، وعن حجج أفعالهم لائمين،

---

(١) تقدم تخريجه.

ولو تُركوا لعجلوا لهم بأسوأ العقاب، ولنوّعوا في جنس عذابهم أنواع العذاب، وهم والله في ذلك معذورون، وفيما غبطوا به عند الله تعالى مأجورون.

وكانت الشهود الذين رقموا شهادتهم تسعة رهط، وهم للتسعة رهط مقابلون، وفيما فعلوه متهمون. وقد قال الله تعالى عن التسعة من قوم صالح عليه السلام: ﴿**وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ**﴾ [النمل:٤٨].

وهذه الشهادة التي لا يشك أحد من المسلمين في بطلانها وزورها، ولا ممن له عقل من غير المسلمين في كذبها وفجورها أن القاهرة المعزية بناها المعز لدين الله تعالى، والقاهرة محدثة في نفسها، والمغاربة في دين الله تعالى أقوياء، وفتحوا فتحًا وعمّروا لأنفسهم بلدًا في مكان قد اختاروه لنفسهم ووضعوه موطنًا لهم، فمن المحال أن يختاروا مكانًا معمورًا بالكنائس مع شدّتهم في الدين ونصرتهم للمسلمين.

فالكنائس لا تخلوا إما أن تكون حادثة فشهادتهم بقدمها باطلة ظاهرة البطلان، وإما أن تكون قديمة فيجري فيها البحث الأول كما تقدم وكان، فمن أين لهم أن يشهدوا عمّا لة ألف سنة وأعمارهم ما بين الخمسين والأربعين أو الستين والسبعين؟ فقد أتوا بأقبح التشنيع، ورموا أهل خرقتهم بأقبح أنواع البدع مع ما نسبوا فيه لفتح الكنائس اللاتي يكفر بالله تعالى فيها، ويُكذَّب رسوله ﷺ فيها، والرضا بالكفر كفر، وما كان سببًا للكفر فهو كفر.

وإن كانوا قد علموا ذلك مع التهمة العظيمة والشهرة الفظيعة.

صُرّة اليهودي

فلقد أخبرني قاضي القضاة شمس الدين الحنفي السروجي -حرسه الله تعالى وأدام بركته- أن رئيس اليهود أخرج له من تحت برنسه صرة كبيرة من الذهب في ذلك الوقت، وأن القاضي حرسه الله تعالى زجره وأراد إهانته وأخرجه إخراجًا عنيفًا، وأعز بذلك الدين أعزه الله تعالى وأهان من أهان دينه ﴿**وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ**﴾ [الحج:١٨].

وبلغ ذلك الأمراء، وتحدث الناس في ذلك، فمنهم من يقول هي أربعة آلاف، ومنهم من يقول هي دون ذلك.

فيا ليت شعري، ما الذي ألجأ الشهود إلى ذلك؟! أتراهم يتبرعون لهم بالشهادة إن لم يكونوا منتمين كما ذاع وشاع؟

ولقد أخبرني شخص أن اليهود وزعوا على أنفسهم توزيعًا في فتح الكنائس، فكان عن كل واحد نيف وثلاثون درهمًا مع كثرتهم بمصر والقاهرة المحروستين، ولولا خشية من كثرة العار في الدين وإن كان قد وقع كما قيل:

وقد قيلَ ما قيلَ إن حقًّا وإن كذبَا   فمَا اعتذارُك من قولٍ إذا قيلَ

وكنت أذكر من فتح هذه الواقعة ما يسد المسامع، ولو تركوا المراء بذاتهم لفعلوا بهم ما يجب فعله عن فعل ذلك ﴿**قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾ [المنافقون:٤] فقد زال من نفوس ملوك الدولة حرمة هذه الطائفة لسوء الفعال.

وقد كان قاضي القضاة شمس الدين السروجي- حرسه الله تعالى -قصده الستر فمنعهم عن الشهادة مدة، وخشي من فتح الأحدوثة ودوامها على هذه الطائفة، وأن يتسع الخرق في أمرها فتشاور الأمراء على رجوعهم و الله تعالى أعلم، هل تابوا توبة صحيحة أم لا؟ وهل قبل الله تعالى توبتهم أم لا؟

ثم بعد ذلك بلغنا من العدول الثقات أن النصارى فتحوا الكنائس ببلاد منفلوط، وشهد بذلك جماعة من العدول وكتبوا به مكتوبًا، ولم يجد من ينتصر وفي غيرها من البلاد، وذلك لأن لهم أولياء وأنصار ينصرونهم في مجالس الملوك والأمراء والحكام، ويدلسون على الدولة وينممون عليها في أمرهم، ولم يراقبوا الله تعالى ويخشونهم ولا يخشون الله، وهم في الظاهر مسلمون وليسوا في الحقيقة مسلمين.

الولاء والبراء في الله

قال الله تبارك وتعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [المائدة:٥٧].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[المائدة:٥١].

وقال تعالى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢].

فمن كتب الله تعالى في قلبه الإيمان وأيدهم بروح منه لا يواددهم ولا يحابيهم ولا يصاحبهم ولا يقاربهم ولا يشاورهم ولا يباطنهم.

وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ البَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[آل عمران:١١٨].

فهل من بعد بيان الله تعالى بيان؟ وهل من بعد ما قصه الله تعالى وذكره في القرآن قرآن؟ وهل من بعد آياته ودلالته دليل أو برهان؟

فما بالكم بكتاب الله تعالى لا تؤمنون وبآياته لا تصدقون، وبما ظهر من الآيات البينات في هذا الزمان لا يعتبرون، ﴿**أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ**﴾؟ [الطور:١٥] ﴿**كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ [التكاثر:٣، ٤].

نـــداء للمؤمنين:

أيها المؤمنون بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، والمظهرون الإسلام والمخالفون بأفعالهم وضمائرهم، ويا أيها الذين أوتوا الكتاب وأهل الخرقة والدين الذين لم ينكروا عليهم.

أما تخشون أن يعم البلاء لعدم الإنكار؟ أم لا اعتبار بما تقدم في غيركم من الأمم الماضين من العذاب وخراب الديار؟.

أما تتقون من الفتنة المهلكة لطائفة الأبرار مع الفجار وقد ظهرت بعض الآثار وأنتم في غفلة عنها؟ ولاح برق المنايا وأنتم عمون عنها، فما بالكم لا تنظرون إلى تعاون أعدائكم على الإثم والعدوان وأنتم على البر والتقوى لا تتعاونون؟ ويتناصرون في دينهم وأنتم في دينكم تتخاذلون؟ وتؤذون بعضكم ببعض وأنتم لهم في ذلك موافقون؟.

أما تخشون أن يكون الله تعالى قد غضب الغضبة الكبرى وأنتم لا تشعرون؟ وأن يحيط بكم العذاب وأنتم لا تعلمون؟ لقد ساء والله ما تحكمون أم أنتم كما أنزل الله تعالى في كتابه لمن كان قبلكم سامعون ﴿**أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ* إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ سَلْهُمْ**

أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠].

أما سمعتم قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ داود وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[المائدة: ٧٨، ٧٩].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أما ورد عن نبيه ﷺ: «**لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليعمنكم الله بعذاب من عنده ثم تدعون فلا يستجاب لكم**[١]».

والحديث الذي ورد: «**إذا ظهرت البدع وسكت العالِم فعليه لعنة الله**[٢]».

والحديث الذي ورد أيضًا: «**أنكر بيدك فإن لم تستطع فبلسانك فإن لم تستطع فبقلبك وذلك أضعف الإيمان، ليس وراءه من الإيمان حبة خردل**[٣]».

والدليل على أنه أضعف الإيمان قوله تعالى: ﴿**لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ**﴾ [الحشر:١٣]، وذلك أن الشخص الذي يصدر منه المنكر يكثر عنده ولا ينكر عليه، فلو عظمت شعائر الله تعالى في قلبك، وكان الله تعالى أشد رهبة في صدرك لأنكرت عليه، فلما كان الشخص أشد رهبة كان إيمانه بذلك منكم أشد والله أعلم.

أما ورد الحديث «**إن الله تعالى أوحى إلى جبريل** عليه السلام **أن اخسف بقرية كذا**، -وسمَّاها- فقال: **يا رب، إن فيهم عبدك فلان، لم يعصك طرفة عين قال: اقلبها عليه وعليهم، فإنه لم يتمعر فيّ يومًا قط**[٤]».

وفي حديث داود عليه السلام: «**يا داود، أما زهدك في الدنيا فقد استعجلت لنفسك الراحة، وأما انقطاعك إلى فقد تعززت بي فهل واليت في وليًّا أو عاديت**

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) رواه الربيع في مسنده (٣٦٥/١).
(٣) رواه مسلم (٦٩/١).
(٤) شعب الإيمان (٩٧/٦).

فيَّ عدوا[١]».

دُعَـــاءٌ ومناجاة

اللهم إنا قد عادينا فيك أعداءك من الكفار والنصارى واليهود وأعوانهم وأنصارهم وأوليائهم.

اللهم انصرنا عليهم، اللهم ابطش بهم بطشك الشديد، وخذهم أخذك المبيد يا مبدئ يا معيد يا فعال لما يريد.

اللهم اطمس على أموالهم، واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

اللهم وهذه العصابة المحمدية التي هي كالنقطة البيضاء في البحر الأسود، قد اشتد عليها البلاء وتزايد عليها الأعداء وهم قوم ضعفاء.

اللهم كن أنت ناصرهم ومؤيدهم.

اللهم إن الطائفة التي انتسبت إليك وإني لأقلهم وأنت بي أعلم مني، وأعصاهم وأنت لي أستر من نفسي على نفسي، قد نزل بي وبها ما أنت أعلم به من الإيذاء والإهانة في سبيلك من غير تقدم ذنب لمن آذاهم، وقد أشهروا من انتسب إليك لجل أعدائك، وأحضروني على ما علمت لنصرة للكفار على دينك ودين نبيك ولا ناصر لنا غيرك ولا رجاء لنا سواك ولا معبود لنا إلا إياك، وقد ورد عنك أنك قلت: **«اشتد غضبي على من ظلم من ليس له ناصر غيري[٢]».**

اللهم إنّا قد ظُلمنا فيك، وأوذينا في سبيلك، ولك المنة علينا في ذلك، وقلوبنا متألمة من أعدائك ومنكسرة لأجلك، وقد ورد عنك أنك قلت:

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/٨٤)، والطبراني في الأوسط (٢/٣٤٥)، والخطيب البغدادي في التاريخ (٣/٢٠٢)، وابن قدامة في المتحابين في الله (ص٣٤).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الصغير (١/٦١)، و ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/٢٠٦).

«أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي[(١)]**»**.

اللهم عجل لنا بالفرح والسرور والنصر والفتح والحبور، ولأعدائك وأعدائنا بالمجازاة والدمار، وانصر دينك وارفع كلمتك في الإسرار والإجهار.

فقد ورد عن نبيك ﷺ أنه قال: **«إن الله يغار، والمؤمن يغار**[(٢)]**»**.

إلهي، أين كانت عزتك عند ذلّنا؟ وأين كانت سطوتك عند قهرنا؟ وأين كانت قوتك عند ضعفنا؟ وأين كانت غيرتك عند نسبتنا إليك؟

إلهي، إن أدنى أدنى من عندها من العبيد وسواس الدواب والعرب تقتل في الغبرة وفي الجوار ومن يلوذ بهم، إلى ضرب الرقاب والفناء والذهاب، فكيف بك وأنت ملك الملوك ورب الأرباب، وقد اشتد علينا الأمر وضاقت الصدور، وبلغت القلوب الحناجر، ولا لجوء إلا إليك، ولا متكل في كل حال إلا عليك.

وقد قال أحدهم فيمن التجأ إليه:

أأظمأُ وأنتَ العذبُ في كلِّ موردٍ ... وأُظلم في الدُّنيا وأنتَ نَصيري

وعارٌ على حامي الحمَى وهو متخذٌ ... إذا ضلَّ في البيَدا عقالُ بعيرِ

إلهى، أنت المنزه عن المثال وضرب الأمثال، وقد قال عبد المطلب حين قال له أبرهة أتسألني في مائتي بعير ولا تسألني في البيت الذي به شرفكم؟ فقال له: أما الإبل فإني ربها، وأما البيت فله رب يحميه[(٣)].. فقال: ما كان يحميها مني، فجاء واحد بحلقة باب الكعبة وقال: اللهم إن العبد يحمي رحاله فاحم رحالك.

وقد قيل:

فؤادٌ لا يَقَرُّ له قرارُ ... وأجفانٌ مدامعُها غزارُ

---

(١) رواه أحمد في الزهد (ص٧٥)، وابن أبي الدنيا في الهم والحزن (ص٥٦)، وذكره المناوي في فيض القدير (٥١٩/١)، والشيخ الشعراني في العهود المحمدية (ص١٨٣)، والعجلوني في كشف الخفاء (٢٣٤/١) بنحوه.

(٢) رواه مسلم (٢١١٤/٤)، وابن حبان (٥٢٨/١).

(٣) ذكره العجلوني كشف الخفاء (١٨١/٢).

وهــمٌ قــد طويــتُ عليــهِ كشــحًا فنشــبَّت منــه في الأحشــاءِ نــارُ
وليــلٌ طــالَ بالإنكــارِ حــتَّى ظننــتُ الليــلَ لــيس لــه نهــارُ
وهــل لا والتقــى حُلــت عُــراهُ وبــانَ علــى بنيــه الانكســارُ
لتبــكِ علــى الــدينِ البــواكي فقــد أضــحت مواطنُــه قفــارُ
وقــدْ هُــدِمت قواعــدُهُ اعتــداءً وزالَ بــذلُكم عنــه الوَقــارُ
وأصــبحَ لا يُقــامُ لــه حــدودٌ وأمســى لا يَبــينُ لــه شِــعارُ
وعــادَ كمــا بــدا فينــا غريبًــا هنالــك مــا لــه في الخلــقِ جــارُ
وممــا هــيَّجَ الأحــزانُ عنــدي وصــيَّر فكــرتي أبــدًا تَحــارُ
لعمــرُك مــا جــرى بصــعيدِ مصــرَ مــن الأمــرِ الــذي فيــه اعتبــارُ
وذاك بــأنَّ أوبــاشَ النصــارى بقُــوصٍ قــد اعتــدَوا وطغَــوا وجــارُوا
وقــد هــدُّوا مســاجدَنا اعتــداءً فــلا ديــنَ يُقــام ولا أذكــارُ
وقــد نقضُــوا عهــودَهم جِهــارًا وعــابُوا في البريَّــةِ واســتثارُوا
وقــد جحــدوا شــروطًا التــزموها وأســرُّوا في العــداوةِ ثم ســارُوا
إلى ربِّ العبــادِ شــكوتُ حــالي بــأمرٍ مــا عليــهِ لي اقتــدارُ
ولا أحــد يســاعدُني بعــزمٍ يكــونُ عليــه في الأمــر المــدارُ
لقــد عــدمَ المعــينُ فــلا معــينَ وعمَّتَنــا المذلــةُ والصــغارُ
وقــد عُــدِمَ النصــيرُ فــأين منّــا نصــيرٌ في الشــدائدِ يستشــارُ
أمــا في النــاسِ مــن خــيرٍ كــريمٍ لــدينِ الله في الــدنيا يَغــارُ
أمّــا في النــاسِ ذو بطــشٍ شــديدٍ لــهُ عــزمٌ يُقــالُ بــه العثــارُ

أمّـا في النـاسِ مـن لهـم قلـوبٌ ... تـؤثر أو لهـم همـمٌ كِبـارُ
عجبـت مـن النـداءِ ولا ملـبٍ ... لمـا ادّعـوا وفي ذاك اعتبـارُ
عسـى نسـتنجد النسـوانَ إذ لا ... رجـالٌ وإلا صـبيتُه الصـغارُ
تعـالَوا قـد خلـتْ ممـن يحـامي ... عـن الـدينِ المـواطنُ والقِفـارُ
تـنحّ لعظـيمٍ زرقـد عرانـا ... نحـاذر أن تعُـمَّ بـه الـدّمار
ونُعلـنُ بالعويـلِ بكـلِّ أرضٍ ... بـدمعٍ في الخـدودِ لـه انحـدارُ
ونسـألُ ربَّنـا في كـلِّ ليـلٍ ... أتـى مـن مـا ارتحـلَ النهـارُ
قيامًـا والـدموعُ لنـا شـعارٌ ... لـه ثم الخضـوعُ لنـا دثـارُ
نناجي في الظـلام بكـلِّ قلـبٍ ... جـريحٍ في الصـميمِ لـه انكسـارُ
ونفـترشُ الخـدودَ بكـلِّ تـربٍ ... يكـون بهـا الـدموعُ لهـا نَثـارُ
عسـاهُ يُنيلُنـا غوثًـا سـريعًا ... ففـي كـلِّ الـذنوبِ لـه اغتفـارُ
ويرفـعُ مقتَـه عنَّـا جميعًـا ... دوي الإسـلامُ للإسـلامِ دارُ
ويُهلـكُ كـلَّ جبـارٍ عنيـدٍ ... علـى ديـنِ النـبيِّ لـهُ انتصـارُ
ألا يَـا خَـير مـن سَـاد البَرايـا ... وخـيرَ النـاسِ إن ظعنُـوا وسـارُوا
سـلِ الـرحمنَ في ذا الحـالِ عطفًـا ... فأنـتَ لنـا وللإسـلامِ جـارُ
ونصـرًا للشـريعةِ واعتـزازًا ... وذلاًّ للعـدوِّ بـهِ دمـارُ
صـلاةُ اللهِ تـترى كـلَّ حـينٍ ... علـى عليـاكَ مـا دارَ المـدارُ

وكانت هذه القصيدة بعضها قيل حين هدم في أماكن النصارى مساجد، منها المسجد الذي بحارة النصارى المعروف قديمًا بالعبد.

عمارة المساجد

ورُئي رسول الله ﷺ في المنام فقام الرائي، وساعده الله تعالى على عمارته، وهو الآن معروف بمسجد الفتح، وفيه منارة، وفيه الأحزاب والوظائف وقراءة العلم الشريف. كان النصارى قد هدموه وجعلوه محلاً للقمامة والأوساخ وهو كالكوم الكبير، وبحثنا حتى أخرجنا القبلة، وذلك مشهور.

ومسجد آخر بحارة كراكوس بساقية كاتب المال وجعلوه مراحًا للبقر، حتى جاء معنا بعض العدول الذين يعرفون مكانه، فوجدناهم جعلوه مراحًا للبقر. **ومسجد** آخر في ساقية النشر النصراني كان قد شراها هو ورفيقه حسب الله حين كانا يكتبان في ديوان الأمير حسام الدين طرنطاى، وكان بها مسجدًا عامرًا، عمره صاحب الساقية، وكان بها كنيسة دائرة تمشي الدواب فيها، قيل لنا أنهم هدموا المسجد وعمروا الكنيسة، فخرجنا وخرج المسلمون والعدول ونائب الحكم ونائب الأمير بدر الدين بيدارا في أيام بيدارا، فوجدنا المسجد ملسًا، وادّعَوا أن النيل هدمه، ووجدنا الكنيسة المندثرة عمّروها، وشاهدها العدول ونائب الحاكم ونائب والي الأعمال ونائب الأمير بدر الدين بيدارا، فهدموا ما جددوه والمسجد إلى الآن ما سُقف؛ لأن العمارة كانت فيه حين وقعت فتنة الكنائس.

ومسجد آخر بظاهر الباب الحديد بقوص، وشاهدت بنيان بيت نصراني بناه على قبلته فتفسخت القبلة، وشهد القاضي شهاب الدين بن هبة الله- رحمه الله تعالى- أنه مسجد وهكذا شهد من يعرفه، وهدم حائط النصراني من عليه، ثم جاء الأمير بدر الدين بن البقاعي نائب الأمير بدر الدين بيدارا أتى مدينة قوص وضرب النشو النصراني ورفيقه حسب الله بسبب بنيانهم الكنيسة وتخريبهم المسجد ضربًا كثيرًا رحمه الله تعالى، وكان أيضًا في ذلك الوقت من قام لغرضه، فوافق غرضه غرض النصارى، فصار بذلك عونًا لهم، فكتب محاضر وردهم الله تعالى خائبين، وكانت الدائرة عليهم وعلى من يغضب معهم، وكانت له ولاية فعدل منها، وجعل له نكال شديد، ومات بعد ذلك، وهلك وكل من قام معهم في ذلك الوقت.

وأما هذه الواقعة المتممة على الأمراء والسلطان فلم تجرِ في التواريخ المتقدمة ولا القرون الماضية مثلها، ولم نسمع قط أن فقراء من أهل الدين والصلاح ضُربوا بالمقارع

وجُرِّسوا على الدواب والمشاعلية تنادي عليهم بسبب هدم الكنائس، ولم يثبت أن أحدا منهم هدم، والذين هدموا حقيقة وعرفوهم لم يخاطبوا منهم إلا إن كان شخص أو شخصين.

ثم إنهم جاءوا الرباط وطلبونا إلى الباب ولم يكن أحد ممن هو في الرباط جميعهم حاضرًا، ولا سمع من الناس والفقراء الذين بالرباط متقطعين، والذي هو مقيم بالرباط لا يخرج إلا لصلاة الجمعة ويعود، فهذه مصيبة عظيمة لا تشبه المصائب.

وقد قلت فيمن أقامه الله تعالى لنصرة هذا الدين ومن وافق على نصره نصره الله تعالى:

للهِ في الخلـــقِ تـــدبيرٌ وأســـتارُ	لحكمـــةٍ خُفيـــت علينـــا وأســـتارُ
تخـتص رحمتُـه مـن شـاءَ مـن بشـرٍ	فكـم لهـا ظهـرتْ في الكـونِ آثـارُ
لا تخشَ لومًـا علـى نصـرِ الإلـهِ لـهُ	فأنـــت للهِ حمـــادٌ وشـــكارُ
وأبشـرْ بنصـرِك في نصـرٍ أتيـتَ بـهِ	ومحـوِ مـا قـد مضـى واللهُ غفـارُ
لا عجـزَ الله مـن قـدْ قـامَ ينصـرُه	وحســبُه أنــه للــدينِ نصــارُ
أمـــدّه اللهُ بـــالأملاكِ تحرسُـــه	وفي الجيـوشِ مـن الأمـلاكِ أنصـارُ
جاهـدْ بسـيفِكَ أهـلَ الشـركِ كلَّهـمُ	ومـــن يُعيـــنهم فالكـــلُّ كفـــارُ
واغلظْ عليهِم ولا تلوي على أحدٍ	فالـــذلُّ وصـــفُهم مـــأواهُم النـــارُ
بـئس المصـيُر ومـنهم مـن يـوالهُم	أهـلُ النفـاقِ وهـم في النـاس حضـارُ
خـــذْ للنـــبيِّ وأهـــلِ بيتِـــه ثـــأرَهم	فالنـارُ والعـارُ مـا لم يؤخـذ الثـارُ
لا عـارَ إن قمـتَ للإسـلامِ تنصـرُهُ	وتـركُ نصـرتِهِ حقًّـا هـوَ العـارُ
إن الشّـنارَ وكـلَّ العـارِ مـا فعلـوا	بـأرضِ قـوصَ وأسـيوطَ وجـارُوا
وأحرقـوا حرمـةَ الإسـلامِ ويحهُـمُ	وهُتكـت حـرمٌ فيهـا وأسـتارُ

وشـرّدُوا النـاس عـن أوطـانهم فغـدَوا ... في كـلّ أرضٍ مـن الـبلادِ قـد حـارُوا

لا يســتقرون في كهــفٍ ولا جبـــلٍ ... ولــــيس يـــــؤيهم أرضٌ ولا دارُ

ما حل بالكفرِ يومَ الفتحِ من أحدٍ ... ما حلَّ فيهم وأهلُ الكفرِ قد ثارُوا

أهلُ الصلاحِ وأهلُ الدينِ قد أُخذُوا ... أخـــذًا عنيفًـــا وهـــم لله أبـــرارُ

من بعدِ ما عُرضوا للصلبِ مستهم ... ضـربٌ وسـبٌّ وتجـريسٌ وإشـهارُ

داروا بهـــم دورةً ســـحقًا لفاعلِهـــا ... فيهـا النكـالُ يـدور الـذلُّ إن دارُوا

وللنصـــارى ســـرورٌ عنـــدَ رؤيـــتهِم ... فكـــم صـــليب بـــدا يعلـــو وزنـــارُ

واهـا علـى الـدِّين والإسـلامِ قاطبـةً ... إن تمَّ هـــذا ولم يُؤخـــذ لهـــم ثـــارُ

والنشـو يفتـكُ في الإسـلامِ فتكتَـهُ ... ما بين قاضٍ ووالٍ لـه سرٌّ وإسرارُ

لأجلِـه خـذلُوا الـدينِ الحنيـفِ فيـا ... ويـحَ الـذي لصليب الكفـر نصّارُ

يـا عصـبةَ المصـطفى يـا أهـلَ ملَّتِـهِ ... مـاذا لكـم بعـدَ هـذا اليوم أعـذارُ

أيـــن الحمـــاةُ لهـــذا الـــدينِ أيـــنَهمُ ... وأيـن الهُمـامُ الـذي بالفتـكِ كـرارُ

قوموا على الكفرِ من أهلِ الصليبِ ... ومـــن وَالاهـــم فهـــو أثّـــامٌ وكفَّـــارُ

يـاذا الـذي شـيَّد الـدينُ الحنيـفُ لـهُ ... عونًـــا مـــن اللهِ إســـرارٌ وإجهـــارُ

ركـــنٌ أقـــامَ بـــه ديـــنُ الإلـــهِ لـــه ... ســـيفًا مـــن الله في الهيجـــا بتـــارُ

فـــاللهُ يعضّـــدُ بالتأييـــدِ عزمَهمـــا ... يســـاعدُ العـــزمَ والتأييـــدَ أقـــدارُ

لا تخـش ذنبًـا إذا قطعـتَ دابـرَهم ... فَفـــي بقايـــاهُم للنـــاسِ أضـــرارُ

فهـم ثـلاثٌ وذا السـلطان ثـالثُكم ... والله رابعُكـــــــم والله قهـــــــارُ

نعـم وأتبـاعُهم لا يُحصـرون وهـم ... مثـلُ الأفـاعي وكالحيـات أشـرارُ

لا يضـمرون لأهـلِ الـدين غـيرَ أذًى ... ولـيس فـيهم لغـيرِ الشـركِ إضـمارُ

قد أظهرُوا لكم الإسلامَ مصيدةً والحنثُ فيهم وعقدُ الشركِ إسرارُ
ففي الأمانةِ قد خانوا عهودَهمُ وفي الخيانةِ في الأموالِ سِعارُ
لا أمنَ اللهُ من يأمنُهم أبدًا ذوي الخيانةِ خانوا الله كفارُ
فاحدد بسيفك ركنَ الدينِ أصلَهمُ وعونُك القتلُ سيفُ الدين سيارُ
كونا على البر أعوانًا حسيبكما ربُّ السَّماوات نهاء وأمارُ
ثم أبشروا بلذيذ العيشِ في دعةٍ من بعد ذلك جنات وأنهارُ
وصل ربِّ على المختارِ من مضر ما سبَّح اللهَ في الأسحارِ أطيارُ
وما بدا كوكبٌ في أفقِ مطلعِه وما غدا طالعًا في الأفق أقمارُ

إلزام اليهود والنصارى التمييز

وقد كان الأمير ركن الدين والأمير سيف الدين سلاَّب ألزموا اليهود بالغيار وتغيير العمائم بالاصفرار، وألزما النصارى بشد الزنار وبالعمائم الزرق في الغيار، وكان ذلك لهم أشد الهوان في تغيير الألوان، وتمييزهم من المسلمين وعصابة الموحدين بهذا الزى والتبيين؛ ﴿**لِيَمِيزَ اللَّهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾ [الأنفال:٣٧].

فريضة الجزية

وقد كان قيل لهم أن تأخذوا الجزية من الرهبان، ووعدا بذلك، وهو مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه في صحيح الأقوال، وأفتى بذلك الشيخ عز الدين بن مسكين.

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ [التوبة:٢٩]، ولم يستثن الرهبان.

وورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم:

«**اليهود والنصارى خونة لعن الله من ألبسهم ثوب عز سلبه عنهم الإسلام**[١]».

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/٥٣٤).

وقال **الرافعي** رضي الله عنه في الكتاب المعروف بـ «المحرر[١]» عن الجزية: والأصح وجوبها على الذمي والضعيف والشيخ الفاني والراهب والأعمى والفقير العاجز عن الكسب.

وقال **النواوي**- قدّس الله تعالى روحه- ونفع ببركاته في كتابه المعروف بالروضة وفي كتابه المعروف بالمنهاج[٢]: والمذهب -يعني مذهب الشافعي رضي الله عنه- وجوبها على الذمي والشيخ والهرِم والأعمى والراهب والأجير والفقير العاجز عن كسب.

وقال **الإمام أبو إسحاق** في التنبيه: وفي الشيخ الفاني والراهب قولان.

وقال النووي رحمه الله تعالى في تصحيح التنبيه[٣]: والأصح وجوبها على الراهب ومن ذكر أعلاه.

والنووى رحمه الله ما شك أحدٌ في علمه وزهده وورعه ودينه، وإلى فتواه يرجع الفقهاء والعلماء، فيجب على ولاة أمور المسلمين-أيدهم الله تعالى الرجوع-لما أمرهم الله تعالى به وحضّ عليه رسوله صلى الله عليه وسلم وأفتاهم العلماء.

وأخذ الجزية من الرهبان وغيرهم ممن ذكروهم من شيخ وذمي وهرِم وأعمى وفقير وأجير ومن عجز عن الكسب، ففي ذلك إعانة لبيت مال المسلمين، وامتثالاً لأمر رب العالمين، واتّباعًا لسنة سيد المرسلين وخاتم النبيين، واقتداء بالعلماء والصالحين والخلفاء الراشدين، ونكالاً لأعداء الدين، وأن يتركوا ما عدا ذلك من المحدثات في الدين والتضييق على المسلمين، كالضمانات المحدثة والخيم ونصف السمسرة وتحكير المباحات من المنفعة وما جعلوه على الغلال والحبوب وما رتبوه على كل حاضر ومجلوب في القليل والكثير والجليل والحقير مما لا يسيغ شرحه هذا الكتاب وليس عليه في التحريم جواب من سائر المحدثات وأنواع الظلامات.

قال الله تعالى مخبرًا عن من خالف حكمه وما أنزله في كتابه الحكيم والقرآن

---

(١) انظر المسألة بنصها في: الأم لإمامنا الشافعي (٤/٢٤٧)، والتذنيب للرافعي (ص٤٤٤) ، وفي المحرر (طبع حديثًا بتحقيق محمد فارس-دار الكتب العلمية- بيروت).

(٢) انظر: مغني المحتاج للخطيب الشربيني (٤/٩٥).

(٣) ونصه: والجزية تجب على الراهب، والشيخ الهرم والزَّمِن، والأعمى، والأجير، والفقير الذي لا كسب له (٧٣٩).

الكريم:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾[المائدة:٤٥، ٤٦، ٤٧].

وقال تعالى: **﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** [الشورى: ٢١].

وفي الحديث: **«كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار[1]»**.

وكلام الله تعالى أحق أن يستمع، وأمره أحق أن يطاع ويتبع، ورسوله ﷺ أولى أن يطاع في أحكامه، وأوضح للأمة في أقواله وأفعاله، فلم لا تحكّموه؟ وما لهم لا يرضون بحكمه ويمتثلونه؟ فقد قال الله تعالى في كتابه الكريم: **﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾**[النساء: ٦٥].

وقال تعالى: **﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** [يوسف:١٠٨].

وقال: **﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾** [النساء: ٨٠].

وقال تعالى لنبيه ﷺ: **﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** [آل عمران: ٣١].

الحذر من اتباع الباطل

فكيف نعرض إذن عمّا أمرنا الله تعالى به ونبينا ﷺ ثم علماؤنا، ونتبع أقوال الكفار وعباد الصليب والزنار والخونة وأهل النار فيما يرتبونه من المحدثات وما يجتلوه من الترّهات وما يعدلون به عن العدل إلى أظلم الظلمات ليضعفوا به الدين، ويستولون به على المسلمين، ويتحكمون في الحريم والأموال، ويتعالون على المسلمين في الأقوال والأفعال، ويظهرون النصيحة لمن يخدمونهم من الأمراء والأجناد، ويغشونهم في الحقيقة

---

(١) رواه مسلم (٥٩٢/٢)، وأبو داود (٦١٠/٢)، والترمذي (٤٥/٥)، والنسائي (١٨٨/٣)، وابن ماجه (١٧/١).

في كل طرفة عين وزمن من الأزمان إلا من يستجيروا بهم إذا خالفهم أحد من المسلمين أو عاداهم رجل من أهل الدين حتى يقولوا لهم: نحن غلمانكم، وحرمتنا من حرمتكم، وقد فعل فلان بنا كذا- أو قال عنا كذا- ويحضرون من يشهد لهم بذلك ممن يخاف على نفسه ممن هو تحت حكمه وأمره، أو ممن له رزق من ديوانه فيثور عند ذلك الجندي أو الأمير النفس العصبية، ويرى أنه ينتصر لنفسه فيفعل بذلك المسلم أو من كان من أهل العلم أو الدين ما تصل قدرته إليه من كل نوع قبيح. والله تعالى بالمرصاد، ومطّلع على أعمال العباد.

فيا ليت شعري ما هذا الخذلان؟! ولأي شيء توافق أهل الكفران ودين الصلبان؟!

هذا فيمن له صورة، وأما من لا له صورة من العوام أو أهل الحراثة والزراعة من الأمام فهم عندهم كالأغنام في افتراسهم وكالأغنام في إذلالهم، وهم مع ذلك للشروط مخالفون، ولما عاهدوا عليه من الذمة ناقضون في أيمانهم كاذبون، وفي أماناتهم خائنون، وفي الركون إليهم غادرون، وفي هذه الدولة الناصرية -ثبت الله نصرها- جدد عليهم الشروط العمرية والروابط الشرعية، فلا والله ما راعوا لها حقًّا ولا لزموا لها شرطًا، فكيف وقد قال في عقد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁: «فإن خالفوا شيئًا مما شرطوه فلا ذمة لهم».

وقد حل للمسلمين ما يحل من أهل المعاندة والشقاق، وإذا انتقض عهدهم جاز أخذ كنائس الصلح منهم، فضلاً عن كنائس العنوة كما أخذ النبي ﷺ ما كان لقريظة والنضير لما انتقض عهدهم، فإن الناقض للعهد أسوأ حالاً من المحارب الأصلي، كما أن ناقض الإيمان بالردّة أسوأ حالاً من الكافر الأصلي، وكذلك لو انقرض أهل مَصر من الأمصار ولم يبق من دخل في عهدهم فإنه يصير للمسلمين جميع عقارهم ومنقولهم من المعابد وغيرها.

وإذا عقدت الذمّة لغيرهم كان كالعقد، وإذا انتقض عهدهم كان لمن لم يعقد لهم الذمة، فما لنا عن ذلك مخذولون وعن شروط الإسلام لاهون؟ مع تكاثر أموالهم وضعف المسلمين، وتعالي بنيانهم على أهل الدين، وتطاولهم في الأقوال والأفعال،

وإذلالهم للملّة المحمدية في جميع الأحوال؟!

وقد قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** [المائدة:٥٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة:١].

وقوله ﷺ: **«اليهود والنصارى خونة[١]»**.

وقد ثبت القرآن والحديث، ووجب على هؤلاء الكفرة ما أوجبه الشرع من مخالفة الشروط ما يجب على المحاربين من إهلاك النفوس وأخذ الأموال، وما ترى ذلك يُفعل إلا بالمسلمين، ولا يقع القتل إلا في الموحدين حتى أخذوا المسلمين والفقراء والصالحين بغير استحقاق لكونهم غاروا على دينهم وقاموا في حق ربهم ونصرة نبيهم، جاء إليهم أمير فعل بهم تلك الأفاعيل بغير بينة ولا استحقاق، وخصّوا الفقراء بالإهانة دون سائر الناس على الإطلاق، ووالله لقدكنت ضعيفًا وأنا أسمع الضرب ومناداة المشاعلية عليهم من مكان بعيد، ولقد كان الموت أهون مما سمعت، فكيف لو رأيت؟! ولقد فعلوا ذلك أيضًا بالفقراء بأسيوط، وضربوهم وجرّسوهم[٢] على ساحل البحر، والمصيبة العظمى أن الحاكم كان حاضرًا فلم يقم؛ فإنهم أخافوه.

وأما حاكم أسيوط فقام، وكل ذلك بغير استحقاق ولايته فيما فعل، وإن كان لو فعلوا لكان الحق فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ووالله كلما تذكرت أجد له لوعة، فكيف بكم لو رأيتموه يا أهل الدين؟ أو سمعتموه يا عصبة الموحدين؟ إنه لمنظر فظيع وسماع شنيع، فليت شعري، كيف يلذُّ مع ذلك المقام؟ أو تشبع من ذلك الشراب والطعام؟

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أي علقوهم وربطوهم على الدوابة.

ولو قيل أن نصرانيًّا فعل شيئًا من ذلك، أو هدم المساجد- وقد فعلوا- لقالوا للقائل: هات البيّنة، ولو أتى بالبينة وأثبتوها عند الحاكم لقالوا له:هذا تعصب، وبهتان، واعتراض وعدوان!.. ولن يجد من ينتصر لدين الله تعالى، فما بالهم لا يعاملون النصارى بما عاملوا به المسلمين مع عدوانهم ومخالفتهم شروط السلطانية؟ وفي ذلك نقد عهد.

وفي الحقيقة فإنه لا عهد لهم؛ فقد صدر رسم يغلق الكنائس مرّتين وهم يفتحونها ولا يلتفتون ولا يخافون، فكيف وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال:

«لا تصلح قبلتان في بلد واحد[1]». رواه أحمد وأبو داود بسند جيد.

ولما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: **«لا كنيسة في الإسلام[2]»**.

وُلَاة العدل موفّقــون

وما زال من يوفقه الله عز وجل من ولاة الأمور يقوم بمثل هذا وذلك مثل: **عمر بن عبد العزيز** رضي الله عنه [3] الذي اتفق المسلمون على أنه إمام هدى.

(١) رواه أحمد (١/٢٨٥)، والترمذي (٣/٢٧).

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٩/٢٠١)، وقال الحافظ في التلخيص (٤/٢٣٤): ورواه البيهقي مطولاً من حديث عبد الرحمن بن غنم عن عمر، وفي إسناده ضعف، وقد أخرجه أيضًا أبو علي محمد ابن سعيد الحافظ الحراني في تاريخ الرقة من هذا الوجه، وروى ابن عدي- في الكامل (٣/٣٦٢) عن عمر مرفوعًا: «لا يبنى كنيسة في الإسلام، ولا يجدد ما خرب منها»، وأما أثر ابن عباس فرواه البيهقي عن ابن عباس: «كل مصر مصره المسلمون لا يبنى فيه بيعة ولا كنيسة، ولا يضرب فيه ناقوس، ولا يباع فيه لحم خنزير وفيه حنش، وهو ضعيف. وانظر: نصب الراية (٣/٤٥٣).

(٣) قال الشيخ المناوي: الأمين الميمون، الأمير المأمون، الحاكم العادل المصون.

العالم الكامل، العلي المنزلة، الذي لم يعدل قط عن المعدلة. جمع زهدًا وعفافًا، وورعًا، وكفافًا، فأشغله آجل العيش عن عاجله، وألهاه إقامة العدل عن عاذله.

إيه، وكان للرعية ركنًا متينًا، وكهفًا مكينًا، ونورًا مبينًا، وعلى خلق الله أمينًا.

وكان قبل الخلافة عاملاً على المدينة على قدم الصلاح لكنه يبالغ في التنعّم، فكان حسدته لا يعيبونه إلا بذلك، فلما بويع بعهد من سليمان سنة تسع وتسعين أقام في الخلافة نحو خلافة الصديق فملأ الأرض عدلاً وردَّ المظالم.

وانظر: سيرته لابن الجوزي، ولابن عبد الحكم، وأخباره للآجري، والكتاب الجامع في سيرته للملاء.

فروى الإمام أحمد أنه كتب إلى نائبه على اليمن أن تهدم الكنائس التي بأمصار اليمن، فهدمها في صنعاء وغيرها[١].

وروى الإمام أحمد عن الحسن البصري- رضي الله عنهما -أنه قال: من السُّنة أن تهدم الكنائس التي بالأمصار، قديمها وحديثها.

و**هارون الرشيد** في خلافته أمر بهدم ما في سواء بغداد، وكذلك المتوكل ألزم أهل الكتاب بشروط عمر بن الخطاب ﷺ، وسأل علماء وقته في هدم الكنائس والبيع فأجابوه، فبعث بجوابهم إلى الإمام أحمد، فأجابه بهدم الكنائس، إذ العراق حكمه حكم مصر.

وقد ورد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: إنما مصر مصرية العرب- يعني المسلمين- فليس للعجم -يعني أهل الذمة- أن يبنوا به بيعة، ولا يضربوا فيه ناقوسًا، ولا يشربون فيه خمرًا، وإنما مصر كانت مصرية العجم ففتحها الله على العرب، فإن العجم ولَّى عهدهم.

أمر الكنائس في أرض العنوة

وعلى الجملة، فكل كنيسة بمصر والقاهرة والبصرة وأواسط بغداد ونحو ذلك من الأمصار التي مصَّرها المسلمون بأرض العنوة يجب إزالتها، إما بالهدم أو بنحوه، بحيث لا يبقي لهم معبد في أي مَصر مصَّره المسلمون بأرض العنوة، وسواء كانت تلك المعابد قديمة قبل الفتح أو محدثة؛ لأن القديم منها يجوز أخذه، ويجب عند المفسدة.

وقد نهى النبي ﷺ أن تجتمع قبلتان بأرض، فلا يجوز للمسلمين أن يمكثوا بمدائن الإسلام إلا للضرورة العهد القديم، لاسيّما وهذه الكنائس التي بهذه الأمصار ظهر حدوثها بدلائل متعددة، والمحدث يُهدم باتفاق الأئمة.

وأما الكنائس التي بالصعيد وبر الشام ونحوها من أرض العنوة مما كان محدثًا وجب هدمه وإذا اشتبه المحدث بالقديم وجب هدمهما جميعا؛ لأن هدم المحدث واجب وهدم القديم جائز، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب والله أعلم بما هو صانع في هذا التحاول في الدين وأي شيء يقتصر على ذلك ولاه أمور، وما ذلك إلا أن البطانة

---

(١) انظر: الكتاب الجامع للملاء، الفصل الثالث ذكر كتبه إلى العمال (١/٢٥٤).

لهم عند الملوك والأمراء، وأولياؤهم في الدولة مُتحكِّمون، وعلى المملكة ملبسون، ويجدون على ذلك أعوانًا، وعند كل أمير بل أكثر الأمراء من أوليائهم جماعة - وأقل الجماعة اثنان - وإن اقتصروا فواحد، ولهم في زي المسلمين وليسوا بمسلمين ولا مؤمنين بل عن الدين مارقين وعن الحق معرضين ﴿**قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾ [التوبة: ٣٠].

يظهر ذلك في فلتات الألسن وحركات اللائمين، حتى أن الناس لو استقصوا أحوالهم لوجدوهم على غير منهاج الدين، ولو جعلوا عليهم رقباء في بيوتهم وأماكنهم لوجدوهم على ما كانوا عليه بل ازدادوا شرًّا على المسلمين و إهانةً لأهل الدين وتمكنوا وكثروا فلا يعتقدون الإيمان منهم في صغير ولا كبير وهو كما قيل:

فهو كالصِّلِّ من بناتِ الأفاعي كلمَا طالَ عمرُه زادَ شرَّا

ولقد أنشد في القاضي الفاضل جمال الدين بن المكرم لنفسه:

يا مالكَ الإسلام لا تغتر بما أتى به القبط وما تمّموا
أمرت ألا يحدثوا ذمةً فأسلموا خيفةً أن يجرَمُوا
خافوا على الرِّزقِ ولو أنهمُ خافُوا على دينِهم صمَّموا
فلا يغرَّنَّكَ إسلامُهم فوَالله ما في جمعِهم مُسْلمُوا

ولقد صدق فيمن لا يتحقق إسلامه ولا يظهر عليه آثاره وأعلامه من الصلاة والصيام والقيام بوظائف الأحكام واتِّباع النبي عليه السلام، ومعاداة أعداء الدين ومحبة الأولياء والصالحين، فمن كان كذلك فهو من المؤمنين، ومن كان على ما كان عليه من موالاة الكفار ومواددة أهل الزنار والغيرة لهم والقيام بحقهم، ومن دحض كلمة الإسلام فهو على كفره، وازداد وصفًا حقيقيًّا بالنفاق.

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**﴾ [النساء: ١٤٥].

ويكفي ذلك، ولسنا نطيل الكلام في حقهم إذا لم نجد سامعًا لكن حمّلني على ذلك ما أجده من الآلام الملازمة للقلب، وما أوجبه الله تعالى علي من القول؛ إذ عجزت عن الفعل والغيرة على دين الله القويم وصراطه المستقيم، ونحن نلجأ إلى الله تعالى في ذلك كله، ونسأله أن يرفع المقت عنا، فلعلّ ذلك كلَّه لكثرة ذنوبنا وسوء

أفعالنا، فقد قال الله تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾ [الشورى: ٣٠].

وقد خشينا والله من نزول البلاء ووقوع المحن والابتلاء لعدم الإنكار من جميع الطوائف من العلماء والفقهاء والفقراء والعوام، وإن كان العوام أخف حالاً منهم؛ لأنهم لعلمائهم متبعون، لأوامرهم مستمعون، وإذا وقع الهلاك عمّ الجميع ويحشرون على أعمالهم.

دُعَـــــاء

اللهم ارفع مقتك عنّا، اللهم عجّل بفرجك لنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، يا ربنا لا تؤاخذنا، ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين.

وقد قلت:

أيـا ربَّ العبـادِ إليـكَ أشـكو ... لمـا كُلِـمَ الفـؤادُ مـنَ الجـراح

ومـا نـالَ العـدوُّ بِـأَرْض قـوصٍ ... وفي أسـيوطَ مـن أهـلِ الصـلاحِ

مـن الضـربِ الشـديدِ ومـنْ نكالِـه ... وَبـالتجريسِ في تلـكَ النـواحي

تشـيِّعُهم نسـاءٌ باكيـاتٌ ... بـإعلانِ الصـياحِ مـع النـواحي

ينـادين العويـلَ بكـلِّ جمـعٍ ... وفي مـدنِ الـبلادِ مـع الضـواحي

ويفْـرِقْنَ الشـعورَ ولا فـروق ... ويَجمعـنَ الصّـراخَ علـى الصّـياح

ويخمشـنَ الوجـوهَ محسّـرات ... ويهـتكنَ السـتورَ مـع الريـاح

يقلـن برنـةٍ ورسـيسِ حـزنٍ ... هلمّـوا بالرحيـلِ وبـالرّواحِ

إلى أرضٍ تصـونُكم جميعًـا ... وتحفـوا بالأمـانِ وبالريـاحِ

فقـد وافـاكم ظلـمٌ عظـيمٌ ... إنّـا بالجِـدِّ في حـالِ المـزاحِ

فـلا حـامٍ يقاتـلُ عـن حـريمٍ ... يقابـلُ بالصِّـفاحِ وبالكفـاحِ

ويبـذُلُ نفسَـه للهِ صـدقًا ... ولـو كانـت تسـيلُ علـى الرّمـاح

وينصـــرُ دينَـــه ســـرًّا وجهـــرًا بتأويـــلِ المقـــالِ وبالصِّـــراح
ويجـــنحُ للّقـــا قـــولاً وفعـــلاً إذا نكـــص اللئـــيمُ عـــن الجمـــاح
فمَـا انـدملَ الجراحُ مـن الأعـادي ولا قلـــبي ينـــدملُ الجـــراحِ
فيَـا صـبحٌ أطـلَّ بـلا مسـاءٍ ويـا ليـلٌ أطـلَّ بـلاَ صَـباحِ
علـى أهـلِ الصـلاحِ بكـلِّ أرض وأربـــابُ الفتـــوةِ والسَّـــماحِ
وأحبـارُ الشـريعةِ مـا دهَـاهُم وإخـــوانُ الحقيقـــةِ والفـــلاحِ
تعالـتْ في الصـعيدِ يـدُ النصـارى علـى الإسـلامِ حـتى لا اسـتراحى
وقامـت للصَّـليبِ عمـودُ شـركٍ يعيـــنُهم بـــأنواعِ الصـــفاحِ
أمَـا للـدّينِ والإسـلامِ ركـنٌ أمـا للشـركِ والصِّـلبان مـاحي
أمَـا للـرُّوسِ والأَعنَـاقِ سـيفٌ فيقطعُهـــا ويـــأتي بالوشـــاحِ
أمـا في الـتركِ في خاقـانَ قِبَـلٌ فتُرضـي اللهَ في غضـبِ اللـواحي
أمـا في جـيشِ ذي إسـلام قـومٌ كـــرامٌ في العـــدْوِ وفي الـــرَّواحِ
فراشُـهم السُّـروجُ علـى جيـادٍ وليـنُهمُ الحديـدُ مـن السّـلاحِ
منـامُهم السُّـهادُ إلى الأعـادي وشُـــربُهم المنيـــةِ في القِـــداحِ
يقـــودون الصّـــواهلَ للمَنايـــا ويُلقُـــون الكواعـــبَ للكفـــاحِ
ويشـتاقون في وقـتِ التَّلاقـي كمـا يَشـتاقُ عشـاقُ المِـلاحِ
رمـاحٌ في الصـدورِ بغـيرِ سـكرٍ وسـيفٌ في الجمـاجمِ غـيُر صـاحي
فـدا في الصـحو ينفـذُ لكـلِّ هـامٍ وذا في السـكر يرمـى في البِطـاحِ
فتُخـتَلَسُ النفـوسُ بغـير إثمٍ ويُسْـتَلَبُ القتيـلُ بـلا جنـاحِ
وترضـي اللهَ وَالإسـلامَ حقًّـا ويغتـــنمُ الغنيمـــةَ بالمبـــاحِ

هنيئًـــا في الجِنـــانِ لــــهُ مقـــامٌ وعنـــــــــــــد الله في رَوحٍ وراحِ
فيـــا ربَّ العبـــادِ أغـــثْ ســـريعًا وعجّـــل لِّي بقصــــدي وارتيـــاحي
وجِـــرْني مـــا تشـــاءُ بكـــلِّ خـــيرٍ وأن أحتـــارَ جِـــرني في اقتراحـــي
وصـــلِّ عشـــيَّةً وطلـــوعَ فجـــرٍ علـــى المختـــارِ مـــن خـــيرِ البِطـــاحِ
محمـــــــدٌ خـــــــيرُ النـــــــاسِ مـــتى علـــم المســـاءَ مـــن الصّـــباحِ

موالاة المسلمين ومعاداة الكافرين

ولقد حكي عن أحد الملوك أنه كان يأكل في الرُّبى -وهو اليقطين- هو وولده، فقال: إن النبي ﷺ كان يتبع الرُّبى في القصعة، فقال ولده: ما هذا إلا قذارة.. فسلّ الملك السيف وضرب عنق ولده.

فانظر إلى قوة هذا الإيمان قامت به داعية الغيرة المحمدية والقوة الإيمانية، فحالت بينه وبين نسب الطين ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُون**﴾ [المؤمنون:١٠١].

وانظر إلى ابن نوح حين نفاه الله عن أبيه بقوله تعالى: ﴿**قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**﴾ [هود:٤٦].

ووصل نسبه بالنسب الإيماني بقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ [الحجرات:١٠]، والنسب المحمدي لقوله ﷺ: «**سلمان منا آل البيت**[(١)]» جعل حبّه فيمن أحب الله تعالى ورسوله ﷺ، وبغضه لمن أبغض الله تعالى ورسوله ﷺ فقال على لسان حاله:

أبى القلبُ إلا أمَّ عمرو فأصبحت صَـــفيتَه إن زارهـــا أو تجنبـــا
عـدوٌّ لمـن عـادت وسـلم لسِلمها ومـن قربـت ليلـى أحـبّ وقرّبـا

فكيف يا من يوادد أعداء الدين وينافر المسلمين والله تعالى يقول:
﴿**لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ**

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٣/٥٩٨).

كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وأنت تحالل النصارى وتباطنهم، وتحقق تكذيبهم لنبيك ﷺ وعداوتهم له، وهذا هو معتقدهم، وتكذيبهم بربك ﷻ، وعداوتهم تصديق كتابه، ويعتقدون المسيح إلهًا، وهم فيه مختلفو الاعتقاد بحسب طرائقهم وفرقهم:

فرق النصارى

فقوم يقولون بالحلول، وإنه حل في مريم العذراء البتول.

وقوم بالاتحاد، اتحاد الناسوت واللاهوت.

وقوم يقولون بأنه قيوم للأب والابن والروح القدس، ويجعلونه إلهًا واحدًا، وهو الثالوث.

وقوم يقولون إن المسيح هو الإله الواحد الأزلي!

وهذه الأقوال كلها كفر وبطلان وزور وبهتان، مستحيلة الوجود والإتيان، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا[١].

مناظَـــرة

ولقد كنت مرّة مسافرًا في طريق الأقصرين، ماشيًا في البرّ وأنا شاب- وكنت في حالة التجريد- وكان معي قسّيس في الطريق، وكان قد طلبوه بالأقصرين لهندسة الرباط، وكان في الطريق ولا معي أحد-وكانت أيام النيل- فجعل ذلك القسيس يقول لي: والله إنك طالبٌ مليح، ويكرر ذلك ويقول لي: وأنا والله طالب مثلك، لكن المسلمين ما فيهم إنصاف.. فقلت له: وما معنى ذلك؟ فقال: الدين يؤخذ بالدليل والبرهان، وهم يأخذونه بالسيف، ويقول الواحد منهم شيء، فيقولون كفرت، فقلت له: يا نصراني، أو يا قسيس، أنا المسلم وأنت النصراني، وأنا لا أقول لك كفرت لأنك عندي كافر،

(١) انظر: شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل لإمام الحرمين الجويني (ص٦٩)، والرد الجميل لألوهية عيسى بصريح الإنجيل للحجة الغزالي (ص١٨)، ومناظرة في الرد على النصارى للرازي (ص٢٢، ٣٠)، والانتصارات الإسلامية للطوفي (١/٢٤٥)، وأدلة الوحدانية في الرد على النصرانية للقرافي (ص٣٢)، المواقف في علم الكلام للإيجي (ص٢٧٤)، والجواب الصحيح (٢/١٠٠)، ومحاضرات في النصرانية للشيخ محمد أبو زهرة (ص١٤٧)، والإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام للقرطبي (١/١١٨).

وتحصيل الحاصل محال، وأنا أسألك سؤالاً، فإن أنت أجبتني بالحق رجعت إليك، وإن كان الحق معي ترجع إلى، قال: قل، فقلت له: أنت تقول بالثالوث، أو بالحلول أو بالاتحاد، أو تقول إن المسيح هو ...

فقال على الفور: إنه يعتقد أن المسيح هو الإله القديم الأزلي، ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فقلت له: أهذا المسيح الذي تعتقد أنه هو الإله القديم الأزلي هو ابن مريم أم هو مسيح غير ابن مريم؟ فقال: هو ابن مريم، فقلت له: فمريم هي قديمة أو حادثة؟ فقال: هي حادثة؟ فقلت له: ألزمك النقيض؛ فإنك تقول إن القديم صدر عن الحادث، وهذا مستحيل، وهو عكس المعقول والقياس والحقائق؛ لأن الحادث يصدر عن القديم، فكيف جعلت القديم يصدر عن الحادث؟

فقال: تجسّد وتنزّل للتعليم.. وجواب ركيك لا يقوم عليه دليل ولا يساوي من سخافته لعدم عقل قائله في المقال كثير ولا قليل، فقلت له: ما مثلك عندي إلا كناموسة دخلت في وادٍ، وهو وادٍٍ مستطيل بين جبلين، فطارت حتى وصلت إلى بعض الطريق، فوجدت جبلاً عظيمًا في طريقها وقد سد الوادي، فوقفت تنفخ في الجبل لتزيله بنفخها وتقلعه من طريقها، فهل ينقلع الجبل بنفخ الناموسة؟ فقال: لا، فقلت له: فجوابك أضعف من نفخ الناموسة في الجبل الذي تقلعه وتزيله، وهو أعجب منه؛ لأنه عكس الحقائق في استحالة الواجب ووجوب المستحيل أن يجعل القديم يصدر عن الحادث، وتستدل بعدم الدليل وتقول تجسّد ونزل للتعليم، فلم تدر صوابًا ولم تحر جوابًا.

ثم قلت له: قد تركت عنك هذا الجواب في هذه المسألة، لكني أسألك مسألةً واحدة، والله وإن قلت لي الحق فيها وافقتك عليه فقال لي: قل، فقلت له: الإله من حيث هو إله يجب له الكمال من كل وجه، ويستحيل عليه النقص من كل وجه أم لا؟ فقال: الإله من حيث هو إله يجب له الكمال، ولا يقدر بخلاف ذلك ولا غيره من طوائف الضلال، فقلت: آالله ظهور المسيح كما ظهر غيره من الأطفال وتربيته وأحوال الطفولية كمال في رتبة الألوهية أم نقص؟ وأنت تعلم كيف خرج من بطن أمه.

فقام عند ذلك وتنحّى عني إلى ناحية، ودخل عليه الليل وقد أوينا إلى ساقية

بظاهر دمامين، وتوجه الشيخ عبد الرحيم ابن سيدي الشيخ مفرج يأتي لنا بقياسه، فخشيت على نفسي من القسيس، فلم يأخذني النوم، وأصبحنا سافرنا إلى الأقصرين، وأقام ثلاثة أيام لم أره أكل ولا شرب ولا تكلم كلمة.

فمن يكون هذا معتقدهم وهذا كفرهم وهذه عقولهم، أعني أكابرهم وقساوستهم الذين يشرّعون لهم دينهم وهم مع ذلك ليس لهم عقول ولا علوم، ولا لأحدٍ منهم بصيرة ولا مكاشفة ولا خرق عادة، ولو وقع ذلك لكان إلقاءً من الشيطان والتخيلات والبهتان، فإن الشياطين يوحون إلي أوليائهم، ولقد كان الشيطان يتكلم في أجواف الأصنام حتى صلى به جمع كثير، ولقد كانت الكهان تخبر بأمور تقع وذلك الكاهن من الجان استراق السمع، وفي هذا الوقت منهم خلق كثير.

أصناف من خرق العادة

وقد ذكرنا حكاية الذي جاءني زمن الشيخ أبي الحسن بن الصباغ[١]، وكان يخبر الناس بما في بيوتهم وبما يتكلمون به في فراشهم وما عندهم من الدراهم والدنانير، وأحضروه للشيخ أبي الحسن وقال له: إن رجعت تتصرف بهذا الجني في بلاد المسلمين أمرت الجني أن يضرب عنقك، فتاب بحضرة الشيخ أبي الحسن.. وغيره كثير، ورأيت جماعة من هذا القبيل.

وأما **المشعوذون** فتراهم في الأسواق يفعلون أمورًا كبيرة لا حقيقة لها.

وأما **السحرة** ففيما تقدم لهم مع موسى عليه السلام كفاية، والساحر إنما يخيّل بشيء موجود ولا يوجد شيئًا.

و**السّماوي** يظهر أشياء لا حقيقة لها، وإذا جاء النور الإلهي والحقائق الربانية من

---

(١) هو سيدي على بن حميد بن إسماعيل، أبو الحسن بن الصباغ القوصي. شيخ الدهر بلا منازع، وواحد عصره بغير مدافع، صاحب المعارف والعوارف واللطائف والظرائف، والمناقب المأثورة، والكرامات المشهورة، أخذ عن القنائي، وعنه ابن شافع.

قال المنذري: حسن التربية للمريدين، وانتفع به خلق من السالكين.

مات سنة اثنتي عشرة وستمائة ، ودفنه عند شيخه عبد الرحيم القنائي، والدعاء عند قبره مستجاب.

وانظر: طبقات الأولياء (٤٥٢)، وقلائد الجواهر (ص٣٨٤)، والكواكب الدرية (٣٤٣) كلاهما .

النبي أو الولي ذهب ذلك كله، وإنما الحقائق تعطي وجود الأضداد بكل حق يقابله باطل أو ضد له ليتميز هذا من هذا: ﴿**لِيَمِيزَ اللَّهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾ [الأنفال:٣٧].

وأما المعتقدات في الله سبحانه وتعالى فحين لم تكن على الاستقامة فيما أمر به على ألسنة الرسل فلا سبيل أن يكشف للقلوب عن حقائق الغيوب بشيء ما لم يستقم القلب بصحة الاعتقاد فافهم ذلك.

ولولا خشية الإطالة وحدوث الملالة لذكرت وقائعًا أعرفها في هذا الباب، فالنصارى أخسُّ الطوائف، واليهود كذلك؛ فإنهم بدلوا كتاب الله واتّبعوا أهواءهم بغير هدى من الله ﴿ **قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ** ﴾ [التوبة: ٣٠].

ثم إن عداوتهم للمسلمين وتكذيبهم للأنبياء جميعًا، فإن الأنبياء كلّهم بنبينا محمد ﷺ مصدِّقون وبه مؤمنون، وقد أخبرت التوراة والإنجيل بنبوته ﷺ، ومع ذلك يكذبوه، فيلزم لتكذيبهم إياه تكذيب الأنبياء والمرسلين، فكيف بالمحب لربه؟ والمحب لنبيه هو المحب لربه ﷻ وموالاة أعداء الدين الذين يكذبونه ويكفرون بربه وبما جاء به، فمن اتبع حب الله تعالى وحب رسوله ﷺ فليأت بالبرهان ببغضه لأعدائه وأعداء ربه ﷻ وإعلاء دينه، ويحب من يحبه ويبغض من يبغضه كما قال دعبل الخزاعي سامحه الله تعالى:

أُحبُّ قَصِيَّ الرّحم من أجلِ حبِّكُمُ وأبغضُ فيكم زَوْجَتي وبَناتي

وهذا البيت من قصيدته التي أنشدها المأمون حين أهدر دمه لما هجاه، فلما هدر المأمون دمه ضاقت عليه الأرض، فتحبس في زي امرأة ودخل على المأمون وسلم وقال له أنت القائل:

«واستنقذوك من الحضيض إلا وهدى، ويلك وأي حضيض كنت أنا فيه» وأنا فلان ابن فلان، إلى أن ذكر جدّه العباس رضي الله عنه فقال له يا أمير المؤمنين: إن كنت قلت ذلك فأنا القائل:

مدارسُ آياتٍ خلت في تلاوةٍ ومنزلُ وحيٍ مقفَرُ العرصَات

وذكر القصيدة إلى أن ذكر:

أحب قصِي الرَّحمِ من أجلِ حُبِّكمُ ... وأبغضُ فيكم زوجتي وبناتي

فبكى مأمون وقال: اللهم إني تركت له ما قاله في لما قاله في آل بيت نبيك، وأحسن إليه ورضي عنه ﷺ(١).

أحوال المجاهدين

وقد قلت:

هويتُ ما تهوونَ كلَّ كريهةٍ ... وألقيتُها بين الحشا والترائبِ

أكف لها الخطى غيرَ مفارقٍ ... مجربةٌ بالطعنِ قبلَ التجارِبِ

ألا هكذا من كان لله طالبًا ... فيبذلُ فيه النفسَ عند المطالبِ

بأيدي كماةٌ في الحروبِ ضراغمُ ... عريقين في الهجاءِ عند التناسبِ

بتكسير أصنامٍ وهدمِ صوامعٍ ... وإهلاكِ قسيسٍ وإرهابِ راهبِ

تبد العدا ضربًا وضربًا ونائلاً ... وتتركهم صرعى من كلِّ جانبِ

تفلِقُ هامات العِدا بصوارمٍ ... ويَظهرُ فعلُ الجِدِّ عن كفِّ لاعبِ

تولّوا سِراعًا والرماحُ تنوشُهمُ ... كليس الأفاعي ودبيبِ العقاربِ

دعَتْهم لدارِ الحربِ طوا حتُوفِهِم ... وغرَّتهم آمالُهم بالكواذب

دماؤهم كالقَطرِ في الوادي سائحٌ ... يَعجلُها رعدُ اللقا بالقواظبِ

رأوا جيشَ أنصارٍ مهاكلُ قشَّعُ ... يجولُ على أفراسِها كالسلاهبِ

ربوا في الوغى حتى كأنَّ قلوبَهم ... عشقن لقَا الحربِ قبلَ التحاربي

رماحٌ أمثالُ النجومِ سواريًا ... وأسيافُها كالبرقِ فوقَ السحائبِ

سواعدُهم للمرهَفَات سواعدٌ ... سيوفٌ لها في الضرب أي ضرائبِ

---

(١) انظر: الأغاني (٢٠/١٥٥، ١٦٢، ١٩٥)، وثمار القلوب (ص٢٩١)، وتاج العروس (١/٧٩٨٨).

يــــــرون المـــــــوت للهِ مغنمًــــــا عبــادًا وسـعيُهم في حقِـهِ غـيرُ خائــبِ
عجِبتُ من قد مات في غيرِ حُبِّكم ومـن لم يمـت في حـبِّكم مـن عجـائبي
عليـــه صـــلاةُ اللهِ مـــا درَّ شـــارق ومـا غـابَ في أفُـقِ السَمَا كـلُّ غائـبِ
فـــأرواحُهم عنـــدَ اللقـــاءِ زواهـــقٌ وأجســـادُهم مطروحـــةٌ في الجبائـــبِ
فأعـــداؤكم مـــع حـــبِّهم لي أعـــاديَ وأحبـــابُكم مـــع بغضِـــهم لي حبـــائبي
فـــلا والـــدي في بعـــدِكم لي والـــدٌ ولا ولـــدي في بغضِـــكم مـــن أقـــاربي
فلـــيَّ النـــدا مـــني لكـــم كـــلُّ شـــعرةٍ وأسـعى علـى رأسـي وعيـني وحـاجبي
فميـــتهم لا يلتقـــي غـــير ميـــت وهـــاربُهم لا يلتقـــي غـــيرَ هـــاربِ
كتائـــب أنصـــارٍ لنصـــرِ محمـــدٍ بهـــا كـــلُّ مقـــدامٍ وضـــيغُ الكتائـــب
وأحببــتُ فــيكم كــلَّ ضــدٍّ بجانــبٍ وأبغضــتُّ فــيكم كــلَّ خــلٍّ وصــاحبِ
وأي مكـــانٍ كنتمـــوا أنـــا كـــائنٌ فعقلـــي وقلـــبي حيـــثُ كنـــتم وقـــالبي
وجيشُـــهم مِثـــلُ الســـرابِ انقشـــاعُه فكـــل حضـــري في اللقـــا مِثـــلُ غائـــبِ
وطـــيرُ المنايـــا حائمـــاتٌ علـــيهِمُ فـــتلقطُهم كالحَـــبِّ بـــين السباســـبِ
ونبـــلٌ كأمثـــالِ الجـــرادِ ســـحائبًا وضـــربٌ لوجـــهِ الـــرأسِ مثـــلَ العصـــائبِ
ويـــتركن أشـــلاءَ الأعـــاديَ واهيًـــا لـــوحشِ الفَـــلاَ يـــذهبَن في كـــلِّ ذاهـــبِ
ويُخلِـصُ في حـبِّ الرسـول اجتهـادُه بتحقيـــق صـــدقٍ خاليًـــا مـــن شـــوائبِ
يجـــرعن مـــرَّ المـــوتِ كأسًـــا شـــهيةً ويشـــربن كـــأسَ الضـــيرِ قبـــلَ المصـــائبِ

فهذه أحوال الرجال المجاهدين في الله تعالى بالأقوال والأفعال، فإن كنت من المحبين لله تعالى ولرسوله ﷺ فلا تأخذك فيه لومة لائم، فإن من أحبّ الله ورسوله أحبّه الله تعالى ورسوله، والمحب لا يشاور في محبوبه ولا يشاء غيره ولا يخاف فيه ملامًا ولا يهاب فيه موتًا ولا يرجو حياة، ومن قصد الله تعالى وأخَّر قصده حتى يشاور في ذلك، فذلك دليل على عدم صحة مقصده؛ لأن العزم الصادق لا تدخله الاستخارة؛ لأن الاستخارة تردد، والتردد شك، والشك لا يصحب اليقين.

المشاورة والتخيير

ألا ترى إلى السيدة عائشة حين قال لها رسول الله ﷺ: «**شاوري أبا بكر**[1]» حين نزلت آية التخيير فقالت: أفيك أشاور؟ اخترت الله ورسوله ﷺ - رضي الله عنها- وكانت حقيقةً مُحبةً لرسول الله ﷺ متمكنةً من قلبها ممزوجةً بلحمها ودمها، فلم يكن لها قصد في غيره حتى تشاور فيه، ولا تطلب سواه فيقع التمييز ولا التخيير.

وكانت آية التخيير امتحان واختبار لقلوب نساء الأبرار فلنساء رسول الله ﷺ من ذلك أوفر نصيب فوق الاختيار، واختار الله ورسله من اختاره الله في الدنيا والآخرة، وبقيت الشقاوة لمن اختار الدنيا في الدنيا والآخرة، فإن من ادّعى المحبةَ واستشارَ فقد كذب في دعواه وخرج في هواه عن هواه بدعواه كما قيل:

وكـــلُّ محـــبٍّ تنثـــني عَزَماتُـــه لمسترشـدٍ فـيمن يحـبُّ كـذوبُ

فلا تقعن يا ولي مع الخذلان في محبة الله ورسوله، وفي عداوة من عادى الله ورسوله، ومن يقول بأضعف الأقوال ويميل إلى الأهواء بالمحال.

فهؤلاء النصارى قد تركوا الشروط اللازمة لهم، وهي ظاهر لا يحتاج إلى بينة ولا دليل، في زيهم ولباسهم وبيوتهم وكلامهم ودوابهم وأقوالهم وأعمالهم، واستهانتهم بالشروط وبالمسلمين، ومخالفتهم الإمام وما يأمر به من ذلك وغيره، وفتحهم الكنائس بعد ما رسم بغلقها، واجتمع الحكام على ذلك.

وكل ذلك ناقض للعهد-لو كان لهم عهد- فإن الصحيح أن ما عقد به لأسلافهم لا يكون وعدًا لهم فيلزمهم، اعقدوا حينئذ أو اخرجوا من البلاد، وإذا لزمهم تجديد العقد لا يدخل فيها الكنائس لو كانت مقررة، فكيف بخلاف ذلك؟ وقد تأكدت الأقوال في وجوب زوالها، فلا تقف مع من قال إن لنا في بلادهم مساجد، فقد قال غير واحد ممن يوثق به إن بلاد الفرنج التي هي الجزائر لا مساجد فيها، ولو كان لنا فيها مساجد لكان خرابها خير من إبقائها؛ لأنهم يهينونها بالقاذورات ويجعلونها

---

(١) رواه أحمد في المسند (٦/١٨٥).

مأوى للخنازير.

ولو أن من يدّعي هذا القول صدقًا ولما قال محققًا لأنكر على خراب المساجد التي خربها النصارى بمدينة قوص وغيرها، بل ينكر على خراب المساجد التي خربت بالقرافتين، وحمل طوبها وخشبها بمرأى من الناس ومسمع - وهم لا ينكرون ذلك - ومساجد بمصر أيضًا بظاهرها وعند أبوابها.

فكل هذه علل في قلوب المرضى يجعلونها لهم أدلة على ما في نفوسهم من الأمراض ليوافق ما عندهم من الأعراض.

وكذلك يقولون إن لنا في بلادهم جماعة من المسلمين، وهذا الكلام مردود على قائله، فإن المسلمين الذين هم ببلاد الكفار لا يخلون من إحدى حالتين: إما أن يكونوا قادرين على أن يخرجوا من بلادهم أو غير قادرين على ذلك من حيث إنهم مأسورين، فإن كانوا قادرين على الخروج ولم يخرجوا فقد قال الله تعالى:

﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً**﴾ [النساء:٩٧]، وإن كانوا مأسورين فيجب علينا إنقاذهم، وينبغي أن نعامل من عندنا من النصارى بمثل ما عاملوا به المسلمين، وأما كونهم يأسرون المسلمين ويهينونهم ونكرمهم نحن ونطلقهم يهدمون في بلادنا، ونترك كنائسهم مع جواز هدمها، فما هذا إلا عين الخذلان، وإشارات الغضب من الرحمن، ولقد أحسن من قال:

لا تطمَعوا أن تهينُونا ونكرِمَكم   وأن نكفَّ الأذى عنكم وتؤذونا

الله يعلمُ أنَّا لا نحبُّكُمُ   ولا نلومُكم ألاَّ تحبُّونا

* * *

المعتصم وأسيرة عمورية

لما بلغ المعتصم أن علجًا من علوج[١] الفرنج لطم امرأة أسيرة من عمورية فقالت: وامعتصماه! فقال: لن يجيء إلا على فرسٍ أبلق، فسيَّر إلى سائر الجهات في طلب الخيل البلق، وأبذل عنها الأموال الجزيلة والخلع النفيسة حتى كمل له ثمانية عشر ألف أبلق -وقيل ثمانين ألفًا- وكان المنجمون يقولون إنها ما تفتح إلا على زمان التين والعنب، وإنها في غير زمان التين والعنب يكون عليها خنادق وحصون وغير ذلك.

وكانت همته عالية، فلم يلتفت إلى شيءٍ من هذه الأقوال، فسار إليها بقوة العزم وصدق النية والمجاهدة في سبيل الله والغيرة على دينه، ففتحها الله على يده، ولم تكن فتحت قبل ذلك، وسبا وقتل وأحرقها بالنار وأحرق جمعًا كثيرًا، وأحض العلوج وأميرهم بين يديه وهو راكبٌ على فرسٍ أبلق وقال له: قد جئتك على فرس أبلق.

فهكذا تكون الهمم، وهكذا يكون العزم كما قيل:

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ ... ويأتي على قدرِ الكرامِ المكارمُ

ويَعظُمُ في عينِ الصغيرِ صغارُها ... ويَصغُرُ في عينِ الكريمِ العظائمُ

ولما استكمل الفتح ومنَّ الله تعالي بالنصر أنشد خبيب بن أوس الطائي قصيدة في المعتصم في هذا الفتح يقول:

السّيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ ... في حدِّه الحدُّ بين الجِدِّ واللعَبِ

بيضُ الصفائحِ لا سودُ الصحائفِ ... في متونهن جلاءُ الشكِّ والرِّيَب

والعلم في شهبِ الأرماحِ لامعةٌ ... بين الخميسين لا في السبعةِ الشُهُبِ

واستمرّ في القصيدة حتى ذكر السبي، وذكر العمورية وسببها وقال:

لم تطلُعُ الشمسُ فيه يومٌ دالٍ ... بيانٍ بأهلٍ لم يَعرفْ على عَزَبِ

على

---

(١) هو الرجل من كفار العجم. القاموس المحيط (١/٢٥٤).

ومعنى ذلك أن الشمس ذلك اليوم ما طلعت على من له زوجة في عسكر المسلمين فسبي لما فتحوها، فما غربت الشمس على غارب إلا وصار لكل واحدٍ من العسكر من النساء على قدر ما حصل له من السبي- ثم قال:

هو الشمسُ طالعةً من ذا وقد أَفَلت والشـــمسُ آفِلـــةٌ مِـــن ذا ولم تَغِـــبِ

وذلك أنه لما أحرقها بالنار صار الليل كالنهار، وقيل أنهم بقوا ثلاثة أيام يبيعون ويشترون في ضوء النهار بالليل- فهذا معنى قوله: «والشمس طالعة من ذا وقد أفلت» فجعل ضوء النار كطلوع الشمس.

«والشمس آفلة من ذا ولم تغب» معناه أن الشمس أفلت، والنور والضوء باقيان مكانها لم يغيبا، ثم ذكر من حرقٍ بالنار وتكذيب المنجمين فيما قالوه إنها ما تفتح إلا في زمان التين والعنب فقال:

خمســـين ألفـــا كأسَّـــادِ الشَّـــرا نضجت جلودُهم قبلَ تفتحِ التينِ والعنب

فكذب المنجمون فيما قالوه، وإنها فتحت قبل الأوان الذي عينوه.

وقصة عمورية مشهورة بطولها، فلا حاجة إلى ذكرها، وإنما نبهنا على قوة عزمه في دين الله -تبارك وتعالى-(١).

كتاب ملك الروم للمعتصم

وكذلك لما أتاه كتاب ملك الروم وقرئ عليه -وكان المعتصم أُميًا- فقال: اكتبوا الجواب، فكتبوه وقرئ عليه فلم يعجبه تكثُّر الألفاظ وقال:

اكتبوا له:

وصل كتابك وفهمناه، والجواب ما ترى لا ما تسمع، ﴿**وَسَيَعْلَمُ الكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ [الرعد: ٤٢].

فلما خرج البريد من عنده بالكتاب جعل رجله في الرّكاب وسافر إليه وفتح الله على يديه وفعل ما فعل، وهكذا كانت عزماته في الله تعالى، وكذلك عزمته في قتله الأفشين وكان منقلبًا على الدولة، وكان يُنسب إلى المجوسية، فلذلك قال حبيب ابن أوس في قصيدته:

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١٠/٢٨٢).

الحـقُّ أبلـجٌ والسـيوفُ عـواري فحـذارِ مـن أسـدِ العـرينِ حـذارِ

وكان لما قتله أحرقه بالنار فقال حبيب[١]:

صَـلا بهـا حيًّـا وكـان وقودَهـا ميتًـا ويـدخلُها مـع الكفـارِ

وكان الأفشين[٢] هذا متغلبًا، قبض مرة على أبي دلف العجلي[٣] فقال أبو دلف لشخص: أدركني بالقاضي أحمد بن أبي داود، فراح وأعلم القاضي، فركب القاضي في جمع من الشهود وجاء إلى الأفشين، فوجد أبا دلف قد غضب وأتى له بالسيف والنطع ليضرب عنقه. فقال القاضي للأفشين: أمير المؤمنين يقول لك: لا تُحدث في أمر أبي دلف حدَثًا إلا بعد مؤامرته، اشهدوا يا شهود إنني قد بلغت رسالة أمير المؤمنين وأبو دلف حي يرزق.

ثم ركب القاضي وأتى الخليفة وطلب الإذن، فدخل فقال: يا أمير المؤمنين، كذبت عليك كذبة نجيت بها نفسًا مؤمنة من القتل. فقال له: وما ذاك؟ فقصّ عليه القصّة، فقال له: اجلس، فجلس القاضي، وأتى الأفشين على أثره فقال له أمير المؤمنين: كنا أرسلنا لك القاضي ألاّ تحدث في أمر أبي دلف حادثًا، قال: فعلت يا أمير المؤمنين، قال: أحضره فأحضره فتخلّع عليه -أو كما قال- وكان أبو دلف هذا من أرباب المكارم والهمم العالية، أهدى إلى المأمون يوم نيروز إلى الخطايا ستمائة حمارة، وعلى كل حمارة حمل زعفران فقالوا له: حضرت هدية أبي دلف وهي كذا، فقال: انظروا، هل هي ابن أم أعيار فقالوا: أَبِنْ، فقال الرجل: أغُفِلَ ذلك؟ أدخلوها الخطايا فتفرّقوها.

---

(١) البيتان في الأغاني (١٦/٤١٩)، والمثل السائر (٢/٢٢٩).

(٢) هو رئيس الملوك الأعاجم.

(٣) عيسى بن إدريس بن معقل بن عمير بن شيخ بن معاوية بن خزاعي بن عبد العزيز بن دلف ابن جشم بن قيس بن سعد بن عجل بن لحيم الأمير أبو دلف العجلي أحد قُواد المأمون والمعتصم، وإليه ينسب الأمير أبو نصر بن ماكولا -صاحب كتاب الاكمال- وكان القاضي جلال الدين خطيب دمشق القزويني يزعم أنه من سلالته ويذكر نسبه إليه، وكان أبو دلف هذا كريمًا جوادًا ممدحًا قد قصده الشعراء من كل أوب، وكان أبو تمام الطائي من جملة من يغشاه، ويستمنح نداه وكانت لديه فضيلة في الأدب والغناء، وصنف كتبًا منها: ساسة الملوك، ومنها في الصيد والمبارزة وفي السلاح وغير ذلك. البداية والنهاية (١٠/ ٢٩٤).

مكارم أبي دلف

وكانت له مكارم مشهورة، قيل أنه جاءه ثلاثة من الأشراف فقالوا له: الأشراف على بابك فأذن لهم في الدخول، فدخلوا فقال لهم: ما حاجتكم؟ فطلبوا منه زوادة فقال: أعطوني خطوطكم إلى رسول الله ﷺ فكتبوا له، فأعطى كل واحد سبعة آلاف دينار.. وقيل كانوا سبعة، فأعطى كل واحد ثلاثة آلاف دينار.. والله تعالى أعلم أي ذلك كان؟!.

القاضي أحمد بن أبي داود(١)

وللقاضي أحمد بن أبي داود في مثل هذه الوقائع العجب العجاب، فإن الصدقات والمجاهدات بالألسن أيضًا، ففي هذه الواقعة من الخير ما لا يُحصر، وكذلك لما غضب أمير المؤمنين على عماله من الكُتّاب وغيرهم، واحتاط على على أموالهم وحبسهم -وكانوا جمعًا كبيرًا- ومرض المرض الذي مات فيه، طلب القاضي أحمد.

فلما حضر القاضي قال له عن الصدقات والقربات التي يتقرب بها إلى الله تعالى، وسأله ما يفعل، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن في جيوشك أقوامًا من عمّالك وكتّابك ولهم عيال وأطفال أعينهم باكية وأكبادهم جائعة وقلوبهم متألمة وأكفهم مبسوطة يدعون عليكم؛ فلو أن أمير المؤمنين يأمر بإطلاقهم يكون ذلك من القربات إلى الله تعالى. قال: قد فعلت.

قال: يا أمير المؤمنين، إن في بيوت المال من أثاثهم وأموالهم وقماشهم ما لا حاجة لبيت المال به ولا يحتاج له، فلو أن أمير المؤمنين تصدّق عليهم بذلك. قال: قد فعلت.

قال: يا أمير المؤمنين، إن قلوبهم منكسرة، وكان لهم أرزاق وهم غلمانك، فلو أن أمير المؤمنين تصدّق عنهم بإجراء أرزاقهم. قال: قد فعلت.

(١) هو مكرم بن مسعود بن حماد بن عبد الغفار بن سعادة بن معقل بن عبد الحميد بن أحمد بن محمد ابن تاريخ الإسلام قاضي القضاة أحمد بن أبي داود الإيادي. ولد سنة ست وخمسين وخمسمائة. انظر: تاريخ الإسلام (١/٤٦٨٢).

ولي القضاء ببلاد الروم . وقدم مصر وحدث عن عبد المنعم ابن الفراوي روى عنه الزكي المنذري

قال: يا أمير المؤمنين، إن الناس قد علموا غضبك عليهم ولم يعلموا رضاك عنهم، فلو أن أمير المؤمنين جبرهم بخلع تخلّع عليهم ليُزال عنهم كلما كان قد حصل لهم ويحصل الثواب لأمير المؤمنين. قال: قد فعلت.

قال: فاكتب خطّك فقال: اكتب عني؛ فإني لا أقدر أكتب. قال: يا أمير المؤمنين، أنا أحملك في صدري، فحمله في صدره وأخذ القلم، وجعل يد أمير المؤمنين فوق يده وهو يكتب حتى كتب جميع ذلك، ثم أخذ المرسوم وخرج فوجد الأفشين في الطريق فقال له: هذا خط أمير المؤمنين بإطلاقهم وأموالهم وأرزاقهم والخلع عليهم فقال: حتى أشاور أمير المؤمنين فقال: المرسوم معي ألاّ أفارقك حيث وجدتك حتى تفعل، فلم يفارقه حتى فعل جميع ذلك، فأصبح القوم -وهم تقدير ثلاثمائة فارس- على بابه، فحلف عليهم ألاّ يفعلوا.

فهكذا يكون أهل العلم والحكام إذا أقيموا في مثل هذه المناصب الدينية، يتصرفون فيما هو الأنفع للمسلمين، فإن هذه الوقائع ممن جلس من القضاة بقوص والفقراء يضربون ويحرسون من غير وجه شرعي ولا يثبت على واحد منهم شيء، والمصيبة أن ذلك بسبب النصارى.

أمّا الفقراء من الصلحاء وقرّاء القرآن فلم يدفع عنهم ولا قام وتركهم حتى يجد الظالم حجة بأن يقول ما فعلت إلا والقاضي حاضر فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

عزمات صحيحة(١):

عزمة عبد العزيز المكي

ومن العزمات الصحيحة عزمة عبد العزيز المكي حين سمع أن بشر المريسي يقول بخلق القرآن ببغداد، وأنه استولى على المأمون واستماله على ذلك، قال: فخرجت ماشيًا من مكة شرّفها الله تعالى ومعي ولدي حتى وصلت إلى بغداد، فوافيت صلاة الجمعة وأمير المؤمنين بالجامع، فقلت لولدي: إذا فرغ الناس من الصلاة قف عند ذلك

---

(١) انظر: المنتظم لابن الجوزي (٨/٤١)، وتاريخ الإسلام (١/١٥٦٠)، ظبقات المفسرين للسيوطي (ص١٥).

السارية من سواري الجامع وقل لي: يا عبد العزيز المكي، ما تقول في القرآن؟ قال: فلما فرغت الصلاة قام ولدي وقال: يا عبد العزيز المكي، ما تقول في القرآن؟ فقلت: كلام الله تعالى منزّل غير مخلوق.

قال: فهجّ الناس من الجامع على بعضهم بعضًا، ولم أدرِ بنفسي إلا وأنا مسحوبٌ على وجهي حتى جاءوا بي إلى بيت أمير وجعلوني في الأغلال والقيود وقالوا: أتخالف مذهب أمير المؤمنين؟ وجعلوا يخيفونه تارة وتارةً يرجونه ويعدونه بالإحسان من أمير المؤمنين والعطاء والمنزلة عنده إذا وافق على مذهبه، وعبد العزيز على حاله، وطلب أن يعقد له مجلس مع بشر المريسي.

قال: فبينما هو على تلك الحال وإذا بالأمير الذي عنده قد طلبه وقال له: يا عبد العزيز، أعلمك أن هذا الذي أنت رائح إليه أمير المؤمنين، وهو مخلوق مثلك، وهو بشر ما هو ملك، فإن كنت على الحق فاثبت ولا تخف إلا الله تعالى فإنك سترى هولاً عظيمًا.

قال: وفكَّ القيود عني وحملوني إلى دار الخلافة، فلما رفع الستر عن الأبواب رأيت أمرًا عظيمًا، وإذا في قاعة الإيوان ثلاثمائة ألف سيف مشهورة وقد نزلت عليهم الشمس وهم وقوف بين يدى أمير المؤمنين المأمون والناس سكوت لا ينطق ناطق فقال: أدنوه فقربوني وهو يشير إلي أن أقترب فقرّبوني إلى أن وقفت بين يديه وهو على الكرسي فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته فقال لي: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، ثم سكن هنيهة ليسكن بذلك روعي، ثم أمر بالجلوس فجلست فقال لي: من أين الرجل؟ فقلت: من مكة، فقال لي: أتعرف كذا؟ أتعرف بني فلان؟ وجعل يعدد علي بيوت أهل مكة ليؤنسني بذلك حتى يسكن روعي، وحصرت على مكالمته فقال لي: يا عبد العزيز، أعلمك أن هذا بشر المريسي وأنت، وليس لنا قصد في غير الحق، فإن يكن الحق معك كنّا معك، وإن يكن الحق معه كنّا معه، فلا تُبقِ في نفسك شيئًا ولا تخف من شيء، وها أنا أسمع لكما.

فقلت: يا أمير المؤمنين، كن حكمًا بيني وبين بشر. قال: نعم. فقلت: يا بشر، بم تريد أن أجادلك أو أخاطبك، بالمعقول أو بالمنقول؟ فقال: بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ فقلت: يا أمير المؤمنين، اشهد لي على بشر، ثم قلت له، ما دليلك على أن القرآن مخلوق؟ فقال: قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيل**﴾

[الزمر:٦٢]، والقرآن شيء، وكل تقتضي العموم.

فقلت له: فقد قال الله تبارك وتعالى مخبرًا عن بلقيس: ﴿**إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ**﴾ [النمل:٢٣]، وقد كان ملك سليمان عليه السلام أعظم من ملكها بكذا وكذا وما فُوِّتَ منه ذرة، فلو كانت كل تقتضي العموم كان لها من ملك سليمان عليه السلام شيء، فقال وقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ**﴾ [الحجر:٩١]، والجعل هو الخلق، فقلت: يا أمير المؤمنين، اشهد على بشر، فإنه جعل لله تبارك وتعالى بنات، فإن الله تعالى يقول: ﴿**وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ**﴾ [النحل:٥٧]، فلو كان الخلق هو الجعل والجعل هو الخلق لكانوا يخلقون لله البنات، فجعل يحيد عن الجواب وموضع الدليل على بشر عندي في قول الله تعالى: ﴿**وَلاَ تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ**﴾ [البقرة:٢٢٤].

ومن المستحيل أن يكون الجعل هو الخلق ويقول الله تعالى: ﴿**وَلاَ تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ**﴾[البقرة:٢٢٤]، فتكون بمعنى (ولا تخلقوا الله) وهذا من المحل المحال[1].

وعلى الجملة فقد قطعه عبد العزيز، ورجع أمير المؤمنين إلى عبد العزيز وأكرمه وأحسن إليه، وصُنِّف في ذلك كتابًا سمي «**الحيدة**[2]» مشهور.

ولقد ذكرنا عبد العزيز لمكان عزمته في الله تعالى، وقيامه بالغيرة في دينه، وتعريضه نفسه للمهالك، ومشيه من مكة شرفها الله تعالى إلى بغداد حتى يظهر دين الله تعالى، ورغم وحدته وغربته يقاوم مثل الخليفة وبشر المريسي، فانظر إلى نفسك يا وإليه، وقس حبك في الله تعالى على قدر بغضك لأعداء الله تعالى وعزمك فيه.

عزمة الأمير شمس الدين الحلبي

ولقد حكي عن الأمير شمس الدين الحلبي حكاية أعجبتني منه في قوة عزمه

(١) وانظر في مسألة خلق القرآن: البرهان، والمناظرة، والرد على ابن عقيل وذم التأويل، لابن قدامة، والاختصاص للضياء، ومحنة الإمام أحمد لعبد الغني المقدسي، جميعهم .

(٢) وهو فيما جرى بينه وبين بشر المريسي في مسألة خلق القرآن، وهو مطبوع عدة طبعات.

وشدته في دين الله تعالى بين أعداء الله تعالى وهو وحده قال: لما أرسلني السلطان الملك الظاهر رحمه الله تعالى إلى بركة ملك التتار، عوقنا الأشكري عنده مدة -ربما قال سنة- قال: فبينما أنا ذات يوم جالس وإذا بإنسان من الفرنج العلوج من الذين يكونون بين يدي حاكمهم ويشرعون لهم فقال لي: قم كلّم... وذكر اسم الذي يحكم بينهم وغاب عني اسمه، فقمت وجئت فوجدته جالسًا وإلى جانبه اليمين شخص من الكبار في دينهم وعلمائهم، وإلى جانبه الشمال آخر، فادّعى علي إنسان ما أعرفه ولا رأيته قط بثلاثمائة دينار -أو قال ستمائة دينار- فقلت: لا يستحق علي شيئًا، فقال حاكمهم: تُحلّفه وتعطيه، فقال: والله ما أُحلّف هذا الزبل إلا إن كانت له بينة تشهد علي أعطيته، واليمين عليَّ لا عليه، وقمت وخرجت من عندهم لما رأيت هذا الحكم المخالف لحكم الله تعالى ولم ألتفت إليهم.

قال: فبينما أنا عند داري التي أنا ساكنها، وعندي مماليك وصحاب، وإذا بذلك الرسول الذي كان جاء أولاً قد جاءني وبيده زقاية وقال لي: قم كلّم يا ابن الفاعلة- وذكر القاف والحاء والباء والهاء- وإلا كسرت رقبتك بهذه الزقاية قال: فما كلمته بكلمة واحدة، غير أني قمت إليه ولكمته لكمة أسقطته على الأرض، وجعلت أرفس في بطنه برجلي وفيها المهاميز إلى أن تركته لا يقدر على القيام، ولا تركت أحدًا من المماليك يصل إليه، وكان هناك خياط نصراني قريب منا لم يكن هناك غيره.

قال: فقام وراح حتى اشتكى، وإذا بخمسمائة فارس قد جاءت إلي وقالوا لي كلم السلطان، فقمت وجئت إلى عند الأشكري، فوجدته جالسًا وذلك الحاكم جالس إلى جانبه ومعه هذان الجالسان عن يمينه وشماله، فقام عند حضوري وقال:

يا أمير -أو يا شمس الدين- إذا سَبَّ أحد في بلادكم محمدكم وشريعتكم إيش تعملون فيه؟ قلت: نقطعه قطعة قطعة، فقال: فكيف تسب شريعتنا ومسيحنا؟ فقلت: من قال عني ذلك؟ فقال: هذا الحاكم -أو هذا بالاسم الذي يسمّونه عندهم- فقلت لذلك الحاكم: أنت سمعتني أسب المسيح أو شريعتكم؟ قال: لا، إلا هذا. قال لي: يعني الرسول الذي جاء من عنده وضربته، فقلت له: الحاكم يسمع قول الخصم علي خصمه، فقال: أما كان بينكم أحد يشهد؟ قلت: ما كان عندنا أحد إلا خياط

نصراني.

فطلب الخياط فحضر فقال له الملك: يا خياط، لا تنظر إلي ولا إلى أحد، وقل الحق وما يخلصك من الله تعالى، فقال الخياط: أنا كنت جالسًا وهذا الرسول قد جاء وقال لهذا الأمير: قم كلم يا ابن القحبة وإلا كسرتك بهذه العصاية أو كما ذكرها، فلم يكلمه كلمة واحدة إلا أن قام ولكمه ووقع، وجعل يدوس في بطنه وأحشائه، وذكر القصة على حالها فقلت: يا ملك، نحن في بلادنا لو سبّ واحد المسيح لفعلنا به ما يناسبه، والرسالة واحدة.

فقال الملك: يا فلان، إن كلمتك يقول السلطان: «الملك الظاهر عمل علي رسولي» ولكن تخرج أنت وغريمك إلى الحرب، فإن كان ظالماً عليك فالله ينصرك عليه، وإن كنت ظالماً عليه فسينصره الله عليك، فقلت: السمع والطاعة فقال: غدًا إن شاء الله تعالى.

قال: فلما أصبح الصبح قمت، فتألم الأصحاب والمماليك لذلك، فصبحت عليهم وأصلحت الركبتك ولم ألبس لامة الحرب ولا لبست غير قميصي وثياب العادة، وأخذت دبوسًا وركبت، وجئت لأجد السلطان واقفًا ومعه العسكر وهم ينتظرون حضورنا.

فلما حضرت قال لي: لم لا تلبس عليك لامة حربك لئلا يحصل لك شيء ويقال السلطان نصر عليك رسوله؟ فقلت له: يا ملك، إن الله تعالى كان قد فرض علينا أن يقاتل كل واحد منا عشرة منكم، فخفف علينا فجعل على كل واحد اثنين، فإن فرّ منهما دخل النار، وأنا ذا أحل الملك من دمي، وتحضر لي عشرة ملبسين من جيشك ممن تختارهم، وأنا وحدي لا ألبس غير ثيابي، فإن قتلوني فأنتم في حلٍّ وأنا فما أقتل أحدًا منهم إلا أُعلَم عليهم الجميع.

فاستعظم الملك هذا القول وربما صلّب علي وجهه، وبقينا وقوفًا ننتظر الغريم أن يحضر، وأرسل السلطان خلفه فقال إنه مريض فقال: احملوه فحملوه وهو مكسّر فقال لهم: ما أصابه؟ فقالوا: شرب البارحة فوقع فتكسّرت أضلاعه، فقال الملك: وحق ديني هو ظالم عليك، ثم قال لي: يا أمير، ماذا يقول محمدكم عن مسيحنا؟ قلت: يقول عنه

إنه رُوح الله وكلمته ألقاها إلى مريم.

فقال: بحق دينك؟ قلت: إي وبحق ديني فقال: عند ذلك ما محمد ألا رجل جيد، ثم التفت إلى القساوسة والأساقفة وقال لهم: يا نصارى، إيش تريدون من محمد أكثر مما قال لكم؟ وحق ديني ما محمد إلا رجل جيد.

ثم سافرنا من عنده، فلما وصلنا إلى بلاد بركة بغداد بعد ستة أشهر أسوق في جرالي العسكر، فلما وصلت إليه وجدته في خيمة عظيمة مبطنة بالسَّمُّور- قَيّمت السمور[١] بثلاثمائة ألف دينار- وهو جالس على كرسي وزوجته على جانبه الأيمن والحواريين إلى جانبها، والملوك والأمراء على يساره، وآلة الطرب تضرب بين يديه.

فسلّمت وخدمت وأعطيت الكتب، والوزير واقف بين يديه، ثم رجعت إلى المكان الذي أنزلوني فيه إلى أن ينجز الجواب بتمامه لي الوزير، فوجدته كتب ثلاثة كتب: كتاب بالمغولية وكتاب بالتركية وكتاب بالعربية، عليهم علامات المِلك، مثل ما يكتب لعماله وغلمانه ومن هو تحت يده، فقلت للوزير: أنا ما أحمل هذه الكتب، فقال لي: تقول عن كتب ملك البسيطة ما أحملها؟! وقال لي: أنا بريءٌ من دمك، فقلت له: قل له وأنت بريء من دمي.

قال: فدخل وقال للملك ذلك القول، فطلبني الملك فجئت وسلمت فقال لي : ادنُ، فدنوت فقال أدنوه، فجعل يقرّبني إلى أن أجلسني بين يديه وقال لي: إيش منعك من حمل الكتب؟ فقلت له: يا ملك البسيطة، كان مكانك الملك الظاهر ملك البسيطة، ولم يرسل إليك لا خوفًا منك، ولا طلب منك إعانة ولا عسكرًا ولا مالاً، وإنما بلغه أنك على دينه، والمسلمون يدٌ واحدة، وفي شريعتنا أن كل من كان مسلمًا كان له ما لنا وعليه ما علينا، وسيِّرني، وستخبر ذلك حتى يقوم بما يجب عليه من الدين في حقك، وإذا احتجت إلى مساعدة ساعدك، وكذلك أنت؛ لتكونوا أعوانًا في دين الله تعالى -أو كلام هذا معناه- فلمّا كتب إليك الكتب كتب المملوك، ولما رأيت كتب الملك وجدتها مثل ما يكتب الملك لغلمانه وعمّاله، فقلت ما أحملها فقال لي: وكيف

(١) هو اسم حيوان ببلاد الروس وراء بلاد الترك يشبه النمس، ومنه أسود لامع. انظر: المصباح المنير للفيومي (ص ٢٨٨).

تريد أن أكتب؟ فقلت: تكتب مثل ما كتب لك، فقال للوزير: اكتب له كذلك، فرأيت وجهه تهلل، فعند ذلك تكلم بنو عمّة المغول والملوك وجعلوا يقولون بلسانهم المغولي -وأنا أعرف لسانهم- وهم يقولون: انظروا إلى ابن الفاعلة هذا وجسارته في مثل هذا المجلس، فقال أحدهم ما جسره على ذلك إلا الملك؛ لأنه يعلم أنه على دينه، فلذلك تجاسر.

قال: فقام واحد من الملوك وأخذ من الملك إذنًا أن يضيّفني، فرسم بذلك، فخرجت حتى جئنا إلى خيمة ذلك الملك، ثم جلسنا ساعة، فالتفت إلى وقال: ما تقول في هذا الكلام العظيم الذي تكلمت به اليوم بين يدى ملك البسيطة؟ لابد أنه مع الملك الظاهر جيش حتى تتكلم بهذا الكلام، فجاء على لساني غلطة فقلت: خمسمائة ألف فارس.

وكان واحد في ركن قاعدًا، فأخرج رأسه وقال لي: والله كذبت، كان جيش السلطان الملك الكامل كذا وكذا، وجيش السلطان الملك الصالح كذا وكذا، وجيش السلطان الملك المعز كذا وكذا، وجيش السلطان الملك المظفر كذا وكذا، وجيش السلطان الملك الظاهر كذا وكذا، فوالله لم يخطئهم حرفًا حتى كأنه كاتبًا للجيش فقلت له: لكن فاتك شيء، كم كان في بغداد؟ قال: كذا وكذا، قلت: تعرف أين هم بعد؟ من قُتل منهم؟ قال: لا فقلت: بديار مصر، ثم قلت: كم كان في حلب؟ قال: كذا وكذا فقلت: تعرف أين هم؟ قال: لا فقلت: بديار مصر، وجعلت أعدّ عليه البلاد التي أخذها التتار وهربت عساكرها، وأن الجميع انحشروا بديار مصر، وأن السلطان الملك الظاهر زيادة على ذلك حتى صاروا إلى هذه الجملة.

ثم أرسل الملك يطلبني فدخلت إليه فوجدته وحده، فأشار إلي فقربت منه حتى قبّل بين عينى وقال لي: اليوم ملأت قلبي شحمًا بين أعداء الله تعالى في هذا المجلس العظيم حتى يعتقدون أن المسلمين أقوياء في دينهم، فإنهم يقولون إذا كان هذا كلامه في غير بلاده في مثل هذا المقام، فكيف يكون في بلاده وقوته وعسكر سلطانه؟

ثم أعطاني جاريتين وأعطاني ذهبًا وغاب عني كم هو فتسرّيت بواحدة، وهي أم أولادي والواحدة جئت بها إلى السلطان الملك الظاهر، فهي أم ولده.

ولقد ذكرنا هذه الحكاية لشدّة العزم في الدين وشجاعة القلوب من قوة الإيمان واليقين؛ إذ لا يصيب العبد إلا ما كتب له، وما كتب له لا يخطئه كما قال الإمام علي كرم الله وجهه يوم صفين:

أيُّ يومٍ من الموتِ أفِرُّ ... يوم لا قدَّرَ أم يومُ قدَر

يومٌ لا قدَّرَ لا أرهبُه ... ومن الموتِ لا ينجوَ الحذِر

وقول عنتر بن شداد العبسي وإن كان جاهلاً ولم يدرك الإسلام فقد قال:

إذا ما كنتُ في قومي نزيلا ... وأمسُوا خائفين من الأعادي

فلا قَبَضَتْ كفَّاتُ الرُّمحِ كفِّي ... ولا كحّلتُ جفوني بالرقادي

وما أسري وبيتُ اللهِ غيبٌ ... وقد حريت في يوم الأعادي

أُسرت بحيلةٍ وقضاءِ ربٍّ ... لهُ بطشٌ شديدٌ في العبادِ

يسوقُ المرار عمَّا في زمام ... إلى طرقِ الصّلاحِ أم الفسادِ

فانظر إلى هذا الذي لحظه من القضاء، وأنه أُسر بقضاء الله وقدره، وأن جريان الأمور على ما يختار من الخير و الشر، فلذلك قوي قلبه وظهرت شجاعته وقال تلك الأبيات التي كتابها اعتبارًا في معنى العبودية، وإن لم يكن خطر له ما خطر لنا، ولا علم من الحق وواجب الإيمان بالقضاء والقدر وحقوق العبودية لله تعالى، وإن لم يعلم ما علمنا ولا كُلّف ما كُلّفنا فقال:

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتبُ ... ولا ينال العُلى مَن طبعُه الغضبُ

من كان عبدَ القومِ لا يخالفْهم ... يرضَ رضاهُم ويغضبْ كلّما غضِبوا

لله درُّ بني عبسٍ لقد نسبوا ... من الشجاعة ما لا تنسِب العربُ

سيوفها تتركُ الساداتِ جاثيةً ... تحت العجاجِ سَرايا ما لها نسبُ

وهنا سؤال لطيف وجوابه ألطف منه إن شاء الله تعالى، وذلك أنه ذكر أن سيوفها تترك السادات جاثية بلا نسب، والسادات ما تعرف إلا بأنسابها مع حسن

صفاتها- لا سيما العرب في الأنساب- فكيف تكون السادات بلا أنساب؟ فعنه جواب وهو أنه يقول: إن السيد ما يعرف من العبد إلا بوجهه ورأسه، وهذا قد تقطّع بالسيف الرءوس، فتطاير عن الجثة وتبعد منها فلا تبقى إلا الجثة بلا رأس فلا يعرف جسد السادات من العبيد، فتُحمل الجثة ولا يُعرف نسبها.. وقوله أيضًا:

من كان مسروراً بقتلِهِ مَلِكٍ — فليأتِ نزلتَنا بوجهِ قهّارِ
يجد النساءَ حواسرَ يندبْنَهُ — يخمِشن أوجُهَهنَّ بالأظفارِ
قد كنَّ يخفينَ الوجوهَ تصوُّنًا — واليوم حين بَدَينَ للأنظارِ

وهذا في الظاهر منا في الغيرة ولنكاية العدو؛ إذ يقول لأعدائه: إن كنتم شهدتم بقتله فتعالوا تبصروا نساءنا متهتّكات مكشوفات الوجوه على الصورة التي ذكرها؟

لكن له معنى آخر صحيح في عادة العرب، وذلك أنه من عادة العرب ألاّ يبكون على ميتهم على هذه الصورة إلا بعد أخذ ثأره، فإذا أخذوا ثأره عملوا مأتمه على هذه الصورة المذكورة، فكأنه يقول: إن كنتم قد سررتم بقتل ملك فتعالوا تبصروا ما يحزنكم من أخذ ثأره.

ولقد ذكرنا عنترًا -وإن كان جاهليًا- إلا لتحريض القلوب المؤمنة التي قد عرفت من الله تعالى ما عرفت وما ادخره لها في الدار الآخرة على جهادها في سبيله حتى ذكر أنهم أحياءٌ يرزقون فرحين، والله تعالى مستحق أن يجاهد فيه وفي سبيله ولو ذهبت الأرواح وصارت إلى لا شيء، فكيف وقد أخبر بما أخبر في ذلك؟ وقد جرى في ذلك ما لا ينحصر.

حكايات في معتقدات الهُنود

و**للهنود** في ذلك حكايات:

فمنهم من يحرق نفسه في النار.

ومنهم من يقتل نفسه تقرُّبًا إلى الله تعالى على زعمهم، ولا يكون ذلك تقرُّبًا إلى

الله تعالى إلا إذا أمره به.

وأما تدافنهم في النار فلا شك فيه.. أخبرني بذلك جماعة ممن رأى ذلك من التجار وغيرهم.

وأخبرني القاضي سراج الدين أبوعبد الله بن الصابوني -رحمه الله تعالى- أنه كان بالهند فسمع بميت مات، قال: فخرجنا لنرى ما يفعلون به قال: فجمعوا حطبًا، وجعلوه في جورة وأشعلوا فيه النار -وربما قال الزيت - وجاءوا بالميت ورموه في تلك النار، وجاءوا بزوجته وعليها الثياب والحلل والجواري حولها ويزفونها وهي مقلدة بحوض المقل، وذلك أنهم يكتبون عليه كتابة لمن مات من آبائهم وأبنائهم وقرابتهم، فكل من قصد كتابًا جاء به إلى تلك المرأة. قال: وهي راكبة حتى قَرُبَت فأنزلوها وقربوها من النار، فربما تلكأت فدفعوها في النار فاحترقا جميعًا.

فهذا فعلهم في الزوجين، وكذلك يفعلون بالملك إذا مات، فكل من كان حِبًّا له أو من ينتمي إليه يحرق معه، فإذا احترق الملك أخذوا رماده وجعلوه في قارورة مع الوزير، فإذا رأى ولده قد تكبر أو تجبر نفخ في وجهه من ذلك التراب فيسكن غضبه ويعلم أنه صائر إلى ذلك.

ومنهم من يقتل نفسه ويجعل له سكينًا على هيئة سكين القصاص لكنها ماضية جدًا ولها مقبضين، إذا قصد التقرّب بنفسه جعلها على عنقه من قفاه وحصد عنقه بيديه الاثنتين، فتسقط رأسه وتبقى الجثة بلا رأس في ساعتها ملقاة في النار.

ومنهم من يعلِّق شعره بشجرة ويحصد رأسه في تلك الهيئة، فتبقى رأسه معلقةً في الشجرة.. كل ذلك نووا به التقرّب إلى الله تعالى على زعمهم، فالحمد لله رب العالمين الذي مَنَّ علينا بالإسلام واتّباع النبي ﷺ ولطف بنا في جميع الأحكام، فقد كانت التوبة لمن قبلنا القتل قال الله تعالى:

﴿**فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ [البقرة: ٥٤].

العزمات

والعزمات كثير، حتى في غير التقربة إلى الله تعالى، أو في محبة الآدميين بعضهم بعضًا، وأعرف شخصًا يُسمى محمد من أهل قفط دخل أخوه في مكان لهم وفيه دابة وغنم ليعلفها، وكان معه سراج وكان الليل، وهم أناس يعملون الكتان، فكان في البيت

من الكتان الذي لم يصلح شيء كثير، فسقط السراج في الكتان فاشتعل وحال بينه وبين أخيه، فصاح لأخيه لينقذه فهجم على أخيه في النار وأخرجه فاحترقت أجسامهما وعالجوهما مدة كبيرة واستراحا، غير أني رأيت محمدًا -وكان ممن يتردد إلينا- وكان جسمه على حال عجيب وكان محمد هو الذي هجم في النار وأخرج أخاه وسلمت عيناه، وكان يكتحل علِى وِجهه وقايةُ.

قتلـــى الحـــب الإلهي

وأما من قتل نفسه في الحب، فذلك كثير لا يكاد يحصى، وليس ذلك من غرضنا إلا سلوكًا للطريق وتحريضًا للهمم الفاترة وتشويقًا للسالكين ليعلموا أن غيرهم أذهب نفسه لغرض زائل وأمر حائل وهم يطلبون رب الأرباب ومالك الرقاب الذي بيده الحياة والموت والخير والشر والنفع والضر والسعادة والشقاء والفناء والبقاء لا إله إلا هو مالك الدنيا والآخرة، فكيف بمن يكوِن هذا مطلوبِه لا يحسب لحياته حساب.

ذمّ الهـــوى

ولقد حُكي في ذم الهوى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سأل عمرو بن معدي كرب فقال: يا عمرو، أخبرني عن أحيل من لقيت، وأجبن من لقيت، وأشجع من لقيت.

فقال: يا أمير المؤمنين، كنت أشنُّ الغارة، فرأيت فارسًا لابس لامة[1] حربه وهو راكب على فرسه، فقلت له: يا فتى، خذ حذرك، فأنا قاتلك لا محالة.. فقال لي: ومن تكون؟ فقلت: عمرو بن معدي كرب، فسكت، ودنوت منه، فوجدته قد مات، فهذا أجبن من لقيت.

وأما أحيل من لقيت: فكنت أشنُّ الغارة وإذا بفارس في وهدة من الأرض لقضاء الحاجة، وفرسه مشدودة وعليه لامة [حربه]، فقلت له: يا فتى، خذ حذرك، فإني قاتلك لا محالة.. فقال: يا عمرو، ما أنصفتني، أنا في وهدة من الأرض وأنت على فرسك لابس لامة حربك، فقلت: وما تريد؟ فقال: تعطيني عهدًا ألاّ يصل إلي منك سوء حتى أكون كما أنت.. فقلت: ولك ذلك، فقضى حاجته، واحتبأ بكسائه،

---

(١) هكذا في الأصل.

وجلس فقلت له: لم لا تركب؟ فقال لي: لست براكب ولا محاربًا لك، فإن شئت أن تنقض عهدك فافعل.. قال: فتركته ومضيت.

وأما أشجع من لقيت: فكنت أشن الغارة وإذا بفارس على فرسين وحده -وربما قال ثلاثة فرسان- فقلت له: يا فتى، خذ حذرك، فإني قاتلك لا محالة.. فلم يلتفت إلي ولا اكترث بكلامي، فناديته الثانية فلم يلتفت إلي، بل قال: الويل لك، ومن تكون؟ فقلت: عمرو بن معدي كرب.. فقال: الحقير الذليل؟ والله يا عمرو، إن يمنعني من قتلك إلا احتقارك لدي، فوجمت[1] والله يا أمير المؤمنين مما قابلني به، وكان الموت عندي أهون منه.. فقلت له: يا فتى، ما ينصرف إلا أحدنا.. فقال: بل الويل لك، نحن قوم ما ثكلنا عن فارسٍ قط، اختر لنفسك: إما أن تثبت لي وأضربك ثلاثًا فإن بقيت فيك بقية ضربتني، أو أثبت لك وتضربني ثلاثًا فإن بقيت في بقية ضربتك.. قال: فاغتنمتُها وقلت: بل تثبت لي.

قال: فثبت وحملت عليه بالرمح حتى انثنى قلت: إني شققته به، فانفتل عنه وعاد علي وضربني بعقب رمحه على رأسي وقال: واحدة يا عمرو، ولولا احتقارك لقتلتك، فحصل عندي من الألم ما كان الموت أهون منه، ثم قلت: اثبت، فثبت وحملت عليه وقمت في السرج وضربته بالسيف بيدى الاثنتين حتى قلت: إني قصمته وقصمت فرسه، فانفتل وضربني بعقب رمحه وقال: يا عمرو، وهذه ثانية، ولولا احتقارك لقتلتك.. قال: ثم بقيت الثالثة، وحملت عليه وضربته، ففعل مثلما فعل في الأوليين ثم أنشد:

وكـدت أغلاظًـا مـن الأيمـانِ ... إن عـدتَ يـا عمـرو إلى الطِّعـانِ

لأدحِـرَنَّ لهـبَ السِّـنانِ ... أو لاَ فلسـتُ مـن بـني شـيبَانِ

قال: يا أمير المؤمنين، فكرهَتْ والله نفسي الموت وقلت له: يا فتى، عليك عزيمة قال: مثلك ما يعزم على مثلي.. فقلت له: الكريم ما يأبى ضيافة اللئيم.. فقال لي: أنا على طريق، فقلت: فأكون معك فقال: يا عمرو، أتعرف أين أريد؟ قلت: اللهم لا، قال: أنا أريد الموت.. فقلت له: يا حبذا الموت معك.. فقال: إذًا فسرْ.

---

(١) وَجَم من الأمر وُجُوماً و الوَاجِمُ الذي اشتد حُزنه حتى أمسك عن الكلام.

قال: فسرنا حتى إذا هوّد الليل وإذا بوادٍ يلوح بقاطنِه، وإذا مضاربٌ وقباب، وإذا خيمةٌ حمراءُ عالية، فقال لي: يا عمرو، قلت له: لبيك قال: هذا الوادي فيه الموت، وهذه القبة الحمراء فيها الموت الأحمر، فإما أن تمسك فرسي وأروح فآتي بحاجتي أو أمسك عليك فرسك وتروح تأتيني بحاجتي، فقلت: صاحب الحاجة أعرف بها، وأنا أمسك عليك فرسك، ورضيت نفسي له سائسًا قال: فمسكت عليه فرسه، ودخل في تلك القباب، وغاب عني ساعة، وأتى ومعه جارية كالشمس الصاحية على بعير.

فقال: يا عمرو، قلت: لبيك فقال: إما أن تقود الدواب وأنا أحمي ظهرك، أو أنا أقود الدواب وأنت تحمي ظهري.. فقلت له: المملوك يقود الدواب.

قال: فأخذت زمام المطية وسرنا حتى إذا رفرف الصبح قال: يا عمرو. قلت: لبيك. قال: انظر إلى ورائك، هل ترى أحدًا؟ فنظرت، فإذا غبار قد ملأ الجو، فقلت له: غبار قد ملأ الجو. فقال: هو القوم، فإن كانوا كثيرًا فليسوا بشيء، وإن كانوا قليلاً فالجلد والقوة، فنظرت، فإذا القوم ما بين أربعة أو خمسة فقلت: القوم ما بين أربعة أو خمسة فقال: الجلد والقوة، وهو الموت لا محالة.

ثم قال لي: جنّب الدواب عن الطريق، ووقف هو في الطريق، وإذا بشيخٍ قد أقبل وخلفه ثلاثة شباب هم أولاده، وإذا هو أبو الصبية وهم إخوتها، فتقدم الشيخ وقال له: خلِّ عن الضعيفة يا ابن أخ فقال: لست بمُخلّيها ولا أخذتها لأخلّيها.. فقال لأحد أولاده: ابرُز إليه، فلا خير في الحياة مع العار.. فبرز إليه فتجاولا طويلاً، وإذا بالشيباني قد طعنه وأخرج الرمح من ظهره فخرَّ صريعًا وأنشد عليه أبياتًا من الشعر:

مـا دونَ مـا ترجـوه حضـبُ الزائـل مـــن فـــارسٍ مستســـلمٍ مقاتـــلِ
ينمـــي إلى شـــيبانَ خـــيرَ وابـــلٍ مـــا كـــان سَـــيري نحوَهـــا بباطـــلِ

فقال الشيخ لولده الآخر: اخرج إليه، ولا خير في الحياة بعد هذا.. فخرج إليه وتجاولا ساعة وإذا بالشيباني ضربه ضربة بالسيف من كتفه الواحد أطلعه من كتفه الآخر فخر صريعًا وأنشد عليه أبياتًا من الشعر.

فقال لولده الآخر ابرز إليه، فبرز إليه فقتل الأخير، فتقدم إليه الشيخ وقال له: يا ابن أخ، خلِّ عن الظعينة، فقد قتلت بني عمك فقال: لستُ مُخلّيها ولا أخذتها لأتركها

فقال له: أتعرفني؟ قال: نعم فقال له: لست كمن رأيت ولا كمن لاقيت، فخلِّ عن الظعينة وأرشد سالمِا، فقال له: ما أخلّيها، فقال له: اختر لنفسك: إما أن تثبت لي وأضربك، فإن بقيت فيك بقية اضربني، أو أثبت لك وتضربني، فإن بقيت في بقية ضربتك فقال الشيباني: بل تثبت لي، فثبت الشيخ، وحمل عليه الشيباني وضربه ضربة في مفرقة قده بالسيف إلى مشعره، وحين أحس الشيخ بالسيف فيه ضرب الشيباني بسكين من شعره شقه إلى نصفه فوقعا ميتين.. قال عمرو: فأخذت أربعة أفراس وعدد أصحابها وأخذت بزمام المطية ومشيت طالبًا أهلي. فقالت لي الجارية: إلى أين يا عمرو؟ قلت: إلى أهلي فقالت لي: لست بصاحبتك، ولو كنت صاحبي لسلكت سبيل القوم.. فقلت لها دعك من هذا. فقالت: والله لا سبيل إلى ذلك إلا أن تبرز لي في الحرب، فإن غلبتني فأنا لك، وإن غلبتك فامرأة لا تكون لامرأة.. فقلت لها: لست بمحاربك، ولقد علمت جرأة قومك.. قال: فوثبت من على المطية كالأسد وأخذت رمحًا.. قال عمرو: فعجلتها بضربة فقتلتها.

فقال له أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: ولم فعلت؟ قال له: يا أمير المؤمنين، لو لم أقتلها لقتلتني.

فانظر رحمك الله تعالى إلى هذا العزم في طلب محبوب دنيوي وهذا الأمر الذي يؤدي إلى هذا الهلاك في الدنيا والآخرة، فكيف بك في طلب خالقك وسعادتك في الدنيا والآخرة؟ وأنت تذل نفسك وتجبن عن القيام بحق الله تعالى، وتبخل على الله تعالى بالكلام وقول الحق، وتراعي أعداء الدين بالأوهام الفاسدة والتخيلات الرديئة، ومنه يكون الجبن، فلا يكون الجبان جبانًا إلاِ كان بخيلاً.

الكــــرم

والكرم رأس صفات الفضائل، ومنه تكون الشجاعة، فلا يكون الشجاع شجاعًا إلا كان كريمًا، ومن الكرم تتشعب صفات الفضائل.

وورد في الحديث: «**إن الكرم شجرة في الجنة، أغصانها في الدنيا، فمن تعلق بغصن من أغصانها قاده إلى أصله، والبخل شجرة في النار أغصانها في**

الدنيا، فمن تعلق بغصن من أغصانها قاده إلى أصله[(١)]».

وقد ذمّ الله تعالى البخل في كتابه العزيز في غير موضع فقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ**﴾ [النساء:٣٧]، [الحديد:٢٤].

وقال تعالى: ﴿**وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ**﴾ [محمد:٣٨].

وورد في الحديث أيضًا: «**البخيل بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار، والكريم قريب من الله قريب من الجنة بعيد من النار[(٢)]**».

وقد أثنى لله تعالى على الكريم ووصف نفسه العلية بالكرم، فلا يحتاج مع ذلك إلى صفة يمدح بها.

ولما أثنى رسول الله ﷺ على يوسف الصديق عليه السلام فقال: «**الكريم بن الكريم ابن الكريم صدَّيق الله بن إسرائيل نبي الله ابن ذبيح الله بن خليل الله[(٣)]**»- صلى الله عليهم أجمعين- وعلى سائر النبيين والمرسلين.

وكرم الله تعالى ليس ككرم العباد ولكن لهم أن يتخلقوا بهذا الوصف على قدر عجزهم.

الشَّجاعَة

أمّا الشجاعة تنتج عن وصفين وهما: الثقة بالله تعالى، وصحة اليقين.

فأما **الثقة بالله**: فيما يبدو له أنه تعالى يعوضه ويكفيه، إذ هو وصف من التوكل وهو حسي في توكله.

وأما اليقين: فإنه يتحقق أنه لا يصيبه فيما تقدم عليه من حرب أو غيره إلا ما كُتب له، قال الله تعالى: ﴿**قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [التوبة:٥١].

ولذلك نتج عن الكرم الشجاعة والإيثار بالأموال والأنفس على قدر الهمم وقدر الطلب وقدر المطلوب، والناس يتفاوتون في مطالبهم ومقاصدهم بحسب درجاتهم عند الله تعالى، وطلاب الحق تعالى هم الأفراد، وكرماء الناس في كل زمان بحسب الأحوال

---

(١) ذكره ابن حبان في المجروحين (١/٢٤٥)، والحافظ في لسان الميزان (٢/٣٠٠).

(٢) رواه العقيلي في الضعفاء (٢/١١٧)، وذكره المناوي في فيض القدير (٣/٤٤١).

(٣) رواه أحمد في المسند (٢/٩٦)، والترمذي (٥/٢٩٣).

والمقاصد، ورأيت منهم جماعة -رحمهم الله تعالى - منهم من ذكرناه في كتابنا هذا ومنهم من لم نذكره خشية التطويل.

وإذا تيقن العبد أن رزقه الذي قدّره الله تعالى له لن يفوته، وما لم يقدر له لن يناله بحيلة، وما أعطاه الله تبارك وتعالى لن يقدر أحد من الجن والإنس والملائكة والشياطين والخلائق أجمعين أن يمنعه ما أعطاه الله تعالى، وما منعه الله تعالى فلا يقدر أحد من الإنس والجن والملائكة والشياطين والخلائق أجمعين أن يعطوه ما منعه الله تعالى، وتحقّق بذلك، وصار ذا قاله فيستوي عنده الأخذ والعطاء، ويستلذ بالعطاء أكثر من الأخذ؛ لأن النفوس الشريفة تحب البذل، وأعرف فقيرًا يستلذ بالعطاء أكثر من الأخذ ويتألم لما يأخذه إذ لم يعطِ أضعافه ولو كان ملك من الملوك.

ولقد حكى لي ثقة - وهو بهاء الدين البغدادي المستنصري، كان من مماليك المستنصر وأعتقه، وكانت له صورة، وبعد ذلك انقطع معنا، وكنا نأوي في مسجد ظاهر مدينة قوص يسمى المسجد الأبيض- قال: كنا أربعين مملوكًا خرجنا للصيد، فوصلنا عند صاحب البحرين، فأعطى لكلّ واحدٍ منا أربعين لؤلؤة، كل لؤلؤة وزن الأخرى، لا تزيد هذه على هذه شيئًا، وجعل الملك يمشي معي في قاعة له يستخبرني عن أخبار الخليفة والملوك ببغداد كالدوادار الصغير والدوادار الكبير وغيرها وبيده جوهرة يلعب فيها، فسقطت تلك الجوهرة فانكسرت نصفين، فدعاني الملك لأبصرها، فوجدنا النصف الواحد فيه دودة وعندها شجرة خضراء ونقطة، فقال لي الملك: اشهد، وختمها ودعا بالبحار فأرسلها إلى أمير المؤمنين المستنصر بالله.

فمَن صدَقَ يقينُه وصحَّ توكله لا يحتاج إلى رؤية هذه الدودة، وإنما ذلك فيه إقامة حجة على ضعفاء اليقين، فإن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وهو خالق كل شيء ورازق كل حي ومالك الملك لا شريك له ولا رب غيره.

ذم البخـل

وأما البخل فهو ينشأ عن ضعف اليقين وخور الطباع، فيحضُّ النفس على الرزق خشية من الافتقار، فيقع فيها الشح ويقع عليها الخسار، فإذاً لم يتوقَّ الشح، ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر:٩].

فإذا اشتد الحرص وغلب الشح اكتنز ما لا حاجة له به، وأعرض عن التوكل على الله وغاب عن قوله جلّ من قائل: ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ**﴾ [الذاريات:٢٢،٢٣]، وعن هجوم الموت الذي يأتي بغتة من غير ميعاد، فقد يخزن ويكنز ما يكفيه ألف سنة أو مائة سنة على قدر كنزه وقوته، وما يعيش إلا سنة أو شهرًا أو يومًا أو لحظة، ولذلك يتفاوت في الإكثار، حتى إن من الناس من يكون كنزه على قدر حاله وعلى مقامه من ادخار عشائه لغدائه أو غدائه لعشائه، وكذلك إذا كان له ثوبان، ولذلك ورد في رجل مات «أنه يأتي يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر، ولولا خصلة فيه لأتى وجهه كالشمس الصاحية. فقيل وما هي؟ قيل: كان يدّخر عشاءه لغدائه وغداءه لعشائه».

وفي الذي وُجد له ديناران فقال النبي ﷺ: «**كَيَّتَان**[1]»، فما ظنك بالذي يكنز الكنوز من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة؟ وإعراضه عن قوله تعالى:

﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ**﴾ [التوبة:٣٤، ٣٥]، وهذه الآية الكريمة يظهر آثارها في الدنيا.

الجسَــد المُرصَّــع

فمن ذلك ما حكاه لي بهاء الدين بلبان البغدادي المستنصر المعدوم ذكره - وكان موثوقًا به – قال: كنت في صحبة أمير من الأمراء ونحن مسافرون -ربما قال بطريق الشام أو العراق- وكان الأمير له شيخ يحبه، وكان يقرّبنا وهو في صحبة الأمير، والأمير يعتقده اعتقادًا عظيمًا، فاتفق أن الشيخ مرض في الطريق ومات، فأوصى أن أستاذ الدار يتولاه، فجهزناه وحفرنا له ودفناه وتولاه أستاذ الدار عنا ساعة ثم لحق بنا فقلنا له: ما الذي أبطأ بك عنا؟ فقال الشيخ: دفع لي ألف دينار وأوصى -أو قال

---

(١) رواه أحمد (١/١٠١)، والطيالسي (ص٤٧)، وابن أبي شيبة (٣/٥٠).

عاهدني- أنه إذا مات أدفنها معه، وقد دفنتها معه حيث قال..

قال: فركبنا بعد ما نزلنا، وتركنا الأمير في المنزل ورجعنا إلى قبر الشيخ ونحن جماعة، فنبشنا القبر، وأخرجنا الشيخ، وشققنا الكفن، فوجدنا الكيس فارغًا، والذهب مرصّعًا على جميع جسده، فجعلنا نمسك الدينار ونجذبه على أن ينقلع فيمتط معنا جلده ولحمه ولا يقع الدينار عنه، فلما لم نقدر على خلاص الذهب من جلده ولحمه قطعنا كتفه وأخذناه معنا ورجعنا إلى الأمير فوضعناه بين يديه وقلنا له: هذا كتف الشيخ.. فبكا الأمير بكاءً شديدًا ثم قال: عدّوا كم على كتفه من الذهب.. فعددناه، فأعطانا عدده لمن عنده وقال: ردوا الكتف على مكانه بما فيه من الذهب، فرددناه.

فانظر رحمك الله تعالى إلى هذه الحكاية ما أعجبها، وكون الذهب عمَّ جميع الجسد، فإن الله تعالى اكتفى بالجباه والجنوب والظهور عن ذكر جميع الجسد وجميع الأعضاء؛ لأن ذلك معظم الجسد، ولذلك اكتفى رسول الله ﷺ بقوله :

«**الحج عرفة**[(١)]» لأن معظم الحج عرفة، وإن لم يذكر جميع أركان الحج.

ومثل هذه الآية في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً**﴾[النساء: ١٠]، وقد يوجد ذلك عند نزوله القبر إلى أوان الجزاء، وقد يوجد بعض آثاره في الدنيا قبل الموت.

الطّاحُــــون

وحكى الشيخ ناصر الدين محمد بن عبد القوي -رحمه الله تعالى- عن رجل كبير القدر كان له كشف واطلاع وأحوال جليلة أنه عند موته جعل يقول: الطاحون الطاحون وينزعج لذلك، وكان الطاحون وقفًا، وربما كان يأكل منها في بعض الأوقات أو غير ذلك- ربما قال وفينا ذلك-

ولا يمكن تسمية من يطلع الفقير عليه في حال من هذه الأحوال، إلا إن كان على غير مذهب أهل السنة من المذاهب المخالفة للشريعة، فنذكره ليحذر الناس ذلك المذهب.

---

(١) رواه الترمذي (٣/٢٣٧)، وابن ماجه (٢/١٠٠٣).

السِّـــر

فإنني كنت رأيت صاحبًا لي في المنام بعد موته على حالة، فذكرت ذلك لصاحب له هو أصحب له مني، وقصدت بذلك التعاون على خلاصه بالتوجه إلى الله تعالى، ولزمنا قبره أيامًا فرأيته على حالة حسنة وقد زال الذي كرهه له فقلت له: كيف أنت؟ أو كيف حالك؟ فقال: بخير فقلت: وأنت في أين؟ فقال: في الجنة، إلا أنني متألم منك. قلت: ولم ذلك؟ فقال: إن الله تعالى أطلعك على حالي فأعلمت به فلانًا فقلت له: إنما قصدت نفعك والتعاون في ذلك فقال: كنت تفعل ولا تقول.

ورأيته بعد ذلك مرارًا في الرؤيا وكل ذلك وهو يعتب ولم يزل في نفسه ذلك حتى كان الليل وهو يحدثني كأن الفجر يطلع ونحن نريد أن نصلي فيقول: ما بقي علينا نحن صلاة.

وربما ذكرت هذه الحكاية في هذا الكتاب مبسوطة، فكل ما ذكره الله تعالى محقق، والمجازاة من الخير والشر محققة في الدنيا والآخرة، فمن انتصف من غرمائه في الدنيا وإلا فالله تعالى ينصفه منهم في الآخرة.

حكاية الجَمَـــل

ولقد كان لي خال وكان قاضيًا -رحمه الله تعالى- وكان من أهل الخير، وهو شرف الدين محمد بن مسلم قاضي عيذاب[١]، رأيت عنده جملاً فقال: هذا الجمل نركبه لنروح عليه الحجاز أنا وأنت إن شاء الله تعالى، ثم مات قبل أوان الحج -أعني القاضي رحمه الله- فرأيته في المنام وقد قدمت إليه ضيافة يقدمها جمل.

---

(١) عيذاب بالفتح ثم السكون وذال معجمة وآخره باء موحدة بليدة على ضفة بحر القلزم هي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد. انظر: معجم البلدان (١٧١/٤).

مِنْ طُرَفِ الكرماء

وقد ذكرنا من ذلك طُرَف الكرماء الذين في زماننا، وكل المكارم، حيث كانت وكيف كانت هي محمودة في الدنيا والآخرة.

وقد كان فخر الملك الوزير مذكورًا بالكرم، وحكي أنه لما أنشد ابن نباتة هذه الأبيات:

لكـلِّ فـتى قـرينٍ حـيَن يسـمُو ... وفخــرُ الملِــكِ لــيس لــه قــرينُ

فلـــذْ بجنابِـــهِ والجـــأْ إليـــهِ ... وســلْ مــا تشــتهِي وأنــا الضــمينُ

فجاء رجل أعجمي وسأله وطلب ابن نباتة عند ابن يونس القاضي بضمانة فخر الملك، فطلبه فخر الملك وقال له: كم كنت أملت فينا؟ فقال: خمسمائة دينار فقال أسأت علينا، وأعطاه ألف دينار، وأعطى ابن نباتة ألف دينار.

وحكى لي الشيخ عبد العزيز رحمه الله تعالى أن شخصًا أتى شيخًا من المشايخ، فسأله شيئًا، ولم يكن عند الشيخ ما يعطيه، فقال له الشيخ: أشتهى أن تدّعي علي عند الحاكم بمال، وأنا أعترف لك واحبسني عليه، فإن أصحابي ما يتركوني في الحبس، فطلبه وادّعى عليه وحبسه على المال الذي أراده، وجاء أصحابه المعتقدون فيه فدفعوا عنه المال وأخرجوه.

وأما كرماء العرب فهم كثير، بحيث إنهم لا يحصرون، وقد أعجبني أحدهم وهو معن بن زائدة حيث قال: ما طار غبار منكبي على أحد إلا وجب علي حقّه.

وأما قول المأمون: «لو علم الناس محبتنا في العفو لتقربوا إلينا بالذنوب».

فهذا فيه غاية الرجاء في ذات الله تعالى وكرمه وجوده وعفوه ومغفرته وإحسانه وامتنانه، إذ يقول عبد من عبيده من أبناء الدنيا هذا القول، فكيف بعباده المخلصين؟ فكيف بأرباب الكرامات والتصريف؟ فكيف بكرم الأنبياء والمرسلين؟ وأين مكارم المخلوقين المحدثين من كرم رب العالمين وخالق الخلائق أجمعين؟ إذ لا يعجزه العطاء ولا يضجره السؤال، ولا ينقص من ملكه ذرة إذا أعطى كل سائل جميع المسائل، حتى تنقطع آماله، وأعطاه فوق ذلك مائة ألف ألف مسألة وأمثاله، ثم أعطاه مع ذلك قدر

الدنيا والآخرة بما فيها ألف ألف ضعف لم ينقص من ملكه ذرة.

ولو أهلك كل الخلائق وأذهب أموالهم لما زاد في ملكه ذرة، فتعالى الله الملك الحق الكريم المحسن سبحانه وتعالى تسمّى بالكرم وحضّ عباده على الكرم، فكل من اتصف بهذا الاسم كان كريمًا على الله تعالى وعلى أنبيائه -عليهم السلام وعلى العباد- وقد قلت:

إنَّ المكـــارمَ لا تُبقـــي لفاعلِهـــا عنـــدَ الأنـــامِ ذنوبًـــا لا ولا إحنـــا

تحمِـــلُ النقـــلَ في أعنـــاقِهم دُررًا وحمـــلُ النـــاسِ في أعنـــاقِهم مِنَنَـــا

وقد جرى منا الحديث، والحديث شجون إلى أنواع من الفنون؛ إذ النفوس تحتاج إلى أن تروّح بحال عن الحال التي عليها لما جبلت عليه روحنا إلى الله تعالى، رَوحٌ منه في معاني الأرواح وحقائق الارتياح ومعارف المعارف إنه ولي حميد، وسماعٌ للحكايات بحسن الاستماع والقابلية لما يرد فيها من الإلقاء الإلهي على ألسنة المتكلمين والمحسنين واتّباع الأحسن، وكلها جنود واردة على القلوب بمعاني الغيوب بحسب السامع ووجدان الناطق، لا يقبله إلا من كان له قابلية الاستماع ومَلَكَة الاتباع أو نسبه عريق بينه وبين ما في الحديث ما سمع لهذه الشجون في معاني الفنون كما قال القائل:

لحـديث وجـدي في الهـوى وشُـجوني خـــبرًا تسَلسَـــلَه رواةُ جفـــوني

اسمـــعْ حـــديثي أو فعائـــلِ أدمعِـــي فكلاهُمـــا مـــن لؤلـــؤٍ مكنـــوني

عاتبـت مـن أهـوى وقلـتُ أمـا تـرى حـــالي وفـــرطَ صـــبابتي وشُـــجوني

الـــــودُّ بـــــاقٍ والغـــــرامُ بحالِـــــهِ يـا ليـت شِـعري مـا الـذي يَسـلِيني

السَّمـاع وورود الحقَـائق

وللسماع أثر كبير في ورود الحقائق، إذ جعل الله تعالى على العبد التكليف بالأسباب والاكتساب، فهذه الحواس الخمس: السمع والبصر واللمس والشم والذوق.

ولهذه الخمسة الظاهرة خمسة باطنة- وليس هذا موضع الكلام فيها- فإذا طهرت نفس السالك وحصل له تصريف من الله تعالى كانت جوارحه كلها فعّالة،

وتنوب كل جارحةٍ عن غيرها فيسمع بعينه ويبصر بأذنه وكل الجوارح كذلك، وإياك ثم إياك والإنكار في هذا الموطن فتهلك فيه وتحرم الوصول إليه بحجاب الإنكار.

والسّماع لا يقتصر على نوع من الأنواع، إذ لكل كلمة معنى لطيف من سائر الكلمات، ولها سرٌّ من الأسرار مطلِعُ الله تعالى عليه من جعله لذلك أهلاً وأسمعه أحسن القول في كل موجود، كهبوب الرياح وتمايل الأشجار وطنين الذباب وصرير الإيوان ونغمات الأطيار وحسن الأوتار وصفير المزمار وسماع الأنين وصوت الحزين وصياح الصائح ونوح النوائح، وللسامع بحسب ما وجد، وللعابد ما عبد فهو في كل ذلك طروب كما قيل:

يا رب وقتُ وجودي فيه أسأمُهُ ... دع الأجانبَ بل رُوحي تزاحمُني

أصبحتُ ألطفُ مِن مرِّ النَّسيمِ يُرى ... على الرياضِ يكادُ الوهمُ يؤلمني

من كل معنى لطيفٍ أجتلي قَدحًا ... وكلُّ ناطقةٍ في الكونِ تطربُني

السَّماع بين الإباحة والتحريم

والسماع يختلف بحسب المواجيد والواجد والأحوال والطباع والمسمعين والمستمعين، وبحسب كل شخص، وقد تكلم العلماء في السماع كلامًا كثيرًا، فمنهم من قال بالإباحة ومنهم من قال بالتحريم ولا وجه له في ذلك في نفس السماع، إلا أن يكون لعلة واردة فيه بحسب القصد والنية والهوى.

دلائل على إباحة السَّماع

وقد صنّف الإمام الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي المقدسي في ذلك مصنفًا، ونقض أقوال من قال بالتحريم، وجرح النقلة للحديث بالتحريم، وذكرهم وأسماءهم وذكر من جرحهم، واستدل على إباحة السماع واليراع والدف والأوتار بالأحاديث الصحيحة، وجعل الدف سُنة، واستدل بآيات من كتاب الله تعالى، وسمعنا ذلك بقراءة ابن أبي أسامة الدمشقي على الشيخ الإمام الحافظ شرف الدين الدمياطي عن جماعة بإجازته عن الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد بن أحمد السلعي الأصبهاني بسماعه من المصنِّف رحمه الله تعالى، ولا حاجة إلى تكثير الكلام، ولا يشك أحد في صحة حديث الوفد من الحبشة الذين كانوا يرفقون ويرقصون بمسجد رسول الله ﷺ وهو

يُري عائشة -رضي الله عنها- قال: أكتفيت أو كانت هي التي تمل.

وأيضًا أحاديث جمّة في ذلك غير مختلفة في صحة ذلك، وإن اختلفت بعض الطرق، وكذلك فإن الناس لا يشكون في نغمات الأطيار كصفير البلابل والهزارات والشحارير والكروانات وكل طير حسن الصوت والصفير والهدير والنواح، فإن ذلك مباح لم يختلف فيه اثنان، وإن رسول الله ﷺ سمع الشعر وربما أجاز عليه، والحديث في الفتاة التي أهدتها عائشة رضي الله تعالى عنها أو أنكحتها في الأنصار، وقوله ﷺ أهديتم الفتاة قالوا: نعم، قال: أرسلتم معها...

قال أبو محمد: كلمة ذهبت عني-، قالت: لا، فقال رسول الله ﷺ:

«إن الأنصار قوم فيهم غزل، فلو أرسلتم معها من يقول: أتيناكم أتيناكم فحيّانا وحيّاكم[1]».

وفي حديث جابر لما سأل عن الفتاة فقال: نكح أحد الأنصار واحدة من أهل عائشة وأهدتها إلى قباء فقال لها رسول الله ﷺ: **«أهديت عروسك»**؟ قالت: نعم قال: فأرسلتي معها مغنيًا فإن الأنصار يحبونه؟ قالت: لا قال فأدركيها يا زينب – وزينب هذه امرأة كانت تغني في المدينة- ورواه الزبير بن مسلم المكي عن جابر[2].

وكذلك حديث فضالة بن عبد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ **«لله أشد أُذنًا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته[3]».**

قال أبو عبد الله الحاكم في كتاب «المستدرك»: وهذا حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه، وأخرجه عبد الله بن ماجه في سننه عن راشد بن سعد الزيني عن الوليد بن مسلم والله أعلم.

---

(١) رواه ابن ماجه (٦١٢/١)، وأحمد (٣٩١/٣)، والنسائي في الكبرى (٣٣٢/٣)، والبيهقي في الكبرى (٢٨٩/٧)، والخلال في الأمر بالمعروف (ص٣٤)، والطبراني في الأوسط (٣١٥/٣)، وأبو الشيخ في جزء أحاديث أبي الزبير عن جابر (١٢)، وأبو نعيم في أماليه (١٢)، (ص٦٢).

(٢) ذكره الحافظ في الإصابة (٤٧٨/٧، ٦٨٢)،

(٣) رواه أحمد (١٩/٦)، وابن ماجه (٤٢٥/١)، والحاكم (٧٦٠/١)، البيهقي في سننه (٢٣٠/١٠)، وابن حبان (٣١/٣)، والطبراني (٣٠١/١٨).

ووجه الاحتجاج من هذا الحديث أن النبي ﷺ أثبت أن الله ﷻ يستمع إلى حسن الصوت بالقرآن كما يستمع صاحب القينة إلى قينته، فأثبت دليل السّماع، فلا يجوز أن يقاس على محرم، ولهذا الحديث أصل في الصحيحين أخرجاه.

وفي حديث جابر ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يخطب قائمًا ثم يجلس ثم يقوم فيخطب قائمًا خطبتين، فكانت الجواري إذا كان نكاح يمررن فيضربن بالدّف والمزامير، فينسل الناس ويدعون رسول الله ﷺ قائمًا، فعاتبهم الله -عز وجل- بقوله: ﴿**وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً**﴾[الجمعة: ١١].

هذا حديث صحيح أخرجه مسلم في كتابه عن عبد بن حميد عن خالد بن مخلد عن سلمان بن بلال والله ﷻ عطف اللهو على التجارة، وحكم المعطوف حكم ما عطف عليه، وبالإجماع تحليل التجارة فثبت بهذا الحكم مما أقره الشرع على ما كان عليه في الجاهلية، لأنه غير محتمل أن يكون رسول الله ﷺ حرّمه ثم يمر به على باب المسجد يوم الجمعة، ثم يعاتب الله ﷻ من ترك رسول الله ﷺ قائمًا وخرج ينظر إليه ويسمع، ولم يُنزل في تحريمه آية ولا سنّ رسول الله ﷺ سُنة فعلمنا من ذلك بقياه على حاله.

ويزيد ذلك وضوحًا حديث عروة عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أنها زفّت امرأة من الأنصار إلى رجل من الأنصار فقال رسول الله ﷺ: «**ما كان معك من لهو لأن الأنصار يعجبهم اللهو**[1]» وهذا حديث صحيح أورده البخاري فى كتابه في كتاب «النكاح» في باب النسوة اللاتي يهدين المرأة إلى زوجها.

ومما حدَّث به ابراهيم بن عبد الله وكان الناس يتبركون به قال: حدثني المزني قال: مررنا مع الشافعي ﷺ وإبراهيم بن إسماعيل رضي الله تعالى عنهما على دار قوم وجارية تغنيهم:

خليلى ما بالِ المطايا كأننا ... نَراها على الأعقابِ بالقومِ تنكُصُ

قال الشافعي: ميلوا بنا نسمع، فلما فرغت قال الشافعي ﷺ لإبراهيم: أيطربك

---

(١) رواه البخاري (٥/١٩٨٠)، (٤٨٦٧).

هذا؟ قال: لا قال: فما لك حس.

وفي حديث الفرغاني عن صالح بن أحمد بن حنبل -رضي الله عنهم- قال: كنت أحب السماع، وكان أبي يكره ذلك، فواعدت ليلة ابن الحنارة فمكث عندي إلى أن علمت أن أبي قد نام فأخذ يغني، فسمعت حشفة فصعدت فرأيت أبي فوق السطح يسمع ما يغنى وذيله تحت إبطه وهو يتبختر على السطح كأنه يرقص.

وقد رويت هذه الحكاية أيضًا عن عبد الله بن أحمد بن حنبل -رضي الله تعالى عنهم- قال: كنت أدعو ابن الحنارة، وكان أبي ينهانا عن الغناء، ولما ناب إليه الأمر قال كالمعتذر منه: إن الكريم طروبٌ(١) ولا خير فيمن لا يطرب.

وكان يحيى بن خالد يقول: خير الغناء ما أشجاك وأبكاك وأطربك.

وقال غيره- سامحه الله تعالى-: وكنت إذا كان عندي كتمته عن أبي لئلا يسمع قال: فكان عندي ذات ليلة، وكان يقول، فعرضت لأبي حاجة عندنا، وكانوا في زقاق، فجاء وسمعه يقول فاستمع، فوقع في سمعه شيء من قوله، فخرجت لأنظر فإذا بأبي يترجع ذاهبًا وجائيًا، فرددت الباب ودخلت، فلما كان الغد قال: يا بنى إذا كان مثل هذا نعم الكلام .

ومما أخبر به أبو محمد التميمي رحمه الله قال: سألت الشريف أبا علي محمد ابن أحمد بن أبي موسي الهاشمي عن السماع فقال: ما أدري ما أقول فيه، غير أني حضرت دار شيخنا أبي الحسن بن عبد العزيز بن الحارث التميمي سنة سبعين وثلاثمائة في دعوة عملها لأصحابه وحضرها أبو بكر الأبهري شيخ المالكيين، وأبو القسم الداركي شيخ الشافعيين، وأبو الحسن ظاهر بن الحسين شيخ أصحاب الحديث، وأبو الحسن بن سمعون شيخ الوعاظ والزهاد، وأبو عبد الله بن مجاهد شيخ المتكلمين، وصاحبه أبو بكر الباقلاني في دار شيخنا أبي الحسن التميمي شيخ الحنابلة.

فقال أبو علي: لو سقط السقف عليهم لم يبق في العراق من يشبه واحدًا منهم يفتي في حادثة، ومعهم أبو عبد الله غلام تام، وكان هذا يقرأ القرآن بصوت حسن- وربما قال شيئًا- فقيل له: قل لنا شيئًا، فقال وهم يسمعون بأجمعهم:

خطتْ أناملُها في بطنِ قِرطاسي رســـــالةً بعبـــــير لا بأنفـــــاس

---

(١) يراد أن الأريحية تهزه وليس كاللئيم الذي تمكنت القساوة والجفاء من طبعه.

أنْ زرْ فديتك لي من غير محتشم فـإن حبَّـك لي قـد شـاعَ في النـاس

فكـان قـولي لمـن أدّى رسـالتَها قـفْ لي لأسعى على العينين والـراس

قال أبو علي: فبعد أن رأيت هذا لا يمكنني لأن أفتي بحظر ولا إباحة.

وهذا القدر كافٍ إن شاء الله تعالى في هذا الباب من وجوه الاستدال بالأحاديث الصحيحة وتأويل الآيات، ولم نعلم في زماننا هذا من أهل العلم وأهل الصلاح من أنكره، وكانوا أجلاء كالشيخ مجد الدين القشيري بن دقيق العيد[١]، وولده الشيخ الإمام تقي الدين[٢] قاضي القضاة -قدس الله تعالى روحيهما-، وكان يسمع

(١) هو على بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة مجد الدين القشيري.

المنفلوطي، ثم القوصي، المعروف بابن دقيق العيد، والد الشيخ تقي الدين الآتي. والعالم العامل، الإمام الكامل، كان ممن جمع بين العلم والعبادة، والورع والزهادة، مع بذل الإحسان، وائتلاف الخاص والعام.

ولد بمنفلوط في رمضان سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، وبها نشأ، وحفظ القرآن، وسمع الحديث والأصول عن الحافظ بن المفضل المقدسي، وبه تفقه في مذهب مالك.

وعن البهاء ابن بنت الحميري، وبه تفقه في مذهب الشافعي.

وحدّث عن أبي أروح الأنصاري، وأخذ عنه الأكابر كالتقي والسراج والتاج والبهاء القطي والجلال الدشناوي والمحب الطبري والضياء الحسيني والنجيب ابن مفلح والقاضي شمس الدين ابن قدس والسراج الأرمنتي والنجم بن ناشيء والحافظ بن سليم والدمياطي والبدر بن جماعة وأحمد بن عبيد. وطلبه لقُوص ابنُ هبة لما بنى مدرسته بإشارة ابن الصباغ، فاستوطنها، فعمّت بركته، وانتشرت حفدته، وأقام شعار مذهب السنة من الأقطار، لالتماس دعائه حتى من الأمصار، وناب في الحكم بمنفلوط وأسيوط وغيرها.

وكان كثير التقشف، والتقلل من الدنيا، كثير التلاوة، حتى أنه ليقرأ في اليوم ختمتين، مع ما هو عليه من صيام.

مرّ يوم عيد بطيلسان شديد البياض، فقيل كأنه دقيق العيد، فجرى عليه.

توفي في ثالث عشر محرم سنة سبع وستين وستمائة. دفن بظاهر قوص، وقبره مشهور يقصد بالزيارة. وانظر: الكواكب الدرية للمناوي (٥٤٠).

(٢) هو محمد بن على بن وهب أبو الفتح تقي الدين بن دقيق العيد، القشيري المنفلوطي ثم القوصي ثم المصري المالكي الشافعي.

الحافظ الزاهد، الورع الناسك، المجتهد المطلق، الجامع بين العلم والدين، السالك سبيل الأقدمين، قاضي القضاة، شيخ الإسلام، أستاذ المتأخرين.

=

السماع، والشيخ جلال الدين الدشنائي ولم يُسمع من أحد منهم إنكار، والشيخ محب الدين الطبري والفقهاء الذين عندنا كلهم يحضرون السماع، ومشايخ الصوفية من الزمان المتقدم وإلى الآن لم ينكره واحدٌ منهم إلا إن وقع ما يوجب الإنكار فيه، فلم يكن ذلك في نفس السماع، وإنما هو لعلةٍ دخلت فيه.

أقسام السماع

والذي أراه في ذلك أن السماع على **ثلاثة أقسام:**

- منه ما هو **محرم** كالاستماع لأرباب اللاهوية المحرمة من عشاق النسوان والفتيان وحضورهم في المكان والآلات المحرمات، فإن ذلك يحرك دواعيهم ويهيج نفوسهم وأشواقهم حتى يرتكبوا المحارم ولا يقفون عند مانع ولا يحجبون برادع؛ لأن الشهوات النفسانية إذا احتدت وقوي شغفها في محبوبها ومطلوبها لا تندفع عنه إلا بالموت، فالسماع على هذه الصورة حرام على السامع والمستمع له إذا علم بذلك؛ لأن الداعية إلى الحرام حرام؛ وما لا يتوصل إلى الحرام إلا به فهو حرام، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما كان يتوصل للحرام به فهو حرام وإن كان له دواعي غيره، فكيف إذا كان هذا الداعي هو أقواها وأشدها وأسرعها إلى ارتكاب المحارم.

=

كان مبرزًا في المدارك النظرية والأثرية، والمسالك الصوفية والحقيقية، ذكيًا غواصًا على المعاني، قناصًا لشوارد ما يحاوله من العلوم ويعاني.

وافر العقل، سافر الحجب عن وجوه النقل، إمامًا في فنونه، غمامًا فيما يرسله من الفوائد في كلامه وعيونه.

شديد الورع، مديد الباع، إذا أقام في أمر شرعي وشرّع، سمع بمصر الشام والحجاز، على تحرٍ في ذلك واحتراز.

ولم يزل حافظًا للسانه، مقبلاً على شانه، وقف نفسه على العلوم، وقصرها، ولو شاء العاد أن يحصر كلماته ما حصرها، ومع ذلك فله بالتجريد تخلق، وبكرامات الأولياء تحقق.

قال السبكي: ولم ندرك أحدًا يختلف في أنه المبعوث على رأس السبعمائة، كان والده مالكيًا ، ويقرئ المذهبين، فأخذ عنه وعن ابن عبد السلام المذهبين، وصار يفتي ويؤلف للفريقين.

مات يوم الجمعة، سنة اثنين وسبعمائة، ودفن بسفح المقطم، وأغلقت حوانيت مصر للصلاة عليه، ورثاه الأكابر بعدة قصائد. وانظر: الكواكب الدرية (٦٤٢).

- ومنه ما هو عندي **واجب**، بل واجب الواجب، وذلك أن السماع إذا كان لأقوام قد أسطلهم الحب في الله تعالى، وأقلقهم الشوق إليه، وزهقت أرواحهم من العطش منه، وتهالكت نفوسهم في ذاته، وتقطعت قلوبهم على قربه ووصاله، وطاشت عقولهم في معرفته، واستغرقت أسرارهم في سريان سرّه في بحر ديموميته إذا أطرق أسماعهم ذكر محبوبهم على أنواع من صفات جماله وكماله، ولاح لهم بارق دلائله وأنوار حقائقه طارت أرواحهم إليه طيران العقبان، بل أسرع مما يوصف به الطيران، وانخرق سماع قلوبهم بذكر محبوبهم فأجذبهم إليه دواعي الوجدان ساروا إليه في قلبك المدارج والأطوار بالمذاقات والوجدان، وساقهم سائق الشوق بأسرع السرعة لا كسابق الإطعان، ويشتاق القوم إلى لقائه، كما أن الأقرب إليه هو السابق بالعرفان ممن واصل ومَن ذاهل ومن مأخوذ ومن واجد ومن عارف ومن سابق ومن سائل ومن ولهان، والكل إليه وامون وعلى طبقاتهم في وصولهم متعاونون وإليه ذلك الوقت راجعون.

وكل العلوم والمعارف والحقائق واللطائف والآمن والخائف، فإنما وضعت للعلوم والمعارف وكل ما تقدم ذكره إلا ليعرف به الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[الذاريات:٥٦] قيل: ليعرفوا، والله تعالى هو غاية الغايات ونهاية النهايات والمعرفة به هي واجب الواجبات، فالسماع على هذه الصورة واجب، وإن كان ذلك في حكم النادر إلا أن له أهل، وهم بحمد الله تعالى موجودون، وإنما يعرفهم من معرفة الله تعالى بهم؛ لأن القلوب مستورة بالجثمان، ومحجوبة عن العيان، وفيها أسرار الملك الرحمن، فلا يطلع عليها سواه، ولا يعلم بحقيقة ما أودعه فيها إلا إيّاه.

- ومنه ما هو **مباح** على أصله إذ لم ترد فيه آيات في القرآن ولا أحاديث صحيحة في التأخير ولا في التقديم، كصفير الأطيار وتمايل الأشجار ورؤية الأزهار وهدير الأنهار وغير ذلك من هذا الشأن، فإذا خلت قلوب المستمعين من الحالة الأولى المحرمة للسماع، ومن الحالة الثانية الموجبة للسماع وكان خليًّا من ذلك كله، فسماعه للألحان كسماعه لنغمات الأطيار ورؤيته لجريان الأنهار وألوان الأزهار.

حكايـة في السمـاع[١]

وقد كان عبد الله بن جعفر[٢] مع جلالته وعظم شأنه ليسمع ويعلم جواريه، ويسمعهن في خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ وكانت له جارية تسمى عمارة وكان معجبًا بها فسمعها يزيد بن معاوية، فوقعت في قلبه فأحبها وعشقها فاطّلع على ذلك أهل سرّه وبطانته، فأشاروا عليه بالكتمان وألاّ يطلع والده على ذلك، فإن عبد الله بن جعفر ما يبيعها ولا يُكره عليها.

فكتم ذلك حتى مات معاوية وأفضيت إليه الخلافة، فتحدث مع أهل سرّه وبطانته في ذلك فقالوا له إن ابن جعفر ما يكره ولا يبيع، فقال: فما الحيلة؟ فقالوا:ما بقي إلا التحايل فقال: وكيف ذلك؟ فقالوا: هنا رجل عراقي.

فطلبه وعرض عليه ذلك، فقال له: إن عبد الله بن جعفر ما يبيع ولا يكره على ما في يده، وليس منها إلا الحيلة، وإن كان واحد يحتال فأنا.

فأعطاه ما يريد من المال، وتجهَّز إلى المدينة، وشرّع ما يحتاج إليه من الراحلة وغيرها، وتوجّه في صورة تاجر إلى منزل في رحبة لما وصل إلى المدينة بالقرب من دار عبد الله بن جعفر، والرحبة له، فقيل لعبد الله بن جعفر: رجل تاجر نزيل عندك، فقال: أكرموه. -وكان عبد الله بن جعفر مشهورًا بالكرم، وهو من المعدودين من الكرماء في العرب- ثم استأذن علي عبد الله فأذن له، فسلم عليه وقال: فيكم والمحبة لكم وجئت قاصداً، وبقى يلازم مجلسه حينًا.

ورأى منه عبد الله بن جعفر من المنادمة والملازمة والفضيلة ما عظم به عنده، ثم إنه أرسل إلى عبد الله لطائف وطرائف من لطائف الشام وظرفها وبغلة، وكتب معها ورقة وذكر فيها أنه لم يكن له حاجة بالمدينة إلا الولاء فيهم والمحبة، وقد أرسل لطائف

---

(١) انظر: مختصر تاريخ دمشق (٦٧٢/١).

(٢) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب، كنيته أبو جعفر، كان يصفر لحيته، وهو الذي يقال له: قطب السخاء، مات سنة ثمانين، سنة سيل الجحاف الذي ذهب بالحاج من مكة وكانت أسماء بنت عميس بن كعب بن ربيعة الخثعمي ولدته بأرض الحبشة، وكان يوم توفي رسول الله ﷺ ابن عشر سنة. انظر: الثقات لابن حبان (٣ / ٢٠٧).

وظرف من لطائف الشام وبغلة خفيفة الركاب.

فبالله عليك يا ابن رسول الله لا تخجلني أو لا توحشني بالرد، فأمر عبد الله بن جعفر قَيِّمَه أن يقبض ذلك منه، ثم إنه استمر على الملازمة حتى عاد عبد الله بن جعفر إذا جلس وعنده عمارة تغنى يكون العراقي حاضرًا عنده، وكان عبد الله بن جعفر معجبًا بعمارة كثيرًا، فغنت ذات ليلة فأعجب بها عبد الله بن جعفر فقال للعراقي: هل رأيت مثل عمارة؟ فقال: لا والله يا ابن رسول الله ﷺ، حسن صورة وحسن صنعة -أو قال جودة صنعة- فقال: كم تساوي عندكم؟ فقال: يا ابن رسول الله، أنا رجل تاجر، أضم الفلس إلى الفلس أو الحبّة إلى الحبّة، والله لو أعطيت لي بعشرة آلاف أخذتها -أو قال دينارًا- فقال له: هي لك بعشرة آلاف -على سبيل الدُّعابة.

فقام العراقي، وأتى بعشرة آلاف دينار وضعها بين يدى عبد الله بن جعفر، فقال له: ما هذا؟ فقال: ثمن عمارة.. فقال له: ويلك، ومثلي يبيع مثلها؟ قال: يا ابن رسول الله، أنا رجل غريب، وما لي عليك يد غير أني أستحلفك عند قبر رسول الله ﷺ فقال: ويلك، أتحلفني عند قبر رسول الله ﷺ فيقول الناس أظهر ضيفه؟ والله لأحتسبن صبري في الله تعالى، جهِّزوا عمارة. فجهزوها بثلاثة آلاف دينار.

وقال: بئس والله الضيف أنت، وجعل أهل المدينة يقولون هذا الضيف المشئوم. قال: فأخذتها وخرجت، فلما خرجنا من المدينة كشفت وجهها فقلت لها استري، فما أنت والله لي، وما كنت بالذي آخذ حبة قلب ابن رسول الله ﷺ لنفسي، لكني دسيس من يزيد بن معاوية.

وسافر حتى إذا وصل إلى دمشق وهو داخل من بابها، وإذا بجنازة يزيد خارجة من الباب، قال: فدخلت وأقمت ثلاثة أيام، وتحايلت في دخولى على معاوية الصغير- وكان رجلاً صالحًا- فلما دخلت عليه وحكيتُ له الحكاية فقال: المال والجارية رد عليك ولا تبيتن في البلد الليلة.

قال: فخرجت، فكشفت وجهها فقلت لها: تستري، فأنت والله ردٌّ على عبد الله بن جعفر.

فلما وصلنا إلى المدينة نزلت الرحبة، فقال أهل المدينة: جاء الضيف المشئوم، وبلغ عبد الله بن جعفر نزولنا فقال: أكرموه، ثم طلبت الإذن فأذن لي، فجئت إليه وحكيت له الحكاية وأحضرت عمارة وقلت له: والله يا ابن رسول الله، لم يصل لها يد ولا عين، فكانت في الدار ضجة عظيمة يقولون: عمارة عمارة، وأمر عبد الله بن جعفر قيّمه فباع له غنمًا بسبعة عشر ألف درهم فأعطاها للعراقي.

فهؤلاء السادة كانوا يسمعون وهم في مثل هذا المنصب مع جلالتهم وعلو مناصبهم وعلومهم وكرمهم وقربهم من رسول الله ﷺ، وفي حكايات مشايخ الرسالة في ذلك كفاية، لم يذكر أحد منهم تحريم السماع إلا لعلة.

حكَـايات أخــرَى

كما ذكر أن الجنيد رضي الله عنه[1] سمع أن أبا الحسن الثوري يدور على قدم واحدة ويقول الله الله ثلاثة أيام فقال: قوموا بنا إلى أخي أبي الحسن، إما نفيده أو نستفيد منه، فقاموا فوجدوا الشيخ أبا الحسن على تلك الحال فقال له الجنيد: يا أخي أبي الحسن، إن كنت قائلاً الله الله بالله فلست أنت القائل، وإن كنت أنت القائل فأنت باقٍ مع نفسك، فما معنى الوله؟ فرجع عن حاله وقال: نعم المؤدب أنت.

وفي حكاية غير هذه أن المشايخ كانوا مجتمعين، وقوّال يقول شيئًا، فقام واحد وتواجد فقال له أحدهم: والذي يراك حين تقوم.

وقد ذكرنا ما حكي عن القرشي رضي الله عنه[2] أنه كان عنده قوّال فقال شيئًا.

وكان في طبقته التي بدرب ابن القسطلاني بمصر، قال: فارتفع أبو يوسف الدهماني إلى أبندارية المكان، وبقي يدور حتي أتى مقابل سجادته فنزل وجلس عليها، فقال له القرشي: الذي يغلب حاله عليه لا يحضرنا.. والمشايخ المتقدمين والمتأخرين لم يسمع بإنكارهم السماع.

وحكي عن الشيخ شهاب الدين السهروردي رضي الله عنه[3] أنه سمع شيئًا فقال: وفينا

---

(١) انظر كلام سينا الجنيد في السماع في كتابنا: «الإمام الجنيد سيد الطائفتين» (ص٢٧٨).

(٢) يقصد سيدي أبي عبد الله القرشي.

(٣) هو عمر بن محمد بن عمُّويه الشيخ شهاب الدين السهروردي.

=

وإن طال الزمان بقية.

وسيدي أحمد بن الرفاعي ﵁ كان له في السّماع ما يذكر فيه عنده، وذكر الرقص في كتاب ابن كرار وقال فيه ما قال ﵁ وإلى زماننا هذا أصحاب الشيخ أبي الحسن بن الصباغ، كالشيخ علم الدين والشيخ أبي يحيى.

وحكي أن فقيرين من أصحاب الشيخ أبي الحسن حضرا سماعًا، فقام أحدهما وصاح، فقال له صاحبه: تكذب إن كنت صادقًا فاثبت.. قال فجلس فمات. فقيل أن الشيخ سأل صاحبه عن ذلك فقال صاحبه: هو كشف له عن أمر، فضاق عنه فقلت له: إن كنت صادقًا فاثبت ولم يطق فمات.

وأخبرني الشيخ أبو الطاهر أن الشيخ أبو الحجاج الأقصري كان عند الشيخ أبي يحيى في السماع، وكان يصيح: يا حبيب يا حبيب، وخرج وبقي يمشي في الطريق ويصيح: يا حبيب يا حبيب، والشيخ مقرح ﵁ أيضًا كان يحضر السماع ويعمل عنده، وحكى لي الفقيه عميد الدين أن الشيخ مفرح كان في طبقة له وكان في بيته السماع

=

شيخ العارفين بالعراق على الإطلاق بالاستحقاق، صاحب عوارف المعارف، أحيا رسم الصوفية، فساد بما شاد وعمر، وهما غمام فضله حتى سقا رياض الحقائق وهمر، وقسم فقهه وتصوفه، فهذا للفقهاء غناء، وهذا للصوفية سمر، وخالف العادة لأنه جاء بستاناً في ورقة، إلا أن جمعية زهرٌ وثمر، وأمر ونهى في سلطان فضله، فأذعن أهل الطريق له وقالوا: سمعًا وطاعةً لما نهى وأمر.

وهو الأصيل الذي ثبت في بيت النجابة ركنه، وتفرع في الدوحة السهروريدية غصنه. كان رضي الله عنه إذا أيّه بالناس، وغسل درن الذنوب، وذكر أهوال القيامة، وتحقق الناس أن كلامه روض، ومنبر وعظه غصن، وهو في أعلاه حمامة.

ولد سنة تسع وثلاثين وخمسمائة بسهرورد، ونشأ بها، ثم قدم بغداد، فصحب عمه الشيخ أبا النجيب عبد القاهر الذي كفله لما قتل أبوه وهو جنين.

وأخذ عن الشيخ عبد القادر الجيلاني وغيره، وسمع الحديث من جماعة.

وكان فقيهًا شافعيًا، عالماً صوفياً، إمامًا ورعًا، زاهدًا عارفًا ، شيخ وقته في علم الحقيقة، وإليه المنتهى في تربية المريدين، ودعا الخلق إلى الحق، وتسليك طريق العبادة والخلوة.

وقد ترجمه خلائق كثيرون، وأثنوا عليه، منهم الحافظ ابن حجر، قال: كان رأس الصوفية في زمانه.

طبقات السبكي (٨/٣٣٨)، البداية والنهاية (١٣/١٣٨)، طبقات الأولياء (٢٦٢)، جامع كرامات الأولياء (٢/٢١٩)، الكواكب (٥٤٣).

والقوّال يقول:

كــان للقــومِ في الزُّجاجــةِ بــاق و أنـا وحـدي شـربتُ ذلـك البـاقي

فنزل الشيخ من طبقته ودار دَورَاتٍ وعاد إلى مكانه رضي الله عنه.

وقد ذكرنا من مات في السّماع من الوجد، كالشيخ عمر بن عبد الحميد السخاوي مات من السماع في بلبيس حكاه الشيخ عبد العزيز وحكاه لي نجم الدين ابن ناشيء قال: حضرته وكان إلى جانبي.

وحكاه لي الصاحب فخر الدين بن الخليلي- حرسه الله تعالى- قال: حضرته وكنت في السّماع، ورأيته كما حكاه الّلذان قبله، وموت السّراج الإسكندراني وغيره والذي جعل رأسه على الأرض مكان قدميه، كل ذلك في زمننا ووقتنا.

وذكر لي الشيخ يعيش -رحمه الله تعالى- قال: كنت أنا -وربما قال القليب السخاوي يمشي، وربما قال: كنا نقول شيئًا- وإذا بامرأة راكبة على بغلة ومعها الخدَّام، فطلبتنا إلى بيتها فسرنا ودخلنا دارًا محتشمة، وإذا هي تغني للسلطان، ولها في الطرب والموسيقى صناعة جيدة، وكان السلطان قد أخذ ابنها وبقي عندها شوق إليه فغنت على عود وهي تبكي، وإذا طائر وهو البلبل جعل يترنم ويتدلى من دور القاعة، وجعل يتقرّب بالنزول من جهة إلى جهة حتى نزل وقعد على رأس العود الذي تغني به ونحن جلوس، وأقمنا في ضيافتها ثلاثة أيام.

وحكى لي الأمير علاء الدين إدريس بن الصوافي[1] قال: كنا في سماع لنا وعندنا قوّال، ونحن وأصحابنا خلوة، قال: فجاء قمري وقعد في طاقة في القاعة يستمع، ثم نزل وجلس على رأسي والجماعة جلوس وسكنت له، فمكث ساعة والمغني يغني، فحين فرغ المغني من الغنا طار وراح.

فانظر رحمك الله إلى هذا السر الذي جذب هذا الطائر! فكيف بأرباب الضمائر والسرائر والحقائق والخواطر، والمحبين للأول والآخر والظاهر والباطن؟

---

(١) في الأصل (الصواني).

ولما طلب ذو النون المصري[(١)]، وأرسل الخليفة إلى الفاضل بطلبه، وقال: إنّا سمعنا أن ببلادكم من يقول بما يقول به الحسين الحلاج[(٢)] فأرسله إلينا، فأرسل إلى أخميم فأحضره وأرسله إلى بغداد، فقال له الخليفة: ما الكلام الذي تقوله: فقال ما أعرف ذلك إلا عند السماع، فأحضروا قَوّالاً فأنشد القوّال:

صـــــغيرُ هـــــواكَ يتمـــــنَّى فكيـــــفَ بــــهِ إذَا احتنَكـــــا

امـــــا تـــــراني لمكتئـــــبٍ إذَا نـــــامَ الخلـــــيُّ بكـــــا

قال: فانتفخ ذو النون حتى بقي كالفيل، وقطرت كل شعرة منه الدم، فقال الخليفة: والله ما هذا عن باطل، ثم أكرمه وردّه إلى مكانه.

وما حدث به محمد بن سلمة عن أبيه قال: أتيت عبد العزيز بن المطلب أسأله عن بيعة الجن للنبي ﷺ بمسجد الأحزاب ما كان بدوها فوجدته مستلقيًا وهو يغني ويقول شعرًا:

فمـا روضـةُ الحـربِ طيبـةُ الثـرى تمـج الثـري احنحاتُهـا وعرارهـا

---

(١) هو العارف الناطق بالحقائق الفاتق للطرائق.

ذو العبارات الوثيقة والإشارات الدقيقة، والصفات الكاملة والنفس العالمة العاملة، والهمم الجليلة والطريقة المرضية، والمحاسن الجزيلة المتبعة، والأفعال والأقوال التي لا تخشى منها تبعه.

زهت به مصر وديارها، وأشرق بنوره ليلها ونهارها، وقال ابن يونس: كان عالمًا فصيحًا حكيمًا، امتحن وأوذي لكونه أتاهم بعلم لم يعهدوه.

وكان أول من تكلم بمصر في ترتيب الأحوال، وفي مقامات الأولياء فحول الرجال.

مات سنة خمس وأربعين ومائتين، ودفن بالقرافة وقبره بها ظاهر مقصود بالزيارة وعليه أنس ومهابة.

وهو بقرب قبر عقبة بن عامر الجهني الصحابي. وانظر: الكواكب (٢٤٧).

(٢) هو الحسين بن منصور الحلاج البيضاوي، ثم الواسطي صوفي أضاء في أفق المشرق بدره ثم اشتهر في أقطار المغرب ذكره، وله خوارق سيوفها مجردة وعجائب سننها محددة، أصله من بيضاء فارس، ونشأ بواسط، وصحب الجنيد والثوري وغيرهما.

وكان – قدس سره- من أهل الشطح، وقد اختلف فيه الناس ما بين مكفّر له، ومعتقد ولايته، وهم الجمهور ومنهم القشيري في الرسالة وابن الحاج في المدخل وغيرهما. وانظر: الكواكب الدرية للمناوي (٣٢٩)، والانتصار للموصلي الكردي (٥٦٩) .

يــا طيــبَ مــن أراد عــزةً مرهّبــا وقـد أوقـدت بالمنـدلِ الرطـبِ نارَهـا
من الحفرات المبيض لم تلقَ شقوةً وبالحسـب المكنـونِ طـاب بخارهـا
فــانبرزت كانــت لعينِــك قــرةً وإن غيـت عزبًـا لم يعمـك عارهـا

فقلت له: تغني رحمك الله وأنت في جلالك؟ والله لأخبرن بها ركبان نجد.

قال: فوالله ما أكثرت وعاد يغني:

فمـا طيبـة إذا مـا جفافـة الحشَـى تجـوبُ بظلفيهـا بطـونُ الخمائـلِ
بأحســن منهــا إذ تقــولُ تذلّلــه وإذ معَهـا تـدرين حشـواً المكاحـل
تمتــعْ بــذا اليــومِ القصــيرِ فإنــهُ رهــينٌ بأيــام الشــهورِ ولا طــاول

قال: فندمت على قولي له وقلت: أصلحك الله تحدثني في هذا بشيء؟ قال: نعم، حدثني أبي قال: دخلت على سالم بن عبد الله بن عمر وأشعث يغنيه:

مقيرتُــه بالبــدر شُــبِّهَ وجهُهــا مطهــرةُ الأثــواب والعــرضُ وافــر
لهــا حســبٌ زال وعــرضٌ مهــدبٌ وعـنْ كـل مكـروهٍ مـن الأمـر زاجـر
مـن الحفـرات البيض لم تلـقَ رتبتـةً ولم يَسـتلمْها عــن تقــيٍّ شــاعر

فقال له سالم ﷺ: زدني، فقال:

أعلمــتَ بنــا والليــلُ داجٍ كأنَّــه جنــاحُ غــرابٍ عنـه قـد نفـضَ القطـرَا
فقلــتُ أعطــارٌ ثُــوِّيَ في رِحالِنــا ومـا احتملـتْ ليلي سوى رشحَها عِطرا

فقال سالم: والله لولا أن تداوله لرواة لا جزلت لك جائزة فقليل من هذا الأمر كاف.

وفي حديث أبي مصعب لما سأل مالكًا ﷺ عن السّماع فقال: ما أدري إلا أن أهل العلم ببلدنا لا ينكرون ذلك ولا يقعدون عنه، ولا ينكره إلا عامي غبي جاهل، أوناسك عراقي غليظ الطبع.

وفي حديث الأصمعي عن عمرو بن أبي زائدة قال: مرّ الشعبي بجارية وهي

تقول: فتن الشعبي لما..فلمّا رأت الشعبي سكتت، فقال لها الشعبي مكملاً: رفع الطرف إليها.

وأخبرني فقير قال: كنا بالروم نقيم سبعة أيام نسمع ليلاً ونهارًا ونحن قيام لا نأكل ولا نشرب، ورأيت الشيخ أبا الطاهر اسماعيل بن عبد المحسن رضي الله عنه إذا حضر السماع أو أسمع الشبابة لا يملك نفسه ويتمرّغ في المجلس كلّه، وكان الشيخ ناصر الدين لا يحمّله.

فهذا رحمك الله تعالى أقوال السلف وأحوالهم فيه من الصحابة وعزّهم من التابعين وغيرهم من تابع التابعين وأقوال الصوفية المتقدمين والمتأخرين، مع ما عضد ذلك من الأحاديث الصحيحة والاعتضاد بالآيات الواردة في القرآن العظيم، فليس لأحد أن يحرم ما حلل الله تعالى ولا يحلل ما حرم الله تعالى، وأعرف فقيرًا كان يتغذى السماع، وربما أقام اليوم والثاني والثالث(١).

المأخُـوذون

وأمّا المأخوذون فهم في ذلك على طبقاتهم وقوة خرق سماع قلوبهم يغنيهم ذلك عن الشراب والطعام والحلال والحرام والنور والظلام والليالي والأيام حتى يردهم إليه ويجمعهم في قربات العارف عليه ويؤنسهم بشواهد تجليه، فلا يرون شيئًا إلا ويرون الله فيه.

فإياك والإنكار على أهل القلوب في السماع ولا سوء الظن عند الأقوال في الاستماع، فإنما أنت بما ملت إليه واعتقدته، فأنت المطلوب عنك بك والمسئول عمّا

---

(١) انظر: كتاب السماع للشيخ السلمي ()، ورسالة ابن حزم في إباحة السماع والغناء، والمحلى له (٩/٦٠).

قلت: واعلم أن ما ورد بسند صحيح في تحريم السماع ليس بنص صريح، وكل ما ورد بنص صريح ليس بسند صحيح، ولا يلتفت لمثل هذا الألباني في كتابه المضطرب عن بقية كتبه وهو «تحريم آلات الطرب» وكأنه في هذيان الشيخوخة يأتي بأشياء غير سوية في ترتيبها ومضمونها، وتدل على جهالة في نقلها.

حيث ادعى مناقشته للمخالفين وأئمة الصوفية كما هو معنون بالكتاب، ولكنه لم يستوف أدلة المبيحين بإنصاف واحترام أصحاب الخلاف، بل قام بالاقتصار برد على العلامة الكبير ابن حزم، وبعض الناطقين بالإباحة ممن المعاصرين غافلاً بالقصد عن نقلة ذلك من السلف الصالحين والأئمة المتقدمين، وما كان ذلك من هذا الألباني إلا للتشويش والتضليل والتزييف، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

فيك لك، والله تعالى عند ظن عبده به، فإن يك خيرًا عاد إليك، وإن يك شرًا فلا تلومنّ إلا نفسك وقد قلت:

إذا سَمعت أذُني لغيرِ حديثِكم فصُمّت به أذني ولا نطقت فمِي

فكلُّ سماعٍ في سواكم محرّمٌ كذا كلُّ طرفٍ عن سوى حسنِكم عمي

سرى حبُّكم في كلِّ عضوٍ ومفصلٍ وذكرُكم في الشعرِ واللحنُ في دمي

وفي كلِّ قلبٍ من هواكم محبةٌ وفي كلِّ لفظٍ ذكرُكم في التكلمِ

كأن وجودَ الكائنات عواشقٌ لها كلُّ قلبٍ ذاهبٍ في التتيمي

فما فيه جزءٌ خاليٌ من هواكم ولا فيه قلبٌ في الهوى غير مغرمِ

البَهَائم المأخُوذَة

ولقد كان سعد إذا حدا تهيم الجمال على وجوهها، وتتقطع أفئدتها، وربما ماتت من ذلك، حتى حكي أن أعرابيًا نزل على سيده فلما قرّب له العشاء أو الغداء، وكان سعد مقيد في كسر البيت، فسأل الأعرابي الذي نزل على سيده أن يشفع فيه عنده، فحين قرب له المأكول امتنع وقال: ما آكل حتى يطلق هذا الغلام، فقال له: إن ذنبه عظيم فقال: وما ذنبه؟ فقال: إن لي إبلاً نعيش بها -أو كما قال- فإذا حملها حدا عليها فتهيم على وجوهها وتنقطع أكبدتها فتموت،

أو قال: لي إبل أعيش بحملي عليها أحمالاً ثقالاً، وحدا عليها فقطعت مسيرة كبيرة في مدة قريبة، فلما حطت أحمالها ماتت جميعًا.. فأطلقه له ثم أكل، فلما كان من الغد قال: أريد أن أسمعه، فأمره أن يأخذ بعض الجمال ويستقي عليها، فلما حدا هامت الجمال على وجوهها وهام الضيف على وجهه.

فانظر رحمك الله تعالى هذه الأخذة للبهائم، ما الذي جذبها؟ وما هذا الداعي الذي دعاها؟ وما هذا الشوق الذي شاقها وساقها؟ كما قال قائلهم:

نعم، لولاك ما ذُكرَ العقيقُ ولا انبعث إلى البيداءِ نوقُ

إذا كانــت تحــنُّ لــك المطايَــا فكيــفَ لعَمــري الصَــبُّ المشــوقُ؟!

وفي الجمال التي يهيجها الحب عجائب، يسمون الفحولة منها إذا هاج جمل منهم من لا يقدر صاحبه على سياسته وربما قتل صاحبه قال الله تبارك وتعالى: **﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾** [النحل: ٩].

ومنها من لا يأكل ولا يشرب مدة، ويحمل عليها الأحمال الثقال، ولقد رأيت فيها أعاجيب رأيت جملاً وقد أثقلوه، مع كونه لا يأكل ولا يشرب وهو يقرش على أسنانه ويشقشق ويخرج شقاشقه والزبد على خراطيمه وينزل الأرض، ويخرج على شقشقته شيئًا أحمر منفوخًا كالسّعف أو كالجرّة، ثم يعيده إلى جوفه ولا يعرف من أين هو، وقيل أنه إذا ذبح يُطلب تلك التي كان يخرجها فلا توجد، وقيل أنها الصميم ومن ذلك قيل: أحبة قلبي في صميم فؤادي.

وقيل: يُقيم على ذلك أيامًا وأشهرًا، وما أدري المدة التي يقيم فيها لا يأكل ولا يشرب، وهو مع ذلك مقيد مربوط محتفظ به، لا يستقر ولا ينام ليلاً ولا نهارا، وعيناه محمرّتان.

ورأيت من الإبل أنها إذا حداها الحادي تمد أعناقها وتسرع السير، ورأيت بعضها تلتفت إلى ورائها التفاتات عجيبة بأعين محولة إلى ورائها فكنت أتعجب لذلك. وقد قيل:

هواهَا وراهَا والسرُّ من أمامِها فهنّ صحيحاتُ النواظرِ حولُ

فهذا لعمرك حال الحيوان الذي لا يعقل ولقد رأيت في جنس الحيوان من ذلك كثير الهيجان، مثل السنور وغيره من الكلاب والطيور وما فيها من العجائب والغرائب، من نياحها على إلفها وهديرها لمعشوقها، وفي شجوها وحنينها وترجيها وبكائها وصياحها لا يتمالك المحبوب نفسه، حتى أنه مات بعضهم عند نحيب الغراب والطير، وإذا فقد إلفه يشجوه كلّ قلب شجي، ويحزن بحزنه كل حزين، ويحن لحنينه كل مشتاق كما قيل:

لـو تعلـمُ الورقـاءُ حنيـني نحـوكُمُ بكـــتْ معـــي ومزقـــتْ أطواقَهـــا

ولـو يـذوقُ عـاد زي صـبابَتي صـبيٌ معـي لكنّـه مـا ذاقَهـا

تحابُب النبـات

وفي تحابب النبات وتعاشقه عجائب ظاهرة لمن تبصر فيها واستقرأها، حتى إن الذَّكر من النخل ما لم يجعل في أكمام الأنثى من طلعه شمراخًا عند لقاحها، وإلا فما يجيء منها تمرٌ ولا رطب أصلاً ولا يعقد، وإن عقد جاء شيصًا لا ينتفع به إلا إن كان لأكل الجمال أو ما شاكله من الحيوان.

وأعجب من ذلك أن النخلات التي تكون بالقرب من الذَّكر لا تحتاج إلى اللقاح ولا أن يجعل منه شيئًا، بل يكتفي بالقرب منه أو بهبوب الريح عليه، فإن الكوز الذي فيه الشماريخ الذي في عرجون الذكر لها دقيق لطيف ناعم نعومته لطيفة لا يكاد يكون مثلها، وله رائحة تشبه رائحة المني بما يستدلون عليه بذلك ليقع الفرق بين المدى والمني بذلك.

وأخبرني فقيرٌ أنه رأى بنهر عيسى ببغداد نخلة من هذا الجانب ونخلة من الجانب الآخر، وأن هذه مالت إلى هذه واعتنقا، وإحداهما ذكر والأنثى لا تلقح، وأنه رأى أيضًا نخلتين في بستانين بينهما طريق، وأنهما مالتا بعضهما إلى بعض واعتنقا والتقيا، وعاد رأس كل منهما إلى البستان التي غرست، به والأنثى لا تحتاج إلى لقاح، والسر الذي في النخلة من سر الإنسان، ومنه قوله ﷺ:

«**أكرموا عمّتكم النخلة**[(١)]» وإذا اعتبرت وجدت ذلك السر ساريًا في جميع النباتات والحيوانات بل في جميع الجمادات، وفي جذب المغناطيس الحديد كفاية مع شهود الحس.

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/٣٩)، وقال الشوكاني في الفوائد المجموعة (٤٨٩):

رواه أبو نعيم عن علي مرفوعًا، وفي إسناده مسرور بن سعيد التميمي وهو منكر الحديث، وقال ابن عدي: إنه غير معروف، ورواه عن ابن عمر مرفوعًا وفي إسناده جعفر بن أحمد بن علي الغافقي وضاع، وقال ابن عدي: لا شك أنه وضع هذا الحديث.

قال ابن القيسراني في تذكرة الموضوعات (ص١١٥٣):

أخرجه البيهقي بسند جيد، وفي اللآلئ: هو لا يصح من أباطيل محمد بن الوليد، قلت: له شاهد موقوف على ابن عباس. وفي المقاصد سنده ضعيف.

لكل شيء مغناطيس

وبلغني أن لكل شيء مغناطيس يجذبه، وأن للفضة مغناطيس وللذهب مغناطيس وللشَّعر مغناطيس وللماء مغناطيس حتى أنهم ذكروا أن مغناطيس الماء إذا كان معلقًا حيال الماءِ الذي يجعلونه في الإناء يتصعد الماء إليه حتى أنهم يزنونه، فإذا تصاعد إليه وجدوا الحجر قد زاد قدر الماء، ومن هذه العجائب كثير، وذلك لأسرار خفية عن العقول يعلمها الله تعالى.

جذبَ القلوبَ بسرِّ مغناطيسِه   فَغَدتْ مُعرَّفةً وراحَ منكرَا

ومن استبصر وتفكر وتدبر رأى في عجائب المصنوعات وأنواع المخلوقات بالاختلاف في الأنواع والأجناس ما يتحقق به قوة اقتدار القادر وانفراده بالخلق والاختراع وحسن الصنعة وإحكام الحكمة ما يذهل عقله ويسلب لبه ويوقفه بالعجز عن معرفته وعن معرفة عجزه في معرفته.

فكيف بمعرفته من وجه من وجوه المعرفة إلا به؟ فكيف بكمال المعرفة به المستحيلة على البشر أن يعرفوه حقيقة معرفته فلا يعرفه غيره تعالى وتقدّس وارتفع وتنزه سبحانه وتعالى عن كل ما تدركه العقول وتكشفه العلوم وتحيط به الأفكار ويسبح في عالم الأطوار ومجاري الليل والنهار، خالق العقل والمعقول، والفعل والمفعول، والموجود والمعدوم، والشقي والشقيا، والرحمة والمرحوم.

﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**﴾ [الشورى:١١]، ﴿**نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾ [الأنفال:٤٠].

وقد قلت:

فيا سِرَّ سرِّ السرِّ من سَرَّ سِرَّه   يا منتهى الآمالِ يا غايةَ الكلِّ

إليك انتهى سرُّ القلوبِ جميعُها   إلى موطن ما فيه قلبي ولا عقلي

جذبت به كونَ الوجودِ بأسرِهِ   فكلٌّ له سمعٌ يجل على العدلِ

فكيف يساوي الرُّوح فيك فاتنًا   ولا كل ما في الكون في البعد والقبلِ

وأنت الذي أبديته قبل كونه فهَيهات لا مالي أرجو ولا أهلي
فغاية جَهدي بذلُ رُوحي فياهوى وجِد انتسابي في محبتكم قتلي
ومن أين لي رُوح فأختار بذلَها ولا حبره كلا ولا أنا من أجلي
فوَصلي قطع وانقطاعي تواصلٌ وفي الحق لا قطعٌ لدي ولا وصلي
تشاغلت عني في التشاغل فيكُمُ ولا شُغل مني في الحقيقة من شغُلِ
فها أنا مِتٌّ في الحقيقةِ ليس لي بغيرِك أحياءٌ ولا ميت قبلي
عُبَيدك أني إن تشاء أكُونُهُ فإن شئتني بين الأنام فمن مثلي؟

أهل الاستماع

وأهل الاستماع متفاوتون في الاستماع بحسب مواجيدهم في تجليات محبوبهم، والسامعون من الله تعالى عند استعداد القلوب وخلوها من الشوائب والأغيار في هذه الدار، ومن تلك الدار وجمعيتها لاستماع موارد الأنس؛ أذ لا يسمع في ذلك المقام من غيره ولا ينطق إلا به من وراء حجاب الخطاب وشواهد الأسباب، ولا فرق بين أن يسمع من صامت أو ناطق أو حيوان أو إنسان، فيسمع من نغمات الأطيار وتمايل الأشجار وتسليم الأسحار وحس الأوتار وصفير المزمار والبلابل والهزار، فلا يختلف لديه السماع ولا يفرق بين الطيور واليراع[١].

وحكي عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي -قدّس الله تعالى روحه[٢]- أنه كان رأى

(١) اليراع: يقصد به آلة مصنوعة من القصب، وهي ما تعرف الآن بالناي، والمزمار.

(٢) هو سيدي على أبو الحسن بن عبد الله السيد الشريف. زعيم الطائفة الشاذلية، نسبة إلى شاذلة، قرية بإفريقية. نشأ ببلده، فاشتغل بالعلوم الشرعية حتى أتقنها، وصار يناظر عليها مع كونه ضريرًا.
ثم سلك منهاج التصوف، وجد واجتهد حتى ظهر صلاحه وخيره، وطار في فضاء الفضائل طيره، وحمد في طريق القوم سُراه وسيره.
نظم فرقق ولطف، وتكلم على الناس فقرظ الأسماع وشنف، وطاف وجال ولقي الرجال.
أخذ عن ابن مشيش، وأبي سعيد الباجي.
قدم إلى الإسكندرية من المغرب، وصار يلازم بثغرها من الفجر إلى المغرب، وينتفع الناس بحديثه الحسن وكلامه المطرب.
=

النبي ﷺ في المنام وقال له: سلم على عبد العزيز بن عبد السلام، فذكر له ذلك، فربما حصل عند الشيخ عز الدين(١) من ذلك شيء، فحصلت بينهما وحشة، فاتفق اجتماعهما في مجلس وفيه سماع، فكلم القاضي الشيخ عز الدين وقال له: هذا الشيخ أبو الحسن رجل كبير القدر، وذكر ما ذكر من صدقه وعلو شأنه ليزيل تلك الوحشة التي بينهما، فقال الشيخ عز الدين: مهما قال المغني أو القوّال فهو حالنا أو قالنا وإذا بالمغني قد استفتح وأنشد:

صدقَ المحدّثُ والحديثُ كَماجَرَى ... إني أرى ألاّ أرى فيمَـــــا أرى

فقام الشيخ عز الدين إلى الشيخ الشاذلي وتعانقا وطاب الوقت.

فانظر رحمك الله تعالى إلى هذه الإشارة اللطيفة.

وحكي أن الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض رحمه الله كان إذا عمل بالقاهرة

=

وكان إذا ركب تمشى أكابر الفقراء والدنيا حوله، وتنشر الأعلام على رأسه، ويأمر النقيب أن ينادي: من أراد القطب الغوث فعليه بالشاذلي.. ونودي في سره: يا علي، أنت الشاذلي.

ثم تحول إلى الديار المصرية، وأظهر فيها طريقته المرضية، ونشر سيرته السرية. وكان يقرأ الشفاء وتفسير ابن عطية. أخذ عن العز بن عبد السلام. وله أحزاب محفوظة، وأحوال بعين العناية ملحوظة. وانظر: تعطير الأنفاس في مناقب سيدي أبي الحسن وأبي المرسي العباس لأبي الصلاح الوفائي، والمفاخر العلية لابن عياد، كلاهما ، ولطائف المنن لسيدي ابن عطاء الله.

(١) هو سلطان العلماء عبد العزيز بن عبد السلام. العلامة ذو الفنون.

وحيد عصره، عز الدين السلمي الدمشقي ثم المصري، شيخ الشافعية، وقدوة الصوفية، أمام عزّه دائم، وطائر فضله حائم، وبحر كمال موجه زاخر، وجوهر علومه فاخر. كان وافر التقشف، تارك التكلف، حسن الخلق، مهاب المنظر، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، عظيم الجد والمجهادة، احتلم في ليلة شديدة البرد، فجاء إلى جامدٍ فكسره واغتسل، فكادت روحه تزهق، ثم احتلم، ففعل مثل ذلك، فأغمى عليه وكاد يهلك، فسمع قائلاً: لأعوضنك بها عز الدنيا والآخرة؟ هذا وقد بلغ رتبة الاجتهاد، وقصد للأخذ عنه من أطراف البلاد.وله التصانيف المفيدة، والمناقب التي يبلى الزمان وهي جديدة، درس بدمشق وبها خطب، ورقى بمصر عند سكنه بها إلى أسمى الرتب، ولي الحكم بالديار المصرية، وحاز قصب السبق في ميدان طائفته العصرية.

وانظر: الكواكب الدرية (٥٢٧).

ومصر سماع ولم يحضره الشيخ شرف الدين بن الفارض لا يطيب، فاتفق أن شخصًا دعا الشيخ وعمل له سماعًا، وكان عند الشيخ قبض فانقبض الوقت لانقباض الشيخ، فتألم صاحب المنزل فقال له المغني الفصيح: تعطيني عشرة دنانير وأنا أبسط لك الشيخ؟ قال: نعم، فاستفتح المغني وأنشد:

لي بالحجـــازِ بقيـــةٌ خلّفتُهـــا أودعتُهـــا يـــوم الفـــراقِ مـــودِعي

وأظُنُّهـــا لا بـــل يَقِينًـــا أنّهـــا قَلـــبي فَـــإنّي لا أرى قَلـــبي مَعـــي

فقام الشيخ ابن الفارض وتواجد ومرّ لهم في ذلك وقت جليل.

وحكاية الشيخ يعيش عن الشيخ علي الحريري قد تقدمت في حديث القادوس وقوله:

قـــدْ مُلـــئَ القـــادوسُ بهـــم طويـــلُ ممتلـــئُ الـــرأسِ ودمعُـــه يســـيلُ

لـــه رفيـــقٌ بقليـــلٍ يســـبقونَا لـــه سَـــنتين يجـــري ومـــا يَلحقُونـــا

قام الشيخ علي وتواجد ليله أجمع يقول: لي سنتين أجري وما ألحق.

وحكاية خير النسّاج[١] لما قال له ذلك الشخص الذي هرب غلامه: أنت

---

(١) هو أستاذ الجماعة، وكان ممن أقام دولة الصوفية وقام بنصرها، وقعد بالمصلحة في نفع أمرها، وأقيمت به دعواتها، وعزت بعزمه ذروتها.

وكان عظيم المراقبة، كثير الأدب والمجاهدة. أخذ عن السري وتلك الطبقة العالية، ودخل جنة المعارف وجنى قطوفها الدانية من أشجارها العالية.

وكان له حظ وافر في الكرامات، وتاب في مجلسه الشبلي والخواص لما أبصرا فيه الخوارق والآيات، وأصله من أهل سامرا ثم سكن بغداد.

وكان شديد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. مات سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة عن نحو مائة وعشرين سنة ، فهو من أقران الثوري وطبقته، لكنه عمّر طويلاً، فلذلك ذُكر في طبقته، وإن تأخرت وفاته إلى أهل القرن الرابع. وانظرك الكواكب (٢٤٦).

عبدي وهربت مني، فلم يرد عليه قوله لأنه كان يسمع من الله تعالى، فأخذه ذلك الشخص واستعمله نساجًا،ولم يكن يدري ذلك قبل ذلك اليوم، فعمل له في ذلك مدة وكأنه كان يعمل فيه طول العمر والرجل يعتقد أنه عبده لما ألقى عليه من شبهة لوجه الاختبار في حق خير النسّاج وبذلك سمي خيرًا النسّاج، ولم يكن نساجًا قط قبل ذلك، فلما أراد ذلك الشخص أن يعطله عن أوراده زال الشبه عنه فأصبح فوجده على باب داره فقال له: يا أخي، رأيت غلامي خيرًا؟ فعلم حين ذلك زوال الشبه وحقيقة الاختبار وقال: اسم سماني به رجل مسلم لا أتركه، فسمي به حتى مات رضي الله عنه.

وحكاية الذي سمع: أيا راهبي نجران ما فعلت هند.. وما حصل له من ذلك من الاعتبار لما فعل به في الأزل والقضاء الأول.

والناس على طبقات في السماع في طرقهم إلى الله تعالى حتى في قول الفَوَّال: (الفول الحار)، وفي قول الصبَّان: (صابوني ردي ردوني)، وكل واحد بحسب وجدانه في سماعه، وقد قلت:

إذا كنتُ للقربِ لا أصلُحُ	وقلبي لغيرِك لا يصلُحُ
ولا مهجتي تبتغي مفلحًا	ولا أتاني مطلبي أفلحُ
فقل لي إلى من ترى رجعي	وأى المناهجِ لي أجنحُ
فَمَن لي سواكَ ومن أرتجي	ومن ذا سواك بهِ أفرحُ
فَمَا كان غيَرُكَ لي محزنٌ	ولاَ كَان غيرك لي مفرِحُ
ولاَ حُسنُ بعدِكمُ راقَ لي	ولا شَيء لي منكمُ أملحُ
فإن تَطردوني عن بابِكم	رجِعتُ إليكم وما أبرحُ
يمتدُّ كلُّ حالٍ مَتى شئتمُ	رُجوعي إليكم به أنجحُ

وحكي أن الشيخ عبد الرحيم -قدس الله روحه- كان يقول في آخر دعاء يدعو به: على من تكلنا وإلى من تردنا؟ تولنا كيف شئت، ربما قال ساخطًا أو راضيًا، وذلك أنه رضي الله عنه لم يجد غيره فيرمي كَلَّهُ عليه ولا له سواه فيرجع إليه، فطلب أن يتولاه مولاه كيف شاء.

سَمَاع النسَاء

وحكى لي الشيخ عبد العزيز رحمه الله قال: كنت يومًا بجامع مصر، وابن الفارض بالجامع وعليه حلقة، فقام شاب من عنده وجاء عندي وقال لي: جرت لي مع الشيخ حكاية عجيبة -يعني ابن الفارض- فقلت: وما ذاك؟ قال: دفع لي دراهم، وقال: هات لنا بها شيئًا للأكل، فشريت ومشينا إلى الساحل فنزلنا في مركب حتى طلعنا إلى البهنسة، فطرق بابًا فنزل شخص وقال: بسم الله فطلع الشيخ وطلعت معه، وإذا نسوة بأيديهم الدفوف والشبابات وهن يغنين له، فرقص الشيخ إلى أن انتهى وفرغ، ونزلنا فسافرنا حتى جئنا إلى مصر، فبقي في نفسي: كيف رقص الشيخ على غناء النساء؟! فلما كان في هذه الساعة حضر ذلك الشخص الذي فتح له الباب وقال له: يا سيدي، فلانة ماتت..

-وذكر واحدة من أولئك اللاتي كن يغنين له- فطلب الحجري فقال له: نشتري جارية، وربما قال: تصلح لهذا، ثم مسك أذني وقال لي: لا ترجع تنكر على الفقراء، أو قال: لا تعترض على الفقراء، جميع من رأيت ذلك اليوم جواري.

قال الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى-: بقي عليه أنه لو أخبره بذلك خشية ألاّ يموت ذلك الشاب بسوء ظنه فيه، والذي أراه أن الشيخ ابن الفارض ﵁ إنما ترك إعلامه في ذلك الوقت إلا لمصلحة رآها من ظهور البينة، والدليل القاصد له مع كشفه باستمرار حياة المنكر عليه إلى وقت ظهور البينة، كما جرى ليوسف الصديق ﵇، والظاهر أنني قلت ذلك للشيخ عبد العزيز ﵁ في ذلك الوقت.

وأخبرني الأمير مجير الدين بن شجاع الدين المعروف بابن اللمطي[1] عن الشيخ تقي الدين القشيري ﵁ أن سماع النساء ما كان عنده أمر كبير، وربما قال لي إنني سمعت أنا وفلان شيئًا غاب عني، وقلنا للشيخ ذلك فما أنكره، وعلى الجملة فالإنكار على الطائفة المنسوبة إلى الله تعالى المعروفة بالصلاح من علامات الشقاوة، نسأل الله تعالى العافية في الدين والدنيا والآخرة.

كلٌّ على طريق الحق

---

(١) كان أديبًا منشدًا متصوفًا، وانظر: الوافي بالوفيات للصفدي (٥٢٢/١).

وحكى لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- قال: كان ملك من الملوك يعتقد في شيخ من المشايخ، وكان الشيخ يأمره بزيارة رجلين من المشايخ، فحضر ذات يوم وعنده شيء فقال له الشيخ: مالك؟ فقال: يا سيدي، ألست تقول فلان رجل صالح؟ قال: نعم.. قال: فلان قال لي كذا وفلان قال لي كذا- كلام يخالف كل واحد منهما صاحبه فيه..

فقال له: يا ولدي، كم لك جوارٍ وحظايا؟ فقال له كثير، قال له: خذ هذا المنديل، وأعطاه الشيخ منديله، وقال له: إذا كان الليلة تجلس عند كل واحدة منهن وتلاطفها وتظهر لها الوداد والمحبة ما تمكنك وتدفع لها شيئًا مما معك ليكون أمارة لها بذلك، فإذا فرغت منها أبرم عليها هذا المنديل، فإنها تنام، وافعل بكل واحدة منهن كذلك، فإذا أصبحت اجلس بمكان تراهن حتى يخرجن ويجتمعن فيه فاسمع ما يقلن ثم احضر وأخبرني به.

فقام من عند الشيخ، فلما كان الليل جلس عند كل واحدة منهن وفعل ما أمره به الشيخ وأعطى لكل واحدة منهن شيئًا من لباسه،كخاتمه لواحدة ومنديله لأخرى وحياصته[1] لأخرى، وكذلك الجميع، لم يترك واحدة منهن ما أعطاها شيئًا تستدل به ويكون لها أمارة على حبه لها وقربه منها.

ثم أصبح بعد أن فرغ من الجميع وجلس في مكان يشرف على تلك الحظايا والسراري، وإذا واحدة منهن قد خرجت وأخرى قد خرجت فصبّحتها، وكل واحدة منهن عليها من السرور والبهجة أمر كبير، فقالت الواحدة للأخرى: يا فلانة، هل رأيت قط مثل هذا السلطان سلطاننا؟ والله كان عندي البارحة وجرى لي معه كيت وكيت ورأيت منه كذا وكذا، هذا خاتمه معي.. قالت لها تلك: والله ما كان إلا عندي وجرى لى معه كيت وكيت وكذا وكذا، وهذا منديله معي.. فقالت الثالثة: والله كذبتما، والله ما كان إلا عندي وجرى لي معه كيت وكيت، وحياصته معي، ثم خرجن جميعًا، وكذبن بعضهن بعضًا وتقاضين، وراحت كل واحدة منهن إلى مكانها متقاضيات.

فحضر إلى الشيخ وحكى له جميع ذلك، فقال له الشيخ: فهل كذبت واحدة منهن؟ قال: لا قال: أليس الكل على الحق؟ قال: نعم فقال له: يا ولدي، اعلم أن الله تعالى يتعرّف

---

(١) هو سير كان يُركّب في الحِزام.

إلى كل واحد تعرفًا لا يعرفه غيره، فالكل على الحق، وكل منهم على طريق الحق.

آثار الصفات بحسب الموصوفين

فصدق الشيخ ﷺ فإن تعرّفات الله تعالى إلى عباده غير محصورة في شخص ولا في طريق؛ لأن آثار الصفات بحسب الموصوفين بها، وطريق الرجاء غير طريق الخوف في حق السالكين، وأثر الرحمة غير أثر الغضب، ألا ترى أن الأنبياء -صلوات الله عليهم وسلامه- اختلفت طرقهم في الإرسال والمرسل واحد فيحرم هذا ما يحلل هذا؟

وحكى الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- أن أحد الملوك جاء إلى شيخ من المشايخ فسأله المطر، فقال له الشيخ: ما رأيت في الخزائن مطرًا، أأدعو لك الله تعالى بالمستحيل؟

فخرج الملك من عنده وأتى إلى شيخ آخر فسأله المطر فدعى له، فخرج من عنده يخوض في المطر، فجاء الملك إلى شيخه الذي يعتقده وقال له: يا سيدي، رحت إلى الشيخ فلان وسألته أن يدعو لي بالمطر فقال لي: ما رأيت في الخزائن مطرًا، أأدعو لك الله تعالى بالمستحيل؟ ثم رحت إلى فلان وسألته أن يدعو الله تعالى لي المطر فدعى لي فما خرجت من عنده إلا وأنا أخوض في المطر..

فقال له الشيخ: الذي قاله الشيخ الأول صحيح؛ لأن الخزائن التي أطلعه الله تعالى عليها ما كان فيها في ذلك الوقت مطر، وكم لله من خزائن ما أطلع الشيخ عليها.

وليفهم من ذلك ما يتعدى من الكشف وما ينحصر، كما اتفق للذي أرسله بسجاد إلى أحد المشايخ بالحزب، فراح يسلّم على شيخه ويودعه، فقال له: لا ترح فيأخذك الفرنج، فسافر، فخرجت عليهم الفرنج وأخذوا المركب وأسروه، ثم إن المركب وقف ووقف الريح عليهم فقيل للفرنج إن هذا بسبب ذلك الفقير فلن تقدروا أن تسافرو أو تطلقوا المركب، فأطلقوا المركب حتى إنهم ما قدروا يسافروا حتى فتشوا على شيء يسير بقي لهم ردوه.

فجاءتهم الريح وسافروا ووصل عند الشيخ وأعطى السجاد الذي أرسله شيخه إليه، فقيل له في ذلك فقال: يا ولدي، كشف الشيخ اقتصر على أخذ المركب، وكشف الذي أعطى السجادة تعدّى ذلك وكشف خلاص المركب ووصولك بالسلامة.

وحكى الشيخ عبد العزيز عن فقير قال كنت قاصدًا زيارة الشيخ أحمد بن العجيل[١] باليمن، وكنت راكبًا فسقطت من على الدابة، فسمعت صوتًا يقول: بسم الله عليك، بسم الله عليك، وكان في ذلك الوقت زوج الشيخ أحمد بن العجيل عنده، وهي صاحت بسم الله عليك، فقال لها الشيخ: إيش بك؟ فقالت: فقير جاء إلى زيارتك وسقط من على دابته وأنا قلت بسم الله عليك بسم الله عليك، قال: فدخلت على الشيخ فقال: إيش اتفق لك في الطريق؟ فقلت له: يا سيدي، سقطت من على الدابة، فإذا بي أسمع صوتًا يقول بسم الله عليك بسم الله عليك وحُملت، فقال: هي الفقيرة أبصرتك حين سقطت، وفي حسن الظن سلامة الدنيا والآخرة.

وحكى لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى-أن ملكًا من الملوك كان يعتقد في شيخ من المشايخ، وكان عند الشيخ فقير معتبر صاحب همّة وتصريف، فنظر الملك ذلك الفقير يقبّل جارية الشيخ.

فأتى إلى الشيخ وقال له: يا سيدي، أنت تقول أن فلانا رجلٌ صالح؟ قال: نعم قال: فإني رأيته فعل كذا وكذا، فقال الشيخ: اطلبوا فلانًا فطلبوه، فقال له: يا ولدي، أنا كنت أعرف فيك تصريفًا، وقد اشتهيت المشمش، وكان هناك شجرة غير طارحة، وهو غير أوان المشمش. فأشار الفقير إليها فأثمرت في وقتها، وأخذ المشمش منها ووضعه قدّام الشيخ قال له: فإني كنت أعرف فيك طيران، ولي حاجة في ذلك الجبل، وسمّى حاجته قال:

فانجمع ذلك الفقير وطار إلى الجبل وأتى بحاجة الشيخ، فقال الشيخ للملك: هذا هو الذي رأيته، قال: لا.

التَّوبة تجبُّ ما قَبلها

(١) هو أحمد بن موسى عجيل اليمني.الفقيه الكبير الزاهد الشهير، المجمع على إمامته وولايته، وتفرده عن أقرانه، وتميزه بين أهل زمانه.

كان عارفًا بالفقه والأصول والنحو والحديث والتصوف وغيرها، زاهدًا عابدًا، وربما سئل عن سماع الصوفيه فقال: إن أبحته فلست من أهله، وإن أنكرته فقد سمعه من هو خيرٌ مني.

وانظر: مرآة الجنان (٢٠٩/٤)، روض الرياحين (٣٢٩)، طبقات الخواص (١٣).

وذلك أن الخصائص الوضعية لا يشوبها النقائص الكسبية، والقبلة صغيرة، والتوبة تجبُّ ما قبلها من الصغائر والكبائر، والعصمة لا يتحدى بها إلا الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، فليس العصمة شرط في الولاية لأنهم دعاة بواطن وأسرار، والأنبياء -صلوات الله عليهم وسلامه- دعاة علانية وإظهار، فيجب ظهور المعجزة والتحدي بها شرط في النبي لقيام الحجة على المعاندين والكفار.

وحكى لي الظهير موسى بن الصباغ عن الشيخ عبد الغفار ابن بنت الشيخ أبي الحجاج الأقصري قال: كنت أخدم الشيخ جبريل -رحمه الله تعالى- قال: فنزل ليلة في البيت فنزلت خلفه، وجاء إلى البحر ونزل فيه وغطس طويلاً حتى ظننت أنه غرق، ثم رفع رأسه وطلع وطلع الماء خلفه، وبقي يطلع والماء يطلع خلفه، فقلت: يا سيدي، ما هذا؟ فقال: يا ولدي، ما أعلم إلا أنني كنت نائمًا فإذا بقائل يقول لي: قم إلى البحر، وانزل واغطس وادعُ بهذا الدعاء.. فقمت وجئت وغطست وطلعت فقلت: يا سيدي، فما هو الدعاء؟ قال: والله ما رفعت رأسي وعندي كلمة أو ما عرفت منه كلمة.

وحديثهم كلهم عجب.

بنّان الحمّال[١]

وحكى لي الزاهد عمر بن عبد النصير القوصي عن الشيخ أبي عبد الله الأُسواني قال: قال لي الشيخ عبد العزيز العجمي الدندري -ولم يكن من دندرا، وإنما أقام بها فكان يسمى بها رحمه الله تعالى- قال: تعرف بنان الحمّال؟ فقلت: نعم، كان يحمل العجار والصغار يجرون خلفه ويرجمونه بالحجارة وينبشوا أبويه فقال لي: ذلك والله القطب قطب الزمان.. وقد

(١) هو الإمام المحدث الزاهد شيخ الإسلام أبو الحسن بنان بن محمد بن حمدان بن سعيد الحمال، الواسطي، نزيل مصر، ومن يضرب بعبادته المثل، حدَّث عن الحسن بن محمد الزعفراني والحسن بن عرفة وحميد بن الربيع وطائفة، حدث عنه ابن يونس والحسن بن رشيق والزبير بن عبدالواحد الأسداباذي وأبو بكر المقرئ وجماعة، وثقه أبو سعيد بن يونس، صحب الجنيد وغيره، وكان كبير القدر لا يقبل من الدولة شيئًا، وله جلالة عجيبة عند الخاص والعام. فهو من جلة المشايخ والقائلين بالحق والآمرين بالمعروف له المقامات المشهورة والآيات المذكورة.

وانظر: سير أعلام النبلاء (١٤/٤٨٨)، والرسالة القشيرية (ص٤٠)، وطبقات الصوفية (٩)، (٢٩١)، وطبقات الشعراني (١/١٣٢).

قلت:

قـــومٌ تـــرى أحـــوالَهم مجهولـــةً	في كـــلِّ حـــالٍ في الـــورى لا يَعرفُـــوا
فصـفاتُهم خـيرُ الصـفاتِ ونعتُهم	خـيرُ النعـوتِ وهـم بهـا لا يوصـفُوا
يحسـبُهم الجهـالُ أهـلَ جهالـةٍ	وهمـــو لتحقيـــقِ الفضـــائلِ أعـــرفُ
في مهنـةِ الأعمـالِ أخفَـوا حـالهَم	ومقـــامُهم فـــوقَ المعـــالي يَشـــرُفُ
يتحملـون الكـلَّ مـن كـلِّ الـورى	وإذا رأوا ثِقَـــــلاً بقـــــومٍ خففُـــــوا
لا يكرمـــون ويرجمـــون إهانـــةً	وعـــن الإهانـــةِ والأذى اســـتنكفوا
فبهم يُحلُّ الغيثُ في وقتِ الرَّدى	وعـــن البريـــةِ للبلايـــا يُصـــرفوا
فالقطـبُ والبـدلُ الفريـدُ وأعـينٌ	مـنهم كـذا الأوتـادُ مـنهم يعطفـوا
والأوليـاء تحجَّبـوا عـن وصـفِهم	مَـــا فـــيهِم مـــنهم وليٌّ يُعـــرفُ
يـا ربُّ فـاجعلني بحبِّـك مـنهُمُ	كـى أقتفـيَ في قصـدِهم مـا يقتفـوا
زهـدًا عـن الكـونين حقًّـا وحقُّهـم	وعـــن المعـــالي في الأنـــامِ تعففـــوا
لا يرتضـون سِـواك أنـت حبيبُهم	نُســـبوا إليـــك فعُـــزِّزوا وتشـــرفوا
صـرفوا بحبِّـك عـن سـواك قلـوبَهم	فلأجـلِ ذلـك في الوجـودِ تصـرفوا
لـو يسجُدون على الجحيم تأبُّدًا	في بعـضِ مـا أوليـتهم مـا أنصـفوا
وعبيـدك المسـكين أحـقّ أن يُـرى	مـــثلاً لهـــم في فعلهـــم إن لم يفـــوا
فبحـق جُـودِك جـد لـه بمحبـةٍ	يـــا مـــن إليـــه المنتهـــى والموقـــفُ
ودُم الصـلاةَ تخـص محضًـا للـذي	مـــن إرثِـــهِ كـــلُّ المعـــارفِ تُعـــرَفُ

أحـــوال الأوليَـــاء

والأولياء منهم من يتستر ومنهم من يظهره الله تعالى لما يختاره فيه ويكون هو سليب الاختيار.

ومنهم من يجري الله تعالى على لسانه وجوارحه ما يريد فعله في خلقه، فمنهم من يعلم ذلك ومنهم من لا يعلمه إلا بعد وقوعه، وهو حال من أحوال السالكين.

ومنهم من يؤمر بما يقول ويفعل، ومنهم من يكشف له الكون جملةً وتفصيلاً، وما سيكون قبل أن يكون من المحدثات في العالم كما حكي عن الشيخ أبي الحسن بن الصباغ أنه كان يخرج على أصحابه ويقول: أفيكم من إذا أراد الله تعالى أن يحدث في العالم حدثًا أعلمه به قبل حدوثه؟ فيقولون: لا فيقول: ابكوا على قلوب محجوبة عن الله تعالى.

المُستترون الأخفياء

ومن الأقطاب من لا يعرف ويستتر في بعض الأعمال وأحوال المجانين، كبنان الجمّال وغيره، ومن العارفين كذلك كقضيب البان وغيره ممن ظهر في زي المجانين والمولهين.

وحكى لي عثمان الأقصري عن الشيخ أبي العباس الملثم رحمه الله تعالى، أنه كان قبل أن يعرفوه يقف على المكان ويتمنى ويقول: تمنيت درهم، فإذا أعطي الدرهم تصدّق به على الفقراء، وكانت له أحوال وتصريفات عظيمة حتى أنه قال لي ذات يوم -أعني الشيخ أبا العباس- إذا جئت معي إلى وادي سرنديب بشرط ألاّ تعود إلى أهلك تنظر كل شجرة بما فيها من المنفعة ويخاطبك ما في الوادي من الثمار والأشجار -وهو وادٍ كثير الحيّات والسباع- وذكر لي أن هناك جبل عقيق، وأن هناك بحرًا أحمر وليس ماؤه أحمر، وإنما هو من حمرة ذلك الجبل، وذكر فيه من الغرائب والعجائب كثيرًا.

كنـــوز الأرض

وأخبرني الشيخ أبو الطاهر إسماعيل بن عبد المحسن المرائغي- رحمه الله تعالى- عن الشيخ عبد العزيز العجمي- وكان يسمى الدندري لإقامته بها- أنه اطّلع على كنوز الأرض، وأنه قال له أن بأُسوان مكان فيه سبعة أرادب ذهب، وذكر أنه اكتالها، وأنه لم يؤذن له بأخذ شيء منها سوى سبعة دنانير، ولم يؤذن له بإطلاع أحد عليها.

وقال لي الشيخ أبو الطاهر إن الشيخ عبد العزيز كان يطعمنا الحلاوات والأطعمة الطيبة ومع ذلك لم يعترض عليه أحد، فهم يظهرون في مظاهر المسكنة

والاحتياج تارة تكتمًا وتسترًا عن اطلاع الخلق عليهم وتارة اختيارًا وإذلالاً لنفوسهم بين يدى ربهم وشكرًا لنعمه عليهم؛ لأن من الشكر إظهار الذل لله تعالى والافتقار إليه عند الاستغناء به عن الخلائق، وتارة يجذبون الخلق إلى الله تعالى فيما يعطوهم إياه، ويحصل الثواب لهم من شفقتهم على خلق الله تعالى.

وفي ذلك ما حكاه لي الشيخ عبد العزيز الشريف المنوفي -رحمه الله تعالى-قال: كان بالإسكندرية شخص توفي وخلف لولده ألف دينار -وسما الولد المذكور وغاب عني اسمه- فبنى بالألف دينار دارًا للفقراء وأوقفها عليهم، وجعل يدور بالزنبيل ويطعم الفقراء والناس يكرهون منه ذلك.

فمنهم من يقول كان يستغني عن السؤال بما أعطاه الله تبارك وتعالى.

ومنهم من يقول كان يبني دارًا بخمسمائة دينار ويطعم الخمسمائة.

وبقي على ذلك سنينًا، ثم إنه لم يكن يروح من عنده شيء ولو كانت حصاة ملح، فقيل له في ذلك فقال: والله ما أشتهي أن أفارق أحدًا إلا أن أثبت له حسنة..

فحصل له بعد ذلك إقبال عظيم من الناس، فجلس في بيته، وكان له حمار، فجعل الخادم عليه القفاف وأوعية الزيت ويطلقه وفي عنقه جرس، فما يجيء الحمار إلا وقت الحاجة إليه، فينزل الخادم يجد في القفاف الخبز واللحم والدراهم والزيت وجميع ما يحتاجونه، فيحط عنه ويعلفه، فلم يزل كذلك حتى مات الفقير صاحب الدار، فبقي الحمار يخرج على عادته ويأتي الفقراء بالوظيفة حتى مات الحمار، فلم يتركه الفقراء للكلاب يأكلونه، بل كفنوه ودفنوه.

وأخبرني الشيخ عبد العزيز أنه حضر في تلك الدار ذات يوم، وقد جرى بين الفقراء ما جرى من عادتهم وإنصافهم بعضهم بعضًا، فوقف الفقراء ينصفون وخلعوا دلوقهم، وكان في الدار طيرًا من الطواويس، فالتفت الطاووس إلى ذنبه، وقلع ريشة منه، ومشى بها حتى وضعها على خرق الفقراء، فحصل بذلك وقت عظيم، واشتراها شخص بمال جزيل ووصى أن توضع في كفنه إذا مات وقد قلت:

قوم لهم كل مُلكٍ دون رتبتِهم ... لكنهم ظَهَروا في زيٍّ مسكين

لا يسـكنون بـأرضٍ يُعرَفـون بهـا ولا يُقيمـونَ في حـالٍ بتعيـين

رضَـوا مـن العـيش في الـدنيا بأيسـرِهِ وقَنعـوا الـنفسَ في الملبـوس بالـدونِ

كـان الفقـرُ عيشَـهم والـذلُّ عـزَّهم وهـم مـع الفقـرِ أغـنى مـن سـلاطين

ومـا مـنهمُ غـيُر صـبٍّ في محبتِـه وعاقـلٌ قـد بـدَا في زيِّ مجنـونِ

يـراهم النـاس جُهـالاً بمسـكنةٍ وهـم مُلوكُ الـورى في المـالِ والـدينِ

وهكذا كل من رتبه جليلة في الدنيا كالخلفاء والملوك والأمراء يتجسسون ويظهرون بخلاف حالهم الذي هم فِيه لمقاصد لهم وأمور لا تقف بها غيرهم.

لمحات من سيرة الفاروق

فكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته يطوف بالليل ويطلع على أحوال المسلمين وضروراتهم فيقوم فيها بما يجب عليه ويكشف ضروراتهم وقد كان ليلة من الليالي يمشي في المدينة وهو يسمع امرأة تقول:

ألا هـل سَـبيل إلى خَمْـرٍ فَأشـرَبُها أم هـل سبيل إلى نَصـر بـن حَجـاج

فأصبح وطلب نصر بن حجاج وكان نصر شابًا جميل الصورة وله شعر، فأمر بحلاقة شعره، فظهر في الحلاقة أحسن ما كان في الشعر فأخرجه من المدينة ولم يرجع إلى المدينة حتى طلعت لحيته.

وكان ليلة أخرى يمشي بالليل بالمدينة فوجد امرأة أرملة وعندها أطفال لها وهم يشكون من الجوع وهي تشغلهم وقد علقت على النار قدرًا ليس فيها غير الماء لتشغلهم بذلك عن الجوع، فراح أمير المؤمنين وحمل على عنقه الدقيق والحطب وأوقد النار وجعل ينفخ تحت القدر حتى احترقت بعض لحيته من نفخ النار رضي الله عنه ومكث حتى أكل الصبيان وضحكوا ولعبوا، فسئل عن ذلك فقال: كرهت أن أتركهم إلا وهم يضحكون كما كانوا يبكون.

هَـــارون والرعية

وقد كان هارون الرشيد في خلافته يتجسس ويظهر بزي التجار ويمشي في الأسواق ليطلع على ما يصل إليه من غيره ولا يشفيه سواه حتى اتفق له ما اتفق من أمر البرامكة وسمع ما سمعه في ذلك من ذكر أخيه العباس حتى آل أمر البرامكة معه إلى ما آل إليه ولا حاجة لنا في ذلك.

وكذلك أكثر الملوك أرباب الهمم العالية يفعلون ذلك، وكذلك جرى لعمرو ابن العاص ﵁ وغيرهم.

محمّد المصْري

وحكى لي الصاحب تاج الدين -رحمه الله تعالى-قال: لما توجهت في صحبة الملك الظاهر إلى الشام ودخلنا دمشق كنت ألبس في الليل ثيابًا غير ثياب الوزارة -أو قال أخرج على زي القوم- وأدخل الجامع بدمشق أجلس عند الفقراء، فإذا كانت لهم حاجة في السوق أقضيها لهم، وكانوا يسموني محمد المصري، وكانوا يرسلوني أشتري لهم الناطف(١) وكيزان الماء.

فبقيت على ذلك خمسة وعشرين يومًا. قال: وكان يأتي للفقراء شخص من المسجد بطّال، وهؤلاء البطالون يظهرون أسرار الناس، فاتفق أن الفقراء قالوا له يا فلان، أنت إلى الآن بطّال -أو كلام هذا معناه- فقالوا له: لم لا تروح إلى هذا الوزير الذي مع السلطان؛ فإنه رجل جيد وفيه الخير ويحب الفقراء؟ فقال لهم: وإيش يوصلني إلى الصاحب؟ إن كان راكبًا فهو في زيارة الصالحين ولا أصل إليه، وإن كان جالسًا فالحُجّاب ودست الوزارة وما أنا من هذا القبيل -أو كلام هذا معناه- فقال الصاحب: فقلت له اكتب لي قُصة؛ فلي صاحب يعرف الوزير فقال: خلّني أو يا صاحبي، تحدث لي فلان وفلان وما حصل لي شيء، فقال واحد من الحاضرين: اكتب له قصة، يوجد في الإسقاط مالاً وورقة بفلس قال: فكتب لي قصة وجعلتها في جيبي، فلما أصبحت

(١) هو نوع من الحلوى.

أحضرت الدواوين -وربما قال طلب الحُسّاب وكل من كان متعلقًا بالخدم من الفروع والأصول، وسألت عن كل جهة ومن هو المباشر لها، وسألت عن ذلك الشخص الذي القصة باسمه فقضي الشغل.

وفي الليل جئت إلى الفقراء على العادة، وإذا بالرجل قد حضر فقال: خلّني أبوس وجهك، فقلت له لأى شيء؟ فقال: ما صاحبك إلا كبيرًا أو كلام هذا معناه، فقلت له: وإيش جرى؟ فقال أول ما جلس الصاحب ذكرني وتحدث في الأمر، قال: وكان هذا المذكور يصحب شخصًا من أصحابي الذين يعرفوني فاجتمع به وقال له: جرى لي كذا وكذا، وتحدث الصاحب في أمري فقال له: ومن الذي تحدث لك مع الصاحب؟ فقال له: شخص يسمى محمد المصري يحضر عند الفقراء في الليل ويقضي حوائجهم، قال: إنَّ له صاحبًا يعرف الوزير، فقلت له: تحدث لي فلان وفلان وما عمل لي شيئًا فقال: فلان يوجِد في الإسقاط ما لا يوجَد في الإسقاط- وكما قال، هل ذكر ذلك أم لا، الله تعالى أعلم- فقال له: صف لي هذا الرجل، فوصف له صفتي فعرفني ذلك بالوصف فقال له: ذلك ذاك والله هو الصاحب نفسه.. قال: فخاف ذلك الرجل، وحضر ذلك الذي يعرفني وأخبرني بالصورة فقلت له: خذه وأحضره إلي، فأحضره وأكرمه.

فانظر رحمك الله تعالى إلى هذه الفضيلة في محبته لهذه الطائفة رحمه الله تعالى، وكذلك يكون كل محب لك في محبة محبوبه كل نوع من التوصّل إليه كما قيل:

نسيتُ كلَّ طريقٍ كنتُ أعرفُها ... إلاَّ طريقًا يودّيني لربِّكُمُ
وَأنتم أنتم في القَلبِ وَحدكُمُ ... وَكُلُّ كلِّي مشغولٌ بكلِّكُمُ

وكل طالب في طلبه وقاصد في مقصده ومحب في محبته على قدر همته في كل نوع من الأنواع وجنس من الأجناس.

مُروءة

كما حكى لي أبو القاسم بن عثمان الأقصري قال: لقيت شخصًا -أو قال صحبت شخصًا- فرأيت على زنده تحليق كى نار كالأسورة، فسألته عن ذلك فقال لي: كان لي والد وعم وهما تجار، وكان كل واحد منهما يسافر إلى اليمن سفرة ويقيم

الآخر بالإسكندرية، هكذا كان شأنهما -أو كما قال سفرة بسفرة - فزوجني أبي بابنة عمي، وسافر هو وعمي وتركاني بالإسكندرية وعندي زوجتي، وأنا أقفل الباب إذا خرجت لحاجة، فبقيت كذلك- وربما قال إنه كان يحبها- فاتفق أني خرجت يومًا لصلاة الجمعة وجئت لم أجد زوجتي، فاشتد ذلك علي، وقلت للجارية أو الوصيفة: أين ستّكم؟ فقالت: خرجت ولا نعلم، أو قالوا كلمها إنسان وهي في الطاق.

قال: فخرجت لا أعلم ما أصنع، ولا لمن أقول، ولا أى جهة هي فأطلبها، وماذا أقول لأبي وعمي إذا وصلا؟ وقد يقول أبوها إني قتلتها، ويقول أبي إذا لم تحفظ زوجتك أى شيء تحفظ؟

وبقيت لا آكل ولا أشرب، وكان لنا جار خياط كان أبي يأنس إليه، فلما رآني ورأى حالي متغيرًا قال لي مالك؟ فقصصت عليه القصة فقال لي لا تتغيب ولا تقول لقاضٍ ولا لوالٍ ولا لأحد، هذه ما أخذها إلا الإفرنج، فإنه سافر بعد صلاة الجمعة مركب من الإفرنج إلى عكّا، فهذه واعدها أحد، أحبته وراحت معه، فقلت له: وكيف الحيلة؟ فقال لي: ما ثَمَّ حيلة إلا أنك تخاطر بنفسك وأنا أكتب لك كتابًا إلى صاحب لي يسمى الحاج عثمان له سنين كثيرة هناك، وهو معروف بالخير عندهم ودكانه بالموضع الفلاني في الجهة الفلانية، تدفع له كتابي، ومهما قال لك تعتمده فإن تمت وحصل لك مقصودك فهو المطلوب، وإن كانت الأخرى فهي رُوحك ورُوح الحاج عثمان ورُوحي معكما، فقلت له بل أخاطر بروحي وأروح.

قال: فكتب لي كتابًا، وسافرت إلى عكا، واستقصيت على الدكان حتى وصلت إلى الحاج عثمان، فقرأ الكتاب وقال لي: يا ولدي، اجلس عندي على هذا الدكان، فإنها إن كانت أخذت إلى هنا وجاءت فهي تمر علينا هاهنا، وإذا رأيتها فاحذر أن تتكلم أو يظهر عليك تغيُّر فتروح روحي وروحك وروح الخياط، قال: فجلست عنده، فبينما نحن جلوس وإذا هي قد جازت بين اثنين شابين وهي سكرانة تتمايل وشعرها منشور- وربما قال مكشوفة الرأس- وهما كذلك، فكادت روحي تفيض حينذاك.

فلما رآني الحاج عثمان قد تغيرت دفعني إلى داخل الدكان ثم قال لي: أما قلت لك؟ وزجرني وقال لي: هؤلاء مماليك السلطان، وما فيهم حيلة إلا أنني أخاطر بروحي

وروحك وروح صاحبي الخياط، أو كما قال لي: ألك قوة على ما أقول لك؟ قلت نعم، قال: فصبر علي إلى وقت كبير من الليل، وأعطاني سكينًا، وأخذ معه كفة بها ميقاط[(١)] فيه دَرَج، ومشى معي إلى البيت الذي هم فيه وقال لي: اجعل هذه الكفة في رأس هذا الحائط، واطلع إلى السطح، وامش مشيًا لطيفًا، وإذا جئت إلى الدرج ضع يدك على صدر الدرجة السفلى تأخذ منها صفائح نحاسًا خفافًا، يجعلونها كذلك حتى إذا نزل أحد سقطت تلك الصفيحات النحاس فيمسكونه، حتى لو نزل القط يعرفون به، فتأخذ من كل درجة قبل أن تضع رجلك عليها، فإذا وصلت بالقرب منهم، فإن كانوا قد سكروا وناموا فادخل اذبحهما وخذ زوجتك وتعال، وإن كانوا ما ناموا فتبقى متسترًا حتى يناموا، وإياك أن تنظر إليهما وهما على تلك الحال من الشرب وغيره فيحصل لك شيء مما حصل لك فتروح روحي وروحك.

فأشبكت الكفة في الحائط، وسبقت إلى السطح، وجئت الدَّرج وفعلت ما قال لي، فوجدت الصفائح النحاس كما ذكر ونزلت، فلما رأيتها من باب القاعة والشمع نفذ وهم يشربون عليها لم أملك نفسي أن صحت صيحة عظيمة، فخرجا فمسكاني وضرباني ضربًا شديدًا وجعلت هي تقول: وإيش جابك؟ وتحرضهم علي، فأخرجا قدًا مبلولاً فقيدوا يدي ورجلي، وجعلا يشربان ويزنيان بها في حضرتي، ويقومان ويضرباني ثم يطعماني، ويخوفاني إن لم آكل قتلاني ليطيلوا بذلك عذابي، فبقيت كذلك ثلاثة أيام.

فلما كان بعد ثلاثة أيام شربوا تلك الليلة شرابًا كثيرًا وناموا الجميع سكارى، فصحفت إلى الشمعة وكان القد قد تيبس على يدى، فقربت يدى من الشمعة لأحرق القد فاحترق القد وحركت يدى وقطعت القيد الذي كان في رجلي، وقمت وأخذت سيفًا ماضيًا من سيوفهما، وضربتهما على أقصاب أرجلهما ضربة عظيمة حتى لا يقومان، ثم قتلتهما، ومسكت المرأة بشعرها فجعلت تحلّفني، فخشيت أن أقتلها فيطالبني أبوها بقتلها ولا يصدقني على قولي عليها، فقلت لها اخرجي، فقالت دعني آخذ من هذا الصندوق، ففتحت صندوقًا أخذت منه ألفي دينار كيسين، وخرجت أنا

(١) هكذا في الأصل، ولم أقف على معناه فيما بحثت فيه من معاجم.

قابضًا على ناصيتها والسكين مشهورة في يدي حتى وصلت طبقة الحاج عثمان، فوجدته قاعدًا ينتظرني وله ثلاثة أيام ما أكل ولا شرب، فأخذني ونزلني إلى مكان تحت الأرض أسمع فيه من يمر ولا يراني أحد ولا يعرف مكاني، في ذلك المكان كل ما أحتاج إليه من المأكل والمشرب وموضع الراحة.

وقصصتُ عليه القصة فقال لي: ابقَ ها هنا أنت وهي.

وأصبح النداء في البلد أي: من أخفى الذي قتل مماليك السلطان جرى له كذا وكذا، واستمر النداء إلى ستة أشهر ونحن عنده في ذلك المكان، ثم انقطع النداء بعد ستة أشهر، وأقمنا بعد ذلك إلى استكمال السنة- وربما قال سنتين- حتى نُسي ذلك الخبر، فواعد الحاج عثمان شخصًا من أصحابه من رؤساء المراكب المسافرة إلى الإسكندرية أن يأتيه عند خروج المركب وبعد قضاء حوائجها كلها وأن يأخذنا صحبته، وعمل لنا زوادة وكسوة وحوائج، وعمل للخياط هدية وحوائج، ثم جعلنا في صندوق - أو قال جعل كل واحد منا في صندوق- وحملنا إلى المركب، فنزّل الرئيس الصندوق أو الصناديق، وجئنا إلى الإسكندرية لأجد عمي ووالدي قد وصلا من اليمن وعملا تمام السنة من المأتم، ثم دخلت عليهما وحكيت لهما الحكاية وقلت لهما: هذه بنتكم وطلقتها ثلاثة، وقلت لهما إنما تركتها خشيةً أن تقولا قتلها.

عظة وفائدة:

وهذه الحكاية وإن كان أولها لأجل محبته ومروءته، وثانيها خوف العار والخشية من عمه ووالده، ففيها أيضًا عزم على إتلاف روحه وروح غيره لبلوغ قصده، وفيها ظهور مروءة هذا الحاج وفتوته ووفائه لصديقه الخياط حتى في إتلاف نفسه في المخاطرة بروحه والمروءة والمحافظة مطلوبة فيه وهي من حقائق الإنسانية، فـ **من لا مروءة له ولا محافظة فيه ولا وفاء فلا دين له.**

الوفاء

ولقد يظهر من الكلاب من المحافظة والوفاء لمن يربيهم أو يحسن إليهم ما يخجل به من يتصف به من الآدميين، وكما حكى لي البهاء البغدادي المستنصري قال: كنت أتجر قبل أن يشتريني الخليفة، وكان أستاذي تاجرًا، فحضرت ذات يوم إلى إنسان في

ابتياع شيء أو شراء شيء فوجدته جالسًا على طراحة وكلب جالس معه وعلى الكلب لباس- ربما قال من حرير أو جوخ- فأحضر الطعام وقدمه لي، فقلت: والله ما آكل حتى تعلمني إيش قصة هذا الكلب؟ وكيف تجلسه معك على طراحتك؟ فقال لي: قضيته عجيبة، وهو مستحق فوق ذلك، فقلت: وما ذاك؟ فقال: إنه كانت لي ابنة عم، وكنت أحبها، وكنت قد عرست عليها، وخرجت لأتصيد، وإذا بعسكر التتار الذي أخذوا حلب اجتازوا بقريتنا، فأخذوها وأخذوا زوجتي، فجئت فلم أجدها فحصل لي أمر عظيم لا أقدر على السكون معه ولا النوم ولا الأكل ولا الشرب.

فلبست ثياب التتار وسرت طالبًا ذلك الجيش وأتكلم بلسانهم ومعي هذا الكلب، إلى أن وصلت إلى العسكر الذي أخذوا حلب، وكان الليل، فأوقفت الفرس وجعلت الكلب عنده وتعرّيت من ثيابي وبقيت عريانًا على أربعٍ شبه الكلاب، وبقيت أنظر خيمة خيمة، وإذا وجدت طنبًا قفزت كما يقفز الكلب إلى أن جئت خيمة فوجدتها جالسة وشاب جميل راقد ورأسه على فخذها، وشمعة عند رأسه وشمعة عند رجليه، فجئت من خلف سجاف الخيمة ورفعت السجاف، فلما نظرت إلي قالت: إيش جابك؟ والله إن لم ترح وإلا نبهته يقتلك، فبكيت وقلت: والله ما جاء بي إلا حبك حتى أنظر إليك، ثم جعل يتضرع لها ويسألها أن تخرج له من وراء الخيمة يقبلها ويرجع، ولم يزل كذلك حتى عطفت عليه وخرجت، فقال لها: سألتك بالله اجعلي لسانك في فمي، فجعلته.

فلما حصل لسانها في فمه قال: فقبضت عليه بأسناني وضممتها إلى صدري وحملتها وخرجت بها عن الخيام وركبت الفرس وجعلتها خلفي، وشددت على وسطي ووسطها شيئًا فربطتهما وجئت عن الطريق وسرت بالليل كله وأنا أحث السير والكلب يتبعنا إلى أن طلعت الشمس وضحى النهار، فقلت ننزل نستريح، فما بقي أحد يلحقنا ولا يعرف طريقنا، قال: فرقدتُ ونمت ونامت، فما أشعر إلا والكلب قد عض على إصبعي ونترني، فقمت فوجدت الشاب واقفًا بسيفه على رأسي، فقمت إليه وأنا من دهشة النوم، فعلقت به فرماني وقعد على صدري وقامت وقالت له: اقتله، فلما أخرج السكين ليقتلني وإذا بالكلب قد حمل عليه حين انحنى على صدري فحمل عليه من خلفه وقبض على خصوتيه ونتره عني فألقاه على ظهره.

فقمت وأخذت السيف أو السكين وذبحته وذبحت الأخرى إلى جانبه.

وكان سبب استدلال التتري عليهما حين وصل إليهما وملك طريقهما أن المرأة كان عليها ثوبٌ من حرير فجعلت تقطعه وترمي منه خرقة بعد خرقة حتى استدل بثوبها فلحقهما.

عظة وفائدة:

فانظر رحمك الله إلى هذه الحكاية وما جمعت من الهمم والحيل وقوة العزم، وحفظ الكلب وفساد المرأة، إذ **لا ينبغي للعاقل أن يثق بهن إلا بالصالحات.**

حب الشهوات من النساء

ومما حكي في قوة العزم والإقدام على التلف والمخاطرة بالنفس في طلب الشهوة وحب النسوة أن رجلاً من المترفين كان ببغداد، وكان له ولد جميل الصورة وكان اسمه نعمة، وكان له جارية جميلة الصورة، فناداها وعلمها الغناء وكان اسمها نعم، فدفعها لولده نعمة، وكان نعمة يحب نعما ونعم تحب نعمة، كل واحد منهما يحب صاحبه كأشد الحب.

فاتفق أن أمير البلد الحجاج اجتاز ليلة فسمع غناءها فطلبها بالحيلة؛ لأن سيدها ما يبيعها، فعمد إلى امرأة عجوز وقال لها عن ذلك، فلبست العجوز ثياب أهل الصلاح وجعلت في يدها سبحة واجتازت بدار الجارية فسألت الإذن في الدخول لها لصلاة الضحى أو غيرها من الصلاة، فأذنت لها، فدخلت العجوز وصلّت وفعلت ما فعلت من ذلك، ثم جلست تتحدث بحديث الصالحين حتى حصل في قلب الجارية من ذلك أمر عظيم.

ثم خرجت من عندها والجارية متعلقة القلب بها حتى سألتها أن تعود إليها، ثم عادت بعد ذلك حتى تأكد ذلك عندها، وكان سيد الجارية يخرج في بعض الأوقات إلى أصحابه ومرحه، فجعلت تتحدث إلى الجارية وتخبرها برجل صالح قريب من بيتها تزور قبره، وجعلت تفعل في ذلك ثم قالت لها: لو زرتي ذلك المكان لكان كذا وكذا، قالت: إن سيدي ما يأذن لي في الخروج، فقالت: نحن نزور ونرجع قبل حضور سيدك، وعملت عليها حتى أخذتها فأدخلتها على أمير البلد.

فلما رآها وأعجب بها حملها إلى عبد الملك بن مروان ليتحفه بها، ثم إن الصبي جاء إلى بيته فلم يجدها فحصل له من الألم ما لا يستطيع معه القرار ولا المنام ولا الطعام:

أسائلُهم عنها فهَلْ من مُخبرٍ فَمَالي بنعَمٍ بعدَ مُكثِنا علمُ
لو كنتُ أعلم أين جثمَ ركابها وأيُّ بلاد الله إذ ظعنوا أموا
إذا لسلَكنا مسلكَ الريحِ خَلفَها ولو أصبحتْ نعم ومن دونِها النجمُ

ووجد أبوه من ذلك وجدًا عظيمًا، وخشى على ولده الموت، ثم إنهم طلبوها فلم يجدوا لها أثرًا، ووقع الطلب في كل مكان فلم توجد.

وكان للشيخ والد الصبي صاحب خياط فقال له: لا تتعب، جارية ابنك ما راحت إلا لدار الخلافة، فإن كنت تخاطر بروحك وروح ولدك فأنا أخاطر بروحي معكما، إما يصل إلى مقصوده أو نموت جميعًا، فقال الشيخ: نعم.

فجهز الخياط بمال جزيل، فعمل الخياط نفسه حكيمًا وجعل معه من المماليك والخدام والعقاقير والأشربة والأدوية وغيرها ومن الآلات والفرش والخيام ما يناسب ذلك، وأخذ الصبي معه على أنه مملوك له، وكان رجلاً فاضلاً حكيمًا عارفًا، فجعل أى جهة يدخلها يداوي الناس بغير أجرة، ويعطي الشراب والدواء من عنده، وكان كذلك حكماء الفلاسفة المتقدمون يبتغون بذلك الثواب في بقاء الأنفس وحياتها.

فشاع خبر الحكيم في البلاد إلى أن وصل إلى دمشق وفتح بها دكانًا أو مكانًا، واجتمع عليه الناس ونظروا إلى حسن ذلك الشاب وما هو عليه من الجمال - وكانت نعم من حين دخلت على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان شغف بها وحصل لها مرض عظيم لفراقها لسيدها وجماله- فلما سمع بوصول هذا الحكيم وما هو عليه سيّر قهرمانة كانت عند نعم لتبصر حال الحكيم ولتصف حالها له، فلما جلست إلى جانبه وعليها آثار الحشمة عرف الحكيم أن ذلك من جهة الخلافة، فسألته عن جارية مريضة من مدة كذا وكذا وذكرت شيئًا من حالها فقال لها: كم سنها حتى يكون الدواء الموافق لها؟ فقالت سبعة عشر سنة قال: فأين مرباها؟ فإن الأمزجة والأهوية مختلفة

بحسب أحوال المربى والعادة فقالت: العراق فقال: فما اسمها حتى أحسب ما يوافقها من النجوم فقالت: نعم فعندما ذكرت اسمها تغير الصبي، وكاد أن يفتضح، حتى ذكره الحكيم وقال له: يا نعمة، قال: لبيك قال: هات الشراب الفلاني.

فأخرج قدحًا من ذهب فيه شراب، وأشار إليه أن يرمي خاتمه في الشراب قال: فأخذت العجوز القدح، وتوجهت إلى نعم وقالت: صفة الحكيم وصفة ذلك الشاب الحكيم وصورة ما جرى، فعندما سمعت الجارية قامت وقعدت وشربت الشراب ووجدت الخاتم في القدح فجعلته في فمها ووجدته خاتم سيدها.

ثم توجهت العجوز إلى الحكيم وقالت له ما اتفق في الجارية، وما وجدت من الراحة فقال: يا نعمة هات الشراب الفلاني، فأحضر الشراب وجعلت العجوز تنظر في أحوال الغلام عند ذكر الجارية ما يشهد له بالمحبة، حتى إنه يكاد أن يغيب، فتحققت من ذلك حبه للجارية، وكذلك تنظر من الجارية، وحصل للعجوز على الغلام رغبة فبدا عليها ذلك، ونظر الحكيم من أحوال العجوز وشهوتها وأنها تلقي روحها في النار لأجل الغلام فقال لها: إن عرّفتك حاله أتفعلين؟ قالت: أكون معه على الموت فقال: أتعاهديني؟ فعاهد العجوز، وعرفها الصورة التي أتوا فيها، وأن هذه جاريته، وهو يحبها وهي تحبه، وأنه يخاطر بنفسه لأجلها فقالت: لا أكون ثالثة لهما، ثم راحت وأخبرت الجارية، وعملت على وصول الغلام إلى جاريته.

فلما كان ليلة من الليالي جاءت بالغلام بثياب النساء، وخضّبت يديه، وألبسته لباس النساء وقالت له: امش على صورة كذا وكذا، فإذا وصلنا باب الدار فإن الخادم يقول لي من هذه التي معك؟ فإنني أعيّط عليه وأقول له أنت تريد أن تشوش على الست بعد أن تعافت؟ هذه جاريتها، فإذا كلمته أنا ادخل أنت، ورُح على يسارك لسابع مقصورة ادخلها.

فلما وصلا إلى دار الخلافة قال الخادم من هذه التي معك؟ ووقفت تكلمه، فدخل الغلام على أنه يروح على اليسار وراح على اليمين، فدخل سابع مقصورة، وكانت مقصورة أخت أمير المؤمنين، فدخلت فوجدت صورة امرأة في مقصورتها فقالت: من هذه؟ فلم يتكلم، فقالت: يا لك من أنثى! ومن هذه في قصرنا التي تدخل مكاني

بغير إذني؟ فعرفت أخت أمير المؤمنين أن هذه ما هي من القصر.

فجاءت ووضعت يدها فيه فوجدته رجلاً فقالت له: يا ولدي، وما الذي أغراك على إتلاف روحك ودخولك بيت الملوك؟ فبكى وحكى لها الصورة، وكانت صورته من الجمال البديع تجعل أى من يراه تأخذ بقلبه، فرقّت عليه وقالت: ما يصيبك إلا ما يصيبني.

ثم أرسلت خلف نعم فحضرت فقالت لها: يا نعم، هذا سيدك نعمة، فحصل لها من البكاء والسرور ما لا يعبر عنه، ثم قالت لها أخت أمير المؤمنين: يا نعم، غني لنا، فغنت وكانت تغني طيبًا، وكان نعمه يغني طيبًا، فربما غنت وغنى، فسمع أمير المؤمنين فقام ومشى وجاء إلى أخته فجلس عندها ونعم تغني، فجعل ينظر إلى نعمة وحسنه فقال لأخته: من أين لك هذه الجارية؟ فقالت يا أمير المؤمنين، ربيتها ووالله ما تقرّبها الجواري لك، فهذه عوض ابنتي -أو مثل ابنتي- ثم قالت لها: يا نعمة، غنِّ فغنَّ، ورقد على فخذ أخته وهو منشرح بغناء نعمة، وهو يحدث أخته وهي تحدثه.

فقالت: يا أمير المؤمنين، بلغني أن رجلاً من المترفين كان له ولد جميل الصورة يسمى نعمة، وكانت له جارية تسمى نعم، وكان مشغوفًا بحبها وهي مشغوفة بمحبته، وأن أحد الولاة سمع غناء الجارية وكانت تغني وكانت جميلة، فاحتال عليها حتى حصلها وسيرها إلى ملك من الملوك، فحصل لنعمة من الألم ما كان أهون من الموت ولأبيه، وحصل للجارية كذلك.

ثم إن سيدها تحايل وسافر وخاطر بنفسه إلى أن دخل دار الملك واجتمع بجاريته، فلما حصل الاجتماع وهم على تلك الحال وإذا بالملك قد دخل عليهما فضرب عنق الغلام وأخذ الجارية منه، فقال أمير المؤمنين: بئس ما فعل، كان له مثلها كثير، وكان يرحم ذلك المسكين ويردها عليه.

فقالت: يا أمير المؤمنين، فهذه نعم وهذا نعمة، فحصل عنده ألم لذلك وجعل يقول: ما كنت بالذي أحكم على غيري بما لا أحكم به على نفسي، ثم قال: خذ جاريتك واخرج الساعة، فأخذها وخرج.

عظة وفائدة:

فانظر رحمك الله تعالى إلى ركوب هذه الأخطار في طلب محبوب مثلك يموت ويزول ويفنى، وغايتك منه في حياته شهوة فانية بعد أتعاب متوالية، فإن مرض مرضت لمرضه، وإن سقم سقمت لسقمه، فكيف يُحب رب الأرباب ومالك الرقاب الحى الباقي الأبدي السرمدي الذي يعطيك البقاء والحياة وينيلك من جميع المحبوبات والشهوات ويورثك الغرفات في أعالي الجنات؟

فأين عزمك في طلبه؟ وأين مخاطرتك في محبته؟ وأين بذل نفسك في قربه؟ فكيف تدعي أنك من حزبه أو تطمع بوصله أو قربه؟

وقد قلت:

إذا لم تكن في الحبِّ للنفسِ باذلاً ... ولم تَعصَ في حبِّ الحبيبِ العواذلاَ
وتطرب للألحان من كل ناطقٍ ... وتَشتاقُ في ميلِ الغصونِ التمايُلاَ
وتبذل نوم العين بالسُّهدِ دائمًا ... نعم ويبقى الجسمُ بالسُّقمِ عاملاَ
وترتكب الأخطارَ في كلِّ منهلٍ ... وتَشربُ من ماءِ المياهِ القواتلاَ
فما أنت إلا مدَّعٍ غيرُ صَادقٍ ... تَرى الحقَّ في عيْنِ الحقيقةِ باطلاَ
فَتركُ الهوَى أوْلى لمن كان هكذَا ... كمَن يدَّعي علمًا به صارَ جاهلاَ

إسحاق النديم(١)

حكي أن إسحاق النديم دخل على أمير المؤمنين، فوجد عنده فكرة، وكان يتوجه كل سنة إلى البصرة بإذن أمير المؤمنين للاستراحة والفرحة، وكان له فيها صاحب من كبراء البصرة يسمى الشيباني قال:

فكنت عند الأمير فركب للصيد فقال لي: تركب معنا؟ فقال: أنا شيخ كبير وأنتم شباب ولا طاقة لي على ركض الخيل، فقال للطباخ: اطبخ لإسحاق ما يشتهي، فقلت له: إني أسمع أن أهل البصرة يتنوعون في عمل السمك، فاطبخ لي سمكًا قال: فطبخ لي

---

(١) انظر: الوافي بالوفيات للصفدي (٧٥٤/١).

سبعين لونًا من السمك وأحضره، فأكلت من كل واحد لقمة أو لقمتين على قدر ما يعجبني مع طيبة السمك.

وقمت أتمشى لأنظر دروب البصرة، فمشيت، وحصل لي عطش شديد ولا قدرت على الرجوع إلى منزلي فإنه بعيد علي، فنظرت إلى درب، وإذا دار في صدر الدرب عليها ستر -ربما قال حرير- فيه جلاجل من ذهب، فقصدته لأطلب الماء منه، فسمعت صوتًا حنيِّنًا من قلبٍ حزين وهو ينشد:

قد كنتُ أسمعُ بالهوى فأكذِّبُ ... وأرى المحبَّ وما يقولُ فأَعجبُ

حتى بُليتُ بحُلوِهِ وبمُرِّهِ ... من كَان يَتَّهمُ الهوى فيُجرِّبُ

لحُلوٍ منهُ تعتَريهُ مَرارةٌ ... والمرُّ منه للفؤادِ معذِّبُ

قال: فدنوت من الستر ورفعته، فرأيت جارية كالشمس الصاحية وهي جالسة على كرسي من الساج قوائمه من العاج، مرصعٌ بالجواهر مصفح بالصفائح الذهب، وعلى رأسها جوار.

فبصُرت بي فقامت وجاءت إلي ثم قالت لي: يا شيخ، شيبٌ وعيب؟ فقلت لها: يا سيدتي، أما الشيب فكما ترين، فما العيب؟ فقالت: وأى عيب أعظم من أن تنظر إلى دار ليس بدارك؟ وحرمة ليست بحرمتك؟ فقلت لها: يا سيدتي، أنا رجل غريب وعطشان قصدت شربة ماء، فأمَرت بإحضار الماء، فأوتي بكوز مملوء من الماء، وفيه الورد والروائح الطيبة، وعليه تفاحة من عنبر، فشربت بعضه وجعلت أنظر إليها، ثم شربت الثانية وجعلت أنظر إليها، ثم شربت الثالثة ووقفت.

فقالت: ما يوقفك؟ فقلت: إني متفكر في صاحب هذا الدار، كان صديقًا لي وما أدري ما صنع، فقالت: هو أبي رحمه الله تعالى، مات وخلف ضياعًا وأموالاً ولم يخلّف غيري، فدفعت قُصة إلى الأمير في ذلك، فكَتبَ على ظهرها أما المال فنماه الله، وأما الابنة فرباها الله، وأما الدافع فلعنه الله والسلام.

ثم وقفت فقالت: يا شيخ، استسقيتنا فسقيناك، واستخبرتنا فأخبرناك، فرُح وإلا صفعناك. فقلت لها: يا سيدتي، إني رأيتك وعندك ألم، فوجدت عندي لذلك ألما،

فاشتهيت أن أعلمه لعلي أُغني فيه فقالت له: ويلك، أو مثلك من يطلع على الأسرار؟ فقلت لها: ولم لا؟ وأنا إسحاق النديم أمير المؤمنين فقالت لي: أنت إسحاق؟! فقلت: نعم، فأخذت بيدي وأدخلتني إلى البيت، وأجلستني معها على الكرسي فقالت لي: يا إسحاق، إني كنت تربيت أنا وفلان الشيباني- وذكرت لي رجلاً لم يكن بالبصرة أجمل منه ولا أحسن صورة وكرمًا وأوصافًا وهو الأمير صاحبي- فألفني وألفته، فلما كان ذات يوم جلس معي هنا، وقد سرّحت الجواري رأسي، فقلت لواحدة منهن فرقي، فرأيته يرعد كما ترعد السعفة في يوم الريح العاصف، ثم خرج فلم أره بعد ذلك، ولقد كتبت إليه ألف ورقة فلم يرد علي جوابًا، وشفع عنده أمير البلد فلم يقبل، فقلت لها لعلي إن شاء الله أغني في ذلك.

فأخرجت لي خمسمائة دينار وقالت: هذه لغسل ثيابك -أو كما قالت- فتوجهت من عندها إلى دار الأمير لأجده قد جاء من الصيد، فجلسنا وأحضر العشاء فقلت له: لا آكل حتى تقضي حاجتي فقال لي: كل حاجة لك مقضية إلا حاجة بدور، وأعطاني خمسمائة دينار، فلما أصبحت أتيت إليها فوجدتها واقفة من وراء الستر تنظر قدومي، فحين رأتني توسمت ما وقع فرجعت وهي تنشد:

عَسى وعَسى يَلوي الزَّمانُ عنانَهُ ... بغـرَّةِ صـدقٍ والزمـانُ غيـورُ
فيُحدثُ من بعد اليسيرةِ عَثرةٌ ... وتَحدُثُ من بعدِ الأمورِ أمور

فدخلت وأرسلت لي خمسمائة دينار قال: فجئت إلى الأمير وجلسنا إلى الليل فقلت له: أريد أن أسمع شيئًا، فقال أحد جلسائه: إن الأمير لا يستطيع أن يسمع، فسمعنا نتكلم فقال: ما بالكم؟ فقلت له: أيها الأمير، إني قلت كذا وكذا ذات ليلة، فخرجت جارية ومعها صحبها فغنت، فخُيّل لي كأنها بدور.

فقال: واحد من الجلساء؟ فقلت: الأمير، ثم حملوه، فلما أصبحت أحضر لي الطشت والإبريق للوضوء وقالوا: الأمير معتذر عن لقائك، وأحضر لي خمسمائة دينار وسافرت، فلما كان ثاني سنة جئت إلى البصرة، فرجعت إلى دار الأمير فوجدتها خرابًا والدروب قد علاها التراب ولا بها حس ولا أنيس فبكيت ووقفت على الباب

وأنشدت:

يـا منـزلا عبـثَ الزمـانُ بأهلِـهِ   فأبَـادَهُم بتفـرُّقٍ لا يَجمـعُ
أيـن الـذين عهِـدتُهُم بـكِ مَـرّةً؟   كَـانَ الزمـانُ بِهِـم يَضُـرُّ ويَنفـعُ

فكلمني خادم من فوق سطح الدار وقال لي: ياشيخ، لم تنعانا؟ فقلت له: ما أنعى إلا الأمير الذى كان صاحب هذه الدار فإنه صاحبي فقال: إن الأمير ملقى في صحن الدار لا يعقل ولا يسمع إلا إن ذكرت له بدور: فدخلت فوجدته كالحجر الملقى، فناديته أيها الأمير، فلم يجبني، فأنشدته شيئًا من شعر بدور، ففتح عيناه ونظر إلي فقلت له: أيها الأمير، ما الذي صار بك إلى هذه الحالة؟ فقال: حب بدور، ولقد كتبت لها ألف ورقة فما جاوبتني على واحدة منها، ولقد سعى إليها أمير البلد على أن تأخذ ما أملك وتجاوبني، فلم تفعل، فقلت له: أيها الأمير، فإني أسير إليها.

قال إسحاق: فرحت إلى دارها لأجد عليها من الحشم والخدم شيئًا كثيرًا، فاستأذنت عليها وقلت: إسحاق النديم، فأذنت، فدخلت فوجدتها جالسة على الكرسي والجواري على رأسها، فسلّمتُ وسلّمتْ، وقامت وأجلستني وأمرت بالطعام فقلت لها: والله لا آكل ولا أشرب ما لم تقضي حاجتي، فقالت وما حاجتك؟ فقلت: الأمير فقالت: يا إسحاق، ألست تعلم ما فعل لي وكيف كتبت في أمري وكتبت ألف ورقة وجاءني أمير البلد فلم أفعل، فقلت: يا سيدتي، سألتك بالله أن تروي جواب هذه الورقة فقالت والله ما عاملته ليس كما عاملني.

ثم أحضرت الدواة والورق وكتبت جوابًا لكن فيه ألم فسألتها التلطف فكتبت دونه، فسألتها التلطف فكتبت ألطف منه فقلت لها: والله يا سيدتي ما أظنني ألقاه حيًّا، فإني تركته على هيئة هي كذا وكذا، وما ظني أجده فقالت: وبلغ به الأمر إلى هذا؟ قلت: نعم والله، فقالت لي: تقدم وأنا أسير إليه خلفك. قال: فجئت إليه، وقرأت عليه الورقة، فعندما قرأتها قام وقعد، وإذا بها قد جاءت وقالت: وصل بك الأمر إلى هذا؟

ثم طلبت الحاكم والشهود فحضروا، فأذنت للحاكم أن يزوجها منه فزوجها، فأحضرت طبقًا مملوءًا ذهبًا فأخذت غَرفة بكفِّها للحاكم وغرفة للشهود وقالت: عليك

بباقي الطبق يا إسحاق.

وخرج الحاكم والشهود وجلسنا وهما يتحدثان فقلت في نفسي: إن هذين محبين وأنا قاعد بينهما لأى شيء؟ فقمت فقالا لي: لا تقم، فإنا إذا أردنا قمنا إلى مكان آخر، ثم بعد ذلك قاما وبتُّ أنا إلى السَّحر، وإذا بالأمير قد خرج ورأسه تقطر ماءً من الحمام، وإذا هي قد خرجت وفتحت صندوقًا وأخرجت منه كيسًا فتحته لي وقالت للأمير: افعل كما فعلت لفعل ذلك الأمير، وكذلك قال.

وكان أمير المؤمنين عنده هم وفكر فسُري عنه حين حكيت له هذه الحكاية.

الحكايات أجناد اللّـــه

فالحكايات والله أعلم أجناد الله تعالى إلى قلوب أوليائه والعارفين به؛ إذ كل حكاية فيها معانٍ مختلفة ولطائف مؤتلفة وحقائق مجتمعة وحكم متفرقة، تجمع شتات القلوب وتكشف عجائب الغيوب وتفرّج كربة المكروب وتواصل المحب بالمحبوب.

فإن السّالك إذا سمع ما يناسب حاله من صبر غيره صبر، ومن شكره شكر، ومن يقينه أيقن، ومن توكله توكل، ومن تفويضه فوض، ومن قوة عزمه عزم، ومن اجتهاده اجتهد، ومن جميع صفات المحامد اتصف، ومن ذم صفات النقائص تجنب، فيتبع المحدود ويتجنب المذموم ويتأسّى بمن تقدم ويفهم معنى ما قصّ الله تعالى على نبيه ﷺ في قوله تعالى ﴿**وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ**﴾ [هود: ١٢٠]، فيأخذ نصيبه من الآية وإرثه من التبعية ولا يسلك إلا ما يناسبه ولا يتبع غير جنسه، فإن: الجنسية ائتلاف الأرواح فلا شتات، وغير الجنسية اختلاف وعذاب.

حكاية السقّا والعقد

وقد حكي أن فقيرًا كان يملأ الماء بالقربة في بغداد للناس، وكان إذا شرب أحد من ذلك الماء وبه ألم أو سقم عوفي، فسمع الخليفة به فطلبه وقال له: أشتهي أن تسكب هذه القربة لنا ونعطي مثل ثمنها للناس- وربما قال من جهة طيبة- فصار يسكب القربة لدار الخليفة ويدخل عليهم بغير إذن كما أشار الخليفة، وقوي اعتقاد الخليفة فيه.

واتفق أن إحدى حظايا الخليفة في يدها عقد جوهر وهي تلعب به، فسقط من

يدها فالتقطه طاووس من الطواويس التي بدار الخليفة، فطلبته الحظية فلم تجده، فوقع في نفسها أن الشيخ الذي يملأ الماء سرقه.

فقالت للخليفة ذلك، فعزّ عليه كلامها وقال لها: هذه الخزانة، خذي منها ما تختاري ولا تقولي شيئًا من ذلك، فقالت: ما آخذ إلا عقدي بعينه، أو يحلف لي على المختوم أنه ما سرق عقدي - وكان عندهم المصحف الذي بخط عثمان بن عفان ﵁، وكان عادتهم أى من حلف عليه وكان كاذبًا عمي - وكان الخليفة يحبها محبة عظيمة، وخشي على خاطر الشيخ من الحلف أو يقابله بذلك القول، وحلفت أنها ما لم يحلف أو يعطيها عقدها رمت نفسها من القصر.

فضاق أمير المؤمنين ذرعًا بذلك، وبقي في هم وفكرة، فدخل عليه الوزير فوجده على تلك الحال فقال له أو سأله عما أهمه فأخبره بما حصل له، فقال له: يا أمير المؤمنين، لا تتشوش، الفقراء فيهم احتمال عظيم، وأنا أروح إليه.

فركب الوزير وحضر عند الشيخ في مسجد فوجده يرقع في ثوبه أو دلقه أو دفاسه، فجلس عند ديوانه، وعرّض بتشويش الخليفة وما هو عليه، فسأل الشيخ عنه فقال له بسبب ضعف عقول النساء وتلطف معه في القول، فقال الشيخ: لا والله، لا يتشوش الخليفة، وأنا ما أخذت شيئًا، وأنا أحلف لها، هذا جرابي أفرغه -ولم يكن فيه شيئًا سوى رقعات- ثم قام ومعه الوزير وحضر إلى دار الخليفة، وأحضرت له الحظية كتاب القرآن وحلفته عليه، فعندما استوفى اليمين عمي في وقته، فحملوه إلى مسجده أعمى وشاع في بغداد أنه حلف حانثًا فعمي، وبقي على ذلك سنة والناس يتكلمون ويقولون سرق العقد وحلف كاذبًا وعمي.

ثم إن الحظية مرضت بعد سنة مرضًا شديدًا، وطلب الأطباء ولم ينجح فيها دواء، إلى أن ورد طبيب حاذق فوصف له حالها فقال: دواؤها قلوب الطواويس- أو أكباد الطواويس- وذلك الطاووس من جملتهم، فخرج العقد من حوصلتها، فلما رآه الخليفة قال هذا عقدك وقد فعلتي ما فعلتي في أمر هذا الرجل الصالح؟

ثم ركب، وسار إلى الشيخ، وعرفه الصورة، وتخضّع له، وسأله الرضا عنه وأن يعود إلى ما كان عليه فقال: ما أرضى إلا أن تحلف لي أنني إذا قلت لك شيئًا تفعله لي

فقال: نعم فحلّفه على ذلك أيمانًا مغلظة، وعاهده عليها، فلما فرغ من اليمين قال له: أحضر لي جملاً ومشاعلي، فأحضر الجمل والمشاعلي فقال: ركّبوني على الجمل ونادوا علي: هذا جزاءً وأشر جزاء من يصحب غير الجنس على صحة.

وهذه الحكاية وإن كان فيها تنبيهًا وتحذيرًا من صحبة غير الجنس كما حكى لي الشيخ عبد العزيز عن الشيخ أبي محمد صالح أن شيخه كان نهاه عن صحبة الملوك ومن يصحب الملوك، ثم إن السلطان قال لشيخه تخرج معي في مصالح المسلمين -وربما وجب على الشيخ ذلك- فأرسل الشيخ إلى أبي محمد صالح يقول له: إنا واصلون إليك، فأرسل أبو محمد يقول لشيخه: يا سيدي، والله إن جئت لا أجتمع بك؛ لأنك قلت لي: لا تصحب الملوك ولا تصحب من يصحب الملوك، وأنت قد صحبت الملوك.

عظة وفائدة:

ففي هاتين الحكايتين فوائد:

فإن الأولى: **حُذر فيها على صحبة غير الجنس**.

وفيها حقائق الامتحان ألا هي لأوليائه لتظهر بذلك حقائق صفاتهم من الصبر والرضى والشكر عند نوازل القضاء.

وفي الثانية: **تعيين الترك لصحبة الملوك**.

لما في ذلك من الخطر العظيم في الدين والدنيا، فإن الذي يصحبهم يحتاج إلى موافقتهم على مقاصدهم وفي ذلك فساد دينه وخسار آخرته، وهذا لازم في صحبتهم، وأما من يخالفهم أو يردعهم فما صاحبهم ولا صاحبوه إن سلمت روحه منهم وفي ذلك خطر عظيم في الدين.

خَطـر الدنيـا

وأما خطر الدنيا فإن القرب من السلطان كحد السيف؛ لأن ماله ودمه بين شفتيه، وما لم يكن مراقبًا له كما يرضيه منه في جميع أحواله وإلا أدّى ذلك إلى هلاكه، ومتى يكون الإنسان في جميع أحواله؟!

كذلك لا جرم لا ترى أكثر من قرُب من السلطان يئول حالهم إلى التلف، هذا مع هذه المراقبة وهو لا يأمن مع كونه ناصحًا له ومراقبًا لأحواله من يؤذيه ويكذب عليه

ويحسده ويوشي به؛ لأن منازل الملوك محسودٌ عليها.

والفائدة الأخرى امتثاله أمر شيخه، وصحة عقده مع الله تعالى كونه التزم أمر شيخه ألا يخالفه، حيث قال: لا تصحب الملوك ولا تصحب من يصحب الملوك.. فالتزم العقد حتى مع شيخه المسلك له؛ لأن انكشاف الغطاء ما بين العبد وبين ربه لا يبقي رتبة لذلك ولا لشيخ؛ لأنه يرى حل عقده مع الله تعالى معصية لله، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وهذه حقائق بعيدة عن الأفهام، وليس في هذا مخالفة لشيخه لأنه أمر بذلك وصحح الأمر الأول مع الله تعالى، وفي الثاني لم يأمره بخلافه، ولعل الشيخ إنما أراد امتحانه في هذا القول، وهل هو باقٍ على ما أمره به من النهى عن مصاحبة الملوك ومن يصحب الملوك أم لا؛ إذ لا يصح الامتحان بغير محنة، فإذا وقعت المحنة يحقق حال صاحبها؛ لأن الامتحان يصدقه ويكذبه، وقد وقع الامتحان لجماعة من الأولياء المتقدمين.

وفي صحبة الناس على الإطلاق بلاءٌ عظيم لا يقدر عليه إلا من قوّاه الله تعالى على ذلك ووسع باطنه له وشرح صدره بحمل الأثقال من أعباء العباد كالأنبياء والكمل من الأولياء، وأما من دونهم فإنهم يعجزون عن ذلك، وربما فسدت عليهم دنياهم وآخرتهم وهم على طبقات في ذلك.

وقد قلت:

أرِحْ فــؤادَكَ أو لا فــانتظرْ ألمــا ... في صُحبةِ الناسِ أو فيضَ الدموعِ دمَا

نعــمْ ودينُــك لا تبغـي بِـهِ بـدلاَ ... فالسَّـعيُ بيـنهمُ مـع وصـفِهِم حَرَمَـا

ولا تقـل لِّي صـديقٌ كنـتُ أعبـدُهُ ... إنَّ الــوفيَّ مــن الإخــوان قــد عــدَمَا

فالشــرُّ أجمُعُـه في النـاسِّ مقـترفٌ ... فــلا تَـرى أحــدًا مــن شـرِّهم سـلَمَا

فالجــأ إلى اللهِ لا تبــغِ سِــوَاه ولا ... تَرجــو سِــواهُ ولا تخشــى بــه نــدَمَا

حدثني الشيخ أبو العباس الملثم -رحمه الله تعالى- أنهم سمّوه ثلاث مرات، وحكي لي عن أبيه أنه كان ملكًا من ملوك الشرق، وأنه أخبره أنه يُسم ثلاث مرات، وأنه قال للخادم الذي كان يخدمني: آلف جسمَه بالسم، أو قربه منه فإنهم يسمونه، فكان

يقرب السم مني على طرف السكين فأتململ منه دفاعًا لذلك.

وحدثني الشيخ أبو زكريا بن إسماعيل اليمني -وكان خادمًا للشيخ أبي الحجاج الأقصري ﷺ -أن شيخًا من مريدي الشيخ أبي الحجاج الأقصري كان ينفعه قتله، ويعتقد أنه ينال رتبته، وأن حياة شيخه تحجبه عنها، فانظر إلى هذا الفساد الذي تخيله في عقله أن يتقرب إلى الله تعالى بقتل ولي من أوليائه أو يكون فتحه بقتل شيخه!.

الشيخ عمر الأشقر

حكى لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- أن الشيخ عمر الأشقر كان له خادم، فاتفق أن الخادم أحب امرأة فقصد زواجها، فمنعه الشيخ من ذلك فغلبته نفسه عليها، فعاود الشيخ في ذلك فقال له الشيخ: إن تزوجتها ما ترجع تخدمني.. فغلبته نفسه فتزوجها.

فاستخدم الشيخ غيره فحصل عنده غيرة من ذلك، فقال للشيخ: يا سيدي، ما أقدر أن أرى أحدًا يخدمك غيري، فإني أغار عليك وأخشى أن أقتلك.

فقال له الشيخ: أنا أنذرتك قبل ذلك.. فخلا بالشيخ يومًا من الأيام وهو واقف يصلي بالمسجد وضربه بالسيف في رأسه فسقط الشيخ، فقبضوا عليه فقال الشيخ: من قتله أنا بريء منه في الدنيا والآخرة، فاشتد على المسلمين قتل الشيخ عمر، وجعل الناس يأتون من كل مكان -فقدكان الشيخ عظيم القدر- فجعل الناس يتلقون من الشيخ ما ينتفعون به من الوصايا وغيرها، والناس يدخلون أفواجًا أفواجًا، ويقولون لذلك الخادم: ويلك، قدّر أنك سلِمت في الدنيا، أين تروح من الله وقد قتلت الشيخ عمر الأشقر؟ ويلك، أمثل عمر الأشقر يُقتل؟!

فجعل يحثو التراب على رأسه ويصيح، ودخل عند الشيخ وقال: يا سيدي، هؤلاء يقولون لي أين تروح من الله تعالى وقد قتلت الشيخ عمر الأشقر؟ فقال له الشيخ: اسكن، وعزة ربي لا أدخل الجنة إلا وأنت معي.

وهذه الحكاية فيها إيراد، سألني عنه الفقيه نجم الدين بن ناشيء -رحمه الله تعالى- ونفع به قال: كيف قال له الشيخ ما أدخل الجنة إلا وأنت معي مع إقدامه على قتل هذا الولي الكبير الشأن؟ فقلت له: الحق متعلق بالشيخ وقد تركه الشيخ، وارتكابه النهي في إقباله على قتله شفع فيه الشيخ عند ربه، فلما تكرم الشيخ بحقه على خادمه فالله أكرم من ألاّ يعفو من شفاعة وليه فيه وترك حقه له، ولأن الخادم لم يقدم على قتل شيخه لا بغضًا فيه ولا مع حضور عقل ولا اعتماد لذلك، وإنما غلبت عليه الغيرة

من قوة المحبة وأخرجته عن حيز العقول حتى وقع، فلما أفاق دخل إلى الشيخ على تلك الصورة.

في مقتل الإمام علي[١]

ثم مناسبة في قتل علي بن أبي طالب -كرّم الله تعالى وجهه- بسبب قطام الحرورية، وكون عبد الرحمن بن ملجم أحبها وأعطاها على مهرها ثلاثة آلاف دينار وعبد وقينة، فأبت إلا قتل ابن أبي طالب ﷺ، وذكرت أنه قتل أباها في الحرب، لكن إقدام عبد الرحمن بن ملجم المزادي بسبب غلبة شهمته لا للغيرة عليه ولا للمحبة فيه، وكانت هذه الواقعة من أعظم الرزايا في الإسلام وقد قيل:

وهزّ علي بالعراقين لحيةً رزِيَّتُها جلت على كلِّ مسلمِ
ثلاثة آلافٍ وعبدٌ وقينةٌ وَقتلُ عليٍّ بالحُسامِ المصممِ
فَيَا ضربةً من خاسرٍ ضلَّ سَعيُهُ تَبوّأ منها مقعدًا في جَهنّمِ

أشقى هذه الأمة

روي أن النبي ﷺ قال لعلي كرم الله وجهه: «**أشقى ثمود الأحيمر وأشقى هذه الأمة قاتلك يا علي**[٢]».

وروي أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله تعالى وجهه سأل عبد الرحمن بن ملجم فقال له: يا عبد الرحمن، ألك اسم غير هذا؟ قال: لا، إلا أنني كنت أرى أمي ترقّصني وتقول: ارقص يا شقيق الأحيمر.

والأحيمر هو قدار بن سالف الثمودي عاقر الناقة[٣]، وهو رأس التسعة الرهط الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وكان عقر الناقة بسبب امرأة، والحكاية طويلة مشهورة بسبب الزيات وهذه حالة أجراها الله تعالى على لسانها، فإنه شقيقه في الشّقاء. ولما سمعه الإمام علي كرم الله تعالى وجهه هزَّ رأسه، وقد كان عبد الرحمن بن

(١) انظر: مقتل الإمام علي لابن أبي الدنيا، وخصائص علي للنسائي، والأسد الغالب لابن الجزري، والاستيعاب (١٨٧٥)، والحلية (٦١/٢)، والكواكب الدرية (٤).

(٢) رواه أبو يعلي في مسنده (٤٣٠/١) بنحوه.

(٣) انظر: الإكمال لابن ماكولا (٨١/٧)، والبداية والنهاية لابن كثير (١٣٥/١)، وتاريخ ابن خلدون (٢١/٢).

ملجم يخدمه، والقصة مشهورة بطولها في غير هذا الكتاب، وقد قتل عبد الرحمن.

التناسب في الامتحان

والتناسب في الامتحان دليل الكرامة على الله تعالى للحديث الوارد:

«نحن معاشر الأنبياء أشد بلاءً والأمثل فالأمثل[(١)]».

ولما امتحن سمنون المحب[(٢)] وقتل المجنون، وكان حسن الوجه حسن الكلام في المحبة وعذوبة المنطق فإن امرأة مالت إليه، فلما علم سمنون بذلك طردها عن نفسه، فجاءت إلى الجنيد، فقالت له: ما تقول في رجل كان طريقًا إلى الله تعالى، فذهب الله وبقي الرجل؟ فعلم الجنيد ما قالت فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل. ثم إن هذه المرأه عرضت نفسها على سمنون بالتزويج، فأبى عليها ذلك، فذهبت إلى غلام الخليل لما علمت من إنكاره عليهم فقالت: إن قومًا من الصوفية، فلان وفلان -وذكرت فيهم سمنون- يجتمعون معي كل ليلة على الحرام، فحرّش غلام الخليل عليهم العوام وسعى بهم إلى السلطان حتى أمر بضرب أعناقهم، وكشف الله لهم ذلك، فمنهم من غاب، ومنهم من توارى حتى خلصهم الله تعالى من ذلك.

وأنكر على **أبي سعيد الخراز**[(٣)] جماعة من العلماء ونسبوه إلى الكفر بألفاظ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) هو سمنون بن حمزة ويقال: سمنون بن عبد الله، كنيته أبو القاسم. صحب سريًا السقطي ومحمد بن علي القصاب وأبا أحمد القلانسي، ووسَوَس. وكان يتكلم في المحبة بأحسن كلام، وشدة وَجْد، وهو من كبار مشايخ العراق. قال الخطيب: سمعت أبا نعيم الحافظ يقول: سمنون هو بن حمزة الخواص أبو الحسن. وقيل: أبو بكر. بصري، سكن بغداد، سمى نفسه سمنونًا الكذَّاب بسبب أبياته التي قال فيها:

ولـــــيسَ لي في سِـــــوَاكَ حَــــظٌّ فَكَيفَمَــــا شِـــئتَ فَـــاخْتَبِرْنِي

مات بنيسابور سنة ثمان وتسعين ومائتين. وانظر: حلية الأولياء (٢٣٨/١٠)، وطبقات الصوفية (٦)، وشذرات الذهب (٤٢٥/٢)، والكواكب (٢٤٩).

(٣) اسمه أحمد بن عيسى وهو من أهل بغداد، وهو من أئمة القوم وجلة مشايخهم.

قيل: إنه أول من تكلم في علم الفناء والبقاء. أخذ عن إبراهيم بن بشار الخراساني ومحمد بن منصور الطوسي، روى عنه علي بن محمد الواعظ المصري وأبو محمد الجريري وعلي بن حفص الرازي ومحمد بن علي الكتاني وآخرون. وتوفي رحمه الله تعالى سنة ست وثمانين ومائتين، وقيل: بل توفي سنة سبع وسبعين ومائتين. انظر: الحلية (٢٤٦/١٠)، وسير أعلام النبلاء (٤٢١/١٣)، وطبقات الصوفية (ص٢٢٨)، وشذرات الذهب (١٩٢/٢)، والطبقات الكبرى للشعراني (١١٧/١)، وتاريخ بغداد (٢٧٦/٤).

=

وجدوها في كتبه منها في كتاب **«السر»**: فلو قلت له من أين وإلى أين لم يكن جواب غير الله مع ألفاظ أُخر.

ولما طُلب **ذو النون المصري** إلى السلطان وشهد عليه بالكفر قال ابن الفرجي: كنت مع ذي النون المصري في الزورق، وإذا الجماعة في زورق آخر فقيل له: إن هؤلاء يمضون إلى السلطان يشهدون عليك بالكفر فقال: اللهم إن كانوا كاذبين ففرّقهم فانقلب الزورق فقلت له: أحسب أن هؤلاء القوم، فسقوا بهذه القضية، فما بال الملاح؟ فقال لهم: حمل الفساق، ثم قال: إذا وقف هؤلاء في القيامة فرقًا بين يدي الله تعالى خير لهم من أن يقوموا شهداء زور، ثم انتفض انتفاضة وقال: وعزتك لا أدعو على خلقك بعد هذا.

حقيقة الدعاء وعلامته

نعم، هذا هو الدعاء حقيقة وله علامة، وكذلك يُستجاب ولا يُرد؛ لأن الناس يعتقدون أنهم يدعون الله تعالى وما دعوا حقيقة؛ لأنهم لو دعوه حقيقة أجابهم، ولو أجابهم لفسدت الأرض وما عليها؛ إذ في دعاء هذا فساد حال هذا وهلاك هذا، وفي فساد حال هذا صلاح هذا، وصلاح هذا فساد هذا، وذلك للعداوات والتضاد الموجود بين العباد والمقاصد الفاسدة، وطلب الفساد والحرام وغير ذلك.

ولما كانت قلوبهم غافلة في أكنة عن الدعاء فلا يصعد الدعاء إلى الله تعالى، وتحجبه الملائكة لغفلة القلوب عن الله تعالى والتفاتها إلى سوء المقاصد.

وللدعاء علامة يعرفها الداعي الذائق للإجابة وهي جمعية القلوب على الله وعدم الالتفات إلى غيره ووجود الاضطرار إليه، فإذا صح ذلك من الداعي وقعت الإجابة لا محالة، ولا خلاف عند من وجد ذلك البتة، ويجد الداعي حلاوة الإجابة في دعائه كما يجد الرامي في الظلمة حلاوة الإصابة وإن لم ير ذلك. فافهم فهمنا الله وإياك عنه.

ومن وجد ذلك فليتق الله ولا يطلقه لغير وجهه الكريم فهو من كنوز السعادة، لكن هذه الصفات لا تجتمع لقلب ما لم يكن القلب قلبًا مخصوصًا ولو في تلك

=

الساعة، وما كل فقير يدعو عند نزول البلاء به ولا وقوعه في المحنة، وهم في ذلك طبقات، وهم درجات عند الله.

ضرورة التوبة

ولما قال **سهل بن عبد الله التستري**(١) -رحمة الله تعالى عليه- إن التوبة فريضة على العبد في كل نفس، وكان إلى ناحيته رجل ينسب إلى العبادة فهيّج عليه العامة ونسبه إلى القبائح وكفّروه حتى خرج منها إلى البصرة ومات بها، هذا مع علمه ومعرفته واجتهاده وعلو شأنه رضي الله عنه.

ولعمري إن هذا لهو العجب، وذلك أن كل نفس يتنفسه العبد هو نعمة من الله تعالى عليه لا يقدر على شكرها، ويعجز عن أداء حق الله تعالى فيها ولو كان شاكرًا على الدوام مع الحركات والأنفاس، فكيف إذا خالط النفس غير الشكر؟ وأنى يكون العبد شاكرًا في كل نفس على قدر حق الله تعالى عليه، فهو مضيع حق الله تعالى فتجب التوبة في كل نفس وهي درجات الأكابر إذا كان شاكرًا على الدوام في كل نفس لا يخالطه غير الشكر، أما إذا خالطه غير الشكر من الغفلة ونسيان المنة لله تعالى وكفران النعمة أو خطرات المعصية أو ارتكابها، فهذا ظاهر لإخفائه في العموم.

وقد تقدم أن رسول الله ﷺ كان يستغفر الله تعالى كما قال ﷺ:

«**..في كل يوم وليلة سبعين مرة**(٢)» مع جلالته وعلو منصبه وكماله وعصمته والمغفرة له لما تقدم من ذنبه وما تأخر، وذكرنا أن السبعين لم يقتصر عليها إلا أنها جارية في كلام العرب، فكيف يكفر من يقول إنه يجب على العبد التوبة في كل نفس

(١) قال السلمي: سهل بن عبد الله التستري وهو سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى ابن عبد الله بن رفيع وكنيته أبو محمد أحد أئمة القوم وعلمائهم والمتكلمين في علوم الرياضات والإخلاص وعيوب الأفعال صحب خاله محمد بن سوار وشاهد ذا النون المصري سنة خروجه إلى الحج بمكة. وأسند الحديث. توفي قدّس سرُّه العزيز سنة ثلاث وثمانين وقيل: سنة ثلاث وتسعين ومائتين وأظن أن ثلاثًا وثمانين أصح، والله أعلم.

وانظر: الحلية (١٠/١٨٩)، وطبقات الصوفية (ص٢٠٦)، والطبقات الكبرى للشعراني (١/٩٠).

(٢) رواه الترمذي في سننه (٥/٣٨٣).

مرة؟.

ابتــــلاءات

ولما كان عند عمرو بن عثمان[١] جرو فيه علوم الخاصة فوقع في يد أحد تلاميذه فأخذه وهرب فقال: سوف تقطع يداه ورجلاه.

فقيل أنه كان الحسين بن منصور الحلاج، ففُعل به ذلك.

والجنيد ﷺ مع علمه ومعرفته شهد عليه بالكفر مرارًا حتى تستر بالفقه واختفى.

وما هذا بأعجب مما جرى لعامر بن عبد قيس حتى رفع إلى عثمان بن عفان ﷺ أنه قال إنه خير من إبراهيم، وإنه يحرم ما أحل الله تعالى، فكتب إلى معاوية بن أبي سفيان، فأشخصه معاوية على قتب، فلما سأل عثمان بن عفان ﷺ من عرف محله ومكانه من الذل والعبادة كرّمه ورده إلى موضعه، والمحن والأذى بحسب مراتب الرجال وأحوال الفحول والأبطال،كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: **«أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى بالرجل على قدر دينه[٢]»** وقد قلت:

شربتُ الهوى حلوًا وإن كانَ طعمُه ... أمرَّ من الصبرِ المـذابِ بعلقمِ

بلاؤكم عذبٌ لدي وقتلُكم ... وذكرُكم أحلى من الشهدِ في فمِي

وأرضى الذي ترضَوهُ منْ كلِّ فعلة ... وإن كان فيه سفكُ رُوحي مع دمي

وذلِّي لكم عزٌّ وإن قيلَ عبدَكم ... عَلوت بكم فوق الفخارِ بسُلّمِ

---

(١) هو عمرو بن عثمان بن كرب بن غصص المكي، وكنيته أبو عبد الله كان ينتسب إلى الجنيد في الصحبة.

ولقي أبا عبد الله النباجي، وصحب أبا سعيد الخراز وغيرهم من المشايخ القدماء، وهو عالم بعلوم الأصول، وله كلام حسن. وروى الحديث. مات ببغداد سنة إحدى وتسعين ومائتين، ويقال: سبعٍ وتسعين، والأول أصح.

انظر في ترجمته: حلية الأولياء (١٠/٢٩١)، طبقات الصوفية (٩)، (ص٢٠٠)، وطبقات الشعراني الكبرى (١/١٠٤)، وصفة الصفوة (٢/٢٤٨)، وشذرات الذهب (٢/٢٢٥).

(٢) سبق تخريجه.

ومــن أيــن لي أني عُبيــدُ عَبيــدِكم ومــن أيـنَ لي أني إلى العبـدِ أنتمـي

فقُـــربكم منـــه الجنـــانُ وطيبُهـــا وبُعــدُكم منــه الشــقا في جَهــنّمِ

ومن ابتلي **أبو عبد الرحمن محمد بن الفضل البلخي**(١)، وكان إمامًا ببلخ، وكان مذهبه مذهب أصحاب الحديث، فغادره أهل بلخ بسبب المذهب وقالوا له: لا نحب أن تسكن في بلدنا فاخرج منها، فقال: لا أخرج حتى تجعلوا في عنقي حبلاً وتأخذوني من إحدى أطراف البلد في السوق وتقولوا هذا مبتدع، نريد أن نخرجه من بلدنا، ففعلوا به كذلك وجرّوه إلى داحان ثم خلوا سبيله، ثم التفت إليهم وقال: نزع الله تعالى من قلوبكم معرفته ومحبته.

فقيل أنه لم يخرج بعد دعائه عليهم من بلخ صوفي من أهلها بعد أن كانت بيت التصوف والزهد، ومن كان فيها من صوفي فإنه غريب انتقل إليهم أو ولد غريب.

وقد ذكرنا من امتحن في زماننا هذا من أهل الدين، وقد كان بقفط **الشمس زريق** وهذا الاسم هو اسم الشيخ شمس الدين عبد الرزاق بن حسام، وكان متصوفًا متفقهًا، كثير الصيام والقيام، كبير المروءة والفتوة، يطعم الطعام ويتورع في المأكول، فأصبح فوُجد في بيته مقتولا وقد بقي فيه بعض النفس، وقد كسروا رأسه وأضراسه، وسقطت لحيته، ومات في يومه رحمه الله تعالى، واتهموا به شخصًا، ولم ير في نفسه خيًرا إلى أن مات، والله أعلم أهو فاعل ذلك أم لا؟ وقيل كانوا جماعة.

الابتلاء في الدنيا

والمناصب الدينية محل ابتلاء، وكذلك المناصب الدنيوية أيضًا، وكما جرى للطفراي، وقد كان يضرب ويرمي بالسهام وهو ينظم الشعر، لكن المناصب الدنيوية ما

---

(١) عارف عرف تزهده، وتبين تورعه وتعبده، كان جزيل الاجتهاد في الخير، محمودًا في السرى، مشكورًا في السير، وله من الناس قبول، ومعه بالتوفيق وصول، وكان من أكابر القوم وساداتهم.

أسند الحديث عن قتيبة بن سعيد وغيره، وصحب ابن خضرويه وغيره.

ومات بسمرقند سنة تسع عشرة وثلاثمائة. وانظر: طبقات الشعراني (١/٢٨٨)، صفة الصفوة (٤/١٦٥)، المنتظم (٦/٢٣٩)، والكواكب (٣٧٢).

تستحق لمن يبذل فيها شيئًا البتة لزوالها وسرعتها، وإن بُذل فيها شيئًا فيكون منها لا من الآخرة ولا من الدين ولا من النفس التي بها تحصّل الآخرة، فإن الذين ابتلوا في الدنيا بسبب مناصبها كثير، وهم أرباب العقول المكّارة أعاذنا الله وإياكم من كيد العقول وكيد الكائدين من جميع الإنس والجن والشياطين أجمعين.

الابتــلاء في الدين

وأما الابتلاء في الدين فإنه نعمة من الله تعالى شاملة، ولم يقع ذلك إلا للأكابر كما جرى **لأبي يزيد البسطامي** رضي الله عنه فإنه لما رجع إلى بسطام من سفرته وتكلم بما تكلم به في علوم لا عهد لهم بها، وتكلم في أحوال الأنبياء وأحوال الأولياء، أنكر ذلك الحسين بن عيسى البسطامي إمام ناحيته والمقصود في علم الظاهر، وأمر أن يخرج أبو يزيد من بسطام، فأُخرج ولم يعد إليها إلا بعد موت حسين بن عيسى البسطامي، ثم بعد ذلك ألفه الناس وعظموه وعظموا شأنه، وإلى الآن يتبركون بزيارته وقبره ومسجده رضي الله عنه، وقد ذكرنا إخراجه من بلده غير مرة في هذا الكتاب.

والامتحان كثير والاختلاف موجود قال الله تعالى: ﴿**وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِين* إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾ [هود:١١٩] فمنهم من يحسن الظن ومنهم من يسيء الظن.

ولما خرج محمد بن الفضل [من بلخ] إلى سمرقند [بسب المذهب فنفوه][(١)] إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وأما **أبو محمد بن علي الترمذي**[(٢)] فإنه لما صنف كتاب «علل الشريعة[(١)]»

---

(١) غير واضح بالأصل، وتم تصويبه من طبقات السلمي (ص٢١٢).

(٢) هو صاحب التصانيف المشهورة، زاهد اشتهر بملازمة العبادة، وتفرد بين الصوفية بكثرة الرواية وعلو الإسناد، وناسك سلك طريق القوم وهجر في وصله التهجد وصل النوم، رحل في طلب الحديث والعلم، وتلفع بمروط التقوى والحلم، ولقي الأكابر وأخذ عن أرباب المحابر، ومع ذلك كان صدرًا معظمًا وصوفيًا محدثًا مفخمًا، كثير الكيس واللطافة غزير المعارف التي تحف أخلاقه وأعطافه، تحلى بعقوده جيد زمانه وتأرجت الأرجاء بعرف عرفانه، لقي أبا تراب النخشبي والبلخي وتلك الطبقة وسمع الكثير من الحديث بالعراق وغيره وهو من أقران البخاري.

=

وكتاب «ختم الأولياء» أنكروا عليه بسبب الكتابين، وقالوا: فضلتَ الأولياء على الأنبياء وأغلظوا عليه وأخرجوه من ترمذ، فجاء إلى بلخ وأقام بها أيامًا حتى رجع إليهم.

ولعمري لقد كان هذا الإمام أبو محمد الترمذي إمام عظيم وله كلامٌ جليل، وهو الملقب بالحكيم الترمذي، ومن وقف على كلامه في كتاب: «ختم الأولياء» وكتاب: «الغور وما يُؤمر به المريد» وكل كتبه جليلة تدل على عظم شأنه فإن:

«المرء بأصغريه: قلبه ولسانه(٢)».

ولقد حكي عنه أنه لما وردت عليه هذه العلوم وفندها في الكتب حصلت له فألقاها جميعها في البحر، فقيض الله تعالى لها سمكة فابتلعتها وألقتها في جزيرة، فوجدت، ثم انتشرت علومه ﵁.

فانظر رحمك الله تعالى إلى هذا الزهد من حيث الشهرة بالعلوم، فلما سلب اختيار نفسه بإخفاء حاله نوّه الله تعالى بقدره وأظهر علومه ليكون في ميراثه كل من انتفع بها ووصل إلى الله تعالى بسببها، وكل تارك حظه لله هكذا يكون حاله عند الله تعالى بحسب قصده ونيته وذلك لما علموا أن ذلك مما يرضي الله تعالى عنهم لقوله تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى * فإن الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى﴾[النازعات: ٤٠].

وقد قلت:

لو كانَ يسمحُ بعدَ البينِ أن يصِلا ... ما بتُّ أبكي الحمَا والرَّبعَ والطللاَ

=

قال الحافظ ابن النجار في تاريخه: كان إمامًا من أئمة المسلمين له الصفات الكبار في التصوف وأصول الدين ومعاني الحديث وفي شيوخه كثرة. وقال السلمي في طبقاته: له الشأن العالي والكتب المشهورة. نفوه من ترمذ وشهدو عليه بالكفر بسبب تفضيله الولاية على النبوة، وإنما كلامه في ولاية النبي ﷺ. وانظر: طبقات الصوفية (٢١٧)، صفة الصفوة (٤/١٦٧)، سير أعلام النبلاء (١٣/٤٣٩)، والكواكب (٣٦٣).

(١) تحت قيد الطبع ، باسم علل العبودية، طبع (دار النهار).

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (١/٢٨٧).

أو كنت أيئسُ من وَصْلي به تلَفت رُوحي عَليه وأدنى الحبِّ ما قتلاَ
أهلُ الشَّقَاء دُونَ الحبِّ رُتبتُهم ما أسعدَ الحبَّ إلا من به وَصلاَ
وجَنةُ الخُلدِ مأوَاهُم إذا وَصلُوا كذَا الجحيمُ حجابٌ يَقتضيه قلاَ
والصبُّ من وجبت في الحبِّ موتتُه ويَستحيلُ عليه أن يقالَ سلاَ
لو يَعقلُ الصبُّ يومَ البين لوعتَه لذَابَ وجدًا بها لكن ما عقَلاَ
والبين يذهل عقلَ الصبِّ لوعته والوصلُ يُرجعه للعقلِ إن وصَلاَ
عُد بالوصال ولو في النّوم تمطلُني ما أحسنَ الوعدَ في وَصل إذا مَطلاَ
قد ألبَسَ الحزن جسمي بالجفا حُللا وصيَّر الحبُّ قبي في الهوى مثلاَ
جَار العذول وما أغنته معذلةٌ لو كان يَدري الهوى والبين ما عذلاَ
نعم وفي العذل ذكرُ الحبيب به يَلذُّ قلبي ولكن في السّلو فلاَ
عَجِبتُ في البعد منه وهو مقتربٌ وفي التقرُّب من قلبي وما حصلاَ
ذللتُ في حبِّه ذلاًّ شَرفتُ به فعَزَّ في ذلَّتي في عزِّه وعلاَ

وحدّثني الشيخ أبو الظاهر إسماعيل بن عبد المحسن المرائغي صاحب **الشيخ أبي يحيى بن شافع**- قدّس الله تعالى رُوحه[١]- قال: دخلت يومًا على الشيخ أبي يحي فوجدته يبكي مما حصل له من شخص من الأذى بالكلام أو بغيره، وهو من العوام، قال الشيخ أبو الظاهر: فأخذت -ربما قال- عكازًا تحت ثوبي، وأتيت إلى ذلك الرجل وكان في طاحون، ودخلت عليه وضربته بذلك العكاز ضربًا شديدًا إلى أن كسرته حتى قلت له وكيف فعلت أو كيف جاز لك ذلك؟ وهذا الشيخ أبو الظاهر جليل القدر،

(١) أبو يحيى بن شافع القنائي، صوفي صنعته المعارف، وطافت به العوارف.
كان بحانوت يتسبب فيه، فرآه الشيخ أبو الحسن الصباغ فقال: هذا يصلح للسلطنة، ويتزوج بنت الخليفة، فقام للوقت، وترك حانوته وتبعه، فأقام بخدمته مدة، وتسلك بالشيخ، وتزوج ببنت الخليفة، وظهرت له كرامات وخوارق باهرات. انظر: الطالع السعيد (٧٤٣)، وطبقات الأولياء (٤٨٣).

وقد ذكرنا كشفه واطلاعه، لم يحتمل أذى ولي الله تعالى حتى أنكره بيده، قامت عنده الغيرة الإلهية فغيبته عن النظر في الجواز في ظاهر الأمر؛ لأن هذا الذي شوش على الشيخ محارب لله تعالى؛ لورود الحديث: «**من آذى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة**[١]» فقامت عنده حالة من الأحوال فكان جندًا من أجناد الله المحاربين لأعدائه في نصرة أوليائه، وفي محن المتقدمين من الأولياء أسوة في محن المتأخرين، وسنة في الاقتفاء.

حكي عن **أبي يعقوب يوسف بن الحسين الرازي**[٢] أن زهّاد أهل الدين والمتصوفة منهم ما زالوا منكرون عليه، ويتكلمون فيه، ويرمونه بالعظام مع قلة مبالاته بهم؛ لتمام علمه واستقامة أحواله، إلى أن توفي رحمه الله تعالى.

أما **أبو الحسين** أبو شيخي فإنه لقي من أهل بلدته ما لقي، أخرجوه منها إلى أن جاء إلى نيسابور واستوطنها ومات بها، رحمه الله تعالى.

و**أبو عثمان المغربي**[٣] مع تمام حاله وكثرة مجاهداته ورياضته حرس عليه العلوية

---

(١) ذكره القرطبي (٢٨/١٦)، ومجمع الزوائد (١٩٢/١).

(٢) انظر: هو يوسف بن الحسين الرازي الإمام العارف شيخ الصوفية، إمام الري والجبال في وقته. كان أوحد في طريقته في إسقاط الجاه وترك التصنع واستعمال الإخلاص، أكثر الترحال، وأخذ عن ذي النون المصري، وأحمد ابن حنبل، وأحمد ابن أبي الحواري، ودحيم وأبي تراب عسكر النخشبي، وعنه أبو أحمد العسال وأبو بكر النقاش ومحمد بن أحمد بن شاذان وآخرون.

قال السلمي: كان إمام وقته لم يكن في المشايخ أحد على طريقته في تذليل النفس وإسقاط الجاه، وترك التصنع واستعمال الإخلاص.

وقال أبو القاسم القشيري: كان نسيج وحده في إسقاط التصنع. وانظر: حلية الأولياء (٢٣٨/١٠)، وطبقا ت الشعراني الكبرى (١٠٥/١)، وكتابنا الإمام الجنيد (ص٥٨).

(٣) هوسعيد بن سلام، أبو عثمان القيرواني، صوفي جليل كبير عارف، عرف صيته أطيب من العبير، له الأحوال المأثورة والكرامات المذكورة، صحب الزجاجي والنهرجوري والدينوري وغيرهم، ولم ير مثله في علو الحال وصون الوقت وصحة الحكم بالفراسة وعظم الهيبة وجموم الأسرار وطرح الاختيار.

مات سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، ودخل رجل على الخطابي فأخبره بموته فقال: قال المصطفى ﷺ: «قد كان في الأمم ناس محدثون فإن يكون في أمتي فعمر وأنا أقول فإن كان في هذا العصر أحد فأبو عثمان المغربي». رواه الخطيب البغدادي. وانظر: طبقات الصوفية (٤٧٩)، وطبقات الأولياء (٢٣٧)، وطبقات الشعراني (١٢٢/١)، والكواكب (٣٣٩).

بمكة شرّفها الله تعالى، فضرب على رأسه ومنكبيه وطوّف به على جمل في أسواق مكة، حتى أحوجه ذلك إلى مفارقة الحرم، ودخل بغداد وأقام بها سنين، ومات بها رحمه الله تعالى.

و**الشبلي أبو بكر** ﵁ مع تمام علمه وكثرة مجاهدته ورياضته، وحدة حاله وفصاحة لسانه، شهد عليه بالكفر حتى من أراد معونته وخلاصه شهد عليه بالجنون حتى حبس في مارستان، وقال فيه أحد مشايخ بغداد الكبار، وهو أبو الحسن الخوارزمي: «إن لم يكن لله جهنم فإنه يخلق جهنمًا بسبب الشبلي، وإن لم يدخل الشبلي الجنة فلا أدري من يدخلها».

قول هذا الإمام أبو الحسن الخوارزمي ﵁: إن لم يكن لله جهنمًا فإنه يخلق جهنمًا بسبب الشبلي.. ولأن الذين افتروا عليه وآذوه وكفَّروه بالباطل لا بالحق مع كثرة أذاهم له، فقال ذلك القول بهذا السبب.

وأما **أبو بكر النابلسي**(١) مع فضله وعلمه وزهده، واستقامة طريقه تكلم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هؤلاء المغاربة، فأُخذ وحُمل إلى مصر فلم يرجع عن قوله، فأُخذ وسلخ وهو حي قيل أنه كان يُسلخ وهو مكومًا ويقرأ القرآن، فكاد أن يفتتن به الناس فرفع ذلك إلى صاحب مصر فقال: اقتلوه ثم اسلخوه.

و**الحسين بن منصور الحلاج** فمع اختلاف الناس فيه وسائر أقوال المشايخ فإنه كان من القوم ولقي ما لقي مما لا يخفى، وإن لم يكن من القوم فلا كلام.

وذكر ابن خلكان في كتابه أنهم اختلفوا فيه اختلافًا كثيًرا، وأنه إنما سمي الحلاج لأنه جلس على دكان حلاج وبها مخزن قطن غير محلوج، وأرسل صاحب الدكان في قضاء حاجة له، فلما رجع وجد جميع القطن محلوجًا فسمي الحلاج لذلك.

---

(١) هو الإمام المشهور، الصوفي الكبير، كان ذا ورع وزهد وديانة واستقامة وحسن طريقة وأمانة، تصدر بالمغرب للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فآذوه وأخرجوه مقيدًا مغلولاً إلى مصر، وشهدوا عليه الزور والبهتان بقبائح لا أصل لها، سُلخ وهو حي منكوسًا، فصار يقرأ القرآن ويملي علوم الحقائق وهو في ذلك الحال، فكاد أن يفتن به الناس، فرفع الأمر للسلطان، فقال: اقتلوه ثم اسلخوه ففعلوا. وقيل: إنه أملى على بعض مريديه وهو في ذلك الحال مائة وخمسين بيتًا من نظمه في علوم الطريقة وإشارات الحقيقة، وإنه مازال يملى عليه حتى وصل السلخ سرته فمات رضي الله عنه. انظر: السير (١٦/١٤٨)، والشذرات (٣/٤٦)، والكواكب (٤٠٦).

وأنه كان يأتي بفاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف

وكان يمد يده في الهواء فيردها مملوءة دراهم، يسمونها دراهم القدرة، وذكر صاحب تاريخ بغداد فيه أمورًا غير مستحسنةٍ.

وكان الاختلاف في كفره كثيرًا جدًّا، وإنما شهد له إمامان عظيمان: أحدهما محمد بن خفيف، والآخر ابن عطاء بأنه عالم ربانيّ.

وأما سبب قتله فلم يكن عن أمر موجب للقتل - على ما حكاه ابن خلكان في تاريخه- حيث كان الوزير يعمل عليه، وأحضروه إلى مجلس الحاكم غير مرة فلم يظهر منه ما يخالف الشرع، إلى أن وجدوا له كتابًا فيه أن الإنسان إذا عجز عن الحج فعمد إلى غرفة في بيته فطهَّرها وطيبها -وربما قال وصام سبعة أيام وكسى سبعة أيتام- ثم طاف بها فيكون كمن حج البيت، فطلبه القاضي وقال: هذا الكتاب تصنيفك؟ قال: نعم، قال: فأخذت هذا عن من؟ قال: عن الحسن البصري، فقال له القاضي: كذبت يا حلال الدم، قد رأينا كتب الحسن البصري ولم يكن فيها ذلك.

فلما قال له القاضي: يا حلال الدم قال له الوزير: اكتب خط لك، فامتنع فألزمه بذلك، فكتب فقال له الحلاج: كيف يحل لكم دمي وأنا على الكتاب والسنة؟ ولي تصنيف في الشريعة؟ فتحدث الوزير مع الخليفة فدفع عنه نصر الخادم، فعاود الوزير الخليفة وخشي على نفسه، فأمر به فضرب ألف سوط ولم يتأوه، وقطعت يداه ورجلاه، وصلب وأحرق بالنار.

ونعوذ بالله من الفتنة والأهواء المضلة، ووقع الاختلاف في موته هل مات أم لا؟ أو هو غيره الذي صلب، وعلى الجملة فكان اختلافهم فيه كاختلافهم في عيسى عليه السلام، وذكر ذلك ابن خلكان قاضي دمشق في تاريخه، والمحن كثيرة، وليس هذا القول يقبل فيه من يعتقد فيه الولاية مع شهادة هؤلاء الأكابر فيه، وظهور الخوارق على يده.

خروج الأكابر

وقد أُخرج جماعة من العرب في زماننا هذا، منهم أكابر **كالخولي**، والشيخ أبي الحسن **الشاذلي**، وجرى للشيخ أبي **محمد المرجاني** قريبًا من ذلك، ولطف الله تعالى به، وابن **المغربي** جرى له ما جرى.

وقد جرى للأئمة العلماء **كالشافعي ومالك** و**أبو حنيفة** و**أحمد** رضي الله عنهم، وحكاياتهم مشهورة مسطورة لا يسع هذا الكتاب الاختصار الذي قصدناه، وما نحن بسبيله من ذلك، وكذلك الشيخ **عز الدين بن عبد السلام**، والذي اتفق لقاضي القضاة تقي الدين بن بنت الأغر رحمه الله تعالى، وما عمل عليه حتى حبس بعد ما أمر به من شنق وغيره، وتخلّص بعد ذلك وولي القضاء كما كان رحمه الله تعالى.

وأما **ابن سبعين**(١) فأخبرني الشيخ عامر قال: كنت مع الشيخ تاج الدين بن الرماح فقال لي: يا عامر، ورد الساعة فقير من الغرب قم بنا إليه.. قال: فقمنا، وخرجنا إلى ظاهر الإسكندرية، فوجدنا الشيخ عبد الحق بن سبعين قد وصل، فسلم عليه الشيخ وتحدثنا طويلاً فقال له: الشيخ تاج الدين: إن شخصًا ورد قبل ورودك ومعه محضر مكتوبٌ عليك فقال: وإيش مكتوب فيه؟ فقال له: مكتوب فيه: فأنت عين رحمته، ورسول حكمته، قال: وإيش في هذا؟ قال: وفيه: فأنت أنت وهو هو، قال وإيش في هذا؟ قال: بل أنت هو وهو أنت، فقال: ما قلت أنا ذا، ثم قال: والله لو علمت الذي كتب في المحضر ليعطيه الفص، أنا إن حُبست فخلْوه، وإن نُفيت فسياحة، وإن قُتلت فشهيد.

---

(١) سيدنا وإمامنا قطب الأقطاب: عبد الحق إبراهيم بن محمد بن نصر بن فتح بن سبعين.
قطب الدين أبو محمد الأشبيلي المرسي، والرقوطي الأصل، الصوفي المشهور.
درس العربية والآداب بالأندلس، ثم ارتحل إلى سبته، وانتحل التصوف على قاعدة زهد الفلاسفة وتصوفهم، وعكف على مطالعة كتبه، وجد واجتهد، وجال في بلاد المغرب، ثم رحل إلى المشرق، وحجَّ حججًا كثيرة، وشاع ذكره، وعظم صيته، وكثر أتباعه على رأي أهل الوحدة المطلقة، وأملى عليهم كلامًا في العرفان على رأي الاتحادية، وصنف في ذلك أوضاعًا كثيرة، وتلقوها عنه، وبثوها في البلاد شرقًا وغربًا.
وقد ترجمه ابن حبيب فقال: صوفي متفلسف، متزهدٌ متعبدٌ متقشف، يتكلم على طريق أصحابه، ويدخل البيت، لكن من غير أبوابه، شاع أمره، واشتهر ذكره، وله تصانيف وأتباع وأقوال تميل إليها بعض القلوب وينكرها بعض الأسماع.. انتهى.
قلت: لا يفهم كلامه بعين الذوق ومشرب أهل الحق، إلا من فُتح عليه بنور الفوق.
وانظر: مرآة الزمان (٤٦٠/٢)، فوات الوفيات (٢٥٣/٢)، ومرآة الجنان (١٧١/٤)، والبداية والنهاية (٢٦١/١٣)، والكواكب (٥٢٤)، ورسائل ابن سبعين، وبد العارف، ().

محن العلماء

وأما نحن المتقدمين فاختصرناها وهي كثيّر جدًّا حتى لا يكاد يخلو واحد منهم من محنة، منهم:

أبو القاسم النصرابادي[١]، لقي من أهل المدينة وعلمائها وأهل التصوف ما لا خفاء به، كانوا ينكرون أحواله وكلامه وبسط السماع ونعوده في هذا العالم إلى أن أخرج إلى الخدم ومات به.

و**أبو عبد الله السّجزي الكبير**[٢]، صحب أبا حفص، فإن أبا عثمان الحيري[٣] هجره، وأمر أصحابه بهجره، فقيل أن أبا عثمان حسده، وقيل أنه غار على ما كان يتكلم به من الكلمات العالية.

وحكي عن أبي حفص أنه قال إن أحدًا منكم ينبسط في الكلام حتى يهجر، ويمنع من صحبة العوام، ويحض بصحبة الخواص، فقيل: إنه كان أبو عبد الله السحري.

---

(١) هو إبراهيم بن محمد أبو القاسم النصراباذي، شيخ خراسان علمًا وحالاً، كان في علم التصوف إمامًا، وفي فن التعرف لمن تقدم ختامًا، محالفًا للزهد والورع، مخالفًا لمن زاغ عن الطريق وابتدع، كاشف الهم هاطل الغمام، حسن الأخلاق لطيف الكلام، فصيح اللسان عذب العبارة، لا يلهيه عن ذكر الله بيع ولا تجارة.

أخذ الحديث عن ابن خزيمة وابن أبي حاتم والطحاوي وغيرهم، وعنه الحاكم وغيره، وصحب الشبلي والمرتعش والطبقة، وكان فيه نفع للناس في الشفاعة في قضاء أشغالهم، ومبادرة إلى تلقي مصالحهم، وتمشية أحوالهم لا يتوقف في خيره يقصد فيه، ولا يبالي إن كان فيه تلفه أم تلافيه.

مات في سنة سبع وستين وثلاثمائة. وانظر: الكواكب (٢٩٢).

(٢) هو من كبار مشايخ خراسان وفتيانهم، قطع البادية مرارًا على التوكل.

قال: علامة الأولياء ثلاثة: تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة، وإنصاف عن قوة. وانظر: الحلية (٣٥/١٠)، وطبقات السلمي (٢٠).

(٣) هو شيخ الجماعة ومقدم الطائفة، إمام جليل وحبرٌ نبيل، عارف لا يحتاج نهار فضله إلى دليل.

أصله من الري، ونشأ بها ثم تحول إلى نيسابور فسكنها، وسمع الحديث على الجماعة.

قال الخطيب: وكان مجاب الدعوة. ومات سنة ثمان وتسعين ومائتين، وقيل غير ذلك.

وانظر: حلية الأولياء (٢٤٤/١٠)، والرسالة (٢٥٠)،وطبقات الشعراني (١٠١/٢)، (٢٨٩/٤)، وطبقات الصوفية (١٧٠).

وأما أبو الحسين الحضرمي[١] فإنه شهد عليه بالكفر، وحكي عنه ألفاظًا، وكتب في مدرج، وحمل إلى أبي الحسن بن معروف قاضي القضاة، فاستحضره القاضي وناظره في ذلك، ومُنع من القعود في الجامع، وما زال ابن مسعود يتكَّلم فيه إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وأبو القاسم بن جميل كانوا يتكلمون فيه بكل عظيمة مع قلة مبالاته بذلك، قال: حكى الحكاية ولعمري لقد كان يرتكب أمورًا، ويفعل أفعالاً مع الكلام فيه، والإنكار عليه إلى أن رددنا خبره ببركة الفقراء، وعشرتهم إلى أن حسَّن طريقه، وقومها، ومات على ذلك رحمه الله تعالى.

وأبو بكر بن يَزْدانيار[٢]: كان يسافر ويخدم مشايخ الصوفية، ويعرفون له محله وكان على ذلك سنين إلى أن رجع إلى بلدته استحلى الرئاسة، ورغب في صرف وجوه العامة إليه، وأخذ يدق على هؤلاء، وينسبهم إلى الزندقة، فلعله قال الشبلي: يا أبا بكر، لو كان بيننا وقبلته أريد أن يتبعنا ولكنا اثنين غيرين حدين؛ وذلك لما بلغه من الوقيعة في مشايخه.

وقال أبو بكر الطمناني: دخلت على ابن يزدانيار فحضرت مجلسه، فلما فرغ رآني فقال: ما تقول في هؤلاء العراقيين الجنيد ورويم وسمنون وابن عطاء؟ فقلت: أرباب التوحيد، ووجوه الدين، واغتاظ من كلامي وتغير، فقال أحد الذين حضروا: يا رجل، أنا لك ناصح، إن أقمت في هذه البلدة الليلة فأنت تكون مأثومًا من دمك، فاخرج منها، فخرجت.

فانظر رحمك الله تعالى ماذا جرى على المتقدمين والمتأخرين، فخذ لنفسك أسوة فيما يقع من المحن، وكلام الناس وأذاهم.

---

(١) انظر: تاريخ دمشق (٤١/٢١٩)، وتاريخ بغداد (٢/٩٥).

(٢) هو الحسين بن علي بن يَزْدانيار: كان جليل القدر رحيب الصدر وافر المهابة ظاهر الإنابة كثير الخير والإحسان معظمًا عند الأكابر والأعيان، أخلاقه كريمة وبركاته عميمة وقدمه ثابت وغرس كرمه وكراماته نابت، أصله من أومينية، وله طريق في التصوف يختص به، وكان ينكر على بعض مشايخ العراق كالجنيد أحوالهم الفاضحة لأسرار الطريق. انظر: طبقات الصوفية (٤٠٦)، والحلية (١٠/٣٦٣) طبقات الأولياء (٣٣٥).

ثلاثاً ثلاثا

فإن كنت ممن له ضرورة بالاجتماع بالناس فيلزمك أحوال **ثلاث:** حمل الأذى منهم، وحمل الأذى عنهم، وإيجاد الراحة لهم.

ولا بد لك من أمور **ثلاث:** الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والنصيحة للجميع مع ترك المؤاخذة- إذا لم تجد القدرة على ذلك مع عدم المعين، وكثرة المعاندين، وقلة الناصرين، حتى إنك يأتيك الأذى ممن تقصد له الراحة، والغش ممن تمحضه النصح، والخذلان ممن تقوم له بالنصر، والعداوة ممن تقصده بالمحبة.

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ

وكل من الناس يطلبك لما يختار من هواه، وسواء كان ذلك يهلك دينك ودنياك، أو يشقيك أو يسعدك، ليس له فيما تعود عليه مصلحتك إرب.

فإن وافقتَه هلكت دنيا وأخرى، ومع هلاك دنياك وآخرتك لا تقدر على رضاه؛ فإن غيره يقصد منك خلاف مقصده، فهم يتجاذبونك إلى هلاكك، هذا لو كانا شخصين فكيف بجملة الخلائق؟ وهم على ذلك من ضعفك وقلة إسعادك، وهم متفاوتون في الطلب فيك، كالحيّات والعقارب والكلاب والسباع والذباب من أصناف القواتل.

فمن لاذع قاتل كالحية مع لين لمسها قاتل سمها، ومن لاسع كالعقرب مع شدة ألمها وشدة طبعها، ومن موازع كالثعلب، ومن مهاوش كالكلب، ومن محتال كالذئب، ومن غبي كالدب، ومن محاك كالقرد، ومن مختال كالفهد، ومن شديد الغضب والبطش كالأسد، ومن بليد كالحمار، ومن حقود كالجمل، ومن وثاب كالنمر، ومن مستمع كالخلد، ومن مراقب شديد البصر كالفرس، ومن ناسٍ لخيرك كالجرذ -وهو الفأر- وأنت بينهم كالفرخ الذي لا ريش له، أو الطير الذي لا جناح له.

وهم يتساقطون عليك تساقط الذباب على العسل، والكلاب على الجيفة، والحربان على اللحم، وهم يتجاذبونك ويتناهشونك ويمزقونك ويقطعونك ويلذعونك ويلعنونك ويلسعونك ويقتلونك ويذمّونك وينسبونك، وكل واحد منهم يأخذ بقوة طبعه، وبحسب وسعه، وليس يعقلون فيك غير نفعهم، ولا يخافون فيك عصيان ربهم،

لأنهم لا يعقلون، ولا بالأوامر مكلفون.

وهذه الحالة وإن كانت في ضرب الأمثال ونصب المثال، فالحشرات والوحش وما ذكرناه أقل من الناس أذى لك ولا يمنعونك آخرتك، ولا يحجزون عنك نفسك، ولا يفشون سرك، ولا يعيبون عليك كلامك، ولا يحولون بينك وبين ربك ﷻ ودينك كما قيل:

ولي دونِكم أهلُون سيد عملس وأرقَطُ زهلول وعرفَا جبلُ

هم الأهلُ لا مستودعَ السّرِّ ضائعٌ لديهِم ولا الجَاني بما خير يفعَلُ

فانظر إلى هذا العربي مع غلظ طبعه وجاهليته، وغفلته عن معرفة دينه ومصلحة آخرته، كيف نفر عن أهله، وجعل له أهلاً من الذباب والضباع، وذكر من وصفهم ما ما ذكر مع ما جبلوا عليه مما ذكرناه أولاً من صفاتهم وشدتها، وعجائبها وذهاب عقولهم، وما ذاك إلا أن أذى الناس أكثر من ذلك، أعاذنا الله وإياكم من شرورهم في الدنيا والآخرة.

وقد قلت:

ولقد بلوتُ الناسَ في أحوالِهم وحَككتُ إبريزَ القلوبِ بمَيلقي

فرأيتُ غشًّا في البواطن كائنًا وظَواهر ابتَدَوا بحسن تملُّقي

فنفضتُ كفِّيَ تائبًا عن وصفِهم ودَعوتُ ربي بعدَها لا نلتقي

ومحضتُ كل النصح من أحببتُه ألاَّ يُصاحب غيرَ خلٍّ متقِ

وقال غيري:

عوى الذّئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عَوَى وصوّتَ إنسانٌ فكدتُ أطيرُ

وما ذاك إلا لعلمه أنه لا يقدر على التخلص من الناس وقد جرّبت ذلك وجرّبه غيري كما قيل:

أنِستُ بوحدَتي حتى لو أني رَأيتُ أبي لفررتُ منْه

ولن تدعَ التجارِبُ لي صَديقًا أميلُ إليه إلا مِلتُ عنْه

وهذا كلام من قدر على الوحدة ولزم العزلة، فكيف من لا وصول له إلى ذلك، ولا قدم لما هنالك، لما كلف من الأتعاب والأنصاب من كثرة العيال وحمل الأثقال، ولا يسعه الانقطاع مع كثرة الأوجاع، وما جبلت عليه الطباع من تضييع الحريم، وستر وجوههم عن البريء والسقيم، وقد كلف في الشرع القيام عليهم في الستر والقوت، كما ورد في الحديث: **«كفى بالمرء إثما أن يضيّع من يقوت[١]»** فهو في هذا الحال مع وجود هذه الأثقال لا يدري كيف يحيى ولا كيف يموت.

وقد قلت:

لولا العيالُ الذى خُلقتْ ما لهم ... حامٍ يذودُهم في الوِرْد والصدرِ

لكنتُ أشطحُ في الأكوان مُنفردًا ... ولم تقعْ غيرة عيني على أثري

وقد وقعت الحسرة والحيرة في الحيرة، وقد تحار الحيرة في نفسها وليس إلا الالتجاء إلى الله تعالى، والتفويض إليه، والتوكُّل في جميع الأحوال، والاعتماد عليه هو المفرج للكرب، والموصل للطلب، والمبلغ منه الإرب، وقد قلت:

يا من إليه شكوتُ الضرَّ والألَما ... ومن بحالي قبلَ الحال قد علِما

قد كنتُ قبلَ وجودِ الكونِ في عَدمٍ ... ولا وجودَ لمن صيَّرتَه عدمَا

وأنت تفعلُ ما تختارُ فيه ومَا ... لفعلِه أثرٌ كلاًّ وليس ومَا

فإن تردِهُ بخيرٍ فهو فاعلُه ... وإن تُردْ ضدَّه بالعكسِ قد فهِمَا

وقد تحيَّرتُ في قولي وفي عَملي ... فيمَا تريدُ ولا أدري لا يتمّا

أفي هداهُ ضلالٍ ليس يدركُه ... أم في الضلالِ هدًى أم في الجميع عَمى

والأمرُ منك حقيقٌ ليس يدفعُه ... عن الأنام سِوى من عقله سقمَا

وليسَ إلاكَ أرجوه وأسألُه ... يا مَن رجاه لكل المذنبين حمَا

أهْل الدُّنيا

(١) رواه ابن حبان (١٠/٥١).

وأعرف فقيًرا رأى في منامه كأن المكان الذي يسلك فيه كله حيّات مختلفات الألوان وهو يمشي بينهم على أطراف الأصابع وقائل يقول له: إن أردت السلامة فلا تخرج من بيتك إلا بعد المغرب.

ثم رأى بعد ذلك وحوشًا كالسباع والتماسيح وغيرها، وهو بينهم..

ثم رأى بعد ذلك أشخاصًا من الآدميين -ربما كان يألفهم ويألفوه- فحدث بعد ذلك من تلك الأشخاص له من الأذى كثير جدًّا.

وأعرف فقيًرا كان له صديقٌ آخاه ممن يعرف فيه الصلاح والدين والظهور بذلك، وهو ببلاد والآخر ببلاد، لا يجتمعان إلا بعد سفر بعيد، فربما وافق جماعة عليه - وقد يكون حسبهم على نفسه- فحصل بينهما ما حصل من الوحشة فكتب:

أأعتبُ أم لا يُفيدُ عتابيَا ... أخاكَ أم ترك الإخاء التصَافِيَا

دخرتُك سهمًا للعدوِّ فصرْتَ لي ... عدوًّا وسَهمًا يأتني من عداتيا

فليتُك لا كُنتَ العَدوَّ ولم تكن ... صَديقًا فتبقى لا عليَّ ولا ليَا

فلا زادَ ذَاك البعدُ إلا تقاصِيا ... ولا زَادت الأيامُ إلا تماديَا

وأعرف شخصًا أحسن إلى شخص حتى بلغ فيه حد الجهد، وعادى عليه جمعًا كثيرًا، وعرَّض نفسه للأذى بسببه، فلم يكن إلا أن وجد نفسه أنه عاد له قوة أو عصبة، فعمل على إيصال ذلك الذي أحسن إليه من كل الأذى الذي وصل الجهد إليه، ورمى بينه وبين الناس من المعاداة وغيرها، ما بقي سنينًا.

ولقد أعرف ممن أحسن إليه، فأساء جماعة حتى لا أكاد أحصي منهم إلا المتعينين، وممن له منصب ديني، وهم كثير، فالله المستعان.

فليحذر الطالب لآخرته، والسالك طريق سعادته، والقاصد وجه ربه ﷻ من مخالطة الناس، كيف قدر بحد الجهد والاستطاعة ففي العزلة السلامة، والسلامة خير من المخاطرة في طلب الفائدة، لا سيما مع تحقق الفتنة.

وحدَّثني القاضي تاج الدين بن السكري أنه كان له صاحب، وكان يأتي إليه ويبات عنده الليلة والليلتين في المدرسة التي هم بها، فلما حصل له تمييز اجتمع به القاضي تاج

الدين فقال له أنت تسكن أين؟ قال: فقلت بمصر، فقال: في أين؟ فقلت في المدرسة فقال: ومدرستكم أين؟ فوصفت له الجهة إلى أن ذكر مواضع التعدية إلى الجزيرة.

فانظر إلى هذه الحكاية ما أغربها، كأنه لم يعرف المكان ولا بات فيه، فلذلك حذرنا من صحبة الناس مطلقًا إلا من تحققت ولايته ودينه، ومروءته وفتوته، وعلمه وعمله، فالفائدة بالاجتماع بمثله ظاهرة وحتى يوجد على هذه الأوصاف، وإن وجد فهو ينفر لمعرفته بالناس إلا أن يكون إمامًا موصلاً إلى الله تعالى كاملاً، فإنه يتحمل الأثقال.

وأعرف جماعة أرباب مناصب دينية، وظهورهم بذلك مشهور بحيث يُقتدى بهم، كان لهم صاحب معتقد فيهم الأخوة والصحبة للآخرة والإعانة في الدنيا والآخرة، حضر لهم شخص جاهل استمالهم بشيء وقصد أذى صاحبهم، فرجعوا عن صاحبهم وآذوه كل الأذى، حتى لم يبقوا مما يقدروا عليه شيئًا حتى وصلوا في أمره إلى أرباب الأمور.

والدنيا عجيبة وعجيب ما فيها، فلا يثق بها وبأهلها إلا غبيّ، جاهل أو محجوب القلب، غافل عن الله تعالى، ولقد أحسن الشافعي -رحمه الله تعالى- في قوله:

خبرتُ بَني الدنيا فلم أرضِهم ... سِوى غادر والغدرُ حشوُ ثيابِه

فجُرتُ من غِمدِ القَناعةِ صارمًا ... قَطعتُ ردائي منهم بذبابِه

فلا ذا يراني واقفًا في طريقِه ... ولا ذا يَراني قائمًا عند بابِه

فكيف قدرت على التخلص من شباك الناس فهو من الغنيمة وقد قلت:

خَانَ الصَّديقَ وخانَ الناسَ كلَّهم ... إلا البَرَور فلا أدري بمن أثِقُ

وإذا قدَّر الله تعالى الاجتماع بالناس لواجب حق أو لضرورة خلق، أو إحياء نفس، فلا تعطهم من نفسك في الصحبة والاجتماع إلا بقدر الضرورة، مع الاحتراز من نفسك من فضول الأقوال والأفعال، ومنهم من يباع فلا فائدة فيه، والموافقة على ما لا فائدة فيه، فإن عدم الفائدة وصف الخسران، والاستقامة عزيزة لو وجدت، والسلامة غنيمة لولا أنها فقدت.

وكن ذليلاً للمؤمنين؛ فإن الذل لأجل الله تعالى ذلّة لله، والذل لله عز من الله في الدارين.

وعزيزًا على الكافرين، فإن العزّة عليهم نصرة للدين، وقيام لمنار المسلمين، وكن في الله مجاهدًا، غير خائف لومة لائم، فأنت إن فعلت من الموصوفين بقوله تعالى: ﴿**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ**﴾[المائدة: ٥٤] هذا فضل من الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [المنافقون: ٨].

وكن طلق الوجه، وافشِ السلام مسارعًا للإكرام، غير جبان في الإقدام، ولا شجاعًا في أكل الحرام، معطٍ كل ذي حق حقه، وحق الله المبدئ على الحقوق، وإن كانت الحقوق كلها لله؛ لأنه الآمر بها.

ولتحفظ حواسك الظاهرة، وجوارحك الباطنة كلها، وخطراتك الباطنة من الجوانح بجملتها من مخالفة ذرة مما ورد به الشرع الشريف فإنه حد العبودية، وحقيقة الحرية، وهو صراط الله المستقيم الذي من سلك عليه في الدنيا جاز الصراط في الآخرة، وهو الدين الذي دان الله به عباده، وأقام به بلاده، وخلقهم لعبادته ليعرفوه ويعبدوه.

عُلَمَاء الرُّسُوم

وإياك والنظر إلى غيرك من علماء الرسوم الذين جعلوه صناعة للمعلوم، وسلّمًا يرتقون به إلى الرئاسات الدنيوية، والشهوات النفسانية، ومنعوا من العلم بظاهره، ولم يتحققوه بالعمل في حقائقه، والكشف عن حقائقه[1].

وليس الخبر كالعيان، ولا ذائق حلاوة العسل كمن سمع عنه بالآذان، وليس من سمع بوجود بغداد كمن رأى بغداد، ولا من رأى بغداد كمن دخل بغداد، ولا من دخل بغداد كمن سكن بغداد، ولا من سكن بغداد، كمن ولد ببغداد، ونشأ بها، وعرف جميع أحولها وأسماء أهلها، ومعائشها وملابسها وأسبابها، وعساكرها وجيوشها وملوكها

(١) قد كان من أحوال أهل الرسوم في هذه الأعصار: أن مَن لم يعرف منهم الأحكام والشرائع؛ يطعن في المعارف والحقائق، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، ولا يُذلُّ إلا مَن عادى الله ورسوله، والورثة من أمته.

قال تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾ [التوبة: ٣٢]: أي كفّار الحقائق، نسأل الله أن يرحمنا بالاعتقاد الصحيح والثبات عليه.

وجندها واصطلاح أهلها وألوانها وألسنتها، وإن كل العلوم وضعت ليعرف الله تعالى بها، فلا تكن من الذين يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون.

وليكن حدّك التقاضي والاحتمال في جميع الأحوال، والمجازات على الحسنات بأكثر منها في جميع الحالات، ولتفهم معنى قوله تعالى:

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦].

ولا تجازِ على السيئات بمثلها، فإن السيئة تسوء صاحبها، ومتى استقبحت من غيرك شيئًا فلا تفعله تكن مثله، ولا يفهم من قوله تعالى: **﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾** [الشورى: ٤٠] أن ذلك أمر لك بالمجازاة؛ لأن صفات العدل تقتضي ذلك، والسيئة في نفسها عائدة على فاعلها، فذكر الوصف من حيث هو هو، فإنه مثلك قبل أن أساء إليك، وأنت مثله إذا قابلته.

فإن عفوت وأصلحت عاد أجرك على الله تعالى؛ لأن العفو من صفات الله فجعل مجازاتك عليه.

وأين المناسبة بين ما يعطيك الله تعالى من الأجر والجزاء وبين ما تقابل المسيء بالسيئة؟ وأين ذمة العبد المسكين المسيء من ذمة الله تعالى الذي بيده ملكوت كل شيء؟ وترك المجازاة والمقابلة بالإساءات لا تسقط الحقوق والحسنات، بل هي تزيد من الحسنات، وترفع عند الله الدرجات، ويكون العطاء من المعطي بحسب ما يعطيه لا بحسب ما تتركه أنت لخصمك، فافهم ذلك.

وأعرف فقيرًا كتب له جماعة كتابًا فيه من القبائح المؤلمات ما تفر منه الطباع، ولا تحمله البشرية لما جبلت عليه من الألم والأوجاع، وطلب منه الجواب من أرسل إليه الكتاب، فقال:

جَـــوابُهم تـــركُ الجـــوابِ لأنّـــه ... يُقابــلُ فحشًـــا أو يعـــودُ ملامَـــا

وإني وإن قلـــتُ الـــذي أنَـــا قائـــلٌ ... كمَـــا قـــال ربي أن أقـــولَ ســـلامَا

ولما أكثر عليه القول في ذلك، وتكلم من تكلم، وقصد من قصد، أن تجاوب أولئك القوم، لأنه كان من غير موجب ولا سبب إلا ظلمًا وعدوانًا وتحاملاً وتألم لذلك جماعة من أهل العلم والدين، وذكروا أمورًا فقال:

ولما أتتني من أناسٍ سَفاهةً ... ولم يَرقُبوا فيما أتَوه مآبَا
فنزَّهتُ لفظي عن مقالةِ مثلِهِ ... وقلتُ أرى تركَ الجوابَ جوابَا

وعلى الجملة: فكل من اعتدى عليك أو [تجرأ] عليك في الإساءة فقد أهدى إليك حسناته، وزاد في الهدية بقدر ما أربا في الإساءة، فمتى اعتبرت ذلك وخلصت النفس من حظها وطلبها لعاجل حقها لزم أن تحسن لمن أساء إليك؛ فإنه وإن كان أساء إساءة ظاهرة فقد أحسن باطنًا، وإن كان أظهر بالإساءة التعالي عليك، والربح في دنياه فقد ظهرت الخسارة والذل عليه في أخراه، وحصل لك بالإحسان إليه مع إساءته إليك الإخلاص لله في الشكر على نعمه الباطنة.

حكي عن الشيخ ابن الخطاب أنه رأى الله تعالى في المنام قال: «فقال لي: يا ابن الخطاب تَمَنَّ، فسكت، قال لي: يا ابن الخطاب تَمَن، فسكت، ربما قال الثالثة فقال لي: يا ابن الخطاب، أعرض عليك ملكي وملكوتي، وأقول لك تمنَّ وأنت في ذلك تسكت؟ فقلت يا رب، إن تكلمت فبك، وإن نطقت فبما تجري به على لساني، فما الذي أقول؟ فقال لي: يا ابن الخطاب، قل أنت بلسانك، فقلت: يا رب، إنك شرّفت أنبياءك بكتب أنزلتها عليهم، فشرِّفني بكلام لا واسطة بيني وبينك فيه، فقال لي: يا ابن الخطاب، من أحسن إلى من أساء إليه فقد أخلص لله شكرًا، ومن أساء إلى من أحسن إليه فقد بدَّل نعمة الله كفرًا، فقلت: يا رب، زدني، فقال: حسبك حسبك».

وابن الخطاب هذا أحد أشياخ ابن العربي، وكذلك جرى لأحد أشياخه لما شهد عليه بالكفر، فقال السلطان: لا تسمع الشهادة إلا بحضرة الشيخ، قال الشيخ: فطلبت ولم يكن معي شيء أتصدَّق به، فاقترضت نصف رغيف -ربما قال من بيّاع- فتصدَّقت به.

فلما حضرت عند السلطان قال الوالي للشهود: قولوا ما قلتموه في غيبته، فأطرق الجميع ورفعوا رءوسهم وقالوا: ما نعلم إلا خيرًا، فقال لهم الوالي: ما هكذا قلتم، وجعل يظهر الإنكار عليهم، والتعجب من مقالتهم، وأنا أضحك، فقلت له: لا تعجب من ذلك، هم باقون على ما في قلوبهم، وأنت باقٍ على ما في نفسك، وإنما

ورد في الحديث: «**إن الصدقة تطفئ غضب الرب**[1]» فتصدَّقت بنصف رغيف، وغضبكم أقل من غضب الله تعالى فدفِعت الأقل بالأكثر.

الصدق والصدّقة

فانظر رحمك الله إلى صدق المتعاملين مع الله تعالى والإخلاص وتحقيق التصديق لما أتى به رسول الله ﷺ عن ربه ﷻ، فلذلك ظهرت ثمرته في وقتها؛ لأن الأعمال كلها لها ثمرات، ولها حقائق وأنوار، لا يحجبها عن وقتها إلا الشوائب الداخلة في العمل، وقلة الإخلاص أو عدمه، فهذه هي القواطع لطريق العاملين.

وإذ قد عرفت تحقيق الإخلاص في الصدقة، وتحقيق تصديق الرسول فيما أتى به عن ربه ﷻ، وسرعة ظهور ثمرته، فاعلم أن الصدقة سارية في الأقوال والأعمال كلها، والكلمة الطيبة صدقة، وترك المؤاخذة، صدقة والتصدق بعرضك من أعظم الصدقات.

وقد كان أبو ضمضم يصبح فيتصدق بعرضه على المسلمين، وقد ورد: «**أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم**[2]» أو كما ورد.

والمال والعرض والنفس في سياق واحد في الذكر لقوله تعالى ﴿**لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فإن ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾ [آل عمران:١٨٦].

الشيخ الأكبر هو الخاتم الثاني الأطهر

وحدثني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عن خادم الشيخ محيي الدين بن العربي قال: كان الشيخ يمشي والخادم خلفه، وشخص يسب ابن العربي، وربما قال: يلعنه وهو ساكت لا يتكلم، ولا يرد عليه، قال: فقلت له: يا سيدي، ما تنظر إلى هذا وما يبدو منه في حقّك؟ فقال: ولمن يقول؟ قال: يقول لك، قال: ومن أنا؟ قال: أنت فلان بن فلان، وهذا فلان بن فلان، وهو يسبّك ويلعنك

(وسمى كل واحد باسمه واسم أبيه) فقال: ما يسبني أنا شيء فقلت له: كيف؟

---

(١) رواه الترمذي (٣/٥٠٢)، والحاكم (٣/٦٥٧)، والقضاعي في الشهاب (٦٨)، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٥/٢١٨).

(٢) رواه أبو داود في سننه (٤/٢٧٢).

قال: هذا تصوّرت له صفات ذميمة، فهو يسب تلك الصفات، وما أنا موصوف بها.

ولعله أخذ هذا من قول النبي ﷺ: «**ألا ترون ما دفع الله عني بسبب قريش؟ يذمون مذمّمًا وأنا محمد**[١]» والمعنى صحيح، لأنهم يسبون صفات مذمومة في مذمّم، ورسول الله ﷺ صفاته محمودة في محمد، متصف بها ﷺ.

ولقد حكى لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عن ابن العربي حكايات من هذا الجنس وغيره، مع ما يتكلم الناس فيه، ونسبوه إلى الكفر بألفاظ وجدوها في الكتب ما تأولوه في كتبه أم لا.. ونحن نبرأ إلى الله تعالى مما يخالف شريعته وما أتى به ﷺ، والأنبياء من قبله -عليهم السلام- وكذلك تكلم في ابن سبعين قدس سره.

وحكى لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- أن شخصًا كان بدمشق أقرض على نفسه أن يلعن ابن العربي كل يوم عقيب كل صلاة عشر مرات.

فاتفق أن ذلك اللاعن لابن العربي مات، وصعد ابن العربي مع الناس في دفنه بعد الصلاة، فلما دُفن وجلس الشيخ عند أحد محبيه في بيته، وتوجَّه إلى القبلة، فلما جاء وقت الغداء، أحضر صاحب الدار الغداء فلم يلتفت الشيخ ولم يأكل، وبقي على توجهه.

فحصل لصاحب البيت ألم شديد بسبب ذلك، وربما خطر له أن الشيخ متشوش عليه، ورأى في طعامه ما يمنعه عن أكله.

ولم يزل على تلك الحال إلى بعد صلاة العشاء الآخرة، يصلي الصلوات ويتوجه، فلما كان بعد العشاء الآخرة التفت إلى الجماعة وهو مسرور وطلب الطعام، فقال له صاحب الدار: يا سيدي، حصل لي من الألم ما هو كذا وكذا، فقال: لم يكن عندي شيء من ذلك، وإنما التزمت مع الله تعالى ألا آكل ولا أشرب حتى يغفر لهذا الذي كان يلعنني، فبقيت كذلك، وعملت له سبعين ألف لا إله إلا الله، وقد رأيته وقد غفر له.

فانظر إلى هذا الإحسان لمن أساء إليه، والتبرؤ من الغيظ النفساني، وعدم

---

(١) رواه البخاري (١٢٩٩/٣)، وابن حبان (٣١/١٤).

المؤاخذة، والعفو والصفح الذي يعود أجره فيه على الله تعالى.

وحكى لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى-عنه حكايات تدل على عظم شأنه وكشفه واطلاعه، وحكى لي الشيخ الإمام محب الدين الطبري شيخ الحرم بمكة شرفها الله تعالى عن والدته -وكانت من الصالحات- أنها ربما أنكرت على ابن العربي كلامًا قاله في معين الكعبة لم أذكر منه إلا قوله: يا كعبة الله ويا زمزمه، فربما استعظمت ذلك منه قال: فرأيت الكعبة تطوف بابن العربي، ربما قال في المنام.

ولقد كان وقع بين الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام -قدس الله تعالى روحه- وبين الشيخ محيي الدين بن العربي، أخبر الشيخ عبد العزيز ذلك لأن الشيخ عز الدين منكر بظاهر الحكم.

وحُكي عن خادم الشيخ عز الدين -قدس الله روحه- أنه دخل مع الشيخ إلى الجامع بدمشق، فقال الخادم للشيخ عز الدين: أنت وعدتني أنك تريني القطب، فقال له: ذلك القطب. وأشار إلى ابن العربي وهو جالس والحلقة عليه، فقال له: يا سيدي، فأنت تقول فيه ما تقول، فقال: هو القطب، فكرر عليه القول وهو يقول له ذلك.

فإن يكن القطب فلا معارضة في قول الشيخ عز الدين لأنه إنما يحكم عليه بما يبدو من أمور الظاهر وحفظ سياج الشرع، والسرائر أمرها إلى الله تعالى يفعل فيها ما يشاء، فقد يكون يطلع على محله ورتبته فلا ينكرها وإذا بدا في الظاهر شيء مما لا يعهده الناس في الظاهر أنكره حفظًا لقلوب الضعفاء ووقوفًا مع ظاهر الشرع وما كلف به، فيعطي هذا المقام حقّه وها حقه والله أعلم أى ذلك كان.

والوقوف مع حسن الظن وما تعبدنا الله تعالى من اتباع الشرع وحسن التأويل أولى بنا، ولا نرجع في ذلك إلى الأتباع إذا بدا منهم ما يخالف الحق أن ينسب ذلك إلى الأشياخ، فإن أكثر الجهال إذا صدر من الأتباع شيء من النقائص أو الكفر نسبوا ذلك لأشياخهم، فليس هذا من العدل ولا الشرع قال الله تعالى: ﴿**وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾ [الأنعام: ١٦٤]، فإن من أتباع هذا من حصل منه ذلك.

وحدَّثني الشيخ سراج الدين بن دقيق العيد -قدس الله تعالى روحه- وكان من

العلماء الكبار- قال: إن العفيف التلمساني- ويُعرف أيضًا بالكوفي[(١)]- تحدث معي ووضع يده على هذه الإسطوانة وقال: دلَّ الدليل على أن هذه الإسطوانة هي الله، فقلت: أخطأ في العبارة، وكفَر بالتعيين، وهذا الكلام كفر صريح؛ إذ يجعلون الحادث هو عين الحق القديم الخالق، بل هذا في ضعف العقل، بل في عدمه، بل أنزل من رتب المجانين، فإنَّا لا نرى المجانين وإن كانوا عقولهم مستورة يتكلَّمون في شيء من ذلك؛ لأن العقول قبل تسترها ارتسم فيها صور المعتقدات، فما يأتي بما يخالف نفس المعتقدات الصحيحة إلا ما كان فيه قبل ذلك تخيل أو تأويل في نوع من أنواع المعتقدات الفاسدات، ونعوذ بالله من ذلك، وأما من قال بهذا القول فهو أكفر من جميع الكفار، إذ يجعل عين الموجودات عين الحق، وهذا الكلام قد تكلم به عليهم من هذا الوجه.

وحكى لي الشيخ شمس الدين بن الجزري[(٢)] عن الشيخ شمس الدين الأصفهاني[(٣)]، عن العفيف التلمساني، بمثل هذا القول الذي قاله الشيخ سراج الدين

---

(١) هو القطب المحقق: سليمان بن علي بن عبد الله ياسين العفيف التلمساني. الذكي الحاذق، المنطقي الخارق، تلميذ القونوي، صاحب شرح الأسماء الحسنى، وشرح منازل السائرين، وشرح مواقف النفري، وشرح الفصوص، وصاحب كتاب الخلوة، وعمل فيه أربعين خلوة، كل خلوة أربعين يومًا.مات سنة خمس وسبعين وستمائة. وانظر: الكواكب (٥١٢).

(٢) الصاحب شمس الدين ابن الجرزي محمد بن سعيد بن ندى الصاحب الوزير شمس الدين الجزري والد محيي الدين محمد المقدم ذكره نشأ نشأة طاهرة واجتهد في تحصيل العلوم فأحظاه ذلك، بأن كان من أئمة عصره المشار إليهم يعتمد في المذاهب الشرعية على نهيه وأمره وفوض إليه السلطان معز الدين سنجر شاه ملك الجزيرة العمرية النظر في أمور دولته وسلم إليه أعنة مملكته فقام باعبايها ولم يشذ عن ضبطه شيء من أمورها واشتهر بسداد الرأي وصار له في الديوان العزيز وعند الملوك قبول تام وكان يتوالى الدولة الأيوبية، توفي ثالث عشر جمادى الآخرة سنة عشر وستمائة، انظر: الوافي في الوفيات للصفدي (١/٣٤١).

(٣) هو محمد بن محمود بن محمد بن عباد الكافي العلامة شمس الدين أبو عبد الله الأصبهاني الأصولي قدم الشام بعد الخمسين وستمائة، وناظر الفقهاء واشتهرت فضائله، وانتهت إليه الرياسة في معرفة الأصول في الفقه وشرح المحصول للإمام فخر الدين شرحاً كبيراً حافلاً، وصنف كتاب القواعد مشتملاً على أصول الدين وأصول الفقه والمنطق والخلاف وهو أحسن تصانيفه، وله غاية الطلب في المنطق وله معرفة جيدة بالعربية والأدب والشعر لكنه قليل البضاعة في الفقه والسنة ولي قضاء منبج =

عن الذي ذكره الشيخ شمس الدين أنه قال عن إبريق أنه الله! وكان الشيخ شمس الدين الأصفهاني ذلك الوقت قاضٍ بقوص، وأراد أن يوقع به الفعل فأسلم، وكشف رأسه.

والعفيف هذا منسوب، لأنه تلميذ لابن العربي، ولم نذكر حكاية العفيف إلا للتحرير من كلامه، فإنه له كلام وشعر رقيق، فليحذر المطالع لكلامه من هذه الفتنة، والكفر التي لم يقل بها قائل من جميع الطوائف.

وإن كانت الحقيقة أن الله تعالى وجب الوجود لذاته، لم يكن معه غيره، وما كان معه سواه، فكل موجود فيه وجد وهو حادث أحدثه من غير شيء فكيف عمّن من وجد بذاته عينه وهويته، أو يقال عن المخلوق أنه عين الخالق! وعن الحادث أنه عين القديم! وعمّا تصنعه بيدك أنه إلهك! وعمّا تدخله في جوفك أو يخرج من جوفك أنه هو الإله! تعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

لكن ما يلزم من كفر هذا أن يكفر شيخه.

وكذلك الشيخ قطب **الدين بن سبعين** تكلموا فيه، وذكروا عن بعض أصحابه أو أصحاب أصحابه شيئًا من الكفر، ومن هذا المعتقد فلا يلزمنا أن نعتقد في الشيخ ما لا نسمعه منه، ولا نشهد به عليه، ولا ما يقوله من ينتمي إليه، وليس لنا غرض إلا في تبعته الحق، وقول الصدق، ولا يجوز أن يترك ما تقول الناس عنه من الخير، ويقال ما يقولوه من الشر، ونحن إلى حسن الظن أميل، لأن الله تعالى حرم من المسلم ماله ودمه، وأن يُظن فيه ظن السوء.

كشف واطِّلاع

وقد ذكرنا ما اتفق للتاج الكاتب مع الشيخ قطب الدين بن سبعين بمكة شرفها الله تعالى، وكونه قال له: اكتب كاتب الصاحب أنت، قال: فكتب كذلك، وسافرت

=

في أيام الناصر ثم دخل مصر وولي قضاء قوص ثم قضاء الكرك، ورجع إلى مصر، وولي تدريس الصاحبية، وأعاد وأفاد، وولي تدريس مشهد الحسين وتدريس الشافعي، وتخرج به خلق ورحل إليه الطلبة وكتب عنه الحديث علم الدين البرزالي وغيره مولده بأصبهان سنة ست عشرة وتوفي بالقاهرة سنة ثمان وثمانين وستمائة، انظر: الوافي (١/٥٩٥).

من مكة، فحين وصلت إلى مصر سير إلى الصاحب، واستكتبني في الوقت، والكاتب موثوق به، وهذا كشفٌ صريح.

وكذلك ما حُكي عن ابن العربي أن شخصًا طلع له وهو بمفرقة بدمشق، وذكر أن الشيخ عز الدين كان حاضرًا، فقال له ذلك الشخص: إني أقصد الجهة الفلانية، فقال: يأخذ العرب، فقال: لا بُدَّ لي من السفر، فنزل، وإذا الشيخ يقول: هذا البدوي خرج عليه وأخذوا ثيابه، وها هو قد رجع، وجعل يقول: ها هو إلى أن قال: فلان؟ قال: نعم فطلع لنا عريانًا ونحن جلوس بمكاننا.

واشتبه عليَّ الحال: هل هو القاضي جلال الدين بن السكري عن قاضي القضاة وجيه الدين البهنسي، أم هو الشيخ عبد العزيز؟ وكلاهما إذا حكيا سواء، والله تعالى أعلم بهذه الأحوال، ونسأله السلامة والعفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة، فإن البلايا والمحن غير مأمونة في طول الحياة، ومدة العمر لكل أحدٍ، وما ندري ما يئول إليه الحال.

وليس كلامي كشفُ واطلاعُ وإحاطة بالمعلومات كلها، فإن من أعطاه الله تعالى القطبية أو الغوثية فليس له إلا علم ما علَّمه الله تعالى، ولله تعالى في كل خلقه علم خاص، لا سبيل لغيره أن يصل إلى ذلك العلم البتة؛ لأن الوصول إليه مستحيل، لمشاركته لله في علمه، وذلك مستحيل من جميع الوجوه، بل يخفى على بعض المكاشفين في بعض الأوقات ما لا يخفى على غيرهم ممن لا كُشف له، لا سيما أحوال العادة، وما لا له تعلق بأحوالهم الدينية.

ولقد حكى الشيخ عبد العزيز عن الشيخ شعبان وكان يجلس بجامع مصر مع كشفه واطِّلاعه، أن بعض المسافرين جاء له بزبديّة ملوخية وقال: يا سيدي، أشتهي أن تأكل معنا ونؤاكلك، فأكل الشيخ معهم، وكانوا قد جعلوا له منها شيئًا من المسْكِر - وهو الحشيش الذي يذكره الناس بالسكر - فسكر الشيخ وجعل يقول: ما لي؟ إيش بي؟

هذا مع ما حكاه من تصريفه، مع الغيب في حديث المرأة التي جاءت إليه تشكو بعلها من عدم إنفاقه عليها وعلى أولاده منها، وأنها تغزل وتقوم بنفسها

وبأولادها، وأنه جاء وسرق غزلها، فكلمه الشيخ في ذلك فاعترف، وقال: والله ما أنا أقوم بها ولا بأولادها، وسرقت غزلها.

قال: وكان خادم الشيخ قد قال للشيخ: اخلع ثيابك حتى أفليهم لك في الشمس، ولم يكن قصده إلا أن يبصر جيبه الذي يخرج منه الدراهم للناس، قال أسد خادمه: فخلعت ثوب الشيخ وفليته وأبصرت جيبه ولم يكن فيه شيء، فلما جاءت المرأة وزوجها على تلك الحال أخرج الشيخ من جيبه دينارين، أعطاهما للمرأة، وقال لها: أنفقوا الواحد عليكم، والآخر اشتري به كتانًا، ثم التفتَ إليه وقال: يا سيد، جيوب الفقراء ما فيها إلا الذهب.

الكشْــف من اللّـــه

وربما حكينا هذه الحكاية في غير هذا الموضع، فلا نظن أن عدم اطلاعهم على جميع الأحوال نقصًا فيهم، بل أحوال العادة التي الناس فيها ليس هي من شأنهم، وإنما شأنهم حفظ قلوبهم وسرائرهم مع الله تعالى في الباطن، وحفظ جوارحهم مع ما أمر الله تعالى به في الظاهر، هذا شأن الكمل، بل لا يلزم الرسل صلوات الله تعالى عليهم وسلامه العلم بكل أحوال الناس مع جلالهم وعلو شأنهم، وكرامتهم على الله تعالى، وكونهم حجة الله تعالى على الناس، إلا البلاغ بما أمروا به، والتحدي بالمعجزات الدالة على صدقهم، صلوات الله تعالى عليهم وسلامه، بل ليس لأحدٍ من خلق الله تعالى علم بما لا علَّمه الله تعالى من الجن والإنس والملائكة والشياطين والخلائق أجمعين، قال الله تعالى: ﴿**قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ [النمل:٦٥].

طَــرائق الكشــف

فإذا أراد الله تعالى أن يعلم أحدًا من خلقه ممن اختصَّه لذلك من الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين من علوم المكاشفات، والإخبارات بالمغيبات، كالأنبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه، بالوحي، أو الإلقاء، أو التنزل على قلوبهم، أو بالجملة مما يشاء من الأوامر بالإرادة، أو الإرادة بالأوامر، ووصل إليه العلم بما أراده من ذلك، أو بغير ذلك.

وتشترك في ذلك كل حواسهم الظاهرة والباطنة، وينوب بعضها عن بعضٍ في

ذوقية العلم به، ويقوم به وجدانهم لذلك، فيظهر أثره في الحال على محلهم بما هم سبيله في إظهار المعجزة، وكشف الحقائق والإخبارات بما وراء العقول.

فيدعون إلى الله على البصيرة، ويخاطبون الناس بما يطيقونه من ذلك؛ لأنهم يشهدون ما يطيق الخاصة والعامة، وما يسعوه من ذلك التكليف.

ويأخذ كل وليٍّ نصيبه من ذلك بحسب ميراثه من نبيِّه وحصته من قسمته، إما بالنفث في الرّوع، أو بالكدح في البصيرة، أو القذف في القلب، فيتحصل له العلم، إما بالشهود أو الذوق أو الوجدان.

ويشترك في ذلك أيضًا الحواس، وينوب بعضها عن بعض، ويحرق سماع القلب فينوب عنه حاسية الأذن، وتكون العين مشاهدة لما تستمعه الأذن؛ إذ عين القلب تتبعها عين الحس، وتكون الأذن سامعة لما تشهده العين، وكذلك جميع الحواس.

فتكون الحواس والجوارح الظاهرة مانعة للمعاني والجوارح الباطنة، فإذا امتلأت البصيرة بالنور تعد أنورها نور البصيرة، فيكون البصر تابعًا للبصيرة.

رؤيــــة اللّــــه

ومن هنا يقول من يقول بالرؤية، وجوازها مع الاختلاف في ذلك بين أهل الظاهر، ودليل من قال بالجواز قول موسى عليه السلام: ﴿**أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ**﴾ والنبي المعصوم لا يسأل المستحيل، وقوله تعالى: ﴿**لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي**﴾ [الأعراف:١٤٣] يحتمل التأويل في المنع عن الإدراك في الإحاطة والوقت نفسه، وغير ذلك من المحتملات، ولا يكون ذلك منعًا في جميع الأحوال، ولا في كل الأوقات.

الرؤيــــة والرؤيــــا

وإذا جوزنا الرؤية في المنام لغير الأنبياء عليهم السلام، فلا فرق فيما يأتي به الأنبياء في اليقظة والمنام، وقد كان بعض الأنبياء يوحى إليهم في المنام، وقصة إبراهيم عليه السلام في ذبح ولده بنص القرآن الكريم، ولأن الشواغل التي تحجب غيرهم عن الكشوف لاشتغال الحواس بالعوائد، وارتكاب ما حظره الشرع عليها، فإذا سكنت الحواس بالنوم ارتفع حجاب الشواغل، وانكشف الغطاء عن الرؤية، فحينئذٍ يجوز رؤية

الله تعالى في المنام، وينظر وينظر ما كان بعيدًا قريبًا من البلاد البعيدة، وغيرها التي لا ينالها في طول الحياة بالسعي بالحس؛ لأن البُعْد والقُرب من صفات الأجسام، فإذا ارتفع عن العبد حجاب الهوى وحظ النفس، وارتفع الحدث الأكبر والأصغر، وطهرت نفسه طهارة كاملة، رأت كل ما يراه النائم في اليقظة، وهذا في حق غير الأنبياء، فكيف بالأنبياء -عليهم السلام؟- وقد قيل:

غضـبتُ هـواي في زَمـان غرامـي ... وقيّـدتُ نفسـي عـن طـلابِ مَرامـي

فصَارَ تعيـن في الحقيقـةِ شـاهدي ... فسـيّان عِنـدي يقظـتي ومنـامي

هل رأي النبي ربه بعيني رأسه؟

والذي منع الرؤية استدل بقول عائشة ﵂: من زعم أن محمدًا رأى ربه بعين رأسه فقد أعظم على الله الفرية بعد قوله تعالى: ﴿**لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ**﴾ [الأنعام:١٠٣].

والحديث الوارد: «**لو رُفع حجاب العزة لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**(١)».

وحديث ابن عباس في جواز الرؤية، وأن رسول الله ﷺ رأى ربَّه ﷻ، وكل الأقوال تحتمل التأويل، وهي غير متناقضة.

فالقائل بجواز الرؤية من غير إحاطة ولا تحييز ولا جهة ولا تمييز ولا إدراك ولا معقول ولا بما يعلم بالمعقول لكن بالاصطفاء والتخليص والمحبة والتخصيص، وقذف النور من الله تعالى في بصيرته، وتجلي الربوبية في سريرته، وذلك عند محو صفات العبد بتجلي صفات الرب، فيراه به ويشهده بقلبه، كما ورد: «**كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به**(٢)» فما شهد ربه إلا بربه، ولا عرفه إلا بتعرفه، كما ورد: «**فتعرفت لهم فبي عرفوني**(٣)» والعبد هنا كالآلة؛ لورود ما يرد عليه من تحريكه

(١) رواه مسلم (١/١٦١).

(٢) رواه البخاري (٥/٢٣٨٤)، وابن حبان (٢/٥٨).

(٣) الأصل في ذلك حديث: «**كنت كنزًا مخفيًّا فأحببت أن أُعرَف فخلقت خلقًا فتعرَّفت**
=

=

إليهم فبي عرفوني» ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١٧٣/٢).
فائدة عظيمة: فإن الذات الأقدس منطوٍ فيه نفائس جواهر الاسماء الذاتية التي هي عين ذاته الأقدس، وكونه مطلسمًا: أي لا يطَّلع عليه أحدٌ إلا هو تعالى، فإن من عادة الكنوز أن يوضع عليها أسماء روحانيين تُسمَّى بالطلسم، حتى لا يطَّلع عليها أحدٌ، ولا يظهر منها شيءٌ، إلا لمن كانت هي له، والطلسم هو طل اسم.
قال الشيخ: هو مقلوب مسلط، ففي الكلام استعارة، حيث شبَّه ذاته الأقدس المنطوية على أسمائه الذاتية التي يرغب في تحصيل شيء منها كل أحدٍ، ولا يمكنه ذلك لغيبه بالكنز المطوي على النفائس التي يرغب في تحصيل شيء منها كل أحدٍ، ولا يمكنه ذلك لوضع الطلسم: أي الحروف المهمات عليه، المانعة من الاطِّلاع عليه.
فقوله: «فبي» من حيث حساب الجُمَّل اثنان وتسعون، وعدد حساب محمد كذلك.
فالمعنى من باب الإشارة فبمحمد ﷺ «عرفوني».
أو المراد: فبظهوري عرفوني، وهو ﷺ أول مظهر.
وأورد بعضهم: أن الخفاء من الأمور النسبية لابد فيه من مخفي، ومخفي عليه، لا يجوز أن يكون المخفي عليه هو الله تعالى؛ لأنه تعالى ظاهر بنفسه لنفسه عالم بذاته أزلاً وأبدًا.
ولا يجوز أن يكون هو الخلق؛ لأنهم لم يكونوا موجودين في الأزل حتى يكون الحق مخفيًّا عليهم.
وفي الحديث: «كان الله ولم يكن معه شيء».
والجواب بأن للأشياء وجودين وجودًا علميًا، ووجودًا خارجيًا.
فالوجود العلمي: الأعيان الثابتة وهي أزلية قديمة.
والوجود الخارجي: محدث، فخفاء الحق تعالى بالنسبة إلى الأعيان الثابتة في الأزل فلما أراد الله تعالى أن تعرفه الأعيان الثابتة أخرجها من الوجود العلمي إلى الوجود الخارجي لتعرف الله تعالى، يقتضي أن تعتبر الأعيان الثابتة مع الهوية الأحدية، وأن تساوقها، وليس كذلك بل الجواب الصحيح أن يقال: أن الخفاء كناية عن عدم عالم به سواه، فكأنه قال ﷺ: كنت كنزًا غير معلوم لأحدٍ سواي، على أن الأمور الذوقية، والأسرار الإلهية لا يلتفت فيها إلى مثل هذا الإيهام. وانظر: شرح الصلاة الأكبرية للقادري (ص١١٥) .
وقال الشيخ الكتاني: وقد كان سبحانه قبل أن يخلق هذا العالم في خفاء كنزيته وغيب هويته وبطونه الذاتي غير متعرف بقيد من القيود إلى من يحصل أو يأتي، فاقتضت حكمته الباهرة ومشيئته القاهرة أن يعرف المعرفة اللائقة بذاته، وأن يظهر أثر أسمائه وصفاته كما ورد في الحديث القدسي - قال في «الفتوحات»: الصحيح كشفًا، الغير الثابت نقلاً عن رسول الله ﷺ عن ربه عز وجل أنه قال ما هذا معناه - «كنت كنزًا مخفيًا لم أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق وتعرفت إليهم فعرفون»،
=

وإسماعه وإنصاته وقيامه وقعوده، ليس له من حيث نفسه حركة ولا سكون ولا سمع ولا بصر ولا حياة ولا موت، فإن الجسد من غير رُوح فيه لا ينسب إليه فعل منه ولا عنه، كجسد آدم عليه السلام حين كان كالفخارة، فهل كان يسمع أو يفهم أو يبصر أو يعلم؟ أو يُنسب إليه جهل، أو علم، أو نفع، أو ضر؟ فلما نفخ فيه الروح قامت به الصفات، وهي من الله تعالى فافهم ذلك.

ولما كانت المعجزات والكرامات والخوارق للعادات، لا تأتي بالإكساب، ولا بشيء من الأعمال والأكساب، وهي من عالم الملكوت والعالم الأخروي، فكذلك حسن الاعتقاد والإيمان بالأنبياء والأولياء، وقد أخبر رسول الله ﷺ بعجائب الآخرة وأحوالها، وما فيها من النعيم والجحيم، وأخبر أنّ الناس يرون الله تعالى في الدار الآخرة،

=

انتهى.

وذكره في كتاب «الحجب المعنوية» أن الذات الهوية له بلفظ ورد في الكتب الإلهية قال الله تعالى كنت كنزًا مخفيًا لا أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت خلقًا فتحببت إليهم بالنعم حتى عرفوني.

وفي كتاب «عقلة المستوفز» أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قال: يا رب لم خلقت الخلق؟ فقال له عز وجل: كنت كنزًا مخفيًا لم أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق وتعرفت إليهم فعرفوني.

وذكره سيدي علي وفا في كتاب «مفاتيح الخزائن العلية»، وابن غانم المقدسي في كتابه: «حل الرموز» وجماعة بلفظ: «كنت كنزًا لا أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت وتعرفت إليهم فبي عرفوني».

وذكره أبو زيد الفاسي في «تحفة الأكابر» أوائل الكتاب نقلاً عن الشيخ محيي الدين البوني رضي الله عنه بلفظ: كنت كنزًا لا أعرف، فخلقت خلقًا فتعرفت إليهم فبي عرفوني.

قالوا: ومعنى قوله: خلقت خلقًا. قدرت أعيانًا تقديرية، فتعرفت إليهم بجلالي وجمالي، ودللتهم علي، فبي مني إليهم عرفوني، وكان هذا التعريف بلسان ترجمان القدم، وهو الحقيقة المحمدية التي هي أصل الكل.

وقال الجيلي في «كمالاته» هذا حديث صحيح من طريق الكشف، ضعيف من طريق الإسناد.

وقد أجمع المحققون يعني من أهل الله تعالى على صحته، وذكره غير واحد منهم في مصنفاته، انتهى.

وأما ابن تيمية من حفاظ الحديث فذكر أنه: ليس من كلام النبي ﷺ وأنه لا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف، وتبعه بدر الدين الزركشي، والحافظ ابن حجر وغيرهما.

وقد وافقهم مؤلف «الإبريز» وقال: إنه لم يقله النبي ﷺ. ولعله أراد أنه لم يقله لفظًا، وإن كان له معنى، أو أنه من كلام الكتب الإلهية لا من كلامه عليه السلام راجعه وراجع «المقاصد الحسنة» للسخاوي رحمه الله. وانظر: جلاء القلوب، وقاب قوسين (ص٨٤) .

وما أخبره عن علم ويقين ورؤية وحق.

أهل السنّة والحقائق

ورؤية الله تعالى جائزة لغيره في الدنيا والآخرة من غير خلاف عند أهل السُّنة والحقائق، فقد دلَّ ذلك على رؤية رسول الله ﷺ لربِّه ﷻ لما قررناه من جواز رؤية غيره لربه في المنام في الدنيا، وجواز رؤيته له في الدار الآخرة.

ومنامه ﷺ ويقظته سواء، ورؤية الآخرة في الدنيا، والدنيا في الآخرة سواء؛ لأن حقائق الكشف الصحيح ترى كل دار من الدار الآخرة لا تحجب هذه، بوجود دخوله في غيرها، وأصحاب الكشف في المقام الرابع يعلمون أحوال الناس في الآخرة بعد مماتهم، كأشد ما كانوا يكشفونها في حال حياتهم، ومن كان كشفه في خارقه كان كشفه في داره الآخرة، تلك الدار أشد عمّا في الدار الآخرة أشد خرقا ووضوحًا لقوله تعالى: ﴿**فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾ **[ق:٢٢].**

ومن كان في هذه الدار في لبس وعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً، ولأن العبد يموت على ما عاش عليه، ويُبعث على ما مات عليه إلا من كان موقنًا بما في تلك الدار، ومؤمنًا بالغيب، قد رسخ الإيمان في قلبه، وشرح به صدره، وثلج به يقينه، فعندما ينكشف له الغطاء يجد كل ما أمر به، فلا يتحجب عنه كما ورد عن علي كرَّم الله تعالى وجهه «لو كشف الغطاء لما ازددت يقينًا».

فإن كان يزداد وضوحًا فإن الشمس إذا ظهرت من وراء ستائر السحاب، وكان سحاب رقيق، ثم انقشع السحاب عن الشمس لم تزددْ يقينًا في أنها الشمس بانقشاع السحاب عنها، لكنّا ازددنا وضوحًا، ولذلك يحلى العروس بخمارٍ رقيق كالشعارى الرقيقة على الحاضرين، ثم كشفت ذلك الحجاب عنها لم يزدد الحاضرين يقينًا في كونها للعروس، لكن ازدادوا وضوحًا، وهذا بحسب درجات المكاشفين، وبحسب اطلاعهم ومقاماتهم، وكذلك بحسب قوة إيمان المؤمنين بالغيب، ودرجاتهم ومقاماتهم في ذلك، والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه أعلى الناس كشفًا واطلاعًا ووجدانًا وعرفانًا، فلذلك لا يمنع جواز الرؤية بالاختصاص الإلهي.

ونحـــــن الصوفية

ونحن نؤمن برؤية رسول الله ﷺ مع تحقيق التنزيه على ما يستحيل على الله تعالى من الكيفية والأينية، والتحييز بالإحاطة، والكمية والكلية والبعضية، وما يجب له من الكمال لذاته العلية من جميع الوجوه والأحوال، وما يجوز له في ذلك، ولن يقدر أحد من الخلائق يمنع على الله تعالى أن يتعرف إلى عباده بما شاء كيف يشاء، ولا يشهد كل مشاهد لربه إلا بحسب قوة كشفه، وما تعرف له به ربه ﷻ بحسب قوته واستعداده، أو ضعفه وحجابه.

وذلك كرؤية الشمس المحسوسة للعين المحسوسة في قدر الترس، وهي من أكبر من الدنيا في تقدير العقل مرارًا فظهر أثر البُعد في الحس، ولم يكن ذلك تصغيرًا للشمس برؤية العين، وكذا النجم على قدره وهو كالجبل العظيم، فلم يكن ذلك تصغيرًا للنجم كما قيل:

والعَيْـــــــبُ في الطَّـــــرْفِ لاَ في الــــــنَّجْمِ في الصِّـــــغَرِ

وسأل شخص عن حديث النبي ﷺ: **«إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامّون أولا تضارون في رؤيته**[1]**»** كيف والقمر جسم متحيز وربنا ﷻ ليس بجسم ولا متحيز؟ فكان الجواب أن رسول الله ﷺ إنما أراد ضرب المثل لا المثلية؛ لأن الهلال في أول طلوعه في أول الأشهر الدينية -وهي كشهر رمضان وذي الحجة- يتضامم الناس لرؤيته، ويحدّقون بأبصارهم إلى السماء، فتضررت أبصارهم بالتحدق في السماء، وليس رؤية القمر كذلك لشدة وضوحه، فضرب المثل في الرؤية والوضوح، ولم يضرب المثل لله تعالى، فالناس في الدار الآخرة يرون الله رؤية واضحة، ولم تدركه الأبصار؛ لقوله عزَّ من قائل:

﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ [الأنعام:١٠٣].

ولأن الأبصار محسوسة، والمحسوس لا يتعدى المحسوس، والبصائر لها الكشوف

---

(١) رواه البخاري (٧٤٣٤)، (٧٤٣٥)، (٧٤٣٦)، (٥٥٤)، (٥٧٣)، ومسلم (٤٣٩/١)، وأبو داود في السنن (٤٧٢٩)، والترمذي (٢٥٥١)، والنسائي في الكبرى (١٧٦/١)، وأحمد في المسند (٣٦٠/٤، ٣٦٢، ٣٦٥)، وفي السنة (٣٧، ٣٨، ١٨٣)، وابن ماجه (١٧٧)، والدراقطني في الرؤية (١٠٦)، وكذلك (١٣٧)، (١٤٩)، (١٥٥)، (١٦٣)، (١٦٥)، . قلت: وألفاظ هذا الحديث وطرقه كثيرةٌ.

العلية، والأنوار المعنوية، فيهب الله تعالى للبصائر من نوره، ما تشهده به وتراه بنوره كما رأوه إلا به، ولا شهدوه إلا بنوره، والحديث: «**فبي يرى وبي يسمع**[(١)]» كما قيل:

أعــارُ لطــرفي منظــرًا مــن جمالِــه ... شَــهِدت بــه ذاك الجمــال بعينِــه

فــأفنى بــه قَلـبي وسَمعـي ونــاظرِي ... وكـــوَّنني بعـــد الفَنـــاءِ بكونِـــه

سماع كلام اللّه

وقد ذكرنا من رأى الله تعالى في المنام. وأعرف فقيرًا سمع كلام الله تعالى في منامه، وكان هو وإدريس ﷺ، وكان معهما صورة صبية، قيل لذلك الفقير إنها الست نفيسة، فقال إدريس ﷺ: يا رب، إذا أنت جمعت الأولين والآخرين ما تصنع بنا أو تفعل بنا؟ فقال تعالى: إذا أنا جمعت الأولين والآخرين، كنت أنا الملك وأنتما مماليك لي، ثم انقطع الخطاب، وكان الخطاب من جهة العُلو، والله تعالى لا جهة له؛ لأن ذلك العلو هو جهة للسامعين لا جهة لرب العالمين؛ لأنه المحيط بالجهات والأرضين والسموات، وليفعل بحسب وصفة المتعالي لله تعالى، وإلا فالرافع يده بالدعاء للسماء كالواضع يده بالدعاء إلى الأرض في سجوده، والفوق والتحت جهة العبد لا جهة الرب.

وأخبرني فقير وهو عامر بن نسيم قال: كنت في خلوة، فربما وجدت عندي بسطة، فقلت: وعزتك لئن أعطيتني جاهًا في القيامة ما تركت أحدًا يدخل النار، فسمعت قائلاً يقول: «أتتكرم علينا وأنا أكرم الأكرمين»؟!

وهذا الخطاب بالجواب تحته أسرار وغوامض وحقائق جلية، يضيق هذا الكتاب عن شرحها، ويقصر العقل عن فهمها، وإنما نذكر نبذة لطيفة لإزالة اللبس لمطالع هذه الصحيفة إن شاء الله تعالى.

كرَمُ اللّـــــه

وذلك أن الكرم صفة من صفات الله تعالى، قديمة قائمة بذاته، فلو أعطى كل شخص من الناس مؤمنًا كان أو كافرًا جميع ما في الدنيا والآخرة من المتاع والأموال

---

(١) رواه الحكيم في نوادر الأصول (٢/٢٣٦)، وأصله في البخاري «كنت سمعه، وبصره..»، وفي رواية عند أهل الكشف.«كنته».

والحور والجنان، وكل ما حوته العوالم الدنيوية والأخروية، وأمثال أمثاله، في أمثال أمثاله، وأعطى من الأمنية والآمال ما يتمناه به ما وراء ذلك وتمني حتى تنقطع آماله، ويعطيه بعد ذلك ما لا نهاية له، وامتد الأمل كذلك مستمرًا على الدوام كامل العطاء ما نقص من ملكه ذرة، ولا رضاه من عبده دوام السؤال، وأزاده على ذلك مزيدًا لا يدخل تحت العقول.

ولو عصاه كل مخلوق خلقه وأوجده مع إنفاقه عليه وإكرامه له، بكل الإكرام أو كفر به كل الكفر لما ضرَّه ذلك، ولو عبده كل من خلقه ما عظم العبادات من أهل الأرضين والسموات في مدة بنائهم، وأعطاهم من القوة على العبادة ما لا نهاية له، وسجدوا على التراب، وجوّعوا الأكباد، وفارقوا العوائد.

ولو أن كل واحد منهم سجد السجدة الواحدة فلا يقوم إلى قيام الساعة، أو يقول الله الله، فلا يسكت إلى قيام الساعة، لما أدّ حق الله تعالى في نعمة واحدة من نعمه، ولما نفعه ذلك تبارك وتعالى، لا تنفعه الطاعة ولا تضرَّه المعصية.

ولو أدخل عابد عبده بل جميع خلقه النار لم يكن ذلك مناقضًا لكرمه، ولا جورًا في حكمه، وكذلك لو أدخل كل من كفر به من جميع خلقه وعصاه بكل معصية في جميع أحوال مدة حياته، وزاد في عمره، وعصى وكفر بما لا نهاية له، وأدخله الجنة، لم يناقض ذلك عزَّته وعلوَّه، وشدّة بطشه، بل هو الفعَّال لما يريد، ولا حجر على إرادته ومشيئته.

بل لو لم يذنب الخلق لخلق خلقًا يذنبون، ثم يستغفرون فيغفر لهم ويدخلهم الجنة، وبذلك ورد الحديث، وذلك لأنه بظهور الذنوب منهم تظهر صفة كرم الله تعالى عليهم، وكرم العبد مخلوق لله تعالى فيه لمنِ اختصه لِذلك.

اسـم الكَـرم

ولا مناسبة في اسم الكرم ولا نوعه ولا جنسه، ولا للعبد من حيث نفسه قوة على الكرم، وبكلية الكرم المجعولة فيه، فإنه من كرمه إذا وصل إلى حد الكرم المخلوق فيه من غاية كمال الإنسانية في طول حياته، وكان له ملكًا يتكرَّم به لما قدم غيره على نفسه، لما جاد بها على غيره لا سيما إذا كان ذلك الغير عاصيًا له، ومخالفًا لأوامره،

وموصلاً للأذى إليه، فيتكرَّم العبد في مثل هذه الحالة الواردة عليه بما لا يملكه.

أما لو كان ملكه كان عند الفعل يتحقق دعوى هذه الحال، فقوله تعالى: «أتتكرم علينا وأنا أكرم الأكرمين؟» إما للاستفهام أو المنع للاعتراض، ولا يظهر فيه الإنكار؛ لأن الحالة الواردة عليه ليست منه، وإنما هي من فضل الله تعالى عليه لتحقيق المحمل، ولتمييز الاختيار لغيره؛ لأن علم الله تعالى بعيدة، قبل خلقه في كل أحواله وأفعاله، لا تتحجب ولا تتحدد، وإنما ذلك حجبه على غيره من جنسه.

وقوله: **«وأنا أكرم الأكرمين»** للتفهم، وضربًا للمثل، وإلا فما كان غيره كريمًا، ولا معه كرمًا حتى يكون هو أكرمهم، فانظر إلى ذلك، بل الكرم لله صفة من صفاته، والله تعالى هو الكريم المطلق، وهذا الوارد الذي ورد على هذا الفقير حتى قال هذا القول فيه طمع عظيم، ورجاءٌ كثير في رحمة الله تبارك وتعالى وكرمه؛ إذ عبد من عبيده يقول مثل هذا القول، وقد قال المأمون: لو علم الناس محبتنا للعفو لتقربوا إلينا بالذنوب، وهذا كله إذا صدر من العبيد كان موجبًا في كرم الله تعالى فافهم ذلك.

وسماع كلام الله تعالى ذكره جماعة ممن يوثق بهم، ويتحقق صدقهم وكرامتهم، وكذلك الرؤية.

وسئل فقيه عن حديث النبي ﷺ: **«إن الله تعالى يأتي يوم القيامة في ظلل من الغمام، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك لست ربنا، إنّا ها هنا حتى يأتينا ربنا قال: فيتحول في الصورة التي يعرفونها، فيخرّون له سجدًا[١]»**.

فكيف هذا الجحود وهذا التعوذ منهم ولم يعاقبهم؟! وكيف هذا التحول من الباري ﷻ، فكان الجواب أن الله تعالى تعرَّف إلى عباده بأسماء وصفات عرفوه بها على لسان رسوله ﷺ، ولم يحيطوا بأسمائه وصفاته علمًا، والحديث: **«بكل اسم سميت به نفسك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك[٢]»**.

تجلّي اللَّــه

فإذا كان يوم القيامة يتجلي الله تعالى على عباده بصفة لم يتعرَّف لهم بها في

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/٥٣٣)، وابن المبارك في الجهاد (٤٢)، وابن حبان (١٦/٤٥٠)، بنحوه.
(٢) رواه أحمد (١/٣٩١).

دار الدنيا، فيقولون: نعوذ بالله منك، وذلك حقيقة إيمانهم ولم يعاقبهم على ذلك؛ لأنه لم يبعث به رسولاً، قال تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**﴾ [الإسراء:١٥].

وإنما كان التجلّي امتحان لإيمانهم، ثم التحول لهم في الصورة التي يعرفونها لم يكن ذلك في ذات الباري ﷻ، لكن كان التحول في أبصار الرائين، وأسماع السامعين، حتى رأوه على الصفة التي تعرَّف لهم بها في دار الدنيا، يخرون له سجدًا.

وتجلَّى الباري ﷻ بصفات كماله وجلاله، ورفع حجاب العزة عن وجهه، لا يبقى مع هذا التجلِّي وجود لوجود غيره، وقد ورد الحديث: «**لو رفع حجاب العزة لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه** [١]» وهذا الانتهاء حد للموجودات المخلوقة لا حد لرؤية الله تبارك وتعالى؛ لأن الحدود لصفات الله تبارك وتعالى مستحيلة عليه، فإذًا لا يصح الإدراك برؤية الله تعالى، والإحاطة لذاته العلية دنيا ولا آخرة، والله تعالى هو الأعلم بذلك كله.

وأما الشهود بحقيقة التجلي فإنه يغني الشاهد، ويمحو الشواهد، فلا يصح الكلام مع وجود الشهود؛ لأن الشهود يقع به الفناء؛ والكلام يقع معه الحجاب، والدليل الأول: ﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكاً**﴾ [الأعراف:١٤٣].

والثاني: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ**﴾ [الشورى:٥١]. والحجب بحسب المحجوبين، وقد قلت:

لبقــاءِ وَهمِــك في الوُجــود تــوهمٌ ... فيــه يَغْــبِطُ كــل مــن لا يَعلــمُ

لا تطلــبنَّ مــع الشــهود تكلُّمًــا ... إنّ الفنــاءَ مــع الشــهود مُحكَّــمُ

وإذا رأيــتَ مكلِّمًــا ومكلَّمًــا ... فَــالوهمُ بالشــرك الخفــي مخــيَّمُ

كلامُ اللَّــــه

فالكلام مع الحجاب إما بوحي الملك، أو التنزيل على القلب، أو الإلهام، أو

---

(١) رواه مسلم (١/١٦١)، وأحمد (٤/٤٠٠).

الرسول، وهي حجب الكلام الإلهي، كالقارئ للقرآن يقول:«قال الله تعالى» وهو القائل الحاكي لكلام الله تعالى، فإن التلاوة غير المتلو من ها هنا، وقع من وقع في خلق القرآن؛ لأن من قال: **(الحمد لله رب العالمين)** وقال: هذا كلام الله تعالى، لا يقدر أن يمنع أنه كلام الله تعالى، ولا يقدر أن يقول أنه كلام الآدميين المتصف بالحروف والأصوات والمخارج واللهات لأن الحروف والمخارج مخلوقة، وتلاوتك مخلوقة، وكلام الله تعالى قديم قائم بذاته.

فإن قلت: إن الحمد لله رب العالمين، ما هي كلام الله تعالى، وإن هذا القرآن الذي يقرأه الناس ما هو كلام الله تعالى، أدَّى ذلك إلى جحود التنزيل، ورفع الأحكام، وذلك كفر، وإن قلت: إن هذه التلاوة نفسها المتصفة بهذه الحروف والأصوات كلام الله القائم بذاته، فقد قلت بخلق القرآن، وجعلت لله تعالى صفة مخلوقة، وصفاته قديمة قائمة بذاته، وكلا الحالين خطر.

فصْل الخطَــاب:

وفصل الخطاب أن التلاوة غير المتلو، فتلاوة العبد حادثة، تتحصل له بالدراسة والكتابة، وتصدر عنه بالحروف والأصوات، وكلام الله تعالى قديم أزلي قائم بذاته، ونور يقذفه الله تعالى في قلوب عباده ليس بحرف ولا صوت ولا مخارج ولا لهاتٍ، ولا بقطع حروف وأصوات ولا إطباق شفاة، ولا تحريك لسان، ومن قال بشيء من ذلك فهو بعيد عن معرفة صفات الألوهية، متلبس بالأوصاف البهيمية، يتنزّل من حقائق الصفات والمعاني الربَّانية إلى الصفات الحسية، والآلات الجثمانية، ولو عقل عن الكلام حقيقة في نفسه لترك صوته وحروفه، ونظر في سرِّه، وخاطر نفسه حتى يخطر فيه الخطرة، وتجلبها الفكرة، ويقدر ما يقول في باطنه قبل إظهاره على لسانه.

هل كان ذلك السر والخاطر الذي في القلب بحروفٍ أو أصواتٍ أو مخارجٍ أو لهاتٍ؟ فإذا كان هذا في نفسك فكيف كلام ربك الخالق لما في سرِّك وجهرك؟! وقد قيل:

إنّ الكــلامّ لَفــي الفــؤادِ وإنمَــا جُعــلَ اللســانُ علــى الفــؤادِ دلــيلاَ

وإذًا قد عرفت أن الكلام من الله تعالى لا يسمع إلا وحيًا أو من وراء حجاب،

فاعلم أن الذي يدَّعي أنه يسمع كلام الله تعالى مع وجود المشاهدة له، والتجلي عليه، مخدوع في دعواه؛ لأن التجلِّي الإلهي لا يثبت له شيء من الجبال والحديد فكيف بالإنسان ووجود الإنسان؟! وقد قال الله تعالى: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً**﴾ [الأعراف:١٤٣]، هذا مع كمال النبوة والاختصاص والاصطفاء والرسالة والكلام، والاصطناع لنفسه العليَّة، فما ظنك بمن سواه ممن ليس بنبيٍّ ولا رسولٍ؟

كرامات الأولياء لاحقة بمعجزات الأنبياء

ولا يجوز تفضيل ولي الله على نبي الله- وإن كانت الكرامة والمعجزة في كونها خرق العوائد، وأنهما من عند الله تعالى، لكن الرُّسل -صلوات الله عليهم وسلامه- حجّة الله تعالى على عباده، ودعاة إلى الله تعالى على الإطلاق، فالمعجزة شرط في نبوتهم، وليس كذلك في حق الولي؛ إذ الولي يجب عليه اتِّباع الرسول، والأخذ عنه فيما يأمره به وينهاه عنه، وهو في ميراث النبي، وهو في محل الجواز لا في محل الوجوب، والنبي له الكمال والعصمة والتحدي بالمعجزة.

فإيَّاك ثم إيَّاك من اتِّهام من شطح في حالةٍ من أحواله المغيبة بحسه، وظهرت عليه آثار كرامة، وخوارق عادة في ساعة غيبته، فنطق بشيء من وجدانه، أو عبَّر على شئ من وراء العقل، أو شيء من القرب والوصول، أو غير ذلك، فنطق أن الأنبياء لم يجدوا ذلك.

فإن الأنبياء -صلوات الله عليهم وسلامه- أحوالهم مع الله تعالى محفوظة عليهم لكمالهم، ولم يعطوا الناس منها إلا على قدر عقولهم، وما وسعوه في سلوكهم، ولو ظهر من أحوالهم شيء لما قدر البشر على تبعيتهم فيه، والذي عرف الله تعالى من وجهٍ واحدٍ ليس كمن عرفه من جميع الوجوه الإنسانية.

ولا يصح الاقتداء بالشاطح -فحالته مقصورة عليه، ولو ارتفع عنه الحال صار إلى عبادة العوام، والنبي حاله محفوظ عليه، وهو قائم بأمر ربّه ﷻ، وموصلاً للخلق إلى الله تعالى، يعرف كل موطن، ويسلك كل طريق، ويخاطب كل عقل، ويتكلم بكل لسانٍ، ويشاهد كل قلبٍ، ولا يفعل إلا ما يُؤمر به، فيُحفظ في هذه المواطن، فإنها تبدو

للسالك في أوقات غلباته وقوة شطحاته، كفّروا من كفّروا.

ونحن لا نوقع عليهم درك المؤاخذة لغلبة الأحوال، وتوالي الحقائق المغيبة عن مقادير القياس، والحاجبة لمرأى العقول، فهم في غفلةٍ من غير ما وجدوه، ودهشة فيما شهدوه، لا يعرفون شيئًا غير الله تعالى، ولا يشهدون إلا الله، ولا يجدون إلا الله، فلو قلت لأحدهم إلى أين؟ لقال: إلى الله، ومن أين؟ لقال: من الله، حتى إنهم يسمون كل شيء وجد بالله اسم الله؛ إذ غاب عنهم ذلك الشيء وبقي الله، فلم يشهدوا إلا الله، ولو كانوا صحاة لكفّرناهم، ولو وجب عليهم القتل لقتلناهم، ومتى غلب الحب واصطلم القلب ذهب كل شيء سوى المحبوب من القلب، فسُمِّى كل شئ باسمه، وليس هذا من قبيل ما ذكرناه أولاً، ممن يدَّعي أن عين الخلق عين الحق، وأن هذا الخلق الحادث هو الحق القديم، فهذا مذهب المبعودين عن الله تعالى.

وأما الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه فإنهم يشهدون كل شيء بالله، ويقومون فيه بأمر الله، ويؤدون رسالة الله، ولا يحجبهم شيء عن الله، فالكل عن الأنبياء متَّبعون، وخلفهم سالكون، ومن زاغ عن طريقهم يسقط، ومن عمل بغير ما أتوا به عملاً فقد أحبط، والسلوك على طريق الأنبياء صراط الله المستقيم، ودينه القويم، وذرة واحدة من نور النبوة تشرق على جميع الأكوان.

ولن يدرك حقيقة النبوة إلا نبي أعطاه الله تعالى ذلك، وإلا فهم درجات عند الله، ولسنا نتكلم في تفضيلهم على بعضهم؛ لأنه غير معلوم بالتخصيص في واحدٍ دون واحدٍ، وإن كان الله تعالى فضَّل بعضهم على بعض، لكن قد منعنا التفضيل بينهم؛ لورود الحديث:

لا تفضّلوا بين الأنبياء

وذلك لعزة مقامهم، وعلو شأنهم عند ربهم ﷻ، لا يعلمهم إلا الذي خلقهم.

وفضل نبينا محمد ﷺ منصوص عليه، وأنه **«سيِّد ولد آدم»**.

وقوله: **«ولا فخر**[١]**»** لأنه لم يقصد بذلك الفخار، حاشاه من ذلك ﷺ ولو

---

(١) رواه الترمذي (٥/٣٠٨)، وابن ماجه (٢/١٤٤٠).

افتخر لكان فخره بالله تعالى باصطفائه له، ومحبته، وإرساله، وكونه خاتم النبيين، ولا نبي بعده، وأمته خير الأمم، وغير ذلك مما أعطيه ﷺ، مما لم يعطه غيره من الغنائم، ونصره بالرعب، وغير ذلك، وإنما أراد الإعلام بذلك، كقوله: **«أنا أشهد أني رسول الله[(١)]»**

وقوله: **«أنا النبي لا كذب[(٢)]»** كل ذلك للإعلام، ولوجوب حق الله في الأدب معه، والامتثال لأمره، كقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ**﴾ [الحجرات:٢].

فنبّه الله تعالى على الأدب معه بجلالته، وعلو شأنه، وقدره عند ربه، وصيانة لهم؛ لئلا تحبط أعمالهم، وهم لا يشعرون أن ذلك محبطٌ للأعمال؛ لأن الأدب معه هو الأدب مع الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿**مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾ [النساء:٨٠]، وكذلك من عصاه عصى الله، ومن تأدَّب معه تأدَّب مع الله، ومن أساء الأدب عليه فكذلك، فقوله ﷺ: **«أنا سيد ولد آدم ولا فخر[(٣)]»** للإعلام لهذا المعنى، وإلا فقد قال: **«لا تفضلوني على يونس بن متى [(٤)]»**، صيانةً لهم عن الدخول في هذا الأمر العظيم.

وذلك لأن مقامات الأنبياء عند الله تعالى لا يعلمها إلا هو، والترجيح والتعديل فيما بينهم خطر عظيم وصرَّح بقوله: **«لا تفضلوا بين الأنبياء[(٥)]»** ونحن والحمد لله لا نرى بالتفضيل في غير الأنبياء، فكيف بالأنبياء عليهم السلام؟! وذلك أن حقيقة التفضيل محجوبة عنا لا يعلم حقيقتها إلا الله تعالى، والأعمال والأوصاف الظاهرة لا توصل إلى ذلك، فإن الله تعالى يقول: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات:١٣].

---

(١) رواه البخاري (٥/٢٠٧٤).
(٢) رواه البخاري (٣/١٠٥١)، ومسلم (٣/١٤٠٠).
(٣) سبق تخريجه.
(٤) رواه البخاري (٣/١٢٤٤)، ومسلم (٤/١٨٤٨).
(٥) رواه البخاري (٢/٨٥٠)، ومسلم (٤/١٨٤٥).

وعندية الله تعالى غير معلومة لنا، والنبي ﷺ يقول: **«التقوى ها هنا[١]»** ويشير إلى القلب، والقلب خزانة من خزائن الحق، لا يطَّلع على ما أودعه فيها إلا هو ﷻ، والحديث: **«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى[٢]»**.

والحديث الآخر: **«يعمل أحدكم بعمل أهل الجنة حتى لا يبقى بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار، ويعمل أحدكم بعمل أهل النار حتى لا يبقى بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة[٣]»**.

وليست الأعمال ها هنا موصلة إلى حقائق النيات والضمائر، والسرائر المودعة في القلوب، ولا إلى التفضيل بالتقوى التي هي عند الله تعالى تقوى، فيكرم بها من يكرمه، وهذا سارٍ في جميع الخلائق غير الأنبياء عليهم السلام؛ فإنَّا نعتقد كرامتهم عند الله، ولا نفضل ما بينهم إلا ما أظهره الله تعالى من فضل من فضَّله كفضل نبينا محمد ﷺ.

التفضيل والتمييز

وأما سائر الناس أو جميع الناس فالتفضيل بينهم عرفي لا حقيقي، فلم يبق إلا التمييز، فيكون هذا أميز من هذا ظاهر بصفة الكرام، وهذا ظاهر بصفة البخل، وهذا ظاهر بصفة العلم، وهذا ظاهر بصفة الجهل، فلا يستويان، لقوله تعالى: **﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾** [الزمر:٩].

ويبقى باطن الأمر إلى الله تعالى في المقاصد والنيات، وما انطوت عليه الضمائر من الحقائق الخفيات، وما هو خالص لله، وما هو لغير الله، وما يدخل ذلك من الآفات في الأعمال من حقائق التقوى، أو ارتكاب الأهواء من السعادة والشقاء، وما يدخل كل علم وعمل من الآفات.

والحديث الوارد عن معاذ بن جبل بطوله في صعود الحفظة بأعمال العبد، وكيف

---

(١) رواه مسلم (١٩٨٦)، وأحمد (٢/٢٧٧).

(٢) رواه البخاري (١/٣)، ومسلم (٤/١٥١٥).

(٣) رواه البخاري (٦/٢٧١٣)، ومسلم (٤/٢٠٣٦).

يرد مع شهادتهم له، وكيف يقول الله تعالى في آخر الحديث: **«أنتم الشهداء على جوارحه، وأنا الشهيد الحفيظ على باطنه[١]»**.

والحديث الآخر في العالم والمجاهد، وصاحب الثروة، والحديث الآخر الذي أورده الغزالي ﷺ: **«إن أشدَّ الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعْه الله بعلمه[٢]»**.

والحديث الذي ورد: **«أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا دينار له ولا درهم ولا مال ..** [٣]» الحديث بطوله.

والحديث الآخر: **«إذا ظهرت البدع وسكت العالم فعليه لعنة الله[٤]»**.

فهذا وأمثاله في أهل العلم، وكذلك في الأعمال، فكيف الخلاص ولات حين مناص، ما لم تكن العناية من الله تعالى وإلا فالهلاك واقع.

قيل لأحد الأكابر: أيُّما خير أنت أم الكلب؟ فقال: إن دخلت الجنة فأنا خيرٌ من الكلب، وإن دخلت النار فالكلب خيرٌ مني.

لم ينظر هذا إلى الأوصاف الظاهرة، ولا ما هو عليه، ولا لشهادة الناس فيه بظاهر الأمر، وإنما نظر إلى ما يئول إليه الحال من علم الله تعالى فيه، السابق للعلوم والمعلوم، فوقف عند ذلك، وخشية من النزعة الإبليسية التي قال فيها إبليس اللعين: **﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾** [الأعراف:١٢] فوقف مع الألفاظ، وغاب عن تخصيص الله تعالى، وإكرامه لآدم عليه السلام،ونظر إليه بعين النقص .

كلمــــة «أنــــا»

فمن قال (أنا) غير الله تعالى لذاته أهلكه الله تعالى،كإبليس قال: (أنا خيرٌ منه)، ونظر إلى نفسه بعين التعظيم والأنية فقال: (أنا)، وكلمة (أنا) كلمة ما أفلح قائلها؛ لأن الأنية لا يستحقها إلا الله تعالى أخبار، فمن قائل: عبد الله ثمانين ألف سنة.

---

(١) لم أقف عليه.
(٢) رواه الشهاب في مسنده (٢/١٧١).
(٣) رواه ابن حبان (١٠/٢٥٩).
(٤) رواه الربيع في مسنده (١/٣٦٥).

ومن قائل: عبد الله تعالى في كل سماء سبعة آلاف سنة، وكان يسمّى طاووس الملائكة، وكان اسمه عزازيل.

وفرعون حين قال: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى**﴾ [النازعات:٢٤] ﴿**فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى**﴾ [النازعات:٢٥] فكل من تعاظم في ملك الله تعالى، أو تكبَّر قصمه الله؛ لأن من كان أصله العدم كيف يتكبر أو يرى لنفسه وجود استحقاق مع واجب الوجود؟! ولو نظر إلى نفسه بما فيه من الخبائث والقاذورات الباطنة والظاهرة، وحمله العذرات، ومن كان أوّله تراب وهو صائر إلى التراب، ويحاسب بعد ذلك، فإما إلى الجنان وإما إلى النيران، كيف يلذ له العيش؟!

وقد قلت:

وكيفَ يلذُّ العيشُ والموتُ كائنٌ ... وَمن بعدِه هو النشورُ مع الحشرِ

ومن بَعدِه هولٌ وَهولٌ وشدةٌ ... وَتحريرُ أوزانِ الحسابِ على الذرِّ

صراطٌ وعرضٌ والوقوفُ على شفَا ... ولاَ عذرَ في ذاك المقامِ لذي عذرِ

فمن ثقُلت ميزانهُ فهو رَابحٌ ... ومَن خفَّ وزنًا فهو في أخسرِ الخسرِ

ولم أستطعْ قولاً لذي الهَولِ كلِّه ... وما فيه من وصفٍ يجلُّ عن الحصرِ

ولَو لم يَكن إلا المماتُ وما بِه ... ومُنكرُه ثم النكيرُ مع القبرِ

لكان لنا فيما سرى ذاك شَاغلٌ ... عَن اللهوِ واللذَّاتِ في السِّرِّ والجهرِ

فكيف وقول الصدق إمّا لجنةٍ ... وإمّا لنارٍ فهي قاصمةُ الظهرِ

وإما سَعِيدٌ في الجنانِ مخلدٌ ... وإمّا إلى النيران في أبدٍ يسري

لا لي حَولَ ولا لي قوّةً ... ولاَ أثبتُ في خَيرٍ ولا المحو من شرِّ

ولا غَوثَ إلا أنتَ يا غَايةَ المنى ... ويا مُنتهى الآمال في خيرةِ الأمرِ

وَلا الخوفُ يخشى لا ولا الأمنَ يُرتجى ... سِواكَ إذا بدَّلت عُسري باليسرِ

إذا لم يكنْ عُمري بحبِّك فانيًا ... فلاَ عوضَ فيه فيا ضيعةَ العمرِ

دعـــاء واستغاثة

اللهم إنك خلقتنا من غير شيء موجود في أحسن خلق وأحسن تقويم، وركبتنا في أي صورة شئت، وخلقت فينا ما شئت، وأمرتنا بأمرك، وأردت منّا ما أردت، وعلمتنا من أمرك ما علمت، وأخفيت عنا من إرادتك ما أردت، فعلمنا من أمرك ما وصلت إليه أفهامنا، ولم تعلم من إرادتك إلا ما وقع، ولا عذر لنا في ذلك، وقد خلقت لنا إرادة وعلمًا وعملاً، وأجريت على أيدينا وجوارحنا خيرًا وشرًا، ونسبت ذلك إلينا، كما نسبنا ما يصدر من غيرنا إليه، ولم يكن ذلك إلا بإرادتك فينا وفي غيرنا، وليس لنا عذر عندك، ولا حيلة فيما قدرته علينا، وقد أوجدتنا ودبرتنا في أصلاب الآباء، وبطون الأمهات، قبل أن تخلق فينا التدبير الظاهر لأنفسنا، ولا جريانه على جوارحنا، ونحن في حالة عدم اختيارنا، وغفلة عقولنا، وافتقارنا إلى كل ما أوجدتنا وأوجدته فينا مفتقرين، وفي حالتنا الآن بعد إيجاد ذلك كله أشد فقرًا إليك، وفي حالنا بعد الممات أشد من ذلك كله، وليس لنا سواك.

وقد هديتنا للإسلام، وعرَّفتنا بوحدانيتك على قدرنا لا على قدرك، فعاملنا بما أنت أهله في كل موطن من مواطن الدنيا والآخرة، يا ولي الدنيا والآخرة، وصلّى الله على سيِّدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

اللهم إنك فعّال لما تشاء، اللهم إنك تفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد، فشأني لمحبتك لي، وشاء المحبة للمشيئة فيَّ لك، وشأني للتوكل عليك في الإيمان بك، وبما أتت به رسلك، واجعلني متوكلاً عليك، راجعًا إليك، واجعلني عبدًا لك، مخلصًا مما سواك، واحفظني بك حفظك للذكر حتى لا أنساك.

يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث، لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا أقل من ذلك، يا أكرم الأكرمين، بل لا كريم غيرك يا الله، يا من وسع كل شيء علمًا، عليك توكلت كما توكل شعيب نبيك عليه السلام حين أخبرت عنه: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا

رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٨، ٨٩]، فهذا هو حقيقة التوكل في الإيمان لأنه توكل في إيمانه؛ على الله، لأن المعرفة بالله تقتضي أن يعرف أن الله؛ له أن يفعل به ما يشاء، فتوكل على الله في إيمانه في قوله ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف:٨٩].

وقد ورد عن المسيح عليه السلام أنه قال: «أنتم معاشر الحواريين، تخافون الذنوب، ونحن معاشر الأنبياء نخاف الكفر».

وكذلك روي عن موسى عليه السلام أنه قال: «يا رب، إنك لرب عظيم، لو شئت أن تطاع لأطعت، وأنت في ذلك تُعصى فكيف هذا يا رب؟! فأوحى الله تعالى إليه لتنتهين عن مسألتك هذه» فانتهى موسى عليه السلام، ثم إن عزيرًا سأل ربه تعالى هذا السؤال الذي سأله موسى عليه السلام، فأوحى الله تعالى إليه لتنتهين عن مسألتك هذه فأعاد السؤال فأوحى الله تعالى إليه: **«لتنتهين عن مسألتك هذه، وإلا محوتك من ديوان النبوة**[1]» ذكره البيهقي.

مشيئـــة اللّـــه

ولله تعالى أن يخفي ما يشاء، ويظهر ما يشاء، ويفعل ما يشاء، وسأل فقيه عن الحديث وكيف يمحوه من ديوان النبوة مع وجود العصمة وما وعد به الأنبياء عليهم السلام؟ فكان الجواب أن الله تعالى يفعل ما يشاء، ولا حجر على مشيئة الله، لأن الحجر عليها محال، والحكم لا يحكم على حاكمه، والعلم لا يحكم على عالمه، والمخلوق لا يحكم على خالقه، فلذلك قال الله تعالى: ﴿**قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شيئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّه وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً**﴾ [المائدة:١٧].

إرادة الأمـر وأمـر الإرادة

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة.

وكذلك ذكر في الاستثناء في أهل النعيم وأهل الجحيم بعد دخول الجنة والنار، وذلك أن الله تعالى أخبر عمّا له فعله، وإن لم يفعله فله فعل ذلك، وما فعله، وإن شاء فعله، ولأن الله تعالى شرع الشرائع، والشرائع علينا لله تعالى لا أنها عليه لنا، فهو يَحكم ولا يُحكم عليه، ويقع الفرق عندنا بين الأمر والإرادة، وإرادة الأمر وأمر الإرادة، فإرادة الله تعالى بالأمر فعناه أراد أن يأمر عبده، ولا أراد منه الفعل، فلم يقع الفعل، وأمر الإرادة جاريًا بالنفوذ فيما شاء؛ لقوله تعالى: **﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾** [النحل: ٤٠].

فإذا وافق أمر الإرادة إرادة الأمر في العبد كان طائعًا مخصصًا، وإذا لم تجر عليه إلا إرادة الأمر كان عاصيًا.

والإرادة من الله تعالى واحدة، والطاعة والمعصية يُنسبان إلى العبد عند تلبُّسه بالاتصاف والأعمال، وجريانها على جوارحه بحسب نيته وقصده المخلوقة فيه، ولا عذر له في ذلك، ولا هو يعذر غيره إذا صدر منه في حقه ما يشينه، وصفة العدل تقتضي أن يحكم عليك بما تحكم به على غيرك.

وكما أنك تحب أن يطيعك عبدك، وتغضب إن عصاك، فلا تجعل لنفسك من الحق على عبدك ما لا تجعله على نفسك لربِّك ﷻ، أفتحب أن يطيعك عبدك ويعصي الله تعالى عبده؟ هذا مع كونه ملكك له ملك مجازي، وملك الله تعالى ملك حقيقي.

أما لو غبت عن أفعالك وأفعال الخلق بشهودك الفعل من الله تعالى ولم تشهد بغيره فعلاً، وغبت في شهود الإرادة من الله تعالى، واصطلمك الشهود وغيبك عن الوجود، لم يصدر منك ما يخالف أمره، ولم تؤاخذ غيرك بما يصدر منه في حقك، وأخذك الشارع عند غيبتك عن الخلق، وحضورك مع الحق، وذهول عقلك عن العلوم، وشواهد الرسوم، ولكنت في حكم الشرع غير مخاطب، كالمستور العقل أو النائم أو الصبي الذي لم يبلغ الحلم.

الاستحيَاء من اللَّه

إنك لو وقفت بين يدى ملك من الملوك وبين يديه ما تحب من الجواري الحسان الصور، ونفسك تشتاق إليهن، وهو يرقبك بنظره، ويلاحظك بأعينه في حركاتك وسكناتك، هل كنت تعرض عن الملك وتغازل تلك الجواري وتحادثهن وتلاحظهن؟! أو تفعل بهن الفعل الذي هو معروف في العوائد من وطأ أو غيره؟ فإذا علمت من نفسك أنك لا تستطيع ذلك بحضرة هذا الملك، فلا تجعل ربك دون رتبة الملك في قلبك.

فانظر إلى هذا القياس، بل لو نظر إليك طفل وأنت تقصد ارتكاب معصية لاستحييت منه، أفلا تستحي من الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؟ فقد ورد: **«يا ابن آدم إذا هممت بالمعصية غلقت بابك بينك وبين الناس، فلو اطلع عليك طفل لاستحيت منه وكنت أهون الناظرين عليك[١]»**.

وإذا قد عرفت هذا من نفسك فلا تحتاج إلى خارج عنك، قال الله تعالى: ﴿**وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ**﴾ [الذاريات: ٢١].

فعليك بالموافقة في جميع أحوالك بحسب الجهد والطاقة، فإن وقع منك ما نهاك الله تعالى عنه فبادر بالتوبة والندم، والانخلاع عن الذنب بالكلية والعزم الجازم ألاّ تعود أبدًا، بحيث يغنيك ذلك العزم عن جواز الوقوع، فلا يقع في خاطرك ذلك عند هذه التوبة، وحقّق العزمة، واصدق النية، وانصح التوبة، ولو قُطعت إربًا إربًا فيما عاهدت عليه ربك عزّ وجلّ.

استغفـــار الكَافريـن

وإيَّاك واستغفار الكافرين الذين يستغفرون بظواهر القلوب مع كون الشهوات في النفوس، ولا يتحققون النية في الصدق مع الله تعالى، والانخلاع الحقيقي، ويقنعون بأن يقولوا: أستغفر الله ظاهرًا، فقد ورد: **«يا عبدي، تعصيني بالليل، فإذا أصبحت خادعتني بالاستغفار، ألست الذي خلقت الخديعة والمكر؟ فإذا استغفرتموني فاستغفروني بالانخلاع عن الذنب[٢]»**.

فإياك ومخادعتك لنفسك فقد قال الله تعالى: ﴿**يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا**

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً﴾ [البقرة:٩، ١٠].

ولا تكن كالمتشبهة بالفقراء وأهل الطريق إلى الله تعالى في بعض الزِّي واللباس، والصفات الظاهرة مع خلو الباطن من ذلك كله، والمخادعة للناس، كمن يؤذي غريمه أو صاحبه أو صديقه بأشد الأذى في الأقوال والأفعال، ثم يخدعه بكشف رأسه، ويستغفر له، والباطن منه منطوٍ على أقبح مما فعل أو أكثر، فهذا مخادع لنفسه، والمصيبة أن يعزى ذلك إلى أهل طريق الله تعالى، ولم يأت لنا عن الله تعالى، ولا بما أرسل به رسله أن التوبة كشف الرأس دون ما لا يتصف به القلب من التبرؤ من تلك الأوصاف المذمومة، والاتصاف بالأوصاف المحمودة.

بل لقد بلغني عن غير واحدٍ، وربما سمعته يقول: تفعل كذا وكذا، ويُفعل بزيد كذا وكذا، وما ثمَّ إلا كشف الرأس، وقول أستغفر الله.

فانظر -رحمك الله- إلى هذه المقاصد الذميمة المبعدة عن جَناب الله تعالى؛ إذ يعصون الله تعالى بوصف الطاعة، ويبعدون عنه بوصف القربة، ويستعملون أوصاف الخير الظاهرة لأوصاف الشر الباطنة، ويذكرون الله تعالى بالاستغفار في مواطن المعاصي والاستكبار، ثم يُؤذون الأولياء، ومن تقدم من السادة الأصفياء واسم طائفة الفقراء بما نسبوه إليهم من هذا الاستغفار، وحاشاهم من ذلك -رضي الله تعالى عنهم- ورضي عنَّا بهم.

أركَـــان الطَــريق(١)

فإن طريقهم مبنية على الصدق مع الله تعالى، وحفظ سرائرهم، وإخلاصهم فيه، ومحبتهم له، ومحو العلل المفسدة لذلك من قلوبهم، وعدم النفاق والغلّ والرياء والحسد للمسلمين، فإذا صدر من أحدهم شيء، أو جرى منهم شيء، أو وقع واقع لمجاري الأقدار، أو الاختبار والامتحان للأخيار صدقوا الله تعالى في التوبة مع الله في بواطنهم، وطلبوا طيبة قلوب إخوانهم في الله تعالى، وجمعية قلوبهم عليه، ولأنهم يد واحدة، وقلب

(١) انظر: قواعد التصوف للشيخ زروق، والمكتوبات لسيدنا الفاروقي، وشرح الحكم الصوفية لسيدنا الشرقاوي، وقوت القلوب لمكي، وإحياء علوم الدين، وكتب سيدنا الشعراني كلها تعرف منها أن للطريق أركان، وأنها أركان للطريق.

واحد، على باب ذلك الواحد متحابين متزاورين، قد وجبت لهم محبة الله تعالى لما أهلهم بذلك، فتراهم في مثل هذه الوقائع تخشع منهم القلوب، وتزرف العيون، وتظهر جوارحهم التواضع ﴿**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [المائدة: ٥٤] (١).

فإن كشفوا رءوسهم فذلك لوصف الخضوع، وهو تابع لخضوع قلوبهم في رضا محبوبهم، فلذلك تنزل الرحمة عليهم، ويسعد بهم جليسهم، ولا يزالون بخير ما تناقشوا وتناقدوا، وهذا نوع ثان عن الأول، فإنهم أهل صدق مع الله تعالى، وهم في سيرهم وتوجهاتهم لا يفترون، فإن فتر واحد منهم ناقشوه على ذلك؛ خشية عليه من الانقطاع، أو تنقطع معه أصحابه، وإن صدر منه شيء مما يقصر به عن أوصاف كمالهم طالبوه بكمال السلوك والصفات المحمودة، ومحاسبتهم من خلاف ذلك، وإن وقع ما لا يوافق الظاهر طالبوه عليه حتى يتبيَّن الأمر في ذلك، فهم نصحاء لله تعالى، نصحوه في أنفسهم وفي أصحابهم، وفي عباده أجمعين بحسب الاستطاعة والقدرة.

وقد ذكرنا هذه في المطالبة والأخوة والشيخوخة فلا حاجة إلى إعادتها، وذلك في الأخوة والشيخوخة والشيخ والمريد، فليحذر السالك مما يخالف طريق القوم فإنهم أتباع نبيهم، وسالكو منهاجه وسبيله وصراطه المستقيم، جعلنا الله تعالى وإيَّاكم كذلك بمحمد ﷺ كما قيل:

ألاَ لله أقــوامٌ أقــامُوا ... علــى نهــجِ الطَّريقــةِ واســتقامُوا

أطــاعُوا اللهَ في ســرٍّ وجهــرٍ ... وصَــلُّوا خَاشــعين لــه وصــامُوا

إذا نــامَ الــورَى بالليــلِ قــامُوا ... عَلــى أقــدامِهم لهــم قيــامُ

---

(١) يُشير -تعالى- إلى أعين العزَّة؛ لأن الذِّلَة لأهل العزَّة عزة، كما أن التكبُّر لأهل الكبرياء تواضع. فقد قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [المنافقون: ٨].

أي: وللمؤمنين الذين أعزَّهم الله بعزَّة نفسه، وبعزَّة رسوله؛ فإنهم حزب الله الغالبون وإنهم الجند المنصورون، فلهم الفعل الذي هو عين العزَّة ولأعدائهم الانفعال الذي هو عين الذِّلة.

فالمؤمنون في درجة الذكورة، وإن كانوا إناثًا، والمنافقون والكافرون في درجة الأُنوثة وإن كانوا ذكورًا، فعليك بالتشبُّه بالذكور حتى تكون مذكَّرًا حقيقيًا.

ينـــاجُون المهـــيمنَ في الـــدياجي وَقــد طــابُوا وقــد طــابَ الكــلامُ
فيُعطــيهم مــن الإنعــام مــا لاَ يُحــــدُّ ولا يُنــــالُ ولا يُــــرامُ
ويمــنحُهم تعــالى منــه فَضــلاً بنَيــــلٍ كلمــــا قعــــدُوا وقــــامُوا
ويخلَــعُ مــن محبــتِّهم علــيهِم دَلــــيلاً حبَّــــذا ذاك المقــــامُ
وكيــف ينــالُ رتبــتَهم ســواهم وهــــم أحبــــابُ ربِّهــــم الكــــرامُ
فمــــن هــــو قانــــتٌ لله داعٍ كقَــــومٍ في أســــرَّتِهم نيــــامُ
أولئــــكَ أوليــــاءُ اللهِ حقًّــــا وهُــــم خــــيرُ البريّــــةِ والسَّــــلامُ

مُحاسَبَــة النَّفْــس

حُكي عن فقيرٍ أنه كلَّم فقيًرا كلمة فقام إليه وضربه ضربًا عظيمًا، وربما تجاوز ذلك الفعل فقام الفقير المضروب مستغفرًا، وكشف رأسه وقال: يا فقير، أنا كنت السبب في إخراج باطنه حتى صدر منه ما صدر.

فهذه وأمثالها محاسبة الفقير لنفسه، فإن الفقير حقيقة من نصر الحق عليه، ولا يرى لنفسه حقًّا على أحدٍ من خلق الله، تعالى وذلك في تحقيق السلوك؛ لأنه يرى كل حقٍّ لله تعالى من حقوق الخاصة والعامة لكون الحق تعالى شرعه، فإن صدر منهم في حقه شيء من الأذى بالقول أو الفعل نظر المحقق إلى قوله تعالى:

﴿**فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾ [الشورى: ٣٠].

فيرى أن ذلك مما اكتسبه، وأن الله تعالى عفا عن كثير، فيشكر الله تعالى على ذلك، ثم يشكر الذي جرى الفعل على يده، ولا يرى فاعلاً إلا الله تعالى، والأيادي إليه لمجاري الأقدار عليه، وشكره الذي أساء إليه؛ لكونه محلاًّ لجريان الخير على يده، ولأن الخلع من الملك إذا صدرت على يد أحد من عبيده يكرم الذي وردت الخلعة على يده، وبينه وبين الذي تأتي النقمة على يده فرق، وإن كان الجميع عن ملكٍ واحدٍ، والله المحمود في كلا الحالين وعلى الفعلين.

ولقد رأيت مرة جماعة من الفقراء المسافرين بظاهر الأقصرين، وقد ضُرب فقير

حتى تفتحت رأسه، وجرى الدم حتى رأيت جفنة كبيرة وهي مملوءة دمًا وماء، وهم يغسلون له ذلك الدم، وربطوا رأسه بآلةٍ معهم، وربما قام ووقف في الاستغفار، ورأيت الشيخ علي الأسناي ورجله الواحدة معطوبة، فسألته عن ذلك فقال لي:مع ندماني فعطبت رجلي.

واجتمع مرة بظاهر الأقصرين جماعة من المسافرين على الشيخ أبي العباس الملثم على أن يفعلوا به من الضرب أو غيره ربما لشيءٍ أنكره عليهم، فقام أهل البلد وخلصوه منهم، ولم يفعل فيهم شيئًا، وكان قادرًا على معاقبتهم؛ لاعتقاد الناس فيه في أمر الظاهر، وتصرفه في الحال الباطن -رضي الله تعالى عنه-.

ومثل هذا كثير، وإنما يحضرني عند التذاكر له، والقوم لهم التخُّلق بصفات العفو والكرم والإحسان مع الإساءة إليهم ليتحققوا بآثار الصفات الإلهية فيهم بنسبتهم إلى ربهم تعالى، وتخصيصهم بحزبه: ﴿**أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [المجادلة:٢٢].

وقد قلت:

أنـاسُ يَـرونَ العفـوَ وَصـفَ نفوسِـهم ... وأنَّ الجزاءَ بالسوءِ من أقبحِ الوصفِ

فلسـتَ تـرى للظلـمِ مـنهم مُجازيًـا ... عَليـه بفعـلٍ أو مقـالٍ مـن العنـفِ

يجـازون بالإحسـان طبعًـا لمـن أسـاءَ ... ويَلقَـوه بالوصـفِ الجميـلِ وبـاللطفِ

ويعفُـو عـن الجـاني جـزاءً علـى الأذى ... وعطفًا على الآتي إليهم عَلى عطـفِ

صَفت في صَفا الوصف حقًّا صفاتُهم ... وجلَّت عن التعريفِ في موطنِ العرفِ

بهـم يَرفـعُ اللهُ الـبلاءَ عـن الـورَى ... ويرفعُ ما قد كان يُخشى من الخسفِ

ومـن أيـن لي أني كـون كمـثلِهم ... ولا القولُ من فعلي جميلٌ ولا وصفي

فيـا غايـةَ الغايـاتِ يـا مُنتهـى المنى ... وَيـا عالِمـا بالسّـر مـني ومـا أُخفـي

أعـنِّي بحـبٍّ منـك يسـعد حملـتي ... وَلـو أن في حُبـك يـا منيـتي حتفـي

فلسـتُ أبـالي بعـد حبِّـك مـا جَـرى ... ولاَ مـا أمـامي في الوجـودِ ولا خَلفـي

ولـو كنـتُ صـفًّا واحـدًا بـك قـائمٌ وكَـان جميـع العـالمين علـى صـفِّ
وأعطيتَـــني التأييـــد منـــك مُـــؤزَّرًا حملـتُ ثقـال الكائنـات علـى كفِّـي
وقلـــت أعـــادي الله شـــرقًا ومغربًـــا مقطَّعـة الأكبـاد مـن شـدة الرجـفِ
فقـــتلاً وخســـفًا ثم مَوتًـــا برجفـــةٍ ورَجعًا على الأعقابِ يدفع بالزحفِ
وقطعًـــا لأدبـــارٍ وحمـــدًا لربِّنـــا ورفعًـا لـدين الله بالعـدلِ والصَّـرفِ

الرحمة والشفقَـة

ومنهم من يكون إحسانه إلى من أساء إليه من الشفقة على خلق الله تعالى مما يشهدوه من عواقب أمورهم، كما حدَّثني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى-أنه كان لأحد المشايخ قريب-إما ابن أخ أو غيره- فكان يصدر منه أمور مؤلمة، فيشكونه إلى الشيخ فلا يؤاخذه ولا يكلمه، وربما أشفق عليه، ويسيء على أولاد الشيخ ويشكونه إليه فلم يشكهم، ويأمرهم باحتماله، وتزداد شفقته عليه حتى طال ذلك، وعاتبه الناس في ذلك، فقال الشيخ ﷺ: دعوه؛ فإني أشهده مشنوقًا، وقد شنق نفسه، فكلما شهدته على تلك الصورة أزداد شفقة عليه؛ لأنه يصير إلى جهنم.

وكان الشيخ مجد الدين بن دقيق العيد -رحمه الله تعالى-يشفق على إنسان شفقة عظيمة، فتكلم الفقهاء في ذلك، وقالوا له: إنه ما يصلي، فقال: والله زدتموني شفقةً عليه، أنا كنت أشفق عليه في الدنيا، فصرت أشفق عليه في الدنيا والآخرة.

ولم يزل هذا وصف هذه الطائفة -رضي الله تعالى عنهم- جعلهم الله تعالى رحمة لعباده وعمارة لبلاده، بهم ينزل الغيث ويرتفع السخط.

إذا نـــزَلُوا أرضًـــا تـــولّى محولُهـــا وأصْـــبحَ منهـــا روضـــةً وغـــديرا
وإن رحلـوا عنهـا غَـدت وَرمالُهـا مِـن المسـكِ طيـبٌ والـترابُ عبـيرًا
كـأنَّ مـواطنَ الخيْـلِ فيهـا أهلـةٌ وآثـــارَ أخفَـــاف المطـــي بـــدورَا

رَوحانيـّـة الفقـراء

وذكر أن روحانية الفقراء أو الولي إذا دخل مكانًا أو مشى في أرض، تبقى تلك

الروحانية ستة أشهر، ولقد عاينت ذلك.

وذلك أن مسجدًا في البر ما بين دمامين والأقصرين يُسمَّى مسجد «البدمود» لنا إليه تردد كثير، كلما دخلته أجد فيه انشراحًا وجمعية قلب، مع سعته وقدمه وبُعْده عن الناس، وكل من دخله يقول ذلك حتى لا يكاد أحد يدخله، ولا يجد ذلك إلا من كان قلبه في غلاف الحجاب الأكبر، وما ذلك إلا لورود الصالحين فيه، وكان الشيخ أبو العباس يزوره.

وبظاهر الأقصرين مسجد أجد فيه رَوحًا، وكأني أجد الشيخ أبا العباس فيه واقفًا يصلي، وكان السائل يجد به ذلك بالقياس.

وإن لم تكن رأيت مثل هذه الأماكن التي تدخلها الأولياء، فإذا نظرت إلى ضرائح المشايخ الأموات تجد عندك الانشراح، وإذا نظرت إلى دور أبناء الدنيا تجد الغمّة على قلبك، وكذلك إذا نظرت إلى الظَّلَمَة وأماكنهم، فتجد الفرق بين أماكن الظلمة من الولاة وغيرهم وبين المساجد والزوايا، لا يكاد ذلك الفرق يجهله إلا أكمه البصيرة، أعمى القلب، مزكوم المعنى، مخمور العقل.

فإن البيوت المنسوبة إلى الله تعالى تجد فيها الانشراح، وتلوح عليها الأنوار، وتجتمع فيها القلوب، وتجد في الأماكن المنسوبة إلى الظلمة ظلمة القلوب، وضيق النفوس، وعليها ظلام يتبعها قتام، حتى لا يكاد يستقر بها من له قلب نيّر وبصيرة، إلا من كان من أهلها، أو عمله بعملهم.

هذا شيء بالاستقراء ولا يكاد يخطئ- فانظر ذلك تجده؛ وذلك لأن أنوار الطاعة تظهر على تلك الأماكن المنسوبة إلى الله، وظلمة المعصية تظهر على تلك الأماكن المنسوبة للظلمة، ولأن الحياة قائمة بالأرواح المعنوية والحسية، تبقى روحانية الولي إذا نزل بمكان حياة معنوية، فإن قويت ظهرت حسًّا.

خصائص الأرواح

فإن من خصائص الأرواح أنها لا تحل بشيءٍ، ولا تطأ بشيء إلا حيي ذلك الشيء، وقد كان السامري عارف بهذه الخاصية، فلما رأى جبريل عليه السلام، قبض قبضة

من أثر حافر فرسه، فنبذها على تلك الآلة فصار عجلاً جسدًا له خوار، فكان به إضلال قوم موسى عليه السلام وقد قلت:

طَابتْ بطيبِ حديثِك الأوقاتُ ... وَسَرت إلى الأمواتِ منك حياةُ

وسَرت نسمةُ عرف ذيَّاك الحمى ... فتَباشَر الأحياءُ والأمواتُ

وغَدا لرُوحِ الرُّوح منك تعرُّفٌ ... قامَت به بين الأنام رِفاتُ

وطئ التراب بحافريه جَوادُه ... فبقبْضةٍ نبذت بها ومواتُ

صَار الترابُ على الجماد تجسُّدًا ... عجْلاً بخوز وهذهِ آياتُ

عبدوه فيك تجاهلاً في قصدِهم ... غَير الإله ولو رأوْك لماتُوا

فأتى الكليمُ وردَّهم عن جهلِهم ... وبَدا له من ربِّه ميقاتُ

وبدا الكلام من الإله لعَبدِه ... موسَى الكليمُ وما بدت أصواتُ

كلُّ الجهات لكلِّ عبدٍ وصفُه ... حَقًّا وما للرب قط جهاتُ

للعبدِ حَدٌّ تنتهي غاياتُه ... والرَّبُّ لا حدَّ ولا غاياتُ

أسْرار الأرواح

وأسرار الأرواح في الأحياء وفي غير الأحياء، والخصائص غامضة لا تدركها العقول، كما أن خاصية جبريل عليه السلام في إحياء الأموات من جميع الأجناس والأنواع، حتى تصير أجسادًا ظاهرة قائمة متحركة متكلمة، فكذلك خاصية عزرائيل في إماتته الأحياء من كل نوعٍ وجنسٍ، حتى تصير الأجساد ميتة وأرواحها باطنة، لا حركة فيها ولا كلام مع بقاء الأرواح، وهي مستورة على الأبصار، ومحجوبة عن الأجساد، إلا عند المساءلة، وعند الإذن من الله تعالى لها في السّماع، ويوم المعاد.

فلذلك تتمزق الأجساد وتأكلها الهوام والتراب، ولولا حجاب الأرواح عنها لما بليت تلك الجلود والعظام، فإن الأرواح من خصائصها ألا تمس شيئًا إلا حيي ذلك الشيء، ما خلا أجساد الأنبياء -صلوات الله عليهم وسلامه- فإنها محفوظة من الهوام والتراب، ومن حصل له نصيب من محبَّة الله تعالى، أو الشهادة فيه، فتبقى أجسادهم

للحياة المذكورة في القرآن.

وقد حُكي في ذلك حكايات ليس هذا مكانها، لكن لا بُد من تنبيه: فإنه قد ورد أن موسى ﷺ رُئي قائمًا في قبره يصلي.

وقد ذكر أن شخصًا نزل إلى قبر الخليل عليه السلام فوجده جالسًا وهو يقرأ، فربما صاح به فحصل له ما حصل، إما العمى أو غيره.

وذكر أنهم نبشوا قبرًا في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فوجدوا شخصًا ويده على رأسه، ففتحوا يده ففاض الدم فردوا يده عليها، وأطلعوا عمر على ذلك فقال: أبقوه على حاله.

وحُكي عن الشيخ أبي علي الروذبادي(١) -رحمه الله تعالى- قال: رأيت شابًّا ميتًا على مزبلة، فأخذت في جهازه وتكفينه ثم حضرت له وألحدته، وشققت الكفن عن وجهه، ووضعت خده على التراب، وقلت: يرحم الله تعالى غربته، قال: ففتح عينه ونظر إليَّ وقال لي: أتذللني بين يدي من ذللني، لا نصرتك بجاهي غدًا يا روذبادي، فقلت: يا سيدي، أحياة بعد الموت؟! فقال: وأين الموت؟ أنا حيٌّ، وكل محبٍّ لله فهو حيٌّ، صدق -رضي الله تعالى عنه-.

فإن الله تعالى أخبر عن الذين قتلوا في سبيله أنهم أحياء يُرزقون فرحين، فما ظنك بمن قُتل في حبّه؟ وهذه الطبقة وما قبلها فرحت بالتخصيص؛ لأن الأول في سر الأرواح تخصيص في الإحياء، ولهذا أيضا تخصيص في الإماتة، والخصائص الإلهية لا يحجر عليها، ولا للعقول فيها مجال(٢).

---

(١) هو أحمد بن محمد بن القاسم ابن منصور بن شهريار بن مُهْرذاذاز بن فُرْغُدُدَ بن كسرى.

وهو من أهل بغداد، سكن مصر، وصار شيخها، ومات بها، صحب أبا القاسم الجنيد، وأبا الحسين النوري وأبا حمزة وحسنًا المسوحي، ومن في طبقتهم من مشايخ بغداد، وصحب بالشام ابن الجلاء، وكان عالمًا فقيهًا عارفًا بعلم الطريقة، حافظًا للحديث. توفي سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

وانظر: طبقات الصوفية (٣)، (٣٥٤)، وطبقات الشعراني (١/١٢٤)، والحلية (١٠/٣٥٦)، والرسالة القشيرية (ص٣٤)، وحسن المحاضرة (١/٢٢٥).

(٢) **قلت:** قال الشيخ عفيف الدين اليافعي: «الأولياء ترد عليهم أحوال يشاهدون فيها ملكوت =

=

السماوات والأرض، وينظرون الأنبياء أحياء غير أموات، كما نظر النبي ﷺ أبي موسى في قبره قال: وقد تقرر ما جاز للأنبياء معجزة جاز للأولياء كرامة بشرط عدم التحدي قال:

ولا ينكر ذلك إلا جاهلٌ، ونصوص العلماء في حياة الأنبياء كثيرة فلنكتف بهذا، والأخبار الواردة عن حاله، وحال الأنبياء في البرزخ مصرحة بأنهم ينطقون ويتزاورون كيف شاءوا لا يمنعون من شيء، بل وسائر المؤمنين الشهداء وغيرهم ينطقون في البرزخ بما شاءوا غير ممنوعين من شيء.

ولم يرد أن أحدًا يمنع من النطق في البرزخ إلا من مات عن غير وصية».

وقال الشيخ تقي الدين السبكي: «حياة الأنبياء والشهداء في القبركحياتهم في الدنيا، ويشهد لهم صلاة موسى عليه السلام في قبره، فإن الصلاة تستدعي جسدًا حيًا، وكذا الصفات المذكورة ليلة الإسراء كلها صفات الأجسام، ولا يلزم من كونها حياة حقيقية أن تكون الأبدان معها كما كانت في الدُّنيا من الاحتياج إلى الطعام والشراب، وأما الإدراكات كالعلم والسمع فلا شك أن ذلك ثابت لهم، وكسائر الموتى» انتهى.

وقال الشيخ الهيتمي في «الجوهر المنظم»: «ثبت أن حياة الأنبياء ولا شك أنها أكمل من حياة الشُّهداء، مع أ نَّا نعتقد ثبوت نحو السمع والبصر لكل ميت، وعود الحياة له في قبره، كما ثبت في السُّنة ،ولم يثبت أنه يموت بعد، بل ثبت نعيم القبر وعذابه، وإدراكهما مشروط بالحياة لكن يكفي حياة جزء يقع به الإدراك، ولا يتوقف على حياة البنية خلافًا للمعتزلة. وأما أدلة حياة الأنبياء فمقتضاها حياة الأبدان كحالة الدنيا مع الاستغناء عن الغذاء، ومع قوة النفوذ في العالم، وقصة سماع ابن المسيب للأذان والإقامة من القبر الشريف مشهورة.

وقال: «نحن نؤمن ونصدق بأنه ﷺ حيّ يُرزق، وأن جسده الشريف لا تأكله الأرض، وكذا سائر الأنبياء، والإجماع على هذا قيل، وكذا العلماء والشهداء والمؤذنون.

وصح أنه كشف عن غير واحد من العلماء والأولياء، فوجدوا لم تتغير أجسادهم نعم الظاهر من الأدلة أن حياة الشهداء أقوى من حياة الأولياء للنص عليها في القرآن، ودون حياة الأنبياء؛ لأنهم بها أولى وأحرى، والتفاوت فيها بمعنى التفاوت في ثمراتها غير بعيد، وفي حصول هذه الحياة لشهداء الآخرة فقط كالغريق والمبطون توقف.

وأكّد جمهور العلماء على أن حياة الشهداء حقيقية.

وقيل: للروح فقط، وقيل: للروح والجسد بمعنى أنه لا يبلى وأنه تستمر فيه أمارات الحياة من الدم وطراوة البدن، وهذا هو المشاهد في أبدانهم، كما صح أن جابر بن عبد الله، وعمرو بن الجموح، وهما من شهداء أُحد حفر السيل قبرهما بعد ست وأربعين سنة، فوجدوا لم يتغيروا، وكان أحدهما جُرح، فوضع

=

يَنزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ

وكما أن جبريل عليه السلام تنجذب إليه الأرواح بالظهور لكماله في روحانيته، فكذلك عزرائيل تنجذب إليه الأرواح في الأحشاء والبطون، فساعة تكون متروح على صورة عزرائيل، تنجذب إليه جذبًا خاصًا بحيث لا تثبت في الجسد، وقالوا: إن الملائكة الموكَّلون به رفاق له وأعوان على ذلك، وهي أسرار لا يعلمها إلا الله، وهو يقبض في كل ساعة من الخلائق في جميع العوالم ما لا يعلم علمه إلا الله تعالى، وهو يظهر لهم بصورة أعمالهم في مرأى حقائق أرواحهم فينجذبون إليه جذبًا، كل منهم إنما جذب غيره.

وهو في المثل كالشمس يراها كل الناس في أماكنهم من البلاد بحسب حاله، وضعف بصره أو قوته، وهي واحدة في حدِّ ذاتها الصقيلة المستديرة، كالكرة في جميع الجهات يتراءى في رأي العين الرائي والمترائى، سواء كانوا كثيرا أو قليلاً؛ لأنها مرآة الوجود، فإذا تحققت هذا المثال وما قبله لا تنكر كون عزرائيل عليه السلام يقبض آلافًا من الأرواح في اللحظة الواحدة، وكل واحد منهم يتحققه ببصره، وتنجذب إليه رُوحه، لأن المسافة والتقدير والقرب والبعد من صفات الأجسام لا صفات الأرواح، فافهم ذلك، فإنه بحر عميق تحار فيه الأفكار والعقول، وانظر إلى ما لله تعالى مما لا يتناهى من

=

يده على جرحه، فاميطت ثم أرسلت، فعادت كما كانت، وأصابت المسحاة قدم حمزة بعد خمسين سنة، فسال منه الدم» انتهى.

وبالجملة: فصرائح الأخبار والآثار والروايات، ونصوص جمهور العلماء سلفًا وخلفًا في دوام كرامات الأولياء، ووقوعها في حياتهم، وبعد مماتهم لا تنحصر كما تقرر وأما قول السراج الأُوشي - بضم الهمزة وكسر الشين المعجمة - في عقيدته اللامية:

كرامات الولي بدار دنياه لها كون فهم أهل النوال

فقد ذكر شُرَّاحها ما أطلق عليه أئمة أهل السنة من ذكر هذه المسألة في عقائدهم.

وللاستفاضة في مسألة حياة الأنبياء والأولياء في قبورهم بعد انتقالهم انظر كتابنا: «جمع المقال في إثبات كرامات الأولياء في الحياة وبعد الانتقال».

الملائكة، كجبريل وعزرائيل وميكائيل وإسرافيل، وغير ذلك مما لا يسعه هذا الكتاب، ولا يستعين عليه بخطاب، ولا عنه للسائل جواب.

فانظر إلى هذه الملائكة العظيمة فكيف بخالقها، والعالم بما فيها، والموجد لها من العدم؟

ثم إذا انكشف الغطاء وبُدِّلت الأرض والسماء، وصار ما كان باطنًا ظاهرًا، وما كان ظاهرًا باطنًا فتكون الأجسام باطنة، والأرواح ظاهرة، كما أن الأرواح ها هنا باطنة والأجسام ظاهرة، فيبقى ظهور الحلم للأرواح، والجسد باطن في روحه، كما كان الجسد ظاهرًا والأرواح باطنة فيه، والحكم في النعيم والجحيم على الجسد والأرواح معًا، مكمل هناك للدوام، وتجمع الأوائل والأواخر، وينكشف الغطاء ويظهر العمى ويجهر الخفي.

الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالْحَيَاةَ

وكما أن الموت باطن الحياة، يبطن الموت ويموت، ويظهر الحياة وتحيا بالبقاء، لأن الموت حقيقة الفناء، فيظهر حقيقة البقاء.

وكما أن النيّات باطنة والأعمال ظاهرة، فتظهر النيات صورًا وتخفى الأعمال، ويبقى حكم النيات ويجازى صاحبها بصورة نيته في عمله، فإن النفوس تُحشر على صور أعمالها، وحقائق نياتها، وكذلك القلوب،ترى الله تعالى بصفات معتقدها؛ لأن الاعتقاد ينفع والملك عظيم، وحقائق الجنان وما فيها من شهوات الإنسان، والصور الحسان من الحور والولدان ومن الفواكه والرمّان، والأرائك والعيدان والألحان، وما لا يعبر عنه جنان، ولا ينطق به لسان، وتقر الألسن، وتلذ الأعين، ودوام الخلود وشهود المعبود، وإزالة الحصر والحقد، وقد نبهَّك الله تعالى على ما فيه الكفاية، فقال تعالى: **﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾** [الإنسان: ٢٠].

ولن يسع الزمان ولو طالت الأيام والأعوام استيعاب ما أعدَّه الله تعالى لعباده في الجنان، والروح والريحان، فسبحان الملك المنَّان، المجازي على السيئات بالغفران والإحسان، وإنما ذكرنا التنبيه على الخصائص في كل نوع؛ ليعلم العبد ما لهذا السيد عليه من النعمة المتوالية، وخواص الإلهام في كل نوع جاذب.

الدابّة والصلِّ[١]

ولقد ذكر ابن حيان في كتابه أن الدَّابة المسماة بالصّباة ما بين حماليق عينيها فرسخ، وهي تأكل الحيات الصل أكلاً ذريعًا، وأن من خاصية الصِّل أنه إذا رآه أحد وهو حيٌّ مات الرائي له، وإذا رآه ميتًا لا يضره وهذه خاصة روحانية.

وكذلك إذا رأى الصل نفسه في شيء كالمرآة مات هو؛ لأن الخاصية في رؤيته وهو حي فيموت، وهو لا يرى نفسه ميتًا.

ولما كانت هذه الخاصية في هذا النوع من الحيّات وهو الصل، ولا لهذه الدابة أكل غيره، فألهمها الله تعالى أن تأتي أحجرة الصلا فتنفخ فيها، فيخرجون فتقلب أعينها، فينظرون أنفسهم في أعينها كالمرآة للمرأى، فيموتون فتأكلهم أكلاً ذريعًا، ويكون الصل منهم يبلغ خمسة آلاف رطل!

فانظر -رحمك الله تعالى- إلى هذه الخاصية وهذا الإلهام، وسر هذه الأرواح وما فيها، وما لها من الخواص، ويشمل هذه المعاني: الجمادات، والنبات، وخواص الأحجار لا ينكر لجذب المغناطيس الحديد القس، وقد رأينا ذلك.

ومن العجب ما أُخبرت به ولم أرَه، وإنما أخبرني عدلٌ أنه جَّربه، وهو الشيخ شمس الدين عبد الرزاق بن حسام -رحمه الله تعالى- أن المغناطيس إذا لطّخ بالثوم بطل فعله، فإذا لطخ بدم تيس زال عنه المانع، أو العكس، والله تعالى أعلم، أي ذلك قال!.

وكنت يومًا جالسًا والصاحب تاج الدين -رحمه الله تعالى- وقد ذكرنا عندنا من يحتاج إلى الدهنج لزوال بياض بعينه، فاستدعى بلويحات صغار تقدير الظفر أو دونه، فأخذ واحدة منها، وحك بها على سكين الدواة، وجعل عليها ليمونة أو مسحها بليمونة فصارت السكين نحاسًا أحمر فقال: هذا الدهنِج[٢] الخالص يفعل هكذا.

أسـرار اللّـه

وأسرار الله تعالى منبعثة في جميع المخلوقات من الجماد والنبات والتراب والنار

---

(١) الصل: بالكسر، الحية. وانظر: القاموس المحيط (١/١٣٢٢).

(٢) الدَّهْنَجُ: بفتح الهاء، جوهر كالزمرد، قال داود الأنطاكي: إذا اكتحل بحجر الدهنج أذهب البياض من العين، «مجمع المنافع البدنية» (ص٣٢) .

والهواء والحيوان والإنس والجن، فلا تنكر يا ولي ما يعطاه الإنسان الذي هو أشرف الموجودات والأقرب من ربه ﷻ، فكيف بالكمال ومن أعطي غاية الترتيب الإنسانية؟

فكيف بالنبوة والولاية؟

فيجري الله تعالى على أيديهم وجوارحهم ما فيه النفع والضر والخير والشر والموت والحياة والسعادة والشقاء.

وانظر إلى ما يجريه الله تعالى على ألسنة الأنبياء والمرسلين من الأقوال وعلى أيديهم من الأفعال، وكيف يتحدّون به ويقع في الوقت المطلوب منهم، كما وعدوا به من إهلاك الأمم الخالية وما نزل بهم من البلاء في الدنيا، وظهور حقائق ما تواعدوهم عليه في الدار الآخرة من العذاب والعقاب، فلا تجد شيئًا قالوه إلا وقع، ولا شيئًا فعلوه إلا ثبت ولا يقع خلافه، وهم معصومون عن الخطأ والنقائص.

وانظر إلى الأولياء وهم أتباعهم والآخذون عنهم والوارثون علومهم وأحوالهم - وإن كانوا غير معصومين- وفرّق ما بين النبي والولي، وهم في محل الجواز، ولا يلزم من الجواز الوقوع، وكيف يتصرفون في الأكوان وفي انقلاب الأعيان؟ وما يظهر على جوارحهم وألسنتهم من الآيات والبرهان والكرامات التي لا يختلف فيها اثنان.

وانظر ما أُعطوه من القوّة الرّوحانية وشدة الجنان حتى أخبرني الشيخ أبو الطاهر إسماعيل بن عبد المحسن أن ملك الموت جاء ليأخذ ولدي فقلعته منه إلى هذه القوة والجنان.

سيدنا موسَى وملَك الموت

ولذلك مناسبة من الإرث النبوي، فإن في الحديث الصحيح أن موسى عليه السلام «**لطم ملك الموت ففقأ عينه**[1]»، وأن الله تعالى ردها عليه وقال له: ارجع إليه، وقل له: الحياة تريد؟ ضعْ يدك على متن ثور، فما حازت من الشَّعر تعيش بكل شَعرة عاماً. قال: ثم؟ قال: تموت. قال: فمن الآن.. فقبض روحه.

وتحت هذه الحكاية أسرار عظيمة، وجلالة الأنبياء -صلوات الله عليهم

(١) رواه البخاري (٤٤٩/١)، ومسلم (١٨٤٢/٤).

وسلامه- لكونهم لا يقبض ملك الموت أسرار وليس هذا مكانها، وقد ذكرنا من رأيناه وتصرفاتهم ومن أخبرونا عنه.

حكايات من كرامات الأولياء:

١- الوزارة

وحدثني أبو الحكم المغربي قال: كنا بدمشق بمسجد قريب من دار بن السعلوس[١]، وكان ببرنا وإذا جاءنا فقير نروح إليه فيعطينا ما نطعمه به، فورد علينا فقير فأخرج لنا خبز وصحيفة بيده وقال: يا فقراء، إذا كان للإنسان حاجة ما تقضونها، فأتينا إلى ذلك الفقير وقدمنا له ذلك الطعام وقلنا له الذي قال له ابن السعلوس فقال: في نفسه الوزارة- أوقال الحسبة والوزارة- وهو يتولى الحسبة والوزارة بمصر والشام، أو قال عرّفوه فربما عرفناه، فما مضت أيام حتى ولي الحسبة ثم ولي الوزارة بمصر والشام رحمه الله تعالى.

٢- ملك مصر والشام

وحكى لي طلحة الدماميني -رحمه الله تعالى-وكان فقيرًا صالحًا -قال: كنت أنا وفقير والشيخ خضر بالشام، وكان الملك الظاهر يأتي إلينا قبل أن يملك وعليه عباءه ويجلس عندنا بالمسجد، فحضر عندنا يوم ثم خرج، فقال لنا ذلك الفقير: هذا ملك مصر والشام، ثم سافر الفقير، ثم حضر الملك الظاهر فعرفه الشيخ خضر أنه يملك مصر والشام، فعاهده أنه إذا ملك كان قسيمه وقال له: إذا رأيتني امسك إبهامي، وكانت هذه إمارة بينهما، فلمّا ولي الملك الظاهر جاء الشيخ وحضر إليه ومسك إبهامه وحصل له معه ما حصل من تلك الأحوال قال: فلما وصلت إلى مصر اجتمعت بالشيخ خضر فقال لي السلطان يطلبك، فحلفت له ما أجتمع به، ولقد رأيت هذا الفقير طلحة في أيام الشتاء يلتف في حُصر المسجد ويرقد وما اجتمع بالملك الظاهر،

---

(١) نسبة لابن السعلوس أخو الوزير أحمد بن عثمان بن أبي الرجاء الرئيس شهاب الدين ابن السعلوس التنوخي الدمشقي، أخو الصاحب شمس الدين كان ديناً عاقلاً ثقيل السمع يحب سماع الحديث، وهو كثير البر والصدقة، رزق الجاه العريض في دولة أخيه، ثم ذهب ذلك وعاد إلى حاله. مات كهلاً سنة سبع وتسعين وستمائة. وانظر: الوافي (٩٣٧/١)، والبداية (٦٢٢/١٣).

إلا أن مملكته أشرف من ملك الدنيا وممن جعلوا همهم التصريف في الحياة وبعد الممات.

٣- الشيخ أبو النجا والسُّكر

وحكى لي عز الدين بن عبد الرحمن البوشي أنه توجه إلى الإسكندرية قال: وكان معي ستمائة وعشرين مغلف سكر، فدخلنا فوه وهم يأخذون في فوه على كل مغلف سكر درهم، فطولبت بذلك، فقال الناظر والوكلاء: هذا رجل جيد يعرفنا، كم معه مغلف؟ فقالوا لي كم معك؟ قلت مائتي مغلف، فقالوا الله تعالى شاهد عليك؟ قلت: نعم، ثم إني قلت لصاحب المركب سافروا بنا.

فبينما نحن كذلك وإذا برسول حضر من الناظر وطلبني، فصرت إليه فقال لي: يا ولدي، الوكلاء قالوا إن معك حملة عظمته ولا لي معهم حيلة، انزل عدْ معهم فقلت: خليهم يتقدموا: وحصل عندي ألماً شديداً لكوني معروفًا عند الناس بالخير وكوني أكذب.

وبعد أن قلت ذلك القول دخلت إلى قبر الشيخ أبي النجا رضي الله تعالى عنه ونفعنا به وبكيت عليه وتوسلت به، ثم خرجت من عنده فوجدت الناظر راكبًا. قلت: يا سيدي، إلى أين؟ قال: أسلم علي ناظر الإسكندرية. فقلت له: يا سيدي، ما تروح حتى تخلصني فقال: يا ولدي، وإيش أعمل فيهم؟ قلت له: يا سيدي، كان معي ثمانية عشر مغلفًا وديعة، قلت ما أدفع عليها شيئًا، فقال ادفع لهم عشرين درهمًا وسافر، ثم قال لغلامه رح معه إلى الوكلاء وقل لهم هذا ضيف القاضي، خذوا منه عشرين درهمًا واتركوه.

فقالوا ضيف القاضي ما نأخذ منه شيئًا، فحلفت عليهم، ووزنت عشرين درهمًا وسافرت ببركة الشّيخ أبي النجا.

٤- الكتَّـــان

وحكى لي القاضي زين الدين البوشي عن والده قال: كان بيني وبين ابن قرصة صحبة، وكان ناظر البهنساوية: فاحتاطوا عليه بعد عزله، وكنت أوسقت مركبًا كتانًا، فلما وصلت إلى مصر وإذا بجندارين يحاذيان المركب، فلما دخلت إلى عند دار الوكالة

مسكوا الرئيس وقالوا له: هذا النفيس ابن قرصة، ثم رسم بحمله إلى دار الوكالة فحملوه، فتألمت لذلك ألماً كثيرًا، وتشفَّعت بجماعة فلم يفدني ذلك، قال: فطلعت إلى القاهرة فاجتزت بمسجد لأصلي فيه فوجدت فيه جماعة من الفقراء، فقالوا لي: ما لك هكذا؟ فقلت: ملهوف ملهوف، فقالوا: اجلس وأطعم الفقراء شيئًا -وكان معي رفيق- فدفعت إليه درهمًا اشترى به ما يأكلوه، وأحضره إليهم فأكلوه، ثم هممت بالقيام فقالوا لي: اجلس، فجلست.

فلما فرغوا من الأكل زيقوا زمانًا ثم رفعوا رءوسهم وقالوا امضِ؛ فقد قُضيت حاجتك وزال همّك، فخرجت من المسجد ومشيت قليلاً فوجدت شخصًا يعرفني، فقال لي: سررت بما سمعت من إطلاق الكتان، فقلت: وكيف ذاك وقد فارقتهم على أن يقبنونه وأيست منه؟ فقال ابن قاضي دارا: حضر لزيارة القاضي النفيس ابن قرصة، فوجده متشوشًا بسببك، فأطلق الكتان وردّوه إلى المركب. وذلك ببركة الفقراء.

٥- الشيخ أبو النجا والكاشف

وحكى لي الأمير ناصر الدين بن الخازندار -وكان موثوقًا به- قال: كنت نائبًا لأحد الأمراء في الجيزية، فجاء كاشف فأراد أن يشوّش عليَّ فجمعت أصحابي والفلاحين الذين عندي وهجمت عليه وضربته، فانحدر في وقته.

وخشيت منه على نفسي الشنق، فدخلت على الشيخ أبي النجا وجعلت في عنقي منديلاً، وربطتها في ضريح الشيخ أبي النجا فأخذتني سِنة فرأيت الشيخ أبا النجا، فقلت: يا سيدي، من أنت؟ فقال: أنا سالم، وربما أشار أو كما قال: بالسلامة. قال: فاستيقظت وقمت، وتوجَّهت إلى مصر متخفيًا في وصولي، وسمعت أن ذلك الكاشف حين وصل احتاطوا عليه، ورموه الجب.

ببركة الشيخ أبي النجا قدَّس الله تعالى روحه.

٦- العـــزومة

وحكى لي الفقيه شهاب الدين السفطي الرشيدي أنه عزم عليهم في مفتاه بسفط رشيد-وكان ذلك المكان منزلة لأمير البلد، إذا حضر ينزل فيها- فبينما نحن مجتمعون وأكلنا وانبسطنا، قيل: الأمير وصل، فحصل للجماعة من ذلك شيء.

وكان بيننا فقير، فجعل يقول: ها هو قد جاء، ها هو قد قرب من المنزلة، فقال الفقير بيده: ارجع، فلم نشعر إلا وهو قد رجع ومن معه.

فسألت أحد أصحابي عن سبب رجوع الأمير فقال: ما أعرف إلا أنه قال: روحوا بنا المنزلة، فلمّا قربنا منها قال: ارجعوا فرجعنا.

٧- الكلـــب

وحكى لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- قال: كنا جلوسًا والفقراء، فجاء كلبٌ فجعل الفقراء يطردونه، فلم يبرح، فأدخل فقير رأسه في عبّه أو زيقه وقال للكلب: رُح، فراح الكلب يجري إلى أن راح بالكلية.

٨- موت وبقاء

وحكى لي الفقيه شهاب الدين المقدم ذكره أن فقيرًا قال له: قُلْ للقاضي زين الدين بن مخلوف[1] أن ابن دقيق العيد يموت ويبقى بعده مدة، وهما راكبان طيبان في ذلك الوقت، وعرَّفته بذلك.

وقد توفي الشيخ تقي الدين وبقي القاضي زين الدين بعده إلى الآن.

التأْثيــــر في المَوجُــودات

أما عن الخواص والتأثيرات في الموجودات، فلهم منها ما لا يسعه هذا الكتاب، فلا يتوهمن في ذلك، فإن كثرة الحجب إنما وقعت على المحجوبين من عدم الإيمان بهذه الطائفة، والتخصيص الإلهي، ووقوفهم مع العوائد، ولو عقلوا لعلموا أن من العوائد ما هو عند غيرهم خرقًا للعوائد، فإن زيادة النيل ونقصانه في أوان الحاجة إليه خرق عادة عظيمة، وقد صار عادة حتى إن من كان من غير أهل هذه الديار ينكر ذلك.

ولقد كان معي رجل مغربي ونحن بساحل مصر قبل طلوع النيل، فذكرنا حديث

---

(١) قال ابن كثير: زين الدين بن مخلوف توفي عن أربع وثمانين سنة وله في الحكم ثلاث وثلاثون سنة. البداية (١٤/٨٧).

زيادة النيل، فعجب لذلك وحلف ألا يسافر إلى بلده حتى يطلع النيل وينظره يفعل ذلك، وكذلك الأمطار في البلاد التي ليس بها النيل، تأتي في وقت الحاجة إليها.

تدبير إلهي

وبلغني أن بعض البلاد محجّر، فإذا كان أوان احتياجهم إلى الزراعة يهب ريح فيأتي لهم بالتراب، حتى يملأ تلك النواحي التي يزرعون فيها، ثم يمطر المطر عليه فيزرعون، فإذا حصدوا وحملوا غلالهم جاءت الرِّيح فحملت التراب عنهم.

بين الحق والباطل

فانظر إلى هذا التدبير الإلهي الذي تعجز العقول عن إدراكه، ثم الخواص التي في الإنسان عن النبي والولي؛ إذ المضاددة يستبين فيها الحقائق.

فالنبي والولي في رتبة الحق، والساحر والسيماوي في رتبة الباطل، وتخرق العادة للجميع، لكن الساحر يأتي بالتخييل، فتخيل ما هو موجود ولا يوجد شيئًا من غير شيء، والسيمياوي يُوهم بالتزيين ولا حقيقة له، والمعيان من أعاجيب الإنسان إذ ينظر إلى الشيء بعين التعجب أو الاستحسان فيذهبه أو يهلكه، أو يقع فيه الفساد.

ابن عربي البدوي

وقد كان عندنا شخصٌ بدويٌّ يُسمَّى ابن عربي، كان إذا نظر إلى الشيء حصل له في وقته الفساد، ولقد رأيت مرة النواتية يجرون خلفه ليقتلوه، وكان قد رأى مركبًا وهو مربوط بالساحل فاستحسنه فقطع المركب الحبال وشمر ولا قدروا على ردّه، وكان مركبًا كبيرًا، وبلغني أنه نظر إلى نخلة موسوقة بالأسابيط فاستحسن ذلك الوسق فسقطت أسابيطها في وقتها.

وكان عندنا بالأقصرين شخصًا من أولاد الأكابر كذلك حتى في ماله وأحوال نفسه، وهذه من الخواص العجيبة- وكل ذلك أسرار إلهية تجري بحسب الإرادة في مخلوقاته بالنفع والضر والإيمان والكفر.

آثار الرحمة والغضب

والله تعالى يظهر آثار الرحمة على جوارح المختص من عباده كأنبيائه ورسله وأوليائه والخواص من عبيده، ويجري آثار غضبه على أيدي الجبابرة من عباده والمبعودين

من بابه من أعدائه.

مملكة داود وسليمان

وانظر إلى خلافة داود وملك ولده سليمان -عليهما السلام- وتسخير الجبال في الذِّكر والطير وإلانة الحديد، وتسخير الجن والريح والشياطين لسليمان، وتلك المملكة العظيمة.

الإسكندر ونمرود

وكذلك الإسكندر ذو القرنين وما فتح الله تعالى على يده من البلاد وما هدى به من العباد.

وانظر إلى مقابلة ذلك في نمرود بن كنعان، وكيف ولدته أمه بالبريّة، وماتت وتركته، فأرضعته نمرة فبذلك سمي نمرودًا ونشأ وكان منه ما كان من التجبّر.

فرعــون

وانظر إلى فرعون بابتداء أمره وما صار إليه حاله ودعواه الإلهية مع معرفته بنفسه وصغر جسمه -قيل أن طوله كان ذراعًا ونصف، وأن لحيته كانت إلى سرته، وأنها كانت خضراء كالصلق- وكيف آل أمره إلى ما آل إليه.

بختنصّــر (١)

وانظر إلى بختنصر وما كان بدء أمره مع كونه كان يتيمًا بأرض بابل وأبوه حطَّاباً وحصل ما حصل.

ولولا الإطالة لذكرت ابتداء كل حال واحد منهم وما صار إليه مبسوطًا، وإنما قصدنا التنبيه على الخواص في كل مخلوق لله تعالى، وأفضل المخلوقات الإنسان الكامل.

هَــــذَا خَلْقُ اللَّـــــه

وانظر إلى عجائب الملكوت العلوي وما فيه من الملائكة وما هم عليه من عدم الأكل والشرب وطعامهم التسبيح ﴿**يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ**﴾

(١) إشارة إلى بختنصر وقومه - وهم عبدة النيران - وهم الذين خربوا بيت المقدس وحرقوا التوراة. وانظر: تاريخ دمشق (٣٣١/٤٠).

[الأنبياء:٢٠].

وفي عجائب الملكوت من العجائب ما تتعجب من العجائب وليس هذا مكانه فانظر إلى هذه المملكة العظمى.

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٨٣].

وانظر إلى اختلاف الألسنة والألوان في كل لون حسن في كونه لا يلتقى في غيره، وفي كل لسان تعارف من جنسه لا يلتقى بي غيره، لأن من جمع بين ألسنة أو لسانين أو جميع الألسنة كلها وهذا يفهم عن جنسه، حتى صياح الحيوان يفهم بعضًا بعضًا من سائر الحيوانات كلها ولغاتها وكلامها وألسنتها وألوانها مسبحات لله تعالى قائمات لعبادته.

لغَـــة أهْل الجنّـــة

ومن كانت حقيقتة محمدية وفصاحتة معنوية عربية فهم جميع الألسن ونطق بأحسنها وهو لسان العرب الذي يكلم الله تعالى به الناس يوم القيامة، وهي لغة أهل الجنة، وهي أفضل اللغات في البيان، وهي محل الاعتدال لقوله تعالى: ﴿ غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر:٢٨].

ولما تكلم الله تعالى بالقرآن وهو كلامه على الدوام على لسان العرب كان من أكبر المعجزات، لأنهم أفصح الخلق، ولم يقدروا علي مثل سورة ولا بعض سورة، ولو اجتمع كل من في الأرض من الجن والإنس والملائكة والشياطين، وفصاحة العرب طبيعة فيهم ومنهم لكتاب الله تعالى أعني القرآن العظيم لأنه عربي.

من بلاغيات عِوامِ العرب:
تبارَك الله

حكى لي الشيخ أبو العباسي الملثم -رحمه الله تعالى-قال: كنت أمشي في البرية وأنا أقرأ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ فقلت في نفسي: ما هوالتبارك؟ وتحيرت في ذلك، وإذا ببنات من بنات العرب يلعبن، وإذا واحدة منهن صعدت علي تل من رمل وجعلت ترقص وتقول تباركت عليكم تباركت عليكم، فعلمت أنه التعالي.

وأخبرني الشيخ مجيد الدين مهنا قال كنت يومًا أمشي بأبيات العرب وأنا أتلو

(وَهُوَ الَّذِي مادَى الأَرْضَ) فرفعت إمرأة سجاف البيت وقالت له: يا فقير، حقق الأمر ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ﴾ [الرعد:٣].

وهذا الكلام في صغارهم وكبارهم وعبيدهم وإمائهم ورجالهم ونسائهم.

وحدثني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى-أنه سمع عبدًا صغيرًا يقول لبياع عندهم أعطني ملحًا بفلس وبذى البيضة حنّا، فقال له البياع: من سيدك؟ أنني ويحك عند الأمير ابن مهنا.

الجاريَـــة

فانظر إلي هذه الطبيعة.. كما حكى لي أن غيلان ذو الرمة مرّ بأبيات وهو عطشان، وإذا بجارية سوداء فطلب منها ماء فسقته فقال لها: ما أحرَّ ماءك يا جارية! فقالت: لو نظرت إلي عيب شعرك لأشغلك عن حَرِّ مائي وبرده، فقال لها: وما ذاك؟ فقالت:

ألستَ الذي شبهتَ عير البقرة ... لها ذُنب فوق إستها أم سَالم

جعَلت لها قَرنين فوق جبينِها ... وصبين مستودين مثل الحمائم

وساقين إن يسمكنا منك تبركًا ... بجسمِك يا غيلان مثل المياسم

أيا طيبة أبا عسبا بين خَلاخلٍ ... وبَينَ البقَا آبت أم أم سالم

قال فنزل غيلان عن ناقته وقال لها: سألتك بالله خذي ناقتي هذه واكتمي عني.

الأعرابي

وكما حكي عن الأصمعي أنه كان سائرًا في فلاة فرأى أعرابيًا على ناقة وهي ترقص به في الأراك، فدنا منه ليتباسط، فسلم عليه فرد عليه السلام فقال له الأصمعي: يا أعرابي، أعندك في هذه البرية طبيب؟ فقال: حمر الوحش لا تحتاج إلى بيطار، فقال الأصمعي: إني قلت بيتًا من الشعر فأشتهي أن تخبرني بها فقال قل، فأنشده فقال:

قومٌ بجنانٍ عهدْناهُم ... سَقَاهم اللهُ من النُّوء

فقلت: نوء إيش يا أخا العرب؟ فقال:

نُوءِ السَّماكين ورواهما ... نوءٌ يرى من بُعد إنما فيه ضوء

فقلت: ضوء إيش يا أخا العرب؟ فقال:

ضـــــوءٌ تـــــلألأَ في ليلـــــةٍ مُضـــــمرةٍ مقفـــــرةٍ لـــــوْ

فقلت: لو إيش يا أخا العرب؟ فقال:

لَــو مــرَّ بهــا راكــبٌ ســائقٌ عَلــى نَجيــب الأرضِ مــن طَــوْ

فقلت: طو إيش يا أخا العرب؟ فقال:

مُنطــوي الكشــح هَطــيم الحشــا كالبــازِ إذا انقــضَّ مــن الجــوْ

فقلت: جو إيش يا أخا العرب؟ فقال:

جــوُّ الســماءِ والــرِّيحُ يعلــو بــهِ فاشــــتَمَّ ريــــحَ الأرض فــــاعلوْ

فقلت: فاعلو إيش يا أخا العرب؟ فقال:

فــاعْلو لمــا قــد فــاتَ مــن صَــيدِهِ لاَ بــــدَّ أن يَلقــــى ويلقَــــو

فقلت: يلقو إيش يا أخا العرب؟ فقال:

يلقَــــو بأسْــــيافٍ يمانيَّــــةٍ وعـــن قَريــبٍ ســـوف يُفنَـــوا

فقلت: يفنو إيش يا أخا العرب؟ فقال:

إن كنــتَ تُنكــر مــا قلتُــه فأنــتَ عنــدي رجــلٌ بَــوْ

فقلت: بو إيش يا أخا العرب؟ فقال:

البَــو لا يَنقــل عــن أمِّــه يَــا أحمــقَ النــاسِ تــروح أو

فقلت: يا أخي، عليك عزيمة؟ فقال: لا يأبى الكرامة إلا لئيم.

قال: فأخذته وجئت به إلى البيت، وأحضرت له جفنة وعليها دجاجة، وقلت: يا أخا العرب أنا وأنت، وابنين وبنتين، وصاحبة البيت، فاقسمها بيننا، قال: إن الله تعالى قد قسمها، الرأس للرئيس، وأنت رئيس الدار، والجناحين للابنين، والرجلين للبنتين، والعجز للعجوز، وأكل مطايب الدجاجة.

فلما كان في اليوم الثاني أتيته بجفنة وعليها ثلاث دجاجات، وقلت له: يا أخا العرب، نحن كما علمت، فاقسمها بيننا أزواجًا، فقال: إن الله تعالى قد قسمها، أنت

وابنيك ودجاجة زوج وزوجتك وابنتيها ودجاجة زوج، وأنا ودجاجة زوج.

فلما كان في اليوم الثالث أتيته بجفنة وعليها خمس دجاجات، وقلت له: يا أخا العرب، نحن كما علمت، فاقسمها بيننا أفرادًا، قال: إن الله تعالى قد قسمها، أنت وزوجتك ودجاجة فردًا، وابنتيك ودجاجة فردًا، وابنيك ودجاجة فردًا، وأنا ودجاجتين فردًا.

فقلت له: يا فتى، هذا مخبرك، فما خبرك؟ أو هذا حسبك فما نسبك؟ فوجدته علي بن زيد بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فقلت: أبا الفضل إلا أن يكون لأهله، وفصاحة العرب ليس فوقها فصاحة.

فصاحة الإمام علي

ولعلي بن أبي طالب عليه السلام خُطبة لا ألف فيها؛ لأنهم تذاكروا أي الحروف أدخل في الكلام فقالوا: الألف، فخطب خطبة بلا ألف فيها، ووقفت عليها.

ويضيق هذا الكتاب عن كل ما في النفس من هذا وغيره لمكان غرضنا، وإعراب القلوب الفعل، وإعراب الألسن النطق، فإذا غرقت الألسن، ولحنت القلوب، فلا يفيدها إعراب ألسنتها، وإن لحنت الألسن، وأعربت القلوب، فلا يضيرها لحن ألسنتها.

الفقير والأسد

وحُكي أن جماعة من الفقهاء توجَّهوا إلى زيارة فقير، فآن وقت الصلاة، فتقدم الفقير فلحن في القراءة، فامتنع الفقهاء من الصلاة خلفه، فتأخَّر وتقدَّم غيره، وصلَّى بهم، فلما خرجوا من عنده اعترضهم الأسد في الطريق، فامتنعوا من التوجُّه، فجاء الفقير إلى الأسد ومسك أذنه وفركها، وقال له: ألم أقل لك لا تعترض على ضيوفنا، وجعل الأسد يئن كالتائب، ثم قال لهم روحوا، أنتم عدلتم ألسنتكم ونحن عدلنا قلوبنا، والكمال الجمع بين إعراب القلوب وإعراب الألسن، جعلنا الله وإيَّاكم كذلك وقد قلت:

وَمـا يَنفـعُ الإنسـانُ إعـرابُ لفظِـه إذا كـان لحـنُ المرءِ مـن وصـفِ قلبِـه
كسيفٌ يساوي غِمدُه ألـفَ درهـم وليس يساوي الفلسُ في وقت جذبهِ
ومـا الغمـد في وقـت اللقـاء بنـافعٍ إذا لم يكـن حـدُّ الحسـام وضـربِه
كـذلك مـن يـأتي بحُسـن ظـواهرَ وفي قلبِـه أن لا يميـلَ لربِـه
يُجـاهرُ بالـدِّين الحنيـف تصـيُّدًا وباطنُـه وصـفُ اللعـين وحزبِـه
فكـن حـذِرًا منـه علـى كـلِّ حالـةٍ فمَـا بـان قتـلُ السُّـمِ إلا بشـربهِ
ولا تقـربنَّ مـن كـان بالوصـل كاذبًـا فمَـا البعـدُ كـل البعـد إلا بقربـهِ

دعَـــاء

اللهم إنا نعوذ بك من كل وصف يبعدنا عنك، أو يبعدنا عن جنابك، أو يردنا عن بابك، ونسألك أن تسعدنا إسعاد من أسعدته بك، وفرحته بقربك، وخصصته بحبِّك، واخترت له خير ما عندك، وتوليته عن نفسه بك، وكنت عليه وكيلاً وحفيظًا وكان بك سميعًا بصيرًا وبلَّغته بك فوق الأماني والآمال، وكنت معه وله في كل حال من الأحوال، فلا تهوله الأهوال، ولا تزعجه الأقوال، ولا يحتاج إلى السؤال، ولا يلحقه أماني الآمال، قد استوى عنده الخبر والإخبار، وانطوى في حقِّه الإخفاء والإظهار، وفات في حقيقته بك الليل والنهار، فهو سعيد الدارين، ومالك الكونين، والمنزَّه في تنزيهك من الكيف والأين وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

الإلحاد في التوحيد

وإيَّاك وطريق من ألحد في توحيده وتزندق في تفريده، وجحد في تحميده، فإنها نزعة تلبيسيّه ونزعة إبليسيّه، فإنه لم يتحقق بالشهود، ولا بأوامر المعبود، فلذلك امتنع عن السجود، وضرب القياس ومال إلى الانعكاس، ونظر إلى أمّهات العناصر، ولم يعقل حقيقة البواطن والظواهر، ففضل عنصر النار على التراب، ولم يقف مع تخصيص رب الأرباب، ونظر إلى ذاته بالتمييز والتعيين، وقال: ﴿**أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ**

وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢].

وعلّة الحسد كانت كائنة له في توحيده، ومانعة له عن سجوده، وحاجبة له عن امتثال أمر معبوده، فعاد وصفه عليه بالإبلاس، وظفر من صفقته بالإياس، فكان من الكافرين، ورجع إلى أسفل سافلين، فلما تحقَّق بما صار إليه، وعود صفة علمه عليه لزم غشه في طريقه، وعاد يدعو الناس إلى تحقيقه، ويزين لهم أباطيل الدعوى في زخاريف الأهواء، بما يطلع عليهم من الأغواء.

برهَان الأوهَام

من هنا يظهر الباطل في صورة الحق، والتكذيب في مقابلة الصدق، ويستميل كل واحد إلى شهواته، ويحثه على طبائع عاداته، ويجذب نفوسهم الخبيثة بمغناطيس فكره، ويقيدها بحبائل صيده ومكره، وإبدالهم على الإلحاد في صورة الاتحاد، وإن عين الوجود عين واحدة في كل زمان، ويستحيل عليها الزيادة والنقصان.

فلا أمل ولا آمال، ولا ماضٍ ولا استقبال، فليس سواه ولا موجود إلا إيَّاه، فهو الصامت والناطق، والمخلوق والخالق، والسابق واللاحق، والناقص والكامل، والمحمول والحامل، والسنة والفرض، والكل والبعض، والعلم والمعلوم، والموجود والمعدوم، والجنة والنار، والليل والنهار، والحامد والمحمود، والحركة والسكون، والنواظر والعيون، والشكر والنعيم، والعذوبة والجحيم.

فمَن المنعم والمعذب، والصادق والمكذب، فليس غيره من جميع الأنواع والأجناس، وجميع المعاني والحواس، فتوسَّعوا في معتقدات الضلال، وجمعوا عليهم جماعة من الضلال، وتصوروا حقائق المحال بالمحال، وتوهموا الواجب بما زال وما استحال، وزعموا أنهم أهل الوصول، وأن الناس دونهم في غمّة وغرور، وأن الحقائق قد انكشفت لهم دون من تقدَّم وتأخَّر، ومن بطن وظهر، وأن جميع الأديان والشرائع قشر على هذا اللباب، وستائر مسدولة على دخول هذا الباب، خشية ألا يدخله غير أهله ولا يعبر عنه غير شكله.

والكلام بهذا الكفر من أخس الكلام، وصاحبه أضل من ضلال الأنعام؛ لأنه من برهان الأوهام، وتوالي سدف الظلام؛ لأن كل كافر جنح في كفره إلى تنزيه معبوده،

وتعاليه في مقصوده، وهؤلاء جعلوه بمحل القاذورات، وغيرها من سائر المخلوقات، ولا حاجة إلى ذكر ذلك؛ لأن السامع يعقل ذلكِ بفهمه.

هذَيـــان

ومثل هؤلاء لا يرضي أهل العلوم والأديان، وأرباب الشرائع والأعيان لمخاطبتهم؛ لأنه نوع من الهذيان، ونزغات من الشيطان، وتلافيق من البهتان، لم يقم عليه دليلّ ولا برهانّ ولا حجةّ ولا بيانّ، ولا شهود ولاِ عيانّ.

أحبَـاب الشَّيطَان

وأصحاب هذا الكلام أحسن الخلائق عند الشيطان، لا يرضى أن يعزى إليهم طريقهم، وإن كان السبب في كفرهم وتشويقهم، وتجميعهم على ذلك وتفريقهم، وهم مع ذلك يوحونه إلى أوليائهم، ولا يتظاهرون به إلا لمن كان من أصدقائهم، ويجعلون أهل العلوم وأرباب الدين والأولياء والصالحين من أعدائهم، وليس لواحد منهم كلمة واقعة في القلوب، ولا له فراسة يخبر عمّا في القلوب، ولا له كشف يظهر له ما كان عنه محجوب، وهم في أغلس الأحوال، وأشد النكال، ويرون ذلك أنه عين الخير.

والمصيبة العظمى والبلية الكبرى أنهم يظهرونه لك، ويزينونه بأوصاف أهل الطريق، ويدخلونه في سلوك أهل التحقيق، ويذكرونه بنوع من علم الفناء في الوصول إليه، وأنهم ما وصلوا لذلك إلا بالفناء عن نفوسهم، وتحققوا بشهود مشهودهم، وأنهم وجدوه عن الخبر والمآثر والأثر، وهذا والله هو عكس الحقائق، والانحراف في مزاج الذائق، فإنه يجد المرارة في الحلاوة، والحلاوة في المرارة، وهذا سمع باسم الفناء، فعبر عنه بما لا يعلمه، وفهم غيره من جنسه بما لا يفهمه[١].

---

(١) فائدة وتتمة: قال سيدنا ومولانا شيخ الإسلام مصطفى البكرى ﷺ: قال الجيلي قدَّس الله سرَّه في إنسانه الكامل الباب التاسع والخمسون في النفس وأنها متحد إبليس ومن تبعه من الشياطين أهل التلبيس، ثم قال بعد كلامٍ طويلٍ:

واعلم أن إبليس له في الوجود تسعة وتسعون مظهرًا على عدد أسماء الله الحسنى، وله تنوعات في تلك المظاهر لا يُحصى عددها، ويطول علينا استيعاب شرح مظاهر جميعها، فلنكتفِ منها بسبعة مظاهر هي أمهات جميع المظاهر، كما أن السبعة النفسية من أسماء الله تعالى أمهات جميع أسماء الله الحسنى، ثم ذكر المظاهر الست وقال: المظهر السابع: المعارف الإلهية يظهر فيها على الصديقين والأولياء =

=

والعارفين إلا من حفظه الله تعالى، وأما المقرَّبون فما له إليهم من سبيلٍ، فأول ما يظهر عليهم به في الحقيقة الإلهية فيقول لهم: أليس أن الله تعالى حقيقة الوجود جميعه وأنتم من جملة الوجود والحق حقيقتكم؟ فيقولون: نعم. فيقول: لِمَ تتعبون أنفسكم بهذه الأعمال التي يعملها هؤلاء المقلدون؟ فيتركونها. فإذا تركوا الأعمال الصالحة قال: افعلوا ما شئتم فإن الله تعالى حقيقتكم، فأنتم هو، وهو لا يُسأل عما يفعل، فيزنون ويسرقون ويشربون الخمر، حتى يزول بهم ذلك إلى أن يخلعوا رتبة الإيمان: أي عقدته من أعناقهم بالتزندق والإلحاد.

فمنهم: مَن يقول بالاتحاد، ومنهم: مَن يدَّعي في ذلك الإفراد، ثم إذا طُولبوا بالقصاص وسُئلوا عن منكراتهم التي فعلوا، يقول لهم: أنكروا ولا تمكنوا من أنفسكم، فإنكم ما فعلتم شيئًا وما الفاعل إلا الله، وأنتم كما أنتم في اعتقاد الناس، واليمين على نية المستحلف، فيحلفون أنهم لم يصنعوا شيئًا.

وقد يُناجيهم في لباس الحق فيقول لأحدهم: إني أنا الله وقد أبحت لك المحرمات فاصنع ما شئت، أو فافعل كذا وكذا من المحظورات فلا إثم عليك، فيفعله وكل هذا لا يكون غلطًا إلا إذا كان إبليس هو الظاهر عليهم، وإلا فالحق سبحانه بينه وبين عباده من الخصوصيات والأسرار ما هو أعظم من ذلك، ولمواجيد الحق علامات عند أهله غير منكورة، وإنما تلتبس الأشياء على من لا معرفة له بها مع عدم العلم بالأصول، وإلا فمثل هذا لا يكاد يخفى على من له معرفة بالأصول.

ألا ترى إلى حكاية سيدي عبد القادر لما قيل له وهو في البادية: يا عبد القادر، إني أنا الله وقد أبحت لك المحرمات فاصنع ما شئت، قال: كذبت إنك شيطان.

فلما سُئل عن ذلك وقيل له: بما علمت أنه شيطان؟ فقال: بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ**﴾ [الأعراف:٢٨]، فلما أمرني هذا اللعين علمت أنه شيطان يريد أن يغويني. على أن نفس مثل هذا قد يجري لعباد الله مع الحق، كما جرى لأهل بدر وغيرهم، وهذا مقام لا أنكره، أخذ الوقت من بدايتي طرفًا منه، وكنت محقًّا فنقلني الحق منه ببركة سيدي وشيخي أستاذ الدنيا، وشرف الدين، سيد الأولياء المحققين: أبي المعروف إسماعيل ابن إبراهيم الجبرتي، فقد اعتنى بي وأنا في تلك الحالة بعنايةٍ ربَّانيةٍ مؤيدة بنفحات رحمانية، إلى أن نظر الحق بعينه عبده فجعلني ممن عنده، فنعم السيد الفاضل، ونعم الشيخ الكامل، ثم شرع في مدح أستاذه بقصيدةٍ عظيمةٍ.

وقد سألت بعض هؤلاء الزنادقة: كيف جاز علي مشهدكم الذي تنفون به وجود الأغيار، والمظاهر الثابتة صورها في أعين الأخيار، وادعاؤكم أن الظاهر الحق ولا سواه في سائر الأطوار، ونفيكم الخليقة بالكلية أن يكن به، فلم يرد جوابًا. فقلت له: هذا من عدم المعرفة بما هو الأمر عليه، وعدم السلوك على من يوصل إليه.

وانظر في قول سيدي عبد الكريم الجيلي: «وكنت محقًّا فنقلني الله ببركة سيدي وشيخي» تعلم منه أن هذا المقام ولو كان صاحبه محقًّا، بأن كانت مواجيد الحق عنده معلومة أو خصوصيات الحق له في

=

وحقيقة الفناء لا تدرك بالقياس، ولا تصل إليها الفهوم والحواس، ولا تدركها العقول، ولا يقوم عليها الدليل والمدلول، وإنما تلك أذواق ومنازلات ترد على السالكين إلى جناب الله، والمخصوصين من أحباب الله والواقفين على باب الله، بحسب طاقتهم، فمنهم من اجتباه، ومنهم من اصطفاه، ومنهم من اصطنعه لنفسه، وغيَّبه عن يومه وأمسه.

وعند ورود الوارد، وابتداء التجليات، يستولي عليهم الفناء والاصطلام، ويتحكم فيهم المحاق والانعدام، وتضمحل في حقهم الرسوم والأعلام، ولا يقظة ولا منام، ولا سكوت ولا كلام، ولا عقل ولا أوصام، ولا صلاة في حقِّهم ولا صيام، ولا دهر ولا أعوام، ولا شهور ولا أيام.

فإن بُدِّلت عليهم لوائح الشهود، وتجلت عليهم صفات المعبود، فعند ذلك يشملهم الهلاك والمحاق، واللحاق والاستحقاق، والفناء عن الفناء، فلا شعور لهم، ولا شعور بأن لا شعور، ولا خفى ولا ظهور، وفي هذا التجلِّي الكريم والشهود العظيم يتحقَّق من ردّه الله تعالى إلى البقاء من فناء فنائه، بابتداء نشأته من العدم، وكيف أوجده الله تعالى من غير شيء كما أراد في القدم، ويتحقق بقوله تعالى:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨] بقوله تعالى: **﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فإن * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾** [الرحمن:٢٦،٢٧].

فيشهد حينئذ ما يشهد بما يشهده ربه تعالى، فيبصر به ويسمع، ويذل له ويخضع، ويئوب من سفرته ويرجع، فهذا كله، والناس فيه متفاوتون بحسب ما شاء الله تعالى لهم من التخصيص، وليس مع الله تعالى مشارك فيمن يعنيه ويفنيه، فإن الفاني لا

=

التعريف والتعرف مفهومة، لم يكن هذا المقام مقام كمال يقف السيار لديه، أو يعول الطيار في سلوكه عليه، فكيف بمن لم يدرِ اليمين من الشمال، ولا الفرق بين مظهري الجلال والجمال، ووقع في هذه الورطة وسقط في تيار هذه الغلطة، وصار شيخه إبليس اللعين، وهو يظن أنه ممن يرشد السالك ويعين، وكيف يرشد الغير من ضل في السير، حتى نفى الخليقة الثابتة بالكتاب، وادَّعى معرفة وحدة الوجود وسرها المستطاب. وانظر: السيوف الحداد (ص٩٨) .

يعقل نفسه فكيف يعقل غيره؟ ومتى عقل نفسه فليس بفان، ولا تعتقدن أن الفناء القائم بك يشمل الموجودات؛ فإن الله تعالى يعدم ما يشاء ويوجد ما يشاء، ويبقي ما يشاء ويفني ما يشاء، يوجد من العدم ويعدم من الوجود، وهو الواحد الموجود الواجب الوجود، وإنما ذلك الفناء في حق نفسك، والوجود كله بالنسبة إليك فان؛ لأن حقيقة غيبته عنك حقيقة غيبتك عنه، وفناؤك عنه فناؤه عنك، والرسوم والأطلاء باقية على حالها إلا أن يشاء الله بزوالها، أو إبدالها بغيرها..

﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ**﴾ [إبراهيم:٤٨].

حساب القيامة

وليس هكذا الحساب يوم القيامة، فإن كل واحد يُحاسب يوم القيامة، ويعتقد أن الحساب ما قام بأحد غيره، وهو شامل الجميع بكلمة واحدة، يُحاسب بها الخلائق أجمعين، فقوله:«يا عبدي» يحاسب بها كل عبد لله تعالى..

﴿**مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾ [لقمان:٢٨].

﴿**وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً** ﴾ [الكهف:٤٩].

وأعرف فقيرًا وجد ذلك في مرضة مرضها، فوجد جميع أعماله في لحظة واحدة، أو زمن فرد من حين طفوليته إلى حين تلك الساعة عرضت عليه، وبقي يحول وجهه عما يكرهه من عمله، حتى ظهرت له رأس من حائط، وصاحبها يسرح لحيته بيده، ففهم الإشارة بالسراح في ذلك الوقت.

من حقيقة الفَنَـــــاء

وأما الفناء اللازم لكل واحد تخصيصًا، وبجميع الخلائق عمومًا بقوله تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾ [الرحمن:٢٦]، وما قاله المفسرون، وما هو معروف من كلام العرب، ولأهل الكشف والأذواق فيه معان بحسب ما وجدوه في ذوقهم، وكشفوه في سيرهم.

اعلم أرشدنا الله تعالى وإياك إلى الصراط المستقيم أن الفناء لكل موجود حقيقة؛ لأن أصل الموت العدم، ووجودها بغيرها، فالإنسان عدم في نفسه؛ لأن بقائه

بربِّه ﷻ لا بنفسه، فما له من حيث نفسه؛ لأنه في حال إبقائه بربِّه في محل جواز العدمية، ثم وروده إلى الموت واضمحلال رسمه، ولابُدَّ من الفناء في حالة موته، وهي حالة تشمل الخلائق، وهي حالة تغيبه عن كل شيء، وتغيبه عن غيبته تلك فيه خاص وعام.

فالخاص ما يجده أهل الطريق إلى الله تعالى في سلوكهم، فقد ذكرنا نوعًا منه، وهي حالة ترد على السالك، فتغيّبه عن كل شيء عن غيبته.

والفناء العام عند النفخة الأولى، والصعق، فهذا العام وهو شامل لكل موجود، فلم يبق إلا مالك الوجود حتى إن الإنسان لا يجد راحة إلا حالة الفناء، وهي حالة لا يعبر عنها إلا من وجدها، وأفصح العبارة عنها؛ لأنها حالة وجدانية لا تُعرف إلا بالذوق، والمنازلة بمرارة الصبر، وحلاوة العسل، وشهوة الجماع، والواجد لها متى عبر عنها بالوحدة لها فما وجدها؛ لأنه متى عقل أنه فني فما فني، والوقت والخبر، والزمان والمكان، والماهية والكيفية، مغايرة لهذه الحالة، وإنما من المخصوصين من إذا ردّه الله تعالى من الفناء إلى البقاء، فأبقاه يسمع بالله، ويبصر بالله.

فكيف له برؤيته ربه حقيقةً؟ وذهابه ورجوعه وإيابه؟ فتحقق بذات نفسه وصفاتها، وإيجاده من العدم، ونشأته في ابتداء خلقه، ونزوله في صلب أبيه، وبطن أمه، ويشهد نفسه في النطفة والتخلق.

النُّطفَـــة

وأعرف فقيرًا حصلت له حالة، ورأى نفسه نطفة، وكان هناك كناسة البيت، فكانت تلك النطفة معلقة في تلك الكناسة، وهو يشهد نفسه نطفة، ويرى أهله، ويسمع كلامهم، وكانت له زوجة وعليها لباس، وهي تخاطب أمها بخطاب وهو يسمع ما قالت، ويراها وما عليها، ثم صار مضغة، وهو على ما هو عليه من عقله وعلمه وفهمه وسمعه وبصره، وجميع أحواله، ثم صار علقة، ثم تخلق ثم نما، ولم يزل ينمو حتى عاد على صورته الأولى، ولقد بقي مدة ينظر إلى بدنه وأعضائه؛ لأنه انقسمت عنده الصورة الأولى حين كان نطفة.

اليَقيــــن

ومن وجد هذه الأحوال، وتحقَّق بها تحقق أنه عدم في أصله، موجودٌ أوجده خالقه من غير شيء ويعرف نفسه، فإذا عرف نفسه عرف ربه، فعظمت الربوبية في قلبه، وكان على بينة من ربه، فلا يقع في شباك المعتقدات الفاسدات، ولا تصيده الحبائل الشيطانيات، فمن هناك تجد كلام الأكابر من الأولياء والمحققين لا يدخله شيء من هذه العقائد الفاسدة، وتراهم إذا سمعوا كلام الله تعالى يكادون يذوبون لسماعه، وإذا سمعوا حديث رسول الله ﷺ خضعوا له، وسمعوا وأطاعوا، لا يخرجون عن الكتاب والسنة، وأما من فني بعد موته فلذلك محل آخر، وله أذواق ولا يُعبر عنها إلا صاحبها.

ولقد سألت أخًا لي بعد وفاته في المنام، فقلت له: أخبرني كيف أنت بين الأموات؟ فأخذ يريني بيده ويقول لي: أنا مثل شيء وما عليه كنت، يُشير إلى كشف الغطاء، فقلت له: فكيف أحوال هؤلاء الأموات؟ فجعل يلتفت يمينًا وشمالاً ليضرب لي مثالاً، ثم قال: الساعة تدخل وتبصرهم، فعلمت أنها أحوالاً ذوقية، لا يقدر على أن يعبر عنها بأكثر من ذلك.

وسألته مرة أخرى هل هو حيٌّ يُرزق؟ فإن الله تعالى قال عن الذين قُتلوا في سبيل الله أنهم أحياءً يُرزقون -وكان قد قتله الكُفَّار- فقال لي: إيش عندك آكل؟ فقمت على أنني آتي له بشيء، فقال: إذا خرجت الملوخية في ابتداء خروجها اطبخها بالقراح وصدّقها؛ فإن الصدقة تصل إلينا.

فتحققت أنه حيٌّ يُرزق، ولكن رزقه بما يناسب الدار التي هو فيها؛ إذ الأرزاق مختلفة الأغذية، حتى إن الملائكة يعيشون بالتسبيح والأذكار، فهذا غذاؤهم، وكذلك جماعة من المتوجهين إذا غلب عليهم الوارد يقيمون الأشهر بلا طعام ولا شراب.

وقد ذكرنا أن الشيخ أبا العباس أقام سبعين يومًا لا يأكل ولا يشرب، فالرزق في البرزخ مما يناسبه في تلك الحال إلى أن يصيروا إلى الجنة، فيأكلون ويشربون بجملة الأجساد والأرواح.

وقد ذكر أبو طالب في قوته عن الشيخ أبي محمد سهل بن عبد الله التستري أنه قال: أعرف بالبصرة مقبرة تروح وتغدو عليهم أرزاقهم من الجنة بكرةً وعشيّة، وهم مع ذلك في هموم لو وُضعت على أهل الأرض ما وسعوها، فقيل له: ولم ذلك؟ قال: لأنهم

لم يكن لهم من هذا التوكُّل نصيب.

تفاوت الأرزَاق

والأرزاق متفاوتة في الطيبة في الطعام واللطافة والكثافة، وما يكون به قليل الفعل كالموز والبطيخ وغيره، وما شاكله.

وما يكون منه كثير الفعل كالخبز والأرز والفول والحمص وما شاكله.

وما يكون طيب الطعم والريح.

فكذلك تتفاوت الأرزاق بحسب طيبة المحل، وطيبة الأغذية ولطافتها، كما أن طيب الأرض تكون الثمرة بحسبها.

وقد أنزل الله تعالى المائدة على عيسى عليه السلام، وكانوا يأكلون ويعود ما يأكلونه، ولا يتبقى شيء.

من أحوال الصالحين

وقد ذكر رسول الله ﷺ حديث العنقود من الجنة[1]، ورأيت فقيرًا بعد موته وسألته عن حاله، فأخرج لي عنقودا وقال لي: هذا من الجنة.

فالفناء شامل وكذلك الهلاك؛ لاستمرار بقاء الله تعالى ودوامه وسرمديته، وليس معه غيره ولا كان معه سواه، ولا يصح وجود غيره معه تبارك وتعالى، وكل شيء موجود، فوجوده بالله تعالى لا بنفسه، فليس له مع الله تعالى بقاء، ولا وجود حقيقة، فالبقاء لله تعالى صحيح على الدوام والاستمرار، والفناء لما سواه صحيح على الدوام والاستمرار.

فإذا نُفخ في الصور النفخة الأولى، وصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فيتحقق لك هلاك كل شيء إلا وجهه، وفناء كل شيء إلا ذاته، ولم يزل كذلك قبل ذلك حقيقة، وإنما ما ظهر لك حسًّا وقوله: ﴿**إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ**﴾ لما لله تعالى فعله، وإن لم يفعله؛ لأن لله تعالى أن يهلك الجميع، وله أن يهلك بعضًا ويبقي بعضًا، وله كل ذلك على الاستواء في جميع الأحوال، ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾

---

(١) يشير إلى الحديث الذي رواه البخاري (٣٥٧/١)، ومسلم (٦٢٦/٢).

[القصص:٨٨].

وإنما ظهر لك هلاكهم من حيثك، ونظرك من حدّك، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ثم نفخ فيه نفخة أخرى، فإذا هم قيام ينظرون، أعادهم إلى الاتحاد بعد الإعدام، وإلى الحياة بعد الهلاك، وإلى البقاء بعد الفناء، وإلى الدوام السّرمدي والحياة الأبدية.

فكل من يقوم به في هذه الدار تخصيص بالفناء والهلاك، ورجع البقاء بالله، فهو مخصوص في الدار الآخرة، وإن بقي في فنائه في هذه الدار فهو مخصوص في تلك الدار بحسب رتبته، ومن لم يجد ذلك إلا في العموم فهو بحسب معرفتهم وإيمانهم، فإن مقاماتهم في تلك الدار والتخصيص من الله تعالى بحسب معارفهم بالله تعالى في هذه الدار، والجزاء بحسب الأعمال، ولا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم، وما عدا ذلك فليس بشيء، ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُوراً**﴾ [الفرقان:٢٣] .

من فضل الزُّهْـــــد

و أعرف شخصًا كان على هيئة الصلاح، والأعمال بحسن الهيئة في العمل، والبكاء فيما يُوجب البكاء، والسرور فيما يُوجب السرور، ورأيته بعد موته في المنام وسألته عن حاله، فأخبرني أنه لم يجد من تلك الأعمال شيئًا، وبحثت عن أعماله بعد موته لما رأيت هذه الرؤيا، فلم أسمع إلا أنه كان يأتيه الشيء فيدخره، ويدخر الطعام حتى يتغير، ولا أعلم هل هذه علة فساد عمله أم لا؟ لأنه ورد: «**لو صمتم حتى بقيتم كالأوتار، وصليتم حتى بقيتم كالحنايا، لم ينفعكم إلا الزهد في الدنيا**[1]».

فضل رُكيعـــات

ولما كانت أعمال الجنيد صحيحة رئي بعد موته فقيل له ما فعل الله تعالى بك؟ فقال: ذهبت تلك الإشارات، وانقضت تلك العبارات، ولم يبق لها إلا ركيعات كنا نركعها في جوف الليل.

فذكر فناء الأعمال، وذلك صحيح لقوله تعالى: ﴿**إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ**

(١) رواه ابن مندة في مسند إبراهيم بن أدهم (٢٣).

عَمَلاً﴾ [الكهف: ٣٠].

فيفهم الخطاب أن من أساء العمل فقد أضاعه؛ لأنه لا يُقبل منه، فمخالطة الرياء في الأعمال مفسدة لأصل الأعمال، وهي درجات، وأقبحها أن يعمل عملاً يُرائي به الناس، فيُقال لهم في القيامة: «**ارجعوا لمن عملتم لهم، لا أجر لكم عندي**[1]».

فسَــاد المعتقدَات

وأما فساد المعتقدات فهي إخلال باطن الدين، فإذا فسد المعتقد فسد ما دونه، فيعمل في غير معمل، قال الله تعالى: **﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً﴾** [الغاشية: ٢، ٣، ٤]، فهي تعميم في فساد المعتقدات، وإن اختصت في سبب النزول بقوم مخصوصين، وأما ما يدخل من الرياء في الأعمال مع صحة المعتقدات والمقاصد والنيات المقصود فيها غير ذات الله تعالى ووجهه الكريم، فقد قال الله تعالى في ابني آدم عليه السلام: **﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ﴾** [المائدة: ٢٧]، وقال: **﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾** [المائدة: ٢٧]، فهي وإن كانت خاصة في ولد آدم فهي عامة بالمعنى فيمن لا يتقي الله ولا يخشاه، كونه يعمل العمل ويريد به غيره أو يريد رتبته.

تفاضل درجات السالكين في العبودية

وعلى هذا المعنى تتفاضل درجات السالكين إلى الله تعالى في الأعمال، فليس من يقصد بعمله ما يناله من الله تعالى في دنياه من الخيرات، وعلو المكانة في قلوب الناس، ودوام الصيت وانتشار الجاه.

وليس من يقصد بعمله هذا الثواب كمن يقصد بعمله أعلى الدرجات، وظهور الكرامات، والتصريف في الكون، والمشي على الماء، والطيران في الهواء، وكشف

---

(١) كنز العمال (٨٧١/٣) بنحوه.

الغيوب.

وليس من يقصد بعمله هذا القصد الذي هو في هذه الدار كمن يقصد بعمله الحور والجنان والغرف والأمان وثواب الآخرة، وما فيها وما أعد الله تعالى لأهلها.

وليس من يقصد بعمله هذا المقصد كمن يقصد السلامة من النار، والخوف من الحساب والعقاب، وما أعدَّ الله تعالى لأهل تلك الدار من الوبال والنكال.

وليس من يقصد هذا القصد كمن يقصد بعمله القرب من الله تعالى، والرِّضا عنه، والمحبَّة له، وليس من يقصد بعمله هذا القصد كمن لا قصد له في عمله إلا استحقاق العبادة عليه لربِّه تعالى، والوقوف عند أمره ونهيه وحد عبوديته، ولا يعترض عليه في إرادته، ولا يختار ما لا يختاره له، ولا يريد إلا ما يريده، وقد يبرأ من حوله وقوته، وعلمه وعمله، وقصده وإرادته، وجنته وناره.

فلا يريد إلا ما يريد، ولا يختار إلا ما يختار، قد سُلب الاختيار مع ربِّه وبقي محجوبًا عن نفسه، فقد استوى عنده النعيم والجحيم، والموت والحياة، والدنيا والآخرة، والعلو إلى أعلى عليين، والهبوط إلى أسفل سافلين، لا يرى نفسه محلا للعطاء، ولا أن له عملاً يستحق به الجزاء، فهو يأتي بما يأتي إلى الأعمال الصالحات، المخلصة في الإخلاص عن رؤية الإخلاص، وهو في وجل وخوف وحذرٍ وتقوى وخشيةٍ، قال الله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾** [المؤمنون: ٦٠].

وهو يشهد جريان الأقدار، وسريان الإرادة في أعماله فيما يأمره به ربه تعالى، فلو سجد مدة عمره على النار شكرًا لربِّه تعالى على ذلك لما أدَّى شكر تلك النعمة؛ لأن الشكر على النعمة يستحق شكرًا عليها بمقتضى الأول، والباقي من النعم التي لا يعبر عنها اللسان، ولا تدخل تحت الحصر بالإحصاء والبيان، ولا يستوعب شهودها العيان، ولا يسع ذلك الزمان والمكان، فقال الله الملك المنَّان الرحيم الرحمن.

فهذا عبد الله حقيقةً لذاته، وهذه عبادة القلوب التي وزن الذرة منها تعدل عبادة ألف سنة، وإلى ما لا يتناهى من السنين، وهي كالكبريت الأحمر الذي يسمع به ولا يُرى، وإذا ألقي منه الذرة على ألف قنطار صار ذهبا، وهذا مثال مضروب ومثال

منصوب، وما عدا ذلك ممن عبد الله لطلب الجزاء فهي حجب بعضها دون بعض، تحجب صاحبها عن الله تعالى بحسب قصده في عبادته، هذا مع صحة المعتقدات، وهي كالأصنام المعبودة من دون الله تعالى، فإن عُبَّاد الأصنام قالوا إن عبادتهم لها تقربهم إلى الله تعالى زلفى، وهذه أصنام معنوية، وتلك أصنام حسّية.

فلينظر العامل لمن يعمل، وليخلص لله تعالى في عمله من كل شيء سواه، فللَّه أن يعذبه وينعمه، وليس على الله أن يثيبه على عمله، فللَّه الحجة البالغة، فلا يستحق أحد من الخلق على الله تعالى شيئًا من إطعام ولا رزق ولا حر ولا حياة، ولا لأحد على الله تعالى حقّ بوجه من الوجوه.

ولو أن العبد يعمل طول مدة الدنيا وهو ساجد أو راكع أو داعٍ أو مبتهل أو صائم أو قائم أو جامع لجميع هذه الأوصاف يطلب عليها الجزاء لما قابلت نعمة واحدة من نعم الله تعالى عليه، ولا بعض بعض بعض نعمة من النعم، وهو إيجاده من العدم، فما ظنك بما وراء ذلك من إيجاده في أحسن صورة وأحسن تقويم؟ وميزه دون سائر الحيوان في الصورة والحواس، والفعل الذي هو أشرف الموجودات؟ثم بالإسلام؟ ثم بامتثاله الأمر واجتنابه النهي؟ فكيف بالجزاء لبعض بعض نعمة من هذه النعم؟ فلو ضرب عليه عرق في جسده، ومنعه القرار والمنام، وقيل له لا تسكن إلا بأن تكون عبادتك له، لما سوى تسكين العرق، كما حكي عن أحد العبَّاد أنه عبد الله تعالى كذا وكذا سنة، وأنه قيل له: تدخل الجنة برحمة الله تعالى، فقال: بل بعملي، فحصل له العطش، فسأل الشرب فقيل له: بنصف عملك فقال: بنصف عملي، فسُقي، فلحقه الاحتياج إلى الشُّرب ثانيًا، فقيل له: بنصف عملك الثاني فقال نعم، فقال: أدخل الجنة برحمة الله تعالى، وهذا ضرب مثال، ﴿**وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [النور:٣٥]، وقد قلت:

يـا مُنتهـى أملـي في الكـونِ مـن أمَلـي ... يا غايةَ القصْد من علْمي ومن عَمَلي

مَــا لي جــزاءٌ ولا علــمٌ ولا عمــلٌ ... بـل كـلُّ ذلـك فضـلٌ من عطائـك لي

والشـكرُ منـك علـى نُعمـاك متصـلٌ ... ولـيس ذلـك مـن حـولي ولا حيَلـي

مـن أيـن لي إنـني أثـني عليـك بمـا | أبديتَ فضلاً وما أهديتَ من سبلي
مـا كنـتُ شيئًا فمـذ كـونتَني وغَـدتْ | نعمـاك شـاملةً في الـوعرِ والسَّـهلِ
أصبحت ثـان بعجـزي عـن فضـائلِها | والكلُّ منك وليس البعضُ من قبلي
أغـرقتني في بحـار الجـودِ مـن كـرمٍ | وجـود وجـودِك يغنيـني عـن الحيّـلِ
أشـهدتَني الحقَّ في سري فلستُ أرى | عيـني واسمـي ولا رسمـي ولا طللـي
وهمـت في كـل معنـى مـن جمالِـك في | فبـاقي الحسـن في نـوعٍ مـن الخبـلِ
حـتى لـو ظـن بي كـلَّ الظنـون بـه | وصـرتُ بـين الـورى ضـربًا مـن المثلِ
بصـرت فـيهم محـلاً للخـلاف فهـم | كـلٌّ تعيس على ضَرب مـن الـدخلِ
مـتى بقيـتُ بوصـفي كنـتُ مضـطربًا | أُمسي وأُصبحُ من خوفي على وجلي
إن لم يكـن بـك يبقـى العمـر ماضـية | يـا ضيعةَ العمـر فيمـا فـاتَ مـن أجلـي
فمـا أفـادَ تقضـي العمـرَ في لَعِـب | ولا أفـادَ البكـا بـالنوح والثُّكـلِ
لكـن إليـك التجـائي في البقيـةِ لي | وفيـك منـك عَليـك الله متكلـي

دُعَـــــاء

اللهم اجعلني متوكلاً بك عليك فيك، وفي إيمانك وتعرّفك لي، ومحبتي إياك بمحبتك لي، يا نعم الوكيل يا نعم النصير، لست أهلاً لما أسألك، لكن أنت أهل لما تعطيني، والذُّل وصفي وصفتي، والعجز عن عجز العجز معرفتي، وليس لي غيرك فأرجوه، ولا سواك فأسأله، ولا ملاذًا فألوذ به، ولا ملجأ فألجأ إليه إليك.

بك التجأت بجملتي، ورميت مهجتي، وتوكلت بك فيك عليك، أنت غايتي ومنيتي.

يا **الله**، يا الله، يا الله، يا ربي ورب كل شيء، أنت أقرب لي مني، وأذب لي عني، وأرحم بنفسي من نفسي، وآنس من آنس يؤنسني، فها جملتي ومهجتي، وحريتي وكليتي، في قبضتك وإحاطتك، في دنياي وآخرتي، وديني وعلمي وعملي من منَّتك، ولا

وصف من جهتي إلا ما وصفتني به بالجهل والعجز والذُّل والذنب، وما ناسب ذلك وصفي، ولا عذر لي، ولا قوة إلا بك على سلب ذلك عني، فعليك بك توكُّلي، وإليك بك ومنك نجاتي ومؤملي، حسبي بك دنيا وأخرى، ودينًا وحرزًا من كل مخوف، وأمانًا لكل ملهوف، وبلوغًا لكل أمل وسرور، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

اللهم إني أسألك بكل ما سألك عبدك ونبيك محمد ﷺ، وبكل ما توسَّل به إليك عبدك ونبيك، محمد ﷺ بأسمائك وصفات ذاتك، وأستعيذ بك استعاذة نبيك وبما استعاذك به عبدك ونبيك محمد ﷺ، وأعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

إلهي بك أعوذ، وبك ألوذ، وبك وعليك أتوكل، وإيَّاك أسأل، وإليك مصيري، ومصير كل شيء، يا من بيده ملكوت كل شيء لا تضرك معصيتي كما لا تضرك مغفرتي، فاغفر لي ما لا يضرّك كله، ولا تنفعك طاعتي كما لا ينقصك إعطائي فأعطني، وهب لي ما لا ينفعك ولا ينقصك، أنت أهل الجود وأهل العطاء والنعم، وأهل التقوى والمغفرة.

يا الله، يا الله، يا الله، مستمدة الدوام بلا انقضاء، ولا انقطاع، ولا انصرام، حسبي حسبي، أنت ربي لا إله لي غيرك، ولا رب لي سواك، يا مفرج الكروب، يا ستار العيوب، يا علام الغيوب، يا كاشف ضر أيوب، وحزن يعقوب، اكشف ما بي من ضر الدنيا والآخرة مما علمت وما لا علمت، وما أنت أعلم به مني، وارفع عني حزن الدنيا والآخرة مما علمت وما لا علمت وما أنت أعلم به مني، وبدلني عنهما بك عن ذلك كله فرحًا وسرورًا ونعيمًا وحبورًا وشهودًا لوجهك الكريم وسروحًا في ميادين معرفتك، وفي عوالمك الباقية لك بك مما علمت وما لا علمت وما أنت أعلم به مني.

اللهم إن أملي وآمالي، وطلبي ومطلبي، وقصدي ومقصدي، ونيَّتي وأُمنيتي، وما أعطيتني من ذلك، ووصلتني إليه من الأماني والآمال والمقاصد والمطالب والأمنيات، بل تمني كل الخلائق لا يصل إلى بعض بعض ما عندك، ولا إلى ما هو معلوم لك في علمك، فأعطني بعلمك ومن علمك، وبفضلك من فضلك، وبكرمك من كرمك، وبجودك من جودك، وبمعروفك من معروفك، وبشهودك من شهودك، فلا حول لي ولا

قوة إلا بك، عطاؤك أفضل من سؤالي، وجودك أوسع من آمالي، فاختر لي وكن الخيرة من كل خيرة لي، فلا خيرة لي في شيء غيرك، ولا راحة لي في شيء سواك، ولا مبلغ لعلمي بما عندك، ولا خيرة لي في غيرك، فاختر لي واخترني للخيرة، واختر خيرتي، وكن أنت موضع الاختيار لي من خيرتي مع لطفك لي، ومحبتك وعطفك ومنّك.

يا الله، يا الله، يا الله، انقطعت الآمال إلا منك، وخاب الرجاء إلا فيك، وبيدك غياثي فأغثني يا غياث الملهوفين، يا غوث الغوث وغياث الغياث، إليك التجأ كل موجود بالافتقار، وحقيقة للاضطرار، وأنت الغني على الإطلاق عن الافتقار إليك، والعبادة لك، وأنت المنزُّه عن البرية، فكيف يلحقك التشبيه، إلهي كن لي عوضا عن كل شيء، فلا حاجة لي في شيء سواك، بل كان بك وجود الأشياء ولا كان وجودك بشيء، يا منتهى الآمال، وغاية السؤال، وحقيقة المقاصد، ورجاء كل قاصد، وقفت العقول عن مثالك، وذهلت فيما دون ذلك.

أنت العلي الأعلى، المتعالي عن العقول والأفهام، وما وصلت إليه الأفكار لا يُعرف بالقياس، ولا يضرب لك المثال ولا للعقول والبصائر من معرفتك ذاتك مجال حيث انتهت، فذاك حدها، ومتى تيقنت القرب منك فذاك بعدها لا يعرفك سواك ولا يحققك غيرك، ولا يدركك إلا أنت، أنت المحيط بكل شيء، ولا يحيط بك شيء، والعالم بكل شيء ولا يعلمك شيء والقادر على كل شيء ولا يقدر عليك شيء، والموجد لكل شيء ولا يُقال أوجدك شيء.

واحد بذاتك قبل وجود الشيء وبعد الشيء ولا كان الشيء والقبل والبعد والقرب والبعد محال عليك، وهو صفة لأنفسنا المعقولة بالحدود والجهات، ولا جهة لذاتك يا موجه الجهات، ومحيط بالكليات والجزئيات، وحافظ الأرض والسماوات، ليس فيك غيرك، ولا غيرك فيك، استيلاؤك عن كل شيء استيلاءً كليًا وقبل وجود أعيانها حين أردت وجودها، وسبق علمك إيجاد كل شيء، ضلَّ من قال: هل أنت داخل في الوجود، أو خارجٌ عن الوجود، فأين كان الوجود قبل إيجادك له؟ حتى يقول القائل بذلك حارت أفهامهم فخبطوا في أوهامهم، زعموا أنك مستقرٌّ على عرشك فأين كان العرش قبل أن توجده؟ أو على أي شيء كنت قبل أن لم يكن؟ لما جهلوا

حقيقة صفاتك العزية عن صفات الموجودات، والمنزَّه في ذاتها عن الإحاطة بالعلوم والجهات، رجعوا إلى نفوسهم فشهودك بما علموا من أنفسهم.

تعاليت عن ذلك علوًّا كبيرًا سبحانك لا إله إلا أنت ما علمك غيرك ولا وجدك سواك، وأنت المنزَّه عن تنزيهنا نا فكيف بتشبيهنا، يا عليّ يا عظيم.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

وقد قلت:

في وَصف ذاتِك سَارَ العَقل في التّيه ... محيّـرًا لـيس يـدري كيـف يُبديـه

إن سَـارَ خَلْفًـا فـلاَ خلـفَ يوصِـلُه ... وإن تقـدَّم فـالأنوارُ تُعْميـه

وإن غـدَا صـاعدًا رُدتْ بَصـيرتُه ... خسـيئةً وهـي حسـرًا في ترامِيـه

وإن يُـرى هابطًـا فالتحـتُ يحجبُـه ... أو يمنـة ويسـارًا فهـو يحوِيـه

يقـولُ عقلـي لعقلـي كيـفَ تعرفُـه ... يقـولُ والله حـارت فكـرتي فِيـه

ولـيس يدركُـه عقـلٌ ولا بَصـرٌ ... ولا سمـاعٌ ولا أفكـارٌ تُدريـه

يُخفـى ويُظهـر فيمـا لا خَفـاءَ بـهِ ... وفي الظُّهـورِ معـانٍ فيـه تُخفيـه

وكيـف يُـدركُ خلـقٌ وصـفَ خالقِـه ... أم كيـفَ يفهـمُ معـنى مـن معانيِـه

ضـلَّ المشـبهُ فيمـا في عقيدتِـه ... جـلَّ التعـالي عـن حـدٍّ وتشـبيه

مـا كـان شـيء سـوى ربي فيشـبهُهُ ... أم كيـفَ يشـبهه خلـق يسـوِّيه

بمـن أشـبهه عمَّـن أنـزههُ ... ولم يكـنْ غـيرُه حـتى أسمِّيـه

مـا نـزَّه العبـدَ إلا وصـفُ نسـبتِه ... وهـو المنـزَّه عـن تنـزيهِ تنـزِيه

معنى ذلك أن العبد إنما سلب عن الحق أوصاف النقص، وهي صفات العبد من الضد والند و الشبيه، والحق تعالى لم يكن متصفًا بشيء من ذلك حتى يسلبه عنه، فهو بغير تشبيه، كمن قال لملك من الملوك: أيها الملك، لستَ بحائك ولا سماك ولا

مشاعلي، فقد نسب الملك إلى أوصاف نقص لم يتصف بها مثله.

وصـفُ التَّعـالي فيمـا أنـت تدركُـه | وَصـفٌ تجـلَّ تعـالى الله باريـه
حيـث انتهـى بـك سيرٌ للعقـول بـه | حـدٌّ فـذلك وصـفٌ العبـدُ يبديـه
ولـن يـراه بعـينِ الحـسِّ غـير فـتى | أماتَـه الله ثم الله يُحييـه
إمّـا بمـوت المعـاني فهـو يَشـهَدُه | أو مَوت حسٍّ ففي الأخرى تُرائيه
مـن قـال في العرشِ إنَّ العرشَ يحملُـه | أو استقرَّ عليـه في تعالِيـه
فـذاك قـولٌ سـخيفٌ في تحمُّسـهِ | وقَولُـه راجـعٌ مـردودٌ في فيـه
مـا كـان مفتقـرًا للعَـرش يوجِـدُه | ونفـسُ إيجـاده للعـرش كافيـه
والعـرشُ مفتقـرٌ لله معـترفٌ | والله يحملُـه حقًّـا فيـه
لـه الغـنى الـذي بالـذاتِ متصـفٌ | والخلـقُ مفتقـرٌ لله يُغنِيـه
والحرفُ والصوتُ قولُ العبـدِ يقرؤُه | وقـولُ ربي قـديمٌ في تعالِيـه
مـا كـان لله وصـفٌ في خليقتـهِ | ولـيس في الخلقِ وصفٌ منه يَحويه
فـالخلقُ مـن عـدمٍ والله أوجـدَهم | وهـو القـديمُ بوصـف الجـود يُبديـه
ومـن يُخصصـه فيمـا يريـدُ بـه | كالمصطفى فهـو شيءٌ ليس يُبديه
صـلى الإلـه عليـه كلمـا طلِعـتْ | شمـسُ النهـار لمـن يُهـدى فيَهدِيـه

تنـزيه اللّه حتى عن التّنـزيه

وتنزيه العبد ربه ﷻ إنما هو سلب أوصاف النقص عنه، وأوصاف النقص مستحيلة على الله تعالى، وسلب المستحيل مستحيل، كما سلب العبد عن ربّه تعالى إلا صفات نقصه، أعني نقص العبد، وصفات النقص صفات العبد لا صفات الرب ﷻ.

والله تعالى متنزَّه عن التنزيه، فكيف بالتشبيه[١]؟ ومثال العبد في هذا التنزيه كمثل عبد من عبيد ملك أراد أن يمدحه ويثني عليه، فرفع صوته وقال: أيها الملك ما أنت بحائك، ولا سمّاك ولا مشاعلي، ولا فحّام، ولا قرموصي، ولا زبّال، ولا غسّال..

وذكر أوصاف النقائص وهيِّن الأعمال لذلك الملك، وهو ملك عظيم الملك، كبير الجلالة، شديد الهيبة، مطاع الكلمة، فقد نزَّه الملك عن صفات نقص لم يكن الملك متصفًا بها، فهو معرض نفسه إلى القتل بهذا المدح الذي لا يناسب المملكة.

فانظر أيها المنزِّه كيف تنزه ربك سبحانه وتعالى بما يليق بتعاليه وعلو شأنه، وعدم اتصافه بصفات غيره، وتنزيهه عن تنزيهك، فإنك إنما سلبت عنه صفات نفسك من الضدِّ والندِّ والشبيه، والمثل في الأقوال والأفعال.

ومتى كان الحق متصفًا بشيء من ذلك حتى تسلبه عنه؟ وإنك لو قلت لرجل جليل القدر، أو ملك من ملوك الدنيا: فلان ليس مثلك، أو ليس هو عديلك، أو ليس هو نظيرك، لما هان ذلك عنه، ولكان سببًا لإهانتك عنه، وطردك عن بابه، فأنصف من نفسك، ولا تجعل الحق تعالى دون رتبة ملك من ملوك الدنيا في قلبك، ونزهه عن تنزيهك، واستعذ به من تشبيهك.

فما كان مع الله غيره حتى تماثله، ولو كان لما كان، وتستحيل المثلية والضدية لما قدمناه؛ لأن حقيقة الوحدة للتنويه، فكل موجود الله أوجده، وفي وجدانه إيَّاه نفي للمثلية من جميع الوجوه، كقول المجادل لنفسه أو القائل هل تقدر تخلق مثله؟ فكونه يخلقه نافيًا للمثلية له، فإن تعليق وقوع المستحيل على مستحيلٍ مستحيلٌ، فجميع توحيدك وتنزيهك وتقديسك وتحميدك هو حد علمك، ووصول فهمك، والله تعالى من وراء ذلك بما لا يعلمه إلا هو، ولا يدركه غيره، فافهم ذلك وقف عند حدك، وطرز عبوديتك، ولا تتعدى أمر ربك عز وجل على لسان نبيك ﷺ، ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [الصافات:٩٦] ﴿**وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ**﴾ [البروج:٢٠].

اللهم إنا نعجز عن معرفتك بأنفسنا فتعرَّف إلينا منك بما يعرفك به بما تحبه منا،

---

(١) انظر: كتاب الميزان الذرية في بيان عقائد الفرقة العلية للقطب الشعراني (طبع دارة الكرز).

وتختاره لنا، وامحُ بجميل صفاتك قبيح صفاتنا عنا، إنك أكرم الأكرمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وآله وسلم.

حديث المتطــــوِّع

وقد ذكرنا حديث المتطوع الذي وجده الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى-في مسجد، وربما قال على درج المنبر، وهو يذكر الله تعالى، فدخل أقوامٌ من العرب ومعهم غداء، فسألوه الأكل معهم فامتنع، فلما خرجوا قلت له: أنت صائم؟ قال: لا فقلت: فلم لا أكلت مع هؤلاء؟ فقال هؤلاء من العرب، ما يتوقُّوا أكل الحرام.

فأعجبني منه ذلك، فأخرجت كسيرات فعزمت عليه فأكل معي، ثم قال لي: يا حاج. قلت: نعم، قال: أنا ذات يوم -أو قال ذات ليلة- كنت أذكر الله تعالى في هذا المسجد، وإذا شخص وهو نور دخل عليَّ وقال لي اسجد، لي أنا ربك، فقلت له: اخسأ يا شيطان، فقلت له: وكيف قلت له هكذا- ألا ترى ما عنده؟ فقال لي: بالله ارفق عليَّ، فإنه لما قال ذلك قام عندي أن ربي ما هو صورة، وملك فما يكذب، فما ثم بقي إلا الشيطان.

فانظر رحمك الله تعالى إلى هذه المعرفة الوحدانية بالقلب من تعرف الله تعالى إلى هذا المتطوع الذي لا يدري العلوم، وكيف جمع في هذه الكلمة الواحدة بين إثبات وجود الرب ونفي المثلية والكيفية، والتنزيه له، وتصديق الملائكة، وتكذيب الشياطين، وأنهم يبصرون، ويكذبون على الله تعالى ليفتنوا السالكين بالصور والنورانية، وما ذاك إلا نور يقذفه الله تعالى في القلوب، ﴿**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾ [النور: ٤٠].

وما ذاك بأعجب من الحجارة والجمادات والأشجار في تسبيحها وانجذابها ومعرفتها بربها تعالى، فقد قال الله تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ٧٤].

وذلك في مقابلة قلوب المحجوبين من الكفار، فإنها أشد قسوة من الحجارة، وقد سبَّح الحصى في كف رسول الله ﷺ، وكلَّمه الحجر، وجاءت إليه الشجرة تجر عروقها،

كل ذلك شوقًا إلى الله تعالى، وطاعةً لأمره في نبيه ﷺ، وانجذابًا إليه بالسرِّ الإلهي، وقد قلت:

تَشتاقُ حبَّك جملةُ الأشواقِ ... وبكتْ عَليك بدَمعِها المِهراقِ
والعشْق أصبحَ في هوَاك متيمًا ... وصبت إليك صبابةَ العشّاقِ
لو كان يَقطعُ في هواكِ مسافةً ... لقطعتُها سَعيًا على الأحدَاقِ
أو كانَ للشوقِ المبرِّح مهجةٌ ... لأذبتُها يوم النوى لفراقي
أو كان يملك واهبٌ رُوحًا له ... لوهبتُ رُوحي فرحةً بتلاقِ
يا جاعلاً قلبَ المتيم ربعةً ... ما بالُ ربعِك موطنُ الإحراقِ
جُذِبتْ إليك قلوبنا بأعنَّةٍ ... فغَدوت عندك لا أريدُ عتاقي
علي إليك وسيلة أرجو بها ... من قيدِ هجرِك والجفى إطلاقي
بي علّةٌ لمنالِ وصلِك في الهوى ... لا تنطفي أو ترتوي أشواقي
لدغت بأسود هجرِكم قلبي فما ... من سمة ينجو الفؤادُ يراقي
وأنا اللديغ وعندكم ترياقُه ... عجّل عليَّ بما فيه ترياقي
فوحقِّكم ما لي شفيعٌ غيرُكم ... من ذا يعبر غيرُكم أخلاقي
من ذا برزق الذرِّ بل كلِّ الورى ... والكَونِ أجمع كافلُ الأرزاق
من ذا يُميتُ الحيَّ يحيي ميتًا ... ويعودُ حيًّا باقيًا بالباقي
من ذا يمِدُّ النورُ في شمسِ الضحى ... في الكائنات إلى مدَى الإشراقِ
من ذا الذي يُعطي لكلِّ مؤمل ... كلَّ المراد بغير ما إشفاق
ويعيد ما أبدى عطاءً دائمًا ... من غَير ما ملكٍ ولا إملاقِ

فـالكونُ أجمعُ والوجـودُ بأسـرِه بـل ... فـــوقَ فـــوق الفـــوق والأعمـــاقِ

في جـــــودِه وعطائـــــه أمثالِـــــه ... للأقـــل مـــن جـــودِك في الإمحـــاقِ

يـا خـالقَ الخلـقِ الجميـل وضـدِّه ... يـــا مالكًـــا قَلـــبي ويـــا خلاقـــي

يـا مـن بقلـب كـلِّ قلـبٍ كـائنٍ ... فيمـــا يشـــاءُ مـــن خـــيرِه ووفـــاقِ

قلّـــب فـــؤادي في رضـــاك محبـــةً ... واتبعْـــه بالإحســـان والإرفـــاقِ

مـــن أيـــن لي شـــكرًا لمـــا أوليتـــني ... أُدعـــى بعبـــد الغـــافر الخـــلاقِ

ويطـوف اسمـي بـالوجود بعَبـدِكم ... في ســـائرِ الأقطـــارِ والآفـــاقِ

مـن أيـن لي هـذا الفِخـارُ ومـن أنـا ... أدعـــى بعبـــدِكم علـــى الإطـــلاقِ

دُعَـــــاء

اللهم إن قلوبنا بيدك تقلبها كيف تشاء، فقلِّب قلوبنا في محبتَّك ورضاك، وحبِّبنا لما تحب منا حتى لا نحب إلا ما تحب، ولا نرضى إلا ما ترضى، ولا نختار إلا ما تختار، وهيئنا لذلك واقدره علينا، وخصصنا به عندك دون غيرنا ممن حجبته عنك، وأبعدته عن بابك، وخصصته ببعدك وحجابك حتى نعاديه فيك، ونحب من تحبه لك، يا الله، يا الله، يا الله، وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

شهود المراقبة

ورد في الحديث: «**إن القلب بين إصبعين من أصابع الرحمن، يصرفه كيف يشاء**[1]»، فما أعظم هذه الحالة لمن شهدها، وما أغفل عنها من انتهى إلى غيرها فلم يجدها، وفيها السعادة والشقاوة، والفقر والغنى، والآخرة والأولى، وتغيير الأعيان وتكوين الأكوان، وصبغة الألوان، والموت والحياة، والمحو والإثبات، والقوة والتعجيز، وتبيين الطيب من الخبيث في التمييز، ومحك الميلق لظهور الذهب الإبريز، تتحول فيه الزيادة إلى النقصان، والطاعة إلى العصيان، والكفر إلى الإيمان، ودخول من ظهر بعمل أهل

(١) رواه مسلم (٤/٢٠٤٥)، وابن حبان (٣/١٨٤).

النار إلى الجنان، ودخول من عمل بعمل أهل الجنة إلى النيران، وذلك سرٌّ من أسرار الربوبية، وصفةٌ من صفات الألوهية، تظهر لها شواهد في هذه الدار، لتخصيص الانتفاع، ورؤية الأغيار، ودلائل قائمة بالحجة على الكفَّار.

فإذا انكشف الغطاء، وانقضت مدة هذه الدنيا، وظهر ما بطن من الدار الآخرة، ورجع على أهل الجحود الكرّة الخاسرة، ظهرت حقائق ذلك للخاص والعام، وبدا النور، وانقشع الظلام، فلا ينفع حين ذلك الندم حين يزل القدم، ويسأل الكافر إلى العدم.

وفيما يراه من عجائب التغيير في هذه الدار كفاية في كل ساعة ولحظة وزمان في سائر الناس وسائر الحيوان، وفي المعادن وغيرها من المانع والجامد، والعابد والجاحد، والناقص والزائد، وكيف يعالج بالأدوية الأمراض، ويعالج ببعض العقاقير في أمراض الأجساد، حتى يخرج كل شيء عن ماهيته، ويخرج عن كيفيته بمعالجات وغيرها من غير معالجات، كالبركة الماء التي يوجد بها النطرون، وأي شيء وقع فيها صار نطرونا، وكذلك الملح كيف يتكون ويصير ملحًا والله تعالى يخلق ما يشاء، وكيف يتكون الحصى ولله أن يخلق ما يشاء كما يشاء.

ولقد رأيت فأرة لطيفة في الحرث، نصفها طين ونصفها لحم، ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ**﴾ [القصص:٦٨].

من انقلاب الأعيان

ولقد حكى لي مسلم الحصري بمدينة قوص-وهو من التجار الكارمية، وكان رجلاً موثوقًا به، وله عبادة وصدقات- أنه سمع بنهر من الماء كل ما رمي فيه صار حجرًا قال: فمشيت حتى وصلت إليه، قال: وكان معي منديل سكندري، فدليتها في الماء فصارت حجرًا خفيفًا. قال: وكان معنا غراب، فدلّيناه فصار حجرًا إلا ما لم يصل إليه الماء، قال: ورأيت أسماكًا حجارة فيه، وذلك أنه يجري فيدخل في البحر فيطلع فيه السمك فيصير حجارة. قال: وكانت معنا عصا فدليناها فصارت حجرًا، وبقي ما كان بأيدينا خشبًا على حالته. قال: وأي دابة وضعت فَمها فيه صار حجرًا في وقته، وأي من خاض فيه صارت رجلاه حجرًا في وقتها!

فانظر إلى هذه العجائب وهذه الأسرار الإلهية المودعة في هذا الماء.

وكذلك حكى لي عز الدين الحلبي المعروف بالكولمي[١] عن بركة من الماء، أن النساء ينزلون فيها فيحبلن.

وأخبر بعجائب كثيرة، وكل ذلك أسرار في تغيير ما يريد تغييره، فمن أين لنا الأمان والقطع بوصف من الأوصاف، أو حالة من الأحوال، مع وجود هذه الأحوال ومعاينة هذه الأهوال، وإذا كان هذا الانقلاب في وجود الجمادات والمائعات فما ظنك بالإنسان؟! وتقلب قلبه في كل زمان من الأزمان، فمن أين نعطي الأمان في انقلاب الأعيان، وتحوله من الإيمان إلى الكفر، ومن الكفر إلى الإيمان.

وكيف بورود الحديث: «**القلب بين إصبعين من أصابع الرحمن يصرفه كيف يشاء**[٢]»، وفي قوله تعالى: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ**﴾ [الأنعام:١٢٢].

يحتمل معان منها: كان ميتًا في العدم فأحييناه بالإيجاد، ميتًا بالكفر فأحييناه بالإيمان، ميتًا بالجهل فأحييناه بالعلم، وجعلنا له نورًا يمشي به في الناس، نورًا في قلبه: ﴿**فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج:٤٦]، في بصيرته: ﴿**وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ**﴾ [الأعراف:١٩٨] نورًا بالقرآن، ﴿**فِيهِ هُدًى وَنُورٌ**﴾ [المائدة:٤٧]، ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا**﴾ [الأنعام:١٥٣]، نور بالإيمان، ونور الإيمان الذرة منه تغلب على نور الشمس والقمر، ويطفئ النيران، نورًا بالشريعة والتبعية: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [يوسف:١٠٨] وهل من يمشي بهذه الأنوار كمن مثله في الظلمات؟ جعلنا الله وإيَّاكم ممن كان ميتًا فأحياه، كمن

(١) هو هبة الله بن صدقة بن عبد الله بن منصور الطبيب العالم نفيس الدين ابن الزبير الكَولمي، ولد بأُسوان وبرع في العلم الطبيعي وولي رئاسة الأطباء بمصر، وكان فيه عدالةٌ وله نَظَرٌ في مذهب الشافعي، وروى عنه المنذري والدمياطي وجماعة، وتوفي سنة اثنتين وأربعين وستمائة.

قلت: وهو غير رئيس التجار المعروف بعز الدين .. والله أعلم. وانظر: الوافي للصفدي (٣٣٩٥/١).

(٢) سبق تخريجه.

ذكرته في كتابك: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢]، وأخرجنا من الظلمات إلى النور برحمتك يا أرحم الراحمين.

وفي المعادن وظهورها من الأحجار والتراب ما يزيدك تنبيهًا على سعادتك، وزاجرًا عن شقاوتك، وليست السعادة ولا الشقاوة بيدك، لكن اتباع ورود الأوامر والانتهاء بالزواجر مما كلفته، ولا عذر لك فيه لما أنت معمور فيه، ومستصحب له، وواقف مع معقولك وإرادتك، وشهواتك ومقاصدك.

عبَــاد اللّــــه

فأنت تعاقب على ما يخالفك به عبدك أو غيره ممن تقدر عليه، وتجازي على الإحسان، وتصف الخير والشر أن يجريه الله تعالى على يده، ولا يعذره في ذلك، ولا ينظر لجريان الإرادة من الله تعالى فيه، فطالب نفسك بما تطالب به غيرك، واحكم عليها بما تحكم به على غيرك، فإذا زال العقل، أو وقعت الغفلة بالنوم، أو الطفولية، لم يحكم عليه بشيء حتى يحكمون على حكم المحكوم عليه من البلوغ واليقظة من النوم، ووجود العقل.

ولو استتر العقل بورود الأحوال الشريفة المغيبة عن العوائد المشهدة، لورود الإرادة وما يرد من الله تعالى من الحضور مع الله تعالى، والغيبة عن أفعال العباد بالكلية أيضًا مخاطب في تلك الحال، ولا يصح أن يقع منك المخالفة لله تعالى فيما يأمرك به؛ لأنك لو كنت واقفًا بين يدي ملك من ملوك الدنيا، وهو يرقبك بنظره، ويلاحظك بعينه، لما قدرت أن تعرض عنه فتنظر إلى مماليكه وجواريه بعين الشهوة والفسق، فإذا كان ذلك في رؤية ملك من ملوك الدنيا فكيف تلاحظ ذلك الجناب الأعلى على العلو الأعلى والأسنى من السناء، مالك كل شيء، ورب الآخرة والأولى؟ فلا يقع منك ما يخالف أمره، كما لا يقع من المخصوصين من الأنبياء والمرسلين، والأولياء والصالحين.

وإن كان الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه معصومين، فهم حجة الله تعالى على عباده، فالأولياء محفوظون، فإن كانوا في محل الجواز وإن قدر وقوع شيء للاستيلاء، وتصريف الإرادة، رجعوا بالتوبة إلى الله تعالى، ولا يكون ذلك قدحًا في

ولايتهم، ولا مزيلاً لها ما لم يكن مختلاً بأصل الإيمان، أعاذنا الله تعالى وإيَّاكم من ذلك كله، وأن يقع ذلك إلا في حكم النادر لمن أراد الله تعالى به ما أراد؛ لما لله تعالى فعله كما فعل ببلعام بن باعوراء وغيره، نخاف على القلوب الضعيفة من ذكرهم وما وقع.

النَّاس معَادن

وأما من كان وليًّا في علم الله تعالى فلا تتغير ولايته؛ لأن الحقائق الوضعية لا يقدح فيها النقائص الكسبية، وليس هذا موضع كلامنا في هذا النوع والإحياء والإماتة، فيما ذكرناه من الاحتمال، وللمفسرين فيه أقوالٌ بحسب ما تقتضيه طريقهم، وورد الحديث: **«الناس معادن كمعادن الذهب والفضة[١]»**.

والذهب والفضة موجودة في المعادن، والمعدن الأصل صحيح، وقد تدخل عليه علل تفسده في ظاهره أو تفسد حاله، وأصل المعدن في نفسه صحيح، لا يخرج عن معدنيته، كذلك المؤمن الحقيقي لا يخرجه ما جرى على جوارحه من النقائص عن حقيقة إيمانه، ولا حقيق ولايته، ودعوى من يدَّعي علم الكيمياء أن أصول أكثر المعادن ذهبًا وفضَّة من النحاس والرصاص والقصدير وغير ذلك، وإنما دخلت عليها علل وأمراض، فغيرتها عن ذلك، وأنهم يعالجون تلك العلل حتى ترجع إلى عادتها، وأوردوا حديثًا غريبًا: «من داوى الفضة ألحد ما أكل حلالاً» ويعنون بها القصدير، وكل هذه الأقوال التي ذكروها من جهة المداواة، وما ذكر عنهم من ذلك لا نعلم له حقيقة، ولا وقعنا على شيء من ذلك، والحمد لله لنفرة نجدها في القلوب من ذلك وسماعه، والوقوف مع الحقائق من المعدنية الصحيحة التي ورد فيها الحديث أولى بكل من يخشى على دينه في مأكله ومشربه وملبسه، وإنما ذكرنا المعادن الحقيقة الإنسانية، فإن من كان أصله عند الله تعالى مؤمنًا كالمعدن فهو يرجع إلى أصله وإن كان أصله كافرًا فهو يرجع إلى أصله، والأمر مستور عنا، أعني أمر الإرادة وسريانها.

---

(١) رواه مسلم (٢٠٣١/٤)، وأحمد في مسنده (٥٣٩/٢).

وأما الأمر الحكمي والأوامر الشرعية فهي معلومة بما ورد به الشرع، وانقلاب الأعيان لله تعالى فعله يفعل ما يشاء بقلب التراب ذهبًا والذهب ترابًا، والجماد مائعًا، والمائع جمادًا أو النبات حيوانًا، والحيوان نباتًا، وقد جعل لك منهاجا وسبيلاً، وعقلاً تدرك به حقائق الموجودات وأصلها، وفي قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾ [الأنبياء: ٣٠] كناية.

المعَـــادن

والمعادن الظاهرة من الجبال والتراب والسباخ وعيون المياه وغير ذلك من أعجب العجائب.

وفي أرض الصعيد سبعة عشر معدنًا معروفة، منها: معدن الذهب، وهو بموضع يُسمَّى، العلافي، وهي خلية قديمة خراب، وهو فوق أسوان بأيام.

وفي زمان الملك الظاهر توجَّهوا إليه ووجدوا هناك طواحين يطحنون بها التراب الذي هناك، وربما يحيطون علمًا بكيفية إخراجه، وما وجدوا فيه كبير فائدة في مقابلة الإنفاق والكلفة عليها.

ومنها: السادج، وهو من المعادن الجليلة، وله خواص في الأحجار.

ومنها: الشبُّ الأبيض.

ومنها: الطَّفْل الأحمر الذي يعمل منه الفخار الأُسواني، ويعمل منها كوز الفقاع.

ومنها: الصَّول الأحمر والأسود، ومنه يجيء جميع الصول إلى البلاد المصرية.

ومنها: المرمر، من فوق من قوص الزمرد، ولا يجيء من غيره، ومعدن الرخام الأبيض والجبس الشطوي، وهو الطلق الأبيض، والجبس القصيري وهو طابق، وهو الذي يعمل في المعاصر.

ومنها: جبس آخر من فوق قفط للعمارة، ومنها القصري والطَّفل الأبيض.

ومنها: معدن البرام فوق قنا، وعيون النفط، وشجر الأسنان.

وبالأقصرين معدن الكيزان الذي يعمل منه الكيزان، وإن كان في غيرها لكن ليس مثله، وطين التصغير للبيوت، ولما يحتاجوا إلى غيره.

وفي طريق عيداب الحديد، وهي حجارة توقد النار ويخرج منها الحديد وحجر

البازهر، وحجر المنشور الأصفر.

وبالأقصر القديمة بركة ما تنقص أوان النيل عند طلوعه، وتزيد عند هبوطه، وماؤها فيه ملوحة لا يشرب منه أحد، وإذا حفر بجانبها يكون طيبًا، وليس بالكبيرة يغسل فيها الأكسية، وثياب الصوف، وغير ذلك من الثياب، فيصفيها ومن لا له صابون يروح إليها، ويغسل فيها، ومن كانت به المثلثة يرمي بنفسه فيها، فربما يشفى، وقدشفي بذلك جماعة، ووصلت إليها مرارًا كثيرة، ولم نستقص ذلك، وإنما هو ظاهر لنا، ولو استقصينا لوجدنا ذلك كثيرًا جدًا، وإنما عرضنا بذكر ذلك ما لله تعالى من الحكم في كل شيء.

والإنسان على جملة ذلك في نفسه، والحديث:«**الناس معادن**[1]».

وفي إخراج هذه المنافع من الأحجار كالحديد من الحجر، والنار من الشجر، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والحي من الميت، والميت من الحي.

رجل النار

وحدثني الشيخ عمر البلغياي ابن الفاخراني -رحمه الله تعالى- قال: دخلت إلى علي بن يعقوب وحضرت عند معمل الحديد والفولاذ، وهناك المسبك وصاحبه لي به معرفة، وهو كان بقنا، وإلى جانبه من ها هنا أكوار للنفخ جملة من هذا الجانب، ومن هذا الجانب، ويضعون فيه من آلة الوقيد شيئًا عظيمًا، ويوقد من عليه فينفخ الأكوار من ها هنا فيكون أمر عظيم، فيذوب الحديد والحجارة وغيرها، فيجعلون الحديد في بوادق كبار وينفخون عليها، فيذوب الحديد ويصفى، ويخرجون له بآلات لهم، فينفخ البودقة فيسيل فيكون الفولاذ من ذلك.

فحضر عنده جماعة من الفقراء وأنا عنده يطلبون منه ما يعملون به سلفات لهم.

فقال له واحدٌ من الفقراء: أعطني من هذه البودقة، وأدخل الفقير يده البودقة وهي نار؛ فغرف منها وأخرج كفه مملوءة من الحديد الذائب.

فقال له صاحب المسبك: أنت تظهر علينا كرامتك؟ عندي عبد يشرب المرز،

---

(١) رواه البخاري (١٢٨٨/٣)، ومسلم (١٩٥٨/٤).

يدخل إلى هذا المعمل ويقلب البيادق، ويخرج ولا يصيبه شيء، ثم نادى: يا فلان، فحضر عبد أسود فقال: تدخل تعدل هذه البيادق فقال: حتى تعطيني درهم أشتري به مزرًا، فأعطاه، فدخل ذلك العبد إلى ذلك المسبك، وجعل يخوض في النار إلى وسطه، ويقلب تلك البيادق بيده، فجعل يقول له: هذه تريد الإصلاح، وهذه كذا، ثم يرجع خارجًا فيقول له: بقي عليك كذا وكذا البيدقة الفلانية، فيرجع ويخوض في تلك النار رائحًا وجائيًا ونحن جلوس ننظر إليه حتى فرغ مما قاله له، ثم خرج والماء يقطر من جسده، ولا أصابه من تلك النيران العظيمة شيء.

فانظر إلى هذه الحكم الإلهية، فجلس الفقراء وطالبوا صاحبهم بسبب ذلك، فهذا العبد يحتمل أن يكون وليًا لله تعالى، ويظهر خلاف ذلك حتى يستر حاله، ويقول: أشرب بهذا الدرهم مزرًا، ولا أراه يشرب، وقد يكون ما يشير إليه غير مسكر، ويحتمل أن يكون فيه خاصية تمنع النار منه، ولا تؤثر فيه كطير السمندل، وحجر الياقوت، وللإنسان في نفسه أشرف منهما، والله تعالى أعلم أي ذلك كان.

ورأيت بالأقصرين خاتم فضة فيه فص أبيض في يد السراح، وعبد الله ابن الصابوني -رحمه الله تعالى- فكان يضع منديله على الفص، ويضع فوق المنديل جمرة من النار، فلا يحترق لكونها على الفص، أعني المكان الملامس للفص لا يحترق، وهذه خاصية، وكان يقول إن ذلك الفص هو من اليشم الأبيض المعدني، فالله تعالى أعلم بذلك. وقد قلت:

يَا خَالقَ النابتِ والمعدنِ وَمُجْرِيَ اللفظَ على الألسنِ
ومظهرَ الصامتَ من ناطقٍ وصَامتٌ يَظهرُ من مُعلَنِ
وجاعلَ الخائفَ في مَأمنٍ وموجدَ الخوفَ من المأمنِ
ومُخرجَ الأفصحَ من الكنِ ومُخرِسَ الأفصحَ والألكنِ
وباعثَ الميتَ من قبرِهِ حيًّا وكان العظمُ منه فني
أعدَّ حياةَ القلبِ من موتِه وبَدَّلَ الأقبحَ بالأحسنِ

وانظرْ لكسري فيك يا سيدي | من ذا الحادثِ والمزمنِ
وارفع حجابَ الرانِ عن قلبِه | وانظر إليه نظرةَ الأعينِ
فمن له غيرُك يا سيدي | من ألتجي من أرتجي من يكفني

دُعَـــاء

اللهم إنا نسألك سؤال المضطر إليك، والوافد بأفعاله عليك، فلا لجأ ولا ملتجأ منك إلا إليك، اللهم ارفع عن قلوبنا كل حجاب، وافتح بيننا وبينك جميع الأبواب، وقنا برحمتك كل عذاب، وأنزلنا منك منازل الأحباب، وسهِّل علينا الأمور الصعاب، وسامحنا بكرمك من مناقشة الحساب قبل الحساب، ولا توردنا موارد حساب ولا عقاب، إنك أنت الكريم الوهَّاب.

اللهم اكشف عن قلوبنا الحجب المعنوية والحسية، والكلية والجزئية، من الران والغان، والكن والغشاوة، والختم والطابع والقسوة، وما علمناه من الحجب وما لا نعلم، وما لا يعلمه غيرك مما يبعدنا عنك، أو يحجبنا دونك، أو يحجب عنا نورًا من أنوارك، أو سرًّا من أسرارك، أو نوعًا من أنواع الخير للدنيا والآخرة، ونسألك أن تبدّلنا عنه بالمكاشفة منك، والشهود لك، والتخصيص الإرادي، والسر الإلهي، ومحبة الحب منك بخصائص الحب حتى نحبك بحبك لنا، ونشهدك بما تشهدنا، وخذنا على أنفسنا حتى نكون بك لا بأنفسنا، يا حي يا قيوم، يا غني يا كريم، يا عزيز يا قادر، يا أول يا آخر، يا باطن يا ظاهر، حسبي حسبي حسبي، أنت ربي، لا إله إلا أنت، عليك توكلت وإليك أنيب، وصلِّى الله على سيِّدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم.

عجَـائب اللّه

ومن العجائب الظاهرة في هذه الدار كثير في البلاد متفرقة، قد صارت لأصحابها عادة، وهي في حق غير أهلها خرق عادة، كما حُكي أن ببلاد الهند أرضًا يسافر منها المسافرون، وأنهم نزلوا مرة فعلقوا القدر، فلما فرغوا وأطفئوا النار وجدوا ما تحتها قد صار فضة من تراب تلك الأرض.

وحدَّثونا أيضًا عن بلاد أُخر أنهم علقوا القدر، وحفروا تحتها، فطبخت القدور

من غير حطب، وأن النار كامنة في الأرض، فطبخوا لهم وربما الأرض في طريق سُعّرت.

وأحضر لي مرة شخص من الأصحاب ترابًا من أرض صرمين، وكان عندنا أيامًا، فلم يأت إلى مكانه شي من الدبيب العقارب، وذكر أن العقارب إذا رشَّ ذلك التراب في بيت تموت العقارب، وثم خواص أخر من غير المعدن في الحروف والأسماء، فمن أتقنها وعرفها وحققها وجد كذلك.

وقد ذكر منها الشيخ علم الدين المنفلوطي -رحمه الله تعالى- جملة، ذكرها عمّا وجده في منازلاته من خواص الحروف والأسماء والقراءة وسور القرآن، وله في ذلك مجموع رأيته واضح ما يوجد في هذه الطريق بطريق الكيف والمنازلة، وقد ذكر في سيرة الإسكندر من ذلك أمور عظيمة، من أنه كان إذا غلب على بلد من بلاد الكفرة إذا كانوا يعبدون الغربان وقد دخل بلدًا يعبد أهلها الغربان، فلما استولى عليها عمل لها طلسم فلم تعد الغربان تعود إلى تلك الأرض -أعني ذلك المكان- خشية عليهم أن يعودوا إلى عبادتها كما كانوا.

وكذلك أخذ بلدًا كانوا يعبدون العصافير واستولى عليها وعمل لها طلسم، فما رجع العصفور يعود إليها، وكل ذلك من خصائص الأسماء والحروف، وكان الشيطان يدخل في أجواف تلك الغربان والعصافير، ويتكلم على ألسنتها، فعُبدت، وكذلك كان يفعل في الأصنام، ودخوله في أجوافها، والكلام على ألسنتها، وحديث ذي الخصلة مشهور.

وكذلك الشجرة التي كانت تعبد، وذلك كثير جدًّا، وإنما مرادنا الكلام في الخواص الذي في الحروف والسور وحقائقها، وهي كثيرة جدًّا ومتى صحَّت لغير من يخشى الله تعالى تزندَّق، ولا يقع ذلك إلا نادرًا، وإنما أهل الاطلاع والكشوف يجدون ذلك حقيقة.

وكان من تقدَّم من الحكماء ممن وجد ذلك علمًا، وذلك عن الأنبياء المتقدمين، ووضعوا منه ما وصفوا.

الإسكَنْـــدر

وكان الإسكندر له منَّ الله تعالى عناية وولاية، وتمكين في الأرض، وكان له في

ذلك اطّلاع، وكان مراده إدحاض كلمة الشرك، وإظهار كلمة التوحيد، فله من الطلسمات في ذلك أشياء.

الدَّقائق والرَّقائق

وكل من كان له علم من علوم الكشوف علم أسرار الحروف؛ إذ لابُدَّ في كل شيء سر من أسرار الله تعالى، وكل شيء مسبّح لله تعالى بالحقائق والدقائق والرقائق، كلها مسبحة لله تعالى.

فحقيقة كل شيء وجوده وعينه، وكل شيء موجود من جامد ونابت وساكن ومتحرك وسفليّ وعلويٍّ، فإذا جزَّأته أجزاء إلى حدٍّ لا يقبل القسمة حسًّا أو ذهنًا فلها رقيقة من الرقائق وتلك الرقيقة هي روح لتلك الدقيقة، وتلك الدقيقة مسبحة لله تعالى ومقدّسة له، وهي في ذاتها لها فلك وهواء وأرض وسماء، ووجود عامر لله تعالى، لا يعلم ما فيه إلا هو.

فمتى أخذت حقيقة من هذا العالم الثاني وقسمتها إلى حدٍّ لا يقبل القسمة صار دقيقة وله رقيقة هي روح تلك الدقيقة، وهي مسبحة لله تعالى ومقدسة له، وكذلك لها فلك وهواء وأرض وسماء، وعالم عامر لمن فيه أمم أمثالكم إلى ما لا نهاية له.

يدور الحال كذلك كلما أخذت حقيقة من ذلك العالم، وجزّأته إلى حدٍّ لا يقبل القسمة حسًّا كان أو ذهنًا، كان ذلك الجزء دقيقة، وله رقيقة هي روحه، وهي مسبحة لله تعالى ومقدسة له.

فانظر ماذا يأتي في كل عالم من حقيقة؛ إذ حقيقة الشيء وجوده وعينه، فإذا كان الانقسام إلى حدٍّ لا يقبل القسمة كان ذلك الجزء حقيقة، في نفسه له دقيقة، وهو أن تبسطه إلى أن يصل إلى حدٍّ في الذهن لا يقبل القسمة له هي روحه، وهي مسبحة لله تعالى ومقدسة له.

فانظر ماذا يكون في هذه الأرض والسبع أرضين، وما فيها من العوالم كلها والسماوات السبع، وما فيها وما فوقها وما تحتها، وما بين الأرضين والسماوات، وما في

الأرض من الرمال والجبال والبحار والأشجار من كل عين موجودة، والحيوان والإنسان، وكيف يجعله آخرًا إلى حدٍّ لا يقبل القسمة، فيكون له دقيقة في الذهن، ثم يكون لتلك الدقيقة رقيقة هي روحه، وهي مسبحة لله تعالى ومقدسة له إلى ما لا يتناهى، وهي في فلك وهواء وأرض وسماء كما هذه الدنيا، وتعود القسمة كالأول، وهكذا إلى ما لا نهاية له.

فانظر أين حدّك من ذلك، واعرف قدر نفسك وافهم، ولا فهم يصل إلى ذلك بمعنى قوله تعالى: ﴿**وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [النحل:٨]، وقوله ﴿**وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة:٢٤٧].

وهذه نقطة واحدة من نقط الحقائق، ودائرة من دوائر الطرائق، ولطيفة من لطائف الرقانية، وروحانية من أرواح الرقائق في العوالم والمعالم، والرسوم والجسوم، والمعاني، تجد منها كل واحد بحسب حاله يخلقها الله تعالى أشباحًا وأرواحًا مسبحة لله تعالى بالليل والنهار، وعلوم القطبية والفردانية من وراء ذلك، والغوثية رتبة يحيط بما دونها والإحاطات والدوائر بحسب العطاء والوهب والولاية على تلك العوالم، ﴿ **فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [يس:٨٣].

المملكة البرزخية

فانظر أيها الولي والأخ السالك إلى المقام العالي، أين ملك الدنيا أجمعه؟ أين جميع الممالك في هذه النقطة الواحدة من المملكة البرزخية؟ فهي بالنسبة إلى هذا النوع المذكور في هذه الدار الدنيوية في السعة في العوالم والمعالم والحقائق والدقائق والرقائق كنسبة سعة الدنيا إلى ضيق البطن الذي كان فيه الطفل وخرج منه وبكى على مفارقة موطنه حتى يفهم معه الدنيا وما فيها، ويدرك ويعقل ويلذ الملذوذات كلها من الحسّيات والمعنويات.

ولو قيل له ارجع إلى بطن أمك الذي بكيت عليه حين خرجت منه لاستقل عقل القائل له ذلك، ولكان ذلك عنده من المستحيل وينفر طبعه من سماع ذلك الكلام، ولا يقع في ذهن أحد العود إلى بطن أمه بعد الخروج أن أحدًا من خلق الله تعالى يختار ذلك، فكذلك إذا دخل البرزخ ويجري الحال في حقائقه ودقائقه ورقائقه كما

جرى في الدار الدنيوية.

سَرمديَّــات

ثم إن الدار الآخرة بالنسبة إلى البرزخ في السعة كسعة البرزخ بالنسبة إلى الدنيا، وسعة الدنيا بالنسبة إلى بطن أم الطفل الذي خرج منه في حقائقه ودقائقه ورقائقه.

ويستمر حينئذ الدوام في الحقائق والدقائق والرقائق بالحياة الأبدية والعلوية السرمدية قيامها بالله تعالى ودوامها به، لا يموتون ولا يمرضون ولا يتألمون ولا يحزنون ولا يسامون ولا يبكون ولا يمنعون، ولا يقطع عنهم العطاء، ولا يجدون غلاًّ ولا شمسًا ولا زمهريرًا، أوقات مستمرة الدوام من غير ليالٍ ولا أيام ولا شهور ولا أعوام ولا أوجاع ولا آلام ولا أمراض ولا أسقام ولا محل السلام والسلام من السلام في دار السلام، والملائكة الداخلون عليهم من الأبواب بالسلام.

والخلق في الجنة بحسب ما ذكرناه من الحقائق والدقائق والرقائق أشخاصًا مسبحون لله تعالى، قائمون في غاية الحسن والجمال من غير نهاية ولا نقصان، ولا يضيق بهم مكان، بل تتسع الجنان بما يخلق فيها الرحمن، والأنهار جارية، والقطوف دانية، والسرر مرفوعة، والنمارق موضوعة، والفواكه غير مقطوعة ولا ممنوعة، والحور الحسان والولدان على أنواع من الحسن والإحسان، والأباريق والأكواب والكواعب الأتراب والكئوس والشراب، وإجماع جماعة المحاب من المأكل اللطائف والأسرار والمعارف والأصوات والنغمات واللذات من المطربات وسماع يطرب للسُّمَّاع ويراع محجل اليراع وشرب كئوس الخمور والشراب الممزوج بالكافور وختام المسك الأدفر من الدفور ما غير ما الحيوان منظور ولذة العيش والسرور، والنعيم متوارد والخير متزايد، وكلما بدا صار عليهم عائد، لا يتناهى جمال إلى حدٍ نهايةٍ في الحُسن والمال.

حُسنٌ على حُسن

ومعاني الحسن والكمال عاد إليهم بما هو أحسن في الحال في نظر الاستقبال، والأول باق على حالته لا يقبل الزوال ولا تحوله الأحوال، وإذا استكمل الحسن الثاني

ورد الثالث والأول والثاني على البقاء، وكذلك مستمر الحال في كل حال إلى الغاية والكمال ولا غاية ولا كمال.

وكذلك في المطعوم ولذة المطعوم، وفي النكاح وأرواح الأرواح ورؤية الأبواب كالخلع من الجسوم في صورة الحسن الملبوس، وكل صورة ظهرت بحسنها وطلب حسنًا ثانيًا رآه كشف له ذلك الحسن وحسنها الأول باق كذلك، وكذلك شم الروائح من كل نوع من روائح الإنسان من الرَّوح والريحان وما لا يعلمه من الروائح من كل نوع قبل ذلك.

وإن كان ما رسم في هذه الدار تشويقًا لما هنالك لكن أين العين من العين والحسن من الشين، فكلما يتنفس من نعيم عاد إليه نعيم أكثر من ذلك النعيم والأول باق على حالته على الدوام والاستمرار؛ لأنها دار الحيوان والحياة السرمدية والأمان في غرفات الجنان وزيارة الرحمن وشهود الكريم الديان، والمقامات في هذه الدار بحسب تعرّف الله تعالى إليهم فيه تعرفه في تلك الدار فيعطون بحسب تعرف الله تعالى إليهم، ولا حد لهذا العطاء ولا معرفة لهذه المعرفة بالإحاطة ولا إحصاء، فهذه نبذة ميسّرة في بعض بعض بعض جزء من مخلوقات اللهِ تعالى، ولا لنا إلا العجز والله واسع عليم.

عوالم اللّـــه

وليست العوالم منحصرة فيما يصل علم الخلائق إليه، بل لله تعالى عوالم لا يعلمها إلا هو.

وأما عوالم الدنيا والآخرة الذي وصل علم الخلائق إليها فمن طريقين: أحدهما بالمشاهدة كالسفر إلى البلاد البعيدة وغيرها، والثاني بالإخبار. إما من جهة الأنبياء عليهم صلوات الله تعالى وسلامه بما في الدنيا مما لا يصل إليه العلوم وبما في الآخرة التي لم يصل إليها، وأما ما أطلع الله تعالى عليه الأولياء بحسب طبقاتهم وميراثهم من أنبيائهم فهم يخبرون بما يشاهدون وراء ذلك ما لا وصل إليه العلم ولا يدركه الفهم والعقل والقياس ولا تسعه عقول الناس.

وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ

والرسول -صلوات الله عليه وسلامه- إنما يخاطب على قدر العقول فلا تعتقدن أن العوالم محصورة فيما علمته أو فيما أخبرت عنه معتقدًا أنك أحطت بما لله تعالى من المملكة بل في قوله تعالى: ﴿**وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [النحل: ٨] كفاية عن الكلام في ذلك، وهذا مع استمرار الخلق والاختراع لأنه خلاّق، وهي صفة قديمة له قائمة به فتقتضي استمرار الخلق على الدوام والاستمرار، وكذلك بارئ فهو يبرئ على الاستمرار والدّوام، وجميع أسمائه وصفاته فعالة -تبارك وتعالى- مستمرة الفعل على الاستمرار والدوام، فافهم ذلك، وقد قيل:

يا خالقَ الخلقِ وأفعالَهُمْ ... ومُظهرًا ما كان في علمِه

ومُبطنًا ما شئتَ من ظاهرٍ ... ومظهرًا ما شئتَ من حكمِه

وعالمًا بالكونِ من قبلِ ما ... قدْ كان كونًا في مدِّ أسهُمِه

ودائمَ الخلقِ بأمثالِه ... في حسِّه على نوعه بل باسِمه

يخلقُ كلَّ الكَون في لمحةٍ ... من غَير ما شيء ولا رسِمه

وواسعَ العلم فلا عالمًا ... يعلم ما في العلم من علمِه

يُبدي الذي شاءَ ويُخفي الذي ... يحتارُ فيه العاجزُ عن فهمِه

ذوق فؤادي الحب ثم اسقِني ... بشربةِ الودِّ على ختمِه

وامزج بكأسِ الودّ كأسَ الرّضا ... وشمه السابق عن لثمِه

تبرى بها قلبي عن دأبهِ ... ومن ضنا كوني ومن سقمِه

فإنني أصبحتُ في مانعٍ ... مثل امتناع الطفلِ عن أمِّه

يبكي على الفائت من رضعهِ ... ولا يجد صبرًا على فطمِه

يا من تعيدُ الحلبَ في ضَرعه ... ويجري الخالص من دمه

جاعــلُ السُّـمِّ شـرابَ الشّـفا وقاتـــل الأســـود مـــن بهمِـــه
ومالـــكُ الملـــكِ وكـــلِّ الـــورى ورازقُ الخلـــق علـــى قســـمِه
ولـيس في الكـون سِـوى فعلِـه وفعــلُ كــلِّ الخلــقِ عــن علمِــه
والأمــرُ فــيهم إن يشــا واقــعٌ يجــري بــه الواقــعُ مــن حكمِــه
فــاجبر بجــبر الجـبر كسـري بـه واشــدُدْ بنصــر النّصــر مــن عزمِــه

دُعَــاء

إلهي، لمن أسأل، لمن أتضرع، لمن أرجو؟ أيرجى في الشدائد غيرك؟ أيفعل ما يشاء سواك؟ أيخرج شيء عن مشيئتك؟ أيقدر أحد على فعل ما لا تريد؟ أسلطان فوق سلطانك؟ أيد فوق يدك؟ أملك فوق ملكك؟ تباركت وتعاليت عن ذلك علوًا كبيرًا، فعلى من تردني؟ وإلى من تكلني؟ ومن يكفني أمري غيرك؟ تولّني كيف شئت برحمتك إياي، شأني لمحبتك لي يا غاية الغايات ونهاية النهايات ولا غاية ولا نهاية لك، ارحمني يا أرحم الراحمين.

إلهي، أنت أعلم بما عزم عليه أعدائي وما في نفوسهم من أذاي، ولا ناصر لي غيرك، ولا دافع عني سواك.

إلهي، إنك أعطيت أعدائي جاهًا ومالاً وقوةً في الدنيا، ولا جاه ولا مال ولا قوة لي إلا بك، ونسبتني إليك إلهي فخذهم عني بما شئت كيف شئت، واكفني أمرهم بما شئت كيف شئت، واحجبني عنهم، وكن أنت حجابي فلا يصلون إلي بسوء.

يا الله يا الله يا الله، ربي وربّ كل شيء ورب الدنيا والآخرة وملك الدنيا والآخرة وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

يـــا رَاحـــمَ الشـــيخِ الكبـــيرِ وجـــابرِ العَظـم الكسـير ويَـا رَجـاءَ المرتجـي
مـــالي ســـوى رُحمـــاك تفـــرج كـــربتي مـن لي سـواك ومـن لهـا مـن مُفـرج
عجِّــل بغــوث الغــوث منــك لمهجــتي وتحـــيّري وتعـــبري وتلجُّجـــي
وانصـــرني علـــى الأعـــاء نصـــرًا دائمًـــا فـيمَن يقـيم ومـن يـروح ومـن يجـي

وارحــم شــكايةَ مــا بقلــبي مــن أســى ... وتخضُّـــعي وتفقُّــري وتحـــوُّجي

وتقلُّقـــي وتحرُّقـــي وتفرُّقـــي ... وتشـــتُّتي وتهجُّجـــي

واختــم بخيــرِ الخيـرِ منــك لجُملــتي ... كــي أســتقيمَ وكــي يــزالَ تعــوجي

يـا غـوثَ غـوثِ الغـوثِ يـا غـوثَ الـورى ... جُـد بالسَّـلام علـى الكسـير الأعـرجِ

اللهم اجعلنا أحبابًا لأحبابك وأعداءً لأعدائك، وانصرنا على أعدائنا وأعدائك ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم.

التحذير من إيذاء الأولياء

ومن المصائب العظيمة الدَّالة على البعد من الله تعالى والشقاوة في الدنيا والآخرة أذى أولياء الله تعالى أو أحد ممن ينسب إلى الله تعالى، وقد حكى لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى-أنه كان مرّة في بيت وحده فطلع عليه لص وجعل يشوش عليه، وقلوب الفقراء لا تحتمل من يشوش عليهم؛ لأنهم يكونون في جمعية مع الله تعالى فيفرقوهم.

قال الشيخ: فخرجت من البيت -وربما قال: وقفلت الباب - فأُخذ ذلك اللص وقُطعت يده، وربما قال لي تألمت لذلك ولكن وإن تألم الشيخ فإن غيرة الربوبية عليهم موجودة.

وحدثني عامر بن نسيم أنه شوّش عليه الناصح الذي كان ناظرًا بالواح، وكان الشيخ عامر بن نسيم مقيمًا في ذلك الوقت بالواح، فأخذ الناصح تلك الأخذة المشهورة وهلك وزالت نعمته ولم يبق له أثر.

وبلغني أنه وجد في حوطته خمسمائة خونخاة، وكان هذا الناصح مشهور كبير القدر وله مكارم وضيافات وهمم عالية لكن ما ينفع ذلك مع وجود أذى لهذه الطائفة الشريفة، والحديث الوارد: **«من آذى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة**[1]**»** ومن ذَا لهُ طاقة بمحاربة الله تعالى؟

(١) سبق تخريجه.

وإياك يا ولي أن تقف مع فهمك وعقلك في معرفة أولياء الله تعالى، فإنهم ما لهم بك حاجة حتى يتعرفوا إليك، فإن من الله تعالى عليك بما يميل به قلب ولي الله تعالى إليك، أو يتعرف إليك بنوع ما من المعرفة فهذه منّة عظيمة من الله تعالى في حقك لا تقوم بحقها، ونعمة لا تقوم بشكرها، فإنه ما يتعرف إليك إلا بأحد أمرين: إما أن يكون له معك نسبة، أو يكون ذلك التعرف مكرًا لإظهار ما في باطن ذلك الشخص الذي يتعرف له الولي بشيء فيظهر منه الإنكار عليه والاستخفاف أو الاستهزاء به فيكون سبب هلاكه وقيام الحجة عليه في معرفته له، ولهم مقاصد مع ربهم ﷻ لا يطلعون عليها الخلق، وإن أطلعوا أحدًا ممن هو أهل ذلك الإطلاع فعلى قدر وسعة، كما حكى لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- أنه كان ببغداد شيخ من المشايخ مجاب الدعوة لم تخطئ دعوته قط.

وكان بالمدينة رجل عالم، وكان يقصد خروج ذلك الشخص من المدينة، فتحدث العالم مع الخليفة، وكان الخليفة يسمع عليه فتحدث معه في إخراج ذلك الشيخ المجاب الدعوة فأبى عليه، وجرى في ذلك كلام، فسمع الشيخ المجاب الدعوة فخرج وقال: لا أدع أحدًا يتشوش بسببي، فحصل لأصحابه من ذلك ألم عظيم لخروجه، ولكونه خرج ولا قدروا أن يخالفوه وتألموا لذلك كما عادة المحبّين فقالوا له: يا سيدي، نحن وافقناك على خروجك، وبلوغ هذا العدو مقصوده فيك فادع عليه لأنه ظلمك فقال: ما أدعو عليه، فتألموا لذلك، وقالوا: ما نقدر على هذا، ولا بد أن تدعو عليه قال لهم: ما أدعو، ولو دعوت عليه ما أفاد، قالوا له لم؟ فإنك قط ما أخطأت لك دعوة، فقال: هو في حراسة نيته، فقالوا له: وما كانت نيته؟ قال: والله لم يطلب خروجي كراهية في ولا حظ نفس منه، وإنما خطر له أنني فاسد العقيدة، وأن الناس يجتمعون فأفسدهم عقيدتهم، ففعل ذلك لله تعالى ولم يطلع عليه أحد غير الله تعالى.

فسمع الرجل العالم بذلك فخرج إلى الشيخ وهو مكشوف الرأس لما علم اطلاعه على ما في باطنه وصحة معتقده فاستغفر الله تعالى وسأل الشيخ الرجوع إلى المدينة فامتنع وقال: نحن خرجنا لله تعالى فلمَ نعود؟ وبقي مقيمًا بخُص ظاهر ببغداد.

وهكذا حدثني عن فقير كان بالمركب وهم مسافرين في ظلمة الليل قال: قلت في

نفسي: يا ترى من هو خفير هذه المركب؟ وإذا شخص وضع فمه على أذني وقال لي: أنا خفير المركب، فالتفتُّ إليه فوجدته الشيخ أبا بكر العيس بابي.

وحدثني شمس الدين مكي الحلبي قال: كنت في السجن فوجدت الشيخ عبد الله البعاشيقي -رحمه الله تعالى- ورحم الآخر، ولا أدري أيهما سبق إلى دخول السجن من جهة السلطان فجلست عنده فقال لي: يجري كذا وكذا في أمر المملكة فقلت له: إيش تقول؟ فقال: الذي تسمع، فخفت مما قاله أن يبلغ عنه، وكنت في شدة من السجن فقال لي: أنت تخرج إلى كذا أو كذا يوم، وأنا أقعد بعدك كذا وكذا، فكان كل ما ذكره رحمه الله تعالى.

وكان الشيخ عبد الله البعاشيقي له حالة جليلة، وكان يتسبب في الثلج، وكنا بمصر حين كان بها وربما نزل ذلك، وحدثني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عن أحد المشايخ أنه كان جالسًا، وهو يميل تارة على يمينه، وتارة على شماله فقيل له عن ذلك فقال: العسكر كان انتصر على المسلمين فملت على السرية، أو قال: العسكر إذا مال علي جهة ملت عليه حتى ينتصر، وملت على الآخر حتى ينتصر.

فانظر إلى هذه الأحوال العجيبة، وإن كانوا لم يظهر عنهم ما إلا ما تحمله العقول ويكون ذلك بالنسبة إلى أحوالهم الجليلة سترًا عليهم، فإنهم ما يعرفون إلا بتعرف الله تعالى إياهم، ومن ظن أنه يعرف الرجل في كلامه فقد أخطأ في مرامه، وكذلك من زعم أنه يعرف الولي من أقواله وأفعاله فقد غاب عنه في سرائره وأحواله ولا يعلمهم إلا الله، فإنهم يخفون في ظهورهم ويظهرون في خفائهم وقد قلت:

يا عالمَ الباطنِ والظاهرِ ... وجامعَ الأولِ والآخرِ

وجامعَ السابقِ في لاحقٍ ... وملحِقًا الواقفِ بالسائر

وساترَ السرِّ على هاتكَ ... ومظهرَ الخيرِ على ساترِ

انظر لكسرِ القلبِ مني فَما ... لكسرهِ غيرِك من جابرِ

* * *

دُعَـــاء

اللهم لا تكشف عنا سترك، ولا تأمنا مكرك، وأعطنا حقيقة الإيمان الذي هو أمان عندك في حقيقة الأمان، والإيمان بحقك ووجود ذاتك، وراعنا بأعينك، وخذ بنواصينا إلى جميل الخيرات بيدك، وألحقنا بالسابقين إليك والمقتربين منك، ولا تحوجنا إلى صفاتنا المعلولة وأعمالنا المدخولة وأحوالنا الحائلة وأقوالنا البالية مع معاصينا المتوالية وتقاعدنا عن الخيرات وتكاسلنا عن الواجبات، واغفر لنا ما كان وما حل وما هو آت، برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى اللهِ علىِ سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم.

جمـــل الطاحـون

ومنهم السائر في وقوفه والواقف في سيره أعني السالكين، فإن الجمل الذي في الطاحون طول عمره يمشي ليلاً ونهارًا ولم يفارق المدار ولا علم ما وراء ذلك، وهو مع ذلك في جهد جهيد وتعب شديد وهو مغطى العيون عن دورانه، وغيره يقطع في الليلة الواحدة مسافات في سيره.

والعرب تقول: «لا تكن أمانتك كأمانة الجواد لمسطح، وغيلان لصيدح» وصيدح: اسم ناقة لغيلان كانت تأخذ مسيرة الشهر في الليلة الواحدة، وكان يقال أنها من الجان.

وكان غيلان إذا اشتاق إلى [شيء[1]] ركب البراري التي لا ماء فيها ولا مرعى لعلمه بسرعة مسير الناقة، وكان يسير على علم النجوم ويهتدي بها على غير طريق الجادة، وجرى له في ذلك خبر عجيب فضلوه به في الكرم على حاتم مع شهرته.

غيـــلان الدمشقي

وذلك أنه بات ليلة في برية مقفرة، وإذا بذئب كان قد ضل فسمع الحس فمشي وأتى إليه، وكان الذئب قد عطش وجاع، فقال غيلان: ما هذه بأرض ذئاب ولا وحش لأنها لا ماء بها، فأنت يا ذئب ضال، وأنت ضيفي، ولا عندي شيء إلا الأصدح، إن ذبحتها هلكت أنا وأنت في هذه البرية، وإن تركتك بغير شيء كان عار علي.

فعمد غيلان إلى لحمة وركه فقطعها وأطعمها الذئب، وربط عمامته على فخذه

(١) في الأصل (مي).

ربطًا شديدًا، فلما حضر إلى عند مي سألته وألحت عليه في السؤال حتى أخبرها، ففضلوه على حاتم في نفس الكرم؛ لأنه تكرم بنفسه على من لا يعقل ولا يمدح ولا يذم.

وأما كون ذلك جائزًا أو غير جائز فتلك مسألة أخرى من حكم الشرائع، وحاتم وغيلان من الجاهلية، ثم إن غيلان سافر مرة أخرى في برية لا طريق فيها ولا ماء ولا مرعى على عادته لوثوقه بسير الناقة، وكان من عادته أنه إذا تعب أناخها ورقد على ركبتها حتى يستيقظ، فاتفق أنه وجد ظبيًا فصاده وربطه على ظهر الناقة وأناخها ورقد على فخذها ونام، فتحرك الظبي على ظهرها أو عضها فوثبت وطارت كالطير وتركت غيلان هناك فمات في البرية.

فمن ثمَّ قالت العرب ذلك القول فِصارِ مثلاً.

حكاية الجَمـــل وصاحبه

وحكي لنا أنه كان بأُسوان شخص اسمه عبد الله الكنز[1] عمر، وكان عنده جمل أصهب، وكان يركبه كل وقت أو كل ليلة ويقربه إلى بحري أُسوان ويعود في ليلة، وكان له عدو بطود فما برح يقربه، ويعود إلى أسوان إلى أن وثق به أنه يروح إلى طود ويعود في ليلة.

فصلى ليلة خلف سيده عشاء الآخرة، وركل الأصهب وساق إلى أن وصل إلى طود، فقتل عدوه ورجع فصلى الصبح خلف سيده بأسوان، فلما كان بعد أيام وجاء ورثة دم المقتول إلى الأمير ركن الدولة، وقالوا له: غلامك قتل صاحبنا في الليلة الفلانية، فقال لهم: غلامي صلى خلفي صلاة العشاء الآخرة تلك الليلة، وصلى خلفي صبحها فقالوا: قتله غيره فلما أرادوا أن يحلف لهم قال له الغلام: لا تحلف أنا قتلته، قال: كيف عملت؟ قال: ركبت الأصهب الفلاني، ورحت ورديت في ليلتي وهذا في تقدير خمسة أيام في الرواح وفي المجيء كذلك، وطلب الكنز الجمل فذبحه فوجدوا صدره لوحًا واحدًا لا ضلوع فيه.

---

(١) هكذا في الأصل.

ورأيت مرة جملاً وعليه إنسان راكب، وكان صبيحة يوم السبت بعد طلوع الشمس، وهو جمل أجرب وصاحبه يجد في السير، وكنت بالقرب من دمامين فقلت له: من أين؟ فقال: من أسوان فقلت: كم لك يوم؟ فقال: يوم واحد، ركبت صبيحة يوم الجمعة وها أنا سائق فقلت: وما الخبر؟ فقال: داود النوبي نزل على أسوان صبيحة يوم الجمعة بالأمس فركبت - وكانت دولة الملك الظاهر - وخرج الأمير علاء الدين حزبنا، ونادى في البلاد بالجهاد، وسافرنا إلى أسوان، وذلك قبل توجه العسكر إلى النوبة ثم بلغ السلطان ما اتفق في عيداب، وقتل من قتله داود وسبى العذارى وأخذ الأموال وقتل الرجال وقتل الحاكم والوالي والخطيب وأسر من أسر، وكان من جملة من أسره السراج القصري رحمة الله تعالى عليه وكان تاجرًا [معروفًا] وجرت له حكاية عجيبة.

قسيس المسلمين

وذلك أنهم أسروه وراحوا إلى بلاد النوبة -وكان كثير القراءة للقرآن وهذا شأنه إلى أن مات- وجعلوه على مصانع المزر ولم يقتلوه، وقالوا: هذا قسيس المسلمين.

وبقي عندهم، وأثبتوا وفاته بمدينة قوص على القاضي جمال الدين السبكي رحمه الله تعالى، وفرَّق الورثة التركة وتوزعت، وتزوجت زوجته، وربما أخذ وكيل السلطان شيئًا جيدًا من التركة، فلما طلع العسكر وأخذوا النوبة وأحضروا الأسارى حضر من جملتهم السراج القصري، فوجد زوجته متزوجة، وماله قد راح، ولم يحصل على شيء، وإن كان فشيء يسير، وربما أسقط القاضي الشهود.

وما تحققت كيفية الشهادة، هل هي بالاستفاضة أو هي بالمعاينة؟.

السَّائرون إلى اللَّه

والسائرون إلى الله تعالى وأهل الأسفار كثير، فمنهم من يسافر لطلب شيخ يربيه، ومنهم من يكون سياحًا يسافر للسياحة، ومنهم من يكون مقيمًا في مكانه وهو يسافر بباطنه.

وكما أنك ترى بعين الفكر مع قعودك في مكانك أمورًا وأحوالاًن، وكذلك في منامك أسفارًا ومواطنًا، وتطلع على ما لا تصل إليه بالسعي، وحتى على الملكوت

السماوي؛ فكذلك الفقير يرى ذلك كشفًا، ويسافره معنى.

ومنهم من يخطو الخطوة الواحدة إلى الجهة التي يطلبها، ولقد رأيت في صحراء عيذاب أثر قدم واحدة وتقدير طوله ذراع، ومشينا مشيًا كثيرًا على جبالها نطلب أختها فلم نر شيئًا، وكانت القدم حافية.

وأخبره الأمير علاء الدين أنهم وجدوا في جبانة أخميم أثر قدم كذلك، وجماعة من العدول وإذا تلك القدم ذراع، ولعلها أختها، الله تعالى أعلم.

والدنيا كلها خطوة مؤمن والسفر على طبقات كما قيل:

مـنْ أيـنَ لي مثلُـك يـا مـدلِّلي تمشـــي الهُوينـــا وتجـــيءُ في الأولِ

هذا سَفر العارفين من غير إتعاب ولا أنصاب، وإنما هو سَفر القلوب كما قيل:

سـافَروا، أنـتَ بهـم فـيهِم كمَـا وجبَـا واذهـبْ ذهابًـا يُـريكم أرضَـكم ذهبَـا

من حلَّ بالبيتِ صلَّى حيثُ شاءَ إلى كـلِّ الجهـاتِ وصَـارَ نخلـهُ عِنبَـا

صلي كما أشار إذا كان بقُطر من الأقطار، إما أن يكون فيه قبلة يصلي إليها كالمدن والقرى الإسلامية، أو كان في موطن لا قبلة فيه كبلاد الكفار والصحارى والقفار، يجتهد ويصلي بحسب اجتهاده أن تلك الجهة جهة الكعبة.

فإذا حصل في المسجد الحرام وراء الكعبة فكل الجهات قبلة، كذا العارف بالله تعالى، إنما ينحصر في سلوك واحد وطريق واحد لاجتهاده فيما يوصله إلى ربه ﷻ، فإذا تعرف الله تعالى إليه وحصلت له المعرفة بالله تعالى والقرب منه صارت الطرق عنده كلها موصلة إليه، فإن السالك طريق الخوف غير السالك طريق الرجاء، والمشاهد للجمال ليس كالمشاهد للجلال، والكعبة قبلة الأجسام لورود التعبد والأحكام ومقابلة الجسم المحسوس بالمحسوس المعقول، فالناس يطوفون إليها ويطوفون بها بأجسادهم، وأما توجهات القلوب وصلاتها فإلى ربها تبارك وتعالى، ولا جهة له، والقلوب لا جهة لها محصورة يحصرها، فهو حج القلوب، تحج إليه كما تحج الأجسام وتطوف بعرشه كما يطاف بالبيت الحرام.

وحدثني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى-قال: قال لي فقير مرة: صلِّ في

وجودك. فقلت: وما صلاة الوجود؟ فسمعتِ قائلاً يقول: صلاة الوجود شهود المعبود.

دُعـــــــاء

اللهم اجعل حج قلوبنا لذاتك، وطوافها بعرشك، وعرفاتها معرفتك، ودعواتها الثناء عليك بالعجز عن الثناء عليك بما أنت أهله، ورمى جمارها رمى الأرجاس بالأنوار المحرقة المانعة عن استرقاق السمع من الشياطين والقطاع في طريقك والناكثين لعهدك والبائحين بسرك.

واحفظها في حفظك بحفظك، ورد ما أودعته فيها عليك بك حتى يشكرها على الوفاء لك يا أكرم الأكرمين، وكمل نسكها بذبح الهدى والفداء كما فديت عن نبيك وابن خليلك بالكبش، واجعله في ذبح الشهوات النفسانية والخواطر الدنيوية كما ذبحت ملك الموت عن أهل جنتك، فبقيت لهم الحياة الدائمة بإبقائك يا أكرم الأكرمين. وقد قلت:

إذا حجــت الحجــاجُ يومًــا لمكــةَ ... وطـافوا بهـا حينًـا حججـتُ إلى قلـبي
وقلــبي لــه حــجٌّ وســعيٌ كمثلــه ... ولا حـــــجَّ إلا أن أحُـــــجَّ إلى ربي
فـإن جـردوا الأثـوابَ جـردتَّ بـاطني ... وإن لبسـوا الإحـرام أحرمـتَ بالسـلبي
وإن طوَّفـوا بالسـعي فرضًـا وسـنةً ... أطـوفُ بقلـبي في المشـارقِ والمغـاربِ
وإن ذبحــــوا فــــذبحي لمهجـــــتي ... بهـا قربـةُ الأحبـابُ في شِـرعةِ الحـبِّ
وليست تساوي مهجتي بذلَ نفسَها ... ولكنــه جهــد المقــلِ علــى القــربِ
ولم تــك لي نفــسٌ أجــود ببــذلِها ... ولكنــه فضــلٌ كمــا العفــوُ لــذنبي
وإن شــربوا مــن مــاءِ زمــزمَ شــربةً ... شـربتُ بهـا كأسـا يجـلُّ عـن الشرب
وإن رمَــوا الأجمــارَ أرمــي مهجــتي ... وأُتبعُهــا وصــفي وأظهــر مــن عجــبي
وإن ودّع البيـــتَ العتيـــقَ مـــودّعٌ ... أودّعُ قلــبي مــن عتــابٍ ومــن عتــبِ
وإن كملــوا نســكًا فلســتُ مكمــلاً ... وعجـزي عـن شـكرِ المقـام بـه حسْـبي

كمالي ونقصي فيك جمعٌ كواحدٍ وأى كمالٍ للفقيرِ مع الحجْبِ
فرفع حجابي فيه غيرُ حجابِه وكيف يَرفعُ الحجبَ إلا عن القلبِ
ورب العُلا لا شيءَ يحجبُ ذاتَه عن الخلقِ لكن الخلائق في حجبي
تراهم على ما هُم عليه وقبل ما يكونهم في الكون شعبًا على شعبِ
فلو رفعَ اللهُ العزيزُ حجابَه لأحرقَ كلَّ الكونِ في لمحةِ السُّحبِ
وذلك حد الكون بعضًا وجملةً وربُّ العلا عالٍ عن الكيف والسلب
ولكن له حجب من الرحمة التي بها انتفاعُ الناسِ في السهلِ والصعب
يعيشون فيها رحمةً لبقائهم فلو رفعت أفنى الورى هيبةُ الربِّ
وأما حجاب الكافرين فنقمةٌ بها تسعَّرُ النيرانُ من شدَّةِ اللهبِ
وإني عبدٌ خائفٌ من حجابِهم وراجٍ بربي رفعَ ذلك عن قلبي
كذلك خوفُ العارفين جميعهم لتأثيرِ وصفِ اللهِ في المنعِ والوهبِ
أتيت بذنبي للكريمِ وليس لي سوى عمل يفضي إلى الخُسرِ والذنب
ليفرجَ لي كربي فَما ثَم غيره ومن غيرُه قل لي فيفرجُ لي كربي

فالحجب ها هنا بحسب العبيد، والله تعالى لا يحجبه شيء عن خلقه، وحجابه للعزة عن مثاله بالرؤية وغير ذلك ليس ينال حقيقة شيء غيره -جل وعلا وتبارك وتعالى- لأن الإحاطة به مستحيلة، وعلمك بالأشياء إحاطة لها إما بالرؤية أو العقل أو الفكر أو السماع، وما تصل إليه بالحواس الخمس والمدارك الحسية والمعنوية، والله تعالى متعال عن ذلك.

ورؤية الناس له -تبارك وتعالى- في القيامة قد ذكرناه، وليس ذلك إحاطة أصلاً فافهم ذلك.

ولولا الحجب الرحمانية والترائي لهم بوصف الربانية لما أكلوا ولا شربوا ولا تنعموا ولا عقلوا، ولو كشف حجاب العزة عن وجهه الكريم ونوره العظيم لأحرقت سبحات

وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، والرؤية حقيقة كما ورد الخبر **«كما ترون القمر**[(١)]**»** لأن القمر واضح الرؤية عند كماله، ورؤية الله تعالى أوضح من ذلك، والمثل مضروب لرؤية القمر لا لرؤية الله تعالى، فإن الله تعالى لا يضرب له الأمثال.

ولأن القمر في نفسه محجوب بالرؤية ظاهر في رؤيته واضح في شهوده، ونفس رؤيته نفس حجابه، والشمس كذلك مع قوة ظهورها وشدة وضوحها محجوبة برؤيتها مستورة بنورها، لأنها في كيفيتها وعظم حجمها أكبر من الدنيا مرارًا، ولذلك استولى نورها على الدنيا وظهرت لكل راءٍ في بعد البلاد وقربها، وهي مع ذلك لا يراها الرائي الأعلى قدر الترسة، فكانت رؤية الرائي نفسها حجابها في رؤيتها.

وهذه من بعض مخلوقات الله تعالى فكيف برؤية رب الأرباب؟ وأنّى لك أيها العبد الضعيف والإحاطة برؤيته؟ لأن ذلك امتنع بحجاب العزة، ولأن الإحاطة به سبحانه وتعالى مستحيلة لأنها حكم عليه تعالى الله عن ذلك، ﴿**وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً**﴾ [طه: ١١٠].

وحدثونا عن أحد أصحاب سيدي أحمد بن الرفاعي -قدّس الله تعالى روحه- أنه سأل الشيخ أن يرى الله تعالى، فقال له: امض إلى البحر وقف هناك قليلاً، فمضى المريد إلى المكان الذي أشار إليه الشيخ، فظهرت له صورة ملك من الملائكة نورانية، وقد سدَّت الأفق بين السماء والأرض وملأت الكون كلّه فلم يطق تلك الرؤية وصعق وغاب عن حسّه- وربما بقي أيامًا- فلمّا أفاق أتى إلى الشيخ وأخبره الخبر فقال له: يا ولدي، صورة ملك من ملائكة الله تعالى ما أطقت رؤيتها، فكيف برؤية خالقها؟

محمد العيذابي

وأخبرني فقير -وكان له تصريف في الجن ويرى من صورهم العجائب والغرائب ويتحكم فيهم ورأيت منه مرة تصريفًا فيهم يدل على ما كان نذكره- قال: سألت الله تعالى أن يريني إسرافيل ﷺ قال: قال فبدا لي وقال لي ما تريد؟ فصعقت، وبقيت سبعة أيام لا أرفع رأسي.

---

(١) سبق تخريجه.

وكان هذا الفقير يعرف بمحمد العيذابي وأصله من طود، وكانت له عبادة واجتهاد وتوجهات وفراغ عن الدنيا، وكانت له معرفة بالأسماء وخواصها، وكان يتصرف بذلك، وما كان يكاد يكتمني شيئًا، وكان له تصريف آخر في أمر الدنيا، وكان لا يرضى يلبس إلا شملة سوداء يجعلها كالفرجية بلا أكمام وقميص تحتها ويلف رأسه بشيء إما ذراعين أو ثلاثة أذرع وفي رجله قبقاب، وهو وحده حيث كان.

وذكر لي أنه إذا أراد أن يقتل من يختار يكتب حرفًا على سكين معه فيقتل ذلك في أي مكان كان، وكان من جهة أعوان له من الجان.

وحكى أنه كان له صاحب يسمى ابن الفايد بـ «عيذاب» قال: انبسطتُ عليه مرة، فأمرت عفريتًا، فحمله بسريره وهو نائم، فوضعه في الباحة بالبحر المالح، فاستيقظ فوجد نفسه كذلك فكاد يهلك، فأمرت العفريت فردّه إلى بيته.

وإذا كان بعض المخلوقات من الجن والملائكة لا يقدر الإنسان على رؤيتهم فكيف بخالقهم؟

وفي الحديث أن النبي ﷺ كان في ابتداء الوحي يقول: «**زملوني ودثروني**[١]» وورد أنه قال لجبريل مرة: «هل تستطيع أن تريني صورتك التي خلقك الله تعالى عليها؟ فقال: لا تطيق ذلك، ثم ظهر له -فربما خاف- فقال له: كيف لو رأيت أخي إسرافيل؟».

رؤية الملائكة

ورؤية الملائكة متفاوتة، ولو شرحنا بعض ما سمعناه من رؤية الملائكة وعظمها لما وسعه الكتاب، وما غاب أكثر مما ظهر، فإن البشر لا يطيقون أكثر مما ظهر لهم، وفي قوله تعالى: ﴿ **وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [النحل:٨] كفاية وإذا كان العلم منا لا يحيط بهم، فكيف الرؤية؟ وفي ذلك المِلك الذي ما بين شحمة أذنه إلى أذنه الآخر خمسمائة عام، ولذلك كذا كذا ألف وجه، في كل وجه كذا كذا ألف ألف لسان، كل لسان يسبح الله تعالى بلغة غير لغة اللسان الآخر.

(١) رواه البخاري (١٨٧٥/٤)، ومسلم (١٤٣/١).

مواجيد الأولياء

وأما مواجيد الأولياء وأرباب الكشوف وما يجدونه في تطوراتهم وما يفتح الله تعالى عليهم به وما يشيرون إليه في شهودهم فهي بحسب ما يجده كل واحد، وقد ذكرنا الشهود بعد الفناء بالله تعالى وما يجدونه من وراء العقول ولا يدخل تحت المعقول وقيل:

نعِمنا به في لذةِ العَيشِ بُرْهةً ولاَ منَ المعقولِ في عالِمِ الكشفِ

فيا عجبًا من غائبٍ وهو حاضرٌ ومن نازحٍ دانٍ ومن ظاهرٍ مخفي

* * *

عَالم الوهْم والخيال

فأما عالم الوهم والخيال مما يظهر في صورة شكل ومال فهو عالم عجيب، معمّ الأطوار، سائع المسافات والأقطار.

والعوالم الوهمية لا تدخل تحت الحصر، ولا يسع هذا الكتاب بعض بعض البعض منها، وإنما نحن نشير إلى نبذة لطيفة من ذلك لتحذير السالك منها والتبرؤ في سلوكه وطريقه عنها؛ لأنها عوالم مقابلة لعوالم الحقائق للضدية، ولها دقائق ورقائق ،كما أن الحق ضده في مقابله الباطل، والعلم مقابله الجهل، والخير مقابله الشر، وكل عالم من عوالم الكون يقابله عالم مضاد له ﴿**لِيَمِيزَ اللَّهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾ [الأنفال:٣٧].

وهذا العالم الوهمي من أعجب العوالم، وله غلبة عظيمة في الاستيلاء على قلوب الضعفاء وعقول الحمقاء، ومن لا يصلح للاصطفاء، ولا للمحبة واللقاء.

ومنهم من يحجب بحجاب الشقاء لتحقق الشقاء، وهم طبقات أعاذنا الله تعالى وإياكم من ذلك كله.

فمنهم طوائف الكفار على اختلاف فيهم، ومنهم أرباب العقائد الفاسدة على اختلاف فيهم، ومنهم أرباب البدع والخوارج على اختلاف فيهم.

وكل ذلك من غلبة الأوهام وتوالي سدف الظلام، فهم يتخيلون الأنوار في الظلام والبركة في الأسقام والحلال في الحرام، وكلما زادت الحقائق وضوحًا يزدادون

عمى، وكلما بدت طرائق الرشد والهدى ارتكبوا طرائق الغي والهوى، وهم في ذلك طبقات على هذا الحال في ارتكاب الضلال والتحلي بالمحال واستحالة ما وجب وإيجاب ما استحال.

خلقوا لذلك، وسلك بهم هذه المسالك لحكمة الإرادة وتحقيق الشقاوة والشهادة، فهم عباد الأصنام وما تخيلوه فيها من الأوهام، والشموس والأقمار والظلمة والأنوار والنجوم والأسحار والملائكة والأنام والأرواح والأجسام، وكل في عبادته مغرور، وهو في غروره مسرور، يقابلون على ذلك وِيقبلون ويحيّون فيه ويموتون.

طبقات الكفار

وقد تقدم في محاربة الكفار مع الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- ما تقدم وتأخر إلى هذا الزمان-ومنهم النصارى واليهود في عبادتهم المسيح والعزير- وهم طبقات.

ومنهم الاتحادية والحلول، ومن يجعل الحق عين الأشياء والأشياء عين الحق وهم طبقات.

ومنهم الحشوية والجسمية وهم طبقات.

ومنهم الخوارج والجهمية وطوائف المارقين والمبتدعين.

ولا حاجة بتعدادهم[١]، ومنهم من يكونون في دائرة النبي ﷺ لكنهم توهموا أوهامًا وحكموا بها على الأنام.

ومنهم طائفة سلكوا على أنهم على الطريق وحصلت لهم الأوهام فتوقفوا معها وحجبوا عن الله تعالى بها وهم طبقات، وتعداد هذه الطبقات لا ينحصر لسعة العالم الوهمي، وما لله تعالى فيه من الحكم للإهداء والإضلال، وتمييز الهدى من الضلال وظهور الظاهر بالأقوال والأفعال، وإخفاء البواطن والسرائر والأحوال ﴿**حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ**﴾ [القمر:٥].

فأما **الأوهام** القائمة لعباد الأصنام فقد تقدم ما احتجوا به من الوهم الضعيف لضعف عقولهم بأنها تقربهم إلى الله، وأنهم وجدوا عليها آبائهم، مع كونهم ينحتونها

(١) انظر: البرهان في عقائد الفرق والأديان للسكسكسى، وعدة رسائل أخرى في الفرق، () طبع العلمية بيروت.

بأيديهم! وكون الشيطان كان يغويهم بكلام على ألسنتهم، وكونهم يرون غيرهم يكسرها ويحرقها ويعدمها ولا يحصل له من ذلك شيء من الأذى. وهم على ضلالهم في طبقاتهم.

وأما **النصارى** فحجتهم ضعيفة، وهم أقل من الكلام فيهم، وقد ذكرنا احتجاج النفس الذي لهم وارد عليه ولم يجد له عن ذلك محيصًا، وكونه يعتقد أن المسيح ابن مريم مخلوق ويعتقد أن مريم مخلوقة وحادثة وأنه صدر عنها ويعتقد فيه القدم والألوهية.

وحجة اليهود قريب من حجتهم، ويدعون في التوراة كما تدعي النصارى في الإنجيل، وقد بدّلوا فيها ما بدّلوا في نفس المعتقدات:

﴿**قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾[المنافقون: ٤]

وأمّا **الفلاسفة** وغيرهم من هذه الطوائف الذي يطول ذكر معتقداتهم مع فسادها، والأصل في ذلك ما توهموا في الألوهية فحجبوا بذلك، وليس لنا غرض في ذكرهم لتشعب الكلام، وإنما غرضنا أن نذكر ما يحذر به السالك عن الوهم الذي يجده في طريق سلوكه، والخيال الذي هو قائم به حتى لا يفتتن، فإن السراج إذا ظهر في صفاء الماء يظهر سراجًا مثله في الماء، وكذلك القمر، وكذلك الصورة في المرآة، فلو كسرت المرآة وأذهبتها لزالت الصورة المرئية فيها، ولا تزول الصورة التي نظرت في المرآة أصلاً، ولو مسكت السراج الذي ظهر في الماء لما آلمك ولا أحرقك ولا وجدت شيئًا تمسكه، وكذلك القمر، فلو شربت الماء الذي ظهر فيه القمر لما استتر القمر نفسه، وكذلك الشمس، وكذلك المرأى في أي مرآة كانت.

فهذا مثال تفهم به صورة الوهم التي تظهر على صورة الحقائق وليست بحقائق، وإنما الأوهام القائمة بنفوس الضعفاء يظهر لهم أنها حق فيقفون معها لأنهم محجوبون عن الحقائق وليسوا بأهلها، ومتى ظهرت لهم صورة ما تخيلوها على ما في نفوسهم لأنها ضعيفة عن الإقدام على حقائق الأمور، ولا سيما إذا كانت محسوسة.

حكايات في الوهم:

١- الحمـار ذو الفروة

كما حكي إليها عبد المنان وهو من عدول الذروة قال: كنت بمدينة قوص، فجئت بالسَّحر إلى حمام الزبير، فأخذت المفتاح وفتحت الباب وقفلت علي الحمام،

وأخذت السراج ودخلت وقعدت على الحوض، وجعلت السراج على مكان ينور على، وإذا أنا أسمع شيئًا يمشي على أربع وهو يدق برجليه على ذلك الرخام، فمشى حتى أتى إلى عندي فأدخل رأسه، وإذا فروة مربوطة على وجهه وآذان طالعة، فنفخ في السراج فأطفأه، فصعقت ووقعت وغبت عن حسي، وبقيت كذلك وطلع النهار والباب مقفول من داخل والناس يطرقون الحمام ولا عندي علم بذلك، وتسوّر الحمّامي وفتح الباب فوجدني على تلك الحالة، فحملوني وأخرجوني وأقمت وقتًا حتى أفقت، فقال الحمامي: هذا حمار أخذه القصر فربطوا على وجهه ورقبته فروة وأدخلوه الحمام ليزول ما به، فبقيت ضعيفًا شهرين.

فانظر إلى هذا الوهم الذي قام به، فما كانت نفسه ضعيفة استولى عليها الوهم، ولو كان في رتبة شجاعة الأولياء لما توهم شيئًا، وكان ذلك عنده لو كان جنيًّا حقيقة أو عفريتًا لقام إليه وأمسكه وأهانه.

٢- الوتَد والكسَاء

وبالأقصر القديمة مكان يسمى أبو دويرة، إذا دخله الإنسان وحده في النهار يخاف، وهي عمارة للأوائل من برابي وحجارة، وذلك المكان المخصوص فيه أماكن مظلمة وهي بعيدة عن العمارة.

فتكلم جماعة من أهل الأقصر: أيهم يروح في ظلمة الليل ويدق وتدًا هناك؟ وجعلوا على ذلك جعلاً فراح منهم شخص إلى ذلك المكان في الليل ودق الوتد على كسائه وقام فأمسك الكساء من عليه فتوهم أنه جني فوقع مكانه- وربما قام وراح وخلّى الكساء- فلما أصبحوا حكى لهم أنه مُسِك، فراحوا ووجدوا الوتد قد دق على الكساء.

فانظر إلى فعل الوهم.

٣- الوطواط

وحدثني السراج أبو القاسم الأقصري قال: خرجت مع شخص إلى الأقصر القديمة فدخل إلى مكان فيها ووقفت أنتظره وبيدي حربة وأنا في ظلمة، وإذا بالحربة قد

خطفت من يدي من أعلاها، فحصل عندي خوف وجزع -وربما قال هربت- فلما أصبحنا جئت إلى المكان لأجد وطواطًا كبيرًا قدر الحدأة كان طائرًا في الظلمة والحربة قائمة، فلحقها بجناحه وهو طائر، فمن قوته انقلعت وشرمت جناحه فوقع فأصبح ميتًا، فتوهم وجود جذب الحربة أنه جني!

٤- نواويس الموتى

ومنهم من يكون أقوى في وهمه من غيره لتفاوتهم، ومثل ذلك في المخاطرة على دخول الأماكن المخيفة في الليل، وبغرب الأقصرين شامة وطامة من عمائر الجاهلية الأوائل وأهل البرابي، وبهما نواويس أموات وهم صحاح.

ورأيت منهم جملة وهم على هيئتهم، وعظامهم بيض وأسنانهم وأظفارهم باقية، وجلودهم على أجسادهم، ولعلّهم كانوا يداوونهم بأدوية فلا تضمحل أجسادهم، وبعضهم يربطونه جميعه، وكذلك يفعلون بالطيور من الغربان وغيرهم من الحيوانات كالقطط وغيرها، ويجعلون بعضهم في قوالب من حجارة مملوءة عسل نحل، فلا يتغيرون لأن العسل لا يتخلله الهواء، والهواء يسرع إلى فساد الأجسام.

٥- المُكفَّـــــن

وحكي عن جماعة كانوا يتعيّنون الفرجة في بلادنا تقاولوا فيمن يروح إلى شامة وطامة ويحضر لهم ميتًا من تلك الأموات، فقال أحدهما: أنا أروح -وربما جعل لمن يروح جُعلاً كالرهان- فلما تقرر ذلك سبقه المراهن له، فأخذ كفنًا ولبسه كما يلبس الميت، وبقي ملقى- أو قال متكئًا- فلما دخل ذلك الذي راهن على أن يحمل الميت وجد ذلك المكفّن، فوضع يده فيه فقام وقبض عليه فلم يضطرب لذلك فتكلم هو وهو فلما لم يجد منه بد أظهر عليه.

الخيالات الفاسدة

ومن الخيالات الفاسدة والوهميات الغالبة ما حكي أن شخصًا كان معروفًا بالكرم، وكان يضيّف الناس ضيافةً عظيمة، لكنه كان يضرب الضيف، فسمع به شخص فقال: والله لا بد لي منه لأعرف حقيقة حاله.

قال: فتوجه إليه كالضيف، فأكرمه وعمل له ضيافة كبيرة تكفي مائة رجل، قال:

فأكلت ولم أقل شيئًا، وبقيت عنده ثلاثة أيام على تلك الحال، ولم يصدر لي منه إلا خيرًا فقلت: يا أخي، الناس يقولون عنك إنك تكرم الضيف وتضربهم، ولي عندك ثلاثة أيام ما رأيتك فعلت إلا خيرًا فأخبرني ما قضيتك؟ فقال: ما لي قضية إلا أن الضيف يجيء إلي فأعمل له مثل ما عملت لك فيقول: ليش هذا كلّه، وبعض هذا يكفي؟ فأعرف أنه نحس بخيل كثير الفضول، فأضربه، فإنه ما له إلا ما يأكله، وأنت لم تفعل شيئًا من ذلك..

قال: فاتفق أنه رقد لينام ولبس في وسطه سراويلي، فهبت الريح فكشفته فقلت له استر، فقام إلى وضربني ضربًا شديدًا حتى لم يبق في مكان -أو كما قال- قال: فبقيت حتى أفقت فقلت له: سألتك بالله ما ذنبي؟ فقال: أنت قلت لي استر، واستر تصحيفه اشتر، وما يشتر إلا الجمل، والجمل تصحيفه حمل، والحمل له قرون، فأنت قلت لي يا قوّاد.

فانظر إلى هذا الخيال المتشعب من الوهم وما رتب عليه من الحكم حتى ضرب الرجل، ولم ينفع إكرامه لوقوع ما حصل لِه من الإهانةِ.

وخيـــال أفســـد

وأفسد من ذلك خيالاً ما حكي أن شخصًا كان له ولد، وكان ذلك الولد فاسد الخيال متشعب الوهم ضعيف العقل، يتخيل خيالات ويفعل بمقتضاها ويهتم لها، فشاب وهو في سن الشبيبة.

فاتفق أن أباه جلس عند جماعة وهو معهم، وأبوه شاب أسود اللحية وهو شيخ أبيض اللحية، فكلم أباه باسم الأبوة فقال الحاضرون: هذا والدك ويسميك بالأبوة؟! فقال: لا والله، إن هو إلاّ ابني. فقالوا: فكيف هذا الشيب؟! فقال لهم: إن له أخلاق توجب ذلك من خيال فاسد والساعة تبصرون.

قال: فغاب ساعة، وحضر وهو قد كشف رأسه ونتف لحيته وقال لوالده: أنت قاعد ساكت وما تبصر ما نزل بنا؟ وجعل يصيح ويغتاظ ووالده ساكت والناس يتعجبون من ذلك ويقولون للولد: ما شأنك؟ ووالده يعلم أن ذلك عن لا شيء. فقال له: إيش قضيتك؟ فقال: حمارة جيراننا ولدت جحشة بلا ذُنُب. فقال له والده: وإذا كان هذا إيش يكون؟ فصاح وفعل بنفسه أفعالاً، ونتف لحيته وقال: وتقول لي هكذا؟

وإذا وحلت الجحشة وطلبوني أساعدهم لا ألقى لها ذُنب أمسكه.

فهذه وإن كانت من نوادر السخف والحمق فقد كان عندنا فقير يخدم ولا يعلم به، كذب وهو مشتغل بالقراءة والأعمال ليس له غير ذلك، وإنما كان يتخيل الشيء في نفسه وبيديه بالقول، وكنا نصدقه لما نعلم من صدقه، فربما توهم أو حدس شيئًا على شخص فيقوله فيعتقد صحة ذلك فيحدث ومع ذلك لم نجد له أصلاً إلا ما تخيله.

وكنا نرسله فيما نحتاجه فيحيل المصلحة في غير الذي طلبناه فيفعله، فإذا قيل له في ذلك يجادل ويحاجج، وكان في نفسه دين، فما قدرنا على صحبته، وتركناه لهذا السبب.

وأعرف من كان لها دكًّا، وكانت تتخيل وقوع الجائز الذي هو في رتبة المستحيل من البعد، لكنها كانت تغضب بسبب ذلك.

وإنما ذكرنا هؤلاء الذين عرفناهم في رتب الوهم للاستدلال على الذين تعبّدوا الأوهام وتخيّلوا المستحيلات واجبات، فوقعوا في حبائل التخيلات واستولى عليهم الوهم وتحكم عليهم الخيال.

وخيالات أكثر فساداً

حتى أن منهم من تخيلوا ربهم على أنواع من الصور المحسوسة؛ إذ الخيال الوهمي لا يتعدى رتبة الحس والمحسوسات، والمدارك الحسيات والفكر الخاليات والوهميات لا تتعدى المحسوسات والأشكال المخلوقات وليس لها طور فوق ذلك.

فلذلك تخيل بعضهم أن الله تعالى في صورة جميلة، وأنه شاب أمرد، وأنه يجلس على العرش، وفي رجله قبقاب من ذهب.

وتخيله بعضهم أنه صورة كبيرة عظيمة، واختلفوا في تخيلاتهم.

وتخيل بعضهم أنه يحل في الأشخاص الذين لهم مناصب كعلي بن أبي طالب وغيره ممن ذكروه- وهذا باب واسع- والذين تخيلوا أنه صورة جميلة وأنه شاب أمرد اشتدت الفتنة وتوسعت حتى رأوا كل شاب جميل بذلك.

كما حكى لي الشيخ جمال الدين بن الشيخ عبد الله -نفع الله تعالى ببركته المسلمين -أنه كانت صورته جميلة في حال شبيبته، وكان أمردًا، وأنه جلس عند

صاحب له يقرأ القرآن، فقام صاحبه وتركه عند الصبيان قال:

وإذا صورة فقير واقف ينظر إلى نظرًا شديدًا فتشوشت لذلك، والشيخ ﷺ فيه طباع الغرب، وهو مغربي الأصل ولا يحتمل مثل هذا قال: وكان معي فقرأ قال: فربما قال له: إيش تطلب؟ أو إيش تحتاج؟ فغضب.

قال: فقال لي أنا أطلبك في السماء وأنت معي في الأرض؟ فظهر عليه معتقده الفاسد، فجعل الفقراء يضربونه، وهو لا ينفك وربما مسكه الشيخ -رحمه الله تعالى- وكسر رأسه وهو يلتذ بذلك ويستحليه ويستلذ به، ولم يخلصوا الشيخ منه إلا لما لم يبق فيه رمق يمسكه به.

وسمعت في ذلك حكايات كثيرة يضيق الوقت عنها، ثم إن هذا الباب وإن كان ثم من يعتقد هذا المعتقد الفاسد بالوهم الذي غلب عليه، فالشيطانية من التزيين للنفوس الخبيثة الملائمة الشهوات الخبيثة ما يول به مع التزيين والتحسين لمن لم يعتقد ذلك، لكن يروا بالشاهد لصورة الحسن في حسن الصورة فيخرجهم ذلك إلى عشق المرد، ويستولي عليهم في شاهدهم الخذلان، ويمكر بهم اللعين مع الشهوات الخفية في الأنفس الخبيثة حتى بقي ذلك في أكثر المتلبسين بالزي.

وحدثني الشيخ عبد العزيز ﷺ عن الشيخ شهاب الدين السهروردي ﷺ أنه قال: ولقد تتبعت هذا الأمر فوجدت الخالي من كل علّة عنده رغوة الشراب، ولو لم يكن شراب لم تكن رغوة لا جرم.

رئي إبليس في المنام وهو يقول: إن لي فيهم لطيفة لما ذكر له أوصاف الصوفية، وهي النظر إلى الشباب، وهذا في حال يرنو من بالشاهد من غير رؤيته؛ لأن الاحتياط أولى.

وقد عرفت فقيرًا كان بعيدًا عن هذا الوهم بعدًا عظيمًا، حتى يكاد يكون الميل في حقه مستحيلاً مع جوازه، ومع ذلك وجد مع طول المدة الميل الذي يحدث منه المفسد.

ولقد تتبعت ذلك في جماعة وأصحاب أعتقدهم بالصلاح والدين والتقوى فرأيت المخالطة للشباب مفسدة، ولذلك اشترطت في وقف الرباط ألاّ يقيم به الشباب المردان الذي يخشى من إقامتهم المفسدة، إلا أن يكون شابًا متوجهًا غائبًا بالاجتهاد في طلبه

عن أحوال العادة، فلا يمنع من مقصده، ويعان على ذلك، ويتولى الشيخ أمره، ولا يجلس الشباب إلا خلف الحلقة، ولا يواجه الناس بوجهه، ولا يخالط أحدًا من الفقراء حتى يلتحي.

نُفُوس خبيثَة

وقد كان الفقيه أبو الطاهر خطيب مصر رجلاً صالحًا، وكان قد اشترى مملوكًا جميلاً بجملة كبيرة، وعلمه القرآن، فلما كبر أراد بيعه فنقص عن قيمته كثير فتعجب الشيخ ذلك، وكان قلب الشيخ أبي الطاهر طاهرًا مما في النفوس الخبيثة من أمر الفاحشة، فجعل الشيخ يقول: اشتريته صغيرًا وعلمته القرآن وعلمته صنعة الشراب، وكبر والتحى فنقص عن ثمنه؟! فعرفه بعض من يدل عليه بالعلة فقال: والله ما اعتقدت أن أحدا فعل ذلك غير قوم لوط.

ولقد حضر عندنا مرة شاب جميل، وكان قد ورد مع خال، فاتفق فصلهما عن بعضهما، وكانا مسافرين إلى الحجاز، فسأل الشاب أن يقيم عندنا حتى يتوجه إلى بلدة مع من يصلح للتوجه معه، فامتنعت من ذلك للشرط الذي اشترطته، ولمعرفتي بأحوال الناس.

وكان أخي الشيخ مجد الدين نفع الله تعالى به ورحم سلفه من أهل الخشية والدين، متقي الله تعالى فقال لي: يا أخي، إذا منعت هذا القعود في هذا المكان فأي مكان يحفظه؟ قلت له: لم يكلفني الله تعالى ذلك، وإنما لنا حفظ أنفسنا ومن عندنا، ونخشى من المفاسد الداخلة علينا، فقال لي: يا أخي، جرى مثل هذا لأصحاب سيدي الشيخ أبي الحسن الصباغ.

المملُوك الحَافي

وذلك أنه ورد عليهم مملوك جميل الصورة من مماليك الملك الصالح، فقال الفقراء: لا يقيم هذا عندنا أصلاً، فقال الشيخ أبو الحسن: إذا لم نحفظه من يحفظه؟ ثم أمر بحلق شعره، وألبسه ثوبًا أزرقًا، وبقي في الخدمة إلى أن سمع به السلطان فسير طلبه، فأرسله له على تلك الحالة، ففرح السلطان بتلك الحالة. فتركت ذلك الشاب وقلت له: يغير زيه فغيره، وبقي حافيًا يملأ الماء مكشوف الرأس بثوب أزرق، وبعد ذلك حصل التشويش بسببه.

الفقير الأعمى

وكان قد ورد علينا فقيرًا أعمى، وقيل أنه مجبوب، فأحب ذلك الشاب، فأخرجت الشاب، وأرسلته إلى أهله مع ثقة وأخرجت الأعمى هذا بعد أشياء.

فقد رأيت بالزاوية من لم أكن أره قبل ذلك اليوم يلازم الزاوية، وخشيت استيلاء المفسدة والفتنة.

الرجلان

وحدثني الشيخ علي خادم الخليل عليه السلام وهو قد عمّر كما ذكر مائة وثلاثة وأربعين سنة، حدثنا من شهر رجب سنة ثمان وسبعمائة أنه لما جاء غازان إلى بلاد الشام فدخل اثنان من بني عمه إلى الجامع يصليان، وأنا جالس، فصلى أحدهما بجانبي الأيمن والآخر من الأيسر، ورموا سراتيجهم، وتخففوا بمناديل معهم.

فقال لي أحدهما: أنت مسلم؟ قلت: نعم فقال:كذبت، ثم قال لي الآخر: أنت مسلم؟ قلت: نعم فقال:كذبت، ثم جلسا وقالا لي: أنت تشوشت من كلامنا؟ قلت: لا قال: كذبت، ثم كلماني فقلت لهما: يا كلاب يا أبناء الكلاب فضحكا وقالا: ما قلنا لك أنت تتشوش قلت: لا مسلمًا يكذب ويحلف كذب، ويزني، لا مسلمًا يشرب خمر، لامسلمًا يعلم قول الله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ ويقول (رجالكم حرث لكم)، ثم أخرج أحدهما عشرين دينارًا فامتنعت، فحلف أنها من شغل يده، وأنهم في الثلاثة أشهر ما يأكلون إلا من كسبِ أيديهم.

مفسَدة صُحبة المُرد

ومفسدة صحبة الشباب المردان من أكبر المفاسد، فليحذر السالك من ذلك، ومن يدعو الناس إلى طريق الله تعالى أن يجمع بين السالكين والشباب في مكان إلا أن تكون له قوة تأييد وحفظ باطن بالقلوب والقلوب بالحراسة الإلهية.

فإياك أيها السالك ثم إياك أن تتكل على طهارة نفسك وخلو ذاتك من الشوائب، فإن للنفوس دقائق خفية تؤثر فيها المخالطة وتسرق الطباع بعضها من بعض، ويرجع إلى العوائد بطول المدة ولا يرجع إلى أقوال من كان مغلوبًا في سيره إلى ربه عز وجل فذلك حكمه في نفسه أنه كامل، قوي بالله، قد أحرق الله تعالى بنور قلبه

نيران شهوات نفسه، وحرق الحجب العادية، واستولى على المملكة الإنسانية لقوة الروحانية، وعاد إلى سلوك الخلق بعد كماله، فتراه يصنع شيئًا، فتعتقد أنت أنك تبعته من غير أن يأمرك به، أو تكون مريدًا له، ففي ذلك مزلات في الطريق وخروج عن قواعد التحقيق.

الاحتيَاط

ولقد كنت مرة أمشي أنا والشيخ أبو الطاهر -رحمة الله تعالى- عليه وهو قد أسن، فاجتزنا على مكان به مغنية، فهرول الشيخ أبو الطاهر فقلت له: وما هرولتك؟ وأين الفقر وما يتوهم المتوهم من العادة؟ فقال: الاحتياط والوقوف مع الشرع أولى.. وكنت إذ ذاك في حال الشبيبة.

والسلوك والذي وقع في هذه المفسدة من الخلق ما لا يحصر عددهم وشملهم البلاء وقطعهم عن السير إلى الله تعالى، والمصيبة العظمى والبلية الكبرى إن أدى ذلك إلى الفاحشة التي سبق لها قوم لوط فأهلكهم الله تعالى بالخسف، ومدائن قوم لوط المخسوف بها الآن في طريق الشام بركة ماء لا يشرب منها ولا وحش ولا ينبت بها شيء.

بِركة سَدوم ومَا حَولَها

وذكر لي فقير عن فقير أنهم كانوا جماعة من الفقراء عند هذه البركة فقال واحد منهم: هذا مكان أصحابنا قال: فخرج حُوت، وجرّه برجله ودخل به في الماء. وهذه البركة اسمها سدوم وما حولها، وكانت سبع مدائن حملها جبريل عليه السلام على خافقه من جناحه حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب فقالوا: من هؤلاء المغضوب عليهم؟ ثم رمى بها وقلبها فبقيت بركة ماء.

وليحفظ نظره؛ فقد جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وخلفه الفضل ابن العباس فجعل يحول بوجهه عنها يمنة ويسرة.

رؤية الأمـرد

وقد اختلفوا في تحريم رؤية الأمرد، أما النظر بشهوة فالتحريم ظاهر لوجود العلة، وأما بغير شهوة فمن قائل بالإباحة ومن قائل بالتحريم، وذكر النواوي التحريم مطلقا

بشهوة وبغير شهوة: ألا ترى إلى تحريم النظر خشية من الوقوع في التحريم؛ لأن ما يتوصل به إلى الحرام فهو حرام، وما لا يتوصل بالواجب إلا به فهو واجب.

وإن كانت علة تحريم النظر خشية المفسدة فالحرة والأمة والأمرد في ذلك سواء، وإن لم يرد في الأَمة شيء ولا في الأمرد شيء؛ لأن العلة تشمل الجميع إن كان التحريم تابع للعلّة.

وإن كان ذلك تعبد لا يعقل معناه وقفنا معه وعند حده وقوله تعالى: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**﴾ [النور:٣٠] حكم عام، ويفهم معنى الغض في قوله تعالى: ﴿**وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ**﴾ [النور:٣٠] ففُهمت العلّة أن البصر داعية إلى فعل الفرْج، فأمر بحفظه.

وقد اتفق أكثر العلماء على أن علّة تحريم النظر كونه داعية إلى الوقوع في الزنا، وفيه معنى خاص، وهو أن النظر يستميل القلوب إلى محاسن الصور الجميلة حتى تحبها وتعشقها وتتهالك عليها وتفنى فيها حتى تهلك، وعلى ذلك جمع كبير يطول ذكرهم، كقيس بن الملوح مجنون ليلى، وعامر، وعودة بن خزام، وثوبة، وجميل، وجماعة لا ينحصرون من العرب وغيرهم.

وكان سبب ذلك النظر- فملكت الصورة الجميلة قلوبهم، والقلوب لا يصح توجيهها ولا ملكها لغير خالقها فوقع التحريم غيرةً على القلوب ألاّ يملكها غير الله تعالى ولا تشتغل بغيره، وهذا معنى لطيف، أو يفهم معنى قوله تعالى: ﴿**لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ**﴾ [الإسراء:٢٢] فكأنه أنزل هذا المحبوب من قلبه منزلة الرب ﷻ الذي لا يصح توجه القلب إلا إليه، ولا يحل فيه غيره فجعل ذلك المحبوب في محل الإله المعبود.

ولذلك قال ابن العلم:

غض ما داعي الهوى إلى النظَرِ   ليسَ مأمونًا على القلبِ البصرُ

وعلى الجملة:

فمن جوَّز رؤية الأَمة والأمرد لغير شهوة فهو متأوّل، وكذلك الأمة والمحرمات من الأنساب والرضاع كذلك، وأمّا مع وجود الشهوة فالتحريم شامل للجميع، فقد روي أن جماعة زنوا بمحارمهم -وليس هذا موضع الكلام فيه- والغض عن الجميع من عدم

الشهوة أولى للمحترز، فإن الغيرة الإلهية سريعة التأثير في المخصوصين.

فقد حكى لي الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- عن أحد المشايخ أنه كانت له مملوكة، وكانت تسكب عليه الماء للوضوء، فنظر إلى ثديها وقد برز، فوضع إصبعه عليه فاسود إصبعه.

وأعرف فقيرًا كانت له زوجة، وكان في وقت الاشتغال غائبًا عن أحوال العادة ولا يجتمع بزوجته، فاتفق أنه ليلة من الليالي جلس معها على فراشها للجبر أو للسُّنة ولم يدنُ منها، وإذا بملك معه آلة وقد رفع الآلة -وهي كهيئة الدبوس- ليضربه بها وصاح فيه صيحة عظيمة وقال له: متى ترجع إلى الله تعالى؟ فقال: الساعة، فحصل له من تلك الصيحة أمر عظيم، فكاد أن ينخلع قلبه، وبقي تلك الليلة كلها لا ترقى له دمعة إلى الصبح.

هذا مع تحقيق الإباحة وطلب الجبر واتباع السُّنة، لكن كان فيما هو أخص من ذلك من عدم الالتفات إلى غير الله تعالى لحظة أو ساعة ولذلك قيل:

طَرفٌ يراكم ويرنو نحوَ غيرِكمُ ... لا التذ يوم اللقا بالفوزِ بالنظر

ومسمعٌ ذو نصيبٍ من حديثِكمُ ... أصمَّهُ اللهَ إن أصغى إلى بشرِ

تفديكم مهجتي يا من أحبُّهمُ ... ليست على قدرِكم لكن على قدري

وحقِّكم لو دعاني عبدُ عبدِكُمُ ... لبيتهُ طائعًا أمشي على بصري

دعَــاء

اللهم وجه كلياتنا إليك، واجمع قلوبنا عليك، ولا تجعل فينا سمعًا لغيرك ولا ملاحظة لسواك في ذرة أو نفس أو لحظة من اللحظات أو ساعة من الساعات أو زمن من الأزمان الفرديات، واستول على جميلة قلوبنا بشهودك، وأشهدنا كل شيء شهدناه بك، واملأ جوارحنا وجوانحنا بحبك، وأقمها وقوها في عبوديتك، وكونها في كل كون بك يا عزيز يا كريم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

شُهود الجمال

ولتعلم يا أخي أن شهود الجمال مستولِ على جذب القلوب بالخاصية، وظهوره في فاعل عندي ثم من منفعل؛ لأن الرتبة تقتضيه، وهو عند من ذكره من الأكابر في

منفعل لهم، والمحاسن والملاحة أنواع بحسب سلطان الجمال، والجمال اسم يعم كل ذلك.

والتفاوت في الملاحة والمحاسن بحسب الاستعداد، حتى ظهر ذلك في الأحجار والنبات والحيوان من كل نوع، وكمل ذلك في الإنسان لكونه خلق في أحسن تقويم، فأخذ حدّه في ذلك، وقبل من المحاسن والملاحة بحسب قوته واستعداده كما قبلت الملاحة والمحاسن من الجمال بحسب قوتها واستعدادها، وشهدها الرائون للصورة بحسب درجاتهم ومشاهدهم وطبقاتهم بحسب استعدادهم ومراتبهم ومقاصدهم ونياتهم وحديثهم المعافى من حيث كل واحد بما وجده، فاختلفت المطالب واتسعت المذاهب وذهب إلى هواه كل ذاهب.

فعُشقت النسوان والمردان، واستولى على قلوبهم الشيطان، ودسّ عليهم في مطالبهم دسائس الزور والبهتان؛ لأن الشاهد بحقائق الجمال والفائت عن الصور والأشكال عزيز في كل زمان وفريد في كل أوان، فزعم من زعم من أهل التدليس أنه ما لاحظ إلا ذاك المحل النفيس ولم يدر أن ذلك من غرور اللعين إبليس، حتى إذا صار في حبائل الشيطان واستولى على قلبه كان المردان أعز من الرحمن، ووافق في عشقه الشيطان.

العادة من أجناد الله

ولم يزل به الشيطان من رتبة أعلى إلى أدنى، ثم من أدنى إلى أدنى ومن أدنى إلى أدنى حتى يوقعه في الفاحشة التي هي أرذل القبائح وأشنع الفضائح، ثم يتعود ذلك حتى تعسر عليه التوبة، لأن العادة جند من أجناد الله تعالى تحجب التوبة.

خاتمة الأشقياء

فإن خطر له خاطر التوبة سوَّف به من حين إلى حين آخر، ومن وقت إلى وقت آخر، ومن زمن إلى زمن آخر حتى يستحكم الفساد ويظهر العناد ويغضب رب الأرباب، فيسوَد باطن القلب والعياذ بالله تعالى، فلا تؤثر فيه المواعظ، ولا يجعل بقائم في ذلك ولا قاعد، فعند ذلك يخاف عليه من الختم والطابع التي بها يكون بها خاتمة الأشقياء- أعاذنا الله تعالى وإياكم من ذلك.

خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ

فإن استدام ولم ينخلع انخلاع الثوب عن الجسم والجسم عن الأخ، ويلجأ إلى الله تعالى بصحة الاضطرار والاستعانة آناء الليل وأطراف النهار وإلا استمر القلب على ظلمته وعمي عن الرؤية للهدى وتبدل عن البصيرة بالعمى، فطبع عليه وختم له بما سبق في العلم ومات عن ذلك ويبعث عليه.

أعاذنا الله تعالى وإياكم من منازل الأشقياء وجنبنا وإياكم موارد سوء القضاء، وأحلنا بكرمه منازل الأتقياء وخلاصة الأولياء، وجعلنا ممن اختصته محبته فلا يجد لقلبه عن ذلك محيصًا ولا مردًا ولا سبيلاً، وكان لنا وعلينا حفيظًا ووكيلاً إنه الكريم وحده، وصلى الله عليه وسلم.

فليحذر السالك هدانا الله تعالى وإياه من هذه الشبائك، والاحتراز بالكلية أولى من أن ينظر في التحليل ولا في التحريم ولا في التأخير ولا في التقديم، وليقطع حبل الشيطان من أول الحال، ولا ينظر إلى ماض ولا إلى استقبال؛ فإن هذه الفتنة قد كثرت في هذا الزمان، وكان ارتكابها عندهم شديد ثم هان، حتى أن الناس ينظرونهم يزيّنونهم أشد من زينة النسوان، ويلبسونهم أحسن الملابس من الثياب الحسان، ويتغالون فيما يباع منهم بجزيل الأثمان، ولا ينكر على ذلك منكر ولا يغضب لله تعالى مقبل ولا مدبر.

لا جرم قد تولى البلاء واشتد الابتلاء، وكثرت المطالب وبعدت الغنائم وتقترت الأرزاق، واستولى عليها المحاق، وبلغت النفوس إلى التراق، وصار كل واحد مشغول بنفسه، وغائب في يومه عمّا جرى في أمسه، وإذا كثر الزنا وقع القحط وقلت الأرزاق وكثر موت الفجأة، وقد ظهر ذلك، ونخشى والعياذ بالله الموت على ذلك.

اللهم إنّا نسألك التوبة فتب علينا حتى نتوب، وأرجعنا إليك حتى نرجع ونئوب، واستعملنا فيما تحب حتى لا نحب إلا ما تحب، وأردنا بما تريد حتى لا نريد إلا ما تريد، إنك حميد مجيد وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وقد قلت:

لا كانَ من يهوى بغيرِ هواكَا ... كلاَّ ولا قلبٌ يحبُّ سواكَا

حاشا جمالُك أن يكونَ لعاشقٍ ... يعتاضُ ما يعتاضُه إلاكَ

فـــالكونُ أجمـــعُ والوجـــودُ بأســـرِهِ يهـوى الهـوَى وكـذا الهـوَى يهـواكَ
والعشـقُ أصـبحَ فيـك يُعشـقُ كلُّـه مـا كـان يعشـق عشـقَه لـولاكَ
كيـــف التصـــبُّر في هـــواك لمغـــرمٍ هـــا قلبُـــه وفـــؤادُه مأواكَـــا
بي علَّـــــةٌ مقروحـــــةٌ وصـــــبابةٌ لا تنطفـــــي إلا يـــــومَ لقَـــــاك
فعسـاك تُجلـيَ مـا بقلـبيَ مـن أسَـى ممَّـا بهـا يـا سـيدي وعسـاكَا
قلـــبي يلـــذُّ بكـــلِّ مـــا تختـــارُه إلا جفـاكَ فـلا أُطيـقُ جفـاكَ
أدنيتـــــني حـــــتى إذا تيمتَـــــني أقصـــيتَني وتـــركتَني بضـــناكَا
مـا كنـتُ أهـلاً أن أكـونَ لعبـدِ مَـن يَهـــواكَ عبـــدٌ كيـــف لي بهـــواكَ
حاشـاك مـن أنـسٍ يبـدَّلُ وحشـةً يـا سـيدي ومـن الجفَـا حاشَـاكَ
عد بالوصال ولو على سِنةِ الكرَى فلعلَّـــني عنـــد الكـــرَى ألقاكَـــا
ومـتى المنـام بطـرَف صـبٍّ سـاهرٍ إن لم يـــرَ في نومِـــه رؤياكَـــا
فبحـــقِّ عـــزِّ العـــزِّ في ذلِّي لكـــم وبحـق فقـري في الهـوَى لغنـاكَ
إلا رضيتَ وجدتَ عفوًا بالوصالِ وجعلـــتُ قلـــبي تابعًـــا لرضـــاكَا
فبقلـــبِ قلـــبي كـــلُّ يـــومٍ حســـرةٌ يخشـــى الـــذي في قلبِـــه يخشـــاكَ
إن وجـدوا شـركًا لغـيرِك في الـورَى إني وحقِّـــك لا أرى إشـــراكَا
وبعـين قلـبي أنـت يـا كـلَّ المـنى حيـث التفـتُّ أو اتجهـتُ أراكَـا

اللهم صن قلوبنا من محبة غيرك وجوارحنا من مخالفة أمرك وافن جملتنا في محبتك وحببنا لقربك وأشهدنا بإشهادك جميل صفاتك وحقائق ذاتك يا كريم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

سِـــقامُ الغـــرامِ شـــفا المـــرضَ وحبُّـــك لي في الهـــوى معـــترض

وكـــلٌّ لـــهُ غـــرضٌ في الهـــوَى ولا لي في غـــيرِكم مـــن غـــرض
أقـــول لمـــن جـــاءني ســـائلاً يـــومَ عهـــودًا لهـــا قـــد نقـــض
أيـــا مـــن تعـــوض في حبِّـــه فبـــالله قـــل لي بمـــن ذا العَـــوض
تقيـــدت للـــوهمِ في سَـــيره ووهنُـــك في ســـيره قـــد ركَـــض
فالجـــأ إلى الله ســـبحانَه لســـبط الـــذي عـــن كفـــاه قـــيض
وجـــرِّد بســـيفِ التُّقـــى صـــارمًا واقطـــع بـــه الـــوهم إن اعـــترض
وارفـــض ســـوى الله حقًّـــا فمَـــا يخيـــبُ الَّـــذي لســـواه رفـــض

دُعَـــاء

اللهم إنا نعوذ بك من حلول البلاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء وموت الفجأة، ووقوع الملامة ومحل الندامة، ونسألك وجود السلامة ودار المقامة والفوز برؤيتك والنجاة من كل ما يبعدنا عنك أو يحجبنا دونك، والغيبة بالشوق إليك والمحبة فيك عن كل عقاب وعذاب وحساب في الدنيا والآخرة، وأنزلنا منازل الكرامة بالمحبة منك في كل المنازل مع صحة القصد وشهود الحق وبلوغ الأماني وغرف الأمان وأعالي الجنان والروح والريحان إنك الكريم المنان.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

المَوت والحيـاة

واعلم أن الموت والحياة من الأوصاف اللازمة للإنسان، يتعاقبان عليه تعاقب الليل والنهار، فباطن هذا ظاهر هذا وظاهر هذا باطن هذا، فالموت باطن الحياة والليل باطن النهار، فالنهار كالحياة للحركة والمعاش والاكتساب للحسنات أو السيئات، والموت كالليل للسكون والخمود والمنام قال الله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً**﴾ [النبأ: ١٠، ١١].

وقال جلَّ من قائل سبحانه:

﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهَ والنَّهَارَ مُبْصِراً**﴾ [يونس: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ [الملك: ٢].

أسْرَار ربَّانيـة

وكما أن النوم في الليل برزخ بين اليقظة واليقظة فكذلك الموت برزخ بين الدنيا والآخرة، وإن كان القبر أول منازل الآخرة لكنه في السير لا في الاستقرار، لأنه آخر منازل الدنيا ولا عود إليها، والبرازخ كثير لا نهاية لها، لأن حقيقة البرزخ هو الحد المانع من نفي الشيء على الشيء، وهو حد معنوي قال الله تعالى: ﴿**مَرَجَ البَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ**﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠]، وإن كان مرج خلط- فانظر إلى لطافة الماءِ ورقته وهذا البرزخ المانع من وجوده في غيره من نوعه من الماء أو جنسه، وكذلك الحد الذي بين سواد العين وبياضها، فبين كل شيء من المحسوسات والمعقولات برازخ تمنع أن يبغي هذا على هذا حكم إلهية وأسرار ربانية يعجز الفكر والعقول عن إدراكها مع كونها يعقل وجودها ونؤمن بحقائقها.

البـــرزَخ(١)

وبين كل شيء موجود في الدنيا والآخرة برزخ، والبرازخ علوم وأحكام وحقائق وأطوار وعوالم ومشاهد ومواجيد وأذواق.

والبرزخ الذي نحن بسببيله وصائرون إليه وهو الحد بين الدنيا والآخرة بعد تجرع

(١) الحياة في البرزخ؛ فإن للميت هناك حياة لائقة به مع سمع وإبصار وكلام كل ذلك بحسب المقام البرزخي، وسينكشف لك الأمر بعد الانتقال بالموت، وليتك كنت من قوم قيل فيهم: المؤمنون لا يموتون؛ بل يُنقلون من دار إلى دار، فإنه أفاد أن المؤمن الكامل؛ وهو الحي بحياة الإيمان والعرفان؛ كالمنتقل من دار إلى دار في هذه النشأة، فكما أن انتقاله ذلك لا ينافي حياته؛ فكذا انتقاله بالموت.
فالموت عبارة عن مفارقة الروح الإنساني عن البدن، وعبَّر عنها بالذوق في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء:٣٥].
لِما أن الروح الحيواني لا يخلوا عن إحساس الألم وقت الانتقال، وتلك المفارقة لا تقتضي الموت بالكلية؛ فإن الروح حيٌ قائم بنفسه، محي للبدن الدنيوي أو البرزخي الذي هو على صورة عمله، فاعلم ذلك.

كأس الموت الذي لا بد منه ولا محيد عنه، قد جرعها الأوائل والأواخر وأصحاب الكشوف والسرائر والبواطن والظواهر، ولم ينجُ من الموت ملك ولا شيطان ولا عبد ولا سلطان ولا الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون.

حَكم الله تعالى به على جميع العباد ونفذ فيهم من حكمه ما أراد وجعل ميعادهم إلى يوم المعاد، فهم في برزخ إلى يوم يبعثون، ويجازون فيه بما يعملون، فأما هول المطلع فهو أمر يهول، يذل فيه الفحول وتذهل لفجأته العقول، مشهده عظيم وخطبه جسيم أعظم من أن يذكر وأشد مما به عنه.

وقد ذكر منه أحد المحتضرين ما ذكر مما يطول فيه الشرح، ويعجز عنه الصبر، ولا يقدره حق القدر، ولا يكفي في ذلك ما ذكر عن آدم ونوح عليهما السلام وما بينهما من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وكذلك إبراهيم الخليل مع مقامه الجليل، وما ذكر عن موسى عليه السلام في ضربه ملك الموت.

وقد ذكرنا ما حضرنا من الاعتذار عن موسى عليه السلام في ضربه ملك الموت.

وفي وفاة سيد المرسلين من الأولين والآخرين كفاية، وقوله ﷺ: **«واكرباه[(١)]»** وقول فاطمة «واكرباه لكربك يا أبتاه» فقال لها: **«لا كرب على أبيك بعد اليوم[(٢)]»** وفي ذلك عبرة لمن اعتبر، ومزدجر لمن ازدجر، وقطع الإياس من الحياة والصبر على ما لا بد لك منه من الممات، والتهيؤ لذلك قبل حلوله، والإصلاح للمنزل قبل نزوله.

وجاءت سكرة الموت بالحق

فليس في أمره ترخيص ولا لك بعد حلوله محيص، لا يقبل الرشا ولا يأخذ الفدا، ولا يرحم الأطفال ولا يرثى لبكاء العيال، لا ينجو منه القوى ولا الضعيف ولا المشروف ولا الشريف.

قد قصم بسطوته ظهور الجبابرة وقصر آمال القياصرة، وساوى بين الملك والمملوك والغني والصعلوك والعبيد والأحرار والأبرار والأشرار، وهو أمر محتوم ولا وقت له معلوم.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣/١٤١).
(٢) رواه ابن حبان (١٤/٥٩٢).

إن بسطت أملك إلى يوم أو نصف يوم، فقد مات ابن ساعة ونصف ساعة، وإن بسطته إلى جمعة فقد مات ابن يوم، وإن بسطته إلى شهر فقد مات ابن جمعة، وإن بسطته إلى سنة فقد مات ابن شهر، وإن بسطته إلى عشر سنين فقد مات ابن سنة، وإن بسطته إلى عشرين فقد مات ابن سنتين، وإن بسطته إلى خمسين فقد مات ابن خمس سنين وإن بسطته إلى شيء من السنين فقد مات ابن عشرين وثلاث وثلاثين وأربع وأربعين وخمس وخمسين.

ولم يكن واحد منهم له أمان في زمن من الأزمان ولا حال من الأحوال، ولا ينفع فيه قول ولا قال، ينزل على رغم الأنوف ويأخذ الخائف والمخوف والمجهول والمعروف، فيفرّق بين الأرواح والأجساد والأمهات والأولاد والوالد والمولود والحكام والشهود والمنحوس والمبعود.

كم خرب من القصور وعمّر من القبور، وكم أهلك من القرون وأبكى من العيون.

لا تمنعه الحصون ولا القلاع ولا الجيوش والأتباع ولا ملك مطاع، كم أنزل من ملك عن سريره إلى ظلمة خفيرة من بعد السعة والمهود إلى ضيق اللحود، ومن تنعيم الأجساد والخدود إلى الصديد والدود.

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ

فكم من معشوق الجمال ومحبوب الفعّال وفاتن وفاتنة ومصون وصائنة قد غيرت محاسنهم بالتراب، وزال عنهم الشيبة والشباب، وتمزقت الجلود وسالت منهم العيون على الخدود وغاب في تلك الأجساد الناعمة الدود.

يخاف كل واحد منهم من يراه وينفر عنه من يهواه، قد بدل ذلك الطيب بأنتن الريح، وامتلأ من صديدهم وديدانهم الضريح، وضاق بهم المجال الفسيح.

قد تقلعت أوصالهم وتمزقت جلودهم وهُشمت عظامهم وأكل تراثهم وتفرق ميراثهم ونكحت زوجاتهم واندرست أسماؤهم وآثارهم.

وامتزجوا بالتراب وسلا حديثهم الأهلون والأحباب، ودخلوا في خبر كان ومضت عليهم السنون والأزمان.

وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى

فإن كانت أعمالهم صالحة فهم بها يذكرون وعليها يشكرون وينعمون، وإن كانت قبيحة فهم بها يذمّون وعليها يعاقبون، يذكرها في أسمارهم السمّار وينظم بها في التواريخ الأشعار، هذا بعد ما عاينوه من هول المطلع من المخاوف والفزع.

أحوال الموتى

أما الأمر الأفظع، فإن ملك الموت عليه السلام يتجلى لكل واحد عند انقضاء أجله على صورة عمله، فإن ذاته قابلة للتصوير وصفته متصفة بالتغيير ولا يقبل عند فروغ الأجل التقديم ولا التأخير.

يشهده كل محتضر كرؤية الشمس للأبصار بشهود أوضح من النهار، فإن الدائرة الدنيوية مع اتساع حدها وقربها في البلاد وبعدها يشهد الجميع الشمس واحدة، لا ناقصةً ولا زائدة.

وملك الموت لا تبعد عنه المسافات، ورفاقته منبثة في الأرضين والسماوات، يتجلى لصور المخلوقات على أنواع من الصفات بما يقتضيه أوصاف التجليات بحسب أخلاق الأعمال، وتحول الأحوال حتى في التنزل إلى رتبة الأطفال.

وأعوانه على تلك الأشباح قائمون، وللأرواح من المفاصل والعروق يجذبون، وفي سائر أعماق الجسد منبثون، وله حربة متشعبة الرقائق، وشربة مريرة المذاق معدة لقبض أرواح أقوام من الأنام، وريح طيبة لمن اختصه الله من الأنام.

والمحتضر يعالج تلك السكرات ويتخوّض تلك الغمرات والناس له ينظرون وهم بحاله لا يعلمون، ومنهم من يود لو ضرب ألف ضربة بالسيف -كما ذكر عن أحد المحتضرين من المحسنين- ومنهم من يقول: اجذب نفسي، كأن كل عرق من عروقي علق في أصل شوك وجذبه شديد الجذب، فقطع منه ما قطع وأبقى ما أبقى.

وآخر يقول: فوجدت الموت كسفود في صُوف.

وقد ذكر عن بعض المحتضرين أنواع من الكلام بحسب وجداهم مع أحسابهم.

وأما أرواح الكفار -أعاذنا الله تعالى وإياكم من أقوالهم وأعمالهم وصفاتهم ومجازاتهم مما يعبر عنها لأنهم ما يستطيعون يخبرون عنها- وقد ذكر عن بعضهم أشياء

نذكرها إن شاء الله تعالى في موضعها، وإذا كان هذا مع الإيمان ووجود الإنسان وما ذكره الأنبياء والمرسلون.

ويقول خاتم النبيين «**إن للموت سكرات**[١]» ويذكر الكرب، فما ظنك بما عدا ذلك؟

فإذا استعد الملك للقبض عند فراغ الأجل المحتوم وجاء الوقت المعلوم تجلّى بصورة خاتمة العمل عند انقضاء الأجل عندما تشهده أبصار الأرواح سارعت بالخروج من الأشباح وهي مجذوبة إليه بالتخفيف والتشديد كانجذاب المغناطيس الحديد.

فمن صائرة إليه بأطيب روح وريحان، ومن صائرة إليه بأشد عذاب وخسران، ويقبض روح المؤمن بيمينه ويستبشر برؤيتها عندما يرى ما على جبينه، فيجعلها في حريرة من ورق الجنة، ولا تلبث في كفه ساعة حتى تأخذها ملائكة السماء ويصعدون بها إلى عليين.

وأما روح الكافر فيقبضها بشماله وهي في أنتن ريح، يعرض عنها بوجهه، ويجعلها في مسح أسود، ولا يلبث في كفه ساعة حتى يأخذها ملائكة العذاب ويهبطون بها إلى إلى سجّين وأسفل سافلين.

أعاذنا الله وإياكم من ذلك، قال الله تعالى: ﴿**لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ**﴾ [الأعراف: ٤٠].

ثم يقوم الصياح على الميت من باكٍ وباكية وشاك وشاكية والملَك يقول: ما بالكم؟ والله ما قطعت لأحد منكم رزقًا ولا نقصت له، وإن لي فيكم لعودة ثم عودة ثم عودة.

فلو كانوا يسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على أنفسهم، حتى إذا جهزوه وحمل على سريره، فإن كانت روح مؤمنة قالت: عجّلوا بي عجّلوا بي، وإن كانت غير ذلك قالت: يا ويحها، أين تذهبون بها؟

وقد ورد في التعجيل بالميت: «**فإن كان خيرًا تقدموه إليه، وإن كان شرًا**

(١) رواه البخاري (٤/١٦١٦).

تضعوه عن رقابكم[١]**»**. حتى إذا ألحد في قبره واجتمع خيره وشره وودعه المودعون وانصرف عنه المنصرفون قال: يا ليتني كنت مع المنصرفين، فيتقدم له الملكان، فيعدانه ويسألانه عن ربه ونبيه ودينه، وما كان يعتقد في محمد ﷺ، فإن كان من المؤمنين لقن حجته ووحد ربه وشهد ربه بالرسالة، وذكر ما كان عليه الإسلام فيقال له: نم في قبرك كالعروس، على الحق كنت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله، ثم يفتح له إلى الجنة بابًا يشهد منه الجنة.

وإن كان غير ذلك فيقول: لا أدري -كما ورد- فيقال له: لا دريت على الشك كنت وعلى الشك مت وعلى الشك تبعث، ثم يفتح له إلى النار بابًا يجد به ما يجد، ثم يضرب بمرزبة.

وفي الحديث: « ثم يكونون -أعني الناس- في البرزخ على طبقاتهم بحسب أعمالهم ومعتقداتهم».

وورد أن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه، فإذا قالت: وارجُلاه واكذا واكذا أخذ بناصيته ويقال له أنت كذا؟ ولعل ذلك مما كان يختاره الميت كما كانت الجاهلية يفعلون.

والأحاديث في تعذيب الميت ببكاء أهله عليه صحيحة.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾ [الإسراء:١٥] لا يناقض الحديث، إذا كان ذلك في نية الميت وقصده وأمرهم به، فيعذب بذلك القصد.

كرامات الموتى

ومن ظهر عليه عند موته وقبض روحه علامات السعادة كثير، ومن تكلم بعد موته كثير، ومن ظهر عليه عند غسله جماعة يطول ذكرهم وعددهم، قد ذكرهم المتقدمون في كتبهم.

وكذلك تظهر حالة الكآبة وسواد الوجه وزرقة الأعين، وهي علامة ردية أعاذنا الله وإياكم من ذلك.

---

(١) رواه الترمذي (٣/٣٣٥).

ومنهم من يظهر عليه أثر السرور والابتسام وبياض الوجه تلك علامة السعادة لقوله تعالى: ﴿**وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أَوْلَئِكَ هُمُ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ**﴾ [عبس:٣٨/٤٢].

ومنهم من خلل لحيته لما تركه المغسل، ومنهم من وضع يده على عورته فسترها، ومنهم من جلس وتكلم ورجع إلى ما كان عليه.

حكاية الشيخ أمين الدين

وقد ذكرنا حكاية الشيخ أمين الدين جبريل من أصحاب الشيخ أبي يحيى، أخبرني القاضي بهاء الدين بن الصاحب شرف الدين بن الفائزي -رحمه الله تعالى- أن الشيخ أمين الدين مات معهم في الطريق قبل دخول القاهرة، فلما وصلنا إلى الباب وهم يمنعون الميت أن يدخل المدينة، رفع الشيخ أصبعه ويده فدخلنا.

وحكى لي فقير أنهم كانوا جماعة من الفقراء قالوا: سمعنا أن الوالي بعكّا يكرم الفقراء، فجئنا إليه، فلما فرغ مما هو فيه قال ادخلوا، فأدخلنا إلى دار له، ثم فتح سردابًا وقال: انزلوا، فخشينا على أنفسنا ثم نزلنا وتوكلنا على الله تعالى، فوجدنا مكانًا طيبًا وفيه الماء ولكنه للعبادة، فلما نزل معنا نزع ثياب الولاية ولبس ثياب الفقراء وقال: يا فقراء، أنا منكم وأنا على دينكم.. فقلنا له: ما السبب لذلك؟ فقال: كان قد حصل لنا خراب مع السلطان الملك الظاهر، وقُتل منا جماعة ومنهم، فخرجت فوجدت رجلاً عظيمًا مقتولاً، فقطعت رأسه وأخذتها على قربوص سرجي وقلت: أما تقولون إنكم أحياء عند ربكم ترزقون؟ فتكلمت الرأس وقالت: نعم أو قرأت القرآن الآية، فأسلمت من وقتي، ورجعت فدفنت الرجل والرأس معه، وبقيت على هذه الحالة.

-وربما ذكرنا هذه الحكاية على غير هذه الصورة-

وحكى لي زين الدين البوشي عن الفقيه عبد الرحمن النويري رضي الله عنه أنه لما كانوا في المنصورة وأسروا المسلمين وكان الفقيه عبد الرحمن النويري يقرأ القرآن فتلى ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ [آل عمران: ١٦٩].

فلما قتل الفقيه عبد الرحمن حضر أحد الفرنج وفي يده حربة فلكزه بها، وقال: قسيس المسلمين أنت، تقول قال ربك إنكم أحياء عند ربكم ترزقون، أين هو؟ فرفع

الفقيه رأسه وقال حيٌّ ورب الكعبة، قالها مرتين، فنزل الفرنجي عن فرسه وجعل يقبل وجهه، وأمر غلامه بحمله معه إلى بلده.

وذكر عن الفقيه عبد الغفار البهنسي عن ابن الأزرق أحد مشايخ طنبدي[١] أنه دخل إلى بلاد الفرنج وأنه وجد الكندي فأحضره معه إلى منزله وقال له: لي إليك حاجة، وغلق الباب وأنزله إلى سرداب، فوجد مرقعة الشيخ معلقة وقبره في السرداب وقال له: هذا قبر عبد الرحمن النويري.

وقد ذكرنا حكاية الشيخ حسين النجار السعرتي بالرواية الصحيحة وحكايات جماعة يطول شرحهم، وأتممنا الغرض فيمن سمعنا عنه في زماننا.

ورأيت الفقيه نجم الدين بن ناشيء على سرير غسله متبسمًا صفة المستبشر، وسمعت الشيخ أبا الظاهر إسماعيل عند احتضاره وهو يقول: أين أصحابي؟ والله لا رضيت لهم إلا بالفردوس الأعلى، ثم ذكر شيخه أبا يحيى فقال أبو يحيى: أنا صاحبك في الدنيا والآخرة.

وقد ذكرنا الشاب الذي وجده الشيخ أبو علي الروذبادي على المزبلة وكونه ألحده وشق الكفن عن وجهه وجعل خده على التراب ليرحم الله غربته قال: ففتح عينيه وقال لي أتذللني بين يدى من ذللني؟ لا نصرتك غدًا بجاهي يا روزبادي.. فقلت: يا سيدي أحياة بعد الموت؟ فقال: وأين الموت؟ أنا محب لله تعالى فهو حي.

وأما الأنبياء والمرسلون فالملك لا يقبض رُوح كل أحد منهم إلا بإذنه صلوات الله تعالى عليهم وسلامه.

وفيما اتفق لكل واحد منهم عند وفاته صلوات الله تعالى عليهم وسلامه يحتاج إلى كتاب مفرد لذلك وما تحته من المعاني والأسرار، وما أكرمهم الله تعالى به، ويليهم الأولياء بطريق الميراث.

ولما دخل ملك الموت على نبينا محمد ﷺ فقال له: زائرٌ أم قابض؟ فقال: زائر وإن شئت فقابض .

أحوال القبر وعذابه

وأما أحوال القبر وما فيه من الغرائب والعجائب وعذاب أهل القبر فقد ورد في

---

(١) اسم قرية من قرى مصر.

الحديث وهو مذكور، وحديث عائشة وقول النبي ﷺ:

«يهود تُعذب في قبرها[(١)]».

والاستعاذة من فتنة القبر، وفي حديث اليدين، وفي قناني القبر وهما المنكر والنكير وصفات خلقهما وتصورهما على أنواع من الصور المفزعة، وأنهما ليعذبان وما يعذبان في كبيرة، وتارة الفتنة وتارة الإخبار وتارة الامتحان، وهما على الصورة التي ورد فيها الحديث، وذلك هو الغالب على صورتهما؛ إذ الغالب على أكثر الناس فتح الصفات، فهما يتصفان بصفات العبد من الحسن والقبيح، وكل مسئول يسألانه فهو امتحان لعقيدته وفتنة في حاله.

وأما من كان على بينة من ربه وولاية من عنده وشهادة في موته قبل موته عليه حكم يظهران له به، وقد ذكر جماعة عن أنفسهم قبل موتهم أنهم كانوا إذا سألوهم يسألونهما، فمنهم من قال له: من ربك؟ فقال: ومن ربكما أنتما؟ وكل ذلك من قوة اليقين والتثبت من الله تعالى فلا يخافون غيره.

وحدثني الشيخ بهاء الدين الأخميمي -رحمه الله تعالى- أنه كان للشيخ أبي يزيد مريدًا يحمل فروته -وكان مغربيًا- فذكر له منكرًا ونكيرًا وسؤالهما فقال: إذا سألاني لأجبتهما، فقال له: ومن أين لنا أنك تكلمهما؟ فقال: اقعدوا على قبري تسمعوا فتوتي، فقعدوا عند قبره فسمعوا سؤال الملكين له فقال لهما: أتسألاني وقد حملت فروة أبي يزيد على عنقي؟

وقد ذكرنا هذه الحكاية في غير هذا الموضع لما اقتضاه ذلك الموطن.

وسمعت مرة صيحة من قبر بالأقصرين بظاهرها بمقبرة تحت مسجد كنت آوي إليه، وهي صرخة تروّع، فكاد عقلي يبرز من شدة تلك الروعة حتى ثبت الله تعالى قلبي، وبلغني أنها عن شخص سمع شخصًا يعذب وقد أخرجوه من قبره ثم ردوه إليه.

وحدثني فقير عن شخص أنه أراد أن يفعل فاحشة مع شاب في تربة بالقرافة، فقال له ذلك الشاب: والله ما غضبت الله تعالى ها هنا أبدًا، لأنني كنت مرة فعلت

---

(١) رواه البخاري (٤٣٣/١)، ومسلم (٦٤٣/٢) بنحوه.

ذلك فانشق القبر وقال الميت: ما تستحيوا من الله تعالى؟

وفي حكاية صالح المري رضي الله عنه أنه مرّ بمقبرة وإذا شخص يُضرب فاشتعل القبر نارًا، وهو يقول علام تضربوني أو علام تعذبوني؟ وقائل يقول له: مرّ بك مظلوم فاستغاث بك فلم تغثه، فهذا حال الذي لم يغث المظلوم، فكيف حال الظالم؟

ولعل ذلك الرجل كان قادرا على إغاثته فلم يغثه والله أعلم إذا ما كان عاجزًا فليس عليه إلا القول، فإن ترك القول فهو في مرتبة أضعف .

وأخبرني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى- أنه رأى إنسانًا من أهل النار ورأسه قدر الجميزة العظيمة.

وحدثني القاضي نجم الدين بن الفقيه نصر أنه رآه في نومه بعد مماته في قاعة طيبة وفي أعلى القاعة شاب جميل الصورة فقلت له: يا عمي، كيف وجدت الموت والقبر؟ فقال: والله يا ابن أخي ما دريت بروحي إلا وأنا هنا. فقلت له: ما حال منكر ونكير؟ فقال لي: ما رأيتهما، إلا أني سمعت حسهما فحال هذا الشاب بيني وبينهما وقال لهما: أما تعلمان أنه كان يقرأ القرآن؟ فيقولان: نعم، فيقول لهما: فلا تسألاه.

فلما طال ذلك أجرى الله تعالى على لساني أن أقرأ: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيم**﴾ [آل عمران:١٨] فتركاني ومضيا.

فقلت له: فكيف رأيت هؤلاء الأموات؟ فقال: جاءت أرواح المؤمنين سلّمت علي، وجاءني عمي فتح الدين -أو جلال الدين الله أعلم- وقعد على طرف الإفريز فقال لي: إي والله يا سيدي، أنت ما يسألك أحد وغيرك في كذا وكذا، وقام عَجِلا فقلت لهذا الشاب: ما بال عمي فتح الدين ما قعد؟ فقال لي: عليه الترسيم، فقلت: لماذا؟ فقال: إنه شهد شهادة هو وابن الأكوع حي فهو في الترسيم حتى يموت ابن الأكوع ويؤدّوا الشهادة بين يدي الله تعالى.

وحدثني الشيخ عبد العزيز بن عبد الغني المنوفي -رحمه الله تعالى-قال: كان الرشيد بن الحارة صاحبي وهو فقير، فلما توفي رأيته في المنام فسألته عن الموت فقال لي: ما وجدت له وحشة إلا ما يكون يمشي مع واحد في طريق ويفارقه فقلت: وكيف رأيت

الألم؟ فقال: ما وجدت ألما، إلا لما كانوا يمشون كان في النعش مسمار لحقني في جنبي فقلت له: فكيف وجدت القبور روضة أو حفرة؟ فقال: ما وجدت هذا ولا هذا فقلت له: لا بد من أحد الأمرين؛ لأن رسول الله ﷺ أخبر بذلك ولا بد منه.

فقال: يا شيخ عبد العزيز، ما يعلم حكم الله تعالى حقيقة إلا النبي ﷺ، ولم يقل أنه إذا نزل القبر يكون القبر روضة أنه يدخل الجنة ولا يكون حفرة أنه يدخل النار، وإنما إذا أنزل المؤمن القبر تأتيه البشارة بما هو صائر إليه من الجنة فتكون تلك البشارة روضة، وإذا مات المنافق أو الكافر كما قال تأتيه البشارة بما هو صائر إليه من الشر فتكون تلك البشارة حفرة.

وكنت أعرف فقيرًا يسمى حسن كان يصحب الشيخ عبد العزيز، فلما مات أخبرني الشيخ عبد العزيز أنه رآه بعد وفاته في النوم فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: أوقفني بين يديه، فما رجحت حسناتي على سيئاتي فقلت له: بماذا؟ فقال: غفر الله لي ورحمني وتفضّل علي، وأنا مغبون.

فقلت له: يغفر الله لك ويرحمك ويتفضّل عليك وتقول إنك مغبون؟! فقال: يا شيخ عبد العزيز، حكم الله تعالى ما يعرفه حقيقة إلا الأموات.

ثم أخذ بيدي وأتى بي إلى خياط وقال لي: هذا الخياط أنا أدفع له ثوبي يخيطها فقلت له نعم، فقال: والله إن كان ما معي شيء يعطيه الله تعالى من عنده، وإن كان معي شيء ما يعطيه إلا من حسناتي، وحسنة من حسناتي خيرٌ من الدنيا وما فيها، وأشار بإصبعه إلى وراء جبل قاف.

ورأيت جماعة من الأموات يطول ذكرهم على أنواع من الأحوال مختلفة، منهم من كان يظن به الخير ويرجى له عند الله تعالى الزلفى من العلماء وغير العلماء، فرأيت مرّة رجلاً من أهل العلم أيضًا، وكان قد جرى بينه وبين قرابة له حكومة في أمر ساقية، فرأيت الذي كانت بيده مسوح طيلسانه في تلك الساقية بعد موته، ورأيت الحاكم الذي حكم بينهما في تشويش.

ورأيت مرة رجلاً من العلماء بعد موته، وسألت عن حالته فقيل: إنهم جرّسوه وعملوا على وجهه النقطات، ولم أعرف هذه التسمية وإنما فهمت أنه شيء مما يشوه به

من يفعل به ذلك كالتجريس في الدنيا وما يعمل على الوجه من العنتريس وغيره.

ورأيت شخصًا آخر من الحكام وهو في شدة، ورأيت شاهدًا وكان يظن به خيرًا وسألته عن حاله فقال: أوقفت بين يدى الصليب، ووكل بي قوم فصاروا الزبانية فيها طوال وقصار يرون على صفة تناسب حال المعذب بهم أعاذنا الله وإياكم من ذلك كله.

وقد رأيت أحوالاً مختلفة في الأموات يطول ذكرها، ومنهم من يكون في شر ثم يعود إلى خير كما ذكرناه أنه كان لي صاحب في المكتب ورأيته بعد موته وهو في موضع فرن وبين يديه كلب أسود أحمر العينين طويل الشعر وهو يتألم من رؤيته ويتضاءل ويتضاعف.

فقمت إلى الكلب وطردته عنه ثم جئته وجلست إليه، فعاود الكلب ووقف قدّامه، ثم قمت إليه، ففعلت ذلك مرارًا ويعود إلى أن كلمني الكلب وانتهرني وقال: أنا أطلبه- وربما قال ولا أقدر أن أفارقه- فانتبهت مرعوبًا.

فقلت لصاحب له فقير -وكان يصحبه أكثر مني-: إن صاحبنا في شدّة وعرفته الصورة فقال: وإيش تعمل؟ فقلت ما نفارق قبره حتى يخلصه الله تعالى، ثم إنّا كنا نمشي إلى الجبانة وهي بمكان بعيد فنجلس على قبره فنذكر الله تعالى ونقرأ، والحالة لا يعرفها غيرنا.

فلما كان بعد مدة رأيته في الرؤيا وهو في حالة حسنة فقلت له، كيف أنت؟ فقال: طيب. وأخبر أنه صار إلى الجنة، وربما أحضر لي عنقودًا من عنب الجنة، غير أنه قال لي: أنا متألم منك فقلت: وكيف ذلك؟ فقال: لأن الله تعالى أطلعك على حالي فأخبرت به فلان فقلت له: ما قصدت إلا مصلحتك فقال لي: كنت فعلت ولا تقل.

ورأيته بعد ذلك مرارًا ولم يزل من عنده الألم لإطلاع صاحبه على ما رأيته مع صحبته له أكثر من صحبتي له، حتى كان مرة رأيته وكان الفجر قد قرب فقلت: الفجر يريد أن يطلع ونصلي الصبح فقال: ما بقي علينا صلاة، ثم لم أره بعد ذلك.

ورأيت مرة شخصًا من العلماء وسألته عن حاله فأبطأ بالجواب عليّ فقلت: لابد أن تُعلِمني بما لقيت من الله تعالى، وألححت عليه فقال: لقيت منه

وحايش، فحين قال ذلك اسودّ من فرقه إلى قدمه فقلت له: أليس نحن على الحق ودين الإسلام هو الحق؟ فقال: نعم، فقلت: فما الذي أصابك -وكنا نشهد منه أحوال الخير- فسكت ولم يخبرني..

وكان واحد من الزّبانية واقف بين يديه قصير، فقلت لذلك الزّباني: ازجره حتى يخبرني بصورة حاله، فنظر إليه نظرة فعُذّب بتلك النظرة وظهر عليه صورة حالته التي كانت أوجبت ذلك، فصار لسان حاله أفصح من لسان مقاله، فجعلت أقول له: لعلك كنت تعتقد خلاف معتقد أهل السنة، وجعلت أذكر له المعتقدات الفاسدة فلم أفهم منه إلا التقديم في أمر الصحابة -وهو في بلد ينسب إلى الشيعة- فحين رأيته على تلك الحالة وفهمت ذلك انتزعت الرحمة التي كنت أجدها وأرحمه بها عني، وصارت لذتي في عذابه، فقلت لذلك الزباني: خذه ورح به إلى مالك خازن النار وقل له يعذبه؛ فإن بيني وبينه صحبة.

فأخذه ذلك الزّباني وراح به إلى النار وأنا أنظر إليه. أعاذنا الله وإياكم من سوء المعتقدات وخلاف سنة رسول الله ﷺ وأعاذنا من النار ومن أعمال أهل النار بمنه وكرمه.

ورأيت مرة رجلاً من التجار، وكان منه خير كثير من صدقة كثيرة ومسارعة إلى فعل الخيرات ومحبة لأولياء الله تعالى، غير أنه كان يتنعم في الدنيا تنعيمًا كثيرًا في المآكل والمشارب والملابس المباحة -كل ذلك من المباح -وكنت أنكر عليه كثرة التنعيم وأقول له: أنا أخشى عليك من كثرة هذا التنعيم عند الموت؛ فإن العذاب فراق المشتهى ووجود المكروه، ومن يكون على مثل هذا الحال ما تشتهي نفسه فراق الدنيا ويكره الموت، ولا بد منه وفيه لقاء الله تعالى، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه.

وكان يزعم أنه يعيش كثيرًا على عمر آبائه وأجداده، فإنهم عاشوا كثيرًا، فلم يكن إلا زيادة عن ثلاثين سنة، وقد مرض المرض الذي يموت فيه فقلت له ذلك، ثم إنه -رحمه الله تعالى- عاد يتمنى أن يكون بطاقية على رأسه وسترة على بدنه ولا يكون له من المال شيء، ونذر إن عاش أن يكون كذلك وقال: اطلب لي من الله تعالى ثلاثة أيام،

والله ما أطلب ذلك إلا لخلاص الذمّة.

فعاش يومين والثالث إلى العصر وقضى نحبه، وسار إلى ربه فعملت له تلك الليلة سبعين ألف لا إله إلا الله وسهرت عليها، ورأيته بعد مماته وهو متألم فقلت له: ألم أقل لك لا تتنعم كثيرًا؟ فلما كان بعد أيام رأيته وقد تخلص وعليه خُلعة وهو يجرها وهو على أطيب حال رحمه الله تعالى.

أحوَال البرزخ

والناس في البرزخ على أحوال شتى وتتغير أحوالهم بطول المدة وما يصل إليهم من أصحابهم من الصدقات والدعوات وغيرها مما ورد به الشرع.

وقد ورد في الإسرائيليات لأحد الأنبياء عليهم السلام بشِّر أهل القبور؛ كلما بليت أجسادهم غفرت لهم.

وأكثر أحوال أهل القبور التي هم عليها هي صفات أعمالهم التي كانوا عليها في الدنيا وفي قوله تعالى ﴿**سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ**﴾ [الأنعام: ١٣٩] كفاية.

وحكم الآية عام في الدنيا وفي البرزخ وفي الدار الآخرة، غير أن الدنيا تظهر بعضًا وتخفي بعضًا، والبرزخ يظهر أكثر من ذلك، والآخرة محل الجزاء.

أبواب جهنم

والحديث الذي ورد في أن القبر فيه حية لها سبعة رءوس هي صفة العبد الذي بها يتوصل إلى الخير والشر، فإن الحواس الخمس خمسة، والبطن والفرج اثنان سبعة، وهي عبارة عن أبواب جهنم السبعة، إذ الوعيد الوارد في الشرع على المخالفة، والمخالفة لا تقع إلا باستعمال هذه الجوارح.

أبواب الجنان

ولذلك ورد أن الشياطين تصفد في شهر رمضان وتغلق أبواب النيران وتفتح أبواب الجنان، والأبواب هي هذه الجوارح من الإنسان المقابلة لأبواب جهنم السبعة.

فلما كان رمضان أكثر الناس فيه صائمون وعن الفواحش منزجرون وللخيرات فاعلون، غُلّقت أبواب النار وفتحت أبواب الجنان، وأبواب الجنان في مقابلة الصفات.

لذلك فإن قلت: فإن القرآن ورد بأن أبواب الجنان ثمانية؟.

قلت: أما السبعة فإنها مقابلة السبع صفات التي في الإنسان للجزاء، وأما الباب الثامن فهو باب الفضل من الله تعالى على عباده ﴿**ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ**﴾ [الحديد: ٢١] و﴿**وَلَدَيْنَا مَزِيد** ﴾ [ق: ٣٥] فالجزاء المقابل للخير والشر إنما هي سبعة أبواب للنار وسبعة لأبواب للجنان، والباب الثامن باب فضل الله تعالى.

كيف تظهر الأعمال؟

ومتى كانت الأعمال صالحة لا ينظر في قبره إلا ما يسره من حسن صفات الملائكة عند قبض الروح وعند المسألة والمؤانسة، وتظهر صورة العمل من جميع الحركات والسكنات والنيات على أحسن محبوب ومعشوق كان يحبه ويشتهيه، وأطيب ريح، وأطيب مأكل ومطعم ومذاق وملذوذ.

كل ذلك في جميع أحواله وفراشه وسعة داره، ومثاله بحسب سعة رزقه وعطائه من ربه تبارك وتعالى، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى * فإن الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى**﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

وأما إذا كانت الأعمال قبيحة تتشكل على أقبح صورة مثل صورة كان يخشاها ويكرهها ويخافها ويهرب منها في جميع أحواله على اختلاف أنواعها وأجناسها في الحركات والسكنات وأسباب من المطاعم والمشارب والملابس والروائح والنواظر المشهودة، فمن هنا يرى الميت في القبر ما يرى وهي صورة العمل تتشكل في الصورة بحسب عمل العبد وهو الجزاء بالوصف الذي ذكره الله في القرآن، والتوبة قبل الموت مزيلة بقدرة الله تعالى.

التَّـــائب السعيد

ولقد رأيت شخصًا كان قد صحبني مدة، فربما اطلعت أنه أكل الحشيشة، فقلت له لا تصحبني بعد ذلك، فتاب إلى الله تعالى توبة خالصة.

فرأيت بعده رسول الله ﷺ في المنام وكأني بين يديه ﷺ أكتب أسماء السعداء وأسماء الأشقياء، فربما سألته ﷺ عن أناس فقال: اكتبهم من السعداء فقلت له عن ذلك الذي تاب من أكل الحشيش فقال: اكتبه من السعداء، فوالله ما زلت أغبط ذلك الفقير. ومات رحمه الله تعالى.

ذات اليمين وذات الشمال

ورأيت مرة أخرى بيدي صحيفة وفيها أسماء السُّعداء وأسماء الأشقياء وأسماء أهل اليمين وأسماء أهل الشمال، وأنا واقف على حد بين الطريقين، والناس يمرون ذات اليمين وذات الشمال.

فوالله ما رأيت السائر من ذات اليمين إلا اليسير، وهم أصحاب مرقعات وخلقان وأحوال رثة من حالاتهم في الدنيا، وهم أفراد وأرباب الملابس الجميلة والثياب الرفيعة والطيالس وغيرها من ذات الشمال، ووالله ما علمت من أي الفريقين كنت في تلك الرؤيا.

بينَ الرَّحمَةَ والعَذَاب

وعلى الجملة فالرجاء في الرحمة يغلب على الخوف من العذاب، وهو الذي أراه، لأن الماضي والمستقبل لا حكم عليهما، والحالة المتوسطة كالزمن الفرد، هي حالة لقاء ربه وحالة خروج نفسه وموته، فالرجاء فيها أولى وهو معنى قول القائل:

مـا مضَـى فـاتٍ والمؤمَـل غيـبٌ ولـك السَّـاعةُ الـتي أنـت فيهَـا

البـــرزخ طريق الآخـــرة

والبرزخ عالم متسع فيه العجائب والغرائب، وهو إلى الآخرة أنسب وإلى وصفها أقرب، وهو منها كالنسبة إلى الطفل الخارج من بطن أمه إلى الدنيا، فهو إلى حال الدنيا أنسب وإلى وصفها أقرب من العالم الذي كان فيه في بطن أمه، وهو لا يعود إليه أبدًا.

فكذلك البرزخ بالنسبة إلى الدنيا، لا يعود الميت منه إلى الدنيا أبدًا، ويسمّى عالم برزخي، وهو أخروي بالنسبة إلى الدنيا.

فإذا جاء الوقت الذي فيه الخروج إلى الدار الآخرة ظهر حكم الآخرة جملة وتفصيلاً، وجاء وعد الله على ما هو عليه، وجاء ما يعلمون وما لا يعلمون.

البرزخ.. عالم بلا حدود

وفي عالم البرزخ ما لا يدخل تحت الحصر والفكر والقياس ولا تدركه العقول، وهو عالم كامل في نفسه في جميع أحواله وعوالمه، وهو بالنسبة إلى عالم الدنيا في جميع أحوالها ومطاعمها وملابسها كنسبة الدنيا إلى بطن أم المولود قبل وروده إلى الدنيا في

كل نوع منها وجنس من أجناسها.

والآخرة بالنسبة إلى البرزخ كنسبة البرزخ إلى الدنيا وأمثال أمثالها وأضعاف أضعافه، ولولا خشية الملل والتطويل لذكرت فيه من العجائب والغرائب وما رأيت، وما حدثني به من رأى وما عاينوه أهل الكشوف، وإنما غرضنا التنبيه لأجل من سأل ذلك وفيه من المجازات بالنسبة على الصفات والأفعال والأعمال والنيات كما في الدنيا.

حق الله

وإن كان القصاص في الدنيا له مراتب، فإن في كل حقٍّ للعبد حقًّا لله تعالى، فإذا أدى حق العبد الذي حكم الله تعالى به بقي حق الله تعالى لا يعلم منه شيئًا حتى يظهر له في دار الآخرة، فإن منَّ الله بأن الله تعالى تاب عليه كما تاب على الثلاثة الذين خلفوا، وإلا فالأمر غيب في علم الله تعالى وحق الله تعالى أوجب وفاءً وأولى، ومعصية الله تعالى أكبر من معاصي كل من في الكون العلوي والسفلي.

وإن كان الله تعالى لا تضرُّه المعصية ولا تنفعه الطاعة، فليعلم كل من كان عليه لأحد حق وأدّاه إليه أن حق الله تعالى عليه باق، لأن نفس التعدي منهي عنه، فإذا تاب توبة صحيحة محققة تاب الله تعالى عليه، وإلا فالأمر على حاله، والعبد يموت على ما عاش عليه، وهي الحالة التي يقبض عليها هي بقية حياته، وهي الخاتمة وهي السابقة؛ إذ الخاتمة منطوية في السابقة، ويبعث على ذلك الكل، وكان بدء نشأته عند ربه أعطاه خلقه الذي خلقه عليه ورزقه الذي رزقه وأجله الذي قدره أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ

ثم يكونون في البرزخ إلى حين نفخة الصور الأولى فيموت كل شيء حي على وجه الأرض ومن في السماوات ومن في الأرض وما بينهما وما تحت الأرض ولا يبقى إلا الحي القيوم.

لمحات من يوم القيامة:

﴿**ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ**﴾ [الزمر:٦٨] وهو أمر أعظم من ذكره وأشغل من فكره، فتبعثر القبور ويُحصّل ما في الصدور، ويبعثون إلى النشور، ويحشرون حفاة

عراة ذاهلين، لا ينظرون ولا يسمعون، قد أدهشهم الفزع الأكبر لسكب العبرات وتضاعف الزفرات وتكشف العورات وتبدّل الأرض غير الأرض، ونادى المنادي للعرض، وطويت السماء ووقفت الملائكة على الأرجاء وتجلّى الرب لفصل القضاء، وزفرت النيران وجلس ملك الغضبان تشيب فيه الولدان وتذل فيه الشجعان، ويود الإنسان أنه ما كان.. وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا.. و يَفِرُّ المرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ.. تطيش فيه الألباب وتذهل فيه العقول ويذهل عن ذهوله الذهول.

وتجثوا الأنبياء على الركب، وتوقن النفوس بالعطب، ويستولي على العصاة سطوة الغضب.

وتُنصب الموازين، وتنشر الدواوين، وتتطاير الصحف عن الشمال واليمين. ونُصب الصراط على متن الجحيم، واضطرب عند ذلك الصحيح والسقيم.

الأهـــوال

وترادفت الأهوال، واشتد الزلزال، وبان ما خفي من الأعمال، وتغيرت الأحوال.

وحشر الناس في صعيد، وأسمعت الصيحة القريب والبعيد. وحاطت الملائكة من خلفهم صفوفًا، وهم على أرجائها وقوفًا، لا يحصَون عددًا ولا ألوفا.

واشتد القلق، وتزايد الحرق، وغرق أكثر الناس في العرق. وطال الوقوف، ورغمت الأنوف، واستوى في الخوف الخائف والمخوف.

وعظم الندم، وزلت القدم، وجاء على كل قدم سبعين ألف قدم. واشتد الخصام وذهلوا عن الكلام، ووقفوا مقدار ألف سنة وعام. حفاةً عرايا، جياعًا عطاشا، لا يعقلون من الدهش الجوع ولا العطش.

زفير جَهنَّـــم

وقد زفرت جهنم بالمجرمين واشتدت تغليظًا على الكافرين، وتغللت من أيدي الملائكة بأزمتها وأظهرت ما في قعرها من شدة غضبها، وأكل بعضها بعضًا من شررها ولهبها، وجثت أرباب الرتب العلية على ركبها وأيقنت النفوس بهلاكها وعطلها.

وقد حال لونها إلى الظلمة والسواد، وقام عليها وجوانبها الملائكة الغلاظ الشداد. وخشي من السطوة الصالح والطالح، والكاتم والبائح. وظهر الشقاء على كل مجرم.

والأنبياء تقول: رب سلم، رب سلم.

والناس في ذلك الكرب الشديد والأمر البعيد والهول المهول واليوم الذي هو أطول من الطول والعطش والدهش، لا يأكلون ولا يشربون ولا يحاسبون لا يسألون ولا يتكلمون، ولا ينظر إليهم ولا يلوي عليهم وهم في عرقهم غارقون وفي قلقهم متزايدون.

إلجام العــرق

والعرق على قدر أعمالهم وتناسب أحوالهم، فمنهم من يأخذه العرق إلى قدميه ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ومنهم من يأخذه العرق إلى حقويه.

ومنهم من يلجمه العرق إلجاما، ومنهم من يقوم في عرقه عامًا فعامًا. وكل واحد منهم لا يشاركه في عرقه غيره ولا في قلقه سواه ولا في حرقه إلا إياه، وهَم كل واحد منهم لا يتعداه وهم في ذلك الموقف أشد من ضربات السيوف، لا يجدون روح الحياة ويود كل واحد منهم الموت لو وصل إلى الممات..

فياله من شر قمطرير ويوم على الكافرين عسير غير يسير.

الشفاعة

فمن شدة الأهوال وضيق المحال وضنك تلك الحال يلجئون إلى السؤال في تعجيل الحساب والمصير إلى المآب إما إلى النعيم وإما إلى العذاب، فيلهمون الشفاعة من أقرب الخلق إلى ربه من أنبيائه وحزبه.

آدم: فيأتون آدم عليه السلام كما ورد في الحديث[1] بنحو هذا الكلام، فيقولون: أنت أبو البشر، خلقك الله تعالى بيده وأسجد لك الملائكة، اشفع لنا عند ربك بتعجيل الحساب إما لجنة أو لنار، فقد طال بنا الوقوف. فيقول: إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ويذكر لنفسه ذنبًا، ولكن روحوا إلى..

نوح: فيأتون نوح عليه السلام كما ذكر، ويسألونه كما شرح وسطر، ويقولون: أنت شيخ المرسلين ورسول رب العالمين، اشفع لنا عند ربنا بتعجيل الحساب إما لجنة أو

(١) حديث الشفاعة رواه البخاري (١/١٦، ١٢٨)، ومسلم (١/١٦٧).

لنار، فقد طال بنا الوقوف. فيقول كما قال آدم عليه السلام: إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ويذكر لنفسه ذنبًا في دعائه على قومه، ولكن روحوا إلى.. **إبراهيم**:فيأتون إبراهيم عليه السلام ويقولون: أنت خليل الرحمن، ونجّاك الله تعالى من نار النمرود، وفدا ولدك بذبح عظيم، اشفع لنا عند ربك بتعجيل الحساب إما لجنة أو لنار، فقد طال بنا الوقوف. فيقول كما قال نوح عليه السلام:إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ويذكر لنفسه ذنبًا، روحوا إلى **موسى**: فيأتون موسى بن عمران عليه السلام ويقولون: أنت كليم الرحمن، اشفع لنا عند ربك يعجل لنا الحساب إما لجنة أو لنار، فقد طال بنا الوقوف. فيقول كما قال إبراهيم عليه السلام: إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولم يغضب بعده مثله، ويذكر عن نفسه ذنبًا، ولكن روحوا إلى..**عيسى**: فيأتون المسيح عليه السلام فيقولون: أنت روح الله وكلمته، اشفع لنا عند ربنا بتعجيل الحساب إما لجنة أو لنار، فقد طال بنا الوقوف، فيقول كما قال الأنبياء من قبله ويذكر شيئًا من أنه عُبد، ولكن روحوا إلى.. **محمد**.. فهو خاتم النبيين:

فيأتون محمدًا ﷺ فيقولون قد ردّ الأمر إليك، ودلّت الأنبياء عليك، اشفع لنا عند ربك يعجل لنا الحساب إما لجنة أو لنار فقد طال بنا الوقوف؟ فعند ذلك يقول: أنا لها أنا لها، ربي وعدني، ثم يخرّ ساجدًا تحت العرش فيقال له: اشفع تُشفَّع، وسل تعط، وقل تسمع[1]. وورد: «**فأحمد الله تعالى بمحامد لم أحمده بمثلها أو يلهمني الله تعالى محامد**[2]».

وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ

ثم ينادي هلمّوا لوزن أعمالكم، أو تأهبوا لوزن أعمالكم، فتقع الفرائص من الفزع ويخور القوي الطبيعة من الجزع، فتنشر الدواوين وتنصب الموازين ويعطى كل واحد كتابه إما بالشمال أو باليمين.

---

(١) رواه البخاري (٢٧٢٧/٦).

(٢) الحديث نفسه.

وينقش الحساب وينطق الكتاب ويتجلى رب الأرباب، وكل يحاسب نفسه بنفسه، ولا يعتقد أن الحساب لغيره، فمنهم من يحاسَب حسابًا يسيرًا، ومنهم من يقرر عليه الحساب ويرجي كنفه عليه ويقول: سترتها عليك في الدنيا فأنا أسترها عليك اليوم.

ويقع القصاص ولات حين مناص، وتتمنى الشعرة من الشعرة الخلاص، ويحاسبون على مثل الذر ويشمل صفة العدل الفاجر والبر، ويقول الله تبارك وتعالى: **«وعزتي وجلالي لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم، ويقتص من الشاة القرناء للجماء، وليسألن العود لم خدش العود[١]».**

وتوزن الأعمال وتعظم الأهوال ويشتد الزحام بتعاظم الخصام.

يوم عظيم وأسماء لا تحصر

فياله من يوم عسير على الكافرين غير يسير، يوم الطامة، يوم الندامة، يوم الحاقة، يوم الواقعة، يوم الصاعقة، يوم الراجفة، يوم الآزفة، يوم النشور.

يوم الجزاء، يوم الوعد، يوم الوعيد.

يوم القلّة، يوم الخسار، يوم البوار، يوم تبلى السرائر، وتكشف الضمائر، وتجمع الأوائل والأواخر، ويستوي الباطن والظاهر.

يوم يبعثون، يوم يحشرون، يوم يحاسبون، يوم يوزنون، يوم يعرضون، يوم لا ينطقون، ولا يؤذن لهم فيعتذرون.

يوم شهادة الجوارح، يوم ظهور الفضائح، يوم يفر الأخ من أخيه والابن من أبيه، والصاحبة والبنين والصديق الحميم، ﴿**يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء:٨٩-٩٠].

يوم تتشقق السماء، وتنكدر النجوم، وتكور الشمس، وتبدل الأرض غير الأرض، وتقف جميع الخلائق للعرض.

يوم قيام العدل، يوم بيان الفصل، يوم الإسعاد، يوم الإبعاد، يوم التناد، يوم المعاد، يوم الميعاد، يوم الفصل، يوم الوبال، يوم النكال، يوم الأهوال، يوم الزلزال.

يوم الحرق، يوم القلق، يوم الأسف، يوم التلف، يوم الحلف، يوم الوفاء، يوم الجفاء، يوم الاصطفاء، يوم العبوس، يوم النحوس، يوم العكوس.

---

(١) رواه مسلم (٤/١٩٩٧)، والخطيب في الرحلة في طلب الحديث ١/١١٧).

يوم الأبرار، يوم الفجار، يوم الأخطار، يوم العسير يوم النار، لا ينفع الجار الجار إلا بإذن الجبار، يوم الدموع، يوم الخضوع، يوم الرجوع، يوم الصاخة، يوم الطامة، يوم العطش، يوم الدهش، يوم الخسار، يوم العذاب، يوم العقاب، يوم الثواب، يوم الحساب، يوم السيئات.

يوم الإياس، يوم الإفلاس، يوم الأداء، يوم الرجاء، يوم النعمة، يوم النقمة، يوم الرحمة، يوم الشرور، يوم السرور، يوم الجلود، يوم تسأل الأنبياء والمرسلون، والأمم الماضون والخلفاء الراشدون، يوم الشهود، يوم تنطق الجلود، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود.

واعلم يا أخي أن أسماء هذا اليوم لا تحصر؛ إذ هو يوم قائم بجميع الصفات من الأعمال والنيات وجميع الجزاء في الكليات والجزئيات والحسيات والمعنويات لا يغادر ذرة فما فوقها ولا شعرة فما دونها إلا ويؤخذ لها حقها، وليس في ذلك اليوم درهم ولا دينار، وإنما هي الحسنات والسيئات، فيؤخذ من حسنات هذا لهذا ويوضع من سيئات هذا على هذا إذا لم يكن له حسنات، وذلك بحسب الجزاء وصفة العدل، فالحكم العدل الذي يعلم السر وأخفى.

الصِّراط المستقيم

وكذلك الصراط والميزان وهما على الاستقامة في الوزن والمسير وتحقق العدل في التقدير، فمن كان على الصراط المستقيم سلك الصراط ﴿**إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [هود:٥٦].

والصراط المستقيم ها هنا هو كتاب الله تعالى وسنة نبيه وشريعته وطريقته وتبعيته، فمن كان عليها يسلك الصراط المستقيم في ذلك اليوم ومن حاد عنه زلت به قدمه في ذلك اليوم وهو على متن جهنم وعليه كلاليب من نار كمثل شوك السعدان كما ورد في الحديث.

والناس في سيرهم على الصراط متفاوتون كتفاوتهم في الأعمال وسلوك الطريق إلى الله تعالى، فمن سابق كالبرق الخاطف، ومن مسارع، ومن ضعيف المشي، ومن واقف، ومن واقع، ومنهم من يتواقع في النار كتواقع الفراش في السراج والحال أشد مما

يذكر.

الأضْحيـة وحيّـات جهنم

وكنت يومًا في مسجد في البر، وكان عندي فقير له كشف واطلاع، وكان صبيحة عيد الأضحى فقال لي:

رأيت الساعة الصراط والناس يمرّون عليه وفيهم قوم يركبون أضحيتهم، فمن كانت ضحيته حلال وهي قربة إلى الله تعالى سارت به كالبرق، ومن كانت في أضحيته شبهة أو كانت لغير الله تعالى نهشتها حيّة من حيّات جهنم فتذوب مكانها على هذه الصورة، والحيّات عن يمين الصراط وشماله.

وهذا الكشف من ميراثه من النبي ﷺ ظهر له في صورة الحيّات بحسب ضعفه عن رؤية الكلاليب التي أخبر بها رسول الله ﷺ، وصورة الحال في الخبر من لازم لأن الكلاليب تخطفهم إلى النار والحيّات تلسع تلك الدواب فيقعون في النار كلما جاءت أضحية فيها شبهة لسعت فذابت على هذه الصورة ولو كان ألف أضحية كان الحكم كذلك إلى أن يأتي أضحية مقبولة فينجو منها بكرِم الله تعالى.

الميــزان

والميزان التي هي أدق في الوزن من موازين العقول بكرم الله تعالى في التعديل في حقيقة صفة العدل قائمة بالحكم في الوزن والحساب والصراط على حكم التعديل والاستقامة ونفي الظلم من كل صفة، فذلك العدل الحقيقي.

وكذلك الميزان في التعديل والاستقامة لإبانة الخفّة والرجحان والزيادة والنقصان بحسب صفات الأعمال والأقوال والنيات والأحوال، وإن لم يكن كمعيان الأوزان بالأرطال والقبان في وزن المحسوس وللأثقال، فإنه يوزن به من الأعمال ما هو أثقل من الجبال وأقل من ذرات الهباء وذرات الرمال.

وكما أن ميزان العروض يستبين فيها الخفيف من الثقيل والطويل من القصير وغيرها من موازين العقول وما يظهر في المعقول والقول والمقول وإعراب الكلام وتصحيح المعاني بالأقسام والتصريح والإبهام، وما يدخل في الفكر والأوهام، فإن هذه الميزان متظاهرة بالعدل على جميع الموازين، وأقوم في الاستقامة من جميع القوانين،

يستبين فيها الجزء من مائة ألف جزء من الذرة، ولا يفوتها جزء من مائة ألف جزء من الحصر، من كفر أو إيمان أو طاعة أو عصيان أو فوز أو خسران أو خفة أو رجحان ﴿**وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ**﴾ [الأعراف:٨،٩].

فمن الناس من يأتي بحسنة واحدة ترجح على الحسنات، ومنهم من يأتي بسيئة تزيد على السيئات، وهم في كثرة الحسنات والسيئات متفاوتون، فقوم يربحون وقوم يخسرون.

ومنهم من لا تعرف له حسنة فيذكرها ولا حالة خير فينظرها، كما ورد في حديث البطاقة التي يقول الله تعالى لصاحبها بعد الحساب وانقطاع الأسباب: **هل تعلم لك حسنة؟ فيقول لا، فيقال له: تذكر، فيقول لا أذكر، فيقال له: بل لك عندنا حسنة، إنك اليوم لن تُظلم شيئًا، ثم يخرج له بطاقة فيها شهادة التوحيد فتجعل في كفة الميزان فترجح بها**[1].

وهذا الحديث في الصحيح والمعنى فيه صحيح محقق؛ لأن التوحيد لا مقابل له، فلو وضعت السماوات والأرض وكل شيء موجود لرجحت كفة بهم الوحدة؛ إذ الوحدة لا يصح معها غيرها.

فالشرك مع الله تعالى محال لا يصح وجوده، فلذلك ترجح البطاقة، فإذا فرغ الحساب والوزن والصراط وتناصف الناس، والشعرة في ذلك اليوم تتبرأ من الشعرة، ولا يظلم أحد في الذرة ولا الإبرة؛ إذ كل واحد يطلب حقه على حسب ذلك الوزن وذلك الحساب، ويوفَّى كل ذي حق حقه، فأين منا هذه الأحوال وهذه الأهوال مع تساهلنا فيما هو أعظم من الجبال وأكثر من عدد حبات الرمال؟

فنسأل الله تعالى حسن المآل وخلاصنا من هذه الأحوال والأحمال الثقال، وأن يرضي عنا خصماءنا إنه الكريم الفعال الذي لا يعجزه العطاء ولا يضجره السؤال الكبير المتعال.

---

(١) رواه ابن حبان (٤٦١/١)، وأحمد في مسنده (٢١٣/٢).

ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ

فمن الناس من يكون له عند الله حظ فيرضي عنه خصمه ويرضيه ما لا يصبر عنه من النعيم فيقول: يا رب، لمن هذا؟ فيقال لمن عفا عن أخيه، فيقول: قد عفوت عنه، فيقال: **خذ بيده وادخلا الجنة**(١).

المُفلـــس

ومنهم من يشحُّ على الذرة من حقّه، فيؤخذ من حسنات أخيه له، فإن لم يكن له حسنات طرح من سيئاته عليه، وقد ورد في الحديث «**أتدرون من المفلس؟ فقالوا المفلس فينا من لا دينار له ولا درهم ولا مال ظاهر، فقال ليس كذلك، وإنما المفلس الذي يأتي يوم القيامة بصيام وصلاة وأعمال من البركة، ويكون قد ضرب هذا وأخذ مال هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن نفذت حسناته طرح من سيئاتهم عليه ويلقى على وجهه في النار**(٢)».

والحديث هذا معناه وإن لم يكن اللفظ موافيه أو غير متفق عليه.

والمعنى يقتضي ذلك في الحساب والميزان والصراط صفات قائمة بصفة العدل لا يغادر شيئًا، ثم يدخل النار من وجب عليه إدخالها من الكفار والعصاة ومن المؤمنين ممن وجب عليه ذلك وحق عليه الوعيد والنار تقول هل من مزيد، قال الله تعالى: ﴿**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ**﴾ [ق: ٣٠].

طبقـات أهل الجنـة

وذلك إن أهل الجنة يدخلون الجنة برحمة الله تعالى لهم وعفوه عنهم وما أهلهم لها من الأعمال الصالحات، وهم على قدر رتبهم بحسب أعمالهم وعطائهم من ربهم، وهم في ذلك على طبقات:

منهم من زحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز.

وقد ورد الحديث: «**لن يدخل أحد الجنة بعمله، قيل ولا أنت يا رسول الله؟**

---

(١) ذكره ابن كثير (٢/٢٨٦).

(٢) رواه ابن حبان (١٠/٢٥٩)، وأبو يعلي في مسنده (١١/٣٨٥).

قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته[١]».

وقوله تعالى: ﴿**وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف:٤٣] لا يناقض الحديث؛ لأن دخولهم الجنة بأعمالهم هي من رحمة الله تعالى.

ومنهم من لا يحضر الحساب ولا الصراط ولا الميزان، يركبون من قبورهم إلى قصورهم.

ثم تنشر الرحمة ويضاف إليها تسعة وتسعون رحمة حتى يتطاول لها إبليس بعد الانتقام من العصاة بحسب المراد على قدر الأعمال، ويغار أهل النار من المؤمنين، ويلجئون إلى الله تعالى.

وذِكر أوصاف النار أعاذنا الله وإياكم منها لا يستطاع ولا تثبت له الطباع، هو بالعكس من أوصاف الجنة جعلنا الله وإياكم من أهلها وسكانها.

حقيقة الجنّـــة

فالجنة في نفسها عبارة عن حقائق جميع الملذوذات الكليات والجزئيات، وموات صفات صورة الشهوات الحسّيات، والمعنويات تظهر في حقائق النفوس من الشهوات الكليات والمعنويات والحسّيات السّمعيات والمرئيات وجميع المحسوسات والحواس الظاهريات والباطنيات في جلاء تلك المرآة، فيتنعم بتلك الشهوات والملذوذات على جميع الأنواع والحالات المحسوسات وغير المحسوسات على الدوام والاستمرار من غير انقطاع ولا امتناع، بالبدء و بالإعادة والعلم والشهادة.

ففي تلك المرآة ما في جميع الأنفس من الشهوات واللذات بالاختلاف، والشهوات وضروب اللذات على ممر الاستمرار والأوقات ولم يكن ثَمَّ أوقات، بل هو استمرار الدوام وارتفاع حكم السنين والأعوام، حكم لهم فيها بالخلود لا إلى حد محدود ولا أجل معدود، ارتفع حكم الحدود وزال عنهم البؤس والحقود.

النـار وأهلهـا

(١) رواه ابن حبان (٢/٦٠)، وأحمد في مسنده (٢/٤٦٦).

وبالعكس منها أعاذنا الله وإياكم صورة النيران، وملك الغضبان، هي محل الغضب وصفة العطب، يتجلى لهم فيها أنواع العقوبات على أنواع ضروب الأعمال القبيحات، وهي من داخل الباطن إلى خارج الظاهر، ومن ظاهر الأجسام إلى باطن القلوب وبالآلام.

فمتى نظروا إلى شهوة ظهرت لهم بصورة الخداع، كالشربة من العطش والتفاحة من الجوع، فعندما يشربها نزلت أمعاءه فقطعتها ﴿**وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ**﴾ [محمد:١٥]، وعندما يلتقم تلك التفاحة حتى يسيغها صارت حيّة تنهشه في قلبه، ونارًا تحرقه في جوفه، كلما تألموا من عذاب ازدادوا عذابًا فوق العذاب.

حزب الرحمن

وأما أهل الجنان وحزب الرحمن فكلما تنفس من نعيم عاد عليهم نعيمًا ثانيًا، والأول باق لا نهاية له.. ولسنا نستقصي هذا الفصل من ذكر أحوال الجنة والنار وأهلهما لبعد قعره وعمق بحره وعزة فهمه من غير أهله.

والذي ورد في الشرع في ذلك فيه كفاية، ولا يسعه هذا الكتاب ولا أضعاف أضعافه، وإنما نذكر نبذة يسيرة ولطيفة من ذكر صفة الدارين لاحتياج السالك إليها خشية عليه من الزيغ، فمن يظهر في هذا الزمان ممن يزخرف بهذيانه وينزع بشيطانه على قلوب الضعفاء من الأشقياء ليخرج سياج دين الله القويم وصراطه المستقيم والحجة الواضحة العليا ومحجته البيضاء.

الرَّحمَات

ثم تنزل التسعة والتسعون رحمة التي ادّخرها الله لعباده مضافًا إلى الرحمة التي كانوا يتراحمون بها في الدنيا، وهذه الأعداد مقابلة للتسعة وتسعين اسمًا التي تسمى الله تعالى بها على لسان رسوله ﷺ ظاهرًا في دار العيون لنا بها، وله من الأسماء ما لا ينحصر ولا يعلمه إلا هو، فكانت التسعة وتسعون رحمة مقابلها باطنًا لهذا اليوم، وله من الرّحمة ما لا يعلمه إلا هو.

الشُّفعاء

فحينئذ يأذن الله تعالى بالشفاعة، فيتقدم رسول الله ﷺ وعلى طريقه سار الأنبياء والمرسلين، وله الحوض، عدد كئوسه عدد نجوم السماء، من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدًا، فيذاد عنه رجال -كما ورد في الحديث- لتبديلهم. ورسول الله ﷺ صاحب الشفاعة العامة يومئذ، وكل شفاعة مندرجة تحت شفاعته ﷺ، ويشفع النبيون والمرسلون، ويشفع الصالحون وكل من له رتبة الشفاعة، حتى يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، حتى إذا انقضت الشفاعات يقول تعالى: «**شفع النبيون، وشفع المرسلون، وشفع الصالحون، وبقي الرحمن الرحيم**[١]».

الشفيـــع

فيحثوا حثيات يخرج فيها من النار من قال لا إله إلا الله، فلا يبقى في النار من قال كلمة التوحيد، وآخرهم هناء الذي يقول يا حنّان يا منّان.

وورود الأحاديث في هذا الموطن كثير، وصورة العرض والحساب والميزان والصراط أضعاف ما ذكرناه، وكذلك صفة النيران والجنان.

ذبح الموت للخلود

حتى إذا لم يبق في النار إلا من سبق عليه الكتاب بالخلود وفي الجنة كذلك يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ويقال: «**يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت**[٢]»

دُعَـــاء ورجاء

اللهم إنا نؤمن بذلك كله، ونضعف عن ذكره فكيف رؤيته؟ بل كيف بملائمته ونحن أضعف وأضعف وأضعف من ذلك، وأقل وأحقر من توجه هذه السطوة العظيمة إلينا، ونزول هذه النقمة الشديدة علينا، ونحن بذنوبنا معترفون، وعن واجب حقك مقصرون، ولا لنا وجوه الاعتذار ولا قوة الانتصار، وليس لنا ما نستحق به دخول الجنان، ولا لنا قدرة على النيران، ولم تبق لنا إلا رحمتك وفضلك يا رحمن يا منان يا ذا الفضل والإحسان والعفو والامتنان، وإن لم نكن لرحمتك أهلاً أن ننالها فرحمتك أهلٌ

---

(١) رواه مسلم (١/١٦٧)، وسعيد بن منصور في سننه (٢/٢٢٠).

(٢) رواه البخاري (٥/١٧٦٠)، ومسلم (٤/٢١٨٨).

أن تنالنا.

إلهنا وسيدنا وخالقنا، كما علمت وأردت وقدرت ولا خروج لنا عن ذلك ولا علم لنا بما هنالك إلا سبق رحمتك علينا، حتى فعلت لنا أعمالاً فيه يسيرنا إلينا، فكيف بنا عند انقضاء أعمالنا وانقضاء آجالنا، فالرحمة منك أولى لنا في ذلك كله، ورحمتك السابقة لغضبك، وإليها ينتهي حال السائرين ومصير السالكين، فاجعلنا في رحمتك برحمتك يا كريم يا من عرفنا بكرمه، حقق لنا ما عرفتنا بالذوق والمنازلة والمشاهدة والملائمة، أنت أهل الجود والكرم والتقوى والمغفرة.

يا الله يا الله يا الله، لا انقضاء ولا انتهاء ولا انصرام ولا زوال، ولا كان غيرك ولا موجود سواك، أوجدت ما شئت من خلقك، وقدرت ما أردت من رزقك، وجعلت لك دارين لعبادك، وأهلت لكل دار أهلاً، وسترت ذلك عن الجميع بحكمتك السابقة فيهم، وأمرت ونهيت وحكمت وقضيت، ولا راد لأمرك ولا معقب لحكمك ولا سبيل إلى معرفة ما عندك إلا بما أذنت فيه من علمك لمن اختصصته من خلقك من أنبيائك ورسلك وخصوص أوليائك من دائرة المحبين لك.

فاجعلنا من المحبين لك المحبين عندك بفضلك لا بغيرك، لم تكن لنا أعمال صالحة، ولو كانت لكانت بفضلك تستحق وجوب شكر، وتستحق الشكر شكرًا ملازمًا لا نقوم ببعضه ولا نوفي بحقه، فكن في كرمك بكرمك علينا؛ لأن إظهارنا من العدم بوصف الكرم منك، فكيف بما عدا ذلك وليس لنا ما نعتمد عليه ولا نعرفه ولا نسلكه إلا بالعجز عنه وعجزنا عن معرفة عجزنا فيك عاجز، وبيننا وبين ذلك حاجز، يا أول كل شيء وآخره، ويا أول ولا آخر في حقك بل ذلك وصف خلقك، أنت أنت أنت لا آنية لسواك ولا هوية لغيرك، يا الله يا الله يا الله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

فهذا قدرك الله تعالى لا بد من وقوعه، فقد اختصرنا والأمر أعظم من ذلك كلِّه، ورحمة الله تعالى واسعة أوسع من أن نعلمها ولا نعرف باسمها لانتفائها ذنوب الخلائق وإن كانوا أمثال أمثال ذلك مع شدة الغضب على الكافرين، والخطر العظيم كون العبد لا يدري بما يختم له، ولا يتحقق من أي الفريقين هو، لا يقطع لنفسه بعمل من

الأعمال ولا سبيل إلى الحكم على الله تعالى بحال.

وقد قلت:

ولــولم يكـــن إلا الممـــاتُ وهولُـــه لكـان لنـا عمَّـا سـوى المـوتِ زاجـرُ

فكيـفَ لنـا في القـبرِ مـن كـلِّ معطّـلٍ ومــا أنــا إليــه في القيامــةِ صــائرُ

ونشـــرٌ وحشـــرٌ للمعـــادِ الـــذي بـــه مــوازينٌ عــن ذرِّ الهــوى لا تغــادرُ

فمـــن ثقُلـــتْ ميزانُـــه فهـــو رابـــحٌ ومـن خـفَّ فيـه وزنُـه فهـو خاسـرُ

ويظهــر مــا مــن كــان مــني مكتمًــا وكيـف بإخفـاءِ الـذي هـو ظـاهرُ

ولا عُذرَ لي عن ما أتى من فضائحي ومــن أيــن لي عــذرٌ ولا لي عــاذرُ

ولا ســـرَّ إن الســـرَّ جهـــرٌ لربنِّـــا وواخجلـتي في يـوم تُبلـى السـرائرُ

وتنهتـــك الأســـتارُ للنـــاسِ كلِّهـــم إذا لم يكـــن ربي لـــذلكَ ســـاترُ

فضـــائحٌ لا يســـتطاع ذكـــر صـــفاتها فكيــف بهــا إن شــاهدَتها النــواظرُ

ويُعطـى حقيقًـا كـلَّ شـخصٍ كتابُـه فينظـرُ مـا قـد كـانَ والكـلُّ حاضـرُ

كفـى كـلُّ عبـدٍ أن يحاسِـبَ نفسَـه فهــا هــو في حســبانِه لا يكــابرُ

يــرى كــلَّ مــا أنســيه أحصــاه ربُّــه كبــائرٌ قــد حطـت بــه وصــغائرُ

ونُصِبَ صراطُ العدلِ والشرعُ وصفُه يسـيرُ بـه مـن كـان بالشـرعِ سـائرُ

صــراطٌ علــى مــتن الجحــيمِ امتــدادُه ولا أنـــا ذو ســـعيٍ ولا أنـــا قـــادرُ

كـذاك لـولا الغـدر في الحشـرِ ظـاهرٌ يطـوفُ بـه مـن كـان بالنـاسِ غـادرُ

فجُـد يـا إلهـي بالسَّـماع فـإنني كسـيرٌ ومـــالي غـــيرُ فضـــلِك جـــابرُ

ورحمـــاك يـــا ربي فهـــذا أوانُهـــا يســـوقُ لهـا كـلُّ الأُوَّلِ والأواخـرُ

ومـا كـان مـن فضـلٍ لـديكَ مـدَّخِرًا لهـذا الـورى يومًـا فهـا هـو ظـاهرُ

فما أغفلك أيها العبد الضعيف عن هذا اليوم العظيم! وما أجهلك عن هذا الخطب الجسيم! فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة، وأن كنت تدري فالمصيبة أعظم.

نـــداء:

فيا أيها الغافل -والخطاب للقائل- ويا أيها العاقل ولا أظنك عاقل، سافر الحمول بتلك المحامل، ورَحلوا عن الديار والمنازل، وأدلجوا في المسير على الرواحل، وتوالى السير وانطوت المراحل، وتحقق السفر وتلاحقت القوافل، والتحق المتأخرون بالأوائل، وتؤخر السفر من قابل إلى قابل، وتنوي الرحيل ولا أراك راحل، والناس ذاهبون وأنت قافل.

أظهرت بالقول العمل ولست بعامل، وقلت بلسانك وما أنت بفاعل، وادّعيت أحوال القوم وما عليك بها دلائل، قدّمت ما أمرت بتأخيره في جميع المسائل، وأخرت ما أمرك الله بتعجيله في الآخرة وهو في التعجيل أولى من العاجل.

يا ليت شعري، أعاقلٌ أنت أم جاهل؟ وغافل عما هو معاين أم متغافل؟

وهب أنك عاقل أو جاهل أو متيقظ أو غافل، أتراك تترك ما تريد أم لك عن الموت محيد أم لك سلطان شديد وجبار عنيد مانع من يوم الوعيد؟

أم لك قريب أو بعيد إذا جاءت كل نفس معها سائق وشهيد؟

أم لك على الله تعالى وعد بالعطاء والمزيد؟

أما سمعت كلا م الحميد المجيد في كتابه المبين ﴿**أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ * سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ**﴾ [القلم:٣٧/٤٠].

وقد قلت:

لخــوف الجلــيِّ والبــين قبــلَ التفــرُّق ... يشــيبُ قلــبي في الهــوى مثــلَ مفرَقــي

ويــذري دموعًــا مثــل دمعــي غفائقًــا ... ولكنـــــه دمـــــعٌ شـــــديدُ الترقـــــرقِ

يفيضُ كما فـاضَ الغديرُ على الحمَى ... إذا منعـــــت أجفانـــــهُ للتـــــدفقي

فنـــيرانُ قلـــبي للأســـى في تجمـــعٍ ... ورُوحــي وجســمي والمِــنى في تفرقــي

عجبت لمن يدري الهوى كيف عيشُه ومن ليس يدري الهوى كيفَ قد بقي

وأعجــبُ منــه مــن يحقّــقُ في غــدٍ وقوع الذي يخشى بوصفِ التحققي

وأعجب من هذين من وُعدَ الرضى ولم تنقطــع أوصــالُه بالتشــوُّقي

وأعجب من كل العجائب واصلاً يحــبهم مــن أيــن يخشــى ويتقــي

إذا كان قلب الصَّب في معركِ الهوى فـلا تسـألن عمَّـا تلاقـي ومـا لقـي

وأصــبح في قيــدِ الحيــاةِ ولم يمــت وكيــف لــه عنــدَ المقــالِ بمنطــقِ

دُعَـــاء ورجاء

اللهم إنك خلقتنا من غير شيء، وخلقت لنا كل شيء، وأنت العالم بكل شيء والقادر على كل شيء، ولا علم لنا في علمك بشيء إلا ما علمتنا من شيء، وقد أمرت وقدرت وأردت وخصصت ولا خروج لنا عما أردت، ولا محيص لنا عما قدرت ولا تحويل لنا عمّا خصصت.

فاجعل ما أمرتني به موافقًا لما قدرته علي، وما خصصتني به محبوبًا لما أردته مني حتى أكون محبًّا لما تحب، ومريدًا لما تريد، وموافقًا للمقدور في كل الأمور، وما أنا به مأمور، يا مجيب الدعاء يا فعال لما يشاء، خصصني بالتخصيص منك مما لا تصل إليه العقول ولا يبلغه الأمل في المأمول.

واجعلني محبوبًا لك بالاجتباء والاختصاص مع ملازمة الألطاف والأمان مما أخاف، إنك الكريم الوهاب.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبِه وسلم.

نصيحـــة:

فعليك أيها السالك بالله في الوسائل بكثرة السؤال، وسلوك الاحتيال بغير الله تعالى محال، فلا تصل إليه بغيره ولا تنال خيره إلا من خيره.

وعليك بالأدعية في كل الأوقات، واختر لها أوقات الخلوات وساعات الإجابات، وإن كنت تعلم أن الدعاء لا يرد المقدور لكن قد يكون الدعاء من المقدور

في دفع المقدور وأنت به مأمور، وأحكام المحو والإثبات غير مدفوعة في جميع الأوقات، وحكم الله تعالى فيما يشاء على ما يشاء، فما يشاء غير مدفوع ولا ممنوع، والمشيئة لا حجر عليها والحجر عليها محال.

فعليك بالإلحاح بالسؤال ويزيدك في النوال ما لا تصل إليه إلا بنية، ولا تلحقه الآمال ويرضيه من عبيده أن يلجّوا ويلحّوا في المسألة عليه، ويلتجئوا في كل الأمور إليه.

فإياك والوقوف عن الإقدام لما ارتكبته من الآثام،فإن الله تعالى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويبدلها بالحسنات، فارم كلّك عليه ووجه كليتك إليه وقل: «**إلهي**، على من تردني وإلى من تكلني؟ ألي رب سواك؟ ألي خالق غيرك؟ تولني كيف شئت».

فهو أكرم من أن يردك عن بابه ويدفعك عن جنابه، كيف والمصير إليه، ولا بد من القدوم عليه، وهو أوجدك من العدم بمحض الكرم لا لحاجته إليك ولا لأن يكلك عليك فالزمه، فهو بُدُّك الذي لا بد لك منه ولا بد له منك فافهم ذلك.

خُلوَات الأدعيَة

واعلم أن الخلوات للأدعية ثلاث خلوات وهي مخصوصة بالإجابات عند تحقيق الدعوات، وهي المشار إليها بالنفحات فخلوة عن الخلق، وخلوة بالحق، وخلوة مع الحق.

الأولى: أن يخلو قلبه مما سوى الله تعالى فلا يخطر بخاطره غيره من جميع المخلوقات دنيا ولا آخرة.

الثانية: أن يجمع كله على الله تعالى فلا تبقى فيه ذرة خارجة عنه.

الثالثة: أن يكون مع الله تعالى علي ما يختاره منه.

الدعاء المُستجاب

ولهذه الخلوات شروط ثلاث بها تجاب الدعوات عند حصولها، فإن الله تعالى إذا دعي أجاب، فقد قال تعالى: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [غافر: ٦٠] فلو دعوا

لأجيبوا، لكنهم لم يدع الله منهم إلا القليل، والقليل قليل، ولذلك سر خاص للحكم الإلهي وجريان الإرادة؛ إذ لو كانوا كلهم داعون وكلهم مجاب بكل ما يقصده مع وجود اختلاف المقاصد من كل واحد وفي كل واحد، وقصد كل واحد من مصالح ومفاسد لأدى ذلك إلى الفساد، والله لا يحب الفساد، فلذلك كان الدعاء مخصوصًا بصفات وأوقات، وقد كنا عملنا دائرة تقتضي معرفة الاسم المجاب به الدعوة، وهو واحد خمسون اسمًا من أسماء الله تعالى.

اســـم اللّه الأعظــم

ولما كان الاسم المجاب به الدعوة عند من لا عَرَف الله تعالى حقيقة معرفته ولا سبيل إلى معرفته حقيقة المعرفة، وإنما معرفة الله تعالى بحسب تعرُّف الله تعالى به إلى كل من اختصّه بالمعرفة الخاصة والمعرفة العامة؛ إذ ظهرت آثاره في الموجودات في الأحياء والأموات سمّاه اسم الله الأعظم.

فهو اسم الله الأعظم من حيث ذلك الداعي، وكل اسم لله تعالى أعظم؛ إذ المساوي حد في نفسه، وهو أعظم مما عظمه المعظمون، فإن كل ما وصل إليه المعظِّم له فالله أعظم من ذلك، وإنما كان عنده أعظم لظهور الأثر في الموجودات عند إجابة الدعوات، وهذا لا يختص باسم دون اسم، بل هو كل اسم لله تعالى وفي كل اسم معنى كل اسم، وإنما ذلك بحسب ما يجده الواجد عند استكمال الشروط فيه، فعند دعائه كمال الشروط اللازمة فيه بأي اسم أجبت به كان ذلك اسم الله الأعظم من حيث ذلك الداعي.

وقد يجاب غيره باسم غير هذا الاسم الذي أجيب به هذا الداعي، والكل أسماء الله تعالى فلا يحجبك الوقوف والتقييد لاسم، فتحصر الإجابة في لطفك بالاسم، أو تحصر توجهك إلى الله تعالى بوجهة واحدة ﴿**وَلِلَّهِ المَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة:١١٥].

أسماء اللّه تعالى لا تُحصر

والحق تعالى لا يحصر في الجهات ولا في التوجهات، بل هو من وراء الجهات والتوجهات، فكيف وقد عقلت بأداء الأسماء والصفات في جميع المخلوقات.

فانظر إلى اسمه الخالق كيف أثره في المخلوقات، والرازق كيف أثره في المرزوقات، والعالم في المعلومات.

فانظر إلى أثر رحمة الله، كيف يحيي الأرض بعد موتها، فهذه إشارة إلى تفهم معاني الأسماء والصفات، والذات العلية تحويه بالذات الأحدية الأبدية قبل القبلية وبعد البعدية بكل داع بما يناسب دعاه إذا استكملت فيه الشروط الثلاث المقابلة للثلاث، وفي ثلاث إلى ثلاث هي:

جمعية القلب على الله تعالى، وعدم الالتفات إلى غيره، ووجود الاضطرار إليه.

وهذه ما دعا بها داع إلا أجيبت، وقد جربناه فوجدناه كذلك.

فإياك أن تدعو ولم يجب فتزعم زعمًا فاسدًا؛ فإن الإجابة إن امتنعت فلعلّة فيك لا في نفس الإجابة، إمّا في عدم استيفاء الشروط وإمّا حظ لك في دعائك؛ فإن الحظ يحجب الهمّة ويمنع الإجابة.

دعَــاء الأوليَـاء

ومن هنا تعلم أن الأولياء إنما يدعون الله من غير حظوظ لأنفسهم، فإنما غضبهم ورضاهم لله تعالى.

تأخير ظهور الإجابة

وقد تكون الدعوة مجابة ويتأخر ظهورها لما لله تعالى فيه من الحكم، فقد ورد أن موسى عليه السلام تأخرت دعوته بعد الإجابة مدة من السنين- قيل أربعين -من حين قوله تعالى ﴿**قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا**﴾ [يونس:٨٩] وفي ذلك أسرار.

دعـاء الأنبياء

أما الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه فالتأخير في إجابة الدعاء لا يضرّهم وهم بذلك عالمون وبه موقنون، فلا فرق بين التقديم والتأخير؛ لأنهم في دعوتهم إلى الله تعالى على ما أمروا به، ويشهدون المراد بهم فيطمئنون لذلك.

وهم يشاهدون ما يقع، كما وقع بفرعون وغيره من الكفار من أعداء الدين، ولا فرق في الشهود بين البعيد والقريب؛ إذ القرب والبعد صفات المحسوسات.

أهـل الاطـلاع

وأما أهل الإطلاع فلا يكون عندهم كذلك، وقد يجابون في الساعة الحاضرة بحسب ما يكون اقتضى الحال في الدعوة كدعوة يوسف عليه السلام على عارم العادي حين كذب يعقوب عليه فأجيب في ساعته.

وإياك ثم إياك أن تعرض نفسك للدعاء عليك، أو تخاطر بروحك في التجربة في ذلك أو إيلام قلب من القلوب أو ظلم كائن من كان، فكيف بقلوب الأولياء والفقراء؟ فإن ذلك سريع الهلاك، أو الاستهزاء بالدعاء فكيف القلوب المشغولة بالله تعالى؟، إذ ليس بينها وبين الله تعالى حجاب.

فتحفّظ كل التحفّظ من ذلك، فلقد رأيت غير مرة في ذلك ما لا له حصر ولا عدد ممن أهلكه الله تعالى. فقد يكون في الدعاء التصريف.

وقول النبي ﷺ «**شاهت الوجوه**[1]» فهو موقع رمي الحصى، وإن لم يكن دعاء وهو صفة الدعاء.

التفاوت في اليقين

وأما ما عدا الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه فهم متفاوتون في اليقين وقرب الكشف وبعده، فإن الضعيف البصر ليس كقوي البصر، فإن الذي يكون بصره قويًا يشهد الطائر من على بعد ويعرف من أي الأطيار هو، والضعيف البصر لا يراه حتى يدنو منه.

ولذلك يقع العوام في الأكابر إذا أخبروا خبرًا وطالت المدة، ويتمسكون بمن دونهم في السلوك والطريق؛ لأنهم إذا أخبروا خبرًا ظهر في وقته، وذلك من ضعف شهود الرأي، أو يكون ابتداء سلوكه، فإن العارف في ابتداء أمره يكون كذلك لا يرى شيئًا حتى يأتي في وقته يقظةً كان أو منامًا، وكذلك كانت رؤية رسول الله ﷺ تأتي كفلق الصبح، وللعارف ميراث من النبي ﷺ.

ثم أخبر رسول الله ﷺ بعد ذلك بما أتى في هذا الزمان من النساء الكاسيات

---

(١) رواه مسلم (١٤٠٢/٣).

العاريات، وأخبر بما يأتي في الآخرة.

وأما الوقائع فهو يشهدها بأوقاتها في ساعاتها، كما كان يشهد من سراياه ﷺ في وقته، فهذا وقته ووقت شهوده في كل وقت لا يتغير الشهود فيه، وقد تؤخر الأخبار من يختار تأخيره.

أعظَـمُ الذُّنُـوب

وإياك أيها السائل أن تدعو و تطول المدة عليك بالدعاء فتقول دعوت فلم يستجب لي، فهذه من أعظم الذنوب المبعدة عن الله تعالى، وإنما انظر إلى نفسك في ذلك تجد الحجاب منك أو عنك، وهل أنت إلا عبد تقول ما أمرت به ليس لك من الأمر شيء ﴿ **قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ** ﴾ [آل عمران:١٥٤].

فلا تتعد حدّك، وقف عند عبوديتك لربك، وقل كما قلت:

مناجاة

إلهي، أسألك وأدعوك بوصف العبودية لك، ووجود الاضطرار إليك، لا للاعتراض ولا لمخالفة الاختيار منك.

إلهي، وسعت كل شيء رحمةً وعلمًا، فأي شيء لا تسعه رحمتك وعلمك؟ وأي ذنب لا يسعه عفوك ومغفرتك؟ وأي مجاهرة لا يسعها حلمك؟ وأي قبح لا يسعه سترك؟ وأي إيجاد وعمل لا تسعه قدرتك واستيلاؤك؟ وأي خطرة أو فكرة أو ذرة أو دون ذرة لا تسعه إرادتك ومشيئتك؟ وأي وصف أو نوع أو جنس لا يسعه اختيارك وتخصيصك؟ وأي خلق أو عالم لا يسعهم رزقك وفضلك؟.

إلهي، أنت أوسع من العطاء، وأكرم من الكرم، وأجود من الجود، إلهي، إن الضعف صفتي والقوة صفتك، والذنب صفتي والعفو صفتك، والخوف صفتي والأمان صفتك، والبخل صفتي والكرم صفتك، والنقص صفتي والكمال صفتك، وصفات الحدوث لا تقوم لصفات القدم، فجُد علي بما أنت أهله من الجود والكرم والمنة والفضل من صفات الكمال، ولا تؤاخذني بما أنا أهله من صفات النقص والذنوب وسوء الخصال، إنك أهل التقوى وأهل المغفرة.

إلهي، بيدك الخير كله، ولك الأمر كله والخلق كله وإليك المصير.

إلهي، أنت أعلم بما أقول قبل أن أقول، فما أقول وأنت مقولي ما أقول؟ فكيف أقول أم كيف لا أقول وقد أمرتني أن أقول؟

إلهي، أدعوك كما أمرت ولا اعتراض لي فيما قدرت، والاختيار منك والعلم السابق لما اخترت، فاخترني لما اخترت من خير الخيرة، وشائني للخير وشاء الخير لي منك وفيك وشاء مشيئتي لمحبتك لما شائه لمحبتك، وشاء محبتك لي، وشائني للمحبة فيك، وشاء مشيئتي لك حتى لا أشاء ولا أختار إلا ما تختار، ولا أحب إلا ما تحب مع اللطف الخفي الظاهر والباطن في الظاهر والباقي والحق، الأول بالآخر والاختيار منك سابق والفضل بيدك متلاحق.

إلهي إلهي إلهي، أدعوك وأسألك، وأسألك وأدعوك وأبتهل إليك، وأرجوك بما علمت كما علمت لما أردت كما أردت، فردني للخيرة واخترني للإرادة ورد إرادتي وشاء لي المحبة وشاء المحبة لي منك، وشاء مشيئتي لك وارض رضاى لرضاك، وارضني في رضاك حتى لا أختار إلا ما تختار، ولا أحب إلا ما تحب، ولا أرضى إلا ما ترضى، ولا أريد إلا ما تريد.

كلا، إني أسألك بك وبك أكون، بل خلقتني لك وخصصتني لمحبتك لي، ونزه قلبي من ملاحظة غيرك ومشاركة سواك في نفس أو زمن أو ذرة أو خطرة أو لمحة، وامحني مني وأفنني عني وأبقني بك عبدًا مخلصًا لديك، مجموعًا عليك، قائمًا بحقك، سميعًا بصيرًا مطيعًا لك، ناطقًا بك، متكلمًا عنك، راجعًا إليك، لائذًا بك، عائذًا من غيرك بك، لا شيء لي في غيرك ولا لغيرك في شيء، ولا سواك موجود، فاجعلني عبدًا مخلصًا.

يا الله يا الله يا الله، يا غني يا عزيز يا وهاب، لك مقاليد السماوات والأرض، ولك الدنيا والآخرة وما بينهما وما فيهما وما قبلهما وما بعدهما، بالاستمرار في البدء والإعادة والخلق والاختراع ،تخلق ما تشاء وتحكم ما تريد وما تشاء أن تخلقه وما خلقته مما لا يعلمه غيرك وما علمتنا.

إلهي، كل خير بيدك قد خلقته وقدرته من نعمة وفضل وما هو عندك مما لا يصل إليه علمي وعملي ولم يبلغه أملي ولا أمنيتي، ولك عطاؤه، فأسألك خير ما عندك من خير خيرك وأفضل فضلك، وخير الخيرة مما تختاره وأنت المختار اللطيف فيما تختار،

فشئني لذلك كله وشئه لي، واخترني له واختره لي، واختر اختياري في الاختيار فأنت المختار.

إلهي، العجز صفتي والقدرة صفتك، والنقص صفتي والكمال صفتك، ولا قدرة لي على وصف وصف من صفاتك، ولا شكر نعمة من نعمائك إلا بالعجز عنها، ولا علم لي بعجزي عن العجز في ذلك إلا بالعجز عن ذلك، وعندك فوق ما أطلبه وراء ما أختاره وأسأله وأريده فشائني له، وأعطني ما لا وصل إليه علمي ولم يبلغه أملي ولا تدركه أمنيتي، فأنت واسع عليم حكيم كريم رءوف رحيم.

إلهي، لا أملُّ سؤالي لك إذا شئت، وعطاؤك أوسع من سؤالي، ورجاؤك ألذ من طلبي، ومناجاتك أحلى من حياتي، واستروَاحي في السؤال لك ألذ من العطاء في السؤال، وألذه علمي بأنك لي حسبي، حسبي أنت لا إله لي سواك يا رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

إلهي لا أعزَّ من عزِّك، ولا أذلَّ من ذلِّي لك، يا معز الأعزّاء ومذل الأذلاّء، فاجعل ذلك لي حتى أكون بك عزيزًا، ولا تجعل عزتي بغيرك فأكون ذليلاً به، حسبي حسبي أنت ربي لا إله لي غيرك، كفاني شرفًا بنسبتي إليك عبدًا ولو بنسبة الخلق والاختراع، قد ابتهج قلبي بسروري بك، وابتهج السرور بسروره منك، أعوذ بك من الأنفاس وصفة الارتكاس والانعكاس أن أنسب إلى غيرك، أنت حسبي لا إله إلا أنت وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

وقد قلت:

قضى الحبُّ أن العزَّ بي دولة الذل	فلا تسمعْني يا صاحِ في الذلِّ من عزلِ
فذلُّ لعبدِ العبدِ في الحبِّ طائعًا	ومن جاءَ من بعدٍ ومن جاءَ من قبلِ
وكن أرضَ أقدامِ العبيدِ جميعَها	لترقى بذاكَ الذّلِّ في قسمةِ الفضلِ
وإن كان قِبَلُ النفسِ فيه مرارةٌ	فما مرَّ بالعشاقِ أحلى من القتلِ
فبادر ببذلِ النفسِ في الذلِّ في الهوى	فإن كنتَ مقتولاً فناهيك من بذلِ

فياحبــذا مــوت المحــبِّ علــى الهــوى ذلــيلاً عــديم النصــحِ والمــالِ والأهــلِ
تــرى يَقبلــوا مــني خُضــوعي وذِلــتي وتقطيعَ أكبادي وما شتَّ من شملي
تــرى يرحمــوا كَسـري وبعـدي وقطعَـتي ترى بعد هذا الهَجر ما يملُو من وصلِ
تــرى يســمحوا أو يعطِفــوا أو يرفِقــوا ولــو يوعــدوا بالوصــلِ في النــوم بالمطــلِ
تــرى يتركــوني تحــتَ أبــوابِ عفــوِهم طربًــا وهــذا الوصــفُ في حبِّهم شغلي
تــرى يجمعُــوني بعــد تفريــقِ جملــتي إلــيهم في محبــتِهم وألقــي كلِّــي
تــــرى ينظــــروا لي نظــــرةً بــــترحُّمٍ وأُشــهدهم فيهــا شــهودًا بــلا عقــلِ
تــرى يجعلــوني كيــف شــاءوا لــديهِمُ على كلِّ حال كانَ أو كان من فعلِ
تــرى أي اســمٍ كــان يُــدعى لهــم بــهِ فــأدعُوهم كــلَّ الــدعاء بــلا مهــلِ
ترى إن يكن بعدي وهجري رضاهُم فما حيلتي يا صاحبي في الهوى قل لي
تَــرى لي رجــا أرجــوه فــيهم بحــبِّهم ومــن لي بمــا أرجُــوهم فــيهم مــن لي
ومــن أيــن لي أرجــو وأرجيــه غــيرَكم ومــن يــرجُ غــيرًا كــان في غايــةِ الجهــلِ
وإن مُــنحَ لي نســبُ العبيــد إلــيكمُ عَلــوتُ بــه بــين الأنــامِ فمَــن مثلــي
إذا جَــاء كــل النــاس يومــا بفضــلِهم أجــيء بفقــري في القيامــةِ مــع ذلِّي

إلهي، أنا محجوب عن خيرتي منك وفيك خيرتي وخيرة خيرتي، فاخترني خيرني لك، وكن خير خيرتي من خيرتك في اختيارك لك خيرتي، واخترني للخيرة لك باختيارك لي خيرتي إياك، وأنت المختار وخيرة كل مختار من المختار في الخيرة، وخيرة الخيرة من الخيرة، وأنت تفعل ما تشاء وتختار، يا محجوبًا بالظهور، وظاهرًا بالحجاب، وظاهرًا لذاته بذاته، وباطنًا عن العقول وما ظهر من العقول، يا عالم الغيب والشهادة، يا رحمن يا رحيم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

وقد قيل:

يــا جَــازعين عــن المتِــابِ تقــدمُوا فالـــذَّنبُ يُغفـــرُ كلُّـــه بالتوبـــةِ
ولقــــد صـــــدقتكم بوعـــــدٍ محقـــقٍ قد قـالَ ربي لا تقنطُوا مـن رحمـتي
أنــا عبــدُ غفــارِ الــذنوبِ جميعِهــا مــن ذا ينــازعُني وينكِــرُ نســبتي

إلهي، إن الكريم لا يحتجب عن الأضياف ولا يمنعهم القرى، والدنيا والآخرة دارك ونحن أضيافك فيها، فلا تحجب عنا رحمتك، ولا تمنعنا رفدك، وعاملنا بمحض الكرم، يا من لا بداية لوجوده ولا نهاية لوجوده ولا غاية لفضله ولا تدرك العقول كنه وصفه، ولا تنتهي الآمال ولا طلب السؤال إلى بعض ما عنده، عطاؤك أفضل من الآمال، وفضلك أكثر من السؤال، وخيرتك لي خير لي مما اختار، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

لقـد تعجبـتُ مـن نفسِـي ومـن أملِـي حتى لقد صرتُ ذا خبلٍ من العَجبِ
أقضـي الحيـاة بمـرِّ العـيشِ في تعـبٍ والنفسُ تهوى بأن تبقى على التعبِ
يا نفسُ ويحك كـم قضيتِ من إربٍ فيمـــا تريـــه ولا قضـــيت مـــن إربِ
والمـــوت خـــتمٌ بـــلا شـــك مواقعُـــه كأنــه الــوهمُ أو ضــربٌ مــن اللعــبِ

الوصَــايا:

ولتلزم أيها السالك قراءة هذه المناجاة صباحًا ومساءً، وهي هذه:

إلهي، إن إبليس أحقر في علمك أن ينازع في مشيئتك، أو يخالف بي عن أوامرك، وإنه لعاجز في نفسه عن نفسه في ذلك وغير ذلك، فلا تشغلني به عن رؤية مواقع إرادتك مني، واجعل مرادك مني ما أمرتني به ونهيتني عنه وأطبه لي ولذذني به حتى أكون مريدًا لك في مرادك مني.

إلهي، إن كان سبق في علمك لي عذاب في وصف من الأوصاف أو عالم من العوالم بسبب أو بغير سبب ولم يدخله محو ولا إثبات فلا تحجب في ذلك وجهك عني، ولا تشغلني بالعذاب عنك، وأشهدني إياك فيه، وأفنني في شهودك عنه وعني،

وأبقني بك في وفيه حتى يَعذُب لي فيك العذاب ويَلذُّ لي فيك العقاب فلا عذاب ولا عقاب، وأرسلني من لطائفك إلى لطائفك.

إلهي، إن قلت الحق فأنت قولتني، فألزم به قلبي وجوارحي، ولا تصرفني إلى باطل يعود على صفتي، وهو حق في إيجادك جار على مقتضى مرادك.

إلهي، فقولني الحق وقل الحق عني، ولقني الحجة واجعلني عين الحجة في الأقوال والأعمال، وتولني في ذلك عني ولا تكلني إلي.

إلهي، إذا انتهى انقضاء أجلي وانحلال تركيبي فتولى قبض روحي بلطيف رأفتك، وسقها إليك بشدة الشوق إلى مشاهدتك، وأذقها من شراب أنسك ولذيذ حبك ما يسليها ويفنيها عن وحشة الجسم وعوالم العادة والرسوم الفانية والوقوف مع غيرك في العاجلة والآجلة، وأدخلها برحمتك في رحمتك، وبرضاك في رضوانك، ولذذها بمحبتك في محبتك.

إلهي، إذا أحاط بي الملكان في الحفرة وسألاني عن تحقيق عبوديتي لك باستحقاق ربوبيتك لي، وفيما سبق به العقد لأنبيائك، فخاطبهما عني وقل حجتي، ولا تشغلني بهما عنك في هذا المقام ولا في غيره، وقولني الحق بك، ووحد نفسي على لساني، وثبت قلبي بحقائق إيمانك، واتباع أنبيائك، ولا يهولني أرواعهما، ولا توحشني صفة خلقهما، وآنسني بك في كل وحدة، واجعل الحفرة روضة عامرة ونزهة ظاهرة.

إلهي، إذا قام العباد إلى الساهرة، وظهر منها ما وعدت، والحق وعدك، والأمر والحكم لك، وقبل ذلك لم يزل كذلك، فإنني بصفاتي أعجز عن مناقشة حسابك ووزن أعمالي والعبور على الصراط وقراءة الكتاب وشهود الأهوال ورؤية الخزي والشنار والفضيحة وما لا أطيق الكلام به لشدة ضغطه ودهشة هوله، فأسألك بك أن تسترني عن ذلك كله، وأن تشغلني بفرحي بلقائك عن رؤية حسابك وعقابك، ولا تخجلني، ولا تفضحني، ولا تشهدني، فضيحة أحد من عبادك، يا معبودي يا مقصودي.

إلهي، إن السعيد من أسعدته والشقي من أشقيته، فأسعدني بك، واجعلني عين السعادة، وأسعد بي من شئت من عبادك، ولا تشقني، ولا تجعلني في الشقاوة، ولا سببًا لشقاوة أحد من عبادك.

إلهي، إذا استقر أهل الدارين فيهما ففي أيهما أنزلتني فنعمني بك فيما شئت

منهما أو من غيرهما، ولذذني بك في عوالمك الباقية، وكن جنتي في جنتي، ونعمتي في نعمتي، يا غايتي عند غايتي، يا أملي من أملي، يا غياثي، يا غوثي، يا من يشملني بهذا الشمول، ويعلمني هذا العلم، ويملكني هذا الملك، ويقيمني هذا المقام، اقطعني عن غيرك واقطع غيرك عني.

يا سيدي، يا مالكي، يا هو يا هو يا هو، أنت الهو ولا هوية لغيرك، أنت أنت أنت ولا أنية لسواك، حسبي بك منسوبًا إليك.

يا الله يا الله يا الله، يا رباه يا رباه يا رباه، يا سيداه يا سيداه يا سيداه، انقطع رجائي من غيرك، ورجاء كل راج وإن عم الوهم فأنت الغوث ولا غوث سواك، وإن تعبدوا لأوهامك فلا تصح الألوهية لغيرك ولا العبادة لسواك، أسألك بك يا معبودي يا مقصودي أن تصلي على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وعلى جميع النبيين والمرسلين في عوالمك أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

نصائح خماسيّات

وعليك بخمس في جميع أحوالك وأقوالك وأعمالك: نفي الأنية، ومحو العينية، ولزوم الآخرة، والبقاء مع الله تعالى بلا رتبة.

وأتبعها بخمس: اترك ما يتركك قبل أن يتركك، والزم ما يلزمك قبل أن يلزمك، وصاحب التقوى، ولا تصرف منك ذرة لغير الله تعالى.

وجملة الخيرات في خمس: المحبة في الله، والصدق مع الله، وامتثال أمر الله، واجتناب نهي الله، وترك الاعتراض على الله.

وأتبعها خمس: حب ما أحب الله، وابغض ما أبغض الله، والصبر مع الله، والرضا عن الله، وسلب الاختيار مع الله..

ويصاحبها خمس: كرم الصفات، وحفظ الأوقات، وترك الأسى على ما فات، والفرح لما هو آت، والشفقة على جميع المخلوقات.

وكن في سيرك على خمس: وجه كليتك إلى الله، ولا ترض في طلبك بغير الله، وارفض ما سوى الله، وارم كلك على الله، ولا تجعل إلهًا مع الله.

وحق النفس خمس: لا تصرف منها نفَسًا لغير الله، وصنها مما سوى الله، وارع

بها حقوق الله، وانتفع بها في رضى الله، واتباع رسول الله.

و**حوائجك** خمس المقابلة لجوارحك الخمس، وأعمالها أفضل من أعمال الجوارح بعد القيام بالواجب، بل الذرة الواحدة من أعمال الجوانح الباطنة لا يقابلها مقابل، وعقلك ونفسك وقلبك وروحك وسرك خمس، ولكل واحد من هذه الجملة حقيقة، فالعقل للأوامر، والنفس لقبول الصور، والروح للحب، والقلب محل الوارد، والسر محل التجلي، - وليس هذا موضع الكلام فيه -

وصاحب الناس بخمس: حمل الأذى عنهم، وترك الأذى عنهم، وإيجاد الراحة لجملتهم من محسنهم ومسيئهم، والإنصاف فيما بينهم، والنصيحة من الله تعالى لهم.

وكن بينهم متصفًا بخمس: بإفشاء السلام، وإطعام الطعام، ولين الكلام، والبشاشة عند الإقدام، وترك المنازعة والخصام.

واترك في اجتماعك بهم خمس: المعاداة لهم، والمماراة معهم، والارتفاع في مجالسهم، والكلام فيما لا يعنيك، والإعراض عن نقائصهم.. ويتبعها خمس: لا تنظر نفسك أميز من أحد منهم ولو كان أدنى أدناهم نقص أو معصية أو غير ذلك، فإنك لا تدري ما يئول إليه حاله عند الله تعالى، فإن نقصه لا يضرك وإن كان كبيرًا ونقصه يضرك وإن كان صغيرًا، ولا تزدري أحدًا من المخلوقين ولا تستهزئ به، فإن الله تعالى خلقه على أحسن خلق وتقويم وحاله مستور عنك، واعوجاج المنجل استقامة في حصاد الزرع، وليس الحكم الإلهية من شأنك، ولا تعنفهم على الذنب بعد التوبة، ولا تعيرهم بالنقص، وادعُ لهم بالإنابة وحسن الخاتمة.

ويلزمك خمس: الإصلاح فيما بينهم، وترك الخوض فيما شجر بينهم، والتغافل عن سقطاتهم، والستر على قبيح، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حسب الاستطاعة، وحسن التلطف.

ويتبعها خمس: توقير الكبير، ورحمة الصغير، وإجارة المستجير، واتباع التيسير. ويصاحبها خمس: جبر الكسير، وإطلاق الأسير، وإهداء الضرير، واستفهام الخبير، ونصيحة المستشير.

ويليها خمس: تحقيق الأحكام، وموافقة الحكام، وتبين الحلال من الحرام، واجتناب الآثام، ومجانبة أموال الأيتام.

وتأسيس ذلك خمس: لزوم التقوى، وترك الهوى، ومباينة الدعوى، والبعد عن الأغوى، ومعاملة الحق تعالى في السر والنجوى.

ويسايرها خمس: الصدق في الأقوال، والإخلاص في الأعمال، والعدل في الأحوال، ونفي المحال، ومعاداة الضلال على كل حال.

ويناسبها خمس: القيام بالحق، ومحبة أهل الصدق، والحكم بالرفق، والتحرز في النطق، والعمل على الحرية والعتق.

وتقوي ذلك خمس: موالاة أولياء الله، ومعاداة أعداء الله، والحب في الله، والبغض في الله، والرضى بقضاء الله.

ويرد فيها خمس: حب المساكين، وانتصار المظلومين، والإعانة على الدين، وإظهار شعائر المسلمين، وإخماد كلمة المبطلين.

ويظهر ذلك في خمس: المواددة للمؤمنين، والجهاد في الكافرين، والترفع على المتكبرين، والرد على المبتدعين، والإعراض عن الجاهلين.

ويستبين ذلك في خمس: وجود الاعتدال، والعدل في الأقوال والأفعال، والقيام بصفات الكمال، ورفض قيل وقال، والاستمرار على ذلك في جميع الأحوال. **وعلامة ذلك** خمس: الوقوف مع الأدب، وقول الحق في الرضا والغضب، ويترك لله ما أبغض وما أحب، والنظر إلى المسبب في ظهور السبب، وتصديق من صدق وتكذيب من كذب، ولتعلم أن مفاتيح الغيب عند الله تعالى لا يعلمها إلا هو، ولا تقف ما ليس لك به علم ما لم يعلمك الله ذلك.

وانظر إلى الخمس الذي لا يعلمها إلا الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ [لقمان: ٣٤].

ولعلك تقول: من الأولياء من يقول ينزل المطر فينزل، ومنهم من يقول المطر يأتي فيأتي.

السّبتي الكبير والمطر

كما حدثني الشيخ عبد العزيز -رحمه الله تعالى-عن السبتي الكبير الذي كان

بالغرب أنه أتاه خادمه فقال له: يا سيدي، إن فلانًا قال ما يدفع لنا خراجًا - وكان يأخذ الخراج من الفلاحين الذي يسقي لهم الأرض بالمطر - فقال الشيخ: ونحن أيضًا، ما نخلّي للفلاحين أرض.

فنزل المطر على أراضي جميع الفلاحين إلا أرض ذلك الذي امتنع من إعطاء الخراج، وكان في وسط الأراضي، فبقي المطر ينزل من جانبه من ها هنا ومن ها هنا وهذا يابس، لم ينزل فيه قطرة واحدة، فجاء وأتى بالخراج فقال للمطر: اسق أرضه فسقته.. فهذا لا يناقض شيئًا من علم الخمس التي عند الله تعالى، فإن الشيخ وإن أشهده الله تعالى نزول المطر أو أعلم بإنزاله فليس ذلك إنزال للمطر ولا سبب في إنزاله، وإنما ذلك إطلاع من الله تعالى وإظهار لتكرمته عنده، لا أنه أنزله.

وكذلك قوله للملك الذي خشي على أَمَته الموت فقال له: ادفع ديتها ألف دينار وأخلّي أنا ابنتي تموت عوضًا عنها، فدفع ذلك، ففرقه الشيخ على المحاويج والفقراء وقال لابنته: موتي فماتت فقال: برئت برئت.

علـم اللّـه

وهذه الحكاية مشهورة بين الطائفة، فليس ذلك أيضا مناقضًا ولا داخلاً في علم الله تعالى ولا مشاركة له في علم الله ولأن الأرض التي يموت فيها الميت غير معلومة وإن كانت في بيت معروف، فقد يقول الفقير فلان يموت في الموضع الفلاني والأرض نفسها غير معروف -أعني الموضع المخصوص بالموت- فإنه يكون أحد جنبيه أو على ظهره فلا يدري أي الموضعين، فإذا انقلب يعود إليه من أرض الجبين أو أرض الظهر أو أرض البطن فيستر الله عنه ذلك.

وكذلك علم الساعة مع تقديمه على نزول الغيث، فإنها تأتي بغتة، وإن أطلع الله من اختصه من أنبيائه ورسله وخواص أوليائه على اليوم الذي تقوم فيه الساعة فحالة قيامها من ساعته غير معلومة في اليوم له، وقد يستر ذلك.

ولذلك **علم ما في الأرحام** من ذكر أو أنثى أو غير ذلك فقد يقول الولي: في بطن هذه ولد، وقد يقول في بطنها ذكر أو أنثى- كما حكي عن سيدي أحمد بن الرفاعي أنه قال لشخص إن في بطن زوجتك غلام فولدت أنثى فقال: وعزة ربي، لقد

مسكت خصويه بيدي هذه، وإنما أراد الله تعالى أن يكذب حميده. وكذلك حكي عنه في بقرة ضاعت فجاء صاحبها إليه فأخبره أنها في المكان الفلاني، وقد ولدت عجلة أو قال عجلاً في وجهه نوارة بيضاء، فجاء ووجد البقرة ووجد عجلا في وجهه غرة بيضاء.

وقد ذكرنا حكاية بادا الكردي ولم يكن ذلك من هذا القبيل فإن ذلك سأل الله تعالى أن يرزقها ولدًا ذكرًا، وإنما قد يطلع الله الولي على التصوير عند استكمال التصوير ولا يطلع قبل التصوير ولا بعده، وليس هذا علم ما في الأرحام، فإن نزول النطفة إلى الرحم ما يدري ما يكون منها، ثم ما يئول إليه الحال في الرزق والإشقاء والسعادة والإماتة والإحياء، كل ذلك في بطن الأم.

وكذلك **الاكتساب** لا تدري نفس ماذا تكسب غدًا، كل هذه الخمس وقد يكون ذلك مضمر بالاستثناء لمن اختصّه الله تعالى ممن اختصه الله تعالى للإطلاع، وعلى الجملة فلله في كل علم وعمل وخلق خلقه من جميع مخلوقاته علم خاص لا سبيل إلى وصول المخلوقين إليه؛ لأنه استأثر به لنفسه، فذلك لا سبيل إلى الوصول إليه والوصول إليه محال لأنه من صفات الألوهية.

وبني الإسلام على خمس، والصلوات المفروضة خمس، ورسول الله ﷺ وخواص آله خمس، وصحابته بالسوية خمس.

الواحدية

وإذا اعتبرت هذا العدد بل كل عدد وجدت الواحد الفرد ابتداء كل عدد فيه ووجدت عنه الأعداد، ويتحقق عند ذلك علم الفردانية والوحدية والوحدانية والأحدية التي ليس معها غيرها في اسم ولا وصف ولا نعت، لأن الواحد أصل الأعداد، فإذا قلت واحد وأضفت إليه شيئًا آخر وقلت اثنين فإنما هو واحد وواحد، وهكذا إلى ما لا نهاية له.

فإن الواحد ساريًا في الأعداد، وكان ذلك دليل على وحدة الله الواجب الوجود من غير ابتداء ولا افتتاح قبلية له، وإذا ذكرت اثنين فإنه عنه صدر، وإذا كانت ثلاثة المقدمتين والنتيجة؛ إذ يقول خالق ومخلوق وخلق، وعالم ومعلوم وعلم.. هكذا فإذا كانت أربعة وجدت الواحد من أول الحال، والثاني والثالث والرابع.

اسم: اللّـــه المفرد

فالاسم الجامع للمعاني والصفات اسم الله تعالى الذي به وجد كل موجود، أربعة أحرف، فيه قوام الوجود بأسره، وظهرت عنه العناصر والأمهات الأربع التي وجد منها العالم والماء والنار والتراب والهواء والعالم كله أربع.

قال تعالى: **﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [طه:٦].**

وإذا اعتبرت الألف في الابتداء نجد معناها بالاعتبارات موافقة للوحدة من جميع الوجوه، فإنها ابتداء وافتتاح لرسم الحروف، وهي في الأعداد بواحد لا يخرج عن ذلك ولها معان كثيرة وليس هذا مكانها، ويليها اللام منعطفة عليها بالألف في الكتابة واللفظ إذ هي الألف لام ألف، فصارت اللام معانقة الألف ومشيرة بانعطافها إلى الابتداء في الكتابة ومغايرة لها باللفظ وصارت الميم صورة دائرة الوجود.

فإذا أضفت إليها اللام الثانية كانت كذلك لا يزاد عليها شيء ولا ينقص منها شيء، فإذا أضفت إليها الهاء كانت صورة صفة الاستكمال للدوائر والختم عليها، وهي إشارة إلى الأصابع الخمس إذا فرقتها وقفلت الإبهام مع السبابة كالميم أو العين، وهي في الأعداد لها خمس؛ إذ لا يرفع لإحاطة الدائرة.

والواحد المنفرد بذاته وكذا هو في كل عدد إذ الألف واحد واللام ثلاثين فانفرد الواحد عن عدد الثلاثين وكذا اللام الثانية، فإذا قطعت اللام حروفًا جاءت لام ألف ميم، فاللام بثلاثين والألف بواحد والميم بأربعين، فكانت أحد وسبعين، فكانت السبعين للأعداد المعروفة عند العرب، وانفرد الواحد عن العدد.

اسم: الواحـد[١]

(١) هو المنفرد في ذاته وصفاته وأفعاله، فهو واحد في ذاته، فلا ينقسم، ولا يتجزئ، وفي صفاته فلا يَشبهه شيئًا، ولا يُشبه شيء، وفي أفعاله فلا شريك له فيها، والتقرُّب بهذا الاسم تعلُّقًا، ألاَّ ترى في الدَّارين إلا هو، ولا تعرج على غيره؛ فتفرد قلبك له ونكون واحدًا به.

وقد فسر قوله ﷺ: «إن الله تعالى وِترٌ يحب الوتر بالقلب المنفرد له».

وبذلك يصحَّ لك التخلُّق فتكون واحدًا في عصرك بين أبناء جنسك كما قيل:

إذا كَـــان مَـــن تَهْـــواهُ فِي الحُســـن واحـــدًا فكُـــنْ واحـــدًا فِي البحْـــرِ إنْ كُنـــتَ تَهْـــواهُ

=

وكذلك في اسم الواحد: الألف بواحد والواو بستة والحاء بثمانية والدال بأربعة فكانت تسعة عشر: اثنا عشر المعلوم والحساب، ومنه اثنا عشر، وغير ذلك من الاستنباط وعلوم كثيرة في ذلك، وانفراد الواحد عن الأعداد فيه ظهر العدد وهو يظهر العد ولا يظهر بالعدد، وهو الواحد لا من عدد والأحد لا من أحد ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص: ١-٤].

فالواحد هو الله تعالى، وهو الفرد بذاته، الغني عمّا سواه، واجب الوجود بذاته، وابتداء الحروف ألف وهو أحد وواحد سواء، وحين أوجد الموجودات فظهر العدد بالسوية، فظهر تسميه بالرب:

الــــرَّب

و الرب حرفان لا نقيض وجود المربوب، وهي في الهجاء رب حرفان، فالراء بمائتين، والألف بواحد، واللام بثلاثين، والباء باثنين، فكانت مائتين وثلاثة وثلاثين، فسبقت الراء الباء بمائتين وثلاثين، وانفرد الواحد بر، نور، أوّل آخر، عفو رءوف، وانفرد الواحد عن العد.

وآثار هذا الاسم عظيمة، وله من الحروف حرفان في أربعة أسماء، وهي رب، بر، حي، حق فإذا ظهر في ثلاث حروف باسم أوله الألف لام هاء، وأصلها لام هاء فكانت بخمسة وسبعين، أربعة لتعيين الأعداد، والأربعة لكمال الدائرة، وانفرد الواحد عن الأعداد.

وَلِلــهِ الأَسْمَـاءُ الحُسْـنَى

وله من الأسماء ثلاثة عشر اسمًا: ملك، علي، قوي، غني، ولي، ملك، وفي، قدوس، جواد، فتّاح، واحد، أحد، فرد، صمد.

فإذا ظهر في الأربعة -وهي استكمال الدوائر والخلق والاختراع- كان له أربعة أسماء: الألف واللام واللام والهاء، وهو الله تعالى.

=

وخاصيته: إخراج التعلُّق بالخلق من القلب، فمَن قرأه ألف مرة؛ خرج منه ذلك، وكفاه الله خوفهم الذي هو أصل كل بلاء في الدنيا والآخرة.

وله من الأسماء سبعة وسبعين، فالوهاب والتواب والفتاح والعليم والحليم والكريم والخالق والرازق والعالم، إذا ظهر اللام في الخمسة الحروف كان له من الأسماء أربعة: فمهيمن سلطان رحمن متكبر، ووقعت التكليفات في الأعداد الخمس: كالخمس صلوات وبني الإسلام على خمس، وقامت الحواس وكان عليها التكليف، وكملت الإحاطات وبقي حكم الأعداد على الأوّلية، فقال واحد وواحد بمقتضى إلى ما لا نهاية له.

فما عدا ذلك من الأعداد كالست جهات، لها من الأسماء الموجودات والبارئ تعالى منفرد بالوحدة الأزلية عن خلقه في الجهات والكميات والأعداد من صفات العبيد وهذا فيه بحر عميق، وللسالك من ذلك نصيب في سلوكه.

الاسم الجامع(١)

فإن الاسم الجامع هو **الله** تعالى وهو أربعة أحرف واسم النبي ﷺ محمد أربعة أحرف، والوجود أربعة عناصر، والفوق والتحت وما بينهما وما تحت الثرى أربع والأمزجة أربع.

والسالك يسير على تبعية نبيه فبحسب تبعيته يكون ميراثه من نبيه، وبحسب ميراثه يعطى نصيبه من الله تعالى، فإذا أعطي نصيبًا من الألف الإلهية كان له نصيبًا من ميراثه الميم المحمدية يكون له تصريفًا في أحد الأربعة أقطار العلوية والسفلية، وهكذا يجري إلى الهاء وهي عندهم جمع الجمع، فيه قول الشيخ عبد العزيز رحمه الله تعالى:

إذا صَار ظلُّ المرءِ فضلاً لرحله ... لقد نشَرت بالعزِّ آياته نشرَا

وإن فقد الشفع المضر فإنه ... بحذف السوى للاستوا يجد الوترا

وسمع من كل الجهات مناديًا ... يناديه يا أهل الوفاء ادخلوا مصرا

والمقصود من هذه الأبيات قول:

---

(١) إن الخصائص والأسرار والمحاسن في الاسم: الله. كثيرة، والفوائد فيه غير يسيرة، فكم في أعماق أنواره من الدر المصون والرمز المكنون والسر المختوم، والدليل العظيم والكنز القديم، والترياق الشافي والدواء الكافي.

ومــن بعــد جَمـع الجمـع تفرقــة فمــن يفــوزُ بهــا لم يخــشَ زيــدًا ولا عمــروا
تــزف لــه فيهــا العمائــلُ منحــةً فيرجُــو ويــأوي ويودعُهــا خــدرا
وإن جــاه كفــو وآنــس رشــدَهُ وشَــاهد ســرَّ العســل أنكحــه عــذرا
ومــن لم يكــن في الفلـك بــالحكم راكبًــا فــذاق غَريــقُ الــيَمّ لم يصــل الــبرَّا

وليس هذا الكلام من غرضنا في الكتاب، وإنما لما تعلق به المعنى ذكرنا منه طرفًا خشية أن يظهر للسالك من غير بيان، فتتسع الفكرة المشوشة.

وإذ قد عرفت حقيقة وجودك من غير شيء، وأن الله واجب الوجود ولا فاعل سواه، ولا معط ولا مانع غيره فلا تخف سواه ولا ترجو إلا إياه.

وقف عند حدّك والزم عبوديتك، ولا تتعرض عليه في ملكه وخلقه، وأعط الحق من نفسك، ولا تطلب من غيرك حقًّا لك.

ولازم ما يلزمك، واترك ما يتركك، والجأ إلى الله تعالى في جميع أحوالك وأقوالك وأعمالك، وانظر إلى نفسك بالعدمية، وكل ما وجد فيك فهو من فضل الله تعالى عليك، فأنّى تقوم بشكر ذلك، وتقوم بحقوق الله تعالى له بالعبادة والاستحقاق لا لطلب ثواب ولا خشية عقاب، فإنه واجب الحق من غير ذلك، وأعط العيال حقوقهم التي فرض الله تعالى لهم وسنّها رسول الله ﷺ فيهم من واجب ومسنون من النصيحة في الدين والمروءة والفتوة ومكارم الأخلاق، وقد تقدم ذكرها.. ومجموع ذلك لا تستقبح من غيرك شيئًا وتفعله فيكون أقبح منه.

وإذا استحسنت من غيرك فعلاً فلا تتركه فيكون خيرًا منك، وقبِّح ما قبح الله، وحسّن ما حسّن الله، ولا تقف مع نفسك ولا علمك ولا عملك فهو معلول ومدخول، وكل فعل فعله رسول الله ﷺ فهو من عند الله تعالى، فلا تترك منه شيئًا فقد قال الله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ**﴾ [الحشر:٧]، وأطع رسول الله ﷺ فهي طاعة الله تعالى، وتابعة فهي متابعتك لله تعالى، وكن في حوائج المسلمين بحسب الاجتهاد.

رسـالة لأحد الإخوان

وقد كتبت لأحد الإخوان ممن كان له تصريف في الوجود في ذلك:

يا أيها الأخ، إذا كان الله تعالى هو الفعال والأيادي ظروف وخزائن لمجاري الأقدار والإرادة يخص بالسعادة من يجري الخير على يديه وبالشقاوة من يجري الشر على يديه، فلذلك قوي الرجاء أن يكون من أهل السعادة لجريان الخير على يديك، وسواء في ذلك قدرت عليه أم لم تقدر عليه، بل جرّد في ذلك النية الصادقة بالقلب والاجتهاد واللسان والجوارح، فإذا أصبت قضاء الحاجة فذلك نعمة من الله عليك بها ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا**﴾[النحل:١٨] وإن لم تصب قضاء الحاجة فتلك مثوبة لك عند الله تعالى بحسب صدقك ونيتك واجتهادك وإدخالك السرور على قلوب المسلمين ونفي الضرر عنهم ما لا تخالف شرعًا لله تعالى، والله تعالى يؤيدك في حركاتك وسكناتك والسلام.

ولما توجه فقير لقضاء حوائج إخوانه الفقراء كتبت له هذه الوصية:

وصيّـة.. وختـام

الحمد لله.. وبالله نحمد الله.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أيها الأخ، بل الولد الساعي في إعانة إخوانه على توجههم إلى الله تعالى وصفاء سرائرهم مع الله، وعمارة بيوت الله، وتعظيم شعائر الله، واستدامة دين الله، وإعلاء كلمة الله، اجعل الحق وجهة قلبك، واترك ما سوى الله خلف ظهرك، والشريعة عن يمينك، والحقيقة عن يسارك، والتجريد ظاهرك، والتوحيد باطنك، والخشوع شعارك، والخضوع دثارك، والذل أنيسك، والحق تعالى جليسك، وإحاطة الله على جملتك.

قل بالله، وصلّ به على المخالف، وأقدم به على المخاوف، واقطع قاطع طريقك بقطع ما سوى الله من قلبك، وتزوّد بالتقوى في سفرك تكن قويًّا بالله في سفرك وحضرك، وإن نزغ لك شيطان أو سطا عليك سلطان فتعوّذ بالله من الشيطان واستعن

بالله على السلطان، وقل بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله.

إذا اشتد عليك أمر أو ضاق بك حال فالبس جلباب الصبر وشد عزيمة العزم وتحقق إنجاز الوعد، وتلق من فضل الله تعالى مقام الحب، فإن الله يحب الصابرين ﴿ **وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِين** ﴾ [النحل:١٢٦].

وإن وقع البلاء واشتد الامتحان فلا يلحقك، وهن ولا يرهقك ضعف، ولا يوقفك سكون.

وليكن جهدك في ذلك أشد جهدك قبل ذلك، فإن ذلك الاختبار من علامات الأبرار وما يصبر عليها إلا خاصة الأخيار وكل مجتبى مختار وانظر إلى قوله تعالى: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**﴾ [آل عمران:١٤٦].

إذا بغى عليك عدو فأبشر بالظفر والنصر عليه، ومن بغي عليه لينصرنه الله، لا تنظر إلى كثرة أعدائك في الله، فإن الذي أوجدهم قادر على أن يهديهم سالم السلامة لسلامة دينك ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**﴾ [الأنفال:٦١].

وإن نقضوا عهدك ومكروا بك في وعدك فاعتصم بالله ﴿**وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾ [الأنفال:٣٠].

فإن كثر الجمع عليك فقل حسبي الله، فإن قاتلك قاتل والحق معك فالغلبة لك فـ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّه وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة:٢٤٩]. ﴿**وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ**﴾ [الإسراء:٣٩].

إذا رأيت الخير جرى على يد شخص فاعلم أن الله هو الذي أجراه، وذلك الرجل مشكور على فعله عند الله فاشكره على ذلك.

وإذا رأيت الشر قد أجري على يد إنسان أو لسانه فاعلم أن الله قدره عليه فاستعذ بالله منه وابعد كيف ما قدرت عنه، فإن الله تعالى أجراه على يده ولسانه لتقوم

الحجة عليه وهو مذموم عند الله تعالى.

وانظر إلى قول رسول الله ﷺ فيما أخبر به عن ربه في آخر الحديث: فطوبى لمن خلقته للخير وأجريته على يديه، وويل لمن خلقته للشر وأجريته على يديه، وويل ثم ويل لمن قال لم أو كيف، لا تخش من كثرة الأوهام أو كثرة الأفكار؛ فإن صورة الخيال لا مقام لها في مقام المقام، إذا كثرت الأقوال بكل مقال.

وإذا قال الناس: إن الناس قد جمعوا لك، فليقوِ بذلك يقينك وليزددْ به إيمانك وقل كما قال المؤمنون من قبلك: حسبي الله ونعم الوكيل لتنقلب بالنعمة والفضل ولا يمسسك السوء وتتبع رضوان الله ﴿**وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**﴾.

صحح نيتك مع الله ونصيحتك لخلق الله تعالى، ولا تطلب مصلحتك بفساد غيرك فيرجع الفساد عليك.

وإذا طولبت بالنصيحة فلا تمنعها مستحقها ولا تعطها لمن لا يستحقها فتضيع حقها، إخوانك إن سبقوك أو لحقوك فكن بهم حفيًّا وعليهم رضيًّا، تجاوز عن فلتات ألسنتهم وسقطات أنفسهم وحركات طباعهم.

وحضُّهم على الخير وأخذ الخير عنهم ولا تنظر نفسك متميزًا عليهم، فإن الله تعالى يكره أن يرى الرجل نفسه متميزًا بين أصحابه، إن لم يوافقوك على حقوقك فوافقهم على حقوقهم، فالحق واحد وإن اختلفت وجوهه.

كونوا قلبًا واحدًا وإن كثرت أعداد الأجسام، فاستعينوا بالله، واصبروا مع الله، وسددوا في دين الله، وتوكلوا على الله، والوصية بامتثال أمر الله واجتناب نهي الله، وترك ما أبغض الله وهذه الدنيا ولواحقها.

وهذه وصيتي إليك ولهم، والله خليفتي عليك وعليهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

خاتمة كتاب الوحيد

تم الكتاب بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه

والله تعالى هو المسئول ومنه المسامحة من الطغيان في العبارة والبيان والزيادة والنقصان، وما خالف به القلب واللسان، ومن طغيان العلم والجنان، ومن زلة الأقدام ووقوع الآثام.

وأن نجعل ذلك لوجهه الكريم، ومسلكًا قويمًا إلى صراط مستقيم، وورود جنات النعيم إنه أكرم الأكرمين، والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم أجمعين..

وحسبنا الله ونعم الوكيل

خاتمة النسخة

وكان الفراغ من نسخه يوم الأربعاء المبارك ثاني عشر شهر ربيع الثاني من شهور عام سنة أربعة وثمانين وألف ١٠٨٤ من الهجرة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام.

ونقل من نسخة تاريخها: في شهر شعبان المكرم، سنة أربع وسبعين وسبعمائة ٧٧٤ هـ.

وبهامشها: أصلحنا ما كان ناقصًا منه بالتمام وذلك في شهر شوال سنة ١١٥١ هـ

كاتبه الفقير أحمد الجندي البُوشي الشافعي عفا الله عنه .. آمين.